قصص الصحابة في عهد النبوة



محمد صالح المنجد

العبيكان
Obeikan
|
زاد مجموعة
Zad Group

عنوان الكتاب:
قصص الصحابة في عهد النبوة
المؤلف: محمد صالح المنجد
عدد الصفحات: ٧٧٦
مقاس الكتاب: ١٧*٢٥سم
موضوع الكتاب: قصص تاريخية

ISBN: 978-623-09-7457-1
© SAHL-2024

الطبعة الأولى
١٤٤٥هـ/٢٠٢٤م

جميع الحقوق محفوظة

نشر زاد مجموعة زاد ZAD GROUP
www.zadgroup.net
المملكة العربية السعودية - جدة
حي الشاطئ - بيوتات الأعمال - مكتب ١٦
موبايل: ٦٤٣٢ ٤٤٤ ٥٠ ٩٦٦+، هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢ ١٢ ٩٦٦+، ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢
بالتعاقد مع: شركة سهل

توزيع العبيكان Obeikan
المملكة العربية السعودية - الرياض، طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة
هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+، ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧




بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

كلمة الناشر ٦

مقدمة ٧

الصاحب في الهجرة ٢٥

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٧١

الخصومة بين العمرين ١٥٣

صاحب القبر المنفرد ١٧٩

ضيوف الصديق ٢٠٩

الزوجة الوفية ٢٣٩

الأسير الذي أسلم ٢٧٩

الذي قدم الضيف على أطفاله ٣٠٧

بستان أبي طلحة ٣٣٣

القارئ الصغير ٣٦٣

وليمة سمكٍ ٣٩١

وليمة أهل الخندق ٤٢١

المقداد والأعنز ٤٥٩

الواهبة نفسها للنبي ﷺ ٤٩٧

المرأة البحرية ٥٣٥

بركة المرأة التي أسلمت ٥٦٥

زيد بن عمرٍو موحدٌ في الجاهلية ٦١٥

مقتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه ٦٥٣

مقتل خبيب بْنِ عديٍّ رضي الله عنه ٦٩٣

مقتل سلام بن أبي الحُقيقِ ٧٤٥

كلمة الناشر

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فإنَّ صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم أبرُّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقُها علمًا، وأقلُّها تكلُّفًا، وأكملهم فطرةً، وأتمُّهم إدراكًا، وأصفاهم أذهانًا، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه، وفضلَّهم على سائر من جاء بعدهم.

وفي هذا الكتاب مجموعةٌ لطيفةٌ من قصص أفذاذ الصَّحابة ممَّا وقع لهم في العهد النبوي، وأصل المادة العلمية لهذا الكتاب محاضراتٌ أُلقيت في بعض مساجد المملكة قبل نحو من عشرين عامًا، وكانت بعناوين: الصاحب في الهجرة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والخصومة بين العمرين، وصاحب القبر المنفرد، وضيوف الصِّدِّيق، والزوجة الوفية، والأسير الذي أسلم، والذي قدم الضيف على أطفاله، وبستان أبي طلحة، والقارئ الصغير، ووليمة سمك، والواهبة نفسها، والمرأة البحرية، وبركة المرأة التي أسلمت، وموحد في الجاهلية، ومقتل حمزة، ومقتل خُبيب، ومقتل سلام بن أبي الحقيق.

وقد قام فريقٌ علميٌّ من الباحثين بجمعها وتنسيقها والتَّرتيب بينها، مع إعادة صياغتها وتحريرها وتوثيقها، وإضافة بعض مثيلاتها لها؛ لتخرج بأجمل صورة وأبهى حلَّة.

وها نحن اليوم نقدمها لعموم القراء رجاءَ أن يعمَّ النَّفع بها، ونسأل الله التَّوفيق والسَّداد والقَبول.

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريكَ لهُ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلّم تسليمًا، أما بعد:

اعلَم -هَدانا اللهُ وإيَّاكَ- أنَّ الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هُم أفضلُ البَشَرِ بعدَ الأنبياءِ والمرسَلينَ صلى الله عليهم وسلّم، قومٌ صَحِبوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصَلَّوا خلفَه، وجاهَدوا معَه، وأطاعوا أمرَه في العُسرِ واليسرِ، والمَنشَطِ والمكسَلِ.

فتَحَ اللهُ بهم البلادَ، وبَصَّرَ بهِم قلوبَ العِبادِ، فنَشَروا العلمَ والدِّينَ، ومَصَّروا الأمصارَ، وعَرَفَ الناسُ بهِمُ الحَلالَ والحَرامَ، وما أوجَب اللهُ وفرَضَ عليهم، وما سَنّ لهُم رسولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال اللهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال ابنُ الجَوزيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الوَصفُ لجميعِ الصحابَةِ عِندَ الجُمهورِ»[١].

وقال أبو صَخرٍ حُمَيدُ بن زيادٍ: قُلتُ لمُحمّد بن كعبٍ القُرَظيِّ يومًا: ألا تُخبرُني عن أصحاب رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما كان من رأيِهم؟ فقال: «إنّ اللهَ قد غفرَ لجَميعِ أصحاب النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأوجَبَ لهُمُ الجنة في كتابه، مُحسِنهم ومُسيئِهم».

---

(١) زاد المسير (٤/ ١٣٨).

قلتُ: في أيِّ مَوضِع أوجَبَ اللهُ لهُمُ الجنةَ في كتابه؟ فقال: «سُبحانَ اللهِ! ألا تقرأ قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فأوجَبَ اللهُ لجميعِ أصحاب النبيِّ ﷺ الجنةَ والرِّضوانَ، وشرَطَ على التابعينَ شرطًا لم يشرطهُ عليهم».

قلتُ: وما اشترَطَ عليهم؟ قال: «اشترَط عليهم أن يتَّبعوهُم بإحسانٍ، يقول: يقتَدون بأعمالِهم الحسنة ولا يقتَدون بهِم في غيرِ ذلك».

قال أبو صَخرٍ: فواللهِ لكأَنِّي لم أقرَأها قَطُّ، وما عرفتُ تفسيرَها حتى قرأَها عليَّ محمَّدُ بن كَعبٍ[١].

وقال ابنُ بَطَّة العكبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويُشهَدُ لِجَميعِ المهاجِرينَ والأَنصارِ بالجنةِ والرِّضوانِ والتوبَةِ والرحمَةِ من اللهِ، ويَستقِرُّ عِلمُكَ وتوقِنُ بقَلبكَ أَنَّ رجلاً رَأى النبيَّ ﷺ وشاهَدَهُ وآمَنَ بهِ واتَّبَعَهُ -ولَو ساعَةً من نَهارٍ- أَفضَلُ مِمَّن لَم يَرَهُ ولَم يُشاهِدهُ، ولو أَتى بأَعمالِ أهلِ الجنةِ أَجمَعينَ»[٢].

عن أَبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَصحابي، فلَو أَنَّ أَحَدَكُم أَنفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بلغَ مُدَّ أَحَدِهِم، ولا نَصيفَهُ**»[٣].

قال النوَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال أَهلُ اللُّغَةِ: النصيفُ النِّصفُ، وفيه أَربَعُ لُغاتٍ: «نِصف» بكَسرِ النُّونِ، و«نُصف» بضَمِّها، و«نَصف» بفَتحِها، و«نَصيفٌ» بزيادَةِ الياءِ، حَكاهُنَّ القاضي عياضٌ في المَشارِقِ عَنِ الخَطَّابيِّ، ومَعناهُ: لَو أَنفَقَ أَحَدُكُم مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بلغَ ثَوابُهُ في ذلك ثَوابَ نَفَقَةِ أَحَدِ أَصحابي، مُدًّا ولا نِصفَ مُدٍّ.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٥/ ١٤٧)، تفسير البغوي (٤/ ٨٨).

(٢) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة (ص٢٤٤).

(٣) رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

قال القاضي: ويُؤَيِّدُ هذا: ما قدَّمناهُ في أوَّلِ باب فضائِلِ الصحابَةَ عَنِ الجُمهورِ من تَفضيلِ الصحابَةِ كُلِّهِم على جَميعِ مَن بعدَهُم، وسَبَبُ تَفضيلِ نَفَقَتِهِم: أنَّها كانت في وقتِ الضَّرورَةِ وضيقِ الحالِ، بخِلافِ غيرِهِم، ولِأَنَّ إنفاقَهُم كان في نُصرَتِهِ ﷺ وحِمايَتِهِ، وذلك مَعدومٌ بعدَهُ، وكذا جِهادُهُم وسائِرُ طاعَتِهِم، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

هذا كُلُّهُ مع ما كان في أَنفُسِهِم منَ الشَّفَقَةِ، والتوَدُّدِ، والخُشوعِ، والتواضُعِ، والإيثارِ، والجِهادِ في اللهِ حقَّ جِهادِهِ، وفَضيلَةُ الصحبَةِ -ولَو لَحظَةً- لا يوازيها عَمَلٌ، ولا تُنالُ دَرَجَتُها بشيءٍ، والفَضائِلُ لا تُؤخَذُ بقياسٍ، ذلك فضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ»[(١)].

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذَهَبَ مُعظَمُ العُلَماءِ إلى أَنَّ مَن صَحِبَ النبيَّ ﷺ مَرَّةً من عُمرِهِ وحَصَلَت له مَزيَّةُ الصحبَةِ أفضَلُ من كُلِّ مَن يَأتي بعدَهُ؛ فإنَّ فضيلَةَ الصحبَةِ لا يَعدِلُها عَمَلٌ، قالوا: وذلك فضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ، واحتَجُّوا بقَولِهِ ﷺ: «**لَو أَنفَقَ أَحَدُكُم مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بلغَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصيفَهُ**»[(٢)].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي ذَهَبَ إليه الجُمهورُ: أَنَّ فضيلَةَ الصحبَةِ لا يَعدِلُها عَمَلٌ؛ لمشاهدةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وأَمَّا مَنِ اتَّفَقَ له الذَّبُّ عنه، والسبقُ إليه بالهِجرَةِ أوِ النُّصرَةِ، وضَبط الشَّرعِ المتَلَقَّى عنه، وتَبليغه لِمَن بعدَهُ، فإنَّهُ لا يَعدِلُهُ أَحَدٌ مِمَّن يَأتي بعدَهُ؛ لِأَنَّهُ ما من خَصلَةٍ منَ الخِصالِ المَذكورَةِ إلا وللذي سَبَقَ بها مِثلُ أَجرِ مَن عَمِلَ بها من بعدِهِ، فظَهَرَ فضلُهُم»[(٣)].

وعن عبدِ اللهِ بن مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال**: «إنَّ اللهَ نَظَرَ في قُلوبِ العِبادِ، فوَجَدَ قَلبَ محمدٍ ﷺ خيرَ قُلوبِ العِبادِ، فاصطَفاهُ لِنَفسِهِ، فابتَعَثَهُ بِرِسالَتِهِ، ثم نَظَرَ في قُلوبِ العِبادِ

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٩٣).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢/ ٤٩)، وينظر: شرح النووي على مسلم (٣/ ١٣٩).

(٣) فتح الباري (٧/ ٧).

بعدَ قَلب محمدٍ، فوَجَدَ قُلوبَ أَصحابِهِ خَيرَ قُلوب العِبادِ، فجَعَلهم وُزَراءَ نبيِّهِ، يُقاتِلونَ على دينِهِ»[١].

وقال اللهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسيرِه:** حَدَّثَنا عَليُّ بن سَهلٍ، قال: ثنا الوَليدُ بن مسلمٍ، قال: قُلتُ لِعبدِ اللهِ بن المبارَكِ: أَرَأَيتَ قَولَ اللهِ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، مَن هَؤُلاءِ؟ فحَدَّثَني عن سُفيانَ الثَّوريِّ، قال: «هُم أَصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٢].

قال ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ هذه الآيةِ: «يقولُ تعالى آمِرًا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن يقولَ: «الحَمدُ للهِ»، أَي: على نِعَمِهِ على عِبادِهِ منَ النِّعَمِ التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وعلى ما اتَّصَفَ بِهِ منَ الصفاتِ العلى والأَسماءِ الحُسنى، وأَن يُسَلِّمَ على عِبادِ اللهِ الذينَ اصطَفاهُم واختارَهُم، وهُم رُسُلُهُ وأَنبياؤُهُ الكِرامُ، عليهم من الله أفضلُ الصلاةِ والسّلام.

وهَكذا قال عبدُ الرحمَنِ بن زَيدِ بن أَسلَمَ، وغيرُهُ: إنَّ المرادَ بعِبادِهِ الذينَ اصطَفى: هُمُ الأَنبياءُ.

قال: وهو كَقَولِه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

وقال الثَّوريُّ والسُّدِّيُّ: «هُم أَصحاب محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضيَ عنهم أَجمَعينَ».

ورويَ نَحوُهُ عَنِ ابنِ عباسٍ أيضا، ولا مُنافاةَ؛ فإنَّهُم إذا كانوا من عِبادِ اللهِ الذينَ اصطَفى، فالأَنبياءُ بطَريقِ الأولى والأَحرى»[٣].

وعن نُسَيرِ بن ذُعلوقٍ، قال: كان ابنُ عمرَ يقولُ: «لا تَسُبُّوا أَصحابَ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمُقامُ أَحَدِهِم ساعَةً خَيرٌ من عَمَلِ أَحَدِكُم عُمُرَهُ»[٤].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣٦٠٠)، وحسنه محققو المسند.

(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٩٩)، وإسناده صحيح.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ١٨١).

(٤) رواه ابن ماجه (١٦٢)، وحسنه الألباني.

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد كان تعظيمُ الصحابَةِ -ولو كان اجتماعُهم به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قليلًا- مُقَرَّرًا عندَ الخُلفاءِ الراشدينَ وغيرِهم، فمن ذلك ما قرأتُ في كِتاب «أخبار الخَوارجِ» تأليف مُحمّد بن قُدامَة المَروَزيُّ، بخطِّ بعضِ مَن سمِعَه منه في سنةِ سبعٍ وأربعينَ ومئتَين، قال: حدّثنا علي بن الجعد، حدَّثنا زُهَير -هو الجعفِيّ-، عَنِ الأسودِ بن قيسٍ، عن نُبَيحٍ العَنَزيِّ، قال: كنتُ عند أبي سعيدٍ الخُدريّ وهو متّكِئٌ، فذكرنا عليًّا ومُعاويةَ، فتناوَلَ رجُلٌ مُعاويةَ، فاستوى أبو سعيدٍ الخُدريّ جالسًا، ثمّ قال: كُنَّا ننزِلُ رفاقًا مع رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكنَّا في رفقةٍ فيها أبو بكرٍ، فنزلنا على أهلِ أبياتٍ، وفيهم امرأةٌ حُبلى، ومعنا رجُلٌ من أهلِ البادية، فقال للمرأةِ الحامِلِ: أيَسُرُّك أن تلِدي غُلامًا؟ قالت: نَعَم، قال: إن أعطَيتِني شاةً ولَدتِ غُلامًا.

فأعطَته، فسَجَعَ لها أسجاعًا، ثم عمدَ إلى الشاةِ فذبَحَها وطَبَخَها، وجلَسنا نأكُل منها، ومعنا أبو بكرٍ، فلما علِمَ بالقصَّة قامَ فتَقَيّأ كلَّ شيءٍ أكَلَ.

قال: ثمَّ رأيتُ ذلك البدويّ أُتِيَ به عمرُ بن الخطَّاب، وقد هجا الأنصارَ، فقال لهُم عمرُ: «لولا أنَّ له صُحبَةً من رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أدري ما نالَ فيها لكفَيتُكُموهُ، ولَكن له صحبَةٌ من رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

ورِجال هذا الحديثِ ثِقاتٌ، وقد توَقَّف عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن مُعاتَبَتِه فضلًا عن مُعاقَبَتِه؛ لكَونِه عَلِمَ أنّه لقيَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي ذلك أَبيَنُ شاهدٍ على أنَّهم كانوا يعتقِدون أنّ شأنَ الصحبَةِ لا يَعدِلُه شيءٌ»[2].

وعن رياح بن الحارِثِ، قال: كُنتُ قاعِدًا عِندَ فُلانٍ في مسجدِ الكوفَةِ وعِندَهُ أَهلُ الكوفَةِ، فجاءَ سَعيدُ بن زَيدِ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ، فرَحَّبَ بهِ وحَيَّاهُ وأَقعَدَهُ عِندَ رِجلِهِ على السريرِ، فجاءَ رجلٌ من أَهلِ الكوفَةِ، يُقالُ له قَيسُ بن عَلقَمَةَ فاستَقبَله فسَبَّ وسَبَّ، فقال سَعيدٌ: مَن يَسُبُّ هذا الرجُلُ؟ قال: يَسُبُّ عَليًّا، قال أَلا أَرى أَصحابَ رسولِ اللهِ

(١) رواه ابن الجعد في مسنده (٢٦٥٧)، وابن عساكر في تاريخه (٥٩/ ٢٠٥).
(٢) الإصابة (١/ ١٦٤-١٦٥).

ﷺ يُسَبُّونَ عِندَكَ ثم لا تُنكِرُ، ولا تُغَيِّرُ! أنا سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ -وإنِّي لَغَنيٌّ أن أقولَ عليه ما لَم يَقُل، فيَسأَلَني عنه غَدًا إذا لَقيتُهُ-: «**أبو بكرٍ في الجنةِ، وعمرُ في الجنةِ...**»، الحديث، ثم قال: «لَمَشهَدُ رجلٍ منهم مع رسولِ اللهِ ﷺ يَغبَرُّ فيه وجهُهُ، خَيرٌ من عَمَلِ أَحَدِكُم عُمُرَهُ، ولو عُمِّرَ عُمُرَ نوحٍ عليه السلام»[١].

وقال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رحمه الله: «ومَن نَظَرَ في سيرَةِ القَومِ بعِلمٍ وبَصيرَةٍ، وما مَنَّ اللهُ بهِ عليهم من الفَضائِلِ، عَلِمَ يَقينًا أَنَّهُم خَيرُ الخَلقِ بعدَ الأَنبياءِ، لا كان ولا يكونُ مِثلُهُم، وأَنَّهُم هُمُ الصفوَةُ من قُرونِ هذه الأُمَّةِ، التي هي خَيرُ الأُمَمِ، وأَكرَمُها على اللهِ تعالى»[٢].

وقال محمدُ بن عبدِ اللهِ بن عَمَّارٍ المَوصِليُّ وغيرُهُ: سُئِلَ المعافى بن عِمرانَ: أَيُّهما أَفضَلُ: مُعاويَةُ أَم عمرُ بن عبدِ العَزيزِ؟ فغَضِبَ وقال للسَّائِلِ: «تَجعَلُ رجلًا منَ الصحابَةِ مِثلَ رجلٍ منَ التابعينِ؟!»[٣].

وقال الخطيبُ البغداديُّ رحمه الله: «والأَخبارُ في هذا المعنى تَتَّسِعُ، وكُلُّها مُطابقَةٌ لِما ورَدَ في نَصِّ القُرآنِ، وجَميعُ ذلك يَقتَضي طَهارَةَ الصحابَةِ، والقَطعَ على تَعديلِهِم ونَزاهَتِهِم، فلا يَحتاجُ أَحَدٌ منهم مع تَعديلِ اللهِ تعالى لهمُ المطَّلِعِ على بَواطِنِهِم إلى تَعديلِ أَحَدٍ منَ الخَلقِ لهم، فهُم على هذه الصفَةِ إلا أَن يَثبُتَ على أَحَدِهِم ارتِكابُ ما لا يَحتَمِلُ إلا قَصدَ المَعصيَةِ، والخُروج من باب التأويلِ، فيُحكَمُ بسُقوطِ عَدالَتِهِ، وقد بَرَّأَهُمُ اللهُ تعالى من ذلك، ورَفَعَ أَقدارَهُم عنه.

على أَنَّهُ لَو لَم يَرِد منَ اللهِ عزوجل ورسولِهِ فيهم شيءٌ مِمَّا ذكرناهُ لَأَوجَبَتِ الحالُ التي كانوا عليها، منَ الهِجرَةِ، والجِهادِ، والنُّصرَةِ، وبَذلِ المهَجِ والأَموالِ، وقَتلِ الآباءِ والأَولادِ، والمناصَحَةِ في الدِّينِ، وقوَّةِ الإيمانِ واليَقينِ: القَطعَ على عَدالَتِهِم، والاِعتِقادَ لِنَزاهَتِهِم، وأَنَّهُم أَفضَلُ من جَميعِ المعَدَّلينَ والمزَكَّينَ، الذينَ يَجيؤونَ من بعدِهِم أَبَدَ الآبدينَ، هذا مَذهَبُ كافَّةِ العُلَماءِ»[٤].

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٥٠)، وأحمد (١٦٢٩)، وصححه محققو المسند.

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٦).

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٠).

(٤) الكفاية في علم الرواية (ص٤٨).

ومن جُملَة فضائِلِهم، وبرَكة أيَّامِهم:

*** أن الواحدَ منهم قد يقَعُ منه الذَّنبُ، فيتوبُ منه، فينفَتِح به من أبواب التّشريعِ بابٌ من أبواب الرَّحمَةِ والمَغفرةِ للأُمَّة بأسرِها:**

فعَنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رجلًا أَصابَ مِنَ امرَأَةٍ قُبلَةً، فأَتى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأَخبَرَهُ، فأَنزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، فقال الرجُلُ: يا رسولَ اللهِ أَلي هذا؟ قال: «**لِجَميعِ أُمَّتي كُلِّهِم**»[١].

وعن عبدِ اللهِ بن بُرَيدَةَ، عن أَبيهِ، أَنَّ ماعِزَ بن مالِكٍ الأَسلَميَّ أَتى رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إِنِّي قد ظَلَمتُ نَفسي، وزَنَيتُ، وإِنِّي أُريدُ أَن تُطَهِّرَني... الحديث، وفيه:

قال، فجاءَتِ الغامِدِيَّةُ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، إِنِّي قد زَنَيتُ فطَهِّرني، وإِنَّهُ رَدَّها، فلما كان الغَدُ، قالت: يا رسولَ اللهِ، لِمَ تَرُدُّني؟ لَعَلَّكَ أَن تَرُدَّني كَما رَدَدتَ ماعِزًا، فواللهِ إِنِّي لَحُبلى، قال: «**إِمَّا لا، فاذهَبي حتى تَلِدي**».

فلما ولَدَت أَتَتهُ بالصبيِّ في خِرقَةٍ، قالت: هذا قد ولَدتُهُ، قال: «**اذهَبي فأَرضِعيهِ حتى تَفطِميهِ**».

فلما فطَمَتهُ أَتَتهُ بالصبيِّ في يَدِهِ كِسرَةُ خُبزٍ، فقالت: هذا يا نبيَّ اللهِ قد فطَمتُهُ، وقد أَكَلَ الطعامَ، فدَفَعَ الصبيَّ إِلى رجلٍ منَ المسلمينَ، ثم أَمَرَ بها فحُفِرَ لها إِلى صَدرِها، وأَمَرَ الناسَ فرَجَموها، فيُقبلُ خالِدُ بن الوَليدِ بحَجَرٍ، فرَمى رَأسَها، فتَنَضَّحَ الدَّمُ على وجهِ خالِدٍ، فسَبَّها، فسَمِعَ نبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّهُ إِيَّاها، فقال: «**مَهلًا يا خالِدُ، فوالذي نَفسي بيَدِهِ لَقد تابَت تَوبَةً لَو تابَها صاحِبُ مَكسٍ**[٢] **لَغُفِرَ له**».

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣).

(٢) هو من يتولى الضرائب التي تؤخذ من الناس بغير حق.

ثم أَمَرَ بها فصُلِّيَ عليها، ودُفِنَت[١].

فَعَلِمَ المذنبونَ وأصحابُ الكبائرِ أَنَّهُ لا يَيأسُ أحدٌ من رَحمَةِ اللهِ، وأنَّ مَن تابَ تابَ اللهُ عليه، ومَن رَجعَ إلى اللهِ تَلقَّاهُ برحمتِهِ، مَهما عَظُمَ ذَنبُه.

* **ومن جُملَة فضائِلِهم**: أنهُم كُلَّهُم عُدولٌ، لا يَجوزُ القدحُ في عدالةِ واحدٍ مِنهُم، وهذا لا يَصفو لِجيلٍ من أجيالِ الأمَمِ على مَرِّ الزمانِ وتَوالي الدُّهورِ.

فَرُبّما رَوى التابعيُّ الثّقةُ حديثًا، فيقولُ: «عن رجلٍ من أَصحاب النبيِّ ﷺ»، أو يقولُ: «عن رجلٍ صحبَ النبيَّ ﷺ»، أو: «عمّن سمعَ النبيَّ ﷺ»، ونحوَ ذلك، فلا يُسمِّي الصحابيَّ، فلا يُعرفُ مَن هوَ، ولا مَن أبوهُ، ويبقى مَجهولًا إلى يومِ الدِّينِ، ومع ذلك يُحكمُ لِحديثِه بالصحَّةِ؛ إذ لا تَضرُّ جَهالَةُ الصحابيِّ؛ لأنَّهم كلَّهم عُدولٌ حَفَظَةٌ.

قال الخَطيبُ البَغداديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ ما جاءَ في تَعديلِ اللهِ ورسولِهِ للصَّحابَةِ، وأَنَّهُ لا يُحتاجُ للسُّؤالِ عنهم، وإنَّما يَجِبُ ذلك فيمَن دونَهُم، فكُلُّ حَديثٍ اتَّصَلَ إسنادُهُ بينَ مَن رواهُ وبينَ النبيِّ ﷺ، لَم يَلزَمِ العَمَلُ بهِ، إلا بعدَ ثُبوتِ عَدالَةِ رِجالِهِ، ويَجِبُ النظَرُ في أَحوالِهم، سِوى الصحابيِّ الذي رَفَعَهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ؛ لِأَنَّ عَدالَةَ الصحابَةِ ثابتَةٌ مَعلومَةٌ بتَعديلِ اللهِ لهم، وإخبارِهِ عن طَهارَتِهم، واختيارِهِ لهم في نَصِّ القُرآنِ»[٢].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتفقَ المحدِّثونَ على أنّ مُرسَلَ الصحابيِّ في حُكمِ المَوصولِ»[٣].

وقال أيضًا: «اتّفقَ الأئمةُ قاطبةً على قَبولِ ذلك -يَعني: مَراسيل الصحابةِ- إلا مَن شَذَّ مِمّن تَأخرَ عَصرُه عنهُم، فلا يُعتَدُّ بمخالفَتِه»[٤].

---

(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. الحديث رواه مسلم (١٦٩٥).

(٢) الكفاية في علم الرواية (ص٤٦).

(٣) هدي الساري (ص٣٥٠).

(٤) المصدر السابق (ص٣٧٨).

وقال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مُرسلُ الصحابيِّ محكومٌ بصحَّتِه، على المَذهب الصحيحِ»[١].

وعَلَّق عليه السِّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قائِلًا**: «محكومٌ بصِحَّتِهِ على المَذهَب الصحيحِ» الذي قَطَعَ بِهِ الجُمهورُ من أَصحابنا وغيرِهِم، وأَطبَقَ عليه المحَدِّثونَ المشترِطونَ للصَّحيحِ، القائِلونَ بضَعفِ المرسَلِ، وفي الصحيحَينِ من ذلك ما لا يُحصى؛ لِأَنَّ أَكثَرَ رواياتِهم عَنِ الصحابَةِ، وكُلُّهُم عُدولٌ، ورواياتُهُم عن غيرِهِم نادِرَةٌ، وإذا رَوَوها بَيَّنوها»[٢].

* **ورُبَّما كان بعضُهم من الأعراب الذين لا يفقَهون كثيرًا من أحكامِ الدِّينِ**، ورُبَّما كان لا يُحسِنُ الصلاةَ، فيقَعُ منه الشيءُ غيرُ الحَسَن مِمَّا يُعابُ به؛ لِقِلّة علمِه وفِقهه، فيُصيب اللهُ الأمَّةَ بذلك ما يشاءُ من رَحمتِه، ويتعَلّمون من أحكامِ الدِّين وفِقهِه ما يتعَلّمون.

فهذا أعرابيٌّ حضَر مجلِسَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصَلَّى بحَضرَتِه صَلاةً لم يُحسِن فيها، فقَصُّوا علينا أمرَه، فاستفَدنا حديثًا يُعَدُّ من أهَمّ الأحاديثِ الوارِدَة في كتاب الصلاةِ وأشهَرِها على الإطلاقِ، وهو حديثُ: «المسيء صَلاتَهُ»، الذي اهتَمَّ به العُلماءُ، وعُنوا بشَرحِه، واستخلاصِ أحكامِه وفوائِدِه، وأُفرِدَت لهُ التصانيفُ.

فعن أَبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ المسجدَ، فدَخَلَ رجلٌ فصَلَّى، فسَلَّمَ على النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرَدَّ وقال: «**ارجِع فصَلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**».

فرجعَ يُصَلِّي كَما صَلَّى، ثم جاءَ، فسَلَّمَ على النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ارجِع فصَلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، ثَلاثًا، فقال: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما أُحسِنُ غيرَهُ، فعَلِّمني، فقال: «**إذا قُمتَ إلى الصلاةِ فكَبِّر، ثم اقرَأ ما تَيَسَّرَ معكَ منَ القُرآنِ، ثم اركَع حتى تَطمَئِنَّ راكِعًا، ثم ارفَع حتى تَعدِلَ قائِمًا، ثم اسجُد حتى تَطمَئِنَّ ساجِدًا، ثم ارفَع حتى تَطمَئِنَّ جالِسًا، وافعَل ذلك في صَلاتِكَ كُلِّها**»[٣].

---

(١) التقريب (ص٣٥).

(٢) تدريب الراوي (١/ ٢٣٤).

(٣) رواه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧).

وعن رِفاعَةَ بن رافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَما هو جالِسٌ في المسجدِ يَومًا ونَحنُ معه، إذ جاءَهُ رجلٌ كالبَدَويِّ، فصَلَّى فأَخَفَّ صَلاتَهُ، ثمَّ انصَرَفَ، فسَلَّمَ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وعليكَ، فارجِع فصَلِّ فإنَّكَ لَم تُصَلِّ**».

فَفَعَلَ ذلك مَرَّتَينِ أو ثَلاثًا، ثمَّ قال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا قُمتَ إلى الصلاةِ فتَوَضَّأ كما أَمَرَكَ اللهُ، ثمَّ تَشَهَّد فأَقِم أيضًا، فإن كان معكَ قُرآنٌ فاقرَأ، وإلا فاحمَدِ اللهَ وكَبِّرهُ وهَلِّلهُ، ثمَّ اركَع فاطمَئِنَّ راكِعًا، ثمَّ اعتَدِل قائِمًا، ثمَّ اسجُد فاعتَدِل ساجدًا، ثمَّ اجلِس فاطمَئِنَّ جالِسًا، ثمَّ قُم، فإذا فعَلتَ ذلك فقد تَمَّت صَلاتُكَ، وإنِ انتَقَصتَ منه شَيئًا انتَقَصتَ من صَلاتِكَ**»[1].

* **ورُبَّما وقَعَ من بعضِهم ما لا يَحمَدُه الناسُ عليه، ورُبَّما عابوه به، فيَجعَل اللهُ فيه خيرًا كثيرًا:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: خرجنا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعضِ أَسفارِهِ، حتى إذا كُنَّا بالبَيداءِ -أو بذاتِ الجَيشِ-[2] انقَطَعَ عِقدٌ لي، فأَقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التِماسِهِ، وأَقامَ الناسُ معه، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فأَتى الناسُ إلى أَبي بكرٍ، فقالوا: أَلا تَرى إلى ما صَنَعَت عائشةُ؟ أَقامَت برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالناسِ معه، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ.

فَجاءَ أَبو بكرٍ، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضِعٌ رَأسَهُ على فخِذي قد نامَ، فقال: حَبَستِ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والناسَ وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ؟

قالت: فعاتَبَني أَبو بكرٍ، وقال ما شاءَ اللهُ أَن يقولَ، وجَعَلَ يَطعُنُ بيَدِهِ في خاصِرَتي، فلا يَمنَعُني منَ التحَرُّكِ إلا مَكانُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فخِذي.

فَنامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أَصبَحَ على غيرِ ماءٍ، فأَنزَلَ اللهُ آيَةَ التيمُّمِ فتَيَمَّموا، فقال أُسَيدُ بن الحُضَيرِ -وهو أَحَدُ النُّقَباءِ-: «**ما هي بأَوَّلِ بَرَكَتِكُم يا آلَ أَبي بكرٍ**».

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٢)، وحسنه، وصححه الألباني.

(٢) هما موضعان قريبان من المدينة.

فقالت عائشةُ: فبَعَثنا البَعيرَ الذي كُنتُ عليه، فوَجَدنا العِقدَ تَحتَهُ.

وفي روايةٍ: فقال أُسَيدُ بن حُضَيرٍ لِعائشةَ: «**جَزاكِ اللهُ خَيرًا، فواللهِ ما نزلَ بكِ أَمرٌ تَكرَهينَهُ إلا جَعَلَ اللهُ ذلك لَكِ وللمسلمينَ فيه خَيرًا**».

وفي روايةٍ: «**جَزاكِ اللهُ خَيرًا، فواللهِ ما نزلَ بكِ أَمرٌ قَطُّ، إلا جَعَلَ اللهُ لَكِ منه مَخرَجًا، وجَعَلَ للمسلمينَ فيه بَرَكَةً**»[١].

وفي روايةٍ: أَقبَلنا مع رسولِ اللهِ ﷺ في بعضِ أَسفارِهِ، حتى إذا كُنَّا ب «تُربانَ» -بَلَدٍ بينَهُ وبينَ المَدينَةِ بَريدٌ وأَميالٌ، وهو بَلَدٌ لا ماءَ بِهِ، وذلك منَ السحَرِ- انسَلَّت قِلادَةٌ لي من عُنُقي، فوَقَعَت، فحُبسَ رسولُ اللهِ ﷺ لِالتِماسِها حتى طَلَعَ الفَجرُ، وليس مع القَومِ ماءٌ، قالت: فلَقيتُ من أَبي ما اللهُ بِهِ عَليمٌ منَ التعنيفِ والتأفيفِ، وقال: «في كُلِّ سَفَرٍ للمسلمينَ منكِ عَناءٌ وبَلاءٌ!».

قالت: فأَنزَلَ اللهُ الرُّخصَةَ بالتيمُّمِ، فتيَمَّمَ القَومُ وصَلَّوا، قالت: يقولُ أَبي حينَ جاءَ منَ اللهِ ما جاءَ منَ الرُّخصَةِ للمسلمينَ: «واللهِ -ما عَلِمتُ يا بُنَيَّةُ- إنَّكِ لَمُبارَكَةٌ، ماذا جَعَلَ اللهُ للمسلمينَ في حَبسِكِ إيَّاهُم منَ البَرَكَةِ واليسرِ»[٢].

وأفادَ مجموعُ الرِّواياتِ الصحيحَةِ في الصحيحَين وغيرِهما: أنّ هذا العِقدَ كان لأسماءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، استَعارَته منها عائشةُ، وأنّه كان من جَزعِ ظَفار، يعني من خَرَز يَمَنيّ، و«ظَفارٌ»: مَدينَةٌ باليمن، وقد حَكى ابن التينِ أَنَّ قيمَتَهُ كانتِ اثنَي عَشَرَ دِرهَمًا[٣].

فاعجَب لخَرَزاتٍ رخيصةِ الثّمَن، ليست لها، انفرَطَت، فأعقَبَ ذلك تلكَ البرَكَةَ على الأُمَّةِ بأَسرِها.

وعن النُّعمانِ بن بَشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أَعطاني أَبي عَطيَّةً، فقالت أُمِّي عَمرَةُ بنتُ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤)، (٣٣٦)، (٣٧٧٣)، ومسلم (٣٦٧).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٦٣٤١)، وحسنه محققو المسند.

(٣) فتح الباري (٨/ ٤٥٩).

رَواحَةَ: لا أَرضى حتى تُشهِدَ رسولَ اللهِ ﷺ، فأَتى رسولَ اللهِ ﷺ، فقال: إنِّي أَعطَيتُ ابني من عَمرَةَ بنتِ رَواحَةَ عَطيَّةً، فأَمَرَتني أَن أُشهِدَكَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**أَعطَيتَ سائِرَ ولَدِكَ مِثلَ هذا؟**»، قال: لا، قال: «**فاتَّقوا اللهَ، واعدِلوا بينَ أولادِكُم**».

قال: فرجعَ، فرَدَّ عَطيَّتَهُ[1].

فتَأَمَّل كيفَ رغِبَت في أن توَثِّقَ العطيّة بأعظَمِ ميثاقٍ، وهو شهادةُ رسولِ اللهِ ﷺ، وأصَرَّت على ذلك، فضاعَ رجاؤُها، وذهَبَ إصرارُها ببُغيَتِها، واستفادَت الأُمَّةُ تشريعًا، يُحافِظ على بناءِ الأُسرةِ، ويمنعُ من وُقوعِ العَداوةِ والبغضاءِ والتحاسُد وقطيعةِ الرحِمِ بينَ الإخوَةِ.

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمرَ النبيُّ ﷺ بالتسويةِ بينَ الأولادِ في العَطيَّةِ، وأخبرَ أنَّ تخصيصَ بعضِهم بها جَورٌ لا يَصلُحُ، ولا تَنبَغي الشَّهادةُ عليه، وأمرَ فاعلَه بردِّه، ووعَظَه وأمَرَه بتقوى اللهِ تعالى، وأمرَه بالعَدلِ؛ لكَونِ ذلك ذريعةً ظاهرةً قريبةً جدًّا إلى وقوعِ العَداوةِ بينَ الأولادِ، وقطيعةِ الرحِمِ بينَهم، كما هو المشاهَدُ عيانًا.

فلو لم تَأتِ السُّنَّةُ الصحيحةُ الصريحةُ التي لا مُعارِضَ لها بالمنعِ منه[2]، لكان القياسُ وأصولُ الشَّريعةِ وما تضمَّنتهُ من المصالحِ ودَرءِ المفاسدِ يقتضي تحريمَه»[3].

* **ويأتي صاحبُ العُذرِ إلى رسولِ اللهِ** ﷺ؛ يَعتذرُ به، فيُعذَرُ، ويُعذَرُ كُلُّ مَن كان بمثلِ حالِه من الأمةِ بأسرها، ويُلحقُ صاحبُ العُذرِ بصاحب العَمَلِ إذا صَدقت نيّتُه، ويَنزِلُ في ذلك قُرآنٌ يُتلى إلى يَومِ الدِّينِ:

فعن زَيدِ بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنتُ إلى جَنب رسولِ اللهِ ﷺ، فغَشيَتهُ السكينَةُ، فوَقَعَت فخِذُ رسولِ اللهِ ﷺ على فخِذي، فما وجَدتُ ثِقلَ شيءٍ

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

(٢) أي: التفضيل بين الأولاد.

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦٥).

أَثقَلَ من فخِذِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم سُرِّيَ عنه، فقال: «**اكتُب**»، فكَتَبتُ في كَتِفٍ: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥] إلى آخِرِ الآيةِ.

فَقامَ ابنُ أُمِّ مَكتومٍ، وكان رجلًا أَعمى، لَمَّا سَمِعَ فضيلَةَ المجاهِدينَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، فكَيفَ بمَن لا يَستَطيعُ الجِهادَ منَ المؤمِنينَ؟ فلما قَضى كَلامَهُ غَشيَت رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السكينَةُ، فوَقَعَت فخِذُهُ على فخِذي، ووَجَدتُ من ثِقَلِها في المَرَّةِ الثَّانيَةِ، كَما وجَدتُ في المَرَّةِ الأولى، ثم سُرِّيَ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**اقرَأ يا زَيدُ**»، فقَرَأتُ: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾، الآيَةَ كُلَّها[1].

فأفادَ هذا الحَديثُ أنّ أولي الضَّرَرِ مُلحقونَ في الفَضلِ بأَهلِ الجِهادِ، إذا صَدَقَت نيَّاتُهُم، كَما في حَديثِ أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجعَ من غَزوَةِ تَبوكَ، فدَنا منَ المَدينَةِ، فقال: «**إنَّ بالمَدينَةِ أَقوامًا، ما سِرتُم مَسيرًا، ولا قَطَعتُم واديًا إلا كانوا معكُم**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وهُم بالمَدينَةِ؟ قال: «**وهُم بالمَدينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذرُ**»[2].

*** وتَأتي التي ظاهَرَ مِنها زَوجُها، وتَشكو إلى اللهِ أمرَها، فينزِلُ القرآنُ بشأنِها:**

عن عُروَةَ بن الزُّبَيرِ، قال: قالت عائشةُ: «تَبارَكَ الذي وسِعَ سَمعُهُ كُلَّ شيءٍ، إنِّي لَأَسمَعُ كَلامَ خَولَةَ بنتِ ثَعلَبَةَ، ويَخفى عَلَيَّ بعضه، وهي تَشتكي زَوجَها إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي تَقولُ: يا رسولَ اللهِ، أَكَلَ شَبابي، ونَثَرتُ له بَطني، حتى إذا كَبرَت سِنِّي، وانقَطَعَ ولَدي، ظاهَرَ مِنِّي، اللهُمَّ إنِّي أَشكو إليك.

فَما بَرِحَت حتى نزلَ جِبرائيلُ بهَؤُلاءِ الآياتِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]»[3].

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٠٧)، بتمامه، وهو في البخاري (٢٨٣٢)، بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٤٤٢٣).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٦٣)، وصححه الألباني.

وكان الظِّهارُ عِندَ الجاهِليَّةِ طَلاقًا، فأَرخَصَ اللهُ لِهذه الأُمَّةِ وجَعَلَ فيه كَفَّارَةً، ولَمْ يَجعَلهُ طَلاقًا كَما كانوا يَعتَمِدونَهُ في جاهِليَّتِهِم، هَكذا قال غيرُ واحدٍ منَ السلَفِ[1].

* **ويُبادرُ بعضُهم بالصدقةِ، فيُفتَحُ بابٌ من أعظمِ أبواب الفَضلِ والأجرِ على الأمّةِ كُلِّها:**

عن جريرِ بن عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا عِندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صَدرِ النهارِ، فجاءَهُ قَومٌ حُفاةٌ عُراةٌ مُجتابي النِّمارِ[2] أوِ العَباءِ، مُتَقَلِّدي السُّيوفِ، عامَّتُهُم من مُضَرَ، بَل كُلُّهُم من مُضَرَ، فتَمَعَّرَ[3] وجهُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِما رَأى بِهِم منَ الفاقَةِ، فدَخَلَ، ثم خرجَ، فأَمَرَ بلالًا فأَذَّنَ وأَقامَ، فصَلَّى، ثم خَطَبَ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]، إلى آخِرِ الآيةِ، والآيةَ التي في الحَشرِ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]، ثمّ قال: «**تَصَدَّقَ رجلٌ من دينارِهِ، من دِرهَمِهِ، من ثَوبِهِ، من صاعِ بُرِّهِ، من صاعِ تَمرِهِ** -حتى قال- **ولو بشِقِّ تَمرَةٍ**».

قال: فجاءَ رجلٌ منَ الأَنصارِ بصُرَّةٍ كادَت كَفُّهُ تَعجِزُ عنها، بَل قد عَجَزَت، ثم تَتابَعَ الناسُ، حتى رَأَيتُ كَومَينِ من طَعامٍ وثيابٍ، حتى رَأَيتُ وجهَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذهَبَةٌ[4]، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسنةً فله أَجرُها، وأَجرُ مَن عَمِلَ بها بعدَهُ، من غيرِ أَن يَنقُصَ من أُجورِهِم شيءٌ، ومَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كان عليه وِزرُها، ووِزرُ مَن عَمِلَ بها من بعدِهِ، من غيرِ أَن يَنقُصَ من أوزارِهِم شيءٌ**»[5].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٧).

(٢) «مجتابي النمار»، أي: لابسيها، يقال: اجتبت القميص والظلام، أي: دخلت فيهما، وكل شيء قطع وسطه فهو مجوب ومجوب، وبه سمي جيب القميص. و«النمار»: كل شملة مخططة من مآزر الأعراب فهي نمرة، وجمعها: نمار، كأنها أخذت من لون النمر؛ لما فيها من السواد والبياض، أراد أنه جاءه قوم لابسي أزر مخططة من صوف. النهاية (١/ ٣١٠)، (٥/ ١١٨).

(٣) أي: تغير.

(٤) يشير إلى لون الذهب وإشراقه، كأن المعنى: كأنه مرآة مذهبة: أي مطلية بالذهب. كشف المشكل (١/ ٤٣٤).

(٥) رواه مسلم (١٠١٧).

قال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان الفَضلُ العَظيمُ للبادِئ بهذا الخَيرِ، والفاتِحِ لِباب هذا الإحسانِ»[١].

* **ويَأتي بعضُهم بعضَ ما نَهى اللهُ عنهُ في رَمضانَ، فيَأتي رسولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تائبًا نادِمًا، فتنزِلُ الكَفَّارةُ، فيَجدُ كُلُّ مَن أصابَ هذا الذَّنبَ من هذه الأمَّةِ وتابَ فرَجًا منَ اللهِ ومَخرجًا:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: بينَما نَحنُ جُلوسٌ عِندَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ جاءَهُ رجلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ هَلَكتُ، قال: «**ما لك؟**»، قال: وقَعتُ على امرَأتي وأَنا صائِمٌ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَل تَجِدُ رَقَبَةً تُعتِقُها؟**»، قال: لا، قال: «**فهَل تَستَطيعُ أَن تَصومَ شَهرَينِ مُتَتابعَينِ؟**»، قال: لا، فقال: «**فهَل تَجِدُ إطعامَ سِتِّينَ مِسكينًا؟**»، قال: لا.

قال: فمَكَثَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبينا نَحنُ على ذلك أُتيَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعَرَقٍ فيها تَمرٌ - والعَرَقُ المِكتَلُ -، قال: «**أَينَ السائِلُ؟**»، فقال: أَنا، قال: «**خُذها، فتَصَدَّق بِهِ**»، فقال الرجُلُ: أَعلى أَفقَرَ مِنِّي يا رسولَ اللهِ؟ فواللهِ ما بينَ لابَتَيها -يُريدُ الحَرَّتَينِ-[٢] أَهلُ بَيتٍ أَفقَرُ من أَهلِ بَيتي.

فَضَحِكَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بَدَت أَنيابُهُ، ثم قال: «**أَطعِمهُ أَهلك**»[٣].

وفي روايةٍ: أَنَّ أَعرابيًّا جاءَ يَلطِمُ وجهَهُ، ويَنتِفُ شَعَرَهُ، ويقولُ: ما أُراني إلا قد هَلَكتُ، فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما أَهلكَكَ؟**»، قال: أَصَبتُ أَهلي في رَمَضانَ...، الحديث[٤].

وعن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: إنَّ رجلًا أَتى النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إنَّهُ احتَرَقَ، قال:

---

(١) شرح النووي على مسلم (٧/ ١٠٤).

(٢) مثنى حرة، وهي أرض ذات حجارة سوداء، والمدينة بين حرتين.

(٣) رواه البخاري (١٩٣٦)، ومسلم (١١١١).

(٤) رواه الإمام أحمد (١٠٦٨٨)، وصححه محققو المسند.

«**ما لك؟**»، قال: أَصَبتُ أَهلي في رَمَضانَ، فأُتيَ النبيُّ ﷺ بمِكتَلٍ يُدعى العَرَقَ، فقال: «**أَينَ المحترِقُ؟**»، قال: أَنا، قال: «**تَصَدَّق بهذا**»[1].

وعندَ مسلمٍ: أَتى رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ في المسجدِ في رَمَضانَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، احترَقتُ، احترَقتُ...، الحديث[2].

فَكُلُّ مَن جامع زَوجَتَه في نَهارِ رمضانَ ثمّ تابَ، تابَ اللهُ عليه، وعليه الكَفارةُ.

وهذا فرجٌ من اللهِ ومَخرجٌ، بَيَّنَهُ حَديثُ هذا الصحابيِّ رضي الله عنه.

والجماعُ أعظمُ المفطراتِ، وأكبرُها إثمًا.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

وذلك لَمَن أرادَ أن يذّكّر ويَعتَبر، ويعلَمَ منزِلَة القَومِ الصالِحين، وأنَّ اللهَ هداهُم واصطَفاهُم واجتَباهُم، وجعَلَهم رحمةً للناسِ، وحِرزًا لدينِه، وأمانًا للأُمَّةِ.

عن أَبي بُردَةَ، عن أَبيهِ، قال: صَلَّينا المَغرِبَ مع رسولِ اللهِ ﷺ، ثم قُلنا: لَو جَلَسنا حتى نُصَلِّيَ معه العِشاءَ، قال: فجَلَسنا، فخرجَ علينا، فقال: «**ما زِلتُم ها هُنا؟**» قُلنا: يا رسولَ اللهِ، صَلَّينا معكَ المَغرِبَ، ثم قُلنا: نَجلِسُ حتى نُصَلِّيَ معكَ العِشاءَ، قال «**أَحسَنتُم**»، أو: «**أَصَبتُم**».

قال: فرَفَعَ رَأسَهُ إلى السماءِ -وكان كَثيرًا مِمَّا يَرفَعُ رَأسَهُ إلى السماءِ-، فقال: «**النُّجومُ أَمَنَةٌ للسَّماءِ، فإذا ذَهَبَتِ النُّجومُ أَتى السماءَ ما توعَدُ، وأَنا أَمَنَةٌ لِأَصحابي، فإذا ذَهَبتُ أَتى أَصحابي ما يوعَدونَ، وأَصحابي أَمَنَةٌ لِأُمَّتي، فإذا ذَهَبَ أَصحابي أَتى أُمَّتي ما يوعَدونَ**»[3].

قال النوَويُّ رحمه الله: «**ومعنى الحَديثِ**: أَنَّ النُّجومَ ما دامَت باقيَةً فالسماءُ باقيَةٌ، فإذا انكَدَرَتِ النُّجومُ وتَناثَرَت في القيامَةِ وهَنَتِ السماءُ، فانفَطَرَت، وانشَقَّت، وذَهَبَت.

---

(١) رواه البخاري (١٩٣٥).

(٢) صحيح مسلم (١١١٢).

(٣) رواه مسلم (٢٥٣١).

وقَولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأَنا أَمَنَةٌ لِأَصحابي، فإذا ذَهَبتُ أَتى أَصحابي ما يوعَدونَ**»، أَي: منَ الفِتَنِ، والحُروب، وارتِدادِ مَنِ ارتَدَّ منَ الأَعراب، واختِلافِ القُلوب، ونَحوِ ذلك مِمَّا أَنذَرَ بهِ صَريحًا، وقد وقَعَ كُلُّ ذلك.

وقَولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأَصحابي أَمَنَةٌ لِأُمَّتي، فإذا ذَهَبَ أَصحابي أَتى أُمَّتي ما يوعَدونَ**»، مَعناهُ: من ظُهورِ البدَعِ والحَوادِثِ في الدِّينِ، والفِتَنِ فيه، وطُلوعِ قَرنِ الشَّيطانِ، وظُهورِ الرُّومِ وغيرِهِم عليهم، وانتِهاكِ المَدينَةِ ومكةَ، وغيرِ ذلك، وهذه كُلُّها من مُعجِزاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

وقال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والإشارَةُ في الجُملَةِ إلى مَجيء الشَّر عِندَ ذَهاب أَهلِ الخَيرِ»[2].

لقد كان من قَصَصِهم ما أعقبَه تشريعٌ بمُختَلف الأحكامِ، من الحَلالِ والحَرامِ، والأمرِ والنهيِ، والحَثِّ والزَّجرِ، وجُملَةِ الآداب العامَّةِ.

ومنه: ما أعقبَهُ فتحُ باب الرحمَةِ والمغفِرةِ للناسِ.

ومنه: ما أبانَ عن فضلِهِم ومكانتِهم في الدِّينِ.

ومنه: ما دَلَّ على جِهادِهم، وبَذلِهم، وكَرَمِهم، ووَفائِهم، وإيثارِهم، وحُبِّهم ووَلائِهم لنبيِّهِم، مِمَّا جعَلَهم أعظمَ قُدوَةٍ للناسِ في الخَير، وأكرَمَ مِثالٍ للتَأَسِّي، بعدَ الأنبياءِ والمرسلينَ.

وهذه بعض القِصَصَ التي وقَعَت للصَّحابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ زمَنَ النُّبوَّة، ممَّا ورَد في كُتُب السُّنَّة، مِمَّا صَحَّ سنَدُه، وبانَت منفعَتُه، وكثُرَت فائدَتُه، وآبَت بالخَيرِ عائِدَتُه.

إذ لا شَكَّ في برَكَة الزَّمانِ، وقوَّة الإيمانِ، وصِحَّة اليقينِ، ووُضوحِ البَيانِ، وقيامِ البُرهانِ.

ويتَّسمُ هذا القَصَصُ المبارَكُ بحِفظِ العِنايَةِ الربَّانيّة، ومُلاحَظَةِ السُّنّة النبَويَّة، وأنَّه لِأَهلِ الإيمانِ والإحسانِ، مِمَّنِ اصطَفاهُم اللهُ من خيرَةِ خَلقِه، فجَعَلَهم سبحانه وُزَراءَ

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٨٣).

(٢) النهاية (١/ ٧٠).

نبيِّهِ، القائِمينَ على الدِّينِ من بعدِه، بحِفظِه وتَأييدِه، والدَّعوَةِ إليه، والجِهادِ في سبيلِ إعلاءِ كلِمَتِه، ونَشرِ حُكمِه، وتَعليمِ شَرعِه.

ونسأَلُ اللهَ أن يَرزُقَنا صُحبَةَ القَومِ المفلِحينَ، ومَعيَّةَ القَومِ الصالِحِينَ، ورفقَتَهم في جنَّاتِ النعيمِ.



١

الصاحبُ
في
الهجرةِ

الصاحبُ في الهجرةِ

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لَمْ أَعقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إلا وهُما يَدينانِ الدِّينَ، ولَمْ يَمُرَّ علينا يَومٌ إلا يَأتينا فيه رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَيِ النهارِ، بُكرَةً وعَشيَّةً، فلما ابتُلِيَ المسلمونَ خرجَ أَبو بكرٍ مُهاجِرًا نحو أَرضِ الحَبَشَةِ، حتى إذا بلغَ بَركَ الغِمادِ لَقِيَهُ ابنُ الدَّغِنَةِ، وهو سَيِّدُ القارَةِ، فقال: أَينَ تُريدُ يا أَبا بكرٍ؟ فقال أَبو بكرٍ: أَخرَجَني قَومي، فأُريدُ أَن أَسيحَ في الأَرضِ وأَعبُدَ رَبِّي، قال ابنُ الدَّغِنَةِ: فإنَّ مِثلك يا أَبا بكرٍ لا يَخرُجُ ولا يُخرَجُ، إنَّكَ تَكسِبُ المَعدومَ، وتَصِلُ الرحِمَ، وتَحمِلُ الكَلَّ، وتَقري الضَّيفَ، وتُعينُ على نَوائِبِ الحقِّ، فأَنا لك جارٌ، ارجِع واعبُد رَبَّكَ ببَلَدِكَ.

فرجعَ، وارتَحَلَ معه ابنُ الدَّغِنَةِ، فطافَ ابنُ الدَّغِنَةِ عَشيَّةً في أَشرافِ قريشٍ، فقال لهم: إنَّ أَبا بكرٍ لا يَخرُجُ مِثلُهُ ولا يُخرَجُ، أَتُخرِجونَ رجلًا يَكسِبُ المَعدومَ، ويَصِلُ الرحِمَ، ويَحمِلُ الكَلَّ، ويَقري الضَّيفَ، ويُعينُ على نَوائِبِ الحقِّ؟!

فلم تُكَذِّب قريشٌ بجِوارِ ابنِ الدَّغِنَةِ، وقالوا لِابنِ الدَّغِنَةِ: مُر أَبا بكرٍ فليَعبُد رَبَّهُ في دارِهِ، فليُصَلِّ فيها وليَقرَأ ما شاءَ، ولا يُؤذينا بذلك، ولا يَستَعلِن بهِ؛ فإنَّا نَخشى أَن يَفتِنَ نساءَنا وأَبناءَنا، فقال ذلك ابنُ الدَّغِنَةِ لِأَبي بكرٍ، فلَبثَ أَبو بكرٍ بذلك يَعبُدُ رَبَّهُ في دارِهِ، ولا يَستَعلِنُ بصَلاتِهِ، ولا يَقرَأُ في غيرِ دارِهِ، ثم بَدا لِأَبي بكرٍ، فابتَنى مسجدًا بفِناءِ دارِهِ، وكان يُصَلِّي فيه، ويَقرَأُ القُرآنَ، فيَنقَذِفُ عليه نساءُ المشرِكينَ وأَبناؤُهُم، وهُم يَعجَبونَ منه ويَنظُرونَ إليه، وكان أَبو بكرٍ رجلًا بَكَّاءً، لا يَملِكُ عَينَيهِ إذا قَرَأَ القُرآنَ، وأَفزَعَ ذلك أَشرافَ قريشٍ منَ المشرِكينَ، فأَرسَلوا إلى ابنِ الدَّغِنَةِ فقدِمَ عليهم، فقالوا: إنَّا كُنَّا أَجَرنا أَبا بكرٍ بجِوارِكَ، على أَن يَعبُدَ رَبَّهُ في دارِهِ، فقد جاوَزَ ذلك، فابتَنى مسجدًا بفِناءِ دارِهِ، فأَعلَنَ بالصلاةِ والقراءةِ فيه، وإنَّا قد خَشينا أَن يَفتِنَ نساءَنا وأَبناءَنا، فانهَهُ، فإن أَحَبَّ

أَن يَقتَصِرَ على أَن يَعبُدَ رَبَّهُ في دارِهِ فعَلَ، وإن أَبى إلا أَن يُعلِنَ بذلك، فسَلهُ أَن يَرُدَّ إليك ذِمَّتَكَ؛ فإنَّا قد كَرِهنا أَن نُخفِرَكَ، ولَسنا مُقِرِّينَ لِأَبي بكرٍ الاِستِعلانَ.

قالت عائشةُ: فأَتى ابنُ الدَّغِنَةِ إلى أَبي بكرٍ فقال: قد عَلِمتَ الذي عاقدتُ لك عليه، فإمَّا أَن تَقتَصِرَ على ذلك، وإمَّا أَن ترجِعَ إلَيَّ ذِمَّتي؛ فإنِّي لا أُحِبُّ أَن تَسمع العَرَبُ أَنِّي أُخفِرتُ في رجلٍ عَقدتُ له، فقال أَبو بكرٍ: فإنِّي أَرُدُّ إليك جِوارَكَ، وأَرضى بجِوارِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والنبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَومَئِذٍ بمكةَ، فقال النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للمسلمينَ: «**إنِّي أُريتُ دارَ هِجرَتِكُم، ذاتَ نَخلٍ بينَ لابَتَينِ**»، وهُما الحَرَّتانِ، فهاجَرَ مَن هاجَرَ قِبَلَ المَدينَةِ، ورجعَ عامَّةُ مَن كان هاجَرَ بأَرضِ الحَبَشَةِ إلى المَدينَةِ، وتَجَهَّزَ أَبو بكرٍ قِبَلَ المَدينَةِ، فقال له رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**على رِسلِكَ؛ فإنِّي أَرجو أَن يُؤذَنَ لي**»، فقال أَبو بكرٍ: وهَل تَرجو ذلك -بأَبي أَنتَ-؟ قال: «**نَعَم**».

فَحَبَسَ أَبو بكرٍ نَفسَهُ على رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليَصحَبَهُ، وعَلَفَ راحِلَتَينِ كانتا عِندَهُ ورَقَ السمُرِ -وهو الخَبَطُ- أَربَعَةَ أَشهُرٍ.

قالت عائشةُ: فبينَما نَحنُ يَومًا جُلوسٌ في بَيتِ أَبي بكرٍ في نَحرِ الظَّهيرَةِ، قال قائِلٌ لِأَبي بكرٍ: هذا رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُتَقَنِّعًا، في ساعةٍ لَم يَكُن يَأتينا فيها، فقال أَبو بكرٍ: فِداءٌ له أَبي وأُمِّي، واللهِ ما جاءَ بهِ في هذه الساعةِ إلا أَمرٌ، قالت: فجاءَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فاستَأذَنَ، فأُذِنَ له، فدَخَلَ، فقال النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لِأَبي بكرٍ: «**أَخرِج مَن عِندَكَ**»، فقال أَبو بكرٍ: إنَّما هُم أَهلُكَ، بأَبي أَنتَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخُروجِ**»، فقال أَبو بكرٍ: الصحابَةُ -بأَبي أَنتَ- يا رسولَ اللهِ، قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**نَعَم**»، قال أَبو بكرٍ: فخُذ -بأَبي أَنتَ يا رسولَ اللهِ- إحدى راحِلَتَيَّ هاتَينِ، قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بالثَّمَنِ**».

قالت عائشةُ: فجَهَّزناهُما أَحَثَّ الجِهازِ، وصَنَعنا لهما سُفرَةً في جِرابٍ، فقَطَعَت أَسماءُ بنتُ أَبي بكرٍ قِطعَةً من نِطاقِها، فرَبَطَت بهِ على فمِ الجِراب، فبذلك سُمِّيَت «ذاتَ النِّطاقَينِ».

قالت: ثم لَحِقَ رسولُ اللهِ ﷺ وأَبو بكرٍ بغارٍ في جَبَلِ ثَورٍ، فكَمَنا فيه ثَلاثَ لَيالٍ، يَبيتُ عِندَهُما عبدُ اللهِ بن أَبي بكرٍ، وهو غُلامٌ شابٌّ، ثَقِفٌ، لَقِنٌ، فيَدَّلِجُ من عِندِهِما بسَحَرٍ، فيُصبحُ مع قريشٍ بمكةَ كَبائِتٍ، فلا يَسمَعُ أَمرًا يُكتادانِ بِهِ إلا وعاهُ، حتى يَأتيَهُما بخَبَرِ ذلك حينَ يَختَلِطُ الظَّلامُ.

ويَرعى عليهما عامِرُ بن فُهَيرَةَ، مَولى أَبي بكرٍ منحَةً من غَنَمٍ، فيُرِيحُها عليهما حينَ تَذهَبُ ساعَةٌ منَ العِشاءِ، فيَبيتانِ في رِسلٍ، وهو لَبَنُ منحَتِهِما ورَضيفِهِما، حتى يَنعِقَ بها عامِرُ بن فُهَيرَةَ بغَلَسٍ، يَفعَلُ ذلك في كُلِّ لَيلَةٍ من تِلكَ اللَّيالي الثَّلاثِ.

واستَأجَرَ رسولُ اللهِ ﷺ وأَبو بكرٍ رجلًا من بَني الدِّيلِ، وهو من بَني عبدِ بنِ عَديٍّ، هاديا خِرِّيتًا -والخِرِّيتُ: الماهِرُ بالهِدايَةِ-، قد غَمَسَ حِلفًا في آلِ العاصِ بن وائِلٍ السهميِّ، وهو على دينِ كُفَّارِ قريشٍ، فأَمِناهُ فدَفَعا إليه راحِلَتَيهِما، وواعَداهُ غارَ ثَورٍ بعدَ ثَلاثِ لَيالٍ براحِلَتَيهِما صُبحَ ثَلاثٍ، وانطَلَقَ معهما عامِرُ بن فُهَيرَةَ، والدَّليلُ، فأَخَذَ بِهِم طَريقَ السواحِلِ[1].

تَرجَمَة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

هي عائشةُ بنتُ الصدِّيقِ أَبي بكرٍ عبدِ اللهِ بن أَبي قُحافَةَ عُثمانَ بن عامِرِ بن عَمرِو ابنِ كَعب بن سَعدِ بن تَيمِ بن مُرَّةَ بن كَعب بن لُؤَيٍّ، القُرَشيَّةُ، التيميَّةُ، أُمُّ المؤمِنينَ، زَوجَةُ النبيِّ ﷺ، أَفقَهُ نساءِ الأُمَّةِ على الإطلاقِ.

وأُمُّها: أُمُّ رومانَ بنتُ عامِرِ بن عوَيمِرِ بن عبدِ شَمسِ بن عَتَّاب بن أُذَينَةَ، الكِنانيَّةُ.

هاجَرَ بعائشةَ أَبَواها، وتَزَوَّجَها نبيُّ اللهِ ﷺ قَبلَ مُهاجَرِهِ بعدَ وفاةِ الصدِّيقَةِ خديجةَ بنتِ خوَيلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وذلك قَبلَ الهِجرَةِ ببضعَةَ عَشَرَ شَهرًا، وقيلَ: بعامَينِ.

---

(١) رواه البخاري (٢١٣٨)، (٢٢٦٣)، (٣٩٠٥)، وأحمد (٢٥٦٢٦)، (٢٥٧٧٤)، وأبو داود (٤٠٨٣)، مختصرا، وابن خزيمة (٢٦٥)، وابن حبان (٦٢٧٧)، وعبد الرزاق (٩٧٤٣)، والبزار (١٧٦)، والبغوي في تفسيره (٢/ ٣٥٠)، وفي شرح السنة (٣٧٦٣)، وابن راهويه في مسنده (٨٤٩)، والآجري في الشريعة (١٢٨٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٧٦).

ودَخَلَ بها في شَوَّالٍ، سنةَ اثنتَينِ، مُنصَرَفَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غَزوَةِ بَدرٍ، وهي ابنَةُ تِسعٍ.

فَرَوَت عنه عِلمًا كَثيرًا، طَيِّبًا، مُبارَكًا فيه.

وروت عن أَبيها، وعن عمرَ، وفاطِمَةَ، وسَعدٍ، وحَمزَةَ بن عَمرٍو الأَسلَميِّ.

حَدَّثَ عنها منَ الصحابةِ: عمرو بن العاصِ، وأبو موسى الأشعريُّ، وزيدُ بن خالدٍ الجُهنيُّ، وأبو هريرة، وابنُ عمَرَ، وابنُ عباسٍ، وربيعةُ بن عمرٍو الجرشيُّ، والسائبُ بن يزيدَ، والحارثُ بن عبدِ اللهِ بن نوفَل، وغيرُهم.

ومن التابعينَ: عُروةُ بن الزُّبَيرِ، وسعيدُ بن المسيَّب، وعبدُ اللهِ بن عامرِ بن ربيعةَ، وعلقمةُ بن قيسٍ، وعمرو بن مَيمُون، ومطرّف بن عبدِ اللهِ بن الشِّخِّيرِ، وهمامُ بن الحارثِ، وأبو عطيةَ الوادِعيّ، وأبو عبيدَةَ بن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ، ومسروقُ بن الأجدعِ، وشَقيقٌ أبو وائِلٍ، وطاوُسٌ، والشَّعبيُّ، وعبدُ اللهِ بن شَدَّادٍ اللَّيثيُّ، وعبدُ اللهِ بن شَقيقٍ، وصفيَّةُ بنتُ شيبَةَ، وعائشةُ بنتُ طَلحَةَ، وعَمرَةُ بنتُ عبدِ الرحمَنِ، ومَرجانَةُ والِدَةُ عَلقَمَةَ بن أَبي عَلقَمَةَ، ومُعاذَةُ العَدَويَّةُ، وأُمُّ كُلثومٍ التيميَّةُ أُختُها، وغيرُهم خلقٌ كثيرٌ.

وعائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِمَّن وُلِدَ في الإسلامِ، وهي أَصغَرُ من فاطِمَةَ بثَماني سِنينَ.

ولَم يَتَزَوَّجِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكرًا غيرَها، وَلَا أَحَبَّ امرَأَةً حُبَّها، وليس في الأُمَّةِ امرَأَةٌ أَعلَمَ منها.

قال الزُّهريُّ: «لَو جُمِعَ عِلمُ عائشةَ إلى عِلمِ جَميعِ النِّساءِ، لَكان عِلمُ عائشةَ أَفضَلَ».

وعن مَسروقٍ: أَنَّهُ كان إذا حَدَّثَ عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: «حَدَّثَتني الصدِّيقَةُ بنتُ الصدِّيقِ، حَبيبَةُ حَبيبِ اللهِ، المبَرَّأَةُ من فوقِ سَبعِ سَماواتٍ».

وعن عُروَةَ، قال: «لَقد صَحِبتُ عائشةَ، فما رَأَيتُ أَحَدًا قَطُّ كان أَعلَمَ بآيةٍ أُنزِلَت، ولا بفَريضَةٍ، ولا بسُنَّةٍ، ولا بشِعرٍ، ولا أَروى له، ولا بيَومٍ من أَيَّامِ العَرَب، ولا بنَسَبٍ، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقَضاءٍ، ولا طِبٍّ، منها».

وقال: «رَأَيتُها تَصَدَّقُ بسَبعينَ أَلفًا، وإنَّها لَتَرقَعُ جانِبَ دِرعِها».

وعن عَطاءٍ: «أَنَّ مُعاويَةَ بَعَثَ إلى عائشةَ بقِلادَةٍ بمئةِ أَلفٍ، فقَسَمَتها بينَ أُمَّهاتِ المؤمِنينَ».

وفضائِلُها في السُنَّةِ كثيرةٌ:

فعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ جبريلَ جاءَ بصورَتِها في خِرقَةِ حَريرٍ خَضراءَ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**هذه زَوجَتُكَ في الدُّنيا والآخِرَةِ**»[١].

وعن عَمرو بن العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ على جَيشِ ذاتِ السّلاسِلِ[٢]، فأَتَيتُهُ فقُلتُ: أَيُّ الناسِ أَحَبُّ إليك؟ قال: «**عائشةُ**»، فقُلتُ: منَ الرِّجالِ؟ فقال: «**أَبوها**»[٣].

وعن أَبي موسى الأَشعَريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فضلُ عائشةَ على النِّساءِ كَفَضلِ الثَّريدِ[٤] على سائِرِ الطعامِ**»[٥].

وعَنِ ابنِ أَبي مُلَيكَةَ، قال: جاءَ عائشةَ عبدُ اللهِ بن عباسٍ يَستَأذِنُ عليها، قالت: لا حاجَةَ لي بهِ، قال عبدُ الرحمَنِ بن أَبي بكرٍ: إنَّ ابنَ عباسٍ من صالِحي بَنِيكِ، جاءَكِ يَعودُكِ، قالت: فأذَن له، فدَخَلَ عليها، فقال: «يا أُمَّاهُ، أَبشِري، فواللهِ ما بينَكِ وبينَ أَن تَلقي محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأَحِبَّةَ إلا أَن تُفارِقَ روحُكِ جَسَدَكِ، كُنتِ أَحَبَّ نساءِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، ولَم يَكُن يُحِبُّ رسولُ اللهِ إلا طَيبَةً»، قالت: وأَيضًا؟ قال:

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٨٠)، وقال: «حسن غريب»، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) **قال النووي:** «هو بفتح السين الأولى، وكسر الثانية، وهو ماء لبني جذام، بناحية الشام، ومنهم من قال: «هو بضم السين الأولى»، وكذا ذكره ابن الأثير في نهاية الغريب، وأظنه استنبطه من كلام الجوهري في الصحاح، ولا دلالة فيه، والمشهور والمعروف فتحها، وكانت هذه الغزوة في جمادى الأخرى، سنة ثمان من الهجرة». شرح مسلم (١٥/ ١٥٣).

(٣) رواه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٤) الثريد: الخبز المكسر الذي وضع عليه اللحم والمرق.

(٥) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

«هَلكت قِلادَتُكِ بالأَبواءِ، فأَصبَحَ رسولُ اللهِ ﷺ، فلم يَجِدوا ماءً، فتيَمَّموا صَعيدًا طَيِّبًا، فكان ذلك بسَبَبكِ وبَرَكَتِكِ، ما أَنزَلَ اللهُ لِهذه الأُمَّةِ منَ الرُّخصَةِ، فكان من أَمرِ مِسطَحٍ ما كان، فأَنزَلَ اللهُ بَراءَتَكِ من فوقِ سَبعِ سَماواتٍ، فليس مسجدٌ يُذكَرُ فيه اللهُ إلا وشَأْنُكِ يُتلى فيه آناءَ اللَّيلِ، وأَطرافَ النهارِ».

فقالت: «يا ابنَ عباسٍ، دَعني منكَ، ومن تَزكيَتِكَ، فواللهِ لَوَدِدتُ أَنِّي كُنتُ نَسيًا مَنسيًّا»[1].

وذكَر غيرُ واحدٍ من أهلِ العلمِ: أنَّ النبيّ ﷺ ماتَ وهي بنتُ ثماني عشرةَ سنَةً، وقال الزُّبَيرُ بن بَكَّارٍ وغيرُه: «تُوُفِّيَت في رمضانَ سنَةَ ثمانٍ وخمسينَ»، وصلَّى عليها أبو هريرة رضي الله عنه، وقال ابنُ عُيَينَةَ عن هشامِ بن عُروَةَ: «ماتَت سنَةَ سبعٍ وخمسينَ»[2].

شرح الحديث:

قَولُهُ: «عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: لَم أَعقِل أَبَوَيَّ قَطُّ، إلا وهُما يَدينانِ الدِّينَ»:

وأَبَواها هُما: أَبو بكرٍ وأُمُّ رومانَ رضي الله عنهما.

وأُمُّ رومانَ: هي بنتُ عامِرِ بن عوَيمِرِ بن عبدِ شَمسِ بن عَتَّاب بن أُذَينَةَ، الكِنانيَّةُ، امرأةُ أَبي بكرٍ الصدِّيق، ووالدةُ عبدِ الرّحمنِ، وعائشةَ.

واختُلِف في اسمِها، فقيلَ: زينبُ، وقيلَ: دَعد[3].

ومُرادُ عائشةَ بقولِها: «**لَم أَعقِل أَبَوَيَّ...**»: أنَّ أبوَيها أسلَما قديمًا، **قال العَينيُّ** رحمه الله: «يَعني: ما وجدتُهما مُنذُ عقلتُ إلا مُتديّنَين بدينِ الإسلام»[4].

وقولُها: «قَطّ»: قال ابنُ المَلَقّنِ رحمه الله: «قَطُّ» -بالتشديد، والضَّمِّ- وهي الأَبدُ الماضي،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٧١٠٨)، وصححه الألباني لغيره في التعليقات الحسان.

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٨/ ٤٦-٦٤)، تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٣٣-٤٣٦)، أسد الغابة (٧/ ١٨٦)، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥-٢٠١)، تاريخ الإسلام (٤/ ٢٤٤-٢٥٣).

(٣) الإصابة (٨/ ٣٩١)، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥).

(٤) عمدة القاري (١٢/ ١٢٣).

تَقول: ما رأَيتُه قَطُّ، قال أبو عَلِيٍّ: «قَط» تُجزَم إذا كانت بمعنى القليلِ، وتُضَمُّ وتُثَقَّل إذا كانت في معنى الزمنِ والحينِ من الدَّهرِ، تقول: «لم أرَ هذا قطُّ»، و«ليس عندي إلا هذا قَط»[١].

و**قال النوَويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «في «قَطُّ» لُغاتٌ، والفَصيحَةُ المَشهورَةُ: «قَطُّ» مَفتوحَة القافِ، مُشَدَّدَة الطاءِ، قال الكِسائيُّ: «كانت «قُطُطُ»، بضَمِّ الحُروفِ الثَّلاثَةِ، فأُسكِنَ الثَّاني، ثم أُدغِمَ».

والثَّانيَةُ: «قُطُّ»، بضَمِّ القافِ، والثَّالِثَةُ: «قَط»، بفَتحِ القافِ، وتَخفيفِ الطاءِ، والرابعَةُ: «قُطُ»، بضَمِّ القافِ والطاءِ المخَفَّفَةِ، وهي قَليلَةٌ.

هذا إذا كانت بمعنى الدَّهرِ، فأَمَّا التي بمعنى «حَسبُ»، وهو الإكتِفاءُ: فمَفتوحَةٌ ساكِنَةُ الطاءِ، تَقولُ: «رَأَيتُهُ مَرَّةً فقَط»، فإن أَضَفتَ قُلتَ: «قَطكَ هذا الشَّيءُ»، أَي: حَسبُكَ، وقَطني، وقَطي، وقَطهُ، وقَطاهُ»[٢].

و**قال ابنُ منظورٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَط قَط»، بمعنى حَسب، وتَكرارُها للتأكيد، وهي ساكِنَةُ الطاءِ، قال اللَّيثُ: «وأَما «قَطُّ» فإنه هو الأَبَدُ الماضي، تَقولُ: «ما رأَيت مِثله قَطُّ»، وهو رَفعٌ؛ لأَنه مِثلُ «قبلُ، وبعدُ»، قال: «وأَمَّا «القَطّ» الذي في مَوضِعِ: «ما أَعطيته إلا عِشرينَ قَطِّ» فإنه مَجرورٌ؛ فرقًا بينَ الزَّمانِ والعَددِ، و«قَطُّ» مَعناها الزَّمانُ».

وقال ابنُ سيدَه: «ما رأَيته قَطُّ وقُطُّ وقُطُ، إذا كانت بمعنى الدَّهرِ ففيها ثَلاثُ لُغاتٍ، وإذا كانت في معنى حَسب، فهي مَفتوحَةُ القافِ ساكِنَةُ الطاءِ»[٣].

«**وهُما يَدينانِ الدِّينَ**»، أَي: يتَدَيَّنان بدينِ الإسلامِ.

قال ابنُ المَلَقّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَعني: مسلمينَ، ووُلدت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الإسلامِ»[٤].

---

(١) التوضيح (١٥/ ١٤٨).

(٢) شرح النووي على مسلم (٧/ ٧٠)

(٣) لسان العرب (٧/ ٣٨١).

(٤) التوضيح (٢٠/ ٥٣٧).

وانتِصابُ «الدِّين» بنَزع الخافِضِ[١]، يُقالُ: دان بكذا ديانَةً وتَديَّن بهِ تدَيُّنًا.

ويحتَملُ أَن يكونَ مَفعولًا بهِ، و«يَدينُ» بمَعنى يُطيعُ، ولكنّه فيه تجَوُّزٌ من حَيثُ جَعل الدِّينِ كالشَّخصِ المطاعِ[٢].

قولُهُ: «ولَم يَمُرَّ علينا يَومٌ إلا يَأتينا فيه رسولُ اللهِ ﷺ طَرَفَيِ النهارِ، بُكرَةً وعَشيَّةً»:

البُكرَةُ: أوَّلُ النّهارِ. والعَشيُّ والعَشيَّةُ: آخرُ النهارِ.

وهذا يدُلُّ على وثيقِ الصلَةِ وتمامِ الصحبَةِ التي كانت بينَ النبيِّ ﷺ وبينَ أَبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال العراقيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه فضيلَةٌ للصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبَيانُ تَواضُعِهِ ﷺ وموادَّتِهِ أَصحابَهُ، وأَنَّهُ لا بَأسَ بإكثارِ الزِّيارَةِ عِندَ تَأَكُّدِ المَوَدَّةِ، أو الاِحتياجِ لِذلك»[٣].

قَولُهُ: «فلما ابتُلِيَ المسلمونَ»:

أَي: بأَذى المشرِكينَ، لَمَّا حَصَروا بَني هاشِمٍ والمطَّلِب في شِعب أَبي طالِبٍ، وأَذِنَ النبيُّ ﷺ لِأَصحابِهِ في الهِجرَةِ إلى الحَبَشَةِ[٤].

«خرجَ أَبو بكرٍ مُهاجِرًا نحو أَرضِ الحَبَشَةِ»:

الهِجرَةُ، بالكَسرِ والضَّمِّ: الخُروجُ من أرضٍ إلى أُخرى[٥].

وقال أبو منصورٍ الأزهريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصلُ المهاجَرةِ عِند العَرَب: خُروجُ البدَويِّ من باديتِهِ إلى المدُن.

---

(١) أي بحذف حرف الجر «الباء»: **يدينان بالدين**. فيمكن أن يستغنى عن حرف الجر، وينصب المجرور بعده، ويطلق عليه حينئذ أنه «منصوب على نزع الخافض». النحو المصفى (ص٦٣٦، ٦٣٧).

(٢) عمدة القاري (٤/ ٢٥٦).

(٣) طرح التثريب (٧/ ٢٧٠).

(٤) فتح الباري (٧/ ٢٣٢).

(٥) القاموس المحيط (ص٤٩٥).

يُقالُ: هاجَر الرجُلُ، إذا فعل ذلك، وكذلك كلّ مُخلٍ بمسكَنِه منتقِلٍ إلى دارِ قومٍ آخَرين؛ لأَنهم تَركوا ديارَهم ومساكنَهم التي نشؤوا بها للهِ، ولَحِقوا بدارِ قومٍ ليس لهم بها أهلٌ ولا مالٌ حينَ هاجروا إلى المَدينَةِ، وكذلك الذينَ هاجروا إلى أَرضِ الحَبَشةِ.

فكلُّ مَن فارقَ رِباعَه[1] من بدَويّ أو حَضَرِّي وسكن بَلَدا آخر فهو مُهاجِرٌ، والاِسم منه الهِجرةُ، قال اللهُ جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

وكُلُّ من أَقامَ من البَوادي بمَباديهِم ومَحاضِرِهم، ولم يلحقوا بالنبيّ ﷺ، ولم يَتَحَوَّلوا إلى أَمصار المسلمينَ التي أُحدِثَت في الإسلام، وإن كانوا مسلمين، فإنَّهُم غيرُ مُهاجِرين، وليس لهم في الفَيءِ نصيبٌ، ويُسمَّون الأَعراب»[2].

قَولُهُ: «حتى إذا بلغَ بَركَ الغِمادِ»:

«بَرك»: بفَتحِ الباء وسُكونِ الراءِ، بعدَها كافٌ، وحُكيَ كَسرُ أَوَّلِهِ.

و«الغِمادُ»: بكَسرِ الغين -وقد تُضَمُّ-، وبتخفيفِ الميمِ، وحكى ابنُ فارِسٍ فيها ضَمَّ الغَينِ: مَوضِعٌ على خَمسِ لَيالٍ من مكةَ إلى جِهَةِ اليَمَنِ[3].

«لَقيَهُ ابنُ الدَّغِنَةِ»:

قال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ابنُ الدَّغِنَة»: بفَتح الدَّال، وكسر الغَين المعجَمَة، وتَخفيف النُّون، كذا لكافّتِهم، وعند المروَزيِّ: مَفتوح الغَينِ، وقيلَ: إنَّما كان ذلك؛ لِأَنَّهُ كان في فيه استرخاءٌ، لا يقدِر على ملكِه.

وقال القابسيّ: «الدُّغُنَّة»: بضَمِّ الدَّال والغَينِ، وتشديد النُّون».

---

(١) الربع: الدار بعينها حيث كانت، وجمعها رباع وربوع وأرباع، والربع: المحلة، يقال: ما أوسع ربع بني فلان. الصحاح (٣/ ١٢١١).

(٢) تهذيب اللغة (٦/ ٢٩).

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٣٢).

والصواب عِند بعضِ أهل اللُّغَةِ: بكَسر الغَين، وتَخفيف النُّون، وحكى الجيانيُّ فيه الوَجهَينِ، قال: «وبهِما روِّيناهُ: ضَمّ الدَّال والغَين، وشَدِّ النُّون، وفتح الدَّال، وكسر الغَين، وتَخفيف النُّون، ويُقالُ: الدَّغنَة، بالفَتح، وسُكون الغَين»[١].

وقال العِراقيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو بفَتحِ الدَّالِ المهمَلَةِ، وكَسرِ الغَينِ المعجَمَةِ، وفَتحِ النُّونِ، وتَخفيفِها، هذا هو المَشهورُ المَضبوطُ المَحفوظُ، وحَكى فيه القاضي عياضٌ في المَشارِقِ مع ذلك وجهَينِ آخَرَينِ، وهُما: فتحُ الغَينِ، وإسكانُها، ووَجهًا رابعًا حَكاهُ عن القابسيِّ، وهو الدُّغُنَّةُ، بضَمِّ الدَّالِ والغَينِ، وتشديدِ النُّونِ»[٢].

وقال ابنُ المُلَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدَّغِنَة»: بفَتحِ الدَّال، وكَسرِ الغَينِ المعجَمَة، وتخفيف النُّون، قال أبو الحَسَنِ: «كذا يَرويه جميعُ الناسِ، وأهلُ العربيَّة يضُمُّون الدَّالَ والغَينَ، ويشَدّدون النُّونَ»[٣].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بضَمِّ الدَّالِ والغَينِ، وتشديدِ النُّونِ عِندَ أَهلِ اللُّغَةِ، وعِندَ الرُّواةِ: بفَتحِ أوَّلِهِ، وكَسرِ ثانيهِ، وتَخفيفِ النُّونِ، قال الأَصيليُّ: «وقَرَأَهُ لَنا المَروَزيُّ بفَتحِ الغَينِ، وقيلَ: إن ذلك كان لِاسترخاءٍ في لِسانِهِ».

والصوابُ الكَسرُ، وثَبَتَ بالتخفيفِ والتشديدِ من طَريقٍ.

وهي أُمُّهُ، وقيلَ أُمُّ أَبيهِ، وقيلَ دابَّتُهُ، ومعنى الدّغنةِ: المسترخيَةُ، وأَصلُها الغَمامَةُ الكَثيرَةُ المَطَرِ.

واختُلِفَ في اسمِهِ: فقيلَ: الحارِثُ بن يَزيدَ، وقيلَ: اسمَهُ مالِكٌ».

«وهو سَيِّدُ القارَةِ»:

قَبيلَةٌ مَشهورَةٌ من بني الهون بن خُزَيمَةَ بن مُدرِكَةَ بن إلياسَ بن مُضَرَ، وكانوا حُلَفاءَ بَني زُهرَةَ من قريشٍ، وكانوا يُضرَبُ بِهِمُ المَثَل في قوَّةِ الرميِ[٤].

---

(١) مشارق الأنوار (١/ ٢٦٦).

(٢) طرح التثريب (٧/ ٢٧٢).

(٣) التوضيح (١٥/ ١٤٩).

(٤) فتح الباري (٧/ ٢٣٣).

وفي المثل: «أنصَفَ القارَةَ مَن راماها».

قال المفَضَّلُ الضَّبِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «زَعَموا أنّ رجُلًا من جُهينةَ رمى رجُلًا من القارَةِ فقتَلَه، فرمى رجُلٌ من القارَةِ رجُلًا من جُهَينَةَ، وكان القارَةُ أرمى حيٍّ في العَرَب، فقال قائِلُهُم: «قد أنصَفَ القارَةَ مَن راماها»، فأَرسلها مَثلًا»[١].

«فقال: أَينَ تُريدُ يا أَبا بكرٍ؟ فقال أَبو بكرٍ: أَخرَجَني قَومي، فأُريدُ أَن أَسيحَ في الأَرضِ وأَعبُدَ رَبِّي»:

«**أَسيحَ**»: أذهَب، لا يُريدُ مَوضِعًا بعَينِه، حتى يجِدَ موضِعًا فيستَقرّ به[٢].

ولَعَلَّ أَبا بكرٍ طَوى عَن ابنِ الدَّغِنَةِ تَعيينَ جِهَةِ مَقصِدِهِ؛ لِكَونِهِ كان كافِرًا، وإلا فقد تَقدَّمَ أَنَّهُ قَصَدَ التوَجُّهَ إلى أَرضِ الحَبَشَةِ[٣].

«قال ابنُ الدَّغِنَةِ: فإنَّ مِثلك يا أَبا بكرٍ لا يَخرُجُ ولا يُخرَجُ، إنَّكَ تَكسِبُ المَعدومَ»:

«تَكسِبُ»، بفَتحِ التاءِ، ورواهُ بعضهم بضَمِّها، ومَن رواهُ بالضَّمِّ فمَعناهُ: تُكسِبُ غيرَكَ المالَ المَعدومَ، أَي: تُعطيهِ إيَّاهُ تَبَرُّعًا، وقيلَ: مَعناهُ: تُعطِي الناسَ ما لا يجِدونَه عِندَ غيرِكَ، من نَفائِسِ الفَوائِدِ، ومَكارِمِ الأَخلاقِ.

وأَمَّا روايةُ الفَتحِ: فقيلَ: مَعناها كَمعنى الضَّمِّ، وقيلَ: مَعناها: تَكسِبُ المالَ المَعدومَ، وتُصيبُ منه ما يَعجِزُ غيرُكَ عن تَحصيلِهِ، ثم تَجودُ بِهِ في وُجوهِ الخَيرِ، وأَبواب المَكارِمِ[٤].

«وتَصِلُ الرحِمَ، وتَحمِلُ الكَلَّ»:

هو منَ الكَلالِ، وهو الإعياءُ، ويَدخُلُ في حَملِ الكَلِّ: الإنفاقُ على الضَّعيفِ واليَتيمِ والعيالِ، وغير ذلك.

---

(١) أمثال العرب (ص١٢٦-١٢٧).

(٢) التوضيح (١٥/ ١٤٩).

(٣) الفتح (٧/ ٢٣٣).

(٤) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٠١)، ملخصًا.

«وتَقري الضَّيفَ»:

قال أَهلُ اللُّغَةِ: يُقالُ: قَرَيتُ الضَّيفَ أَقريهِ قِرًى وقَراءً: أطعَمتُه، ويُقالُ للطَّعامِ الذي يُضَيِّفُهُ بهِ: قِرًى، ويُقالُ لِفاعِلِهِ: قارٍ.

«وتُعينُ على نَوائِبِ الحقِّ»:

النوائِبُ: جَمعُ نائِبَةٍ، وهى الحادِثَةُ، وإنَّما قال: «نَوائِبِ الحقِّ»؛ لِأَنَّ النائِبَةَ قد تَكونُ في الخَيرِ، وقد تَكونُ في الشَّرِّ[1].

«فأَنا لك جارٌ»:

أَي: مُجيرٌ، أَمنَعُ مَن يُؤذيكَ.

قال ابنُ المَلَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الجِوارُ كان معروفًا بين العرب، يُجيرون مَن لَجَأَ إليهِم واستَجارَ بهِم، وقد أجارَ أبو طالبٍ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يكونُ الجوارُ إلا منَ الظُّلمِ والعَداء[2]»[3].

قَولُهُ: «ارجِع واعبُد رَبَّكَ ببَلَدِكَ، فرجعَ وارتَحَلَ معه ابنُ الدَّغِنَةِ، فطافَ ابنُ الدَّغِنَةِ عَشيَّةً في أَشرافِ قريشٍ، فقال لهم: إنَّ أَبا بكرٍ لا يَخرُجُ مِثلُهُ ولا يُخرَجُ، أَتُخرِجونَ رجلًا يَكسِبُ المَعدومَ، ويَصِلُ الرحِمَ، ويَحمِلُ الكَلَّ، ويَقري الضَّيفَ، ويُعينُ على نَوائِبِ الحقِّ؟!».

أَي: لا يَخرُجُ مِثلُهُ من وطَنِهِ باختيارِهِ على نيَّةِ الإقامَةِ في غيرِهِ، مع ما فيه منَ النفعِ المتَعَدِّي لِأَهلِ بَلَدِهِ.

ولا يُخرِجُهُ أَحَدٌ بغيرِ اختيارِهِ؛ للمعنى المَذكورِ.

«فلم تُكَذِّب قريشٌ بجِوارِ ابنِ الدَّغِنَةِ»:

---

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٠٢)، وينظر: عمدة القاري (١/ ٥١)، مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٧٣٢).

(٢) العداء -بالفتح والمد-: الظلم وتجاوز الحد. النهاية (٣/ ١٩٣).

(٣) التوضيح (١٥/ ١٤٧).

أَي: لَم تَرُدَّ عليه قَوله في أَمانِ أَبي بكرٍ، وكُلُّ مَن كَذَبَكَ فقد رَدَّ قَولك، فأَطلَقَ التكذيبَ، وأَرادَ لازمَه.

«وقالوا لِابنِ الدَّغِنَةِ: مُر أَبا بكرٍ فليَعبُد رَبَّهُ في دارِهِ، فليُصَلِّ فيها وليَقرَأ ما شاءَ، ولا يُؤذينا بذلك ولا يَستَعلِن بِهِ؛ فإِنَّا نَخشى أَن يَفتِنَ نساءَنا وأَبناءَنا»:

مَقصودُهم: مَنعُهُ من الجهرِ بدينِه وصلاتِه وقراءتِه؛ لئَلَّا يتأَثَّرَ به نساؤُهم وأبناؤُهم، فيُفتَنوا عن دينِهم.

«فقال ذلك ابنُ الدَّغِنَةِ لِأَبي بكرٍ، فلَبِثَ أَبو بكرٍ بذلك يَعبُدُ رَبَّهُ في دارِهِ، ولا يَستَعلِنُ بصَلاتِهِ، ولا يَقرَأُ في غيرِ دارِهِ، ثم بَدا لِأَبي بكرٍ، فابتَنى مسجدًا بِفِناءِ دارِهِ»:

«بَدا لِأَبي بكرٍ»، أَي: ظهَر له رَأيٌ في أمرِه، بخِلافِ ما كان يَفعَله.

«فِناء دارِهِ»: هو ما امتَدَّ من جَوانِب الدَّار، قيلَ: وهو أَوَّلُ مسجدٍ بُنيَ في الإِسلامِ.

«وكان يُصَلِّي فيه، ويَقرَأُ القُرآنَ، فيَنقَذِفُ عليه نساءُ المشرِكينَ وأَبناؤُهُم، وهُم يَعجَبونَ منه، ويَنظُرونَ إليه»:

وفي روايةٍ للبخاريِّ: «فيَتَقَصَّفُ عليه نساءُ المشرِكينَ وأَبناؤُهُم، يَعجَبونَ ويَنظُرونَ إليه».

أَي: يَزدَحِمونَ عليه حتى يَسقُطَ بعضهم على بعضٍ، فيَكادَ يَنكَسِرُ، وأَطلَقَ «يَتَقَصَّفُ»؛ مُبالغَة.

قال الخطَّابيّ: «هذا هو المَحفوظُ، وأَمَّا «يَتَقَذَّفُ»، فلا معنى له، إلا أَن يكونَ منَ القَذفِ، أَي: يَتَدافَعونَ، فيَقذِفُ بعضهم بعضًا، فيَتَساقَطونَ عليه، فيَرجِعُ إلى معنى الأَوَّلِ».

قَولُهُ: «وكان أَبو بكرٍ رجلًا بَكَّاءً، لا يَملِكُ عَينَيهِ إذا قَرَأَ القُرآنَ»:

«بَكَّاءً»، أي: كَثيرَ البُكاءِ.

«لا يَملِكُ عَينَيهِ»، أَي: لا يُطيقُ إمساكَهُما عَنِ البُكاءِ؛ من رِقَّةِ قَلبِهِ.

«**وأَفزَعَ ذلك أَشرافَ قريشٍ منَ المشرِكينَ**»: أَي: أَخافَ الكُفَّارَ؛ لِما يَعلَمونَهُ من رِقَّةِ قُلوب النِّساءِ والشَّباب، أَن يَميلوا إلى دينِ الإسلامِ.

قَولُهُ: «**فأَرسَلوا إلى ابنِ الدَّغِنَةِ، فقدِمَ عليهم، فقالوا: إنَّا كُنَّا أَجَرنا أَبا بكرٍ بجِوارِكَ، على أَن يَعبُدَ رَبَّهُ في دارِهِ، فقد جاوَزَ ذلك، فابتَنى مسجدًا بفِناءِ دارِهِ، فأَعلَنَ بالصلاةِ والقراءةِ فيه، وإنَّا قد خَشينا أَن يَفتِنَ نساءَنا وأَبناءَنا، فانهَهُ، فإن أَحَبَّ أَن يَقتَصِرَ على أَن يَعبُدَ رَبَّهُ في دارِهِ فعَلَ، وإن أَبى إلا أَن يُعلِنَ بذلك، فسَلهُ أَن يَرُدَّ إليك ذِمَّتَكَ؛ فإنَّا قد كَرِهنا أَن نُخفِرَكَ**»:

طلَبوا منه أن يأمُرَه ألَّا يجهرَ بصلاتِه وقراءتِه؛ للسبب المذكورِ، فإمَّا أن يفعلَ ذلك، وإمَّا أن يَرُدَّ عليه جوارَه، قالوا: «فإنَّا قد كَرِهنا أَن نُخفِرَكَ»، أَي: نَغدِر بكَ، وننقُض عهدَك، يُقالُ: خَفَرَهُ: إذا حَفِظَهُ، وأَخفَرَهُ: إذا غَدَرَ بهِ.

«**ولَسنا مُقِرِّينَ لِأَبي بكرٍ الِاستِعلانَ**»:

أَي: لا نَسكُتُ عَنِ الإنكارِ عليه؛ للمعنى الذي ذكروهُ منَ الخَشيَةِ على نسائِهِم وأَبنائِهِم أَن يَدخُلوا في دينِهِ.

«**فأَتى ابنُ الدَّغِنَةِ إلى أَبي بكرٍ فقال: قد عَلِمتَ الذي عاقدتُ لك عليه، فإمَّا أَن تَقتَصِرَ على ذلك، وإمَّا أَن ترجِعَ إلَيَّ ذِمَّتي؛ فإنِّي لا أُحِبُّ أَن تَسمع العَرَبُ أَنِّي أُخفِرتُ في رجلٍ عَقدتُ له**»:

كَرِهَ الرجُلُ خلافَ قومِه، وكَرِهَ أن يُخفَرَ في ذمَّتِه، فطلَب من أَبي بكرٍ أن يُسِرَّ بدينِه وصلاتِه ولا يعلِن بذلك، أو يَرُدَّ عليه جوارَه.

فقال أَبو بكرٍ: «**فإنِّي أَرُدُّ إليك جِوارَكَ، وأَرضى بجِوارِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ**»:

أَي: أَمانه وحِمايَته، وفيه: جَوازُ الأَخذِ بالأَشَدِّ في الدِّينِ، وقوَّةُ يَقينِ أَبي بكرٍ.

قَولُهُ: «**والنبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَومَئِذٍ بمكةَ، فقال النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للمسلمينَ: «إنِّي أُريتُ دارَ هِجرَتِكُم، ذاتَ نَخلٍ بينَ لابَتَينِ» وهُما الحَرَّتانِ**»:

قَولُهُ: «وهُما الحَرَّتانِ» هذا مُدرَجٌ في الخَبَرِ، وهو من تَفسيرِ الزُّهريِّ، والحَرَّةُ: أَرضٌ حِجارَتُها سودٌ[١].

وفي روايةٍ للبخاريِّ: «قد أُريتُ دارَ هِجرَتِكُم، رَأَيتُ سَبَخَةً ذاتَ نَخلٍ بينَ لابَتَينِ».

قال العِراقيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سَبَخَةً»: بفَتحِ السِّينِ المهمَلَةِ، والباءِ المَوَحَّدَةِ، والخاءِ المعجَمَةِ: الأَرضُ التي تَعلوها مُلوحَةٌ، وجَمعُها سِباخٌ، وهذا الذي ذكرته من فتحِ الباءِ هو إذا لَم تَجعَلها صِفَةً لِأَرضٍ، فإن قُلت: أَرضٌ سَبخَةٌ، كَسَرت الباءَ، ذكرَهُ في الصحاحِ، والمَشارِقِ»[٢].

وقال العينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السَّبَخة»- بفَتح حروفها كلها-: واحدَة السِّباخ، فإذا قلتَ: أَرضٌ سَبخَةٌ، كَسَرت الباءَ»[٣].

وعن أَبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رَأَيتُ في المَنامِ أَنِّي أُهاجِرُ من مكةَ إلى أَرضٍ بها نَخلٌ، فذَهَبَ وهَلي إلى أَنَّها اليَمامَةُ أو هَجَرُ**[٤]**، فإذا هي المَدينَةُ يَثرِبُ**»[٥].

وقال ابنُ التينِ: «كَأَنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُريَ دارَ الهِجرَةِ بصِفَةٍ تَجمَعُ المَدينَةَ وغيرَها، ثم أُريَ الصفَةَ المختَصَّةَ بالمَدينَةِ، فتَعَيَّنَت».

قَولُهُ: «فهاجَرَ مَن هاجَرَ قِبَلَ المَدينَةِ، ورجعَ عامَّةُ مَن كان هاجَرَ بأَرضِ الحَبَشَةِ إلى المَدينَةِ»:

---

(١) ينظر: فتح الباري (٧/ ٢٣٣-٢٣٤، ٢٦٦)، عمدة القاري (١٢/ ١٢٤).

(٢) طرح التثريب (٧/ ٢٧٤).

(٣) عمدة القاري (٤/ ٢٥).

(٤) قوله: «وهلي»، أي: ظني، يقال: وهل -بالفتح- يهل -بالكسر- وهلًا -بالسكون-: إذا ظن شيئًا، فتبين الأمر بخلافه. وقوله: «**اليمامة**»: بلد معروف بين مكة واليمن، وقوله: «**أو هجر**»: بلد معروف من البحرين، وهي من مساكن عبد القيس، وقد سبقوا غيرهم من القرى إلى الإسلام. وينظر: فتح الباري (٧/ ٢٢٨)، شرح النووي على مسلم (١٥/ ٣١)، النهاية (٥/ ٢٣٣)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/ ٤٥٥).

(٥) رواه البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢).

أَي: لَمَّا سَمِعوا باستيطانِ المسلمينَ المَدينَةَ رجعوا إلى مكةَ، فهاجَرَ إلى أَرضِ المَدينَةِ مُعظَمُهُم لا جَميعُهُم؛ لِأَنَّ جعفرًا ومَن معه تَخَلَّفوا في الحَبَشَةِ.

وهذا السبَبُ في مَجيءِ مُهاجِرَةِ الحَبَشَةِ غيرُ السبَب المَذكورِ في مَجيءِ مَن رجعَ منهم أَيضًا في الهِجرَةِ الأولى؛ لِأَنَّ ذاكَ كان بسَبَب سُجودِ المشرِكينَ مع النبيِّ ﷺ والمسلمينَ في سورَةِ النجمِ، فشاعَ أَنَّ المشرِكينَ أَسلَموا وسَجَدوا، فرجعَ مَن رجعَ منَ الحَبَشَةِ، فوَجَدوهُم أَشَدَّ ما كانوا.

قَولُهُ: «وتَجَهَّزَ أَبو بكرٍ قِبَلَ المَدينَةِ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «على رِسلِكَ؛ فإنِّي أَرجو أَن يُؤذَنَ لي»:

«**على رِسلِكَ**»، أَي: على مَهلِكَ، والرِّسلُ: السَّيرُ الرفيقُ، وفي رواية ابنِ حِبَّان: فقال: «**اصبر**».

قَولُهُ: «فقال أَبو بكرٍ: وهَل تَرجو ذلك -بأَبي أَنتَ-؟ قال: «نَعَم».

فَحَبَسَ أَبو بكرٍ نَفسَهُ على رسولِ اللهِ ﷺ لِيَصحَبَهُ، وعَلَفَ راحِلَتَينِ كانتا عِندَهُ ورَقَ السمُرِ -وهو الخَبَطُ- أَربَعَةَ أَشهُرٍ»:

«السمُرُ»: شجَرُ الطلحِ، وقيلَ: شجَر أمّ غيلان، وقيلَ: كل ما له ظلّ ثَخينٌ.

«وهو الخَبَطُ»، أَي: ورَق السمُر هو الخَبَطُ، وهو الوَرق المَضروب بالعصا، الساقِط من الشّجَرِ.

وقَولُهُ: «وهو الخَبَطُ» مُدرَجٌ من تَفسير الزُّهريّ.

وقَولُهُ: «أَربَعَة أَشهُرٍ»: فيه بَيانُ المدَّةِ التي كانت بينَ ابتِداءِ هِجرَةِ الصحابَةِ بينَ العَقَبَةِ الأولى والثَّانيَةِ، وبينَ هِجرَتِهِ ﷺ، وكان بينَ العَقَبَةِ الثَّانيَةِ وبينِ هِجرَتِهِ ﷺ شَهرانِ وبعضُ شَهرٍ على التحرير.

قالت عائشةُ: فبينَما نَحنُ يَومًا جُلوسٌ في بَيتِ أَبي بكرٍ في نَحرِ الظَّهيرَةِ»:

أَي: في أوَّلِ وقتِ الحَرارَةِ وهي الهاجِرة، ويُقالُ: أوّل الزَّوالِ، وهو أَشدُّ ما يكونُ من حرِّ النهارِ، والغالِبُ في أَيَّامِ الحَرّ القيلولةُ فيها[١].

وقال **ابنُ الأَثيرِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَحر الظَّهيرَةِ»: هو حينَ تَبلُغ الشَّمسُ مُنتهاها منَ الارتِفاعِ، كَأَنَّها وصَلَت إلى النحرِ، وهو أَعلى الصدرِ»[٢].

«**قال قائِلٌ لِأَبي بكرٍ: هذا رسولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مُتَقَنِّعًا**»:

«**مُتَقَنِّعًا**»: أَي: مُغَطِّيًا رَأسَه، وانتِصابُه على الحالِ.

قال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التقنُّعُ: تَغطيَةُ الرأسِ بالرِّداءِ ونَحوِه»[٣].

وقال **العِراقيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَحتَمِلُ أَن يكونَ سَبَبُهُ في تِلكَ الحالَةِ وِقايَةَ الرأسِ من الحَرِّ لِشِدَّتِهِ في ذلك الوَقتِ، وأَن يكونَ سَبَبُهُ إرادَةَ الإِختِفاءِ، وأَن لا يَطَّلِعَ أَحَدٌ على مَجيئِهِ إليهم ذلك الوَقتَ»[٤].

«**في ساعَةٍ لَم يَكُن يَأتينا فيها، فقال أَبو بكرٍ: فِداءٌ له أَبي وأُمِّي**»:

أَي: أفديه بهما، بالمَدِّ والقَصرِ، وفتحِ الفاءِ وكَسرِها[٥].

وهي كَلِمَةٌ تَستَعمِلُها العَرَبُ في التعظيمِ والتحَبُّب[٦].

و**للبخاريِّ أَيضًا**: «فِدًا لك أَبي وأُمِّي».

وقال **القاضي عياضٌ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «فِداكَ» مَقصورٌ، و«فِداءً لَك»، و«فِداءٌ له» أبي وأمي، ممدودا بكَسر الفاء فيهما، وقال يَعقوبُ: «العَرَبُ تَقولُ: «لَك الفِدى والحِمى»،

---

(١) ينظر: فتح الباري (٧/ ٢٣٤-٢٣٥) عمدة القاري (١٧/ ٤٥)، إرشاد الساري (٤/ ١٥٤).

(٢) النهاية (٥/ ٢٧).

(٣) مشارق الأنوار (٢/ ١٨٧).

(٤) طرح التثريب (٧/ ٢٧٤).

(٥) التوضيح (٦/ ١٠).

(٦) طرح التثريب (٧/ ٢٧٤).

فيُقصِرونه إذا ذكَروا الحِمى، فإذا أفرَدوه مَدُّوه، وتقول: «فداءً لَك»، و«فِداءٌ لَك»، و«فِداءٍ لَك»، بفَتح الهمزَة، وضمّها، وكَسرها، و«فِدًا لَك» مَقصور، وحكى الفراء: «فدى» مَفتوح الفاء، مَقصورا، قال الفراء: «فإذا كَسَروا الفاء مَدُّوا، ورُبما كَسَروا وقَصَروا».

وقال الأَصمَعيُّ: «الفِداء» يُمَدُّ ويُقصَرُ، لُغَتانِ مشهورَتانِ، وأما المصدَرُ من «فادَيت» فممدودٌ لا غيرَ»[1].

قولُه: «واللهِ ما جاءَ بِهِ في هذه الساعةِ إلا أَمرٌ»:

وعِندَ أحمَدَ: «ما جاءَ بكَ يا نبيَّ اللهِ إلا أَمرٌ حَدَثَ».

«قالت: فجاءَ رسولُ اللهِ ﷺ فاستَأذَنَ، فأُذِنَ له، فدَخَلَ، فقال النبيُّ ﷺ لِأَبي بكرٍ: «أَخرِج مَن عِندَكَ».

لِخُطورةِ ما جاء به، وهذا من الاحتياطِ والحَذَرِ.

وقال العِراقيُّ: «سَبَبُهُ شِدَّةُ التحَرُّزِ في أَمرِ الهِجرَةِ؛ لِئَلَّا يَعوقَ عنها عائِقٌ؛ فإنَّ فُشوَّ السِّرِّ سَبَبٌ لِحُصولِ المَفسَدَةِ، فلما أَعلَمَهُ الصدِّيقُ بأَنَّهُ ليس هُناكَ مَن يُتَوَقَّعُ منه إفشاءُ السِّرِّ بقَولِهِ: «إنَّما هُم أَهلُك»، تَكَلَّمَ بما عِندَهُ»[2].

«فقال أَبو بكرٍ: إنَّما هُم أَهلُكَ، بأَبي أَنتَ يا رسولَ اللهِ»:

أَشارَ بذلك إلى عائشةَ وأَسماءَ، كما عِندَ أحمَدَ: «فلما دَخَلَ عليهمُ البَيتَ قال لِأَبي بكرٍ: «أَخرِج مَن عِندَكَ»، فقال: ليس عليكَ عَينٌ، إنَّما هُما ابنَتايَ».

وعندَ البخاريِّ أَيضًا: «قال: يا رسولَ اللهِ، إنَّما هُما ابنَتايَ، يَعني عائشةَ وأَسماءَ».

أَمَّا عائشةُ: فأُمُّها أُمُّ رومانَ بنتُ عامرِ بن عوَيمِرٍ الكِنانيَّةُ، كما تقدّمَ

وأَمَّا أَسماءُ: فأُمُّها قَيلَةُ، وقيلَ: قُتَيلَةُ بنتُ عبدِ العُزَّى، من بَني عامِرِ بن لُؤَيٍّ.

---

(١) مشارق الأنوار (٢/ ١٤٩).

(٢) طرح التثريب (٧/ ٢٧٥).

وكانت أَسَنَّ من عائشةَ ببضعَ عَشرَةَ سنةً.

قال هشامُ بن عُروَةَ، عن أبيه: «كانت أسماءُ قد بلغَت مئةَ سنَةٍ لم يسقُط لها سِنٌّ، ولم يُنكَر لها عَقلٌ».

وقال ابنُ إسحاقَ: «أسلَمَت قديمًا بعدَ إسلامِ سبعَةَ عشَرَ إنسانًا، وهاجَرَت إلى المدينةِ وهي حامِلٌ بابنِها عبدِ اللهِ».

وماتَت بمكَّةَ بعدَ قَتلِه بعشرَةِ أيَّامٍ، وقيلَ بعشرينَ يومًا، وذلك في جمادى الأولى سنَةَ ثلاثٍ وسبعينَ[1].

وعن عبدِ اللهِ بن الزُّبَيرِ، قال: «ما رَأَيتُ امرَأَتَينِ أَجوَدَ من عائشةَ وأَسماءَ، وجودُهُما مُختَلِفٌ، أَمَّا عائشةُ: فكانت تَجمَعُ الشَّيءَ إلى الشَّيءِ، حتى إذا كان اجتَمع عِندَها قَسَمَت، وأَمَّا أَسماءُ: فكانت لا تُمسِكُ شَيئًا لِغَدٍ»[2].

قَولُهُ: «**قال: «فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخُروجِ»، فقال أَبو بكرٍ: الصحابَةَ -بأَبي أَنتَ- يا رسولَ اللهِ، قال رسولُ اللهِ** ﷺ: «**نَعَم**»:

ولأحمَدَ: «فقال أَبو بكرٍ: فالصحابَةَ -بأَبي أَنتَ- يا رسولَ اللهِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَم**».

«**الصحابَةَ**»، أَي: أُريدُ المصاحَبَةَ، ويَجوزُ الرفعُ على أَنَّهُ خَبَرُ مُبتَدَأٍ محذوفٍ.

وللبخاريِّ أَيضًا: «قال: الصحبَةَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**الصحبَةَ**».

وقال ابنُ إسحاقَ: حَدَّثَني مَن لا أَتَّهِمُ، عن عُروَةَ بن الزُّبَيرِ، عن عائشةَ... الحديث، وفيه: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَخرِج عَنِّي مَن عِندَكَ**»، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّما هُما ابنَتاي، وما ذاكَ، فِداكَ أَبي وأُمِّي؟ فقال: «**إنَّ اللهَ قد أَذِنَ لي في الخُروجِ والهِجرَةِ**»، فقال أَبو بكرٍ: الصحبَةَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**نعم، الصحبَةَ**».

---

(١) تهذيب التهذيب (١٢/ ٣٩٧)، (١٢/ ٤٣٣)، الإصابة (٨/ ١٢)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٢٣)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٨).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٨٠)، وصححه الألباني.

قالت: فوالله ما شَعُرتُ قَطُّ قَبلَ ذلك اليَومِ أَنَّ أَحَدًا يَبكي من الفَرَحِ، حتى رَأَيتُ أَبا بكرٍ يَبكي يَومئِذٍ[١].

وقال ابنُ سعدٍ: أَخبَرَنا يَزيدُ بن هارونَ، قال: أَخبَرَنا حَمَّادُ بن سَلَمَةَ، عن هِشامِ بن عُروَةَ، عن أَبيهِ، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لأَبي بكرٍ الصدِّيقِ: «**قد أُمِرتُ بالخُروجِ**» -يَعني الهِجرَةَ-، فقال أَبو بكرٍ: الصحبَة يا رسولَ اللهِ، قال: «**لك الصحبَةُ**»[٢].

وقال العِراقيُّ: «قَولُ أَبي بكرٍ: «فالصحابَةَ»، مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُهُ: أَسأَلُك، أو أَطلُبُ منك، وصَدَرَ هذا الكَلامُ من الصدِّيقِ؛ لِشِدَّةِ حِرصِهِ على صُحبَةِ النبيِّ ﷺ، وقد حقَّقَ اللهُ تعالى ذلك، ووَصَفَهُ في التنزيلِ بهِ»[٣].

قال أَبو بكرٍ: فخُذ -بأَبي أَنتَ يا رسولَ اللهِ- إحدى راحِلَتَيَّ هاتَينِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «بالثَّمَنِ»:

قال السُّهَيليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُئِلَ بعضُ أَهلِ العِلمِ: لِمَ لَم يَقبَلها إلا بالثّمَنِ، وقد أَنفَقَ أَبو بكرٍ عليه من مالِهِ ما هو أَكثَرُ من هذا فقَبِلَ؟ فأجاب: «إنّما ذلك لِتكونَ هِجرَتُهُ إلى اللهِ بنَفسِهِ ومالِهِ؛ رَغبَةً منه ﷺ في استِكمالِ فضلِ الهِجرَةِ والجِهادِ على أَتَمّ أَحوالِهما».

قال السُّهَيليُّ: «وهو قَولٌ حَسَنٌ، حَدّثَني بهذا بعضُ أَصحابنا، عن الفَقيهِ الزَّاهِدِ أَبي الحَسَنِ بن اللُّوَّانِ رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]»[٥].

وقال العِراقيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن قُلتَ: لِمَ امتَنَعَ النبيُّ ﷺ من أَخذِ إحدى راحِلَتَي

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٤)، مسند ابن راهويه (١١٦١).

(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ١٢٩).

(٣) طرح التثريب (٧/ ٢٧٥).

(٤) هو علي بن إبراهيم بن علي بن أحمد الأنصاري، يعرف بابن اللوان، كان حافظًا للحديث، مشهورًا بمعرفته وفهمه، وأخذ الناس عنه، وكان دينًا، فاضلًا، معظمًا عند الناس، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في رجب، سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة. ينظر: الصلة لابن بشكوال (ص٤٠٥).

(٥) الروض الأنف (٤/ ١٣٠).

الصدِّيقِ إلا بالثَّمَنِ، مع قَولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أَمَنَّ الناسِ عَلَيَّ في مالِهِ وصُحبَتِهِ أَبو بكرٍ**»؟ وهو في الصحيحَينِ من حَديثِ أَبي سَعيدٍ الخُدريِّ[1]، ورَوى التِّرمِذيُّ عن أَبي هريرة، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما لِأَحَدٍ عِندَنا يَدٌ إلا وقد كافَأناهُ ما خَلا أَبا بكرٍ، فإنَّ له عِندَنا يَدًا يُكافِئُهُ اللهُ بها يَومَ القيامَةِ، وما نَفَعَني مالُ أَحَدٍ قَطُّ ما نَفَعَني مالُ أَبي بكرٍ**»[2]؟.

قُلتُ: قد يُقالُ: لا يَلزَمُ مِنَ انتِفاعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمالِ أَبي بكرٍ ومِنَّتِهِ عليه فيه أَن يكونَ أَخذهُ منه بغيرِ عِوَضٍ، فيَصدُقُ ذلك مع العِوَضِ، ويَحتَمِلُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَأخُذُ منه بغيرِ عِوَضٍ، وإنَّما امتَنَعَ هُنا إلا بعِوَضٍ؛ لِأَنَّ هذه الهِجرَةَ قُربَةٌ عَظيمَةٌ، فأَرادَ انفِرادَهُ بالأَجرِ فيها، واللهُ أَعلَمُ»[3].

قالت عائشةُ: «فجَهَّزناهُما أَحَثَّ الجِهازِ»:

«**أحثّ**»: أَفعَلُ تَفضيلٍ منَ الحَثِّ، وهو الإسراعُ، و«**الجَهازُ**»: بفَتحِ الجيمِ، وقد تُكسَرُ، ومنهم مَن أَنكَرَ الكَسرَ، وهو ما يُحتاجُ إليه في السفَرِ.

«وصَنَعنا لهما سُفرَةً في جِرابٍ»:

أَي: زادًا في جِرابٍ؛ لِأَنَّ أَصلَ السُّفرَةِ في اللُّغَةِ: الزَّادُ الذي يُصنَعُ للمُسافِرِ، ثم استُعمِلَ في وِعاءِ الزَّادِ، ومِثلُهُ: المَزادَةُ للماءِ، وكذلك: الراويَةُ، فاستُعمِلَتِ السُّفرَةُ في هذا الخَبَرِ على أَصلِ اللُّغَةِ.

«فقَطَعَت أَسماءُ بنتُ أَبي بكرٍ قِطعَةً من نِطاقِها، فرَبَطَت بهِ على فمِ الجِراب، فبذلك سُمِّيَت ذاتَ النِّطاقَينِ»:

النِّطاقِ: ما يُشَدُّ بهِ الوَسَطُ، وقيلَ: هو إزارٌ فيه تِكَّةٌ، وقيلَ: هو ثَوبٌ تَلبَسُهُ المَرأَةُ، ثم تَشُدُّ وسَطَها بحَبلٍ، ثم تُرسِلُ الأَعلى على الأَسفَلِ، قاله أَبو عبيد الهَرَويُّ، قال: «وسُمِّيَت

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٠٤)، صحيح مسلم (٢٣٨٢).

(٢) سنن الترمذي (٣٦٦١).

(٣) طرح التثريب (٧/ ٢٧٥).

ذاتَ النِّطاقَينِ؛ لِأَنَّها كانت تَجعَلُ نِطاقًا على نِطاقٍ، وقيلَ: كان لها نِطاقانِ، تَلبَسُ أَحَدَهُما، وتَجعَلُ في الآخَرِ الزَّادَ».

والمَحفوظُ: أَنَّها شَقَّت نِطاقَها نِصفَينِ، فشَدَّت بأَحَدِهِما الزَّادَ، واقتَصَرَت على الآخَرِ، فمن ثَمَّ قيلَ لها: «ذاتُ النِّطاقِ»، و«ذاتُ النِّطاقَينِ»، فالتثنيَةُ والإفرادُ بهَذَينِ الاعتبارين[1].

وقال ابنُ هِشامٍ: «وسَمِعتُ غيرَ واحدٍ من أَهلِ العِلمِ يقولُ: «ذاتُ النِّطاقَينِ».

وتَفسيرُهُ: أَنَّها لَمَّا أَرادَت أَن تُعَلِّقَ السُّفرَةَ شَقَّت نِطاقَها باثنَينِ، فعَلَّقَتِ السُّفرَةَ بواحدٍ، وانتَطَقَت بالآخَرِ»[2].

وقال ابنُ كثيرٍ: «يُقالُ لها: ذاتُ النِّطاقَينِ، وإنَّما سُمِّيَت بذلك عامَ الهِجرَةِ حينَ شَقَّت نِطاقَها، ورَبَطَت بهِ سُفرَةَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَبي بكرٍ، حينَ خرجا إلى غارِ ثَورٍ للهِجرَةِ»[3].

وقال ابنُ سعدٍ: أَخبَرَنا يَزيدُ بن هارونَ، قال: أَخبَرَنا حَمَّادُ بن سَلَمَةَ، عن هِشامِ بن عُروَةَ، عن أَبيهِ، قال: «كانت أَسماءُ تَجعَلُ لهما طَعامًا، فتَبعَثُ بهِ إليهما، فجَعَلَت طَعامًا في سفرَةٍ، فلم تَجِد شَيئًا تَربطُها بهِ، فقَطَعَت نِطاقِها فرَبَطَتها بهِ، فسُمِّيَت ذات النِّطاقَينِ»[4].

وفي الصحيحِ عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت للحَجَّاجِ: «بلغَني أَنَّكَ تَقولُ له -يعني: لعبدِاللهِ ابنِها-: يا ابنَ ذاتِ النِّطاقَينِ، أَنا واللهِ ذاتُ النِّطاقَينِ، أَمَّا أَحَدُهُما: فكُنتُ أَرفَعُ بهِ طَعامَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطَعامَ أَبي بكرٍ منَ الدَّوابِّ، وأَمَّا الآخَرُ: فنِطاقُ المَرأَةِ التي لا تَستَغني عنه»[5].

---

(١) ينظر: الفتح (٧/ ٢٣٦).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٦).

(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٢٢٢).

(٤) الطبقات الكبرى (٣/ ١٢٩).

(٥) رواه مسلم (٢٥٤٥).

وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **قالت**: صَنَعتُ سُفرَةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بَيتِ أَبي بكرٍ، حينَ أَرادَ أَن يُهاجِرَ إلى المَدينَةِ، فلم نَجِد لِسُفرَتِهِ ولا لِسِقائِهِ ما نَربطُهُما بِهِ، فقُلتُ لِأَبي بكرٍ: واللهِ ما أَجِدُ شَيئًا أَربطُ بِهِ إلا نِطاقي، قال: «فشُقِّيهِ باثنَينِ، فاربطي بواحدٍ السِّقاءَ، وبالآخَرِ السُّفرَةَ»، ففَعَلتُ، فلِذلك سُمِّيت ذاتَ النِّطاقَينِ[١].

وعن وهب بن كَيسانَ، قال: كان أَهلُ الشَّأمِ[٢] يُعَيِّرونَ ابنَ الزُّبَيرِ، يقولونَ: يا ابنَ ذاتِ النِّطاقَينِ، فقالت له أَسماءُ: «يا بُنَيَّ، إنَّهُم يُعَيِّرونَكَ بالنِّطاقَينِ، هَل تَدري ما كان النِّطاقانِ؟ إنَّما كان نِطاقي، شَقَقتُهُ نِصفَينِ، فأوكَيتُ قِربَةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأَحَدِهِما، وجَعَلتُ في سُفرَتِهِ آخَرَ»[٣].

قَولُهُ: «ثم لَحِقَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَبو بكرٍ بغارٍ في جَبَلِ ثَورٍ، فكَمَنا فيه ثَلاثَ لَيالٍ»:

«**ثَور**»: جبلٌ من جِبالِ مكةَ، على مَسيرَةِ ساعَة[٤].

وفيه الغارُ المذكورُ في القرآنِ، ويقالُ لهُ: «ثَورُ أَطحَلَ»، وقال بعضُهم: اسمُ الجبلِ «أطحَلُ»[٥].

والغارُ: ثُقبٌ في الجَبَلِ[٦].

وقال ابنُ منظورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الغارُ: مَغارةٌ في الجَبَلِ كالسرب، وقيلَ: الغارُ كالكَهف في الجَبَلِ، والجَمعُ الغيرانُ.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٧٩).

(٢) «الشأم»: بهمزة ساكنة، مثل رأس، ويجوز تخفيفه بحذفها، كما في رأس وشبهه. تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٣/ ١٧١).

(٣) رواه البخاري (٥٣٨٨).

(٤) عمدة القاري (١٦/ ١٧٣).

(٥) الصحاح (٢/ ٦٠٦).

(٦) تفسير القرطبي (٨/ ١٤٤).

وقال اللِّحيانيُّ: «هو شِبهُ البَيتِ فيه»، وقال ثَعلَبٌ: «هو المنخَفِضُ في الجَبَلِ».

وكُلُّ مُطمَئِنٍ منَ الأَرض: غارٌ»[1].

«**فكَمَنا فيه**»: بفَتحِ الميمِ، ويَجوزُ كَسرُها، أَي: اختَفيا فيه[2].

وقال أبو الفتحِ المطَرِّزِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَمَنَ: تَوارى واستَخفى، ومنه: الكَمينُ، من حيَلِ الحَرب، وهو أَن يَستَخفوا في مَكمَنٍ، لا يُفطَنُ لهم»[3].

وقال الحافظُ: «قال الحاكِمُ: «تَواتَرَتِ الأَخبارُ أَنَّ خُروجَهُ كان يَومَ الِاثنَينِ، ودُخوله المَدينَةَ كان يَومَ الِاثنَينِ، إلا أَنَّ محمدَ بن موسى الخوارَزميَّ قال: إنَّهُ خرجَ من مكةَ يَومَ الخَميسِ».

قال الحافظُ: «يُجمَعُ بينهما: بأَن خُروجَهُ من مكةَ كان يَومَ الخَميسِ، وخُروجَهُ منَ الغارِ كان لَيلَةَ الِاثنَينِ؛ لِأَنَّهُ أَقامَ فيه ثَلاثَ لَيالٍ، فهي لَيلَةُ الجُمُعَةِ، ولَيلَةُ السبتِ، ولَيلَةُ الأَحَدِ، وخرجَ في أَثناءِ لَيلَةِ الِاثنَينِ. ووَقَعَ في روايةِ هِشامِ ابنِ عُروَةَ عِندَ ابن حِبَّان: «فرَكِبا حتى أَتَيا الغارَ، وهو بثَور، فتَوارَيا فيه»[4].

وذكرَ موسى بن عُقبَةَ عَنِ ابن شِهابٍ، قال: «فرَقدَ عَلِيٌّ على فِراشِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يوَرِّي عنه، وباتَت قريشٌ تختلفُ وتَأتَمِرُ: أَيُّهُم يَهجُمُ على صاحِبِ الفِراشِ فيوثِقُهُ، حتى أَصبَحوا، فإذا هُم بعَلِيٍّ، فسألوهُ، فقال: «لا عِلمَ لي»، فعَلِموا أَنه فرَّ منهم.

وذكر ابنُ إسحاقَ نحوهُ، وزادَ: «أَنَّ جبريلَ أَمَرَهُ لا يَبيتُ على فِراشِهِ، فدَعا عَلِيًّا فأَمَرَهُ أَن يَبيتَ على فِراشِهِ، ويُسَجَّى ببُردِهِ الأَخضَرِ، ففَعَلَ، ثم خرجَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على القَومِ، ومعه حَفنَةٌ من تُرابٍ، فجَعَلَ يَنثرُها على رُؤوسِهم، وهو يَقرَأُ، ﴿يسٓ﴾، إلى: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١- ٩]».

---

(١) لسان العرب (٥/ ٣٥).

(٢) فتح الباري (٧/ ٢٣٧).

(٣) المغرب في ترتيب المعرب (ص٤١٧).

(٤) صحيح ابن حبان (٦٢٧٩)، وإسناده صحيح.

وذكر أَحمدُ من حَديث ابن عباسٍ بإسنادٍ حَسَنٍ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، قال: «تَشاوَرَت قريشٌ لَيلَةً بمكةَ، فقال بعضهم: «إذا أَصبَحَ فأَثبتوهُ بالوَثاقِ»، يُريدونَ النبيَّ ﷺ، وقال بعضهم: «بَلِ اقتُلوهُ»، وقال بعضهم: «بَل أَخرِجوهُ»، فأَطلَعَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نبيَّهُ على ذلك، فباتَ عَليٌّ على فِراشِ النبيِّ ﷺ تِلكَ اللَّيلَةَ، وخرجَ النبيُّ ﷺ حتى لَحِقَ بالغارِ، وباتَ المشرِكونَ يَحرُسونَ عَليًّا، يَحسَبونَهُ النبيَّ ﷺ، فلما أَصبَحوا ثاروا إليه، فلما رَأوا عَليًّا رَدَّ اللهُ مَكرَهُم، فقالوا: أَينَ صاحِبُكَ هذا؟ قال: لا أَدري، فاقتَصُّوا أَثَرَهُ، فلما بلغوا الجَبَلَ خُلِّطَ عليهم، فصَعِدوا في الجَبَلِ، فمَرُّوا بالغارِ...»[1].

وقال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَقاما في الغارِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ؛ ليسكُنَ الطلَبُ عنهما؛ وذلك لِأَنَّ المشرِكينَ حينَ فقدوهُما ذَهَبوا في طَلَبِهِما كُلَّ مَذهَبٍ من سائِرِ الجِهاتِ، وجَعَلوا لِمَن رَدَّهُما أو أَحَدَهُما مئةً منَ الإبلِ، واقتَصُّوا آثارَهُما حتى اختَلَطَ عليهم، وكان الذي يَقتَصُّ الأَثَرَ لِقريشٍ: سُراقَةَ بن مالِكِ بن جُعشُمٍ، فصَعِدوا الجَبَلَ الذي هُما فيه، وجَعَلوا يَمُرُّونَ على باب الغارِ، فتُحاذي أَرجُلُهُم لِباب الغارِ، ولا يَرَونَهُما؛ حِفظًا منَ اللهِ لهما، كَما في الصحيحَينِ عن أَنَسِ بن مالِكٍ: أَنَّ أَبا بكرٍ الصدِّيقَ حَدَّثَهُ قال: نَظَرتُ إلى أَقدامِ المشرِكينَ على رُءوسِنا ونَحنُ في الغارِ، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، لَو أَنَّ أَحَدَهُم نَظَرَ إلى قدَمَيهِ أَبصَرَنا تَحتَ قدَمَيهِ! فقال: «**يا أَبا بكرٍ، ما ظَنُّكَ باثنَينِ اللهُ ثالِثُهُما؟**»[2][3].

قَولُهُ: «يَبيتُ عِندَهُما عبدُ اللهِ بن أَبي بكرٍ، وهو غُلامٌ شابٌّ، ثَقِفٌ، لَقِنٌ»:

«ثَقِفٌ»: بفَتحِ الثَّاءِ وكَسرِ القافِ، ويَجوزُ إسكانُها وفَتحُها: الحاذِقُ، تَقولُ: ثَقِفتُ الشَّيءَ، إذا أَقَمتَ عِوَجَهُ.

«لَقِنٌ»: هو السريعُ الفَهمِ[4].

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٣٦)، وأثر ابن عباس رواه أحمد (٣٢٥١)، وضعفه محققو المسند.

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٣)، (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١).

(٣) البداية والنهاية (٤/ ٤٥٥)، بتصرف يسير.

(٤) الفتح (٧/ ٢٣٧).

وقال ابنُ الأثيرِ: «ثَقِفٌ»: المرادُ أَنَّهُ ثابتُ المعرفة بما يُحتاج إليه.

«لَقِنٌ»، أي: فهِمٌ، حَسَنُ التلَقُّن لِما يَسمَعُه»[١].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ في ترجمتِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أمُّه وأمُّ أَسماءَ واحدةٌ، امرأةٌ من بني عامِرِ بن لُؤَيّ، سَميُّ أَبيهِ[٢]، شَهِدَ عبدُ اللهِ بن أَبي بكرٍ الطائفَ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرُميَ بسهمٍ، رماه بهِ أَبو مِحجَن الثقَفيُّ فيما ذكَر الواقِديُّ، فدملَ جرحُه حتى انتقضَ به، فماتَ منه في أوّلِ خلافةِ أَبيهِ، وذلك في شوَّال، من سنةِ إحدى عشرَةَ، وكان إسلامه قديمًا، ولم يُسمَع له بمشهَدٍ إلا شُهودُه الفَتحَ، وحُنَينًا، والطائفَ.

وكان قدِ ابتاع الحُلّة التي أرادوا دفنَ رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها بتسعةِ دنانيرَ، ليُكَفَّنَ فيها، فلما حضَرَتهُ الوفاةُ قال: «لا تُكَفِّنوني فيها؛ فلو كان فيها خيرٌ كُفِّنَ فيها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

ودُفِنَ بعد الظُّهرِ، وصَلَّى عليه أبوهُ، ونزلَ في قبرِه عمر، وطلحةُ، وعبدُ الرحمنِ أخوهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»[٣].

قَولُهُ: «فيَدَّلِجُ من عِندِهِما بسَحَرٍ»:

«فيَدَّلِجُ»، بتشديدِ الدَّالِ، أَي: يَخرجُ بالسحَرِ مُنصرفًا إلى مكة، يُقالُ: أدلَجَ، إذا سار في أوّلِ اللَّيل، وقيلَ: في كُلِّه، وأدَّلَج، بتشديدِ الدَّالِ، إذا سارَ في آخِرِه[٤].

والسحرُ والسحَر: آخِرُ اللَّيلِ قُبَيلَ الصبحِ[٥].

«فيُصبحُ مع قريشٍ بمكةَ كَبائِتٍ».

---

(١) النهاية (١/ ٢١٦)، (٤/ ٢٦٦).

(٢) لأن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسمه عبد الله، فهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤي القرشي التميمي. ينظر: الإصابة (٤/ ١٤٤).

(٣) الاستيعاب (٣/ ٨٧٤-٨٧٥).

(٤) عمدة القاري (١٧/ ٤٦).

(٥) لسان العرب (٤/ ٣٥٠).

أَي: مِثلَ البائِتِ، يَظُنُّهُ كذلك مَن لا يَعرِفُ حقيقَةَ أَمرِهِ؛ لِشِدَّةِ رُجوعِهِ بغَلَسٍ.

«فلا يَسمَعُ أَمرًا، يُكتادانِ بِهِ إلا وعاهُ، حتى يَأتيَهُما بخَبَرِ ذلك حينَ يَختَلِطُ الظَّلامُ»:

«يُكتادانِ بِهِ»: يُكادانِ بِهِ، أَي: يُطلَبُ لهما فيه المَكروهُ، وهو منَ الكَيدِ[١].

«ويَرعى عليهما عامِرُ بن فُهَيرَةَ، مَولى أَبي بكرٍ»:

ذكَر ابنُ إسحاقَ في المغازي، عن عائشةَ: «كان عامرُ بن فُهيرةَ مولَّدًا من الأَزدِ، وكان للطُّفَيلِ بن عبدِ اللهِ بن سَخبَرَةَ، فاشتَراه أَبو بكرٍ منه فأعتقَه، وكان حَسَنَ الإسلامِ».

وذكرَه ابنُ إسحاقَ وجميعُ مَن صنَّف في المغازي فيمَن استُشهِد ببئرِ مَعونةَ[٢].

وروى البخاريُّ عن عُروَةَ، قال: لَمَّا قُتِلَ الذينَ ببئرِ مَعونَةَ، وأُسِرَ عَمرو بن أُمَيَّةَ الضَّمريُّ، قال له عامِرُ بن الطُّفَيلِ: مَن هذا؟ فأَشارَ إلى قَتيلٍ، فقال له عَمرو بنُ أُمَيَّةَ: هذا عامِرُ بن فُهَيرَةَ، فقال: لَقد رَأَيتُهُ بعدَ ما قُتِلَ رُفِعَ إلى السماءِ، حتى إنِّي لَأَنظُرُ إلى السماءِ بينَهُ وبينَ الأَرضِ، ثم وُضِعَ.

فَأَتى النبيَّ ﷺ خَبَرُهُم فنَعاهُم، فقال: **«إنَّ أَصحابَكُم قد أُصيبوا، وإنَّهُم قد سألوا رَبَّهُم، فقالوا: رَبَّنا أَخبِر عَنَّا إخوانَنا بما رَضينا عنكَ، ورَضيتَ عَنَّا، فأَخبَرَهُم عنهم»**[٣].

وفي مَغازي موسى بن عُقبَةَ عن عُروَةَ، أَنَّهُ قال: «لَم يوجَد جَسَدُ عامِرِ بن فُهَيرَةَ، يرَونَ أَنَّ المَلائِكَةَ هي وارَتهُ»[٤].

---

(١) الفتح (٧/ ٢٣٧).

(٢) الإصابة (٣/ ٤٨٢).

(٣) صحيح البخاري (٥/ ١٠٦)، رواه البخاري عقب حديث الهجرة، وقال الحافظ: «وإنما فصله ليبين الموصول من المرسل، وكأن هشام بن عروة حدث به عن أبيه هكذا، فذكر قصة الهجرة موصولةً بذكر عائشة فيه، وقصة بئر معونة مرسلةً ليس فيه ذكر عائشة، ووجه تعلقه به من جهة ذكر عامر بن فهيرة، فإنه ذكر في شأن الهجرة أنه كان معهم». فتح الباري (٧/ ٣٩٠).

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٤٢)، البداية والنهاية (٥/ ٥٢٨).

وقال ابنُ كثيرٍ: «كان عامِرُ بن فُهَيرَةَ -ويُكَنَّى أَبا عَمرٍو- من مَوَلَّدي الأَزدِ، أَسوَدَ اللَّونِ، وكان أَوَّلًا مَولًى للطُّفَيلِ بن الحارِثِ أَخي عائشةَ لِأُمِّها أُمِّ رومانَ، فأَسلَمَ قديمًا قَبلَ أَن يَدخُلَ رسولُ اللهِ ﷺ دارَ الأَرقَمِ بن أَبي الأَرقَمِ -التي عِندَ الصفا- مُستَخفيًا، فكان عامِرٌ يُعَذَّبُ مع جُملَةِ المستَضعَفينَ بمكةَ ليَرجِعَ عن دينِهِ فيَأبى، فاشتَراهُ أَبو بكرٍ الصدِّيقُ فأَعتَقَهُ، فكان يَرعى له غَنَمًا بظاهِرِ مكةَ، ولَمَّا هاجَرَ رسولُ اللهِ ﷺ ومعه أَبو بكرٍ كان معهما رَديفًا لِأَبي بكرٍ، ومعهمُ الدَّليلُ الدُّؤَليُّ فقَط.

ولَمَّا ورَدوا المَدينَةَ نزلَ عامِرُ بن فُهَيرَةَ على سَعدِ بن خَيثَمَةَ، وآخى رسولُ اللهِ ﷺ بينَهُ وبينَ أوسِ بن مُعاذٍ، وشَهِدَ بَدرًا وأُحُدًا، وقُتِلَ يَومَ بئرِ مَعونَةَ، وذلك سنةَ أَربَعٍ منَ الهِجرَةِ، وكان عُمرُهُ -إذ ذاكَ- أَربَعينَ سنةً.

وقد ذكرَ عُروَةُ وابنُ إسحاقَ والواقِديُّ وغيرُ واحدٍ: أَنَّ عامِرًا قَتَله يَومَ بئرِ مَعونَةَ رجلٌ يُقالُ له: جَبَّارُ بن سُلمى من بَني كِلابٍ، فلما طَعَنَهُ بالرُّمحِ قال: «فُزتُ ورَبِّ الكَعبَةِ»، ورُفِعَ عامِرٌ حتى غابَ عَنِ الأَبصارِ، حتى قال عامِرُ بن الطُّفَيلِ: «لَقد رُفِعَ حتى رَأَيتُ السماءَ دونَهُ».

وسأَلَ عَمرَو بن أُمَيَّةَ عنه، فقال: «كان مَن أَفضَلِنا، ومن أَوَّلِ أَهلِ بَيتِ نبيِّنا ﷺ».

قال جَبَّارٌ: «فسألتُ الضَّحَّاكَ بن سُفيانَ عَمَّا قال، ما يَعني بهِ؟ فقال: يَعني: الجنةَ.

ودَعاني الضَّحَّاكُ إلى الإسلامِ فأَسلَمتُ؛ لِما رَأَيتُ من قَتلِ عامِرِ بن فُهَيرَةَ»[1].

قَولُهُ: «منحَةً من غَنَمٍ»:

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هي في الأَصل الشَّاةُ التي يَجعَل الرجُلُ لَبنَها لغيرِه، ثمَّ يَقعُ على كُلِّ شاةٍ، وقال ابن فارس: «المنحَةُ والمَنيحَةُ: منحَةُ اللَّبَنِ، والمنحَةُ: الناقَةُ أو الشَّاةُ يُعطي لَبنَها، ثمَّ جُعلَت كُلَّ عَطيَّة منحةً»[2].

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٣٤٣).

(٢) عمدة القاري (١٧/ ٤٦).

قَولُهُ: «فيُرِيحُها عليهما حينَ تَذهَبُ ساعَةٌ منَ العِشاءِ، فيَبيتانِ في رِسلٍ»:

«**فيُرِيحُها**»، أَي: فيَرُدّها إلى المَراحِ، هَكذا رواهُ الكُشميهَنيِّ، وفي روايةِ غَيرِه: «فيُرِيحُه»، بتذكيرِ الضَّميرِ، أَي: يُرِيحُ الذي يَرعاهُ.

والرِّسل: هو اللَّبَنُ الطريُّ[1].

قَولُهُ: «وهو لَبَنُ منحَتِهِما ورَضيفِهِما»:

«الرضيفُ»: اللَّبَنُ المَرضوفُ، أَي: التي وُضِعَت فيه الحِجارَةُ المحماةُ بالشَّمسِ أَوِ النارِ؛ ليَنعَقِدَ، وتَزولَ رَخاوَتُهُ.

قال ابنُ الأَثيرِ: «الرضيفُ: اللَّبَنُ المَرضوف، وهو الذي طُرِح فيه الحِجارَةُ المحماة؛ ليذهَب وخمُه»[2].

قَولُهُ: «حتى يَنعِقَ بها عامِرُ بن فُهَيرَةَ بغَلَسٍ»:

أَي: يَصيحَ بغَنَمِهِ، والنعيقُ: صَوتُ الراعي إذا زَجَرَ الغَنَمَ، ووَقَعَ في روايةِ أَبي ذَرٍّ: «حتى يَنعِقَ بهِما»، بالتثنيَةِ، أَي: يُسمِعُهُما صَوتَهُ إذا زَجَرَ غَنَمَهُ.

ووَقَعَ في حَديث ابن عباس عِند ابن عائِذٍ في هذه القِصَّةِ: «ثم يَسرَحُ عامِرُ بنُ فُهَيرَةَ، فيُصبحُ في رُعيانِ الناسِ كَبائِتٍ، فلا يُفطَنُ بهِ».

وفي روايةِ موسى بن عقبَة عَن ابنِ شِهابٍ: «وكان عامِرٌ أَمينًا، مُؤتَمَنًا، حَسَنَ الإسلامِ»[3].

والغَلَسُ: ظُلمَةُ آخِرِ اللَّيلِ.

قَولُهُ: «يَفعَلُ ذلك في كُلِّ لَيلَةٍ من تِلكَ اللَّيالي الثَّلاثِ»:

التي أَقاما فيها بالغارِ.

---

(١) الفتح (٧/ ٢٣٧)، (١٠/ ٢٧٤)، عمدة القاري (١٧/ ٤٦)، (٢١/ ٣١٠).

(٢) النهاية (٢/ ٢٣١).

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٣٧).

«واستَأجَرَ رسولُ اللهِ ﷺ وأَبو بكرٍ رجلًا من بَني الدِّيلِ، وهو من بَني عبدِ بنِ عَديٍّ»:

ووَقع في سيرةِ ابنِ إسحاقَ -تَهذيب ابنِ هِشامٍ- اسمُه: «عبدُ اللهِ بن أَرقَطَ»، وقال ابنُ هِشامٍ: ويُقالُ: «عبدُ اللهِ بن أُرَيقِطٍ»[١]، وكذا عندَ ابن سعدٍ: «عبد اللهِ بن أُرَيقِط»، بالتصغيرِ[٢].

وقال العَينيُّ: «وفي رواية الأَمَوي عَن ابن إسحاق: «أُرَيقِد»، وعِندَ ابنِ سَعدٍ: «عبد الله بن أُرَيقِط» بالطاءِ مَوضِع الدَّال بالتصغيرِ، وهذا هو الأَشهر، وقال ابن التين عَن مالك: «اسمُهُ رُقَيط»، وكان كافِرًا»[٣].

قَولُهُ: «هاديًا خِرِّيتًا، والخِرِّيتُ: الماهِرُ بالهِدايَةِ»:

قَولُهُ: «والخِرِّيتُ: الماهِرُ بالهِدايَةِ»، مدرجٌ من كَلامِ الزُّهريِّ.

قال الأَصمَعيُّ: «إنَّما سُمِّيَ خِرِّيتًا؛ لِأَنَّهُ يَهتدي لمثلِ خُرتِ الإبرَةِ، أَي: ثَقبها»[٤].

وقال ابنُ الأَثيرِ: «الخِرِّيتُ: الماهِرُ الذي يَهتَدي لِأَخراتِ المَفازَةِ، وهي طُرُقُها الخفيَّة ومَضايقُها»[٥].

قَولُهُ: «قد غَمَسَ حِلفًا في آلِ العاصِ بن وائِلٍ السهميِّ»:

وللبخاريِّ أَيضًا: «قد غَمَسَ يَمينَ حِلفٍ في آلِ العاصِ بن وائِلٍ»

قال ابنُ المُلَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُريدُ أَنَّه كان حليفًا لهُم، وكانوا إذا تحالَفوا غمَسوا أيديَهُم في دَمٍ أو خَلوقٍ أو نحوِهما من شيءٍ فيه تلوينٌ، فيكونُ تأكيدًا للحِلفِ.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٨).
(٢) الطبقات الكبرى (١/ ١٧٧).
(٣) عمدة القاري (١٧/ ٤٧).
(٤) الفتح (٧/ ٢٣٨).
(٥) النهاية (٢/ ١٩).

و«الحَلِفُ»: بفَتحِ الحاءِ، وكَسرِ اللامِ: مَصدَرُ «حلَفت»، وتسكين اللَّامِ: العهدُ بينَ القومِ»[١].

قَولُهُ: «وهو على دينِ كُفَّارِ قريشٍ»:

قال الحافظُ: «لم أرَ مَن ذكرَهُ في الصحابَةِ إلا الذّهبيَّ في التّجريدِ، وقد جَزَمَ عَبدُ الغنيِّ المَقدِسيُّ في السِّيرةِ لَه بأنّه لَم يُعرف لَه إسلامٌ، وتَبعَهُ النوويُّ في تَهذيب الأسماءِ»[٢].

قَولُهُ: «فأَمِناهُ، فدَفَعا إليه راحِلَتَيهِما، وواعَداهُ غارَ ثَورٍ بعدَ ثَلاثِ لَيالٍ، فأَتاهُما براحِلَتَيهِما صُبحَ ثَلاثٍ»:

زادَ مُوسى بن عُقبَةَ عَن ابن شِهابٍ: «حتى إذا هَدَأَت عنهما الأَصواتُ جاءَ صاحِبُهُما ببَعيرَيهما، فانطَلقا معهما بعامِرِ بن فُهَيرَةَ يَخدُمُهُما ويُعينُهُما، يُردِفُهُ أَبو بكرٍ ويُعقِبُهُ، ليس معهما غيرُهُ»[٣].

قَولُهُ: «فأَخَذَ بهِم طَريقَ السواحِلِ»:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «لَمَّا خرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَ الغارِ مُهاجِرًا ومعه أَبو بكرٍ، وعامِرُ بن فُهَيرَةَ مُردِفُهُ أَبو بكرٍ، وخَلفَهُ عبدُ اللهِ بن أُرَيقِطٍ اللَّيثيُّ، فسَلك بهما أَسفَلَ من مكةَ، ثم مَضى بهما حتى هَبَطَ بهما على الساحِلِ أَسفَلَ من عُسفانَ، ثم استَجازَ بهما على أَسفَلِ أَمَجَ، ثم عارَضَ الطريقَ بعدَ أَن أَجازَ قُدَيدًا، ثم سَلك بهما الخَرَّارَ، ثم أَجازَ بهما ثَنيَّةَ المرارِ، ثم سَلك بهما الحَفياءَ، ثم أَجازَ بهما مدلجَةَ لَقفٍ، ثم استَبطَنَ بهما مدلجَةَ مَجاجٍ، ثم سَلك بهما مَذحِجَ، ثم ببَطنِ مَذحِجَ، ثم ببَطنِ ذي كَشرٍ، ثم أَخَذَ الجباجِبَ، ثم سَلك ذا سَلَمٍ، ثم أَخَذَ القاحَةِ، ثم هَبَطَ العَرجِ، ثم سَلك ثَنيَّةَ العائِرِ، ثم هَبَطَ بَطنَ ريمٍ، فقدِمَ قُباءَ على بَني عَمرِو بن عَوفٍ»[٤].

وقال ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلما خرجَ بهما دَليلُهُما عبدُ اللهِ بن أَرقَطَ، سَلك بهما أَسفَلَ

---

(١) التوضيح (٢٠/ ٥٤٢).

(٢) الإصابة (٤/ ٥).

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٣٨).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٤٢٧٢)، وصححه الحافظ في الفتح (٧/ ٢٣٨)، وفي السياق تصحيفات في أسماء المنازل، عدلنا ما أمكن منها.

مكةَ، ثم مَضى بهما على الساحِلِ، حتى عارَضَ الطريقَ أَسفَلَ من عُسفانَ، ثم سَلك بهما على أَسفَلِ أَمَجَ، ثم استَجازَ بهما، حتى عارَضَ بهما الطريقَ، بعدَ أَن أَجازَ قُدَيدًا، ثم أَجازَ بهما من مَكانِهِ ذلك، فسَلك بهما الخَرَّارَ، ثم سَلك بهما ثَنيَّةَ المرَّةِ، ثم سَلك بهما لقفًا، ثم أَجازَ بهما مدلجَةَ لقفٍ، ثم استَبطَنَ بهما مدلجَةَ عَجاج، ثم سَلك بهما مَرجِحَ عَجاج، ثم تَبطَّنَ بهما مَرجِحَ من ذي الغَضوَينِ، ثم بَطنَ ذي كَثرٍ، ثم أَخَذَ بهما على الجَداجِدِ، ثم على الأَجرَدِ، ثم سَلك بهما ذا سَلَمٍ، ثم على العَبابيدِ، ثم أَجازَ بهما الفاجَّةَ، ثم هَبَطَ بهما العَرجَ، ثم خرجَ بهما دَليلُهُما من العَرجِ، فسَلك بهما ثَنيَّةَ العائِرِ، حتى هَبَطَ بهما بَطنَ رِئمٍ، ثم قدِمَ بهما قُباءً، على بَني عَمرِو بن عَوفٍ، لِاثنَتَي عَشرَةَ لَيلَةً خَلَت من شَهرِ رَبيعٍ الأَوَّلِ يَومَ الِاثنَينِ، حينَ اشتَدَّ الضَّحاءُ، وكادَتِ الشَّمسُ تَعتَدِلُ»[1].

ومِمَّا وَرَدَ منَ الخَبرِ في تتِمَّةِ حديثِ الهِجرَةِ:

عَنِ البَراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: اشتَرى أَبو بكرٍ من عازِبٍ سَرجًا بثَلاثَةَ عَشَرَ دِرهَمًا، فقال أَبو بكرٍ لِعازِبٍ: مُرِ البَراءَ فليَحمِلهُ إلى مَنزِلي، فقال: لا، حتى تُحَدِّثَنا كَيفَ صَنَعتَ حينَ خرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَنتَ معه.

قال: فقال أَبو بكرٍ: خرجنا فأَدلَجنا، فأَحثَثنا يَومَنا ولَيلَتَنا، حتى أَظهَرنا، وقامَ قائِمُ الظَّهيرَةِ، فضَرَبتُ ببَصَري: هَل أَرى ظِلًّا نَأوي إليه؟ فإذا أَنا بصَخرَةٍ، فأَهوَيتُ إلَيها، فإذا بَقيَّةُ ظِلِّها، فسَوَّيتُهُ لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفَرَشتُ له فروَةً، وقُلتُ: اضطَجِع يا رسولَ اللهِ، فاضطَجَعَ، ثم خرجتُ أَنظُرُ: هَل أَرى أَحَدًا منَ الطلَبِ؟ فإذا أَنا براعي غَنَمٍ، فقُلتُ: لِمَن أَنتَ يا غُلامُ؟ فقال: لِرجلٍ من قريشٍ، فسَمَّاهُ فعَرَفتُهُ، فقُلتُ: هَل في غَنَمِكَ من لَبَنٍ؟ قال: نَعَم، قال: قُلتُ: هَل أَنتَ حالِبٌ لي؟ قال: نَعَم، قال: فأَمَرتُهُ فاعتَقَلَ شاةً منها، ثم أَمَرتُهُ فنَفَضَ ضَرعَها منَ الغُبارِ، ثم أَمَرتُهُ فنَفَضَ كَفَّيهِ منَ الغُبارِ، ومَعي إداوَةٌ على فمِها خِرقَةٌ، فحَلَبَ لي كُثبَةً منَ اللَّبَنِ[2]، فصَبَبتُ على القدَحِ حتى

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٩١).

(٢) الكثبة من اللبن: قدر حلبة، وقيل: ملء القدح من اللبن، وقيل: كل ما جمعته من طعام أو غيره بعد أن يكون قليلا فهو كثبة. تهذيب اللغة (١٠/ ١٠٦)، الصحاح (١/ ٢٠٩).

بَرَدَ أَسفَلُهُ، ثم أَتَيتُ رسولَ اللهِ ﷺ، فوافَيتُهُ وقد استَيقَظَ، فقُلتُ: اشرَب يا رسولَ اللهِ، فشَرِبَ حتى رَضيتُ، ثم قُلتُ: هَل أَنى الرحيلُ؟ قال: فارتَحَلنا، والقَومُ يَطلُبونا، فلم يُدرِكنا أَحَدٌ منهم إلا سُراقَةُ بن مالِكِ بن جُعشُمٍ على فرَسٍ له، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، هذا الطلَبُ قد لَحِقَنا، فقال: «**لا تَحزَن، إنَّ اللهَ معنا**»، حتى إذا دَنا مِنَّا، فكان بينَنا وبينَهُ قدرُ رُمحٍ أو رُمحَينِ أو ثَلاثَةٍ، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، هذا الطلَبُ قد لَحِقَنا، وبَكَيتُ، قال: «**لِمَ تَبكي؟**»، قال: قُلتُ: أَما واللهِ ما على نَفسي أَبكي، ولكن أَبكي عليكَ، قال: فدَعا عليه رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «**اللهُمَّ اكفِناهُ بما شِئتَ**»، فساخَت قَوائِمُ فرَسِهِ إلى بَطنِها في أَرضٍ صَلدٍ، ووَثَبَ عنها، وقال: يا محمدُ، قد عَلِمتُ أَنَّ هذا عَمَلُكَ، فادعُ اللهَ أَن يُنجيَني مِمَّا أَنا فيه، فواللهِ لَأُعَمِّيَنَّ على مَن ورائي منَ الطلَب، وهذه كِنانَتي فخُذ منها سَهمًا، فإنَّكَ سَتَمُرُّ بإبلي وغَنَمي في مَوضِعِ كذا وكذا، فخُذ منها حاجَتَكَ.

قال: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا حاجَةَ لي فيها**»، قال: ودَعا له رسولُ اللهِ ﷺ، فأُطلِقَ، فرجعَ إلى أَصحابِهِ.

ومَضى رسولُ اللهِ ﷺ وأَنا معه حتى قدِمنا المَدينَةَ، فتَلَقَّاهُ الناسُ، فخرجوا في الطريقِ، وعلى الأَجاجيرِ[1]، فاشتَدَّ الخَدَمُ والصبيانُ في الطريقِ يقولونَ: «اللهُ أَكبَرُ، جاءَ رسولُ اللهِ ﷺ، جاءَ محمدٌ».

قال: وتَنازَعَ القَومُ أَيُّهُم يَنزِلُ عليه، قال: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَنزِلُ اللَّيلَةَ على بَني النجَّارِ، أَخوالِ عبدِ المطَّلِب؛ لِأُكرِمَهُم بذلك**»، فلما أَصبَحَ غَدا حَيثُ أُمِرَ.

قال البَراءُ بن عازِبٍ: أَوَّلُ مَن كان قدِمَ علينا منَ المهاجِرينَ: مُصعَبُ بن عُمَيرٍ أَخو بَني عبدِ الدَّارِ، ثم قدِمَ علينا ابنُ أُمِّ مَكتومٍ الأَعمى أَخو بَني فِهرٍ، ثم قدِمَ علينا عمرُ بن الخَطَّاب في عِشرينَ راكِبًا، فقُلنا: ما فَعَلَ رسولُ اللهِ ﷺ؟ فقال: هو على أَثَري، ثم قدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ وأَبو بكرٍ معه[2].

---

(١) يعني: السطوح.

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٢)، ومسلم (٢٠٠٩)، وأحمد (٣)، واللفظ له.

وعن أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَقبَلَ نبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المَدينَةِ وهو مُرْدِفٌ أَبا بكرٍ، وأَبو بكرٍ شَيخٌ يُعرَفُ، ونبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شابٌّ لا يُعرَفُ، قال: فيَلقى الرجُلُ أَبا بكرٍ، فيقولُ: يا أَبا بكرٍ، مَن هذا الرجُلُ الذي بينَ يَدَيكَ؟ فيقولُ: هذا الرجُلُ يَهديني السبيلَ، قال: فيَحسِبُ الحاسِبُ أَنَّهُ إنَّما يَعني الطريقَ، وإنَّما يَعني سَبيلَ الخَيرِ، فالتَفَتَ أَبو بكرٍ فإذا هو بفارِسٍ قد لَحِقَهُم، فقال: يا رسولَ اللهِ، هذا فارِسٌ قد لَحِقَ بنا، فالتَفَتَ نبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**اللهُمَّ اصرَعهُ**»، فصَرَعَهُ الفَرَسُ، ثم قامَت تُحَمحِمُ[1]، فقال: يا نبيَّ اللهِ، مُرني بما شِئتَ، قال: «**فقِف مَكانكَ، لا تَترُكَنَّ أَحَدًا يَلحقُ بنا**».

قال: فكان أَوَّلَ النهارِ جاهِدًا على نبيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان آخِرَ النهارِ مَسلَحَةً له، فنزلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جانِبَ الحَرَّةِ، ثم بَعَثَ إلى الأَنصارِ فجاءوا إلى نبيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَبي بكرٍ فسَلَّموا عليهما، وقالوا: اركَبا آمِنَينِ مُطاعَينِ، فرَكِبَ نبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَبو بكرٍ، وحَفُّوا دونَهُما بالسِّلاحِ، فقيلَ في المَدينَةِ: جاءَ نبيُّ اللهِ، جاءَ نبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأَشرَفوا يَنظُرونَ ويقولونَ: جاءَ نبيُّ اللهِ، جاءَ نبيُّ اللهِ»[2].

وعن سُراقَةَ بن جُعشُم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَنا رُسُلُ كُفَّارِ قريشٍ، يَجعَلونَ في رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَبي بكرٍ ديَةَ كُلِّ واحدٍ منهما، مَن قَتَله أو أَسَرَهُ، فبينَما أَنا جالِسٌ في مَجلِسٍ من مَجالِسِ قَومي بَني مُدلِجٍ، أَقبَلَ رجلٌ منهم، حتى قامَ علينا ونَحنُ جُلوسٌ، فقال: يا سُراقَةُ، إنِّي قد رَأَيتُ آنِفًا أَسوِدَةً[3] بالساحِلِ، أُراها محمدًا وأَصحابَهُ، قال سُراقَةُ: فعَرَفتُ أَنَّهُم هُم، فقُلتُ له: إنَّهُم ليسوا بهِم، ولكنَّكَ رَأَيتَ فُلانًا وفُلانًا، انطَلَقوا بأَعيُنِنا، ثم لَبثتُ في المَجلِسِ ساعَةً، ثم قُمتُ فدَخَلتُ فأَمَرتُ جاريَتي أَن تَخرُجَ بفَرَسي، وهي من وراءِ أَكَمَةٍ[4]، فتَحبسَها عَلَيَّ، وأَخَذتُ رُمحي، فخرجتُ بهِ من ظَهرِ البَيتِ، فحَطَطتُ بزُجِّهِ الأَرضَ، وخَفَضتُ عاليَهُ[5]، حتى أَتَيتُ فرَسي فرَكِبتُها، فرَفَعتُها تُقَرِّبُ

---

(١) الحمحمة: صوت الفرس دون الصهيل. تهذيب اللغة (٤/ ١٥).

(٢) رواه البخاري (٣٩١١).

(٣) أي: أشخاصًا.

(٤) رابية مرتفعة عن الأرض.

(٥) أي: أمسكه بيده، وجر زجه على الأرض فخطها به؛ لئلا يظهر بريقه لمن بعد منه؛ لأنه كره أن يتبعه منهم أحد، فيشركوه في الجعالة.

بي[١]، حتى دَنَوتُ منهم، فعَثَرَت بي فرَسي، فخَرَرتُ عنها، فقُمتُ فأَهوَيتُ يَدي إلى كِنانَتي، فاستَخرَجتُ منها الأَزلامَ[٢] فاستَقسَمتُ بها[٣]: أَضُرُّهُم أَم لا؟ فخرجَ الذي أَكرَهُ، فرَكِبتُ فرَسي، وعَصَيتُ الأَزلامَ، تُقَرِّبُ بي، حتى إذا سَمِعتُ قراءةَ رسولِ اللهِ ﷺ، وهو لا يَلتَفِتُ، وأَبو بكرٍ يُكثِرُ الِالتِفاتَ، ساخَت يَدا فرَسي في الأَرضِ، حتى بلغَتا الرُّكبَتَينِ، فخَرَرتُ عنها، ثم زَجَرتُها فنَهَضَت، فلم تَكَد تُخرِجُ يَدَيها، فلما استَوَت قائِمَةً، إذا لِأَثَرِ يَدَيها عُثانٌ[٤] ساطِعٌ في السماءِ مِثلُ الدُّخانِ، فاستَقسَمتُ بالأَزلامِ، فخرجَ الذي أَكرَهُ، فنادَيتُهُم بالأَمانِ فوَقَفوا، فرَكِبتُ فرَسي حتى جِئتُهُم، ووَقَعَ في نَفسي حينَ لَقيتُ ما لَقيتُ منَ الحَبسِ عنهم: أَن سَيَظهَرُ أَمرُ رسولِ اللهِ ﷺ، فقُلتُ له: إنَّ قَومَكَ قد جَعَلوا فيكَ الدِّيَةَ، وأَخبَرتُهُم أَخبارَ ما يُريدُ الناسُ بهِم، وعَرَضتُ عليهمُ الزَّادَ والمَتاعَ، فلم يَرزَآني[٥] ولَم يَسأَلاني، إلا أَن قال: «**أَخفِ عَنَّا**».

فَسألتُهُ أَن يَكتُبَ لي كِتابَ أَمنٍ، فأَمَرَ عامِرَ بن فُهَيرَةَ فكَتَبَ في رُقعَةٍ من أَديمٍ[٦]، ثم مَضى رسولُ اللهِ ﷺ[٧].

وقال ابنُ شِهابٍ: فأَخبَرَني عُروَةُ بن الزُّبَيرِ، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لَقيَ الزُّبَيرَ في رَكبٍ منَ المسلمينَ، كانوا تِجارًا[٨] قافِلينَ[٩] منَ الشَّأمِ، فكَسا الزُّبَيرُ رسولَ اللهِ ﷺ

---

(١) من التقريب، وهو نوع من السير، دون العدو وفوق العادة.

(٢) سهام لا ريش لها ولا نصل، مكتوب عليها: «لا»، «نعم»، فكانوا في الجاهلية إذا أرادوا أمرًا ضربوا بها، فإن خرج «لا» تركوا، وإن خرج «نعم» فعلوا.

(٣) من الاستقسام، وهو طلب معرفة ما قسم.

(٤) العثان: أصله الدخان، وجمع العثان عواثن، وكذلك جمع الدخان دواخن، على غير قياس، وأراد بالعثان -ههنا- الغبار، شبهه بالدخان، قاله أبو عمرو بن العلاء. تهذيب اللغة (٢/ ١٩٨).

(٥) لم يأخذا مني شيئًا، ولم ينقصا مالي.

(٦) الأديم: الجلد المدبوغ.

(٧) رواه البخاري (٣٩٠٦)، وينظر لشرحه: فتح الباري (٧/ ٢٤١).

(٨) **قال ابن الأثير**: «جمع التاجر: تجار- بالضم والتشديد-، وتجار- بالكسر والتخفيف-، وبالضم والتخفيف». النهاية (١/ ١٨١).

(٩) القفول: الرجوع من السفر.

وأَبا بكرٍ ثيابَ بَياضٍ، وسَمِعَ المسلمونَ بالمَدينَةِ مَخرَجَ رسولِ اللهِ ﷺ من مكةَ، فكانوا يَغدونَ كُلَّ غَداةٍ إلى الحَرَّةِ، فيَنتَظِرونَهُ حتى يَرُدَّهُم حَرُّ الظَّهيرَةِ، فانقَلَبوا يومًا بعدَ ما أَطالوا انتِظارَهُم، فلما أَوَوا إلى بُيوتِهم، أوفى رجلٌ من يَهودَ على أُطُمٍ[1] من آطامِهِم، لِأَمرٍ يَنظُرُ إليه، فبَصُرَ برسولِ اللهِ ﷺ وأَصحابِهِ مُبَيَّضينَ[2] يَزولُ بِهِمُ السرابُ[3]، فلم يَملِكِ اليَهوديُّ أَن قال بأَعلى صَوتِهِ: يا مَعاشِرَ العَرَبِ، هذا جَدُّكُمُ[4] الذي تَنتَظِرونَ.

فَثارَ المسلمونَ إلى السِّلاحِ، فتَلَقَّوا رسولَ اللهِ ﷺ بظَهرِ الحَرَّةِ، فعَدَلَ بِهِم ذاتَ اليَمينِ، حتى نزلَ بِهِم في بَني عَمرِو بن عَوفٍ، وذلك يَومَ الِاثنَينِ من شَهرِ رَبيعٍ الأَوَّلِ، فقامَ أَبو بكرٍ للناسِ، وجَلَسَ رسولُ اللهِ ﷺ صامِتًا، فطَفِقَ مَن جاءَ منَ الأَنصارِ -مِمَّن لَم يَرَ رسولَ اللهِ ﷺ- يُحَيِّي أَبا بكرٍ، حتى أَصابَتِ الشَّمسُ رسولَ اللهِ ﷺ، فأَقبَلَ أَبو بكرٍ حتى ظَلَّلَ عليه بِردائِهِ، فعَرَفَ الناسُ رسولَ اللهِ ﷺ عِندَ ذلك، فلَبِثَ رسولُ اللهِ ﷺ في بَني عَمرِو بن عَوفٍ بضعَ عَشرَةَ لَيلَةً، وأُسِّسَ المسجدُ الذي أُسِّسَ على التقوى، وصَلَّى فيه رسولُ اللهِ ﷺ، ثم رَكِبَ راحِلَتَهُ، فسارَ يَمشي معه الناسُ، حتى بَرَكَت عِندَ مسجدِ الرسولِ ﷺ بالمَدينَةِ، وهو يُصَلِّي فيه يَومَئِذٍ رِجالٌ منَ المسلمينَ، وكان مِربَدًا[5] للتَّمرِ، لِسُهَيلٍ وسَهلٍ، غُلامَينِ يَتيمَينِ في حِجرِ أَسعَدَ ابنِ زُرارَةَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ حينَ بَرَكَت بِهِ راحِلَتُهُ: «**هذا إن شاءَ اللهُ المَنزِلُ**».

ثم دَعا رسولُ اللهِ ﷺ الغُلامَينِ فساوَمَهُما بالمِربَدِ[6]؛ ليَتَّخِذَهُ مسجدًا، فقالا: لا، بَل نَهَبُهُ لك يا رسولَ اللهِ، فأَبى رسولُ اللهِ أَن يَقبَلَه منهما هِبَةً، حتى ابتاعَهُ منهما، ثم بَناهُ مسجدًا، وطَفِقَ رسولُ اللهِ ﷺ يَنقُلُ معهمُ اللَّبِنَ في بُنيانِهِ ويقولُ -وهو يَنقُلُ اللَّبِنَ-:

---

(١) حصن، وقيل: بناء من حجر كالقصر.

(٢) عليهم ثياب بيض.

(٣) السراب: هو ما يرى في شدة الحر من بعد كأنه ماء، والمعنى: يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له، أو يظهرون فيه تارةً، ويخفون أخرى.

(٤) حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعون مجيئه.

(٥) المربد: الموضع الذي يجفف فيه التمر.

(٦) طلب منهما أن يبيعاه المربد، ويذكرا ثمنًا له.

هذا الحِمالُ لا حِمالَ خَيبَر، هذا أَبَرُّ رَبَّنا وأَطهَر[١].

ويقولُ: اللهُمَّ إنَّ الأَجرَ أَجرُ الآخِرَه، فارحَمِ الأَنصارَ والمهاجِرَه[٢].

حديثُ أُمِّ مَعبَدٍ:

عن هِشامِ بن حُبَيشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ من مكةَ مُهاجِرًا إلى المَدينَةِ، وأَبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومَولى أَبي بكرٍ عامِرُ بن فُهَيرَةَ، ودَليلُهُما عبدُ اللهِ بن أُرَيقِطٍ، مَرُّوا على خَيمَتَي أُمِّ مَعبَدٍ الخُزاعيَّةِ، وكانتِ امرَأَةً بَرزَةً[٣] جَلدَةً[٤] تَحتَبي بفِناءِ الخَيمَةِ، ثم تَسقي وتُطعِمُ، فسألوها لَحمًا وتمرًا ليَشتَروا منها، فلم يُصيبوا عِندَها شَيئًا من ذلك، وكان القَومُ مُرمِلينَ[٥] مُسنِتينَ[٦]، فنَظَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى شاةٍ في كَسرِ الخَيمَةِ[٧]، فقال: «**ما هذه الشَّاةُ يا أُمَّ مَعبَدٍ؟**»، قالت: شاةٌ خَلَّفَها الجَهدُ عَنِ الغَنَمِ، قال: «**هَل بها من لَبَنٍ؟**»، قالت: هي أَجهَدُ من ذلك، قال: «**أَتَأذَنينَ لي أَن أَحلبَها؟**»، قالت: بأَبي أَنتَ وأُمِّي، إن رَأَيتَ بها حَلبًا فاحلبها.

فَدَعا بها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمَسَحَ بيَدِهِ ضَرعَها، وسَمَّى اللهُ تعالى، ودَعا لها في شاتِها، فتَفاجَّت عليه[٨] ودَرَّت، ثم سَقاها حتى رَوِيَت، وسَقى أَصحابَهُ حتى رَووا»[٩].

---

(١) أي: هذه الحجارة التي تحمل للبناء في الآخرة أفضل مما يحمل من خيبر، من التمر والزبيب والطعام.

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٦)، وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٤٣): «وصورته مرسل، لكنه وصله الحاكم أيضًا من طريق معمر عن الزهري قال: أخبرني عروة، أنه سمع الزبير به»، وينظر المستدرك (٤٢٧٧).
وينظر لشرح الحديث: التوضيح (٢٠/ ٥٤٣-٥٤٥)، الفتح (٧/ ٢٤٣-٢٤٧).

(٣) يقال: امرأة برزة، إذا كانت كهلة لا تحتجب احتجاب الشواب، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة، تجلس للناس وتحدثهم، من البروز، وهو الظهور والخروج. النهاية (١/ ١١٧).

(٤) من الجلد، وهو القوة والصبر.

(٥) المرمل: الذي نفد زاده. تهذيب اللغة (١٥/ ١٤٩).

(٦) أي: مجدبين، أصابتهم السنة، وهي القحط والجدب. النهاية (٢/ ٤٠٧).

(٧) أي: جانبها، ولكل بيت كسران، عن يمين وشمال، وتفتح الكاف، وتكسر. النهاية (٤/ ١٧٢)، غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٢٨٩).

(٨) أي: فتحت ما بين رجليها للحلب. غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٤٦٦).

(٩) رواه الحاكم في المستدرك (٤٢٧٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٧٩)، وله طرق متعددة، قال ابن كثير في تاريخه (٤/ ٤٧٢): «قصتها مشهورة، مروية من طرق يشد بعضها بعضًا»، وقال الألباني في تخريج =

ومنَ الفوائدِ المستفادَةِ من حديثِ الهجرَةِ:

* أنَّ النبيّ ﷺ قد أُوحِي إليه بمكانِ الهجرةِ، وأَخبَرَ الصحابةَ بذلك، فبدأَ الصحابةُ يهاجِرون إلى المدينةِ أرسالًا، وأرادَ اللهُ تعالى للصِّدِّيقِ أن يرافِقَ نبيَّ اللهِ ﷺ في هجرَتِه، وأن يكونَ معه.

وفي هذا بيانٌ لَمعيَّة اللهِ تعالى لعبادِه المؤمِنينَ، وتأييدِه لهم، واستقامتِهم على الدِّينِ بالسمعِ والطاعةِ، ولو كان في ذلك خروجٌ عنِ الأهلِ والمالِ والوطنِ.

* **وفيه:** فضلُ أَبي بكرٍ رضي الله عنه، ومكانتُه في الإسلام من أوَّل يومٍ، ومقدارُ حُبّ النبيّ ﷺ له، وحُبّه للنبيّ ﷺ، ومدى ما كان بينهُما من صُحبةٍ وعلاقةٍ وثيقةٍ.

* **وفيه:** ما عُرِفَ عن الصدِّيق رضي الله عنه من بَذلٍ وتضحيةٍ في سبيلِ الدَّعوةِ.

* **وفيه:** بيانُ فترةِ الإعدادِ لهجرةِ النبيّ ﷺ وصاحبه، وهي أربعةُ أشهُرٍ، حَيثُ ظلّ أَبو بكرٍ يعلفُ الراحِلتَين اللتَين أعَدَّهُما لذلك من ورَق السمُرِ تلكَ المدّة.

* **وفيه:** بيانُ عُلوّ هِمَّة الصدِّيق رضي الله عنه؛ إذ حبَسَ نَفسَهُ على رسولِ اللهِ ﷺ ليَصحَبَهُ، ولم يهاجِر مع مَن هاجَرَ، وجعَل يُعِدُّ العُدَّةَ لذلك.

* ومِمَّا ورَدَ من فضائل الصدِّيق في هذه الرِّحلةِ المبارَكةِ:

ما رواهُ الحاكِمُ عن محمدِ بن سيرينَ، عن عمرَ رضي الله عنه، قال: خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ لينطَلِقَ إلى الغارِ ومعه أَبو بكرٍ، فجَعَلَ يَمشي ساعَةً بينَ يَدَيهِ، وساعَةً خَلفَهُ، حتى فطِنَ له رسولُ اللهِ ﷺ، فقال: «**يا أَبا بكرٍ، ما لك تَمشي ساعَةً بينَ يَدَيّ، وساعَةً خَلفي؟**»، فقال: يا رسولَ اللهِ، أَذكُرُ الطلَبَ فأَمشي خَلفَكَ، ثم أَذكرُ الرصدَ، فأَمشي بينَ يَدَيكَ، فقال: «**يا أَبا بكرٍ، لَو كان شيءٌ أَحبَبتَ أَن يكونَ بكَ دوني؟**»، قال: نَعَم، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ.

فلما انتَهَيا إلى الغارِ، قال أَبو بكرٍ: مَكانكَ يا رسولَ اللهِ؛ حتى أَستَبرِئَ لك الغارَ، فدَخَلَ

= مشكاة المصابيح (٣/ ١٦٧٢): «ضعيف، وقد يرقى إلى الحسن بتعدد طرقه»، وقال في التعليق على فقه السيرة (ص١٧٩) -بعد أن أشار إلى بعض طرقه-: «فالحديث بهذه الطرق لا ينزل عن رتبة الحسن».

واستَبرَأَهُ، حتى إذا كان في أَعلاهُ ذكرَ أَنَّهُ لَم يَستَبرِئِ الحُجرَةَ، فقال: مَكانكَ يا رسولَ اللهِ؛ حتى أَستَبرِئَ الحُجرَةَ، فدَخَلَ واستَبرَأَ، ثم قال: انزِل يا رسولَ اللهِ، فنزلَ[1].

* وعن أَسماءَ بنتِ أَبي بكرٍ، قالت: «لَمَّا خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ، وخرجَ معه أَبو بكرٍ، احتَمَلَ أَبو بكرٍ ماله كُلَّهُ معه: خَمسَةَ آلافِ دِرهَمٍ، أو سِتَّةَ آلافِ دِرهَمٍ، وانطَلَقَ بها معه، فدَخَلَ علينا جَدِّي أَبو قُحافَةَ، وقد ذَهَبَ بَصَرُهُ، فقال: واللهِ إِنِّي لَأَراهُ قد فجَعَكُم بمالِهِ مع نَفسِهِ، قُلتُ: كَلَّا يا أَبَه، إِنَّهُ قد تَرَكَ لَنا خَيرًا كَثيرًا».

قالت: «فأَخَذتُ أَحجارًا، فوَضَعتُها في كوَّةِ البَيتِ، كان أَبي يَضَعُ فيها ماله، ثم وضَعتُ عليها ثَوبًا، ثم أَخَذتُ بيَدِهِ، فقُلتُ: يا أَبَه، ضَع يَدَكَ على هذا المالِ، فوَضَعَ يَدَهُ عليه، فقال: لا بَأسَ، إن كان قد تَرَكَ لَكُم هذا فقد أَحسَنَ، وفي هذا لَكُم بَلاغٌ».

قالت: «ولا واللهِ ما تَرَكَ لَنا شَيئًا، ولكنِّي قد أَرَدتُ أَن أُسكِنَ الشَّيخَ بذلك»[2].

وفي هذا الحديثِ مَنقَبَةٌ لأَبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبيانُ رَجاحةِ عقلِ أسماءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وحُسنِ تصَرُّفها مع جَدِّها.

وذهابُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يُخاطِر بنفسِه، غيرَ تاركٍ لأولادِهِ شيئًا، دليلٌ على كمالِ إيمانِه وحُسنِ توَكُّله على ربِّه، وهذا يُشبهُ ما ورَدَ في السُّنَنِ عن عمرَ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَمَرَنا رسولُ اللهِ ﷺ يَومًا أَن نَتَصَدَّقَ، فوافَقَ ذلك مالًا عِندي، فقُلتُ: اليَومَ أَسبقُ أَبا بكرٍ، إن سَبَقتُهُ يَومًا، فجِئتُ بنِصفِ مالي، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما أَبقَيتَ لِأَهلِكَ؟**»، قُلتُ: مِثله، قال: وأَتى أَبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكُلِّ ما عِندَهُ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما أَبقَيتَ لِأَهلِكَ؟**»، قال: أَبقَيتُ لهمُ اللهَ ورسوله، قُلتُ: لا أُسابقُكَ إلى شيءٍ أَبَدًا[3].

---

(١) رواه الحاكم (٤٢٦٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، لولا إرسال فيه »، وقال الذهبي: «مرسل صحيح»، وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٣٧): «وذكر أبو القاسم البغوي من مرسل ابن أبي مليكة نحوه، وذكر ابن هشام من زياداته عن الحسن البصري بلاغًا نحوه»، وذكر ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٤٤٨) حديث ابن أبي مليكة، ثم قال: «وهذا مرسل، وقد ذكرنا له شواهد أخر في سيرة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٦٩٥٧)، وحسنه محققو المسند.

(٣) رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، وصححه، وحسنه الألباني.

* **وفيه**: «أنَّه إذا خَشيَ المؤمنُ على نفسه من ظالمٍ أنه يُباحُ له وجائزٌ أن يستجيرَ بمن يمنعُه ويحميه من الظُّلم، وإن كان مُجيرُه كافرًا، إن أراد الأخذَ بالرُّخصةِ، وإن أرادَ الأخذَ بالشِّدَّة على نفسه فلهُ ذلك، كما رَدَّ الصدِّيقُ الجوارَ ورضيَ بجوارِ اللهِ ورسولِه، والصدِّيق يومَئِذٍ كان من المستضعَفين، فآثَرَ الصبرَ على ما ينالُه من الأذى مُحتَسبًا على اللهِ، واثِقًا به، فوفَّى اللهُ له بما وثِقَ به منه، ولم ينَله مَكروهٌ حتى أُذِنَ في الهجرةِ، فخرجَ مع حبيبه، ونجَّاهُما اللهُ من كَيدِ أعدائِهما، حتى بلغَ مُرادُه عَزَّوَجَلَّ من إظهارِ النُّبوَّة وإعلاءِ الدِّينِ، وكان للصِّدِّيقِ في ذلك من الفضلِ والصدقِ في نصرِ رسولِه وبذلِه نفسَه ومالَه في ذلك ما لم يَخفَ مكانُه، ولا جُهِلَ موضِعُه»[1].

* **وفيه**: بيانُ فضلِ عائشةَ وأسماءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ حَيثُ قال أَبو بكرٍ: «يا رسولَ اللهِ، إنَّما هُما ابنَتايَ»، وفي رواية: «فقال أَبو بكرٍ: إنَّما هُم أَهلُكَ، بأَبي أَنتَ يا رسولَ اللهِ».

فيُشيرُ بذلك إلى ما هُما عليه من الأمانةِ، والثقةِ، والحفظِ، وحُسنِ التربيةِ، فليستا مِمَّن ينقلُ الكلامَ ويذيعُه في الناسِ.

* **ومن كمالِ فضلِهما**: أنهُما قامَتا على تجهيزِ الراحلتَينِ أحثّ الجهازِ وأفضلَه، فجعلا فيهما كلَّ ما يُحتاجُ إليه في السفرِ.

* وكان التخطيطُ للهجرةِ من بدايةِ أمرِها إلى نهايتِه في الغايةِ من الإحكامِ والدِّقَّة، وكلٌّ له دورٌ يُحسِنُه، فأسماءُ وعائشةُ تُجهِّزان الراحلتَينِ، وتذهبُ أسماءُ بالطعامِ والشراب إليهما، ويأتيهما عبدُ اللهِ بن أَبي بكرٍ بأخبارِ كُفَّارِ قريشٍ، وما يكيدون به، ويروح عليهما عامرُ بن فُهَيرةَ بالغَنَم، يحتَلِبان منها ويذبَحان، ويتَتَبّع الآثارَ بالغنمِ ليُعفيَها عن الطلب، ويسلُك بهما الدليلُ الطرُقَ غيرَ المسلوكةِ، وينزلُ بهما المنازلَ غيرَ المألوفةِ، لِمن خرج من مكةَ يقصِدُ المدينةَ.

وقال ابنُ إسحاقَ: «فأَقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغارِ ثَلاثًا، ومعه أَبو بكرٍ، وجَعَلَت قريشٌ فيه حين فقدوهُ مئة ناقَةٍ لِمَن يَرُدُّهُ عليهم، وكان عبدُ اللهِ بن أَبي بكرٍ

---

(١) التوضيح (١٥/ ١٤٨).

يكونُ في قريشٍ نَهارَهُ معهم، يَسمَعُ ما يَأتَمِرونَ بِهِ، وما يقولونَ في شَأنِ رسولِ اللهِ ﷺ وأَبي بكرٍ، ثم يَأتيهِما إذا أَمسى، فيُخبرُهُما الخَبَرَ.

وكان عامِرُ بن فُهَيرَةَ مَولى أَبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرعى في رُعيانِ أَهلِ مكةَ، فإذا أَمسى أَراحَ عليهما غَنَمَ أَبي بكرٍ، فاحتَلَبا وذَبَحا، فإذا عبدُ اللهِ بن أَبي بكرٍ غَدا من عِندِهِما إلى مكةَ، اتَّبَعَ عامِرُ بن فُهَيرَةَ أَثَرَهُ بالغَنَمِ حتى يُعَفِّي عليه، حتى إذا مَضَتِ الثَّلاثُ، وسَكَنَ عنهما الناسُ، أَتاهُما صاحِبُهُما الذي استَأجَراهُ ببَعيرَيهِما وبَعيرٍ له، وأَتَتهُما أَسماءُ بنتُ أَبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بسُفرَتِهِما»[1].

ومن تَمامِ التخطيطِ المتقَن للهجرةِ والتعميَةِ على كُفَّارِ قريشٍ: أن النبيّ ﷺ أمرَ عليَّ بن أَبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمَبيتِ على فراشِه، وأن يتَسَجَّى ببُردِه[2].

* وما ورَدَ في بعضِ الرواياتِ من أنَّ الكفارَ مَرُّوا بالغارِ، فرَأوا على بابِهِ نَسجَ العنكَبوتِ، وأن الله عَزَّوَجَلَّ أمرَ شجرةً فخرجَت في وجهِ النبيّ ﷺ تَستُرُه، وأمَرَ حمامَتَين وحشيَّتَين فأقبَلَتا ترفَّان حتى وقَعتا بينَ العنكبوتِ وبينَ الشجرةِ: فكُلُّ ما ورَدَ في ذلك من الأخبارِ والآثارِ لا يَصِحُّ سنَدُه، ولا يُحتَجُّ به.

قال الشيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلَم أنّه لا يَصِحُّ حديثٌ في عنكبوتِ الغارِ والحمامتَين، على كثرَةِ ما يُذكَر من ذلك في بعضِ الكُتُب والمحاضَراتِ التِي تُلقى بمناسبةِ هجرَتِه ﷺ إلى المدينةِ، فكُن من ذلك على علمٍ»[3].

وفي الحديثِ: فضيلةٌ ظاهرةٌ لعبدِالله بن أَبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وبيانُ دَورِه في الهجرةِ، وقد كان شابًّا حاذِقًا، ذَكيًّا، سريعَ الفهمِ، وفي هذا من الدُّروس: استثمارُ الشباب في الدعوةِ، وانتخابُ أهلِ الفهمِ والحذقِ منهم للمَهامّ الصعبةِ، والتي تحتاجُ إلى الحكمةِ والعقلِ وكمالِ الدِّرايةِ.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٦).

(٢) وما ورد في ذلك لا يصح سنده، ومثله يتسامح بذكره؛ فقد ذكره غير واحد من أهل العلم، وليس فيه ما يستنكر، بخلاف ما ورد بشأن العنكبوت، والحمامتين، والشجرة.

(٣) الضعيفة (٣/ ٣٣٩)، وينظر: الضعيفة أيضا رقم: (١١٢٨).

* **وفي الحَديثِ**: مشروعيَّةُ الأخذِ بالأسباب، وأنَّه لا ينافي التوَكُّلَ، بل هو من التوكُّلِ، فلما أُذِنَ للنبيِّ ﷺ بالهجرةِ جاءَ إلى أبي بكرٍ في نَحرِ الظَّهيرةِ، وهو وقتُ القيلولةِ، حَيثُ عامَّةُ الناسِ نائمون، ثم جاءَه مُتَقَنِّعًا مُغَطِّيًا رأسَه؛ إمعانًا في التخَفِّي، ولما دخلَ عليه قال لهُ: «**أخرج مَن عِندك**»؛ فرُبَّما سمِعَ أحدٌ ممن في البيتِ من النساءِ والصبيانِ كلامًا فنقَلَه عفوًا، فينكشِفُ لقريشٍ أمرُ الهجرةِ النبويَّة.

* **وفيه**: تقديمُ المصلحةِ العامَّة واعتبارُها، فقد استعانَ النبيّ ﷺ بعبدِاللهِ بن أُرَيقِط وهو مُشرِكٌ؛ ليسلُكَ به الطريقَ إلى المدينةِ على غيرِ الجادَّة، وهذا وشبَهُه ليس من موالاةِ المشركينَ في شيءٍ، كيفَ وقد فعَلَه النبيُّ ﷺ؟ ولكنَّه من صواب الرأيِ، وسديدِ الفِعلِ، حَيثُ اقتضَتِ المصلحةُ ذلك.

قال الشيخُ ابنُ بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**مِمَّا يجبُ التنبيهُ عليه**: أنّ بعضَ الناسِ قد يظُنّ أنّ الاستعانةَ بأهلِ الشِّركِ تُعتبَرُ موالاةً لهُم، وليس الأمرُ كذلك، فالاستعانةُ شيءٌ، والموالاةُ شيءٌ آخَر، فلم يكُنِ النبيّ ﷺ حين استعانَ بالمطعِم بن عديّ، أو بعبدِاللهِ بن أريقِط، أو بيهودِ خيبَر، مواليًا لأهلِ الشِّركِ، ولا مُتَّخِذَهُم بطانَةً، وإنما فعَلَ ذلك للحاجةِ إليهم، واستخدامِهم في أمورٍ تنفعُ المسلمينَ ولا تضُرُّهم.

وهكذا بَعثُه المهاجرينَ من مكَّةَ إلى بلادِ الحبَشةِ ليس ذلك موالاةً للنصارى، وإنما فعَلَ ذلك لمصلحةِ المسلمينَ وتخفيفِ الشرِّ عنهُم، فيجبُ على المسلمِ أن يُفَرِّقَ بين ما فَرَّقَ اللهُ بينَه، وأن يُنزِلَ الأدِلَّةَ منازِلها»[1].

* وعليه: فـ«لا بأسَ في استئجارِ الكافرِ فيما يُؤتَمَنُ عليه، سَواء في دلالةِ الطريقِ، أو في العلاجِ، أو في الصنعَةِ، أو في البناءِ، أو غيرِ ذلك، لكن بشرطِ أن يكونَ أمينًا.

ويتفرّعُ على ذلك: أنَّه يجوزُ للمسلمِ أن يعملَ بقولِ الطبيب الكافرِ في أن لا يُصَلِّي قائمًا -مثلًا-، أو أن لا يركَعَ، إذا كان العلاجُ مِمَّا يحتاجُ إلى عدمِ الرُّكوعِ والسجودِ، وذلك -مثلًا- في مُداواةِ الأعيُن، فإن كثيرًا من الأطباءِ يقولون للمريضِ: لا تركَع، ولا تسجُد، فهذا يُؤخَذُ بقولِه، ولو كان كافرًا، ما دامَ أمينًا، وكذلك في الإفطارِ.

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز (١٨/ ٤٣٦).

وأمَّا اشتراطُ بعضِهم أنه لا بُدَّ أن يكونَ الطبيبُ مسلمًا ففيه نظرٌ، والصوابُ أنه لا بُدَّ أن يكون الطبيبُ أمينًا، سواءٌ كان مسلمًا أم غيرَ مسلمٍ، وكثيرٌ من الكفارِ يكون عندَه أمانةٌ، وإن كان لا يريدُ التقرُّبَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لكنَه يريدُ أن يَعرِفَ الناسُ صنعَتَه وحِذقَه ونُصحَه، فيتَّجِهون إليه.

فإذا قال قائلٌ: ما دليلُكم على هذا؟ قلنا: دليلُنا حديثُ الهجرةِ.

وهل يجوزُ أن نستأجرَ الكافرَ في بناءِ المساجدِ؟ الجوابُ: إذا أمِنَّا ذلك، وكان القائمُ عليه مهندسًا مسلمًا، فلا بأسَ، أمَّا إذا لم يكُن كذلك، فإنه لا يجوزُ»[1].

وقال **ابنُ القيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في استئجارِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدَ اللهِ بن أُريقِط الدُّؤَليّ هاديًا في وقتِ الهجرةِ وهو كافرٌ، دليلٌ على جوازِ الرجوعِ إلى الكافرِ في الطِّبِّ والكحلِ والأدويةِ والكتابةِ والحساب والعُيوب ونحوِها، ما لم يكُن ولايةً تتضمّن عدالةً، ولا يلزَم من مجرَّد كونِه كافرًا أن لا يوثَقَ به في شيءٍ أصلًا؛ فإنّه لا شيءَ أخطرَ من الدلالةِ في الطريقِ، ولا سيَّما في مثلِ طريقِ الهجرةِ»[2].

* في دُعاءِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سُراقَةَ بقولِه: «**اللهُمَّ اصرَعهُ**»، وفي روايةٍ قال: «**اللهُمَّ اكفِناهُ بما شِئتَ**»، فساخَت قَوائِمُ فرَسِهِ إلى بَطنِها في أَرضٍ صَلدٍ، في ذلك بيانُ مَعيَّةِ اللهِ تعالى لنبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وثَبات قلبه، وحُسن توَكُّلِه على ربِّه، وتصديق قولِه تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما ظَنُّكَ يا أَبا بكرٍ باثنَينِ اللهُ ثالِثُهُما؟**»[3].

وقولُهُ: «**اللهُمَّ اكفِناهُ بما شِئتَ**»، فهذا هو الدُّعاءُ الذي دَعا به الغُلامُ في قصَّةِ أصحاب الأخدودِ؛ لما دَفَعَهُ الملكُ إلى نَفَرٍ من أَصحابِهِ، فقال: اذهَبوا بِهِ إلى جَبَلِ كذا وكذا، فاصعَدوا بِهِ الجبَل، فإذا بلغتُم ذُروَتَهُ، فإن رجعَ عن دينِهِ، وإلا فاطرَحوهُ.

---

(١) الشرح الممتع (١٠/ ٥١).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٨).

(٣) رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، وقد تقدم.

فَذَهَبوا بِهِ فصَعِدوا بِهِ الجَبَلَ، فقال: «اللهُمَّ اكفِنيهِم بما شِئتَ»، فرَجَفَ بِهِم الجَبَلُ فسَقَطوا، وجاءَ يَمشي إلى المَلِكِ، فقال له المَلِكُ: ما فَعَلَ أَصحابُكَ؟ قال: كَفانيهِمُ اللهُ.

فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ من أَصحابِهِ، فقال: اذهَبوا بِهِ فاحمِلوهُ في قُرقورٍ[1]، فتَوَسَّطوا بِهِ البَحرَ، فإن رجعَ عن دينِهِ وإلا فاقذِفوهُ، فذَهَبوا بِهِ، فقال: «اللهُمَّ اكفِنيهِم بما شِئتَ»، فانكَفَأَت بِهِم السفينَةُ فغَرِقوا، وجاءَ يَمشي إلى المَلِكِ[2].

* وفي أمرِ أَبي بكرٍ الغلامَ الراعي أن ينفُضَ الغُبار عن ضَرعِ الشاةِ، وعن كفَّيه، حرصُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النظافة، وعلى سلامَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي تبريدِه القدَحَ وبه اللبنُ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حرصُه على القيامِ على خدمتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أحسنِ وجهٍ يقدِرُ عليه.

وفي هذا الحديثِ: جوازُ زيارةِ الصديقِ الملاطِفِ لصديقِه كُلَّ يومٍ، على قدرِ حاجَتِه إليه، وانتفاعِه به[3].



(١) أي: سفينة.

(٢) رواه مسلم (٣٠٠٥).

(٣) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٩/ ٢٧٤).

٢

المُؤاخاة بينَ المهاجرينَ والأنصارِ

المُؤاخاة بينَ المهاجرينَ والأنصارِ

أرسَلَ اللهُ تعالى رسولَه مُحَمّدًا ﷺ بالهُدى ودينِ الحقِّ، فصَدَع بما أُمِرَ، وآمَن به مَن آمَنَ مِمَّن مَنَّ اللهُ عليه بسابقَةِ الإسلامِ، فعاداه قومُه، وضيَّقوا عليه وعلى مَنِ اتَّبَعَه، وعذَّبوهم، فهاجَر مَن هاجَرَ مِنهُم إلى الحَبَشَةِ فِرارًا بدينِه، ثم أُذِنَ للمسلمينَ بالهِجرَةِ إلى المَدينَةِ، فهاجَروا إليها أرسالًا، ثم هاجَرَ النبيُّ ﷺ وصاحبُه الصدِّيقُ رضي الله عنه.

فاستقبلَ الأنصارُ إخوانَهُم المهاجِرينَ أكرَمَ استِقبالٍ، وآوَوهُم وواسَوهُم وآثَروهُم على أنفُسِهِم؛ بما جعَلَ اللهُ في قُلوبهم منَ الإيمانِ.

وصارَتِ المدينةُ مَأرِزَ الإيمانِ، ومُلتَقى المهاجِرينَ والأَنصارِ، ومُتَنَزَّلَ الوَحيِ، والعاصِمَةَ الأولى للدَّولةِ الإسلاميّة، وهي بعد مكَّةَ خَيرُ البقاعِ، وأشرَفُ الأماكِنِ والأصقاعِ، وتاليَتُها في الحُرمَةِ والإكرامِ، والتعظيمِ والإحترام.

نُبذَة عن المدينَة النبَوية، وتاريخها، ومعالِمها:

كانتِ المدينةُ النبويَّةُ تُعرَفُ قبلَ الإسلامِ باسمِ «يَثرِبَ»، فسَمَّاها النبيّ ﷺ: «المَدينَةَ»، و«طابَةَ»، و«طَيبَةَ».

فعن جابرِ بن سَمُرَةَ رضي الله عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ اللهَ تعالى سَمَّى المَدينَةَ طابَةَ**»[1].

وفي روايةٍ: «**إنَّ اللهَ عزوجل أَمَرَني أَن أُسَمِّيَ المَدينَةَ طابَةَ**»[2].

---

(١) رواه مسلم (١٣٨٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٢٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٢٣).

وعن زَيدِ بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّها طَيبَة -يَعني المَدينَةَ-، وإنَّها تَنفي الخَبَثَ، كَما تَنفي النارُ خَبَثَ الفِضَّةِ**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمِرتُ بقَريَةٍ تَأكُلُ القُرى، يقولونَ يَثرِبُ، وهي المَدينَةُ، تَنفي الناسَ كَما يَنفي الكيرُ خَبَثَ الحَديدِ**»(٢).

قال النوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعناهُ: أُمِرتُ بالهِجرَةِ إلَيها واستيطانِها، وذكروا في معنى أَكلِها القُرى وجهَينِ: أَحَدُهُما أَنَّها مَركَزُ جُيوشِ الإسلامِ في أَوَّلِ الأَمرِ، فمنها فُتِحَتِ القُرى، وغُنِمَت أَموالُها وسَباياها.

والثَّاني مَعناهُ: أَنَّ أَكلها وميرَتَها تَكونُ منَ القُرى المفتَتَحَةِ، وإلَيها تُساقُ غَنائِمُها.

وقَولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقولونَ يَثرِبَ، وهي المَدينَةُ**»، يَعني أَنَّ بعضَ الناسِ منَ المنافِقينَ وغيرهم يُسَمُّونَها يَثرِبَ، وإنَّما اسمُها «المَدينَةُ»، و«طابَةُ»، و«طَيبَةُ»، ففي هذا كَراهَةُ تَسميَتِها يَثرِب.

قالوا: وسَبَبُ كَراهَةِ تَسميَتِها يَثرِبُ: لَفظُ التثريب، الذي هو التوبيخُ والمَلامَةُ، وسُمِّيَت طَيبَة وطابَة؛ لِحُسنِ لَفظِهِما، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الِاسمَ الحَسَنَ، ويَكرَهُ الِاسمَ القَبيحَ.

وأَمَّا تَسميَتُها في القُرآنِ يَثرِب(٣)، فإنَّما هو حِكايَةٌ عن قَولِ المنافِقينَ والذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ.

قال العُلَماءُ: ولِمَدينَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسماءٌ:

«المَدينَةُ»، قال اللهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ [التوبة: ١٠١].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٩)، ومسلم (١٣٨٤).

(٢) رواه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢).

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣].

و«طابَةُ»، و«طَيبَةُ»، و«الدَّارُ»، فأَمَّا «الدَّارُ»: فلِأَمنِها، والاِستِقرارِ بها، وأَمَّا «طابَةُ»، و«طَيبَةُ»: فمنَ الطِّيب، وهو الرائِحَةُ الحَسنةُ، والطابُ والطِّيبُ لُغَتانِ، وقيلَ: منَ الطيِّب، بفَتحِ الطاءِ وتشديدِ الياءِ، وهو الطاهِرُ؛ لِخُلوصِها منَ الشِّركِ وطَهارَتِها، وقيلَ: من طيب العَيشِ بها.

وأَمَّا «المَدينَةُ»: ففيها قَولانِ لِأَهلِ العَرَبيَّةِ: أَحَدُهُما -وبه جَزَم قُطرُبُ، وابنُ فارِسٍ، وغيرُهُما-: أَنَّها مُشتَقَّةٌ من «دانَ»، إذا أَطاعَ، والدِّينُ الطاعَةُ، والثَّاني: أَنَّها مُشتَقَّةٌ من «مَدَنَ بالمَكانِ»، إذا أَقامَ بهِ، وجَمعُ المَدينَةِ: مُدُنٌ، ومُدنٌ -بإسكانِ الدَّالِ وضَمِّها-، ومَدائِنُ -بالهَمزِ وتَركِهِ-، والهَمزُ أفصَحُ، وبه جاءَ القُرآنُ العَزيزُ[1]»[2].

و**قال ابنُ الأَثيرِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَثرِبُ»: اسمُ مَدينَة النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قديمةٌ، فغَيَّرها وسَمَّاها: «طَيبَة»، و«طابَة»؛ كَراهيَةً للتَّثريب، وهو اللَّومُ والتعييرُ، وقيلَ: هو اسمُ أرضِها، وقيلَ: سُمِّيت باسمِ رجل منَ العَمالِقَة»[3].

المَوقِع الجُغرافيُّ للمدينة:

تقَعُ المدينَةُ النبَويَّةُ في إقليمِ الحِجازِ منَ الجَزيرَةِ العَرَبيَّة، وهو الإقليمُ الذي يحجِزُ سَهلَ تِهامَةَ عن مُرتَفَعاتِ نَجدٍ، على بُعدِ نَحوِ ٣٣٥ كم إلى الشَّمالِ من مكَّةَ، وعلى مسافَةِ ١٦٠ كم إلى الشَّرقِ من البحرِ الأحمَرِ، عندَها ينتهي وادي القُرى، ويبدَأُ وادي العقيقِ في مُنبَسَطٍ من الأرضِ، تُطَوِّقُها الحدائِقُ والدَّوحات من مُختَلفِ الجِهاتِ، وتَحيطُها الجبالُ من كُلِّ جانبٍ، إلا منَ الجِهَةِ الجَنوبيَّة الشَّرقيّة، وهي بهذا الموقِعِ صلَةُ الوَصلِ بينَ باديَةِ نجدٍ والبحرِ الأَحمَرِ، وبينَ اليمنِ والشَّامِ، ومن هُنا وصَفَها بعضُهُم بمَدينةِ القَوافِلِ.

أبرَز مَعالِم المدينة التاريخية:

في جهَتِها الشَّمالية وعلى مسافَةِ ٤ كم منَ المسجِد النبَويّ يقعُ (جبَلُ أُحُدٍ)، وهو

---

(١) في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣].

(٢) شرح النووي على مسلم (٩/ ١٥٤-١٥٥).

(٣) النهاية (٥/ ٢٩٢).

يمتَدّ من الغرب إلى الشرقِ بطولِ ٦ كم، تَعلوه هضابٌ مَشوبَةٌ بالحُمرَة، وتتَخَلَّلُه عُروقٌ صَخريَّةٌ مُتَعَدِّدَةُ الألوانِ.

وفي جِهَتِها الجنوبيَّة والجَنوبيَّةِ الغربيَّةِ يقَعُ (جَبَلُ عَير)، وهو عبارةٌ عن جبلَينِ أحمَرينِ، أحدهُما: (عَير الوارِد)، والثَّاني: (عَير الصادِر).

وفي جِهَتِها الشَّرقيَّة (بَقيعُ الغَرقدِ).

وفي الجهةِ الجنوبيَّة (قَريةُ قُباء)، أحَد أحياءِ المدينةِ اليومَ، وفي أطرافِها حَرَّاتُها المشهورةُ: (حَرَّةُ واقِم) في الجِهَة الشرقيّة، وهي من أشهرِ حَرَّات بلادِ العرَب، و(حَرَّة الوَبَرَةِ) في الغرب، تُشرِف على وادي العقيقِ، وعندَها يبدأُ الطريقُ إلى مكةَ، و(حَرَّةُ قُباء) في الجنوب.

وهذه الحَرَّاتُ عِبارةٌ عن بُقعٍ بُركانيَّةٍ مُغَطَّاةٍ بالبازلتِ الأَسوِد، تتَخَلَّلُها واحاتٌ خضراءُ، تَكثُر فيها العُيونُ واليَنابيعُ لَمسافاتٍ بعيدةٍ، وسَطَ الفَيافي والقِفارِ[1].

أسماء المدينة:

تقدَّمَ أنَّ اسمَها قبلَ الإسلامِ كان: (يَثرِبَ)، وسَمَّاها النبيّ ﷺ: (المَدينَةَ)، و(طابَةَ)، و(طَيبَةَ)، ووَرَد اسمُ (دارِ الهِجرَةِ) في قَولِ النبيّ ﷺ: «**قد أُريتُ دارَ هِجرَتِكُم، رَأَيتُ سَبخَةً[2] ذاتَ نَخلٍ بينَ لابَتَينِ[3]**»[4].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

والمَقصودُ بالدَّارِ: المَدينَةُ[5].

---

(1) http://97.105.52.213/ar/artical/3407848

(٢) هي الأرض التي لا تكاد تنبت؛ لما يعلوها من الملوحة.

(٣) وهما الحرتان، والحرة: أرض حجارتها سود.

(٤) رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٥) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٢٤).

قال ابنُ كَثيرٍ: «أَي: سَكَنوا دارَ الهِجرَةِ من قَبلِ المهاجِرينَ، وآمَنوا قَبلَ كَثيرٍ منهم»[١].

فهذه أربَعَةُ أسماءٍ شرعيَّةٍ للمَدينةِ.

وقال السُّهَيليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رويَ أَنّ لها في التَّوراةِ أَحَدَ عَشَرَ اسمًا: المَدينَةُ، وطابَةُ، وطيبَةُ، والمِسكينَةُ، والجابرَةُ، والمُحِبّةُ، والمَحبوبَةُ، والقاصِمَةُ، والمَجبورَةُ، والعَذراءُ، والمَرحومَةُ»[٢].

ومنهم مَن ذكَر لها غيرَ ذلك منَ الأسماءِ، وأوصَلها السَّمهوديّ في كتابه «وفاء الوَفاءِ» إلى أَربَعٍ وتِسعينَ اسمًا.

ولا يَصِحُّ من ذلك شيءٌ، والأولى الاِقتِصارُ على ما وردَ وصَحَّ.

وصفُ المَدينةِ بـ «المنَوَّرَةِ»:

وصفُ المَدينَةِ بـ (المنَوَّرَةِ) وصفٌ عُرفيٌّ جرى على ألسِنَةِ كثيرٍ من العلماءِ، فوَرَدَ في كلامِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّة، وابنِ القيِّمِ، وابنِ جُزَيّ، والسعديّ، والشنقيطيّ، وعُلماءِ اللَّجنةِ الدَّائمَةِ، وابنِ باز، وبكر أبو زيد، وغيرِهم.

ويرى بعضُ أهلِ العِلمِ أنّ هذا الوصفَ، إذ لم يَرِد في النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ، ولا ورَدَ في كلامِ السلَفِ، فإنَّه يُمنَعُ منه.

قال الشَّيخُ ابنُ عُثَيمينَ: «لا يُقالُ: (المنَوَّرَة)؛ لأنّ كُلّ بلَدٍ دخَلَه الإسلامُ فهو مُنَوَّرٌ بالإسلامِ، ولِأنّ ذلك لم يَكُن معروفًا عِندَ السّلَفِ، وكذلك جاءَ اسمُها في القرآنِ بالمَدينَةِ فقَط، لكِن لو قيلَ: المدينةُ النبَويَّةُ؛ لحاجَةِ تَمييزِها، فلا بأسَ»[٣].

وسُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ: هل إضافةُ كلِمةِ «المكرَّمةِ» إلى مكةَ، أو «المنَوَّرَةِ» إلى المدينةِ من البدَعِ؟ وهل منَ الأفضلِ أَن يُقال مكة المكَرَّمَة، والمَدينَة النبَويَّة؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٦٨).

(٢) الروض الأنف (٤/ ١٧٣).

(٣) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ٢٨١).

فأجابَ: «لا أعلَمُ أنَّ مكةَ تُعرَفُ بمَكَّةَ المكَرَّمَةَ في كلامِ السلَفِ، وكذلك المَدينةُ لا توصَفُ بأنَّها المنَوَّرةُ في كلامِ السلَفِ، وإنَّما يُسَمُّونَها المَدينَةَ، لكن حدَثَ أخيرًا بأَن يُقال في مكةَ: المكَرَّمة، وفي المدينَةِ: المنَوَّرَة، وَمكةُ سمَّاها اللهُ بلدًا آمِنًا، وسَمَّاها بلدًا مُحَرَّمًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، وكذلك مُبارَكَة.

وأمَّا المدينةُ: فهي لا شَكَّ أنَّها المَدينةُ النبَويَّة، وأنَّها طَيبَة، كَما سَمَّاها النبيّ ﷺ بطَيبَة، لكنّ الناسَ اتَّخَذوا هذا عادةً بأن يقولوا: المَدينَة المنَوَّرة، ومكةَ المكَرَّمَة، وليتَهُم يقولون مكَّةَ فقَط، لأنَّنا لَسنا أشَدَّ تعظيمًا لهَذَين البَلَدَين مِمَّن سَلَفَنا»[1].

والخَطبُ في مِثلِ هذا يسير، ومَن أطلقَ هذا الوصفَ على المَدينَةِ فلا يُنكَرُ عليه، ومَن ترَكَه وقال: «المَدينَة»، أو: «المَدينَة النبَويّة» فلا حَرَجَ عليه.

تاريخ المَدينة القديم:

كان أصلُ سُكَّانِ المَدينةِ قبلَ الهِجرةِ من اليهودِ، وقَبيلَتَي الأوسِ والخَزرَجِ.

أمَّا اليَهودُ: فأرجَعَ المؤَرِّخون سُكناهُم المدينةَ إلى أسبابٍ مُتَعدِّدة:

قال المَقريزيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيلَ: كانوا أهلَ يثرِبَ، و«يثرِبُ» اسمُ رجلٍ منَ العمالِيقِ، وكانوا يسَمُّون المنازِل التي ينزِلونها بأسمائِهم، فلما كانت أيامُ بني إسرائيلَ، جَعَلَتِ العمالِيقُ تُغيرُ عليهم من أرضِ الحِجازِ، فشَكَت بنو إسرائيلَ ذلك إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فوَجَّه إليهم جيشًا فهَزَموهم، ثم رجَعوا إلى الشَّامِ، وقد ماتَ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقالت بنو إسرائيلَ لهُم: «قد عصَيتُم وخالَفتُمُ الآباءَ»، فقالوا: نرجِعُ إلى البلادِ التي غُلِبنا عليها فنكون بها، فرجعوا إلى يَثرِبَ فاستوطَنوها وتناسَلوا بها، إلى أن نزَلَت عليهم الأوسُ والخزرَجُ بعدَ سيلِ العَرِمِ.

ويُقالُ: بل كان نزولهم أوَّلًا من نواحي العاليَة، وانحدَر بها الآطامُ والأموالُ

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٢٢/ ٢٤٠).

والمزارِعَ، فلبثوا في نواحيه زمانًا طويلًا حتى ظهَرَتِ الرُّومُ على بَني إسرائيلَ، وخرَجَ بنو قُريظَةَ والنضيرِ وبنو هُذَيل من يَثرِب، ونزَلوا الغابَةَ، ثم تَحَوَّلوا عنها لِوَبائِها إلى عِدَّةِ مَواضِع.

ويُقالُ: بل كان نُزول اليّهودِ بيَثرِبَ حينَ وطِئَ بُختُ نَصّر بلادَهم بالشَّامِ، وخَرَّب بيتَ المَقدِسِ، فحينَئِذٍ لَحِقَ مَن لَحِقَ مِنهم بالحِجازِ، كقُريظةَ والنَّضيرِ، وسَكَنوا خَيبَرَ ويَثرِبَ، حتى قدِمَتِ الأوسُ والخَزرَجُ عليهم، وكانت لهُم معهم حُروبٌ ظَهرت عليهم اليّهودُ، فلمَّا هاجَرَ رسولُ اللهِ ﷺ حارَبَته اليَهودُ وعادَتهُ»[1].

وقال ابنُ إسحاقَ: وحَدَّثَني عاصِمُ بن عمرَ بن قَتادَةَ، عن شَيخٍ من بَني قُرَيظَةَ، قال لي: «هَل تَدري عَمَّ كان إسلامُ ثَعلَبَةَ بن سَعيَةَ، وأَسيدِ بن سَعيَةَ، وأَسَدِ بن عُبَيدٍ، نَفَرٍ من بَني هدلٍ، إخوَةِ بَني قُرَيظَةَ، كانوا معهم في جاهِلِيَّتِهِم، ثم كانوا سادَتَهُم في الإسلامِ؟»، قال: قُلتُ: لا واللهِ، قال: «فإنَّ رجلًا من يَهودَ من أَهلِ الشَّامِ، يُقالُ له: ابنُ الهَيبانِ، قدِمَ علينا قُبَيلَ الإسلامِ بسِنينَ، فحَلَّ بينَ أَظهُرِنا، لا واللهِ ما رَأَينا رجلًا قَط لا يُصَلِّي الخَمسَ أَفضلَ منه، فأَقامَ عِندَنا، فكُنَّا إذا قَحطَ عَنَّا المَطَرُ قُلنا له: أُخرُج يا ابنَ الهَيبانِ فاستَسقِ لَنا، فيقولُ: لا واللهِ حتى تُقدِّموا بينَ يَدَي مَخرَجِكُم صَدَقَةً، فنَقولُ له: كَم؟ فيقولُ: صاعًا من تَمرٍ، أو مُدَّينِ من شَعيرٍ، فنُخرِجُها ثم يَخرُجُ بنا إلى ظاهِرِ حَرَّتِنا، فيَستَسقي اللهَ لَنا، فواللهِ ما يَبرَحُ مَجلِسَهُ حتى يَمُرَّ السحابُ ونُسقى، قد فعَلَ ذلك غيرَ مَرَّةٍ، ولا مَرَّتَينِ، ولا ثَلاثٍ.

ثم حَضَرَتهُ الوَفاةُ عِندَنا، فلما عَرَفَ أَنَّهُ مَيِّتٌ، قال: يا مَعشَرَ يَهودَ، ما تَرَونَهُ أَخرَجَني من أَرضِ الخَمرِ والخَميرِ إلى أَرضِ البُؤسِ والجوعِ؟ قال: قُلنا: إنَّكَ أَعلَمُ، قال: فإنِّي إنَّما قدِمتُ هذه البَلدَةَ أَتَوَكَّفُ[2] خُروجَ نبيٍّ قد أَظَلَّ زَمانُهُ، وهذه البَلدَةُ مُهاجَرُهُ، فكُنتُ أَرجو أَن يُبعَثَ فأَتَّبِعَهُ، وقد أَظَلَّكُم زَمانُهُ، فلا تُسبَقُنَّ إليه يا مَعشَرَ يَهودَ، فإنَّهُ يُبعَثُ بسَفكِ الدِّماءِ، وسَبيِ الذَّراريِّ والنِّساءِ مِمَّن خالَفَهُ، فلا يَمنَعكُم ذلك منه.

---

(١) إمتاع الأسماع (١٤/ ٣٦٤-٣٦٧).

(٢) أنتظر، وأتوقع.

فلما بُعِثَ رسولُ اللهِ ﷺ، وحاصَرَ بَني قُرَيظَةَ، قال هَؤُلاءِ الفِتيَةُ -وكانوا شَبابًا أَحداثًا-: يا بَني قُرَيظَةَ، واللهِ إنَّهُ للنبيِّ الذي كان عَهِدَ إلَيكُم فيه ابنُ الهَيبانِ، قالوا: ليس بهِ، قالوا: بَلى واللهِ، إنَّهُ لَهو بصِفَتِهِ، فنزلوا وأَسلَموا، وأَحرَزوا دِماءَهُم وأَموالهم وأَهليهِم»[1].

أَمَّا الأوسُ والخزرَجُ: فكانا أَخَوَين، قال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأَنصارُ كُلُّهم من الأوسِ والخَزرَجِ، والأوسُ والخزرَجُ أَخَوانِ، ابنا حارِثَةَ بن ثَعلَبَةَ بن عَمرِو ابنِ عامرٍ»[2].

وكان أصلهُم اليَمَن، فلَمَّا انهَدَمَ السدُّ وتفَرَّقَ الناسُ في البلدانِ سَكَنَ الأوسُ والخَزرَجُ المدينةَ، معَ مَن كان بها من اليهودِ.

قال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأَنصارُ لَقَبُ قَبيلَتَي الأوسِ والخَزرَجِ ابنَي حارِثَةَ بن ثَعلَبَةَ العنقاءِ بن عَمرو مُزَيقاءَ بن عامِرِ ماءِ السماءِ بن حارِثَةَ الغِطريفِ بن امرِئِ القَيسِ البطريقِ بن ثَعلَبَةَ بن مازِنِ بن الأَزدِ بن الغَوثِ بن نَبتَ بن مالِكِ بن زَيدِ بن كَهلانَ بن سَبَأَ بن يَشجُبَ بن يَعرُبَ بن قَحطانَ، لَقَّبَهُم بهِ رسولُ اللهِ ﷺ لَمَّا هاجَرَ إليهم ومَنَعوهُ ونَصَروهُ.

وأُمُّ الأوسِ والخَزرَجِ قَيلَةُ بنتُ كاهِلِ بن عُذرَةَ بن سَعدٍ، ولِذلك يُقالُ لهم: «أَبناءُ قَيلَةَ».

وكانت مَساكِنُ الأَزدِ بمأرِبَ منَ اليَمَنِ، إلى أَن أَخبَرَ الكُهَّانُ عَمرَو بن عامِرٍ مُزَيقياءَ أَنَّ سَيلَ العَرِمِ يُخَرِّبُ بلادَهُم، ويُغرِقُ أَكثَرَ أَهلِها؛ عُقوبَةً لهم بتكذيبِهم رُسُلَ اللهِ تعالى إليهم.

فلما عَلِمَ ذلك عَمرٌو باعَ ما له من مالٍ وعَقارٍ، وسارَ عن مأرِبَ هو ومَن تَبعَهُ، ثم تَفَرَّقوا في البلادِ، فسَكَنَ كُلُّ بَطنٍ ناحيَةً اختاروها، فسَكَنَت خُزاعَةُ الحِجازَ، وسَكَنَت غَسَّانُ الشَّامَ.

ولَمَّا سارَ ثَعلَبَةُ بن عَمرِو بن عامِرٍ فيمَن معه اجتازوا بالمَدينَةِ، وكانت تُسَمَّى يَثرِبَ،

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢١٣-٢١٤).

(٢) الإنباه على قبائل الرواة (ص١٠٣).

فتَخَلَّفَ بها الأوسُ والخَزرَجُ ابنا حارِثَةَ فيمَن معهما، وكان فيها قُرًى وأَسواقٌ، وبها قَبائِلُ منَ اليَهودِ من بَني إسرائيلَ وغيرِهِم، منهم قُرَيظَةُ والنضيرُ وبَنو قَينُقاعَ وبَنو ماسِلَةَ وزَعوَرا وغيرُهُم، وقد بَنَوا لهم حُصونًا يَجتَمِعونَ بها إذا خافوا.

فَنزلَ عليهمُ الأوسُ والخَزرَجُ، فابتَنَوُا المَساكِنَ والحُصونَ، إلا أَنَّ الغَلَبَةَ والحُكمَ لليَهودِ، ثم عادَتِ الغَلَبَةُ للأوسِ والخَزرَجِ، ولَم يَزالوا على حالِ اتِّفاقٍ واجتِماعٍ إلى أَن حَدَثَ بينهم حَربُ سُمَيرٍ، ثم شَبَّتِ البَغضاءُ في نُفوسِهِم وتَمَكَّنَتِ العَداوَةُ بينهم»[1].

وقال **ابنُ إسحاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان سَبَبُ خُروجِ عَمرِو بن عامِرٍ من اليَمَنِ -فيما حَدَّثَني أَبو زَيدٍ الأَنصاريُّ-: أَنَّهُ رَأى جُرَذًا[2] يَحفِرُ في سَدِّ مَأرِبٍ، الذي كان يَحبِسُ عليهمُ الماءَ، فيُصَرِّفونَهُ حَيثُ شاءوا من أَرضِهِم، فعَلِمَ أَنَّهُ لا بَقاءَ للسَّدِّ على ذلك، فاعتَزَمَ على النُّقلَةِ من اليَمَنِ، فكادَ قَومَهُ، فأَمَرَ أَصغَرَ ولَدِهِ إذا أَغلَظَ له ولَطَمَهُ أَن يَقومَ إليه فيَلطِمَهُ، ففَعَلَ ابنُهُ ما أَمَرَهُ بِهِ، فقال عَمرٌو: «لا أُقيمُ ببَلَدٍ لَطَمَ وجهي فيه أَصغَرُ ولَدي»، وعَرَضَ أَمواله، فقال أَشرافٌ من أَشرافِ اليَمَنِ: «اغتَنِموا غَضبَةَ عَمرٍو».

فاشتَرَوا منه أَمواله، وانتَقَلَ في ولَدِهِ ووَلَدِ ولَدِهِ، وقالتِ الأَزدُ: «لا نَتَخَلَّفُ عن عَمرِو بن عامِرٍ»، فباعوا أَموالهم، وخرجوا معه، فساروا حتى نزلوا بلادَ عَكٍّ مُجتازينَ يَرتادونَ البُلدانَ، فحارَبَتهُم عَكٌّ، فكانت حَربُهُم سِجالًا[3]، ثم ارتَحَلوا عنهم، فتَفَرَّقوا في البُلدانِ، فنزلَ آلُ جَفنَةَ بن عَمرِو بن عامِرٍ الشَّامَ، ونزلَتِ الأوسُ والخَزرَجُ يَثرِبَ، ونزلَت خُزاعَةُ مَرًّا، ونزلَت أَزدُ السراةِ السراةَ، ونزلَت أَزدُ عُمانَ عُمانَ، ثم أَرسَلَ اللهُ تعالى على السدِّ السيلَ فهَدَمَهُ، ففيه أَنزَلَ اللهُ تَبارَكَ وتعالى على رسولِهِ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٥، ١٦]»[4].

---

(١) الكامل في التاريخ (١/ ٥٨٧،٥٨٣).

(٢) الجرذ: الذكر من الفأر، وقيل: الذكر الكبير من الفأر. لسان العرب (٣/ ٤٨٠).

(٣) أي: مرة لهم، ومرة عليهم.

(٤) سيرة ابن هشام (١/ ١٣).

ونزل الأوسُ جنوبيَّ يثربَ وشرقيَّها، وأقامَ الخزرَجُ في الشمالِ الغربيِّ، وجاوَروا بَني قَينُقاعَ، ومعَ الأيامِ أصبحَ لهُم من الضِّياعِ[1] والأموالِ ما جعَلَ اليَهودَ يخافونَ منَ الأوسِ والخزرجِ على أنفُسِهم وأموالِهم؛ فعقدوا معَهُم جِوارًا مع أنَّهم كانوا مُتَغَلِّبين على يثرِبَ، لكنَّهم أرادوا من هذا الحِلفِ أن تستَمِرّ لهُم السِّيادةُ.

لكنَّ اليهودَ عادوا فنَقَضوا ما كان بينهم وبينَ الأوسِ والخزرَجِ، ولجَؤوا إلى بَثِّ الدَّسائسِ والمؤامَراتِ لتفريقِ كلِمتِهم، وإشعالِ الحروب فيما بينَهم، فقامَت بينَهم حروبٌ مُتَطاوِلة، في أيامٍ مشهورةٍ من أيَّامِ العرَب.

ثم حصَلَت بينهمُ المصالَحَةُ.

وكان لسَيِّد الخَزرَجِ عبدِ اللهِ بن أُبَيّ ابنِ سَلول العوفيّ، وسيِّدِ الأوسِ أبي عامِر عبدِ عمرِو بن صَيفيِّ بن النُّعمانِ، دورٌ كبيرٌ في تجاوُزِ تلكَ الخِلافاتِ.

وقد كانوا نَظَموا لابنِ سَلولَ الخَرَزَ؛ ليُمَلّكوه على الحَيَّينِ، فغُلِبَ على أمرِه، واجتمع الأوسُ والخزرجُ كلُّهم على الإسلامِ، فضَغِنَ لِذلك، لكنَّه أظهَرَ أن يكونَ له اسمٌ منه، فأعطى الصفقَةَ، وطَوى على النِّفاقِ.

أما أبو عامِر: فخرج إلى مكةَ هاربًا من الإسلامِ، حينَ رأى اجتماعَ قومِه إلى النبيّ ﷺ؛ بُغضًا في الدِّينِ، ولَمَّا فُتِحَت مكَّةُ فرَّ إلى الطائفِ، ولما فُتِحَتِ الطائِفُ فرّ إلى الشَّامِ، فماتَ هُنالِك[2].

يَومُ بُعاث[3]:

«بُعاثُ» مَوضِعٌ بالمَدينَةِ، كانت فيه وقعَةٌ عَظيمَةٌ، قُتِلَ فيها خَلقٌ من أَشرافِ الأوسِ والخَزرَجِ وكُبَرائِهِم، ولَم يَبقَ من شُيوخِهِم إلا القَليلُ[4].

---

(١) الضيعة: الأرض المغلة، التي تدر على صاحبها مالاً.

(٢) ينظر: تاريخ ابن خلدون (٢/ ٣٤٩-٣٥٠).

(٣) «بعاث»: بضم الباء الموحدة، وبالعين المهملة، ويجوز صرفه، وترك صرفه، وهو الأشهر». شرح النووي على مسلم (٦/ ١٨٢).

(٤) البداية والنهاية (٤/ ٣٦٨).

وكان ذلك مِمَّا قدَّمَهُ اللهُ لرسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال المقريزيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلَم أنّ الأوسَ والخزرجَ لما استَقَرُّوا بيَثرِبَ، وقَعَ بينَهم عِدَّةُ حُروبٍ في مُدَّةِ مئةٍ وعشرينَ سنَةً، آخِرُها أنّ قُريظَةَ والنضير -وهُما حَيَّان من اليهودِ- جدَّدوا مع الأوسِ العُهود على المؤازَرَةِ والتناصُر، وأدخَلوا معهُم قبائلَ أُخَر من اليهود، وجَدُّوا في أمرِهم، فجَمعتِ الخزرَجُ، واستنفَروا حُلَفاءَهم من أشجَعَ وجُهَينةَ، فراسَلَ الأوسُ أَيضًا حُلفاءَهُم من مُزَينَة، وأقامَ الفريقانِ مُدَّةَ أربَعين يومًا يتجَهَّزون للحَرب، ثم التَقَوا ببُعاثَ -وهي من أموالِ بني قُريظَة- وعلى الأوسِ حُضَيرُ الكَتائِب بن سِماكِ بن عتيك[1]، وعلى الخزرَج رخيلة[2] ابنُ ثعلبةَ بن خالدِ بن عامر، وتخلَّف عبدُ اللهِ بن أُبَيٍّ ابن سَلولَ فيمَن تَبعَه عنِ الخزرَج، وتخلَّف بنو حارِثَةَ بن الحارثِ عنِ الأوسِ، فاقتَتَلوا قتالًا شديدًا، صبَروا فيه جميعًا، ثم انهزَمَتِ الأوسُ، فثَبتَ حُضَيرُ الكَتائِب، ونزَل عن فرَسِه، وصاحَ: «واللهِ لا أبرَحُ حتى أُقتَلَ»، فعَطَفوا عليه، وقاتَلوا، فقُتِل عمرو بن النُّعمانِ رئيسُ الخزرَجِ، فانهزَمَ الخزرجُ، ووضَعَ الأوسُ فيهمُ السلاحَ، ثم كَفُّوا عنهم.

وأمَّا حُضَيرُ الكَتائِب فماتَ من جِراحَتِه، وأحرقَ الأوسُ دورَ الخزرَجِ، ونَخيلَهم»[3].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان يَومُ بُعاثَ -وهو مَكانٌ، ويُقالُ: حِصنٌ، وقيلَ: مَزرَعَةٌ عِندَ بَني قُرَيظَةَ، على ميلَينِ منَ المَدينَةِ- كانت بِهِ وقعَةٌ بينَ الأوسِ والخَزرَجِ، فقُتِلَ فيها كَثيرٌ منهم، وكان رَئيسَ الأوسِ فيه حُضَيرٌ والِدُ أُسَيدِ بن حُضَيرٍ، وكان يُقالُ له حُضَيرُ الكَتائِب، وبِهِ قُتِلَ، وكان رَئيسَ الخَزرَجِ يَومَئِذٍ عَمرو بن النُّعمانِ البَياضيُّ، فقُتِلَ فيها أَيضًا، وكان النصرُ فيها أوَّلًا للخَزرَجِ، ثم ثَبَّتَهُم حُضَيرٌ فرجعوا، وانتَصَرَتِ الأوسُ، وجُرِحَ حُضَيرٌ يَومَئِذٍ، فماتَ فيها، وذلك قَبلَ الهِجرَةِ بخَمسِ سِنينَ، وقيلَ بأَربَعٍ، وقيلَ بأَكثَرَ، والأوَّلُ أَصَحُّ.

---

(١) هو والد أسيد بن حضير، أحد النقباء ليلة العقبة. ينظر: البداية والنهاية (١٠/ ١٠١).

(٢) ويقال: «رحيلة»، بالحاء المهملة، ويقال: «رجيلة»، بالجيم، وينظر: الاستيعاب (٢/ ٥٠٥)، أسد الغابة (٢/ ٢٧٣)، الإصابة (٢/ ٤٠٠).

(٣) إمتاع الأسماع (٩/ ١٨٧).

وذكرَ أَبو الفَرَجِ الأَصبَهانيُّ أَنَّ سَبَبَ ذلك: أَنَّهُ كان من قاعدتِهم أنَّ الأصيلَ لا يُقتَلُ بالحَليفِ، فقَتَلَ رجلٌ منَ الأوسِ حَليفًا للخَزرَجِ، فأَرادوا أَن يُقيدوهُ فامتَنَعوا، فوَقَعَت عليهمُ الحَربُ لِأَجلِ ذلك، فقُتِلَ فيها من أَكابرِهِم مَن كان لا يُؤمَنُ أَن يَتكَبَّر ويَأنَفَ أَن يَدخُلَ في الإسلامِ؛ حتى لا يكونَ تَحتَ حُكمِ غيرِهِ، وقد كان بَقيَ منهم من هذا النحوِ عبدُ اللهِ بن أُبَيّ ابن سَلول»[1].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كان يَومُ بُعاثَ يَومًا قدَّمَهُ اللهُ لِرسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد افتَرَقَ مَلَؤُهُم، وقُتِلَت سَرَواتُهُم[2] وجُرِّحوا، فقدَّمَهُ اللهُ لِرسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دُخولِهم في الإسلامِ»[3].

وقال **ابنُ الجَوزيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلما بعَثَ اللهُ نبيَّه كان سَببًا للصُّلحِ بينهم بدُخولِهم الإسلامَ»[4].

وقال **ابنُ الأَثيرِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان يَومُ البُعاثِ آخِرَ الحُروب المَشهورَةِ بينَ الأوسِ والخَزرَجِ، ثم جاءَ الإسلامُ واتَّفَقَتِ الكَلِمَةُ، واجتَمَعوا على نَصرِ الإسلامِ وأَهلِهِ، وكَفى اللهُ المؤمِنينَ القِتالَ»[5].

وهذه الحربُ كانت قد أضعَفَت جميعَ قبائلِ وبُطون العرب في يَثرِبَ، فمالوا إلى الصلحِ، واستجابَ كُلٌّ من الطَّرَفَينِ لداعي الوِفاق، وكان أحدُ زعماءِ الخزرَجِ وهو عبدُ اللهِ بن أُبَيّ ابن سَلول قد وقَفَ موقِفًا حياديًّا من الحرب، فاتَّجَهَت إليه الأنظارُ؛ كي يكونَ واسطةً للتَّجميع وحَلِّ النِّزاعِ، واتَّفَقَ الجميعُ على تَتويجِه ملِكًا على المدينةِ، ولم يَمنَع من تحقيقِ ذلك سِوى قُدومِ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينةِ مُهاجِرًا، فحقَّقَ من وحدَةِ العرب جميعًا ما عجَزَ عنه العربُ من قبلُ، وذهَبَ مُلك ابنِ أُبَيّ، وإذا جاءَ نَهرُ اللهِ بَطَلَ نَهرُ مَعقِلٍ.

---

(١) فتح الباري (٧/ ١١١).

(٢) أي: أشرافهم.

(٣) رواه البخاري (٣٧٧٧).

(٤) كشف المشكل (٤/ ٣٨٨).

(٥) الكامل في التاريخ (١/ ٦٠٢).

عن أُسامَةَ بن زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكِبَ حِمارًا، وأَردَفَ وراءَهُ أُسامَةَ بن زَيدٍ، وهو يَعودُ سَعدَ بن عُبادَةَ في بَني الحارِثِ بن الخَزرَجِ، وذلك قَبلَ وقعَةِ بَدرٍ، حتى مَرَّ في مَجلِسٍ فيه أَخلاطٌ منَ المسلمينَ والمشرِكينَ عَبَدَةِ الأَوثانِ واليَهودِ، وفيهم عبدُ اللهِ بن أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ، وفي المَجلِسِ عبدُ اللهِ بن رَواحَةَ، فلما غَشيَتِ المَجلِسَ عَجاجَةُ الدَّابَّةِ[1] خَمَّرَ عبدُ اللهِ بن أُبَيٍّ أَنفَهُ بِردائِهِ، ثم قال: لا تُغَبِّروا علينا، فسَلَّمَ عليهمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم وقَفَ، فنزلَ فدَعاهُم إلى اللهِ، وقَرَأَ عليهمُ القُرآنَ، فقال عبدُ اللهِ بن أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ:

أَيُّها المَرءُ، لا أَحسَنَ من هذا إن كان ما تَقولُ حقًّا، فلا تُؤذِنا في مَجالِسِنا، وارجِع إلى رَحلِكَ، فمَن جاءَكَ مِنَّا فاقصُص عليه.

قال عبدُ اللهِ بن رَواحَةَ: اغشَنا في مَجالِسِنا؛ فإنَّا نُحِبُّ ذلك.

فاستَبَّ المسلمونَ والمشرِكونَ واليَهودُ، حتى هَمُّوا أَن يَتواثَبوا، فلم يَزَلِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُم، ثم رَكِبَ دابَّتَهُ حتى دَخَلَ على سَعدِ بن عُبادَةَ، فقال: «**أَي سَعدُ، أَلَم تَسمَع إلى ما قال أَبو حُبابٍ؟** -يُريدُ عبدَ اللهِ بن أُبَيٍّ- **قال كذا وكذا**».

قال: اعفُ عنه يا رسولَ اللهِ واصفَح؛ فواللهِ لَقد أَعطاكَ اللهُ الذي أَعطاكَ، ولَقدِ اصطَلَحَ أَهلُ هذه البَحرَةِ[2] على أَن يُتَوِّجوهُ، فيُعَصِّبونَهُ بالعِصابَةِ[3]، فلما رَدَّ اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أَعطاكَ شَرِقَ بذلك[4]، فذلك فعَلَ بهِ ما رَأَيتَ.

فَعَفا عنه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[5].

و**قال الحافظُ الذَّهَبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان رَئيسًا مُطاعًا، عَزَمَ أَهلُ المَدينَةِ قَبلَ أَن يُهاجِرَ النبيُّ

---

(١) هو ما ارتفع من غبار حوافرها.

(٢) هذا اللفظ يطلق على القرية، وعلى البلد، والمراد به -هنا-: المدينة النبوية، ونقل ياقوت أن «البحرة» من أسماء المدينة النبوية.

(٣) معناه: اتفقوا على أن يجعلوه ملكهم، وكان من عادتهم إذا ملكوا إنسانًا أن يتوجوه ويعصبوه.

(٤) أي: غص به، ومعناه: حسد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان ذلك بسبب نفاقه. وينظر: شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٥٨-١٥٩)، فتح الباري (٨/ ٢٣٢).

(٥) رواه البخاري (٦٢٥٤)، ومسلم (١٧٩٨).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أَن يُمَلِّكوهُ عليهم، فانحَلَّ أَمرُهُ، ولا حَصَّلَ دُنيا ولا آخِرَةً، نَسأَلُ اللهَ العافيَةَ»[١].

وبينَما الناسُ في التِماسِ الخُلفاءِ والنُّصراءِ ليُقاتِلَ بعضُهم بعضًا، إذ أَتتهُم رحمةُ اللهِ، وأتاهُم فضلُه:

فعن مَحمودِ بن لَبيدٍ[٢] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا قدِمَ أَبو الحَيسَرِ أَنَسُ بن رافِعٍ مكةَ، ومعه فِتيَةٌ من بَني عبدِ الأَشهَلِ، فيهم إياسُ بن مُعاذٍ، يَلتَمِسونَ الحِلفَ من قريشٍ على قَومِهِم منَ الخَزرَجِ، سَمِعَ بهِم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأَتاهُم فجَلَسَ إليهم، فقال لهم: «**هَل لَكُم إلى خَيرٍ مِمَّا جِئتُم له؟**»، قالوا: وما ذاكَ؟ قال: «**أَنا رسولُ اللهِ، بَعَثَني إلى العِبادِ؛ أَدعوهُم إلى أَن يَعبُدوا اللهَ لا يُشرِكوا بهِ شَيئًا، وأُنزِلَ عَلَيَّ كِتابٌ**»، ثم ذكرَ الإسلامَ، وتَلا عليهمُ القُرآنَ.

فقال إياسُ بن مُعاذٍ -وكان غُلامًا حَدَثًا-: أَي قَومِ، هذا -واللهِ- خَيرٌ مِمَّا جِئتُم له.

قال: فأَخَذَ أَبو حَيسَرٍ أَنَسُ بن رافِعٍ حَفنَةً منَ البَطحاءِ، فضَرَبَ بها في وجهِ إياسِ بن مُعاذٍ، وقال: دَعنا منكَ، فلَعَمري لَقد جِئنا لِغيرِ هذا، قال: فصَمَتَ إياسٌ، وقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهم، وانصَرَفوا إلى المَدينَةِ، وكانت وقعَةُ بُعاثٍ بينَ الأوسِ والخَزرَجِ.

ثم لَم يَلبَث إياسُ بن مُعاذٍ أَن هَلك، قال مَحمودُ بن لَبيدٍ: «فأَخبَرَني مَن حَضَرَهُ من قَومي عِندَ مَوتِهِ، أَنَّهُم لَم يَزالوا يَسمَعونَهُ يُهَلِّلُ اللهَ ويُكَبِّرُهُ ويَحمَدُهُ ويُسَبِّحُهُ حتى ماتَ، فما كانوا يَشُكُّونَ أَن قد ماتَ مسلمًا، لَقد كان استَشعَرَ الإسلامَ في ذلك المَجلِسِ، حينَ سَمِعَ من رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما سَمِعَ»[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٣).

(٢) وهو من صغار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ينظر: التهذيب (١٠/ ٦٦).

(٣) رواه ابن إسحاق في السيرة -كما في ابن هشام (١/ ٤٢٧)-، ومن طريقه رواه الإمام أحمد في المسند (٢٣٦١٩)، والحاكم في المستدرك (٤٨٣١)، وقال الحافظ في الإصابة (١/ ٣١٤): «هو من صحيح

بَدء إسلام الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

أَقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكةَ ثَلاثَ سِنينَ من أوَّلِ نُبوَّتِهِ مُستَخفيًا، ثم أَعلَنَ في الرابعَةِ، فدَعا الناسَ إلى الإسلامِ عَشرَ سِنينَ، يوافي المَوسِمَ كُلَّ عامٍ، يَتَّبعُ الحاجَّ في مَنازِلِهم، وفي المَواسِمِ بعُكاظٍ، ومَجَنَّةَ[1]، وذي المَجازِ، يَدعوهُم إلى أَن يَمنَعوهُ حتى يُبَلِّغَ رِسالاتِ رَبِّهِ ولهمُ الجنةُ، فلا يَجِدُ أَحَدًا يَنصُرُهُ ولا يُجيبُهُ، حتى إنَّهُ ليسأَلُ عَنِ القَبائِلِ ومَنازِلِها قَبيلَةً قَبيلَةً، ويقولُ: «**يا أَيُّها الناسُ، قولوا لا إلَهَ إلا اللهُ تُفلِحوا**»، وأَبو لَهَبٍ وراءَهُ يقولُ: لا تُطيعوهُ، فإنَّهُ صابئٌ كَذَّابٌ، فيَرُدُّونَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقبَحَ الردِّ، ويُؤذونَهُ، ويقولونَ: أُسرَتُكَ وعَشيرَتُكَ أَعلَمُ بكَ حَيثُ لَم يَتَّبعوكَ، وهو يَدعوهُم إلى اللهِ.

وكان مِمَّن يُسَمَّى منَ القَبائِلِ الذينَ أَتاهُم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودَعاهُم وعَرَضَ نَفسَهُ عليهم: بَنو عامِرِ بن صَعصَعَةَ، ومُحارِبُ بن حَصَفَةَ، وفَزارَةُ، وغَسَّانُ، ومُرَّةُ، وحَنيفَةُ، وسُلَيمٌ، وعَبسٌ، وبَنو النضرِ، وبَنو البَكَّاءِ، وكِندَةُ، وكَلبٌ، والحارِثُ بن كَعبٍ، وعُذرَةُ، والحَضارِمَةُ، فلم يَستَجِب منهم أَحَدٌ.

وعن رَبيعَةَ بن عِبادٍ الدِّيليِّ -وكان جاهِليًّا أَسلَمَ-، قال: رَأَيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصَرَ عَيني بسوقِ ذي المَجازِ، يقولُ: «**يا أَيُّها الناسُ، قولوا لا إلَهَ إلا اللهُ تُفلِحوا**»، ويَدخُلُ في فِجاجِها والناسُ مُتَقَصِّفونَ عليه، فما رَأَيتُ أَحَدًا يقولُ شَيئًا، وهو لا يَسكُتُ، يقولُ: «**أَيُّها الناسُ، قولوا لا إلَهَ إلا اللهُ تُفلِحوا**»، إلا أَنَّ وراءَهُ رجلًا أَحوَلَ وضيءَ الوَجهِ ذا غَديرَتَينِ يقولُ: إنَّهُ صابئٌ، كاذِبٌ.

فَقُلتُ: مَن هذا؟ قالوا: محمدُ بن عبدِ اللهِ، وهو يَذكُرُ النُّبوَّةَ.

حديث ابن إسحاق»، وحسنه محققو المسند.

(١) بفتح الميم، وبعضهم يكسرها، والفتح أكثر، وهي زائدة. النهاية (٤/ ٣٠١).

قُلتُ: مَن هذا الذي يُكَذِّبُهُ؟ قالوا: عَمُّهُ أَبو لَهَبٍ[١].

وكان مِمَّا صَنَعَ اللهُ لِرسولِهِ: أَنَّ الأوسَ والخَزرَجَ كانوا يَسمَعونَ من حُلَفائِهِم من يَهودِ المَدينَةِ أَنَّ نبيًّا منَ الأَنبياءِ مَبعوثٌ في هذا الزَّمانِ، سَيَخرُجُ فنَتَّبِعُهُ ونَقتُلُكُم معه قَتلَ عادٍ وإرَمٍ، وكانتِ الأَنصارُ يَحُجُّونَ البَيتَ كَما كانتِ العَرَبُ تَحُجُّهُ دونَ اليَهودِ، فلما رَأى الأَنصارُ رسولَ اللهِ ﷺ يَدعو الناسَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وتَأَمَّلوا أَحواله، قال بعضهم لِبعضٍ: «تَعلَمونَ -واللهِ يا قَومِ- أَنَّ هذا الذي تَوَعَّدَكُم بِهِ يَهودُ، فلا يَسبقُنَّكُم إليه».

ثم إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لَقيَ عِندَ العَقَبَةِ في المَوسِمِ سِتَّةَ نَفَرٍ منَ الأَنصارِ، كُلُّهُم منَ الخَزرَجِ، وهُم: أَبو أُمامَةَ أَسعَدُ بن زُرارَةَ، وعَوفُ بن الحارِثِ، ورافِعُ بنُ مالكٍ، وقُطبَةُ بن عامِرِ بن حَديدَةَ، وعُقبَةُ بن عامِرِ بن نابي، وجابرُ بن عبدِ اللهِ بن رِئابٍ، فدَعاهُم رسولُ اللهِ ﷺ إلى الإسلامِ، فأَسلَموا.

ثم رجعوا إلى المَدينَةِ، فدَعَوهُم إلى الإسلامِ، ففَشا الإسلامُ فيها، حتى لَم يَبقَ دارٌ إلا وقد دَخَلها الإسلامُ، فلما كان العامُ المقبلُ جاءَ منهمُ اثنا عَشَرَ رجلًا، وهُم: أَبو أُمامَةَ أَسعَدُ بن زُرارَةَ، وعَوفُ بن الحارِثِ، وأَخوهُ مُعاذٌ، وهما ابنا عَفراءَ، ورافِعُ بن مالِكٍ، وذَكوانُ بن عبدِ قَيسِ بن خَلدَةَ، وعُبادَةُ بن الصامِتِ، وأَبو عبدِ الرحمَنِ يَزيدُ بن ثَعلَبَةَ، والعباسُ بن عُبادَةَ بن نَضلَةَ، وعُقبَةُ بن عامِرٍ، وقُطبَةُ بن عامِرٍ، فهَؤُلاءِ عَشَرَةٌ منَ الخَزرَجِ، ومنَ الأوسِ اثنانِ، وهُما: عوَيمُ بن ساعِدَةَ، وأَبو الهَيثَمِ مالِكُ بن التيهانِ[٢].

وعن جابر بن عبدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: مَكَثَ رسولُ اللهِ ﷺ بمكةَ عَشرَ سِنينَ، يَتبَعُ الناسَ في مَنازِلِهم بعُكاظٍ ومَجَنَّةَ، وفي المَواسِمِ بمِنًى، يقولُ: «**مَن يُؤويني؟ مَن يَنصُرُني حتى أُبَلِّغَ رِسالَةَ رَبِّي، وله الجنةُ؟**».

حتى إنَّ الرجُلَ لَيَخرُجُ منَ اليَمَنِ، أو من مُضَرَ، فيَأتيهِ قَومُهُ، فيقولونَ: احذَر غُلامَ

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٩٠٠٤)، وابنه في زوائد المسند (١٦٠٢٣)، وصححه محققو المسند لغيره.

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٨-٤٣٣)، زاد المعاد (٣/ ٣٩-٤١)، البداية والنهاية (٤/ ٣٧١-٣٧٥).
وقال ابن هشام: «التيهان: يخفف ويثقل، كقوله: ميت وميت».

قريشٍ، لا يَفتِنُكَ، ويَمشي بينَ رِجالِهم، وهُم يُشيرونَ إليه بالأَصابعِ، حتى بَعَثَنا اللهُ له من يَثرِبَ، فآوَيناهُ، وصَدَّقناهُ، فيَخرُجُ الرجُلُ مِنَّا فيُؤمِنُ بهِ، ويُقرِئُهُ القُرآنَ، فيَنقَلِبُ إلى أَهلِهِ فيُسلِمونَ بإسلامِهِ، حتى لَم يَبقَ دارٌ من دورِ الأَنصارِ إلا وفيها رَهطٌ منَ المسلمينَ، يُظهِرونَ الإسلامَ.

ثم ائتَمَروا جَميعًا، فقُلنا: حتى مَتى نَترُكُ رسولَ اللهِ ﷺ يُطرَدُ في جِبالِ مكةَ ويَخافُ؟ فرَحَلَ إليه مِنَّا سَبعونَ رجلًا حتى قدِموا عليه في المَوسِمِ، فواعَدناهُ شِعبَ العَقَبَةِ، فاجتَمَعنا عِندَهُ من رجلٍ ورجلَينِ حتى تَوافَينا، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، علامَ نُبايِعُكَ؟ قال: «**تُبايِعوني على السمعِ والطاعَةِ في النشاطِ والكَسَلِ، والنفَقَةِ في العُسرِ واليسرِ، وعلى الأَمرِ بالمَعروفِ، والنهيِ عَنِ المنكَرِ، وأَن تَقولوا في اللهِ، لا تَخافونَ في اللهِ لَومَةَ لائِمٍ، وعلى أَن تَنصُروني، فتَمنَعوني إذا قدِمتُ عليكُم مِمَّا تَمنَعونَ منه أَنفُسَكُم، وأَزواجَكُم، وأَبناءَكُم، ولَكُمُ الجنةُ**».

قال: فقُمنا إليه فبايَعناهُ، وأَخَذَ بيَدِهِ أَسعَدُ بن زُرارَةَ، وهو من أَصغَرِهِم، فقال: روَيدًا يا أَهلَ يَثرِبَ، فإنَّا لَم نَضرِب أَكبادَ الإبلِ[1] إلا ونَحنُ نَعلَمُ أَنَّهُ رسولُ اللهِ ﷺ، وإنَّ إخراجَهُ اليَومَ مُفارَقَةُ العَرَبِ كافَّةً، وقَتلُ خيارِكُم، وأن تَعَضَّكُمُ السُّيوفُ[2]، فإمَّا أَنتُم قَومٌ تَصبرونَ على ذلك، وأَجرُكُم على اللهِ، وإمَّا أَنتُم قَومٌ تَخافونَ من أَنفُسِكُم جُبينَةً[3]، فبَيِّنوا ذلك، فهو أَعذَرُ لَكُم عِندَ اللهِ.

قالوا: أَمِط عَنَّا يا أَسعَدُ[4]، فواللهِ لا نَدَعُ هذه البَيعَةَ أَبَدًا، ولا نُسلبُها أَبَدًا، قال: فقُمنا إليه فبايَعناهُ، فأَخَذَ علينا، وشَرَطَ، ويُعطينا على ذلك الجنةَ[5].

---

(١) كناية عن السفر.

(٢) أي: تنال من أجسادكم، وهو كناية عن القتال.

(٣) جبينة: تصغير الجبن، بزيادة التاء للمرة، كأنه نبههم على أن خوف قليل من الجبن مفسد لهذا الأمر، فكيف الكثير؟

(٤) أي: أزل عنا منعك وحيلولتك بيننا وبين البيعة.

(٥) رواه الإمام أحمد (١٤٤٥٦)، وابن حبان (٦٢٧٤)، والبيهقي (١٧٧٣٥)، وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٣٩٩): «هذا إسناد جيد على شرط مسلم».

وعن عُبادَةَ بن الصامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قال: إنِّي منَ النُّقَباءِ الذينَ بايَعوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «بايَعناهُ على أَن لا نُشرِكَ باللهِ شَيئًا، ولا نَسرِقَ، ولا نَزنيَ، ولا نَقتُلَ النفسَ التي حَرَّمَ اللهُ، ولا نَنتَهِبَ، ولا نَعصيَ، بالجنةِ إن فعَلنا ذلك[1]، فإن غَشينا من ذلك شَيئًا، كان قَضاءُ ذلك إلى اللهِ»[2].

وقال ابنُ إسحاقَ: «فلما انصَرَفَ عنه القَومُ بَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم مُصعَبَ بن عُمَيرٍ، وأَمَرَهُ أَن يُقرِئَهُمُ القُرآنَ، ويُعَلِّمَهُمُ الإسلامَ، ويُفَقِّهَهُم في الدِّينِ، فكان يُسَمَّى المقرِئَ بالمَدينَةِ مُصعَبٌ».

قال ابنُ إسحاقَ: «ثم إنَّ مُصعَبَ بن عُمَيرٍ رجعَ إلى مكةَ، وخرجَ مَن خرجَ من الأَنصارِ من المسلمينَ إلى المَوسِمِ مع حُجَّاجِ قَومِهِم من أَهلِ الشِّركِ، حتى قدِموا مكةَ، فواعَدوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَقَبَةَ، من أوسَطِ أَيَّامِ التشريقِ، حينَ أَرادَ اللهُ بهِم ما أَرادَ من كَرامَتِهِ، والنصرِ لِنبيِّهِ، وإعزازِ الإسلامِ وأَهلِهِ، وإذلالِ الشِّركِ وأَهلِهِ».

ثم وقعت بيعةُ العَقَبَةِ الثَّانيَةِ[3].

قال كَعبُ بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرجنا إلى الحَجِّ، فواعَدنا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَقَبَةَ من أوسَطِ أَيَّامِ التشريقِ، فلما فرَغنا منَ الحَجِّ، وكانتِ اللَّيلَةُ التي وعَدنا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إذا مَضى ثُلُثُ اللَّيلِ خرجنا من رِحالِنا لِميعادِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَتَسَلَّلُ مُستَخفينَ تَسَلُّلَ القَطا[4] حتى اجتَمَعنا في الشِّعبِ عِندَ العَقَبَةِ، ونَحنُ سَبعونَ رجلًا، ومعنا امرَأَتانِ من نسائِهِم: نَسيبَةُ بنتُ كَعبٍ أُمُّ عُمارَةَ، إحدى نساءِ بَني مازِنِ بن النجَّارِ، وأَسماءُ بنتُ عَمرِو بن عَديِّ بن ثابتٍ، إحدى نساءِ بَني سَلِمَةَ، وهي أُمُّ مَنيعٍ.

---

(١) قال العيني: «حاصل المعنى: أنا بايعناه على أن لا نفعل شيئا من المذكورات بمقابلة الجنة، يعني: يكون لنا الجنة عند ذلك». عمدة القاري (١٧/ ٣٣).

(٢) رواه البخاري (٣٨٩٣)، ومسلم (١٧٠٩).

(٣) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٣٤-٤٣٨).

(٤) نوع من اليمام، يؤثر الحياة في الصحراء.

فاجتَمَعنا بالشِّعب نَنتَظِرُ رسولَ اللهِ ﷺ، حتى جاءَنا ومعه يَومَئِذٍ عَمُّهُ العباسُ ابن عبدِ المطَّلِب، وهو يَومَئِذٍ على دينِ قَومِهِ، إلا أَنَّهُ أَحَبَّ أَن يَحضُرَ أَمرَ ابنِ أَخيهِ، ويَتَوَثَّقَ له.

فلما جَلَسنا كان العباسُ بن عبدِ المطَّلِب أَوَّلَ مُتكَلِّمٍ، فقال: يا مَعشَرَ الخَزرَجِ، -قال: وكانتِ العَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هذا الحَيَّ منَ الأَنصارِ الخَزرَجَ، أوسَها وخَزرَجَها- إنَّ محمدًا مِنَّا حَيثُ قد عَلِمتُم، وقد مَنَعناهُ من قَومِنا مِمَّن هو على مِثلِ رَأيِنا فيه، وهو في عِزٍّ من قَومِهِ، ومَنَعَةٍ في بَلَدِهِ، وإنَّهُ قد أَبى إلا الِانحيازَ إلَيكُم، واللُّحوقَ بكُم، فإن كُنتُم تَرَونَ أَنَّكُم وافونَ له بما دَعَوتُموهُ إليه، ومانِعوهُ مِمَّن خالَفَهُ، فأَنتُم وما تَحَمَّلتُم من ذلك، وإن كُنتُم تَرَونَ أَنَّكُم مسلموهُ وخاذِلوهُ بعدَ الخُروجِ بهِ إلَيكُم، فمنَ الآنَ فدَعوهُ، فإنَّهُ في عِزٍّ ومَنَعَةٍ من قَومِهِ وبَلَدِهِ.

فَقُلنا: قد سَمِعنا ما قُلتَ، فتكَلَّم يا رسولَ اللهِ، فخُذ لِنَفسِكَ ولِرَبِّكَ ما أَحبَبتَ.

قال: فتكَلَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ، فتَلا، ودَعا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ورَغَّبَ في الإسلامِ، ثم قال: «**أُبايِعُكُم على أَن تَمنَعوني مِمَّا تَمنَعونَ منه نساءَكُم، وأَبناءَكُم**».

قال: فأَخَذَ البَراءُ بن مَعرورٍ بيَدِهِ ثم قال: نَعَم -والذي بَعَثَكَ بالحقِّ- لَنَمنَعَنَّكَ مِمَّا نَمنَعُ منه أُزُرَنا[1]، فبايِعنا يا رسولَ اللهِ، فنَحنُ أَهلُ الحُروب، وأَهلُ الحَلَقَةِ[2]، ورِثناها كابرًا عن كابرٍ.

قال: فاعتَرَضَ القَولَ -والبَراءُ يُكَلِّمُ رسولَ اللهِ ﷺ- أَبو الهَيثَمِ بن التيهانِ، حَليفُ بَني عبدِ الأَشهَلِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ بينَنا وبينَ الرِّجالِ حِبالًا، وإنَّا قاطِعوها -يَعني العُهودَ-، فهَل عَسَيتَ إن نَحنُ فعَلنا ذلك ثم أَظهَرَكَ اللهُ أَن تَرجِعَ إلى قَومِكَ، وتَدَعَنا؟

قال: فتَبَسَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ، ثم قال: «**بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، والهَدمَ الهَدمَ**[3]، **أَنا منكُم، وأَنتُم مِنِّي، أُحارِبُ مَن حارَبتُم، وأُسالِمُ مَن سالَمتُم**».

---

(١) كانت العرب تكني عن المرأة بالإزار، وتكني أيضًا بالإزار عن النفس.

(٢) الحلقة: اسم يجمع السلاح والدروع وما أشبهها. تهذيب اللغة (٤/ ٤١).

(٣) المعنى: إن طلب دمكم فقد طلب دمي، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي؛ لاستحكام الألفة بيننا، وهو قول معروف للعرب، يقولون: «دمي دمك، وهدمي هدمك»، وذلك عند المعاهدة والنصرة. النهاية (٥/ ٢٥١).

وقد قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَخرِجوا إِليَّ منكُم اثنَي عَشَرَ نَقيبًا، يكونونَ على قَومِهِم**»، فأَخرَجوا منهم اثنَي عَشَرَ نَقيبًا، منهم تِسعَةٌ منَ الخَزرَجِ، وثَلاثَةٌ منَ الأوسِ.

وكان أَوَّلَ مَن ضَرَبَ على يَدِ رسولِ اللهِ ﷺ البَراءُ بن مَعرورٍ، ثم تَتابَعَ القَومُ.

فلما بايَعَنا رسولُ اللهِ ﷺ صَرَخَ الشَّيطانُ من رَأسِ العَقَبَةِ بأَبعَدِ صَوتٍ سَمِعتُهُ قَطُّ: يا أَهلَ الجُباجِبِ -والجُباجِبُ: المَنازِلُ- هَل لَكُم في مُذَمَّمٍ[1] والصباةُ معه؟ قد أَجمَعوا على حَربِكُم.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**هذا أَزَبُّ العَقَبَةِ**[2]، **هذا ابنُ أَزيَبَ، اسمَع أَي عَدوَّ اللهِ: أَما واللهِ لَأَفرُغَنَّ لك**».

ثم قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ارفَعوا إلى رِحالِكُم**»، فقال له العباسُ بن عُبادَةَ ابنِ نَضلَةَ: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لَئِن شِئتَ لَنَميلَنَّ على أَهلِ مِنًى غَدًا بأَسيافِنا، قال: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لَم أُؤمَر بذلك**».

قال: فرجعنا فنِمنا حتى أَصبَحنا، فلما أَصبَحنا غَدَت علينا جِلَّةُ قريشٍ[3]، حتى جاءونا في مَنازِلِنا، فقالوا: يا مَعشَرَ الخَزرَجِ، إِنَّهُ قد بلغَنا أَنَّكُم قد جِئتُم إلى صاحِبِنا هذا تَستَخرِجونَهُ من بينِ أَظهُرِنا، وتُبايِعونَهُ على حَربِنا، واللهِ إِنَّهُ ما منَ العَرَب أَحَدٌ أَبغَضَ إِلَينا أَن تَنشَبَ الحَربُ بينَنا وبينَهُ منكُم، قال: فانبَعَثَ مَن هُنالِكَ من مُشرِكي قَومِنا، يَحلِفونَ لهم باللهِ ما كان من هذا شيءٌ، وما عَلِمناهُ، وقد صَدَقوا، لَم يَعلَموا ما كان مِنَّا، قال: فبعضُنا يَنظُرُ إلى بعضٍ[4].

---

(١) روى البخاري (٣٥٣٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مذمَّمًا، ويلعنون مذمَّمًا، وأنا محمد**»، قال الحافظ في الفتح (٦/ ٥٥٨): «كان الكفار من قريش- من شدة كراهتهم في النبي ﷺ- لا يسمونه باسمه الدال على المدح، فيعدلون إلى ضده فيقولون: «مذمم».

(٢) قال السهيلي في الروض الأنف (٤/ ١٢٥): «هو اسم شيطان».

(٣) أي: أشراف قريش.

(٤) رواه الإمام أحمد (١٥٧٩٨)، من طريق ابن إسحاق، وهذا في السيرة (١/ ٤٤٠-٤٤٣)، وحسنه محققو المسند.

قال ابنُ إسحاقَ: وكان رسولُ اللهِ ﷺ قَبلَ بَيعَةِ العَقَبَةِ لَم يُؤذَن له في الحَرب، ولَم تُحَلَّل له الدِّماءُ، إنَّما يُؤمَرُ بالدُّعاءِ إلى اللهِ، والصبرِ على الأَذى، والصفحِ عن الجاهِلِ، وكانت قريشٌ قد اضطَهَدَت مَنِ اتَّبَعَهُ من المهاجِرينَ، حتى فتَنوهُم عن دينِهِم، ونَفَوهُم من بلادِهِم، فهُم من بينِ مَفتونٍ في دينِهِ، ومن بينِ مُعَذَّبٍ في أَيديهِم، وبينِ هارِبٍ في البلادِ فِرارًا منهم، منهم مَن بأَرضِ الحَبَشَةِ، ومنهم مَن بالمَدينَةِ، وفي كُلّ وجه، فلما عَتَت قريشٌ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وردُّوا عليه ما أَرادَهُم بهِ من الكَرامَةِ، وكَذَّبوا نبيَّهُ ﷺ، وعَذَّبوا ونَفَوا مَن عَبَدَهُ ووَحَّدَهُ وصَدَّقَ نبيَّهُ واعتَصَمَ بدينِهِ: أَذِنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِرسولِهِ ﷺ في القِتالِ، والِانتِصارِ مِمَّن ظَلَمَهُم، وبَغى عليهم.

فلما أَذِنَ اللهُ تعالى له ﷺ في الحَرب، وبايَعَهُ هذا الحَيُّ من الأَنصارِ على الإسلامِ والنُّصرَةِ له ولِمَنِ اتَّبَعَهُ وأوى إليهم من المسلمينَ: أَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ أَصحابَهُ من المهاجِرينَ من قَومِهِ، ومَن معه بمكةَ من المسلمينَ، بالخُروجِ إلى المَدينَةِ والهِجرَةِ إلَيها، واللُّحوقِ بإخوانِهِم من الأَنصارِ، وقال: «**إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قد جَعَلَ لَكُم إخوانًا ودارًا تَأمَنونَ بها**».

فَخرجوا أَرسالًا، وأَقامَ رسولُ اللهِ ﷺ بمكةَ يَنتَظِرُ أَن يَأذَنَ له رَبُّهُ في الخُروجِ من مكةَ، والهِجرَةِ إلى المَدينَةِ[1].

ومن لَطيفِ وجَميلِ ما وردَ في حَديثِ الهِجرةِ:

هِجرةُ أمِّ سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

قال ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَني أَبي إسحاقُ بن يَسارٍ، عن سَلَمَةَ بن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ، عن جَدَّتِهِ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوجِ النبيِّ ﷺ، قالت: «لَمَّا أَجمع أَبو سَلَمَةَ الخُروجَ إلى المَدينَةِ رَحَّلَ لي بَعيرَهُ ثم حَمَلَني عليه، وحَمَلَ مَعي ابني سَلَمَةَ بن أَبي سَلَمَةَ في حِجري، ثم خرجَ بي يَقودُ بي بَعيرَهُ، فلما رَأَتهُ رِجالُ بَني المغيرَةِ ابنِ عبدِ اللهِ بن عمرَ بن مَخزومٍ قاموا إليه فقالوا: هذه نَفسُكَ غَلَبتَنا عليها، أَرَأَيتَ صاحِبَتَكَ هذه؟ عَلامَ نَترُكُكَ تَسيرُ بها في البلادِ؟».

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٦٧-٤٦٨).

قالت: «فنَزَعوا خِطامَ البَعيرِ من يَدِهِ، فأَخَذوني منه، وغَضِبَ عِندَ ذلك بَنو عبدِ الأَسَدِ، رَهطُ أَبي سَلَمَةَ، فقالوا: لا واللهِ، لا نَترُكُ ابنَنا عِندَها، إذ نَزَعتُموها من صاحِبنا».

قالت: «فتَجاذَبوا ابني سَلِمَةَ بينهم، حتى خَلَعوا يَدَهُ، وانطَلَقَ بهِ بَنو عبدِ الأَسَدِ، وحَبَسَني بَنو المغيرَةِ عِندَهُم، وانطَلَقَ زَوجي أَبو سَلَمَةَ إلى المَدينَةِ، ففُرِّقَ بيني وبينَ زَوجي وبينَ ابني».

قالت: «فكُنتُ أَخرُجُ كُلَّ غَداةٍ فأَجلِسُ بالأَبطَحِ[1]، فما أَزالُ أَبكي حتى أُمسيَ، سنةً أو قَريبًا منها، حتى مَرَّ بي رجلٌ من بَني عَمِّي، أَحَدُ بَني المغيرَةِ، فرَأى ما بي فرَحِمَني، فقال لِبَني المغيرَةِ: أَلا تُخرِجونَ هذه المِسكينَةَ؟ فرَّقتُم بينَها وبينَ زَوجِها وبينَ ولَدِها! قالت: فقالوا لي: الحقي بزَوجِكَ إن شِئتِ».

قالت: «ورَدَّ بَنو عبدِ الأَسَدِ إلَيَّ عِندَ ذلك ابني، فارتَحَلتُ بَعيري، ثم أَخَذتُ ابني فوَضَعتُهُ في حِجري، ثم خرجتُ أُريدُ زَوجي بالمَدينَةِ، وما مَعي أَحَدٌ من خَلقِ اللهِ، فقُلتُ: أَتَبَلَّغُ بمَن لَقيتُ حتى أَقدمَ على زَوجي، حتى إذا كُنتُ بالتنعيم[2] لَقيتُ عُثمانَ بن طَلحَةَ بن أَبي طَلحَةَ، أَخا بَني عبدِ الدَّارِ، فقال لي: إلى أَينَ يا بنتَ أَبي أُمَيَّةَ؟ قُلتُ: أُريدُ زَوجي بالمَدينَةِ، قال: أَوَ ما معكِ أَحَدٌ؟ قالت: فقُلتُ: لا واللهِ، إلا اللهُ، وبُنَيَّ هذا، قال: واللهِ ما لك من مَترَكٍ.

فَأَخَذَ بخِطامِ البَعيرِ، فانطَلَقَ مَعي يَهوي بي[3]، فواللهِ ما صَحِبتُ رجلًا من العَرَب قَطُّ، أَرى أَنَّهُ كانَ أَكرَمَ منه، كان إذا بلغَ المَنزِلَ أَناخَ بي، ثم استَأخَرَ عَنِّي، حتى إذا نزلتُ استَأخَرَ ببَعيري، فحَطَّ عنه، ثم قَيَّدَهُ في الشَّجَرَةِ، ثم تَنَحَّى عَنِّي إلى شَجَرَةٍ، فاضطَجَعَ تَحتَها، فإذا دَنا الرواحُ، قامَ إلى بَعيري، فقدَّمَهُ فرَحَله، ثم استَأخَرَ عَنِّي، وقال: اركَبي، فإذا رَكِبتُ واستَوَيتُ على بَعيري أَتى فأَخَذَ بخِطامِهِ، فقادَهُ، حتى يَنزِلَ بي، فلم يَزَل

(١) الأبطح: موضع خارج مكة.

(٢) التنعيم: موضع بين مكة وسرف، على فرسخين من مكة.

(٣) أي: يسرع.

يَصنَعُ ذلك بي حتى أَقدَمَني المَدينَةَ، فلما نَظَرَ إلى قَريَةِ بَني عَمرِو بن عَوفٍ بقُباءٍ، قال: زَوجُكَ في هذه القَريَةِ- وكان أَبو سَلَمَةَ بها نازِلًا-، فادخُليها على بَرَكَةِ اللهِ، ثم انصَرَفَ راجِعًا إلى مكةَ».

قال: فكانت تَقولُ: «واللهِ ما أَعلَمُ أَهلَ بَيتٍ في الإسلامِ أَصابَهُم ما أَصابَ آلَ أَبي سَلَمَةَ، وما رَأَيتُ صاحِبًا قَطُّ كان أَكرَمَ من عُثمانَ بن طَلحَةَ»[1].

هجرَةُ صُهَيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن صُهَيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُريتُ دارَ هِجرَتِكُم، سَبخَةً بينَ ظَهرانَي حَرَّةَ، فإمَّا أَن تكونَ هَجَرًا، أو تكونَ يَثرِبَ**».

قال: وخرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المَدينَةِ وخرجَ معه أَبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكُنتُ قد هَمَمتُ بالخُروجِ معه، فصَدَّني فِتيانٌ من قريشٍ، فجَعَلتُ لَيلَتي تِلكَ أَقومُ ولا أَقعُدُ، فقالوا: قد شَغَلَه اللهُ عنكُم ببَطنِهِ، ولَم أَكُن شاكيًا، فقاموا فلَحِقَني منهم ناسٌ بعدَما سِرتُ بَريدًا[2] ليَرُدُّوني، فقُلتُ لهم: هَل لَكُم أَن أُعطيَكُم أواقيَّ من ذَهَبٍ، وحُلَّتَينِ لي بمكةَ، وتُخَلُّونَ سَبيلي؟

فَفَعَلوا، فتَبعتُهُم إلى مكةَ، فقُلتُ لهُمُ: احفِروا تَحتَ أُسكُفَّةِ الباب[3]، فإنَّ تَحتَها الأواقيَ، واذهَبوا إلى فُلانَةَ، فخُذوا الحُلَّتَينِ، وخرجتُ حتى قدِمتُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبلَ أَن يَتَحوَّلَ منها - يَعني قُباءَ -، فلما رَآني قال: «**يا أَبا يَحيى، رَبحَ البَيعُ**»[4].

وعن أَبي عُثمانَ النهديِّ، أَنَّ صُهَيبًا حينَ أَرادَ الهِجرَةَ إلى المَدينَةِ قال له كُفَّارُ قريشٍ:

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٦٩-٤٧٠)، وسنده حسن إن كان سلمة بن عبد الله -ويقال: سلمة بن عمر بن أبي سلمة- سمع جدته أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) مسافة اثني عشر ميلًا، وقيل: فرسخان على الأرض.

(٣) عتبة الباب.

(٤) رواه الحاكم (٥٧٠٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٣١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٥٢)، وله شواهد من عدة طرق.

أَتَيتَنا صُعلوكًا[١]، فكَثُرَ مالُكَ عِندَنا، وبلغتَ ما بلغتَ، ثم تُريدُ أَن تَخرُجَ بنَفسِكَ ومالِكَ؟! واللهِ لا يكونُ ذلك.

فقال لهم: أَرَأَيتُم إن أَعطَيتُكُم مالي أَتُخَلُّونَ سَبيلي؟ قالوا: نَعَم، فقال: أُشهِدُكُم أَنِّي قد جَعَلتُ لَكُم مالي، فبلغَ ذلك النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**رَبحَ صُهَيبٌ، رَبحَ صهيب**»[٢].

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم خرجَ الناسُ أَرسالًا يَتبَعُ بعضهم بعضًا، ولَم يَبقَ بمكةَ منَ المسلمينَ إلا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكرٍ وعَليٌّ -أَقاما بأَمرِهِ لهما-، وإلا مَنِ احتَبَسَهُ المشرِكونَ كَرهًا، وقد أَعَدَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِهازَهُ يَنتَظِرُ مَتى يُؤمَرُ بالخُروجِ، وأَعَدَّ أبو بكرٍ جِهازَهُ»[٣].

وكانتِ المَدينةُ -بطبيعةِ الحالِ- فيها الزِّراعةُ والصناعةُ التي لم يَكُنِ المهاجِرونَ قد تمَرَّسوا بشيءٍ منها؛ لأنَّ وظيفةَ المهاجِرينَ الأساسيَّةَ في مكةَ كانتِ التجارة؛ لأنَّ مكةَ لم تكُن بلدًا ذاتَ زرعٍ.

ثم إنَ هَؤُلاءِ المهاجِرينَ لما قدِموا إلى المدينةِ لم يستطيعوا مُمارسَةَ التِّجارةِ؛ لأنّ التِّجارةَ تحتاجُ إلى رأسِ مالٍ، ولِذلك لم يتمَكَّنوا من شَقِّ طريقِهم بأنفُسِهم في المجتمعِ الجديدِ، وكانت حياتُهم في المدينةِ حياةً صعبةً، وكان الحَنينُ إلى مكةَ شديدًا، وأصابَتِ المهاجِرينَ حُمَّى يَثرِبَ، وهي وباءٌ كان فيها، فدَعا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تنتَقِلَ الحُمَّى إلى الجُحفَةِ، ورُفِعَتِ الحُمَّى من المدينةِ، ونزَلَت في الجُحفَةِ.

ودعا النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّه عَزَّوَجَلَّ أن يُحَبِّبَ إليهِمُ المدينَةَ، كَحُبِّهم مكةَ أو أَشَدَّ، فصارَت محَبَّةُ المهاجِرينَ للمدينةِ محبَّةً شديدةً، فصارت هي دارَهم ومحلَ إقامَتِهم، ولم يعاوِدهم الحنينُ إلى مكةَ.

---

(١) فقيرًا.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٧٠٨٢)، وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة (ص١٦٧) بشواهده.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٥).

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لَمَّا قدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدينَةَ، وُعِكَ[١] أَبو بكرٍ، وبلالٌ، فكان أَبو بكرٍ إذا أَخَذَتهُ الحُمَّى يقولُ:

كُلُّ امـرِئٍ مُصَبَّـحٌ في أَهلِـهِ

والمَـوتُ أَدنـى مـن شِراكِ نَعلِـهِ

وكان بلالٌ إذا أُقلِعَ عنه الحُمَّى يَرفَعُ عَقيرَتَهُ[٢] يقولُ:

أَلا لَيتَ شِعري[٣] هَل أَبيتَنَّ لَيلَةً

بوادٍ وحَـولي إذخِـرٌ[٤] وجَليلُ[٥]

وهَـل أَرِدَن يَومًـا ميـاهَ مَجَنَّـةٍ[٦]

وهَل يَبـدوَن لي شـامَةٌ وطَفيلُ[٧]

قال: اللهُمَّ العن شَيبَةَ بن رَبيعَةَ، وعُتبَةَ بن رَبيعَةَ، وأُمَيَّةَ بن خَلَفٍ، كَما أَخرَجونا من أَرضِنا إلى أَرضِ الوَباءِ.

ثم قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ حَبِّب إلَينا المَدينَةَ كَحُبِّنا مكةَ أو أَشَدَّ، اللهُمَّ بارِك لَنا في صاعِنا وفي مُدِّنا، وصَحِّحها لَنا، وانقُل حُمَّاها إلى الجُحفَةِ**».

قالت: «وقدمنا المَدينَةَ وهي أوبَأُ أَرضِ اللهِ، فكان بُطحانُ[٨] يَجري نَجلًا»، تَعني: ماءً آجِنًا[٩][١٠].

---

(١) أي: أصابه الوعك، وهو الحمى.

(٢) أي: صوته.

(٣) أي: ليتني أعلم.

(٤) نوع من الحشيش.

(٥) نوع من النبات.

(٦) موضع على أميال من مكة.

(٧) جبلان على نحو ثلاثين ميلًا من مكة، وقيل: هما عينا ماء.

(٨) يعني: وادي المدينة.

(٩) أي: متغير الطعم واللون، وهذا من تفسير الراوي عنها، وغرضها بذلك: بيان السبب في كثرة الوباء بالمدينة؛ لأن الماء الذي هذه صفته يحدث عنده المرض. ينظر: الفتح (٤/ ١٠١).

(١٠) رواه البخاري (١٨٨٩)، ومسلم (١٣٧٦)، مختصرا.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

مَعنى المؤاخاة في اللُّغَةِ:

المؤاخاةُ: مُفاعَلَةٌ من الأُخوَّة، يُقالُ: آخَيتُه وواخَيتُه مُؤاخاةً وإخاءً، أي: اتَّخَذتُه أخًا.

وآخى الرجُلَ مُؤاخاةً وإخاءً ووِخاءً، والاِسم: الأخوَّةُ.

قال ابنُ دريد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإخاءُ: مصدرُ واخَيتُه وآخَيتُه مواخاةً وإخاءً»[١].

وقال ابنُ عبَّادٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأخُ واحد، وجَمعُه إخوَةٌ وأخوَة وإخوان وآخاء -مِثل آباء- وأخون -مِثلُ أبون-.

وبيني وبينَه أخوة وإخاء، وآخَيتُه، وهو من آخائي، والتآخي: اتخاذُ الإخوان»[٢].

وقال الفَيُّوميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «آخَيت بينَ الشَّيئَينِ بهَمزَةٍ ممدودَةٍ، وقد تُقلَبُ واوًا على البَدَلِ، فيُقالُ: واخَيت، كَما قيلَ في آسَيت: واسَيت»[٣].

وقال ابنُ بَرِّيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَكى أَبو عُبَيدٍ في الغَريب المصنَّف، ورواهُ عَنِ الزَّيديِّين: آخَيتَ وواخَيتَ، وآسَيتَ وواسَيتَ، وآكَلتَ وواكَلتَ.

ووَجهُ ذلك من جِهةِ القياسِ هو: حَملُ الماضي على المستقبلِ، إذ كانوا يقولونَ: يواخي، بقَلب الهَمزَةِ واوًا على التخفيفِ، وقيلَ: إنَّ واخاهُ لُغَةٌ ضَعيفَةٌ، وقيلَ: هي بَدَلٌ».

وقال ابنُ سيدَه رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَرى الوِخاءَ عليها، والاِسمُ الأُخوَّة، تَقولُ: بيني وبينَهُ أُخوَّة وإخاءٌ، وتَقولُ: آخَيتُه على مِثالِ فاعَلته، ولُغَةُ طَيِّءٍ: واخَيته.

وتَقولُ: هذا رجلٌ من آخائي، بوَزنِ أَفعالي، أَي: من إخواني، وما كنتَ أَخًا، ولَقد تَأَخَّيت وآخَيت وأَخَوت، تَأخو أُخوَّة، وتَآخَيا، على تفاعَلا، وتأَخَّيت أَخًا، أَي: اتَّخَذت أَخًا»[٤].

---

(١) جمهرة اللغة (٢/ ١٠٥٧).

(٢) المحيط في اللغة (١/ ٣٨٠).

(٣) المصباح المنير (١/ ٨).

(٤) لسان العرب (١٤/ ٢٢)، المحكم (٥/ ٣١٤).

وقال **الفَرَّاءُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأمَّا قولُ العرَب: واخَيت وواتَيت وواسَيت: فإنَّها بُنيَت على المواخاةِ والمواساةِ والمواتاةِ»[١].

وقال **الخليلُ بن أحمَدَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «تقول: آخَيتُه، ولُغةُ طَيِّءٍ: واخَيتُه، وهذا رجلٌ من آخائي، بوزنِ أفعالي، وتقول: آخَيتُ على أصلِ التأسيسِ، ومَن قال: واخَيتُ، بلُغَةِ طَيِّءٍ، أخَذَه من الوِخاءِ»[٢].

وقال **ابن السّكِّيتِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «آخيتُ الرجُلَ، ولا تَقول: واخَيتُ، يَعني: من أخوَّة الصداقَةِ»[٣].

وقال **الفيروزآبادي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَخَوتُ أُخوَّةً، وآخَيتُ وتأَخَّيتُ، وآخاهُ مُؤاخاةً وإخاءً وإخاوَةً ووخاءً، وواخاهُ ضعيفَةٌ»[٤].

المؤاخاة في الاصطِلاحِ الشرعيِّ:

قال **العَينيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤاخاة: اتِّخاذُ الأُخوَّةِ بينَ الاثنَينِ، يُقال: واخاهُ مواخاةً وإخاءً، وتَآخيًا على تَفاعَلا، وتَأَخَّيتَ إخاءً، أَي: اتَّخَذتَ أَخًا»[٥].

وقال **الماوَرديُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤاخاة بالمَوَدَّةِ من أَسباب الأُلفَةِ؛ لِأَنَّها تُكسِبُ بصادِقِ المَيلِ إخلاصًا ومُصافاةً، ويَحدُثُ بخُلوصِ المُصافاةِ وفاءٌ ومُحاماةٌ، وهذا أَعلى مَراتِب الأُلفَةِ، ولِذلك آخى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ أَصحابِهِ؛ لِتَزيدَ أُلفَتُهُم، ويَقوى تَظافُرُهُم، وتَناصُرُهُم.

وقال **خالِدُ بن صَفوانَ**: «إنَّ أَعجَزَ الناسِ مَن قَصَّرَ في طَلَب الإخوانِ، وأَعجَزَ منه مَن ضَيَّعَ مَن ظَفِرَ بِهِ منهم».

---

(١) معاني القرآن (٢/ ١٣٧).

(٢) العين (٤/ ٣١٩).

(٣) المخصص لابن سيده (٤/ ١٤٥).

(٤) القاموس المحيط (ص١٢٥٨).

(٥) عمدة القاري (١١/ ٨٠).

وقال **ابنُ المعتزِّ**: «مَنِ اتَّخَذَ إخوانًا كانوا له أَعوانًا».

وقال **بعضُ الأُدَباءِ**: «أَفضَلُ الذَّخائِرِ أَخٌ وفيٌّ».

وقال **بعضُ البُلَغاءِ**: «صَديقٌ مُساعِدٌ عَضُدٌ وساعِدٌ».

والمؤاخاة في الناسِ قد تَكونُ على وجهَينِ، أَحَدُهُما: أُخوَّةٌ مُكتَسَبَةٌ بالاِتِّفاقِ الجاري مَجرى الاِضطِرارِ، والثَّانيَةُ: مُكتَسَبَةٌ بالقَصدِ والاِختيارِ»[١].

وعَنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كان المهاجِرونَ لَمَّا قدِموا المَدينَةَ يَرِثُ المهاجِريُّ الأَنصاريَّ، دونَ ذَوي رَحِمِهِ؛ للأُخوَّةِ التي آخى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهم، فلما نزلَت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ [النساء: ٣٣] نُسِخَت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ[٢] أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٣]، منَ النصرِ، والرِّفادَةِ، والنصيحَةِ، وقد ذَهَبَ الميراثُ، ويوصي له»[٣].

وفي **روايةٍ**: «آخى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ أَصحابِه، ووَرَّثَ بعضَهُم من بعضٍ، حتى نزلَت هذه الآيةُ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]، فتَرَكوا ذلك، وتَوارَثوا بالنسَب»[٤].

حُصولُ وتحقيقُ المؤاخاةِ بينَ المسلمينَ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

قال ابنُ جَريرٍ الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «جَمع بينَ قُلوب المؤمِنينَ منَ الأوسِ والخَزرَجِ بعدَ

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص١٦١)، باختصار.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، بغير ألف، وقرأ الباقون: (والذين عاقدت)، بالألف. حجة القراءات لابن زنجلة (ص٢٠١).

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٠).

(٤) رواه البيهقي في سننه (١٢٥٢٩).

التفَرُّقِ والتشَتُّتِ على دينِهِ الحقِّ، فصَيَّرَهُم بِهِ جَميعًا بعدَ أَن كانوا أَشتاتًا، وإخوانًا بعدَ أَن كانوا أَعداءً.

ويقولُ تعالى ذِكرُهُ لِنبيِّهِ محمدٍ ﷺ: لَو أَنفَقَت -يا محمدُ- ما في الأَرضِ جَميعًا من ذَهَبٍ ووَرِقٍ وعَرَضٍ، ما جَمَّعتَ أَنتَ بينَ قُلوبِهِم بحيلَكَ، ولكنَّ اللهَ جَمَّعَها على الهُدى، فائتَلَفَت واجتَمعت؛ تَقويَةً منَ اللهِ لك، وتَأييدًا منه، ومَعونَةً على عَدوِّكَ.

والذي فعَلَ ذلك وسَبَّبَهُ لك حتى صاروا لك أَعوانًا وأَنصارًا ويَدًا واحدَةً على مَن بَغاكَ سوءًا هو الذي إن رامَ عَدوٌّ منكَ مَرامًا يَكفيكَ كَيدَهُ ويَنصُرُكَ عليه، فثِق بِهِ، وامضِ لأَمرِهِ، وتَوَكَّل عليه.

وقَولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، يقولُ: إنَّ اللهَ الذي أَلَّفَ بينَ قُلوب الأوسِ والخَزرَجِ بعدَ تَشَتُّتِ كَلِمَتِهِما وتَعاديهِما وجَعَلهم لك أَنصارًا، عَزيزٌ لا يَقهَرُهُ شيءٌ، ولا يَرُدُّ قَضاءَهُ رادٌّ، ولكنَّهُ ينفذُ في خَلقِهِ حُكمهُ، وهو حَكيمٌ في تَدبيرِ خَلقِهِ؛ فعليه فتَوَكَّل، وبِهِ فثِق»[1].

وقال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، أَي: جَمعها على الإيمانِ بكَ، وعلى طاعَتِكَ ومُناصَرَتِكَ وموازَرَتِكَ، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، أَي: لِما كان بينهم منَ العَداوَةِ والبَغضاءِ؛ فإنَّ الأَنصارَ كانت بينهم حُروبٌ كَثيرَةٌ في الجاهِليَّةِ، بينَ الأوسِ والخَزرَجِ، وأُمورٌ يَلزَمُ منها التسَلسُلُ في الشَّرِّ، حتى قَطَعَ اللهُ ذلك بنورِ الإيمانِ، كَما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]»[2].

وقال القُرطُبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، أَي: جَمع بينَ قُلوب الأوسِ والخَزرَجِ، وكان تَأَلُّفُ القُلوب مع العَصَبيَّةِ الشَّديدَةِ في العَرَب من آياتِ النبيِّ ﷺ

(١) تفسير الطبري (١١/ ٢٥٦-٢٥٩)، باختصار وتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٤).

ومُعجِزاتِهِ؛ لِأَنَّ أَحَدَهُم كان يُلطَمُ اللَّطمَةَ فيُقاتِلُ عنها حتى يَستَقيدَها، وكانوا أَشَدَّ خَلقِ اللهِ حَمِيَّةً، فأَلَّفَ اللهُ بالإيمانِ بينهم، حتى قاتَلَ الرجُلُ أَباهُ وأَخاهُ بسَبَبِ الدِّينِ.

وقيلَ: أَرادَ التأليفَ بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ، والمعنى مُتَقارِبٌ»[١].

وقال ابنُ الجوزيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، يعني: الأوس والخزرَج، وهمُ الأنصارُ، كانت بينَهم عَداوةٌ في الجاهِليَّة، فألَّفَ اللهُ بينهم بالإسلامِ، وهذا من أعجَبِ الآياتِ، لأنَّهم كانوا ذَوي أَنَفَةٍ شديدةٍ، فلو أنّ رجُلًا لَطَمَ رجُلًا لقاتَلَت عنه قبيلتُه حتى تُدرِكَ ثأرَهُ، فآلَ بهِمُ الإسلامُ إلى أن يقتُلَ الرجُلُ ابنَهُ وأباهُ»[٢].

وقال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا استَقَرَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمَدينَةِ، وأَيَّدَهُ اللهُ بنَصرِهِ بعِبادِهِ المؤمِنينَ الأَنصارِ، وأَلَّفَ بينَ قُلوبِهِم بعدَ العَداوَةِ والإحَنِ[٣] التي كانت بينهم، فمَنَعَتهُ أَنصارُ اللهِ وكَتيبَةُ الإسلامِ منَ الأَسوَدِ والأَحمَرِ، وبَذَلوا نُفوسَهُم دونَهُ، وقدموا مَحَبَّتَهُ على مَحَبَّةِ الآباءِ والأَبناءِ والأَزواجِ، وكان أولى بهِم من أَنفُسِهِم، رَمَتهُمُ العَرَبُ واليَهودُ عن قَوسٍ واحدَةٍ، وشَمَّروا لهم عن ساقِ العَداوَةِ والمحارَبَةِ، وصاحوا بهِم من كُلِّ جانِبٍ، واللهُ سبحانه يَأمُرُهُم بالصبرِ والعَفوِ والصفحِ، حتى قَوِيَتِ الشَّوكَةُ، واشتَدَّ الجَناحُ، فأُذِنَ لهم حينَئِذٍ في القِتالِ»[٤].

وقال الزَّمَخشَريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التأليفُ بينَ قُلوب مَن بُعِثَ إليهِم رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الآياتِ الباهِرَةِ؛ لأنّ العربَ -لِما فيهم منَ الحَميَّة والعصَبيَّة، والانطِواءِ على الضَّغينةِ في أدنى شيءٍ، وإلقائِه بينَ أعيُنِهم إلى أن ينتقِموا- لا يكادُ يأتَلِف منهم قَلبان، ثم ائتَلَفَت قُلوبُهم على اتِّباعِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتَّحَدوا، وأنشَؤوا يرمون عن قَوسٍ واحدةٍ؛ وذلك لِما جعلَ اللهُ من أُلفَتِهم، وجَمع من كلِمتِهم، وأحدَثَ بينهم من التحابِّ والتوادِّ، وأماطَ عنهُم من التباغُضِ والتماقُت، وكَلَّفَهم من الحُبِّ في اللهِ والبُغضِ في اللهِ، ولا يَقدِرُ على ذلك إلا مَن يملِكُ القُلوبَ، فهو يُقَلِّبُها كما شاءَ، ويصنَعُ فيها ما أرادَ.

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٤٢).

(٢) زاد المسير (٢/ ٢٢٢).

(٣) الأحقاد.

(٤) زاد المعاد (٣/ ٦٢).

وقيلَ: هُمُ الأوسُ والخزرَجُ، كان بينهم من الحُروب والوَقائِعِ ما أهلك سادَتَهم ورُؤَساءَهم، ودَقَّ جَماجِمَهم، ولم يكُن لبَغضائِهم أمَدٌ ومُنتَهى، وبينهما التجاوُر الذي يُهَيِّج الضَّغائِنَ، ويُديمُ التحاسُدَ والتنافُسَ، وعادَةُ كُلِّ طائفتَين كانتا بهذه المَثابةِ أن تتَجَنَّبَ هذه ما آثَرتهُ أختُها، وتكرَهُه وتَنفِرُ عنه، فأنساهُمُ اللهُ تعالى ذلك كُلَّه، حتى اتَّفَقوا على الطاعةِ، وتصافَوا، وصاروا أنصارًا، وعادوا أعوانًا، وما ذاكَ إلا بلطيفِ صُنعِه، وبليغِ قُدرَتِه»[1].

وقال **الشَّوكانيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَيَّنَ اللهُ تعالى كَيفَ كان تَأييدُهُ بالمؤمِنينَ، فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وظاهِرُهُ العُمومُ، وأَنَّ ائتِلافَ قُلوب المؤمِنينَ هو من أَسباب النصرِ التي أَيَّدَ اللهُ بها رسوله.

وقال **جُمهورُ المفسرينَ**: المرادُ: الأوسُ والخَزرَجُ، فقد كان بينهم عَصَبيَّةٌ شَديدَةٌ، وحُروبٌ عَظيمَةٌ، فأَلَّفَ اللهُ بينَ قُلوبِهم بالإيمانِ برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقيلَ: أَرادَ التأليفَ بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ.

والحَملُ على العُمومِ أولى، فقد كانتِ العَرَبُ قَبلَ البَعثَةِ المحمديَّةِ يَأكُلُ بعضهم بعضًا، ولا يَحتَرِمُ ماله، ولا دَمَهُ، حتى جاءَ الإسلامُ، فصاروا يَدًا واحدَةً، وذَهَبَ ما كان بينهم منَ العَصَبيَّةِ، وجُملَةُ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ مُقَرِّرَةٌ لِمَضمونِ ما قَبلها.

والمعنى: أَنَّ ما كان بينهم منَ العَصَبيَّةِ والعَداوَةِ، قد بلغَ إلى حَدٍّ لا يُمكِنُ دَفعُهُ بحالٍ منَ الأَحوالِ، ولو أَنفَقَ الطالِبُ له جَميعَ ما في الأَرضِ لَم يَتِمَّ له ما طَلَبَهُ منَ التأليفِ، لِأَنَّ أَمرَهُم في ذلك قد تَفاقَمَ جِدًّا، ولكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بينهم بعَظيم قُدرَتِهِ، وبَديعِ صُنعِهِ، ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالِبُهُ مُغالِبٌ، ولا يَستَعصي عليه أَمرٌ منَ الأُمورِ، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تَدبيرِهِ، ونُفوذِ نَهيِهِ وأَمرِهِ»[2].

---

(١) تفسير الزمخشري (٢/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٢) فتح القدير (٢/ ٣٦٨).

وقال **القاسِميُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: جَمع بينَ قُلوبهم وكلِمَتِهم، بالهُدى الذي بعَثَك اللهُ به إليهم، بعدَ ما كان فيها العصَبِيَّةُ والضَّغينَةُ، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: من الذَّهب والفِضّةِ ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ إذ لا يدخُلُ ذلك تحتَ قُدرةِ البَشَرِ، لكَونِه من عالَمِ الغَيب، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: بينَ قُلوبهم بدينِه الذي جمعهم إليه، ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾، أي: غالِبٌ في مُلكِه وسُلطانِه على كل ظاهر وباطن، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: فاقتَضَت حكمتُه ذلك؛ لِما فيه من تأييدِ دينِه، وإعلاءِ كلمتِه»[1].

وقال **ابنُ عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التأليفُ بينَ قُلوب المؤمِنينَ مِنَّةٌ أُخرى على الرسولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ جَعَلَ أَتباعَهُ مُتَحابِّينَ، وذلك أَعوَنُ له على سياسَتِهم، وأَرجى لِاجتِناءِ النفعِ بهم، إذ يكونونَ على قَلب رجلٍ واحدٍ، وقد كان العَرَبُ يُفَضِّلونَ الجَيشَ المؤَلَّفَ من قَبيلَةٍ واحدَةٍ؛ لِأَنَّ ذلك أَبعَدُ عن حُصولِ التنازُعِ بينهم.

وهو أَيضًا مِنَّةٌ على المؤمِنينَ؛ إذ نَزَعَ من قُلوبِهِمُ الأَحقادَ والإحَنَ، التي كانت دَأبَ الناسِ في الجاهِليَّةِ، فكانت سَبَبَ التقاتُلِ بينَ القَبائِلِ بعضِها مع بعضٍ، وبينَ بُطونِ القَبيلَةِ الواحدَةِ، وأَقوالُهُم في ذلك كَثيرَةٌ.

فلما آمَنوا بمحمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انقَلَبَتِ البَغضاءُ بينهم مَوَدَّةً، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وما كان ذلك التآلُفُ والتحابُّ إلا بتَقديرِ اللهِ تعالى، فإنَّهُ لَم يَحصُل من قَبلُ بوَشائِجِ الأَنساب، ولا بدَعَواتِ ذَوي الأَلباب.

ولِذلك استأنَفَ بعدَ قَولِهِ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قَوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ استِئنافًا ناشِئًا عن مَساقِ الِامتِنانِ بهذا الِائتِلافِ، فهو بَيانِيٌّ، أَي: لَو حاوَلتَ تَأليفَهُم ببَذلِ المالِ العَظيمِ ما حَصَلَ التآلُفُ بينهم.

فَقَولُهُ: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مُبالَغَةٌ حَسنةٌ لِوُقوعِها مع حَرفِ ﴿لَوْ﴾ الدَّالِّ على عَدَمِ الوُقوعِ.

---

(١) تفسير القاسمي (٥/ ٣١٨).

وأَمَّا تَرَتُّبُ الجَزاءِ على الشَّرطِ فلا مُبالَغَةَ فيه، فكان التأليفُ بينهم من آياتِ هذا الدِّينِ؛ لِما جعلَ اللهُ مَن أُلفَتِهِم، وأَماطَ عنهم منَ التباغُضِ، ومن أَعظَمِ مَشاهِدِ ذلك: ما حَدَثَ بينَ الأوسِ والخَزرَجِ منَ الإحَنِ قَبلَ الإسلامِ، مِمَّا نَشَأَت عنه حَربُ بُعاث بينهم، ثم أَصبَحوا بعدَ حينٍ إخوانًا أَنصارًا للهِ تعالى، وأَزالَ اللهُ من قُلوبِهِمُ البَغضاءَ بينهم.

و﴿جَمِيعًا﴾ مَنصوبٌ على الحالِ من ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وهو اسمٌ على وزنِ فعيلٍ بمعنى مُجتَمِعٍ.

ومَوقِعُ الاِستِدراكِ في قَولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ لِأَجلِ ما يُتَوَهَّمُ من تَعَذُّرِ التأليفِ بينهم في قَولِهِ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، أَي: ولكنَّ تَكوينَ اللهِ يَلينُ بِهِ الصلبُ، ويَحصُلُ بِهِ المُتَعَذِّرُ»[1].

وها هُنا نُكتَةٌ صالِحَةٌ يَحسنُ إيرادُها:

فالآيةُ، وإن دَلَّت على العُمومِ، وهو أنّ تأليفَ القُلوب إنَّما هو إلى اللهِ، كما قال مَعمَرُ بن راشِدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جامِعِه:

عَنِ ابنِ طاوُسٍ، عن أَبيهِ، عَنِ ابنِ عباسٍ قال: «إنَّ اللهَ تعالى يُؤَلِّفُ بينَ القُلوب، وإذا قارَبَ بينَ القُلوب لَم يُزَحزِحها شيءٌ أَبَدًا»، ثم تَلا هذه الآيةَ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[2].

وعَن مُجاهِدٍ قال: «إذا لَقيَ المسلمُ أخاه، فصافَحَه وكَشَرَ[3] في وجهِه، تحاتَّت ذنوبُه[4] كما تَحاتّ العِذقُ من النخلَة».

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٦٣-٦٤).

(٢) رواه معمر بن راشد في جامعه (٢٠٢٣٣)، ومن طريقه رواه ابن المبارك في الزهد (٣٦٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٧٢٧) والحاكم في المستدرك (٣١٧٩)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) تبسم.

(٤) أي: تتساقط عنه.

فقال رجُلٌ لمُجاهِدٍ: يا أبا الحَجَّاج، إنّ هذا من العملِ اليسيرِ، فقال مُجاهدٌ: «﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، أَفيَسيرٌ هذا؟»[1].

فإنَّ رَبطَ هذا العُمومِ بما ذكَرَه كثيرٌ من المفسرين من السلَف والخَلَفِ من أنَّ المرادَ بالآيةِ المهاجِرونَ والأنصارُ، وقيل: الأوس والخَزرج، يُشيرُ إلى أنَّ هذا العمومَ المرادَ أصلُه هذا الخصوصُ المذكورُ، فهو مَنبتُه وعُنصُره الأوَّلُ.

فهذا التآلُف الذي مَنّ اللهُ به على المؤمِنينَ، فألَّف بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ، وألَّفَ بينَ الأوسِ والخَزرَجِ، هو أصلُ كُلِّ تآلُف في اللهِ جاءَ بعدَ ذلك؛ حَيثُ كانت هذه الفِئةُ المؤمِنةُ القُدوَةَ في كُلِّ خَيرٍ، فما أصابَ الناسَ برحمةِ اللهِ من خيرٍ بعدَهُم، فهُم أصلُه، ومثالُهُ الأوّلُ.

قال ابنُ عَطيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسيرِ الآيةِ**: «هذه إشارةٌ إلى العَداوةِ التي كانت بينَ الأوسِ والخَزرَجِ في حُروب بُعاث، فألَّفَ اللهُ تعالى قلوبَهم على الإسلامِ، ورَدَّهُم مُتَحابِّينَ في اللهِ، وعُدِّدَت هذه النِّعمةُ تأنيسًا لمُحمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

أي: كما لَطَفَ بك ربُّك أوَّلًا فكذلك يفعلُ آخِرًا، وقال ابنُ مَسعودٍ: «نزلَت هذه الآيةُ في المتَحابِّينَ في اللهِ، إذا تَراءى المتَحابَّانِ، فتصافَحا، وتضاحَكا، تحاتَّت خَطاياهُما»، فقال له عبدَةُ بن أبي لُبابةَ: إنَّ هذا ليسيرٌ، فقال له: «لا تَقُل ذلك؛ فإنَّ اللهَ يقول: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾» قال عبدةُ: فعرَفتُ أنّه أفقَهُ مِنِّي[2].

وهذا كُلُّه تَمثُّلٌ حَسَنٌ بالآيةِ، لا أَنَّ الآيةَ نزلَت في ذلك، بل تظاهَرَت أقوالُ المفسرينَ

---

(١) روضة العقلاء لابن حبان (ص٦٩).

(٢) هذا لا يعرف عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، إنما هو معروف عن مجاهد، كما تقدم نحوه، وقد رواه الطبري في تفسيره (١١/ ٢٥٨) -والسياق له-، وابن وهب في الجامع (١٥٩)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (١١٥)، عن عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد- ولقيته، وأخذ بيدي-، فقال: «إذا تراءى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر»، قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير، قال: «لا تقل ذلك؛ فإن الله يقول: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾، قال عبدة: «فعرفت أنه أفقه مني»، وإسناده صحيح.

أنَّها في الأوس والخَزرج كما ذكرنا، ولو ذهبَ إلى عُمومِ المؤمِنينَ في المهاجِرينَ والأَنصارِ، وجَعل التأليفَ ما كان من جميعِهم من التَّحابّ، حتى تكونَ أُلفَةُ الأوسِ والخزرَجِ جُزءًا من ذلك: لَساغَ ذلك، وكُلُّ تَآلُفٍ في اللهِ فتابعٌ لِذلك التآلُفِ الكائِنِ في صَدرِ الإسلامِ، وقد روى سهلُ بن سعدٍ عنِ النبيّ ﷺ، أنَّه قال: «**المؤمِنُ مَألَفَةٌ، ولا خَيرَ فيمَن لا يَألَفُ ولا يُؤلَفُ**»(١).

والتشابُه هو سبَبُ الأُلفَةِ، فمَن كان من أهلِ الخَيرِ أَلِفَ أشباهَهُ وأَلِفوهُ»(٢).

فتَأَمَّل قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكُلُّ تَآلُفٍ في اللهِ فتابعٌ لِذلك التآلُفِ الكائِنِ في صَدرِ الإسلامِ»، يَدُلّكَ على أنّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ هُم أصلُ كُلّ تآلُفٍ وتآخٍ في الدِّينِ، فما أصابَ الناسَ من بعدِهم فإنَّما هو من أصلِ خيرِهم، والذي هو من فضلِ اللهِ عليهم، فلهُم أجرُهم، وأجرُ مَنِ اقتدى بِهم إلى يومِ القيامَةِ.

عن جَريرِ بن عبدِ اللهِ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسنةً، فعُمِلَ بها بعدَهُ، كُتِبَ له مِثلُ أَجرِ مَن عَمِلَ بها، ولا يَنقُصُ من أُجورِهِم شيءٌ.**

ومَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فعُمِلَ بها بعدَهُ، كُتِبَ عليه مِثلُ وِزرِ مَن عَمِلَ بها، ولا يَنقُصُ من أوزارِهِم شيءٌ»(٣).

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن أم المؤمِنينَ خديجة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «ومِمَّا اختصَّت بِهِ: سَبقُها نساءَ هذه الأُمَّةِ إلى الإيمانِ، فسَنَّت ذلك لِكُلِّ مَن آمَنَت بعدَها، فيكونُ لها مِثلُ أَجرِهِنَّ؛ لِما ثَبَتَ أَنَّ: «**مَن سَنَّ سُنَّةً حَسنةً**».

وقد شارَكَها في ذلك أَبو بكرٍ الصدِّيقُ بالنِّسبَةِ إلى الرِّجالِ، ولا يَعرِفُ قدرَ ما لِكُلٍّ منهما منَ الثَّواب بسَبَب ذلك إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ»(٤).

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٢٨٤٠)، وحسنه محققو المسند.

(٢) تفسير ابن عطية (٢/ ٥٤٨-٥٤٩)

(٣) رواه مسلم (١٠١٧).

(٤) فتح الباري (٧/ ١٣٧).

عَودةٌ إلى قِصَّةِ المؤاخاةِ:

وكانتِ اليهودُ ترغَبُ في بَثِّ العداوة بينَ الأوسِ والخَزرَجِ، ويحسُدونهم على ما مَنَّ الله به عليهم من الإيمانِ ومُتابعةِ الرسولِ، فحَفِظَ اللهُ المسلمينَ من كيدِهِم، وعرَّفهم نِعمتَه عليهم، فعرَفوها ورَعَوها حقَّ رِعايتِها.

عن زَيدِ بن أَسلَمَ، قال: مَرَّ شاسُ بن قَيسٍ- وكان شَيخًا عَظيمَ الكُفرِ، شَديدَ الضِّغنِ[1] على المسلمينَ، شَديدَ الحَسَدِ لهم- على نَفَرٍ من أَصحاب رسولِ اللهِ ﷺ منَ الأوسِ والخَزرَجِ، في مَجلِسٍ قد جَمعهم يَتَحَدَّثونَ فيه، فغاظَهُ ما رَأى من جَماعَتِهم وأُلفَتِهم وصَلاحِ ذاتِ بينِهِم على الإسلامِ، بعدَ الذي كان بينهم منَ العَداوَةِ في الجاهِليَّةِ، فقال: قدِ اجتَمع مَلَأُ بَني قَيلَةَ -يَعني: الأوسَ والخَزرَجَ- بهذه البلادِ، لا واللهِ ما لَنا معهم إذا اجتَمع مَلَؤُهُم بها من قَرارٍ.

فَأَمَرَ فتًى شابًّا من يَهودَ كان معه، قال: اعمَد فاجلِس إليهم، ثم ذَكِّرهُم يَومَ بُعاثٍ، وما كان قبله، وأَنشِدهُم بعضَ ما كانوا تَقاوَلوا فيه منَ الأَشعارِ- وكان يَومُ بُعاثٍ يَومًا اقتَتَلَت فيه الأوسُ والخَزرَجُ-، ففَعَلَ، فتكَلَّمَ القَومُ عِندَ ذلك، فتَنازَعوا وتَفاخَروا حتى تَواثَبَ رجلانِ منَ الحَيَّينِ على الرُّكَب: أوسُ بن قَيظيٍّ، أَحَدُ بَني حارِثَةَ بن الحارِثِ بن أوسٍ، وجَبَّارُ بن صَخرٍ، أَحَدُ بَني سَلمَةَ، فتَقاوَلا، ثم قال أَحَدُهُما لِصاحِبه: إن شِئتُم واللهِ رَدَدناها الآنَ جَذعَةً، وغَضِبَ الفَريقانِ، وقالوا: قد فعَلنا.

فَبلغَ ذلك رسولَ اللهِ ﷺ، فخرجَ إليهم فيمَن معه منَ المهاجِرينَ من أَصحابِهِ، حتى جاءَهُم، فقال: «**يا مَعشَرَ المسلمينَ، اللهَ اللهَ، أَبَدَعوى الجاهِليَّةِ وأَنا بينَ أَظهُرِكُم، بعدَ أَن هَداكُمُ اللهُ تعالى إلى الإسلامِ، وأَكرَمَكُم بهِ، وقَطَعَ عنكُم أَمرَ الجاهِليَّةِ، واستَنقَذَكُم بهِ منَ الكُفرِ، وأَلَّفَ بينكُم، تَرجِعونَ إلى ما كُنتُم عليه كُفَّارًا؟!**».

فَعَرَفَ القَومُ أَنَّها نَزغَةٌ منَ الشَّيطانِ، وكَيدٌ من عَدوِّهِم لهم، فأَلقَوُا السِّلاحَ من أَيديهِم، وبَكَوا، وعانَقَ الرِّجالُ منَ الأوسِ والخَزرَجِ بعضهم بعضًا، ثم انصَرَفوا مع

(١) الضغن والضغن: الحقد. مقاييس اللغة (٣/ ٣٦٤).

رسولِ اللهِ ﷺ سامِعينَ مُطيعينَ، وأَطفَأَ اللهُ عنهم كَيدَ عَدوِّهِم وعَدوِّ الله: شاسِ ابن قَيسٍ[١].

وعن أَبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، قال: لَمَّا أَعطى رسولُ اللهِ ﷺ ما أَعطى من تِلكَ العَطايا[٢] في قريشٍ وقَبائِلِ العَرَب، ولَم يَكُن في الأَنصارِ منها شيءٌ، وجَدَ هذا الحَيُّ منَ الأَنصارِ في أَنفُسِهِم، حتى كَثُرَت فيهمُ القالةُ[٣] حتى قال قائِلُهُم: لَقيَ رسولُ اللهِ ﷺ قَومَهُ، فدَخَلَ عليه سَعدُ بن عُبادَةَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هذا الحَيَّ قد وجَدوا عليكَ في أَنفُسِهِم؛ لِما صَنَعتَ في هذا الفَيءِ الذي أَصَبتَ، قَسَمتَ في قَومِكَ، وأَعطَيتَ عَطايا عِظامًا في قَبائِلِ العَرَب، ولَم يَكُ في هذا الحَيِّ منَ الأَنصارِ شيءٌ، قال: «**فأَينَ أَنتَ من ذلك يا سَعدُ؟**»، قال: يا رسولَ اللهِ، ما أَنا إلا امرُؤٌ من قَومي، وما أَنا؟ قال: «**فاجمَع لي قَومَكَ في هذه الحَظيرَةِ**».

قال: فخرجَ سَعدٌ، فجَمع الأَنصارَ في تِلكَ الحَظيرَةِ، قال: فجاءَ رِجالٌ منَ المهاجِرينَ، فتَرَكَهُم فدَخَلوا، وجاءَ آخَرونَ فرَدَّهُم، فلما اجتَمَعوا أَتاهُ سَعدٌ فقال: قدِ اجتَمع لك هذا الحَيُّ منَ الأَنصارِ، قال: فأَتاهُم رسولُ اللهِ ﷺ، فحَمِدَ اللهَ، وأَثنى عليه بالذي هو له أَهلٌ، ثم قال: «**يا مَعشَرَ الأَنصارِ، ما قالةٌ بلغَتني عنكُم وجِدَةٌ[٤] وجَدتُموها في أَنفُسِكُم؟ أَلَم آتِكُم ضُلَّالًا فهَداكُمُ اللهُ؟ وعالَةً فأَغناكُمُ اللهُ؟ وأَعداءً فأَلَّفَ اللهُ بينَ قُلوبِكُم؟**».

قالوا: بَلِ اللهُ ورسولُهُ أَمَنُّ[٥] وأَفضَلُ.

قال: «**أَلا تُجيبونَني يا مَعشَرَ الأَنصارِ؟**».

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٦٢٨-٦٢٩)، تفسير ابن المنذر (١/ ٣١٢)، أسد الغابة (١/ ٣٢٦)، وينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٥٥٥)، الإصابة (١/ ٣٠٦)، ولا يصح سنده.

(٢) أي: مما حصلت من غنائم حنين.

(٣) القالة: اسم للقول الفاشي في الناس، خيرًا كان أو شرًا.

(٤) غضبة.

(٥) أمن: من المنة، وهي النعمة.

قالوا: وبماذا نُجيبُكَ يا رسولَ اللهِ، ولله ولِرسولِهِ المَنُّ والفَضلُ؟

قال: «**أَما واللهِ لَو شِئتُم لَقُلتُم، فلَصَدَقتُم وصُدِّقتُم:**

أَتَيتَنا مُكَذَّبًا فصَدَّقناكَ.

ومَخذولًا فنَصَرناكَ.

وطَريدًا[١] فآوَيناكَ.

وعائِلًا فآسَيناكَ[٢].

أَوَجَدتُم في أَنفُسِكُم يا مَعشَرَ الأَنصارِ في لُعاعَةٍ[٣] منَ الدُّنيا، تَأَلَّفتُ بها قَومًا ليسلِموا، ووَكَلتُكُم إلى إسلامِكُم؟

أَفلا تَرضَونَ يا مَعشَرَ الأَنصارِ أَن يَذهَبَ الناسُ بالشَّاةِ والبَعيرِ، وتَرجِعونَ برسولِ اللهِ في رِحالِكُم؟

فَوالذي نَفسُ محمدٍ بيَدِهِ لَولا الهِجرَةُ لَكُنتُ امرَأً منَ الأَنصارِ، ولو سَلك الناسُ شِعبًا[٤]، وسَلكتِ الأَنصارُ شِعبًا، لَسَلَكتُ شِعبَ الأَنصارِ.

اللهُمَّ ارحَمِ الأَنصارَ، وأَبناءَ الأَنصارُ، وأَبناءَ أَبناءِ الأَنصارِ».

قال: فبَكى القَومُ، حتى أَخضَلوا لِحاهُم[٥]، وقالوا: رَضينا برسولِ اللهِ قِسمًا وحَظًّا، ثم انصَرَفَ رسولُ اللهِ ﷺ وتَفَرَّقوا[٦].

وكانتِ الأُخوَّة بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ أعظمَ أخوَّةٍ جمعَت بينَ قُلوب المتقينَ، وأورَثَت أكرمَ موَدَّةٍ حصلَت بينَ قلوب العالَمينَ.

---

(١) أي: مخرجًا من بلادك.

(٢) أي: أعطيناك وراعيناك بالمال، حتى جعلناك كأحدنا.

(٣) اللعاعة: الجرعة من الشراب، والمراد: الشيء اليسير، والقدر القليل.

(٤) الشعب: الطريق بين جبلين.

(٥) أي: بلوا لحاهم.

(٦) رواه الإمام أحمد (١١٧٣٠)، وحسنه محققو المسند، وهو في الصحيحين من حديث أنس بنحوه مختصرا.

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم آخى رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ في دارِ أَنَسِ بن مالِكٍ، وكانوا تِسعينَ رجلًا، نِصفُهُم منَ المهاجِرينَ، ونِصفُهُم منَ الأَنصارِ، آخى بينهم على المواساةِ، يَتوارَثونَ بعدَ المَوتِ دونَ ذَوي الأَرحامِ، إلى حينِ وقعَةِ بَدرٍ.

فلما أَنزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]، رَدَّ التوارُثَ إلى الرحِمِ، دونَ عَقدِ الأُخوَّةِ»[(١)].

ومن أهَمِّ معاني هذه الأخوَّةِ:

أن تذوبَ عَصَبيَّاتُ الجاهليّة، فلا حَميَّة إلا للإسلامِ، وأن تسقُط الفوارقُ البشَريَّةُ عن موازينِ التَّقوى، فلا فَضلَ لِعَرَبيٍّ على عَجَميٍّ، ولا لِعَجَميٍّ على عَرَبيٍّ، ولا لأَحمَرَ على أَسوَدَ، ولا لأَسوَدَ على أَحمَرَ، إلا بالتقوى.

نماذِجُ وصورٌ من المؤاخاةِ بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ:

عن أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قدِمَ علينا عبدُ الرحمَنِ بن عَوفٍ، وآخى رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَهُ وبينَ سَعدِ بن الربيعِ، وكان كَثيرَ المالِ، فقال سَعدٌ: «قد عَلِمَتِ الأَنصارُ أَنِّي من أَكثَرِها مالًا، سَأَقسِمُ مالي بيني وبينَكَ شَطرَينِ، ولي امرَأَتانِ فانظُر أَعجَبَهُما إليك فأُطَلِّقُها، حتى إذا حَلَّت تَزَوَّجتَها».

فقال عبدُ الرحمَنِ: «بارَكَ اللهُ لك في أَهلِكَ، دُلُّوني على السُّوقِ».

فلم يَرجِع يَومَئِذٍ حتى أَفضَلَ شَيئًا من سَمنٍ وأَقِطٍ[(٢)].

وعن أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «لَمَّا قدِمَ المهاجِرونَ المَدينَةَ من مكةَ، وليس بأَيديهِم -يَعني شَيئًا-، وكانتِ الأَنصارُ أَهلَ الأَرضِ والعَقارِ، فقاسَمَهُمُ الأَنصارُ على أَن يُعطوهُم ثِمارَ أَموالِهِم كُلَّ عامٍ، ويَكفوهُمُ العَمَلَ والمَؤونَةَ.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٦-٥٧).

(٢) رواه البخاري (٣٧٨١)، والأقط: لبن مجفف، يابس، مستحجر، يطبخ به. النهاية (١/ ٥٧). وهو بفتح الهمزة، وكسر القاف، وقد تسكن. فتح الباري (٩/ ٥٤٤).

فلَمَّا فرَغَ النبيُّ ﷺ من قِتالِ أَهلِ خَيبَرَ، وانصَرَفَ إلى المَدينَةِ، رَدَّ المهاجِرونَ إلى الأَنصارِ مَنائِحَهُمُ التي كانوا مَنَحوهُم من ثِمارِهِم»[١].

قال النوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العُلَماءُ: لَمَّا قدِمَ المهاجِرونَ آثَرَهُمُ الأَنصارُ بمَنائِحَ من أَشجارِهِم، فمنهم مَن قَبلها مَنيحَةً مَحضَةً، ومنهم مَن قَبلها بشَرطِ أَن يَعمَلَ في الشَّجَرِ والأَرضِ وله نِصفُ الثِّمارِ، ولَم تَطِب نَفسُهُ أَن يَقبَلها مَنيحَةً مَحضَةً، هذا لِشَرَفِ نُفوسِهِم، وكَراهَتِهِم أَن يكونوا كَلًّا، وكان هذا مُساقاةً، وفي معنى المُساقاةِ، فلما فُتِحَت عليهم خَيبَرُ استَغنى المهاجِرونَ بأَنصِبائِهِم فيها عن تِلكَ المَنائِحِ، فرَدُّوها إلى الأَنصارِ.

فَفيه فضيلَةٌ ظاهِرَةٌ للأَنصارِ في مواساتِهِم وإيثارِهِم، وما كانوا عليه من حُبِّ الإسلامِ، وإكرامِ أَهلِهِ، وأَخلاقِهِمُ الجَميلَةِ، ونُفوسِهِمُ الطاهِرَةِ، وقد شَهِدَ اللهُ تعالى لهم بذلك، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]»[٢].

وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قالتِ الأَنصارُ للنبيِّ ﷺ: اقسِم بيننا وبينَ إخوانِنا النخيلَ، قال: «لا»، فقالوا: تَكفونا المَؤونَةَ، ونَشرَككُم في الثَّمَرَةِ، قالوا: سَمِعنا وأَطَعنا[٣].

قال المُهَلَّبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما أرادَ الأنصارُ مُشارَكَةَ المهاجِرينَ بأن يُقاسِموهُم أموالَهم، فكَرِهَ رسولُ اللهِ ﷺ أن يُخرِجَ عنهُم شيئًا من عَقارِهم، وعَلِمَ أنَّ اللهَ سيَفتَحُ عليهم البلادَ فيُغنِي جميعَهم، فأشرَكَهم في الثَّمَرةِ، على أن يكفوهم المَؤونة[٤] والعمَلَ في النخيلِ، وتبقى رِقابُ النخلِ للأنصارِ»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٣٠)، ومسلم (١٧٧١).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٩٩).

(٣) رواه البخاري (٢٣٢٥).

(٤) **قال الفيومي**: «المؤونة: الثقل، وفيها لغات، إحداها: على فعولة، بفتح الفاء، وبهمزة مضمومة، والجمع مؤونات، واللغة الثانية: مؤنة، بهمزة ساكنة، والجمع مؤن، مثل: غرفة وغرف، والثالثة: مونة، بالواو، والجمع مون، مثل: سورة وسور». المصباح المنير (٢/ ٥٨٦).

(٥) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٦/ ٤٦٠).

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَولُهُ في حديث أنس: «فقاسَمَهُمُ الأَنصارُ...» إلَخ، ظاهِرُهُ مُغايِرٌ لِقَولِهِ في حَديثِ أَبي هريرة: قالتِ الأَنصارُ للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقسِم بيننا وبينَ إخوانِنا النخيلَ، قال: «**لا**».

والجَمعُ بينهما: أَنَّ المرادَ بالمقاسَمَةِ: القِسمَةُ المَعنَويَّةُ، وهي التي أَجابَهُم إلَيها في حَديثِ أَبي هريرة، حَيثُ قال: قالوا: «فيَكفونَنا المؤنَةَ ونُشرِكُهُم في الثَّمَرِ»، فكان المرادُ هُنا مُقاسَمَةَ الثِّمارِ، والمَنفيُّ هُناكَ مُقاسَمَةَ الأُصولِ»[1].

وعن أَنَسٍ، قال: قال المهاجِرونَ: يا رسولَ اللهِ، ما رَأَينا مِثلَ قَومٍ قدِمنا عليهم أَحسَنَ مواساةً في قَليلٍ، ولا أَحسَنَ بَذلًا في كَثيرٍ، لَقد كَفَونا المَؤونَةَ، وأَشرَكونا في المَهنَأِ، حتى لَقد حَسِبنا أَن يَذهَبوا بالأَجرِ كُلِّهِ، قال: «**لا، ما أَثنَيتُم عليهم، ودَعَوتُمُ اللهَ لهم**»[2].

وهذا يدُلُّنا على ما كان عليه الأنصارُ من الحفاوَةِ البالِغةِ بإخوانِهم المهاجِرينَ، ومن التضحيةِ والإيثارِ والوُدّ والصفاء، وما كان عليه المهاجِرونَ من تقديرِ هذا الكرمِ حقَّ قدرِه.

وقد كانت هذه المؤاخاةُ سياسةً صائِبةً، وحَلًّا حكيمًا لكثيرٍ من المشاكِلِ التي كان يواجِهُها المسلمونَ.

ومن صوَر المؤاخاة التي كان لها الأثر الطيب في حياة الصاحبين:

المؤاخاةُ بينَ سلمانَ وأبي الدَّرداءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا:

وكان بينهما من الأخوَّة ما أثمَرَ العلمَ والنُّصحَ والمَحَبَّةَ في اللهِ تعالى.

فعن أَبي جُحَيفَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: آخى النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ سَلمانَ وأَبي الدَّرداءِ، فزارَ

---

(١) فتح الباري (٥/ ٢٤٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٨١٢)، والترمذي (٢٤٨٧)، وصححه، وأحمد (١٣٠٧٥)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

سَلمانُ أَبا الدَّرداءِ، فرَأى أُمَّ الدَّرداءِ مُتبَذِّلَةً[١]، فقال لها: ما شَأنُكِ؟ قالت: أَخوكَ أَبو الدَّرداءِ ليس له حاجَةٌ في الدُّنيا، فجاءَ أَبو الدَّرداءِ، فصَنَعَ له طَعامًا، فقال: كُل؟ قال: فإنِّي صائِمٌ، قال: ما أَنا بآكِلٍ حتى تَأكُلَ، قال: فأَكَلَ.

فلما كان اللَّيلُ ذَهَبَ أَبو الدَّرداءِ يَقومُ، قال: نَم، فنامَ، ثم ذَهَبَ يَقومُ، فقال: نَم، فلما كان من آخِرِ اللَّيلِ قال سَلمانُ: قُمِ الآنَ، فصَلَّيا، فقال له سَلمانُ: إنَّ لِرَبِّكَ عليكَ حقًّا، ولِنَفسِكَ عليكَ حقًّا، ولِأَهلِكَ عليكَ حقًّا، فأَعطِ كُلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

فَأَتى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكرَ ذلك له، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَدَقَ سَلمانُ**»[٢].

فلما آخى بينَهما، تصاحَبا وتزاوَرا وتَناصَحا.

وصحّ عن حُمَيدِ بن هِلالٍ، قال: أُوخِيَ بينَ سَلمانَ وأَبي الدَّرداءِ، فسَكَنَ أَبو الدَّرداءِ بالشَّامِ، وسَكَنَ سَلمانُ الكوفَةَ، فكَتَبَ أَبو الدَّرداءِ إلى سَلمانَ: «سَلامٌ عليكَ، أَمَّا بعدُ: فإنَّ اللهَ قد رَزَقَني بعدَكَ مالًا ووَلَدًا، وأُنزِلتُ الأَرضَ المقدَّسَةَ».

قال: فكَتَبَ سَلمانُ إليه: «سَلامٌ عليكَ، أَمَّا بعدُ: فإنَّكَ كَتَبتَ إلَيَّ أَنَّ اللهَ رَزَقَكَ بعدي مالًا ووَلَدًا، وإنَّ الخَيرَ ليس بكَثرَةِ المالِ والوَلَدِ، ولكنَّ الخَيرَ أَن يَعظُمَ حِلمُكَ، وأَن يَنفَعَكَ عِلمُكَ.

وكَتَبتَ إلَيَّ بأَنَّكَ نزلتَ الأَرضَ المقدَّسَةَ، وإنَّ الأَرضَ لا تَعمَلُ لِأَحَدٍ، فاعمَل كَأَنَّكَ تُرى، واعدُد نَفسَكَ في المَوتى»[٣].

وعن أَبي عُثمانَ، قال: كَتَبَ سَلمانُ إلى أَبي الدَّرداءِ: «يا أَخي عليكَ بالمسجدِ فالزَمهُ»[٤].

وعن موسى بن يَسارٍ: أَنَّ سَلمانَ كَتَبَ إلى أَبي الدَّرداءِ: «إنَّ في ظِلِّ العَرشِ إمامًا

---

(١) أي: لابسة ثياب المهنة، تاركة لباس الزينة، وكان هذا قبل نزول الحجاب.

(٢) رواه البخاري (١٩٦٨).

(٣) رواه أبو داود في الزهد (٢٦٠)، والبغوي في معجم الصحابة (٣/ ١٦٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢١/ ٤٤٠-٤٤١).

(٤) رواه البزار (٢٥٤٦) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٤)، والبيهقي في الشعب (٢٦٨٩).

مُقسِطًا، وذا مالٍ تَصَدَّقَ أَخفى يَمينَهُ عن شِمالِهِ، ورجلًا دَعَتهُ امرَأَةٌ ذاتُ حَسَبٍ ومَنصِبٍ إلى نَفسِها، فقال: أَخافُ اللهَ رَبَّ العالَمِينَ، ورجلًا نَشَأَ، فكانت صُحبَتُهُ وشَبابُهُ وقوَّتُهُ فيما يُحِبُّ اللهُ ويَرضاهُ منَ العَمَلِ، ورجلًا كان قَلبُهُ مُعَلَّقًا في المَساجِدِ من حُبِّها، ورجلًا ذكرَ اللهَ ففاضَت عَيناهُ منَ الدَّمعِ من خَشيَةِ اللهِ، ورجلَينِ التَقَيا فقال أَحَدُهُما لِصاحِبِهِ: إنِّي لَأُحِبُّكَ في اللهِ».

وكَتَبَ إليه: «إنَّما العِلمُ كالينَابيعِ، فيَنفَعُ بِهِ اللهُ مَن شاءَ، ومَثَلُ حِكمَةٍ لا يُتَكَلَّمُ بها كَجَسَدٍ لا روحَ له، ومَثَلُ عِلمٍ لا يُعمَلُ بِهِ كَمَثَلِ كَنزٍ لا يُنفَقُ منه، ومَثَلُ العالِمِ كَمَثَلِ رجلٍ حَمَلَ سِراجًا في طَريقٍ مُظلِمٍ، فجَعَلَ الناسُ يَستَضيئونَ بِهِ، وكُلٌّ يَدعو له بالخَيرِ»[(١)].

وعن مالِكِ بن دينارٍ: أَنَّ سَلمانَ كَتَبَ إلى أَبي الدَّرداءِ: «إنَّهُ بلغَني أَنَّكَ جَلَستَ طَبيبًا تُداوي الناسَ، فانظُر أَن تَقتُلَ مسلمًا، فتَجِبُ لك النارُ»[(٢)].

وعن محمدِ بن واسِعٍ، قال: كَتَبَ سَلمانُ إلى أَبي الدَّرداءِ: «يا أَخي، إيَّاكَ أَن تَجمع منَ الدُّنيا ما لا تُؤَدِّي شُكرَهُ»[(٣)].

وعن صالِحٍ المُرِّيِّ، قال: كَتَبَ سَلمانُ إلى أَبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَمَّا بعدُ، فإنِّي أوصيكَ بذِكرِ اللهِ؛ فإنَّهُ دَواءٌ، وأَنهاكَ عن ذِكرِ الناسِ؛ فإنَّهُ داءٌ»[(٤)].

لقد كانتِ الهجرَةُ في ظروفٍ صعبةٍ، وكانت تمحيصًا لإيمانِ المؤمِنينَ، واختبارًا لقوَّةِ عقيدتِهم، واستعلاءِ إيمانِهم؛ إذ لا يَترُكُ الرجُلُ بلَدَه وأهلَه ومالَه، ويُهاجرُ إلى بلدٍ آخرَ لا يكادُ يعرفُ فيها أحدًا، إلا لِما هو أَحَبُّ إليه وأكرَمُ عندَه من ذلك كُلِّه، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٦٦٦)، والدارمي في سننه (٥٧٦).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٥).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد (٣٣٨).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (١٩٦).

والهِجرَةُ -بطبيعةِ الحالِ- أمرٌ مُهِمٌّ جِدًا؛ لأنّ المسلم إذا بَقيَ بينَ الكُفَّارِ كَثَّرَ سوادَهُم، وانتَفَعوا بطاقاتِه وإمكاناتِه، في الوقت الذي يُحرَمُ المسلمونَ منه، ومن طاقاتِه وإمكاناتِه، من صناعةٍ، وزراعةٍ، وخبرَةٍ حربيَّةٍ، ونحوِ ذلك.

ووجودُ المسلمِ بينَ الكُفَّارِ يُعَرِّضُه لأشَدِّ البلاءِ والمحنةِ؛ فإنَّ هَؤُلاءِ القومَ تبعٌ لأهوائِهم ونَزَواتِهم، لا يَدينون دينَ الحقِّ، ولا يهتَدون بهَديِه، ولا يتَخَلَّقون بخُلُقِه.

وليس هو وحدَه عُرضةً للبلاءِ في دينِه وخُلُقِه، ولكن أهلُه وولدُه أيضًا، فكان من صواب الحكمةِ ألا يُعاشرَ المسلمُ الكفارَ، ولا يُساكِنَهم.

عن سَمُرَةَ بن جُندُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن جامع المشرِكَ وسَكَنَ معه فإنَّهُ مِثلُهُ**»(١).

قال الصنعانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن جامع»، أي: ساكَنَ «المشركَ»، أي: في دارِ المشرِكِ، «وسَكَنَ مَعهُ»: عَطفُ تفسيرٍ، «فإنّه مثلُه»؛ فإنّ الطِّباعَ سَرَّاقةٌ، ولأنّ اللهَ أمَرَ أن لا يُساكنَ المؤمنُ المشركَ؛ صَونًا للإيمانِ عَنِ الابتِذالِ بمخالَطةِ الكفارِ؛ فإنّ الظالمينَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ، واللهُ وليُّ المتقينَ، ولأنّ المخالطةَ تَنفي وُجوبَ المباينةِ والمعاداةِ.

ويُؤخذُ منه: اجتنابُ مُخالطَةِ الظّلَمةِ والفُسَّاقِ؛ لأنّهم أهلُ المَعاصي والذنوب، ومَظِنَّةُ مَجامِعِ الشَّيطانِ، ولأنّ الطِّباعَ يَسرِقُ بعضُها بعضًا، ولذا نَهى اللهُ عن نِكاحِ المشركَةِ، وإنكاحِ المشرِكِ، وعَلّله بقولِه: ﴿**أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة: ٢٢١].

فما بينَ الفَريقينِ مُلائمةٌ توجِبُ حُسنَ المشاركةِ في السّكنى الخاصّة ولا العامّة، وقد قال العالِمُ الذي استفتاهُ القاتلُ مئةَ نَفسٍ: «**اخرُج من أرضِكَ؛ فإنّها أرضُ سَوءٍ**»، فخَرجَ مِنها، وكان عاقبَته أن قبضتهُ مَلائكةُ الرّحمةِ؛ لِقُربِهِ من بلادِ التَّوبَةِ(٢)»(٣).

---

(١) رواه أبو داود (٢٧٨٧)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦)، ولفظ مسلم: «**انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء**».

(٣) التنوير شرح الجامع الصغير (١٠/ ١٨٩).

وعن جَرِيرِ بن عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَنا بَرِيءٌ من كُلِّ مسلمٍ يُقيمُ بينَ أَظهُرِ المشرِكينَ**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ لِمَ؟ قال: «**لا تَراءى ناراهُما**»(١).

يَعني: لا يَصِحُّ ولا يَستَقيمُ للمسلمِ أَن يُساكِنَ الكافِرَ، ويَقرُبَ منه، ولكن يَبعُدُ بحَيثُ لا تَتَراءى ناراهُما، فهو كِنايَةٌ عَنِ البُعدِ البَعيدِ، وذكروا فيه وُجوهًا:

فقيل: لا يَنزِلُ المسلمُ بالمَوضِعِ الذي يَرى نارَهُ المشرِكُ إذا أوقد، ولكن يَنزِلُ مع المسلمينَ في دارِهِم؛ لِأَنَّ المشرِكَ لا عَهدَ له ولا أَمانَ.

وقيل: لا يَتَّسِمُ المسلمُ بسِمَةِ المشرِكِ، ولا يَتَشَبَّهُ بِهِ في هَديِهِ وشَكلِهِ، ولا يَتَخَلَّقُ بأَخلاقِهِ.

وقيل: يَجِبُ عليهما أَن يَتَباعَدَ مَنزِلاهُما، بحَيثُ إذا أوقدت فيهما نارانِ لَم تَلُح إحداهُما للأُخرى.

وقيل: لا يَسكُن مسلمٌ حَيثُ سَكَنَ كافِرٌ، ولا يَدنو منه بحَيثُ تَتَقابَلُ ناراهُما، وتَقرُبُ إحداهُما منَ الأُخرى، حتى يَرى كُلٌّ منهما نارَ الآخَرِ.

وقيل: أَرادَ نارَ الحَرب، أَي: هما على طَرَفَينِ مُتَباعِدَينِ؛ فإنَّ المسلمَ يُحارِبُ للهِ ولِرسولِهِ، ويَدعو إلى اللهِ، والكافِرُ يُحارِبُ اللهَ ورسوله، ويَدعو إلى الشَّيطانِ، فكَيفَ يَتَّفِقانِ ويَصلُحُ أَن يَجتَمِعا؟(٢).

وقال الشَّيخُ ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإقامةُ في بلادِ الكُفَّار خطَرٌ عظيمٌ على دينِ المسلمِ، وأخلاقِهِ، وسُلوكِه، وآدابه، وقد شاهَدنا وغَيرُنا انحرافَ كثيرٍ مِمَّن أقاموا هناكَ، فرجَعوا بغيرِ ما ذهبوا به، رجَعوا فُسَّاقًا، وبعضُهم رجَعَ مُرتَدًّا عن دينِه، وكافرًا به، وبسائرِ الأديانِ -والعياذُ باللهِ-، حتى صاروا إلى الجُحود المطلَقِ، والاستهزاءِ بالدِّين وأهلِه، السابقينَ منهم واللاحِقين؛ ولهذا كان ينبَغي -بل يتَعَيَّنُ- التحفُّظُ من ذلك، ووضعُ الشُّروطِ التي تمنَعُ من الهويِّ في تلك المَهالِك.

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤)، وصححه الألباني.

(٢) شرح المشكاة للطيبي (٨/ ٢٥٠٦)، مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٣١٩).

فالإقامَةُ في بلادِ الكُفرِ لا بُدَّ فيها من شرطَينِ أساسيَّين:

الشرطُ الأوَّل: أمنُ المُقيمِ على دينِه، بحيثُ يكونُ عندَه من العِلمِ والإيمانِ وقوَّةِ العزيمةِ ما يُطَمئِنُه على الثباتِ على دينِه، والحَذَر منَ الإنحرافِ والزَّيغِ، وأن يكونَ مُضمِرًا لعَداوَةِ الكافِرينَ وبُغضِهم، مُبتَعِدًا عن موالاتِهم ومحَبَّتِهم، فإنَّ موالاتَهم ومحَبَّتَهم مِمَّا يُنافي الإيمانَ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، الآية، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢].

وثبتَ في الصحيحِ عَنِ النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «**المَرءُ مع مَن أَحَبَّ**»[١].

ومحبةُ أعداءِ اللهِ من أعظمِ ما يكونُ خَطَرًا على المسلِمِ؛ لأنّ محَبّتَهُم تَستلزِمُ موافقَتَهُم واتِّباعَهُم، أو -على الأقلِّ- عَدَمَ الإنكارِ عليهم.

الشَّرطُ الثَّاني: أن يتمَكَّنَ من إظهارِ دينِه، بحيثُ يقومُ بشعائِرِ الإسلامِ بدونِ مُمانِعٍ، فلا يُمنَعُ من إقامَةِ الصلاةِ، والجُمعَة، والجَماعاتِ، إن كان معَه مَن يُصلِّي جَماعةً، ومَن يُقيمُ الجُمُعةَ، ولا يُمنَع من الزَّكاةِ، والصيامِ، والحَجِّ، وغيرِها من شعائِرِ الدِّينِ، فإن كان لا يتمَكّن من ذلك لم تَجُزِ الإقامةُ؛ لوُجوبِ الهِجرةِ حينَئِذٍ»[٢].

سَبَبُ المؤاخاةِ بينَ المهاجِرينَ والأنصارِ وأهميَّتُها:

أدَّتِ الهجرَة إلى تَنَوُّعِ سُكَّانِ المَدينَة، فاختَلَطَ المهاجِرونَ بالأنصارِ، وصاروا إخوةً في اللهِ، مُتَحابِّينَ، مُتَآزِرين، مُتَناصِرينَ، مُتكافِلينَ.

ويُساكِنُهم فيها أعداءٌ مُتَرَبِّصونَ من اليَهود والمنافِقينَ.

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٣/ ٢٥-٢٦).

ووُجودُ العدوِّ المُتَرَبِّص مِمَّا يستَدعي المزيدَ من النُّصرةِ والموالاةِ، وهذا مِمَّا يَزيدُ منَ الإيمانِ والولاءِ للدِّينِ، ويَزيدُ من مَحَبَّةِ المسلمينَ لرسولِ اللهِ ﷺ، ومَحَبَّةِ بعضِهم بعضًا.

فتأمَّل كيفَ تَوَثَّقُ العَداوةُ بينَ المؤمِنينَ والكافِرينَ أواصِرَ المَحَبَّةِ بينَ المؤمِنينَ والمؤمِنينَ.

بخِلافِ حالِ المسلمينَ اليَومَ، فترى الكثيرَ منهم إذا اختلَطَ بأهلِ الكُفرِ انماعَ فيهم، وتأثَّرَ بهِم كُلَّ التأثُّرِ، حتى أحَبَّهُم ووالاهُم، بل رُبَّما أبغَضَ أهلَ الإسلامِ فيهم، ولِأجل مَحَبَّتِهم وموالاتِهم.

ويؤدِّي إلى كثيرٍ من هذا الشَّرِّ والفتنَةِ: الِانفتاحُ على ثَقافاتِهم، والِاغترارُ بحضاراتِهم المادِّيّة، والتعايُشُ معَهم في بلادِهم.

فأَرسَت هذه الأُخوَّةُ الإيمانيَّة كثيرًا من قواعِدِ الِاعتقادِ، وأُصولِ الدِّينِ، فبَحسب ما يكونُ عليه الناسُ من الوَلاءِ لأهلِ الإيمانِ، والبراءَةِ من أهلِ الشِّركِ، تكونُ قوَّةُ إيمانِهم، وصلابةُ اعتقادِهم.

ولو أنَّ الناسَ اهتَدَوا بهَدي سلَفِهم الأوَّل، وتعلَّموا أُصولَ دينِهم منهم، ولم يَخلِطوها بما يُخالِفُها، بل بما يُناقِضُها، لَأَعَزَّهُمُ اللهُ، وكتَبَ لهُم الرِّفعةَ والسناءَ والتمكينَ في الأرضِ.

وكما أشرنا من قبلُ: فما استَمسَكَ المسلمونَ بدينِهم وعقيدَتِهم وأُخوَّتِهم إلا بصِحَّة الِاقتِداءِ بسَلَفِهم الأوَّلِ، واتِّخاذِهم النّموذجَ[1] الأمثَلَ للتَأَسِّي، وهذا مَعدودٌ في حَسَناتِهم، مَكتوبٌ في جُملةِ سَعيِهم، فهُم أهلُ الهُدى الأوَّلِ، وأصحابُ السُّنَّةِ القائِمَةِ، وفيهم نزَلَ القُرآنُ، فهُم أئِمّةُ الهُدى، ومناراتُ الرشادِ، ودُعاةُ الحقِّ، وقد قال النبيّ ﷺ: «**مَن دَعا إلى هُدًى كان له منَ الأَجرِ مِثلُ أُجورِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنقُصُ ذلك من أُجورِهِم شَيئًا،**

---

(١) **قال الفيومي**: «الأنموذج» -بضم الهمزة-: ما يدل على صفة الشيء، وهو معرب، وفي لغة: «نموذج» -بفتح النون، والذال معجمةً مفتوحةً مطلقًا- قال الصغاني: «النموذج: مثال الشيء الذي يعمل عليه، وهو تعريب «نموذه». المصباح المنير (٢/ ٦٢٥).

ومَن دَعا إلى ضَلالَةٍ كان عليه منَ الإثمِ مِثلُ آثامِ مَن تَبعَهُ، لا يَنقُصُ ذلك من آثامِهِم شَيئًا»[١].

وما من هُدًى إلا وهُم أهلُه الأقرَبونَ، وأصحابُه الأوَّلون.

ومَن زعَم مِمَّن بعدَهُم الهُدى في غيرِ هَديِهِم، فقد زَعَمَ في غير مَزعَمٍ[٢]، وقال غيرَ مَقولٍ صالِحٍ.

قال السُّهَيليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «آخى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ أَصحابِهِ حينَ نزلوا المَدينَةَ؛ ليُذهِبَ عنهم وحشَةَ الغُربَةِ، ويُؤنِسَهُم من مُفارَقَةِ الأَهلِ والعَشيرَةِ، ويَشُدَّ أَزرَ بعضِهِم ببعضٍ، فلما عَزَّ الإسلامُ، واجتَمع الشّملُ، وذَهَبَتِ الوَحشَةُ، أَنزَلَ اللهُ سبحانه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، أَعني في الميراثِ، ثم جَعَلَ المؤمِنينَ كُلّهُم إخوَةً، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، يَعني: في التُّوادّ وشُمولِ الدّعوَةِ»[٣].

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه المؤاخاةُ كان عامَّتُها بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ، ولها سببَانِ:

أَحدُهما: أَنّه أجراهُم على ما كانوا أَلِفوا في الجاهِليَّة من الحِلفِ، فإنَّهُم كانوا يتوارثون بالحِلفِ، فنَفاهُ وأثبَتَ من جنسِه المؤاخاةَ، لِأَن الإنسانَ إذا فُطِمَ عَمَّا يَأْلَفُه، عُلِّلَ[٤] بجِنسِهِ.

والثَّاني: أَنَّ المهاجِرينَ قدِموا مُحتاجينَ إلى المالِ والمَنازِل، فنزلوا على الأَنصار، فأَكَّدَ هذه المخالطةَ بالمؤاخاة، ولم يَكُن بعدَ غزاةِ بدرٍ مُؤاخاةٌ؛ لِأَنَّ الغَنائِمَ وقعَت بالقِتالِ، فاستَغنى المهاجِرونَ بما كَسَبوا»[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤).

(٢) زعم فلان في غير مزعم، أي: طمع في غير مطمع. تهذيب اللغة (٢/ ٩٤).

(٣) الروض الأنف (٤/ ١٧٧).

(٤) علله بكذا: شغله به، والهاه، وصبره.

(٥) كشف المشكل (١/ ٢٢٠).

المؤاخاة بينَ المهاجِرينَ أنفُسِهم:

اختلَفَ العُلَماءُ: هَل آخى النبيُّ ﷺ بينَ المهاجِرينَ أنفُسِهم قبلَ أن يُؤاخيَ بينَهم وبينَ الأنصارِ؟

فذهبَ أكثرُهم إلى القولِ بذلك، ومنهم مَن أنكَرَهُ.

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَمَّا مُؤاخاةُ النبيِّ ﷺ وعَلِيٍّ: فإنَّ منَ العُلَماءِ من يُنكِرُ ذلك، ويَمنَعُ صِحَّتَهُ، ومُستَنَدُهُ في ذلك: أَنَّ هذه المؤاخاةَ إنَّما شُرِعَت لِأَجلِ ارتِفاقِ بعضِهِم من بعضٍ، ولِيَتَأَلَّفَ قُلوبَ بعضِهِم على بعضٍ، فلا معنى لِمُؤاخاةِ النبيِّ ﷺ لِأَحَدٍ منهم، ولا مُهاجِرِيٍّ لِمُهاجِرِيٍّ آخَرَ، كَما ذكَرَهُ من مُؤاخاةِ حَمزَةَ وزَيدِ بن حارِثَةَ، اللهُمَّ إلا أَن يكونَ النبيُّ ﷺ لَم يَجعَل مَصلَحَةَ عَلِيٍّ إلى غيرِهِ، فإنَّهُ كان مِمَّن يُنفِقُ عليه رسولُ اللهِ ﷺ من صِغَرِهِ في حَياةِ أَبيهِ أَبي طالِبٍ، كَما تَقدَّمَ عن مُجاهِدٍ وغيرِهِ.

وكذلك يكونُ حَمزَةُ قدِ التَزَمَ بمَصالِحِ مَولاهُم زَيدِ بن حارِثَةَ، فآخاهُ بهذا الاِعتِبارِ، واللهُ أَعلَمُ»[1].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان رسول اللهِ ﷺ آخى بينَ المهاجِرينَ بعضِهم وبعضٍ قبلَ الهِجرَةِ على الحقِّ والمواساةِ أَيضًا، فآخى بينَ أبي بكرٍ وعُمرَ، وبينَ حَمزَة وزيدِ بن حارِثَةَ، وبينَ عُثمانَ وعبدِالرحمَنِ بن عَوفٍ، وبينَ الزُبَيرِ وعبدِاللهِ بن مَسعودٍ، وبينَ عُبَيدَة بن الحارِثِ وبلالٍ، وبين مُصعب بن عُمَير وسعدِ بن أبي وقَّاصٍ، وبين أبي عُبَيدَة وسالِمٍ مولى أبي حُذَيفَة، وبينَ سعيدِ بن زيدٍ وطَلحَةَ بن عُبيدِ اللهِ، فلما نزَلَ المَدينَة آخى بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ»[2].

وقال ابنُ سيِّدِ الناسِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانتِ المواخاةُ مَرَّتَينِ، الأولى: بينَ المهاجِرينَ بعضِهِم وبعضٍ قَبلَ الهِجرَةِ على الحقِّ والمواساة، آخى بينهمُ النبيُّ ﷺ، فآخى بينَ أَبي بكرٍ

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٥٦١).

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير (ص٩٢).

وعمرَ، وبينَ حَمزَةَ وزَيدِ بن حارِثَةَ، وبينَ عُثمانَ وعبدِ الرحمَنِ بنِ عَوفٍ، وبينَ الزُّبَيرِ وابنِ مَسعودٍ، وبينَ عُبَيدَةَ بن الحارِثِ وبلالٍ، وبينَ مُصعَب بن عُمَيرٍ وسَعدِ بن أَبي وقَّاصٍ، وبينَ أَبي عُبَيدَةَ وسالِمٍ مَولى أَبي حُذَيفَةَ، وبينَ سَعيدِ بنِ زَيدٍ وطَلحَةَ بن عُبَيدِ اللهِ، وبينَ عَليٍّ ونَفسِهِ ﷺ.

فلما نزلَ ﷺ المَدينَةَ آخى بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ على المواساةِ والحقِّ في دارِ أَنَسِ بن مالِكٍ، فكانوا يَتوارَثونَ بذلك دونَ القَراباتِ، حتى نزلَت وقتَ وقعَةِ بَدرٍ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، فنَسَخَت ذلك»[١].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكرَ أَصحابُ المَغازي أَنَّ المؤاخاة بينَ الصحابَةِ وقَعَت مَرَّتَينِ، الأولى: قَبلَ الهِجرَةِ بينَ المهاجِرينَ خاصَّةً، على المواساةِ والمناصَرَةِ، فكان من ذلك أُخوَّةُ زَيدِ بن حارِثَةَ وحَمزَةَ بن عبدِ المطَّلِب، ثم آخى النبيُّ ﷺ بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ بعدَ أَن هاجَرَ، وذلك بعدَ قُدومِهِ المَدينَةَ»[٢].

وممَّن أنكَرَ هذه المؤاخاةَ: شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَمَّا المؤاخاةُ: فإنَّ النبيَّ ﷺ آخى بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ لَمَّا قدِمَ المَدينَةَ، كَما آخى بينَ سَلمانَ الفارِسيِّ وبينَ أَبي الدَّرداءِ، وبينَ عبدِ الرحمَنِ بن عَوفٍ وسَعدِ بن الربيعِ، وكانوا يَتوارَثونَ بتِلكَ المؤاخاة، حتى أَنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، فصاروا يَتوارَثونَ بالقَرابَةِ.

وأَمَّا المؤاخاة بينَ المهاجِرينَ، كَما يُقالُ: إنَّهُ آخى بينَ أَبي بكرٍ وعمرَ، وإنَّهُ آخى عَليًّا، ونَحو ذلك، فهذا كُلُّهُ باطِلٌ، وإن كان بعضُ الناسِ ذكرَ أَنَّهُ فُعِلَ بمكةَ، وبعضهم ذكرَ أَنَّهُ فُعِلَ بالمَدينَةِ، وذلك نَقلٌ ضَعيفٌ: إمَّا مُنقَطِعٌ، وإمَّا بإسنادٍ ضَعيفٍ.

والذي في الصحيحِ هو ما تَقدَّمَ، ومَن تَدَبَّرَ الأَحاديثَ الصحيحَةَ والسِّيرَةَ النبَويَّةَ الثَّابتَةَ تَيَقَّنَ أَنَّ ذلك كَذِبٌ»[٣].

---

(١) عيون الأثر (١/ ٢٣٠-٢٣١).

(٢) فتح الباري (٤/ ٢١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٩٩-١٠٠).

وقال أَيضًا: «ما يَذكُرُه بعضُ المصنفينَ في «السِّيرَةِ» من أَنَّ النبيَّ ﷺ آخى بينَ عَليٍّ وأَبي بكرٍ، ونَحو ذلك: فهذا باطِلٌ باتِّفاقِ أَهلِ المَعرِفَةِ بحَديثِهِ؛ فإنَّهُ لَم يُؤاخِ بينَ مُهاجِريٍّ ومُهاجِريٍّ، وأَنصاريٍّ وأَنصاريٍّ، وإنَّما آخى بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ، وكانتِ المؤاخاة والمحالَفَةُ يَتوارَثونَ بها دونَ أَقارِبِهم، حتى أَنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، فصارَ الميراثُ بالرحِمِ، دونَ هذه المؤاخاة والمحالَفَةِ»[١].

وقال أَيضًا: «أَحاديثُ المؤاخاة بينَ المهاجِرينَ بعضِهِم مع بعضٍ، والأَنصارِ بعضِهِم مع بعضٍ، كُلُّها كَذِبٌ.

والنبيُّ ﷺ لَم يُؤاخِ عَليًّا، ولا آخى بينَ أَبي بكرٍ وعمرَ، ولا بينَ مُهاجِريٍّ ومُهاجِريٍّ، لكن آخى بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ»[٢].

أَمَّا ابنُ القَيِّمِ: فقدِ اختلَفَ قولُه في ذلك: فأنكَر ذلك في مَوضِعٍ من كتابه «زاد المَعاد»، وأثبَتَهُ في مَوضِعٍ آخَرَ من الكتاب نَفسِه:

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد قيلَ: إنَّهُ آخى بينَ المهاجِرينَ بعضِهِم مع بعضٍ مُؤاخاةً ثانيةً، واتَّخَذَ فيها عليًّا أَخًا لِنَفسِهِ، والثَّبتُ الأَوَّلُ، والمهاجِرونَ كانوا مُستَغنينَ بأُخوَّةِ الإسلامِ، وأُخوَّةِ الدَّارِ، وقَرابَةِ النسَب، عن عَقدِ مُؤاخاةٍ، بخِلافِ المهاجِرينَ مع الأَنصارِ.

ولَو آخى بينَ المهاجِرينَ كان أَحقَّ الناسِ بأُخوَّتِهِ أَحَبُّ الخَلقِ إليه، ورَفيقُهُ في الهِجرَةِ، وأَنيسُهُ في الغارِ، وأَفضَلُ الصحابَةِ وأَكرَمُهُم عليه: أَبو بكرٍ الصدِّيقُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ»[٣].

وقال أَيضًا: «وآخى بينَ أَصحابِهِ مَرَّتَينِ، فواخى بينَ المهاجِرينَ بعضِهِم مع بعضٍ قَبلَ الهِجرَةِ على الحقِّ والمواساةِ، وآخى بينَ أَبي بكرٍ وعمرَ، وبينَ حَمزَةَ وزَيدِ بن حارِثَةَ، وبينَ عُثمانَ وعبدِ الرحمَنِ بن عَوفٍ، وبينَ الزُّبَيرِ وابنِ مَسعودٍ، وبينَ عُبَيدَةَ بن الحارِثِ

---

(١) المصدر السابق (٣٥/ ٩٣).

(٢) منهاج السنة النبوية (٧/ ٢٧٩).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٥٧).

وبلالٍ، وبينَ مُصعَب بن عُمَيرٍ وسَعدِ بن أَبي وقَّاصٍ، وبينَ أبي عُبَيدَةَ وسالِمٍ مَولى أَبي حُذَيفَةَ، وبينَ سَعيدِ بن زَيدٍ وطَلحَةَ بن عُبَيدِ اللهِ.

والمَرَّةُ الثَّانيَةُ: آخى بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ في دارِ أَنَسِ بن مالِكٍ، بعدَ مَقدَمِهِ المَدينَةَ»[١].

والراجِحُ: أنَّ هذه المؤاخاة قد حصَلَت بينَ بعضِ المهاجِرينَ، وكانت على سبيلِ المواساةِ، والتعاضُدِ، وإعانَةِ بعضِهِم بعضًا:

فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «آخى النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ ابنِ مَسعودٍ والزُبَيرِ»[٢].

وعَنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «آخى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ الزُّبَيرِ بن العَوَّامِ وعبدِ اللهِ بن مَسعودٍ»[٣].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَنكَرَ ابنُ تَيميَّةَ في كِتاب الرد على ابنِ المطَهَّرِ الرافِضيِّ المؤاخاةَ بينَ المهاجِرينَ، وخُصوصًا مُؤاخاةَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَليٍّ، قال: «لِأَنَّ المؤاخاةَ شُرِعَت لِإرفاقِ بعضِهِم بعضًا، ولِتَأليفِ قُلوب بعضِهِم على بعضٍ، فلا معنى لِمُؤاخاةِ النبيِّ لِأَحَدٍ منهم، ولا لِمُؤاخاةِ مُهاجِريٍّ لِمُهاجِريٍّ».

وهذا رَدٌّ للنصِّ بالقياسِ، وإغفالٌ عن حِكمَةِ المؤاخاة؛ لِأَنَّ بعضَ المهاجِرينَ كان أَقوى من بعضٍ بالمالِ والعَشيرَةِ والقوى، فآخى بينَ الأَعلى والأَدنى؛ ليَرتَفِقَ الأَدنى بالأَعلى، ويَستَعينَ الأَعلى بالأَدنى، وبهذا تَظهَرُ مُؤاخاتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَليٍّ؛ لِأَنَّهُ هو الذي كان يَقومُ بهِ من عَهدِ الصبا من قَبلِ البَعثَةِ واستَمَرَّ، وكذا مُؤاخاةُ حَمزَةَ وزَيدِ بن حارِثَةَ؛ لِأَنَّ زَيدًا مَولاهُم، فقد ثَبَتَ أُخوَّتُهُما، وهُما منَ المهاجِرينَ، وسَيَأتي في عُمرَةِ القَضاءِ قَولُ زَيدِ بن حارِثَةَ: «إنَّ بنتَ حَمزَةَ بنتُ أَخي»[٤]، وأَخرَجَ الحاكِم وابن عبدِ البَرِّ بسَنَدٍ حَسَنٍ

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٣٣).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٣) رواه الحاكم (٥٣٧٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في الصحيحة (٧/ ٤٩٨): «صحيح على شرط مسلم».

(٤) رواه البخاري (٢٦٩٩).

عن أَبي الشَّعثاءِ، عَن ابن عباسٍ: «آخى النبيُّ ﷺ بينَ الزبيرِ وابن مَسعودٍ»، وهُما منَ المهاجِرينَ»[١].

وقال **الألبانيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومنَ الأَدِلَّةِ على المؤاخاةِ الأولى: هذا الحديثُ الصحيحُ[٢]؛ لِأَنَّ الزُّبَيرَ وابنَ مسعودٍ منَ المهاجِرينَ كما هو معلومٌ، والظَّاهِرُ أنَّ شيخَ الإسلامِ ابنَ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ لم يَقِف على هذا الحديثِ ونحوِه؛ فأنكَرَ هذه المؤاخاةَ»[٣].

ولكنَّ ثُبوتَ هذه المؤاخاةِ في الجُملةِ، أو بينَ ابنِ مَسعودٍ والزُبَيرِ، لا يَعني أنَّ النبيّ ﷺ آخى عَليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنَّ ذلك لم يَثبُت في خَبَرٍ صحيحٍ، بل هو مُنكَرٌ[٤]، وأبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أولى بهذه المؤاخاة من عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما تقدَّم في كلامِ ابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي الصحيحَينِ عن أَبي سَعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إِنَّ أَمَنَّ الناسِ**[٥] **عَلَيَّ في مالِهِ وصُحبَتِهِ أَبو بكرٍ، ولو كُنتُ مُتَّخِذًا خَليلًا لاتَّخَذتُ أَبا بكرٍ خَليلًا، ولكن أُخوَّةُ الإسلامِ**»[٦].

فلا أحدَ هو أحقّ بأُخوّة النبيِّ ﷺ من أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد اشتَدَّ نَكيرُ شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ على مَن زَعَمَ هذه المؤاخاةَ؛ لِأَنَّ أولَئِكَ الروافِضَ يَتَوَسَّلون بهذا إلى القَولِ بأفضَليَّةِ عليٍّ على أبي بكرٍ، وأنَّه كان أولى بالخِلافةِ مِنه؛ لأنَّه الذي اختاره النبيّ ﷺ من بينَ أصحابه ليواخيَه، فإذ كان أولى بأُخوَّتِه فهو أولى بخِلافتِه.

ابتِداءُ المؤاخاةِ بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ:

قال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه المؤاخاة كانت في أوَّلِ سنةٍ من سِني الهِجرَة»[٧].

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٧١).

(٢) يعني: حديث أنس المتقدم.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ٤٩٩).

(٤) قال شيخ الإسلام: «أحاديث المؤاخاة لعلي كلها موضوعة». منهاج السنة النبوية (٧/ ٣٦١).

(٥) قال العلماء: «معناه: أكثرهم جودًا وسماحةً لنا بنفسه وماله، وليس هو من المن الذي هو الاعتداد بالصنيعة؛ لأنه أذًى مبطل للثواب، ولأن المنة لله ولرسوله ﷺ في قبول ذلك وفي غيره». شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٥٠).

(٦) رواه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٧) كشف المشكل (١/ ٢٢٠).

وقال **شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤاخاةُ بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ كانت في السنَةِ الأولى مِنِ الهِجرَةِ، في دارِ بَني النجَّارِ»[١].

وقال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان ابتِداءُ المؤاخاة أوائِلَ قُدومِهِ المَدينَةَ، واستَمَرَّ يُجَدِّدُها بحَسَب مَن يَدخُلُ في الإسلامِ أو يَحضُرُ إلى المَدينَةِ.

واختَلَفوا في ابتِدائِها: فقيلَ: بعدَ الهِجرَةِ بخَمسَةِ أَشهُرٍ، وقيلَ: بتِسعَةٍ، وقيلَ: وهو يَبني المسجدَ، وقيلَ: قَبلَ بنائِهِ، وقيلَ: بسنةٍ وثَلاثَةِ أَشهُرٍ قَبلَ بَدرٍ، وعِندَ أَبي سعدٍ في «شَرَفِ المصطَفى»: «كان الإخاءُ بينهم في المسجِدِ»[٢].

تَسميَةُ مَن آخى بينهم رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَ المهاجِرينَ والأَنصارِ:

قال ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وآخى رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ أَصحابِهِ من المهاجِرينَ والأَنصارِ، فكان حَمزَةُ بن عبدِ المطَّلِب وزَيدُ بن حارِثَةَ مَولى رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَوَينِ، وجَعفَرُ بن أَبي طالِبٍ ومَعاذُ بن جَبَلٍ أَخَوَينِ، وأَبو بكرٍ الصدِّيقُ وخارِجَةُ بن زُهَيرٍ أَخَوَينِ، وعمرُ بن الخَطَّاب وعِتبانُ بن مالِكٍ أَخَوَينِ، وأَبو عُبَيدَةَ بن عبدِ اللهِ بن الجَرَّاحِ وسَعدُ بن مُعاذِ بن النُّعمانِ أَخَوَينِ، وعبدُ الرحمَنِ بن عَوفٍ وسَعدُ بن الربيعِ أَخَوَينِ، والزُّبَيرُ بن العَوَّامِ وسَلامَةُ بنُ سَلامَةَ بنِ وقشٍ أَخَوَينِ، ويُقالُ: بَلِ الزُّبَيرُ وعبدُ اللهِ بن مَسعودٍ أَخَوَينِ، وعُثمانُ بنُ عَفَّانَ وأوسُ بن ثابتٍ أَخَوَينِ، وطَلحَةُ بن عُبَيدِ اللهِ وكَعبُ بنُ مالِكٍ أَخَوَينِ، وسَعيدُ بن زَيدِ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ وأُبَيُّ بن كَعبٍ أَخَوَينِ، ومُصعَبُ بن عُميرٍ وأَبو أَيُّوبَ خالِدُ بن زَيدٍ أَخَوَينِ، وأَبو حُذَيفَةَ بن عُتبَةَ بن رَبيعَةَ وعَبَّادُ بنُ بشرِ بن وقشٍ أَخَوَينِ، وعَمَّارُ بن ياسِرٍ وحُذَيفَةُ بن اليَمانِ أَخَوَينِ، ويُقالُ: ثابتُ بنُ قَيسِ بن الشَّمَّاسِ وعَمَّارُ بن ياسِرٍ أَخَوَينِ، وأَبو ذَرٍّ والمنذِرُ بن عَمرٍو أَخَوَينِ، وحاطِبُ بن أَبي بَلتَعَةَ وعوَيمُ بن ساعِدَةَ أَخَوَينِ، وسَلمانُ الفارِسيُّ وأَبو الدَّرداءِ أَخَوَينِ، وبلالٌ مُؤَذِّنُ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَبو رُوَيحَةَ عبدُ اللهِ بن عبدِ الرحمَنِ الخَثعَميُّ أَخَوَينِ.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٧/ ٣٦٢).

(٢) فتح الباري (٧/ ٢٧٠-٢٧٠).

فَهَؤُلاءِ مَن سُمِّيَ لَنا، مِمَّن كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخى بينهم من أَصحابِهِ»[١].

قال الحافظُ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي بعضِ ما ذكرَهُ نَظَرٌ»[٢].

وقال الحافظُ أَبو عمرَ بن عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصحيحُ عِندَ أهلِ السِّيَرِ والعلمِ بالآثارِ والخَبَرِ في المؤاخاةِ التي عقدها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ في حين قُدومِه إلى المَدينَةِ: أَنه آخى بينَ أبي بكرٍ الصديقِ وخارِجَةَ بنِ زيدِ بن أبي زُهَير، وبينَ عمَرَ بن الخطَّاب وعتبان بن مالك، وبين عُثمانَ بن عَفَّانَ وأوسِ بن ثابتِ بن المنذِرِ، وبينَ جَعفَرِ بن أبي طالبٍ وهو بأَرض الحَبَشَة ومعاذِ بنِ جبَلٍ، وبينَ عبدِ الرحمَنِ بن عَوفٍ وسعدِ بن الرّبيعِ، وبينَ الزُّبَيرِ وسَلَمَةَ بنِ سَلامَةَ بن وقشٍ، وبينَ طَلحَةَ وكَعب بن مالكٍ، وبينَ أبي عُبَيدَةَ وسعدِ بن مُعاذٍ، وبينَ سعدٍ ومُحَمّدِ بن مَسلَمَة، وبينَ سَعيدِ بن زيدٍ وأُبَيِّ بن كَعبٍ، وبينَ مُصعب بن عُمَيرٍ وأَبي أَيُّوب، وبينَ عَمَّار وحُذَيفَةَ بن اليَمانِ، وقد قيل: بينَ عمَّارٍ وثابت بن قَيس، وبينَ أبي حُذَيفَة بن عُتبَة وعبَّادِ بنِ بشر، وبين أبي ذَرٍّ والمنذِرِ بن عَمرٍو، وبينَ ابنِ مَسعودٍ وسَهلِ بن حُنَيفٍ، وبينَ سلمانَ الفارِسي وأبي الدَّرداء، وبينَ بلالٍ وأبي روَيحَة الخَثعَميّ حَليفِ الأَنصارِ، وبين حاطِب بن أبي بلتَعةَ وعوَيمِ بن ساعِدَةَ، وبين عبدِ اللهِ بن جَحشٍ وعاصِمِ بن ثابتٍ، وبينَ عُبَيدَةَ بن الحارِثِ وعُمَيرِ بن الحمام، وبينَ الطُّفَيلِ بن الحارِثِ أَخيه وسُفيان بن بشرٍ، وبين الحُصَينِ بن الحارِث أخيهما وعبدِاللهِ بن جُبَير، وبينَ عُثمانَ بن مَظعونٍ والعباسِ بن عبادَة، وبين عُتبَةَ بن غَزوان ومعاذِ بن ماعِص، وبين صَفوان بن بَيضاء ورافِعِ بن المعلى، وبينَ المِقدادِ بن عَمرٍو وعبدِالله بن رَواحَة، وبين ذي الشّمالين ويزيد بن الحارِث، وبينَ أبي سَلمَةَ بن عبدِ الأسَدِ وسَعيدِ بن خَيثَمَة، وبين عُمَيرِ بن أبي وقَّاص وخُبَيب بن عَديّ، وبينَ عبدِ اللهِ بنِ مَظعونٍ وقُطبَة بن عامرٍ، وبين شَمّاسِ بن عُثمان وحَنظَلَةَ بن أبي عامرٍ، وبين الأرقمِ بن أبي الأرقمِ وطَلحَةَ بن زيدٍ الأنصاريّ، وبين زيدِ بن الخَطَّاب ومَعنِ بن عَديّ، وبينَ عَمرِو بن سُراقَةَ وسَعيدٍ من بني عبد الأَشهَلِ، وبينَ عاقلِ بن البكير ومُبَشّرِ بن

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٥٠٤-٥٠٧).

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٥٦١).

عبد المنذر، وبين عبد اللهِ بن مَخرمَة وفروَة بنِ عَمرٍو البَياضيّ، وبين خُنَيسِ بن حُذافةَ والمنذِرِ بن محمدِ بن عُقبَة بن أُحَيحَةَ بن الجَلَّاحِ، وبين أبي سَبرَة بن أبي رُهم وعبادَةَ بن الخَشخاش، وبين مِسطَح بن أُثاثَة وزيدِ بن المزينِ، وبين أبي مَرثَدٍ الغَنَويّ وعُبادَةَ بن الصامِتِ، وبينَ عُكَّاشةَ بنِ مِحصَنٍ والمجَذَّرِ بن ذيادٍ[1] البَلَويّ حَليف الأَنصار، وبين عامرِ بن فُهَيرَة والحارثِ بن الصمَّة، وبين مِهجَعٍ مولى عُمر وسُراقةَ بن عَمرِو بن عَطيَّةَ، من بني غَنمِ بن مالكِ بن النجَّارِ»[2].

وقال **ابن الجوزي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أحصَيتُ عددَ الذينَ آخى بينهم في كتابي المسمى بـ «التّلقيح»، فكانوا مئةً وستَّةً وثَمانينَ رجُلًا»[3].

وقال **البلاذريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالوا: وكان الذي آخى بينهم تسعينَ رجُلًا: خمسةً وأربَعينَ من المهاجِرينَ، وخَمسَةً وأربعينَ من الأنصارِ، ويُقالُ: إنَّه لم يبقَ من المهاجِرينَ أحَدٌ إلا آخى بينَه وبينَ أنصاريٍّ»[4].

فشُرِعَتِ المؤاخاةُ بينَ المهاجِرينَ والأَنصارِ، وترتَّبَ عليها حقوقٌ، خاصّةً بينَ المتآخيَينِ، كالمواساةِ في مواجهَةِ أعباءِ الحياةِ، والتوارُثِ بينهما دونَ ذوي الأرحامِ.

واستمَرَّ العمَلُ بنظامِ المؤاخاةِ إلى ما بعدَ غزوةِ بدرٍ الكبرى، حَيثُ أَلِفَ المهاجِرونَ جَوَّ المدينةِ، وعرَفوا مَسالِكَ الرِّزقِ فيها، ووَثَّقوا علاقَتَهم بإخوانِهِمُ المسلمينَ من الأنصارِ وغيرِهم، وأصابوا من غنائِمِ معركَةِ بدرٍ الكُبرى ما كَفاهُم، ولِذلك فقد أُلغيَ التوارُثُ في نِظامِ المؤاخاةِ، وبَقيَتِ مُؤاخاةُ المواساةِ والتعاوُنِ والتناصُحِ.

رسوخُ عقيدةِ الولاءِ والبَراءِ في قُلوب الصحابةِ:

كانت رابطَةُ العقيدةِ بينَ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أقوى من رابطةِ القُربى والدَّمِ والإنتِماءِ إلى

---

(١) ذياد: بالذال المكسورة.

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير (ص٩٠-٩١).

(٣) كشف المشكل (١/ ٢٢٠).

(٤) أنساب الأشراف (١/ ٢٧١).

أصلٍ عِرقيٍّ، أو قبيلةٍ منَ القَبائلِ، ولِذلك كان المجتَمَع نسيجًا واحدًا، مُتآلِفًا مُتكامِلًا، وكان ذلك من أكبرِ عوامِلِ النصرِ على الكُفَّارِ.

وكان لِذلك نماذِجُ كريمةٌ تدُلّ على قوّةِ العقيدَةِ وصَلابتِها في قُلوب الصحابَةِ، وصِحَّةِ الِانتِماءِ للدِّين وأهلِه، وتقديمِ ذلك على ما أَلِفَه العرَبُ في جاهليَّتِهم من تقديم النسَب والوَلاءِ:

فعن عروةَ، عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «لَمَّا كان يَومُ أُحُدٍ هُزِمَ المشرِكونَ، فصاحَ إبليس: أي عبادَ اللهِ، أُخراكُم! فرجعَت أولاهُم، فاجتَلَدَت هي وأُخراهُم، فنَظَرَ حُذَيفَةُ فإذا هو بأَبيهِ اليَمانِ، فقال: أَي عِبادَ اللهِ، أَبي! أَبي! فواللهِ ما احتَجَزوا حتى قَتَلوهُ، فقال: حُذَيفَةُ: غَفَرَ اللهُ لَكُم».

قال عُروَةُ: فما زالَت في حُذَيفَةَ منه بَقيَّةُ خَيرٍ، حتى لَحِقَ باللهِ[1].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فصَرَخَ إبليس: أي عبادَ اللهِ، أُخراكُم!»، أَي: احتَرِزوا من جِهَةِ أُخراكُم، وهي كَلِمَةٌ تُقالُ لِمَن يَخشى أَن يُؤتى عِندَ القِتالِ من ورائِهِ، وكان ذلك لَمَّا تَرَكَ الرُّماةُ مَكانهُم، ودَخَلوا يَنتَهِبونَ عَسكَرَ المشرِكينَ.

قَولُهُ: «فرجعَت أولاهُم، فاجتَلَدَت هي وأُخراهُم»، أَي: وهُم يَظُنُّونَ أَنَّهُم منَ العَدو، فوَقَعَ القَتلُ على المسلمينَ بعضهم من بعضٍ.

وأفاد ابنُ سَعدٍ: أَنَّ الذي قَتَلَ اليَمانَ خَطَأً عُتبَةُ بن مَسعودٍ، أَخو عبدِ اللهِ بن مَسعودٍ»[2].

و**قال ابنُ إسحاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: وحَدَّثَني عاصِمُ بن عمرَ بن قَتادَةَ، عن مَحمودِ بن لَبيدٍ، قال: «لَمَّا خرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أُحُدٍ، رُفِعَ حُسَيلُ بن جابرٍ، وهو اليَمانُ أَبو حُذَيفَةَ بن اليَمانِ، وثابتُ بن وقشٍ، في الآطامِ مع النِّساءِ والصبيانِ، فقال أَحَدُهُما لِصاحِبِهِ، وهُما

(١) رواه البخاري (٣٢٩٠).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٦٢-٣٦٣).

شَيخانِ كَبيرانِ: لا أَبا لك، ما تنتَظِرُ؟ فواللهِ لا بَقيَ لِواحدٍ مِنَّا من عُمرِهِ إلا ظِمءُ حِمارٍ[١]، إنَّما نَحنُ هامَةُ اليَومِ أو غَدٍ[٢]، أَفلا نَأخُذُ أَسيافَنا، ثم نَلحقُ برسولِ اللهِ ﷺ، لَعَلَّ اللهَ يَرزُقُنا شَهادَةً مع رسولِ اللهِ ﷺ؟

فَأَخَذا أَسيافَهُما ثم خرجا، حتى دَخَلا في الناسِ، ولَمْ يُعلَم بِهِما، فأَمَّا ثابتُ بن وقشٍ: فقَتَله المشرِكونَ، وأَمَّا حُسَيلُ بن جابرٍ: فاختَلَفَت عليه أَسيافُ المسلمينَ، فقَتَلوهُ ولا يَعرِفونَهُ، فقال حُذَيفَةُ: أَبي! فقالوا: «واللهِ إن عَرَفناهُ»[٣]، وصَدَقوا.

قال حُذَيفَةُ: يَغفِرُ اللهُ لَكُم، وهو أَرحَمُ الراحِمينَ.

فَأَرادَ رسولُ اللهِ ﷺ أَن يَديَهُ[٤]، فتَصَدَّقَ حُذَيفَةُ بديَتِهِ على المسلمينَ، فزادَهُ ذلك عِندَ رسولِ اللهِ ﷺ خَيرًا»[٥].

وقال ابنُ إسحاقَ: وحَدَّثَني نُبَيهُ بن وهبٍ، أَخو بَني عبدِ الدَّارِ، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ حينَ أَقبَلَ بالأُسارى فرَّقَهُم بينَ أَصحابِهِ، وقال: «**استَوصوا بالأُسارى خَيرًا**».

قال: وكان أَبو عَزيز بن عُمَيرِ بن هاشِمٍ، أَخو مُصعَب بن عُمَيرٍ لِأَبيهِ وأُمِّهِ في الأُسارى، قال: فقال أَبو عَزيزٍ: مَرَّ بي أَخي مُصعَبُ بن عُمَيرٍ ورجلٌ من الأَنصارِ يَأسِرُني، فقال: شُدَّ يَدَيكَ بِهِ؛ فإنَّ أُمَّهُ ذاتُ مَتاعٍ، لَعَلَّها تَفديهِ منكَ.

قال: وكُنتُ في رَهطٍ من الأَنصارِ حينَ أَقبَلوا بي من بَدرٍ، فكانوا إذا قدَّموا غَداءَهُم وعَشاءَهُم خَصُّوني بالخُبزِ، وأَكَلوا التمرَ؛ لِوَصيَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ إيَّاهُم بنا، ما

---

(١) أي: شيء يسير، وإنما خص الحمار؛ لأنه أقل الدواب صبرا عن الماء، والظمء: ما بين الشربتين، ينظر: تهذيب اللغة (١٤/ ٢٨٨)، النهاية (٣/ ١٦٢).

(٢) يقال: هذا هامة اليوم أو غد، أي: يموت اليوم أو غد. لسان العرب (١٢/ ٦٢٤).

(٣) أي: ما عرفناه.

(٤) أي: يعطي ديته.

(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ٨٧)، ومن طريق ابن إسحاق رواه الحاكم في المستدرك (٤٩٠٩)، والبيهقي في السنن (١٦٤٧٩)، وهذا إسناد جيد.

تَقَعُ في يَدِ رجلٍ منهم كِسرَةُ خُبزٍ إلا نَفَحَني بها[١]، قال: فأَستَحيي فأَرُدُّها على أَحَدِهِم، فيَرُدُّها عَلَيَّ ما يَمَسُّها.

قال ابنُ هِشام: «وكان أَبو عَزيزٍ صاحِبَ لِواءِ المشرِكينَ ببَدرٍ بعدَ النضرِ بنِ الحارِثِ، فلما قال أَخوهُ مُصعَبُ بن عُمَيرٍ لِأَبي اليسرِ - وهو الذي أَسَرَهُ - ما قال، قال له أَبو عَزيزٍ: «يا أَخي، هذه وصاتُكَ بي؟!»، فقال له مُصعَبٌ: «إنَّهُ أَخي دونَكَ».

فَسأَلَت أُمُّهُ عن أَغلى ما فُديَ بهِ قُرَشيٌّ، فقيلَ لها: أَربَعَةُ آلافِ دِرهَمٍ، فبَعَثَت بأَربَعَةِ آلافِ دِرهَمٍ، ففَدَتهُ بها»[٢]

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ أبا بكرٍ قال لعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي نَفسي بيَدِهِ، لَقَرابَةُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ إلَيَّ أَن أَصِلَ من قَرابَتي»[٣].

وعن ابنِ عباسٍ، أنَّ عمَر بن الخطَّاب قال للعباسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله لَإسلامُكَ يَومَ أَسلَمتَ كان أَحَبَّ إلَيَّ من إسلامِ الخَطَّاب لَو أَسلَمَ، وما بي إلا أَنِّي قد عَرَفتُ أَنَّ إسلامَكَ كان أَحَبَّ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إسلامِ الخَطَّاب لَو أَسلَمَ»[٤].

ولما فعَلَ عبدُ اللهِ بن أُبَيّ ابن سَلول ما فَعَلَ، وقال «لا تُنفِقوا على مَن عِندَ رسولِ اللهِ حتى يَنفَضُّوا»، وقال: «لَئِن رجعنا إلى المَدينَةِ لَيُخرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ»، غَضِبَ مِنهُ ابنُهُ عبدُ اللهِ ومَقَتَه.

وقال ابنُ إسحاقَ: فحَدَّثَني عاصِمُ بن عمرَ بن قَتادَةَ: أَنَّ عبدَ اللهِ أَتى رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّهُ بلغَني أَنَّكَ تُريدُ قَتلَ عبدِ اللهِ بن أُبَيٍّ فيما بلغَكَ عنه،

---

(١) أي: أعطاني إياها.

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٦٤٥-٦٤٦)، وذكر غير واحد أن أبا عزيز هذا أسلم، ينظر: الإصابة (٧/ ٢٢٩)، الروض الأنف (٥/ ١١٩).

(٣) رواه البخاري (٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٩).

(٤) رواه ابن إسحاق -كما في سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٣)-، ومن طريقه رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٣١٩)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٣٤١)، وينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ١٦).

فإن كُنتُ لا بُدَّ فاعِلًا فمُرني بِهِ، فأنا أَحمِلُ إلَيك رَأسَهُ، فواللهِ لَقد عَلِمَتِ الخَزرَجُ ما كان لها من رجلٍ أَبَرَّ بوالِدِهِ مِنِّي، وإنِّي أَخشى أَن تَأمُرَ بِهِ غيري فيَقتُله، فلا تَدَعُني نَفسي أَنظُرُ إلى قاتِلِ عبدِ اللهِ ابنِ أُبَيٍّ يَمشي في الناسِ، فأَقتُلَه فأَقتُلَ رجلًا مُؤمِنًا بكافِرٍ، فأَدخُلَ النارَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**بَل نَتَرَفَّقُ بِهِ ونُحسِنُ صُحبَتَهُ ما بَقيَ معنا**».

وجَعَلَ بعدَ ذلك إذا أَحدَثَ الحَدَثَ كان قَومُهُ هُم الذينَ يُعاتِبونَهُ، ويَأخُذونَهُ، ويُعَنِّفونَهُ[١].

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قال: مَرَّ رسولُ اللهِ ﷺ على عبدِ اللهِ بن أبيّ ابن سَلولَ وهو في ظِلِّ أَجَمَةٍ[٢]، فقال: «قد غَبَّرَ علينا ابنُ أَبي كَبشَةَ»، فقال ابنُهُ عبدُ اللهِ بن عبدِ اللهِ: «والذي أَكرَمَكَ، والذي أَنزَلَ عليكَ الكِتابَ، لَئِن شِئتَ لَآتِيَنَّكَ برَأسِهِ»، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا، ولكن برَّ أَباكَ، وأَحسِن صُحبتَه**»[٣].

وقوله: «غَبَّرَ علينا ابنُ أَبي كَبشَةَ»، قال الحافظُ: «أَبو كَبشَةَ أَحَدُ أَجدادِ النبيِّ ﷺ، وعادَةُ العَرَب إذا انتَقَصَت نَسَبَت إلى جَدٍّ غامِضٍ، قال أَبو الحَسَنِ النسَّابَةُ الجُرجانيُّ: «هو جَدُّ وهبِ جَدِّ النبيِّ ﷺ لِأُمِّهِ»، وهذا فيه نَظَرٌ؛ لِأَنَّ وهبًا جَدَّ النبيِّ ﷺ اسمُ أُمِّهِ عاتِكَةُ بنتُ الأوقَصِ، ولَم يَقُل أَحَدٌ من أَهلِ النسَب إنَّ الأوقَصَ يُكَنَّى أَبا كَبشَةَ.

وقيلَ: هو جَدُّ عبدِ المطَّلِب لِأُمِّهِ، وفيه نَظَرٌ أَيضًا؛ لِأَنَّ أُمَّ عبدِ المطَّلِب سَلمى بنتُ عَمرِو بن زَيدٍ الخَزرَجيِّ، ولَم يَقُل أَحَدٌ من أَهلِ النسَب إنَّ عَمرَو بن زَيدٍ يُكَنَّى أَبا كَبشَة.

ولكن ذكرَ ابنُ حَبيبٍ في «المجتَبى» جَماعَةً من أَجدادِ النبيِّ ﷺ من قِبَلِ أَبيهِ ومن قِبَلِ أُمِّهِ، كُلُّ واحدٍ منهم يُكَنَّى أَبا كَبشَةَ.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٢-٢٩٣)، وينظر: البداية والنهاية (٦/ ١٨٧).

(٢) الأجمة: الشجر الكثير الملتف.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٢٨)، والبزار في مسنده (٧٩٧٨)، والطبراني في الأوسط (٢٢٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣/ ١٦٩٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣١٨): «رواه البزار، ورجاله ثقات»، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٢٣).

وقيلَ: هو أَبوهُ منَ الرضاعَةِ، واسمُهُ الحارِثُ بن عبدِ العُزَّى، قالهُ أَبو الفَتحِ الأَزديُّ وابنُ ماكولا، وذكر يونُسُ بن بُكَيرٍ، عَنِ ابنِ إسحاقَ، عن أَبيهِ، عن رِجالٍ من قَومِهِ، أَنَّهُ أَسلَمَ، وكانت له بنتٌ تُسَمَّى كَبشَةَ، يُكَنَّى بها.

وقال ابنُ قُتَيبَةَ، والخَطَّابيُّ، والدَّارَقُطنيُّ: «هو رجلٌ من خُزاعَةَ، خالَفَ قريشًا في عِبادَةِ الأوثانِ، فعَبَدَ الشِّعرى، فنَسَبوهُ إليه؛ لِلاشتِراكِ في مُطلَقِ المخالَفَةِ»، وكذا قالهُ الزُّبَيرُ، قال: «واسمُهُ وجزُ بن عامِرِ بن غالِبٍ»[1].

وذكرَ عِكرِمَةُ وابنُ زَيدٍ وغيرُهُما: أَنَّ عبدَ اللهِ بن عبدِ اللهِ بن أُبَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقَفَ لِأَبيهِ عبدِ اللهِ بن أُبَيّ ابنِ سَلول عِندَ مَضيقِ المَدينَةِ، فقال: «قِف، فواللهِ لا تَدخُلها حتى يَأذَنَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك».

فلما جاءَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استَأذَنَهُ في ذلك، فأَذِنَ له، فأَرسَله حتى دَخَلَ المَدينَةَ[2].

وقال الحُمَيديُّ في مسندِهِ: ثَنا سُفيانُ، قال: ثنا أَبو هارونَ المَدَنيُّ، قال: قال عبدُ اللهِ بن عبدِ اللهِ بن أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ لِأَبيهِ: «واللهِ لا تَدخُلُ المَدينَةَ أَبَدًا حتى تَقولَ: رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأَعَزُّ، وأَنا الأَذَلُّ».

قال: وجاءَ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا رسولَ اللهِ، إنَّهُ بلغَني أَنَّكَ تُريدُ أَن تَقتُلَ أَبي، فوالذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما تَأَمَّلتُ وجهَهُ قَطُّ؛ هَيبَةً له، وإن شِئتَ أَن آتيَكَ برَأسِهِ لَأَتَيتُكَ؛ فإنِّي أَكرَهُ أَن أَرى قاتِلَ أَبي»[3].

ولَمَّا قَتَلَ مُحَيِّصَةُ[4] كَعبَ بن يَهوذا -وكان عَظيمًا في بَني قُرَيظَةَ-، قال له أَخوهُ حوَيِّصَةُ -وكان كافِرًا-: أَقَتَلتَ كَعبَ بن يَهوذا؟ قال: «نَعَم»، فقال حوَيِّصَةُ: أَما واللهِ لَرُبَّ شَحمٍ قد نَبَتَ في بَطنِكَ من مالِهِ، إنَّكَ لَلَئيمٌ يا مُحَيِّصَةُ، فقال له مُحَيِّصَةُ: «لَقد أَمَرَني بقَتلِهِ مَن لَو أَمَرَنِي بقَتلِكَ لَقَتَلتُكَ».

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٠).

(٢) البداية والنهاية، (٦/ ١٨٨).

(٣) مسند الحميدي (١٢٧٦).

(٤) هو محيصة بن مسعود الأنصاري، وكان أصغر من أخيه حويصة. الإصابة (٦/ ٣٨).

ثم أَسلَمَ حوَيِّصَةُ بعدَ ذلك[١].

وعن عبدِ اللهِ بن شَوذَبٍ، قال: «جَعَلَ أَبو أَبي عُبيدَةَ يَتَصَدَّى لِأَبي عُبيدَةَ يومَ بَدرٍ، فجَعَلَ أَبو عُبيدَةَ يَحيدُ عنه، فلما أَكثَرَ قَصَدَهُ أَبو عُبيدَةَ فقَتَله، فأَنزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيه هذه الآيةَ حينَ قَتَلَ أَباهُ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [المجادلة: ٢٢]، إلى آخِرِ الآيةِ»[٢].

وقال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَمَرَ تعالى رسوله أَن يَتَوَعَّدَ مَن آثَرَ أَهله وقَرابَتَهُ وعَشيرَتَهُ على اللهِ وعلى رسولِهِ وجِهادٍ في سَبيلِهِ، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]»[٣].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قيلَ في قَولِهِ: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾: نزلَت في أَبي عُبيدَةَ، قَتَلَ أَباهُ يومَ بَدرٍ ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾: في الصدِّيقِ، هَمَّ يومَئِذٍ بقَتلِ ابنِهِ عبدِ الرحمَنِ، ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾: في مُصعَب بن عُمَيرٍ، قَتَلَ أَخاهُ عُبيدَ بن عُمَيرٍ يومَئِذٍ، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾: في عمرَ، قَتَلَ قَريبًا له يومَئِذٍ أَيضًا، وفي حَمزَةَ وعَليٍّ وعُبيدَةَ بن الحارِثِ، قَتَلوا عُتبَةَ وشَيبَةَ والوَليدَ بن عُتبَةَ يومَئِذٍ»[٤].

وقال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٩)، وينظر: الاستيعاب (٤/ ١٤٦٣)، أسد الغابة (٢/ ٩٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ١٥٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠١)، والحاكم في المستدرك (٥١٥٢)، والبيهقي في السنن (١٧٨٣٥)، وقال: «هذا منقطع».

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٤).

(٤) ينظر: زاد المسير (٤/ ٢٥١)، تفسير القرطبي (١٧/ ٣٠٧)، تفسير ابن كثير (٨/ ٥٤).

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقولُ تعالى: أَحقُّ الناسِ بمُتابَعَةِ إبراهيمَ الخَليلِ: الذينَ اتَّبَعوهُ على دينِهِ، وهذا النبيُّ -يَعني محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والذينَ آمَنوا من أَصحابِهِ المهاجِرينَ والأَنصارِ، ومَن بعدَهُم»[1].

وقال محمدُ بن عليٍّ الترمذيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهُم أولياءُ اللهِ، واللهُ وليُّهم، وهُم أهلُ حَميَّتِه وأنصارُه، فدُعوا إلى الحرب، فوضَعوا السُّيوفَ على عواتِقِهم، وربَطوا الحَجَرَ على بُطونِهم منَ الجوعِ، والخِرَقَ على ظُهورِهم من العُري، وقد هَجَروا أوطانَهم، ومَقَرَّهم، وحرمَ اللهِ، وأظهَروا عداوةً في اللهِ لأهلِ الشِّركِ، وخرَجوا من ديارِهم وأموالِهم، ونابَذوا أرحامَهم في اللهِ، حتى كان الرجلُ يقتُل أباهُ وأخاه.

وقالوا عندما استشارهُم رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شيءٍ من أمرِ الحرب: «مُرنا بما شِئتَ، وسِر بنا حَيثُ شِئتَ، فلو سِرتَ بنا إلى بَركِ الغِمادِ[2] لَسِرنا -موضِعٍ بعيدٍ ذكَروه-، فواللهِ لا نقول لَك كَما قال بَنو إسرائيلَ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]»[3].

وافتَتَحَ خيبَرَ، وغَنِمَ الغنائِمَ، فقَسَّم في المهاجِرينَ، ولم يُقَسِّم في الأنصارِ؛ لِأَنَّهُم في أموالِهم، والمهاجِرونَ خَلَّفوا الأموالَ بمكةَ، فسَمَحَتِ الأنصارُ بذلك، وكانوا حينَ قدِموا المَدينةَ ناصَفوهُم الأموالَ، وواسَوهُم بالكثيرِ، حتى كادَ الرجُلُ يُطَلِّق إحدى امرأَتيه؛ ليتَزوّجَها أخوه المهاجِرُ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨).

(٢) قيل: موضع بناحية اليمن، وقيل: موضع في أقاصي هجر، وقيل: موضع من وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل، وقيل غير ذلك، وينظر: شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٢٥)، فتح الباري (٧/ ٢٣٢).

(٣) روى البخاري (٣٩٥٢) عن ابن مسعود، قال: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا، لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به: أتى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يدعو على المشركين، فقال: «لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك»، فرأيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرق وجهه وسره»، يعني: قوله.

وروى مسلم (١٧٧٩) عن أنس، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر، فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة، فقال: «إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا».

هذا كُلُّه لحُبِّ اللهِ، وحُبِّ طاعَتِه، وحُبِّ رسولِه، فانظُر: أيّ قُلوبٍ هذه؟ وأيّ شيءٍ في هذه القُلوب من مِنَنِ اللهِ؟ وانظُر: أيّ جَواهِرِ هذه النُّفوسِ؟ وانظُر: أيّ أخلاقٍ لهذه النُّفوسِ؟

اللهُم إنَّا نتقرَّبُ إليكَ بحُبِّهم، فإنَّهم أحَبُّوك، ولم يُحِبُّوك حتى أحبَبتَهم، فبحُبِّك إيَّاهُم وصَلوا إلى حُبِّك، ونَحنُ لم نَصِل إلى حُبِّهم فيكَ إلا بحَظِّنا منكَ، فتَمِّم لنا ذلك حتى نَلقاكَ، وأنتَ أرحَمُ الراحِمينَ.

وأثنى اللهُ على الأنصارِ، ومدَحَ سَرائِرَهُم، فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ [الحشر: ٩]، أي: لا يَجِدون ضيقًا ولا نفاسَةً فيما أوتي المهاجِرونَ من غَنيمَةِ خَيبَرَ، ولَم يُؤتَ الأنصار.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، يُخبِرُ أنَّه قد كان بالأنصارِ فقرٌ وحاجةٌ إلى تِلكَ الغنائِمِ، فآثَروا المهاجِرينَ على أنفُسِهِم، ثم أخبَرَ أنّ هذا من مِنَّةِ اللهِ على الأنصارِ، أنَّه مَنَّ عليهم بأن أماتَ فيهمُ الحرصَ، وهو الشُّحُّ، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وإنَّما أماتَ فيهم الحرصَ على الدُّنيا بما أعطاهُم منَ اليقينِ الفاضِلِ على الأُمَمِ، فباليَقينِ ماتَ الحِرصُ، وما يَصنَعُ مَنِ احتَشى قلبُه بنورِ اللهِ، ويَرى قُربَةَ اللهِ منه، بظُلُماتِ الدُّنيا وحُطامِها ولَهوِها؟

وسار بهم رسولُ اللهِ ﷺ إلى فتحِ مكةَ، وهو وطَنُهم وأرضُهُم المقدَّسَة، فما تَلَكَّأَ منهم شَيخٌ ولا شابٌّ، حتى فتَحَ اللهُ عليهم، من غيرِ أن يَمَسَّهُم سوءٌ.

ثم قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ، فابتَعَثَ اللهُ لِهذا الدِّينِ أئِمَّةً صِدِّيقينَ، خُلَفاءَ الأنبياءِ، يقومونَ بالحقّ، وبه يَعدِلون.

فتفاوَتَ الأمران والشَّأنانِ: شَأنُ بَني إسرائيلَ، وشَأنُ هذه الأُمَّةِ»[1].

---

(١) نوادر الأصول (٢/ ٢٨٩- ٢٩٢).

ولَمَّا رأى المنافِقون من قوَّة إيمانِ الصحابَةِ ما رَأوا، وعايَنوا من أحوالِهم في ذلك ما عايَنوا، كانوا لا يَدَعون فُرصَةً لإثارةِ الفِتنَةِ بينَ الناسِ ونَشرِ الفَوضى إلا انتَهَزوها:

عن عمرِو بن دينارٍ، عن جابر بن عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كُنَّا في غَزاةٍ، فكَسَعَ رجلٌ منَ المهاجِرينَ رجلًا منَ الأَنصارِ[1]، فقال الأَنصاريُّ: يا لَلأنصارِ! وقال المهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرينَ! فسَمَّعَها اللهُ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ما هذا؟**»، فقالوا كَسَعَ رجلٌ منَ المهاجِرينَ رجلًا منَ الأَنصارِ، فقال الأَنصاريُّ: يا لَلأنصارِ، وقال المهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرينَ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعوها فإنَّها مُنتِنَةٌ**».

قال جابرٌ: وكانتِ الأَنصارُ حينَ قدِمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكثَرَ، ثم كَثُرَ المهاجِرونَ بعدُ، فقال عبدُ اللهِ بن أُبَيٍّ: أوقد فعَلوا؟! واللهِ لَئِن رجعنا إلى المَدينَةِ لَيُخرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ، فقال عمرُ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَعني يا رسولَ اللهِ أَضرِب عُنُقَ هذا المنافِقِ، قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعهُ؛ لا يَتَحَدَّثُ الناسُ أَنَّ محمدًا يَقتُلُ أَصحابَهُ**»[2].

وفي لفظ: وقال عبدُ اللهِ بن أُبَيّ ابن سَلولَ: «أَقد تَداعَوا علينا؟! لَئِن رجعنا إلى المَدينَةِ لَيُخرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ»[3].

ورواهُ التِّرمِذيُّ في سُنَنِه، وزادَ: وقال غيرُ عَمرٍو: فقال له ابنُهُ عبدُ اللهِ بن عبدِ اللهِ: «واللهِ لا تَنقَلِبُ حتى تُقِرَّ أَنَّكَ الذَّليلُ، ورسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَزيزُ»، ففَعَلَ[4].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قيلَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَو أَتَيتَ عبدَ اللهِ بن أُبَيٍّ، فانطَلَقَ إليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورَكِبَ حِمارًا، فانطَلَقَ المسلمونَ يَمشونَ معه، وهي أَرضٌ سَبخَةٌ، فلما أَتاهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إليك عَنِّي، واللهِ لَقد آذاني نَتنُ حِمارِكَ.

فقال رجلٌ منَ الأَنصارِ منهم: «واللهِ لَحِمارُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطيَبُ ريحًا منكَ».

---

(١) أي ضرب دبره وعجيزته، بيد، أو رجل، أو سيف، أو غيره.

(٢) رواه البخاري (٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٣) رواه البخاري (٤/ ١٨٤).

(٤) سنن الترمذي (٣٣١٥).

فَغَضِبَ لِعبدِ اللهِ رجلٌ من قَومِهِ، فشَتَمَهُ، فغَضِبَ لِكُلِّ واحدٍ منهما أَصحابُهُ، فكان بينهما ضَربٌ بالجَريدِ والأَيدي والنِّعالِ، فبلغَنا أَنَّها أُنزِلَت: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩][(١)].

قال الحافظُ: «استَشكَلَ ابنُ بَطَّالٍ نُزولَ الآيةِ المَذكورَةِ وهي قَولُهُ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ في هذه القِصَّةِ؛ لِأَنَّ المخاصَمَةَ وقَعَت بينَ مَن كان مع النبيِّ ﷺ من أَصحابِهِ، وبينَ أَصحاب عبدِ اللهِ بن أُبَيٍّ، وكانوا -إذ ذاكَ- كُفَّارًا، فكَيفَ ينزلُ فيهم ﴿طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟

قُلتُ: يُمكِنُ أَن يُحمَلَ على التغليب»[(٢)].

وقال ابنُ إسحاقَ: حَدَّثَني عاصِمُ بن عمرَ بن قَتادَةَ، وعبدُ اللهِ بن أَبي بكرٍ، ومحمدُ بن يَحيى بن حِبَّان، كُلٌّ قد حَدَّثَني بعضَ حَديثِ بَني المصطَلِقِ، قالوا: بلغَ رسولَ اللهِ ﷺ أَنَّ بَني المصطَلِقِ يَجمَعونَ له، وقائِدُهُم الحارِثُ بن أَبي ضِرارٍ، أَبو جوَيريَةَ بنتِ الحارِثِ، زَوجِ رسول الله ﷺ، فلما سَمِعَ رسولُ اللهِ ﷺ بهِم خرجَ إليهم، حتى لَقيَهُم على ماءٍ لهم يُقالُ له: المُرَيسيعُ.

فَبينا رسولُ اللهِ ﷺ على ذلك الماءِ، ورَدَت وارِدَةُ الناسِ، ومع عمرَ بنِ الخَطَّاب أَجيرٌ له من بَني غِفارٍ، يُقالُ له: جَهجاهُ بن مَسعودٍ، يَقودُ فرَسَهُ، فازدَحَمَ جَهجاه وسِنانُ بن وبَرٍ الجُهَنيُّ حَليفُ بَني عَوفِ بن الخَزرَجِ على الماءِ، فاقتَتَلا، فصَرَخَ الجُهَنيُّ: يا مَعشَرَ الأَنصارِ! وصَرَخَ جَهجاه: يا مَعشَرَ المهاجِرينَ! فغَضِبَ عبدُ اللهِ بن أُبَيٍّ ابن سَلولَ، وعِندَهُ رَهطٌ من قَومِهِ فيهم زَيدُ بنُ أَرقَمَ، غُلامٌ حَدَثٌ، فقال: أوقد فعَلوها؟! قد نافَرونا وكاثَرونا في بلادِنا، واللهِ ما أَعُدُّنا وجَلابيبَ قريشٍ[(٣)] إلا كَما قال الأَوَّلُ: «سَمِّن كَلبَكَ يَأكُلكَ»، أَما واللهِ لَئِن رجعنا إلى المَدينَةِ لَيُخرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ، ثم أَقبَلَ على مَن حَضَرَهُ من قَومِهِ، فقال لهم:

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩).

(٢) فتح الباري (٥/ ٢٩٩).

(٣) هو لقب لمن كان أسلم من المهاجرين، لقبهم بذلك المشركون، وأصل الجلابيب: الأزر الغلاظ، واحدها جلباب، وكانوا يلتحفون بها، فلقبوهم بذلك. ينظر: الإملاء المختصر لأبي ذر الجياني (ص٣٣٣).

هذا ما فَعَلتُم بأَنفُسِكُم، أَحلَلتُموهُم بلادكُم، وقاسَمتُموهُم أَموالَكُم، أَما واللهِ لَو أَمسَكتُم عنهم ما بأَيديكُم لَتَحَوَّلوا إلى غيرِ دارِكُم.

فَسَمِعَ ذلك زَيدُ بن أَرقَمَ، فمَشى بهِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وذلك عِندَ فراغِ رسولِ اللهِ ﷺ من عَدوِّهِ، فأَخبَرَهُ الخَبَرَ.

وقد مَشى عبدُ اللهِ بن أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ حينَ بلغَهُ أَنَّ زَيدَ بن أَرقَمَ قد بَلَّغَهُ ما سَمِعَ منه، فحَلَفَ باللهِ: ما قُلتُ ما قال، ولا تَكَلَّمتُ بهِ -وكان في قَومِهِ شَريفًا عَظيمًا-، فقال مَن حَضَرَ رسولَ اللهِ ﷺ من الأَنصارِ من أَصحابهِ: يا رسولَ اللهِ، عَسى أَن يكونَ الغُلامُ قد أَوهَمَ في حَديثِهِ، ولَم يَحفَظ ما قال الرجُلُ[1].

وعن زَيدِ بن أَرقَمَ رضي الله عنه، قال: كُنتُ مع عَمِّي، فسَمِعتُ عبدَ اللهِ بن أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ يقولُ: لا تُنفِقوا على مَن عِندَ رسولِ اللهِ حتى يَنفَضُّوا، وقال أَيضًا: لَئِن رجعنا إلى المَدينَةِ لَيُخرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ، فذكرتُ ذلك لِعَمِّي، فذكرَ عَمِّي لِرسولِ اللهِ ﷺ، فأَرسَلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى عبدِ اللهِ بن أُبَيٍّ وأَصحابهِ، فحَلَفوا ما قالوا، فصَدَّقَهُم رسولُ اللهِ ﷺ وكَذَّبَني، فأَصابَني هَمٌّ لَم يُصِبني مِثلُهُ قَطُّ، فجَلَستُ في بَيتي، فأَنزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، إلى قَولِهِ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧]، إلى قَولِهِ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

فَأَرسَلَ إِلَيَّ رسولُ اللهِ ﷺ، فقَرَأَها عَلَيَّ، ثم قال: «إِنَّ اللهَ قد صَدَّقَكَ»[2].

وقال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۖ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٠-٢٩١).

(٢) رواه البخاري (٤٩٠١)، ومسلم (٢٧٧٢).

وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

فأصبَحَ مُجتمَعُ الصحابةِ هو مُجتمع القُدوَةِ في أصولِ الإيمانِ، والولاءِ للمُؤمنينَ، والبَراءَةِ منَ المشرَكينَ، والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، والبذلِ، والتضحيَةِ، والإيثارِ، فانطَمَست معالِمُ الجاهليَّةِ، وزالَت آثارُ العَصَبيَّةِ القَبَليَّةِ، وتآلَفَتِ القُلوبُ على المحَبَّةِ في اللهِ، والأُخوَّةِ في اللهِ، حتى صاروا كَما قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَرى المؤمِنينَ في تَراحُمِهِم وتَوادِّهِم وتَعاطُفِهِم كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشتكى عُضوًا تَداعى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسهَرِ والحُمَّى**»[1].

وعن أَبي موسى، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ المؤمِنَ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ، يَشُدُّ بعضه بعضًا**»، وشَبَّكَ أَصابعَهُ[2].

بَذلُ الصحابةِ أَحَبَّ أموالِهِم في سبيلِ الله:

لم يَدَّخِر أصحابُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُسعًا ولا طاقَةً في البذلِ إلا أنفَذوه في سَبيلِ اللهِ، وكان ما يُنفِقونَهُ ويَبذُلونَه من أموالِهم أَحَبَّ إليهِم -إذ أخرجوهُ- مِمَّا يُبقونَه لأنفُسِهم وأهليهِم.

ذكَرَ موسى بن عُقبَةَ في مَغازيهِ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استَشارَ أصحابَه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الخُروج يَومَ بَدرٍ، فلما رَأى سَعدُ بن مُعاذٍ كَثرَةَ استَشارَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصحابَهُ، فيُشيرونَ، فيَرجِعُ إلى المَشورَةِ، ظَنَّ سَعدٌ أَنَّهُ يَستَنطِقُ الأَنصارَ؛ شَفَقًا أَلَّا يَستَحوِذوا معه على ما يُريدُ من أَمرِهِ، فقال سَعدُ بن مُعاذٍ: «لَعَلَّكَ يا رسولَ الله تَخشى أَن لا تَكونَ الأَنصارُ يُريدونَ مواساتَكَ، ولا يَرَونَها حقًّا عليهم، إلا بأَن يَرَوا عَدوًّا في بُيوتِهِم وأولادِهِم ونسائِهِم.

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

وإنِّي أَقولُ عَنِ الأَنصارِ وأُجيبُ عنهم يا رسولَ الله، فأَظعِن حَيثُ شِئتَ، وصِل حَبلَ مَن شِئتَ، واقطَع حَبلَ مَن شِئتَ، وخُذ من أَموالِنا ما شِئتَ، وأَعطِنا ما شِئتَ، وما أَخَذتَهُ مِنَّا أَحَبُّ إلَينا مِمَّا تَرَكتَ علينا، وما ائتَمَرتَ من أَمرٍ فأَمرُنا لِأَمرِكَ فيه تَبَعٌ، فواللهِ لَو سِرتَ حتى تَبلُغَ البَركَ من غِمدِ ذي يَمَنٍ لَسِرنا معكَ»[١].

ورواهُ ابنُ أبي شَيبَةَ: حَدَّثَنا عبدُ الرحيمِ بن سُلَيمانَ، عن محمدِ بن عَمرٍو اللَّيثيِّ، عن أَبيهِ، عن جَدِّهِ، قال: خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى بَدرٍ، حتى إذا كان بالروحاءِ خَطَبَ الناسَ، فقال: «**كَيفَ تَرَونَ؟**»، قال أَبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ، بلغَنا أَنَّهُم بكذا وكذا، قال: ثم خَطَبَ الناسَ، فقال: «**كَيفَ تَرَونَ؟**» فقال عمرُ مِثلَ قَولِ أَبي بكرٍ، ثم خَطَبَ فقال: «**ما تَرَونَ؟**»، فقال سَعدُ بن مُعاذٍ: «إيَّانا تُريدُ، فوالذي أَكرَمَكَ وأَنزَلَ عليكَ الكِتابَ ما سَلَكتُها قَطُّ، ولا لي بها عِلمٌ، ولَئِن سِرتَ حتى تَأتيَ بَركَ الغِمادِ من ذي يَمَنٍ لَنَسيرَنَّ معكَ، ولا نَكونُ كالذينَ قالوا لِموسى من بَني إسرائيلَ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكنِ اذهَب أَنتَ وربُّكَ فقاتِلا، إنَّا معكُما مُتَّبعونَ، ولَعَلَّكَ أَن تَكونَ خرجتَ لِأَمرٍ وأَحدَثَ اللهُ إليك غيرَهُ، فانظُرِ الذي أَحدَثَ اللهُ إليك فامضِ له، فصِل حِبالَ مَن شِئتَ، واقطَع حِبالَ مَن شِئتَ، وسالِم مَن شِئتَ، وعادِ مَن شِئتَ، وخُذ من أَموالِنا ما شِئتَ»[٢].

وذكرَه ابنُ كثيرٍ في تاريخِه، من روايةِ ابن مردوَيه، من طَريقِ محمدِ بن عَمرٍو به، ثم قال: «وذكرَهُ الأُمَويُّ في «مَغازيهِ»، وزادَ بعدَ قَولِهِ: «وخُذ من أَموالِنا ما شِئتَ»: «وأَعطِنا ما شِئتَ، وما أَخَذتَ مِنَّا كان أَحَبَّ إلَينا مِمَّا تَرَكتَ، وما أَمَرتَ بِهِ من أَمرٍ، فأَمرُنا تَبَعٌ لِأَمرِكَ، فواللهِ لَئِن سِرتَ حتى تَبلُغَ البَركَ من غُمدانَ لَنَسيرَنَّ معكَ»[٣].

فكان البَذلُ والعَطاءُ لدَيهِم أَحَبَّ منَ الأَخذِ، وكان الإيثارُ أَحَبَّ إليهِم منَ النفَقةِ على الأَهلِ والولَدِ.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٠٧)، وينظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٤٧)، زاد المعاد (٣/ ١٥٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٥٥)، وهذا مرسل.

(٣) البداية والنهاية (٥/ ٧٤).

وعن أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان أَبو طَلحَةَ أَكثَرَ الأَنصارِ بالمَدينَةِ مالًا من نَخلٍ، وكان أَحَبّ أَموالِهِ إليه بَيرُحاء، وكانت مُستَقبلَةَ المسجِدِ، وكان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدخُلُها ويَشرَبُ من ماءٍ فيها طَيِّبٍ.

قال أَنَسٌ: فلما أُنزِلَت هذه الآيةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قامَ أَبو طَلحَةَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتعالى يقولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أَحَبَّ أَموالي إلَيَّ بَيرُحاء، وإنَّها صَدَقَةٌ للهِ، أَرجو برَّها وذُخرَها عِندَ اللهِ، فضَعها يا رسولَ اللهِ حَيثُ أَراكَ اللهُ.

قال: فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَخٍ، ذلك مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ، وقد سَمِعتُ ما قُلتَ، وإنِّي أَرى أَن تَجعَلها في الأَقرَبينَ**».

فقال أَبو طَلحَةَ: أَفعَلُ يا رسولَ اللهِ.

فَقَسَمَها أَبو طَلحَةَ في أَقارِبِهِ، وبَني عَمِّهِ[1].

وعن أَبي عبدِ الرحمَنِ، أَنَّ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَ حوصِرَ أَشرَفَ عليهم، وقال: أَنشُدُكُمُ اللهَ، ولا أَنشُدُ إلا أَصحابَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أَلَستُم تَعلَمونَ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن حَفَرَ رومَةَ فله الجنةُ**»، فحَفَرتُها؟

أَلَستُم تَعلَمونَ أَنَّهُ قال: «**مَن جَهَّزَ جَيشَ العُسرَةِ فله الجنةُ**»، فجَهَّزتُهم؟

قال: فصَدَّقوهُ بما قال[2].

وعن ثُمامَةَ بن حَزنٍ القُشَيريِّ، قال: شَهِدتُ الدَّارَ حينَ أَشرَفَ عليهم عُثمانُ، فقال: ائتوني بصاحِبَيكُمُ اللذينِ أَلَّباكُم عَلَيَّ، قال: فجيءَ بهما فكَأَنَّهُما جَمَلانِ، قال: فأَشرَفَ عليهم عُثمانُ، فقال: أَنشُدُكُم باللهِ والإسلامِ، هَل تَعلَمونَ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدِمَ

---

(١) رواه البخاري (١٤٦١)، (٢٣١٨)، ومسلم (٩٩٨).

(٢) رواه البخاري معلقا مجزوما (٢٧٧٨)، ووصله الترمذي (٣٦٩٩)، وصححه، والنسائي (٣٦٠٩)، وصححه الألباني.

المَدينَةَ وليس بها ماءٌ يُستعذَبُ غيرَ بئرِ رومَةَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن يَشتَري بئرَ رومَةَ، فيَجعَل دَلوَهُ مع دِلاءِ المسلمينَ، بخَيرٍ له منها في الجنةِ؟**»، فاشتَرَيتُها من صُلب مالي، فأَنتُمُ اليَومَ تَمنَعوني أَن أَشرَبَ منها، حتى أَشرَبَ من ماءِ البَحرِ؟ قالوا: اللهُمَّ نَعَم.

فقال: أَنشُدُكُم باللهِ والإسلامِ، هَل تَعلَمونَ أَنَّ المسجدَ ضاقَ بأَهلِهِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن يَشتَري بُقعَةَ آلِ فُلانٍ، فيَزيدها في المسجدِ، بخَيرٍ له منها في الجنةِ؟**»، فاشتَرَيتُها من صُلب مالي، فأَنتُمُ اليَومَ تَمنَعوني أَن أُصَلِّيَ فيها رَكعَتَينِ؟ قالوا: اللهُمَّ نَعَم.

قال: أَنشُدُكُم باللهِ وبالإسلامِ، هَل تَعلَمونَ أَنِّي جَهَّزتُ جَيشَ العُسرَةِ من مالي؟ قالوا: اللهُمَّ نَعَم(١).

وكانت بئرُ رومَةَ ليَهوديٍّ يبيعُ المسلمينَ ماءَها، فقال رسول اللهِ ﷺ: «**مَن يَشتَري بئرَ رومَةَ، فيَجعَلَ دَلوَهُ مع دِلاءِ المسلمينَ، بخَيرٍ له منها في الجنةِ؟**».

فأتى عُثمانُ اليَهوديَّ فساوَمَه بها، فأبى أن يبيعَها كُلَّها، فاشتَرى نصفَها باثنَي عَشَرَ ألف دِرهَمٍ، فجعَله للمسلمينَ، فقال له عُثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن شِئتَ جَعَلتُ على نصيبي قَرنَينِ(٢)، وإن شِئتَ فلي يَومٌ، ولكَ يَومٌ، قال: بَل لكَ يَومٌ، ولي يَومٌ.

فكان إذا كان يَومُ عُثمانَ استَقى المسلمونَ ما يَكفيهم يَومَينِ، فلَمَّا رأى ذلك اليَهوديُّ قال: أفسَدتَ عَلَيَّ رَكيَّتي(٣)، فاشتَرِ النِّصفَ الآخَرَ، فاشتَراه بثَمانيةِ آلافِ دِرهَمٍ(٤).

وعن عبدِ الرحمَنِ بن سَمُرَةَ، قال: جاءَ عُثمانُ إلى النبيِّ ﷺ بأَلفِ دينارٍ، حينَ جَهَّزَ جَيشَ العُسرَةِ، فنثَرَها في حِجرِهِ، قال عبدُ الرحمَنِ: فرَأَيتُ النبيَّ ﷺ يُقَلِّبُها في حِجرِهِ ويقولُ: «**ما ضَرَّ عُثمانَ ما عَمِلَ بعدَ اليَومِ**»، مَرَّتَينِ(٥).

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٠٣)، وحسنه، والنسائي (٣٦٠٨)، وحسنه الألباني.

(٢) قرنا البئر: هما ما بني فعرض، فيجعل عليه الخشب، تعلق البكرة منه. لسان العرب (١٣/ ٣٣٢)

(٣) الركية: البئر.

(٤) الاستيعاب (٣/ ١٠٣٩) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٦/ ٤٩١).

(٥) رواه الترمذي (٣٧٠١)، وقال: «حسن غريب»، وحسنه الألباني.

وعَنِ ابنِ عباسٍ، قال: «قَحَطَ المَطَرُ على عَهدِ أَبي بكرٍ الصدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاجتَمع الناسُ إلى أَبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: السماءُ لَم تُمطِر، والأَرضُ لَم تَنبُت، والناسُ في شِدَّةٍ شَديدَةٍ، فقال أَبو بكرٍ الصدِّيقُ: انصَرِفوا واصبروا، فإنَّكُم لا تُمسونَ حتى يُفرِّجَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عنكُم.

فَما لَبثنا إلا قَليلًا، أَن جاءَ أُجراءُ عُثمانَ بن عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منَ الشَّامِ، فجاءَتهُ مئةُ راحِلَةٍ بُرًّا، فاجتَمع الناسُ إلى باب عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقَرَعوا عليه البابَ، فخرجَ إليهم عُثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مَلَأٍ منَ الناسِ، فقال: ما تَشاؤونَ؟ قالوا: الزَّمانُ قد قَحَطَ، السماءُ لا تُمطِرُ، والأَرضُ لا تَنبُتُ، والناسُ في شِدَّةٍ شَديدَةٍ، وقد بلغَنا أَنَّ عِندَكَ طَعامًا، فبعناهُ حتى توَسِّعَ على فُقَراءِ المسلمينَ.

فقال عُثمانُ: «فإنِّي أُشهِدُ اللهَ أَنِّي قد جَعَلتُ هذا الطعامَ صَدَقَةً على فُقَراءِ المسلمينَ»[1].

وعبدُ الرحمَنِ بن عَوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان فقيرًا لا مالَ له، ثمّ رَزقَهُ اللهُ، فصارَ ذا مالٍ ونِعمةٍ عظيمةٍ، فأنفَقَ ذلك في اللهِ، وأفرغَهُ إفراغًا.

قال الحافظُ الذَّهَبيُّ: «لَمَّا هاجَرَ إلى المَدينَةِ كان فقيرًا لا شيءَ له»[2].

وعن أُمِّ بكرٍ بنتِ المِسوَرِ، أَنَّ عبدَ الرحمَنِ بن عَوفٍ باعَ أَرضًا له من عُثمانَ بنِ عَفَّانَ بأَربَعينَ أَلفَ دينارٍ، فقَسَمَهُ في فُقَراءِ بَني زُهرَةَ، وفي المهاجِرينَ، وأُمَّهاتِ المؤمِنينَ، قال المِسوَرُ: فأَتَيتُ عائشةَ بنَصيبها، فقالت: مَن أَرسَلَ بهذا؟ فقُلتُ: عبدُ الرحمَنِ، قالت: أَما إنِّي سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقولُ: «**لا يَحنو عليكُنَّ بعدي إلا الصابرونَ**»، سَقى اللهُ عبدَ الرحمَنِ بن عَوفٍ من سَلسَبيلِ الجنةِ[3].

وعن سَعدِ بن الحَسَنِ التميميِّ، قال: «كان عبدُ الرحمَنِ بن عَوفٍ لا يُعرَفُ من بينِ عَبيدِهِ»، يَعني منَ التواضُعِ في الزِّيِّ[4].

---

(١) الشريعة للآجري (٤/ ٢٠١٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٩١).

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٤٧٢٤)، وحسنه محققو المسند.

(٤) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (١٤٤).

وقال الحافظُ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولَمَّا حَضَرَتهُ الوَفاةُ أوصى لِكُلِّ رجلٍ مِمَّن بَقيَ من أَهلِ بدرٍ بأَربَعِ مئةِ دينارٍ -وكانوا مئةً- فأَخَذوها، حتى عُثمانُ وعَليٌّ.

وأوصى لِكُلِّ امرَأَةٍ من أُمَّهاتِ المؤمِنينَ بمَبلَغٍ كَبيرٍ، حتى كانت عائشةُ تَقولُ: «سَقاهُ اللهُ منَ السلسَبيلِ».

وأَعتَقَ خَلقًا من مَماليكِهِ، ثم تَرَكَ بعدَ ذلك كُلِّهِ مالًا جَزيلًا، من ذلك ذَهَبٌ قُطِعَ بالفُؤوسِ، وتَرَكَ أَلفَ بَعيرٍ ومئةَ فرَسٍ، وثَلاثَةَ آلافِ شاةٍ تَرعى بالبَقيعِ، وكان نساؤُهُ أَربَعًا، فصولِحَت إحداهُنَّ من رُبعِ الثّمنِ بثَمانينَ أَلفًا»[1].

فبقوَّةِ الإيمانِ واليَقينِ، وتمامِ الرِّضا والتسليمِ، وبالجِهادِ في سبيلِ اللهِ حقَّ جِهادِه، والنفَقَةِ والبَذلِ والإيثارِ، والحُبِّ في اللهِ، والبُغضِ في اللهِ، والموالاةِ في اللهِ، والمعاداةِ في اللهِ، استطاعَ هَؤُلاءِ الذينَ كانوا بالأمسِ أحزابًا مُتَخالِفةً، وجماعاتٍ مُتنافِرةً، وقبائِلَ مُتطاحِنةً، وأعداءً مُتَحارِبةً، استَطاعوا أن يُسقِطوا عُروشَ أقوى دولَتَين في العالَمِ: فارِس والرُّوم، وأن تكونَ لهُم الغَلَبةُ والرِّفعةُ والتمكينُ في الأرضِ، بفَضلِ اللهِ ورحمَتِه ومِنَّتِه.

مواساة الصحابة أهل الصفة:

كان من صوَرِ المؤاخاةِ والتكافُلِ في المدينةِ: إيواءُ أهلِ الصفَّةِ.

فإنَّه لما ترَكَ المهاجِرونَ ديارَهم وأموالَهم، وهاجَروا إلى المَدينةِ، وكَثُرَ تَوافُدُهم عليها، وكان أهلُ مكةَ يَعتمِدون في مَعايِشِهم على التِّجارةِ، وكان أهلُ المَدينةِ أهلَ زِراعةٍ وحِرفَةٍ، فلما هاجَرَ المهاجِرونَ إلى المَدينةِ لم يَكُن بأيدي أكثَرِهم حِرفَةً يحتَرِفونَها، ولا كان لديهِم خبرةٌ بالزِّراعةِ، ولا مالَ لدَيهِم؛ إذ تَركوا أموالَهم بمكةَ، وهاجَروا في سبيلِ اللهِ.

واستَمَرَّ تدَفُّقُ المهاجِرينَ إلى المدينةِ، واستقرُّوا بها، وكثرتِ الوفودُ، ولم يَكُن لكثيرٍ منهم مَأوى، ولا مَعارِفُ أو أقارِبُ ينزِلون عليهم، فكان هَؤُلاءِ الغُرَباءُ بحاجَةٍ إلى مَأوى يأوون إليه.

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٢٥٥).

ولَمَّا تَمَّ تحويلُ القِبلَةِ من بيتِ المَقدِسِ إلى الكَعبَةِ بَقِيَ حائِطُ القِبلَة الأولى في مُؤَخّرِ المسجدِ النبَويّ، فأمَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به فظُلِّلَ، وأُطلِقَ عليه اسمُ «الصفَّةِ»، أو «الظُّلَّةِ».

فأوى كُلُّ مَن لا مَأوى لَه إلى هذه الصفَّةِ.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصفَّةَ: مَكانٌ في مُؤَخَّرِ المسجدِ النبَويِّ مُظَلَّلٌ، أُعِدَّ لِنُزولِ الغُرَباءِ فيه، مِمَّن لا مَأوى له ولا أَهلَ، وكانوا يَكثُرونَ فيه ويَقِلُّونَ، بحَسَب مَن يَتَزَوَّجُ منهم، أو يَموتُ، أو يُسافِرُ، وقد سَرَدَ أَسماءَهُم أَبو نُعَيمٍ في الحِليَةِ، فزادوا على المئةِ»[1].

و**قال النوَويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَصحابُ الصفَّةِ هُمُ الفُقَراءُ الغُرَباءُ الذينَ كانوا يَأوونَ إلى مسجدِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت لهم في آخِرِهِ صُفَّةٌ، وهو مَكانٌ مُنقَطِعٌ منَ المسجدِ، مُظَلَّلٌ عليه، يَبيتونَ فيه، قالهُ إبراهيمُ الحَربيُّ، والقاضي، وأَصلُهُ من صُفَّةِ البَيتِ، وهِيَ شيءٌ كالظُّلَّةِ قُدَّامَهُ»[2].

و**قال السمهوديُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصفَّةُ: ظُلَّةٌ كانت في مُؤَخَّرَ المسجِدِ، يأوي إليها المساكينُ على أشهَرِ الأقوالِ، وقال الحافظُ الذَّهَبيُّ: «كانتِ القِبلَةُ في شَماليِّ المسجدِ، فلَمَّا حوِّلَت بَقِيَ حائِطُ القِبلَةِ الأولى مكان أَهلِ الصفَّةِ»[3].

وكانتِ الصفَّةُ تتَّسِعُ لعدَدٍ كبيرٍ؛ فعَنِ الجَعدِ أَبي عُثمانَ، عن أَنَسِ بن مالِكٍ، قال: تَزَوَّجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدَخَلَ بأَهلِهِ، قال: فصَنَعَت أُمِّي أُمُّ سُلَيمٍ حَيسًا[4]، فجَعَلَتهُ في تَورٍ[5]، فقالت: يا أَنَسُ، اذهَب بهذا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُل: بَعَثَت بهذا إليك أُمِّي، وهي تُقرِئُكَ السلامَ، وتَقولُ: إنَّ هذا لك مِنَّا قَليلٌ يا رسولَ اللهِ.

قال: فذَهَبتُ بها إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُلتُ: إنَّ أُمِّي تُقرِئُكَ السلامَ، وتَقولُ:

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٩٥).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٤٧).

(٣) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (٢/ ٧٠).

(٤) الحيس: تمر وأقط وسمن، تخلط وتعجن وتسوى كالثريد.

(٥) التور: إناء.

إنَّ هذا لك مِنَّا قَليلٌ يا رسولَ اللهِ، فقال: «**ضَعهُ**»، ثم قال: «**اذهَب، فادعُ لي فُلانًا، وفُلانًا، وفُلانًا، ومَن لَقيتَ**»، وسَمَّى رِجالًا، قال: فدَعَوتُ مَن سَمَّى، ومَن لَقيتُ.

قال الجعدُ: قُلتُ لِأَنَسٍ: عَدَدَ كَم كانوا؟ قال: زُهاءَ ثَلاثِ مئةٍ.

وقال لي رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أَنَسُ، هاتِ التورَ**»، قال: فدَخَلوا حتى امتَلَأَتِ الصفَّةُ والحُجرَةُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليَتَحَلَّق عَشَرَةٌ عَشَرَةٌ، وليَأكُل كُلُّ إنسانٍ مِمَّا يَليهِ**».

قال: فأَكَلوا حتى شَبعوا، قال: فخرجَت طائِفَةٌ، ودَخَلَت طائِفَةٌ، حتى أَكَلوا كُلُّهُم، فقال لي: «**يا أَنَسُ، ارفَع**»، قال: فرَفَعتُ، فما أَدري حينَ وضَعتُ كان أَكثَرَ، أَم حينَ رَفَعتُ[1].

وكان أوَّلَ مَن نزلَ الصفَّةَ المهاجِرونَ، لِذلك نُسِبَت إليهِم فقيلَ: «صُفَّةُ المهاجِرينَ».

وكذلك كان ينزِلُ بها الغُرَباءُ منَ الوُفودِ التي كانت تَقدمُ على النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعلِنَةً إسلامَها وطاعَتَها، وكان الرجُلُ إذا قدِمَ على النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان لهُ عَريفٌ نزَلَ عليه، وإذا لم يَكُن له عَريفٌ نزَل مع أصحاب الصفَّةِ.

ولِأَنَّ أهلَ الصفَّةِ كانوا أخلاطًا من قبائِلَ شَتَّى سَمَّاهُمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الأوفاضَ».

فعن أَبي رافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا ولَدَت فاطِمَةُ حَسَنًا قال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احلِقي رَأسَهُ، ثم تَصَدَّقي بوَزنِ شَعرِهِ من فِضَّةٍ على المَساكينِ، أوِ الأوفاضِ**».

وكان الأوفاضُ ناسًا من أَصحاب رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحتاجينَ في المسجِدِ، أو في الصفَّةِ[2].

قال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأوفاضُ: الفِرَقُ والأخلاطُ منَ الناسِ، من وفَضَتِ الإبلُ، إذا تَفَرَّقَت»[3].

---

(١) رواه مسلم (١٤٢٨).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٧١٨٣)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٤/ ٤٠٣).

(٣) النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢١٠).

وكان النبيُّ ﷺ يتعَهَّدُ أهلَ الصفَّةِ، فيزورُهم، ويتَفَقَّدُ أحوالهم، ويعودُ مَرضاهُم، وكان يُكثِرُ من مُجالَستِهم، ويُرشِدُهُم، ويواسيهِم، ويُذَكِّرُهم، ويَحُثُّ أصحابَه على مواساتِهم، والتصَدُّقِ عليهم.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «كان أَهلُ الصفَّةِ أَضيافَ الإسلامِ، لا يَأوونَ إلى أَهلٍ، ولا مالٍ، ولا على أَحَدٍ»[١].

وعَنِ ابنِ سيرينَ، قال: «كان سَعدُ بن عُبادَةَ يَرجِعُ كُلَّ لَيلَةٍ إلى أَهلِهِ بثَمانينَ من أَهلِ الصفَّةِ يُعَشِّيهِم»[٢].

وعن واثِلَةَ بن الأَسقَعِ رضي الله عنه، **قال**: «حَضَرَ رَمَضانُ ونَحنُ في أَهلِ الصفَّةِ، فصُمنا، فكُنَّا إذا أَفطَرنا أَتى كُلُّ رجلٍ مِنَّا رجلًا من أَهلِ الصفَّةِ، فأَخَذَهُ فانطَلَقَ بهِ، فعَشَّاهُ»[٣].

ذِكرُ بعضِ ما وَرَدَ من الأحاديثِ في أهلِ الصفَّةِ:

عن ابنِ الأَسقَعِ، أنّ النبيَّ ﷺ جاءَهُم في صُفَّةِ المهاجِرينَ فسأله إنسانٌ: أَيُّ آيةٍ في القُرآنِ أَعظَمُ؟ قال النبيُّ ﷺ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥][٤].

وعن أَنَسِ بن مالِكٍ، قال: «جاءَ ناسٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: ابعَث معنا رِجالًا يُعَلِّمونا القُرآنَ والسُّنَّةَ، فبَعَثَ إليهم سَبعينَ رجلًا منَ الأَنصارِ، يُقالُ لهم: القُرَّاءُ، فيهم خالي حَرامٌ، يَقرَءونَ القُرآنَ، ويَتَدارَسونَ باللَّيلِ يَتَعَلَّمونَ، وكانوا بالنهارِ يَجيئونَ بالماءِ فيَضَعونَهُ في المسجدِ، ويَحتَطِبونَ فيَبيعونَهُ، ويَشتَرونَ بهِ الطعامَ لِأَهلِ الصفَّةِ وللفُقَراءِ...»، الحديث[٥].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٧٦).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ١٢٩).

(٤) رواه أبو داود (٤٠٠٣)، وصححه الألباني.

(٥) رواه مسلم (٦٧٧)، وهو في البخاري (٤٠٩٠) بمعناه، ولفظه: «أن رعلًا وذكوان وعصية وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بسبعين من الأنصار، كنا نسميهم القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل...».

وعن عبدِ الرحمَنِ بن أَبي بكرٍ، أَنَّ أَصحابَ الصفَّةِ كانوا أُناسًا فُقَراءَ، وأَنَّ النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**مَن كان عِندَهُ طَعامُ اثنَينِ فليَذهَب بثالِثٍ، وإن أَربَعٌ فخامِسٌ، أو سادِسٌ**»، وأَنَّ أَبا بكرٍ جاءَ بثَلاثَةٍ، فانطَلَقَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعَشَرَةٍ...، الحديث[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه كان يقولُ: أَللهِ الذي لا إلَهَ إلا هوَ[2]، إن كُنتُ لَأَعتَمِدُ بكَبدي على الأَرضِ منَ الجوعِ، وإن كُنتُ لَأَشُدُّ الحَجَرَ على بَطني منَ الجوعِ، ولَقد قَعَدتُ يَومًا على طَريقِهِمُ الذي يَخرُجونَ منه، فمَرَّ أَبو بكرٍ، فسألتُهُ عن آيةٍ من كِتاب اللهِ، ما سألتُهُ إلا ليُشبعَني، فمَرَّ ولَم يَفعَل، ثم مَرَّ بي عمرُ، فسألتُهُ عن آيةٍ من كِتاب اللهِ، ما سألتُهُ إلا ليُشبعَني، فمَرَّ فلم يَفعَل، ثم مَرَّ بي أَبو القاسِمِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فتَبَسَّمَ حينَ رَآني، وعَرَفَ ما في نَفسي وما في وجهي، ثم قال: «**يا أَبا هِرٍّ**»، قُلتُ: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**الحق**»، ومَضى، فتَبعتُهُ، فدَخَلَ فاستَأذَنَ، فأَذِنَ لي، فدَخَلَ، فوَجَدَ لَبَنًا في قدَحٍ، فقال: «**من أَينَ هذا اللَّبَنُ؟**»، قالوا: أَهداهُ لك فُلانٌ، أو فُلانَةُ، قال: «**أَبا هِرٍّ**»، قُلتُ: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**الحق إلى أَهلِ الصفَّةِ، فادعُهُم لي**».

قال: وأَهلُ الصفَّةِ أَضيافُ الإسلامِ، لا يَأوونَ إلى أَهلٍ ولا مالٍ ولا على أَحَدٍ، إذا أَتَتهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بها إليهم، ولَم يَتَناوَل منها شَيئًا، وإذا أَتَتهُ هَديَّةٌ أَرسَلَ إليهم، وأَصابَ منها، وأَشرَكَهُم فيها.

فَساءَني ذلك، فقُلتُ: وما هذا اللَّبَنُ في أَهلِ الصفَّةِ؟ كُنتُ أَحقّ أَنا أَن أُصيبَ من هذا اللَّبَنِ شَربَةً أَتَقَوَّى بها، فإذا جاءَ أَمَرَني، فكُنتُ أَنا أُعطيهِم، وما عَسى أَن يَبلُغَني من هذا اللَّبَنِ؟

ولَم يَكُن من طاعَةِ اللهِ وطاعَةِ رسولِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بُدٌّ، فأَتَيتُهُم فدَعَوتُهُم، فأَقبَلوا

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢)، ومسلم (٢٠٥٧).

(٢) قال الحافظ في الفتح (١١/ ٢٨٤): «قوله: «الله الذي لا إله إلا هو» كذا للأكثر، بحذف حرف الجر من القسم، وهو في روايتنا بالخفض، وحكى بعضهم جواز النصب، وقال ابن التين: «رويناه بالنصب»، وقال ابن جني: «إذا حذف حرف القسم نصب الاسم بعده بتقدير الفعل، ومن العرب من يجر اسم الله وحده مع حذف حرف الجر، فيقول: «الله لأقومن»؛ وذلك لكثرة ما يستعملونه»، قلت: وثبت في رواية روح ويونس بن بكير وغيرهما بالواو في أوله، فتعين الجر فيه».

فاستَأذَنوا فأَذِنَ لهم، وأَخَذوا مَجالِسَهُم منَ البَيتِ، قال: «**يا أَبا هِرٍّ**»، قُلتُ: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**خُذ فأَعطِهِم**».

قال: فأَخَذتُ القدَحَ، فجَعَلتُ أُعطيهِ الرجُلَ فيَشرَبُ حتى يَروى، ثم يَرُدُّ عَلَيَّ القدَحَ، فأُعطيهِ الرجُلَ فيَشرَبُ حتى يَروى، ثم يَرُدُّ عَلَيَّ القدَحَ، فيَشرَبُ حتى يَروى، ثم يَرُدُّ عَلَيَّ القدَحَ، حتى انتَهَيتُ إلى النبيِّ ﷺ وقد رَوِيَ القَومُ كُلُّهُم، فأَخَذَ القدَحَ فوَضَعَهُ على يَدِهِ، فنَظَرَ إلَيَّ فتبَسَّمَ، فقال: «**أَبا هِرٍّ**»، قُلتُ: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**بَقيتُ أَنا وأَنتَ**»، قُلتُ: صَدَقتَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**اقعُد فاشرَب**»، فقَعَدتُ فشَرِبتُ، فقال: «**اشرَب**»، فشَرِبتُ، فما زالَ يقولُ: «**اشرَب**»، حتى قُلتُ: لا والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما أَجِدُ له مَسلَكًا، قال: «**فأَرِني**»، فأَعطَيتُهُ القدَحَ، فحَمِدَ اللهَ، وسَمَّى، وشَرِبَ الفَضلَةَ[1].

وعن طَلحَةَ بن عَمرٍو رضي الله عنه، قال: أَتَيتُ المَدينَةَ وليس لي بها مَعرِفَةٌ، فنزلتُ في الصفَّةِ مع رجلٍ، فكان بيني وبينَهُ كُلَّ يَومٍ مُدٌّ من تَمرٍ، فصَلَّى رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَومٍ، فلما انصَرَفَ قال رجلٌ من أَصحابِ الصفَّةِ: يا رسولَ اللهِ، أَحرَقَ بُطونَنا التمرُ، وتَخَرَّقَت عَنَّا الخُنُفُ[2]، فصَعِدَ رسولُ اللهِ ﷺ، فخَطَبَ ثم قال: «**واللهِ لَو أَجِدُ لَكُمُ اللَّحمَ والخُبزَ لَأَطعَمتُكُموهُ، ولَيَأتيَنَّ عليكُم زَمانٌ يُغدى على أَحَدِكُم بالجِفانِ، ويُراحُ، ولَتَلبَسُنَّ مِثلَ أَستارِ الكَعبَةِ**».

قالوا: يا رسولَ اللهِ، نَحنُ اليَومَ خَيرٌ مِنَّا، أو يَومَئِذٍ؟

قال: «أَنتُمُ اليَومَ خَيرٌ منكُم يَومَئِذٍ، أَنتُمُ اليَومَ خَيرٌ منكُم يَومَئِذٍ»[3].

وعندَ الحاكمِ: «بَل أَنتُمُ اليَومَ خَيرٌ، أَنتُمُ اليَومَ مُتَحابُّونَ، وأَنتُم يَومَئِذٍ مُتَباغِضونَ».

وعِندَ ابنِ حِبَّان: «كان الرجُلُ إذا قدِمَ المَدينَةَ فكان له بها عَريفٌ نزلَ على عَريفِهِ، فإن لَم يَكُن له بها عريف نزلَ الصفَّةَ، قال: فكُنتُ فيمَن نزلَ الصفَّةَ...»، وذكَرَ الحديثَ.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥٢).

(٢) نوع غليظ من أردأ الكتان.

(٣) رواه الإمام أحمد (١٥٩٨٨)، وابنه في زوائد الزهد (ص٢٤)، وابن حبان (٦٦٨٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٤٣٤)، والحاكم (٤٢٩٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وكذا صححه محققو المسند، وينظر: الصحيحة (٢٤٨٦).

وعن واثِلَةَ بن الأَسقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا أَصحابَ الصفَّةِ في مسجدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما فينا رجلٌ له ثَوبٌ، ولَقدِ اتَّخَذَ العَرَقُ في جُلودِنا طُرُقًا منَ الغُبارِ، إذ خرجَ علينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**ليبشر فُقَراءُ المهاجِرينَ**»، ثَلاثًا[١].

وقال الحَسَنُ البَصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بُنيَت صُفَّةٌ لِضُعَفاءِ المسلمينَ، فجَعَلَ المسلمونَ يوغِلونَ إلَيها ما استَطاعوا من خَيرٍ»[٢].

وقال أبو نُعَيمٍ الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان عَدَدُ قاطِني الصفَّةِ يَختَلِفُ على حَسَبِ اختِلافِ الأوقاتِ والأَحوالِ، فرُبَّما تفرّقَ عنها، وانتَقَصَ طارِقوها منَ الغُرَباءِ والقادِمينَ، فيَقِلُّ عَدَدُهُم، ورُبَّما يَجتَمِعُ فيها وارِدوها منَ الوُرَّادِ والوُفودِ، فيَنضَمُّ إليهم فيَكثُرونَ، غيرَ أَنَّ الظَّاهِرَ من أَحوالِهم، والمَشهورَ من أَخبارِهِم، غَلَبَةُ الفَقرِ عليهم، وإيثارُهُمُ القِلَّةَ، واختيارُهُم لها»[٣].

وكان هذا نموذجًا مُتكامِلًا يُبَرهِنُ على كَمالِ المَحَبَّة، وحُسنِ المواساةِ، وكَرَمِ الصحبَةِ، وصِدقِ اليَقينِ، وصِحَّةِ الإيمانِ، وحُسنِ التوَكُّلِ على اللهِ، وحُسنِ الظَّنِّ به.

كما أَنَّه نموذجُ القُدوَةِ التي تُمتَثَلُ للتَّأَسِّي، ومَعلَمٌ من مَعالِمِ الإيمانِ الذي يُتَعَرَّفُ به على فضلِ الصحابَةِ، وكمالِ إخلاصِهِم للدِّين، ومَحَبَّتِهم لإخوانِهِمُ المسلمينَ.

ومَنِ اقتَدى بِهِم صَحَّ ولاؤُه، وبَرهَنَ على صِدقِ يقينِه، وصِحَّةِ إيمانِه.

والمؤمِنون إخوَةٌ مُتَآلِفون مُتَوادُّونَ، يوالي بعضُهُم بعضًا، ويُحِبُّ بعضُهُم بعضًا، ومَحَبَّةُ بعضِهِم بعضًا بُرهانُ الإيمانِ، كما قال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَدخُلونَ الجنةَ حتى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنوا حتى تَحابُّوا**»[٤].

---

(١) المعجم الكبير (٢٢/ ٧٠)، حلية الأولياء (٢/ ٢٢)، تاريخ دمشق (٦٢/ ٣٥٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٤٢٦).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٤٠).

(٣) المصدر السابق (١/ ٣٤٠).

(٤) رواه مسلم (٥٤).

قال النوَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَعناهُ: لا يَكمُلُ إيمانُكُم، ولا يَصلُحُ حالُكُم في الإيمانِ، إلا بالتحابِّ»[1].



(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٦).

٣

الخُصومةُ بينَ العُمرَينِ

الخُصومةُ بينَ العُمرَينِ

عن أَبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنتُ جالِسًا عِندَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ أَقبَلَ أَبو بكرٍ آخِذًا بطَرَفِ ثَوبِهِ، حتى أَبدى عن رُكبَتِهِ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَّا صاحِبُكُم، فقد غامَرَ**»، فسَلَّمَ وقال:

إنِّي كان بيني وبينَ ابنِ الخَطَّاب شيءٌ، فأَسرَعتُ إليه ثم نَدِمتُ، فسألتُهُ أَن يَغفِرَ لي فأَبى عَلَيَّ، فأَقبَلتُ إليك، فقال: «**يَغفِرُ اللهُ لك يا أَبا بكرٍ**»، ثَلاثًا.

ثم إنَّ عمرَ نَدِمَ، فأَتى مَنزِلَ أَبي بكرٍ، فسأَلَ: أَثَمَّ أَبو بكرٍ؟ فقالوا: لا، فأَتى إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسَلَّمَ، فجَعَلَ وجهُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَعَّرُ، حتى أَشفَقَ أَبو بكرٍ، فجَثا على رُكبَتَيهِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، واللهِ أَنا كُنتُ أَظلَمَ -مَرَّتَينِ-، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ بَعَثَني إلَيكُم فقُلتُم: كَذَبتَ، وقال أَبو بكرٍ: صَدَقَ، وواساني بنَفسِهِ ومالِهِ، فهَل أَنتُم تارِكو لي صاحِبي؟**» -مرتين-، فما أُوذيَ بعدَها[1].

وقال ابنُ شاهينَ عَقِبَ روايَتِهَ لِهذا الحَديثِ: «تَفَرَّدَ أَبو بكرٍ الصدِّيقُ بهذه الفَضيلَةِ، لَم يُشرِكهُ فيها أَحَدٌ».

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦١)، (٤٦٤٠)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢٩٧)، والبيهقي في السنن (٢١٠٩٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٢٣)، والبزار في مسنده (٤١٢٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤/ ٤١٠)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٤٤٨)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٠٣)، وفي الفضائل (٣٩)، وابن شاهين في شرح مذاهب أهل السنة (ص١٤٦)، وتمام في الفوائد (٤٥٢)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٤٤٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ١٠٧)، والأصبهاني في الحجة (٢/ ٣٤٦)، وأبوالبركات النيسابوري في الأربعين (١٥)، والبجيري في مستخرجه (٢٣٩).

تَرجَمَة أَبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو عوَيمِرُ بن مالِكٍ، وقيلَ: بن عامِرٍ، وقيلَ: بن ثَعلَبَةَ، وقيلَ: بن عبدِ اللهِ، وقيلَ: بن زَيدِ، بن قَيسِ بن أُمَيَّةَ بن عامِرِ بن عَديِّ بن كَعب بن الخَزرَجِ، الأنصاريُّ، أبو الدَّرداءِ، الخَزرَجيُّ.

وقال عَمرو بن عَليٍّ: سَألتُ رجُلًا من ولَدِه، فقال: «اسمُه عامِرُ بن مالِكٍ، وعوَيمِرٌ لَقَبٌ».

وأُمُّه: مُحبَّةُ بنتُ واقِدِ بن عَمرِو بن الإطنابَة بن عامِرِ بن زَيدِ مَناةَ.

وقيلَ: أُمُّهُ واقِدَةُ بنتُ واقِدِ بن عَمرِو بن الإطنابَة.

رَوى عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزَيدِ بن ثابتٍ، وعائشةَ.

رَوى عنه أَنَسُ بن مالِكٍ، وفَضالَةُ بن عُبَيدٍ، وابنُ عباسٍ، وأَبو أُمامَةَ، وعبدُ اللهِ بنُ عَمرٍو، وغيرُهُم من جِلَّةِ الصحابَةِ، وجُبَيرُ بن نُفَيرٍ، وزَيدُ بن وهبٍ، وأَبو إدريسَ الخَولانيُّ، وعَلقَمَةُ بن قَيسٍ، وقَبيصَةُ بن ذُؤَيبٍ، وزَوجَتُهُ أُمُّ الدَّرداءِ العالِمَةُ، وابنُهُ بلالُ بن أَبي الدَّرداءِ، وسَعيدُ بن المسَيِّب، وعَطاءُ بن يَسارٍ، ومَعدانُ بن أَبي طَلحَةَ، وأَبو عبدِ الرحمَنِ السُّلَميُّ، وخالِدُ بن مَعدانَ، وآخَرونَ.

عن خَيثَمَةَ، قال: قال أَبو الدَّرداءِ: «كُنتُ تاجِرًا قَبلَ المَبعَثِ، فلما جاءَ الإسلامُ جَمَعتُ التِّجارَةَ والعِبادَةَ، فلم يَجتَمِعا، فتَرَكتُ التِّجارَةَ، ولَزِمتُ العِبادَةَ».

قال الحافظُ الذَّهَبيُّ: «الأَفضَلُ جَمعُ الأَمرَينِ مع الجِهادِ، وهذا الذي قالهُ هو طَريقُ جَماعَةٍ منَ السلَفِ والصوفيَّةِ، ولا رَيبَ أَنَّ أَمزِجَةَ الناسِ تختلفُ في ذلك، فبعضهم يَقوى على الجَمعِ كالصدِّيقِ، وعبدِ الرحمَنِ بن عَوفٍ، وكَما كان ابنُ المبارَكِ، وبعضهم يَعجزُ ويَقتَصِرُ على العِبادَةِ، وبعضهم يَقوى في بدايَتِهِ، ثم يَعجِزُ، وبالعَكسِ، وكُلٌّ سائِغٌ، ولكن لا بُدَّ منَ النهضَةِ بحُقوقِ الزَّوجَةِ والعيالِ».

وقال سَعيدُ بن عبدِ العَزيزِ: «أَسلَمَ أَبو الدَّرداءِ يَومَ بَدرٍ، ثم شَهِدَ أُحُدًا، وأَمَرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ يَومَئِذٍ أَن يَرُدَّ مَن على الجَبَلِ، فرَدَّهُم وحدَهُ، وكان قد تَأَخَّرَ إسلامُهُ قَليلًا».

وعن مَكحولٍ، قال: كان أَصحابُ النبيِّ ﷺ يقولون: «أَتبَعُنا للعِلمِ والعمَلِ أَبو الدَّرداءِ، وأعلمُنا بالحلالِ والحرامِ مُعاذ».

وقال ابنُ إسحاقَ: كان الصحابَةُ يقولونَ: «أَتبَعُنا للعِلمِ والعَمَلِ أَبو الدَّرداءِ».

وقال معاذ رضي الله عنه: «التَمِسوا العِلمَ عِندَ أَربَعَةٍ: عِندَ عوَيمِرٍ أَبي الدَّرداءِ، وسَلمانَ، وابنِ مَسعودٍ، وعبدِ اللهِ بن سَلامٍ، الذي كان يَهوديًّا فأَسلَمَ».

وقال حَسَّانُ بن عَطيَّةَ: قال أَبو الدَّرداءِ: «لَو أُنسيتُ آيةً لَم أَجِد أَحَدًا يُذَكِّرُنيها إلا رجلًا ببَركِ الغِمادِ[1]، رَحَلتُ إليه».

وعن مَسروقٍ، قال: «وجَدتُ عِلمَ الصحابَةِ انتَهى إلى سِتَّةٍ: عمرَ، وعَلِيٍّ، وأُبَيٍّ، وزَيدٍ، وأَبي الدَّرداءِ، وابنِ مَسعودٍ، ثم انتَهى عِلمُهُم إلى: عَلِيٍّ، وعبدِ اللهِ».

وقال خالِدُ بن مَعدانَ: كان ابنُ عمرَ يقولُ: «حَدِّثونا عَنِ العاقِلَينِ»، فيُقالُ: مَنِ العاقِلانِ؟ فيقولُ: «مُعاذٌ، وأَبو الدَّرداءِ».

وصَحَّ عن عَونِ بن عبدِ اللهِ، قال: قُلتُ لأُمِّ الدَّرداءِ: أَيُّ عِبادَةِ أَبي الدَّرداءِ كانت أَكثَرَ؟ قالت: «التفَكُّرُ والاعتِبارُ»[2].

وصَحَّ عن جُبَيرِ بن نُفَيرٍ، قال: لَمَّا فُتِحَت قُبرُصُ فُرِّقَ بينَ أَهلِها، فبَكى بعضهم إلى بعضٍ، ورَأَيتُ أَبا الدَّرداءِ جالِسًا وحدَهُ يَبكي، فقُلتُ: يا أَبا الدَّرداءِ، ما يُبكيكَ في يَومٍ

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (١/ ١٢١): «تفتح الباء وتكسر، وتضم الغين وتكسر، وهو اسم موضع باليمن، وقيل: هو موضع وراء مكة بخمس ليال».

(٢) رواه النسائي في الكبرى (١١٨٥٠)، وابن المبارك في الزهد (٢٨٦)، ووكيع في الزهد (٢٢٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣٠٠).

أَعَزَّ اللهُ فيه الإسلامَ وأَهله؟! قال: «ويحَكَ يا جُبَيرُ! ما أَهوَنَ الخَلقِ على اللهِ إذا هُم تَرَكوا أَمرَهُ، بينا هي أُمَّةٌ قاهِرَةٌ ظاهِرَةٌ لهمُ الملكُ، تَرَكوا أَمرَ اللهِ، فصاروا إلى ما تَرى»[1].

وقال سعيدُ بن عبدِ العَزيزِ: «ماتَ أَبو الدَّرداءِ وكعبُ الأحبارِ في خلافَةِ عُثمانَ، لسَنَتَينِ بَقيَتا من خِلافَتِهِ».

وقال الواقِديُّ وغيرُ واحدٍ: «ماتَ سنةَ اثنَتَينِ وثَلاثينَ».

وقال عمرو بن عَليٍّ عن بعضِ ولَدِه: «ماتَ قَبلَ عثمانَ بسنةٍ»[2]، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شرح الحديث:

عن أَبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كُنتُ جالِسًا عِندَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»:

وهذا دَأبُ أكابرِ الصحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يلزَمونَ مجالِسَ رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتعَلَّمون العِلمَ، وينشُرونَه في الناسِ، وكان أَبو الدَّرداءِ من رُؤوسِ أهلِ العِلمِ، الذينَ جَمَعوا بينَ العِلمِ والعَمَلِ، وتَقدَّمَ قَولُ مَكحولٍ: كان أَصحابُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: «أَتبَعُنا للعِلمِ والعَمَلِ أَبو الدَّرداءِ».

قَولُهُ: «إذ أَقبَلَ أَبو بكرٍ، آخِذًا بطَرَفِ ثَوبِهِ، حتى أَبدى عن رُكبَتِهِ»:

وللطَّحاويّ والبَيهَقيّ في السُّنَنِ: «حتى أَبدى عن رُكبَتَيهِ».

وفيه دَليلٌ على أن الركبتَين ليستا منَ العَورةِ.

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في عَورَةِ الرجُلِ خَمسَةُ أوجُهٍ، الصحيحُ المَنصوصُ: أَنَّها ما بينَ السُّرَّةِ والرُّكبَةِ، وليستِ السُّرَّةُ والرُّكبَةُ منَ العَورَةِ.

دَليلُنا: ما سَبَقَ عن أَبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كُنتُ جالِسًا عِندَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ

---

(١) رواه أحمد في الزهد (٧٦٣)، وسعيد بن منصور في سننه (٢٦٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٦).

(٢) ينظر: التاريخ الكبير (٧/ ٧٦)، الاستيعاب (٣/ ١٢٢٧-١٢٣٠)، تاريخ دمشق (٤٧/ ٩٣-٢٠١)، أسد الغابة (٤/ ٣٠٦)، تهذيب التهذيب (٨/ ١٧٥-١٧٦)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٣٥-٣٥٣).

أَقبَلَ أَبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، آخِذًا بطَرَفِ ثَوبِهِ، حتى أَبدى عن رُكبَتِهِ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَّا صاحِبُكُم فقد غامَرَ**»...، فذكرَ الحَديثَ»[١].

قَولُهُ: «فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا صاحِبُكُم فقد غامَرَ»:

قال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي خاصَمَ غيرَهُ، ومَعناهُ: دَخَل في غَمرَةِ الخُصومَةِ، وهي مُعظَمُها، والمغامِرُ: الذي يَرمي بنَفسِهِ في الأُمورِ المهلكَةِ.

وقيلَ: هو منَ الغِمر، بالكَسرِ، وهو الحِقد، أَي: حاقدَ غيرَهُ.

ومنه حَديثُ غَزوَةِ خَيبَرَ: «شاكي السِّلاح بَطَلٌ مُغامِرٌ»[٢]. أَي: مُخاصِمٌ، أو مُحاقِدٌ[٣].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَولُهُ: «**فقد غامَرَ**»، أَي: خاصَمَ، والمعنى: دَخَلَ في غَمرَةِ الخُصومَةِ.

وقيلَ: هو منَ الغِمرِ، وهو الحِقدُ، أَي: صَنَعَ أَمرًا اقتَضى له أَن يَحقِدَ على مَن صَنَعَهُ معه، ويَحقِد الآخَرُ عليه.

ووَقَعَ في تَفسيرِ الأَعرافِ في روايةِ أَبي ذَرٍّ وحدَهُ: «قال أَبو عبدِ اللهِ -هو المصنفُ[٤]- غامَرَ، أَي: سَبَقَ بالخَيرِ».

وذكرَ عياضٌ أَنَّهُ في روايةِ المستَملي وحدَهُ عَن أبي ذَرّ، وهو تفسيرٌ مُستَغرَبٌ، والأَوَّلُ أَظهَرُ، وقد عَزاهُ المحِبُّ الطبري لِأَبي عُبَيدَةَ بن المثَنَّى أَيضًا، فهو سَلَفُ البخاريِّ فيه»[٥].

وقال ابنُ قُرقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فقد غامَرَ**»: فسَّرَه المستملي عنِ البخاريّ: «أَي: سَبَقَ بالخَيرِ».

وقال الشَّيبانيُّ: «المغامَرَةُ: المعاجَلَةُ»، ومَعناهُ قَريبٌ من هذا، أَي: سارَعَ وقد غاضَبَ، وهو فاعِلٌ منَ الغِمرِ وهو الحِقدُ، وقال الخَطَّابيُّ: «مَعناهُ: خاصَمَ، فدَخَلَ في غَمَراتِ الخُصومَةِ»[٦].

---

(١) المجموع شرح المهذب (٣/ ١٦٨-١٧٠)، باختصار.

(٢) رواه مسلم (١٨٠٧).

(٣) النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٨٤).

(٤) يعني: البخاري.

(٥) فتح الباري (٧/ ٢٥).

(٦) مطالع الأنوار (٥/ ١٥٢).

وقال **العَينيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «غامَرَ»، بالغَينِ المعجَمَة، من باب المفاعَلَةِ، أَي: سَبَقَ بالخَيرِ، أو: وقَع في أَمرٍ، أو: زاحَمَ وخاصَمَ، والمغامِرُ الذي يَرمي نَفسَه في الأُمور المهلكَة، وقيلَ: هو من الغِمر -بالكَسرِ-، وهو الحِقدُ، الذي حاقدَ غيرَهُ»[1].

وقال **ابنُ عبدِ الدَّائِمِ العَسقَلانيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المغامِرُ: الذي يُدخِلُ نفسَه في غَمرةِ الخُصومةِ، وهي مُعظَمُها، وقيلَ: إنَّه منَ الغِمر -بالكَسرِ-، وهو الحِقدُ»[2].

قَولُهُ: «فسَلَّمَ»:

أَي: سَلَّمَ على النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى مَن معه في مَجلِسِه.

قال الحافظُ: «ولَم يَقَع في الحَديثِ ذِكرُ الردِّ، وهو مِمَّا يُحذَفُ للعلم بهِ»[3].

يَعني: وقَعَ رَدُّ السلامِ عليه، فأُهمِلَ ذِكرُه في الرِّوايةِ؛ لِأَنَّهُ مَعلومٌ بالقَطعِ، فحُذِفَ اختِصارًا.

قَولُهُ: «إنِّي كان بيني وبينَ ابنِ الخَطَّاب شيءٌ، فأَسرَعتُ إليه، ثم نَدِمتُ، فسألتُهُ أَن يَغفِرَ لي، فأَبى عَلَيَّ»:

وللبخاريّ أَيضًا: «كانت بينَ أَبي بكرٍ وعمرَ مُحاوَرَةٌ، فأَغضَبَ أَبو بكرٍ عمرَ، فانصَرَفَ عنه عمرُ مُغضَبًا، فاتَّبَعَهُ أَبو بكرٍ يَسأَلُهُ أَن يَستَغفِرَ له، فلم يَفعَل، حتى أَغلَقَ بابَهُ في وجهِهِ».

وعِندَ البَزَّارِ: «إنَّهُ كان بيني وبينَ عمر شيءٌ، فأَسرَعتُ إليه، ثم إنِّي نَدِمتُ على ما كان، فسألتُهُ أَن يَغفِرَ لي فأَبى، فتبعتُهُ إلى البَقيعِ، حتى تَحرّزَ بدارِهِ مِنِّي».

وعِندَ البَيهَقيّ: «وتَحَرَّزَ مِنِّي بدارِهِ».

ولابنِ شاهينَ: «سألتُهُ أَن يَغفِرَ لي، فأَبى عَلَيَّ، فتَتَبَّعتُهُ التتبُّعَ كُلَّهُ، حتى تَحرّزَ مِنِّي».

---

(١) عمدة القاري (١٨/ ٢٤١).

(٢) اللامع الصبيح (١٢/ ١٣٤).

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٥).

وفي حَديثِ أبي أُمامَةَ عِندَ ابنِ عساكِر في تاريخِه، قال: «كان بينَ أَبي بكرٍ وعمرَ مُعاتَبَةٌ، فاعتَذَرَ أَبو بكرٍ إلى عمرَ، فلَم يَقبَل منه»[١].

قَولُهُ: «فأَقبَلتُ إليك»:

لَمَّا لَم يَقبَلِ اعتِذارَه، واهتَمّ لِذلك، أقبَلَ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيه: الفَزَعُ إلى أهلِ العلمِ في المهِمَّاتِ.

قال ابنُ القَيِّمِ عن شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُما اللهُ: «كُنَّا إذا اشتَدَّ بنا الخَوفُ وساءَت مِنَّا الظُّنونُ وضاقَت بنا الأرضُ أَتَيناه، فما هو إلا أن نراهُ ونَسمعُ كلامَه، فيَذهَبُ ذلك كُلُّه، ويَنقَلِبُ انشِراحًا، وقوَّةً، ويَقينًا، وطمَأنينَةً»[٢].

قَولُهُ: «يَغفِرُ اللهُ لك يا أَبا بكرٍ»، ثَلاثًا.

أَي: أَعادَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الكَلِمَةَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ.

قَولُهُ: «ثم إنَّ عمرَ نَدِمَ، فأَتى مَنزِلَ أَبي بكرٍ، فسأَلَ: أَثَمَّ أَبو بكرٍ؟ فقالوا: لا»:

وعِندَ أَحمَدَ في الفضائِلِ: «ثم إنَّ عمرَ نَدِمَ حينَ سأله أَبو بكرٍ أَن يَغفِرَ له فأَبى عليه، ثم خرجَ من مَنزِلِهِ حتى أَتى مَنزِلَ أَبي بكرٍ، فسأَلَ: هَل ثَمَّ أَبو بكرٍ؟ فقالوا: لا، فعَلِمَ أَنَّهُ عِندَ رسولِ اللهِ».

«أَثَمَّ أَبو بكرٍ؟»:

قال العَينيُّ: «أَثَمَّ؟»، بفَتحِ الثَّاءِ المثَلَّثَة، وتشديدِ الميمِ، وهو اسمٌ يُشارُ بهِ إلى المَكانِ البعيدِ»[٣].

وقال الأزهَريُّ: «ثَمَّ»، بفَتحِ الثَّاءِ: إشارَةٌ إلى المَكانِ»[٤].

---

(١) تاريخ دمشق (٣٠/ ١٠٧)، وسنده ضعيف جدًا.

(٢) الوابل الصيب (ص٤٨).

(٣) عمدة القاري (٢/ ١٠٤).

(٤) تهذيب اللغة (١٥/ ٥٣).

والمعنى: أهُنا أَبو بكرٍ؟[١]

قَولُهُ: «فأَتى إلى النبيِّ ﷺ فسَلَّمَ، فجَعَلَ وجهُ النبيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ»:

قال ابنُ الأثيرِ: «تَمَعَّرَ وجهُهُ»، أَي: تَغَيَّر، وأصلُه قِلّةُ النضارةِ، وعَدمُ إشراقِ اللَّونِ، من قَولِهم: مكانٌ أَمعَرُ، وهو الجَدبُ الذي لا خصبَ فيه»[٢].

قال الحافظُ: «وفي بعضِ النُّسَخِ: «يَتَمَغَّرُ»، بالغَينِ المعجَمَةِ، أَي: يَحمَرُّ منَ الغَضَب، فصارَ كالذي صُبِغَ بالمَغرَةِ»[٣].

وفي حَديثِ أبي أُمامَةَ الضَّعيفِ عِندَ ابنِ عساكِر: «فاعتَذَر أَبو بكرٍ إلى عمَرَ، فلَم يقبَل منه، فبلَغ ذلك رسولَ اللهِ ﷺ فاشتَدَّ عليه، ثم راحَ إليه عمرُ فجلَس فأعرَضَ عنهُ، ثم تَحَوَّل فجَلَس إلى الجانِبِ الآخَر فأعرضَ عنه، ثم قامَ فجلَس بينَ يدَيهِ فأعرَضَ عنه، فقال: يا رسولَ اللهِ، قد أرى إعراضَكَ عَنِّي، ولا أرى ذلك إلا لشيءٍ بلَغَك، فما خَيرُ حياتي وأنتَ مُعرِضٌ عَنِّي، واللهِ ما أُبالي أن لا أعيشَ في الدُّنيا ساعَةً وأنتَ مُعرِضٌ عنِّي، فقال: **«أَنتَ الذي اعتَذَرَ إليك أَبو بكرٍ، فلم تَقبَل منه؟»**[٤].

وعِندَ الطبَرانيّ بسَنَدٍ واهٍ من حديثِ ابنِ عمرَ: «يَسأَلُكَ أَخوكَ أَن تَستَغفِرَ له، فلا تَفعَلُ؟»، فقال: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ نبيًّا ما من مَرَّةٍ يَسأَلُني إلا وأَنا أَستَغفِرُ له، وما من خَلقِ اللهِ بعدَكَ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ منه، فقال أَبو بكرٍ: وأَنا والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما من أَحَدٍ بعدَكَ أَحَبُّ إِلَيَّ منه[٥].

قَولُهُ: «حتى أَشفَقَ أَبو بكرٍ، فجَثا على رُكبَتَيهِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، واللهِ أَنا كُنتُ أَظلَمَ»، مَرَّتَينِ:

---

(١) عمدة القاري (١٦/ ١٨٠).

(٢) النهاية (٤/ ٣٤٢).

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٥)

(٤) تاريخ دمشق (٣٠/ ١٠٧).

(٥) المعجم الكبير (١٢/ ٣٧٢). وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال أبو بكر رضي الله عنه يومًا: «والله ما على وجه الأرض رجل أحب إلي من عمر»، فلما خرج رجع فقال: كيف حلفت أي بنية؟ فقلت له، فقال: «أعز علي، والولد ألوط». رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٤)، وحسنه الألباني، و«ألوط»: ألصق بالقلب.

قال العَينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فجَثا على رُكبَتَيهِ**»، أَي: بَرَكَ على رُكبَتَيهِ»[١].

وقال الخَليلُ بن أحمَدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العَرَبُ لا تَستَعمِلُ الجُثُوَّ إلا في عَمَلِ الإنسانِ، إذا جَثا على رُكبَتَيهِ للخُصومَةِ ونَحوِها»[٢].

يُقالُ: جَثا يَجثو ويَجثي جُثوًّا وجُثيًّا، على فُعولٍ فيهما: جَلَسَ على رُكبَتَيهِ؛ للخُصومَةِ ونَحوِها[٣].

قَوله: «أَنا كُنتُ أَظلَمَ»، أَي: من عمرَ في القِصَّة المَذكورَة، وإنَّما قال ذلك؛ لِأَنَّهُ كان البادي[٤].

وقال أَبو يَحيى السّنيكيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خافَ أَبو بكرٍ أن يَنالَ عمرَ من رسول اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يَكرهُه، فبَرَكَ على رُكبَتَيه، وقال: «يا رسولَ اللهِ، واللهِ أَنا كُنتُ أَظلَمَ»؛ لِأَنَّهُ كان البادي»[٥].

قَولُهُ: «فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ بَعَثَني إلَيكُم فقُلتُم: كَذَبتَ، وقال أَبو بكرٍ: صَدَقَ، وواساني بنَفسِهِ ومالِهِ**»:

وهذا مِمَّا لَم يَصِل إليه أَحَدٌ في الفَضلِ، فكان أَبو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَوَّلَ مَن آمَنَ برسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أسلَم على يدَيه خَلقٌ كثيرٌ، منهم خَمسَةٌ من العَشرةِ المبَشَّرينَ بالجنةِ.

قال ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان أَبو بكرٍ رجلًا مَأْلَفًا لِقَومِهِ[٦]، مُحَبَّبًا، سَهلًا، وكان أَنسَبَ قريشٍ لِقريشٍ، وأَعلَمَ قريشٍ بها، وبما كان فيها من خَيرٍ وشَرٍّ، وكان رجلًا تاجِرًا، ذا خُلُقٍ ومَعروفٍ، وكان رِجالُ قَومِهِ يَأتونَهُ ويَألَفونَهُ لِغيرِ واحدٍ من الأَمرِ؛ لِعِلمِهِ، وتِجارَتِهِ،

---

(١) عمدة القاري (١٦/ ١٨٠).

(٢) العين (٦/ ١٧١).

(٣) لسان العرب (١٤/ ١٣١).

(٤) عمدة القاري (١٦/ ١٨٠).

(٥) منحة الباري (٧/ ١٨)، بتصرف يسير.

(٦) المألف: الذي يألفه الإنسان.

وحُسنِ مُجالَسَتِهِ، فجَعَلَ يَدعو إلى اللهِ وإلى الإسلامِ مَن وثِقَ بهِ من قَومِهِ، مِمَّن يَغشاهُ ويَجلِسُ إليه.

فَأَسلَمَ بدُعائِهِ -فيما بلغَني-: عُثمانُ بن عَفَّانَ، والزُّبَيرُ بن العَوَّامِ، وعبدُ الرحمَنِ ابنِ عَوفٍ، وسَعدُ بن أَبي وقَّاصٍ، وطَلحَةُ بن عُبَيدِ اللهِ، فجاءَ بهِم إلى رسولِ اللهِ ﷺ حينَ استَجابوا له، فأَسلَموا وصَلَّوا»[١].

وواسى أَبو بكرٍ رسولَ اللهِ ﷺ بنَفسِه ومالِه:

فعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما نَفَعَني مالٌ قَطُّ، ما نَفَعَني مالُ أَبي بكرٍ**».

قال: فبَكى أَبو بكرٍ، وقال: هَل أَنا ومالي إلا لك يا رسولَ اللهِ؟[٢].

وفي روايةٍ: «**ما لِأَحَدٍ عِندَنا يَدٌ إلا وقد كافَيناهُ[٣] ما خَلا أَبا بكرٍ، فإنَّ له عِندَنا يَدًا يُكافِئُهُ اللهُ بها يَومَ القيامَةِ.**

وما نَفَعَني مالُ أَحَدٍ قَطُّ ما نَفَعَني مالُ أَبي بكرٍ، ولو كُنتُ مُتَّخِذًا خَليلًا لاتَّخَذتُ أَبا بكرٍ خَليلًا، أَلا وإنَّ صاحِبَكُم خَليلُ اللهِ»[٤].

وقال مَعمَرُ بن راشِدٍ في جامِعِهِ: عَنِ الزُّهريِّ، عَنِ ابنِ المسَيِّب، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما مالُ رجلٍ منَ المسلمينَ أَنفَعُ لي من مالِ أَبي بكرٍ**».

قال: وكان رسولُ اللهِ ﷺ يَقضي في مالِ أَبي بكرٍ كَما يَقضي في مالِ نَفسِهِ[٥].

وعن عمرَ بن الخَطَّاب رضي الله عنه، قال: أَمَرَنا رسولُ اللهِ ﷺ يَومًا أَن نَتَصَدَّقَ،

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٠-٢٥٢).

(٢) رواه ابن ماجه (٩٤)، وأحمد (٧٤٤٦)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

(٣) **قال المباركفوري** رحمه الله: «كذا في النسخ الحاضرة: بالياء، وكذلك في بعض نسخ المشكاة، ووقع في بعضها: «**كافأناه**»، بالهمزة». تحفة الأحوذي (١٠/ ١٠١).

(٤) رواه الترمذي (٣٦٦١)، وحسنه، وصححه الألباني.

(٥) جامع معمر بن راشد (٢٠٣٩٧)، ومن طريقه رواه عبد الرزاق في المصنف (٢١٣١٩)، وابن عساكر في تاريخه (٣٠/ ٥٩)، وهذا مرسل صحيح الإسناد.

فوافَقَ ذلك مالًا عِندي، فقُلتُ: اليَومَ أَسبقُ أَبا بكرٍ، إن سَبَقتُهُ يَومًا، فجِئتُ بنِصفِ مالي، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما أَبقَيتَ لِأَهلِكَ؟**»، قُلتُ: مِثله.

قال: وأَتى أَبو بكرٍ رضي الله عنه بكُلِّ ما عِندَهُ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما أَبقَيتَ لِأَهلِكَ؟**»، قال: أَبقَيتُ لهمُ اللهَ ورسوله، قُلتُ: لا أُسابقُكَ إلى شيءٍ أَبَدًا[١].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رحمه الله: «رَوى سُفيانُ بن عُيَينَةَ، عن هشامِ بن عُروَةَ، عن أبيهِ، قال: «أَسلَمَ أَبو بكرٍ وله أَربَعونَ أَلفًا، أَنفَقَها كُلَّها على رسولِ اللهِ ﷺ في سَبيلِ اللهِ».

وقال رسول اللهِ ﷺ: «**ما نَفَعَني مالٌ ما نَفَعَني مالُ أَبي بكرٍ**».

وأعتَق أَبو بكرٍ سبعَةً كانوا يُعَذَّبونَ في اللهِ، منهم: بلالٌ، وعامِرُ بن فُهَيرَةَ»[٢].

وفي الصحيحِ عن جابرِ بن عبدِ اللهِ رضي الله عنهما، قال: كان عمرُ يقولُ: «أَبو بكرٍ سَيِّدُنا، وأَعتَقَ سَيِّدَنا»، يَعني بلالًا[٣].

وهذا يقولُه عمرُ رضي الله عنه في بلالٍ رضي الله عنه، الذي كان عِتقُه حَسنَةً من حسَناتِ أبي بكرٍ رضي الله عنه.

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يَجزي ولَدٌ والِدَهُ، إلا أَن يَجِدَهُ مَملوكًا فيَشتَرِيَهُ، فيُعتِقَهُ**»[٤].

قال السِّنديُّ رحمه الله: «فيه: أنَّ المملوكَ كالمَيِّتِ لعدمِ نَفاذِ تَصَرُّفِه، وإعتاقهُ كإحيائِه، فمَن أعتَقَ أباهُ فكَأَنَّه أحياهُ، فكَما أنَّ الأَبَ كان سببًا لوُجودِ ابنِه، كذلك صارَ الِابنُ بإعتاقِه سببًا لحَياتِه، فصارَ كأَنَّه فعَلَ مع أبيه مِثلَ ما فَعَل معه أبوه، فتَساوَيا»[٥].

فتأمَّل هذا كُلَّه وغيرَه تعلَم كيفَ كان لمالِ أبي بكرٍ رضي الله عنه أعظَمُ الأَثَرِ في الإسلامِ، وخاصَّةً في وقتِ الحاجَةِ الشَّديدةِ، مع ضَعفِ الناصِرِ، وقِلَّةِ المعينِ، وكَيدِ العَدوِّ.

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، وصححه، وحسنه الألباني.

(٢) الاستيعاب (٣/ ٩٦٦).

(٣) رواه البخاري (٣٧٥٤).

(٤) رواه مسلم (١٥١٠).

(٥) هامش مسند أحمد، طبعة مؤسسة الرسالة (١٢/ ٤٩).

وتَشهَدُ مِصداقَ قَولِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما نَفَعَني مالٌ قَطُّ ما نَفَعَني مالُ أَبي بكرٍ**»، وقَولِهِ في أبي بكرٍ: **وواساني بنَفسِهِ ومالِهِ**».

قَولُهُ: «فهَل أَنتُم تارِكو لي صاحِبي؟»، مَرَّتَينِ»:

وفي البخاريِّ أَيضًا: «هَل أَنتُم تارِكونَ لي صاحِبي؟ هَل أَنتُم تارِكونَ لي صاحِبي؟».

قال الحافظُ: «تارِكونَ لي صاحِبي»، وهي المَوَجَّهَةُ، حتى قال أَبو البَقاء: «إنَّ حَذفَ النُّونِ من خَطَأِ الرُّواةِ؛ لِأَنَّ الكَلِمَةَ ليست مُضافَةً، ولا فيها أَلِفٌ ولامٌ، وإنَّما يَجوزُ الحَذفُ في هذينِ الموضعينِ».

ووَجَّهَها غيرُهُ بوَجهَينِ:

أحدُهما: أَن يكونَ «صاحِبي» مُضافًا، وفُصِلَ بينَ المضافِ والمضافِ إليه بالجارِّ والمَجرورِ؛ عِنايَةً بتَقديمِ لَفظِ الإضافَةِ، وفي ذلك جَمعٌ بينَ إضافتَينِ إلى نَفسِهِ؛ تَعظيمًا للصِّدِّيقِ، ونَظيرُهُ: قراءةُ ابن عامِرٍ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، بنَصب ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾ وخَفضِ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾، وفَصَلَ بينَ المضافَينِ بالمَفعولِ.

والثَّاني: أَن يكونَ استَطالَ الكَلامَ فحَذَفَ النُّونَ، كَما يُحذَفُ منَ المَوصولِ المطَوَّلِ، ومنه ما ذكروهُ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩][(١)]»[(٢)].

---

(١) أي: «وخضتم كالذين خاضوا»، قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: كالفوج الذي خاضوا، أو: كالخوض الذي خاضوا، وقيل: أصله كالذين، فحذفت النون، والأولى أن يقال: إن (الذي): اسم موصول مثل: «من»، و«ما»، يعبر به عن الواحد والجمع، يقال: خضت الماء، أخوضه، خوضًا، وخياضًا، والموضع: مخاضة، وهو ما جاز الناس فيه مشاةً، وركبانًا، وجمعها: المخاض، والمخاوض، ويقال منه: خاض القوم في الحديث، وتخاوضوا فيه، أي: تفاوضوا فيه، والمعنى: خضتم في أسباب الدنيا واللهو، واللعب، وقيل: في أمر محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالتكذيب، أي: دخلتم في ذلك». فتح القدير (٢/ ٤٣٣).

(٢) فتح الباري (٧/ ٢٦).

وقال **بَدرُ الدِّينِ الدَّماميني**ُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إمَّا أن يكونَ أصلُه: «تارِكونَ»، فاستَطالَ الكَلِمَةَ، فحَذَفَ النُّونَ، كَما تُحذَفُ منَ المَوصولِ للطُّولِ، نحو: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩]، على رَأيٍ.

وإمَّا أنَّ «تارِكو» مُضافٌ إلى «صاحِبي»، وفَصَلَ بينَ المضافِ والمضافِ إليه بالجارِّ والمَجرورِ؛ عَنايَةً بتقديمِ لَفظِ الإضافةِ، وفي ذلك الجَمعُ بينَ إضافَتَين إلى نَفسِه؛ تَعظيمًا للصِّدِّيقِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ»[1].

وقال **ابنُ مالِكٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي «**تارِكو لي صاحِبي**» شاهِدٌ على جَوازِ الفَصلِ دونَ ضرورةٍ بجارٍّ ومجرورٍ بينَ المضافِ والمضافِ إليه، إن كان الجارّ مُتَعَلّقًا بالمضافِ»[2].

قَولُهُ: «**مَرَّتَينِ**».

وعِندَ أحمَدَ في الفضائلِ، والبَزَّارِ في مُسنَدِه، وأبي نُعَيمٍ في الحِليَةِ: «**فهَل أَنتُم تارِكونَ لي صاحِبي؟**»، ثَلاثَ مِرارٍ.

وهذا للتَّأكيدِ على حُرمَةِ الصدِّيقِ، وتعظيمِه، والتحذيرِ من إيذائِه وإغضابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظُ: «قَولُهُ: «مَرَّتَينِ»، أَي: قال ذلك القَولَ مَرَّتَينِ، وفي روايةِ محمدِ ابنِ المبارَكِ: «ثَلاثَ مَرَّاتٍ»».

قَولُهُ: «**فما أوذيَ بعدَها**»: أَي: لِما أَظهَرَهُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم من تَعظيمِهِ[3].

وقد وقَعَ لِأَبي بكرٍ مع رَبيعَةَ بن كعبٍ قِصَّةٌ نحو هذه- إن صَحّ الخَبَرُ-:

فعن رَبيعَةَ بن كعبٍ الأَسلَميِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعطاني أَرضًا، وأَعطى أَبا بكرٍ أَرضًا، وجاءَتِ الدُّنيا فاختَلَفنا في عِذقِ نَخلَةٍ، فقُلتُ أَنا: هي في حَدِّي، وقال أَبو بكرٍ: هي في حَدِّي، فكان بيني وبينَ أَبي بكرٍ كَلامٌ، فقال لي أَبو بكرٍ كَلِمَةً كَرِهَها ونَدِمَ، فقال لي: يا رَبيعَةُ، رُدَّ عَلَيَّ مِثلها؛ حتى تَكونَ قِصاصًا، قال: قُلتُ: لا أَفعَلُ، فقال

---

(١) مصابيح الجامع (٧/ ٢٦٦)، وينظر: المفهم لأبي العباس القرطبي (١١/ ٧٨).

(٢) شواهد التوضيح (ص٢٢٣).

(٣) ينظر الفتح (٧/ ٢٥-٢٦).

أَبو بكرٍ: لَتقولَنَّ أو لَأَستعدِيَنَّ عليكَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُلتُ: ما أَنا بفاعِلٍ، قال: ورَفَضَ الأَرضَ، وانطَلَقَ أَبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانطَلَقتُ أَتلوهُ.

فَجاءَ ناسٌ من أَسلَمَ، فقالوا لي: رَحِمَ اللهُ أَبا بكرٍ، في أَيِّ شيءٍ يَستَعدي عليكَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قال لك ما قال؟ فقُلتُ: أَتَدرونَ ما هذا؟ هذا أَبو بكرٍ الصدِّيقُ، هذا ثانيَ اثنَينِ، وهذا ذو شَيبَةِ المسلمينَ، إيَّاكُم لا يَلتَفِتُ فيَراكُم تَنصُروني عليه فيَغضَب، فيَأتي رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيَغضَب لِغَضَبِهِ، فيَغضَب اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِغَضَبِهِما، فيَهلِك رَبيعَةُ.

قالوا: ما تَأمُرُنا؟ قال: ارجِعوا، قال: فانطَلَقَ أَبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتَبعتُهُ وحدي، حتى أَتى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحَدَّثَهُ الحَديثَ كَما كان، فرَفَعَ إِلَيَّ رَأسَهُ، فقال: «**يا رَبيعَةُ، ما لك وللصِّدِّيقِ؟**»، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، كان كذا، كان كذا، قال لي كَلِمَةً كَرِهَها فقال لي: قُل كَما قُلتُ؛ حتى يكونَ قِصاصًا، فأَبيتُ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَجَل، فلا تَرُدَّ عليه، ولكن قُل: غَفَرَ اللهُ لك يا أَبا بكرٍ**».

فَقُلتُ: غَفَرَ اللهُ لك يا أَبا بكرٍ.

قال الحَسَنُ: فوَلَّى أَبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يَبكي.

الكَلامُ على هذا الحَديثِ مِن حَيثُ الثُّبوتُ والضَّعفُ:

قال الإمامُ أَحمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنا أَبو النضرِ هاشِمُ بن القاسِمِ، قال: حَدَّثَنا المبارَكُ -يَعني ابنَ فضالَةَ-، قال: حَدَّثَنا أَبو عِمرانَ الجَونيُّ، عن رَبيعَةَ الأَسلَميِّ، فذكرَه[١].

وكذا رواهُ أَبو داوُدَ الطيالِسيُّ[٢]، والحاكِم[٣]، والطبَرانيُّ[٤]، وأبو القاسِمِ البَغَويُّ[٥]،

---

(١) المسند (١٦٥٧٧).

(٢) مسند الطيالسي (١٢٧٠).

(٣) المستدرك (٢٧١٨).

(٤) المعجم الكبير (٥/ ٥٨).

(٥) معجم الصحابة (٧٥٤).

وأبو نُعَيم الأصبَهانيُّ[١]، ودَعلَجُ بن أَحمَدَ السِّجِستانيُّ[٢]، وابنُ شاهينَ[٣]، وابنُ عَساكِر[٤]، وأبو عَمرو السمرقَندي[٥]، من طُرُق، عنِ المبارَكِ بنِ فضالةَ بهِ.

كلامُ أهلِ العلمِ في الحَديثِ:

قال البوصيريُّ: «هذا إسنادٌ حَسَنٌ، مُبارَكٌ مُختَلَفٌ فيه»[٦].

وقال الهيثمي: «فيه مُبارَكُ بن فضالَةَ، وحَديثُهُ حَسَنٌ، وبَقيَّةُ رِجالِهِ ثِقاتٌ»[٧].

وقال الأَلبانيُّ: «إسنادُه حَسَنٌ، والمباركُ بن فضالَةَ صَدوقٌ مُدَلِّسٌ، ولكِنَّهُ قد صَرَّحَ بالتحديثِ في كُلّ الطُرُقِ عنه، فأَمِنَّا تَدليسهُ»[٨].

وقال مُحقِّقو المسنَدِ: «إسنادُه ضَعيفٌ جدًا، على نَكارةٍ فيه، المبارك بن فضالةَ يُدَلِّسُ ويُسَوِّي - وهو شَرُّ أنواعِ التَدليس- وقد عنعَنَ هُنا، وتَصريحُه بالسماعِ في جَميعِ طبقاتِ الإسنادِ عِندَ الحاكِمِ إنَّما هو في قِطعةٍ صغيرةٍ منه، ولا يَطمَئِنُّ القَلبُ إلى هذا التصريحِ؛ فقد رواهُ الحاكِمُ كذلك بتَمامِه بالإسنادِ نَفسِه مُعنعَنًا، ثم إنَّه تفرَّد بهِ، وهو لا يحتَملُ تَفَرُّده.

ويظهَر لَنا- أيضًا-: أن أبا عِمرانَ الجونيّ- وهو بَصريٌّ- لَم يَسمَع من ربيعةَ بن كَعبٍ؛ لِأَنَّ ربيعةَ سَكَنَ على بَريدٍ من المدينةِ بعدَ وفاةِ النبيِّ ﷺ، وبَقيَ فيها حتى وفاتِه سنةَ (٦٣هـ)، ولا يُعَكِّر على هذا رُؤيَتُه لعِمرانَ بن حُصَين المتَوَفَّى سنةَ (٥٢هـ)؛ فقد كان عِمرانُ نَزيلَ البصرَةِ، ثم إنَّه جاءَ في آخِرِ الحَديث: «قال الحَسَنُ»، وسَواء كان القائِلَ المبارَكُ بن فضالَةَ، أو أَبو عِمران، فإنَّه يَدُلُّ على الإنقطاعِ».

---

(١) فضائل الخلفاء الراشدين (٥٥).

(٢) المنتقى من مسند المقلين (ص٤٢).

(٣) شرح مذاهب أهل السنة (ص١٧٠).

(٤) تاريخ دمشق (٤/ ٣٢٠).

(٥) الفوائد المنتقاة (٤٠).

(٦) إتحاف الخيرة (٥/ ٤٠٣).

(٧) مجمع الزوائد (٩/ ٤٥).

(٨) الصحيحة (٧/ ٤٠٨).

والراجِحُ -واللهُ أعلمُ- أنَّه حديثٌ ضَعيفٌ لا يَثبُتُ.

ومبارَكُ بن فضالةَ ليس بالثَّبتِ، وثَّقَهُ ابنُ مَعينٍ مَرَّةً، وقال مَرَّةً: «ضعيفٌ»، وقال ابنُ المَدينيِّ: «هو صالِحٌ وسَطٌ»، وقال العِجليُّ: «لا بَأسَ بهِ»، وقال أَبو زُرعَةَ: «يُدَلِّسُ كثيرًا، فإذا قال: «حدَّثَنا» فهو ثِقَةٌ»، وقال الآجُرِّيُّ عن أبي داوُدَ: «إذا قال: «حدَّثَنا» فهو ثَبتٌ، وكان يُدَلِّسُ»، وقال مَرَّةً: «كان شَديدَ التَدليس»، وقال النسائيُّ: «ضَعيفٌ»، وقال ابنُ سَعدٍ: «كان فيه ضَعفٌ، وكان عفَّان يَرفَعُه ويوَثِّقُه»، وقال ابنُ حِبَّان: «كان يُخطِئُ»، وقال الساجيُّ: «كان صَدوقًا مسلمًا خيارًا، وكان من النُّسَّاكِ، ولَم يَكُن بالحافظِ، فيه ضَعفٌ»، وقال العِجليُّ: «كَتَبتُ حَديثَه، وليس بقَويٍّ، جائزُ الحَديثِ»، وقال المَرُّوذيُّ: سألتُ أحمَدَ عَنِ المبارَكِ وأبي هِلالٍ، فقال: «مُتَقارِبانِ، ليس هُما بذاكَ»، وقال الدارَقُطنيُّ: «لَيِّنٌ، كَثيرُ الخَطَأِ، يُعتَبَرُ بهِ»[1].

والخُلاصَةُ: أنَّه صَدوقٌ وسَطٌ، وليس بالحافظِ، وكان يُدَلِّسُ كثيرًا، فإذا صَرَّحَ بالتحديثِ فحَديثُه حَسَنٌ مقبولٌ، إلا أن يُخالِفَ مَن هو أَحفظُ منه وأوثَقُ، فالقَولُ للأحفَظِ.

هَل كان مُبارَك يُدَلِّس التسويَةَ؟

قال الحافظُ في تَرجَمَتِه منَ التَّقريب: «صَدوقٌ، يُدَلِّسُ، ويُسَوِّي»[2].

ولا نَعلَمُ أحدًا غيرَ الحافظِ وصَفَه بتَدليس التسويَةِ.

ما هو تَدليس التسويَةِ؟

قال الحافظُ العِراقيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «صورَةُ هذا القسمِ من التَدليس: أن يَجيءَ المدَلِّس إلى حديثٍ سمِعَه من شيخٍ ثِقَةٍ، وقد سَمِعَه ذلك الشَّيخُ الثِّقَةُ من شَيخٍ ضعيفٍ، وذلك الشيخُ الضَّعيفُ يَرويهِ عن شَيخٍ ثِقَةٍ، فيأتِي المدَلِّسُ الذي سَمِعَ الحَديثَ منَ الثِّقَةِ الأوَّلِ، فيُسقِطُ منه شَيخَ شَيخِهِ الضَعيفَ، ويَجعَله من روايةِ شيخِه الثِّقَةِ، عنِ الثِّقَةِ الثَّاني، بلَفظٍ

(١) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٩-٣١).

(٢) تقريب التهذيب (ص ٥١٩).

محتَملٍ، كالعنعَنَةِ ونَحوِها، فيَصيرُ الإسنادُ كلُّهُ ثِقاتٍ، ويُصَرِّحُ هو بالاِتِّصالِ بينَهُ وبينَ شَيخِه؛ لِأَنَّهُ قد سَمِعَه منه، فلا يَظهَرُ -حينَئِذٍ- في الإسنادِ ما يقتَضِي عَدَمَ قَبولِه، إلا لِأهلِ النقدِ والمعرِفَةِ بالعِلَلِ»[1].

وعلى ذلك: فحتى يُقبَلَ حديثُ مَن يُدَلِّس تَدليس التسويَةِ، فلا بدّ أن يُصَرِّحَ بالتحديثِ في جميعِ طَبَقاتِ السنَدِ.

والمشهورُ عنِ المباركِ بن فضَالَةَ أنَّه كان يُدَلِّسُ تَدليس الإسنادِ.

وتَدليس الإسنادِ هوَ: أن يَرويَ الراوي عمَّن قد سَمِعَ منه ما لَم يَسمَع منه، من غيرِ أن يَذكُر أنَّه سَمِعَه منه، ويَرويه عنهُ بلفظٍ مُحتَملٍ للسَّماعِ وغيرِه، كـ«قال»، أو: «عن»؛ ليوهِمَ غيرَهُ أنَّه سَمِعَه منه، لكِن لا يُصَرِّح بأنَّه سَمِع منه هذا الحَديثَ، فلا يقولُ: «سمِعتُ»، أو: «حَدَّثَني»؛ حتى لا يَصيرَ كذَّابًا، ثم قد يكونُ الذي أسقَطَه واحدًا، أو أكثَرَ[2].

ولَعَلَّ مُعتَمَدَ الحافظِ في اتِّهامِ المباركِ بالتسويَةِ ما جاءَ عنِ الإمامِ أحمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ: **قال أَبو طالبٍ عن أحمَدَ**: «كان مُبارَكُ بن فضالةَ يرفَعُ حديثًا كثيرًا، ويقولُ في غيرِ حديثٍ عنِ الحَسَن، قال: حدَّثَنا عِمران، وقال: حَدَّثَنا ابن مُغَفَّلٍ، وأصحابُ الحَسَنِ لا يقولون ذلك».

يَعني: أنَّه يُصَرِّح بسَماعِ الحَسَنِ من هَؤُلاءِ، وأصحابُ الحَسَنِ يَذكُرونَه عنهُ بالعنعَنَةِ[3].

قال الشَّيخُ الأَلبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنتُ نقَلتُ قولَ الحافظِ في المبارَكِ: «إنَّه يُدَلِّسُ، ويُسَوِّي»، والذي أريدُ تحقيقَه الآنَ إنَّما هو أنَّ قوله فيه: «ويُسَوِّي» خَطَأٌ -لَعَلَّهُ سَبقُ قَلَمٍ- والصوابُ الاِقتصارُ على قَولِه فيه: «يُدَلِّسُ»؛ وذلك لأمرَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ هذا هو الذي اتَّفَقَ عليه الحُفَّاظُ الذينَ رَمَوهُ بالتَدليس، مِثلُ يَحيى ابنِ

---

(١) التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح (ص٩٥-٩٦).

(٢) ينظر: تدريب الراوي للسيوطي (١/ ٢٥٦).

(٣) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٩).

سَعيدٍ، وأحمدَ بن حنبَل، وأبي داوُدَ، وأبي زُرعَةَ، وغيرِهِم، وكُلُّهُم قالوا: «إذا قال: «حَدَّثَنا» فهو ثَبتٌ»، أو: «ثِقَةٌ».

وقال يَحيى، وعبدُ الرّحمنِ بن مَهدي -واللفظُ له-: «لَم نَكتُب لـلمُباركِ شَيئًا، إلا شيئا يقول فيه: «سَمِعتُ الحَسَنَ».

وهذا التَدليس هو الذي يُسَمِّيه الحافظُ في طَبَقاتِ المدَلِّسينَ بتَدليس الإسنادِ، وهو المرادُ عِندَهم عِندَ الإطلاقِ، وهو أن يُسقِطَ منه شَيخَهُ.

وأمَّا تَدليس التسويَةِ: فهو أن يصنَعَ ذلك لشَيخِه، مُسقِطًا شَيخَ شَيخِهِ، وقد اشتُهِرَ بهذا النوعِ منَ التَدليس الوليدُ بن مسلمٍ، تِلميذُ الإمامِ الأوزاعيِّ، فكان يُسقِطُ من إسنادِه شيخَ الأوزاعيِّ.

وهذا النوعُ منَ التَدليس لَم أرَ أحَدًا من المتقدّمينَ رَمى به المباركَ بن فضالَة.

وأمَّا قَولُ الإمامِ أحمَدَ فيه: «يقولُ في غيرِ حديثٍ عنِ الحَسَن: حدَّثَنا عِمرانُ ابنُ حُصَينٍ، وأصحابُ الحَسَنِ لا يقولون ذلك»، فهذا كُلُّ ما جاءَ في تَرجَمَة المبارَكِ مِمَّا يُمكِن أن يكونَ مُستَنَدَ الحافظِ في رَميِه إيَّاهُ بتَدليس التسويَةِ، وهو -كَما تَرى- لا صِلَةَ له بهِ مُطلقًا، بل هو نقيضُه تَمامًا؛ فإنَّ الحَسَنَ -وَهو البَصريُّ- معروفٌ بالتَدليس، فإذا عنعَنَ عن عِمرانَ أو غيرِه، احتملَ أن يكونَ بينهما راوٍ أسقَطَه الحَسَنُ، فإذا صرَّحَ المبارَكُ بتَحديثِ الحَسَنِ في كَونِهِ قد أوصَلَه، فهذا نَقيضُ تَدليس التسويَةِ تَمامًا، كَما هو ظاهِرٌ جَليٌّ.

وغايَةُ ما يُستَفادُ من قولِ أحمدَ هذا: رَميُ المبارَك بالخَطَأِ في تَصريحِه بالتحديثِ بينَ الحَسَنِ وعِمرانَ، مُخالِفًا في ذلك الثِّقات، وإنَّ مِمَّا لا شَكَّ فيه أنَّ المباركَ في حِفظِه ضَعفٌ، ولِذلك نزل حَديثُه من مَرتَبَةِ الصحيحِ إلى مَرتَبةِ الحَسَنِ، بشَرطِ التصريحِ بالتحديثِ.

والخُلاصَةُ: أنَّ الحافظَ وهِمَ في وصفِ المباركِ بتَدليس التسويَةِ، وأنَّ الرّجُلَ إذا صَرَّحَ بالتحديثِ عن شَيخِه فهو حَسَنُ الحَديثِ، واللهُ أعلَمُ»[1].

---

(١) الصحيحة (١/ ٩٥٠-٩٥٢)، ببعض تصرف واختصار.

ولِذلك خَلَصَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى القَولِ بتَحسينِ هذا الحَديثِ.

إلا أنَّ المباركَ قد خالَفَه مَن هو أحفَظُ منه.

فقال البَغَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَدَّثَنا عُبَيدُ اللهِ بن عمرَ القَواريريُّ، نا جَعفَرُ بن سُليمانَ الضّبعيُّ، نا أَبو عِمرانَ الجَونيُّ، قال: «أَقطَعَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكرٍ أرضًا، ورَبيعَةَ الغِفاريَّ...»، فذكرَهُ بنَحوِه[1].

وهذا مُرسَلٌ، وجعفَرُ بن سليمانَ أحفَظُ وأوثَقُ وأكثَرُ حَديثًا من المباركِ بن فضالةَ، وقد احتَجَّ به الإمامُ مسلمٌ في صَحيحِه، وقد تَكَلَّمَ فيه بعضُ الأئِمَّةِ لتَشَيُّعِه، وأُنكِرَت عليه أحاديث، لَعَلَّ البَلاءَ فيها منَ الرُّواةِ عنه، قال أَبو أحمَدَ الحاكِم: «أحاديثُه ليست بالمنكَرَةِ، وما كان فيه مُنكَرٌ فلَعَلَّ البلاءَ فيه منَ الراوي عنه، وهو عِندي مِمَّن يَجِبُ أن يُقبَلَ حَديثُه»، وقال أَبو بكرٍ البَزَّارُ: «لَم نَسمَع أحدًا يَطعَنُ عليه في الحَديثِ، ولا في خطَأٍ فيه، إنَّما ذُكِرَت عنه شيعيَّتُه، وأمَّا حَديثُه فمُستَقيمٌ».

وقال ابنُ سَعدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَخبَرَنا مسلمُ بن إبراهيمَ، قال: حَدَّثَنا الحارِثُ بن عُبَيدٍ، قال: حَدَّثَنا أَبو عِمرانَ الجَونيُّ: «أَنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقطَعَ أَبا بكرٍ ورَبيعَةَ الأَسلَميَّ أَرضًا...»، فذكرَهُ بمَعناهُ[2].

وهذا مُرسَلٌ أَيضًا، يُؤَيِّدُ روايةَ جَعفرِ بن سُليمانَ، والحارِثُ بن عُبَيدٍ ضعيفٌ، ضَعَّفَه ابنُ مَعينٍ، والنسائيُّ، وغيرُهُما[3].

فالصوابُ في الحَديث -واللهُ أعلَمُ-: أنَّه لا يَصِحُّ؛ لِإرسالِه، وروايةُ الوَصلِ غيرُ مَحفوظَةٍ.

وفيه ما يُستَنكَرُ، وهو حُصولُ الخِلافِ بينَ الصدِّيقِ ورَبيعَةَ حَولَ عِذقِ نَخلَةٍ، يقولُ رَبيعةُ: «وجاءَتِ الدُّنيا، فاختَلَفنا في عِذقِ نَخلَةٍ، فقُلتُ أَنا: هي في حَدِّي، وقال أَبو بكرٍ: هي في حَدِّي، فكان بيني وبينَ أَبي بكرٍ كَلامٌ، فقال لي أَبو بكرٍ كَلِمَةً، كَرِهَها ونَدِمَ...».

---

(١) معجم الصحابة (٧٥٣).

(٢) الطبقات الكبرى (٤/ ٢٣٤).

(٣) ينظر: ميزان الاعتدال (١/ ٤٣٨).

وليس مِثلُ هذا من أخلاقِ الصحابَةِ، فضلًا عنِ الصدِّيقِ الأكبَرِ، الذي لَم يَدَّخِر وُسعًا في البَذلِ في سبيلِ الدَّعوَةِ، والإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ، في كافَّةِ وُجوهِ الخَيرِ.

ما يُستَفادُ منَ الحَديثِ:

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **في الحديثِ من الفوائدِ:**

* فضلُ أَبي بكرٍ على جَميعِ الصحابَةِ.
* وأَنَّ الفاضِلَ لا يَنبَغي له أَن يُغاضِبَ مَن هو أَفضَلُ منه.
* وفيه: جَوازُ مَدحِ المَرءِ في وجهِهِ، ومَحَلُّهُ إذا أُمِنَ عليه الِافتِتانُ والِاغتِرارُ.
* وفيه: ما طُبِع عليه الإنسانُ منَ البَشَريَّةِ، حتى يَحمِله الغَضَبُ على ارتِكاب خِلافِ الأولى، لكنِ الفاضِلُ في الدِّينِ يُسرِعُ الرُّجوعَ إلى الأولى، كَقَولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١].
* وفيه: أَنَّ غيرَ النبيِّ- ولو بلغَ منَ الفَضلِ الغايَةَ- ليس بمَعصومٍ.
* وفيه: استِحبابُ سُؤالِ الِاستِغفارِ والتحَلُّلِ منَ المَظلومِ.
* وفيه: أَنَّ مَن غَضِبَ على صاحِبِهِ نَسَبَهُ إلى أَبيهِ أو جَدِّهِ، ولَم يُسَمِّهِ باسمِهِ، وذلك من قَولِ أَبي بكرٍ- لَمَّا جاءَ وهو غَضبانَ من عمر-: «كان بيني وبينَ ابنِ الخَطَّاب»، فلم يَذكُرهُ باسمِهِ.
* وفيه: أَنَّ الرُّكبَةَ ليست عَورَةً»[(١)].
* وفيه: أَنَّ على المسلمِ أن يَقبَلَ اعتِذارَ أخيهِ المسلمِ، إذا جاءَهُ مُعتَذِرًا مُقِرًّا بخَطَئِه، طالِبًا العَفوَ منه، فعن عبدِ اللهِ بن عَمرِو بن العاصِ، عَنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قال -وهو على المنبَرِ-: «**ارحَموا تُرحَموا، واغفِروا يَغفِرِ اللهُ لَكُم**»[(٢)].

وعن جَريرِ بن عبدِ اللهِ البجليِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن لا يَرحَم لا يُرحَم، ومَن لا يَغفِر لا يُغفَر له**»[(٣)].

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٦).

(٢) رواه الإمام أحمد (٦٥٤١)، وحسنه محققو المسند.

(٣) رواه الإمام أحمد (١٩٢٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٩٩).

وقال **الأحنَفُ بن قَيسٍ**: «إنِ اعتَذرَ إليكَ مُعتذِرٌ فتَلَقَّهُ ببشرٍ طَلقٍ، ووَجهٍ مُشرِقٍ، إلا أَن يكونَ مِمَّن قَطيعَتُه غُنمٌ»[١].

وقال **الحَسَنُ بن عَليٍّ**: «لَو أَنَّ رجلًا شَتَمَني في أُذُني هذه، واعتَذَرَ إِلَيَّ في أُذُني الأُخرى، لَقَبلتُ عُذرَهُ»[٢].

ومن النظمِ في مَعناهُ:

قيـلَ لي قـد أَسـاءَ إليـك فُلانُ ... وقُعـودُ الفَتـى على الضَّيـمِ عـارُ

قُلـتُ قـد جاءَنـا فأَحـدَثَ عُذرا ... ديَـةُ الذَّنـب عِندَنـا الِاعتِـذارُ[٣]

وقيلَ: «لَذَّةُ العَفوِ أَعذَبُ من لَذَّةِ التشَفِّي، وأَقبَحُ فعالِ المقتَدِرِ الانتِقامُ»[٤].

* وفيه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَعرِفُ بالتَّوَسُّمِ حالَ أصحابه؛ فإنَّه لَمَّا رأى أبا بكرٍ وقد أقبلَ عليه، عَرَفَ من وجهِه ورَفعِه ثَوبَه أنَّه مُخاصِمٌ، قَبلَ أن يَتكَلَّمَ، فقال: «**أَمَّا صاحِبُكُم هذا فقد غامَرَ**».

* وفيه: أنَّه يَحسُنُ بالمعتذِرِ أن يأتيَ أخاهُ في بَيتِه؛ فإنَّ في ذلك تَطييبًا لخاطِرِه، فأبو بكرٍ لَمَّا أخطَأَ في حقِّ عمرَ ذَهَبَ إلى عُمر في بيتِه؛ ليَعتَذِرَ لَه، وعمر لَمَّا أخطَأَ في حقِّ أبي بكرٍ ذَهَب إليه في بَيتِه.

* وفيه: اللُّجوءُ إلى أهلِ العِلمِ في المِلِمَّاتِ، وعرضُ المشكِلاتِ عليهم؛ فإنَّ أبا بكرٍ لَمَّا أَيِسَ من مُسامَحَةِ عمرَ له جاءَ إلى النبيِّ ﷺ، وقَصَّ عليه الخبَرَ؛ ليَقومَ النبيُّ ﷺ بالتدَخُّلِ والمصالَحَةِ.

* وفيه: أنَّ على كُلِّ مخاصِمٍ أن يَقُصَّ ما حَصَلَ بلا زيادةٍ ولا نُقصان، وأن يكونَ هَمُّه طَلَبَ المصالَحَة، لا الِانتِصارَ لنَفسِه، وهذا هو حالُ السلَفِ، بخِلافِ حالِ المسلمينَ اليَومَ.

---

(١) تاريخ دمشق (٢٤/ ٣٤٣).

(٢) الأسامي والكنى لأبي أحمد الحاكم (٥/ ٢١٦).

(٣) الآداب الشرعية (١/ ٣٠٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤).

* وفيه: ما كان عليه الشَّيخانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من سُرعَةِ الفَيءِ، وصِدقِ المَحَبَّةِ، وكَمالِ المخالَلَةِ.

* وفيه: تَواضُعُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ إذ جَعَلَ يقولُ «واللهِ يا رسولَ اللهِ لَأَنا كُنتُ أَظلَمَ».

* وفيه: ما كان عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من رِقَّةِ القلب، والرّأفَةِ، وحُسنِ الصحبَةِ، ولينِ الجانِب، معَ ما كان مَعروفًا عنه في بعضِ مَواقِفِه منَ الشِّدَّةِ؛ كَما في حديثِ الأَضيافِ الذينَ أَبَوا أن يَطعَموا وهُم في بَيتِه، وكان غيرَ حاضِرٍ، فقال لهُم عبدُ الرحمَنِ ابنُهُ: «إنَّهُ رجلٌ حَديدٌ[1]، وإنَّكُم إن لَم تَفعَلوا خِفتُ أَن يُصيبَني منه أَذًى»[2].

* وفيه: أنَّ الخِلافَ والنّزاعَ بينَ الأَخوين المسلمينَ لا يَنبَغي أن يَصِلَ إلى الهَجرِ، والفُجورِ في الخصومةِ، وسوءِ الصحبةِ، وعن عبدِ اللهِ بن عَمرٍو، أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالصا، ومَن كانت فيه خَصلَةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلَةٌ منَ النِّفاقِ، حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فجَرَ**»[3].

«**وإذا خاصَمَ فجَرَ**»: **قال النوَويُّ**: «أَي: مالَ عَنِ الحقِّ، وقال الباطِلَ والكَذِبَ، قال أَهلُ اللُّغَةِ: «وأَصلُ الفُجورِ: المَيلُ عَنِ القَصدِ»[4].

وقال ابنُ الجَوزيِّ: «الفُجورُ: الخُروجُ عَنِ الحقِّ، والانبعاثُ في الباطِلِ»[5].

* وفيه: حِرصُ الصدِّيقِ على رَفعِ الحَرَجِ عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بالدِّفاعِ عنه، واتِّهامِ نفسِه بأَنَّه كان أظلَمَ، فلَم يَكُن من شيَمِه التشَفِّي، ولا أحبّ أن يَترُكَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَرسِلُ في تَعنيفِ عمرَ وتَأنيبه، ويقول: دَعهُ يُلَقِّنه دَرسًا لا يَنساهُ؛ حتى لا يُسيءَ إِلَيَّ بعدَ ذلك أبدًا، ونحو ذلك، مِمَّا قد يَقَعُ من بعضِنا في مِثلِ هذا المَوقِفِ.

---

(١) أي: فيه قوة، وصلابة، ويغضب لانتهاك الحرمات، والتقصير في حق ضيفه، ونحو ذلك. شرح النووي على مسلم (١٤/ ٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٠٥٧)، وهو في البخاري أيضًا (٦٠٢)، بدون محل الشاهد.

(٣) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٤) شرح النووي على مسلم (٢/ ٤٨).

(٥) كشف المشكل (٤/ ١١٢).

فالصدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكرَمُ نفسًا من ذلك، وحاشاهُ أن يَتَغَيَّظَ على صاحِبه وأَعَزِّ الخَلقِ عِندَه بعدَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيترُكُه في ورطَتِه، دونَ أن يُدافِعَ عنه، ويَسعى في تَخليصِه منَ الحَرَجِ أمامَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

* وفيه: أنَّه يَنبَغي أن يُحفَظَ للعالِمِ الفاضِلِ والتقيِّ الصالِحِ حقُّهُ، وألَّا يُؤذى، وأن يُتَغاضى له عَنِ الهفواتِ، ويُنوَّهَ بمنزلتِه وشَرَفِه، ويُذكَرَ بفضلِه وصَلاحِه؛ فإنَّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مَع أنَّ أبا بكرٍ قال له: «يا رسولَ اللهِ، واللهِ أنا كُنتُ أَظلَمَ»، مَرَّتَينِ- تَرَكَ ذلك ولَم يُعَوِّل عليه، وإنَّما عَوَّل على سابقَةِ أبي بكرٍ وفَضلِهِ، **فقال: «إنَّ اللهَ بَعَثَني إليكُم فقُلتُم: كَذَبتَ، وقال أَبو بكرٍ: صَدَقَ، وواساني بنَفسِهِ ومالِهِ، فهَل أَنتُم تارِكو لي صاحِبي؟»**، مَرَّتَينِ، فما أوذيَ بعدَها.

* وفيه: استِرضاءُ العالِمِ والقُدوَةِ إذا غَضِبَ، والمسارَعَةُ إلى التخفيفِ من غُلَواءِ غَضَبِه[1]، والمبادرةُ إلى الاعتذارِ والرُّجوعِ.

* **وفيه**: إظهارُ الرُّجوعِ عنِ الخطَأِ، والإعلانُ به أمامَ الناسِ، فقد صَرَّح أَبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنَّه كان أظلَمَ، وأقسَمَ على ذلك، وجاءَ عمرُ مُعتَذِرًا أمامَ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وقد كان كُلٌّ مِنهُما يَبحَثُ عَن صاحِبه.

فتِلكَ قُلوبٌ خالَطَتها بَشاشَةُ الإيمانِ، وطَهَّرَتها آدابُ الحَنيفيَّةِ السمحَةِ، فكانوا كَما قال اللهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

أَي: رَقيقَةٌ قُلوبُ بعضِهِم لِبعضٍ، لَيِّنَةٌ أَنفُسُهُم لهم، هَيِّنَةٌ عليهم، كَما قال قَتادَةُ: «أَلقى اللهُ في قُلوبِهِمُ الرحمَةَ، بعضهم لِبعضٍ»[2].

* **من جُملَةِ فضائِلِ الصحابَة**: أَنَّنا نَتَعَلَّم من أخطائِهم، ونَتَأَدَّب بآدابهم عِندَ حُصولِ الخَطَأِ من بعضِهم، ووُقوعِ الهَفوَةِ منهم، وتِلكَ من جُملَةِ مَحاسِنِهِم، ومَجموعِ فضائِلِهِم، وبَرَكَةِ أَيَّامِهِم، كَما بَيَّنَّا ذلك في مُقدِّمةِ الكِتاب.

---

(١) أي: أوله وحدته.

(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٣٢١-٣٢٢).

فنَتَعَلَّمُ منهم ونَقتَدي بهِم، أصابوا أم أخطؤوا، ونأخذُ عنهم مُعالَجَةَ المَشاكِلِ عِندَ حُصولِها، وكَيفيَّةَ التعامُلِ مع الأزماتِ عِندَ تَصَعُّدِها.

* وفيه: أهَمِّيَّةُ البَذلِ والجِهادِ في سَبيلِ الدَّعوةِ ونَشرِ الدِّينِ، وأنَّ أهلَ البَذلِ والعَطاءِ والإيثارِ هُم أشرافُ الناسِ، وأهلُ العِنايةِ والتوقيرِ، وأصحابُ الفَضلِ والتقدُّمِ، فمَن كان من هَؤُلاءِ الفُضَلاءِ فهو حَريٌّ بأن يُرفَعَ قدرُه، وتُصانَ حُرمتُه، ويُدافَع عنه، ويَكُفَّ الناسُ عنه أذاهُم.

* وفيه: أنَّ الإنسانَ كُلَّما كان أسبَقَ في العَطاءِ، وأقدَمَ في البَذلِ، كان أحقَّ بالفَضلِ، وأولى بالتقدُّمِ، وأعظَمَ في الأجرِ؛ وقد قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠].

قال ابنُ الجوزيِّ: «**قال المفسرونَ**: «نزلَت هذه الآيةُ في أبي بكرٍ الصدِّيقِ».

﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾، **قال ابنُ عَباسٍ**: «أعظَمُ مَنزِلةً عِندَ اللهِ».

و**قال عَطاء**: «دَرَجاتُ الجنةِ تَتَفاضَلُ، فالذينَ أنفَقوا من قَبلِ الفَتحِ في أفضَلِها».

قال الزَّجَّاجُ: «لِأَنَّ المتَقدِّمينَ كانت بَصائِرُهم أنفَذَ، ونالَهم من المَشَقَّة أكثَرُ»[1].



(١) زاد المسير (٤/ ٢٣٣).

٤

صاحبُ
القبرِ
المنفردِ

صاحبُ القبرِ المنفردِ

عن أبي موسى الأَشعَريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ تَوَضَّأَ في بَيتِهِ ثم خرجَ، فقال: لَأَلزَمَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَأَكونَنَّ معه يَومي هذا، قال: فجاءَ المسجدَ فسألَ عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: خرجَ ووَجَّهَ ها هُنا، فخرجتُ على إثرِهِ أَسأَلُ عنه، حتى دَخَلَ بئرَ أَريسٍ، فجَلَستُ عِندَ الباب، وبابُها من جَريدٍ، حتى قَضى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجَتَهُ فتَوَضَّأَ، فقُمتُ إليه، فإذا هو جالِسٌ على بئرِ أَريسٍ، وتَوَسَّطَ قُفَّها، وكَشَفَ عن ساقَيهِ، ودَلَّاهُما في البئرِ، فسَلَّمتُ عليه ثم انصَرَفتُ فجَلَستُ عِندَ الباب، فقُلتُ: لَأَكونَنَّ بَوَّابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليَومَ.

فَجاءَ أَبو بكرٍ، فدَفَعَ البابَ، فقُلتُ: مَن هذا؟ فقال: أَبو بكرٍ، فقُلتُ: على رِسلِكَ، ثم ذَهَبتُ، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، هذا أَبو بكرٍ يَستَأذِنُ، فقال: «**ائذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ**»، فأَقبَلتُ حتى قُلتُ لِأَبي بكرٍ: ادخُل، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَشِّرُكَ بالجنةِ، فدَخَلَ أَبو بكرٍ، فجَلَسَ عن يَمينِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه في القُفِّ، ودَلَّى رِجلَيهِ في البئرِ كَما صَنَعَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكَشَفَ عن ساقَيهِ، ثم رجعتُ فجَلَستُ، وقد تَرَكتُ أَخي يَتَوَضَّأُ ويَلحقُني، فقُلتُ: إن يُرِدِ اللهُ بفُلانٍ خَيرًا -يُريدُ أَخاهُ- يَأتِ بهِ.

فإذا إنسانٌ يُحَرِّكُ البابَ، فقُلتُ: مَن هذا؟ فقال: عمرُ بن الخَطَّاب، فقُلتُ: على رِسلِكَ، ثم جِئتُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَلَّمتُ عليه، فقُلتُ: هذا عمرُ بن الخَطَّاب يَستَأذِنُ، فقال: «**ائذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ**»، فجِئتُ فقُلتُ: ادخُل، وبَشَّرَكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنةِ، فدَخَلَ، فجَلَسَ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القُفِّ عن يَسارِهِ، ودَلَّى رِجلَيهِ في البئرِ، ثم رجعتُ فجَلَستُ، فقُلتُ: إن يُرِدِ اللهُ بفُلانٍ خَيرًا يَأتِ بهِ.

فَجاءَ إنسانٌ يُحَرِّكُ البابَ، فقُلتُ: مَن هذا؟ فقال: عُثمانُ بن عَفَّانَ، فقُلتُ: على رِسلِكَ، فجِئتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فأَخبَرتُهُ، فقال: «**ائذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ، على بَلوى تُصيبُهُ**»، فجِئتُهُ فقُلتُ له: ادخُل، وبَشَّرَكَ رسولُ اللهِ ﷺ بالجنةِ على بَلوى تُصيبُكَ، فدَخَلَ فوَجَدَ القُفَّ قد مُلِئَ، فجَلَسَ وِجاهَهُ منَ الشِّقِّ الآخَرِ.

قال سَعيدُ بن المسَيِّب: «فأوَّلتُها قُبورَهُم»[1].

ترجَمَة أبي موسى الأَشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو عبدُ اللهِ بن قَيسِ بن سُلَيمِ بن حَضَّارِ بن حَرب بن عامِرِ بن عَنزِ بن بكرِ بن عامرِ ابن عُذرِ بن وائِلِ بن ناجِية بن الجماهِرِ بن الأشعِر، أَبو موسى الأَشعَريُّ.

وأُمُّه: ظَبيَةُ بنتُ وهب بن عكّ، أسلَمَت وماتَت بالمَدينةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

رَوى أبو موسى عن النبيِّ ﷺ، وعَنِ الخُلفاءِ الأربعةِ، ومعاذٍ، وابنِ مسعودٍ، وأُبَيّ بن كعبٍ، وعَمّار.

روى عنه أولادُه: موسى، وإبراهيمُ، وأبو بُردَةَ، وأبو بكرٍ، وامرأتُه أمُّ عبدِ اللهِ.

ومن الصحابةِ: أبو سعيدٍ، وأنسٌ، وطارقُ بن شِهابٍ.

ومن التابعينَ: زيدُ بن وهبٍ، وأبو عبدِالرحمَن السُّلَميّ، وعُبَيد بن عمَير، وقيس بن أبي حازِمٍ، وأبو الأسوَدِ، وسعيدُ بن المسيِّب، وزرُّ بن حُبَيش، وأبو عُثمانَ النهديّ، وأبو رافعٍ الصائغُ، وأبو عبيدَةَ بن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ، ورِبعيٌّ ابنُ حراشٍ، وحطّانُ الرّقاشيّ، وأبو وائِل، وصفوانُ بن مُحرِزٍ، وآخَرون.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٤)، (٦٢١٦)، (٧٠٩٧)، وفي الأدب المفرد (١١٥١)، ومسلم (٢٤٠٣)، والترمذي (٣٧١٠)، والنسائي في الكبرى (٨٠٧٦)، وأحمد في المسند (١٩٥٠٩)، وفي الفضائل (٢٨٥)، وابن حبان في صحيحه (٦٩١١)، ومعمر بن راشد في جامعه (٢٠٤٠٢)، والطبراني في الأوسط (٢٠٩٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٠٤٠٢)، وعبد الرزاق في الأمالي (١١٩)، والبزار في مسنده (٣٠٥١)، والآجري في الشريعة (٤/ ١٩٥٠)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ١٠٨)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ١٠٧٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١٤٦٠)، والروياني في مسنده (٥٢٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣٨٩)، وبحشل في تاريخ واسط (ص٢٢٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ١٣٦-١٤٤).

استَعمَله رسولُ اللهِ ﷺ مع مُعاذٍ على اليَمَنَ، واستَنابَهُ عمرُ على البَصرَةِ، وفَتَحَ تُستَرَ، ووَلَّاهُ عُثمانُ الكوفَةَ، وكان أَحَدَ الحَكَمَينِ بينَ عَليٍّ ومُعاويَةَ رضي الله عنهم، ثم اعتَزَلَ الفَريقَين.

وقال عبدُ اللهِ بن بُرَيدَةَ: «كان خَفيفَ الجِسمِ، قصيرًا، ثطًّا[١]».

وكان من قُرَّاءِ الصحابَةِ وفُقَهائِهِم، وكان أَحسَنَ الصحابَةِ صَوتًا في زَمانِهِ.

قال رسولُ اللهِ ﷺ لهُ: «**لَو رَأَيتَني وأَنا أَستَمِعُ لِقِراءَتِكَ البارِحَةَ، لَقد أوتيتَ مِزمارًا من مَزاميرِ آلِ داوُدَ**»[٢].

قال النوَويُّ رحمه الله: «قال العُلَماءُ: «المرادُ بالمِزمارِ- هُنا-: الصوتُ الحَسَنُ»، وأَصلُ الزَّمرِ: الغِناءُ، وآلُ داوُدَ هو داوُدُ نَفسُهُ، وآلُ فُلانٍ قد يُطلَقُ على نَفسِهِ، وكان داوُدُ ﷺ حَسَنَ الصوتِ جِدًّا»[٣].

وفي روايةٍ: مَرَّ النبيُّ ﷺ على أَبي موسى ذاتَ لَيلَةٍ وهو يَقرَأُ، فقال: «**لَقد أُعطيَ من مَزاميرِ آلِ داوُدَ**»، فلما أَصبَحَ ذكروا ذلك له، فقال: لَو كُنتَ أَعلَمتَني لَحَبَّرتُ ذلك تَحبيرًا[٤].

أَي: حَسَّنتُ قِراءَتَهُ وزَيَّنتُها[٥].

وعن أَبي عُثمانَ النهديِّ، قال: «صَلَّيتُ خَلفَ أَبي موسى الأَشعَريِّ، فما سَمِعتُ صَوتَ صَنجٍ، ولا بَربَطٍ، ولا نايٍ، أَحسَنَ من صَوتِهِ»[٦].

---

(١) الثط: الكوسج الذي عري وجهه من الشعر، إلا طاقات في أسفل حنكه، يقال: رجل ثط وأثط. النهاية (١/ ٢١١).

(٢) رواه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣)، واللفظ له.

(٣) شرح النووي على مسلم (٦/ ٨٠).

(٤) رواه النسائي في الكبرى (٨٠٠٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧/ ١٤٨٣).

(٥) النهاية (٢/ ٣٢٦).

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥٨)، وأبو عوانة في المستخرج (٣٩١٩)، وصححه الحافظ في الفتح (٩/ ٩٣)، وقال: «الصنج: هو آلة تتخذ من نحاس كالطبقين يضرب أحدهما بالآخر، والبربط، بوزن جعفر: هو آلة تشبه العود، فارسي معرب، والناي: هو المزمار».

وقال **الحافظُ في الإصابةِ**: «كان قد سَكَن الرّملَةَ، وحالَفَ سعيدَ بن العاصِ، ثم أسلَم وهاجَرَ إلى الحَبَشةِ.

وقيلَ: بَل رجَعَ إلى بلادِ قومِه ولم يُهاجر إلى الحبَشةِ، وهذا قَولُ الأكثرَ، فإنَّ موسى بن عُقبَةَ وابنَ إسحاقَ[1] والواقِديَّ لم يذكُروه في مُهاجِرَةِ الحَبَشَةِ.

وقدمَ المدينةَ بعدَ فتحِ خَيبَر، صادَفَت سفينتُه سفينةَ جعفَرِ بن أبي طالِبٍ، فقدِموا جميعًا».

وقال **المِزِّيُّ**: «قيلَ: إنَّه قدِم مكةَ، فحالَف أبا أُحَيحَةَ سَعيدَ بن العاصِ، ثم رجَعَ إلى بلادِ قَومِه، ثم خرَج في خَمسينَ رجُلًا من قومِه في سفينَةٍ، فألقَتهُمُ الرِّيحُ إلى أرضِ الحَبَشَةِ، فوافَقوا بها جعفَرَ بن أَبي طالِبٍ، فأقاموا عندَهُ، ثم خرَجوا معَه إلى المَدينَةِ، وهذا هو الصحيحُ».

وقال **ابنُ كَثيرٍ**: «أَسلَمَ ببلادِهِ، وقدمَ مع جَعفَرٍ وأَصحابِهِ عامَ خَيبَرَ، وذكرَ محمدُ بنُ إسحاقَ أَنَّهُ هاجَرَ أَوَّلًا إلى مكةَ، ثم هاجَرَ إلى الحَبَشَةِ، وليس هذا بالمَشهورِ».

وقال **الشَّعبيُّ**: كَتَبَ عمرُ في وصيَّتِهِ: «أَن لا يُقَرَّ لي عامِلٌ أَكثَرَ من سنةٍ، إلا أَبا موسى، فليُقَرَّ أَربَعَ سِنينَ».

وقال **الذَّهَبيُّ**: «كان أَبو موسى صَوَّامًا، قَوَّامًا، رَبَّانيًّا، زاهِدًا، عابدًا، مِمَّن جَمع العِلمَ والعَمَلَ والجِهادَ وسَلامَةَ الصدرِ، لَم تُغَيِّرهُ الإمارَةُ، ولَا اغتَرَّ بالدُّنيا».

وقال **البَغَويُّ**: «بلغَني أَنَّ أبا موسى ماتَ سنَةَ اثنَتَينِ، وقيلَ: أَربَعٍ وأربَعينَ، وهو ابنُ نَيّفٍ وسِتِّينَ».

وبالأَوَّل جزَم ابنُ نُمَير وغيرُه، وبالثَّاني جزَم أبو نُعَيم وغيرُه.

وقال أبو بكر بن أبي شَيبَةَ: «عاشَ ثلاثًا وسِتِّينَ»، وقال الهَيثَمُ وغيرُه: «ماتَ سنَةَ خمسينَ»، زادَ خَليفةُ: «ويُقالُ سنَةَ إحدى»، وقال المدائِنيُّ: «سنَةَ ثلاثٍ وخمسينَ».

---

(١) بل ذكره ابن إسحاق فيمن هاجر إلى الحبشة، كما في السيرة لابن هشام (١/ ٣٢٤)، وكما يأتي في كلام ابن كثير.

وقال **الذَّهَبيُّ**: «ذكرتُ في «طَبَقاتِ القُرَّاءِ»: تُوُفِّيَ أَبو موسى في ذي الحِجَّةِ، سنةَ أَربَعٍ وأَربَعينَ، على الصحيحِ»[١].

شرح الحديث:

عن أبي موسى الأَشعَريِّ، أَنَّهُ تَوَضَّأَ في بَيتِهِ ثم خرجَ، فقال: «لَأَلزَمَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، ولَأَكونَنَّ معه يَومي هذا»:

قال ابنُ عِلَّان رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أَنَّهُ تَوَضَّأَ في بَيتِهِ**»: يَحتَملُ أن يكونَ لِإرادَةِ الصلاةِ، أو ليكونَ على طَهارةٍ.

«**ثم خرجَ، فقال: «لَأَلزَمَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، ولَأَكونَنَّ معه يَومي هذا»**: «الإشارةُ إليه للتَّعميمِ: أي لا أكتَفي ببعضِه عن باقيهِ»[٢].

وقال **ابنُ عُثَيمينَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذا دليلٌ على أنَّ الإنسانَ ينبغي إذا خرَج من بيتِه أن يكونَ مُتوضِّئًا؛ لأجلِ أن يكونَ مُستَعِدًّا للصَّلاةِ وهو خارِج البَيتِ، فإذا جاءَ وقتُ الصلاةِ وهو في مكانٍ لا يوجَدُ فيه ماءٌ كان على طهارةٍ وصَلَّي، وإذا حَضَرَت جنازةٌ صَلَّى عليها وهو خارِج البَيتِ، أو على الأقَلِّ يكون على طُهرٍ؛ لِأَنَّ كَونَ الإنسانِ على طُهرٍ أفضَلُ من أن يكونَ على غيرِ طُهرٍ، ورُبَّما -أَيضًا- يحصُلُ له المَوتُ في هذا الوَقتِ، فيكون على طُهرٍ، فالإنسانُ يحرِصُ ما استَطاعَ أن يكونَ على طُهرٍ، لا سيَّما إذا خرَجَ من بيتِه»[٣].

قَولُهُ: «فجاءَ المسجدَ فسألَ عَنِ النبيِّ ﷺ، فقالوا: خرجَ، ووَجَّهَ ها هُنا»:

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المَشهورُ في الرِّوايَةِ: «وجَّهَ»، بتشديدِ الجيمِ، وضَبَطَهُ بعضهم بإسكانِها، وحَكى القاضي الوَجهَينِ، ونَقَلَ الأوَّلَ عَنِ الجُمهورِ، ورَجَّحَ الثَّاني؛ لِوُجودِ «خرجَ»، أَي: قَصَدَ هذه الجِهَةَ»[٤].

---

(١) تهذيب الكمال (١٥/ ٤٤٧)، تهذيب التهذيب (٥/ ٣٦٢)، البداية والنهاية (١١/ ٢٥٥)، الإصابة (٤/ ١٨١-١٨٣) الطبقات الكبرى (٤/ ٧٨-٨٧)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٠-٤٠٢).

(٢) دليل الفالحين (٥/ ١٨٥-١٨٦).

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ١٢٦).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٧١).

وقال **الحافظُ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كذا للأَكثَرِ، بفَتحِ الواوِ، وتشديدِ الجيمِ، أَي: تَوَجَّهَ، أو وجَّهَ نَفسَهُ، وفي روايةٍ الكُشميهَنيِّ: بسُكونِ الجيمِ، بلَفظِ الإِسمِ مُضافًا إلى الظَّرفِ، أَي: جِهَةَ كذا»[١].

وقال **ابنُ الأَثيرِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجَّهَ ها هُنا»، أَي: تَوَجَّهَ»[٢].

قَولُهُ: «فخرجتُ على إثرِهِ أَسأَلُ عنه، حتى دَخَلَ بئرَ أَريسٍ»:

«بئر أَريس»:

قال **النوَويُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**البئرُ**: مُؤَنَّثَةٌ مَهموزَةٌ، يَجوزُ تَخفيفُ هَمزَتِها، وهي مُشتَقَّةٌ من بَأَرتُ، أَي: حَفَرتُ، وجَمعُها في القِلَّةِ: أَبؤُرٌ، وأَبآرٌ، ومنَ العَرَب مَن يَقلِبُ الهَمزَةَ في أَبآرٍ ويَنقُلُ، فيقولُ: آبارٌ، وجَمعُها في الكَثرَةِ: بئارٌ، بكَسرِ الباءِ بعدَها هَمزَةٌ»[٣].

وقال **الحافظُ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أَريس**»: بُستانٌ بالمَدينَةِ مَعروفٌ، يَجوزُ فيه الصرفُ وعَدَمُهُ، وهو بالقُرب من قُباءَ، وفي بئرِها سَقَطَ خاتَمُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إصبَعِ عُثمانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ»[٤].

عَنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «اتَّخَذَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتمًا من ورِقٍ[٥]، فكان في يَدِهِ، ثم كان في يَدِ أَبي بكرٍ، ثم كان في يَدِ عمرَ، ثم كان في يَدِ عُثمانَ، حتى وقَعَ منه في بئرِ أَريسٍ، نَقشُهُ: «محمدٌ رسولُ اللهِ»[٦].

قَولُهُ: «فجَلَستُ عِندَ الباب، وبابُها من جَريدٍ، حتى قَضى رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجَتَهُ فتَوَضَّأَ، فقُمتُ إليه، فإذا هو جالِسٌ على بئرِ أَريسٍ، وتَوَسَّطَ قُفَّها»:

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٦).

(٢) النهاية (٥/ ١٥٨).

(٣) شرح النووي على مسلم (١/ ٢٣٥).

(٤) فتح الباري (٧/ ٣٦).

(٥) أي: من فضة.

(٦) رواه البخاري (٥٨٦٦)، ومسلم (٢٠٩١).

قال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القُفُّ: ما يُبنى حَولَ البئر؛ ليَجلِسَ عليه الجالِسُ»[١].

وقال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قُفُّ البئرِ: هو الدَّكَّةُ التي تُجعَل حَولها، وأَصلُ القُفِّ: ما غَلُظ منَ الأَرضِ وارتَفع، أو هو منَ القَفِّ: اليابس؛ لِأَنَّ ما ارتَفع حَولَ البئرِ يكونُ يابسًا في الغالِب»[٢].

وللشَّيخَينِ، واللفظُ لمسلمٍ: «بينَما رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حائِطٍ[٣] من حائِطِ المَدينَةِ، وهو مُتَّكِئٌ يَركُزُ بعودٍ[٤] معه بينَ الماءِ والطِّينِ».

قَولُهُ: «وكَشَفَ عن ساقَيهِ، ودَلَّاهُما في البئرِ، فسَلَّمتُ عليه ثم انصَرَفتُ فجَلَستُ عِندَ الباب، فقُلتُ: لَأَكونَنَّ بَوَّابَ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليَومَ»:

وفي روايةٍ للبخاريّ: «فلما دَخَلَ الحائِطَ جَلَستُ على بابِهِ، وقُلتُ: لَأَكونَنَّ اليَومَ بَوَّابَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَم يَأمُرني».

وقال ابن التينِ: «فيه: أَنَّ المَرءَ يكونُ بَوَّابًا للإمامِ، وإن لَم يَأمُرهُ».

قال الحافظُ: «كذا قال، وقد وقَعَ في روايةِ أَبي عُثمانَ الآتيَةِ في مَناقِب عُثمانَ، عن أَبي موسى: أَنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ حائِطًا، وأَمَرَهُ بحِفظِ باب الحائِطِ[٥].

ووَقَعَ في روايةِ عبدِ الرحمَنِ بن حَرمَلَةَ، عن سَعيدِ بن المسَيَّب في هذا الحَديثِ: فقال: «**يا أَبا موسى، املِك عَلَيَّ البابَ**»، فانطَلَقَ فقَضى حاجَتَهُ وتَوَضَّأَ، ثم جاءَ فقَعَدَ على قُفِّ البئرِ، أَخرَجَهُ أَبو عَوانَةَ في صَحيحِهِ[٦] والرُّويانيُّ في مُسنَدِهِ[٧].

---

(١) كشف المشكل (١/ ٤١٣).

(٢) النهاية (٤/ ٩١).

(٣) الحائط: البستان.

(٤) أي: يضرب بأسفله؛ ليثبته في الأرض. شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٧٠).

(٥) رواه البخاري (٣٦٩٥)، ومسلم (٢٤٠٣).

(٦) مستخرج أبي عوانة (١٠٥٣٩).

(٧) مسند الروياني (٥٢٤).

وفي روايةٍ التِّرمذيِّ من طَريقِ أَبي عُثمانَ، عن أَبي موسى: فقال لي: «**يا أَبا موسى، املِك عَلَيَّ البابَ، فلا يَدخُلَنَّ عَلَيَّ أَحَدٌ إلا بإذنٍ**»(١).

فَيُجمَعُ بينهما: بأَنَّهُ لَمَّا حَدَّثَ نَفسَهُ بذلك صادَفَ أَمرَ النبيِّ ﷺ بأَن يَحفَظَ عليه البابَ، وأَمَّا قَولُهُ: «ولَم يَأمُرني»، فيُريدُ أَنَّهُ لَم يَأمُرهُ أَن يَستَمِرَّ بَوَّابًا، وإنَّما أَمَرَهُ بذلك قدرَ ما يَقضي حاجَتَهُ ويَتَوَضَّأُ، ثم استَمَرَّ هو من قِبَلِ نَفسِهِ.

ثم إنَّ قَولَ أَبي موسى هذا لا يُعارِضُ قَولَ أَنَسٍ: أَنَّهُ ﷺ لَم يَكُن له بَوَّابٌ(٢)؛ لِأَنَّ مُرادَ أَنَسٍ: أَنَّهُ لَم يَكُن له بَوَّابٌ مُرَتَّبٌ لِذلك على الدَّوامِ»(٣).

وقال النوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في روايةٍ: «أَمَرَني أَن أَحفَظَ البابَ»، وفي روايةٍ: «لأَكونَنَّ بَوَّابَ رسولِ اللهِ ﷺ»، فيَحتَمِلُ أَنَّهُ ﷺ أَمَرَهُ أَن يكونَ بَوَّابًا في جَميعِ ذلك المَجلِسِ؛ لِيُبَشِّرَ هَؤُلاءِ المَذكورينَ بالجنةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويَحتَمِلُ أَنَّهُ أَمَرَهُ بحِفظِ الباب أَوَّلًا إلى أَن يَقضيَ حاجَتَهُ ويَتَوَضَّأَ؛ لِأَنَّها حالَةٌ يَستَتِرُ فيها، ثم حَفِظَ البابَ أَبو موسى من تِلقاءِ نَفسِهِ»(٤).

قَولُهُ: «**فجاءَ أَبو بكرٍ، فدَفَعَ البابَ، فقُلتُ: مَن هذا؟ فقال: أَبو بكرٍ، فقُلتُ: على رِسلِكَ، ثم ذَهَبتُ، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، هذا أَبو بكرٍ يَستَأذِنُ، فقال: «ائذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ»**:

وفي روايةٍ للبخاريّ: «فجاءَ رجلٌ يَستَأذِنُ، فقال: «**ائذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ**»، فإذا أَبو بكرٍ».

وله أَيضًا: «فجاءَ أَبو بكرٍ يَستَأذِنُ عليه ليَدخُلَ، فقُلتُ: كَما أَنتَ حتى أَستَأذِنَ لك،

---

(١) سنن الترمذي (٣٧١٠).

(٢) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «**اتقي الله واصبري**»، قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين... الحديث. رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٦).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٧٠).

فوَقَفَ، فجِئتُ إلى النبيِّ ﷺ، فقُلتُ: يا نبيَّ اللهِ، أَبو بكرٍ يَستَأذِنُ عليكَ، قال: «**ائذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ**».

وللشَّيخَينِ: «فجاءَ رجلٌ فاستَفتَحَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**افتَح له، وبَشِّرهُ بالجنةِ**».

وقَولُهُ: «**على رِسلِكَ**»: أي: اتَّئِد وتَمَهَّل ولا تَعجَل، **قال النوَويُّ**: «بكَسرِ الراءِ وفَتحِها -لُغَتانِ-، والكَسرُ أَفصَحُ وأَشهَرُ»[1].

و**قال القاضي عياضٌ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**على رسلِكَ**»، بفَتحِ الراءِ وكَسرِها، وهُما بمعنى التَثَبُّتِ والسُّكونِ، وقيلَ: بالفَتحِ، أي: على رِفقِكَ ولينِك، وأصلُه منَ السيرِ اللَّيِّنِ، وبالكَسرِ: على تُؤَدَتِكَ وتَركِ العَجَلَة، وهُما مَتقارِبانِ»[2].

قَولُهُ: «**فأَقبَلتُ حتى قُلتُ لِأَبي بكرٍ: ادخُل، ورسولُ اللهِ ﷺ يُبَشِّرُكَ بالجنةِ**»:

وللبخاريّ أَيضًا: «فإذا أَبو بكرٍ، فبَشَّرتُهُ بما قال النبيُّ ﷺ، فحَمِدَ اللهَ».

وكذا قال في عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وعندَ أحمَدَ: «فجاءَ رجلٌ فسَلَّمَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**اذهَب فأذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ**»، فذَهَبتُ، فإذا هو أَبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقُلتُ: ادخُل وأَبشِر بالجنةِ، فما زالَ يَحمَدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حتى جَلَسَ.

ثم جاءَ آخَرُ، فسَلَّمَ فقال: «**ائذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ**»، فانطَلَقتُ، فإذا هو عمرُ بنُ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقُلتُ: ادخُل، وأَبشِر بالجنةِ، فما زالَ يَحمَدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حتى جَلَسَ»[3].

قَولُهُ: «**فدَخَلَ أَبو بكرٍ، فجَلَسَ عن يَمينِ رسولِ اللهِ ﷺ معه في القُفِّ، ودَلَّى رِجلَيهِ في البئرِ كَما صَنَعَ النبيُّ ﷺ، وكَشَفَ عن ساقَيهِ**»:

هذا هو المَحفوظُ، كما في الصحيحَين، وغيرِهما:

---

(١) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٤١)

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/ ٤٠٨).

(٣) مسند أحمد (١٩٥٠٩)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

وقد ورَد بلَفظ «فخِذَيهِ»، بدَل: «ساقَيهِ»، ولا يَصِحُّ:

قال أبو القاسِم الطبَرانيّ: حَدَّثَنا عَليُّ بن سَعيدٍ الرازيُّ، قال: نا أَبو مُصعَبٍ، قال: نا عبدُ العَزيزِ بن محمدٍ، عن شَريكِ بن عبدِ اللهِ بن أَبي نَمِرٍ، عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، عن أَبي سَعيدٍ الخُدريِّ، قال: وقَفَ رسولُ اللهِ ﷺ بالأَسوافِ[1]، وبلالٌ معه، فدَلَّى رِجلَيهِ في البئرِ، وكَشَفَ عن فخِذَيهِ، فجاءَ أَبو بكرٍ يَستَأذِنُ، فقال: «**يا بلالُ، ائذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ**»، فدَخَلَ أَبو بكرٍ، فجَلَسَ على يَمينِ رسولِ اللهِ ﷺ، ودَلَّى رِجلَيهِ في البئرِ، فكَشَفَ عن فخِذَيهِ، ثم جاءَ عمرُ يَستَأذِنُ، فقال: «**ائذَن له يا بلالُ، وبَشِّرهُ بالجنةِ**»، فدَخَلَ، فجَلَسَ على يَسارِ رسولِ اللهِ ﷺ، ودَلَّى رِجلَيهِ في البئرِ، وكَشَفَ عن فخِذَيهِ»[2].

فهذا غيرُ محفوظٍ، والصوابُ أَنَّه من روايةِ شَريك، عن سعيدِ بن المسَيّب، عن أَبي موسى، وبلفظ: «ساقَيه»، بدَل: «فخِذَيهِ».

وعليُّ بن سعيدٍ الرازيّ تكَلَّم فيه الدارَقُطنيُّ، قال السهميُّ عنه: «حَدَّثَ بأَحاديثَ لم يُتابَع عليها»، ثم قال: «في نفسي منه، وقد تكَلَّم فيه أَصحابُنا بمِصرَ»، وأشارَ بيَدِه، وقال: «هو كذا وكذا»، كأَنَّه ليس هو بثِقَةٍ[3].

وعبدُ العزيزِ بن محمَدٍ، هو الدّراورديّ، كان يُحَدِّثُ من حِفظِه فيُخطِئُ ويَهِمُ، حتى قال الإمامُ أحمدُ: «إذا حدَّثَ من حفظِه جاءَ ببَواطيلَ»، وقال أبو زُرعَةَ: «سَيِّءُ الحِفظِ»، وقال أبو حاتِمٍ: «لا يُحتَجُّ بهِ»[4].

وقال الحافظُ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ **عن هذه الرِّوايةِ:** «خرَّجَه الطبَرانيّ من حديثِ الدّراورديّ، عن شَريك بن أَبي نَمِرٍ، عن عطاءِ بن يسارٍ، عن أَبي سعيدٍ: «أَنَّ النبيَّ ﷺ دَلَّى رِجلَيهِ في البئرِ، وكَشَفَ عن فخِذَيهِ»، وذكرَ أن أبا بكرٍ وعُمرَ وعُثمانَ جلَسوا معَه، وفعَلوا كَفِعلِه، وكشَفوا عن أفخاذِهِم.

---

(١) موضع بالمدينة.

(٢) المعجم الأوسط (٣٩٨٨).

(٣) سؤالات السهمي للدارقطني (ص١٨١).

(٤) ميزان الاعتدال (٢/ ٦٣٤).

وهذا الإسنادُ وهمٌ، إنَّما رواه شَريك، عنِ ابن المسيّب، عنِ أبي موسى، باللفظِ المذكورِ قبلَهَ[١]، كذلك هو مُخَرَّجٌ في الصحيحينِ من رواية شَريك»[٢].

وقال **الحافظُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ووَقَعَ نَحوُ قِصَّةِ أَبي موسى لِبلالٍ، وذلك فيما أَخرَجَهُ أَبو داوُدَ من طَريقِ إسماعيلَ بن جَعفَرٍ، عن محمدِ بن عَمرٍو، عن أَبي سَلَمَةَ، عن نافِعِ بن عبد الحارِث الخُزاعيِّ، قال: دَخَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حائِطًا من حَوائِطِ المَدينَةِ، فقال لِبلالٍ: «**أَمسِك عَلَيَّ البابَ**»، فجاءَ أَبو بكرٍ يَستَأذِنُ، فذكرَ نحوهُ[٣].

وأَخرَجَهُ الطبَرانيُّ في الأوسَطِ، من حَديثِ أَبي سَعيدٍ نحوهُ.

وهذا -إن صَحَّ- حُمِلَ على التعَدُّدِ، ثم ظَهَرَ لي أَنَّ فيه وهَمًا من بعضِ رواتِهِ، فقد أَخرَجَهُ أَحمَدُ عن يَزيدَ بن هارونَ، عن محمدِ بن عَمرٍو، وفي حَديثِهِ: أَنَّ نافِعَ بن عبدِ الحارِثِ هو الذي كان يَستَأذِنُ[٤].

وهو وهَمٌ أَيضًا، فقد رواهُ أَحمَدُ من طَريقِ موسى بن عُقبَةَ، عن أَبي سَلَمَةَ، عن نافِعٍ فذكرَهُ، وفيه: فجاءَ أَبو بكرٍ فاستَأذَنَ، فقال لِأَبي موسى: «**ائذَن له**»[٥].

وأَخرَجَهُ النسائيُّ من طَريقِ أَبي الزِّنادِ، عَن أَبي سَلمَة، عَن نافِعِ بن عبدِ الحارِثِ، عن أَبي موسى[٦]، وهو الصوابُ.

فرجعَ الحَديثُ إلى أَبي موسى، واتَّحَدَتِ القِصَّةُ، واللهُ أعلَمُ»[٧].

قَولُهُ: «ثم رجعتُ فجَلَستُ، وقد تَرَكتُ أَخي يَتَوَضَّأُ ويَلحقُني، فقُلتُ: إن يُرِدِ اللهُ بفُلانٍ خَيرًا -يُريدُ أَخاهُ- يَأتِ بهِ»:

---

(١) يعني: بذكر الساقين، لا الفخذين.

(٢) فتح الباري لابن رجب (٢/ ٤٠٨).

(٣) سنن أبي داود (٥١٨٨).

(٤) المسند (١٥٣٧٤).

(٥) المسند (١٥٣٧٥).

(٦) السنن الكبرى (٨٠٧٦).

(٧) فتح الباري (٧/ ٣٧).

فيَستَأذِن، فيُؤذَن له، ويُبَشَّر بالجَنّة، كما فُعِل مع أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال بَدرُ الدِّينِ الدَّماميني: «لِأبي موسى أخَوانِ: أبو بُردةَ، وأبو رُهمٍ، فاللهُ أعلمُ أيّهُما كان»[١].

وقال الحافظُ: «كان لِأَبي موسى أَخَوانِ: أَبو رُهمٍ، وأَبو بُردَةَ، وقيلَ: إنَّ له أَخًا آخَرَ اسمُهُ محمدٌ، وأَشهَرُهُم: أَبو بُردَةَ، واسمُهُ عامِرٌ»[٢].

قَولُهُ: «فإذا إنسانٌ يُحَرِّكُ البابَ، فقُلتُ: مَن هذا؟ فقال: عمرُ بن الخَطَّاب، فقُلتُ: على رِسلِكَ»:

«**يُحَرِّكُ البابَ**»، يعني: على سبيلِ الِاستئذانِ[٣]، ففيه حُسنُ الأَدَب في الاستِئذان[٤].

قَولُهُ: «ثم جِئتُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسَلَّمتُ عليه، فقُلتُ: هذا عمرُ بن الخَطَّاب يَستَأذِنُ، فقال: «ائذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ»، فجِئتُ فقُلتُ: ادخُل، وبَشَّرَكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنةِ»:

وتقدَّمَت روايةُ أحمَدَ في شَأنِ أبي بكرٍ وعمر بعدَ البِشارَةِ، قال عن كُلٍّ منهما: «فما زالَ يَحمَدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حتى جَلَسَ».

قَولُهُ: «فدَخَلَ فجَلَسَ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القُفِّ عن يَسارِهِ، ودَلَّى رِجلَيهِ في البئرِ، ثم رجعتُ فجَلَستُ، فقُلتُ: إن يُرِدِ اللهُ بفُلانٍ خَيرًا يَأتِ بهِ»:

وفي سياقٍ للبخاريِّ بعدَ ذِكرِ دُخولِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال أبو موسى: «فجَعَلتُ أَتَمَنَّى أَخًا لي، وأَدعو اللهَ أَن يَأتيَ».

لَم يَزَل لديهِ الأمَلُ في أن يَفِدَ أخوهُ، عسى أن يُصيبَه ما أصابَ أبا بكرٍ وعمرَ وعُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) مصابيح الجامع (٧/ ٢٧٦).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٧)، وينظر: عمدة القاري (١٦/ ١٩٠).

(٣) دليل الفالحين (٥/ ١٨٨).

(٤) فتح الباري (٧/ ٣٧).

ولكِن ذلك فضلُ اللهِ يُؤتيه مَن يشاءُ، واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ.

وأخوه -بكُلِّ حالٍ- منَ الصحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد أصابَ فضلًا عظيمًا، وإن لَم يجلِس في القُفّ، ويُدَلِّ رِجلَيه مع أبي بكرٍ وعمرَ وعُثمانَ، وإن كان دونَهُم في الفضلِ.

قَولُهُ: «فجاءَ إنسانٌ يُحَرِّكُ البابَ، فقُلتُ: مَن هذا؟ فقال: عُثمانُ بن عَفَّانَ، فقُلتُ: على رِسلِكَ، فجِئتُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأَخبَرتُهُ، فقال: «ائذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ، على بَلوى تُصيبُهُ»:

زادَ مسلمٌ: «فقال: اللهُمَّ صَبرًا»، أو: «اللهُ المستَعانُ».

ولأحمَدَ وابنِ حِبَّان، واللفظُ لأحمدَ: «ثم جاءَ آخَرُ فسَلَّمَ، فقال: «**اذهَب فأذَن له، وبَشِّرهُ بالجنةِ على بَلوى شَديدَةٍ**».

قال: فانطَلَقتُ فإذا هو عُثمانُ، فقُلتُ: ادخُل، وأَبشِر بالجنةِ على بَلوى شَديدَةٍ، قال: فجَعَلَ يقولُ: «اللهُمَّ صَبرًا»، حتى جَلَسَ».

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَشارَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبَلوى المَذكورَةِ إلى ما أَصابَ عُثمانَ في آخِرِ خِلافَتِهِ منَ الشَّهادَةِ يَومَ الدَّارِ»[1].

وقال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا البَلاءُ الذي أَصابَهُ هو ما اتَّفَقَ وُقوعُهُ على يَدَي مَن أَنكَرَ عليه من رَعاعِ أَهلِ الأَمصارِ بلا عِلمٍ، فوَقَعَ ما سَنَذكُرُهُ في دَولَتِهِ إن شاءَ اللهُ، من حَصرِهِم إيَّاهُ في دارِهِ، حتى آلَ الحالُ بعدَ ذلك كُلِّهِ إلى اضطِهادِهِ، وقَتلِهِ، وإلقائِهِ على الطريقِ أَيَّامًا، لا يُصَلَّى عليه، ولا يُلتَفَتُ إليه[2]، حتى غُسِّلَ بعدَ ذلك، وصُلِّيَ عليه،

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٨).

(٢) رواه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٠٤٧)، عن مالكٍ، قال: «لما قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألقي على المزبلة ثلاثة أيام، فلما كان من الليل أتاه اثنا عشر رجلا، فيهم حويطب بن عبد العزى، وحكيم بن حزام. وعبد الله ابن الزبير، وجدي، فاحتملوه...». وهذا منقطع لا يصح، وقد أنكره أبو محمد بن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: «وأما قول من قال إنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقام مطروحًا على مزبلة ثلاثة أيام: فكذب بحت، وإفك موضوع، وتوليد من لا حياء في وجهه، بل قتل عشيةً، ودفن من ليلته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شهد دفنه طائفة من الصحابة، وهم: جبير بن مطعم، وأبو الجهم، وعبد الله بن الزبير، ومكرم بن نيار، وجماعة غيرهم، هذا مما لا يتمارى فيه أحد ممن له علم بالأخبار...». الفصل (٤/ ١٢٣).

ودُفِنَ بحَشِّ كَوكَبٍ -بُستانٍ في طَرَفِ البَقيعِ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأَرضاهُ، وجَعَلَ جَنَّاتِ الفِردَوسِ مُتَقَلَّبَهُ ومَثواهُ»[١].

قَولُهُ: «فجِئتُهُ فقُلتُ له: ادخُل، وبَشَّرَكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنةِ على بَلوى تُصيبُكَ، فدَخَلَ، فوَجَدَ القُفَّ قد مُلِئَ، فجَلَسَ وِجاهَهُ منَ الشِّقِّ الآخَرِ».

قال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَخَلَ عُثمانُ فوجَد القُفَّ قدِ امتَلأَ؛ لأنّه ليس واسِعًا كثيرًا، فذهَب إلى الناحيةِ الأُخرى تجاهَهم، وجلَس فيها، ودَلَّى رِجلَيه، وكشَفَ عن ساقَيهِ، أوَّلها سعيدُ بن المسيّب -أحدُ كبارِ التابعينَ- على أنّها قُبورُ هَؤُلاءِ؛ لِأَنَّ قُبور الثَّلاثَةِ كانت في مكانٍ واحدٍ، فالنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكرٍ وعمرُ كلُّهم كانوا في حُجرَةٍ واحدةٍ، دُفِنوا جميعًا في مكانٍ واحدٍ، وكانوا في الدُّنيا يذهَبون جميعًا، ويَرجِعون جميعًا، ودائِمًا يقول النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذهَبتُ أنا وأبو بكرٍ وعُمرُ**»، و«**جِئتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ**»[٢]، فهُما صاحِباه، ووَزيراهُ، ويومَ القيامةِ يخرجون من قُبورِهم جميعًا.

فجلَس عُثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تجاهَهُم، وبَشَّره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجَنَّةِ مع بلوى تُصيبُه، وهذه البَلوى هي ما حَصَل له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من اختلافِ الناسِ عليه، وخُروجِهم عليه، وقَتلِهم إيَّاهُ في بَيتِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَيثُ دخَلوا عليه في بَيتِه، وقَتَلوه وهو يَقرأُ القُرآن، وكِتابُ اللهِ بينَ يديه»[٣].

وعن عبدِ الأَعلى بن أَبي المساوِرِ، قال: حَدَّثَني إبراهيمُ بن محمدِ بن حاطِبٍ، عن

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٧١).

(٢) عن ابن أبي مليكة، قال: سمعت ابن عباس، يقول: وضع عمر بن الخطاب على سريره، فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه، قبل أن يرفع، وأنا فيهم، قال فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت إليه، فإذا هو علي، فترحم على عمر، وقال: ما خلفت أحدًا أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذاك أني كنت أكثر أسمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**جئت أنا وأبو بكر وعمر**»، و«**دخلت أنا وأبو بكر وعمر**»، و«**خرجت أنا وأبو بكر وعمر**». فإن كنت لأرجو، أو: لأظن، أن يجعلك الله معهما». رواه البخاري (٣٦٧٧)، ومسلم (٢٣٨٩)، واللفظ له. **ولفظ البخاري**: رحمك الله، إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك؛ لأني كثيرًا ما كنت أسمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**كنت وأبو بكر وعمر**»، و«**فعلت وأبو بكر وعمر**»، و«**انطلقت وأبو بكر وعمر**».

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ١٢٩).

عبدِ الرحمَنِ بن مُحَيريزٍ، عن زَيدِ بن أَرقَمَ، قال: بَعَثَني رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «**انطَلِق حتى تَأتيَ أَبا بكرٍ، فتَجِدَهُ في دارِهِ جالِسًا مُحتَبيًا، فقُل له: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ عليكَ السلامَ، ويقولُ: أَبشِر بالجنةِ، ثم انطَلِق حتى تَأتيَ الثَّنيَّةَ، فتَلقى عمرَ فيها على حِمارٍ تَلوحُ صَلعَتُهُ، فقُل له: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ عليكَ السلامَ، ويقولُ: أَبشِر بالجنةِ، ثم انطَلِق حتى تَأتيَ السُّوقَ، فتَلقى عُثمانَ فيها يَبيعُ ويَبتاعُ، فقُل له: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ عليكَ السلامَ، ويقولُ: أَبشِر بالجنةِ بعدَ بَلاءٍ شَديدٍ**».

فانطَلَقتُ، فأَتَيتُ أَبا بكرٍ، فوَجَدتُهُ في بَيتِهِ جالِسًا مُحتَبيًا كَما قال رسولُ اللهِ ﷺ، فقُلتُ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ عليكَ السلامَ، ويقولُ: «**أَبشِر بالجنةِ**»، قال: وأَينَ رسولُ اللهِ؟ قُلتُ: في مَكانِ كذا وكذا، فقامَ إليه.

ثم أَتَيتُ الثَّنيَّةَ، فإذا فيها عمرُ على حِمارٍ تَلوحُ صَلعَتُهُ كَما قال رسولُ اللهِ، فقُلتُ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ عليكَ السلامَ، ويقولُ: «**أَبشِر بالجنةِ**»، قال: وأَينَ رسولُ اللهِ؟ فقُلتُ: في مَكانِ كذا وكذا، فانطَلَقَ إليه.

ثم انطَلَقتُ حتى أَتَيتُ السُّوقَ، فلَقيتُ عُثمانَ فيها يَبيعُ ويَبتاعُ كَما قال رسولُ اللهِ، فقُلتُ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ عليكَ السلامَ، ويقولُ: «**أَبشِر بالجنةِ بعدَ بَلاءٍ شَديدٍ**»، فقال: وأَينَ رسولُ اللهِ؟ قُلتُ: في مَكانِ كذا وكذا، فأَخَذَ بيَدي فجِئنا جَميعًا، حتى أَتَينا رسولَ اللهِ ﷺ.

فقال له عُثمانُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ زَيدًا أَتاني، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ عليكَ السلامَ، ويقولُ: «**أَبشِر بالجنةِ بعدَ بَلاءٍ شَديدٍ**»، فأَيُّ بَلاءٍ يُصيبُني يا رسولَ اللهِ؟ والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما تَغَنَّيتُ، ولا تَمَنَّيتُ، ولا مَسِستُ ذكري بيَميني مُنذُ بايَعتُكَ، فقال: «**هو ذاكَ**»[1].

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨٦٨)، والآجري في الشريعة (٤/ ١٩٥٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣٩٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ١٥٠)، وقال البيهقي عقبه: «عبد الأعلى بن أبي المساور ضعيف في الحديث، فإن كان حفظ هذا فيحتمل أن يكون النبي ﷺ بعث زيد بن أرقم إليهم، وأبو موسى لم يعلمه، فقعد على الباب، فلما جاءوا راسلهم على لسان أبي موسى بمثل ذلك، والله أعلم. وقد روي في إخباره بأن عثمان بن عفان رضي الله عنه يقتل أحاديث كثيرة».

وابنُ أبي المساوِرِ هذا مَتروكٌ، تَرَكَه ابنُ المَدينيّ، وأبو زُرعةَ، والبخاريُّ، وأبو داوُدَ، وابنُ نُمَير، والساجي، وأبو نُعَيم الأصبهانيُّ، وغيرُهم.

وقال ابنُ مَعينٍ: «ليس بشيءٍ، كذَّابٌ»، وقال النسائيُّ: «ليس بثِقَةٍ ولا مأمون»[١].

وعن قَيسِ بن أَبي حازِمٍ، عن عائشةَ، قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ في مَرَضِهِ: «**ودِدتُ أَنَّ عِندي بعضَ أَصحابي**»، قُلنا: يا رسولَ اللهِ، أَلا نَدعو لك أَبا بكرٍ؟ فسَكَتَ، قُلنا: أَلا نَدعو لك عمرَ؟ فسَكَتَ، قُلنا: أَلا نَدعو لك عُثمانَ؟ قال: «**نَعَم**».

فَجاءَ، فخَلا بهِ، فجَعَلَ النبيُّ ﷺ يُكَلِّمُهُ، ووَجهُ عُثمانَ يَتَغَيَّرُ.

قال: قَيسٌ، فحَدَّثَني أَبو سَهلَةَ مَولى عُثمانَ، أَنَّ عُثمانَ بن عَفَّانَ قال يَومَ الدَّارِ: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ عَهدًا، وأَنا صابرٌ عليه».

قال قَيسٌ: «فكانوا يُرَونَهُ ذلك اليَومَ»[٢].

وعَنِ النُّعمانِ بن بَشيرٍ، عن عائشةَ، قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا عُثمانُ، إن ولَّاكَ اللهُ هذا الأَمرَ يَومًا، فأَرادَكَ المنافِقونَ أَن تَخلَعَ قَميصَكَ الذي قَمَّصَكَ اللهُ، فلا تَخلَعهُ**»، يقولُ ذلك ثَلاثَ مَرَّاتٍ، قال النُّعمانُ: فقُلتُ لِعائشةَ: ما مَنَعَكِ أَن تُعلِمي الناسَ بهذا؟ قالت: أُنسيتُهُ[٣].

قال السِّنديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المرادُ بالقَميصِ: الخِلافَةُ، وقَولُهُ: «قَمَّصَكَ»، منَ التقميصِ، أَي: أَلبَسَكَ اللهُ إِيَّاهُ»[٤].

و**قال ابنُ بطَّالٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبَرَ ﷺ أَنَّه يموتُ شهيدًا على بَلوى تُصيبُه، فلذلك لَم يَنخَلِع منَ الخِلافةِ، وأَخَذَ بالشِّدَّةِ على نَفسِه؛ طلبًا لعَظيمِ الأجرِ، ولِيَنالَ الشَّهادةَ التي بَشَّرَه الرسولُ ﷺ بها»[٥].

---

(١) تهذيب التهذيب (٦/ ٩٨).

(٢) رواه ابن ماجه (١١٣)، وأحمد (٢٤٢٥٣)، (٢٥٧٩٧)، وابن حبان (٦٩١٨)، والترمذي مختصرا (٣٧١١)، وصححه، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه ابن ماجه (١١٢)، وصححه الألباني.

(٤) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ٥٤).

(٥) شرح صحيح البخارى (٢/ ٣٢٥).

وعَنِ ابنِ عمرَ، قال: ذكرَ رسولُ اللهِ ﷺ فِتنَةً، فمَرَّ رجلٌ، فقال: «**يُقتَلُ فيها هذا المقَنَّعُ يومَئِذٍ مَظلومًا**»، قال: فنَظَرتُ، فإذا هو عُثمانُ بن عَفَّانَ[١].

وعن مُرَّةَ البَهزيِّ رضي الله عنه، قال: بينَما نَحنُ مع نبيِّ اللهِ ﷺ في طَريقٍ من طُرُقِ المَدينَةِ، فقال: «**كَيفَ تَصنَعونَ في فِتنَةٍ تَثورُ في أَقطارِ الأَرضِ كَأَنَّها صَياصي بَقَرٍ؟**».

قالوا: نَصنَعُ ماذا يا نبيَّ اللهِ؟ قال: «**عليكُم بهذا وأَصحابِهِ**» أو: «**اتَّبعوا هذا وأَصحابَهُ**».

قال: فأَسرَعتُ حتى عَطَفتُ على الرجُلِ، فقُلتُ: هذا يا نبيَّ اللهِ؟ قال: «**هذا**».

فإذا هو عُثمانُ بن عَفَّانَ[٢].

قال ابنُ الأَثيرِ رحمه الله: «**كَأَنَّها صَياصي بقَر**»، أَي: قُرونُها، واحدتُها صيصيَة، بالتخفيفِ.

شَبَّه الفِتنَةَ بها؛ لشِدَّتها، وصُعوبة الأمرِ فيها، وكلُّ شيءٍ امتُنع بهِ وتُحصِّنَ بهِ فهو صيصيَةٌ.

ومنه قيلَ للحُصون: «الصياصي».

وقيلَ: شبَّه الرِّماحَ التي تُشرَع في الفِتنةِ وما يُشبهُها من سائِرِ السِّلاحِ بقرونِ بَقَرٍ مُجتَمِعَةٍ»[٣].

وعن أَبي الأَشعَثِ الصنعانيِّ، قال: قامَت خُطَباءُ بإيلياءَ في إمارَةِ مُعاويَةَ فتكَلَّموا، وكان آخِرَ مَن تَكَلَّمَ مُرَّةُ بن كَعبٍ، فقال: لَولا حَديثٌ سَمِعتُهُ من رسولِ اللهِ ﷺ ما قُمتُ، سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَذكُرُ فِتنَةً فقَرَّبَها، فمَرَّ رجلٌ مُتَقَنِّعٌ، فقال: «**هذا يَومَئِذٍ وأَصحابُهُ على الحقِّ والهُدى**»، فقُلتُ: هذا يا رسولَ اللهِ؟ وأَقبَلتُ بوَجهِهِ إليه، فقال: «**هذا**»، فإذا هو عُثمانُ[٤].

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٠٨)، وقال: «حسن غريب»، وأحمد (٥٩٥٣)، وصححه محققو المسند لغيره.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٣٥٣)، وابن حبان في صحيحه (٦٩١٤)، وصححه محققو المسند.

(٣) النهاية (٣/ ٦٧).

(٤) رواه الترمذي (٣٧٠٤)، وصححه، وأحمد (١٨٠٦٨)، والحاكم (٤٥٥٢)، وصححه محققو المسند.

وعن عبدِ اللهِ بن حَوالَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يا ابنَ حَوالَةَ، كَيفَ تَفعَلُ في فِتنَةٍ تَخرُجُ في أَطرافِ الأَرضِ، كَأَنَّها صَياصي بَقَرٍ؟»**.

قُلتُ: لا أَدري، ما خارَ اللهُ لي ورسولُهُ[١].

قال: **«وكَيفَ تَفعَلُ في أُخرى تَخرُجُ بعدَها، كَأَنَّ الأولى فيها انتِفاجَةُ أَرنَبٍ[٢]؟»**.

قُلتُ: لا أَدري، ما خارَ اللهُ لي ورسولُهُ.

قال: **«اتَّبعوا هذا»**.

قال: ورجلٌ مُقَفٍّي حينَئِذٍ، قال: فانطَلَقتُ فسَعَيتُ، وأَخَذتُ بمَنكِبَيهِ، فأَقبَلتُ بوَجهِهِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُلتُ: هذا؟

قال: **«نَعَم»**.

قال: وإذا هو عُثمانُ بن عَفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣].

وعن ابنِ حَوالَةَ أيضًا، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«مَن نَجا من ثَلاثٍ فقد نَجا -ثَلاثَ مَرَّاتٍ-: مَوتي، والدَّجَّالُ، وقَتلُ خَليفَةٍ مُصطَبِرٍ[٤] بالحقِّ مُعطيهِ»**[٥].

قال النوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَمَّا عُثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فخِلافَتُهُ صَحيحَةٌ بالإجماعِ، وقُتِلَ مَظلومًا، وقَتَلَتُهُ فسَقَةٌ؛ لِأَنَّ موجِباتِ القَتلِ مَضبوطَةٌ، ولَم يَجرِ منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يَقتَضيهِ، ولَم يُشارِك في قَتلِهِ أَحَدٌ منَ الصحابَةِ، وإنَّما قَتَله هَمَجٌ، ورَعاعٌ من غَوغاءِ القَبائِلِ، وسَفَلَةِ الأَطرافِ، والأَرذالِ، تَحَزَّبوا وقَصَدوهُ من مِصرَ، فعَجَزَتِ الصحابَةُ الحاضِرونَ عن دَفعِهِم، فحَصَروهُ حتى قَتَلوهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[٦].

---

(١) خار الشيء: انتقاه واصطفاه.

(٢) أي: كوثبته من موضعه، يريد تقليل مدتها. لسان العرب (٢/ ٣٨١).

(٣) رواه الإمام أحمد (١٧٠٠٤)، وصححه محققو المسند.

(٤) المصطبر: المكتسب الصبر، المليء به. مدارج السالكين (٢/ ١٥٨).

(٥) رواه الإمام أحمد (١٦٩٧٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٧٤٧٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١١٧٧)، وحسنه محققو المسند.

(٦) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٤٨).

وقال **شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت خِلافَةُ عُثمانَ هادِيَةً مَهديَّةً ساكِنَةً، والأُمَّةُ فيها مُتَّفِقَةٌ، وكانت سِتَّ سِنينَ لا يُنكِرُ الناسُ عليه شَيئًا، ثم أَنكَروا أَشياءَ في السِّتِّ الباقيَةِ، والذينَ خرجوا على عُثمانَ طائِفَةٌ من أوباشِ الناسِ»[١].

«**أَفطِر عِندَنا اللَّيلَةَ**».

جاء من طرقٍ مُتعددةٍ أنَّ أميرَ المؤمنينَ عُثمانَ بن عَفانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رأى النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة استُشهِد، وهو يقول له: «**أَفطِر عِندَنا اللَّيلَةَ**»، فأصبح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صائمًا، فعَدَوا عليه، فقَتَلوه.

فعن أَبي سَعيدٍ مَولى أَبي أُسَيدٍ الأَنصاريِّ، قال: سَمِعَ عُثمانُ أَنَّ وفدَ أَهلِ مِصرَ قد أَقبَلوا، فاستَقبَلهم...، وساقَ الحديثَ، وفيه: أَنَّهُ رَأى منَ اللَّيلِ أَنَّ نبيَّ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ له: «**أَفطِر عِندَنا اللَّيلَةَ**»[٢].

وعَنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ عُثمانَ أَصبَحَ فحَدَّثَ، فقال: إِنِّي رَأَيتُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المَنامِ اللَّيلَةَ، فقال: «**يا عُثمانُ، أَفطِر عِندَنا**»، فأَصبَحَ عُثمانُ صائِمًا، فقُتِلَ من يَومِهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣].

وعَنِ امرَأَةِ عُثمانَ، قالت: أغفى عُثمانُ، فلما استَيقَظَ قال: «إِنَّ القَومَ يَقتُلونَني»، قُلتُ: كَلَّا يا أَميرَ المؤمِنينَ، قال: «رَأَيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَبا بكرٍ، وعمرَ، فقالوا: «**أَفطِر عِندَنا اللَّيلَةَ**»، أو قالوا: «**إِنَّكَ تُفطِرُ عِندَنا اللَّيلَةَ**»[٤].

وعن أَبي قِلابَةَ، قال: قال عُثمانُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي غفوتُ آنِفًا، فرَأَيتُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَبا بكرٍ وعمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال لِيَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَفطِر عِندَنا اللَّيلَةَ**»، فعَلِمتُ أَنَّهُ اليَومُ الذي أُقتَلُ فيه.

قال: فدَخَلوا، فقَتَلوهُ[٥].

---

(١) منهاج السنة النبوية (٨/ ٢٣٤).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٩١٩).

(٣) رواه الحاكم (٤٥٥٤)، وابن أبي شيبة (٣٠٥١١).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٥١٠)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٤/ ١٢٢٧).

(٥) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة (٤/ ١٢٢٧).

وعن مسلمٍ أَبي سَعيدٍ مَولى عُثمانَ بن عَفَّانَ، أَنَّ عُثمانَ بن عَفَّانَ قال: إِنِّي رَأَيتُ رسولَ اللهِ ﷺ البارِحَةَ في المَنامِ، ورَأَيتُ أَبا بكرٍ وعمرَ، وإِنَّهُم قالوا لي: «**اصبر، فإِنَّكَ تُفطِرُ عِندَنا القابلَةَ**»، ثم دَعا بمُصحَفٍ فنَشَرَهُ بينَ يَدَيهِ، فقُتِلَ وهو بينَ يَدَيهِ[1].

وقال الحافظُ البَيهَقيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رويَت هذه الرُّؤيا من أوجُهٍ كَثيرَةٍ»[2].

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثَبَتَ من غيرِ وجهٍ: أَنَّ أَوَّلَ قَطرَةٍ من دَمِهِ سَقَطَت على قَولِهِ تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

ويُروى أَنَّهُ كان قد وصَلَ إِلَيها في التِّلاوَةِ أَيضًا حينَ دَخَلوا عليه، وليس ببَعيدٍ؛ فإِنَّهُ كان قد وضَعَ المصحَفَ يَقرَأُ فيه القُرآنَ»[3].

وعن عَمرَةَ العَدَويَّةِ، قالت: خرجتُ مع عائشةَ سنةَ قُتِلَ عُثمانُ إِلى مكةَ، فمَرَرنا بالمَدينَةِ، ورَأَينا المصحَفَ الذي قُتِلَ وهو في حِجرِهِ، فكانت أَوَّلُ قَطرَةٍ قَطَرَت من دَمِهِ على هذه الآيةِ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

قالت عَمرَةُ: «فما ماتَ منهم رجلٌ سَويًّا»[4].

وقال ابنُ كَثيرٍ أَيضًا: «كان كِبارُ الصحابَةِ قد بَعَثوا أَولادَهُم إِلى الدَّارِ؛ يُجاحِفونَ عن عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]، لِكَي تَقدَمَ الجُيوشُ منَ الأَمصارِ لِنُصرَتِهِ، فما فَجَأَ الناسَ إِلا وقد ظَفِرَ أُولَئِكَ بالدَّارِ من خارِجِها، وأَحرَقوا بابَها، وتَسَوَّروا عليه حتى قَتَلوهُ.

وأَمَّا ما يَذكُرُهُ بعضُ الناسِ من أَنَّ بعضَ الصحابَةِ أَسلَمَهُ ورَضِيَ بقَتلِهِ: فهذا لا يَصِحُّ عن أَحَدٍ منَ الصحابَةِ أَنَّهُ رَضِيَ بقَتلِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَل كُلُّهُم كَرِهَهُ، ومَقَتَهُ، وسَبَّ

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٥٢٦).

(٢) دلائل النبوة (٧/ ٤٨).

(٣) البداية والنهاية (١٠/ ٣١٠).

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في فضائل عثمان (١٤٤)، وإسناده صحيح إلى عمرة.

(٥) أي: يدافعون عنه.

مَن فعَله، ولكنَّ بعضَهُم كان يَوَدُّ لَو خَلَعَ نَفسَهُ منَ الأَمرِ، كَعَمَّارِ بنِ ياسِرٍ، ومحمدِ بن أَبي بكرٍ، وعَمرِو بن الحَمِقِ، وغيرِهِم.

ولَقد أَحسَنَ بعضُ السلَفِ حَيثُ يقولُ- وقد سُئِلَ عن عُثمانَ-: «هو أَميرُ البَرَرَةِ، وقَتيلُ الفَجَرَةِ، مَخذولٌ مَن خَذَله، مَنصورٌ مَن نَصَرَهُ[١]»[٢].

وعن محمدِ ابنِ الحَنَفيَّةِ، قال: بلغَ عَليًّا أَنَّ عائشةَ تَلعَنُ قَتَلَةَ عُثمانَ، قال: فرَفَعَ يَدَيهِ حتى بلغَ بِهِما وجهَهُ، فقال: «وأَنا أَلعَنُ قَتَلَةَ عُثمانَ، لَعَنَهُمُ اللهُ في السهلِ والجَبَلِ»، قال مَرَّتَينِ، أو ثَلاثًا[٣].

دَور عبد الله بن سَبَأ اليَهودي في السعي في الفتنة ومقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان عبدُ اللهِ بن سَبَأٍ شَيخُ الرافِضَةِ لَمَّا أَظهَرَ الإسلامَ، أَرادَ أَن يُفسِدَ الإسلامَ بمَكرِهِ وخُبثِهِ، كَما فَعَلَ «بولصُ» بدينِ النصارى، فأَظهَرَ النُّسكَ، ثم أَظهَرَ الأَمرَ بالمَعروفِ، والنهيَ عَنِ المنكَرِ، حتى سَعى في فِتنَةِ عُثمانَ وقَتلِهِ، ثم لَمَّا قدِمَ على الكوفَةِ أَظهَرَ الغُلوَّ في عَليٍّ والنصّ عليه؛ ليَتَمَكَّنَ بذلك من أَغراضِهِ، وبلغَ ذلك عَليًّا، فطَلَبَ قَتله فهَرَبَ منه إلى قَرقيسيا[٤]، وخَبَرُهُ مَعروفٌ، وقد ذكرَهُ غيرُ واحدٍ منَ العُلَماءِ»[٥].

وقال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكرَ سَيفُ بن عمرَ أَنَّ سَبَبَ تَأَلُّب الأَحزاب على عُثمانَ: أَنَّ رجلًا يُقالُ له عبدُ اللهِ بن سَبَأٍ، كان يَهوديًّا فأَظهَرَ الإسلامَ، وصارَ إلى مِصرَ، فأوحى

---

(١) عن عبد الله بن صالح العجلي، قال: قيل للحكم بن هشام الثقفي: يا أبا محمد، ما تقول في عثمان؟ قال: «كان -والله- خيار الخيرة، أمير البررة، قتيل الفجرة، منصور النصرة، مخذول الخذلة، أما خاذله فقد خذله الله، وأما قاتله فقد قتله الله، وأما ناصره فقد نصره الله». تاريخ دمشق (١٥/ ٨٨)، بغية الطلب (٦/ ٢٨٩٦)، تهذيب الكمال (٧/ ١٥٧).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٣٤٥).

(٣) رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٥٥)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٤/ ١٢٦٠)، وإسناده صحيح.

(٤) مدينة بين العراق وديار مضر. المخصص لابن سيده (٥/ ٥٤).

(٥) منهاج السنة النبوية (٨/ ٤٧٩).

إلى طائِفَةٍ منَ الناسِ كَلامًا اختَرَعَهُ من عِندِ نَفسِهِ، مَضمونُهُ أَنَّهُ يقولُ للرَّجُلِ: «أَليس قد ثَبَتَ أَنَّ عيسى ابنَ مَريَمَ سَيَعودُ إلى هذه الدُّنيا؟»، فيقولُ الرجُلُ: بَلى، فيقولُ له: «فرسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفضَلُ منه، فما تُنكِرُ أَن يَعودَ إلى هذه الدُّنيا، وهو أَشرَفُ من عيسى ابنِ مَريَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟»، ثم يقولُ: «وقد كان أوصى إلى عَلِيِّ بن أَبي طالِبٍ، فمحمدٌ خاتَمُ الأَنبياءِ، وعَلِيٌّ خاتَمُ الأوصياءِ»، ثم يقولُ: «فهو أَحقُّ بالإمرَةِ من عُثمانَ، وعُثمانُ مُعتَدٍ في وِلايَتِهِ ما ليس له».

فَأَنكَروا عليه، وأَظهَروا الأَمرَ بالمَعروفِ والنهيَ عَنِ المنكَرِ، فافتُتِنَ بهِ بَشَرٌ كَثيرٌ من أَهلِ مِصرَ، وكَتَبوا إلى جَماعاتٍ من عَوامِّ أَهلِ الكوفَةِ والبَصرَةِ، فتَمالَؤوا على ذلك، وتَكاتَبوا فيه، وتَواعَدوا أَن يَجتَمِعوا في الإنكارِ على عُثمانَ، وأَرسَلوا إليه مَن يُناظِرُهُ، ويَذكُرُ له ما يَنقِمونَ عليه من تَوليَتِهِ أَقرِباءَهُ وذَوي رَحِمِهِ، وعَزلِهِ كِبارَ الصحابَةِ، فدَخَلَ هذا في قُلوبِ كَثيرٍ منَ الناسِ»[1].

وقال **الحافظُ أبو القاسِمِ بن عَساكِر** رَحِمَهُ اللَّهُ: «عبدُ اللهِ بن سَبَأٍ الذي يُنسَبُ إليه السبئِيَّةُ -وهُمُ الغُلاةُ منَ الرافِضَة- أصلُه من أَهلِ اليَمَنِ، كان يَهوديًّا وأظهرَ الإسلامَ، وطافَ بلادَ المسلمينَ لِيَلفِتَهُم عن طاعَةِ الأَئِمَّةِ، ويُدخِلَ بينَهم الشَّرَّ، وقد دخَلَ دِمَشقَ لِذلك في زَمَنِ عُثمانَ بن عفَّانَ»[2].

وقال **ابنُ الأَثيرِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان عبدُ اللهِ بن سَبَأٍ يَهوديًّا، وأَسلَمَ أَيَّامَ عُثمانَ، ثم تَنَقَّلَ في الحِجازِ، ثم بالبَصرَةِ، ثم بالكوفَةِ، ثم بالشَّامِ؛ يُريدُ إضلالَ الناسِ، فلم يَقدِر منهم على ذلك، فأَخرَجَهُ أَهلُ الشَّامِ، فأَتى مِصرَ، فأَقامَ فيهم، وقال لهم: «العَجَبُ مِمَّن يُصَدِّقُ أَنَّ عيسى يَرجِعُ، ويُكَذِّبُ أَنَّ محمدًا يَرجِعُ».

فَوَضَعَ لهمُ الرجعَةَ، فقُبلَت منه، ثم قال لهم بعدَ ذلك: «إنَّهُ كان لِكُلِّ نبيٍّ وصيٌّ، وعَلِيٌّ وصيُّ محمدٍ، فمَن أَظلَمُ مِمَّن لَم يُجِز وصيَّةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووَثَبَ على وصيِّهِ، وإنَّ

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) تاريخ دمشق (٢٩/ ٣).

عُثمانَ أَخَذَها بغيرِ حقٍّ، فانهَضوا في هذا الأَمرِ، وابتَدِءوا بالطعنِ على أُمَرائِكُم، وأَظهِروا الأَمرَ بالمَعروفِ، والنهيَ عَنِ المنكَرِ؛ تَستَميلوا بِهِ الناسَ».

وبَثَّ دُعاتَهُ، وكاتَبَ مَنِ استَفسَدَ في الأَمصارِ وكاتَبوهُ، ودَعَوا في السِّرِّ إلى ما هو عليه رَأيُهُم، وصاروا يَكتُبونَ إلى الأَمصارِ بكُتُبٍ يَضَعونَها في عَيبِ وُلاتِهِم، ويَكتُبُ أَهلُ كُلِّ مِصرٍ منهم إلى مِصرٍ آخَرَ بما يَصنَعونَ»[1].

وهَكذا بَثّ هذا الخَبيثُ الفتنَةَ بينَ المسلمينَ، وسَعى بينهم بالفَسادِ، فأطاعَهُ قومٌ من الطغامِ وسَفَلَةِ الناسِ، حتى قتَلوا أميرَ المؤمِنينَ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يَقِفِ الأمرُ عِندَ هذا الحَدِّ، فقدِ استَمَرَّت الفتنَةُ، وتَحَزَّبَ الناسُ، وتفَرَّقَ المسلمونَ، حتى قُتِلَ أميرُ المؤمِنينَ عَليُّ بن أبي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهَلَك فيه رجلان: مُفرِطٌ في حُبِّهِ، ومُفرِطٌ في بُغضِه.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَهلِكُ في رجلانِ: مُفرِطٌ في حُبِّي، ومُفرِطٌ في بُغضي»[2].

عَودةٌ لِشرحِ الحَديثِ:

قَولُهُ: «قال سَعيدُ بن المسَيِّب: «فأوَّلتُها قُبورَهُم»:

وفي لفظٍ في الصحيحَين: «قال ابنُ المسَيِّب: «فتَأوَّلتُ ذلك قُبورَهُم، اجتَمعت ها هُنا، وانفَرَدَ عُثمانُ».

ولِبَحشَل: «فأوَّلتُهُ انتِباذَ قَبرِهِ من قُبورِهِم».

وعِندَ الرُّوياني: «فأوَّلتُ ذلك ابتِرازَ قَبرِهِ من قُبورِهُم».

ورواهُ ابنُ عَساكِر باللفظَينِ.

قال الحافظُ: «فيه وُقوعُ التأويلِ في اليَقِظَةِ، وهو الذي يُسَمَّى الفِراسَةَ، والمرادُ:

---

(١) الكامل في التاريخ (٢/ ٥٢٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٢١٣٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٧٦)، وحسنه الألباني في تخريج السنة.

اجتِماعُ الصاحِبينِ مع النبيِّ ﷺ في الدَّفنِ، وانفِرادُ عُثمانَ عنهم في البَقيعِ، وليس المرادُ خُصوصَ صورَةِ الجُلوسِ الواقِعَةِ.

ولَو ثَبَتَ الخَبَرُ الذي أَخرَجَهُ أَبو نُعَيمٍ عن عائشةَ في صِفَةِ القُبورِ الثَّلاثَةِ: أَبو بكرٍ عن يَمينِهِ، وعمرُ عن يَسارِهِ، لَكان فيه تَمامُ التشبيهِ، ولكن سَنَدُهُ ضَعيفٌ، وعارَضَهُ ما هو أَصَحُّ منه.

وأَخرَجَ أَبو داوُدَ والحاكِمُ من طَريقِ القاسِمِ بن محمدٍ، قال: «قُلتُ لِعائشةَ: يا أُمَّاهُ، اكشِفي لي عن قَبرِ رسولِ اللهِ ﷺ وصاحِبَيهِ، فكَشَفَت لي...»، الحَديثُ.

وفيه: «فرَأَيت رسولَ اللهِ ﷺ، فإذا أَبو بكرٍ رَأسُهُ بينَ كَتِفَيهِ، وعمرُ رَأسُهُ عِندَ رِجلَيِ النبيِّ ﷺ[1]»[2].

ومنَ الفَوائِدِ المستَفادَةِ من هذه القِصَّةِ:

* فيه: التصريحُ بفَضيلَةِ هَؤُلاءِ الثَّلاثَة: أَبو بكرٍ وعمرُ وعُثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأَن أَبا بكرٍ أفضَلُهم؛ لسَبقِه بالبِشارَةِ بالجنةِ، ولجُلوسِه على يَمينِ النبيِّ ﷺ[3].

* **وفيه:** فضيلَةٌ لِأَبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) عن القاسم بن محمد، قال: «دخلت على عائشة فقلت: يا أماه، اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه، فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة، ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء، فرأيت رسول الله ﷺ مقدمًا، وأبا بكر رأسه بين كتفي النبي ﷺ، وعمر رأسه عند رجلي النبي ﷺ».
رواه أبو داود (٣٢٢٠)، والحاكم (١٣٦٨)، واللفظ له، ومن طريقه البيهقي (٦٧٥٨)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود.
«لا مشرفة»، أي: لا مرتفعة غاية الارتفاع، وقيل: أي: عالية أكثر من شبر، «ولا لاطئة»، أي: ليست مستوية على وجه الأرض، «مبطوحة»، أي: مسواة مبسوطة على الأرض.
«العرصة»: جمعها عرصات، وهي كل موضع واسع لا بناء فيه، و«البطحاء»: مسيل واسع فيه دقاق الحصى، والمراد بها هنا: الحصى؛ لإضافتها إلى العرصة، و«الحمراء»: صفة للبطحاء أو العرصة. عون المعبود (٩/ ٢٨).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٨).

(٣) عمدة القاري (١٦/ ١٨٩).

* **وفيه**: جَوازُ الثَّناءِ على الإنسانِ في وجهِهِ، إذا أُمِنَت عليه فِتنَةُ الإعجاب ونَحوِهِ.

* **وفيه** مُعجِزَةٌ ظاهِرَةٌ للنبيِّ ﷺ؛ لِإخبارِهِ بقِصَّةِ عُثمانَ والبَلوى، وأَنَّ الثَّلاثَةَ يَستَمِرُّونَ على الإيمانِ والهُدى[1].

* بَوَّب لَه البخاريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ نَكتِ العودِ في الماءِ والطِّينِ»، ثم أوردَهُ عن أَبي موسى: «أَنَّهُ كان مع النبيِّ ﷺ في حائِطٍ من حيطانِ المَدينَةِ، وفي يَدِ النبيِّ ﷺ عودٌ يَضرِبُ بِهِ بينَ الماءِ والطِّينِ».

قال الحافظُ: «وفِقهُ الترجَمَةِ: أَنَّ ذلك لا يُعَدُّ منَ العَبَثِ المَذمومِ؛ لِأَنَّ ذلك إنَّما يَقَعُ منَ العاقِلِ عِندَ التفكُّرِ في الشَّيءِ، ثم لا يَستَعمِلُهُ فيما لا يَضُرُّ تَأثيرُهُ فيه، بخِلافِ مَن يَتَفَكَّرُ وفي يَدِهِ سِكِّينٌ فيَستَعمِلُها في خَشَبَةٍ تَكونُ في البناءِ -مثلًا- فتحدِثُ فيه فسادًا، فذاك هو العَبَثُ المَذمومُ»[2].

* **وقال بَدرُ الدِّين العَيني**: «كانت عادَةُ العَرَب أَخذُ المِخصَرَةِ والعَصا والاِعتمادُ عليها عِندَ الكَلام والمَحافِلِ والخُطبَة، وهي مَأخوذَةٌ من أصلٍ كريمٍ ومَعدنٍ شريفٍ، ولا يُنكِرُها إلا جاهِلٌ، وقد جمع اللهُ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في عَصاهُ من البَراهينِ العِظامِ ما آمَنَ بِهِ السحَرَةُ المعانِدونَ له، واتَّخَذَها سُلَيمانُ بن داوُد عليهما السلامُ لخُطبَتِه ومَوعِظتِه وطولِ صلاتِه، وكان ابنُ مَسعودٍ صاحبَ عَصا رسولِ اللهِ ﷺ، وكان يخطُبُ بالقَضيب، وكَفى بذلك شَرَفًا للعَصا، وفي استِعمالِ الشَّارِعِ المِخصَرَةَ الحُجَّةُ البالِغَةُ على مَن أنكَرَها»[3].

وهذا لا يَعني أَنَّ حَملَ العَصا مَشروعٌ مُطلَقًا، وإنَّما تُتَّخَذُ وتُحمَلُ عِندَ الحاجَةِ إليها، أَمَّا عِندَ عدَمِ الحاجَةِ فليس من السُّنَّة حَملُها، لا لخَطيبٍ ولا غيرِه.

قال عُلَماءُ اللَّجنَةِ الدَّائِمَةِ: «السُّنَّة أن يخطُبَ الخَطيبُ على منبَرٍ؛ اقتِداءً بالرّسولِ

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٧٠).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٥٩٧).

(٣) عمدة القاري (٢٢/ ٢٢٢).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويكون ارتِفاعُه مُتوسِّطًا بقدر ما يكفي لإبلاغِ المصَلِّين ورُؤيَتِهم للخَطيب، وأمَّا إمساكُ الخَطيب العَصا أو نحوها مِمَّا يَتَّكِئُ عليه: فإنَّه يُشرَعُ ذلك إذا لَم يكُن فيه مِنبَر؛ ليكونَ ذلك عَونًا له في رباطَةِ جَأشِه، ولتقليلِ حَرَكتِه، أمَّا بعدَ اتِّخاذِ المنبَر فلا يُسَنُّ اتِّخاذُ العَصا ونَحوِها؛ لأنَّه لَم يُحفَظ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ اتِّخاذِ المنبَرِ أنّه كان يرقاه بسيفٍ أو قَوسٍ أو عصا ونحوِ ذلك، إلا إذا احتاجَ الخَطيبُ إلى اتِّخاذِ العَصا؛ لِلاعتمادِ عليها لِكِبَرٍ ونحوِه، فلا مانِعَ منه»[1].

وقال **ابنُ عُثَيمينَ**: «الصوابُ: أنَّ حَملَ العَصا ليس بسُنَّةٍ، لكِن إذا كان في مَكانٍ يحتاجُ إلى حَمِلِها فهو سُنَّةٌ، كما لو كان في أرضٍ كثيرةِ الكِلاب العاديَة، التي تَعدو على الإنسانِ، أو خافَ على نفسِه من إنسانٍ آخرَ فحمَل العَصا، فهُنا نقول: إنَّه مُستَحَبٌّ للدِّفاعِ عن نَفسِه، أمَّا بدون سبَبٍ: فليس مُستَحبًّا»[2].

* وفيه: ذِكرُ اللهِ عِندَ المصيبةِ، والاِستِعانةُ به عِندَ حُصولِ البَلوى، وقبلَ حُصولِها، ففي ذلك ما يَحمِلُ على الصبرِ، والرِّضا بالمَقدورِ، وحُسن الظَّنّ باللهِ، ففي هذا الحديثَ لما بُشِّرَ عُثمانُ بالجنةِ، على بَلوى تُصيبُهُ، قال: «اللهُمَّ صَبرًا»، أو: «اللهُ المستَعانُ».

* وفيه: أنَّ الاِستِعانةَ باللهِ تُخفِّفُ من شِدَّةِ المصيبةِ، ووَقعِها على النفس.

* وفيه: قوَّةُ إيمانِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورباطَةُ جَأشِه، وعزيمةُ قلبه، واستعانتُه بربِّه، وشدَّةُ حيائِه، وتحَلِّيه بالصبرِ قبلَ حُصولِ البلاءِ، وعدَمُ تَسَخُّطِه على المَقدور، ورِضاهُ بما قَسَم اللهُ له، وسلامةُ صَدرِه؛ حَيثُ لَم يَتَنكّد قلبُه، إذ عوفيَ صاحِباه، وخُصَّ دونَهما ببَلِيَّةٍ تُصيبُه.

* وفيه **من فضائِلِه**: أنّ اللهَ تعالى جَمَع لهُ بينَ مَقامَيِ الشُّكرِ والصبرِ في موقِفٍ واحدٍ؛ حَيثُ بُشِّرَ بالجَنَّة، وهذا يستَوجِبُ الشُّكرَ، وأُعلِمَ بحُصول البَلِيَّةِ، وهذا يستَوجِبُ الصبرَ.

* وفيه: البِشارةُ بالخَيرِ لأهلِ الخَيرِ والصلاحِ والفضلِ.

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة (٧/ ١٠٩-١١٠).

(٢) لقاء الباب المفتوح (٥٥/ ١٣)، بترقيم الشاملة.

* وفيه: حَمدُ اللهِ على النِّعمةِ؛ ففي الحديثِ: أنَّ أبا موسى لَمَّا بَشَّر أبا بكرٍ وعُمرَ بالجنّةِ، قال عن كلّ واحدٍ منهما: «فما زالَ يَحمَدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حتى جَلَسَ».

* وفيه: مَحَبَّةُ الخَير للأقرَبين من الإخوةِ وغيرِهم، وتمَنِّيه لهُم؛ ففي الحديثِ: أنّ أبا موسى لما بَشَّر أبا بكرٍ بالجَنَّةِ قال: «وقد تَرَكتُ أَخي يَتَوَضَّأُ ويَلحقُني، فقُلتُ: إن يُرِدِ اللهُ بفُلانٍ خَيرًا -يُريدُ أَخاهُ- يَأتِ بِهِ».
ولنا في نبيِّ اللهِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُسوَةٌ حَسنةٌ؛ إذ دَعا ربَّه قائلًا: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ [طه: ٢٥-٣٥]، فاستجابَ اللهُ لهُ، فقال سبحانه: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

* وفيه: حِراسَةُ وحِمايَةُ أهلِ العِلمِ والفَضلِ.

* وفيه: مُلازَمَةُ أبي بكرٍ وعمرَ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومُرافَقَتُهُما له.
عَنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: إنِّي لَواقِفٌ في قَومٍ، فدَعَوُا اللهَ لِعمرَ بن الخَطَّاب، وقد وُضِعَ على سَريرِهِ، إذا رجلٌ من خَلفي قد وضَعَ مِرفَقَهُ على مَنكِبي، يقولُ: «رَحِمَكَ اللهُ، إن كُنتُ لَأَرجو أَن يَجعَلك اللهُ مع صاحِبَيكَ؛ لِأَنِّي كَثيرًا ما كُنتُ أَسمَعُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**كُنتُ وأَبو بكرٍ وعمرُ**»، و«**فعَلتُ وأَبو بكرٍ وعمرُ**»، و«**انطَلَقتُ وأَبو بكرٍ وعمرُ**»، فإن كُنتُ لَأَرجو أَن يَجعَلك اللهُ معهما». فالتَفَتُّ، فإذا هو عَليُّ بن أَبي طالِبٍ[1].

* وفيه شاهِدٌ لقَولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما بَعَثَ اللهُ من نبيٍّ، ولا استَخلَفَ من خَليفَةٍ، إلا كانت له بطانَتانِ**[2]: **بطانَةٌ تَأمُرُهُ بالمَعروفِ وتَحُضُّهُ عليه، وبطانَةٌ تَأمُرُهُ بالشَّرِّ وتَحُضُّهُ عليه، فالمَعصومُ مَن عَصَمَ اللهُ تعالى**»[3].

وهَؤُلاءِ هُم بطانَةُ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أبو بكرٍ وعمرُ وعُثمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٧)، ومسلم (٢٣٨٩)، وقد تقدم.
(٢) **قال ابن الأثير**: «بطانة الرجل: صاحب سره، وداخلة أمره، الذي يشاوره في أحواله». النهاية (١/ ١٣٦).
(٣) رواه البخاري (٧١٩٨).

* **ومن فوائِدِ الحَديثِ**: تذكيرُ المسلمينَ بفَضلِ أبي بكرٍ وعُمر وعُثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وحُبّهم، وبُغض مَن يَسُبُّهم ويُبغِضُهم.

والمسلم يَتَقَرّب إلى اللهِ تعالى بمَحَبَّة أهلِ العلمِ والفضلِ والصلاحِ، وخاصَّة أصحاب النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنّ ذلك من أسباب حُصولِ مَعيَّتِهم؛ فالمَرءُ مع مَن أحَبّ، فعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رجلًا سألَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الساعةِ، فقال: مَتى الساعةُ؟ قال: «**وماذا أَعدَدتَ لها؟**»، قال: لا شيءَ، إلا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أَنتَ مع مَن أَحبَبتَ**».

قال أَنَسٌ: فما فَرِحنا بشيءٍ فرَحَنا بقَولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنتَ مع مَن أَحبَبتَ**».

قال أَنَسٌ: «فأَنا أُحِبُّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَبا بكرٍ، وعمرَ، وأَرجو أَن أَكونَ معهم بحُبِّي إيَّاهُم، وإن لَم أَعمَل بمِثلِ أَعمالِهم»[1].

* **وفيه**: فِراسَةُ سَعيدِ بن المسَيِّب رَحِمَهُ اللَّهُ، وفِطنَتُه، وجَودَة عقلِه.



(١) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

٥

ضيوفُ
الصدِّيقِ

ضيوفُ الصدِّيقِ

عن عبدِ الرحمَنِ بن أَبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ أَصحابَ الصفَّةِ كانوا أُناسًا فُقَراءَ، وأَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال مَرَّةً: «**مَن كان عِندَهُ طَعامُ اثنَينِ فليَذهَب بثالِثٍ، ومَن كان عِندَهُ طَعامُ أَربَعَةٍ فليَذهَب بخامِسٍ، أو سادِسٍ**» -أو كَما قال-، وأَنَّ أَبا بكرٍ جاءَ بثَلاثَةٍ، وانطَلَقَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعَشَرَةٍ، وأَبو بكرٍ ثَلاثَةً، قال: فهو أَنا، وأَبي، وأُمِّي -ولا أَدري هَل قال: امرَأَتي- وخادِمي بينَ بَيتِنا وبينَ بَيتِ أَبي بكرٍ.

وأَنَّ أَبا بكرٍ تَعَشَّى عِندَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم لَبثَ حتى صَلَّى العِشاءَ، ثم رجعَ فلَبثَ حتى تَعَشَّى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءَ بعدَ ما مَضى منَ اللَّيلِ ما شاءَ اللهُ، قالت له امرَأَتُهُ: ما حَبَسَكَ عن أَضيافِكَ -أو ضَيفِكَ؟- قال: أَوَعَشَّيتِهِم؟ قالت: أَبَوا حتى تَجيءَ، قد عَرَضوا عليهم فغَلَبوهُم، فذَهَبتُ فاختبَأتُ، فقال: «يا غُنثَرُ»، فجَدَّعَ، وسَبَّ، وقال: كُلوا، وقال: لا أَطعَمُهُ أَبدًا.

قال: وايمُ اللهِ، ما كُنَّا نَأخُذُ منَ اللُّقمَةِ إلا رَبا من أَسفَلِها أَكثَرُ منها حتى شَبعوا، وصارَت أَكثَرَ مِمَّا كانت قَبلُ، فنَظَرَ أَبو بكرٍ، فإذا شيءٌ أو أَكثَرُ، قال لِامرَأَتِهِ: يا أُختَ بَني فِراسٍ، قالت: لا وقُرَّةِ عَيني، لَهي الآنَ أَكثَرُ مِمَّا قَبلُ بثَلاثِ مَرَّاتٍ، فأَكَلَ منها أَبو بكرٍ، وقال: إنَّما كان الشَّيطانُ -يَعني: يَمينَهُ- ثم أَكَلَ منها لُقمَةً، ثم حَمَلها إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأَصبَحَت عِندَهُ، وكان بينَنا وبينَ قَومٍ عَهدٌ، فمَضى الأَجَلُ، فتَفَرَّقنا اثنا عَشَرَ رجلًا، مع كُلِّ رجلٍ منهم أُناسٌ، اللهُ أَعلَمُ كَم مع كُلِّ رجلٍ، غيرَ أَنَّهُ بَعَثَ معهم، قال: أَكَلوا منها أَجمَعونَ، أو كَما قال[1].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢)، (٣٥٨١)، (٦١٤٠)، ومسلم (٢٠٥٧)، وأبو داود (٣٢٧٠)، (٣٢٧١)، وأحمد =

ترجمة عبد الرحمَنِ بن أَبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

هو عبدُ الرحمَنِ بن أَبي بكرٍ الصدِّيقِ، القُرَشيُّ، التيميُّ، أبو مُحمّدٍ، وقيلَ: أبو عبدِ اللهِ، وقيلَ: أبو عُثمانَ، وهو شقيقُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أسلَمَ قَبلَ الفَتحِ، وقيلَ: إنَّه كان أَسَنَّ ولَدِ أبي بكرٍ.

رَوى عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن أبيهِ، وعنه ابناهُ عبدُ اللهِ وحَفصَةُ، وابنُ أخيهِ القاسِمُ بن محمد، وعَمرو بن أوسٍ الثّقَفيُّ، وأبو عُثمانَ النّهديُّ، وموسى بن وردانَ، وعبدُ الرحمَنِ بن أبي ليلى، وعبدُ اللهِ بن أبي مُلَيكَةَ، وغيرُهُم.

وقد شَهِدَ عبدُ الرحمَنِ فتحَ اليَمامَةِ، وقَتَلَ يَومَئِذٍ سَبعَةً، وهو الذي قَتَلَ مُحكَّمَ بن الطُّفَيلِ صَديقَ مُسَيلِمَةَ على باطِلِهِ، كان مُحكَّمٌ واقِفًا في ثُلمَةِ حائِطٍ، فرَماهُ عبدُ الرحمَنِ، فسَقَطَ مُحكَّمٌ، فدَخَلَ المسلمونَ من تِلكَ الثُّلمَةِ، فخَلَصوا إلى مُسَيلِمَةَ، فقَتَلوهُ.

وقد شَهِدَ فتحَ الشَّامِ، وكان مُعَظَّمًا بينَ أَهلِ الإسلامِ.

وهو الذي أَمرَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَجَّةِ الوَداعِ أَن يُعمِرَ أُختَهُ عائشةَ منَ التنعيمِ.

وقال الزُّبَيرُ بن بَكَّارٍ: «كان رجلًا صالِحًا، وكانت فيه دُعابَةٌ».

وقال عبدُ الرزَّاقِ: عن مَعمَرٍ، عَنِ الزُّهريِّ، عن سَعيدِ بن المسَيّب[1]، قال: «حَدَّثَني عبدُ الرحمَنِ بن أَبي بكرٍ، ولَم يُجَرَّب عليه كَذبَةٌ قَطُّ».

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: «كان من أشجَعِ رِجالِ قريشٍ، وأَرماهُم بسَهمٍ».

= (١٧٠٢)، (١٧٠٤)، (١٧١٢)، وابن حبان (٤٣٥٠)، والبيهقي في السنن (١٩٨٦٢)، وفي الاعتقاد (ص٣١٢)، ودلائل النبوة (٦/ ١٠٣)، والبزار (٢٢٦٣)، وأبو عوانة (٨٣٩٨)، (٨٤٠١)، وأبو بكر الشافعي في الفوائد (١٧٢)، والحربي في إكرام الضيف (٨٨)، والضياء في العوالي (٥٩)، واليونيني في مشيخته (ص٨٣)، والفريابي في دلائل النبوة (٤٤)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٤٩٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٥/ ٢٥).

(١) قال النووي: «المسيب: بفتح الياء وكسرها، والفتح هو المشهور، وحكى عنه أنه كان يكرهه، ومذهب أهل المدينة الكسر». تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢١٩).

وقال ابنُ جُرَيجٍ، عنِ ابنِ أبي مُلَيكَةَ: «توُفِّيَ عبدُ الرحمَنِ بحُبشيّ[١]، وهو على اثنَي عَشَرَ ميلًا من مَكَّةَ، فحُمِلَ إلى مكةَ فدُفِنَ بها».

وقال ابنُ سعدٍ، وأبو نُعَيم، وغيرُ واحدٍ: «ماتَ سنَةَ ثلاثٍ وخَمسينَ»، وقال يحيى بن بُكَير: «سنةَ أربَع»، وقيلَ: «خَمسٍ»، وقيلَ: «سِتٍّ»، وقال أبو زُرعَةَ الدِّمَشقيُّ: «ماتَ سنةَ قدِمَ مُعاويةُ المَدينةَ؛ لأَخذِ البَيعَةِ ليَزيدَ، وماتَت عائشةُ بعدَهُ بسنةٍ، سنةَ تَسعٍ وخَمسينَ».

وقال ابنُ حِبَّان: «ماتَ سنةَ ثَمانٍ»، وقال البخاريُّ: «ماتَ قَبلَ عائشةَ، وبعدَ سَعدٍ، قاله لنا أحمَدُ بن عيسى بسَنَدِه»[٢].

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورَضيَ عَنهُ.

شرح الحديث:

قَولُهُ: «أَنَّ أَصحابَ الصفَّةِ كانوا أُناسًا فُقَراءَ»:

«**الصفَّةُ**»: مَكانٌ في مُؤَخَّرِ المسجدِ النبَويِّ مُظَلَّلٌ، أُعِدَّ لِنُزولِ الغُرَباءِ فيه، مِمَّن لا مَأوى له ولا أَهلَ، وكانوا يَكثُرونَ فيه ويَقِلُّونَ بحَسَب مَن يَتَزَوَّجُ منهم، أو يَموتُ، أو يُسافِرُ[٣].

قَولُهُ: «وأَنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال مَرَّةً: «مَن كان عِندَهُ طَعامُ اثنَينِ فليَذهَب بثالِثٍ»:

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَي: من أَهلِ الصفَّةُ المَذكورينَ، ووَقَعَ في روايةِ مسلمٍ: «فليَذهَب بثَلاثَةٍ»، **قال عياضٌ:** «وهو غَلَطٌ، والصوابُ روايةُ البخاريِّ؛ لِموافَقَتِها لِسياقِ باقي الحَديثِ».

وقال القُرطُبيُّ: «إن حُمِلَ على ظاهِرِهِ فسَدَ المعنى؛ لِأَنَّ الذي عِندَهُ طَعامُ اثنَينِ إذا

---

(١) جبل قرب مكة.

(٢) الاستيعاب (٢/ ٨٢٤-٨٢٦)، تاريخ دمشق (٣٥/ ٢٩)، تهذيب التهذيب (٦/ ١٤٦)، الإصابة (٤/ ٢٧٤-٢٧٦)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٧١-٤٧٣)، البداية والنهاية (١١/ ٣٢٩).

(٣) تقدم الكلام عن أهل الصفة باستفاضة.

ذَهَبَ معه بثَلاثةٍ لَزِمَ أَن يَأكُله في خَمسَةٍ، وحينَئِذٍ لا يَكفيهم، ولا يَسُدُّ رَمَقَهُم، بخِلافِ ما إذا ذَهَبَ بواحدٍ، فإنَّهُ يَأكُلُهُ في ثَلاثَةٍ».

ويُؤَيِّدُهُ: قَولُهُ في الحَديثِ الآخَرِ: «**طَعامُ الِاثنَينِ يَكفي الأَربَعَةَ**»[1]، أَيِ: القدر الذي يُشبعُ الِاثنَينِ يَسُدُّ رَمَقَ أَربَعَةٍ».

ووَجَّهَها النوَويُّ بأَنَّ التقديرَ: فليَذهَب بمَن يُتِمُّ مَن عِندَهُ ثَلاثَةٌ، أو: فليَذهَب بتَمامِ ثَلاثَةٍ»[2].

و**قال ابنُ مُفلِحٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فليَذهَب بثَلاثَةٍ»، كذا في مسلمٍ، أَي: بتَمامِ ثَلاثَةٍ»[3].

قَولُهُ: «ومَن كان عِندَهُ طَعامُ أَربَعَةٍ فليَذهَب بخامِسٍ، أو سادِسٍ، أو كَما قال»:

قال الحافظُ: «أَي فليَذهَب بخامِسٍ، إن لَم يَكُن عِندَهُ ما يَقتَضي أَكثَرَ من ذلك، وإلا فليَذهَب بسادِسٍ مع الخامِسِ، إن كان عِندَهُ أَكثَرُ من ذلك، والحِكمَةُ في كَونِهِ يَزيدُ كُلَّ أَحَدٍ واحدًا فقَط: أَنَّ عَيشَهُم في ذلك الوَقتِ لَم يَكُن مُتَّسِعًا، فمَن كان عِندَهُ -مَثَلًا- ثَلاثَةُ أَنفُسٍ لا يَضيقُ عليه أَن يُطعِمَ الرابعَ من قوتِهم، وكذلك الأَربَعَةُ وما فَوقَها، بخِلافِ ما لَو زيدَتِ الأَضيافُ بعَدَدِ العيالِ، فإنَّما ذلك يَحصُلُ الِاكتِفاءُ فيه عِندَ اتِّساعِ الحالِ.

ووَقَعَ في روايةِ أَبي النُّعمانِ: «**وإن أَربَعٍ فخامِسٍ، أو سادِسٍ**»، و«أو» -فيه- للتَّنويعِ، أو للتَّخييرِ، كَما في الرِّوايَةِ الأُخرى، ويَحتَمِلُ أَن يكونَ معنى «**أو سادِسٍ**»: وإن كان عِندَهُ طَعامُ خَمسٍ فليَذهَب بسادِسٍ، فيكونُ من عَطفِ الجُملَةِ على الجُملَةِ.

وقَولُهُ: «**وإن أَربَعٍ فخامِسٍ**» بالجَرِّ فيهما، والتقديرُ: فإن كان عِندَهُ طَعامُ أَربَعٍ فليَذهَب بخامِسٍ، أو بسادِسٍ»[4].

---

(١) رواه مسلم (٢٠٥٩).

(٢) فتح الباري (٦/ ٥٩٥).

(٣) الآداب الشرعية (٣/ ١٨٦).

(٤) فتح الباري (٦/ ٥٩٥).

وقال **الحافظُ ابنُ رَجَبٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَجِيءُ أبي بكرٍ بثَلاثَةٍ: إن كان هو وامرَأَتُه وابنُه فقَط، فقد أتى بنَظيرِ عدَّتِهم، وإن كانوا خَمسَةً -على روايةِ الشَّكِّ-، فقد صاروا ثَمانيَةً، وطَعامُ الأربَعَةِ يكفي الثَمانيةَ»[1].

قَولُهُ: «وأَنَّ أَبا بكرٍ جاءَ بثَلاثَةٍ، وانطَلَقَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بعَشَرَةٍ»:**

عَبَّرَ عن أَبي بكرٍ بلَفظِ المَجيءِ؛ لِبُعدِ مَنزِلِهِ منَ المسجِدِ، وعَنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالِانطِلاقِ؛ لِقُربِهِ[2].

وقال **ابنُ الملَقِّنِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وانطَلَقَ النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بعَشَرَةٍ»**، هذا مُبَيِّنٌ لِما كان عليه الشارِعُ منَ الأخذِ بأفضَلِ الأُمورِ، والسبقِ إلى السخاءِ والجودِ، فإنَّ عيالَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا قَريبًا من عدَدِ ضيفانِه هذه اللَّيلَةَ، فآسى بنِصفِ طعامِه أو نَحوِه، وآسى أبو بكرٍ بثُلُثِ طعامِه أو أكثَر»[3].

قَولُهُ: «وأَبو بكرٍ ثَلاثَةً»:

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَي أَخَذَ ثَلاثَةً، فلا يكونُ قَولُهُ قَبلَ ذلك: «جاءَ بثَلاثَةٍ» تَكرارًا؛ لِأَنَّ هذا بَيانٌ لِابتِداءِ ما جاءَ في نَصيبِهِ، والأوَّل لِبَيانِ مَن أَحضَرَهُم إلى مَنزِلِهِ، وأَبعَدَ مَن قال «ثَلاثَةٌ» -بالرفعِ-، وقدرَهُ: «وأَبو بكرٍ أَهلُهُ ثَلاثَةٌ»، أَي: عَدَد أَضيافِهِ.

ودَلَّ ذلك على أَنَّ أَبا بكرٍ كان عِندَهُ طَعامُ أَربَعَةٍ، ومع ذلك فأَخَذَ خامِسًا وسادِسًا وسابعًا، فكَأَنَّ الحِكمَةَ في أَخذِهِ واحدًا زائِدًا عَمَّا ذكرَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أَنَّهُ أَرادَ أَن يُؤثِرَ السابعَ بنَصيبِهِ؛ إذ ظَهَرَ له أَنَّهُ لَم يَأكُل أَوَّلًا معهم.

ووَقَعَ في روايةِ الكُشميهَنيِّ: «وأَبو بكرٍ بثَلاثَةٍ» فيكونُ مَعطوفًا على قَولِهِ: «وانطَلَقَ

---

(١) فتح الباري لابن رجب (٥/ ١٦٧-١٦٨).

(٢) فتح الباري (٦/ ٥٩٥).

(٣) التوضيح (٦/ ٢٩٨).

النبيُّ»، أَي: وانطَلَقَ أَبو بكرٍ بثَلاثَةٍ، وهي روايةُ مسلمٍ، والأَوَّلُ أوجَهُ، واللهُ أَعلَمُ»[1].

قَولُهُ: «قال: فهو أَنا، وأَبي، وأُمِّي -ولا أَدري هَل قال: امرَأَتي؟- وخادِمي بينَ بَيتِنا وبينَ بَيتِ أَبي بكرٍ»:

قال الحافظُ: «القائِلُ: «هَل قال...» هو أَبو عُثمانَ الراوي عن عبدِ الرحمَنِ[2]، كَأَنَّهُ شَكَّ في ذلك.

وقَولُهُ «بينَ بَيتِنا وبينَ بَيتِ أَبي بكرٍ»، أَي: خِدمَتُها مُشتَرَكَةٌ بينَ بَيتِنا وبَيتِ أَبي بكرٍ، وهو ظَرفٌ للخادِمِ، وأُمُّ عبدِ الرحمَنِ هي أُمُّ رومانَ، مَشهورَةٌ بكُنيَتِها، واسمُها زَينَبُ -وقيلَ: دَعد- بنتُ عامِرِ بن عوَيمِرٍ، كانت قَبلَ أَبي بكرٍ عِندَ الحارِثِ بن سَخبَرَةَ الأَزديِّ، فقدِمَ مكةَ فماتَ، وخَلَّفَ منها ابنَهُ الطُّفَيلَ، فتَزَوَّجَها أَبو بكرٍ، فوَلَدَت له عبدَ الرحمَنِ وعائشةَ، وأَسلَمَت أُمُّ رومانَ قديمًا، وهاجَرت ومعها عائشة، وأما عبدُ الرحمَنِ: فتَأَخَّرَ إسلامُهُ وهِجرَتُهُ إلى هُدنَةِ الحُدَيبيَةِ، فقدِمَ في سنةِ سَبعٍ، أو أَوَّلَ سنةِ ثَمانٍ، واسمُ امرَأَتِهِ والِدَةَ أَكبَرِ أولادِهِ أَبي عَتيقٍ محمدٍ: أُمَيمَةُ بنتُ عَديِّ بن قَيسٍ السهميَّةُ»[3].

قَولُهُ: «وإنَّ أَبا بكرٍ تَعَشَّى عِندَ النبيِّ ﷺ، ثم لَبثَ حتى صَلَّى العِشاءَ، ثم رجعَ فلَبثَ حتى تَعَشَّى رسولُ اللهِ ﷺ، فجاءَ بعدَ ما مَضى منَ اللَّيلِ ما شاءَ اللهُ»:

ووقَعَ عِندَ مسلمٍ، وأحمدَ: «وإنَّ أَبا بكرٍ تَعَشَّى عِندَ النبيِّ ﷺ، ثم لَبثَ حتى صُلِّيَتِ العِشاءُ، ثم رجعَ، فلَبثَ حتى نَعَسَ رسولُ اللهِ ﷺ، فجاءَ بعدَما مَضى منَ اللَّيلِ ما شاءَ اللهُ».

فقال: «**حتى نَعَسَ**»، بَدَل: «**حتى تَعَشَّى**».

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٩٥).

(٢) واسمه: عبد الرحمن بن مل بن عمرو النهدي.

(٣) فتح الباري (٦/ ٥٩٦).

قال ابنُ قُرقولٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هكذا ذكرَه البخاريّ في «باب السَّمَرِ في العِلمِ»[١]، وذكَره مسلمٌ: «حتى نَعَسَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وهو الصوابُ؛ إذ قد ذكرَ تَعَشِّيه معه قَبلَ هذا، وقَبلَ صَلاةِ العِشاءِ»[٢].

وقال الحافظُ: «والحاصِلُ: أَنَّهُ تَأَخَّرَ عِندَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى صَلَّى العِشاءَ، ثم تَأَخَّرَ حتى نَعَسَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقامَ ليَنامَ، فرجعَ أَبو بكرٍ حينَئِذٍ إلى بَيتِهِ»[٣].

وللبخاريِّ: «أَنَّ أَبا بكرٍ تَضَيَّفَ رَهطًا، فقال لِعبدِ الرحمَنِ: «دونَكَ أَضيافَكَ، فإِنِّي مُنطَلِقٌ إلى النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فافرُغ من قِراهُم قَبلَ أَن أَجيءَ».

ووَقَع عِندَ أبي داوُدَ: «نزلَ بنا أَضيافٌ لَنا، وكان أَبو بكرٍ يَتَحَدَّثُ عِندَ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باللَّيلِ، فقال: لا أَرجِعَنَّ إليك حتى تَفرُغَ من ضيافَةِ هَؤُلاءِ، ومن قِراهُم».

وهذا يَدُلُّ على أَنَّ أَبا بكرٍ أَحضَرَهُم إلى مَنزِلِهِ، وأَمَرَ أَهله أَن يُضَيِّفوهُم، ورجعَ هو إلى النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَولُهُ: «قالت له امرَأَتُهُ: ما حَبَسَكَ عن أَضيافِكَ -أو ضَيفِكَ؟-»:

الشَّكُّ من الراوي، ففي روايةٍ في الصحيحَينِ: «ما حَبَسَكَ عَنِ أضيافِكَ؟ -أو قالت: ضَيفِكَ؟-».

وللبَيهَقيّ في الِاعتقادِ: «ما حَبَسَكَ عن أَضيافِكَ؟ -أو قالت: عن ضَيفِكَ؟-».

وللبخاريّ: «فلما جاءَ، قالت له أُمِّي: احتَبَستَ عن ضَيفِكَ -أو عن أَضيافِكَ- اللَّيلَةَ».

والمرادُ بالضيفِ الجِنسُ؛ لِأَنَّهُم ثَلاثَةٌ، واسمُ الضَّيفِ يُطلَقُ على الواحدِ وما فَوقَهُ.

---

(١) ذكره البخاري في «باب السمر مع الضيف والأهل».

(٢) مطالع الأنوار (٤/ ١٨٦).

(٣) فتح الباري (٦/ ٥٩٦).

قال الفَيروزآباديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الضَّيفُ: للواحدِ والجَميعِ، وقد يُجمَعُ على أضيافٍ وضُيوفٍ وضيفان، وهي ضَيفٌ وضَيفَةٌ»(١).

والضِّيافَة: من ضافَ، إذا مالَ؛ لِأَن الضَّيف يَميلُ إلى المضيفِ(٢).

وقال ابنُ دُرَيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تقول: ضِفتُ الرجلَ أَضيفُه ضَيفًا: إذا استَضَفته، وأَضَفتُه: إذا كان لَك ضَيفًا، وأضافَني: إذا تعرّض لَك أَن تُضيفَه، وضِفتُه: إذا تعرّضتَ له ليضيفَك، وضافَني: إذا تعرّض أَن أُضيفَه»(٣).

قَولُهُ: «قال: أوَعَشَّيتِهِم؟»:

ولِمسلمٍ: «أوَ ما عَشَّيتِهِم؟» -بدونِ ياءٍ-.

ولأحمدَ: «أَما عَشَّيتِهِم؟»

وللبخاريّ أيضًا: «أوَ ما عَشَّيتيهِم؟».

قال القاري: «بتشديدِ الشِّينِ، وإشباعِ كَسرَةِ التاءِ إلى تَوَلُّدِ الياءِ، وهو منَ التعشيَةِ، وهي إعطاءُ العَشاءِ، والمعنى: أَقَصَّرتي في خِدمَتِهِم، وما أَطعَمتيهِم عَشاءَهُم؟»(٤).

ويُقالُ: عشَّيتُ الرجُلَ، إذا أطعَمتُه العَشاءَ، وهو الطعام الذي يُؤكَل بعدَ العِشاءِ(٥).

فالعَشاءُ: طَعامُ العَشيِّ، والغَداءُ: طَعامُ الغَداةِ(٦).

قَولُهُ: «قالت: أَبوا حتى تَجيءَ، قد عَرَضوا عليهم فغَلَبوهُم»:

«قد عَرَضوا عليهم»: الفاعِلُ مَحذوفٌ، أَيِ: الخَدَمُ، أوِ الأَهلُ، أو نَحوُ ذلك.

---

(١) القاموس المحيط (ص٨٣٠).

(٢) تحرير ألفاظ التنبيه للنووي (ص٣١٩).

(٣) جمهرة اللغة (٢/ ٩٠٨).

(٤) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٨٣٧).

(٥) تهذيب اللغة للأزهري (٣/ ٣٨).

(٦) المغرب للخوارزمي (ص٣٣٧).

«**فغَلَبوهُم**»، أَي: إنَّ آلَ أَبي بكرٍ عَرَضوا على الأَضيافِ العَشاءَ فأَبَوا، فعالَجوهُم فامتَنَعوا، حتى غَلَبوهُم[١].

قال ابنُ بَطَّالٍ: «يُريدُ: أنَّ خادِمَ أبى بكرٍ وابنَه ومَن رُتِّبَ لِخدمَةِ الأضيافِ عرَضوا الطعامَ على أضيافِهِم، فأَبَوا من أكلِه، إلا بحَضرَةِ أبى بكرٍ»[٢].

وللبخاريّ: «أَبَوا حتى تَجيءَ، قد عُرِضوا فأَبَوا».

قال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عُرِضوا: بتَخفيفِ الراءِ، على ما لَم يُسَمَّ فاعِلُه، أَي: أُطعِموا، والعُراضَة -بضَم العَينِ-: الهَديَّة، يُقالُ: ما عَرَضتُهم، أَي: ما أَطعَمتُهم، وأهديتُ لهم»[٣].

وقال الكِرمانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي عُرِضَ الطعامُ عليهم، فحَذَفَ الجارَّ ووَصَلَ الفِعلَ، فهو منَ القَلب، كَـ «عَرَضتُ الناقَةَ على الحَوضِ»[٤].

وقال الدَّمامينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد عُرِّضوا»: قيلَ: بضَمِّ العَينِ وتشديدِ الراءِ المَكسورةِ، أي: أُطعِموا، من العُراضَة: -بضَمِّ العَينِ-، وهي الميرَةُ، حَكاه الزَّركَشيُّ عنِ الجَوهَريُّ.

وقال في «المَشارِقِ»[٥]: عُرِضوا -بتخفيف الراءِ، على ما لَم يُسَمَّ فاعِلُه-؛ أي: أُطعِموا، والعُراضَة: الهَديَّةُ»[٦].

ولمسلمٍ «فلما جاءَ لَم يَبدَأ بشيءٍ أوَّلَ منهم، فقال: أَفَرَغتُم من أَضيافِكُم؟ قالوا: لا واللهِ ما فَرَغنا».

وعِندَ البخاريّ: «فانطَلَقَ عبدُ الرحمَنِ فأَتاهُم بما عِندَهُ، فقال: اطعَموا، فقالوا: أَينَ

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٩٧).

(٢) شرح صحيح البخارى (٢/ ٢٢٨).

(٣) مشارق الأنوار (٢/ ٧٥).

(٤) فتح الباري (٦/ ٥٩٧).

(٥) يعني: القاضي عياض، وقد تقدم كلامه آنفًا.

(٦) مصابيح الجامع (٢/ ٢٦٥).

رَبُّ مَنزِلِنا؟ قال: اطعَموا، قالوا: ما نَحنُ بآكِلينَ حتى يَجيءَ رَبُّ مَنزِلِنا، قال: اقبَلوا عَنَّا قِراكُم؛ فإنَّهُ إن جاءَ ولَم تَطعَموا لَنَلقَيَنَّ منه، فأَبَوا».

ولِمسلمٍ: «فلما أَمسَيتُ جِئنا بقِراهُم، قال: فأَبَوا، فقالوا: حتى يَجيءَ أَبو مَنزِلِنا فيَطعَمَ معنا، قال: فقُلتُ لهم: إنَّهُ رجلٌ حَديدٌ، وإنَّكُم إن لَم تَفعَلوا خِفتُ أَن يُصيبَني منه أَذًى، قال: فأَبَوا».

ولِابنِ حِبَّان: «فلما أَمسَيتُ جِئنا بقِراهُم فأَبَوا، وقالوا: حتى يَجيءَ أَبوكَ مَنزِله، فيَطعَم معنا، فقُلتُ: إنَّهُ رجلٌ حَديدٌ، وإنَّكُم إن لَم تَفعَلوا خِفتُ أَن يُصيبَني منه أَذًى، فأَبوا علينا، فلما جاءَ قال: قد فرَغتُم من أَضيافِكُم؟ فقالوا: لا واللهِ، فقال: أَلَم آمُر عبدَ الرحمَنِ؟».

وقَولُهُ: «إنَّهُ رجلٌ حَديدٌ»:

قال النوَويُّ: «أَي: فيه قوَّةٌ وصَلابَةٌ، ويَغضَبُ لِانتِهاكِ الحُرُماتِ، والتقصيرِ في حقِّ ضَيفِهِ، ونَحوِ ذلك»[1].

قَولُهُ: «فذَهَبتُ فاختبَأتُ»:

أَي خَوفًا من خِصامِ أَبي بكرٍ له، وتَغَيُّظِهِ عليه.

قال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَعنِي: خَوفًا من أبى بكرٍ، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خُلُقِهِ حِدَّةً، كَما قال في الحَديثِ نَفسِه: «إنَّهُ رجلٌ حَديدٌ، وأَخشى أَن يُصيبَني منه أَذًى»[2].

قَولُهُ: «فقال: «يا غُنثَرُ»، فجَدَّعَ، وسَبَّ»:

وللبخاريِّ: «فغَضِبَ أَبو بكرٍ، فسَبَّ، وجَدَّعَ، وحَلَفَ لا يَطعَمُهُ، فاختبَأتُ أَنا، فقال: «يا غُنثَرُ»».

قال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فجَدَّعَ، وسَبَّ**»، أَي: خاصَمَهُ وذَمَّهُ، والمجادَعَة: المخاصَمَةُ»[3].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٢١).

(٢) إكمال المعلم (٦/ ٥٥٠).

(٣) النهاية (١/ ٢٤٧).

وقال **النوَويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**جَدَّعَ**»، أَي: دَعا بالجَدَعِ، وهو قَطعُ الأَنفِ وغيرِهِ منَ الأَعضاءِ، والسبُّ: الشَّتمُ»[١].

وقال **الحافظُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**جَدَّعَ، وسَبَّ**»، أَي: دَعا عليه بالجَدَعِ، وهو قَطعُ الأُذُنِ، أوِ الأَنفِ، أوِ الشَّفَةِ، وقيلَ: المرادُ بِهِ السبُّ، والأَوَّلُ أَصَحُّ، وفي روايةِ الجُرَيريِّ: «فجَزَّعَ»، بالزَّايِ بَدَلَ الدَّالِ، أَي: نَسَبَهُ إلى الجَزَعِ، بفَتحَتَينِ، وهو الخَوفُ، وقيلَ: المجازَعَة: المخاصَمَة، فالمعنى: خاصَمَ»[٢].

وقال **ابنُ الملَقِّنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فجَدَّعَ**» بالجيمِ، والدَّالِ المهمَلَةِ المشَدَّدَةِ، ومَعناه: دَعا عليه بقَطعِ الأنفِ، أوِ الأُذُنِ، أوِ الشَّفَةِ، وهو بالأنفِ أَخَصُّ، وإذا أُطلِقَ غَلَبَ عليه.

وقيلَ: مَعناه: السبُّ، وهو الشَّتمُ، وهو بَعيدٌ؛ لقَولِهِ: «**جَدَّعَ، وسَبَّ**»، فيُؤَدِّي إلى التّكرارِ»[٣].

وقَولُهُ: «يا غُنثَرُ»: جاءَ عِندَ أحمَدَ: «يا غُنثَرُ -أو: يا عنتَرُ-».

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بغَينٍ مُعجَمَةٍ مَضمومَةٍ، ثم نونٍ ساكِنَةٍ، ثم ثاءٍ مُثَلَّثَةٍ مَفتوحَةٍ ومَضمومَةٍ -لُغَتانِ-، هذه هي الرِّوايَةُ المَشهورَةُ في ضَبطِهِ، قالوا: وهو الثَّقيلُ الوَخِمُ، وقيلَ: هو الجاهِلُ، مَأخوذٌ منَ الغَثارَةِ، وهي الجَهلُ، والنُّونُ فيه زائِدَةٌ.

وقيلَ: هو السفيهُ، وقيلَ: هو ذُبابٌ أَزرَقُ، وقيلَ: هو اللَّئيمُ، مَأخوذٌ منَ الغَثرِ، وهو اللُّؤمُ.

وحَكى القاضي عن بعضِ الشُّيوخِ، أَنَّهُ قال: «إنَّما هو «غَنثَرُ»، بفَتحِ الغَينِ والثَّاءِ».

ورواهُ الخَطَّابيُّ وطائِفَةٌ: «عنتَرُ»، بعَينٍ مُهمَلَةٍ، وتاءٍ مُثَنَّاةٍ مَفتوحَتَينِ، قالوا: وهو الذُّبابُ، وقيلَ: هو الأَزرَقُ منه، شَبَّهَهُ بِهِ؛ تَحقيرًا له»[٤].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٩).
(٢) فتح الباري (٦/ ٥٩٧).
(٣) التوضيح (٦/ ٣٠١).
(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٩).

وقال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا غُنثَرُ»: هو من قَولِ العَرَب: رجلٌ أَغثَر: أحمَقُ، والغَثراء: سَفَلَةُ الناسِ وغَوغاؤُهُم، فبَنى «فنعَلًا» من «أَغثَر» على المبالَغةِ في السبِّ من هذا المعنى، و«فنعَل» مَوجودٌ في اللُّغَةِ، كَقَولِهم: «جُندَب»، و«قُنفُذ»، عنِ الأخفَش، وقال الخَطَّابيُّ: «غُنثَر» مأخوذٌ منِ الغَثارةِ، وهي الجَهلُ»[1].

وقال في الفائِقِ: «أَبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَبَّ ابنَهُ عبدَ الرحمَن، فقال: «يا عنتَرُ»، ورويَ: «غُنتَر»، و«غُنثُر» -بالفَتح، والضَّم-.

«العنتَرُ» الذُّبابُ الأَزرَقُ، شَبَّهَه بهِ؛ تَحقيرًا، والغُنثَرُ منَ الغَثارَة، وهي الجَهلُ، وقيلَ: هو من الغَنثَرَةِ، وهي شُربُ الماءِ من غيرِ عَطَشٍ، وذلك منَ الحُمقِ»[2].

وعِندَ البخاريّ: «يا غُنثَرُ، أَقسَمتُ عليكَ إن كُنتَ تَسمَعُ صَوتي لَمَّا جِئتَ»، فخرجتُ، فقُلتُ: سَل أَضيافَكَ، فقالوا: صَدَقَ، أَتانا بهِ».

وله أيضًا: «فقال: «يا عبدَ الرحمَنِ»، فسَكَتُّ، ثم قال: «يا عبدَ الرحمَنِ»، فسَكَتُّ، فقال: «يا غُنثَرُ، أَقسَمتُ عليكَ إن كُنتَ تَسمَعُ صَوتي لَمَّا جِئتَ»، فخرجتُ، فقُلتُ: سَل أَضيافَكَ، فقالوا: صَدَقَ، أَتانا بهِ»

ولِمسلمٍ: «قال: فتَنَحَّيتُ، قال: فقال: «يا غُنثَرُ، أَقسَمتُ عليكَ إن كُنتَ تَسمَعُ صَوتي إلا جِئتَ»، قال: فجِئتُ، فقُلتُ: واللهِ، ما لي ذَنبٌ، هَؤُلاءِ أَضيافُكَ فسَلهُم، قد أَتَيتُهُم بقِراهُم، فأَبَوا أَن يَطعَموا حتى تَجيءَ».

وفي الصحيحَينِ: «فجَدَّعَ، وسَبَّ، وقال: «كُلوا، لا هَنيئًا».

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُ أبي بكرٍ: «كُلوا، لا هَنيئًا»، إنَّما خاطَبَ بذلك أَهله، لا أَضيافَهُ»[3].

---

(١) شرح صحيح البخارى (٢/ ٢٢٨).

(٢) الفائق في غريب الحديث (٣/ ٣٣).

(٣) شرح صحيح البخارى (٢/ ٢٢٨).

وقال ابنُ الجَوزيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَأَنَّهُ يُشيرُ بذلك إلى أَهله؛ لِأَنَّهُ لا يَحسنُ أَن يواجِهَ الأضيافَ بهذا»(١).

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «لا هَنيئًا»: صِفَةٌ للحالِ التي أخرَجَته، وأخرجَه الحالُ بتأَخُّرِهم عن قِراهُم وقتَ أتاهُم، وأنَّهم لَم يَتَهَيَّؤوه حينَئِذٍ، إلا أنَّه دَعا عليهم.

وقد يحتملُ أنَّ الحَرَجَ والضَّجَرَ الذي طُبِعَ عليه بَنو آدَمَ حَمَله على هذه الكَلِمَةِ»(٢).

وقال ابنُ المُلَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلُّ ذلك منَ الصدِّيقِ على عبدِ الرحمَنِ على ظَنِّ أَنَّه فرَّطَ في الأضيافِ، فلَمَّا بانَ له خِلافُه وأنَّ المَنعَ منهم، أدَّبَهُم بقَولِهِ: «كُلوا، لا هَنيئًا»، وحَلَفَ لا يَطعَمُه»(٣).

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما قالهُ؛ لِما حَصَلَ له منَ الحَرَجِ والغَيظِ بتَركِهِمُ العَشاءَ بسَبَبِهِ، وقيلَ: إنَّهُ ليس بدُعاءٍ، إنَّما هو خَبَرٌ، أي: لَم يَتَهَنَّوا بهِ في وقتِهِ»(٤).

وقال الحافظُ: «أَي: لا أَكَلتُم هَنيئًا، وهو دُعاءٌ عليهم، وقيلَ خَبَرٌ، أَي: لَم تَتَهَنَّوا بِهِ في أَوَّلِ نُضجِهِ.

ويُقالُ: إنَّهُ إنَّما خاطَبَ بذلك أَهله لا الأَضيافَ، وقيلَ: لَم يُرِدِ الدُّعاءَ، وإنَّما أَخبَرَ أَنَّهُم فاتَهُمُ الهَناءُ بِهِ، إذ لَم يَأكُلوهُ في وقتِهِ»(٥).

وبكُلِّ حالٍ: فهذه كلِمَةٌ دفَعَها الغضَبُ والتغَيُّظُ، حَيثُ تَحَكَّموا على رَبِّ المَنزِلِ بالحُضورِ معهم، ولَم يَكتَفوا بوَلَدِهِ مع إذنِهِ لهم في ذلك، ولا يُقصَد بها ظاهِرُها في الغالِب.

قَولُهُ: «وقال: كُلوا، وقال: لا أَطعَمُهُ أَبَدًا»:

وفي الصحيحَينِ: «واللهِ لا أَطعَمُهُ أَبَدًا».

---

(١) كشف المشكل (٤/ ٢٣).

(٢) إكمال المعلم (٦/ ٥٥١).

(٣) التوضيح (٦/ ٣٠١).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٩).

(٥) فتح الباري (٦/ ٥٩٨)، باختصار.

ولهما أيضًا -واللفظ للبخاريّ-: «قال: «فإنَّما انتَظَرتُموني، واللهِ لا أَطعَمُهُ اللَّيلَةَ»، فقال الآخَرونَ: واللهِ لا نَطعَمُهُ حتى تَطعَمَهُ، قال: «لَم أَرَ في الشَّرِّ كاللَّيلَةِ، ويلَكُم! ما أَنتُم؟ لِمَ لا تَقبَلونَ عَنَّا قِراكُم؟ هاتِ طَعامَكَ»، فجاءَهُ، فوَضَعَ يَدَهُ، فقال: «باسمِ اللهِ، الأولى للشَّيطانِ»، فأَكَلَ وأَكَلوا».

وعِندَ البخاريّ: «فحَلَفَتِ المَرأَةُ لا تَطعَمُهُ حتى يَطعَمَهُ، فحَلَفَ الضَّيفُ أوِ الأَضيافُ أَن لا يَطعَمَهُ أو يَطعَموهُ حتى يَطعَمَهُ، فقال أَبو بكرٍ: «كَأَنَّ هذه منَ الشَّيطانِ»، فدَعا بالطعامِ، فأَكَلَ وأَكَلوا».

قَولُهُ: «قال: وايمُ اللهِ»: قال الحافظُ: «**وايمُ اللهِ**» هَمزَتُهُ هَمزَةُ وصلٍ عِندَ الجُمهورِ، وقيلَ: يَجوزُ القَطعُ، وهو مُبتَدَأٌ، وخَبَرُهُ مَحذوفٌ، أَي، «ايمُ اللهِ قَسَمي»، وأَصلُهُ «أَيمُنُ اللهِ»، فالهَمزَةُ حينَئِذٍ هَمزَةُ قَطعٍ، لكنَّها لِكَثرَةِ الاستِعمالِ خُفِّفَت فوُصِلَت، وحُكيَ فيها لُغاتٌ: «أَيمُنُ اللهِ» مُثَلَّثَة النُّونِ، و«مُنُ اللهِ» مُختَصَرَةٌ منَ الأولى، مُثَلَّثَة النُّونِ أَيضًا، و«ايمُ اللهِ» كذلك، و«إِمُ الله» كذلك بكَسر الهمزَة أَيضا، و«أَمُ اللهِ»[1].

وقال الفَيروزآباديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيمُنُ اللهِ، و«أَيمُ اللهِ»، ويكسر أَوَّلُهُما، و«أَيمَنُ اللهِ»، بفتح الميمِ والهمزِة وتكسر، و«إِيمِ اللهِ»، بكسر الهمزةِ والميمِ، وقيلَ: أَلِفُهُ أَلِفُ الوصلِ، و«هَيمُ اللهِ»، بفتح الهاءِ وضم الميمِ، و«أَمِ اللهِ»، مُثَلَّثَةَ الميم، و«إِمُ اللهِ»، بكسر الهمزةِ وضم الميمِ وفتحها، و«مُنِ اللهِ»، بضم الميمِ وكسر النونِ، و«مُنُ اللهِ»، مُثَلَّثَةَ الميمِ والنونِ، و«مُ اللهِ»، مُثَلَّثَةً، و«لَيمُ اللهِ»، و«لَيمَنُ اللهِ»: اسمٌ وُضِعَ للقَسَمِ، والتقدير: «أَيمُنُ اللهِ قَسَمي»[2].

قَولُهُ: «ما كُنَّا نَأخُذُ منَ اللُّقمَةِ إلا رَبا من أَسفَلِها أَكثَرُ منها، حتى شَبعوا، وصارَت أَكثَرَ مِمَّا كانت قَبلُ»:

«**إلا رَبا**»، أَي: زادَ.

«**من أَسفَلِها**»، أَيِ: المَوضِعِ الذي أُخِذَت منه»[3].

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٩٨).

(٢) القاموس المحيط (ص١٢٤١).

(٣) فتح الباري (٦/ ٥٩٨)، عمدة القاري (١٦/ ١٢٦).

قَولُهُ: «فنَظَرَ أَبو بكرٍ، فإذا شيءٌ أو أَكثَرُ»:

أَي: فإذا هو شيءٌ كَما كان، أو أَكثَر[١].

وفي الصحيحَينِ: «فنَظَرَ إلَيها أَبو بكرٍ، فإذا هي كَما هيَ، أو أَكثَرُ منها».

قَولُهُ: «قال لِامرَأَتِهِ: يا أُختَ بَني فِراسٍ»:

قال القاضي عياضٌ: «نَسَبُ أُمِّ رومانَ، وفَراسٌ هو ابنُ غَنمِ بن مالكِ بن كِنانَةَ، ولا خِلافَ في نَسَب أُمِّ رومانَ إلى غنمِ بن مالِكٍ، واختُلف في رَفعِ نَسَب أبيها إلى غنمٍ اختلافًا كثيرًا، وهَل هي من بَني فِراسِ بن غَنم، أو من بَني الحارثِ بن غنم؟ وهذا الحَديثُ تَصحيحُ كَونِها من بَني فِراسِ بن غنمٍ»[٢].

وقال الحافظُ: «قَولُهُ: «يا أُختَ بَني فِراسٍ»، زادَ في الصلاةِ: «ما هذا؟»، وخاطَبَ أَبو بكرٍ بذلك امرَأَتَهُ أُمَّ رومانَ، وبَنو فِراسٍ، بكَسرِ الفاءِ، وتَخفيفِ الراءِ، وآخِرُهُ مُهمِلَة، ابن غَنمِ بن مالِكِ بن كِنانَةَ، وقال النوَويُّ: «التقديرُ: يا مَن هي من بَني فِراسٍ»، وفيه نَظَرٌ، والعَرَبُ تُطلِقُ على مَن كان مُنتَسِبًا إلى قَبيلَةٍ أَنَّهُ أَخوهُم، وقد تَقدَّمَ أَنَّ أُمَّ رومانَ من ذُرِّيَّةِ الحارِثِ بن غَنمٍ، وهو أَخو فِراسِ بن غَنمٍ، فلَعَلَّ أَبا بكرٍ نَسَبَها إلى بَني فِراسٍ؛ لِكَونِهم أَشهَرَ من بَني الحارِثِ، ويَقَعُ في النسَب كَثيرٌ من ذلك، ويُنسَبونَ أَحيانًا إلى أَخي جَدِّهِم، أوِ المعنى: يا أُختَ القَومِ المنتَسِبينَ إلى بَني فِراسٍ.

ولا شَكَّ أَنَّ الحارِثَ أَخو فِراسٍ، فأولادُ كُلٍّ منهما إخوَةٌ للآخَرينَ؛ لِكَونِهم في دَرَجَتِهم.

وحَكى عياضٌ أَنَّهُ قيلَ في أُمِّ رومانَ إنَّها من بَني فِراسِ بن غَنمٍ، لا من بَني الحارِثِ، وعلى هذا: فلا حاجَةَ إلى هذا التأويل، ولَم أَرَ في كِتاب ابنِ سَعدٍ لها نَسَبًا إلا إلى بَني الحارِثِ بن غَنمٍ، ساقَ لها نَسَبينِ مُختَلِفَينِ، فاللهُ أَعلَمُ»[٣].

---

(١) عمدة القاري (١٦/ ١٢٦).

(٢) إكمال المعلم (٦/ ٥٥٣)، وينظر: مطالع الأنوار (٥/ ٢٩٣)، لابن قرقول.

(٣) فتح الباري (٦/ ٥٩٨-٥٩٩).

قَولُهُ: «قالت: لا وقُرَّةِ عَيني، لَهي الآنَ أَكثَرُ مِمَّا قَبلُ بثَلاثِ مَرَّاتٍ»:

قال ابنُ قُرقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «**لا وقُرَّةِ عَيني**»، هذا وما تَصَرَّف منه يُعبَّرُ بِهِ عن رُؤيَةِ الإنسانِ ما يُسَرُّ بهِ، وبُلوغِه إلى ما يَتَمَنَّاه ويوافِقُه، وإذا كان كذلك بَقيَت عَينُه بارِدَةً قارَّةً، والقَرُّ: البَردُ، وإذا كان ضِدّ ذلك أبكَتِ الحالُ عَينَه فسَخَنَت من الدُّموعِ، ومنه يُقالُ: «أسخَنَ اللهُ عينَه»، كذا سَمِعتُ الأستاذَ أبا الحَسَنِ بن الأخضَرِ يقولُه، وهو قَولُ الأصمَعيِّ.

وقال غيرُه: «إنَّما هو من القَرارِ والثَّباتِ، يُقالُ للإنسانِ ذلك، أي: بلَّغكَ اللهُ أمَلك، فقَرَّت عينُكَ، ولم تَطمَح إلى أمَلٍ؛ إذ قد بلغَته وقَرَّت من تَطَلُّعِها إليه».

وقيلَ: «لأَنّ دَمعَةَ السُّرورِ بارِدَةٌ، ودَمعَةَ الحُزنِ حارَّة».

وقولُها: «**لا وقُرَّةِ عَيني**»، تَعني: النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قاله الدَّاوُديّ، يَعني: أقسَمَت بِهِ»[1].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قُرَّةُ العَينِ يُعَبَّرُ بها عَنِ المَسَرَّةِ، ورُؤيَةِ ما يُحِبُّهُ الإنسانُ، ويوافِقُهُ، يُقالُ ذلك؛ لِأَنَّ عَينَهُ قَرَّت، أَي: سَكَنَت حَرَكَتُها منَ التلَفُّتِ لِحُصولِ غَرَضِها، فلا تَستَشرِفُ لِشيءٍ آخَرَ، فكَأَنَّهُ مَأخوذٌ منَ القَرارِ.

وقيلَ: «مَعناهُ: أَنامَ اللهُ عَينَكَ»، وهو يَرجِعُ إلى هذا.

وقيلَ: «بَل هو مَأخوذٌ منَ القَرِّ، وهو البَردُ، أَي: أَنَّ عَينَهُ بارِدَةٌ لِسُرورِهِ»، ولِهذا قيلَ: «دَمعَةُ الحُزنِ حارَّةٌ»، ومن ثَمَّ قيلَ في ضِدِّهِ: «أَسخَنَ اللهُ عَينَهُ».

وإنَّما حَلَفَت أُمُّ رومانَ بذلك؛ لِما وقَعَ عِندَها منَ السُّرورِ بالكَرامَةِ التي حَصَلَت لهم.

وزَعَمَ الدَّاوُديُّ أَنَّها أَرادَت بقُرَّةِ عَينِها النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأَقسَمَت بِهِ، وفيه بُعدٌ.

و«**لا**» في قَولِها: «**لا، وقُرَّةِ عَيني**» زائِدَةٌ، أو نافيَةٌ، على حَذفٍ تَقديرُهُ: «لا شيءَ غير ما أَقولُ»[2].

---

(١) مطالع الأنوار (٥/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٢) فتح الباري (٦/ ٥٩٩).

وهذا القَسَمُ منها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا محمولٌ على أنَّه كان قَبلَ النهيِ عَنِ الحَلِفِ بغيرِ اللهِ.

قال ابنُ الملَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَعَلَّ هذا كان قَبلَ النهيِ عَنِ الحَلِفِ بغيرِ اللهِ، أو لَم تَعلَمهُ»[١].

وقد كان الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَحلِفونَ بغيرِ اللهِ في أوّلِ الأمرِ، فنَهاهُم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، فانتَهَوا.

عنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سَمِعتُ عمرَ يقولُ: قال لي رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ يَنهاكُم أَن تَحلِفوا بآبائِكُم**»، قال عمرُ: فواللهِ ما حَلَفتُ بها مُنذُ سَمِعتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذاكِرًا، ولا آثِرًا[٢][٣].

وفي لَفظٍ: أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَدرَكَ عمرَ بن الخَطَّاب وهو يَسيرُ في رَكبٍ، يَحلِفُ بأَبيهِ، فقال: «**أَلا إنَّ اللهَ يَنهاكُم أَن تَحلِفوا بآبائِكُم، مَن كان حالِفًا فليَحلِف باللهِ، أو ليَصمُت**»[٤].

وعَنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**أَلا مَن كان حالِفًا فلا يَحلِف إلا باللهِ**»، فكانت قريشٌ تَحلِفُ بآبائِها، فقال: «**لا تَحلِفوا بآبائِكُم**»[٥].

وذهبَ الحافظُ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ **إلى أنّ حلفَ أمِّ رومانَ هو منَ الحَلِفِ باللهِ وصِفاتِه، وليس منَ الحَلِفِ بغيرِ اللهِ، فقال: «وفي الحَديثِ**: جَوازُ الحَلِفِ بقُرَّةِ العَينِ؛ فإنَّ امرأةَ أبي بكرٍ حلَفَت بذلك، ولَم يُنكره عليها، وقُرَّةُ عَينِ المؤمِنِ: هو رَبُّه وكَلامُه»[٦].

وعلى فرضِ صِحّةِ ذلك: فلا يَنبغي الحَلِفُ بقُرَّةِ العَينِ؛ لِما يَكتَنِفُ ذلك منَ الشُّبهَةِ والاحتِمالِ.

قَولُهُ: «فأَكَلَ منها أَبو بكرٍ، وقال: إنَّما كان الشَّيطانُ -يَعني: يَمينَهُ- ثم أَكَلَ منها لُقمَةً»:

---

(١) التوضيح (٢٨/ ٥٣٥).

(٢) «ذاكرا»: قائلا لها من قبل نفسي، «آثرا»: حاكيا وناقلا لها عن غيري.

(٣) رواه البخاري (٦٦٤٧)، ومسلم (١٦٤٦).

(٤) رواه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦).

(٥) رواه البخاري (٣٨٣٦)، ومسلم (١٦٤٦).

(٦) فتح الباري لابن رجب (٥/ ١٧٣)، مختصرا.

قال الحافظُ: «**إنَّما كان الشَّيطانُ، يَعني: يَمينَهُ**»: كذا هُنا، وفيه حَذفٌ تَقدَّمَها تَقديرُهُ: «وإنَّما كان الشَّيطانُ الحامِلُ على ذلك»، يَعني: الحامِلَ على يَمينِهِ التي حَلَفَها في قَولِهِ: «واللهِ لا أَطعَمُهُ».

ووَقَعَ عِندَ مسلمٍ، والإسماعيليِّ: «وإنَّما كان ذلك منَ الشَّيطانِ -يَعني: يَمينَهُ- ثم أَكَلَ منها لُقمَةً»[١]، وهو أوجَهُ[٢].

وللبخاريّ أيضًا: «فقال أَبو بكرٍ: كَأَنَّ هذه منَ الشَّيطانِ، فدَعا بالطعامِ، فأَكَلَ وأَكَلوا».

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان ذلك منَ الشَّيطان، فأخزاهُ بالحِنثِ الذي هو خَيرٌ»[٣].

ولِمسلمٍ، وابنِ حِبَّان: «فلما أَصبَحَ غَدا على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، بَرُّوا، وحَنِثتُ، قال: فأَخبَرَهُ، فقال: «**بَل أَنتَ أَبَرُّهُم، وأَخيَرُهُم**».

«**أَنتَ أَبَرُّهُم**»، أَي: أَكثَرُهُم برًّا، أَي: طاعَةً.

«**وأَخيَرُهُم**»، أَي: لِأَنَّكَ حَنِثتَ في يَمينِكَ حِنثًا مَندوبًا إليه مَطلوبًا، فأَنتَ أَفضَلُ منهم بهذا الاِعتِبارِ[٤].

وقال النوَويُّ: «أَي: أَكثَرُهُم طاعَةً، وخَيرٌ منهم؛ لِأَنَّكَ حَنِثتَ في يَمينِكَ حِنثًا مَندوبًا إليه مَحثوثًا عليه، فأَنتَ أَفضَلُ منهم.

قَولُهُ: «وأَخيَرُهُم»، هَكذا هو في جَميعِ النُّسَخِ: «وأخيَرُهُم» بالأَلِفِ، وهي لُغَةٌ»[٥].

وقال الحافظُ: «والحاصِلُ: أَنَّ اللهَ أَكرَمَ أَبا بكرٍ، فأَزالَ ما حَصَلَ له منَ الحَرَجِ، فعادَ مَسرورًا، وانفَكَّ الشَّيطانُ مَدحورًا، واستَعمَلَ الصدِّيقُ مَكارِمَ الأَخلاقِ، فحَنَّثَ نَفسَهُ

---

(١) وهو عند البخاري أيضًا (٦٠٢).

(٢) فتح الباري (٦/ ٥٩٩).

(٣) عمدة القاري (٥/ ١٠٠).

(٤) فتح الباري (٦/ ٥٩٩).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٢٢).

زيادَةً في إكرامِ ضيفانِهِ؛ ليَحصُلَ مَقصودُهُ من أَكلِهِم، ولِكَونِهِ أَكثَرَ قُدرَةً منهم على الكَفَّارَةِ»[١].

وزادَ مسلمٌ: «قال: ولَم تَبلُغني كَفَّارَةٌ».

قال البَيهَقيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّما لَم يَأمُرهُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكَفَّارَةِ -إن كان لَم يَأمُرهُ بها-؛ لَعِلمِهِ بمَعرِفَتِهِ بوُجوبها، ويُحتَمَلُ أَنَّ ذلك كان قَبلَ نُزولِ الكَفَّارَةِ، والأَوَّلُ أَشبَهُ»[٢].

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولَم تَبلُغني كَفَّارَةٌ»: حُجَّةٌ للكافَّةِ منَ الصحابَةِ والتابعينَ وعُلماءِ الأمصارِ في جَوازِ الحِنثِ قَبلَ الكَفَّارةِ؛ لِأَنَّ أبا بكرٍ لَم يُكَفِّر قَبلَ أَكلِه، ولو كان لَرواهُ في الحَديثِ، فجاء أنَّ كفَّارتَه إنَّما كانت بعدُ»[٣].

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَعني: لَم يَبلُغني أَنَّهُ كَفَّرَ قَبلَ الحِنثِ، فأَمَّا وُجوبُ الكَفَّارَةِ: فلا خِلافَ فيه؛ لِقَولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن حَلَفَ على يَمينٍ فرَأى غيرَها خَيرًا منها، فليَأتِ الذي هو خَيرٌ، وليُكَفِّر عن يَمينِهِ**»[٤].

وهذا نَصٌّ في عَينِ المَسأَلَةِ، مع عُمومِ قَولِهِ تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]»[٥].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَولُهُ: «ولَم يَبلُغني كَفَّارَةٌ»، استُدِلَّ بِهِ على أَنَّهُ لا تَجِبُ الكَفَّارَةُ في يَمينِ اللِّجاجِ والغَضَب، ولا حُجَّةَ فيه؛ لِأَنَّهُ لا يَلزَمُ من عَدَمِ الذِّكرِ عَدَمُ الوُجودِ، فلِمَن أَثبَتَ الكَفَّارَةَ أَن يَتَمَسَّكَ بعُمومِ قَولِهِ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾.

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٩٩).

(٢) السنن الكبرى (١٠/ ٦٠).

(٣) إكمال المعلم (٦/ ٥٥٢).

(٤) رواه مسلم (١٦٥٠).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٢٢).

ويَحتَمِلُ أَن يكونَ ذلك وقَعَ قَبلَ مَشروعيَّةِ الكَفَّارَةِ في الأَيمانِ، لكن يُعَكِّرُ عليه ما سَيأتي من حَديثِ عائشةَ: «أَنَّ أَبا بكرٍ لَم يَكُن يَحنَثُ في يَمينٍ، حتى نزلَتِ الكَفَّارَةُ»[1].

وقال بعضهم: «يَحتَمِلُ أَن يكونَ أَبو بكرٍ لَمَّا حَلَفَ أَن لا يَطعَمَهُ أَضمَرَ وقتًا مُعَيَّنًا، أو صِفَةً مَخصوصَةً، أَي: لا أَطعَمُهُ الآنَ، أو لا أَطعَمُهُ معكُم، أو عِندَ الغَضَب».

وهو مَبنيٌّ على أَنَّ اليَمينَ: هَل تَقبَلُ التقييدَ في النفسِ، أَم لا؟ ولا يَخفى ما فيه منَ التكَلُّفِ.

وقَولُ أَبي بكرٍ: «واللهِ لا أَطعَمُهُ أَبَدًا»، يَمينٌ مُؤَكَّدَةٌ، ولا تَحتَمِلُ أَن تكونَ من لَغوِ الكَلامِ، ولا من سَبقِ اللِّسانِ»[2].

وقال الحافظُ ابنُ رَجَبٍ: «كانت يَمينُ أبي بكرٍ أَلَّا يأكُلَ هذا الطعامَ في غَضَبٍ؛ ولهذا قال: «إِنَّما ذلك منَ الشَّيطانِ»، يَعني: يَمينَهُ.

وفيه دَليلٌ على انعقادِ يَمينِ الغَضبانِ، كَما حَلَفَ النبيُّ ﷺ في غَضَبِهِ أَلَّا يَحمِلَ النَفَرَ منَ الأشعَرِيِّينَ، ثم حَمَلهم، وقال: «**لا أَحلِفُ على يَمينٍ، فأَرى غيرَها خَيرًا منها، إلا أَتَيتُ الذي هو خَيرٌ**[3]»[4].

---

(١) رواه البخاري (٤٦١٤).

(٢) فتح الباري (٦/ ٥٩٩-٦٠٠).

(٣) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ في نفر من الأشعريين، فوافقته وهو غضبان، وهو يقسم نعمًا من نعم الصدقة، فاستحملناه، فحلف أن لا يحملنا، قال: «**ما عندي ما أحملكم عليه**»، ثم أتي رسول الله ﷺ بنهب إبل -أي: غنيمة-، فقال: «**أين الأشعريون؟ أين الأشعريون؟**»، فأعطانا خمس ذودٍ غر الذرى، فلبثنا غير بعيد، فقلت لأصحابي: نسي رسول الله ﷺ يمينه، فوالله لئن تغفلنا رسول الله ﷺ يمينه لا نفلح أبدًا، فرجعنا إلى النبي ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، إنا استحملناك فحلفت أن لا تحملنا، فظننا أنك نسيت يمينك، فقال: «**إن الله هو حملكم، إني -والله- إن شاء الله- لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيرًا منها، إلا أتيت الذي هو خير، وتحللتها**». رواه البخاري (٥٥١٨)، ومسلم (١٦٤٩).

«غر الذرى»، أي: بيض الأسنمة سمانها، والذرى: جمع ذروة، وهي أعلى سنام البعير، وذروة كل شيء أعلاه. النهاية (٢/ ١٥٩).

(٤) فتح الباري، لابن رجب (٥/ ١٧٢).

ويَمينُ الغَضبانِ فيها تَفصيلٌ:

قال الشَّيخُ ابنُ بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن حَلَفَ وهو غَضبانُ، فحالُه محلّ تَفصيلٍ:

فإن كان اشتَدَّ به الغضَبُ حتى فقدَ شُعورَه ولَم يُمَيِّز، بسَبب شِدّةِ الغَضَب لَم يَملِك نفسَه، فهذا لا تَنعَقِدُ يمينُه، ولا يلزمُه شيءٌ، كَما لَو طَلَّقَ في حالِ شِدَّةِ الغَضَب عِندَ المسابَّة والمخاصَمةِ الشَّديدةِ والمضارَبةِ ونَحوِ ذلك، حتى فقدَ شُعورَه؛ لِأَنَّهُ في هذه الحالةِ أشبَهُ بالمَعتوهينَ والمَجانينَ. أمَّا الغَضَبُ العادي: فإنَّه لا يَمنَعُ الطلاقَ، ولا يمنعُ انعقادَ اليَمينِ، فإذا قال: واللهِ لا أُكَلِّمُ فُلانًا، أو لا أزورُه، أو لا أُجيبُ دعوتَه، وإنِ كان غَضبانَ، لكِنَّهُ غَضَبٌ لَم يخِلَّ بشُعورِه، ولَم يبلُغ حَدَّ الشِّدَّةِ التي تُغَيِّرُ الشُّعورَ، وتمنَعُ الإنسانَ من الفِكرِ والنظَرِ: فهذا عليه كَفَّارةُ اليَمينِ، إذا خالَفَ يَمينَه»[1].

قَولُهُ: «ثم حَمَلها إلى النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فأَصبَحَت عِندَه»:**

قال الحافظُ: «أي: أَصبَحَتِ الجَفنَةُ عِندَهُ على حالِها، وإنَّما لَم يَأكُلوا منها في اللَّيلِ؛ لِكَونِ ذلك وقَعَ بعدَ أَن مَضى منَ اللَّيلِ مُدَّةٌ طَويلَةٌ»[2].

قَولُهُ: «وكان بيننا وبينَ قَومٍ عَهدٌ، فمَضى الأَجَلُ، فتَفَرَّقنا اثنا عَشَرَ رجلًا، مع كُلِّ رجلٍ منهم أُناسٌ»:

قال العَينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قَولُهُ: «عَهدٌ»**، أَي: عَهدُ مُهادَنَةٍ، ويُروى: «**وكانت بيننا»**، والتأنيثُ باعتِبار المهادَنَةِ.

قَولُهُ: «فمَضى العَهدُ»، أَي: مَضَت مُدَّةُ العَهدِ.

قَولُهُ: «فتَفَرَّقنا»: منَ التفريقِ، فالراءُ فيه مَفتوحَة، والضَّمير المَرفوع فيه يَرجِعُ إلى النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكَلِمَةُ: «**نا»**، مَفعولُه، و: «**الفاءُ»**، فيه فاءُ الفَصيحَةِ[3]، أَي: فجاءوا

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٢٣/ ١٢١).

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٠٠).

(٣) هي الفاء التي تفصح عن محذوف في الكلام قبلها، يكون سببًا للمذكور بعدها، كالفاء التي نراها مذكورة بعد الأوامر والنواهي؛ بيانًا لسبب الطلب، وسميت فصيحةً؛ لأنها أفصحت عن المقدر قبلها، وأظهرت =

إلى المَدينَة، أَي: جَعَلَ كُلّ رجلٍ مع اثنَي عَشرَةَ فِرقَةً. وفي روايةِ مسلمٍ: «**فعَرَّفَنا**»: بالعينِ المهملَة، والراء المشَدّدَة، أَي: جَعَلنا عُرَفاءَ نُقَباءَ على قَومِهِم»[1].

قال الحافظُ: «أَي: جَعَلهم اثنَي عَشرَةَ فِرقَةً، وحَكى الكِرمانيُّ أَنَّ في بعضِ الرِّواياتِ: «فقَرَينا» منَ القِرى، وهو الضِّيافَةُ، ولَم أَقِف على ذلك.

قَولُهُ: «**اثنا عَشَرَ رجلًا**»، كذا للمُصَنِّفِ، وعِندَ مسلمٍ: «اثنَي عَشَرَ» بالنصب، وهو ظاهِرٌ، والأَوَّلُ على طَريقِ مَن يَجعَلُ المثَنَّى بالرفعِ في الأَحوالِ الثَّلاثَةِ، ومنه قَوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣].

ويَحتَمِلُ أَن يكونَ: «ففُرِّقنا» بضَمِّ أَوَّلِهِ على البناءِ للمَجهولِ، فارتَفَعَ «اثنا عَشَرَ» على أَنَّهُ مُبتَدَأٌ، وخَبَرُهُ «مع كُلِّ رجلٍ منهم»[2].

وقال الكورانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فتَفَرَّقنا**»: منَ التفرِقَةِ، «**اثنا عَشَرَ رجلًا**»: خَبَرُ مُبتَدأٍ، أَي: «ونَحنُ»، ولا يَجوزُ أن يكونَ بَدلًا من ضَميرِ «تَفَرَّقنا»، وفي بعضِها: «تَعَرَّفنا» من المَعرِفَةِ، أَي: تَبعَ كُلُّ واحدٍ عَريفَهُ[3]»[4].

ولفظُ مسلمٍ: «فعَرَّفنا اثنا عَشَرَ رجلًا».

= أن في الكلام شيئًا محذوفًا، فمبناها على الحذف اللازم، وكمال حسنها وفصاحتها في كونها مبنيةً على التقدير، منبئةً عن المحذوف. كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، أي: ضرب، فانفجرت، وكقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فالفاء في ﴿فَعِدَّةٌ﴾ مفصحة عن محذوف، والتقدير: فأفطر، فعليه عدة من أيام أخر، فحذف (فأفطر)، واكتفى بالمسبب الذي هو العدة من أيام أخر، عن السبب الذي هو الإفطار. وينظر: الكليات، للكفوي (ص٦٧٦)، عناية القاضي، لشهاب الدين الخفاجي (٣/ ٢٢٨).

(١) عمدة القاري (١٦/ ١٢٦).

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٠٠).

(٣) «عريف» بوزن عظيم، وهو القائم بأمر طائفة من الناس، من «عرفت» -بالضم وبالفتح- على القوم، أعرف -بالضم-، فأنا عارف وعريف، أي: وليت أمر سياستهم، وحفظ أمورهم، وسمي بذلك؛ لكونه يتعرف أمورهم، حتى يعرف بها من فوقه عند الاحتياج. ينظر: النهاية (٣/ ٢١٨)، فتح الباري (١٣/ ١٦٩)، كشف المشكل (٤/ ٦٢).

(٤) الكوثر الجاري (٦/ ٣٩١)

قال النوويُّ: «هَكذا هو في مُعظَمِ النُّسَخِ: «فعَرَّفنا»، أَي: جَعَلنا عُرَفاءَ، وفي كَثيرٍ منَ النُّسَخِ: «ففَرَّقنا»، منَ التفريقِ، أَي: جَعَلَ كُلَّ رجلٍ منَ الِاثنَي عَشَرَ مع فِرقَةٍ، فهُما صَحيحانِ»[(١)].

قَولُهُ: «اللهُ أَعلَمُ كَم مع كُلِّ رجلٍ»: يَعني: أَنَّهُ تَحقَّقَ أَنَّهُ جعلَ عليهم اثنا عَشَرَ عَريفًا، لكنَّهُ لا يَدري كَم كان تَحتَ يَدِ كُلِّ عَريفٍ منهم؛ لِأَنَّ ذلك يَحتَمِلُ الكَثرَةَ والقِلَّةَ، غيرَ أَنَّهُ يَتَحقَّقُ أَنَّهُ بَعَثَ معهم -أَي: مع كُلِّ ناسٍ- عَريفًا[(٢)].

قَولُهُ: «غيرَ أَنَّهُ بَعَثَ معهم»: أَي: غيرَ أَنَّ النبيَّ ﷺ بَعَثَ معهم نَصيبَ أَصحابهم إليهم[(٣)].

قَولُهُ: «قال: أَكَلوا منها أَجمَعونَ، أو كَما قال»:

قال الحافظُ: «هو شَكٌّ من أَبي عُثمانَ النهديّ في لَفظِ عبدِ الرحمَنِ، وأَمَّا المَعنى: فالحاصِلُ أَنَّ جَميعَ الجَيشِ أَكَلوا من تِلكَ الجَفنَةِ التي أَرسَلَ بها أَبو بكرٍ إلى النبيِّ ﷺ، وظَهَرَ بذلك أَنَّ تَمامَ البَرَكَةِ في الطعامِ المَذكورِ كانت عِندَ النبيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ الذي وقَعَ فيها في بَيتِ أَبي بكرٍ ظُهورُ أَوائِلِ البَرَكَةِ فيها، وأَمَّا انتِهاؤُها إلى أَن تَكفيَ الجَيشَ كُلَّهُم فما كان إلا بعدَ أَن صارَت عِندَ النبيِّ ﷺ على ظاهِرِ الخَبَرِ، واللهُ أَعلَمُ»[(٤)].

وعن أَبي العَلاءِ بن الشِّخِّيرِ، عن سَمُرَةَ بن جُندُبٍ، قال: «كُنَّا مع رسولِ اللهِ ﷺ نَتَداوَلُ في قَصعَةٍ من غُدوَةٍ حتى اللَّيلِ، يَقومُ عَشَرَةٌ، ويَقعُدُ عَشَرَةٌ».

قُلنا: فما كانت تُمَدُّ؟ قال: «من أَيِّ شيءٍ تَعجَبُ؟ ما كانت تُمَدُّ إلا من ها هُنا»، وأَشارَ بيَدِهِ إلى السماءِ[(٥)].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٢٠).

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٠٠).

(٣) عمدة القاري (١٦/ ١٢٦).

(٤) فتح الباري (٦/ ٦٠٠).

(٥) رواه الترمذي (٣٦٢٥)، وصححه، والنسائي في الكبرى (٦٨٧٦)، وابن حبان في صحيحه (٦٥٢٩)، وأحمد (٢٠١٩٦)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

قال الحافظُ: «قال بعضُ شُيوخِنا: «يَحتَمِلُ أَن تَكونَ هذه القَصعَةُ هي التي وقَعَ فيها في بَيتِ أَبي بكرٍ ما وقَعَ»، واللهُ أَعلَمُ»[1].

وعن أَنَس بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بَعَثَني أَبو طَلحَةَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَدعوَهُ، وقد جَعَلَ طَعامًا، قال: فأَقبَلتُ ورسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الناسِ، فنَظَرَ إِلَيَّ فاستَحيَيتُ، فقُلتُ: أَجِب أَبا طَلحَةَ، فقال للناسِ: «**قوموا**»، فقال أَبو طَلحَةَ: يا رسولَ اللهِ، إِنَّما صَنَعتُ لك شَيئًا، قال: فمَسَّها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودَعا فيها بالبَرَكَةِ، ثم قال: «**أَدخِل نَفَرًا من أَصحابي عَشَرَةً**»، وقال: «**كُلوا**»، وأَخرَجَ لهم شَيئًا من بينِ أَصابعِهِ، فأَكَلوا حتى شَبعوا فخرجوا، فقال: «**أَدخِل عَشَرَةً**»، فأَكَلوا حتى شَبعوا، فما زالَ يُدخِلُ عَشَرَةً ويُخرِجُ عَشَرَةً، حتى لَم يَبقَ منهم أَحَدٌ إلا دَخَلَ، فأَكَلَ حتى شَبعَ، ثم هَيَّأَها، فإذا هي مِثلُها حينَ أَكَلوا منها[2].

بعضُ الفَوائِدِ المستَفادَةِ منَ الحَديثِ:

* فيه: فضيلَةُ الإيثارِ والمواساةِ، وأَنَّه عِندَ كثرةِ الأضيافِ يوَزِّعُهم الإمامُ على أهلِ المَحلَّة، ويُعطي لِكُلٍّ مِنهُم ما يعلَمُ أَنَّه يَحتَمِلُه، ومن هذا أَخذَ عمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِعلَه في عامِ الرمادَةِ، إذ كان يُلقي على أهلِ كُلّ بيتٍ مِثلهم من الفُقَراءِ، ويقولُ: «لَن يَهلِكَ امرُؤٌ عن نِصفِ قوتِه»[3]، وكانتِ الضَّرورَةُ ذلك العامَ أَشَدَّ[4].

* وفيه: أَنَّ الوَلَد والأهلَ يلزمهُم من خِدمَةِ الضَّيف ما يلزمُ صاحبَ المَنزِلِ.

* وفيه: أَنَّ الأضيافَ يَنبَغي لهم أَن يَتَأَدَّبوا ويَنتَظِروا صاحبَ الدَّارِ، ولا يَتَهافَتوا على الطعامِ دونَه.

---

(١) فتح الباري (٦/ ٦٠٠).

(٢) رواه البخاري (٥٤٥٠)، ومسلم (٢٠٤٠).

(٣) لم نجده مسندا، وقد ذكره ابن عبد البر في الاستذكار (٦/ ٢١٠)، والتمهيد (١٩/ ٢٥)، بغير إسناد، وعنه أخذه الشراح.

(٤) التوضيح (٦/ ٢٩٧).

* وفيه: أَنَّ آياتِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تظهَرُ على يَدِ غيرِه.

* وفيه: ما كان عليه أَبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من حُبِّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والِانقِطاعِ إليه، وإيثارِه في لَيلِهِ ونَهارِه على الأَهلِ والأضيافِ.

* وفيه: كَرامَةٌ ظاهِرَةٌ للصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* وفيه: جَوازُ الِاختفاءِ عَنِ الوالِدِ، إذا خافَ منه على تَقصيرٍ واقِعٍ منه.

* وفيه: جَوازُ الخطاب للزَّوجَةِ بغيرِ اسمِها.

* وفيه: حَملُ المضيفِ المَشَقَّةَ على نَفسِه في إكرامِ الضِّيفانِ، والِاجتِهاد في رَفعِ الوَحشَةِ وتَطييب قُلوبهم.

* وفيه: جَوازُ ادِّخارِ الطعامِ للغَدِ.

* وفيه: مُخالفَةُ اليَمينِ إذا رأى غَيرَها خيرًا منها.

* وفيه: أَن الراوي إذا شَكَّ يَجِبُ أَن يُنَبِّهَ عليه، كَما قال: «لا أَدري هَل قال: وامرَأَتي؟»، ومثل لَفظَةِ: «أو كَما قال»، ونَحوها.

* وفيه: أَنَّ الحاضِرَ يَرى ما لا يراهُ الغائِبُ؛ فإنَّ امرَأَةَ أَبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لَمَّا رَأَت أَنَّ الضِّيفانَ تَأَخَّروا عَنِ الأكلِ تأَلَّت لِذلك، فبادَرَت -حينَ قدِمَ- تَسأَلُهُ عن سَبَب تَأَخُّرِهِ.

* وفيه: إباحَةُ الأكلِ للضَّيفِ في غَيبَةِ صاحِب المنزِلِ، وأَن لا يَمتَنِعوا إذا كان قد أذِنَ في ذلك، لإنكارِ الصدِّيقِ في ذلك[1].

* وفيه: أَنَّ تَحنيثَ أبى بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَفسَه، من كَرَمِ الأخلاقِ، والأولى تَحَمُّلُ المضيفِ على نَفسِه، إذ لَو لَمْ يُحَنِّث نَفسَهُ لا هو ولا هُم خرجوا عنه دونَ قِرًى، وفيه ما فيه، وهُم أَعذَرُ منه، فكان الأولى بصاحِب المَنزِلِ والمضيفِ الحَملَ على نَفسِه والصبرَ، وتَحنيثَ

(١) عمدة القاري (٥/ ١٠١).

نَفسِه، وتَطييبَ قُلوب أضيافِه بأَكلِه معهم، وإزالَةِ حَرَجِهم، وتَمام برِّهِم بإجابَتِهم إلى مُرادِهِم وتَأنيسِهم[1].

* وفيه: أَكلُ الصديقِ عِندَ صَديقِه، وإن كان عندَه ضَيفٌ، إذا كان في دارِه مَن يَقومُ بخِدمتِهم ومُؤنَتِهم.

* وفيه: أنَّ الولَدَ والأهلَ يلزَمُهم من التَّحَفُّلِ بأُمورِ الضَّيفِ مثلُ ما يَلزَمُ صاحِبَ المَنزِلِ.

* وفيه: أنَّ للرَّجُلِ أن يَسُبَّ أهلَه ووَلَدَهُ على تقصيرِهم ببرِّ أضيافِه، وأن يغضَبَ لِذلك.

* وفيه: أنَّ آثارَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تَظهَرُ على يَدَي غيرِ النبيِّ؛ لِبَرَكَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* وفيه: أنَّ الصديقَ الملاطِفَ يَجمُلُ منه أن يُهديَ إلى الجَليلِ من إخوانِه يَسيرَ الهَدَيَّةِ[2].

* وفيه: استِحبابُ إيثارِ الفُقَراءِ بالشِّبَعِ منَ الطعامِ، ومواساتهم فيه؛ فلِهذا أُمِرَ مَن كان عِندَهُ طَعامُ اثنَينِ أن يَذهَبَ بثالثٍ، ومَن كان عندَه طَعامُ أربَعَةٍ أن يَذهبَ بخامِسٍ، أو بسادِسٍ.

* وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ البَرَكَةَ تَتَضاعَفُ مع الكَثرَةِ والاِجتِماعِ على الطعامِ.

* وفيه: اختصاصُ أبي بكرٍ بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عَشائِه عِندَه، واحتباسه إلى أن يَمضيَ ما شاءَ اللهُ منَ اللَّيلِ.

* وفيه: إثباتُ كراماتِ الأولياءِ، وخَرقِ العَوائِدِ لهُم، وهو قَولُ عامَّةِ أهلِ السُّنَّةِ، ووافَقَ على ذلك المعتَزِلَةُ في زَمَنِ الأنبياءِ خاصَّةً، كَما جَرى لأبي بكرٍ في هذه القَضيَّةِ، وجَعَلوها من جُملَةِ مُعجِزاتِهم حينَئِذٍ.

والتحقيقُ: أنَّها من جُملةِ مُعجِزاتِ الأنبياءِ على كُلِّ حالٍ، وفي كُلِّ زمانٍ؛ لأنَّ ما يُكرِمُ اللهُ بذلك أولياءَهُ، فإنَّما هو من بَرَكَةِ اتِّباعِهم للأنبياءِ، وحُسنِ اقتدائِهم بهم، فدَوامُ ذلك لأَتباعِهم وخَواصِّهم من جُملَةِ مُعجِزاتِهم وآياتِهم.

---

(١) إكمال المعلم (٦/ ٥٥١).

(٢) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٢/ ٢٢٧).

* وفيه: جَوازُ الإهداءِ إلى الإخوانِ الطعامَ باللَّيلِ، معَ العِلمِ بأنَّهم قد تَعَشَّوا واكتَفَوا، وإن أدَّى ذلك إلى أن يَبيتَ الطعامُ عندَهُم.

* وفيه: أنَّ مَن حَلَفَ على يَمينٍ، فرأى غيرَها خيرًا منها، فإنَّه يأتي الذي هو خَيرٌ، ولا تُحَرِّمُ عليه يَمينُه فِعلَ ما حَلَف على الإمتِناعِ منه، وهذا قَولُ جُمهورِ العُلماءِ.

وكانت يَمينُ أبي بكرٍ ألَّا يأكلَ هذا الطعامَ في غَضَبٍ، ولهذا قال: «إنَّما ذلك منَ الشَّيطانِ»، يَعني: يَمينَهُ.

* وفيه: دَليلٌ على انعِقادِ يَمينِ الغَضبانِ[1].

* وفيه: السمَرُ معَ الأضيافِ، وهذا من السمَرِ في المباحِ وطَلَب الفَضيلَةِ؛ لِأَنَّ تِلكَ كانت أخلاقَهم وأحوالَهم، فلا يَجوزُ السمَرُ إلا في مِثلِ ذلك من طلَب الأجرِ، والمباحِ.

* وفيه: أن للسُّلطانِ إذا رأى بقَومٍ مَسغَبَةً أن يُفَرِّقَهُم على أهل الوُجود بقدر ما لا يجحِفُ بهِم، ألا ترى أنَّ مَن كان عندَه طعامُ اثنَينِ ذَهَبَ بثالِثٍ؟[2].

* وفيه: التِجاءُ الفُقَراءِ إلى المَساجِدِ عِندَ الإحتياجِ إلى المواساةِ، إذا لَم يَكُن في ذلك إلحاحٌ، ولا إلحافٌ، ولا تَشويشٌ على المصَلِّينَ.

* وفيه: استِحبابُ مواساتِهم عِندَ اجتِماعِ هذه الشُّروطِ.

* وفيه: التوظيفُ في المَخمَصَةِ.

* وفيه: جَوازُ الغَيبَةِ عَنِ الأَهلِ والوَلَدِ والضَّيفِ، إذا أُعِدَّت لهمُ الكِفايَةُ.

* وفيه: تَصَرُّفُ المَرأَةِ فيما تُقدِّمُ للضَّيفِ، والإطعامُ بغيرِ إذنٍ خاصٍّ منَ الرجُلِ.

* وفيه: جَوازُ سَبِّ الوالِدِ للوَلَدِ على وجهِ التأديب والتمرينِ على أَعمالِ الخَيرِ وتَعاطيهِ.

* وفيه: جَوازُ الحَلِفِ على تَركِ المباحِ.

---

(١) فتح الباري لابن رجب (٥/ ١٦٦-١٧٢).

(٢) شرح صحيح البخارى، لابن بطال (٢/ ٢٢٦).

* وفيه: تَوكيدُ الرجُلِ الصادِقِ لِخَبَرِهِ بالقَسَمِ.

* وفيه: العَمَلُ بالظَّنِّ الغالِب؛ لِأَنَّ أَبا بكرٍ ظَنَّ أَنَّ عبدَ الرحمَنِ فرَّطَ في أَمرِ الأَضيافِ، فبادَرَ إلى سَبِّهِ، وقَوَّى القَرينَةَ عِندَهُ اختِباؤُهُ منه.

* وفيه: ما يَقَعُ من لُطفِ اللهِ تعالى بأوليائِهِ، وذلك أَنَّ خاطِرَ أَبي بكرٍ تَشَوَّشَ، وكذلك ولَدُهُ وأَهلُهُ وأَضيافُهُ؛ بسَبَب امتِناعِهِم منَ الأَكلِ، وتَكَدَّرَ خاطِرُ أَبي بكرٍ من ذلك، حتى احتاجَ إلى ما تَقدَّمَ ذِكرُهُ منَ الحَرَجِ بالحَلِفِ وبالحِنثِ وبغيرِ ذلك، فتَدارَكَ اللهُ ذلك ورَفَعَهُ عنه بالكَرامَةِ التي أَبداها له، فانقَلَبَ ذلك الكَدَرُ صَفاءً، والنكَدُ سُرورًا، ولله الحَمدُ والمِنَّةُ[1].

* وفيه: أنَّ الوَلَدَ ينبَغي أن يكونَ عَونًا لأبيهِ على الطاعاتِ، وأعمالِ البرِّ، والقيامِ بحقِّ الضُّيوفِ، ونَحوِ ذلك.

* وفيه: فضيلةُ الِاعترافِ بالخَطَأِ، وأنّ الإنسانَ إذا تبَيَّنَ لهُ خَطَؤُهُ أو تَسَرُّعُه في القَرارِ، فعليه أن يُراجِعَ نَفسَه، ويَعتَرِفَ بخَطَئِه، ولا يُصِرّ عليه.
قال أَبو بكرٍ: «كَأَنَّ هذه منَ الشَّيطانِ»، فدَعا بالطعامِ، فأَكَلَ وأَكَلوا».

* وفيه: أنَّ من إكرامِ الضَّيفِ: تَعجيلَ الطعامِ، وعَدَمَ تَأخيرِهِ.



(١) فتح الباري (٦/ ٦٠٠).

٦

الزوجةُ الوفيةُ

الزوجةُ الوفيةُ

إن من القِصصِ العظيمةِ والسِّيَرِ الكريمَةِ التي تُروى لأصحاب النبيّ ﷺ في عهدِه: قِصَّةُ أكرمِ زوجةٍ وفيَّةٍ، وسيرةُ تِلكَ المؤمِنَةِ المخلِصَةِ التقيَّة، التي دافعَت عن رسول اللهِ ﷺ، وواسَته بمالِها، وآزَرَته في أوَّلِ أمرِه، وأعانَته في تبليغِ رسالَةِ ربِّه، أُمِّ المؤمِنينَ خديجةَ بنتِ خوَيلِدٍ رضي الله عنها.

ترجَمة أُم المؤمِنينَ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها:

هي خديجةُ بنتُ خوَيلِد بن أسَدِ بن عبدِ العُزَّى بن قُصَيّ، القُرشيّة، الأَسَديّة، زَوجُ النبيّ ﷺ، وأوَّلُ مَن صَدَّقَ ببَعثَتِه مُطلَقًا.

قال الزّبيرُ بن بكَّارٍ: «كانت تُدعى قبلَ البَعثَةِ: الطاهِرة».

وأمُّها: فاطمةُ بنتُ زائدَةَ، قُرشيّةٌ من بني عامرِ بن لُؤَيّ.

وكانت عندَ أبي هالةَ بن زُرارةَ بن النبَّاش بن عِديّ التّميميِّ أوَّلًا.

ثم خَلفَ عليها بعدَ أبي هالةَ عتيقُ بن عائذِ بن عبدِ اللهِ بن عمرَ بن مَخزومٍ.

ثم خَلفَ عليها رسولُ اللهِ ﷺ.

هذا قولُ ابنِ عبدِ البَرّ، ونسَبَه للأكثَر.

وعن قتادةَ عكسُ هذا: أنّ أوَّلَ أزواجِها عتيقٌ، ثم أبو هالةَ، ووافَقَه ابنُ إسحاقَ في روايةِ يونُس بن بكيرٍ عنه، وهَكذا في كتاب «النسب» للزُّبيرِ بن بكَّار، لكن حكى القولَ الأخيرَ أَيضًا عن بعضِ الناسِ.

وكان تزويجُ النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خديجةَ قبلَ البَعثَةِ بخَمسَ عشرَةَ سنَةً، وقيلَ أكثَر من ذلك.

وكانت موسرةً، وكان سببُ رغبَتِها فيه: ما حكاهُ لها غلامُها ميسرةُ، مِمَّا شاهَده من علاماتِ النُّبوّة قبلَ البَعثَة، ومِمَّا سَمِعَهُ من «بَحيرا الراهب» في حقِّه، لَمَّا سافرَ معهُ ميسرةُ في تجارةِ خديجةَ.

وولدَت من رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أولادَه كلَّهم، إلا إبراهيم[1].

وعن نَفيسَةَ بنتِ مُنيَةَ، قالت: «كانت خديجةُ بنتُ خوَيلِدِ بن أَسَدِ بن عبدِ العُزَّى بن قُصَيٍّ امرَأَةً حازِمَةً جَلدَةً شَريفَةً، مَعَ ما أَرادَ اللهُ بها منَ الكَرامَةِ والخَيرِ، وهي يَومَئِذٍ أوسَطُ قريشٍ نَسَبًا، وأَعظَمُهُم شَرَفًا، وأَكثَرُهُم مالًا، وكُلُّ قَومِها كان حَريصًا على نِكاحِها لَو قدَرَ على ذلك، قد طَلَبوها وبَذَلوا لها الأَموالَ»[2].

وقال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قال الزُّهريُّ**: «أَوَّلُ امرَأَةٍ تَزَوَّجَها رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: خديجةُ بنتُ خوَيلِدِ بن أَسَدِ بن عبدِ العُزَّى بن قُصَيٍّ، زَوَّجَهُ إيَّاها أَبوها قَبلَ البَعثَةِ».

وفي **روايةٍ**: قال: «كان عُمُرُ رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يومَ تَزَوَّجَ خديجةَ إحدى وعِشرينَ سنةً، وقيلَ: خَمسًا وعِشرينَ سنةً، زَمانَ بُنيَتِ الكَعبَةُ»، وقالهُ الواقِديُّ، وزادَ: «ولها خَمسٌ وأَربَعونَ سنةً».

وقال آخَرونَ من أَهلِ العِلمِ: «كان عُمُرُهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يومَئِذٍ ثَلاثينَ سنةً».

وعن حَكيمِ بن حِزامٍ، قال: «كان عُمُرُ رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يومَ تَزَوَّجَ خديجةَ خَمسًا وعِشرينَ سنةً، وعُمُرُها أَربَعونَ سنةً».

وعَنِ ابنِ عباسٍ: «كان عُمُرُها ثَمانيًا وعِشرينَ سنةً»، رواهُما ابنُ عَساكِرَ.

وقال ابنُ جُرَيجٍ: «كان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ابنَ سَبعٍ وثَلاثينَ سنةً، فوَلَدَت له القاسِمَ، وبهِ كان يُكَنَّى، والطيِّبَ، والطاهِرَ، وزَينَبَ، ورُقَيَّةَ، وأُمَّ كُلثومٍ، وفاطِمَةَ».

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ٩٩).

(٢) الطبقات الكبرى (١/ ١٠٥).

قُلتُ: وهي أُمُّ أولادِهِ كُلِّهِم سِوى إبراهيمَ، فَمن ماريَةَ»[1].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت -إذ تزوَّجَها رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بنتَ أربعينَ سنَةٍ، فأقامَت معَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعًا وعشرينَ سنَةً، وتوُفِّيَت وهي بنتُ أربَعٍ وسِتِّين سنةً، وستَّة أشهُر.

وكان رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -إذ تزوَّجَ خديجةَ- ابنَ إحدى وعشرينَ سنَةً، وقيلَ: ابن خمسٍ وعشرينَ سنَةً، وهو الأكثرُ، وقيلَ: ابن ثلاثينَ سنَةً.

وأجمعوا أنَّها ولدت له أربعَ بناتٍ، كلُّهنّ أدركنَ الإسلامَ، وهاجَرنَ، فهُنّ: زينبُ، وفاطمةُ، ورُقَيَّةُ، وأمُّ كُلثوم.

وأجمَعوا أنها ولَدت له ابنًا يُسمى القاسِم، وبه كان يُكَنَّى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا مِمَّا لا خلافَ فيه بينَ أهلِ العلمِ.

وقال مَعمَر، عن ابن شهابٍ: «زعَمَ بعضُ العُلماءِ أنّها ولدَت لهُ ولدًا يُسمَّى الطاهِر».

وقال بعضُهُم: «ما نعلمُها ولَدَت له إلا القاسِم، ووَلدَت له بناتِه الأربَع».

وقال عقيل، عن ابن شِهابٍ: «ولدَت لهُ خديجةُ: فاطمةَ، وزينبَ، وأمَّ كُلثوم، ورُقيَّة، والقاسمَ، والطاهرَ، وكانت زينبُ أكبرَ بناتِ النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وقال قتادةُ: «ولدَت له خديجةُ غلامَينِ، وأربعَ بناتٍ: القاسمَ، وبه كان يُكَنَّى، وعاشَ حتى مشى، وعبدَاللهِ، ماتَ صغيرًا، ومن النساءِ: فاطمةَ، وزينبَ، ورَقيَّة، وأمَّ كُلثوم».

وقال الزُّبَيرُ: «وُلد لِرسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: القاسمُ، وهو أكبرُ ولدِه، ثم زينبُ، ثم عبدُ اللهِ، وكان يُقالُ له الطِّيّب، ويُقالُ له الطاهِر، وُلدَ بعدَ النُّبوّة، ثم أمُّ كُلثوم، ثم فاطمةُ، ثم رُقَيَّةُ، هَكذا الأوَّلَ فالأوَّلَ، ثم ماتَ القاسمُ بمكّةَ، وهو أوَّلُ ميِّتٍ ماتَ من ولَدِه، ثم ماتَ عبدُ اللهِ أَيضًا بمكَّةَ».

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٠٤).

وقال **مُصعَبٌ الزُّبيريُّ**: «وُلد لِرسولِ اللهِ ﷺ القاسمُ، وبه كان يُكَنَّى، وعبدُ اللهِ، وهو الطيبُ والطاهرُ، لأنّه وُلِدَ بعدَ الوحيِ، وزينبُ، وأمُّ كُلثوم، ورُقيَّةُ، وفاطمةُ، أمُّهُم كلِّهم خديجةُ».

ففي قولِ مُصعَب -وهو قولُ الزُّبَير، وأكثرِ أهلِ النسب- أنَّ عبدَ اللهِ ابنَ رسولِ اللهِ ﷺ هو الطيبُ، وهو الطاهرُ، له ثلاثةُ أسماءٍ.

وقال **عليُّ بن عبد العزيز الجُرجانيُّ النسَّابةُ**: «أولادُ رسولِ اللهِ ﷺ: القاسمُ، وهو أكبرُ أولادِه، ثم زينبُ، ثم أمُّ كُلثوم، ثم فاطمةُ، ثم رُقَيَّةُ، ثم عبدُ اللهِ، وكان يُقالُ له الطَيِّبُ والطاهرُ».

قال: «وهذا هو الصحيحُ، وغيرُه تخليطٌ».

ولا يختلِفون أنّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يتزوَّج في الجاهليةِ غيرَ خديجةَ، ولا تزوَّج عليها أحدًا من نسائِه حتى ماتَت»[1].

وقال **ابنُ إسحاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانت خديجةُ بنتُ خوَيلِدٍ امرَأَةً تاجِرَةً ذاتَ شَرَفٍ ومالٍ، تَستَأجِرُ الرِّجالَ في مالِها، وتُضارِبُهُم إيَّاهُ بشيءٍ تَجعَلُهُ لهم، وكانت قريشٌ قومًا تُجَّارًا، فَلَمَّا بلغَها عن رسولِ اللهِ ﷺ ما بلغَها، من صَدقِ حَديثِهِ، وعِظَمِ أَمانَتِهِ، وكَرَمِ أَخلاقِهِ، بَعَثَت إليه فَعَرَضَت عليه أَن يَخرُجَ في مالٍ لها إلى الشَّامِ تاجِرًا، وتُعطيه أَفضلَ ما كانت تُعطي غيرَهُ من التُّجَّارِ، مَعَ غُلامٍ لها يُقالُ له مَيسَرَةُ، فَقَبله رسولُ اللهِ ﷺ منها، وخرجَ في مالِها ذلك.

ثُمَّ تزوَّجها رسولُ اللهِ ﷺ.

فَوَلَدَت له ولَدَهُ كُلَّهُم إلا إبراهيمَ: القاسِمَ، وبَه كان يُكَنَّى ﷺ، والطاهِرَ، والطيِّبَ، وزَينَبَ، ورُقَيَّةَ، وأُمَّ كُلثومٍ، وفاطِمَةَ، عليهمُ السَّلامُ».

قال **ابنُ هِشامٍ**: «أَكبَرُ بَنيهِ: القاسِمُ، ثم الطيِّبُ، ثم الطاهِرُ، وأَكبَرُ بَناتِهِ: رُقَيَّةُ، ثم زَينَبُ، ثم أُمُّ كُلثومٍ، ثم فاطِمَةُ».

---

(١) الاستيعاب (٤/ ١٨١٨-١٨١٩).

قال ابنُ إسحاقَ: «فَأَمَّا القاسِمُ، والطيِّبُ، والطاهِرُ: فماتوا في الجاهِليَّةِ.

وأَمَّا بَناتُهُ: فَكُلُّهُنَّ أَدرَكنَ الإسلامَ، فَأَسلَمنَ، وهاجَرنَ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَجتَمِعُ مَعَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قُصَيٍّ، وهي من أَقرَب نِسائِهِ إليه في النسَب، ولَم يَتَزَوَّج من ذُرِّيَّةِ قُصَيٍّ غيرَها إلا أُمَّ حَبيبَةَ، وتَزَوَّجَها سنةَ خَمسٍ وعِشرينَ من مَولِدِهِ في قَولِ الجُمهورِ، زَوَّجَهُ إيَّاها أَبوها خوَيلِد، ذكَره البيهَقيُّ من حَديث الزُّهريّ، بإسنادِهِ عن عَمَّارِ بن ياسِرٍ، وقيلَ: زَوَّجَهُ عَمُّها عَمرو بن أَسَدٍ، ذكرَهُ الكَلبيُّ، وقيلَ: أَخوها عَمرو بن خويلد، ذكَرَه ابنُ إسحاقَ.

وكانت قَبله عِندَ أَبي هالَةَ بن النبَّاشِ بن زُرارَةَ التميميِّ، حَليفِ بَني عبدِ الدَّارِ، واختُلِفَ في اسمِ أَبي هالَةَ: فَقيلَ: مالك، قاله الزُّبَيرُ، وقيلَ: زُرارَة، حَكاهُ ابن مَندَه، وقيلَ: هِندٌ، جَزَمَ بِهِ العَسكَريُّ، وقيلَ: اسمُهُ النبَّاشُ، جَزَمَ بِهِ أَبو عُبَيدٍ.

وابنُهُ هِندٌ رَوى عنه الحَسَنُ بن عَليٍّ، فقال: «حَدَّثَني خالي»؛ لِأَنَّهُ أَخو فاطِمَةَ لِأُمِّها.

ولِهِندٍ هذا ولَدٌ اسمُهُ هِندٌ، ذكَرَهُ الدُّولابيُّ وغيرُهُ، فَعلى قَولِ العَسكَريِّ: فَهو مِمَّنِ اشتَرَكَ مَعَ أَبيهِ وجَدِّهِ في الِاسمِ.

وماتَ أَبو هالَةَ في الجاهِليَّةِ، وكانت خديجةُ قَبله عِندَ عَتيقِ بن عَائِذٍ المَخزوميِّ، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبلَ أَن يَتَزَوَّجَ خديجةَ قد سافَرَ في مالِها مُقارضًا إلى الشَّامِ، فَرَأى منه مَيسَرَةُ غُلامُها ما رَغَّبَها في تَزَوُّجِهِ، قال الزُّبَيرُ: «وكانت خديجةُ تُدعى في الجاهِليَّةِ: الطاهِرَةَ».

وماتَت -على الصحيحِ- بعدَ المَبعَثِ بعَشرِ سِنينَ في شَهرِ رَمَضانَ، وقيلَ بثَمانٍ، وقيلَ بسَبعٍ، فَأَقامَت مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمسًا وعِشرينَ على الصحيح، وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: «أَربَعًا وعِشرينَ سنةً، وأَربَعَةَ أَشهُرٍ»، وسَيَأتي من حَديثِ عائشةَ ما يُؤَيِّدُ الصحيحَ في أَنَّ مَوتَها قَبلَ الهِجرَةِ بثَلاثِ سِنينَ[2]، وذلك بعدَ المَبعَثِ على الصواب بعَشرِ سِنينَ.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٨٧-١٩٠)، باختصار وتصرف يسير.

(٢) يقصد ما رواه البخاري (٣٨٩٦)، عن هشام، عن أبيه، قال: «توفيت خديجة قبل مخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة بثلاث سنين»، وظاهره الإرسال، وهو محمول على أن عروة أخذه عن عائشة، كما في بعض =

وقد تَقدَّمَ في أَبواب بَدءِ الوَحيِ بَيانُ تَصديقِها للنبيِّ ﷺ في أوَّلِ وهلَةٍ.

ومن ثَباتِها في الأَمرِ ما يَدُلُّ على قوَّةِ يَقينِها، ووُفورِ عَقلِها، وصِحَّةِ عَزمِها، لا جَرَمَ كانت أَفضَلَ نِسائِهِ على الرَّاجِحِ»[1].

***

فصلٌ

جاء في المسنَدِ من طريقِ حَمَّاد بن سَلَمَةَ، عن عَمَّارِ بن أَبى عَمَّارٍ، عن ابنِ عباسٍ -فيما يَحسَبُ حَمَّادٌ-: «أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ذكرَ خديجةَ، وكان أَبوها يَرغَبُ أَن يُزَوِّجَهُ، فَصَنَعَت طَعامًا وشَرابًا، فَدَعَت أَباها ونَفَرًا من قريشٍ، فَطَعِموا وشَرِبوا حتى ثَمِلوا، فقالت خديجةُ لِأَبيها: إنَّ محمدَ بن عبدِ اللهِ يَخطُبُني، فَزَوِّجني إيَّاهُ، فَزَوَّجَها إيَّاهُ فخلَّقَتهُ وأَلبَستهُ حُلَّةً، وكذلك كانوا يَفعَلونَ بالآباءِ، فَلَمَّا سُرِّيَ عنه سُكرُهُ نَظَرَ، فإذا هو مُخَلَّقٌ وعليه حُلَّةٌ، فقال: ما شَأني؟ ما هذا؟ قالت: زَوَّجتَني محمدَ بن عبدِ اللهِ، قال: أَنا أُزَوِّجُ يَتيمَ أَبي طالِبٍ؟! لا، لَعَمري.

فقالت خديجةُ: أَما تَستَحي! تُريدُ أَن تُسَفِّهَ نَفسَكَ عِندَ قريشٍ؟ تُخبِرُ الناسَ أَنَّكَ كُنتَ سَكرانَ؟ فَلَم تَزَل بِهِ حتى رَضيَ»[2].

فهذا إسنادٌ ضعيفٌ، قال مُحَقِّقو المسنَدِ: «إسنادُه ضعيفٌ؛ فقد شَكَّ حمَّادُ بنُ سلَمةَ في وصلِه؛ إذ قال الرُّواةُ عنه: «فيما يحسبُ حمَّاد»، ولم يجزِم، ثم إنّ حمَّادَ بن سلَمَة قد دلَّسَه، فقد أخرجَه البيهقيُّ في الدَّلائِل (٢/ ٧٣)، من طريقِ مسلمِ بن إبراهيمَ، قال: حدَّثَنا حمَّادُ بن سلَمَة، عن عليِّ بن زيدٍ، عن عمَّارِ بنِ أبي عمَّار، عَنِ ابنِ عباسٍ: «أنَّ أبا خديجةَ زَوَّج النبيّ ﷺ وهَو -أظُنُّه قال:- سَكرانَ».

= الروايات الأخرى. وقال ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٧١): «ماتت خديجة بمكة قبل هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين».

(١) فتح الباري (٧/ ١٣٤).

(٢) المسند (٢٨٤٩).

فعادَ الحديثُ إلى عليِّ بن زيدِ بن جدعان، وهو ضعيفٌ.

وأخرجَ ابنُ سعدٍ في الطّبقاتِ (١/ ١٣٢) عن محمدِ بن عمر الواقِديِّ، عن محمدِ بن عبد اللهِ بن مسلمٍ، عن أبيهِ، عن محمّدِ بن جُبَيرِ بن مُطعِم.

وعن ابنِ أبي الزّنادِ، عن هشامِ بن عُروةَ، عن أبيهِ، عن عائشةَ.

وعن ابنِ أبي حبيبةَ، عن داوُدَ بن الحصَين، عن عِكرِمةَ، عن ابنِ عباسٍ، قالوا: «إنَّ عمَّها عمرَو بن أسدٍ زوَّجها رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن أباها ماتَ قبلَ الفِجارِ[١]».

ثم أوردَ ابنُ سعدٍ عن محمّد بن عمر الواقديِّ نحوَ القصّةِ التي رواها عمارُ بن أبي عمَّار، ثم قال: «وقال محمَّدُ بن عمَر: «فهذا كُلّه عندنا غلَطٌ ووَهَلٌ، والثبتُ عندنا المحفوظُ عن أهلِ العلمِ: أن أباها خوَيلِد بن أسدٍ ماتَ قبلَ الفِجار، وأنّ عمَّها عمرَو بن أسدٍ زوَّجها رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وبه قال الزُّبيرُ بن بكارٍ وغيرُه، ذكرَه ابنُ الأثير في أُسدِ الغابَة (٧/ ٨١)، وبه قال أَيضًا المبَرِّدُ وطائفةٌ معه، ذكَرَه السُّهَيليُّ في الرَّوض الأُنُف (١/ ٢١٣)».

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «زوّجه إيَّاها عَمرو بن أَسَد بن عبدِ العُزَّى بن قُصَيّ، وقال عَمرو بن أسدٍ: «مُحَمَّدُ بن عبدِ اللهِ بن عبدِ المطَّلِب يخطُب خديجةَ بنتَ خوَيلِدٍ، هذا الفَحلُ لا يُقدعُ أنفُه[٢]»[٣].

وقال الدكتورُ مُحَمَد مُحَمَد أبو شهبةَ: «هذا الذي ذكرناه من أنّ الذي وليَ تَزويجَها هو عمُّها: هو الذي عليه أكثرُ عُلماءِ السِّيَر، وهو الصحيحُ كما قال السُّهَيليُّ، فإنّ أباها كان قد ماتَ قبل ذلك.

---

(١) حرب الفجار: حرب كانت بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس عيلان في الجاهلية، سميت فجارًا؛ لأنها كانت في الأشهر الحرم. النهاية (٣/ ٤١٤).

(٢) القدع: الكف، ويقال: هذا فحل لا يقدع، أي: لا يضرب أنفه؛ وذلك إذا كان كريمًا. تهذيب اللغة (١/ ١٤١)، لسان العرب (٨/ ٢٦٠).

(٣) الاستيعاب (٤/ ١٨١٧-١٨١٨).

وكذلك ذكَرَ الطبري -وهو من ثِقاتِ المؤَرِّخينَ- أنَّ عمَّها عَمرًا هو الذي أنكَحَها رسولَ اللهِ ﷺ، وأنَّ خوَيلِدًا ماتَ قبل الفِجارِ.

ويرى ابنُ إسحاقَ أنّ أباها هو الذي زوَّجها، وهو رأيٌ ضعيفٌ.

ومن ثَمّ يتبَيَّن لنا تهافُتُ ما رويَ أنّ أباها امتَنَع من تزويجِها، وأنَّهم سَقَوه الخمرَ حتى ثَملَ فرضيَ، وأنّهم ألبَسوه المزَعفَرَ، فلما صحا من سُكرِه أخبروه فأنكَر عليهم ذلك، فما زالت به خديجةُ حتى رَضيَ، وهي روايةٌ باطلةٌ مدسوسة؛ لمُخالَفَتِها للنقلِ الصحيحِ على ما ذكرنا.

ثم هي مخالِفةٌ للواقعِ، وللظُّروفِ، والبيئةِ، فبنو هاشِم في الذُّروة من قريشٍ نسبًا وشرَفًا، وقد صدَع بها أبو طالبٍ في مجمَعٍ حافلٍ بالساداتِ، فما نازَعه فيها مُنازِعٌ، ثم إنّ مِثل النبيّ ﷺ في شبابه الغَضِّ، ورُجولَتِه النادِرة، وخُلُقِه الكامِلِ، ممّن تَتَطاول إلى مُصاهرتِه أعناقُ الأشرافِ»[1].

وقال أبو بكرٍ البزَّار: حَدَّثنا أحمدُ بن عيسى الكوفيُّ، قال: حَدَّثنا عمر بن حفصِ بن غياثٍ، قال: حَدَّثنا أبي، قال: حَدَّثنا الأَعمَشِ، عن أَبي خالِدٍ الوالِبيِّ عن جابرِ بن سَمُرة، أو رَجُلٍ من أَصحاب النبيّ ﷺ، قال: كان النبيّ ﷺ يَرعى غَنَمًا، ثم كان يَرعى الإبلَ مَعَ شَريكٍ له، قدِ اكتَرَتهُا أُختُ خديجةَ، فَلَمّا قَضَوُا السَّفَرَ بَقيَ عليهما شيءٌ، فَجَعَلَ شَريكُهُ يَأتيهم فيَتَقاضاهُم، ويقولُ لِمحمدٍ: انطَلِق، فَيقولُ: «اذهَب أَنتَ؛ فَإِنِّي أَستَحي»، فقالت له مَرَّةً، يَعني الشَّريكَ وأَتاهُم: فَأَينَ مُحَمدٌ، لا يَجيءُ معَكَ؟ قال: قد قُلتُ له، فَذكرَ أَنَّهُ يَستَحي، قال: فَذكرَت ذلك لأُختِها خديجةَ، فقالت: ما رَأَيتُ أَحَدًا قَطُّ أَشَدَّ حَياءً ولا أَعَفَّ من مُحَمد، فَوَقَعَ في نَفسِ أُختِها خديجةَ، فَبَعَثَت إليه، فقالت: ائتِ أَبي فاخطُب إليه، فقال: «أَبوكِ رَجُلٌ كَثيرُ المالِ -أَحسَبُهُ قال:- لا يَفعَلُ»، قالت: فانطَلِق فَأَلِقَ كَلِمَةً؛ فَإِنِّي أَكفيكَ، وأتِهِ عِندَ سُكرِهِ، ففَعَلَ، فَأَتاهُ فَزَوَّجَهُ، فَلَمّا أَصبَحَ جَلَسَ في الناسِ، فَقيلَ له: قد أَحسَنتَ، زَوَّجتَ محمدًا، قال: وفَعَلتُ؟! قالوا: نَعَم، فَقامَ فَدَخَلَ عليها، فقال: إنَّ الناسَ يقولونَ: إنِّي قد زَوَّجتُ محمدًا، وما فَعَلتُ! قالت: بَلى، فلا تسَفِّهَنَّ؛ فَإِنَّ محمدًا كذا وكذا،

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ٢٢٠-٢٢١).

فَلَم تَزَل بِهِ حتى رَضِيَ، ثم بَعَثَت إلى مُحَمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأوقيَّتَينِ من فِضَّةٍ، أو من ذَهَبٍ، فقالت: اشتَرِ حُلَّةً، فَأَهدِها إليه، وكذا وكذا، قال: وأَحسَبُهُ فَعَلَ[1].

وقد رواه الطبرانيُّ في الكَبيرِ: حَدَّثَنا عَليُّ بن عبدِ العَزيزِ، ثنا عمرُ بن حَفصٍ، به[2].

وقال البزَّارُ عقِبَه: «وهذا الحَديثُ لا نعلمُهُ يُروى بهذا اللَّفظِ إلا عن جابرِ بن سَمُرة، ولا نَعلَمُ أَسنَدَ هذا الحَديثَ عن جابرٍ إلا عمر بن حَفصٍ، عن أَبيهِ، عن الأَعمَشِ، عن أَبي خالِدٍ، عن جابرٍ.

وقد رواه غيرُ عمر بن حَفصٍ عن الأَعمَشِ، عن أَبي خالِدٍ مُرسَلا».

فهذه عِلَّةٌ، والأعمشُ مُدَلِّسٌ، ولم يُصَرِّح بالسَّماعِ، فهذا أَيضًا لا يصِحّ.

وقال البيهقي: أَخبَرَنا أَبو الحُسَينِ بن الفَضلِ، قال: أَخبَرَنا عبدُ اللهِ بن جَعفَرٍ، قال: حَدَّثَنا يَعقوبُ بن سُفيانَ، قال: حَدَّثَني إبراهيمُ بن المنذِرِ، قال: حَدَّثَني عمر بن أَبي بَكرٍ المَوصِليُّ، قال: حَدَّثَني عبدُ اللهِ بن أَبي عُبَيدَةَ بن محمدِ بن عَمَّارِ بن ياسِرٍ، عن أَبيهِ، عن مِقسَمٍ مَولى عبدِ اللهِ بن الحارِثِ بن نَوفَلٍ، أَنَّ عبدَ اللهِ بن الحارِثِ حَدَّثَهُ:

أَنَّ عَمَّارَ بن ياسِرٍ كان إذا سَمِعَ ما يَتَحَدَّثُ بِهِ الناسُ عن تَزويجِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خديجةَ، وما يُكثِرونَ فيه، يقولُ: «أَنا أَعلَمُ الناسِ بتَزويجِهِ إيَّاها، إنِّي كُنتُ له تِربًا[3]، وكُنتُ له إلفًا وخِدنًا[4]، وإنِّي خرجتُ مَعَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يَومٍ، حتى إذا كُنَّا بالحَزوَرَةِ[5] أَجَزنا على أُختِ خديجةَ، وهي جالِسَةٌ على أُدُمٍ تَبيعُها، فَنادَتني، فانصَرَفتُ إلَيها، ووَقَفَ لي رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقالت: أَما لِصاحِبكَ هذا من حاجَةٍ في تَزويجِ خديجةَ؟

---

(١) مسند البزار (٤٢٩٣).

(٢) المعجم الكبير (٢/ ٢٠٩).

(٣) الترب: من ولد معك.

(٤) أي: صديقًا.

(٥) موضع بمكة.

فَرجعتُ إليه فَأَخبرَتُهُ، فقال: «بَلى، لَعَمري»، فَذكرتُ لها قَولَ رسولِ الله ﷺ، فقالتِ: اغدُوَا علينا إذا أَصبَحنا، فَغَدَونا عليهم، فَوَجَدناهُم قد ذَبَحوا بَقَرَةً، وأَلبَسوا أَبا خديجةَ حُلَّةً، وصُفِّرَت لِحيَتُهُ، وكَلَّمَت أَخاها، فَكَلَّمَ أَباهُ وقد سُقيَ خَمرًا، فَذكرَ له رسولَ اللهِ ﷺ، ومَكانهُ، وسأله أَن يزوِّجه.

فَزَوَّجَهُ خديجةَ، وصَنَعوا منَ البَقَرَةِ طَعامًا، فَأَكَلنا منه، ونامَ أَبوها، ثم استَيقَظَ صاحيًا، فقال: ما هذه الحُلَّةُ، وهذه النقيعَةُ، وهذا الطعامُ؟ فقالت له ابنَتُهُ التي كانت كَلَّمَت عَمَّارًا: هذه حُلَّةٌ كَساها محمدُ بن عبدِ اللهِ خَتَنُكَ[1]، وبَقَرَةٌ أَهداها لَكَ، فَذَبَحناها حينَ زَوَّجتَهُ خديجةَ.

فَأَنكَرَ أَن يكونَ زَوَّجَهُ، وخرجَ يَصيحُ حتى جاءَ الحِجرَ، وخرجَت بَنو هاشِمٍ برسولِ اللهِ ﷺ، حتى جاءوهُ، فَكَلَّموهُ، فقال: أَينَ صاحِبُكُمُ الذي تَزعُمونَ أَنِّي زَوَّجتُهُ؟ فَبَرَزَ له رسولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا نَظَرَ إليه قال: إن كُنتُ زَوَّجتُهُ فَسَبيلُ ذاكَ، وإن لَم أَكُن فَعَلتُ فقد زَوَّجتُهُ»[2].

وهذا أيضًا لا يَصحُّ؛ فَعُمرُ بن أَبي بَكرٍ المَوصِليُّ -أَحَدُ رواتِه- قال أبو حاتِمٍ الرازيّ: «ذاهِبُ الحَديثِ، مَتروكُ الحديثِ»[3].

ومنَ الغرائِب: أَنَّ عمرَ هذا قال بعدَ رِوايَتِه -كَما حَكاهُ البَيهَقيّ-: «والمجتَمَعُ عليه: أَنَّ عَمَّها عَمرَو بن أَسَدٍ الذي زَوَّجَها منه».

قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ: «وهذا هو الذي رَجَّحَهُ السُّهَيليُّ، وحَكاهُ عَنِ ابنِ عباسٍ، وعائشةَ، قال: «وكان خوَيلِدٌ ماتَ قَبلَ الفِجارِ»[4].

---

(١) الختن: كل من كان من قبل المرأة، كأبيها، وأخيها، وكذلك زوج البنت، أو زوج الأخت. المعجم الوسيط (١/ ٢١٨).

(٢) دلائل النبوة (٢/ ٧١-٧٢).

(٣) الجرح والتعديل (٦/ ١٠٠).

(٤) البداية والنهاية (٣/ ٤٦٨).

وكلامُ السُّهَيليِّ بتمامِهِ: «وذكرَ غيرُ ابنِ إسحاقَ أنّ خوَيلِدًا كان- إذ ذاكَ- قد أُهلِكَ، وأنّ الذي أنكَحَ خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، هو عَمّها عَمرو بن أَسَدٍ، قالهُ المبَرّدُ وطائِفَةٌ مَعَهُ، وقال أيضًا: «إنّ أبا طالِبٍ هو الذي نَهَضَ مَعَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي خَطَبَ خُطبَةَ النّكاحِ، وكان مِمَّا قالهُ في تِلكَ الخُطبَةِ: «أَمَّا بعدُ: فَإنّ مُحَمّدًا مِمّن لا يوازَنُ بهِ فَتًى من قريشٍ إلا رَجَحَ بهِ شَرَفًا ونُبلًا وفَضلًا وعَقلًا، فَإن كان في المالِ قُلّ[1]، فَإنّما هو ظِلّ زائِلٌ، وعاريَةٌ مُستَرجَعَةٌ، وله في خديجةَ بنتِ خوَيلِدٍ رَغبَةٌ، ولها فيه مِثلُ ذلك».

فقال عَمرٌو: «هو الفَحلُ الذي لا يُقدَعُ أَنفُهُ»، فَأَنكَحَها منه».

ويُقالُ: قالهُ ورَقَةُ بن نَوفَلٍ.

والذي قالهُ المبَرّدُ هو الصحيحُ؛ لِما رواهُ الطبري عن جُبَيرِ بن مُطعِمٍ، وعن ابنِ عباسٍ، وعن عائشةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كُلِّهِم-: أنّ عَمرَو بن أَسَدٍ هو الذي أَنكَحَ خديجةَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنّ خوَيلِدًا كان قد هَلَكَ قَبلَ الفِجارِ»[2].

والخُلاصةُ: أنَّ القَولَ بأنَّ أباها زَوَّجها مُحَمّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سَكرانُ لا يَثبُتُ، وعلى فَرضِ ثُبوتِه: فَقد أجازَ النّكاحَ حالَ صَحوِه، وهو تَصحيحٌ له، كَما في رِوايةِ المَوصِليّ: «إن كُنتُ زَوَّجتُهُ فَسَبيلُ ذاكَ، وإن لَم أَكُن فَعَلتُ فقد زَوَّجتُهُ».

خَصائِصُ أُمِّ المؤمنينَ خَديجةَ بنتِ خُويلِد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تزَوَّجَها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة وهو ابنُ خمسٍ وعشرين سنَةً، وبقيَت مَعَه إلى أَن أكرمَه اللهُ برسالَتِه، فآمنَت بهِ ونصرَته، فَكانت له وزيرَ صِدقٍ، وماتَت قبل الهِجرَة بثَلاث سِنين في الأَصَح، وقيلَ بأَربَع، وقيلَ بخمس، ولها خَصائِص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

منها: أَنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتَزَوَّج عليها غَيرها.

ومنها: أَنَّ أولادَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّهم منها، إلا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإنَّهُ من سُرِّيَّتِه[3] ماريَة.

---

(١) القل -بالضم-: القلة، كالذل والذلة. النهاية (٤/ ١٠٤).

(٢) الروض الأنف (٢/ ١٥٤-١٥٥)، وينظر أيضا: نهاية الأرب للنويري (١٦/ ٩٨).

(٣) السرية: بضم السين، وكسر الراء الثقيلة، ثم تحتانية ثقيلة، وقد تكسر السين أيضًا: الجارية المتخذة =

ومنها: أَنَّها خيرُ نساءِ الأمّةِ.

ومن خَصائصِها: أَنَّ اللهَ سبحانه بعثَ إلَيها السَّلام مَعَ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبلَّغَها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك.

ومن خَواصِّها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّها لم تَسُؤهُ قَطُّ، ولم تُغاضِبه، ولم ينَلها منه إيلاء، ولا عَتَبٌ قَطُّ، ولا هجرٌ، وكفى بهِ منقَبةً وفضيلةً.

ومن خواصِّها: أَنَّها أَوَّلُ امرَأَةٍ آمَنت بالله ورسولِه من هذه الأمة»[1].

وقال الذَّهَبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هي مِمَّن كَمُلَ منَ النِّساءِ، كانت عاقِلَةً، جَليلَةً، دَيِّنَةً، مَصونَةً، كَريمَةً، من أَهلِ الجنةِ، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُثني عليها، ويُفَضِّلُها على سائِرِ أُمَّهاتِ المؤمِنينَ، ويُبالِغُ في تَعظيمِها.

ومن كَرامَتِها عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه لَمَ يَتَزَوَّجِ امرَأَةً قَبلها، وجاءَهُ منها عِدَّةُ أولادٍ، ولَمَ يَتَزَوَّج عليها قَطُّ ولا تَسَرَّى إلى أَن قَضَت نَحبَها، فَوَجَدَ لِفَقدِها، فَإِنَّها كانت نِعمَ القَرينِ.

وكانت تُنفِقُ عليه من مالِها، ويَتَّجِرُ هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها»[2].

أحاديثُ نبويَّةٌ في فضلِ خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

هذه بعضُ الأحاديثِ الصحيحَةِ في فضلِ أُمِّ المؤمِنينَ خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وبيانِ منزِلتِها عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحُسنِ بَلائِها في الإسلامِ:

عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**خَيرُ نِسائِها مَريَمُ ابنَةُ عِمرانَ، وخَيرُ نِسائِها خديجةُ**»[3].

= للوطء، سميت بذلك؛ لأنها مشتقة من التسرر، وأصله من السر، وهو من أسماء الجماع، ويقال له الاستسرار أيضًا، أو أطلق عليها ذلك؛ لأنها في الغالب يكتم أمرها عن الزوجة، وقيل: لأنها سرور مالكها. فتح الباري (٩/ ١٢٦)، شرح النووي على مسلم (١/ ١٦٤).

(١) جلاء الأفهام (ص٢٣٤-٢٣٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٠).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣٢)، ومسلم (٢٤٣٠).

زاد مسلم: «وأَشارَ وكيعٌ إلى السَّماءِ والأَرضِ».

قال النَّوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَرادَ وكيعٌ بهذه الإشارَةِ تَفسيرَ الضَّميرِ في نِسائِها، وأَنَّ المرادَ بهِ جَميعُ نِساءِ الأَرضِ، أَي: كُلُّ مَن بينَ السَّماءِ والأَرضِ منَ النِّساءِ، والأَظهَرُ أَنَّ مَعناهُ: أَنَّ كُلَّ واحدَةٍ منهما خَيرُ نِساءِ الأَرضِ في عَصرِها، وأَمَّا التفضيلُ بينهما فَمَسكوتٌ عنه، قال القاضي: «ويَحتَمِلُ أَنَّ المرادَ أَنَّهُما من خَيرِ نِساءِ الأَرضِ»، والصحيحُ الأَوَّلُ»[1].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «**خَيرُ نِسائِها مَريَمُ**»، أَي: نِساءِ أَهلِ الدُّنيا في زَمانِها، وقد رواهُ النسائيُّ من حَديث ابن عباسٍ بلَفظِ: «**أَفضَلُ نِساءِ أَهلِ الجنةِ**»[2]، فَعلى هذا فالمعنى: خَيرُ نِساءِ أَهلِ الجنةِ مَريَمُ.

وفي روايةٍ: «**خَيرُ نِساءِ العالَمينَ**»[3]، وهو كَقَولِهِ تعالى: ﴿**وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٤٢]، وظاهِرُهُ: أَنَّ مَريَمَ أَفضَلُ من جَميعِ النِّساءِ، وهذا لا يَمتَنِعُ عِندَ مَن يقولُ إنَّها نبيَّةٌ، وأَمَّا مَن قال: ليست بنبيَّةٍ، فَيَحمِلُهُ على عالَمي زَمانِها.

ويُحتَمَلُ أَيضًا أَن يُرادَ: نِساءُ بَني إسرائيلَ، أو نِساءُ تِلكَ الأُمَّةِ، أو «من» فيه مُضمَرَةٌ، والمعنى: أَنَّها من جُملَةِ النِّساءِ الفاضِلاتِ.

قَولُهُ: «**وخَيرُ نِسائِها خديجةُ**»، أَي: نِساءِ هذه الأُمَّةِ، قال القاضي أَبو بَكرِ بن العَرَبيِّ: «خديجةُ أَفضَلُ نِساءِ الأُمَّةِ مُطلَقًا؛ لِهذا الحَديثِ»[4].

وقال الحافظُ أيضا: «الذي يَظهَرُ لي: أَنَّ قَوله: «**خَيرُ نِسائِها**» خَبَرٌ مُقدَّمٌ، والضَّميرُ لِمَريَمَ، فَكَأَنَّهُ قال: «مَريَمُ خَيرُ نِسائِها»، أَي نِساءُ زَمانِها، وكذا في خديجةَ، وقد جَزَمَ كَثيرٌ منَ الشُّرَّاحِ أَنَّ المرادَ: نِساءُ زَمانِها؛ لِما تَقدَّمَ في أَحاديثِ الأَنبياءِ من حَديثِ أَبي موسى

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٩٨).

(٢) السنن الكبرى للنسائي (٨٢٩٧)، ولفظه: «**أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد** ﷺ، **ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون**».

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٩٥١).

(٤) فتح الباري (٦/ ٤٧١).

رَفَعَهُ: «**كَمُلَ منَ الرِّجالِ كَثيرٌ ولَم يَكمُل منَ النِّساءِ إلا مَريَمُ وآسيَةُ**»[١]، فقد أَثبَتَ في هذا الحَديثِ الكَمالَ لِآسيَةَ كَما أَثبَتَهُ لِمَريَمَ، فامتَنَعَ حَملُ الخَيريَّةِ في حَديثِ الباب على الإطلاقِ، وجاءَ ما يُفَسِّرُ المرادَ صَريحًا؛ فَروى البَزَّارُ والطبَرانيُّ من حَديثِ عَمَّارِ بن ياسِرٍ رَفَعَهُ: «**لَقد فُضِّلَت خديجةُ على نِساءِ أُمَّتي كَما فُضِّلَت مَريَمُ على نِساءِ العالَمينَ**»[٢]، وهو حَديثٌ حَسَنُ الإسنادِ»[٣].

وقال ابنُ الجَوزيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإشارَةُ بـ«**نسائِها**» إلى أهلِ زمانِها، ولعائشةَ زمانٌ غيرُ زمانِ خديجةَ؛ لِأَنَّها كانت عِند وفاة خديجة بنتَ خمسِ سِنينَ، فَلَمَّا ارتقَت إلى مقامِ العلمِ والقُرب من رسولِ اللهِ كانت لها مرتبَةٌ أُخرى»[٤].

فائِدَةٌ: حديثُ عليّ هذا من روايةِ هِشامِ بن عُروَةَ، قال: أَخبَرَني أَبي، قال: سَمِعتُ عبدَ اللهِ بن جَعفَرٍ، قال: سَمِعتُ عَليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهو من رِوايةِ تابعيٍّ عن تابعيٍّ: هِشامٍ عن أَبيهِ، وصَحابيٍّ عن صَحابيٍّ: عبدِ اللهِ بن جَعفَرٍ عن عَمِّهِ عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ومن فضائِلِها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «ما غِرتُ على امرَأَةٍ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما غِرتُ على خديجةَ، هَلَكَت قَبلَ أَن يَتَزَوَّجَني؛ لِما كُنتُ أَسمَعُهُ يَذكُرُها، وأَمَرَهُ اللهُ أَن يُبَشِّرَها ببَيتٍ من قَصَبٍ[٥]، وإن كان لَيَذبَحُ الشَّاةَ فَيُهدي في خَلائِلِها[٦] منها ما يَسَعُهُنَّ[٧]»[٨].

---

(١) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

(٢) رواه البزار (١٤٢٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧٠/ ١١٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٣): «وفيه أبو يزيد الحميري ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا».

(٣) فتح الباري (٧/ ١٣٥).

(٤) كشف المشكل (١/ ١٨٠-١٨١).

(٥) أي: من لؤلؤ مجوف، ويأتي مزيد شرحه.

(٦) جمع خليلة، أي: صديقة.

(٧) أي: ما يكفيهن.

(٨) رواه البخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٥).

وفي روايةٍ للبُخاريّ: «كان النبيُّ ﷺ يُكثِرُ ذِكرَها، ورُبَّما ذَبَحَ الشَّاةَ ثم يُقَطِّعُها أَعضاءً، ثم يَبعَثُها في صَدائِقِ خديجةَ[١]، فَرُبَّما قُلتُ له: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُن في الدُّنيا امرَأَةٌ إلا خديجةُ، فَيقولُ «**إنَّها كانت، وكانت، وكان لي منها ولَدٌ**»[٢].

ولهُ أيضًا: «ما غِرتُ على امرَأَةٍ ما غِرتُ على خديجةَ، ولَقد هَلَكَت قَبلَ أَن يَتزَوَّجَني بثَلاثِ سِنينَ؛ لِما كُنتُ أَسمَعُهُ يَذكُرُها، ولَقد أَمَرَهُ رَبُّهُ أَن يُبَشِّرَها ببَيتٍ في الجنةِ من قَصَبٍ، وإن كان رسولُ اللهِ ﷺ لَيَذبَحُ الشَّاةَ ثم يُهدي في خُلَّتِها منها»[٣].

وبوّب له: «بابٌ: حُسنُ العَهدِ منَ الإيمانِ».

قال ابنُ بطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حُسنُ العهد فى هذا الحديثِ هو إهداءُ النبيِّ ﷺ اللحمَ لأَجوارِ خديجةَ ومعارِفِها؛ رَعيًا منه لذِمامِها، وحِفظًا لعَهدِها، كذلك قال أبو عُبَيد: «العهدُ فى هذا الحديثِ: الحفاظُ، ورعايةُ الحُرمَة والحقّ»، فجعلَ ذلك البخاريُّ من الإيمانِ؛ لأنّه فِعلُ برٍّ، وجميعُ أفعالِ البرّ من الإيمانِ»[٤].

وعن عائشةَ، قالت: جاءَت عَجوزٌ إلى النبيِّ ﷺ وهو عِندي، فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن أَنتِ؟**»، قالت: أَنا جَثَّامَةُ المزَنيَّةُ، فقال: «**بَل أَنتِ حُسَّانَةُ**[٥] **المزَنيَّةُ، كَيفَ أَنتُم؟ كَيفَ حالُكُم؟ كَيفَ كُنتُم بعدَنا؟**»، قالت: بخَيرٍ -بأَبي أَنتَ وأُمِّي- يا رسولَ اللهِ، فَلَمَّا خرجَت قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، تُقبلُ على هذه العَجوزِ هذا الإقبالَ؟ فقال: «**إنَّها كانت تَأتينا زَمَنَ خديجةَ، وإنَّ حُسنَ العَهدِ منَ الإيمانِ**»[٦].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلُّ عَمَلٍ صالِحٍ فَهو من فُروعِ الإيمانِ: فَبرُّ الوالِدَينِ منَ الإيمانِ، وأَداءُ الأَمانَةِ منَ الإيمانِ، وحُسنُ العَهدِ منَ الإيمانِ، وحُسنُ الجِوارِ منَ الإيمانِ،

---

(١) أي: أصدقائها، جمع صديقة، وهي المحبوبة.

(٢) صحيح البخاري (٣٨١٨).

(٣) صحيح البخاري (٦٠٠٤).

(٤) شرح صحيح البخارى (٩/ ٢١٦).

(٥) يقال: امرأة حسناء، ورجل حسان، وجارية حسانة. المحيط في اللغة (١/ ١٩٩).

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٤٠)، وابن الأعرابي في معجمه (٧٥٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٦).

وتَوقيرُ الكَبيرِ منَ الإيمانِ، ورَحمَةُ الصغيرِ، حتى إطعامُ الطعامِ، وإفشاءُ السَّلامِ، منَ الإيمانِ»[١].

وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

قال ابنُ عَطيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «العَهدُ: كُلُّ ما تقَلّدَه الإنسانُ من قولٍ أو فِعلٍ أو مَوَدّة، إذا كانت هذه الأشياءُ على طريقِ البرِّ، فهو عهدٌ ينبغي رَعيُه وحِفظُه، وقد قال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُسنُ العَهدِ منَ الإيمانِ**»[٢].

وقال القُرطُبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ لَفظٌ عامٌّ لِجَميعِ ما يُعقدُ باللِّسانِ، ويلتَزِمُه الإنسانُ، من بَيعٍ، أو صِلَةٍ، أو مواثَقَةٍ في أمرٍ موافِقٍ للدِّيانَةِ»[٣].

وقَولُهُ: «ثم يُهدي في خُلَّتِها منها»، قال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «خُلَّتِها»، أَي: أهلُ وُدِّها وصَداقَتِها»[٤].

وقال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخُلَّةُ» -ها هُنا- بمعنى الأخِلَّاء، وضَعَ المَصدَر موضِعَ الاسمِ، كقولِ الشَّاعرِ:

ألا أَبلِغا خُلَّتي مالِكًا ... بأَنَّ خَليلَكَ لَم يُقتَلِ

وما كان من المصادِرِ يستَوي فيه الرِّجالُ والنِّساءُ والآحادُ والجَماعاتُ، يُقالُ: رَجُلٌ وامرأةٌ خُلَّةٌ، وقَومٌ خُلَّة، كقولِهم: ماءٌ غَورٌ، ومياهٌ غَورٌ»[٥].

---

(١) الاستذكار (٨/ ٢٨٢).

(٢) تفسير ابن عطية (٥/ ٣٦٩).

(٣) تفسير القرطبي (١٠/ ١٦٩).

(٤) النهاية (٢/ ٧٢).

(٥) أعلام الحديث (٣/ ٢١٦٩).

وللبُخاريِّ أيضًا: «ما غِرتُ على امرَأَةٍ لِرسولِ اللهِ ﷺ كَما غِرتُ على خديجةَ؛ لِكَثرَةِ ذِكرِ رسولِ اللهِ ﷺ إيَّاها، وثَنائِهِ عليها»(١).

وعندَ مسلم: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا ذَبَحَ الشَّاةَ فَيقولُ: «**أَرسِلوا بها إلى أَصدِقاءِ خديجةَ**»، قالت: فَأَغضَبتُهُ يَومًا، فَقُلتُ: خديجةَ! فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنِّي قد رُزِقتُ حُبَّها**»(٢).

وللتِّرمِذيِّ: «ما غِرتُ على أَحَدٍ من أَزواجِ النبيِّ ﷺ ما غِرتُ على خديجةَ، وما بي أَن أَكونَ أَدرَكتُها، وما ذاكَ إلا لِكَثرَةِ ذِكرِ رسولِ اللهِ ﷺ لها، وإن كان لَيَذبَحُ الشَّاةَ فَيَتَتَبَّعُ بها صَدائِقَ خديجةَ، فَيُهديها لهنَّ»(٣).

وفي الصحيحَينِ أَيضًا: عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: استَأذَنَت هالَةُ بنتُ خوَيلِدٍ أُختُ خديجةَ على رسولِ اللهِ ﷺ، فَعَرَفَ استِئذانَ خديجةَ، فارتاعَ لِذلك، فقال: «**اللهُمَّ هالَةَ**»، قالت: فَغِرتُ، فَقُلتُ: ما تَذكُرُ من عَجوزٍ من عَجائِزِ قريشٍ، حَمراءِ الشِّدقَينِ(٤)، هَلَكَت في الدَّهرِ، قد أَبدَلَكَ اللهُ خَيرًا منها(٥).

قال الحافظُ رحمه الله: «قَولُهُ: «**اللهُمَّ هالَةَ**»، فيه حَذفٌ، تَقديرُهُ: اجعَلها هالَةَ، فَعلى هذا فَهو مَنصوبٌ، ويَحتَمِلُ أَن يكونَ خَبَرَ مُبتَدَأٍ مَحذوفٍ، أَي: هذه هالَةُ، وعلى هذا هو مَرفوعٌ.

وفي الحَديثِ: أَنَّ مَن أَحَبَّ شَيئًا أَحَبَّ مَحبوباتِهِ، وما يُشبِهُهُ، وما يَتَعَلَّقُ بِهِ.

قَولُهُ: «حَمراء الشِّدقَينِ»، بالجَرِّ، قال أَبو البَقاءِ: «يَجوزُ في «حَمراءَ» الرَّفعُ على القَطعِ، والنصبُ على الصفَةِ أو الحالِ».

قال القُرطُبيُّ: «قيلَ: معنى «حَمراء الشِّدقَينِ»: بَيضاءُ الشِّدقَينِ، والعربُ تُطلِقُ على الأَبيَضِ الأَحمَرَ؛ كراهَةَ اسمِ البَياضِ؛ لِكَونِهِ يُشبهُ البَرَصَ».

---

(١) صحيح البخاري (٥٢٢٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٤٣٥).

(٣) سنن الترمذي (٢٠١٧).

(٤) الشدق: جانب الفم. لسان العرب (١٠/ ١٧٢).

(٥) رواه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧).

ثم استبعَدَ القُرطُبيُّ هذا؛ لِكَونِ عائشةَ أورَدَت هذه المَقالةَ مَورِدَ التنقيصِ، فَلَو كان الأَمرُ كما قيلَ لَنَصَّت على البَياضِ؛ لِأَنَّهُ كان يكونُ أَبلَغَ في مُرادِها، قال: «والذي عِندي: أَنَّ المرادَ بذلك نِسبَتُها إلى كِبَرِ السِّنِّ؛ لِأَنَّ مَن دَخَلَ في سِنِّ الشَّيخوخَةِ مَعَ قوَّةٍ في بَدَنِهِ يَغلِبُ على لَونِهِ -غالِبًا- الحُمرَةُ المائِلَةُ إلى السُّمرَةِ».

كذا قال، والذي يَتَبادَرُ: أَنَّ المرادَ بالشِّدقَينِ: ما في باطِنِ الفَمِ، فَكَنَّت بذلك عن سُقوطِ أَسنانِها، حتى لا يَبقى داخِلَ فَمِها إلا اللَّحمُ الأَحمَرُ منَ اللَّثَةِ[1] وغيرِها، وبهذا جَزَمَ النوَويُّ وغيرُهُ»[2].

قال النَّوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَمراءِ الشِّدقَينِ»، مَعناهُ: عَجوزٌ كَبيرَةٌ جِدًّا، حتى قد سَقَطَت أَسنانُها منَ الكِبَرِ، ولَم يَبقَ لشِدقِها بياضُ شيءٍ منَ الأَسنانِ، إنَّما بَقيَ فيه حُمرَةُ لَثاتِها.

قال القاضي: قال الطبري وغيرُهُ منَ العُلَماءِ: «الغيرَةُ مُسامَحٌ للنِّساءِ فيها، لا عُقوبَةَ عليهنَّ فيها؛ لِما جُبلنَ عليه من ذلك، ولِهذا لَم تُزجَر عائشةُ عنها»، قال القاضي: «وعِندي أَنَّ ذلك جَرى من عائشةَ لِصِغَرِ سِنِّها، وأَوَّلِ شَبيبَتِها، ولَعَلَّها لَم تَكُن بلغَت حينَئِذٍ»[3].

وقال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وصَفَتها بالدَّرَد، وهو سُقوط الأَسنانِ منَ الكِبَرِ، فَلَم يَبقَ إلا حُمرة اللِّثاة»[4].

وفي روايةٍ: «أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكرَ خديجةَ، فَقُلتُ: لَقد أَعقَبَكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنِ امرَأَةٍ من نِساءِ قريشٍ، حَمراءِ الشِّدقَينِ، هَلَكَت في الدَّهرِ».

قالت: «فَتَمَعَّرَ وجهُهُ تَمَعُّرًا ما كُنتُ أَراهُ إلا عِندَ نُزولِ الوَحيِ، أو عِندَ المَخيلَةِ حتى يَنظُرَ: أَرَحمَةٌ أَم عَذابٌ؟»[5].

---

(١) قال القاضي عياض في المشارق (١/ ٣٥٥): «اللثة: بكسر اللام، وتخفيف الثاء، ولا تشدد، وهو لحم الأسنان التي تنبت فيه».

(٢) فتح الباري (٧/ ١٤٠).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٢٠٢).

(٤) النهاية (١/ ٤٤٠).

(٥) رواه الإمام أحمد (٢٥١٧١)، وابن حبان (٧٠٠٨)، وصححه محققو المسند على شرط مسلم.

وقد رواه مُجالِدٌ، عن الشَّعبيِّ، عن مَسروقٍ، عن عائشةَ، قالت: كان النبيُّ ﷺ إذا ذكرَ خديجةَ أثنى عليها، فَأَحسَنَ الثَّناءَ، قالت: فَغِرتُ يومًا، فَقُلتُ: ما أَكثَرَ ما تَذكُرُها حَمراءَ الشِّدقِ، قد أَبدَلَكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بها خَيرًا منها، قال: «**ما أَبدَلَني اللهُ عَزَّوَجَلَّ خَيرًا منها، قد آمَنَت بي إذ كَفَرَ بي الناسُ، وصَدَّقَتني إذ كَذَّبَني الناسُ، وواسَتني بمالِها إذ حَرَمَني الناسُ، ورَزَقَني اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولَدَها إذ حَرَمَني أولادَ النِّساءِ**»[1].

وهذا إسنادٌ ضعيفٌ، مُجالِدٌ هو ابنُ سعيدٍ، ضعيفُ الحديثِ، ضعَّفه يحيى بنُ سعيدٍ، وابنُ مهدي، وأحمدُ بن حَنبل، وابنُ مَعين، والنسائيُّ، وغيرُهم[2].

وقَولُهُ: «ما أَبدَلَني اللهُ عَزَّوَجَلَّ خَيرًا منها» غيرُ محفوظٍ، تفَرَّدَ به مُجالِدٌ[3].

وقال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَمَّا ما يُروى فيه منَ الزِّيادَةِ: «ما أَبدَلَني اللهُ خَيرًا منها»، فَليس يَصِحُّ سَنَدُها»[4].

وباقي الحديثِ له شواهدٌ.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «ما غِرتُ على امرَأَةٍ للنبيِّ ﷺ»: فيه ثُبوتُ الغيرَةِ، وأَنَّها غيرُ مُستَنكَرٍ وُقوعُها من فاضِلاتِ النِّساءِ، فَضلًا عَمَّن دونَهُنَّ، وأَنَّ عائشةَ كانت تَغارُ من نِساءِ النبيِّ ﷺ، لكن كانت تَغارُ من خديجةَ أَكثَرَ، وقد بَيَّنَت سَبَبَ ذلك، وأَنَّهُ لِكَثرَةِ ذِكرِ النبيِّ ﷺ إيَّاها، ووَقَعَ في الرِّوايَةِ التي تَلي هذه، قال فيها: «من كَثرَةِ ذِكر رسولِ اللهِ ﷺ إيَّاها».

وأَصلُ غيرَةِ المَرأَةِ من تَخَيُّلِ مَحَبَّةِ غيرِها أَكثَرَ منها، وكَثرَةُ الذِّكرِ تَدُلُّ على كَثرَةِ المَحَبَّةِ، وقال القُرطُبيُّ: «مُرادُها بالذِّكرِ لها: مَدحُها والثَّناءُ عليها».

قُلتُ: وقَعَ عِندَ النسائيِّ من روايةِ النضرِ بن شُمَيلٍ، عن هِشامٍ: «من كَثرَةِ ذِكرِهِ إيَّاها

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٤٨٦٤)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ١٣).

(٢) تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٠).

(٣) وينظر: الضعيفة (٦٢٢٤).

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٣٤٠).

وثَنائِهِ عليها»[١]، فَعَطفُ الثَّناءِ على الذِّكرِ من عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، وهو يَقتَضي حَملَ الحَديثِ على أَعَمَّ مِمَّا قالهُ القُرطُبيُّ.

قَولُهُ: «هَلَكَت قَبلَ أَن يَتَزَوَّجَني»، وأَشارَت بذلك إلى أَنَّها لَو كانت مَوجودَةً في زَمانِها لَكانت غيرَتُها منها أَشَدَّ»[٢].

وممَّا وردَ في فَضلِها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

عن إسماعيلَ[٣]، قال: قُلتُ لِعبدِ اللهِ بن أَبي أوفى: أَكان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَّرَ خديجةَ ببَيتٍ في الجنةِ؟ قال: نَعَم، «**بَشَّرَها ببَيتٍ في الجنةِ من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ**»[٤].

وعن عائشةَ، قالت: «ما حَسَدتُ امرَأَةً ما حَسَدتُ خديجةَ، وما تَزَوَّجَني رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بعدَ ما ماتَت، وذلك أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَّرَها ببَيتٍ في الجنةِ من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ»[٥].

قوله: «ما حَسَدتُ امرَأَةً ما حَسَدتُ خديجةَ»: قال المبارَكفوريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما» الأولى نافيَةٌ، والثَّانيَةُ مَصدَريَّةٌ، أَي: ما حَسَدتُ مِثلَ حَسَدي خديجةَ، والمرادُ منَ الحَسَدِ هُنا: الغيرَةُ»[٦].

وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَتى جبريلُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**يا رسولَ اللهِ: هذه خديجةُ قد أَتَت، مَعَها إناءٌ فيه إدامٌ، أو طَعامٌ، أو شَرابٌ، فإذا هي أَتَتكَ فاقرَأ عليها السَّلامَ من رَبِّها ومِنِّي، وبَشِّرها ببَيتٍ في الجنةِ من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ**»[٧].

قال أبو القاسِم السُّهَيليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِذِكرِ البَيتِ ها هُنا بهذا اللَّفظِ، ولِقَولِهِ «ببَيتٍ»

---

(١) وهو في البخاري أيضًا، كما تقدم قريبا.

(٢) فتح الباري (٧/ ١٣٦).

(٣) هو ابن أبي خالد.

(٤) رواه البخاري (١٧٩٢)، ومسلم (٢٤٣٣)، واللفظ له.

(٥) رواه الترمذي (٣٨٧٦)، وصححه، وصححه الألباني.

(٦) تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٦٤).

(٧) رواه البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢).

ولَم يَقُل «بقَصرٍ» مَعنًى لائِقٌ بصورَةِ الحالِ؛ وذلك أنّها كانت رَبّةَ بَيتِ إسلامٍ، لَم يَكُن على الأَرضِ بَيتُ إسلامٍ إلا بَيتَها حينَ آمَنَت، وأَيضًا فَإنّها أوّلُ مَن بَنى بَيتًا في الإسلامِ بتَزويجِها رسولَ اللهِ ﷺ ورَغبَتِها فيه، وجَزاءُ الفِعلِ يُذكَرُ بلَفظِ الفِعلِ، وإن كان أَشرَفَ منه، لِما جاءَ: «**مَن كَسا مسلمًا على عُرْيٍ كَساهُ اللهُ من حُلَلِ الجَنّةِ، ومَن سَقى مسلمًا على ظَمَإٍ سَقاهُ اللهُ من الرّحيق**»[١].

ومن هذا الباب قَولُهُ ﷺ: «**مَن بَنى للهِ مَسجِدًا بَنى اللهُ له مِثله في الجَنّةِ**»[٢].

لَم يُرِد مِثلهُ في كَونِهِ مَسجِدًا، ولا في صِفتِهِ، ولكن قابل البُنيانَ بالبُنيانِ، أَي: كَما بَنى يُبنى له، كَما قابلَ الكِسوَةَ بالكِسوَةِ، والسّقيا بالسّقيا، فَها هُنا وقَعَتِ المماثَلَةُ، لا في ذاتِ المَبنيّ أو المَكسوّ.

وإذا ثَبَتَ هذا: فَمن ها هُنا اقتَضَتِ الفَصاحَةُ أَن يُعَبّرَ لها عَمّا بُشّرَت بهِ بلَفظِ «البَيتِ»، وإن كان فيه ما لا عَينٌ رَأَتهُ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتهُ، ولا خَطَرَ على قَلب بَشَرٍ»[٣].

وقال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**القَصَبُ**» في هذا الحَديثِ: لُؤلُؤٌ مُجَوَّفٌ واسِعٌ كالقَصر المنيفِ، والقَصَبُ منَ الجَوهر: ما استَطالَ منه في تَجويفٍ»[٤].

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «**ببَيتٍ من قَصَبٍ**»، قال جُمهورُ العُلَماءِ: المرادُ بهِ قَصَبُ اللُّؤلُؤِ المجَوَّفِ، كالقَصرِ المنيفِ، وقيلَ: قَصَبٌ من ذَهَبٍ مَنظومٍ بالجَوهَرِ، قال أَهلُ اللُّغَةِ: القَصَبُ منَ الجَوهَرِ ما استَطالَ منه في تَجويفٍ، قالوا: ويُقالُ لِكُلِّ مُجَوَّفٍ قَصَبٌ.

قال الخَطّابيُّ وغيرُهُ: «المرادُ بالبَيتِ هُنا: القَصرُ».

وأَمّا «**الصخَبُ**»: فهو الصوتُ المختَلِطُ المرتَفِعُ، و«**النصَبُ**»: المَشَقّةُ والتعَبُ، ويُقالُ

---

(١) رواه أبو داود (١٦٨٢)، ولفظه: «**أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عري كساه الله من خضر الجنة، وأيما مسلم أطعم مسلمًا على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلمًا على ظمإ سقاه الله من الرحيق المختوم**»، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود.

(٢) رواه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣).

(٣) الروض الأنف (٢/ ٢٧٧).

(٤) النهاية (٤/ ٦٧).

فيه «نُصبٌ»، بضَمِّ النُّونِ، وإسكانِ الصادِ، وبفَتحِهما، لُغَتانِ حَكاهُما القاضي وغيرُهُ، كالحَزَنِ والحُزنِ، والفَتحُ أَشهَرُ وأَفصَحُ، وبِهِ جاءَ القُرآنُ[1]، وقد نَصِبَ الرَّجُلُ، بفَتحِ النُّونِ، وكَسرِ الصادِ، إذا أَعيا»[2].

وقال السُّهَيليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَمَّا قَولُهُ: «**لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ**»، فَإنَّهُ أَيضًا من باب ما كُنَّا بسَبيلِهِ؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعاها إلى الإيمانِ فَأَجابَتهُ عَفوًا، لَم تُحوِجهُ إلى أَن يَصخَبَ كَما يَصخَبُ البَعلُ إذا تَعَصّت عليه حَليلَتُهُ، ولا أَن يَنصبَ، بَل أَزالَت عنه كُلّ نَصَبٍ، وآنَسَتهُ من كُلّ وحشَةٍ، وهَوّنَت عليه كُلَّ مَكروهٍ، وأَراحَتهُ من كُلِّ كَدّ ونَصَبٍ، فَوَصَفَ مَنزِلها الذي بُشّرَت بِهِ بالصفَةِ المقابلَةِ لِفَعالِها وصورَتِهِ.

وأَمَّا قَولُهُ: «**من قَصَبٍ**»، ولَم يَقُل: «من لُؤلُؤٍ»، وإن كان المعنى واحدًا، ولكن في اختِصاصِهِ هذا اللّفظ من المشاكَلَةِ المَذكورَةِ وَالمقابَلَةِ بلَفظِ الجَزاءِ للَفظِ العَمَلِ: أَنّها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت قد أَحرَزَت قَصَبَ السّبقِ إلى الإيمانِ دونَ غيرِها من الرّجالِ والنّسوانِ، والعَربُ تُسَمّي السَّابقَ مُحرِزًا للقَصَب.

فاقتَضَتِ البَلاغَةُ أَن يعبرَ بالعِبارَةِ المشاكِلَةِ لِعَمَلِها في جَميعِ أَلفاظِ الحَديثِ، فَتَأَمّلهُ»[3].

وتَبشيرُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ببَيتٍ في الجنةِ، مع ذِكرِ صِفَتِهِ، مِمَّا يطيبُ به العَيشُ، وينشَرِحُ به الصدرُ، وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

قال ابنُ القَيِّم: «فالمؤمِنُ المخلِصُ للهِ من أَطيَبِ الناسِ عَيشًا، وأَنعَمِهِم بالًا، وأَشرَحِهِم صَدرًا، وأَسَرِّهِم قَلبًا، وهذه جَنَّةٌ عاجِلَةٌ، قَبلَ الجنةِ الآجِلَةِ»[4].

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥]. وبضم النون «نصب» جاء القرآن أيضًا، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

(٢) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٢٠٠-٢٠١).

(٣) الروض الأنف (٢/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٤) الجواب الكافي (ص١٩٧).

وقال **قَتادَةُ والضَّحَّاكُ في تفسيرِ البِشارةِ في الآيةِ**: «هي أَن يَعلَمَ أَينَ هو من قَبلِ أَن يَموتَ»(١).

ولا شَكّ أنّ مَن بشَّرَها ربُّها عَزَّوَجَلَّ ببَيتٍ في الجنةِ من قَصَبٍ لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ، تحيا حياةً طيِّبَةً في الدُّنيا والآخِرَةِ.

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، **قال السَّعديُّ**: «لم يُذكَرِ المبَشَّرُ به؛ ليَدُلَّ على العُمومِ، وأنّ لهُم البُشرى في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ، وكلُّ خَيرٍ واندفاعُ كُلِّ ضَيرٍ، رُتِّبَ على الإيمانِ، فهو داخلٌ في هذه البِشارةِ»(٢).

فائدةٌ:

هذا الحَديثُ من مَراسيلِ الصحابَةِ، وهو حُجَّةٌ عِندَ الجَماهيرِ، وخالفَ فيه أبو إسحاقَ الإسفِرائينيُّ؛ لِأَنَّ أَبا هريرة لَم يُدرِك أَيَّامَ خديجةَ، فَهو محمولٌ على أَنَّهُ سَمِعَهُ منَ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو من صَحابيٍّ، ولَم يَذكُر أَبو هريرة هُنا سَماعَهُ منَ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ(٣).

وعَنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: خَطَّ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الأَرضِ أَربَعَةَ خُطوطٍ، قال: «**تَدرونَ ما هذا؟**»، فقالوا: اللهُ ورسولُهُ أَعلَمُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَفضَلُ نِساءِ أَهلِ الجنةِ: خديجةُ بنتُ خوَيلِدٍ، وفاطِمَةُ بنتُ محمدٍ، وآسيَةُ بنتُ مُزاحِمٍ امرَأَةُ فِرعَونَ، ومَريَمُ ابنَةُ عِمرانَ**»(٤).

قال المناويُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «لم يَقُلِ «النِّساءَ»؛ لإفادَةِ تفضيلِهِنَّ على الحور أَيضًا، وإلا لَتوُهِّمَ أَنَّ المراد نساءُ الدُّنيا»(٥).

وعن أَنَسٍ، أَنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**حَسبُكَ من نِساءِ العالَمينَ: مَريَمُ ابنَةُ عِمرانَ، وخديجةُ بنتُ خوَيلِدٍ، وفاطِمَةُ ابنَةُ محمدٍ، وآسيَةُ امرَأَةُ فِرعَونَ**»(٦).

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٣٥٨).

(٢) تفسير السعدي (ص١٠٠).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٩٩-٢٠٠).

(٤) رواه الإمام أحمد (٢٦٦٨)، وابن حبان (٧٠١٠)، وصححه محققو المسند.

(٥) التيسير بشرح الجامع الصغير (١/ ١٨٩).

(٦) رواه الترمذي (٣٨٧٨)، وصححه، وأحمد (١٢٣٩١)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

«أي: كافيكَ معرِفتُك فَضلهنّ من معرفَةِ سائرِ النِّساءِ»[١].

وقال القَّاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنى: يَكفيكَ من نِساءِ العالَمِينَ، أَيِ: الواصِلَةِ إلى مَراتِب الكامِلينَ في الاِقتِداءِ بهِنَّ، وذِكر محاسِنهنَّ ومَناقِبهنَّ وزُهدهنَّ في الدُّنيا وإقبالهنَّ على العُقبى»[٢].

وفي لفظ: «**خَيرُ نِسَاءِ العالَمِينَ: مَريَمُ بنتُ عِمرانَ، وخديجةُ بنتُ خوَيلِدٍ، وفاطِمَةُ بنتُ محمدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وآسيةُ امرأةُ فِرعون**»[٣].

قال المناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المراد: أَنّ كُلًّا منهنَّ خَيرُ نساء الأَرضِ في عصرِها، وأما التفضيل بينهُنَّ: فمَسكوتٌ عَنهُ»[٤].

وعن عائشةَ، أنّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال عن خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**قد آمَنَت بي إذ كَفَرَ بي الناسُ، وصَدَّقَتني إذ كَذَّبَني الناسُ، وواسَتني بمالِها إذ حَرَمَني الناسُ، ورَزَقَني اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **ولَدَها إذ حَرَمَني أولادَ النِّساءِ**»[٥].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِمَّا اختُصَّت بهِ: سَبقُها نِساءَ هذه الأُمَّةِ إلى الإيمانِ، فَسَنَّت ذلك لِكُلِّ مَن آمَنَت بعدَها، فَيكونُ لها مِثلُ أَجرِهِنَّ؛ لِما ثَبَتَ أَنَّ: «**مَن سَنَّ سُنَّةً حَسنةً**»[٦]، وقد شارَكَها في ذلك أَبو بَكرٍ الصدِّيقُ بالنِّسبَةِ إلى الرِّجالِ، ولا يَعرِفُ قدرَ ما لِكُلٍّ منهما منَ الثَّواب بسَبَب ذلك إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ»[٧].

---

(١) شرح المشكاة للطيبي (١٢/ ٣٩٢٤).

(٢) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٩٩٤).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٩٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٢٨).

(٤) التيسير بشرح الجامع الصغير (١/ ٥٣١).

(٥) رواه الإمام أحمد (٢٤٨٦٤)، بسند ضعيف كما تقدم، وله شاهد عند الطبراني في الكبير (٢٣/ ١٣)، والدولابي في الذرية الطاهرة (١٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ١٩٤)، أما زيادة: «**ما أبدلني الله** عَزَّوَجَلَّ **خيرًا منها**» فلا تصح، كما تقدم.

(٦) عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سن في الإسلام سنةً حسنةً، فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنةً سيئةً، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء**». رواه مسلم (١٠١٧).

(٧) فتح الباري (٧/ ١٣٧).

مؤازَرَتُها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأوقاتِ الصعبةِ، ومؤانَسَتُها له:

عن عائشةَ أُمِّ المؤمنينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّها قالت: أَوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَ الوَحيِ: الرُّؤيا الصالِحَةُ في النومِ[١]، فكان لا يَرى رُؤيا إلا جاءَت مِثلَ فَلَقِ الصبحِ[٢]، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، وكان يَخلو بغارِ حِراءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فيه -وهو التعَبُّدُ- اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ قَبلَ أَن يَنزِعَ إلى أَهلِهِ، ويَتَزَوَّدُ لِذلك، ثم يَرجِعُ إلى خديجةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثلِها، حتى جاءَهُ الحقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ المَلَكُ فقال: «**اقرَأ**»، قال: «**ما أَنا بقارِئٍ**»، قال: «**فَأَخَذَني فَغَطَّني**[٣] **حتى بلغَ مِنِّي الجَهدَ**[٤] **ثم أَرسَلَني، فقال: «اقرَأ»، قُلتُ: «ما أَنا بقارِئٍ»، فَأَخَذَني فَغَطَّني الثَّانيَةَ حتى بلغَ مِنِّي الجَهدَ ثم أَرسَلَني، فقال: «اقرَأ»، فَقُلتُ: «ما أَنا بقارِئٍ»، فَأَخَذَني فَغَطَّني الثَّالِثَةَ ثم أَرسَلَني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾** [العلق: ١-٣]، **إلى قَولِهِ: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** [العلق: ٥].

فَرجعَ بها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرجُفُ فُؤادُهُ[٥]، فَدَخَلَ على خديجةَ بنتِ خوَيلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: «**زَمِّلوني، زَمِّلوني**»[٦]، فَزَمَّلوهُ حتى ذَهَبَ عنه الرَّوعُ، فقال لِخديجةَ -وأَخبَرَها الخَبَرَ-: «**لَقد خَشيتُ على نَفسي**» فقالت خديجةُ:

كَلَّا واللهِ، ما يُخزيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحمِلُ الكَلَّ[٧]، وتكسِبُ المَعدومَ[٨]،

---

(١) **قال العلماء**: «إنما ابتدئ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرؤيا؛ لئلا يفجأه الملك، ويأتيه صريح النبوة بغتةً، فلا يحتملها قوى البشرية، فبدئ بأول خصال النبوة وتباشير الكرامة من صدق الرؤيا».

(٢) فلق الصبح وفرق الصبح - بفتح الفاء واللام والراء-: هو ضياؤه، وإنما يقال هذا في الشيء الواضح البين.

(٣) أي: عصرني وضمني.

(٤) المشقة.

(٥) أي: يضطرب ويتحرك شديدًا.

(٦) أي: غطوني بالثياب، ولفوني بها، وكرره للتأكيد.

(٧) أي: من لا يقدر على العمل والكسب، وقيل: الكل: العيال، وهو أحد معانيه، ويطلق على الواحد والجمع، والذكر والأنثى، وأصله من الكلال، وهو الإعياء، ثم استعمل في كل أمر ضائع، أو أمر مثقل.

(٨) هو بفتح التاء، ورواه بعضهم بضمها، فمن رواه بالضم فمعناه: تكسب غيرك المال المعدوم، أي: تعطيه إياه تبرعًا، وقيل: معناه: تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد، ومكارم الأخلاق. وأما رواية الفتح: فقيل: معناها كمعنى الضم، وقيل: معناها: تكسب المال العظيم الذي يعجز عنه غيرك، ثم تجود به في وجوه الخير، وأبواب المكارم.

وتَقري الضَّيفَ[١]، وتُعينُ على نَوائِب الحقِّ[٢].

فانطَلَقَت بهِ خديجةُ، حتى أَتَت بهِ ورَقَةَ بن نَوفَلِ بن أَسَدِ بن عبدِ العُزَّى، ابنَ عَمِّ خديجةَ، وكان امرأً تَنَصَّرَ في الجاهِليَّةِ، وكان يَكتُبُ الكِتابَ العِبرانيَّ، فَيَكتُبُ منَ الإنجيلِ بالعِبرانيَّةِ ما شاءَ اللهُ أَن يَكتُبَ، وكان شَيخًا كَبيرًا قد عَميَ، فقالت له خديجةُ: يا ابنَ عَمِّ، اسمَع مِنَ ابنِ أَخيكَ، فقال له ورَقَةُ: يا ابنَ أَخي، ماذا تَرى؟ فَأَخبَرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ ما رَأى، فقال له ورَقَةُ: هذا الناموسُ[٣] الذي نَزَّلَ اللهُ على موسى، يا لَيتَني فيها جَذَعًا[٤]، لَيتَني أَكونُ حَيًّا إذ يُخرِجُكَ قَومُكَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَمُخرِجيَّ هُم؟**»، قال: نَعَم، لَم يَأتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثلِ ما جِئتَ بهِ إلا عوديَ، وإن يُدرِكني يَومُكَ[٥] أَنصُركَ نَصرًا مُؤَزَّرًا[٦].

ثم لَم يَنشَب ورَقَةُ أَن توُفِّيَ[٧].

فكانت رضي الله عنها لها دَورٌ كَبيرٌ في تَثبيتِ النبيِّ ﷺ، وتحريرِه من مَخاوِفِه، والتهوينِ عليه مِمَّا أصابَه، وتأنيسِه، وتبشيرِه، وإلقاءِ الطّمأنينةِ في نفسِه، وإشاعةِ الأمن في قلبه.

وهذا مِمَّا يدُلّ على قوَّة قلبها، ويَقينِها، ووُفورِ عقلِها، وثَباتِ أمرِها.

وعن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: «لَم يَتَزَوَّجِ النبيُّ ﷺ على خديجةَ حتى ماتَت»[٨].

قال الحافظُ رحمه الله: «وهذا مِمَّا لا اختِلافَ فيه بينَ أَهلِ العِلمِ بالأَخبارِ، وفيه دَليلٌ

---

(١) أي: تطعمه وتكرمه.

(٢) النوائب جمع نائبة، وهى الحادثة، وإنما قالت: «نوائب الحق»؛ لأن النائبة قد تكون في الخير، وقد تكون في الشر.

(٣) هو جبريل عليه السلام.

(٤) يعني: شابًا قويًا، حتى أبالغ في نصرتك، والأصل في الجذع للدواب، وهو هنا استعارة.

(٥) أي: وقت خروجك.

(٦) أي: قويًا بالغًا.

وينظر لشرح الحديث: شرح النووي على مسلم (٢/ ١٩٧-٢٠٤)، فتح الباري (١/ ٢٢-٢٧).

(٧) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٨) رواه مسلم (٢٤٣٦).

على عِظَمِ قدرِها عِندَهُ، وعلى مَزيدِ فَضلِها؛ لِأَنَّها أَغنَتهُ عن غيرِها، واختَصَّت بِهِ بقدرِ ما اشتَرَكَ فيه غيرُها مَرَّتَينِ؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاشَ بعدَ أَن تَزَوَّجَها ثَمانيَةً وثَلاثينَ عامًا، انفَرَدَت خديجةُ منها بخَمسَةٍ وعِشرينَ عامًا، وهي نَحو الثُّلُثَينِ منَ المَجموعِ، ومَعَ طولِ المدَّةِ فَصانَ قَلبها فيها منَ الغيرَةِ، ومن نَكَدِ الضَّرائِرِ، الذي رُبَّما حَصَلَ له هو منه ما يُشَوِّشُ عليه بذلك، وهي فَضيلَةٌ لَم يُشارِكها فيها غيرُها»[1].

والضَّرائرُ: جمع ضرَّة -بالكَسرِ والفَتح- وهُن الزَّوجات لرَجُلٍ واحدٍ، وسُمِّيَت الضرَّة؛ لمُضارَرَتِها الأُخرى غالِبًا[2].

وقال الأزهريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الضَّرتان: امرَأَتانِ للرّجُل، سُمِّيتا ضَرَّتين؛ لِأَن كل واحدَةٍ منهما تُضارُّ صاحبَتَها»[3].

فمكثَت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حياتَها كُلَّها معَ رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غايةِ السّعادةِ والأُنسِ؛ إذ لم تُضارّ بزوجَةٍ أخرى معَها، مِمَّا قد يُسبِّب النكدَ والحسَدَ والتنافُسَ والخُصوماتِ ونحوَ ذلك.

تأسيسُ خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أوَّل بيتٍ في الإسلامِ:

ومن جُملةِ فضائلِها: أنَّها أسَّسَت أوَّلَ بيتٍ في الإسلامِ، إذ لم يكُن على وجهِ الأرضِ عندَما بُعثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيتُ إسلامٍ إلا بيتها، ولذلك بشَّرَها النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببَيتٍ في الجنةِ من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ، فلها أجرُها وأَجرُ مَن عمِلَ بعَمَلِها، وهذه فضيلةٌ لم يُشاركها فيها غيرُها.

مَرجعيّة نَسَب أهلِ البيتِ إلى خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

وكذلك فإنَّ مرجعَ أهلِ بيتِ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٣٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٤٧).

(٣) تهذيب اللغة (١١/ ٣١٤).

قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: خرجَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَداةً، وعليه مِرطٌ مُرَحَّلٌ[1]، من شَعرٍ أَسودَ، فَجاءَ الحَسَنُ بن عَليٍّ فَأَدخَله، ثم جاءَ الحُسَينُ فَدَخَلَ مَعَهُ، ثم جاءَت فاطِمَةُ فَأَدخلها، ثم جاءَ عَليٌّ فَأَدخَله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

وعن عمرَ بن أَبي سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا نزلَت هذه الآيةُ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ في بَيتِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَدَعا فاطِمَةَ، وحَسَنًا، وحُسَينًا، فَجَلَّلهم بكِساءٍ، وعَليٌّ خَلفَ ظَهرِهِ فَجَلَّله بكِساءٍ، ثم قال: «**اللهُمَّ هَؤُلاءِ أَهلُ بَيتي؛ فَأَذهِب عنهمُ الرِّجسَ، وطَهِّرهُم تَطهيرًا**»[3].

فمرجِعُ أهلِ البيتِ إلى خديجةَ؛ لأنَّ الحَسَنَ والحُسَين من فاطِمَةَ، وفاطِمة من خديجةَ، وعليٌّ زوجُ فاطمةَ، فمَرجِعُ أهلِ البيتِ النبَويِّ إلى خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[4].

إبلاغُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خديجةَ بسلامِ الله عَزَّوَجَلَّ وسلامِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لها:

عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَ جبريلُ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعِندَهُ خديجةُ، قال: «**إِنَّ اللهَ يُقرِئُ خديجةَ السَّلامَ**»، فقالت: «إِنَّ اللهَ هو السَّلامُ، وعلى جبريلَ السَّلامُ، وعليكَ السَّلامُ ورَحمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ»[5].

قال بدرُ الدِّينِ العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإن قُلتَ: فَلِمَ ما قالت: وعلى اللهِ السَّلام، كَما قالت: وعلى جبريلَ وعليك يا رسول اللهِ؟ قلتُ: لِأَنّ اللهَ هو السَّلامُ، وهو اسمٌ من أَسمائِهِ، فلا يُرَدُّ عليه السَّلامُ كَما يُرَدُّ على المخلوقينَ، أَلا ترى أَنَّ بعضَ الصحابَة لَمَّا قالوا في التشَهُّد:

---

(١) المرط: كساء، جمعه مروط، المرحل: الموشى المنقوش، عليه صور رحال الإبل.

(٢) رواه مسلم (٢٤٢٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٢٠٥)، وصححه الألباني.

(٤) ونساؤه كلهن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل بيته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/ ٤١٠): «وهذا نص في دخول أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل البيت ها هنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولًا واحدًا».

(٥) رواه النسائي في الكبرى (٨٣٠١)، واللفظ له، والحاكم في المستدرك (٤٨٥٦)، وقال: « صحيح على شرط مسلم».

السَّلامُ على اللهِ، نَهاهُم النبيّ ﷺ عن ذلك، وقال: «**إنَّ اللهَ هو السَّلامُ، ولكن قولوا: التحيَّاتُ للهِ**»[١]؟

ولِأَن السَّلامَ دُعاءٌ أَيضًا بالسلامَةِ، فلا يَصلُح أَن يُردَّ بِهِ على اللهِ، فَفيه دلالَةٌ على صِحَّةِ فَهمِ خديجةَ، وقوَّةِ إدراكِها مثلَ هذا»[٢].

وقال السُّهَيليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقَولُ خديجةَ: «اللهُ السّلامُ، ومنه السّلامُ، وعلى جبريلَ السّلامُ»، عَلِمَت بفِقهِها أَنّ اللهَ سبحانه لا يُرَدُّ عليه السَّلامُ كَما يُرَدُّ على المَخلوقِ؛ لِأَنّ السّلامَ دُعاءٌ بالسّلامَةِ، فَكان معنى قَولِها: «اللهُ السّلامُ، فَكَيفَ أَقولُ عليه السَّلامُ، والسّلامُ منه يُسأَلُ، ومنه يَأتي؟ ولكن على جبريلَ السّلامُ».

فالذي يَحصُلُ من هذا الكَلامِ من الفِقهِ: أَنّهُ لا يَليقُ باللهِ سبحانه إلا الثّناءُ عليه، فَجَعَلَت مَكان رَدِّ التّحيّةِ على اللهِ ثَناءً عليه، كَما عُلِّموا في التّشَهّدِ حينَ قالوا: السّلامُ على اللهِ من عِبادِهِ، السّلامُ على فُلانٍ، فَقيلَ لهم: «**لا تَقولوا السَّلامُ على اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هو السَّلامُ، ولكن قولوا: التحيَّاتُ للهِ**»[٣].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النبيَّ ﷺ قال لها: «**يا عائشةُ هذا جبريلُ يَقرَأُ عليكِ السَّلامَ**»، فقالت: وعليه السَّلامُ ورَحمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ، تَرى ما لا أَرى -تُريدُ النبيَّ ﷺ-[٤].

قال النَّوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه فَضيلَةٌ ظاهِرَةٌ لِعائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفيه: استِحبابُ بَعثِ السَّلامِ، ويَجِبُ على الرَّسولِ تَبليغُهُ، وفيه: بَعثُ الأَجنبيِّ السَّلامَ إلى الأَجنبيَّةِ الصالِحَةِ، إذا لَم يُخَف تَرَتُّبُ مَفسَدَةٍ، وأَنَّ الذي يَبلُغُهُ السَّلامُ يَرُدُّ عليه، قال أَصحابُنا: وهذا الرَّدُّ واجِبٌ على الفَورِ، وكذا لَو بلغَهُ سَلامٌ في ورَقَةٍ من غائِبٍ لَزِمَهُ أَن يَرُدَّ السَّلامَ عليه باللَّفظِ على الفَورِ إذا قَرَأَهُ.

---

(١) رواه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

(٢) عمدة القاري (١٦/ ٢٨١).

(٣) الروض الأنف (٢/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٤) رواه البخاري (٣٢١٧)، ومسلم (٢٤٤٧).

وفيه: أَنَّهُ يُستَحَبُّ في الرَّدِّ أَن يقولَ: وعليكَ، أو: وعليكُمُ السَّلامُ -بالواوِ- فَلَو قال: عليكُمُ السَّلامُ، أو: عليكُم، أَجزَأَهُ على الصحيحِ، وكان تارِكًا للأَفضَلِ، وقال بَعضُ أَصحابنا: لا يُجزِئُهُ»[1].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال النَّوَويُّ: «في هذا الحَديثِ مَشروعيَّةُ إرسالِ السَّلامِ، ويَجِبُ على الرَّسولِ تَبليغُهُ؛ لِأَنَّهُ أَمانَةٌ».

وتُعُقِّبَ بأَنَّهُ بالوَديعَةِ أَشبَهُ، والتحقيقُ: أَنَّ الرَّسولَ إنِ التَزَمَهُ أَشبَهَ الأَمانَةَ، وإلا: فَوَديعَةٌ، والوَدائِعُ إذا لَم تُقبَل لَم يَلزَمهُ شيءٌ»[2].

وقال مَنصور البُهُوتِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومَن بُعِثَ مَعَهُ السَّلامُ بَلَّغَهُ وُجوبًا إن تَحَمَّله، ويَجِبُ الرَّدُّ عِندَ البَلاغِ.

ويُستَحَبُّ أَن يُسَلِّمَ على الرَّسولِ فَيقولَ: عليكَ وعليه السَّلامُ»[3].

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «منَ السُّنَّةِ إذا نُقِلَ السلامُ من شخصٍ إلى شخصٍ أن يقولَ: عليه السَّلامُ، وإن قال: عليك وعليه السَّلامُ، أو: عليه وعليكَ السَّلامُ، فحَسَنٌ؛ لأنَ هذا الذي نَقَلَ السَّلامَ مُحسِنٌ، فتُكافِئُهُ بالدُّعاءِ له.

فإذا قال شخصٌ لآخَرَ: سَلِّم لي على فُلانٍ، ثم نَقَلَ الوصيَّةَ وقال: فُلانٌ يُسَلِّمُ عليكَ، فإنّه يقولُ: عليه وعليكَ السَّلامُ، أو يقول: عليه السَّلامُ، ويقتصِرُ؛ لأن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلَّغَ عائشةَ أنّ جبريلَ يقرَأُ عليها السَّلامَ فقالت: «عليه السَّلامُ»، فدَلَّ ذلك على أَنَّه إذا نَقَل السّلامُ إليكَ أحدٌ من شخصٍ تقولُ: عليه السَّلامُ، ولكن هل يجبُ عليكَ أن تنقلَ الوصيَّةَ إذا قال: سَلِّم لي على فُلانٍ، أم لا يجبُ؟ فَصَّلَ العُلماءُ فقالوا: إنِ التَزَمتَ له بذلك وجَبَ عليكَ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وأنتَ الآنَ تَحَمَّلتَ هذا، أمَّا إذا قال: «سَلِّم لي على فُلانٍ»، وسَكَتَّ، أو قُلتَ لهُ -مثلًا-: إذا تذَكَّرتُ، أو ما أشبَهَ ذلك، فهذا لا يَلزَمُ، إلا إذا ذكرتَ وقد التزمتَ له أن تُسَلِّمَ عليه

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٢١١).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٨).

(٣) شرح منتهى الإرادات (١/ ٣٨٤).

إذا ذكرتَ، لكنِ الأحسَنُ ألَّا يُكلِّفَ الإنسانُ أحدًا بهذا؛ لأنّه رُبَّما يَشُقُّ عليه، ولكن يقولُ: سَلِّم لي على مَن سألَ عَنِّي، هذا طيِّبٌ، أمَّا أن يُحَمِّلَه فإنَّ هذا لا ينفَعُ؛ لأنه قد يَستَحي مِنك فيقول: نعَم أنقُل سلامَكَ، ثم يَنسى، أو تَطول المدَّة، أو ما أشبَهَ ذلك»[١].

و«استَنبَطَ بَعضُهُم من هذا الحَديثِ فَضلَ خديجةَ على عائشةَ؛ لِأَنَّ الذي ورَدَ في حقِّ خديجةَ أَنَّ النبيَّ ﷺ قال لها: «**إنَّ جبريلَ يُقرِئُكِ السَّلامَ من رَبِّكِ**»، وأَطلَقَ هُنا السَّلامَ من جبريلَ نَفسِهِ»[٢].

وعن عائشةَ، قالت: جاءَت عَجوزٌ إلى النبيِّ ﷺ وهو عِندي، فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن أَنتِ؟**»، قالت: أَنا جَثَّامَةُ المزَنيَّةُ، فقال: «**بَل أَنتِ حُسَّانَةُ المزَنيَّةُ، كَيفَ أَنتُم؟ كَيفَ حالُكُم؟ كَيفَ كُنتُم بعدَنا؟**»، قالت: بخَيرٍ -بأَبي أَنتَ وأُمِّي- يا رسولَ اللهِ، فَلَمَّا خرجَت قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، تُقبلُ على هذه العَجوزِ هذا الإقبالَ؟ فقال: «**إنَّها كانت تَأتينا زَمَنَ خديجةَ، وإنَّ حُسنَ العَهدِ منَ الإيمانِ**»[٣].

وعَنِ ابنِ أَبي نَجيحٍ، عن عائشةَ، قالت: دَخَلَت على رسولِ اللهِ ﷺ امرَأَةٌ، فَأُتيَ رسولُ اللهِ ﷺ بطَعامٍ، فَجَعَلَ يَأكُلُ منَ الطعامِ، ويَضَعُ بينَ يَدَيها، فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ لا تَغمُر يَدَيكَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ هذه كانت تَأتينا أَيَّامَ خديجةَ، وإنَّ حُسنَ العَهدِ -أو حَفِظَ العَهدِ- منَ الإيمانِ**».

ولَمَّا ذكرَ خديجةَ أَخَذَني ما يَأخُذُ النِّساءَ منَ الغيرَةِ، فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ قد أَبدَلَكَ اللهُ بكَبيرَةِ السِّنِّ حَديثَةَ السِّنِّ، فَغَضِبَ رسولُ اللهِ ﷺ، ثم قال: «**ما ذَنبي أَن رَزَقَها اللهُ مِنِّي الوَلَدَ، ولَم يَرزُقكِ؟**».

قُلتُ: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لا أَذكُرُها بعدَ هذا إلا بخَيرٍ[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٤٠١).

(٢) فتح الباري (٧/ ١٠٧).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤٠)، وابن الأعرابي في معجمه (٧٥٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٦)، وقد تقدم ذكره.

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٢٣/ ١٤)، وفيه انقطاع؛ فإن ابن أبي نجيح لم يسمع من عائشة رضي الله عنها، ولكن يشهد له ما قبله.

وفي هذه الأحاديثِ دَلالَةٌ لِحُسنِ العَهدِ، وحِفظِ الوُدِّ، ورِعايَةِ حُرمَةِ الصاحِب والمعاشِرِ حَيًّا ومَيِّتًا، وإكرامِ مَعارِفِ ذلك الصاحِب[1].

نُصرَةُ خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للإسلامِ:

وهذه من أعظمِ مآثِرِها، وأكرَمِ فضائِلِها، وأحسَنِ مناقبِها؛ فإنّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في أوَّلِ أمرِه أشَدَّ ما يكونُ حاجةً إلى مَن ينصُرُه ويُؤازِرُه ويُعينُه، ويُهَوِّنُ عليه، ويُخَفِّفُ عنه، مِمَّا كان يُلاقيه من شِدَّةِ خِلافِ قومِه لهُ، وعنادِهم، وتربُّصِهم به، ومُحاربةِ دينِه، واضطِهادِ أصحابه، فكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في ظِلِّ هذه الأحوالِ العصيبَةِ أحسنَ مُعينٍ، فواسَته بمالِها، وهوَّنَت عليه ما يُلاقيه من الشِّدَّة والأذى، وخفَّفَت عنه بعضَ هُمومِه، والبذلُ أوَّلَ الإسلامِ أعظمُ البذلِ، وأبلَغُه أثرًا، وأشَدُّه نفعًا، ونُصرةُ الدِّينِ وقتَ المحنةِ، وتحَزُّب الأحزاب، وتكالُب الأعداءِ، وقِلَّةِ المعينِ، وضعفِ الناصِرِ، هي أعظمُ النُّصرَةِ على الإطلاقِ.

وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لا يَستوي هذا ومَن لَم يَفعَل كَفِعلِهِ؛ وذلك أَنَّ قَبلَ فَتحِ مكةَ كان الحالُ شَديدًا، فَلَم يَكُن يُؤمِنُ حينَئِذٍ إلا الصدِّيقونَ، وأَمَّا بعدَ الفَتحِ: فَإِنَّهُ ظَهَرَ الإسلامُ ظُهورًا عَظيمًا، ودَخَلَ الناسُ في دينِ اللهِ أَفواجًا»[2].

ومعلومٌ أنَّ مَن دخلَ الدِّينَ في أفواجِ الناسِ المتكاثِرةِ، ليس في الفضلِ والدرَجةِ كمَن دخلَه في أوَّلِ الدَّاخلينَ، حَيثُ المحنةُ، والعسرةُ، والتمحيصُ، والشِّدَّةُ، والبلاءُ الشَّدِيدُ، وزلزَلةُ القلوب.

كما أنّ مَن جاهدَ وأنفقَ بعدَ الفتحِ ودُخولِ الناس في دينِ اللهِ أفواجًا، ليس كمَن جاهَدَ وأنفَقَ في الشِّدّةِ، والضّعفِ، وحالِ الخَوفِ.

وهذه المرأة كانت عجوزا من القواعد من النساء، كما في الرواية التي قبل هذه.

(١) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٢٠٢)، فتح الباري (٧/ ١٣٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ١٢).

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والسَّابقونَ الأوَّلونَ هُم الذينَ سَبَقوا هذه الأُمَّةَ وبَدَروها إلى الإيمانِ والهجرةِ، والجِهادِ، وإقامَةِ دينِ اللهِ[١].

فكلُّ مَن جاءَ بعدَهم إنَّما اقتَفى أثرَهُم، وسلَك سبيلَهم، وعَمِلَ عمَلهم، فأيُّ فضلٍ فضلُهم؟ وأيُّ أجرٍ أجرُهم؟

ومِمَّا يدُلّ على فضلِها وعِظَمِ أثرِها: أنَّها لَمَّا توُفِّيَت حَزِنَ عليها رسولُ اللهِ ﷺ حُزنًا شديدًا، وكان قد توُفِّيَ عمُّه أبو طالبٍ قبلها بقليلٍ، فاجتمَعَت على رسولِ اللهِ ﷺ الهمومُ والأحزانُ، ونالَت منه قُريشٌ ما لم تكُن تنالُ منه من قَبلُ، واشتدَّ أذاهُم له.

قال ابنُ كثيرٍ: «رَوى الحافظُ أبو الفَرَجِ بن الجَوزيِّ بسَنَدِهِ عن ثَعلَبَةَ بن صُعَيرٍ وحَكيمِ بن حِزامٍ، أنَّهُما قالا: «لَمَّا توُفِّيَ أبو طالبٍ وخديجةُ -وكان بينهما شَهرٌ وخَمسَةُ أيَّامٍ- اجتَمَعَت على رسولِ اللهِ ﷺ مُصيبَتانِ، فَلَزِمَ بَيتَهُ، وأقَلَّ الخُروجَ، ونالَت منه قريشٌ ما لَم تَكُن تَنالُ ولا تَطمَعُ فيه»[٢].

وقال ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم إنَّ خديجةَ بنتَ خوَيلِدٍ وأبا طالبٍ هَلَكا في عامٍ واحدٍ، فَتَتابَعَت على رسولِ اللهِ ﷺ المَصائِبُ بهُلكِ خديجةَ، وكانت له وزيرَ صِدقٍ على الإسلامِ، يَشكو إلَيها، وبهُلكِ عَمِّهِ أبي طالبٍ، وكان له عَضُدًا وحِرزًا في أمرِهِ، ومَنَعَةً وناصِرًا على قَومِهِ، وذلك قَبلَ مُهاجَرِهِ إلى المَدينَةِ بثَلاثِ سِنينَ»[٣].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان موتُها بعدَ موتِ عمِّه أبي طالبٍ بأيامٍ يسيرةٍ، قيل:

---

(١) تفسير السعدي (ص٣٥٠).

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٤١٦).

ثلاثَة أيام، وقيلَ: سبعَة، وقيلَ: كان بينَ موتِ أبي طالبٍ وموتِ خديجةَ شهرٌ وخمسةُ أيامٍ، وتوُفِّيَ أبو طالبٍ وهو ابنُ بضعٍ وثمانينَ سنةً، وتوُفِّيَت خديجةُ وهي ابنةُ خمسٍ وستِّينَ سنةً، فكانت مُصيبتانِ تَوالَتا على رسول اللهِ ﷺ بوفاةِ عمِّه أبى طالبٍ، ووفاةِ خديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا»[1].

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ماتَ عَمُّهُ أبو طالبٍ وله سَبعٌ وثَمانونَ سنةً، فَنالَ الكُفَّارُ منه أَذًى شَديدًا، ثم ماتَت خديجةُ بعدَ ذلك بيَسيرٍ، فاشتَدَّ أَذى الكُفَّارِ له، فَخرجَ إلى الطائِفِ هو وزَيدُ بن حارِثَةَ يَدعو إلى اللهِ تعالى، وأَقامَ بهِ أَيَّامًا فَلَم يُجيبوهُ، وآذَوهُ وأَخرَجوهُ، وقاموا له سِماطَينِ[2]، فَرَجَموهُ بالحِجارَةِ حتى أَدمَوا كَعبَيهِ، فانصَرَفَ عنهم رسولُ اللهِ ﷺ راجِعًا إلى مكةَ»[3].

ذِكر اختِلاف العُلماء في المفاضلة بينَ خديجة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

اختلَفَ العُلماءُ في ذلك على ثَلاثَةِ أقوالٍ، أوَّلُها: أنّ خديجةَ أفضَلُ، والثَّاني: أنّ عائشةَ أفضَلُ، والثَّالثُ: التوَقُّفُ في المسألةِ.

قال الحافظُ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه مَسأَلَةٌ وقَعَ النِّزاعُ فيها بينَ العُلَماءِ قديمًا وحَديثًا، وتَجاذَبَها طَرَفا نَقيضٍ:

فأَهلُ التشَيُّعِ وغيرُهُم لا يَعدِلونَ بخديجةَ أَحَدًا منَ النِّساءِ؛ لِسَلامِ الرَّبِّ عليها، وكَونِ ولَدِ النبيِّ ﷺ جَميعِهِم - إلا إبراهيمَ - منها، وكَونِهِ لَم يَتَزَوَّج عليها حتى ماتَت؛ إكرامًا لها، وتَقدُّمِ إسلامِها، وكَونِها منَ الصدِّيقاتِ، ولها مَقامُ صِدقٍ في أوَّلِ البَعثَةِ، وبَذَلَت نَفسَها ومالها لِرسولِ اللهِ ﷺ.

وأَمَّا أَهلُ السُّنَّةِ: فَمنهم مَن يَغلو أَيضًا، ويُثبتُ لِكُلٍّ واحدَةٍ منهما منَ الفَضائِلِ ما هو مَعروفٌ، ولكن تَحمِلُهُم قوَّةُ التسَنُّنِ على تَفضيلِ عائشةَ؛ لِكَونِها ابنَةَ الصدِّيقِ، ولِكَونِها

---

(١) الاستيعاب (١/ ٣٨).

(٢) أي: صفين، وكل صف من الرجال سماط. لسان العرب (٧/ ٣٢٥).

(٣) زاد المعاد (١/ ٩٥).

أَعلَمَ من خديجةَ، فَإِنَّهُ لَم يَكُن في الأُمَمِ مِثلُ عائشةَ في حِفظِها وعِلمِها وفَصاحَتِها وعَقلِها، ولَم يَكُنِ الرَّسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ أَحَدًا من نِسائِهِ كَمَحَبَّتِهِ إيَّاها، ونزلَت بَراءَتُها من فَوقِ سَبعِ سَماواتٍ، ورَوَت بعدَهُ عنه عليه السَّلامُ عِلمًا جَمًّا كَثيرًا طَيِّبًا مُبارَكًا فيه.

والحُقُّ: أَنَّ كُلًّا منهما لها منَ الفَضائِلِ ما لَو نَظَرَ الناظِرُ فيه لَبَهَرَهُ وحَيَّرَهُ، والأَحسَنُ التوَقُّفُ في ذلك، ورَدُّ عِلمِ ذلك إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَن ظَهَرَ له دَليلٌ يَقطَعُ بهِ، أو يَغلِبُ على ظَنِّهِ في هذا الباب، فَذاكَ الذي يَجِبُ عليه أَن يقولَ بما عِندَهُ منَ العِلمِ، ومَن حَصَلَ له تَوَقُّفٌ في هذه المَسأَلَةِ، أو في غيرِها، فالطريقُ الأَقوَمُ والمَسلَكُ الأَسلَمُ أَن يقولَ: اللهُ أَعلَمُ»[1].

وقال تَقيُّ الدِّينِ السُّبكيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قال المتَوَلِّي من أصحابنا**: «تكَلَّم الناسُ في عائشةَ وفاطمَةَ، أيُّهما أفضلُ، والأولى للعاقِلِ، أن لا يشتَغِلَ بمِثلِ ذلك».

والكلامُ في التفضيلِ صَعبٌ، ولا ينبَغي التكَلُّمُ إلا بما ورَدَ، والسكوتُ عمَّا سِواه وحِفظُ الأدَب، رَضيَ اللهُ عَنِ الجميعِ، ورزَقَنا محبَّتَهم ونفَعَنا بهِم»[2].

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قال السُّيوطيُّ في النِّقايَةِ**: «نَعتَقِدُ أَنَّ أَفضَلَ النِّساءِ مَريَمُ وفاطِمَةُ، وأَفضَلَ أُمَّهاتِ المؤمِنينَ خديجةُ وعائشةُ، وفي التفضيلِ بينهما أَقوالٌ، ثالِثُها: التوَقُّفُ».

أَقولُ: التوَقُّفُ في حقِّ الكُلِّ أولى؛ إذ ليس في المَسأَلَةِ دَليلٌ قَطعيٌّ، والظَّنِّيَّاتُ مُتَعارِضَةٌ غيرُ مُفيدَةٍ للعَقائِدِ المَبنيَّةِ على اليَقينيَّاتِ»[3].

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختُلِفَ في تفضيلِها على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على ثَلاثَة أَقوال، ثالِثُها: الوَقفُ.

وسألتُ شَيخَنا ابنَ تَيميّة رَحِمَهُ اللَّهُ، **فقال**: «اختُصَّت كُلُّ واحدَةٍ منهما بخاصِّيَّةٍ:

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٣٢١-٣٢٢).

(٢) قضاء الأرب في أسئلة حلب (ص٢٣٥).

(٣) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٩٩٤).

فخديجةُ كان تأثيرُها في أوَّلِ الإسلامِ، وكانت تُسَلِّي رسول اللهِ ﷺ، وتُثَبِّتُه، وتُسَكِّنُه، وتَبذُل دونَه مالها، فأدركَت غرَّةَ الإسلام، واحتمَلَتِ الأَذى في اللهِ وفي رسولِه، وكانت نُصرتُها للرسولِ ﷺ في أعظمِ أوقاتِ الحاجَةِ، فلها من النُّصرَة والبذلِ ما ليس لغيرها.

وعائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تأثيرُها في آخرِ الإسلام، فلها من التفَقُّه في الدِّين، وتبليغِه إلى الأمَّة، وانتفاعِ بَنيها بما أدَّت إليهم من العلم، ما ليس لغيرها».

هذا معنى كَلامه»[1].

وقال أَيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُئِلَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ عن مسائلَ عديدَةٍ من مسائلِ التفضيلِ، فأجابَ فيها بالتفصيلِ الشافي... منها: أنَّه سُئِلَ عن خديجةَ وعائشةَ أُمَّيِ المؤمِنينَ: أيُّهما أفضلُ؟ فأجابَ: بأنَّ سَبقَ خديجةَ وتأثيرَها في أوَّلِ الإسلامِ ونَصرَها وقيامَها في الدِّينِ لم تُشرِكها فيه عائشةُ ولا غيرُها من أمَّهاتِ المؤمِنينَ، وتَأثيرَ عائشةَ في آخِرِ الإسلامِ وحملها الدِّينَ وتبليغَه إلى الأمَّةِ وإدراكَها من العلمِ ما لم تُشرِكها فيه خديجةُ ولا غيرُها مِمَّا تميَّزَت به عن غيرِها.

فتأمَّل هذا الجوابَ الذي لو جِئتَ بغيرِه من التفضيلِ مُطلقًا لم تَخلُص منَ المعارَضَةِ»[2].

وكذلك خلافُهم في خديجةَ وفاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أيّهما أفضلُ؟

قال القاضي أَبو بَكرِ بن العَرَبيِّ: «خديجةُ أَفضَلُ نِساءِ الأُمَّةِ مُطلَقًا»[3].

وسُئِلَ ابنُ داوُدَ[4]: أيُّهما أفضَلُ: خديجةُ أم فاطمةُ؟

---

(١) جلاء الأفهام (ص٢٣٤-٢٣٥).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٦٢-١٦٣).

(٣) فتح الباري (٦/ ٤٧١).

(٤) هو أبو بكر بن داود الأصبهاني.

فقال: «الشَّارِعُ قال: «**فاطِمَةُ بَضعَةٌ مِنِّي**»[١]، ولا أَعدِلُ ببَضعَةٍ مِنه أحَدًا»[٢].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قال السُّبكيُّ الكَبيرُ**: «كما تَقدَّمَ لِعائشةَ منَ الفَضائِلِ ما لا يُحصى، ولكنَّ الذي نَختارُهُ ونَدينُ اللهَ بهِ: أَنَّ فاطِمَةَ أَفضَلُ، ثم خديجةَ، ثم عائشةَ».

واستَدَلَّ لِفَضلِ فاطِمَةَ بما تَقدَّمَ في تَرجَمَتِها أَنَّها سَيِّدَةُ نِساءِ المؤمِنينَ.

قُلتُ: وقال بَعضُ مَن أَدرَكناهُ: «الذي يَظهَرُ: أَن لا نُفَضِّلَ إحداهُما على الأُخرى».

وسُئِلَ السُّبكيُّ: هَل قال أَحَدٌ: إنَّ أَحَدًا من نِساءِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيرَ خديجةَ وعائشةَ أَفضَلُ من فاطِمَة؟

فقال: «قال بهِ مَن لا يُعتَدُّ بقَولِهِ، وهو مَن فَضّل نِساءَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جَميعِ الصحابَةِ؛ لِأَنَّهُنَّ في دَرَجَتِهِ في الجنةِ»، قال: «وهو قَولٌ ساقِطٌ مَردودٌ».

وقائِلُهُ هو أَبو محمدِ بن حَزمٍ، وفَسادُهُ ظاهِرٌ.

قال السُّبكيُّ: «ونِساءُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ خديجةَ وعائشةَ مُتَساوياتٌ في الفَضلِ، وهُنَّ أَفضَلُ النِّساءِ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾... الآيَةَ [الأحزاب: ٣٢]»[٣].

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فاطمَةُ أَفضَلُ بَناتِهِ على الإطلاقِ، وقيلَ: إنَّها أَفضَلُ نِساءِ العالَمينَ، وقيلَ: بَل أُمُّها خديجةُ، وقيلَ: بَل عائشةُ، وقيلَ: بَل بالوَقفِ في ذلك»[٤].

والتحريرُ أن يُقال:

لِكُلٍّ واحدَةٍ فضلُها الذي تميَّزَت بهِ عن غيرِها، فخديجةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أفضَلُ من جِهَةِ السَّبقِ، وفاطمَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أفضلُ من جهَةِ الأصلِ والنسَب، وعائشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أفضلُ من جهَةِ العلمِ، ولا يُقطَعُ لواحدَةٍ منهنّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ بالأفضَليَّةِ المطلَقَةِ.

---

(١) رواه البخاري (٣٧١٤)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٠/ ٤٣٢).

(٣) فتح الباري (٧/ ١٣٩).

(٤) زاد المعاد (١/ ١٠١).

قال ابنُ القَيِّم: «الخلافُ في كَونِ عائشةَ أفضلَ من فاطمةَ، أو فاطمةَ أفضلَ، إذا حُرِّرَ محلّ التفضيلِ صارَ وِفاقًا، فالتفضيلُ بدونِ التفصيلِ لا يستَقيمُ.

* فإن أُريدَ بالفضلِ كثرةُ الثَّواب عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: فذلك أمرٌ لا يُطَّلَعُ عليه إلا بالنصِّ؛ لأنّه بحَسَب تفاضُل أعمالِ القُلوب، لا بمُجَرَّدِ أعمالِ الجوارِح، وكم من عامِلَينِ أحدُهما أكثرُ عملًا بجوارِحِه، والآخَرُ أرفَعُ درجةً منه في الجنةِ.

* وإن أُريدَ بالتفضيلِ التفَضُّلُ بالعلمِ: فلا رَيبَ أنَّ عائشةَ أعلمُ وأنفَعُ للأُمَّةِ، وأدَّت إلى الأُمَّةِ من العِلمِ ما لَم يُؤَدِّ غيرُها، واحتاجَ إليها خاصّةُ الأمَّةِ وعامَّتُها.

* وإن أُريدَ بالتفضيلِ شرفُ الأصلِ وجَلالةُ النّسَب: فلا ريبَ أنَّ فاطمةَ أفضلُ؛ فإنَّها بَضعَةٌ منَ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك اختصاصٌ لم يُشرِكها فيه غيرُ أخَواتِها.

* وإن أريدَ السِّيادةُ: ففاطمةُ سيِّدَةُ نِساءِ الأُمَّةِ.

وإذا ثَبَتَت وُجوهُ التفضيلِ وموارِدُ الفَضلِ وأسبابُه صارَ الكلامُ بعلمٍ وعدلٍ.

وأكثرُ الناسِ إذا تكَلَّمَ في التفضيلِ لم يُفَصِّل جِهاتِ الفَضلِ، ولَم يوازِن بينَها، فيبخَس الحقّ، وإنِ انضافَ إلى ذلك نوعُ تعَصُّبٍ وهَوي لَمَن يُفَضِّلُه تكلَّمَ بالجهلِ والظُّلمِ»[1].



(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٦١-١٦٢).

٧

الأسيرُ
الذي
أسلمَ

الأسيرُ الذي أسلمَ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بَعَثَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيلًا قِبَلَ نَجدٍ، فَجاءَت برَجُلٍ من بَني حَنيفَةَ، يُقالُ له ثُمامَةُ بن أُثالٍ، فَرَبَطوهُ بساريَةٍ من سَواري المَسجِدِ، فَخرجَ إليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ما عِندَكَ يا ثُمامَةُ؟**»، فقال: عِندي خَيرٌ يا محمدُ، إن تَقتُلني تَقتُل ذا دَمٍ، وإن تُنعِم تُنعِم على شاكِرٍ، وإن كُنتَ تُريدُ المالَ فَسَل منه ما شِئتَ.

فَتُرِكَ حتى كان الغَدُ، ثم قال له: «**ما عِندَكَ يا ثُمامَةُ؟**»، قال: ما قُلتُ لَكَ: إن تُنعِم تُنعِم على شاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حتى كان بعدَ الغَدِ، فقال: «**ما عِندَكَ يا ثُمامَةُ؟**»، فقال: عِندي ما قُلتُ لَكَ، فقال: «**أَطلِقوا ثُمامَةَ**».

فانطَلَقَ إلى نَخلٍ قَريبٍ منَ المَسجِدِ، فاغتَسَلَ ثم دَخَلَ المَسجِدَ، فقال: أَشهَدُ أَن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأَشهَدُ أَنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، يا محمدُ:

واللهِ ما كان على الأَرضِ وجهٌ أَبغَضَ إلَيَّ من وجهِكَ، فقد أَصبَحَ وجهُكَ أَحَبَّ الوُجوهِ إلَيَّ.

واللهِ ما كان من دينٍ أَبغَضَ إلَيَّ من دينِكَ، فَأَصبَحَ دينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إلَيَّ.

واللهِ ما كان من بَلَدٍ أَبغَضُ إلَيَّ من بَلَدِكَ، فَأَصبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البلادِ إلَيَّ.

وإنَّ خَيلَكَ أَخَذَتني وأَنا أُريدُ العُمرَةَ، فَماذا تَرى؟

فَبَشَّرَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَمَرَهُ أَن يَعتَمِرَ، فَلَمَّا قدِمَ مكةَ قال له قائِلٌ: صَبَوتَ، قال: لا، ولكن أَسلَمتُ مَعَ محمدٍ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا واللهِ، لا يَأتيكُم منَ اليَمامَةِ حَبَّةُ حِنطَةٍ، حتى يَأذَنَ فيها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤)، وأبو داود (٢٦٧٩)، والنسائي (١٨٩)، وابن حبان في صحيحه (١٢٣٩)، وفي الثقات (١/ ٢٨٠)، وابن خزيمة (٢٥٣)، وأحمد (٧٣٦١)، وعبد الرزاق =

ترجَمَةُ أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو أَبو هريرة الدَّوسيُّ، اليَمانيُّ، صاحِبُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحافِظُ الصحابَةِ.

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختُلِفَ في اسمِهِ اختِلافًا كَثيرًا جِدًّا، والأَصَحُّ عِندَ المحقِّقينَ الأَكثَرينَ: ما صَحَّحَهُ البخارِيُّ وغيرُهُ منَ المتقِنينَ، أَنَّهُ عبدُ الرَّحمنِ بنُ صَخرٍ».

وقال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختُلِفَ في اسمِهِ في الجاهِليَّةِ والإسلامِ واسمِ أَبيهِ على أَقوالٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَالأَشهَرُ: أَنَّ اسمَهُ عبدُ الرَّحمَنِ بن صَخرٍ، وهو منَ الأَزدِ، ثم من دَوسٍ».

وقد أَجمَعَ أَهلُ الحَديثِ على أَنَّهُ أَكثَرُ الصحابَةِ حَديثًا.

واسمُ أُمِّهِ: مَيمونَةُ بنتُ صُبَيحِ بن الحارِثِ، أَسلَمَت، وماتَت مسلمَةً.

وحَدَّثَ أَبو هريرة أَيضًا عن أَبي بَكرٍ، وعمرَ، والفَضلِ بن العباسِ، وأُبَيِّ بن كَعبٍ، وأُسامَةَ بن زَيدٍ، وعائشةَ.

رَوى عنه منَ الصحابَةِ: ابنُ عمرَ، وابنُ عباسٍ، وجابرٌ، وأَنَسٌ، وواثِلَةُ بن الأَسقَعِ.

ومن كِبارِ التابعينَ: مَروانُ بن الحَكَمِ، وقَبيصَةُ بن ذُؤَيبٍ، وعبدُ اللهِ بن ثَعلَبَةَ، وسَعيدُ بن المسَيِّب، وعُروَةُ بن الزُّبَيرِ، وسَلمانُ الأَغَرُّ، والأَغَرُّ أَبو مسلمٍ، وشُرَيحُ بن هانِئٍ، وعبدُ اللهِ بن شَقيقٍ، وغيرُهُم كَثيرٌ جِدًّا.

قال البخاريُّ: «رَوى عنه نَحوُ الثَّمانِ مئة من أَهلِ العِلمِ، وكان أَحفَظَ مَن رَوى الحَديثَ في عَصرِهِ».

وقال أبو نُعَيمٍ: «كان إسلامُهُ بينَ الحُدَيبيَةِ وخَيبَرَ، قدِمَ المَدينَةَ مُهاجِرًا، وسَكَنَ الصفَّةَ».

= في المصنف (٩٨٣٤)، والبيهقي (٨٠٥)، (١٢٨٣٥)، (١٨٠٣٠)، وابن زنجويه في الأموال (٤٦٣)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٢/ ٤٣٥)، والخلال في السنة (٥/ ٨٠)، وأبو عوانة في مستخرجه (٦٦٩٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١/ ٤٠٤)، والمخلص في المخلصيات (٢/ ٣٩٨)، والبغوي في شرح السنة (١١/ ٨٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢١/ ٢٧٩).

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصدقِ، والحِفظِ، والدِّيانةِ، والعِبادةِ، والزّهادَةِ، والعَمَلِ الصالحِ، على جانبٍ عَظيمٍ.

وصَحّ عن أَبي عُثمانَ النهديِّ: «أَنَّ أَبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يَقومُ ثُلُثَ اللَّيلِ، وتَقومُ امرَأَتُهُ ثُلُثَ اللَّيلِ، ويَقومُ ابنُهُ ثُلُثَ اللَّيلِ، إذا نامَ هذا قامَ هذا»(١).

وقال ابنُ كَثيرٍ: «لَزِمَ أَبو هريرة رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ إسلامِهِ، فَلَم يُفارِقهُ في حَضَرٍ ولا سَفَرٍ، وكان أَحرَصَ شيءٍ على سَماعِ الحَديثِ منه، وتَفَقَّهَ عنه، وكان يَلزَمُهُ على شِبَعِ بَطنِهِ».

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أَن يُحَبِّبَني أَنا وأُمِّي إلى عِبادِهِ المؤمِنينَ، ويُحَبِّبَهُم إلَينا، قال: فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ حَبِّب عُبَيدَكَ هذا** -يَعني أَبا هريرة- **وأُمَّهُ إلى عِبادِكَ المؤمِنينَ، وحَبِّب إليهم المؤمِنينَ**».

فَما خُلِقَ مُؤمِنٌ يَسمَعُ بي ولا يَراني إلا أَحَبَّني(٢).

تُوُفِّيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنةَ سَبعٍ وخَمسينَ(٣).

شرح الحديث:

قَولُهُ: «بَعَثَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيلًا قِبَلَ نَجدٍ»:

أَي: بَعَثَ فُرسانَ خَيلٍ إلى جِهَةِ نَجدٍ(٤).

قال العِراقيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قِبَلَ نَجدٍ»، أَي: الذي يَلي نَجدًا، قال في المحكَمِ: «وقِبَلَ» يكونُ لِما ولِيَ الشَّيءَ، تَقولُ: «ذَهَبت قِبَلَ السُّوقِ»، وقالوا: «لي قِبَلَك مالٌ»، أَي: فيما يَليك، اتُّسِعَ فيه فَأُجري مَجرى «على»، إذا قُلت: «لي عليك مالٌ».

---

(١) رواه أحمد في الزهد (ص١٤٥).

(٢) رواه مسلم (٢٤٩١).

(٣) انظر: الاستيعاب (٤/ ١٧٦٨-١٧٧٢)، الإصابة (٧/ ٣٤٩-٣٦١)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٧٠)، البداية والنهاية (١١/ ٣٦٢-٣٧٨).

(٤) فتح الباري (٨/ ٨٧).

و«نَجدٌ»: بلادٌ مُرتَفِعَةٌ مَعروفَةٌ بالحِجازِ، قال في الصحاحِ: «وكُلُّ ما ارتَفَعَ من تِهامَةَ إلى أَرضِ العِراقِ فَهو نَجدٌ»(١).

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قِبَل نَجدٍ»، بكَسر القاف، وفتح الباء الموَحدَة: وهو الجِهَة، ونَجد، بفَتح النُّون، وسُكون الجيم: وهو في جَزيرَة العَرَب، قال المَدائِنيُّ: «جَزيرَةُ العَرَب خَمسَةُ أَقسام: تِهامَةُ، ونَجد، وحِجاز، وعروض، ويَمَن، أما تِهامَة: فَهي الناحيَةُ الجَنوبيَّة من الحجازِ، وأما نجد: فَهي الناحيَة التي بين الحجازِ والعراقِ، وأما الحجازُ: فَهو جَبَلٌ يُقبلُ من اليَمَنِ حتى يَتَّصِلَ بالشَّامِ، وفيه المَدينَةُ وعمان، وأما العروض: فَهي اليَمامَة إلى البَحرين».

وقال **الواقِديّ**: «الحِجازُ: من المَدينَة إلى تَبوكَ، ومن المَدينَة إلى طَريق الكوفَة، ومن وراءِ ذلك إلى أَن يُشارفَ أَرضَ البَصرَةِ فَهو نَجدٌ، وما بين العراقِ وبين وجرَة وعَمرَةِ الطائِف نَجدٌ، وما كان وراءَ وجرَة إلى البَحر فَهو تِهامَة، وما كان بين تِهامَةَ ونَجدٍ فَهو حِجازٌ، سُمِّيَ حِجازًا؛ لِأَنَّهُ يَحجِزُ بينهما»(٢).

فكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمونَ دائمًا في جِهادٍ، أو استِعدادٍ للجِهادِ، فهُم:

* إمَّا في غزوٍ وجهادٍ مع العدوّ، كغزوَةِ بدرٍ، وغزوَةِ أُحُدٍ.

* أو جَولاتٍ استطلاعيَّة، فيَبعثُ عُيونًا له تَأتيهِ بأخبارِ المشرِكينَ، وما يَكيدون به للمسلمينَ.

* أو جَولاتٍ وِقائيَّة تقوم بها خَيلُ المسلمينَ حولَ المدينةِ؛ لِحفظِ الثُّغورِ، وإرهاب أعداءِ اللهِ.

* أو يكون خروجُهم لتنفيذِ مُهِمَّةٍ مُعيَّنةٍ، كاغتيالِ رأسٍ من رؤوسِ الكُفرِ، كما حصَلَ في مَقتلِ كَعب بن الأشرَفِ وسَلَّام بن أَبي الحُقَيقِ اليهوديَّينِ.

---

(١) طرح التثريب (٧/ ٢٥٥)، المحكم (٦/ ٤٣١)، الصحاح (٢/ ٥٤٢).

(٢) عمدة القاري (٤/ ٢٣٧).

* أو لتنفيذِ غاراتٍ مُفاجِئَةٍ على مواقِعِ العَدوّ الذين يتجَهَّزون لغَزوِ المدينةِ، ليُحبطوا مُحاوَلاتِهم واستعداداتِهم في مَهدِها، كما حصَل في غزوَةِ بني المصطَلِقِ، أغارَ عليهم وهُم غارُّون[١]، فأخَذَهم على حِينِ غِرَّةٍ، وكانت قد وصَلَت إليه أخبارٌ بأنَّهم يستَعِدُّون لقِتالِه[٢].

* أو للإغارَة على قوافِلَ للمُشركينَ؛ لأنَّهم مُحارِبون، قال الحافظُ: «أَموالُ الكُفَّارِ إنَّما تَحِلُّ بالمحارَبَةِ والمغالَبَةِ»[٣].

وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

قَولُهُ: «فَجاءَت برَجُلٍ من بَني حَنيفَةَ»:

قال السَّمعانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحَنَفيُّ -بفَتحِ الحاءِ المهمَلَةِ، والنُّون وفي آخِرِها الفاءُ-: هذه النِّسبَةُ إلى بَنِي حَنيفَةَ، وهُم قَومٌ أكثَرُهُم نزَلوا اليَمامةَ، وكانوا قد تَبعوا مُسَيلِمَةَ الكذَّابَ المتَنبِّي، ثم أسلَموا زمَنَ أبي بَكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقُتِلَ مَسُيلِمَةُ»[٤].

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حَنيفَةُ: هي قبيلَةٌ معروفةٌ، تُنسَبُ إلى حَنيفَةَ بن لُجَيمِ بنِ صَعب بن عَليِّ بن بكرِ بن وائِلِ بن قاسِطِ بن هِنب بن أَفصى بن دُعمِيّ بن جُدَيلَةَ بن أسَدِ بن ربيعَةَ، وكان غالبُ هذه القبيلَةِ باليمامةِ فى أوائلِ الإسلامِ، ثُمّ تفرَّقوا»[٥].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا حنيفَةُ: فَهو بن لُجَيم بن صَعب بن عَليِّ بن بَكرِ بن وائِلٍ، وهي قَبيلَةٌ كَبيرَةٌ شَهيرَةٌ، يَنزِلونَ اليَمامَةَ بينَ مكةَ واليَمَنِ، وكان وفدُ بَني حَنيفَةَ -كَما ذكرهُ ابنُ إسحاقَ وغيرُهُ- في سنةِ تِسعٍ، وذكرَ الواقِديُّ أَنهم كانوا سَبعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فيهم مُسَيلِمَةُ.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٤١)، ومسلم (١٧٣٠).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (٦/ ١٨٢).

(٣) فتح الباري (٥/ ٣٤١).

(٤) الأنساب (٤/ ٢٨٨).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٨٨).

وكانت قِصَّةُ ثُمامَةَ قَبلَ وفدِ بَني حَنيفَةَ بزَمانٍ؛ فَإنَّ قِصَّتَهُ صَريحَةٌ في أَنَّها كانت قَبلَ فَتحِ مكةَ»[١].

قَولُهُ: «يُقالُ له ثُمامَةُ بن أُثالٍ»:

وهو ثُمامَةُ بن أُثالِ بن النُّعمانِ بن مَسلَمَةَ بن عُبَيدِ بن ثَعلَبَةَ بن يَربوع بن ثَعلَبة بن الدّؤلِ بن حَنيفَة[٢].

قال الحافظُ: «زَعَمَ سَيفٌ في كِتاب الرِّدةِ له أَنَّ الذي أَخَذَ ثُمامَةَ وأَسَرَهُ هو العباسُ بن عبدِ المطَّلِب، وفيه نَظَرٌ؛ لِأَنَّ العباسَ إنَّما قدِمَ على رسولِ اللهِ ﷺ في زَمانِ فَتحِ مكةَ، وقِصَّة ثُمامَةَ تَقتَضي أَنَّها كانت قَبلَ ذلك، بحَيثُ اعتَمَرَ ثُمامَةُ، ثم رجعَ إلى بلادِهِ، ثم مَنَعَهُم أَن يَميروا[٣] أَهلَ مكةَ، ثم شَكا أَهلُ مكةَ إلى النبيِّ ﷺ ذلك، ثم بَعَثَ يَشفَعُ فيهم عِندَ ثُمامَةَ»[٤].

قَولُهُ: «فَرَبَطوهُ بساريَةٍ من سَوارِى المَسجِدِ»:

السَّاريَةُ: الأُسطوانَة، وجَمعُها السَّواري[٥].

وكانت سَواري المسجد النبويّ على عَهدِ رسولِ اللهِ ﷺ من جُذوعِ النخلِ.

فعن عبد اللهِ بن عمرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ المَسجِدَ كان على عَهدِ رسولِ اللهِ ﷺ مَبنيًّا باللَّبنِ[٦]، وسَقفُهُ الجَريدُ، وعُمُدُهُ خَشَبُ النخلِ»[٧].

---

(١) فتح الباري (٨/ ٨٧).

(٢) الطبقات الكبرى (٦/ ٧٥)، أسد الغابة (١/ ٢٩٤).

(٣) مار أهله: أعد لهم الميرة، وهي الطعام من الحب والقوت.

(٤) فتح الباري (٨/ ٨٧).

(٥) لسان العرب (١٤/ ٣٨٣).

(٦) أي: الطوب المعمول من الطين الذي لم يحرق، فإذا أحرق فهو الآجر. فتح الباري (١/ ١٨٢)، (٧/ ٢٤٦).

(٧) رواه البخاري (٤٤٦).

قال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المرادُ بخَشَب النّخلِ: الجُذوع»[١].

قَولُهُ: «فَخرجَ إليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فقال: «ماذا عِندَكَ يا ثُمامَةُ؟»:**

أَي: أَيُّ شيءٍ عِندَكَ؟ ويُحتَمَلُ أَن تَكونَ «ما» استِفهاميَّةٌ، و«ذا» مَوصولَة، و«عِندَكَ» صِلَتُهُ، أَي: ما الذي استَقَرَّ في ظَنِّكَ أَن أَفعَله بكَ؟[٢].

وعِندَ البيهَقيّ: «ما لَكَ يا ثُمامَةُ؟ هَل أَمكَنَ اللهُ منكَ؟».

فَأَجابَ بأَنَّهُ ظَنَّ خَيرًا، فقال: «**عِندي خَيرٌ يا محمدُ**»:

أَي: لِأَنَّكَ لَستَ مِمَّن يَظلِمُ، بَل مِمَّن يَعفو ويُحسِنُ[٣].

قَولُهُ: «إن تَقتُلني تَقتُل ذا دَمٍ»:

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختَلَفوا في مَعناهُ: فقال القاضي عياضٌ: «مَعناهُ: إن تَقتُل تَقتُل صاحِبَ الدَّمِ، لِدَمِهِ مَوقِعٌ يَشتَفي بقَتلِهِ قاتِلُهُ، ويُدرِكُ قاتِلُهُ بِهِ ثَأرَهُ، أَي: لِرياسَتِهِ وفَضيلَتِهِ، وحُذِفَ هذا؛ لِأَنَّهُم يَفهَمونَهُ في عُرفِهِم».

وقال آخَرونَ: «مَعناهُ: تَقتُل مَن عليه دَمٌ، ومَطلوبٌ بِهِ، وهو مُستَحقٌّ عليه، فلا عَتبَ عليكَ في قَتلِهِ».

ورواهُ بَعضُهُم في سُنَنِ أَبي داوُدَ وغيرِهِ: «ذا ذَمٍّ»[٤]، بالذَّالِ المعجَمَةِ، وتشديدِ الميمِ، أَي: ذا ذِمامٍ وحُرمَةٍ في قَومِهِ، ومَن إذا عَقدَ ذِمَّةً وفَّى بها.

قال القاضي: «هذه الرِّوايَةُ ضَعيفَةٌ؛ لِأَنَّها تَقلِبُ المعنى، فَإِنَّ مَن له حُرمَةٌ لا يَستَوجِبُ القَتلَ».

---

(١) كشف المشكل (٢/ ٥٨٦).

(٢) فتح الباري (٨/ ٨٧).

(٣) فتح الباري (٨/ ٨٨)، عمدة القاري (١٨/ ٢٢).

(٤) سنن أبي داود (٢٦٧٩) في رواية، ومن وجه آخر: «ذا دم»، كرواية الجماعة.

قُلتُ: «ويُمكِنُ تَصحيحُها على معنى التفسيرِ الأوَّلِ، أَي: تَقتُل رَجُلًا جَليلًا يَحتَفِلُ قاتِلُهُ بقَتلِهِ، بخِلافِ ما إذا قَتَلَ ضَعيفًا مَهينًا، فَإِنَّهُ لا فَضيلَةَ في قَتلِهِ، ولا يُدرِكُ بِهِ قاتِلُهُ ثَأرَهُ»[١].

ووَقَعَ عندَ ابنِ شَبَّةَ[٢]، وابنِ الجَوزيِّ[٣]: «إن تَقتُل تَقتُل ذا ذَنبٍ».

والمَشهورُ: «ذا دَمٍ».

قَولُهُ: «وإن تُنعِم تُنعِم على شاكِرٍ»:

والشُّكرُ: عِرفانُ الإحسانِ ونَشرُه، وحَمدُ موليهِ[٤].

وقال الحافظُ: «فِعلُ الشَّرطِ إذا كُرِّرَ في الجَزاءِ دَلَّ على فَخامَةِ الأَمرِ»[٥].

يعني: إن تنعَم عليَّ بالعَفوِ عنِّي، فذاكَ أمرٌ عظيمٌ، يستَوجِبُ الشُّكرَ مِنِّي.

«وإن كُنتَ تُريدُ المالَ، فَسَل منه ما شِئتَ»:

وعندَ مسلمٍ، وأحمَدَ، وأبي داوُدَ: «فَسَل تُعطَ منه ما شِئتَ».

وعندَ البيهَقيِّ: «إن تَقتُل تَقتُل ذا دَمٍ، وإن تَعفُ تَعفُ عن شاكِرٍ، وإن تَسأَل مالًا تُعطَهُ».

قَولُهُ: «فَتُرِكَ حتى كان الغَدُ، ثم قال له: «ما عِندَكَ يا ثُمامَةُ؟»».

قال: ما قُلتُ لَكَ: إن تُنعِم تُنعِم على شاكِرٍ»:

وزادَ البيهَقيُّ بعدَ المَرَّةِ الثَّانيةِ:

قال أَبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَجَعَلنا -المَساكينَ- نَقولُ بينَنا: ما نَصنَعُ بدَمِ ثُمامَةَ؟ واللهِ لَأَكلَةٌ من جَزورٍ سَمينَةٍ من فِدائِهِ أَحَبُّ إلَينا من دَمِ ثُمامَةَ».

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٨٧).

(٢) تاريخ المدينة (٢/ ٤٣٣).

(٣) كشف المشكل (٣/ ٤١٧).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ١٠).

(٥) فتح الباري (٨/ ٨٨).

وهو عندَ عبدِ الرزَّاقِ، وابنِ حِبَّان، والبيهَقيِّ أَيضًا، ولفظُه: «فكان أَصحابُ النبيِّ ﷺ يُحِبُّونَ الفِداءَ، ويقولونَ: ما نَصنَعُ بقَتلِ هذا؟».

قَولُهُ: «فَتَرَكَهُ حتى كان بعدَ الغَدِ، فقال: «ما عِندَكَ يا ثُمامَةُ؟».

فقال: عِندي ما قُلتُ لَكَ»:

اقتَصَرَ في اليَومِ الثَّاني على أَحَدِ الشِّقَّينِ، وحَذَفَ الأَمرَينِ في اليَومِ الثَّالِثِ، وفيه دَليلٌ على حَذقِهِ؛ وذلك أَنَّهُ قدَّمَ أَوَّلَ يومٍ أَشَقَّ الأَمرَينِ عليه، وأَشفى الأَمرَينِ لِصَدرِ خُصومِهِ، وهو القَتلُ، فَلَمَّا لَم يَقَعِ اقتَصَرَ على ذِكرِ الاِستِعطافِ وطَلَبِ الإنعامِ في اليَومِ الثَّاني، فَكَأَنَّهُ في اليَومِ الأَوَّلِ رَأى أَماراتِ الغَضَب فقدَّمَ ذِكرَ القَتلِ، فَلَمَّا لَم يَقتُلهُ طَمِعَ في العَفوِ فاقتَصَرَ عليه، فَلَمَّا لَم يَعمَل شَيئًا مِمَّا قال اقتَصَرَ في اليَومِ الثَّالِثِ على الإجمالِ؛ تَفويضًا إلى جَميلِ خُلُقِهِ ﷺ، وقد وافَقَ ثُمامَةُ في هذه المخاطَبَةِ قَولَ عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]؛ لِأَنَّ المَقامَ يَليقُ بذلك[١].

فقال: «أَطلِقوا ثُمامَةَ»:

وعندَ البيهَقيِّ: «أَطلِقوهُ، فقد عَفَوتُ عنكَ يا ثُمامَ».

قوله: «فانطَلَقَ إلى نَخلٍ قَريبٍ منَ المَسجِدِ، فاغتَسَلَ»:

وعندَ أحمَدَ: «وقَذَفَ اللهُ عز وجل في قَلبِهِ، قال: فَذَهَبوا بِهِ إلى بئرِ الأَنصارِ، فَغَسَلوهُ، فَأَسلَمَ»[٢].

وله أَيضًا: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اذهَبوا بِهِ إلى حائِطِ بَني فُلانٍ، فَمُروهُ أَن يَغتَسِلَ**»[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المسند (٧٣٦١)، وقال محققو المسند: «إسناده قوي».

(٣) المسند (٨٠٣٧)، وقواه محققو المسند.

وعندَ البيهَقيِّ: «فَخرجَ ثُمامَةُ حتى أَتى حائِطًا من حيطانِ المَدينَةِ، فاغتَسَلَ فيه وتَطَهَّرَ، وطَهَّرَ ثيابَهُ»[١].

وله أَيضًا: وبَعَثَ بِهِ إلى حائِطِ أَبي طَلحَةَ، وأَمَرَهُ أَن يَغتَسِلَ، فاغتَسَلَ وصَلَّى رَكعَتَينِ، فقال النبيُّ ﷺ: «**لَقد حَسُنَ إسلامُ أَخيكُم**»[٢].

وقد اختَلَفَ العُلماءُ في الكافِرِ إذا أسلَمَ: هل يجِبُ عليه الاغتسالُ؟

فذَهَبَ المالِكيَّةُ والحَنابلَةُ إلى أَنَّ إسلَامَ الكافِرِ موجِبٌ للغُسل، فإذا أَسلَمَ الكافِرُ وجَبَ عليه أَن يَغتَسِل؛ لأنّ النبيّ ﷺ أَمَرَ ثُمامَةَ أَن يَغتَسِلَ، وعن قَيسِ بن عاصِمٍ، أَنَّهُ أَسلَمَ، فَأَمَرَهُ النبيُّ ﷺ أَن يَغتَسِلَ بماءٍ وسِدرٍ[٣].

ولِأَنَّهُ لا يَسلَمُ غالِبًا من جَنابَةٍ، فَأُقيمَتِ المَظِنَّةُ مَقامَ الحقيقَةِ، كالنومِ، والتِقاءِ الخِتانَينِ.

وذَهَبَ الحَنَفيَّةُ والشَّافِعيَّةُ إلى استِحباب الغُسل للكافِرِ إذا أَسلَمَ وهو غيرُ جُنُبٍ؛ لِأَنَّهُ أَسلَمَ خَلقٌ كَثيرٌ ولَم يَأمُرهُمُ النبيُّ ﷺ بالغُسلِ.

وإذا أَسلَمَ الكافِرُ وهو جُنُبٌ وجَبَ عليه الغُسلُ[٤].

وقال بعضُ العُلماءِ: لا يَجِبُ عليه الغُسلُ مُطلَقًا، وإن وُجِدَ عليه جنابَةٌ حالَ كُفرِه ولَم يغتَسِل منها؛ لِأَنّه غيرُ مأمورٍ بشَرائِعِ الإسلامِ، **قال ابنُ عُثَيمينَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأَحوَطُ أن يغتَسِلَ؛ لِأَنّه إنِ اغتسَلَ وصَلَّى فَصَلاتُه صحيحَةٌ على جميعِ الأقوالِ، ولو صلَّى ولم يغتسِل ففي صِحَّةِ صَلاتِه خلافٌ بينَ أهلِ العلمِ»[٥].

قَولُهُ: «ثم دَخَلَ المَسجِدَ، فقال: أَشهَدُ أَن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأَشهَدُ أَنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، يا محمدُ:

---

(١) سنن البيهقي (١٨٠٣١).

(٢) سنن البيهقي (٨٠٥)، وصححه الألباني في الإرواء (١/ ١٦٤) على شرط الشيخين.

(٣) رواه الترمذي (٦٠٥)، وحسنه، وصححه الألباني.

(٤) الموسوعة الفقهية (٣١/ ٢٠٥).

(٥) الشرح الممتع (١/ ٣٤٢).

واللهِ ما كان على الأَرضِ وجهٌ أَبغَضَ إليَّ من وجهِكَ، فقد أَصبَحَ وجهُكَ أَحَبَّ الوُجوهِ إليَّ.

واللهِ ما كان من دينٍ أَبغَضَ إليَّ من دينِكَ، فَأَصبَحَ دينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إليَّ.

واللهِ ما كان من بَلَدٍ أَبغَضُ إليَّ من بَلَدِكَ، فَأَصبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البلادِ إليَّ»:

وعندَ البيهَقيّ -بعدَ أن ذكَرَ اغتِسالَه، وتطهيرَ ثيابه-: «ثم جاءَ رسولَ اللهِ ﷺ وهو جالِسٌ في المَسجِدِ في أَصحابِهِ، فقال:

يا محمدُ، واللهِ لَقد كُنتَ وما وجهٌ أَبغَضَ إليَّ من وجهِكَ، ولا دينٌ أَبغَضَ إليَّ من دينِكَ، ولا بَلَدٌ أَبغَضَ إليَّ من بَلَدِكَ.

ثم لَقد أَصبَحتَ وما وجهٌ أَحَبَّ إليَّ من وجهِكَ، ولا دينٌ أَحَبَّ إليَّ من دينِكَ، ولا بَلَدٌ أَحَبَّ إليَّ من بَلَدِكَ.

وإنِّي أَشهَدُ أَن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأَنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ».

وهذا مِثلُ ما ورَدَ في الصحيحَين عن عائشةَ رضي الله عنها، **قالت:** «جاءَت هِندُ بنتُ عُتبَةَ، قالت: يا رسولَ اللهِ، ما كان على ظَهرِ الأَرضِ من أَهلِ خِباءٍ[1] أَحَبَّ إليَّ أَن يَذِلُّوا من أَهلِ خِبائِكَ، ثم ما أَصبَحَ اليومَ على ظَهرِ الأَرضِ أَهلُ خِباءٍ أَحَبَّ إليَّ أَن يَعِزُّوا من أَهلِ خِبائِكَ»[2].

وهذا ما يفعَلُه الإيمانُ إذا خالطَت بشاشَتُه القلوبَ.

وقال ابنُ إسحاقَ رحمه الله: بلغَني عن أَبي سَعيدٍ المَقبُريِّ، عن أَبي هَريرَةَ، أَنَّهُ قال: خرجَت خَيلٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَت رَجُلًا من بَني حَنيفَةَ، لا يَشعُرونَ مَن هوَ، حتى أَتَوا بهِ رسولَ اللهِ ﷺ، فقال: «**أَتَدرونَ مَن أَخَذتُم؟ هذا ثُمامَةُ بن أُثالٍ الحَنَفيُّ، أحسِنوا إسارَهُ**».

---

(١) الخباء: أحد بيوت العرب، من وبر أو صوف، ويكون على عمودين أو ثلاثة، والجمع أخبية، وقد يستعمل في المنازل والمساكن. النهاية (٢/ ٩).

(٢) رواه البخاري (٣٨٢٥)، ومسلم (١٧١٤).

الحَديث، وفيه:

فَلَمَّا أَطلَقوهُ خرجَ حتى أَتى البَقيعَ، فَتَطَهَّرَ فَأَحسَنَ طُهورَهُ، ثم أَقبَلَ فَبايَعَ النبيَّ ﷺ على الإسلامِ، فَلَمَّا أَمسى جاءوهُ بما كانوا يَأتونَهُ من الطعامِ، فَلَم يَنَل منه إلا قَليلًا، وباللِّقحَةِ[1] فَلَم يُصِب من حِلابها إلا يَسيرًا، فَعَجِبَ المسلمونَ من ذلك، فقال رسولُ اللهِ ﷺ حينَ بلغَهُ ذلك: «**مِمَّ تَعجَبونَ؟ أَمن رَجُلٍ أَكَلَ أَوَّلَ النهارِ في مِعى كافِرٍ، وأَكَلَ آخِرَ النهارِ في مِعى مسلمٍ؟ إنَّ الكافِرَ يَأكُلُ في سَبعَةِ أَمعاءٍ، وإنَّ المسلمَ يَأكُلُ في مِعًى واحدٍ**»[2].

وفي الصحيح عن أَبي هريرة: أَنَّ رَجُلًا كان يَأكُلُ أَكلًا كَثيرًا، فَأَسلَمَ، فكان يَأكُلُ أَكلًا قَليلًا، فَذُكِرَ ذلك للنبيِّ ﷺ، فقال: «**إنَّ المؤمِنَ يَأكُلُ في مِعًى واحدٍ، والكافِرَ يَأكُلُ في سَبعَةِ أَمعاءٍ**»[3].

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكرَ ابنُ إسحاق قال: بلغَني عن أَبي سَعيدٍ المَقبُريِّ، عن أَبي هَريرَةَ: أَنَّ الذى قال فيه النبيُّ ﷺ هذا الحديثَ ثمامةُ بن أُثالٍ الحَنَفِيُّ، وذكرَ غيرُه أَنَّه جَهجاهٌ الغِفارِيُّ[4]، واللهُ أعلَمُ»[5].

وخبَرُ جَهجاهٍ رواه ابنُ أبي شَيبَةَ وغيرُه عن جَهجاهٍ الغِفاريِّ، أَنَّهُ قدِمَ في نَفَرٍ من قَومِهِ يُريدونَ الإسلامَ، فَحَضَروا مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا سَلَّمَ قال: «**لِيَأخُذ كُلُّ رَجُلٍ منكُم بيَدِ جَليسِهِ**»، فَلَم يَبقَ في المَسجِدِ غيرُ رسولِ اللهِ وغيري، وكُنتُ عَظيمًا طَويلًا، لا يُقدِمُ عَلَيَّ أَحَدٌ، فَذَهَبَ بي رسولُ اللهِ ﷺ إلى مَنزِلِهِ، فَحَلَبَ لي عنزًا، فَأَتَيتُ عليه، حتى حَلَبَ لي سَبعَةَ أَعنُزٍ، فَأَتَيتُ عليها، ثم أُتيتُ بصَنيعِ بُرمَةٍ، فَأَتَيتُ عليها، فقالت

---

(١) اللقحة: الناقة الحلوب. تهذيب اللغة (٤/ ٣٤).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٣٨).

(٣) رواه البخاري (٥٣٩٧)، وروى مسلم نحوه (٢٠٦٣).

(٤) هو جهجاه بن سعيد، وقيل: بن قيس، وقيل: بن مسعود، الغفاري، شهد بيعة الرضوان بالحديبية. الإصابة (١/ ٦٢١).

(٥) شرح صحيح البخارى (٩/ ٤٧٢).

أُمُّ أَيمَنَ: أَجاعَ اللهُ مَن أَجاعَ رسولَ اللهِ هذه اللَّيلَةَ، فقال: «مَه يا أُمَّ أَيمَنَ! أَكَلَ رِزقَهُ، ورِزقُنا على اللهِ».

فَأَصبَحوا قُعودًا، فاجتَمَعَ هو وأَصحابُهُ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يُخبِرُ بما أُتِيَ إليه، فقال جَهجاهٌ: حُلِبَت لي سَبعَةُ أَعنُزٍ، فَأَتَيتُ عليها، وصُنِعَت بُرمَةٌ، فَأَتَيتُ عليها.

فَصَلَّوا مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ المَغرِبَ، فقال: «**لِيَأخُذ كُلُّ رَجُلٍ منكُم بيَدِ جَليسِهِ**»، فَلَم يَبقَ في المَسجِدِ غيرُ رسولِ اللهِ وغيري، وكُنتُ عَظيمًا طَويلًا، لا يُقدِمُ عَلَيَّ أَحَدٌ، فَذَهَبَ بي رسولُ اللهِ إلى مَنزِلِهِ، فَحُلِبَت لي عنزٌ، فَرَويتُ وشَبعتُ، فقالت أُمُّ أَيمَنَ: يا رسولَ اللهِ، أَليس هذا ضَيفَنا؟ فقال: «بَلى»، فقال رسولُ اللهِ: «**إنَّهُ أَكَلَ في مِعى مُؤمِنٍ اللَّيلَةَ، وأَكَلَ قَبلَ ذلك في مِعى كافِرٍ، والكافِرُ يَأكُلُ في سَبعَةِ أَمعاءٍ، والمؤمِنُ يَأكُلُ في مِعًى واحدٍ**»[1].

قَولُهُ: «وإنَّ خَيلَكَ أَخَذَتني وأَنا أُريدُ العُمرَةَ، فَماذا تَرى؟ فَبَشَّرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ، وأَمَرَهُ أَن يَعتَمِرَ»:

وعندَ البيهَقيِّ: «فَبَشِّرني -صَلَّى الله عليكَ- في عُمرَتي، فَبَشَّرَهُ، وعَلَّمَهُ، فَخرجَ مُعتَمِرًا».

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَعني: بَشَّرَهُ بما حَصَلَ له منَ الخَيرِ العَظيمِ بالإسلامِ، وأَنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما كان قَبله، وأَمَّا أَمرُهُ بالعُمرَةِ فاستِحبابٌ؛ لِأَنَّ العُمرَةَ مُستَحَبَّةٌ في كُلِّ وقتٍ، لا سيَّما من هذا الشَّريفِ المطاعِ، إذا أَسلَمَ وجاءَ مُراغِمًا لِأَهلِ مكةَ، فَطافَ وسَعى وأَظهَرَ إسلامَهُ، وأَغاظَهُم بذلك»[2].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: بَشَّرَهُ بخَيرَيِ الدُّنيا والآخِرَةِ، أو بَشَّرَهُ بالجنةِ، أو بمَحوِ ذُنوبِهِ وتَبعاتِهِ السَّابقَةِ»[3].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مسنده (٦٠٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٩٩٨)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥/ ٢٥٦)، والحربي في إكرام الضيف (ص٤١)، وقال الحافظ في الإصابة (١/ ٦٢٢): «غريب، تفرد به موسى بن عبيدة». وهو ضعيف جدا، ينظر: التهذيب (١٠/ ٣٥٦-٣٦٠).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٨٩).

(٣) فتح الباري (٨/ ٨٨).

وقال ابنُ هِشامٍ: «بلغَني أَنَّهُ خرجَ مُعتَمِرًا، حتى إذا كان ببَطنِ مكةَ لَبَّى، فكان أَوَّلَ مَن دَخَلَ مكةَ يُلَبِّي، فَأَخَذَتهُ قريشٌ، فقالوا: لَقدِ اجتَرَأتَ علَينا، فَلَمَّا قدَّموهُ ليَضرِبوا عُنُقَهُ، قال قائِلٌ منهم: دَعوهُ؛ فَإِنَّكُم تَحتاجونَ إلى اليَمامَةِ لِطَعامِكُم، فَخَلَّوهُ، فقال الحَنَفيُّ في ذلك:

ومِنَّا الذي لَبَّى بمكةَ مُعلِنًا ... برَغمِ أَبي سُفيانَ في الأَشهُرِ الحُرُمِ[1]

قَولُهُ: «فَلَمَّا قدِمَ مكةَ قال له قائِلٌ: صَبَوتَ؟ قال: لا»:

قال ابنُ الأثيرِ: «يُقالُ: صَبَأَ فُلانٌ، إذا خرج من دينٍ إلى دينٍ غيرِهِ، من قَولِهِم: صَبَأَ نابُ البَعيرِ، إذا طَلَعَ، وصَبَأَتِ النّجومُ، إذا خرجَت من مَطالِعها.

وكانتِ العرَبُ تُسمِّي النبيَّ ﷺ «الصابئ»؛ لِأَنَّهُ خرجَ من دينِ قريش[2] إلى دينِ الإسلامِ، ويُسمُّون مَن يَدخُل في الإسلامِ «مَصبوًّا»؛ لِأَنَّهُم كانوا لا يَهمِزون، فأبدَلوا منَ الهَمزَةِ واوًا.

ويُسمُّون المسلمينَ «الصباةَ» بغيرِ هَمزٍ، كَأَنَّهُ جَمعُ «الصابي» غيرَ مَهموزٍ، كقاضٍ وقُضاةٍ، وغازٍ وغُزاةٍ»[3].

فكَأَنَّهُ قال: لا، ما خرجتُ منَ الدِّينِ؛ لِأَنَّ عِبادَةَ الأوثانِ ليست دينًا، فإذا تَرَكتُها لا أَكونُ خرجتُ من دينٍ، بَلِ استَحدَثتُ دينَ الإسلامِ[4].

قَولُهُ: «ولكن أَسلَمتُ مَعَ محمدٍ رسولِ اللهِ ﷺ»:

أَي: وافَقتُهُ على دينِ الحقِّ، فَصِرنا مُتَصاحِبينِ في الإسلامِ[5].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٣٩).

(٢) يعني: ترك دينهم، منابذا له، وإلا فهو ﷺ لم يدخل في دين قريش أصلا، حتى يخرج منه.
قال نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

(٣) النهاية (٣/ ٣).

(٤) فتح الباري (٨/ ٨٨).

(٥) عمدة القاري (١٨/ ٢٣).

ووَقَعَ في رواية ابن هِشامٍ: «فقال: لا، ولكنِّي اتَّبعتُ خَيرَ الدِّينِ، دينَ محمدٍ».

قَولُهُ: «ولا واللهِ، لا يَأتيكُم منَ اليَمامَةِ حَبَّةُ حِنطَةٍ، حتى يَأذَنَ فيها النبيُّ ﷺ»:

قال الحافظُ: «فيه حَذفٌ تَقديرُهُ: واللهِ لا أَرجِعُ إلى دينِكُم، ولا أَرفقُ بكُم، فَأَترُكُ الميرَةَ تَأتيكُم منَ اليَمامَةِ، حتى يَأذَنَ فيها النبيُّ ﷺ»[1].

وعِندَ البَيهَقيِّ: «فَخرجَ مُعتَمِرًا، فَلَمَّا قدِمَ مكةَ وسَمِعَتهُ قريشٌ يَتكَلَّمُ بأَمرِ محمدٍ منَ الإسلامِ، قالوا: صَبَأَ ثُمامَةُ، فَأَغضَبوهُ، فقال: إنِّي واللهِ ما صَبَوتُ، ولكنِّي أَسلَمتُ، وصَدَّقتُ محمدًا، وآمَنتُ بِهِ، وايمُ الذي نَفسُ ثُمامَةَ بيَدِهِ لا يَأتيكُم حَبَّةٌ منَ اليَمامَةِ -وكانت ريفَ مكةَ- ما بَقيتُ، حتى يَأذَنَ فيها محمدٌ ﷺ.

وانصَرَفَ إلى بَلَدِهِ، ومَنَعَ الحَملَ إلى مكةَ حتى جَهدَت قريشٌ، فَكَتَبوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ يَسأَلونَهُ بأَرحامِهِم أَن يَكتُبَ إلى ثُمامَةَ يُخَلِّي إليهم حَملَ الطعامِ، فَفَعَلَ رسولُ اللهِ ﷺ»[2].

وعندَ أحمَدَ: «قال ثُمامَة: لا يَأتي قريشًا حَبَّةٌ منَ اليَمامَةِ، حتى قال عمرُ: لَقد كان -واللهِ- في عَيني أَصغَرَ منَ الخِنزيرِ، وإنَّهُ في عَيني أَعظَمُ منَ الجَبَلِ.

فَأَتى اليَمامَةَ، وحَبَسَ عنهم، فَضَجُّوا وضَجِروا، فَكَتَبوا: تَأمُرُ بالصلَةِ؟! قال: وكَتَبَ إليه»[3].

ولسَعيدِ بن منصورٍ من مُرسَلِ عطاءِ بن أبي رَباحٍ: «قال: يا رسولَ اللهِ، لا تُحمَلُ إلى قريشٍ حَبَّةٌ ولا تَمرَةٌ حتى يَأذَنَ اللهُ ورسولُهُ، فَكَتَبَت قريشٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ تَسأَلُهُ بأَرحامِها، وتَقولُ: إنَّكَ تَأمُرُ بصِلَةِ الرَّحِمِ، وقد هَلَكنا وهَلَكَ عيالاتُنا، فَكَتَبَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى ثُمامَةَ: «**أَن تَدَعَ لِحَرَمِ اللهِ وأَمنِهِ مادَّتَهُم، وأَن لا تَحميَ عليهم**»، فَحَمَلَ إليهم»[4].

---

(١) فتح الباري (٨/ ٨٨).

(٢) سنن البيهقي (١٨٠٣١)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٤٢).

(٣) المسند (٧٣٦١)، وقال محققو المسند: «إسناده قوي».

(٤) سنن سعيد بن منصور (٢٦١٣).

بعضُ الفوائدِ المستفادةِ من حديثِ ثُمامَةَ:

* لَم يكُنِ المسجِدُ النبَويُّ مكانًا للصَّلاةِ وتِلاوةِ القُرآنِ فقَط، ولكن كانت هناكَ عِدَّةُ وظائفَ أُخرى للمسجِدِ، منها: أنه كانت تخرُجُ منه الجُيوشُ والبُعوثُ، وتُجلَبُ إليهِ الغنائِمُ، وتُقَسَّمُ فيه، وتُجمَع فيه زكاةُ الفِطر والتبَرُّعاتُ والصدقاتُ، وتُقَسَّم على الفُقراءِ والمساكينِ.

كما كان محلًّا للتوفيقِ بينَ المسلمينَ، والإصلاحِ بينَ المختَلِفينَ.

كما كان دارًا للفتوى، ومحلًّا للشُّورى، ومجلِسًا للقَضاءِ، ومكانًا لاستضافَةِ الغُرَباءِ، ومَوئِلًا لأَهلِ الصفَّة والفُقَراء.

* كان ربطُ ثُمامةَ إلى ساريَةٍ من سواري المسجِدِ لحكمَةٍ؛ حيثُ يرى كلّ يومٍ كيفيَّة حياةِ المسلمينَ في المسجِدِ، وكيفَ يأتون إلى الصلاةِ مبكِّرينَ، فيجلِسون يذكُرون اللهَ ويدعونَه، ويُرفَعُ الأذانُ، فيَطرُقَ مسامِعَ ثُمامَةَ خمسَ مراتٍ في اليومِ، ويسمَعُ المسلمينَ وهم يُردِّدون خلفَ المؤَذِّن كلماتِ الأذانِ، وتُقامُ الصلاةُ، فيَرى صلاةَ المسلمينَ، ويسمعُ قراءَةَ النبيِّ ﷺ، وهذا الأمرُ وحدَه له الأثَرُ العميقُ في النفسِ، كما حدَث لجُبَيرِ بن مُطعِمٍ، لما وفَدَ على النبيِّ ﷺ في أُسارى بدرٍ، قال: «سَمِعتُ النبيَّ ﷺ يَقرَأُ في المَغرِب بالطُّورِ، فلَمَّا بلغَ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، كادَ قَلبي أَن يَطيرَ»[1].

ثمَّ أسلَمَ رضي الله عنه بعدَ ذلك.

قال الخَطَّابيُّ: «كَأَنَّهُ انزَعَجَ عِندَ سَماعِ هذه الآيةِ؛ لِفَهمِهِ مَعناها، ومَعرِفَتِهِ بما تَضَمَّنَتهُ، فَفَهِمَ الحُجَّةَ، فاستَدرَكَها بلَطيفِ طَبعِهِ»[2].

فإذا انضَمَّ إلى ذلك سماعُه القرآنَ منه ﷺ، اقتَضى هذا السّماعُ المخصوصُ من الهدايةِ والتعريفِ والعلمِ ما يُؤَهِّل صاحبَه للإسلامِ والإذعانِ لدعوةِ الحقِّ.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٥٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٠٣).

* كانت مُحاورَةُ النبيِّ ﷺ ثمامَةَ مُحاورةً حكيمةً، جعَلَه فيها بين الترغيب والترهيب، ثم لما ربَطَه في المسجدِ، وأشهَده أحوالَ المسلمينَ فيه، عزَّز ذلك في نفسِه جانبَ الترغيب، وانضافَ إلى ذلك إمهالُه وعدمُ المبادرَةِ إلى قتلِه، فتعَرَّفَ على سماحةِ الإسلامِ، وأحوالِ المسلمينَ الإيمانيَّة، بمشاهدَتِهم وهُم يُصَلُّون، وهُم يذكُرون اللهَ، ويتلون كتابَه.

* **وفيه**: أنّ الإيمانَ إذا دخَلَ القلبَ انفسَحَ وانشرَح، وانقلَبَ بُغضُه وبُغضُ أهلِه إلى مَحَبَّةٍ تامَّةٍ، وانقلبَت عداوَتُه وعداوةُ أهلِه إلى موالاةٍ تامَّةٍ، وهذا في لَحظَةٍ.

* وهذا يدُلّك على أهمِّيَّة تهيئَةِ البيئةِ الصالحةِ المناسبةِ للمَدعو، وتعَرُّضِه لتأثيراتٍ صائبةٍ حكيمةٍ، وترغيبه وتحسينِ الحالِ إليه؛ حتى يطمعَ في المصاحَبَةِ، ويَرغَبَ في المَعيَّةِ.

* مُحاربةُ الإشاعاتِ المغرِضَةِ، والتي من شأنِها أن تنَفِّرَ الناسَ عنِ الإسلامِ وعنِ الدعوةِ، وفي هذه الأيامِ الثلاثةِ رأى ثُمامةُ المجتمَعَ الإسلاميَّ عن كَثَبٍ، وتعرَّفَ على دعوةِ الإسلامِ الصحيحةِ، وتعرَّف على طبيعةِ المسلمينَ، ومدى ما هُم عليه من الأُخوّة والترابطِ والمحبَّةِ، وأنَّ مَن دخَلَ دينَهم سَعِدَ بهم، وقَرَّت عَينُه بصُحبَتِهم، وأنَّهم أهلُ صلاحٍ وتقوى، وأمنٍ وإيمانٍ، وسلامةٍ وإسلامٍ، وليس كما يُشيعُه الكُفَّارُ والمنافِقون واليهودُ عنهم.

لقد شاهَدَ ثُمامةُ بنَفسِه الصورةَ الحقيقيَّة للإسلامِ والمسلمينَ، فدعاه ذلك إلى الدُّخولِ في دينِ اللهِ، فدخَلَه طواعيةً، وانقلَبَت نفرَتُه منه وبُغضُه لِأهلِه حُبًّا جَمًّا، ووَلاءً تامًّا.

فمن المهمّ في الدعوَةِ: التصحيحُ والتنقيحُ، وإبرازُ المحاسنِ، والترغيبُ بالقدوةِ والمثالِ الصالحِ.

* وكان في كرَمِ النبيِّ ﷺ مع ثُمامَةَ، وإنعامِه عليه بالعفوِ عنه، أعظمُ الأثَرِ في نفسِه، فأحَبَّه الحُبَّ كُلّه، بعد أن أبغَضَه كُلَّ البُغضِ، وفي هذا بيانُ أثرِ المعامَلةِ الطيِّبةِ في نفسِ المَدعو، وأنّ الخُلُقَ الحَسَنَ تَطيبُ به النُّفوسُ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فتنقَلِب بالإحسانِ العداوةُ موالاةً، والبغضُ محَبَّةً، والغِلُّ والحِقدُ شفَقَةً ورحمَةً، والنّفرَةُ صُحبَةً، والبُعدُ قُربًا.

قال الحافظُ: «الإحسانَ يُزيلُ البُغضَ، ويُثبِّتُ الحُبَّ»[1].

* **وفيه**: الملاطَفَةُ بمَن يُرجى إسلامُهُ منَ الأُسارى، إذا كان في ذلك مَصلَحَةٌ للإسلامِ، ولا سيَّما مَن يَتبَعُهُ على إسلامِهِ العَدَدُ الكَثيرُ من قَومِهِ.

* **وفيه**: أنَّ القلوبَ بيَدِ اللهِ، يُقَلِّبُها كيفَ شاءَ، وأنَّه تعالى يهدي مَن يشاءُ، ويُضِلّ مَن يشاءُ، وهو العَزيزُ الحَكيمُ، فبينَما كان رسولُ الله ﷺ بالأمسِ أبغضَ الناسِ إلى ثُمامَةَ صارَ اليومَ أحبَّ الناسِ إليه، وبينَما كان دينُه بالأمسِ أبغضَ الدِّينِ إليه صارَ اليومَ دينُه أحبَّ الدينِ إليه.

* الهِدايةُ إلى صراطِ اللهِ تُحدِثُ انقلابًا في المَشاعِرِ، وتحَوُّلًا في المعامَلاتِ القَلبيّة، وليست هي مجرَّدَ نُطقٍ باللّسانِ، أو عَمَلٍ بالجَوارِحِ، ولكنَّها بالكُلّ أجمَع، فينطِق اللسانُ أحسنَ النُّطق، ويَطهُر القلبُ ويزكو، وتسعى الجوارحُ في الطاعةِ، وفي الحديثِ القُدسيِّ المشهورِ: «**وما يَزالُ عبدي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنوافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحبَبتُهُ كُنتُ سَمعَهُ الذي يَسمَعُ بهِ، وبَصَرَهُ الذي يُبصِرُ بهِ، ويَدَهُ التي يَبطِشُ بها، ورِجله التي يَمشي بها**»[2].

* الإيمانُ قولٌ وعمَلٌ بالفطرةِ؛ فما إن تشَهَّدَ ثُمامَةُ رضي الله عنه شهادةَ الحقِّ حتى سألَ عن الحُكمِ الشرعيّ في عُمرَتِه.

والمسلمُ مفطورٌ على السؤالِ عَمَّا لا يعلَمُ من أمرِ دينِه، ولا يمنَعُه من ذلك كِبَرُ سِنٍّ، أو وجاهةٌ، أو مُلكٌ، أو غيرُ ذلك.

* تَعظيمُ أَمرِ العَفوِ عَنِ المسيءِ؛ لِأَنَّ ثُمامَةَ أَقسَمَ أَنَّ بُغضَهُ انقَلَبَ حُبًّا في ساعَةٍ واحدَةٍ؛ لِما أنعمَ بهِ النبيُّ ﷺ عليه منَ العَفوِ والمَنِّ بغيرِ مُقابلٍ.

---

(١) الفتح (٨/ ٨٨).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

* مشروعيةُ الاغتِسالِ عِندَ الإسلامِ، وقد تقدَّمَ ذِكرُ خِلافِ العُلماءِ في حُكمِه، هل هو واجِبٌ، أو مُستَحَبٌّ؟

* **وفيه:** جوازُ دُخولِ الكافرِ المسجِدَ، **قال الشَّيخُ ابنُ بازٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا حرَجَ في دُخولِ الكافرِ المسجدَ إذا كان لغرضٍ شرعيٍّ وأمرٍ مُباحٍ؛ كأَن يسمَعَ الموعِظَةَ، أو يشربَ من الماءِ، أو نَحو ذلك؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنزَلَ بعضَ الوُفودِ الكافرةِ في مسجدِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليُشاهِدوا المصَلِّين، ويسمَعوا قراءَتَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخُطبَه، وليَدعوَهم إلى اللهِ من قريبٍ، ولأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَط ثُمامَة بن أُثالٍ الحَنَفيَّ في المسجدِ، لَمَّا أُتيَ به إليه أسيرًا، فهداه اللهُ وأسلَمَ»[1].

وكذلك يجوزُ استئجارُ الكافِرِ لإصلاحِ بعضِ مُحتَوياتِ المسجِد.

ويجوزُ استِئجارُه لبنائِه، **قال ابنُ عُثَيمينَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَجوزُ أن يبنيَ الكافِرُ المَسجِدَ، إلا أنَّنا نرى أنَّه لا بُدَّ أن يكونَ عليه قَيِّمٌ يُراقِبُ تَنفيذَه البناءَ وأساساتِ البناءِ؛ حتى لا يخونَ»[2]. والمسلمُ أولى بكلِّ حالٍ.

أمَّا دُخولُ الوُفودِ السِّياحيَّةِ المَساجِدَ للفُرجةِ والتصويرِ: فلا يَجوزُ.

* **وفيه:** جوازُ رَبطُ الكافِرِ في المَسجِدِ.

* **وفيه:** المَنُّ على الأَسيرِ الكافِرِ بالعَفوِ عنهُ، وخاصَّةً إذا اقتضَتِ المَصلحةُ ذلك، أو كان العفوُ عنه سبيلًا لإسلامِه.

* **وفيه:** أَنَّ الكافِرَ إذا أَرادَ عَمَلَ خَيرٍ ثم أَسلَمَ، شُرِعَ له أَن يَستَمِرَّ في عَمَلِ ذلك الخَيرِ.

قال ابنُ حَزمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا كافِرٌ خرجَ يُريدُ العُمرَةَ فَأَسلَمَ، فَأَمَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإتمامِ نيَّتِهِ.

وروِّينا عن طاوُسٍ: «مَن نَذَرَ في كُفرِهِ ثم أَسلَمَ، فَليوف بنَذرِهِ».

وعن الحَسَنِ وقَتادَةَ نَحوهُ[3].

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٨/ ٣٥٦).

(٢) الشرح الممتع (١٠/ ٥٨).

(٣) المحلى (٦/ ٢٧٥).

وعن عمرَ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قال: يا رسولَ اللهِ، إنِّي نَذَرتُ في الجاهِلِيَّةِ أَن أَعتكِفَ لَيلَةً في المَسجِدِ الحَرامِ، فقال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أوفِ نَذرَكَ**»[١].

وإذا عمِلَ الكافرُ الخَيرَ ثم أسلَمَ أُثيبَ على ما فعَلَه من خيرٍ في حالِ كُفرِه؛ فعن حَكيم ابن حِزامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قال لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَي رسولَ اللهِ، أَرَأَيتَ أُمورًا كُنتُ أَتَحَنَّثُ بها[٢] في الجاهِلِيَّةِ، من صَدَقَةٍ، أو عَتاقَةٍ، أو صِلَةِ رَحِمٍ، أَفيها أَجرٌ؟ فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَسلَمتَ على ما أَسلَفتَ من خَيرٍ**»[٣].

قال النوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذَهَبَ ابنُ بَطَّالٍ وغيرُهُ منَ المحقِّقينَ إلى أَنَّ الحَديثَ على ظاهِرِه، وأَنَّهُ إذا أَسلَمَ الكافِرُ وماتَ على الإسلامِ، يُثابُ على ما فَعَله منَ الخَيرِ في حالِ الكُفرِ»[٤].

وعن أَبي سَعيدٍ الخُدريِّ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أَسلَمَ العبدُ فَحَسُنَ إسلامُهُ، كَتَبَ اللهُ له كُلَّ حَسنةٍ كان أَزلَفَها**[٥]**، ومُحيَت عنه كُلُّ سَيِّئَةٍ كان أَزلَفَها**»[٦].

* **وفيه**: بَعثُ السَّرايا إلى بلادِ الكُفَّارِ، وأَسرُ مَن وُجِدَ منهم، والتخييرُ بعدَ ذلك في قَتلِهِ، أوِ الإبقاءِ عليه.

* **وفيه**: بيانُ أثرِ العامِلِ الاقتِصاديِّ في الحرب ضِدَّ الكُفَّارِ، حتى وصَل الأمرُ بقرَيشٍ في قِصَّةِ ثُمامَةَ إلى أن كتَبوا إلى رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسأَلونَهُ بأَرحامِهِم أَن يَكتُبَ إلى ثُمامَةَ يُخَلِّي إليهم حَملَ الطعامِ، فَفَعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولما أسلَمَ أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خرَجَ على قُريشٍ وهُم بالمَسجِدِ، فَنادى بأَعلى صَوتِهِ: «أَشهَدُ أَن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأَنَّ محمدًا رسولُ اللهِ»، فَثارَ القَومُ، فَضَرَبوهُ حتى أَضجَعوهُ، فَأَتى

---

(١) رواه البخاري (٢٠٤٢)، ومسلم (١٦٥٦).

(٢) التحنث: التعبد.

(٣) رواه البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣).

(٤) شرح النووي على مسلم (٢/ ١٤١).

(٥) أي: أسلفها وقدمها.

(٦) رواه البخاري (٤١)، والنسائي (٤٩٩٨)، واللفظ له.

العباسُ فَأَكَبَّ عليه، فقال: «ويلَكُم! أَلَستُم تَعلَمونَ أَنَّهُ من غِفارٍ، وأَنَّ طَريقَ تُجَّارِكُم إلى الشَّامِ عليهم؟»، فَأَنقَذَهُ منهم[1].

* **وفي الحديثِ:** بيانُ عِزَّةِ ثُمامَةَ بن أُثالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشجاعتِه، فلما قالوا له: صَبَوتَ، قال: «لا، ولكن أَسلَمتُ مَعَ محمدٍ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وفي هذا إشارةٌ إلى أهميَّة تصحيحِ المفاهيمِ لدى المخالِفِ، وألَّا ننساقَ وراءَه في مَفاهيمِه المغلوطَةِ، ولكن نبيِّنُ له جَليَّةَ الأمرِ وحقيقَتَه.

وقد تقدَّم أنَّه أرادَ أن يقولَ لهُم: لا، ما خرجتُ منَ الدِّينِ؛ لِأَنَّ عِبادَةَ الأوثانِ ليست دينًا، فإذا تَرَكتُها لا أَكونُ خرجتُ من دينٍ، بَلِ استَحدَثتُ دينَ الإسلامِ.

وفي ذلك تمامُ العِزَّةِ، والاعتزازُ بالدِّينِ، وكمالُ الشَّجاعَةِ، والهِمَّةُ العاليةُ، واحتقارُ دينِ الكُفَّار، وتبكيتُهم وتَوبيخُهم على ما هُم عليه من الباطلِ.

ولم يكتَفِ بذلك، بل توَعَّدَهم بهذا الوعيدِ، وهو يَعلَم أنَّه قادرٌ على إنفاذِه، ليُظهِر شجاعةً أُخرى، فقال لهُم في عِزَّةِ المسلم: «وايمُ الذي نَفسُ ثُمامَةَ بيَدِهِ، لا يَأتيكُم حَبَّةٌ منَ اليَمامَةِ -وكانت ريفَ مكةَ- ما بَقيتُ، حتى يَأذَنَ فيها محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وانصَرَفَ إلى بَلَدِهِ، ومَنَعَ الحَملَ إلى مكةَ حتى جَهدَت قريشٌ، فَكَتَبوا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسأَلونَهُ بأَرحامِهِم أَن يَكتُبَ إلى ثُمامَةَ يُخَلِّي إليهم حَملَ الطعامِ، فَفَعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأينَ هذا من فِعلِ الضُّعفاءِ والجاهِلينَ منَ المداهِنينَ والمَخذولينَ، ممَّن لا يَصدعُ بالحقّ، بَل رُبَّما استَخفى حياءً أو خوفًا من أن يواجَهَ بما يكرهُ، من الوصفِ بالرَّجعيَّة والتخَلُّفِ؟!

بلِ العِزَّةُ جميعًا في التمَسُّكِ بالدِّين، وإظهارِه وإعلانِه، والاعتزازِ به، والدفاعِ عن ثوابتِه وأُصولِه، وحمايةِ مرابطِه، وحراسةِ ثُغورِه، والرغبَةِ عن كُلِّ ما يُخالِفُه من قَولٍ أو فِعلٍ.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤).

إن هذه العزَّةَ إنَّما نشَأَت في قلب ثُمامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ساعَةٍ، خالَطَت فيها قلبَهُ بَشاشَةُ الإيمانِ.

* جهادُ النفسِ والهوى سبيلُ الهُدى، وأصلُ جهادِ العَدوّ الخارجيّ، وفي المسنَد من حديثِ فَضالَةَ بن عُبَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَجَّةِ الوَداعِ: «**المجاهِدُ مَن جاهَدَ نَفسَهُ في طاعَةِ اللهِ، والمهاجِرُ مَن هَجَرَ الخَطايا والذُّنوبَ**»(١).

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا كان جِهادُ أَعداءِ اللهِ في الخارِجِ فَرعًا على جِهادِ العبدِ نَفسَهُ في ذاتِ اللهِ، كان جِهادُ النفسِ مُقدَّمًا على جِهادِ العَدوِّ في الخارِجِ، وأَصلًا له؛ فَإِنَّهُ ما لَم يُجاهِد نَفسَهُ أَوَّلًا لِتَفعَلَ ما أُمِرَت بِهِ وتَترُكَ ما نُهِيَت عنه ويُحارِبها في اللهِ لَم يُمكِنهُ جِهادُ عَدوِّهِ في الخارِجِ. فَكَيفَ يُمكِنُهُ جِهادُ عَدوِّهِ والإنتِصافُ منه، وعَدوُّهُ الذي بينَ جَنبَيهِ قاهِرٌ له مُتَسَلِّطٌ عليه، لَم يُجاهِدهُ ولَم يُحارِبهُ في اللهِ؟ بَل لا يُمكِنُهُ الخُروجُ إلى عَدوِّهِ حتى يُجاهِدَ نَفسَهُ على الخُروجِ.

فهذانِ عَدوَّانِ قدِ امتُحِنَ العبدُ بجِهادِهِما، وبينهما عَدوٌّ ثالِثٌ لا يُمكِنُهُ جِهادُهُما إلا بجِهادِهِ، وهو واقِفٌ بينهما يُثَبِّطُ العبدَ عن جِهادِهِما، ويُخَذِّلُهُ ويَرجُفُ بِهِ، ولا يَزالُ يُخَيِّلُ له ما في جِهادِهِما منَ المَشاقِّ وتَركِ الحُظوظِ وفَوتِ اللَّذَّاتِ والمشتَهَياتِ، ولا يُمكِنُهُ أَن يُجاهِدَ ذَينِكَ العَدوَّينِ إلا بجِهادِهِ، فَكان جِهادُهُ هو الأَصلَ لِجِهادِهِما، وهو الشَّيطانُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، والأَمرُ باتِّخاذِهِ عَدوًّا تَنبيهٌ على استِفراغِ الوُسعِ في مُحارَبَتِهِ، ومُجاهَدَتِهِ، كَأَنَّهُ عَدوٌّ لا يَفتُرُ ولا يُقَصِّرُ عن مُحارَبَةِ العبدِ على عَدَدِ الأَنفاسِ»(٢).

وإذا كان في الناسِ مَن لا يُصَلِّي، ومَن يُجاهِر بالفِسقِ والعصيانِ، ومَن يظلِمُ، ومَن يقتُل، ومَن يَستَهزِئُ بالدِّين، ومَن يَرُدُّ النُّصوصَ الشرعيَّةَ، ومَن يُحَرِّفُها عن مَعانيها، ومَن يُعادي السُّنَّةَ، وينصُرُ البدعَةَ، ومَن يُرَوِّجُ للمُنكَرِ ويدعو إليه ويَنشُرُه، فكيفَ ننتَصرُ على العدوِّ الخارجيِّ؟ وكيفَ ننشُر دينَ اللهِ في الناسِ، وندعوهم إليه؟

---

(١) المسند (٢٣٩٥٨)، وصححه محققو المسند.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥).

ومعَ ذلك كُلِّه: فإنَّ في الأُمَّةِ -بحَمدِ اللهِ- مَن يقومُ بمَهامِّ الدِّينِ، ووظائفِ الدَّعوةِ، فيدعو، وينصَحُ، ويأمُرُ بالمعروفِ، وينهى عن المنكَرِ، ويُعَلِّمُ الناسَ، ولكنَّنا نحتاجُ إلى المَزيدِ من أولَئِك الصفوةِ، الذين يعمَلون لأَجلِ الدِّينِ، ويُجاهِدون في سبيلِ إعلاءِ كلِمَتِه بأموالِهم وأيديهم وألسِنَتِهم.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١][1].

* دَحضُ فِكرَةِ التقريب بينَ الأديانِ: لقد لاقَت هذه الدعوةُ في الآونَة الأخيرةِ رَواجًا، حيثُ عُقِدت مؤتمراتٌ ونَدواتٌ لمُناقَشةِ كيفيَّةِ التوَصُّل إلى دينٍ عالميٍّ جديدٍ، يجعَلُ كلَّ الناسِ -بزَعمِهم- يعيشون في وِئامٍ وسلامٍ، خاصةً في البَلَدِ الواحدِ، دونَ اعتبارٍ لدينِهم وتُراثِهم وثقافَتِهم، فـ «الدِّينُ للهِ، والوطَنُ للجميعِ، وما للهِ للهِ، وما لِقَيصَرَ لقَيصَرَ»!

وهذا الدِّينُ العالميُّ الجديدُ يوالي فيه المسلِمُ النصرانيَّ واليهوديَّ والمَجوسيَّ والوَثَنيَّ؛ إذ جميعُهم من آدمَ وحوَّاءَ عليهما السَّلامُ، ولا معنى للشِّقاقِ والنِّزاعِ، فضلًا عنِ الحُروب والقِتالِ.

ولا شَكَّ أنَّ هذا دينٌ مُخترَعٌ، صنَعَتهُ ضَلالاتُ المبطِلين الغاوين.

نعَم، يدعو الإسلامُ إلى توحيدِ الكَلِمةِ، وإلى المَحبَّة والمَوَدَّةِ والأُخوَّة والترابُطِ، وينهى عن الخلافِ والشِّقاقِ، فضلًا عن القتالِ، ولكِن في ظِلِّ كلمةٍ سواءٍ، لا معنى للتنازُعِ حولها، وهي كلمةُ التوحيدِ، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

أمَّا أن يجتَمِعَ أصحابُ المِلَلِ الشَّتَّى، الذين يختَلِفون في أصولِ الدِّياناتِ، ويرى كلٌّ منهم أنَّ غيرَه ضالٌّ، على منهَجٍ مُنحرِفٍ، وفكرٍ غيرِ رشيدٍ، وعبادةٍ مضروبٌ بها وجهُه: فأنَّى لمثلِ هؤلاءِ أن يجتمِعوا ويتَّحدوا ويتآخَوا؟

كيفَ للمسلمِ أن يُؤاخيَ النصرانيَّ الذي يُؤمِنُ برَبٍّ مَخلوقٍ، حَمَلَتهُ أُنثى، ثم وضَعَته

---

(١) أي: أمره تعالى نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب.

بعدَ أن ضرَبَها المَخاضُ! والنصرانيُّ -معَ ذلك- يُكَذِّبُ رسولَ المسلمِ، ولا يُؤمِنُ بكتابه؟!

أم كيفَ يُؤاخي المسلمُ اليَهوديَّ الذي يعتَقِد في إلهِه كُلَّ نَقيصَةٍ، ويرى المسلمَ خَبيثًا نَجِسًا يجبُ التخَلُّصُ منه؟!

لقد جاءَت آياتُ الكتاب المجيدِ بتَمامِ المفارَقَةِ، وصريحِ المفاصَلَةِ:

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

* **ومن فوائدِ هذه القِصَّةِ:** أنَّ الإسلامَ يُنشِئُ -تِلقائيًّا- في نفسِ المسلمِ مناقَضَةَ الشركِ ومحاربَتَه، ومُعاداةَ أهلِه؛ لتحقيقِ صِحَّةِ الانتساب للإسلامِ، وموالاةِ المسلمينَ.

فيصيرُ العبدُ -بعدَ أن كان مُشرِكًا باللهِ- حنيفًا مسلمًا، والحنيفُ مأخوذٌ من الحَنَفِ، وهو الاستقامةُ، وقيل هو المَيلُ، ومنه قيلَ للمائلِ الرِّجلِ: أَحنَف، فالحَنيفُ من الاستقامَةِ معناهُ: المستقيمُ، ومن الميلِ معناهُ: المائلُ عن مُعوَجِّ الأديانِ، إلى طريقِ الحقِّ[1].

---

(١) تفسير ابن عطية (١/ ٤٥١).

* وفيه: أنَّ لإمامِ المسلمينَ الخيارَ في قَتلِ الأسيرِ، أو المَنِّ عليه، أو المبادَلَةِ به، أو أخذِ الفِديَةِ، وذلك حَسَبَ المَصلَحَةِ.

بَعض أحكام المَسجِد وآدابه:

نَذكرُ في نِهايةِ شرحِ هذا الحَديثِ -باختصارٍ- بعضَ أحكامِ المسجِدِ وآدابه، فمن ذلك:

* تقديمُ الرِّجلِ اليُمنى عند الدُّخولِ.

* ويُسَلّم على النبيِّ ﷺ ويقولُ: «اللهُمَّ افتَح لي أَبوابَ رَحمَتِكَ، أَعوذُ باللهِ العَظيمِ، وبوَجهِهِ الكَريمِ، وسُلطانِهِ القديمِ، منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ».
وإذا خرجَ يُسَلِّمُ على النبيِّ ﷺ ويقولُ: «اللهُمَّ إنِّي أَسأَلُكَ من فَضلِكَ، اللهُمَّ اعصِمني منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ».

* صلاةُ ركعَتَي تحيَّةِ المسجِدِ.

* المحافَظَةُ على نظافةِ المسجِدِ.

* النهيُ عن حُضورِ المساجِدِ لَمَن أَكَلَ الثُّومَ أوِ البصَلَ ونحوَهُما.

* صيانةُ المساجِدِ عن المجانين، والصبيانِ غيرِ المَمَيِّزينَ.

* عدمُ البيعِ والشِّراءِ في المسجِدِ.

* عدمُ الإعلانِ عن المفقوداتِ في المسجِدِ.

* عدمُ اتِّخاذِ المسجدِ طريقًا.

* عدمُ إنشاد الأشعارِ السَّيِّئَة وغيرِ اللائقةِ في المسجِدِ.

* عدمُ رفعِ الصوتِ في المسجِدِ إلا لحاجَةٍ.

* عدمُ اتِّخاذِ المسجِدِ مكانًا للمَبيتِ والنومِ.
أما النومُ اليسيرُ، والنومُ المؤقَّتُ، كنَومِ المعتكِفِ: فلا بَأسَ.

* عدمُ زخرَفَةِ المساجِدِ، وكتابةِ الآياتِ على جُدرانِها.

* عدَمُ مُكثِ الحائضِ والنُّفَساء بالمسجِدِ.

أما المرورُ: فلا بأسَ به إذا دَعَت إليه الحاجَةُ، وأُمِنَ من تَنجيسِها المسجِدَ.

* والجُنبُ لا يمكُثُ في المسجِدِ إلا إذا تَوضّأَ، قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس للجُنُب أَن يَلبَثَ في المَسجِدِ، لكن إذا تَوَضَّأَ جازَ له اللُّبثُ فيه عِندَ أَحمَد وغيرِهِ، واستَدَلَّ بما ذكَرَهُ بإسنادِهِ عن هِشامِ بن سَعدٍ: «أَنَّ أَصحابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا يَتَوَضَّؤونَ وهُم جُنُبٌ، ثم يَجلِسونَ في المَسجِدِ، ويَتَحَدَّثونَ[1]»[2].

* عدَمُ استخدامِ مُقتَنَياتِ وأدواتِ المسجِدِ في المصالِحِ الشَّخصيَّةِ.



(١) روى سعيد بن منصور في سننه (٦٤٦) بسند جيد عن عطاء بن يسار، قال: «رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجلسون في المسجد وهم مجنبون، إذا توضؤوا وضوء الصلاة».

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/ ٣٤٤).

٨

الذي قدَّم الضيفَ على أطفالِهِ

الذي قدَّم الضيفَ على أطفالِهِ

عن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رجلًا أَتى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبَعَثَ إلى نِسائِهِ فقُلنَ: ما معنا إلا الماءُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن يَضُمُّ أو يُضيفُ هذا؟**»، فقال رجلٌ منَ الأَنصارِ: أَنا.

فانطَلَقَ بِهِ إلى امرَأَتِهِ، فقال: أَكرِمي ضَيفَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: ما عِندَنا إلا قوتُ صِبياني، فقال: هَيِّئي طَعامَكِ، وأَصبحي سِراجَكِ، ونَوِّمي صِبيانَكِ إذا أَرادوا عَشاءً.

فَهَيَّأَت طَعامَها، وأَصبَحَت سِراجَها، ونَوَّمَت صِبيانَها، ثم قامَت كَأَنَّها تُصلِحُ سِراجَها فأَطفَأَتهُ، فجَعَلا يُريانِهِ أَنَّهُما يَأكُلانِ، فباتا طاوِيَينِ، فلما أَصبَحَ غَدا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ضَحِكَ اللهُ اللَّيلَةَ -أو عَجِبَ- من فعالِكُما**»، فأَنزَلَ اللهُ: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩][1].

شرح الحديث:

قَولُهُ: «أَنَّ رجلًا أَتى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»:

وللبُخاريِّ: «أَتى رجلٌ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، أَصابَني الجَهدُ».

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣٧٩٨)، (٤٨٨٩)، وفي الأدب المفرد (٧٤٠)، ومسلم (٢٠٥٤)، والترمذي (٣٣٠٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥١٨)، وابن حبان (٧٢٦٤)، والحاكم (٧١٧٦)، وابن أبي شيبة (٣٤٧٠٥)، والبيهقي في السنن (٧٨٠٢)، وفي الشعب (٣٢٠٣)، وأبو يعلى في مسنده (٦١٦٨)، والحربي في إكرام الضيف (٧٨)، والطبراني في الأوسط (٣٢٧٢)، والثعلبي في تفسيره (٩/ ٢٧٩)، وابن الجوزي في البر والصلة (ص١٨٦).

وعِندَ مسلمٍ: «جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إنِّي مَجهودٌ».

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمْ أَقِف على اسمِهِ، وسَيَأتي أَنَّهُ أَنصاريٌّ»[١].

وقال **بَدرُ الدِّينِ العَينيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكَرَ الواحديُّ أَنَّه من أهلِ الصفَّةِ»[٢].

وقَولُهُ: «إنِّي مَجهودٌ»:

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: أَصابَني الجَهدُ، وهو المَشَقَّةُ، والحاجَةُ، وسوءُ العَيشِ، والجوعُ»[٣].

قَولُهُ: «فَبَعَثَ إلى نِسائِهِ فقُلْنَ: ما معنا إلا الماءُ»:

وعِندَ مسلمٍ: «فَأَرسَلَ إلى بَعضِ نِسائِهِ، فقالت: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما عِندي إلا ماءٌ، ثم أَرسَلَ إلى أُخرى، فقالت مِثلَ ذلك، حتى قُلنَ كُلُّهُنَّ مِثلَ ذلك: لا والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما عِندي إلا ماءٌ».

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا أَتاهُ هذا المَجهودُ أَرسَلَ إلى نِسائِهِ واحدَةً واحدَةً، فقالت كُلُّ واحدَةٍ: «والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما عِندي إلا ماءٌ»[٤].

وقال **ابنُ علَّان** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُها: «والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما عِندي إلا ماءٌ»: جُملَةٌ قَسَميَّةٌ لتَأكيدِ الأَمرِ، وأن ليس عندَها ما يَطعَمُه ذلك الضيفُ سِوى الماءِ»[٥].

وقال **الحافظُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه ما يُشعِرُ بأَنَّ ذلك كان في أَوَّلِ الحالِ، قَبلَ أَن يَفتَحَ اللهُ لهم خَيبَرَ وغيرَها»[٦].

---

(١) فتح الباري (٧/ ١١٩).
(٢) عمدة القاري (١٩/ ٢٢٨).
(٣) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١١).
(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١١).
(٥) دليل الفالحين (٤/ ٥٥٢).
(٦) فتح الباري (٧/ ١١٩).

وقال **أبو العباسِ القُرطُبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُ أزواجِ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس عِندَنا إلا ماءٌ»، يدُلّ على شِدَّةِ حالِهم، وضيقِ عَيشِهم، وكان هذا -واللهُ أعلَمُ- في أوَّل الأمرِ، وأمَّا بعدَ ذلك لما فُتِحَت خيبَرُ، فقد كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحبسُ لأهلِه قوتَ سنَتِهم.

ويحتَملُ أن يكونَ بعد ذلك، وأن أزواجَ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنَّ يتصدَّقن بما كان عندَهُنَّ، ويُؤثِرنَ غيرَهُنَّ بذلك، ويَبقينَ على ما يفتَحِ اللهُ تعالى، ولا يَطلُبنَ من النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لسُقوطِ ذلك عنه بالذي دُفِعَ لهنَّ»[1].

قَولُهُ: «فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن يَضُمُّ أو يُضيفُ هذا؟»».

قال الحافظُ: «أي: مَن يُؤوي هذا فيُضَيِّفُهُ، وكَأَنَّ «أو» للشَّكِّ»[2].

وللبُخاريِّ: «أَلا رجلٌ يُضَيِّفُهُ هذه اللَّيلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟»

وعِندَ مسلمٍ: «مَن يُضيفُ هذا اللَّيلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟»

وله أَيضًا: «أَلا رجلٌ يُضيفُ هذا رَحِمَهُ اللَّهُ؟»

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلمةُ: «ألا»، للتَّحضيضِ والحَثِّ على شيء يَفعَله الرجُلُ»[3].

وقال **القاضي عياضٌ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه: أَنَّه بَدَأَ أولًا بنفسِه، وهذا حُكمُ المواساةِ في الشَّدائدِ»[4].

قَولُهُ: «فقال رجلٌ منَ الأَنصارِ: أَنا، فانطَلَقَ بِهِ إلى امرَأَتِهِ»:

وعِندَ مسلمٍ: «فَقامَ رجلٌ منَ الأَنصارِ يُقالُ له: أَبو طَلحَةَ، فانطَلَقَ بِهِ إلى رَحلِهِ».

قال الحافظُ: «زعَمَ ابنُ التينِ أَنَّهُ ثابتُ بن قَيسِ بن شَمَّاسٍ، وقد أورَدَ ذلك ابنُ

---

(١) المفهم (١٧/ ٤٣).

(٢) فتح الباري (٧/ ١١٩).

(٣) عمدة القاري (١٩/ ٢٢٨).

(٤) إكمال المعلم (٦/ ٥٤٣).

بَشكوالَ من طَريقِ أَبي جَعفَرِ بن النحَّاسِ بسَنَد له عن أَبي المتَوَكِّلِ الناجي مُرسَلًا، ورواهُ إسماعيلُ القاضي في أَحكامِ القُرآنِ، ولكنَّ سياقَهُ يُشعِرُ بأَنَّها قِصَّةٌ أُخرى؛ لِأَنَّ لَفظَهُ: «أَنَّ رجلًا منَ الأَنصارِ عَبَرَ عليه ثَلاثَة أَيَّامٍ لا يجد ما يُفطِرُ عليه ويُصبحُ صائِمًا، حتى فطِنَ له رجلٌ منَ الأَنصارِ يُقالُ له: ثابتُ بن قَيسٍ»، فقَصَّ القِصَّةَ.

وهذا لا يَمنَعُ التعَدُّدَ في الصنيعِ مع الضَّيف، وفي نزول الآية، قال ابن بَشكوالَ: «وقيلَ هو عبدُ اللهِ بن رَواحَةَ»، ولَم يَذكُر لِذلك مُستَنَدًا.

ورَوى أَبو البَختَريِّ القاضي -أَحَدُ الضُّعَفاءِ المَتروكينَ- في كِتاب صِفَةِ النبيِّ ﷺ له: أَنَّهُ أَبو هريرة راوي الحَديثِ.

والصوابُ الذي يَتَعَيَّنُ الجَزمُ بهِ في حَديثِ أَبي هريرة: ما وقَعَ عِندَ مسلمٍ: «فَقامَ رجلٌ منَ الأَنصارِ يُقالُ له: أَبو طَلحَةَ»، وبذلك جَزَمَ الخَطيبُ، لكنَّهُ قال: «أَظُنُّهُ غيرَ أَبي طَلحَةَ زَيدِ بن سَهلٍ المَشهورِ».

وكَأَنَّهُ استَبعَدَ ذلك من وجهَينِ، أَحَدُهُما: أَنَّ أَبا طَلحَةَ زَيدَ بن سَهلٍ مَشهورٌ، لا يَحسُنُ أَن يُقال فيه: فقامَ رجلٌ يُقالُ له: أَبو طَلحَةَ.

والثَّاني: أَنَّ سياقَ القِصَّةِ يُشعِرُ بأَنَّهُ لَم يَكُن عِندَهُ ما يَتَعَشَّى بهِ هو وأَهلُهُ، حتى احتاجَ إلى إطفاءِ المِصباحِ، وأَبو طَلحَةَ زَيدُ بن سَهلٍ كان أَكثَرَ أَنصاريٍّ بالمَدينَةِ مالًا، فيَبعُدُ أَن يكونَ بتِلكَ الصفَةِ منَ التقَلُّلِ، ويُمكِنُ الجَوابُ عَنِ الِاستِبعادَينِ، واللهُ أَعلَمُ»[1].

قَولُهُ: «فانطَلَقَ بهِ إلى امرَأَتِهِ»:

أي: ذهَبَ به إلى البيتِ ليُطعِمَه.

قَولُهُ: «فقال: أَكرِمي ضَيفَ رسولِ اللهِ ﷺ، فقالت: ما عِندَنا إلا قوتُ صِبياني، فقال: هَيِّئي طَعامَكِ، وأَصبحي سِراجَكِ، ونَوِّمي صِبيانَكِ إذا أَرادوا عَشاءً»:

وفي روايَةٍ للبُخاريِّ: «فقال لِامرَأَتِهِ: ضَيفُ رسولِ اللهِ ﷺ لا تَدَّخِريهِ شَيئًا،

---

(١) الفتح (٧/ ١٢٠).

قالت: واللهِ ما عِندي إلا قوتُ الصبيَةِ، قال: فإذا أَرادَ الصبيَةُ العَشاءَ فنَوِّميهِم، وتَعالَي فأَطفِئي السِّراجَ، ونَطوي بُطونَنا اللَّيلَةَ».

وعندَ مسلمٍ، والتِّرمِذيِّ: «فقال لِامرَأَتِهِ: نَوِّمي الصبيَةَ، وأَطفِئي السِّراجَ، وقَرِّبي للضَّيفِ ما عِندَكِ».

ولابنِ حِبَّان: «فقال لِامرَأَتِهِ: ضَيفُ رسولِ اللهِ ﷺ، لا تَدَّخِري عنه شَيئًا».

وقَولُهُ: «**وأَصبحي سِراجَكِ**»:

«أَي أصلِحيها وأَضيئيها، والمِصباح: السِّراج»[1].

وقال ابن قُرقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: أوقديه، والمصباحُ هو السِّراجُ، سُمِّيَ بذلك لأنه يُطلَب به الضِّياءُ، وهو الصبحُ»[2].

وقال ابنُ فارسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصادُ والباءُ والحاءُ أَصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ، وهو لَونٌ منَ الأَلوانِ، قالوا: أَصلُهُ الحُمرَةُ، قالوا: وسُمِّيَ الصبحُ صُبحًا لِحُمرَتِهِ، كَما سُمِّيَ المِصباحُ مِصباحًا لِحُمرَتِهِ»[3].

وقولُهُ: «**لا تَدَّخِريهِ شَيئًا**»، أي: لا تُمسِكي عنه شيئًا[4].

وهذا من تَمامِ كرمِه، وحُسنِ ضيافَتِه.

وقَولُهُ: «**ونَوِّمي صِبيانَكِ**»:

وعِندَ مسلمٍ: «فَعَلِّليهِم بشيءٍ».

وللثعلَبي: «قومي فعَلِّليهِم عن قوتِهِم؛ حتى يَناموا ولا يَطعَموا شَيئًا».

---

(١) النهاية (٣/ ٧).

(٢) مطالع الأنوار (٤/ ٢٥٧).

(٣) مقاييس اللغة (٣/ ٣٢٨).

(٤) التوضيح (٢٣/ ٣٧٧).

«عَلِّليهِم»، أَي: سَكِّنيهِم، من عَلَّله بشيءٍ، أَي: أَلهاهُ[١].

قال العَينيُّ: «ونَوِّمي صِبيانَكِ»؛ حتى لا يَأكُلوا شَيئا، وهذا يُحمَلُ على أَنّ الصبيانَ لم يكونوا مُحتاجينَ إلى الأكلِ، وإنَّما تَطلُبُه أنفسُهم على عادَة الصبيانِ من غيرِ جوعٍ مُضِرٍّ، فإنَّهُم لَو كانوا على حاجَةٍ بحَيثُ يضُرُّهم تركُ الأكل لَكان إطعامُهم واجِبًا يجِبُ تَقديمُه على الضِّيافَة، وقال الكرمانيُّ: «لَعَلَّ ذلك كان فاضِلًا عَن ضرورَتِهم».

قلتُ: فيه نظرٌ؛ لِأَنَّها صرَّحَت بقولِها: «والله ما عِندي إلا قوتُ الصبيَةِ»، والأَحسَنُ أَن يُقال: إنَّها كانت عَلِمَت صبرَهُم عَن عَشائِهم تِلكَ اللَّيلَة؛ لِأَن الإنسان قد يصبرُ عَن الأكلِ ساعَةً لا يتَضَرَّرُ بِهِ»[٢].

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أَثنى اللهُ ورسولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا الرجُلِ وامرَأَتِهِ، فدَلَّ على أَنَّهُما لَم يَترُكا واجِبًا، بَل أَحسَنا وأَجمَلا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا»[٣].

وقال الحافظُ: «يَحتَمِلُ أَن يكونَ هو وامرَأَتُهُ تَعَشَّيا، وكان صِبيانُهُم -حينَئِذٍ- في شُغلِهِم، أو نيامًا، فأَخَّروا لهم ما يَكفيهم.

أو نَسَبوا العَشاءَ إلى الصبيَةِ؛ لِأَنَّهُم إليه أَشَدُّ طَلَبًا، وهذا هو المعتَمَدُ؛ لِقَولِهِ في روايةِ أَبي أُسامَةَ: «ونَطوي بُطونَنا اللَّيلَةَ»، وفي آخِرِ هذه الرِّوايَةِ أَيضًا: «فَأَصبَحا طاوِيَينِ»، وقد وقَعَ في روايةِ وكيعٍ عِندَ مسلمٍ: «فلم يَكُن عِندَهُ إلا قوتُهُ وقوتُ صِبيانِهِ»[٤].

وقال ابنُ المُلَقِّنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه جوازُ نُفوذِ فِعلِ الأب على الابنِ، وإن كان مَطويًّا على ضررٍ، إذا كان ذلك من طريق التصَبُّرِ، وأنَّ القولَ فيه قولُ الأب، والفِعلَ فِعلُه؛ لأنّهم نَوَّموا الصبيانَ جياعًا؛ إيثارًا لقضاءِ حقِّ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تنفيذِ دَعوَتِه، والقيامِ بحقِّ ضَيفِه»[٥].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٩/ ٤٠٢٩).

(٢) عمدة القاري (١٩/ ٢٢٨).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٢).

(٤) فتح الباري (٧/ ١٢٠).

(٥) التوضيح (٢٠/ ٣٩٧).

وقال **الكورانيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قلتَ: نفقةُ الأولادِ واجبةٌ، والضيافةُ مندوبةٌ؟ قلتُ: لأنّ الرجُلَ في ضرورةٍ، وكان الصبيةُ لا بأسَ بهم إذا باتوا كذلك، لا سيَّما وهو ضيفُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُقاسُ بسائرِ الضِّيفانِ»[1].

وقال **القاري**: قَولُهُ: «ما عِندَنا إلا قوتُ صِبياني»، بالرفعِ، وقيلَ: بالنصب، أَي: إلا قوتَ الصغارِ، بناءً على أَنَّهُم يَجوعونَ في كُلِّ ساعَةٍ منَ اللَّيلِ والنهارِ، وإلا فمنَ المَعلومِ أَنَّهُ لا يَجوزُ إجاعَةُ الصبيانِ وإضاعَتُهُم، وإطعامُ الضِّيفانِ وإطاعَتُهُم»[2].

والمعتَمَدُ: أنّ الصبيَةَ إن كانوا قد ناموا على جوعٍ، فجوعٌ مُحتَملٌ لا يضُرُّهم؛ زيادةً في برِّ ضَيفِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإكرامِه.

وقَولُهُ: «فَهَيَّأَت طَعامَها، وأَصبَحَت سِراجَها، ونَوَّمَت صِبيانَها، ثم قامَت كَأَنَّها تُصلِحُ سِراجَها فأَطفَأَتهُ»:

وعِندَ مسلمٍ: «فإذا دَخَلَ ضَيفُنا فأَطفِئِ السِّراجَ، وأَريهِ أَنَّا نَأكُلُ، فإذا أَهوى ليَأكُلَ، فقومي إلى السِّراجِ حتى تُطفِئيهِ».

«**أَهوى ليَأكُلَ**»: أمالَ يدَه للطّعامِ ليَتَناولَه فيَأكُله.

قال القاضي عياضٌ: «أَهوى بيَدِهِ»، أَي: أَمالها لشيءٍ يأخُذُه»[3].

وللتَّعلَبيِّ: «ثم أَسرِجي فأَبرِزي، فإذا أَخَذَ الضَّيفُ ليَأكلَ قومي كأَنّكِ تُصلِحينَ السِّراجَ فأَطفِئيه».

قال القاري: «أَي: ليَقَعَ الظَّلامُ، فلا يَطَّلِعُ على امتِناعِنا من أَكلِ الطعامِ»[4].

والحاصِلُ: أنَّها أوقدتِ السِّراجَ أولًا ليَدخُلَ الضَّيفُ في النُّورِ، وقدمتِ الطعامَ بينَ يدَيهِ، ثُمّ قامَت إلى السِّراجِ كأَنَّها تُصلِحُه فأطفَأَته؛ لئَلَّا يرى الضيفُ ما يفعَلانِه[5].

---

(١) الكوثر الجاري (٨/ ٣٠٥).

(٢) مرقاة المفاتيح (٩/ ٤٠٢٩).

(٣) إكمال المعلم (٦/ ٥٤٣).

(٤) مرقاة المفاتيح (٩/ ٤٠٢٩).

(٥) وكان هذا قبل أن ينزل الحجاب.

قَولُهُ: «وأَرِيهِ أَنَّا نَأكُلُ»:

فَإِنَّهُ لو رأى قِلّةَ الطعامِ وأَنَّهُما لا يَأكُلانِ معه لامتَنَعَ منَ الأَكلِ[١].

قال القاري: «والضَّيفُ إذا رَأى أَنَّ أَحَدًا امتَنَعَ منَ الأَكلِ رُبَّما تَشَوَّشَ خاطِرُهُ»[٢].

قَولُهُ: «فَجَعَلا يُريانِهِ أَنَّهُما يَأكُلانِ»:

وللثّعلَبيّ: «... وتَعالَي نمضغُ ألسنَتَنا لضيفِ رسولِ اللهِ ﷺ، حتى يشبعَ ضيفُ رسولِ اللهِ».

قَولُهُ: «فَباتا طاوِيَينِ»:

وللبُخاريِّ أَيضًا: «ونَطوي بُطونَنا اللَّيلَةَ».

قال العَينيُّ: «أَي: نجَمَعُها، فإذا جاعَ الرجُلُ انطَوى جِلدُ بَطنِه»[٣].

«والطيَّانُ: الجائعُ، ورجلٌ طَيَّانُ: لَم يأكل شَيئًا، والأُنثى طَيَّا، وجَمعها طِواءٌ»[٤].

وقال ابنُ دُرَيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «طَوى بَطنُه يَطوى طَوًى شَديدا، فهو طَيَّانُ البَطنِ، إذا كان خميصًا، وهو طاوٍ، إذا كان جائعًا»[٥].

ولمسلمٍ: «فَقَعَدوا، وأَكَلَ الضَّيفُ».

قَولُهُ: «فلما أَصبَحَ غَدا إلى رسولِ اللهِ ﷺ»:

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «غَدا» جَوابُ «لَمَّا»، وضُمِّنَ فيه معنى الإقبالِ، أي: لَمَّا دخَلَ في الصباحِ أقبلَ على رسولِ اللهِ ﷺ»[٦].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٢).

(٢) مرقاة المفاتيح (٩/ ٤٠٢٩).

(٣) عمدة القاري (١٩/ ٢٢٨).

(٤) لسان العرب (١٥/ ٢٠).

(٥) جمهرة اللغة (٢/ ٩٢٩).

(٦) شرح المشكاة (١٢/ ٣٩٥٣).

قال الحافظُ: «في حَديثِ أَنَسٍ: «فَصَلَّى معه الصبحَ»[١].

وحديثُ أنسٍ هذا رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا عن أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في قَولِهِ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، قال: «نزلَت في رجلٍ منَ الأَنصارِ، أَرسَلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه ضَيفًا من أَضيافِهِ، فأَتى بهِ مَنزِله، فقالت له امرَأَتُهُ: ما هذا؟ قال: هذا ضَيفٌ لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت: والذي بَعَثَ محمدًا بالحقِّ ما أَمسى عِندَنا إلا قُرصٌ، فذلك القُرصُ لي، أو لك، أوِ للضَّيفِ، أو للخادِمِ، قال: أَثرِدي هذا القُرصَ، وآدِمِيهِ بسَمنٍ[٢]، ثم قَرِّبيهِ، وأمُري الخادِمَ يُطفِئُ السِّراجَ، وجَعَلَت تَتَلَمَّظُ هي وهوَ، حتى رَأى الضَّيفُ أَنَّهُما يَأكُلانِ، وأَصبَحَ فصَلَّى مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٣].

وهو حديث ضعيفٌ، لا يصِحُّ سندُه.

قَولُهُ: «ضَحِكَ اللهُ اللَّيلَةَ، أو عَجِبَ، من فعالِكُما»:

قال الأزهَريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال اللَّيثُ: «فَعَل يفعَل فعلًا وفِعلًا، فالمصدرُ مَفتوحٌ، والاِسمُ مكسورٌ.

والفَعالُ اسمُ الفِعلِ الحَسَنِ؛ مثل الجودِ والكَرمِ ونَحوِه».

وروى أَبو العباس، عَن ابن الأَعرابي، أَنّه قال: «الفَعال: فِعلُ الواحدِ خاصَّةً في الخَير والشرّ، يُقال: فلانٌ كريمُ الفَعالِ، وفُلان لَئيم الفَعالِ.

والفِعال بكَسر الفاء: إذا كان الفِعلُ بين الاِثنَينِ».

قلتُ: وهذا الذي قاله ابنُ الأَعرابيِّ هو الصواب، لا ما قاله اللَّيث، وقال: «فلان حَسَن الفَعال، وفُلان سَيِّءُ الفَعالِ».

ولست أَدري لِمَ قَصَرَ اللَّيثُ الفَعال على الحَسَن دون القَبيح؟

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٣٢).

(٢) آدم الخبز: خلطه بالإدام، أو جعل معه شيئًا يطيبه.

(٣) قرى الضيف (١٠).

وقال المبَرِّدُ[١] **أبو العباس**: «الفَعال يكون في المَدح والذمّ، وهو مُخلَّص لفاعل واحد، فإذا كان من فاعِلين فهو فِعال»[٢].

وقال أبو العباسِ الفَيوميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفَعلَةُ -بالفَتحِ-: المَرَّةُ، والفَعالُ -مِثلُ سَلامٍ وكَلامٍ-: الوَصفُ الحَسَنُ والقَبيحُ أَيضًا، فيُقالُ: هو قَبيحُ الفَعالِ، كَما يُقالُ: هو حَسَنُ الفَعالِ، ويكونُ مَصدَرًا أَيضًا، فيُقالُ: فعَلَ فعالًا، مِثلُ ذَهَبَ ذَهابًا»[٣].

وقال الكَرمانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفَعال»، بفَتحِ الفاءِ: الفِعلَةُ حَسنةً، أو قبيحةً»[٤].

وقال زكريَّا بن مُحمّد السّنيكيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «من فعالِكُما»: جمعُ فعلَة، بفَتح الفاءِ فيهما، أو جَمع فِعلة بكسرِها فيهما، الأوَّل للمرَّة، أي: المَرّة من الفعلاتِ، والثَّاني للهَيئَة، أي: الفعلة الحسنة، أو القبيحة، والمرادُ هنا: الحسنة»[٥].

وللبُخاريِّ أَيضًا: «لَقد عَجِبَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ -أو ضَحِكَ- من فُلانٍ وفُلانَةَ».

ولمسلمٍ: «قد عَجِبَ اللهُ من صَنيعِكُما بضَيفِكُما اللَّيلَةَ».

وعن مُجاهِدٍ، قال: كان الأَعرابُ يَأتونَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأَمَرَ أَصحابَهُ فأَخَذَ كُلُّ رجلٍ منهم رجلًا فأَضافَهُ، فأَخَذَ رجلٌ منَ الأَنصارِ بيَدِ رجلٍ فانطَلَقَ بهِ، فقال لِامرَأَتِهِ: هَل لَكِ أَن تَطوي اللَّيلَةَ، وتَقري ضَيفَنا؟ فقالت: نَعَم، قال: إذا قدَّمتِ إلَينا الطعامَ فقومي إلى السِّراجِ فأَطفِئيهِ، ثم أَريهِ أَنَّكِ تَأكُلينَ، ففَعَلَت، فجَعَلا يُريانِهِ أَنَّهُما يَأكُلانِ، حتى أَكَلَ الرجُلُ واكتَفى، فلما أَصبَحَ غَدا على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رَآهُ ضَحِكَ فقال: «**ضَحِكتُ لِضَحِكِ اللهِ تعالى من صَنيعِكُما بضَيفِكُما**»[٦].

وقال أبو حفصٍ عُمرُ بن محمّدٍ البُجَيريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا إبراهيمُ بن محمّد الحلبيُّ

---

(١) المبرد بكسر الباء المشددة، وفتحها.

(٢) تهذيب اللغة (٢/ ٢٤٥).

(٣) المصباح المنير (٢/ ٤٧٨).

(٤) الكواكب الدراري (١٥/ ٤٣).

(٥) منحة الباري بشرح صحيح البخاري (٧/ ١٠٦-١٠٧).

(٦) إكرام الضيف لإبراهيم الحربي (٨١)، وهذا مرسل.

أبو إسحاقَ، قال: حدَّثنا عبدُ اللهِ بن داودَ، عن فُضَيلِ بن غزوان، عن أبي حازمٍ، عن أبي هُرَيرَةَ قال: جاءَ رجُلٌ إلى النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «**مَن لِهذا؟ مَن يُضيفُ هذا؟**».

فقال رجُلٌ من الأنصارِ: أنا، فذهَب به إلى رَحله، فقال لامرأتِه: هل عندَكِ من شيءٍ؟ قالت: ما عندَنا إلا قوتُ الصبيانِ، قال: أما الصبيانُ فنوِّميهِم، وأصلِحي العَشاء والسِّراجَ، ثم قومي إلى السِّراجِ كأنَّك تُصلِحينَه، فأطفِئيه، ثم تعالَي أنا وأنتِ كأنَّنا نأكلُ مع ضَيفِنا، ولا نأكُل.

قال: فلما أصبحَ غدا على رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: «**لَقد ضَحِكَ اللهُ أو عَجِبَ منكَ ومِن امرَأَتِكَ البارِحَةَ، وما صَنَعتُما بضَيفِكُما**»، فأنزَلَ اللهُ: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾.

وهذا إسنادٌ لا بأسَ به.

ثُم قال البُجَيريُّ: حدَّثَني أبي، قال: حدَّثني مُسدّد، قال: حدَّثنا عبدُ اللهِ بن داوُدَ، عن فُضَيلِ بن غزوانَ، عن أبي حازمٍ، عن أبي هريرة قال: جاءَ رجُلٌ إلى النبيّ ﷺ، فذكر مِثلَه[1].

وفي الحَديثِ إثباتُ صِفةِ «الضَّحِكِ» للهِ تعالى:

والضَّحِكُ: صِفَةٌ فِعليَّةٌ خبَريَّةٌ ثابتةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ بالأحاديثِ الصحيحةِ.

فعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**يَضحَكُ اللهُ إلى رجلَينِ يَقتُلُ أَحَدُهُما الآخَرَ يَدخُلانِ الجنةَ: يُقاتِلُ هذا في سَبيلِ اللهِ، فيُقتَلُ، ثم يَتوبُ اللهُ على القاتِلِ، فيُستَشهَدُ**»[2].

وفي حديث أَبي رَزينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ضَحِكَ رَبُّنا من**

(١) مستخرج البجيري على صحيح البخاري (٥٣٦)، (٥٣٧).

(٢) رواه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠).

قُنوطِ عبدِهِ، وقُرب غيرِهِ[١]»، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أوَيَضحَكُ الربُّ عَزَّوَجَلَّ؟ قال: «نَعَم»، قال: لَن نَعدَمَ من رَبٍّ يَضحَكُ خيرًا[٢].

وأهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ يُثبتون هذه الصفةَ وغيرَها من صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الثَّابتَة له بالكتاب أو السُّنَّة الصحيحةِ، من غيرِ تمثيلٍ ولا تكييفٍ.

قال أبو بكرِ بن خُزَيمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ ذِكرِ إثباتِ ضَحِكِ رَبِّنا عَزَّوَجَلَّ بلا صِفَةٍ تَصِفُ ضَحِكَهُ، جَلَّ ثَناؤُهُ، لا ولا يُشَبَّهُ ضَحِكُهُ بضَحِكِ المَخلوقينَ، وضَحِكُهُم كذلك، بَل نُؤمِنُ بأَنَّهُ يَضحَكُ، كَما أَعلَمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونَسكُتُ عن صِفَةِ ضَحِكِهِ جَلَّ وَعَلَا؛ إذِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ استَأثَرَ بصِفَةِ ضَحِكِهِ، لَم يُطلِعنا على ذلك، فنَحنُ قائِلونَ بما قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُصَدِّقونَ بذلك بقُلوبنا، مُنصِتونَ عَمَّا لَم يُبَيِّن لَنا، مِمَّا استَأثَرَ اللهُ بعِلمِهِ»[٣].

وقال أبو بكرٍ الآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ الإيمانِ بأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَضحَكُ: اعلَموا -وفَّقَنا اللهُ وإيَّاكُم للرَّشادِ منَ القَولِ والعَمَلِ- أَنَّ أَهلَ الحقِّ يَصِفونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بما وصَفَ بهِ نَفسَهُ، وبما وصَفَهُ بهِ رسولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبما وصَفَهُ بهِ الصحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا مَذهَبُ العُلَماءِ مِمَّنِ اتَّبَعَ ولَم يَبتَدِع.

ولا يُقالُ فيه: كَيفَ؟ بَلِ التسليمُ له والإيمانُ بهِ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَضحَكُ، كذا رويَ عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن صَحابَتِهِ، ولا يُنكِرُ هذا إلا مَن لا يُحمَدُ حالُهُ عِندَ أَهلِ الحقِّ»[٤].

---

(١) المراد: تغير الحال الذي هم عليه من القنوط إلى خلافه من الإغاثة، فإنه سبحانه هو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا. التنوير للصنعاني (٧/ ٩٨).

وقال السندي: «المعنى: أنه تعالى يضحك من أن العبد يصير مأيوسًا من الخير بأدنى شر وقع عليه، مع قرب تغييره تعالى الحال من شر إلى خير، ومن مرض إلى عافية، ومن بلاء ومحنة إلى سرور وفرحة». حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ٧٨).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٦١٨٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٨١٠).

«لن نعدم من رب يضحك خيرًا»، يريد: أن الرب الذي من صفاته الضحك لا نفقد خيره، بل كلما احتجنا إلى خير وجدناه. حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ٧٨).

(٣) التوحيد (٢/ ٥٦٣).

(٤) الشريعة (٢/ ١٠٥١).

وقد كان من السلَفِ من قد يُفسِّر الصفةَ بلازِمِها، أو بعضِ معانيها، وهو مع ذلك يُثبتُها للهِ، فلا يُعَدُّ ذلك من التأويلِ الممنوعِ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عادَةِ السلَفِ في تَفسيرِهِم أَن يَذكُروا بَعضَ صِفاتِ المفَسَّرِ من الأَسماءِ أو بَعضَ أَنواعِهِ، ولا يُنافي ذلك ثُبوتَ بَقيَّةِ الصفات للمُسَمَّى، بَل قد يكونانِ مُتَلازِمَينِ، ولا دُخولَ لِبَقيَّةِ الأَنواعِ فيه»[(١)].

وقال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عادَة السلَفِ أَن يَذكُرَ أَحَدُهُم في تَفسيرِ اللَّفظَةِ بَعضَ مَعانيها، ولازِمًا من لَوازِمِها، أوِ الغايَةَ المَقصودَةَ منها، أو مِثالًا يُنَبِّهُ السامِعَ على نَظيرِهِ، وهذا كَثيرٌ في كَلامِهِم لِمَن تَأَمَّله»[(٢)].

وقال عثمانُ بن سعيدٍ الدَّارِميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأَمَّا قَولُكَ: إنَّ ضَحِكَهُ رِضاهُ ورَحمَتُهُ، فقد صَدَقتَ في بَعضٍ؛ لِأَنَّهُ لا يَضحَكُ إلى أَحَدٍ إلا عَن رِضًى، فيَجتَمِعُ منه الضَّحِكُ والرِّضا، ولا يَصرِفُهُ إلا عن عَدوٍّ، وأَنتَ تَنفي الضَّحِكَ عَنِ اللهِ، وتُثبتُ له الرِّضا وحدَهُ»[(٣)].

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قيلَ: إنّ من السلَفِ مَن فسَّر قولَه تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، بقولِه: «بمَرأى مِنَّا»، فسَّرَه بذلك أئمةٌ سلفيُّون معروفون، وأنتُم تقولون: إن التحريفَ مُحَرَّم ومُمتنعٌ، فما الجوابُ؟

فالجواب: أنهُم فسَّروها باللَّازِمِ، مع إثباتِ الأصلِ، وهو العَينُ، وأهلُ التحريفِ يقولون: بمَرأى منا، بدونِ إثباتِ العَينِ، وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ يقولون: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: بمَرأى منا، ومعَ إثباتِ العَينِ»[(٤)].

وقال أَيضًا: «لكِن الذين فسَّروا: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمَرأى منا، هؤلاء فسَّروا اللفظَ بلازِمِه، وذلك صحيحٌ، وليس خُروجًا باللفظِ عن ظاهِرِه، لأنَّ دِلالةَ اللفظِ على معناهُ:

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٩٠).

(٢) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة للبعلي (ص٤٢٧).

(٣) نقض عثمان بن سعيد على المريسي (٢/ ٧٧٣).

(٤) شرح العقيدة الواسطية (ص٣١٤).

إمَّا دِلالةُ مطابَقَةٍ، أو دِلالةُ تضَمُّنٍ، أو دِلالةُ التزامٍ، وكلٌّ من الدِّلالاتِ لا يُخرِجُ اللفظَ عن ظاهِرِه»[1].

ففَرقٌ بينَ مَن يتأوَّلُ الصفَةَ ومَن يفَسِّرُها بلازِمِها مع إثباتِ حقيقَتِها، فالمتَأوِّلُ ينفي حقيقةَ الصفَةِ ولا يُثبتُها، ومَن يفَسِّرها بلازِمِها يُثبت حقيقةَ الصفَةِ ويفَسِّرُها بلازِمٍ من لوازِمِها، أو أثرٍ من آثارِها، ولا يَخرُج بهذا عن إثباتِ الصفةِ على ظاهِرِها.

والذين عطَّلوا الصفاتِ قالوا: كيف يضحكُ اللهُ، والضَّحِكُ خِفَّةٌ تَعتَري البَشَرَ عندَما يستَخِفُّهم الفرَحُ والطرَبُ، وهذا غيرُ جائزٍ على اللهِ تعالى؟

فيُقالُ لهُم: هذا جهلٌ منكم؛ لأنَّكم قِستُم الخالقَ بالمخلوقِ، وجعَلتُم ضَحِكَه كضَحِكِه، وأنتم تُثبتون للخالِقِ ذاتًا وعِلمًا وقدرةً، ولا تجعَلون ذاتَه كذاتِ المخلوقِ، ولا عِلمَه كعِلمِه، ولا قُدرتَه كقُدرتِه، فهَلَّا أثبَتُّم للهِ ما أثبتَ لنفسِه وأثبَتَه له رسولُه ﷺ، وآمنتُم أنّه ليس كمِثلِه شيءٌ في ذاتِه ولا في صفاتِه، دونَ أن تُفَرِّقوا بين صفاتِه، فتُثبتوا ما تشاؤون منها، وتَنفوا عنه ما تشاؤون؟

ثُمّ إنّ ضَحِكَ المخلوقِ ليس خِفَّةً في كُل مَواردِه، بل منه ما يدُلُّ على عقلٍ وحكمةٍ، كما أنَّ منه ما يدُلّ على خِفَّة وطَيشٍ.

وكم ضَحِكَ النبيّ ﷺ في مُختلفِ المواقِفِ، وهو أحكَمُ أهلِ الأرضِ وأعقلُهم، فلَم يدُلّ ضَحِكُه إلا على تمامِ العقلِ والحكمةِ.

وفي الحَديثِ أيضًا إثباتُ صِفَةِ العَجَب للهِ تعالى:

وقد ثَبتت صفةُ «العَجَب» للهِ تعالى في الكتاب والسُّنَّة:

قال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢].

قال ابنُ جريرٍ الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختَلَفَتِ القُرَّاءُ في قراءةِ ذلك، فقَرَأَتْهُ عامَّةُ قُرَّاءِ

---

(١) منهاج أهل السنة والجماعة في العقيدة والعمل (ص٣٨-٣٩).

الكوفةِ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ بضَمِّ التاءِ من ﴿عَجِبْتَ﴾، بمعنى: بَل عَظُمَ عِندي وكَبُرَ اتِّخاذُهُم لي شَريكًا وتَكذيبُهُم تَنزيلي، وهُم يَسخَرونَ.

وقَرَأَ ذلك عامَّةُ قُرَّاءِ المَدينَةِ والبَصرَةِ وبَعضُ قُرَّاءِ الكوفَةِ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾، بفَتحِ التاءِ، بمعنى: بَل عَجِبتَ أَنتَ يا محمدُ، ويَسخَرونَ من هذا القُرآنِ.

والصوابُ منَ القَولِ في ذلك أَن يُقال: إنَّهُما قِراءَتانِ مَشهورَتانِ في قُرَّاءِ الأَمصارِ، فبأَيَّتِهِما قَرَأَ القارِئُ فمُصيبٌ.

فَإن قال قائِلٌ: وكَيفَ يكونُ مُصيبًا القارِئُ بِهِما مع اختِلافِ مَعنَيَيهِما؟ **قيلَ:** إنَّهُما وإنِ اختَلَفَ مَعنَياهُما فكُلُّ واحدٍ من مَعنَيَيهِ صَحيحٌ: قد عَجِبَ محمدٌ مِمَّا أَعطاهُ اللهُ منَ الفَضلِ، وسَخِرَ منه أَهلُ الشِّركِ باللهِ، وقد عَجِبَ رَبُّنا من عَظيمِ ما قالهُ المشرِكونَ في اللهِ، وسَخِرَ المشرِكونَ بما قالوهُ.

فَإن قال: أَكان التنزيلُ بإحداهُما أو بكِلتَيهِما؟ **قيلَ:** التنزيلُ بكِلتَيهِما.

فَإن قال: وكَيفَ يكونُ تَنزيلُ حَرفٍ مَرَّتَينِ؟ **قيلَ:** إنَّهُ لَم يَنزِل مَرَّتَينِ، إنَّما أُنزِلَ مَرَّةً، ولكنَّهُ أُمِرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن يَقرَأَ بالقِراءَتَينِ كِلتَيهِما»[1].

وقال الشّنقيطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَرَأَ هذا الحَرفَ عامَّةُ القُرَّاءِ السبعَةِ غيرَ حَمزَةَ والكِسائيِّ: «عَجِبتَ»، بالتاءِ المَفتوحَةِ وهي تاءُ الخِطاب، المخاطَبُ بها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَرَأَ حَمزَةُ والكِسائيُّ: «بَل عَجِبتُ»، بضَمِّ التاءِ، وهي تاءُ المتكَلِّمِ، وهو اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

وقد قدَّمنا أَنَّ القِراءَتَينِ المختَلِفَتَينِ يُحكَمُ لهما بحُكمِ الآيَتَينِ.

وبذلك تَعلَمُ أَنَّ هذه الآيةَ الكَريمَةَ -على قراءةِ حَمزَةَ والكِسائيِّ- فيها إثباتُ العَجَب للهِ تعالى، فهي -إذًا- من آياتِ الصفاتِ على هذه القراءةِ»[2].

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ٥١٣-٥١٤).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٠٨).

وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**عَجِبَ اللهُ من قَومٍ يَدخُلونَ الجنةَ في السلاسِلِ**»(١).

وعن عُقبَةَ بن عامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ لَيَعجَبُ منَ الشَّابِّ ليست له صَبوَةٌ**»(٢).

وقال القاضي أبو يعلى رَحِمَهُ اللَّهُ **في باب «إثبات صفَةِ العَجب لربِّنا تباركَ وتعالى»**: «اعلَم أنَّ الكلامَ في هذا الحديثِ كالكلامِ في الذي قبلَه -وكان ساقَ قبلَه حديثَين-، وأنَّه لا يَمتَنِع إطلاقُ ذلك عليه، وحملُه على ظاهِرِه؛ إذ ليس في ذلك ما يُحيلُ صفاتِه، ولا يُخرِجُها عما تستَحِقُّه؛ لأنَّا لا نُثبتُ عَجَبًا هو تعظيمٌ لأمرٍ دَهَمَه استعظَمَه لم يكُن عالمًا به؛ لأنه مما لا يليقُ بصفاتِه، بل نُثبت ذلك صِفةً، كما أثبتنا غيرَها من صِفاتِه»(٣).

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَجَبُ اللهِ من الشَّيءِ يدلُّ على عِظَم قدرِه، وأنَه لخُروجِه عن نظائرِه تَعظُمُ درجتُه ومنزِلتُه»(٤).

قَولُهُ: فأَنزَلَ اللهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَمَّا هذا الرّجلُ وامرَأَتُهُ: فآثَرا على أَنفُسِهما برِضاهُما، مع حاجَتِهما وخَصاصَتِهما، فمَدَحَهُما اللهُ تعالى وأَنزَلَ فيهما: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

فَفيه فضيلَةُ الإيثارِ، والحَثُّ عليه، وقد أَجمع العُلَماءُ على فضيلَةِ الإيثارِ بالطعامِ ونَحوِهِ من أُمورِ الدُّنيا وحُظوظِ النُّفوسِ، أَمَّا القُرُباتُ: فالأَفضَلُ أن لا يُؤثِرَ بها؛ لأنَّ الحَقَّ فيها للهِ تعالى»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٠).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٧٣٧١)، وحسنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٧٠)، والسخاوي في المقاصد الحسنة (ص٢٠٦)، وحكى تضعيفه عن الحافظ ابن حجر، وكذا ضعفه غير واحد من أهل العلم.

(٣) إبطال التأويلات (ص٢٤٥).

(٤) جامع المسائل (٥/ ٣٢١).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٢).

والإيثارُ لُغةً: تَفضيلُ المَرء غَيرَه على نَفسِه.

وآثرتُ فلانًا بكذا وكذا أوثِرُه إيثارًا، إذا فضّلتُه، فهو موثَرٌ، وأَنا موثِرٌ.

وقال الأصمَعيُّ: «آثَرتُكَ إيثارًا، أَي: فضَّلتُك»[(١)].

واصطِلاحًا:

قال الجُرجانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيثارُ: أن يُقدِّمَ غيرَه على نفسِه في النفعِ له والدَّفعِ عنه، وهو النهايةُ في الأخوَّة»[(٢)].

وقال مسكوَيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيثارُ: فضيلةٌ للنفسِ، بها يكُفُّ الإنسانُ عن بعضِ حاجاتِه التي تخُصُّه، حتى يَبذُلَه لمن يستَحِقُّه»[(٣)].

وقال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المَراتِبُ ثَلاثَةٌ:

إحداها: أَن لا يُنقِصَهُ البَذلُ، ولا يَصعُبَ عليه، فهو مَنزِلَةُ السخاءِ.

الثَّانيَةُ: أَن يُعطيَ الأَكثَرَ، ويُبقيَ له شَيئًا، أو يُبقيَ مِثلَ ما أَعطى، فهو الجودُ.

الثَّالِثَةُ: أَن يُؤثِرَ غيرَهُ بالشَّيءِ مع حاجَتِهِ إليه، وهو مَرتَبَةُ الإيثارِ، وعَكسُها الأَثَرَةُ، وهو استِئثارُهُ عن أَخيهِ بما هو مُحتاجٌ إليه، وهي المَرتَبَةُ التي قال فيها رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأَنصارِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: «**إِنَّكُم سَتَلقَونَ بعدي أَثَرَةً، فاصبروا حتى تَلقَوني على الحَوضِ**»[(٤)].

والأَنصارُ: هُمُ الذينَ وصَفَهُمُ اللهُ بالإيثارِ في قَولِهِ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، فوَصَفَهُم بأَعلى مَراتِبِ السخاءِ، وكان ذلك فيهم مَعروفًا.

فتَأَمَّل سِرَّ التقديرِ، حَيثُ قدَّرَ الحَكيمُ الخَبيرُ سبحانه استِئثارَ الناسِ على الأَنصارِ

---

(١) تهذيب اللغة (١٥/ ٨٩)، جمهرة اللغة (٢/ ١٠٣٥)، المعجم الوسيط (١/ ٦).

(٢) التعريفات (ص ٤٠).

(٣) تهذيب الأخلاق (ص٣١).

(٤) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

بالدُّنيا -وهُم أَهلُ الإيثارِ-؛ ليُجازيَهُم على إيثارِهِم إخوانَهُم في الدُّنيا على نُفوسِهِم بالمَنازِلِ العاليَةِ في جَنَّاتِ عَدنٍ على الناسِ، فتَظهَرُ -حينَئِذٍ- فضيلَةُ إيثارِهِم ودَرَجَتُهُ، ويَغبطُهُم مَنِ استَأثَرَ عليهم بالدُّنيا أَعظَمَ غِبطَةٍ، وذلك فضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ، واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ.

فإذا رَأَيتَ الناسَ يَستَأثِرونَ عليكَ - مع كَونِكَ من أَهلِ الإيثارِ - فاعلَم أَنَّهُ لِخَيرٍ يُرادُ بكَ»[1].

وقَولُهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، أي: يُعطونَ المهاجِرينَ أَموالهم؛ إيثارًا لهم بها على أَنفُسِهِم، ولو كان بِهِم حاجَةٌ وفاقَةٌ إلى ما آثَروا بِهِ من أَموالِهِم على أَنفُسِهِم[2].

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: يُقدِّمونَ المَحاويجَ على حاجَةِ أَنفُسِهِم، ويَبدَءونَ بالناسِ قَبلَهم في حالِ احتياجِهِم إلى ذلك.

وهذا المَقامُ أَعلى من حالِ الذينَ وصَف اللهُ بقَولِهِ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وقَولُهُ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فَإِنَّ هَؤُلاءِ يَتَصَدَّقونَ وهُم يُحِبُّونَ ما تَصَدَّقوا بِهِ، وقد لا يكونُ لهم حاجَةٌ إليه ولا ضَرورَةَ بِهِ، وهَؤُلاءِ آثَروا على أَنفُسِهِم مع خَصاصَتِهِم وحاجَتِهِم إلى ما أَنفَقوهُ»[3].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أوصافِ الأنصارِ التي فاقوا بها غيرَهم، وتميَّزوا بها على مَن سِواهُم: الإيثارُ، وهو أكملُ أنواعِ الجود، وهو الإيثارُ بمَحابِّ النفسِ من الأموالِ وغيرِها، وبذلُها للغيرِ مع الحاجةِ إليها، بل مع الضَّرورَةِ والخَصاصَة، وهذا لا يكونُ إلا من خُلُقٍ زَكيٍّ، ومحبَّةٍ للهِ تعالى، مُقدَّمَةٍ على محبةِ شهَواتِ النفسِ ولَذَّاتِها»[4].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٢٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٠-٧١).

(٤) تفسير السعدي (ص٨٥١).

و«**الخَصاصَة**»: أَصلُها الفَقرُ والحاجَةُ إلى الشَّيءِ، وأَصل ذلك في الفُرجة أو الخَلّة؛ لأَن الشَّيءَ إذا انفرَجَ وهى واختلّ.

وذَوو الخَصاصة: ذَوو الخَلّة والفَقرِ.

والخَصاصةُ: الخَلَلُ والثَّقبُ الصغيرُ.

وصدَرَتِ الإبلُ وبها خَصاصَةٌ: إذا لَم تَروَ، وصدَرت بعَطَشِها، وكذلك الرجُلُ إذا لَم يَشبَع منَ الطعامِ.

وكلُّ ذلك من معنى الخَصاصة، التي هي الفُرجَةُ والخَلَّة[1].

و**قال القُرطُبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخَصاصَةُ: الحاجَةُ التي تَختَلُّ بها الحالُ، وأَصلُها منَ الاِختِصاصِ، وهو انفِرادٌ بالأَمرِ، فالخَصاصَةُ: الاِنفِرادُ بالحاجَةِ»[2].

وقد كان السلفُ مَشهورينَ بالإيثارِ، وتَقديمِ غَيرِهِم على أنفُسِهِم في مَطالِبِ الدّنيا وحاجاتِها:

فَعن مالِكٍ الدَّارِ: أَنَّ عمرَ بن الخَطَّاب أَخَذَ أَربَعَ مئةِ دينارٍ، فجَعَلها في صُرَّةٍ، ثم قال للغُلامِ: «اذهَب بها إلى أَبي عُبَيدَةَ بن الجَرَّاحِ، ثم تَلَهَّ[3] ساعَةً في البَيتِ حتى تَنظُرَ ما يَصنَعُ».

فَذَهَبَ بها الغُلامُ إليه، فقال: يقولُ لك أَميرُ المؤمِنينَ: اجعَل هذه في بَعضِ حَوائِجِكَ، فقال: وصَله اللهُ ورَحِمَهُ، ثم قال: تَعالَي يا جارِيَةُ، اذهَبي بهذه السبعَةِ إلى فُلانٍ، وبهذه الخَمسَةِ إلى فُلانٍ، حتى أَنفَدَها.

فرجعَ الغُلامُ إلى عمرَ بن الخَطَّاب، فأَخبَرَهُ، ووَجَدَهُ قد أَعَدَّ مِثلها لِمُعاذِ بنِ جَبَل، فقال: «اذهَب بها إلى مُعاذِ بن جَبَلٍ، ثم تَلَهَّ في البَيتِ ساعَةً؛ حتى تَنظُرَ إلى ما يَصنَعُ».

---

(١) لسان العرب (٧/ ٢٥-٢٦)، وينظر: المحكم لابن سيده (٤/ ٤٩٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٩).

(٣) أي: تشاغل وتعلل. النهاية (٤/ ٢٨٣).

فَذَهَبَ بها إليه، فقال: يقولُ لك أَميرُ المؤمِنينَ: اجعَل هذا في حاجَتِكَ، فقال: وصَله اللهُ ورَحِمَهُ، تَعالَي يا جارِيَةُ، اذهَبي إلى فُلانٍ بكذا، وإلى بَيتِ فُلانٍ بكذا، وإلى بَيتِ فُلانٍ بكذا، فاطَّلَعَتِ امرَأَةُ مُعاذٍ، فقالت: ونَحنُ واللهِ مَساكينُ، فأَعطِنا، فلم يَبقَ في الخِرقَةِ إلا دينارانِ، فدَحا بهما[1]، فرجعَ الغُلامُ إلى عمرَ فأَخبَرَهُ؛ فسُرَّ بذلك عمرُ، وقال: «إنَّهُم إخوَةٌ بَعضُهُم من بَعضٍ»[2].

وقال أبو بكرِ بن أبي شَيبَة: حَدّثَنا أَبو أُسامَةَ، عَنِ الأَعمَشِ، عن مُجاهِدٍ، قال: «كان بالمَدينَةِ أَهلُ بَيتٍ ذَوو حاجَةٍ، عِندَهُم رَأسُ شاةٍ، فأَصابوا شَيئًا، فقالوا: «لَو بَعَثنا بهذا الرأسِ إلى مَن هو أَحوَجُ إليه مِنَّا»، قال: «فَبَعَثوا بهِ، فلم يَزَل يَدورُ بالمَدينَةِ، حتى رجعَ إلى أَصحابِهِ الذينَ خرجَ من عِندِهِم»[3].

وعن عَطاءٍ الخُراسانيِّ، قال: «أُهديَ إلى أَهلِ بَيتٍ رَأسُ شاةٍ فقالوا: إنَّ جيرانَنا هَؤُلاءِ أَحوَجُ إليه مِنَّا، فبَعَثوا بهِ إليهم، فلم يَزالوا يَتَهادونَهُ حتى رجعَ إلى الأوّلِ»[4].

وعن أَبي الحَسَنِ الأَنطاكيِّ: «أَنَّهُ اجتَمعَ عِندَهُ نَيِّفٌ وثَلاثونَ رجلًا، بقَريَةٍ من قُرى الريِّ، ومعهم أَرغِفَةٌ مَعدودَةٌ، لا تُشبعُ جَميعَهُم، فكَسَروا الرُّغفانَ وأَطفَؤوا السِّراجَ وجَلَسوا للطَّعامِ، فلما رُفِعَ فإذا الطعامُ بحالِهِ، لَم يَأكُل منه أَحَدٌ شَيئًا؛ إيثارًا لِصاحِبِهِ على نَفسِهِ»[5].

وفي هذه القصَّةِ منَ الفوائدِ:

* بيانُ ما كان عليه النبيّ ﷺ وأهلُ بيتِه من الفقرِ والشِّدَّةِ؛ إذ أَرسَلَ إلى بَعضِ نِسائِهِ؛ ليُطعِم ضيفَه ويقريه، فقالت: «والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما عِندي إلا ماءٌ»، ثم

---

(١) أي: رمى بهما إليها.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (١/ ١٧٨)، ومن طريقه رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٣٧)، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (ص٢٢٢)، وابن عساكر في التاريخ (٥٨/ ٤٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٥٥١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢١٤)، وهذا إسناد صحيح، إن كان الأعمش سمعه من مجاهد؛ فإنه كان ربما دلس عنه.

(٤) رواه الدولابي في الكنى والأسماء (٢/ ٦٢١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧٣/ ٦٤).

(٥) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٩).

أَرسَلَ إلى أُخرى، فقالت مِثلَ ذلك، حتى قُلنَ كُلُّهُنَّ مِثلَ ذلك: «لا والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما عِندي إلا ماءٌ».

* وهذا يدُلُّ على أنّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدأَ بنفسِه أولًا، فلما لم يجِد في بيوتِ أزواجِه شيئًا إلا الماءَ سألَ أصحابَه: «**مَن يَضُمُّ أو يُضيفُ هذا؟**».

وقد اختارَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما عندَ اللهِ على زُخرُفِ الحياةِ الدُّنيا وزينتِها؛ فعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جَلَسَ جبريلُ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنَظَرَ إلى السماءِ، فإذا مَلَكٌ يَنزِلُ، فقال جبريلُ: إنَّ هذا المَلك ما نزلَ مُنذُ يَومِ خُلِقَ قَبلَ الساعةِ، فلما نزلَ قال: يا محمدُ، أَرسَلَني إليك رَبُّكَ، أَفَمَلِكًا نبيًّا يَجعَلُكَ، أو عبدًا رسولًا؟ قال جبريلُ: تَواضَع لِرَبِّكَ يا محمدُ، قال: «**بَل عبدًا رسولًا**»[1].

* **وفيها**: فضلُ أُمَّهات المؤمنينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، وصبرُهنَّ على ضيقِ العَيشِ، واختيارُهُنَّ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخِرَة على الحياةِ الدُّنيا وزينَتِها.

عن عُروَةَ، عن عائشةَ، أَنَّها كانت تَقولُ: «واللهِ يا ابنَ أُختي إن كُنَّا لَنَنظُرُ إلى الهِلالِ، ثم الهِلالِ، ثم الهِلالِ، ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ في شَهرَينِ، وما أوقد في أَبياتِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نارٌ»، قال: قُلتُ: يا خالَةُ، فما كان يُعَيِّشُكُم؟ قالت: «الأَسوَدانِ: التمرُ والماءُ، إلا أَنَّهُ قد كان لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيرانٌ منَ الأَنصارِ، وكانت لهم مَنائِحُ[2]، فكانوا يُرسِلونَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أَلبانِها، فيَسقيناهُ»[3].

* **وفيها**: ما كان عليه الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الشدَّةِ والفقرِ والجوعِ، وهُم مع ذلك كانوا أهلَ عبادَةٍ وجهادٍ وكرَمٍ وجودٍ وإيثارٍ، لا يمنَعُهم ما هُم فيه من الفقرِ والحاجةِ من أداءِ ما أوجبَ اللهُ عليهم من حقوقِ اللهِ وحقوقِ عبادِه، ونَدَبَهُم إليهِ منَ العَملِ الصالِحِ، بقلوبٍ مُؤمنَةٍ مُطمئنّةٍ موقِنَةٍ مُستَسلِمةٍ.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٧١٦٠)، وصححه محققو المسند.

(٢) المنائح: جمع منيحة، وهي الناقة والشاة يعطيها الرجل لآخر يحلبها ثم يردها. التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٦/ ٢٨٠).

(٣) رواه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).

* **وفيها:** مُبادرةُ الصحابةِ إلى العملِ الصالح؛ فإن الأنصاريَّ بادَرَ باستِضافةِ الرجُل فورَ قولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «**مَن يَضُمُّ أو يُضيفُ هذا؟**»، فقال: «أَنا»، مع ما هو فيه من الفقرِ والحاجَةِ.

* **وفيها:** فضلُ الزَّوجةِ الصالحَة، وتعاوُنُها مع زوجِها على البرّ والتقوى، وقد قال النبيّ ﷺ: «**الدُّنيا مَتاعٌ، وخَيرُ مَتاعِ الدُّنيا المَرأَةُ الصالِحَةُ**»(١).

* **وفيها:** إثباتُ صِفَةِ الضَّحِكِ وَصِفَةِ العَجَب للهِ تعالى، وقد مضى الكلامُ على ذلك.

* **وفيها:** فضلُ الإيثارِ والنفَقةِ في سبيلِ اللهِ.

* **وفيها:** فضلُ إكرامِ الضيفِ وإتحافِه، وفي الحَديثِ: «**مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فليُكرِم ضَيفَهُ**»(٢).

* **وفيها:** بَيانُ أنّ هذه القصَّةَ هي سببُ نُزولِ قولِه تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وهو أصحُّ ما وردَ في ذلك، **قال الحافظُ:** «هذا هو الأَصَحُّ في سَبَب نُزولِ هذه الآية»(٣).

وفي المستدرك من طريق عُبَيد اللهِ بن الوَليدِ، عن مُحارِب بن دِثارٍ، عَنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أُهديَ لِرجلٍ من أَصحاب رسولِ اللهِ ﷺ رَأسُ شاةٍ، فقال: «إنَّ أَخي فُلانًا وعياله أَحوَجُ إلى هذا مِنَّا»، قال: فبَعَثَه إليه، فلم يَزَل يَبعَثُ بِهِ واحدٌ إلى آخَرَ، حتى تَداوَلَتها سَبعَةُ أَبياتٍ، حتى رجعَت إلى الأوَّلِ، ونزلَت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. ولا يصِحُّ سنَدُه(٤).

* **وفيها:** فضلُ الأنصارِ، ومدحُ اللهِ إيَّاهُم، وثناؤُه الحسَنُ عليهم.

---

(١) رواه مسلم (١٤٦٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٣) فتح الباري (٧/ ١٢٠).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٣٧٩٩)، ومن طريقه البيهقي في الشعب (٣٢٠٤)، وعبيد الله بن الوليد هو الوصافي، متروك الحديث، انظر: التهذيب (٧/ ٥٥).

* **وفيها**: أنّ الأنصارَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا على أعلى درَجاتِ الإيثارِ، الذي هو أعلى درَجاتِ البذلِ؛ حيثُ كانوا يُفضِّلون غيرَهم على أنفسِهم ولو كان بهم خَصاصَةٌ، وليس في العَطاءِ والبَذلِ فوقَ هذه الدرجةِ درَجةٌ هي أفضلُ منها.

* **وفيها**: تَعظيمُ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لأمرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتقديمُه على النفسِ والأهلِ والوَلَدِ.

* **وفيها**: أن الضَّررَ اليسيرَ مُغتَفَرٌ؛ لِتَحصيلِ المَصلحَةِ الراجِحةِ.

هذه القصةُ حصَلَت قبلَ نُزولِ الحجاب، **قال القاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانتِ المرأةُ عَجوزًا، والقَضيَّةُ قَبلَ الحِجاب»[1].



(١) مرقاة المفاتيح (٩/ ٤٠٢٩).

٩

بُستانُ
أَبي طلحةَ

بُستانُ أَبي طلحةَ

عن أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان أَبو طَلحَةَ أَكثَرَ الأَنصارِ بالمَدينَةِ مالًا من نَخلٍ، وكان أَحَبُّ أَموالِهِ إليه بَيرُحاءَ، وكانت مُستَقبلَةَ المسجدِ، وكان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدخُلُها، ويَشرَبُ من ماءٍ فيها طَيِّبٍ.

قال أَنَسٌ: فلما أُنزِلَت هذه الآيةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قامَ أَبو طَلحَةَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتعالى يقولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أَحَبَّ أَموالي إلَيَّ بَيرُحاء، وإنَّها صَدَقَةٌ للهِ، أَرجو برَّها وذُخرَها عِندَ اللهِ، فَضَعها -يا رسولَ اللهِ- حَيثُ أَراكَ اللهُ.

قال: فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَخٍ، ذلك مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ، وقد سَمِعتُ ما قُلتَ، وإنِّي أَرى أَن تَجعَلها في الأَقرَبينَ**».

فقال أَبو طَلحَةَ: أَفعَلُ يا رسولَ اللهِ.

فَقَسَمَها أَبو طَلحَةَ في أَقارِبِهِ، وبَني عَمِّهِ[1].

تَرجَمَةُ أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو أَنَسُ بن مالِكِ بن النضرِ بن ضَمضَمَ بن زَيدِ بن حَرامِ بن جُندُب بن عامرِ بن غَنمِ ابن عَديِّ بن النجَّارِ، الأَنصاريُّ، النجَّاريُّ، أَبو حَمزَةَ المَدَنيُّ، نَزيلُ البَصرَةِ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٦١)، (٢٣١٨)، (٢٧٥٨)، ومسلم (٩٩٨)، وأبو داود (١٦٨٩)، والترمذي (٢٩٩٧)، والنسائي (٣٦٠٢)، وفي الكبرى (١١٠٠٠)، وأحمد (١٢١٤٤)، (١٢٤٣٨)، وابن خزيمة (٢٤٥٥)، وابن حبان (٣٣٤٠)، والبيهقي (١١٩٢٠)، والطيالسي (٢١٩٣).

رَوى عَنِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عِلمًا جَمًّا، وعن أَبي بكرٍ، وعمرَ، وعُثمانَ، ومُعاذٍ، وأُسَيدِ بن الحُضَيرِ، وأَبي طَلحَةَ، وأُمِّهِ أُمِّ سُلَيمٍ بنتِ مِلحانَ، وخالَتِهِ أُمِّ حَرامٍ، وزَوجِها عُبادَةَ بن الصامِتِ، وأَبي ذَرٍّ، ومالِكِ بن صَعصَعَةَ، وأَبي هريرة، وفاطِمَةَ بنتِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وعِدَّةٍ.

وروى عنه خَلقٌ عَظيمٌ، منهمُ: الحَسَنُ، وابنُ سيرينَ، والشَّعبيُّ، وأَبو قِلابَةَ، ومَكحولٌ، وعمرُ بن عبدِ العَزيزِ، وثابتٌ البُنانيُّ، وبكرُ بن عبدِ اللهِ المَزَنيُّ، والزُّهريُّ، وقَتادَةُ، وابنُ المنكَدِرِ، وإسحاقُ بن عبدِ اللهِ بن أَبي طَلحَةَ، وعبدُ العَزيزِ بنُ صُهَيبٍ، وشُعَيبُ بن الحَبحاب، وغيرهُم.

وبَقيَ أَصحابُهُ الثِّقاتُ إلى بعدِ الخَمسينَ ومئةٍ، وبَقيَ ضُعَفاءُ أَصحابِهِ إلى بعدِ التِّسعينَ ومئةٍ، وبَقيَ بعدَهُم ناسٌ لا يوثَقُ بهِم، بَلِ اطُّرِحَ حَديثُهُم جُملَةً، كَإبراهيمَ بن هُدبَةَ، ودينارٍ أَبي مِكيَسٍ، وخِراشِ بن عبدِ اللهِ، وموسى الطويلِ، عاشوا مُدَيدَةً بعدَ المئتَينِ، فَلا اعتِبارَ بهِم.

وإنَّما كان بعدَ المئتَينِ بَقايا مَن سَمِعَ من ثِقاتِ أَصحابِهِ، كَيَزيدَ بن هارونَ، وعبدِ اللهِ بن بكرٍ السَّهميِّ، ومحمدِ بن عبدِ اللهِ الأَنصاريِّ، وأَبي عاصِمٍ النبيلِ، وأَبي نُعَيمٍ.

وقد سَرَدَ صاحِبُ «التهذيب»[1] نحو مئتَي نَفسٍ منَ الرُّواةِ عن أَنَسٍ.

كان أبوهُ مالِكٌ مشركًا، فقال يومًا لِامرَأَتِهِ أُمّ أَنَسٍ: أَرى هذا الرجُلَ -يَعني النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- يُحَرِّمُ الخَمرَ، فانطَلَقَ حتى أَتى الشَّامَ، فَهَلَكَ هُنالِكَ[2].

وأُمُّهُ: أُمُّ سُلَيمٍ بنتُ مِلحانَ بن خالِدِ بن زَيدِ بن حَرامٍ، وهي التي أَعطَتهُ رسولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَبله، وسألَتهُ أَن يَدعوَ له.

فعن أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: دَخَلَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على أُمِّ سُلَيمٍ، فَأَتَتهُ بتَمرٍ وسَمنٍ، قال: **«أَعيدوا سَمنكُم في سِقائِهِ، وتَمرَكُم في وِعائِهِ؛ فَإِنِّي صائِمٌ»**.

---

(١) هو الحافظ أبو الحجاج المزي، صاحب «تهذيب الكمال»، رَحِمَهُٱللَّهُ.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٧١٣٠).

ثم قامَ إلى ناحيَةٍ منَ البَيتِ، فَصَلَّى غيرَ المَكتوبَةِ، فَدَعا لِأُمِّ سُلَيمٍ، وأَهلِ بَيتِها، فقالت أُمُّ سُلَيمٍ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ لي خوَيصَّةً[١]، قال: «**ما هيَ؟**»، قالت: خادِمُكَ أَنَسٌ.

فَما تَرَكَ خَيرَ آخِرَةٍ ولا دُنيا إلا دَعا لي بِهِ، قال: «**اللهُمَّ ارزُقهُ مالًا ووَلَدًا، وبارِك له فيه**».

فَإِنِّي لَمن أَكثَرِ الأَنصارِ مالًا، وحَدَّثَتني ابنَتي أُمَينَةُ: أَنَّهُ دُفِنَ لِصُلبي مَقدَمَ حَجَّاجٍ البَصرَةَ بضعٌ وعِشرونَ ومئةٌ[٢].

خَدَمَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُدَّةَ مُقامِهِ بالمَدينَةِ عَشرَ سِنينَ، فَما عاتَبَهُ على شيءٍ فعَلَه، ولا قال لِشيءٍ صَنَعهُ: «**لِمَ صَنَعتَ هذا هَكذا؟**»، ولا لِشيءٍ لَم يصنَعهُ: «**لِمَ لَم تَصنَع هذا هَكذا؟**»[٣].

وقال أَبو هريرة: «ما رَأَيتُ أَحَدًا أَشبَهَ صَلاةً برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ ابنِ أُمِّ سُلَيمٍ»، يَعني: أَنَسَ بن مالِكٍ.

وقال ابنُ سيرينَ: «كان أَحسَنَ الناسِ صَلاةً في سَفَرِهِ وحَضَرِهِ».

وعن أَبي خَلدَةَ، قال: قُلتُ لِأَبي العاليَةِ: سَمِعَ أَنَسٌ منَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: «خَدَمَهُ عَشرَ سِنينَ، ودَعا له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان له بُستانٌ يَحمِلُ في السَّنَةِ الفاكِهَةَ مَرَّتَينِ، وكان فيها رَيحانٌ، يَجِدُ منه ريحَ المِسكِ».

وقال ثابتٌ البُنانيُّ: «جاءَ قَيِّمُ أَرضِ أَنَسٍ، فقال: عَطِشَت أَرَضوكَ.

فَتَرَدَّى أَنَسٌ[٤]، ثم خرجَ إلى البَرِّيَّةِ، ثم صَلَّى ودَعا، فَثارَت سَحابَةٌ، وغَشيت أَرضَهُ،

---

(١) خويصةٌ، بتشديد الصاد وبتخفيفها، تصغير خاصة، وهو مما اغتفر فيه التقاء الساكنين. فتح الباري (٤/ ٢٢٨).

(٢) رواه البخاري (١٩٨٢)، واللفظ له، ومسلم (٢٤٨١).

(٣) رواه البخاري (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٤) تردى بالرداء: لبسه.

ومَطَرَت حتى مَلأَت صِهريجَهُ[١]، وذلك في الصيفِ، فَأَرسَلَ بَعضَ أَهلِهِ، فقال: انظُر أَينَ بلغَت؟ فإذا هي لَم تَعدُ أَرضَهُ إلا يَسيرًا».

قال الذَّهَبيُّ: «هذه كَرامَةٌ بَيِّنَةٌ، ثَبَتَت بإسنادَينِ».

وقال ابنُ قُتَيبَةَ: «ثَلاثَةٌ من أهلِ البصرَةِ لم يموتوا حتى رأى كُلُّ واحدٍ منهم مئةَ ذكرٍ من صُلبه: أَنَسُ بن مالكٍ، وأبو بكرة، وخَليفةُ بن بدر».

وكانت وفاتُهُ بالبَصرَةِ، وهو آخِرُ مَن كان قد بَقيَ فيها منَ الصحابَةِ، فيما قالهُ عَليُّ بن المَدينيِّ، وذلك في سنةِ تِسعينَ، وقيلَ: إحدى، وقيلَ: اثنَتَينِ، وقيلَ: ثَلاثًا وتِسعينَ، وهو الأَشهَرُ، وعليه الأَكثَرُ.

وأَمَّا عُمرُهُ يَومَ ماتَ: فأَقَلُّ ما قيلَ: سِتٌّ وتِسعونَ، وأَكثَرُ ما قيلَ: مئةٌ وسَبعُ سِنينَ، وقيلَ: سِتٌّ، وقيلَ: مئةٌ وثَلاثُ سِنينَ، فاللهُ أَعلَمُ[٢].

شرح الحديث:

قَولُهُ: «كان أَبو طَلحَةَ أَكثَرَ الأَنصارِ بالمَدينَةِ مالًا من نَخلٍ، وكان أَحَبُّ أَموالِهِ إليه بَيرُحاءَ»:

«أَبو طَلحَةَ»: هو زَيدُ بن سَهلِ بن الأَسوَدِ بن حَرامِ بن عَمرِو بن زَيدِ مَناةَ بن عَديِّ بن عَمرِو بن مالِكِ بن النجَّارِ، الخَزرَجيُّ، النجَّاريُّ، أَحَدُ أَعيانِ البَدريِّينَ، وأَحَدُ النُّقَباءِ الاثنَي عَشَرَ لَيلَةَ العَقَبَةِ.

رَوى عَنِ النبيِّ ﷺ، وروى عنه ابنُه عبدُ اللهِ، ورَبيبُه أَنَسُ بن مالكٍ، وزيدُ بنُ خالِدٍ الجهنيُّ، وابنُ عباسٍ، وعُبيدُ اللهِ بن عبدِ اللهِ بن عُتبَةَ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عبد القاري، وغيرُهم.

---

(١) الصهريج: واحد الصهاريج، وهي كالحياض، يجتمع فيها الماء. لسان العرب (٢/ ٣١٢).

(٢) ينظر: تهذيب التهذيب (١/ ٣٧٦-٣٧٩)، أسد الغابة (١/ ٢٩٤)، البداية والنهاية (٨/ ٣٠١)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩٥-٤٠٦)، الإصابة (١/ ٢٧٥-٢٧٨)، تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٧).

كان من كُبراءِ الصحابةِ وأفاضِلِهم، ومن أكرَمِهم وأشجَعِهم. وهو زَوجُ أمِّ سُلَيم.

عن ثابتٍ، عن أَنَسٍ، قال: «خَطَبَ أَبو طَلحَةَ أُمَّ سُلَيمٍ، فقالت: واللهِ ما مِثلُكَ يا أَبا طَلحَةَ يُرَدُّ، ولكنَّكَ رجلٌ كافِرٌ، وأَنا امرَأَةٌ مسلمَةٌ، ولا يَحِلُّ لي أَن أَتَزَوَّجَكَ، فَإِن تُسلِم فَذاكَ مَهري، وما أَسأَلُكَ غيرَهُ، فَأَسلَمَ، فكان ذلك مَهرَها».

قال ثابتٌ: «فَما سَمِعتُ بامرَأَةٍ قَطُّ كانت أَكرَمَ مَهرًا من أُمِّ سُلَيمٍ: الإِسلام»[١].

شَهِدَ أبو طلحةَ العَقَبَة وبدرًا وأُحُدًا والمَشاهِدَ كلَّها مع رسول اللهِ ﷺ.

وعن أَنَسٍ رضي الله عنه، عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «**لَصَوتُ أَبي طَلحَةَ في الجَيشِ خَيرٌ من فِئَةٍ**»[٢].

وصح عن أَنَسٍ، أَنَّ أَبا طَلحَةَ قَرَأَ سورَةَ بَراءَة، فَأَتى على هذه الآيةِ: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، فقال: «أَرى رَبَّنا عزوجل يَستَنفِرُنا شُيوخًا وشُبَّانًا، جَهِّزوني، أَي بَنيَّ»، فقال له بَنوهُ: يَرحَمُكَ اللهُ، قد غَزَوتَ مع رسولِ اللهِ ﷺ حتى قُبِضَ، وغَزَوتَ مع أَبي بكرٍ حتى ماتَ، وغَزَوتَ مع عمرَ، فَنَحنُ نَغزو عنكَ، فقال: «جَهِّزوني»، فَجَهَّزوهُ، ورَكِبَ البَحرَ فَماتَ، فلم يَجِدوا له جَزيرَةً يَدفِنونَهُ فيها إلا بعدَ سَبعَةِ أَيَّامٍ، فلم يَتَغَيَّر[٣].

وقال ابنُ نُمَيرٍ وابنُ بُكَيرٍ وأبو حاتِمٍ: «ماتَ سنَةَ أربَعٍ وثَلاثينَ، وصَلَّى عليه عُثمانَ».

وقيلَ: ماتَ سنةَ اثنَتَينِ وثَلاثينَ[٤].

قال الحافظُ: «وقال شُعبَةُ: عن ثابتٍ وحُمَيدٍ، عن أنسٍ: «كان أبو طلحَةَ لا يصومُ[٥] على عهدِ رسولِ الله ﷺ من أجلِ الغَزوِ، فصامَ بعدَه أربَعين سنَةً، لا يُفطِر إلا يومَ أضحى، أو فِطرٍ»[٦].

---

(١) رواه النسائي (٣٣٤١)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الإمام أحمد (١٢٠٩٥)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه ابن حبان (٧١٨٤)، وأبو يعلى (٣٤١٣)، وأحمد في الزهد (١٤٠٦)، والحاكم (٢٥٠٣)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧)، تهذيب التهذيب (٣/ ٤١٤)، الإصابة (٢/ ٥٠٢).

(٥) أي: لا يصوم تطوعًا.

(٦) روى البخاري (٢٨٢٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كان أبو طلحة لا يصوم على عهد النبي ﷺ =

وقال أبو زُرعَةَ الدِّمَشقيُّ: «توُفِّي بالشَّامِ، وعاشَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ أربَعين سنةً».

قُلتُ: كَأَنَّهُ أخَذَه من حديثِ شُعبةَ، وكذا روى حمَّادُ بن سَلَمَةَ، عن ثابتٍ، عن أنَسٍ.

فعلى هذا: تكونُ وفاتُه سنَةَ إحدى وخَمسينَ، وقد قاله أبو الحَسَنِ المَدائِنيُّ، وزَعَم أبو نُعَيمٍ أَنَّهُ وهمٌ، والظَّاهِر أَنَّهُ الصوابُ، ويُؤيّد كَونَ ذلك صوابًا: روايةُ مالكٍ في المَوَطَّأِ عن أبي النضر، عن عُبيد اللهِ بن عبدِ اللهِ بن عُتبَةَ، أَنَّهُ دَخَل على أبي طَلحَةَ يَعودُه، فذكر الحديثَ في التصاويرِ، وقد صَحَّحَه التّرمذيُّ[1].

وعُبَيدُ اللهِ بن عبدِ اللهِ لم يُدرِك عُثمانَ، ولا يَصِحُّ له سَماعٌ من عَليٍّ، فهذا يَدُلُّ على تَأَخُّرِ وفاةِ أَبي طَلحَةَ، واللهُ أعلَمُ»[2].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختُلِفَ في وفاةِ أَبي طَلحَةَ، وأَصَحُّ شيءٍ في ذلك: ما رواهُ أَبو زُرعَةَ، قال: سَمِعتُ أَبا نُعَيمٍ يُحَدِّثُ عن حَمَّادِ بن سَلَمَةَ، عن ثابتٍ، عن أَنَسٍ، قال: «سَرَدَ أَبو طَلحَةَ الصومَ بعدَ النبيِّ ﷺ أَربَعينَ سنةً».

فَكَيفَ يَجوزُ أَن يُقال: إنَّهُ ماتَ سنةَ أَربَعٍ وثَلاثينَ، وهو قد صامَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ أَربَعينَ سنةً؟ وإذا كان ذلك كَما ذكرنا صَحَّ أَنَّ وفاتَهُ لَم تَكُن إلا بعدَ خَمسينَ سنةً منَ الهِجرَةِ، واللهُ أَعلَمُ»[3].

= من أجل الغزو، فلما قبض النبي ﷺ لم أره مفطرًا إلا يوم فطر أو أضحى».

وفي رواية: «كان أبو طلحة لا يكثر الصوم على عهد رسول الله ﷺ، فلما مات النبي ﷺ كان لا يفطر إلا في سفر أو مرض»، رواه الإمام أحمد (١٢٠١٦)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

وقال الحافظ: «قوله: «لا يصوم»: في رواية أبي الوليد، عند أبي نعيم، وعلي بن الجعد، كلاهما عن شعبة عند الإسماعيلي: «لا يكاد يصوم»، وفي رواية عاصم بن علي عن شعبة عند الإسماعيلي: «كان قلما يصوم»، فدل على أن النفي في رواية آدم- يعني: رواية البخاري- ليس على إطلاقه». فتح الباري (٦/ ٤٢).

(١) رواه الإمام مالك (٣٥٤٦)، ومن طريقه رواه الترمذي (١٧٥٠)، وصححه، والنسائي (٥٣٤٩)، وأحمد (١٥٩٧٩)، وصححه الألباني.

(٢) تهذيب التهذيب (٣/ ٤١٤).

(٣) التمهيد (٢١/ ١٩٢).

عَودةٌ إلى شَرحِ الحَديثِ:

قَولُهُ: «مالًا من نَخلٍ»:

يُطلَقُ المالُ على كلّ ما يُملَكُ من نَقدٍ، وأرضٍ، وإبلٍ، وغيرِ ذلك.

قال الحافظُ: «المَعروفُ من كَلامِ العَرَب: أَنَّ كُلَّ ما يُتَمَوَّلُ ويُملَكُ فَهو مالٌ، كَقَولِ عمرَ: «أَصَبتُ أَرضًا بخَيبَرَ، لَم أُصِب مالًا قَطُّ أَنفَسَ عِندي منه»[(١)]، وقَولِ أَبي طَلحَةَ هنا: «أَحَبّ أَموالي إِلَيَّ بَيرُحاء»، ويُؤَيِّدُهُ قَولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥]، فَإِنَّهُ يَتَناوَلُ كُلَّ ما يَملِكُهُ الإنسانُ.

وأَمَّا قَولُ أَهلِ اللُّغَةِ: «العَرَبُ لا توقِعُ اسمَ المالِ عِندَ الإطلاقِ إلا على الإبلِ؛ لِشَرَفِها عِندَهُم»، فلا يَدفَعُ إطلاقَهُمُ المالَ على غيرِ الإبلِ، فقد أَطلَقوهُ أَيضًا على غيرِ الإبلِ منَ المَواشي، وفي الحديث: «**نَهى عن إضاعَةِ المالِ**»[(٢)]، وهو يَتَناوَلُ كُلَّ ما يُتَمَوَّلُ»[(٣)].

قَولُهُ: «وكان أَحَبُّ أَموالِهِ إليه بَيرُحاءَ»:

قال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه اللَّفظَةُ كَثيرًا ما تختلفُ أَلفاظُ المحدِّثين فيها، فَيقولونَ: «بَيرَحاء»، بفَتحِ الباءِ وكَسرِها، وبفَتحِ الراءِ وضَمِّها والمَدِّ فيهما، وبَفَتحِهما والقَصرِ، وهي اسمُ مالٍ ومَوضِعٍ بالمَدينَةِ، وقال الزَّمَخشَريُّ: «إنَّها فَيعلى منَ البَراحِ، وهي الأَرضُ الظَّاهِرَةُ»[(٤)].

وقال الحافظُ: «وفي روايةِ حَمَّادِ بن سَلَمَةَ: «بَريحا»، وفي سُنَنِ أَبي داوُدَ: «باريحا»، وقال الباجيُّ: «أَفصَحُها بفَتحِ الباءِ وسُكونِ الياءِ وفَتحِ الراءِ مَقصورٌ»، وكذا جَزَمَ بهِ الصغانيُّ وقال: إنَّهُ فَيعلى منَ البَراحِ»[(٥)].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٣)، ومسلم (٥٩٣).

(٣) فتح الباري (١١/ ٥٩٢)، باختصار.

(٤) النهاية (١/ ١١٤).

(٥) فتح الباري (٣/ ٣٢٦).

وقال **العَينيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَشهَرُ الوُجوهِ فيه: فَتحُ الباءِ الموَحَّدَةِ، وسُكونُ الياءِ آخِرِ الحُروفِ، وفَتحِ الراءِ، وبالحاءِ المهملَة، مَقصورا، وهو بُستان بالمَدينَةِ فيه ماءٌ»[١].

قَولُهُ: «وكانت مُستَقبلَةَ المسجدِ»:

قال النوَويُّ: «وهذا المَوضِعُ يُعرَفُ ب«قَصرِ بَني جَديلَةَ»، قِبليِّ المسجدِ»[٢].

وعِندَ **البخاريّ**: «وكانت تِلكَ الحَديقَةُ في مَوضِعِ «قَصرِ بَني حُدَيلَةَ»، الذي بَناهُ مُعاويَةُ».

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: حَدَّثَنا أَحمَدُ بن قاسِمٍ، قال: حَدَّثَنا عُبَيدُ اللهِ بن محمدٍ، قال: حَدَّثَنا عبدُ اللهِ بن محمدِ بن عبدِ العَزيزِ البَغَويُّ، قال: حَدَّثَنا بشرُ بن الوَليدِ، قال: حَدَّثَنا عبدُ العَزيزِ بن أَبي سَلَمَةَ الماجشون، عن إسحاقَ بن عبدِ اللهِ بنِ أَبي طَلحَةَ، عن أَنَسِ بن مالِكٍ، قال: «لَمَّا نزلَت هذه الآيةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، جاءَ أَبو طَلحَةَ ورسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبَرِ»، قال: «وكانت دارُ أَبي جَعفَرٍ والدَّارُ التي تَليها إلى قَصرِ بَني جَديلَة حَوائِطَ لأبي طَلحَةَ، وقد كان قَصرُ بَني جَديلَةَ حائِطًا لِأَبي طَلحَةَ، يُقالُ له بَيرُحاءُ، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدخُلُها...»[٣].

قال الحافظُ: «ومُرادُهُ بدارِ أَبي جَعفَرٍ: التي صارَت إليه بعدَ ذلك، وعُرِفَت بهِ، وهو أَبو جَعفَرٍ المَنصورُ الخَليفَةُ المَشهورُ العباسيُّ.

وأَمَّا قَصرُ بَني حُدَيلَةَ، وهو بالمهمَلَةِ مُصَغَّرٌ، ووَهَمَ مَن قالهُ بالجيمِ[٤]: فَنُسِبَ إليهمُ القَصرُ بسَبَب المجاوَرَةِ، وإلا فالذي بَناهُ هو مُعاويَةُ بن أَبي سُفيانَ، وبَنو حُدَيلَةَ: بَطنٌ منَ الأَنصارِ، وهُم بَنو مُعاويَةَ بن عَمرِو بن مالِكِ بن النجَّارِ، وكانوا بتِلكَ البُقعَةِ، فَعُرِفَت بهِم، فلما اشتَرى مُعاويَةُ حِصَّةَ حَسَّانَ بَنى فيها هذا القَصرَ، فَعُرِفَ بقَصرِ بَني حُدَيلَةَ، ذكرَ ذلك عمر بن شَبَّةَ وغيرُهُ في أَخبارِ المَدينَةِ»[٥].

---

(١) عمدة القاري (١٨/ ١٤٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (٧/ ٨٤).

(٣) الاستذكار (٨/ ٥٩٨)، وإسناده صحيح.

(٤) وقال ابن الجوزي في كشف المشكل (٣/ ٢٠٥): «أكثر المحدثين يروونه بالجيم، والصواب: بالحاء المضمومة».

(٥) فتح الباري (٥/ ٣٨٨).

قَولُهُ: «وكان رسولُ اللهِ ﷺ يَدخُلُها، ويَشرَبُ من ماءٍ فيها طَيِّبٍ»:

وذلك لِأَنَّهُ ﷺ كان يَستَعذِبُ ماءَها[١].

وعِندَ ابنِ عبدِ البَرِّ: «ويَشرَبُ من مائِها، ويَأكُلُ من تَمرِها»[٢].

قال أَنَسٌ: «فلما أُنزِلَت هذه الآيةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]»:

وهذا حَثٌّ من اللهِ لِعِبادِه على الإنفاقِ في طُرُقِ الخَيراتِ، فقال: ﴿لَن تَنَالُوا۟﴾، أي: تُدرِكوا وتَبلُغوا ﴿ٱلْبِرَّ﴾ الذي هو كُلّ خَيرٍ من أنواعِ الطاعاتِ وأنواعِ المَثوباتِ، الموصل لصاحِبه إلى الجنة، ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، أي: من أموالِكُم النفيسةِ، التي تُحِبُّها نُفوسُكم، فإنَّكُم إذا قدَّمتُم مَحَبَّة اللهِ على مَحَبَّةِ الأموالِ، فبَذَلتُموها في مرضاتِه، دَلَّ ذلك على إيمانِكُمُ الصادِق، وبرِّ قُلوبكم، ويَقينِ تَقواكُم، فيدخُل في ذلك إنفاقُ نَفائسِ الأموالِ، والإنفاقُ في حالِ حاجَةِ المنفِق إلى ما أنفَقَه، والإنفاق في حالِ الصحَّةِ، ودَلَّتِ الآيةُ أنَّ العبدَ بحَسب إنفاقِه للمَحبوباتِ يكونُ برُّه، وأَنَّهُ ينقصُ من برِّه بحَسب ما نقصَ من ذلك[٣].

قَولُهُ: «قامَ أَبو طَلحَةَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتعالى يقولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾»:

وفي روايةٍ لمسلم: «لَمَّا نزلَت هذه الآيةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قال أَبو طَلحَةَ: أَرى رَبَّنا يَسأَلُنا من أَموالِنا، فَأُشهِدُكَ يا رسولَ اللهِ، أَنِّي قد جَعَلتُ أَرضي بَريحا للهِ».

وهذا ما أخبَرَ اللهُ تعالى به عن عِبادِه المؤمنينَ، إذ قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) عمدة القاري (٢١/ ١٨٩).

(٢) الاستذكار (٨/ ٥٩٨).

(٣) تفسير السعدي (ص١٣٨).

سَمِعنا ما أمَرتَنا به فبادَرنا إليه، وسمِعنا ما نَهَيتَنا عنه فاجتَنَبناه، ولم نَكُن مِمَّن قال: «سَمِعنا وعَصَينا».

وفي روايةٍ: أَنَّهُ قال له ذلك وهو على المنبَرِ[١].

فإن قيلَ: ألا كان ذلك بينَه وبينَه؛ فإنَّه أدَلُّ على الإخلاصِ، وأعظَمُ للأجرِ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]؟

فيُقالُ: **أولًا**: إذا كان في إظهارِ الصدقةِ مَصلَحةٌ راجِحَةٌ، كدَعوَةِ الناسِ للصَّدقَة، ليَقتَدوا به، تَرَجَّحَ إظهارُها على إخفائِها، **قال ابنُ كَثيرٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَولُهُ: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فيه دَلالَةٌ على أَنَّ إسرارَ الصدَقَةِ أَفضَلُ من إظهارِها؛ لِأَنَّهُ أَبعَدُ عَنِ الرِّياءِ، إلا أن يَترَتَّبَ على الإظهارِ مَصلَحَةٌ راجِحَةٌ، مِنَ اقتِداءِ الناسِ بِهِ، فَيكونَ أَفضَلَ من هذه الحَيثِيَّةِ»[٢].

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إخفاءُ الصدَقةِ أفضلُ من إبدائِها؛ لِأَنَّهُ أقربُ إلى الإخلاصِ، وأستَرُ للمُتَصَدَّقِ عليه، لكِن إذا كان في إبدائِها مَصلَحةٌ تَرجحُ على إخفائِها -مِثل أن يكونَ إبداؤُها سببًا لاقتِداءِ الناسِ بَعضِهِم ببَعض، أو يكونَ في إبدائِها دَفعُ مَلامَةٍ عنِ المتَصَدِّق، أو غير ذلك منَ المَصالِحِ-، فإبداؤُها أفضَلُ»[٣].

وعن جَريرِ بن عبدِ اللهِ البَجليِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا عِندَ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صَدرِ النهارِ، قال: فَجاءَهُ قَومٌ حُفاةٌ عُراةٌ مُجتابي النِّمارِ[٤] أوِ العَباءِ، مُتَقَلِّدي السُّيوفِ، عامَّتُهُم من مُضَرَ، بَل كُلُّهُم من مُضَرَ، فتَمَعَّرَ[٥] وجهُ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِما رَأى بِهِم منَ الفاقَةِ، فَدَخَلَ ثم خرجَ، فَأَمَرَ بلالًا فَأَذَّنَ وأَقامَ، فَصَلَّى ثم خَطَبَ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٣٦٨٨)، وابن خزيمة (٢٤٥٥)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٧٠١).

(٣) تفسير الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٥٨).

(٤) أراد أنه جاءه قوم لابسي أزر مخططة من صوف. النهاية (٥/ ١١٨).

(٥) أي: تغير.

﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، إلى آخرِ الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، والآيةَ التي في الحَشرِ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]، ثم قال: «**تَصَدَّقَ رجلٌ من دينارِهِ، من دِرهَمِهِ، من ثَوبِهِ، من صاعِ بُرِّهِ، من صاعِ تَمرِهِ** -حتى قال- **ولو بشِقِّ تَمرَةٍ**».

قال: فَجاءَ رجلٌ منَ الأَنصارِ بصُرَّةٍ كادَت كَفُّهُ تَعجِزُ عنها، بَل قد عَجَزَت، قال: ثم تَتابَعَ الناسُ، حتى رَأَيتُ كَومَينِ من طَعامٍ وثيابٍ، حتى رَأَيتُ وجهَ رسولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ[1]، كَأَنَّهُ مُذهَبَةٌ[2]، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنةً فَله أَجرُها وأَجرُ مَن عَمِلَ بها بعدَهُ، من غيرِ أَن يَنقُصَ من أُجورِهِم شيءٌ.**

ومَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها من بعدِهِ، من غيرِ أَن يَنقُصَ من أوزارِهِم شيءٌ»[3].

فحَيثُ تصَدَّق أبو طَلحَةَ رضي الله عنه أمامَ الناسِ بأَحَبِّ مالِه إليه، وجَهَر بذلك فيهم، صارَ قُدوَةً لهُم في فِعلِ الخَيرِ والمبادرةِ إليه، فيكون له -بفَضلِ اللهِ- أجرُ ما صَنَع، وأجرُ مَن صنَع مِثلَ صنيعِه، واقتَدى بفِعلِه.

ثانيًا: لَم يَكُن سبيلٌ إلى إخفاءِ هذه الصدقَةِ؛ فمن المقطوعِ به أنَّ أمرَها سيُعرَفُ في الناسِ؛ لِأَنَّهُم سيرَون أنَّ أبا طَلحَةَ صاحِبَها قد خرجَ منها، وخَلَفَه عليها غيرُه من قرابَتِه، فلن يُمكِنَه إسرارُ الأمرِ، فأظهَرَه وجَهَر به؛ ليستَفيد محلّ القُدوَةِ.

فعندَ التِّرمِذيِّ وغيرِه: قال: يا رسولَ اللهِ، حائِطي للهِ، ولو استَطَعتُ أَن أُسِرَّهُ لَم أُعلِنهُ، فقال: «**اجعَلهُ في قَرابَتِكَ**»[4].

قَولُهُ: «وإنَّها صَدَقَةٌ للهِ، أَرجو برَّها وذُخرَها عِندَ اللهِ»:

---

(١) أي: يستنير فرحًا وسرورًا.

(٢) ما موه بالذهب.

(٣) رواه مسلم (١٠١٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٩٩٧)، وصححه، وأحمد (١٢١٤٤)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

«برَّها»، أَي: خَيرَها، «وذُخرَها»، أَي: نَتيجَتَها المدَّخَرَةَ، وفائِدَتَها المدَّخَرَةَ، يَعني: لا أُريدُ ثَمَرَتَها العاجِلَةَ الدُّنيَويَّةَ الفانيَةَ، بَل أَطلُبُ مَثوبَتَها الآجِلَةَ الأُخرَويَّةَ الباقيَةَ[1].

فأَبانَ بذلك أَنَّهُ إنَّما قصَدَ وجهَ اللهِ تعالى، فأرادَ بها اللهَ في الفِعلِ، وأرادَ بها عُقبى اللهِ في الأجرِ.

قَولُهُ: «فَضَعها يا رسولَ اللهِ حَيثُ أَراكَ اللهُ»:

وفي روايةٍ في الصحيحَينِ: «فَضَعها يا رسولَ اللهِ حَيثُ شِئتَ».

وفي الموطأ: عن عبدِ اللهِ بن أَبي بكرٍ، أَنَّ أَبا طَلحَةَ الأَنصاريَّ كان يُصَلِّي في حائِطِهِ، فَطارَ دُبسيٌّ[2]، فَطَفِقَ يَتَرَدَّدُ، يَلتَمِسُ مَخرَجًا، فَأَعجَبَهُ ذلك، فَجَعَلَ يُتبعُهُ بَصَرَهُ ساعَةً، ثم رجعَ إلى صَلاتِهِ، فإذا هو لا يَدري كَم صَلَّى، فقال: «لَقد أَصابَتني في مالي هذا فِتنَةٌ».

فَجاءَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذكرَ له الذي أَصابَهُ في حائِطِهِ منَ الفِتنَةِ، وقال: «يا رسولَ اللهِ، هو صَدَقَةٌ للهِ، فَضَعهُ حَيثُ شِئتَ»[3].

وهذا تَفويضٌ منه إليه في تَعيين مَصرِفِها، لا في وقفيَّتِها[4].

قَولُهُ: «فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَخٍ»:

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أَهلُ اللُّغَةِ: يُقالُ: «بَخٍ»، بإسكانِ الخاءِ وتَنوينِها مَكسورَة، وحَكى القاضي الكَسرَ بلا تَنوينٍ، وحَكى الأَحمَرُ التشديدَ فيه، قال القاضي: «وروِيَ بالرفعِ، فإذا كُرِّرَت فالاختيارُ تَحريكُ الأَوَّلِ مُنَوَّنًا، وإسكانُ الثَّاني»، وقال ابنُ دُرَيدٍ: «مَعناهُ: تَعظيمُ الأَمرِ وتَفخيمُهُ، وسُكِّنَتِ الخاءُ فيه كَسُكونِ اللَّامِ في «هَل» و«بَل»، ومَن قال: «بَخٍ» بكَسرِهِ مُنَوَّنًا شَبَّهَهُ بالأَصواتِ كَـ«صَهٍ» و«مَهٍ».

---

(١) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٣٥٦).

(٢) طائر كالحمام.

(٣) الموطأ للإمام مالك (٦٩)، وسنده ضعيف؛ لإرساله، قال ابن عبد البر: «هذا الحديث لا أعلمه يروى من غير هذا الوجه، وهو منقطع». التمهيد (١٧/ ٣٨٩).

(٤) دليل الفالحين (٣/ ١٢٦).

وقال ابن السِّكِّيتِ: «بَخٍ بَخٍ» و«بَهٍ بَهٍ» بمعنى واحدٍ.

وقال الدَّاوُديُّ: «بَخٍ» كَلِمَةٌ تُقالُ إذا حُمِدَ الفِعلُ»، وقال غيرُهُ: «تُقالُ عِندَ الإعجاب»[١].

وقال **ابنُ الأَثيرِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «هي كَلِمَةٌ تُقالُ عِندَ المَدحِ والرِّضا بالشَّيءِ، وتُكَرَّرُ للمُبالَغَةِ، وهي مَبنية على السُّكونِ، فَإن وصَلتَ جَرَرتَ ونَوَّنتَ، فَقُلتَ: «بَخٍ بَخٍ»، ورُبَّما شُدِّدَت.

وبَخبَختَ الرجُلَ: إذا قُلتَ له ذلك، ومَعناها: تَعظيمُ الأَمرِ وتَفخيمُه»[٢].

قَولُهُ: «ذلك مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ»:

قال النوَويُّ: «ضَبَطناهُ هُنا بوَجهَينِ: بالياءِ المُثَنَّاةِ وبالموَحَّدَةِ، فَمَن رواهُ بالموَحَّدَةِ فَمَعناهُ ظاهِرٌ، ومَن رواهُ «رايحٌ» بالمُثَنَّاةِ فَمَعناهُ: رايحٌ عليكَ أَجرُهُ ونَفعُهُ في الآخِرَةِ»[٣].

وقال **الحافظُ**: «الرِّوايَةُ الأولى واضِحَةٌ، منَ الرِّبحِ، أَي: ذو رِبحٍ، وقيلَ: هو فاعِلٌ بمعنى مَفعولٍ، أَي: هو مالٌ مَربوحٌ فيه.

وأَمَّا الثَّانيَةُ، فَمَعناها: رائِحٌ عليه أَجرُهُ، قال ابنُ بَطَّالٍ: «والمعنى: أَنَّ مَسافَتَهُ قَريبَةٌ، وذلك أَنفَسُ الأَموالِ».

وقيلَ: مَعناهُ: يَروحُ بالأَجرِ ويَغدو بهِ، واكتَفى بالرواحِ عَنِ الغُدوِّ.

وادَّعى الإسماعيليُّ أَنَّ مَن رواها بالتحتانيَّةِ فقد صَحَّفَ، واللهُ أَعلَمُ»[٤].

وقال **ابن عبدِ البَرِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَرادَ: مالٌ رابحٌ صاحِبُهُ ومُعطيهِ، فَحُذِفَ، وذلك مَعروفٌ من كَلامِ العَرَب، يقولونَ: مالٌ رابحٌ، ومَتجَرٌ رابحٌ، كَما قالوا: لَيلٌ نائِمٌ، أَي: يُنامُ فيه، وهَكذا رواهُ يَحيى: مالٌ رابحٌ، منَ الرِّبحِ، وتابَعَهُ على ذلك جَماعَةٌ، ورواهُ ابنُ وهبٍ وغيرُهُ بالياءِ المَنقوطَةِ، وقال في تَفسيرِهِ: «إِنَّهُ يَروحُ على صاحِبهِ بالأَجرِ العَظيمِ»، وحقيقَتُهُ عِندَ

---

(١) شرح النووي على مسلم (٧/ ٨٥).

(٢) النهاية (١/ ١٠١).

(٣) شرح النووي على مسلم (٧/ ٨٦).

(٤) فتح الباري (٣/ ٣٢٦).

أَهلِ المَعرِفَةِ باللِّسانِ على أَنَّهُ على النصب، أَي: مالٌ ذو رِبحٍ، كَما يقولونَ: هَمٌّ ناصِبٌ، وعيشَةٌ راضيَةٌ، أَي: هَمٌّ ذو نَصَبٍ، وعيشَةٌ ذاتُ رِضى.

وقال الأخفَشُ: «أَصلُهُ منَ الروحَةِ، أَي: هو مالٌ يَروحُ عليكَ ثَمَرُهُ وخَيرُهُ مَتى شِئتَ».

والأَوَّلُ أولى عِندي، واللهُ أَعلَمُ»[١].

وقال **ابنُ الجوزيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «رابحٌ» بالباء أَصَحُّ من «رايِحٍ» بالياءِ»[٢].

قال **ابنُ بَطَّالٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَسَلَّاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يَنالُه من رِبحِ الآخِرَةِ، وما عوَّضَه اللهُ فيها، عَمَّا عجَّلَه في الدُّنيا الفانيَة»[٣].

قَولُهُ: «وقد سَمِعتُ ما قُلتَ، وإِنِّي أَرى أَن تَجعَلها في الأَقرَبينَ»:

قال **القاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: منَ الفُقَراءِ والمَساكينِ؛ ليكونَ جَمعًا بينَ الصدَقَةِ والصلَةِ»[٤].

ولا يَلزَمُ من ذلك أن تكون في الفُقراءِ والمَساكينِ وحدَهُم.

وقال **الحافظُ**: «وقَعَ في روايةِ الماجِشونِ: «فَجَعَلها أَبو طَلحَةَ في ذي رَحِمِهِ، وكان منهم حَسَّانُ، وأُبَيُّ بن كَعبٍ».

فَدَلَّ على أَنَّهُ أَعطى غيرَهُما معهما»[٥].

وقال **الطِّيبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه: أَنَّ أفضَلَ البرِّ ما لأولي القُربى»[٦].

وفي روايةٍ للبُخاريّ: «بَخ يا أَبا طَلحَةَ، ذلك مالٌ رابحٌ، قَبلناهُ منكَ، ورَدَدناهُ عليكَ، فاجعَلهُ في الأَقرَبينَ».

---

(١) التمهيد (١/ ٢١٦).

(٢) كشف المشكل (٣/ ٢٠٥).

(٣) شرح صحيح البخارى (٣/ ٤٨١).

(٤) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٣٥٦).

(٥) فتح الباري (٥/ ٣٩٧).

(٦) شرح المشكاة (٥/ ١٥٦٨).

وعِندَ **الدَّارَقُطنيّ**: قال: «**اجعَلهُ في فُقَراءِ أَهلِ بَيتِكَ، وأَقارِبكَ**»[١].

قَولُهُ: «**فقال أَبو طَلحَةَ: أَفعَلُ يا رسولَ اللهِ، فَقَسَمَها أَبو طَلحَةَ في أَقارِبِهِ، وبَني عَمِّهِ**»:

وعِندَ البخاريّ: «فَتَصَدَّقَ بِهِ أَبو طَلحَةَ على ذَوي رَحِمِهِ، قال: وكان منهم أُبَيٌّ، وحَسَّانُ، وباعَ حَسَّانُ حِصَّتَهُ منه من مُعاويَةَ، فَقيلَ له: تَبيعُ صَدَقَةَ أَبي طَلحَةَ؟ فقال: أَلا أَبيعُ صاعًا من تَمرٍ بصاعٍ من دَراهِمَ؟».

وعِندَ **مسلمٍ**: «فَجَعَلها في حَسَّانَ بن ثابتٍ، وأُبَيِّ بن كَعبٍ».

وعِندَ **أحمَدَ، وابنِ خُزَيمَةَ**: «فَقَسَمَها بينهم حَدائِقَ».

وعِندَ **الطيالِسيِّ**: «فَجَعَلها حَدائِقَ بينَ حَسَّانَ بن ثابتٍ، وأُبَيِّ بن كَعبٍ».

و**قال البخاريُّ**: «قال الأَنصاريُّ: حَدَّثَني أَبي، عن ثُمامَةَ، عن أَنَسٍ، مِثلَ حَديثِ ثابتٍ، قال: «**اجعَلها لِفُقَراءِ قَرابَتِكَ**»، قال أَنَسٌ: فَجَعَلها لِحَسَّانَ، وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ، وكانا أَقرَبَ إليه مِنِّي[٢].

وكان قَرابَةُ حَسَّانَ وأُبَيٍّ من أَبي طَلحَةَ، واسمُهُ: زَيدُ بن سَهلِ بن الأَسوَدِ بن حَرامِ بن عَمرِو بن زَيدِ مَناةَ بن عَديِّ بن عَمرِو بن مالِكِ بن النجَّارِ، وحَسَّانُ بنُ ثابتِ بن المنذِرِ بن حَرامٍ، فَيَجتَمِعانِ إلى حَرامٍ، وهو الأَبُ الثَّالِثُ، وحَرامُ بن عَمرِو بن زَيدِ مَناةَ بن عَديِّ بن عَمرِو بن مالِكِ بن النجَّارِ، فَهو يُجامِعُ حَسَّانَ وأَبا طَلحَةَ وأُبَيًّا إلى سِتَّةِ آباءٍ، إلى عَمرِو بن مالِكٍ، وهو أُبَيُّ بن كَعب بن قَيسِ بنِ عُبَيدِ بن زَيدِ بن مُعاويَةَ بن عَمرِو بن مالِكِ بن النجَّارِ، فَعَمرو بن مالِكٍ يَجمَعُ حَسَّانَ وأَبا طَلحَةَ وأُبَيًّا»[٣].

---

(١) سنن الدارقطني (٤٤٢١)، وسنده صحيح.

(٢) وصله الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٢/ ١٢٦): حدثنا إبراهيم بن مرزوق، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا أبي... فذكره.

(٣) صحيح البخاري (٤/ ٦)، وهذا من كلام الأنصاري كما بينه أبو داود في سننه (٢/ ١٣١)، وينظر: الفتح (٥/ ٣٨١).

وعِندَ **البخاريّ أَيضًا**: «فَجعَلها لِحَسَّانَ وأُبَيٍّ، ولَم يَجعَل لي منها شَيئًا».

وقال الحافظُ -بعدَ أن ذكَرَ بعضَ ما وردَ في ذلك-: «ومُلَخَّصُ ذلك: أَنَّ أَحَدَ الرجُلَينِ اللذينِ خَصَّهُما أَبو طَلحَةَ بذلك أَقرَبُ إليه منَ الآخَرِ، فَحَسَّانُ يَجتَمِعُ معه في الأَب الثَّالِثِ، وأُبَيٌّ يَجتَمِعُ معه في الأَب السَّادِسِ، فَلَو كانتِ الأَقرَبيَّةُ مُعتبَرَةً لَخَصَّ بذلك حَسَّانَ بن ثابتٍ دونَ غيرِهِ، فَدَلَّ على أَنَّها غيرُ مُعتبَرَةٍ، وإِنَّما قال أَنَسٌ: «لِأَنَّهُما كانا أَقرَبَ إليه مِنِّي»؛ لِأَنَّ الذي يَجمَعُ أَبا طَلحَةَ وأَنَسًا النجَّارُ، لِأَنَّهُ من بَني عَديِّ بن النجَّارِ، وأَبو طَلحَةَ وأُبَيٌّ بن كَعبٍ من بَني مالِكِ بنِ النجَّارِ، فَلِهذا كان أُبَيٌّ بن كَعبٍ أَقرَبَ إلى أَبي طَلحَةَ من أَنَسٍ.

ويَحتَمِلُ أَن يكونَ أَبو طَلحَةَ راعى فيمَن أَعطاهُ من قَرابَتِهِ الفَقرَ، لكنِ استَثنى مَن كان مَكفيًّا مِمَّن تَجِبُ عليه نَفَقَتُهُ، فَلِذلك لَم يُدخِل أَنَسًا، فَظَنَّ أَنَسٌ أَنَّ ذلك لِبُعدِ قَرابَتِهِ منه»[1].

وقال بَدرُ الدِّينِ العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان حَسَّانُ وأُبَيٌّ بن كَعبٍ أَقرَبَ إلى أبي طَلحَةَ من أَنَسِ بن مالكٍ؛ لِأَنَّهُما يَبلُغان إلى عَمرو[2] بواسِطَة سِتَّة أنفُس، وأَنَسٌ يبلُغُ إليه بواسِطَة اثنَي عَشَرَ نَفسًا»[3].

ومِمَّا وردَ من كلامِ العُلماء في ذِكرِ فوائِدِ هذا الحَديثِ:

* أَنَّ الوَقفَ لا يَحتاجُ في انعِقادِهِ إلى قَبولِ المَوقوفِ عليه، وأَنَّ مُنقَطعَ الآخِرِ في الوَقفِ يُصرَفُ لِأَقرَب الناسِ إلى الواقِفِ.

* واستَدَلَّ بِهِ بَعضُ المالِكيَّةِ على صِحَّة الصدَقَةِ المطلَقَةِ، ثم يُعَيِّنُها المتَصَدِّقُ لِمَن يُريدُ.

* واستُدِلَّ بِهِ للجُمهورِ في أَنَّ مَن أوصى أَن يُفَرَّقَ ثُلُثُ مالِهِ حَيثُ أَرى اللهُ الوَصيَّ

(١) فتح الباري (٥/ ٣٨١).

(٢) يعني: عمرو بن مالك بن النجار.

(٣) عمدة القاري (١٤/ ٤٦).

صَحَّت وصيَّتُه، ويُفَرِّقُه الوَصيُّ في سُبُلِ الخَيرِ، ولا يَأكُلُ منه شَيئًا، ولا يُعطي منه وارِثًا للمَيِّتِ.

* **وفيه**: جَوازُ التصَدُّقِ منَ الحَيِّ في غيرِ مَرَضِ المَوتِ بأَكثَرَ من ثُلُثِ مالِهِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ لَم يَستَفصِل أَبا طَلحَةَ عن قدرِ ما تَصَدَّقَ بِهِ، وقال لِسَعدِ بن أَبي وقَّاصٍ: «**الثُّلُثُ كَثيرٌ**»(١).

* **وفيه**: تَقديمُ الأَقرَب منَ الأَقارِب على غيرِهِم.

* **وفيه**: جَوازُ إضافَةِ حُبِّ المالِ إلى الرجُلِ الفاضِلِ العالِمِ، ولا نَقصَ عليه في ذلك، وقد أخبر تعالى عَن الإنسان فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، والخَيرُ هُنا: المالُ اتِّفاقًا.

* **وفيه**: اتِّخاذُ الحَوائِطِ والبَساتينِ، ودُخولُ أَهلِ الفَضلِ والعِلمِ فيها، والاِستِظلالُ بظِلِّها، والأَكلُ من ثَمَرِها، والراحَةُ والتنَزُّهُ فيها، وقد يكونُ ذلك مُستَحَبًّا يَترَتَّبُ عليه الأَجرُ، إذا قَصَدَ بِهِ إجمامَ النفسِ من تَعَب العِبادَةِ، وتَنشيطَها للطَّاعَةِ.

* **وفيه**: إباحَةُ الشُّرب من دارِ الصديقِ، ولو لَم يَكُن حاضِرًا، إذا عَلِمَ طيبَ نَفسِهِ.

* **وفيه**: إباحَةُ استِعذاب الماءِ، وتَفضيل بَعضِهِ على بَعضٍ.

وفي حديث أَبي الهَيثَم بن التيهانِ، لما سأل رسولُ اللهِ ﷺ عنه زَوجَتَهُ: «**أَينَ فُلانٌ؟**»، قالت: ذَهَبَ يَستَعذِبُ لَنا منَ الماءِ(٢).

* **وفيه أنّ** استِطابَةَ الأَطعِمَةِ جائِزَةٌ، وأَنَّ ذلك من فِعلِ أَهلِ الخَيرِ أحيانًا(٣).

---

(١) رواه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) رواه مسلم (٢٠٣٨).

«ذهب يستعذب لنا من الماء»، أي: يأتينا بماء عذب.

(٣) **قال ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «شراب الماء العذب وطلبه مباح للصالحين والفضلاء، وليس شرب الماء الذعاق «المر» أفضل من شرب العذب؛ لأن النبي ﷺ كان يشرب العذب ويؤثره، وفيه القدوة والأسوة الحسنة، ومحال أن يترك الأفضل فى شيء من أفعاله. =

* واستُدِلَّ بهِ لِما ذَهَبَ إليه مالِكٌ: من أَنَّ الصدَقَةَ تَصِحُّ بالقَولِ من قَبلِ القَبضِ، فَإن كانت لِمُعَيَّنٍ استَحقَّ المطالَبَةَ بقَبضِها، وإن كانت لِجِهَةٍ عامَّةٍ خرجَت عن مِلكِ القائِلِ، وكان للإمامِ صَرفُهُ في سَبيلِ الصدَقَةِ، وكُلُّ هذا ما إذا لَم يَظهَر مُرادُ المتَصَدِّقِ، فَإن ظَهَرَ اتُّبِعَ.

* **وفيه**: جَوازُ تَوَلِّي المتَصَدِّقِ قَسمَ صَدَقَتِهِ.

* **وفيه**: جَوازُ أَخذِ الغَنيِّ من صَدَقَةِ التطَوُّعِ، إذا حَصَلَ له بغيرِ مَسأَلَةٍ.

* **وفيه**: زيادَةُ الصدَقَةِ في التطَوُّعِ على قدرِ نِصاب الزَّكاةِ، خِلافًا لِمَن قَيَّدَها بهِ.

* **وفيه**: فَضيلَةٌ لِأَبي طَلحَةَ؛ لِأَنَّ الآيَةَ تَضَمَّنَتِ الحَثَّ على الإنفاقِ منَ المَحبوب، فَتَرَقَّى هو إلى إنفاقِ أَحَبِّ المَحبوب، فَصَوَّبَ ﷺ رَأيَهُ.

* **وفيه**: أَنَّ الوَقفَ يَتِمُّ بقَولِ الواقِفِ: «جَعَلتُ هذا وقفًا»، وأَنَّ الصدَقَةَ على الجِهَةِ العامَّةِ لا تَحتاجُ إلى قَبول مُعَيَّنٍ، بَل للإمامِ قَبولُها منه، ووَضعُها فيما يَراهُ.

* **وفيه**: أَنَّهُ لا يُعتَبَرُ في القَرابَةِ مَن يَجمَعُهُ والواقِفَ أَبٌ مُعَيَّنٌ، لا رابعٌ ولا غيرُهُ؛ لِأَنَّ أُبَيًّا إنَّما يَجتَمِعُ مع أَبي طَلحَةَ في الأَب السَّادِسِ.

* وأَنَّهُ لا يَجِبُ تَقديمُ القَريب على القَريب الأَبعَد؛ لِأَنَّ حسَّانَ بن ثابتٍ أَقرَبُ إلى أَبي طَلحَةَ من أُبَيٍّ، ومع ذلك فقد أَشرَكَ معه أُبَيًّا، ونُبَيطَ بن جابرٍ.

* **وفيه**: أَنَّهُ لا يَجِبُ الإستيعابُ؛ لِأَنَّ بَني حَرامٍ الذي اجتَمع فيه أَبو طَلحَةَ وحَسَّانُ كانوا بالمَدينَةِ كَثيرًا، فَضلًا عن عَمرِو بن مالِكٍ الذي يَجمَعُ أَبا طَلحَةَ وأُبَيًّا[1].

= وفي هذا الحديث دليل على أن استعذاب الأطعمة وجميع المآكل جائز لأولى الفضل، وأن ذلك من أفعال الصالحين، ولو أراد الله ألا تؤكل لذيذ المطاعم لم يخلقها لعباده، ولا امتن بها عليهم، بل أراد تعالى منهم أكلها ومقابلتها بالشكر الجزيل عليها والحمد، بما من به منها، بما ينبغي لكرم وجهه وعز سلطانه، وقد قال أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٧]: أنها نزلت فيمن حرم على نفسه لذيذ المطاعم». شرح صحيح البخارى (٦/ ٦٧).

(١) ينظر: فتح الباري (٥/ ٣٩٧).

* **وفيه**: أَن الصدَقَة على الأَقارِب وضُعَفاءِ الأهلين أفضلُ منها على سائِر الناس، إذا كانت صَدَقَة تطوع[١].

* **وفيه**: أن القَرابَةَ يُرعى حقُّها في صِلَةِ الأَرحامِ، وإن لَم يَجتَمِعوا إلا في أَبٍ بَعيدٍ؛ لِأَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ أَبا طَلحَةَ أَن يَجعَلَ صَدَقَتَهُ في الأَقرَبينَ، فَجَعَلها في أُبَيِّ بنِ كَعبٍ، وحَسَّانَ بن ثابتٍ، وإنَّما يَجتَمِعانِ معه في الجَدِّ السَّابعِ[٢].

* **وفيه**: أنَّ ما فَوَّتَه الرجُلُ من حَميمِ مالِه وغَبيطِ عقارِه[٣] عن ورَثَتِه بالصدَقة، أَنَّهُ يُستَحَبُّ له أن يَرُدَّه إلى أقارِبه غيرِ الوَرَثةِ؛ لِئَلَّا يَفقِدَ أهلُه نَفعَ ما خَوَّلَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

* **وفيه**: أن الصدَقَة إذا كانت جَزلةً[٤] أنّ صاحِبَها يُمدَح بها ويُغبَط؛ لقولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَخٍ، ذلك مالٌ رابحٌ**»[٥].

* **وفيه**: أَنَّهُ ليس من شَرطِ الوَقفِ أن يكونَ للفُقَراء والمساكينِ خاصَّةً، ألا ترى أنَّ عمر شَرَطَ فى وقفِه مع الفُقَراءِ والمساكينِ ذا القُربى والضَّيفَ[٦]، وقد يكون فيهم أغنياءَ. وكذلك قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبى طَلحَةَ: «**إنِّى أَرى أَن تَجعَلها في الأَقرَبينَ**»، فجَعَلها لحَسَّان بن ثابتٍ، وأُبَيِّ بن كَعبٍ، ولم يكونا فُقَراءَ، ولَم يُحَرِّمِ اللهُ على الأغنياءِ من الصدقاتِ إلا الزَّكاةَ وصَدَقَةَ الفِطرِ خاصَّةً، وأحَلَّ لهُم الفَيءَ والجِزيةَ وصدَقاتِ التطَوُّع كُلَّها، فجائِزٌ للموقِفِ أن يجعَلَ وقفَه فيمَن شاءَ من أصنافِ الناسِ، أغنياءَ كانوا أو فُقَراءَ، أو قُرَباء كانوا أو بُعَداءَ، له شَرطُه في ذلك، وهذا لا خِلافَ فيه[٧].

---

(١) عمدة القاري (٩/ ٣١).

(٢) شرح النووي على مسلم (٧/ ٨٦).

(٣) الغبيط من الأرض: الواسع. المحيط في اللغة (٥/ ٣٣).

(٤) عظيمة.

(٥) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٣/ ٤٨١).

(٦) روى البخاري (٢٧٧٣) عن ابن عمر، أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجد مالاً بخيبر، فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، قال: «**إن شئت تصدقت بها**»، فتصدق بها في الفقراء، والمساكين، وذي القربى، والضيف.

(٧) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٨/ ١٩٢).

* **وقال ابنُ عبدِ البَرِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه: إباحَةُ دُخولِ جَنَّاتِ الأَصدِقاءِ والإخوانِ الأَصفياءِ، والأَكلِ من ثِمارِها، والشُّرب من مائِها، بغيرِ إذنِهم، وذلك كُلُّهُ إذا عَلِمَ أَنَّ نَفسَ صاحِبها تَطيبُ بذلك، ولَم يَكُن مِمَّا يتَشاحُّ الناسُ فيه، وكان تافِهًا.

* **وفيه**: دَليلٌ على أَنَّهُ يُستَعذَبُ الماءُ للفُضَلاءِ الجِلَّةِ العُلَماءِ.

* **وفيه**: أَنَّ مَن أَخرَجَ شَيئًا من مالِهِ فَجائِزٌ جَعلُهُ حَيثُ أَراهُ اللهُ من سُبُلِ الخَيرِ، وجائِزٌ أَن يُشاوِرَ فيه، ويَصدُرَ عنه برَأيِ مَن يَثِقُ برَأيِهِ في ذلك.

* **وفيه**: دَليلٌ على أَنَّ الصدَقَةَ على الأَقارِبِ الفُضَلاءِ من أَعمالِ البرِّ؛ لِأَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَشهَدُ إلا بالأَفضَلِ منَ الأَعمالِ، وقد قالوا: «الصدَقَةُ على الأَقارِبِ صَدَقَةٌ وصِلَةٌ»[1].

وقد فَضَّلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصدَقَةَ على الأَقارِبِ على العِتقِ؛ بدَليلِ حَديثِ مَيمونَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كانت لي جارِيَةٌ فَأَعتَقتُها، فَدَخَلَ عَلَيَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخبَرتُهُ، فقال: «**لَو أَعطَيتِها أَخوالَكِ كان أَعظَمَ لِأَجرِكِ**»[2][3].

* **وفيه**: أَنَّ الرجُلَ الفاضِلَ العالِمَ قد يُضافُ إليه حُبُّ المالِ، وقد يُضيفُهُ هو إلى نَفسِهِ، وليس في ذلك نقيصة عليه ولا على مَن أَضافَ ذلك إليه، إذا كان ذلك من وجهِ حِلِّهِ،

---

(١) عن سلمان بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة**»، رواه الترمذي (٦٥٨)، وحسنه، والنسائي (٢٥٨٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، وصححه الألباني.

وعن زينب امرأة عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كنت في المسجد، فرأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**تصدقن، ولو من حليكن**»، وكانت زينب تنفق على عبد الله، وأيتام في حجرها، قالت: فانطلقت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأسأله، فوجدت امرأةً من الأنصار على الباب، حاجتها مثل حاجتي، فمر علينا بلال، فقلنا: سل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيجزي عني أن أنفق على زوجي، وأيتام لي في حجري؟ وقلنا: لا تخبر بنا، فدخل فسأله، فقال: «**من هما؟**»، قال: زينب، قال: «**أي الزيانب؟**»، قال: امرأة عبد الله، قال: «**نعم، لها أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة**». رواه البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠).

(٢) رواه البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

(٣) الاستذكار (٨/ ٥٩٩).

وما أَباحَ اللهُ منه، وكان أَبو طَلحَةَ من خيارِ أَصحاب النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أَخبَرَنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ عنِ الإنسَانِ فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، قال المفسرون: «الخَيرُ -ها هُنا-: المالُ».

* **وفيه:** إباحَةُ اتِّخاذِ الجَنَّاتِ والحَوائِطِ، وإباحَةُ دُخولِ العُلَماءِ والفُضَلاءِ البَساتينَ، وما جانَسَها منَ الجَنَّاتِ والكُرومِ وغيرِها؛ طَلَبًا للرَّاحَةِ والتفَرُّجِ والنظَرِ إلى ما يُسَلِّي النفسَ، وما يوجِبُ شُكرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على نِعَمِهِ.

* **وفيه:** ما يَدُلُّ على إباحَةِ كَسب العَقارِ، ولا خِلافَ عَلِمتُهُ في أَنَّ كَسبَ العَقارِ مُباحٌ إذا كان من حِلِّهِ، ولَم يَكُن سَبَبَ ذُلٍّ وصَغارٍ.

* **وفيه:** إباحَةُ الشُّرب من ماءِ الصديقِ بغيرِ إذنِهِ، وماءِ الحَوائِطِ والجَنَّاتِ والدُّور عِندَنا[1] مَملوكٌ لِأَهلِهِ، لهمُ المَنعُ منه، وَالتصَرُّفُ فيه، بالبَيعِ وَغَيرِهِ.

وإذا جازَ الشُّربُ من ماءِ الصديقِ بغيرِ إذنِهِ جازَ الأَكلُ من ثِمارِهِ وطَعامِهِ، إذا عَلِمَ أَنَّ نَفسَ صاحِبِهِ تَطيبُ بهِ؛ لِتَفاهَتِهِ ويُسرِ مُؤنَتِهِ، ولِما بينهما منَ المَوَدَّةِ، وقد قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١].

ذكرَ محمدُ بن ثَورٍ، عن مَعمَرٍ، قال: دَخَلتُ بَيتَ قَتادَةَ، فَأَبصَرتُ رُطَبًا، فَجَعَلتُ آكُلُهُ، فقال: «ما هذا؟»، قُلتُ: أَبصَرتُ رُطَبًا في بَيتِكَ فَأَكَلتُ، قال: «أَحسَنتَ، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

* **وفيه:** استِعمالُ ظاهِرِ الخِطاب وعُمومِهِ، وأَنَّ الصحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَم يَفهَموا من فَحوى الخِطاب غيرَ ذلك، أَلا تَرى أَنَّ أَبا طَلحَةَ حينَ سَمِعَ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ لَم يَحتَج أَن يَقِفَ حتى يَرِدَ عليه البَيانُ عَنِ الشَّيءِ الذي يُريدُ اللهُ أَن يُنفِقَ منه عِبادُهُ بآيةٍ أُخرى، أو سُنَّةٍ مُبَيِّنَةٍ لِذلك؟ فَإِنَّهُم يُحِبُّونَ أَشياءَ كَثيرَةً، وفي بدارِ[2] أَبي

---

(١) أي: المالكية.

(٢) مسارعة.

طَلحَةَ إلى استِعمالِ ما وقَعَ عليه معنى حُبِّهِ في الإنفاقِ منه دَليلٌ على استِعمالِهِ معنى العُمومِ، وما احتَمَلَ الاسمُ الظَّاهِرُ منه في أَقَلِّ ذلك أو أَكثَرِهِ، وفي هذا رَدٌّ على مَن أَبى مِنِ استِعمالِ العُمومِ لِاحتِمالِهِ التخصيصَ، وهذا أَصلٌ من أُصولِ الفِقهِ كَبيرٌ.

وكذلك فَعَلَ زَيدُ بن حارِثَةَ: بَدرَ -مِمَّا يُحِبُّ- إلى فَرَسٍ له فَجَعَلها صَدَقَةً؛ لِأَنَّ ذلك كُلَّهُ داخِلٌ تَحتَ عُمومِ الآيةِ.

وعن عاصِمِ بن محمدٍ، عن أَبيهِ، قال: دَخَلَ عبدُ اللهِ بن عمرَ على صَفيَّةَ بنتِ أَبي عُبَيدٍ، فقال لها: «أَشَعَرتِ أَنِّي أُعطيتُ بنافِعٍ أَلفَ دينارٍ، أَعطاني بِهِ عبدُ اللهِ بن جَعفَرٍ؟»، قالت: فَما تَنتَظِرُ أَن تَبيعَ؟ قال: «فَهَلَّا خَيرٌ من ذلك؟»، قالت: وما هوَ؟ قال: «هو حُرٌّ لِوَجهِ اللهِ».

قال: أَظُنُّهُ تَأَوَّلَ قَولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وعَنِ الثَّوريِّ، أَنَّهُ بلغَهُ أَنَّ أُمَّ ولَدِ الربيعِ بن خُثَيمٍ قالت: كان إذا جاءَ السَّائِلُ يقولُ لي: «يا فُلانَةُ، أَعطي السَّائِلَ سُكَّرًا؛ فَإِنَّ الربيعَ يُحِبُّ السُّكَّرَ».

قال سُفيانُ: يَتَأَوَّلُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وقال الحَسَنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّكُم لا تَنالونَ مِمَّا تُحِبُّونَ إلا بتَركِ ما تَشتَهونَ، ولا تُدرِكونَ ما تَأملونَ إلا بالصبرِ على ما تكرَهونَ».

* **وفيه:** رَدٌّ على مَن كَرِهَ أَكلَ الصدَقَةِ التَطَوُّعِ للغَنيِّ من غيرِ مَسأَلَةٍ؛ لِأَنَّ أَقارِبَ أَبي طَلحَةَ الذينَ قَسَّمَ عليهم صَدَقَتَهُ تِلكَ لَم يَبن لَنا أَنَّهُم فُقَراءُ مِمَّن يَحِلُّ لهم أَخذُ الصدَقَةِ المَفروضَةِ، وقد ذكرَ بَعضُ أهلِ العِلمِ أَنَّ أُبَيَّ بن كَعبٍ كان من أَيسَرِ أَهلِ المَدينَةِ، وهو أَحَدُ الذينَ قَسَّمَ عليهم أَبو طَلحَةَ صَدَقَتَهُ هذه.

فالصدَقةُ التطَوّع جائِزٌ قَبولُها من غيرِ مَسأَلَةٍ لِكُلِّ أَحَدٍ، غَنيًّا كان أو فَقيرًا، وإن كان التنَزُّهُ عنها أَفضَلَ عِندَ بَعضِ العُلَماءِ.

* هذا الحَديثَ ليس فيه بَيانُ الوَقفِ، ويُحتَمَلُ أَن تَكونَ صَدَقَةُ أَبي طَلحَةَ صَدَقَةَ تَمليكٍ للرَّقَبَةِ، بَلِ الأَغلَبُ الظَّاهِرُ من قَولِهِ: «فَقَسَّمَها أَبو طَلحَةَ بينَ أَقارِبِهِ وبَني عَمِّهِ» أَنَّهُ قَسَّمَ رَقَبَتَها ومَلَّكَهُم إيَّاها؛ ابتِغاءَ مَرضاتِ اللهِ.

وإذا كان ذلك كذلك فلا خِلافَ بينَ العُلَماءِ في جَوازِ هذه الصدَقَةِ إذا حَلَّ المتصدَّقُ عليه فيها محلّ المتصدِّق، وكان له أَن يَبيعَ ويَنتَفِعَ ويَهَبَ ويَتَصَدَّقَ ويَصنَعَ ما أحبّ[1].

* **وفي الحَديثِ**: الرُّجوعُ إلى أهلِ العِلمِ عندَ قِسمَةِ الصدقاتِ؛ لِأَنَّ العالِمَ أعلَمُ بالأكثَرِ نفعًا، والأعظمِ أجرًا.

ويخلِطُ كثيرٌ منَ الناسِ بينَ مصارِفِ الزّكاةِ المفروضةِ وصدَقاتِ التّطَوُّعِ والأوقافِ؛ ولذلك لا يَصلُح أن يتَوَلَّى على الصدَقَةِ مَن لا فِقهَ عندَه في مسائلِ الصدقاتِ والتبَرُّعاتِ والأوقافِ.

* استَدَلَّ بهذا الحَديثِ غيرُ واحدٍ على مشروعيَّة الوَقفِ، والظَّاهِرُ من هذا الحَديثِ: أنَّ صدَقَةَ أبي طَلحَةَ كانت تمليكًا وهِبَةً للأقارِب -كما تقدَّم في كلامِ ابن عبدِ البَرِّ-، وليس وقفًا؛ لِأَنَّ معنى الوقفِ: حَبسُ الأصلِ، والتصَدُّقُ بالمَنفَعَةِ.

وأمَّا مشروعيَّةُ الوقفِ: فتُؤخَذُ من أحاديثَ أُخرى، مثل حديثِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَن عمرَ بن الخَطَّاب أَصابَ أَرضًا بخَيبَرَ، فَأَتى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَأمِرُهُ فيها، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنِّي أَصَبتُ أَرضًا بخَيبَرَ، لَم أُصِب مالًا قَطُّ أَنفَسَ عِندي منه، فَما تَأمُرُ بِهِ؟ قال: «**إن شِئتَ حَبَستَ أَصلها، وتَصَدَّقتَ بها**».

قال: فَتَصَدَّقَ بها عمرُ، أَنَّهُ لا يُباعُ، ولا يوهَبُ، ولا يورَثُ، وتَصَدَّقَ بها في الفُقَراءِ، وفي القُربى، وفي الرِّقاب، وفي سَبيلِ اللهِ، وابنِ السَّبيلِ، والضَّيفِ، لا جُناحَ على مَن وليَها أَن يَأكُلَ منها بالمَعروفِ، ويُطعِمَ، غيرَ مُتَمَوِّلٍ[2].

* قال اللهُ تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ**﴾ [البقرة: ٢٦٧].

فيأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمِنينَ بالنفَقَةِ من طيِّباتِ ما يَسَّرَ لهم من المكاسِب، ومِمَّا أخرَجَ

---

(١) التمهيد (١/ ٢٠٠-٢١٢).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢).

«غير متمول»: غير متخذ منها مالًا، أي ملكًا، والمراد: أنه لا يتملك شيئًا من رقابها. الفتح (٥/ ٤٠١).

لهُم من الأرضِ، فكما منَّ عليكُم بتسهيلِ تَحصيلِه فأَنفِقوا منه شُكرًا للهِ، وأداءً لبَعضِ حُقوقِ إخوانِكُم عليكُم، وتَطهيرًا لأموالِكُم، واقصدوا في تِلكَ النّفَقةِ الطيِّبَ الذي تُحِبُّونَه لأنفُسِكم، ولا تَقصدوا الرّديءَ الذي لا ترغَبونَه ولا تأخُذونه إلا على وجهِ الإغماضِ والمسامَحة، فتَخُصُّون الفقيرَ بالرّديءِ، وتحتَفِظون لِأنفُسِكم بالجَيِّدِ[1].

قال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَمَرَهُم بالإنفاقِ من أَطيب المالِ وأَجوَدِهِ وأَنفَسِهِ، ونَهاهُم عَنِ التصَدُّقِ برُذالَةِ المالِ ودَنيِّهِ -وَهو خَبيثُهُ -؛ فَإِنَّ اللهَ طَيبٌ لا يَقبَلُ إلا طَيِّبًا»[2].

ولا بأسَ بذكر الوقفِ، وبعضِ أحكامه؛ لتَعُمَّ الفائِدَةُ من شرحِ هذا الحَديثِ:

تَعريفُ الوَقفِ:

الوَقفُ: هو تحبيسُ الأصل، وتَسبيلُ المَنفَعَة.

والمرادُ بالأصلِ: ما يُمكِن الانتفاعُ به مع بقاءِ عينِه، كالدُّور، والدّكاكينِ، والبَساتين، ونَحوِها.

والمرادُ بالمنفَعَةِ: الغَلَّة الناتِجةُ عن ذلك الأصلِ، كالثَّمرةِ، والأُجرَةِ، وسُكنى الدَّارِ، ونحوِها.

حُكمُ الوَقف:

الوَقفُ قُربَةٌ مُستَحَبٌّ في الإسلامِ، والدليل على ذلك: حديثُ عمرَ المتقدّم، وكذلك ما رواهُ مسلمٌ عن أَبي هريرة، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا ماتَ الإنسانُ انقَطَعَ عنه عَمَلُهُ إلا من ثَلاثَةٍ: إلا من صَدَقَةٍ جاريَةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ بِهِ، أو ولَدٍ صالِحٍ يَدعو له**»[3].

والصدقَةُ الجاريَةُ هيَ: الوَقفُ[4].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص١١٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٦٩٧).

(٣) صحيح مسلم (١٦٣١).

(٤) شرح النووي على مسلم (١١/ ٨٥).

ويُشترطُ في الواقف:

أن يكون جائِزَ التّصَرُّف، بأن يكونَ بالِغًا، حُرًا، رَشيدًا، فلا يَصِحُّ الوَقفُ منَ الصغيرِ، والسَّفيه، والمَملوكِ.

وينعَقِد الوَقف بأحدِ أمرَين:

الأوّل: القولُ الدَّالّ على الوَقف، كأن يقولَ: وقَفتُ هذا المَكان، أو: جَعَلتُه مَسجدًا.

الأمر الثَّاني: الفِعل الدَّالّ على الوَقف في عُرفِ الإنسانِ، كمن جَعَل دارَه مَسجدًا، وأذِن للناس في الصلاةِ فيه إذنًا عامًا، أو جعَل أرضَه مقبَرةً، وأذِنَ للناس في الدَّفنِ فيها.

وألفاظُ التوقيفِ قِسمان:

القِسم الأوَّل: ألفاظٌ صَريحَةٌ؛ كأن يقول: وقَفتُ، وحبَستُ، وسَبَّلتُ.

وسُمِّيَت هذه الألفاظُ صَريحةً؛ لِأَنَّها لا تحتَمِل غيرَ الوَقف، فمتى أتى بصيغةٍ منها صارَ وقفًا، من غيرِ انضمامِ أمرٍ زائِدٍ إليهِ.

والقِسم الثَّاني: ألفاظُ كِنايَةٍ، كأن يقولَ: تصَدَّقتُ، وحَرَّمتُ، وأَبَّدتُ.

وسُمِّيَت كِناية؛ لِأَنَّها تحتَمِل معاني الوَقف وغيرِه؛ فمَتى تلَفَّظ بواحدٍ من هذه الألفاظِ؛ اشتُرِطَ اقترانُ نيَّةِ الوَقف معه، أو اقترانُ أحَدِ الألفاظِ الصريحةِ، أو الباقي من ألفاظِ الكِنايةِ معه.

واقترانُ أحَدِ الألفاظِ الصريحَةِ كأن يقولَ: تصَدَّقتُ بكذا صدَقةً موقوفةً، أو مُحَبَّسَةً، أو مُسَبَّلَةً، أو مُحَرَّمةً، أو مُؤبَّدةً.

واقترانُ لفظِ الكنايَةِ بحُكمِ الوَقف كأن يقولَ: تصَدَّقتُ بكذا صدَقَةً، لا تُباعُ، ولا تورَثُ.

ويُشتَرَطُ لصِحَّةِ الوَقف شُروطٌ، وهيَ:

أوّلًا: أن يكونَ الواقِفُ جائِزَ التصرُّف، كما سبقَ.

ثانيًا: أن يكون المَوقوفُ مِمَّا يُنتَفَعُ به انتفاعًا مُستَمرًّا مع بقاءِ عينِه، فلا يوقَفُ ما لا يَبقى بعدَ الإنتفاعِ بهِ، كالطعامِ.

ثالثًا: أن يكونَ المَوقوفُ مُعَيَّنًا؛ فلا يَصِحُّ وقفُ غيرِ المعَيَّنِ، كما لو قال: «وقَفتُ عبدًا من عبيدي، أو بَيتًا من بُيوتي»، لو وقَفَ عبدًا من عبيدِهِ، أو بَيتًا من بُيوتِه.

رابعًا: أن يكونَ الوَقف على برٍّ؛ لِأَنَّ المقصودَ بهِ التقَرُّبُ إلى اللهِ تعالى، كالمَساجِدِ، والقَناطِر، والمَساكين، والسِّقايات، وكُتُب العِلمِ، فلا يَصِحُّ الوَقف على غيرِ جِهَةِ برٍّ، كالوَقفِ على معابدِ الكُفَّارِ، وكُتُب الزندَقَة، والوَقفِ على الأضرِحَةِ لتَنويرِها أو تَبخيرِها، أو على سَدَنَتِها؛ لِأَنَّ ذلك إعانةٌ على المَعصيَةِ، والشِّركِ، والكُفرِ.

خامسًا: يُشتَرطُ في صِحَّةِ الوَقف إذا كان على مُعَيَّنٍ أن يكونَ ذلك المعَيَّنُ يَملِك مِلكًا ثابتًا؛ لِأَنَّ الوَقف تَمليكٌ، فلا يَصِحُّ على مَن لا يملِك، كالمَيِّت، والحَيَوانِ.

سادسًا: يُشتَرطُ لصِحَّةِ الوَقف أن يكونُ مُنَجَّزًا، فلا يَصِحّ الوَقفُ المؤَقَّتُ ولا المعَلَّقُ، إلا إذا عَلَّقَه على مَوتِه، فيَصِحُّ ذلك، كأن يقولَ: «إذا متُّ فبَيتي وقفٌ على الفُقَراء».

ويكون الوَقفُ المعَلّقُ على المَوتِ من ثُلُثِ المالِ؛ لِأَنَّه يكون في حُكمِ الوصيَّة.

شَرطُ الواقِفِ:

مِن أحكامِ الوَقفِ: أَنَّهُ يَجِبُ العَمَلُ بشَرطِ الواقِفِ إذا كان لا يُخالِفُ الشَّرعَ؛ لقَولِه ﷺ: «**المسلمونَ على شُروطِهِم، إلا شَرطًا حَرَّمَ حَلالًا، أو أَحَلَّ حَرامًا**»[1].

فإذا شَرَطَ منه مقدارًا، أو شرَطَ تقديمًا لبَعضِ المستَحِقِّين على بَعضٍ، أو اشتَرَطَ اعتِبارَ وصفٍ في المستَحِقّ، أو اشتَرَط عدَمَه، أو شَرَطَ النظَر على الوَقف، وغيرَ ذلك: لَزِمَ العملُ بشَرطِه، ما لم يُخالِف كِتابًا، ولا سُنَّةً.

فإن لم يشتَرِط شَيئًا، استَوى في الإستحقاقِ الغَنيُّ والفَقيرُ والذَّكَرُ والأُنثى منَ المَوقوفِ عليهم.

---

(١) رواه الترمذي (١٣٥٢)، وصححه الألباني.

وإذا لم يُعَيِّن ناظِرًا للوَقفِ، أو عَيَّن شَخصًا وماتَ، فالنّظَرُ على الوَقفِ يكون للمَوقوفِ عليه إن كان مُعَيّنًا، وإن كان الوَقف على جِهَةٍ كالمساجِد، أو مَن لا يُمكِنُ حَصرُهم كالمَساكين، فالنظَر على الوَقف يكونُ للحاكِم، يتوَلّاه بنَفسِه، أو يُنيبُ عنه مَن يَتَوَلّاه.

ويَجِبُ على الناظِرِ أن يَتَّقيَ اللهَ ويُحسِنَ الوِلايَةَ على الوَقفِ؛ لِأَنَّ ذلك أمانَةٌ اؤتُمِنَ عليها.

وإذا وقَفَ على أولادِه استَوى الذُّكورُ والإناثُ في الاِستِحقاقِ؛ لِأَنَّهُ شِركٌ بينهم، وإطلاقُ التشريكِ يقتَضي الاِستِواءَ في الاِستِحقاقِ، كما لو أقرّ لهُم بشيءٍ، فإنَّه يكون بينَهم بالسَّويّة، فكذلك إذا وقَفَ عليهم شَيئًا.

ثم بعد أولادِه لصُلبه ينتَقِل الوَقفُ إلى أولادِ بَنيهِ دونَ ولَدِ بَناتِه؛ لِأَنَّهُم من رجلٍ آخَرَ، فيُنسَبون إلى آبائِهم، ولعَدَمِ دُخولِهم في قَولِه تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ [النساء: ١١].

ومنَ العُلماءِ مَن يرى دُخولَهم في لفظِ الأولادِ؛ لِأَنَّ البناتِ أولادُه، فأولادُهُنّ أولادُ أولادِه حقيقَةً، واللهُ أعلمُ.

ولو قال: وقفٌ على أبنائي، أو بَني فلانٍ، اختصّ الوَقف بذُكورِهم؛ لِأَنَّ لفظَ البنَين وُضِعَ لذلك حقيقةً، قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩].

إلا أن يكونَ المَوقوفُ عليهم قبيلةً، كبَني هاشِمٍ، وبَني تَميمٍ، فيدخُل فيهمُ النِّساءُ؛ لِأَنَّ اسمَ القبيلةِ يشمَلُ ذكرَها وأُنثاها.

لكِن إذا وقَفَ على جماعةٍ يُمكِنُ حَصرُهم، وجَب تعميمُهم والتسويةُ بينَهم، وإن لم يُمكِن حصرُهم واستيعابُهم، كبَني هاشِم، وبَني تَميم، لم يَجِب تعميمُهم؛ لِأَنَّهُ غيرُ مُمكِنٍ، وجازَ الاِقتِصارُ على بعضِهم، وتفضيلُ بعضِهم على بعضٍ.

والوُقوفُ منَ العُقود اللازِمَةِ بمُجَرّدِ القَول، فلا يجوز فَسخُها؛ لقولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يُباعُ أَصلُها، ولا يوهَبُ، ولا يورَثُ**»، قال التّرمِذيُّ: «العَمَلُ على هذا عِندَ أَهلِ العِلمِ»[1].

(١) سنن الترمذي (٣/ ٦٥١).

فلا يَجوزُ فسخُه؛ لِأَنَّهُ مُؤبَّدٌ، ولا يُباعُ، إلا أن تَتَعَطَّلَ مَنافِعُه بالكُلِّيّة، كدارٍ انهَدَمَت ولم تُمكِن عمارَتُها من رَيعِ الوَقفِ، أو أرضٍ زراعيَّة خَرِبَت وعادَت مَواتًا ولم يُمكِن عمارتُها، فيُباعُ الوَقف الذي هذه حالُه، ويُصرَف ثَمَنُه في مِثلِه؛ لِأَنَّهُ أقرَبُ إلى مقصود الواقِفِ، فإن تَعَذَّر مِثلُه كامِلًا صُرِفَ في بعضِ مِثلِه، ويصيرُ البديلُ وقفًا بمُجَرَّدِ شرائِهِ.

وإن كان الوَقفُ مسجدًا فتعَطَّل في مَوضِعِه، كأن خَرِبَت محلّتُه، فإنّه يُباعُ ويُصرَفُ ثمَنُه في مسجدٍ آخَر.

وإذا كان على مسجدٍ وقفٌ زادَ رَيعُه عن حاجَتِه جازَ صَرفُ الزائِدِ إلى مسجدٍ آخَر؛ لِأَنَّهُ انتِفاعٌ بهِ في جِنسِ ما وُقِفَ لَه.

وتجوز الصدقَةُ بالزائِدِ من غَلَّةِ الوَقفِ على المسجدِ على المَساكِينِ.

وإذا وقَفَ على مسجدٍ فخَرِبَ، صُرِفَ الوَقفُ في مِثلِه من المَساجِدِ[1].



(١) ينظر: المغني لابن قدامة (٦/ ٣-٣١)، الفروع لابن مفلح (٧/ ٣٢٩-٣٨٧)، الإنصاف للمرداوي (٧/ ٣-٣٣)، الروض المربع للبهوتي (ص٤٥٣-٤٥٩)، كشاف القناع للبهوتي (٤/ ٢٤٠-٢٩٥)، مطالب أولي النهى للرحيباني (٤/ ٢٧٣-٣٢٢)، الملخص الفقهي للشيخ صالح الفوزان (٢/ ١٩٩-٢٠٥).

١٠

القارئُ الصغيرُ

القارئُ الصغيرُ

عن عَمرِو بن سَلِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا بماءٍ ممَرَّ الناسِ، وكان يَمُرُّ بنا الرُّكبانُ فَنَسأَلُهُم: ما للناسِ؟ ما للناسِ؟ ما هذا الرَّجُلُ؟ فَيقولونَ: يَزعُمُ أَنَّ اللهَ أَرسَله، أوحى إليه، أو: أوحى اللهُ بكذا، فَكُنتُ أَحفَظُ ذلك الكَلامَ، وكَأَنَّما يُقَرُّ في صَدري، وكانتِ العَرَبُ تَلَوَّمُ بإسلامِهِمُ الفَتحَ، فَيقولونَ: اترُكوهُ وقَومَهُ؛ فَإِنَّهُ إن ظَهَرَ عليهم فَهو نبيٌّ صادِقٌ.

فَلَمَّا كانت وقعَةُ أَهلِ الفَتحِ، بادَرَ كُلُّ قَومٍ بإسلامِهِم، وبَدَرَ أَبي قَومي بإسلامِهِم، فَلَمَّا قدِمَ قال: جِئتُكُم -واللهِ- من عِندِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًّا، فقال: «**صَلُّوا صَلاةَ كذا في حينِ كذا، وصَلُّوا صَلاةَ كذا في حينِ كذا، فإذا حَضَرَتِ الصلاةُ فَليُؤَذِّن أَحَدُكُم، وليَؤُمَّكُم أَكثَرُكُم قُرآنًا**».

فَنَظَروا فَلَم يَكُن أَحَدٌ أَكثَرَ قُرآنًا مِنِّي؛ لِما كُنتُ أَتَلَقَّى منَ الرُّكبانِ، فقدَّموني بينَ أَيديهِم، وأَنا ابنُ سِتٍّ أو سَبعِ سِنينَ، وكانت عَلَيَّ بُردَةٌ، كُنتُ إذا سَجَدتُ تَقَلَّصَت عَنِّي، فقالتِ امرَأَةٌ منَ الحَيِّ: أَلا تُغَطُّوا عَنَّا استَ قارِئِكُم؟ فاشتَرَوا فَقَطَعوا لي قَميصًا، فَما فَرِحتُ بشيءٍ فَرَحي بذلك القَميصِ[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٠٢)، وأبو داود (٥٨٥)، (٥٨٧)، والنسائي (٧٦٧)، (٧٨٩)، وفي الكبرى (٨٤٥)، وأحمد (٢٠٣٣٢)، (٢٠٣٣٣)، (٢٠٦٨٦)، وابن خزيمة (١٥١٢)، والحاكم (٤٣٦٤)، والبيهقي (٥١٣٧)، (٥١٣٨)، (٥٨٥٩)، والطبراني في الكبير (٧/ ٤٨)، (٧/ ٥٠)، والأوسط (٦٣٩٥)، (٧٠٠٧)، والدارقطني (١٧٠٥)، والطيالسي (١٤٦٠)، وعبد الرزاق (٣٨١٥)، (٣٨٤٩)، وابن أبي شيبة (٣٤٥٥)، (٣٤٥٦)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٥٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٩٦٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٥٩٩)، (٢٥٩٧)، والمروزي في قيام رمضان (ص ٢٤٠)، وابن الجارود في المنتقى (٣٠٩)، وأبو نعيم في المعرفة (٤/ ٢٠٢٢).

تَرجَمَةُ عمرو بن سَلِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو عمرو بن سَلِمَة -بكَسرِ اللَّامِ- بن قيسٍ، الجَرميُّ، أبو بُريد، ويُقالُ: أبو يَزيد، البصريُّ.

وقال النوَويُّ: «هو أبو بُريد، وقيلَ: أبو يَزيد، والصحيحُ المشهورُ الأوَّلُ».

روى عن أبيهِ سَلِمَةَ الجَرميّ، ورَوى عَنه أيوبُ السّختيانيُّ، وعاصمٌ الأحولُ، وعيَّاشُ ابن عَبدِ اللهِ الهمَدانيُّ، ومِسعَرُ بن حبيبٍ الجَرميُّ، وأَبو الزُّبيرِ المكِّيُّ، وأَبو قِلابَةَ الجَرميُّ.

وفَدَ أبوه على النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال المزِّيُّ: «وقد روي من وجهٍ غريبٍ أنَّ عَمرًا أَيضًا وفَدَ على النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس بثابتٍ».

قال الحافظُ في التهذيب: «روى ابنُ مَنده في كتاب الصحابةِ حديثَه من طَريقٍ صَحيحةٍ، وهي من رِوايةِ الحجَّاجِ بن المنهالِ، عن حمَّادِ بن سَلمةَ، عن أيُّوب، عن عمرِو بن سَلِمَة، قال: «كُنتُ في الوَفدِ الذينَ وفَدوا على رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وهذا تصريحٌ بوفادَتِه، وقد روى أبو نُعَيم في الصحابةِ أَيضًا من طُرُقٍ ما يقتضي ذلك، وقال ابنُ حِبَّان: «له صُحبَةٌ».

وقال في التقريب: «صَحابيٌّ صَغيرٌ».

وقال ابنُ الأثيرِ: «أدركَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يَؤُمُّ قومَه على عهدِ رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّه كان أكثرَهم حِفظًا للقُرآنِ».

وقال الحافظُ: «وأَبوه سَلِمَةَ -بكَسر اللَّام- هو ابنُ قيسٍ، ويُقالُ: نُفَيعٌ، الجَرميُّ، بفَتحِ الجيمِ، وسُكونِ الرَّاء، صَحابيٌّ ما له في البخاريِّ سِوى هذا الحَديثِ، وكذا ابنُهُ، لكن وقَعَ ذِكرُ عَمرِو بن سَلمَةَ في حَديثِ مالِكِ بن الحوَيرِثِ في صِفَةِ الصلاةِ».

وقال أيضًا: «سَلِمَة -بكسرِ اللَّامِ-، هو ابنُ قيسٍ الجَرميّ، وقيلَ: هو بفتحِ اللَّام أيضًا[1]، وهو والدُ عمرِو بن سَلِمَة».

تُوُفِّيَ عَمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنةَ خَمسٍ وثَمانينَ، وهو أَقدَمُ شَيخٍ لِأَيُّوبَ السَّختيانيّ[2].

---

(١) والأكثرون على الأول، ويبدو أن الفتح وهم.

(٢) ينظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم (٤/ ٢٠٢١-٢٠٢٣)، أسد الغابة (٤/ ٢٢٢)، تهذيب الكمال =

شرح الحديث:

«عن عَمرِو بن سَلِمَةَ، قال: كُنَّا بماءٍ ممَرَّ الناسِ»:

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: نازِلينَ بمَكانٍ فيه ماءٌ، يَمُرُّ الناسُ عليه»[١].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَجوزُ في «ممَرٍّ» الحَرَكاتُ الثَّلاثُ»[٢].

قال القاري: «ووَجهُها ظاهِرٌ، والجَرُّ على البَدَلِ هو الأولى»[٣].

وعند أبي داوُدَ: «كُنَّا بحاضِرٍ، يَمُرُّ بنا الناسُ إذا أَتَوُا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحاضِرُ: القومُ النّزولُ على ماءٍ، يُقيمون به ولا يَرحَلون عنه، ومعنى الحاضِرِ: المحضور، فاعِلٌ بمعنى مفعول»[٤].

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويُقالُ للمَناهِلِ: المَحاضِر؛ للاجتماعِ والحُضور عليها»[٥].

قَولُهُ: «وكان يَمُرُّ بنا الرُّكبانُ فَنَسأَلُهم: ما للناسِ؟ ما للناسِ؟ ما هذا الرَّجُلُ؟ فَيقولونَ: يَزعُمُ أَنَّ اللهَ أَرسَله، أوحى إليه، أو: أوحى اللهُ بكذا»:

«الرُّكبانُ»: جمعُ راكب الإبلِ خاصَّةً، ثمَّ اتُّسِعَ فيه فَأُطلِق على مَن رَكبَ دابَّةً[٦].

وللدَّارَقُطنيِّ: «وكان تَمُرُّ بنا الرُّكبانُ فَنَسأَلُهُم: ما هذا الأَمرُ؟ ما للناسِ؟ فَيقولونَ: نبيٌّ يَزعُمُ أَنَّ اللهَ أَرسَله، وأَنَّ اللهَ أوحى إليه كذا وكذا».

يُريدُ حِكايَةَ ما كانوا يُخبرونَهُم بهِ مِمَّا سَمِعوهُ منَ القُرآنِ.

= (٢٢/ ٥١)، تهذيب التهذيب (٨/ ٤٢-٤٣)، تقريب التهذيب (ص٤٢٢)، الإصابة (٣/ ١٣٣)، (٤/ ٥٣١)، فتح الباري (٨/ ٢٣)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٧)، تاريخ الإسلام (٦/ ٨٧).

(١) مرقاة المفاتيح (٣/ ٨٦٨)

(٢) فتح الباري (٨/ ٢٣).

(٣) مرقاة المفاتيح (٣/ ٨٦٨)

(٤) معالم السنن (١/ ١٦٩)

(٥) شرح أبي داود (٣/ ٨٤).

(٦) عمدة القاري (١٧/ ٢٨٩).

وقال **الطِّيبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «ما للناسِ؟»، سُؤالُهم هذا يدُلُّ على حُدوثِ أمرٍ غريبٍ، ولِذلك كرَّروه، «وما هذا الرَّجُلُ؟»، يدُلُّ على سماعِهم منه نبأً عجيبًا، فيكونُ السُّؤالُ عن وصفِه، ولِذلك وصَفوه بالنُّبوَّة والرِّسالةِ في الجواب.

وقَولُهُ: «كذا» كنايَةٌ عما أوحيَ إليه من القرآنِ، هذا هو المَعنيُّ بقَولِه: «لِما كُنتُ أَتَلَقَّى منَ الرُّكبانِ»[1].

ولِأبي داوُدَ: «فكانوا إذا رجعوا مَرُّوا بنا، فَأَخبَرونا أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال كذا وكذا».

فكانوا يَسأَلونَ عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن حالِ العَرَب مَعَهُ، فَيُخبرونَهُم، ويَتلونَ عليهم ما سَمِعوهُ منَ القُرآنِ.

وفي حديثِ أبي ذَرٍّ، لَمَّا ذهَبَ أخوه أُنَيسٌ إلى مكَّةَ ورجَع قال لهُ: ما صَنَعتَ؟ قال: «لَقيتُ رَجُلًا بمكةَ على دينِكَ، يَزعُمُ أَنَّ اللهَ أَرسَله»، قال: فَما يقولُ الناسُ؟ قال: «يقولونَ: شاعِرٌ، كاهِنٌ، ساحِرٌ»، وكان أُنَيسٌ أَحَدَ الشُّعَراءِ، قال أُنَيسٌ: «لَقد سَمِعتُ قَولَ الكَهَنَةِ، فَما هو بقَولِهم، ولَقد وضَعتُ قَوله على أَقراءِ الشِّعرِ، فَما يَلتَئِمُ على لِسانِ أَحَدٍ بعدي أَنَّهُ شِعرٌ، واللهِ إِنَّهُ لَصادِقٌ، وإِنَّهُم لَكاذِبونَ»[2].

قَولُهُ: «فَكُنتُ أَحفَظُ ذلك الكَلامَ»:

ولِأبي داوُدَ: «وكُنتُ غُلامًا حافِظًا، فَحَفِظتُ من ذلك قُرآنًا كَثيرًا».

وللنسائيِّ: «كان يَمُرُّ علينا الرُّكبانُ، فَنَتَعَلَّمُ منهمُ القُرآنَ».

قَولُهُ: «وكَأَنَّما يُقَرُّ في صَدري»:

أَي: يثبُت ويستقِرّ في صدري.

---

(١) شرح المشكاة (٤/ ١١٥٧).

(٢) رواه مسلم (٢٤٧٣).

قال الحافظُ: «قَولُهُ: «فَكَأَنَّما يُقَرُّ»، كذا للكُشميهَنيِّ، بضَمِّ أَوَّلِهِ، وفَتحِ القافِ، وتشديدِ الرَّاءِ، منَ القَرارِ، وفي روايةٍ عنه: بزيادَةِ أَلِفٍ مَقصورَةٍ، منَ التقريَةِ، أَي: يُجمَعُ، وللأَكثَرِ: بهَمزٍ، منَ القراءةِ، وللإسماعيليِّ: «يُغَرَّى»، بَغَينٍ مُعجَمَةٍ، وراءٍ ثَقيلَةٍ، أَي: يُلصَقُ بالغِراءِ، ورَجَّحَها عياضٌ»[1].

وللبَيهَقيّ: «فَجَعَلتُ أَحفَظُ ذلك الكَلامَ، فَكَأَنَّما يُغرى في صَدري بغِراءٍ».

وللطَّبَرانيّ في الكَبيرِ: «فَجَعَلتُ لا أَسمَعُ شَيئًا من ذلك إلا حَفِظتُهُ، كَأَنَّما يُغرى في صَدري بغِراءٍ، حتى جَمَعتُ منه قُرآنًا كَثيرًا».

وللدارَقُطنيّ: «فَجَعَلتُ أَتَلَقَّى ذلك الكَلامَ، فَكَأَنَّما يُغرى في صَدري بغِراءٍ، يقولُ: أَحفَظُهُ».

قال القاري: «**فَكَأَنَّما يُغرى**»: بالغَينِ المعجَمَةِ، والرَّاءِ، مُضارِعٌ مَجهولٌ من باب التفعيلِ، وقيلَ: من باب الأَفعالِ، يُلصَقُ مِثل الغِراءِ، وهو الصمغُ، ولِذا قيلَ: «الحِفظُ في الصغَرِ كالنقشِ في الحَجَرِ».

وفي نُسخَةٍ: «يُقرَأُ» منَ القراءةِ، مُخَفَّفًا، وفي نُسخَةٍ: «يُقَرِّي» بالتشديدِ منَ التقريَةِ، أَي: يجمَعُ، قال ميرَكُ: «وهاتانِ رِوايَتا الكُشميهَنيِّ في البخاريِّ، وروايةُ الأَكثَرِ فيه: «يُقرَأُ» منَ القراءةِ مَجهولًا.

وللإسماعيليِّ: «يُغَرَّى» بمُعجَمَةٍ وراءٍ ثَقيلَةٍ، أَي: يُلصَقُ بالغِراءِ، ورَجَّحَها عياضٌ، ونَقَله ميرَكُ، ووُجِدَ بخَطِّ الشَّيخِ عَفيفِ الدِّينِ: «يَغرى» بالمعجَمَةِ والمهمَلَةِ، والتحتانيَّةِ المَفتوحَةِ في أَوَّلِهِ، وهو المَفهومُ منَ الطِّيبيِّ أَيضًا»[2].

وقال ابنُ الجوزيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُغرى في صَدري»: أَي يُلصَقُ بالغِراءِ: وهو صَمغٌ، أو ما يَقومُ مقامَهُ»[3].

---

(١) فتح الباري (٨/ ٢٣).

(٢) مرقاة المفاتيح (٣/ ٨٦٨).

(٣) كشف المشكل (٤/ ١٦٧).

وقال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الغِراء -بالمَدِّ والقَصر-: هو الذي يُلصَق بهِ الأَشياءُ، ويُتَّخذ من أَطرافِ الجُلودِ والسَّمَكِ.

وحَديثُ عمرِو بن سَلمة الجَرمي: «فكَأَنَّما يغرى في صَدري»، أَي: يُلصَقُ بهِ، يُقالُ: غَريَ هذا الحَديثُ في صَدري -بالكَسرِ- يغرى -بالفَتحِ-: كَأَنَّهُ أُلصِقَ بالغِراء»[1].

قَولُهُ: «وكانتِ العَرَبُ تَلَوَّمُ بإسلامِهِمُ الفَتحَ»:

قال الحافظُ: «تَلَوَّمُ»، أَي: تَنتَظِرُ، وإحدى التاءَينِ محذوفَةٌ»[2].

وقال ابنُ سيدَه رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَلَوَّمَ في الأَمرِ: تَمَكَّثَ وانتَظَرَ، ولِيَ فيه لومَةٌ، أَي: تَلَوُّمٌ»[3].

وقال أبو القاسِمِ الطالقانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اللُّومَةُ: الحاجَةُ، ومنه: التلَوُّمُ، وهو انتِظارُ قَضاءِ اللُّومَةِ»[4].

قَولُهُ: «فَيقولونَ: اترُكوهُ وقَومَهُ؛ فَإِنَّهُ إن ظَهَرَ عليهم فَهو نبيٌّ صادِقٌ»:

قال القاري: «اترُكوهُ وقَومَهُ»: الواوُ للمَعيَّةِ.

«فَإِنَّهُ إن ظَهَرَ عليهم»، أَي: غَلَبَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قَومِهِ.

«فَهو نبيٌّ صادِقٌ»: إذ لا يُتَصَوَّرُ غَلَبَتُهُ عليهم كذلك إلا بمَحضِ المعجِزَةِ الخارِقَةِ للعادَةِ، القاضيَةِ بأَنَّهُ لا يَظهَرُ عليهم؛ لِضَعفِهِ وقوَّتِهِم»[5].

قَولُهُ: «فَلَمَّا كانت وقعَةُ أَهلِ الفَتحِ»:

أَي: فَتحِ مكةَ، في رَمَضانَ سنةَ ثَمانٍ منَ الهِجرَةِ.

«بادَرَ كُلُّ قَومٍ بإسلامِهِم».

---

(١) النهاية (٣/ ٣٦٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٢٣).

(٣) المحكم (١٠/ ٤٣٩).

(٤) المحيط في اللغة (٢/ ٤٦٣).

(٥) مرقاة المفاتيح (٣/ ٨٦٩).

أي: سارَع كلُّ قوم وسابَقوا إلى الدُّخولِ في دينِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢].

قال الحَسَنُ: «لَمَّا فَتَحَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مكةَ على رسولِهِ قالتِ العَرَبُ بَعضُها لِبَعضٍ: إذا ظَفِرَ محمدٌ بأَهلِ الحَرَمِ -وقد كان اللهُ أَجارَهُم من أَصحاب الفيلِ- فَليس لَكُم بِهِ يَدانِ[1]، فَكانوا يَدخُلونَ في دينِ اللهِ أَفواجًا، بعدَ أَن كانوا يَدخُلونَ واحدًا واحدًا، واثنَينِ اثنَينِ»[2].

وقال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المرادُ بالفَتحِ -ها هُنا- فَتحُ مكةَ قَولًا واحدًا؛ فَإِنَّ أَحياءَ العَرَب كانت تَتَلَوّم بإسلامِها فَتحَ مكةَ، يقولونَ: إن ظَهَرَ على قَومِهِ فَهو نبيٌّ، فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ عليه مكةَ دَخَلوا في دينِ اللهِ أَفواجًا، فَلَم تَمضِ سَنَتانِ حتى استَوسَقَت جَزيرَةُ العَرَب إيمانًا[3]، ولَم يَبقَ في سائِرِ قَبائِلِ العَرَب إلا مُظهِرٌ للإسلامِ، ولله الحَمدُ والمِنَّةُ»[4].

وقال ابنُ عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان فَتحُ مكةَ يُخالِجُ نُفوسَ العَرَب كُلِّهِم، فالمسلمونَ كانوا يَرجونَهُ، ويَعلَمونَ ما أَشارَ بِهِ القُرآنُ من الوَعدِ بِهِ، وأَهلُ مكةَ يَتَوَقَّعونَهُ، وبَقيَّةُ العَرَب يَنتَظِرونَ ماذا يكونُ الحالُ بينَ أَهلِ مكةَ وبينَ النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَتَلَوَّمونَ بدُخولِهِم في الإسلامِ فَتحَ مكةَ، يقولونَ: إن ظَهَرَ محمدٌ على قومه فَهو نبيٌّ، وتَكَرَّرَ أَن صَدَّ بَعضُهُم بَعضًا مِمَّن يُريدُ اتِّباعَ الإسلامِ عَنِ الدُّخولِ فيه، وإنظارهُ إلى ما سَيَظهَرُ من غَلَب الإسلامِ، أو غَلَب الشِّركِ»[5].

قَولُهُ: «وبَدَرَ أَبي قَومي بإسلَامِهِم»:

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَي: غَلَبَهُم وسَبَقَهُم، قال الطِّيبيُّ: «قَولُهُ: «بَدَرَ» من باب المغالَبَةِ، أَي: بادَرَ أَبي القَومَ فَبَدَرَهُم، أَي: غَلَبَهُم في البدارِ -بالكَسرِ-، أَي: بالمبادَرَةِ»[6].

---

(١) أي: طاقة.

(٢) تفسير البغوي (٨/ ٥٧٦).

(٣) أي تمكن الإيمان من جزيرة العرب، واستوسق الشيء: اجتمع وانضم، واستوسق الأمر: انتظم.

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٥١٣).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩١).

(٦) مرقاة المفاتيح (٣/ ٨٦٩)، شرح المشكاة للطيبي (٤/ ١١٥٧).

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُقالُ: بَدَرتُ إلى شيءٍ وبادَرتُ، أَي: أسرَعت»[١].

وللبَيهَقيّ: «أَنَّ أَباهُ ونَفَرًا من قَومِهِ وفَدوا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ أَسلَمَ الناسُ؛ ليَتَعَلَّموا القُرآنَ».

ولِأَحمَدَ، وابنِ خُزَيمَةَ، وابنِ أبي شيبَةَ: «كان الناسُ يَنتَظِرونَ بإسلامِهِم فَتحَ مكةَ، فَلَمَّا فُتِحَت جَعَلَ الرَّجُلُ يَأتيهِ، فَيقولُ: يا رسولَ اللهِ، أَنا وافِدُ بَني فُلانٍ، وجِئتُكَ بإسلامِهِم، فانطَلَقَ أَبي بإسلامِ قَومِهِ، فَرجعَ إليهم».

قَولُهُ: «فَلَمَّا قدِمَ»:

وعندَ النَّسائيّ: «فَلَمَّا قدِمَ استَقبَلناهُ».

قال الحافظُ: «هذا يُشعِرُ بأَنَّهُ ما وفَدَ مَعَ أَبيهِ، لكن لا يَمنَعُ أَن يكونَ وفَدَ بعدَ ذلك»[٢].

قَولُهُ: «قال: جِئتُكُم -واللهِ- من عِندِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًّا»:

قال القاري: «قال الطِّيبيُّ: «هذا حالٌ منَ الضَّميرِ العائِدِ إلى المَوصولِ، أَعني: الأَلِفَ واللَّامَ في النبيِّ، على تَأويلِ: الذي نُبِّئَ حقًّا».

أو: حالَ كَونِهِ مُحِقًّا، أو: حُقَّ هذا القَولُ حقًّا»[٣].

قَولُهُ: فقال: «صَلُّوا صَلاةَ كذا في حينِ كذا، وصَلُّوا صَلاةَ كذا في حينِ كذا، فإذا حَضَرَتِ الصلاةُ فَليُؤَذِّن أَحَدُكُم، وليَؤُمَّكُم أَكثَرُكُم قُرآنًا»:

وفي حديث مالِكِ بن الحوَيرِثِ، قال: قدِمنا على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونَحنُ شَبَبَةٌ، فَلَبثنا عِندَهُ نَحوًا من عِشرينَ لَيلَةً، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحيمًا، فقال: «لَو رجعتُم إلى بلادِكُم فَعَلَّمتُموهُم، مُروهُم فَليُصَلُّوا صَلاةَ كذا في حينِ كذا، وصَلاةَ كذا في حينِ كذا، وإذا حَضَرَتِ الصلاةُ فَليُؤَذِّن لَكُم أَحَدُكُم، وليَؤُمَّكُم أَكبَرُكُم»[٤].

---

(١) عمدة القاري (١٧/ ٢٩٠).

(٢) فتح الباري (٨/ ٢٣).

(٣) مرقاة المفاتيح (٣/ ٨٦٩).

(٤) رواه البخاري (٦٨٥).

وفي لَفظٍ: «ارجِعوا إلى أَهليكُم، فَأَقيموا فيهم، وعَلِّموهُم ومُروهُم - وذكرَ أَشياءَ- وصَلُّوا كَما رَأَيتُموني أُصَلِّي، فإذا حَضَرَتِ الصلاةُ فَليُؤَذِّن لَكُم أَحَدُكُم، وليَؤُمَّكُم أَكبَرُكُم»[١].

وإنَّما قال: وليَؤُمَّكُم أَكبَرُكُم»؛ لأنَّهم كانوا في القراءَةِ سواءً.

فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قدِمَتِ عليه الوُفودُ علَّمَهمُ القرآنَ والصلاةَ وشرائِعَ الإسلامِ.

وهذا الحديثُ يرويهِ أَبو قِلَابَةَ الجَرميُّ، عن مالِكِ بن الحوَيرِثِ، وحديثُ الباب يرويه أَبو قِلَابَةَ أَيضًا، عن عمرِو بن سلِمَةَ.

وعن أَبي قِلَابَةَ، أَنَّ مالِكَ بن الحوَيرِثِ قال لِأَصحابِهِ: «أَلا أُنَبِّئُكُم صَلاةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟»، قال: وذاكَ في غيرِ حينِ صَلاةٍ، فَقامَ، ثم رَكَعَ فَكَبَّرَ، ثم رَفَعَ رَأسَهُ، فَقامَ هُنَيَّةً[٢]، ثم سَجَدَ، ثم رَفَعَ رَأسَهُ هُنَيَّةً، فَصَلَّى صَلاةَ عَمرِو بن سَلِمَةَ، شَيخِنا هذا[٣].

وعندَ أبي داوُدَ، وأحمدَ، والبَيهَقيّ- يَعني: في حديثِ عَمرِو بن سَلمَةَ-: «فَلَمَّا أَرادوا أَن يَنصَرِفوا، قالوا: يا رسولَ اللهِ مَن يَؤُمُّنا؟ قال: «**أَكثَرُكُم جَمعًا للقُرآنِ**»، أو: «**أَخذًا للقُرآنِ**».

قَولُهُ: «فَنَظَروا»:

وعندَ الدارقُطنيّ، والبَيهَقيّ: «فَنَظَروا في أَهلِ حِوائِنا».

وعندَ أحمدَ، وابنِ خُزَيمَةَ: «فَنَظَروا، وإنَّا لَعلى حِواءٍ عَظيمٍ».

الحِواء: بُيوتٌ مجتَمعَة منَ الناسِ على ماءٍ[٤].

قال اللَّيثُ: «الحِواءُ: أَخبيَةٌ يُدانى بعضُها من بَعضٍ، تَقولُ: هُم أَهلُ حِواءٍ واحدٍ، والعَرَبُ تَقولُ لِمُجتمَعِ بُيوتِ الحَيِّ: مُحتَوًى ومَحوًى وحِواء، والجَمعُ أَحويَةٌ ومَحاوٍ»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٦٣١).

(٢) يقال: أقام هنيهة وهنية، أي: قليلا من الزمان.

(٣) رواه البخاري (٨١٨).

(٤) النهاية (١/ ٤٦٥).

(٥) لسان العرب (١٤/ ٢١٠).

قَولُهُ: «فَلَم يَكُن أَحَدٌ أَكثَرَ قُرآنًا مِنِّي؛ لِما كُنتُ أَتَلَقَّى منَ الرُّكبانِ»:

أَي: أَتَلَقَّنُ، وآخُذُ، وأَتَعَلَّمُ[1].

قَولُهُ: «فقدَّموني بينَ أَيديهِم، وأَنا ابنُ سِتٍّ أو سَبعِ سِنينَ»:

ولِأبي داوُدَ: «فَكُنتُ أَؤُمُّهُم وأَنا ابنُ سَبعِ سِنينَ، أو ثَمانِ سِنينَ».

وللنَّسائيّ: «فَكُنتُ أَؤُمُّهُم وأَنا ابنُ ثَمانِ سِنينَ».

وللطَّبَرانيّ في الكَبيرِ، وابنِ الجارودِ: «فَكُنتُ أُصَلِّي بِهِم، وأَنا ابنُ سِتِّ سِنينَ».

وقال عبدُ الرزَّاق في مُصَنَّفِه: عن مَعمَرٍ، عن أَيُّوبَ، عن عِكرِمَةَ، عن عَمرِو بنِ سَلِمَةَ الجَرميِّ، قال: جاءَنا وفدٌ من عِندِ رسولِ اللهِ ﷺ، فَعَلَّمَهُمُ الصلاةَ، ثم قال لَنا: **«لِيَؤُمَّكُم أَكثَرُكُم قُرآنًا»**.

فَكان عَمرو بن سَلمَةَ يَؤُمُّهُم، ولَم يَكُنِ احتَلَمَ[2].

مَسأَلَةٌ: حكمُ إمامَةِ الصبيّ الذي لم يبلُغِ الحُلُمَ:

اختلفَ الفُقَهاءُ في إمامةِ الصبيِّ الذي لم يبلُغ: فجاءَ في المَوسوعةِ الفقهيّة: «جُمهورُ الفُقَهاءِ -الحَنَفيَّة، والمالِكيَّة، والحَنابلَة- على أَنَّهُ يُشتَرَطُ لِصِحَّةِ الإمامَةِ في صَلاةِ الفَرضِ أَن يكونَ الإمامُ بالِغًا، فلا تَصِحُّ إمامَةُ مُمَيِّزٍ لِبالِغٍ في فَرضٍ عِندَهُم؛ لأنّها حال كَمالٍ، والصبيُّ ليس من أَهلِها، ولِأَنَّ الإمامَ ضامِنٌ، وليس هو من أَهل الضَّمانِ، ولِأَنَّهُ لا يُؤمَنُ مَعَهُ الإخلال بالقراءةِ حالَ السِّرِّ.

أَمَّا في غيرِ الفَرضِ، كَصَلاةِ الكُسوفِ، أوِ التراويحِ: فَتَصِحُّ إمامَةُ المُمَيِّزِ للبالِغِ عِندَ جُمهورِ الفُقَهاءِ -المالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابلَةِ، وبَعضِ الحَنَفيَّةِ-؛ لِأَنَّهُ لا يَلزَمُ منها بناءُ القَويِّ على الضَّعيفِ.

---

(١) مرقاة المفاتيح (٣/ ٨٦٩).

(٢) مصنف عبد الرزاق (٣٨١٥).

والمختارُ عِندَ الحَنَفيَّةِ: عَدَمُ جَوازِ إمامَةِ المميِّزِ للبالِغِ مُطلَقًا، سَواءٌ أكانت في الفَرائِضِ أَم في النوافِلِ.

ولَم يَشتَرِطِ الشَّافِعيَّةُ في الإمامِ أَن يكونَ بالِغًا، فَتَصِحُّ إمامَةُ المميِّزِ للبالِغِ عِندَهُم مُطلَقًا، سَواءٌ أَكانت في الفَرائِضِ أَم النوافِلِ، لِحَديثِ عَمرِو بن سَلِمَةَ، لكنَّهُم قالوا: «البالِغُ أولى منَ الصبيِّ، وإن كان الصبيُّ أَقرَأَ أو أَفقَهَ؛ لِصِحَّةِ الاِقتِداءِ بالبالِغِ بالإجماعِ»، ولِهذا نَصَّ في البوَيطيِّ على كَراهَةِ الاِقتِداءِ بالصبيِّ.

أَمَّا إمامَةُ المميِّزِ لِمِثلِهِ: فَجائِزَةٌ في الصلَواتِ الخَمسِ وغيرِها، عِندَ جَميعِ الفُقَهاءِ»[1].

وقال **الحافظُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إلى صِحَّةِ إمامَة الصبيّ ذَهَبَ الحَسَنُ البَصريّ، والشَّافِعيُّ، وإسحاقُ، وكَرِهَها مالِكٌ، والثَّورَيُ، وعن أَبي حَنيفَة وأَحمَد رِوايَتانِ، والمَشهورُ عنهما الإجزاءُ في النوافِلِ دونَ الفَرائِض»[2].

والرَّاجِحُ: أنّه تصِحُّ إمامةُ الصبيِّ المميِّزِ، إذا كان يُحسِن الصلاةَ -وإن كان البالغُ أولى، إذا كان قارئًا-؛ لحديثِ عمرِو بن سَلِمةَ هذا.

قال **ابنُ الملَقِّنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه حُجَّةٌ للشَّافِعيِّ في صِحَّةِ إمامةِ الصبيِّ في الفَرضِ»[3].

وقال **الحافظُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الحَديثِ حُجَّةٌ للشَّافِعيَّةِ في إمامَةِ الصبيِّ المميِّزِ في الفَريضَةِ، وهي خِلافيَّةٌ مَشهورَةٌ، ولَم يُنصِف مَن قال: «إنَّهُم فَعَلوا ذلك باجتِهادِهِم، ولَم يَطَّلِعِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك»؛ لِأَنَّها شَهادَةُ نَفيٍ، ولِأَنَّ زَمَنَ الوَحيِ لا يَقَعُ التقريرُ فيه على ما لا يَجوزُ»[4].

وقال **الشيخُ ابنُ بازٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا بأسَ بإمامةِ الصبيِّ إذا كان قد أكملَ سبعَ سنينَ أو أكثرَ، وهو يُحسِنُ الصلاةَ؛ لأنَّه ثبَتَ عنِ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يدُلّ على ذلك، ولكنّ

---

(١) الموسوعة الفقهية (٦/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٢) فتح الباري (٢/ ١٨٦).

(٣) التوضيح (٢١/ ٤٥٣).

(٤) فتح الباري (٨/ ٢٣).

الأفضلَ أن يُختارَ الأقرأُ منَ الجماعةِ، فإن كانوا في القراءةِ سواءً فأعلَمُهم بالسُّنّة، فإن كانوا في السُّنّة سواءً فأقدَمُهم هجرةً، فإن كانوا في الهجرةِ سواءً فأكبرُهم سنًّا، كما صحَ ذلك عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]»[2].

وقال الشيخ ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَصِحُّ إمامَةُ الصبيِّ بمَن هو أكبرُ منه سِنًّا، لكن إن كان الذي هو أكبرُ سِنًّا منه قد بلَغ فإن المشهور في المَذهب[3] أنّها لا تصِحُّ إمامةُ الصبيِّ به في الفرض خاصَّةً، والصحيحُ: جوازُ ذلك، وصحَّتُه في الفرضِ والنفلِ، ويدُلّ لِذلك حديثُ عمرِو بن سَلِمةَ الجَرميّ»[4].

عودةٌ إلى شَرحِ الحَديثِ:

قَولُهُ: «وكانت عَلَيَّ بُردَةٌ، كُنتُ إذا سَجَدتُ تَقَلَّصَت عَنِّي»:

«أي: اجتَمَعَت وانضَمَّت وارتَفَعَت إلى أعالي البَدَنِ»[5].

والبُردَة: الشَّملَةُ المخطَّطَة، وقيلَ: كِساءٌ أسودُ مُربّعٌ، تَلبَسُهُ الأعرابُ[6].

وللنَّسائيّ، والبَيهَقيّ: «فَكُنتُ أُصَلِّي بِهِم، وكانت عَلَيَّ بُردَةٌ مَفتوقَةٌ».

وعندَ أبي داوُدَ: «كُنتُ أَؤُمُّهُم في بُردَةٍ موَصَّلَةٍ فيها فَتقٌ، فَكُنتُ إذا سَجَدتُ خرجَتِ استي».

قال عبدُ العَظيمِ آبادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**بُردَةٍ موَصَّلَةٍ**»، بصيغَةِ المَفعولِ، أَي: مُرَقَّعَةٍ، «**فيها فَتقٌ**»، أَي: خَرقٌ، «**خرجَتِ استي**»، أَي: ظَهَرَت؛ لِقِصَرِ بُردَتي وضيقِها، والمرادُ بالِاستِ -هُنا-: العَجُزُ»[7].

---

(١) رواه مسلم (٦٧٣).

(٢) مجموع فتاوى ابن باز (٣٠/ ١٦٦)، وينظر: فتاوى اللجنة الدائمة (٧/ ٣٨٩).

(٣) يعني: المذهب الحنبلي.

(٤) مجموع فتاوى ابن عثيمين (١٥/ ١٤٧).

(٥) مرقاة المفاتيح (٣/ ٨٦٩).

(٦) النهاية (١/ ١١٦).

(٧) عون المعبود (٢/ ٢٠٧).

ولأبي داوُدَ أَيضًا: «فَكُنتُ أَؤُمُّهُم وعَلَيَّ بُردَةٌ لي صَغيرَةٌ صَفراءُ، فَكُنتُ إذا سَجَدتُ تَكَشَّفَت عَنِّي».

ولِأَحمَدَ، وابنِ خُزَيمَةَ: «فَصَلَّيتُ بِهِم وعَلَيَّ بُردَةٌ، وكُنتُ إذا رَكَعتُ أو سَجَدتُ قَلَصَت، فَتَبدو عَورَتي».

وللطَّبَرانيّ في الأوسَطِ: «فقدَّموني وعَلَيَّ بُردَةٌ، إذا سَجَدتُ كادَت تَبلُغُ مَقعَدَتي».

قَولُهُ: «**فقالتِ امرَأَةٌ منَ الحَيِّ: أَلا تُغَطُّوا عَنَّا استَ قارِئِكُم؟**»:

وللبَيهَقيّ، والطَّبَرانيّ في الكَبيرِ: «أَلا تُغَطُّونَ»، على الأصلِ بإثباتِ النُّونِ، وكلاهُما صَحيحٌ فَصيحٌ.

قال ابنُ مالكٍ: «حذفُ نونِ الرَّفعِ في مَوضِعِ الرَّفعِ لُمجَرَّدِ التخفيفِ ثابتٌ في الكَلامِ الفصيحِ، نثرِه ونظمِه»[١].

وهذا كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَل أَنتُم تارِكو لي صاحِبي؟**»[٢].

وقَولُهُ: «**هَل أَنتُم تارِكو لي أُمَرائي؟**»[٣].

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَكذا هو في بَعضِ النُّسَخِ: «**تارِكو**»، بغيرِ نونٍ وفي بَعضِها: «**تارِكونَ**»، بالنُّونِ، وهذا هو الأَصلُ، والأَوَّلُ صَحيحٌ أَيضًا، وهي لُغَةٌ مَعروفَةٌ، وقد جاءَت بها أَحاديثُ كَثيرَةٌ، منها: قَولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَدخُلوا الجنةَ حتى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنوا حتى تَحابُّوا**[٤]»[٥].

ولِأَحمَدَ، وابنِ خُزَيمَةَ: «فَلَمَّا صَلَّينا تَقولُ عَجوزٌ لَنا دُهريَّةٌ: غَطُّوا عَنَّا استَ قارِئِكُم».

---

(١) الكواكب الدراري (٥/ ١٥).

(٢) رواه البخاري (٣٦٦١).

(٣) رواه مسلم (١٧٥٣).

(٤) رواه مسلم (٥٤).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٦٤-٦٥).

«دُهريَّةٌ»، أي: مُسِنَّةٌ.

قال الجَوهَريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدُهريُّ بالضَّمِّ: المسِنُّ، والدَّهرِيُّ بالفتحِ: الملحِدُ»[1].

ولِأبي داوُدَ: «فقالتِ امرَأَةٌ منَ النِّساءِ: واروا عَنَّا عَورَةَ قارِئِكُم».

وللنَّسائيِّ، والبَيهَقيّ: «وكانت عَلَيَّ بُردَةٌ مَفتوقَةٌ، فكانوا يقولونَ لِأَبي: أَلا تُغَطِّي عَنَّا استَ ابنِكَ؟».

ولأبي داوُدَ، والطَّبَرانيّ في الكَبيرِ، والأوسَطِ: «فقدَّموني بينَ أَيديهِم وأَنا غُلامٌ، فَكُنتُ أَؤُمُّهُم في بُردَةٍ مَوصولَةٍ، فَكان فيها فَتقٌ، فَكُنتُ إذا سَجَدتُ خرجَتِ استي، فقالوا لِأَبي: أَلا تُغَطِّي عَنَّا استَهُ؟».

ولابنِ أبي عاصِمٍ: «كُنتُ أُصَلِّي بهِم وخَلفي النِّساءُ، وعَلَيَّ بُردَةٌ، فإذا سَجَدتُ خرجَت جاعِرَتَيَّ، فقالتِ النِّساءُ: غَطُّوا جاعِرَتَي قارِئِكُم».

والجاعِرَتانِ: حَرفا الوَرِكَين المشرِفان على الفَخِذَينِ.

وقيلَ: هُما ما اطمأَنَّ منَ الوَرِكِ والفَخِذِ في موضِعِ المِفصَلِ.

وقيلَ: هُما رُؤوس أَعالي الفَخِذَينِ[2].

والمعنى في الكلِّ واحدٌ.

مَسألةٌ: حُكم سترِ العورَةِ في الصلاةِ:

سترُ العورَةِ شرطٌ لِصِحَّةِ الصلاةِ عندَ جُمهورِ العُلماءِ، سَواءٌ كان ذلك في حقِّ الرجُلِ أوِ المرأةِ؛ لِقَولِهِ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

والآيةُ، وإن كانت نزلَت بسَبَبٍ خاصٍّ، فالعِبرَةُ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في قولِه: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، قال: «الثِّياب»[3].

---

(١) الصحاح (٢/ ٦٦٢).

(٢) لسان العرب (٤/ ١٤١).

(٣) رواه الطبري في التفسير (١٠/ ١٥٠).

ولِقَول النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَقبَلُ اللهُ صَلاةَ حائِضٍ إلا بخِمارٍ**»[١].

وقال ابنُ هُبَيرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَجمعوا على أَن شَرطَ صِحَةِ الصلاةِ سترُ العَورَة عَن العُيونِ، وأَنَّه واجِبٌ، إلا مالِكًا فقال: «هذا واجِبٌ، وليس هو بشَرط في صِحَّتها، إلا أَنّه يتَأَكَّد بها»، ومن أَصحابه من قال: «هو شَرطٌ مَعَ الذِّكرِ والقُدرَة»[٢].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «استَدَلَّ مَن جَعَلَ سَترَ العَورَة من فَرائِضِ الصلاةِ بالإجماعِ على إفسادِ مَن تَرَكَ ثَوبَهُ وهو قادِرٌ على الِاستِتارِ بِهِ، وصَلَّى عُريانًا»[٣].

فإذا كان سَترُ العورةِ شرطًا لصِحَّة الصلاةِ، فكيف صحَّت صلاةُ عمرِو بن سَلِمة بالصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع انكشافِ عورَتِه؟

أُجيبَ عن ذلك بأجوِبَةٍ:

١. فقيلَ: كان انكشافًا يسيرًا غيرَ مُتَعَمَّد، وهذا لا يُبطِلُ الصلاةَ:

سُئلِ الشَّيخُ صالِح الفوزان حفِظَه اللهُ عمَّن صَلَّى وبعضُ عورَتِه مكشوفٌ، ولم يعلَم بذلك حتى فرغَ من الصلاةِ، ونبَّهَه الحاضِرون، فأجابَ:

«سترُ العورَةِ من شُروطِ صِحَّةِ الصلاةِ، إذا أمكَنَ، وما ورَدَ في السؤالِ فهذا فيه تفصيلٌ: إن كان هذا الذي انكشَفَ شيءٌ كثيرٌ، فإنّه يُعيدُ الصلاةَ، أمَّا إن كان شيئًا قليلًا، ولم يتعَمَّده، فصلاتُه صحيحةٌ إن شاءَ اللهُ، بدليلِ أن عمرَو بن سَلِمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يُصَلِّي بأصحابه وهو صغيرُ السِّنِّ، فكان إذا سجَدَ انكشَفَ شيءٌ من عورَتِه، فيراه النِّساءُ من وراءِ الصفِّ، ولم يُعِدِ الصلاةَ، وكان هذا في عهدِ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدَلّ على أنّه إذا انكشَفَ شيءٌ من العورَة، وهو يسيرٌ، ولم يتَعَمَّدهُ، أنّ صلاتَه صحيحةٌ.

أمَّا إذا تعَمَّدَ ذلك فصَلاتُه باطِلَةٌ، ولو كان المكشوفُ شيئًا يسيرًا.

---

(١) رواه أبو داود (٦٤١)، والترمذي (٣٧٧)، وحسنه، وابن ماجه (٦٥٥)، وأحمد (٢٥١٦٧)، وصححه محققو المسند.

(٢) اختلاف الأئمة العلماء (١/ ٩٦).

(٣) الاستذكار (٢/ ١٩٧)

وكذلك إذا لم يتَعَمَّد، وكان هذا الانكشافُ كثيرًا، فإنه يعيدُ صلاتَه؛ لعَدَمِ تَحَقُّقِ الشرطِ»[١].

٢. وقيلَ: كان ذلك في أوَّلِ إسلامِهم، وقد اجتَهَدوا قدرَ عِلمِهم، فهُم معذورون بعدَمِ العلمِ، وحداثةِ الإسلامِ:

قال الشيخُ مُحمّد بن محمّد المختار الشّنقيطيّ حَفِظَهُ اللهُ: «كان الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُضَعِّفُ مَتنَ هذا الحديثِ[٢]، فكان إذا ذُكِر له حديثُ عمرِو بن سَلِمَة يقولُ: «أيُّ شيءٍ هذا؟ أيُّ شيءٍ هذا؟ دَعهُ؛ فإنَّهُ ليس ببَيِّنٍ»، وهذا من فِقهِه ودِقَّةِ فَهمِهِ رحمَةُ اللهِ عليه.

فقد كان هؤلاءِ الصحابةُ -كما هو معلومٌ- أسلَموا في عامِ الوُفود، حينَما قدِموا على النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمعنى ذلك: أنّ اجتِهادَهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، مع حداثَةِ عهدٍ بجاهليَّةٍ، لا يُؤمَن معَهُ وجودُ الخلَلِ؛ لأنّ انكِشافَ عورَةِ المصَلِّي يوجِبُ البُطلانَ بالأصلِ، فكَونُهم يترُكونه يُصَلِّي بهِم والعَورَةُ مُنكَشِفَةٌ -مع إمكانِ سَترِها-، من ناحيةِ أصولِ الشَّرعِ: لا يقتَضي الصحّةَ.

فكأنَّه يرى أنَّ هذا فعلُ صحابيٍّ في زمانِ النُّبوّة لا يَستَلزِم الاحتِجاجَ بمِثلِه، فلو كان في المدينةِ وبمَحضَرٍ منَ النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإقرارٍ منه لَصَحَّ الاحتِجاجُ.

ولو جِئنا نَقولُ بظاهِرِه لَأَدَّى ذلك إلى بُطلانِ أصلِ سَترِ العَورَةِ؛ لأنّه بإمكانِهم أن يستُروه، وبإمكانِهم أن يمنَعوه من انكشافِ عورَتِه»[٣].

٣. وقيلَ: كان انكشافًا غيرَ مُتَعَمَّدٍ، مع ضيقِ الحالِ، وقِلَّة ذاتِ اليَدِ:

قال الشيخُ عبدُ المحسنِ العبَّاد حَفِظَهُ اللهُ: «الإنسانُ عليه أن يستُرَ عورَتَه على قدرِ طاقَتِه، وإن حصَلَ انكشافٌ غيرُ مقصودٍ بسبب ضيقِ الحالِ فإنّه لا يُؤَثِّر، وهذا من جِنسِ الذي جاءَ في حديثِ عمرِو بن سَلِمَة الجَرميّ، الذي كان يُصَلِّي بالناسِ، وكان عليه إزارٌ فيه فَتقٌ أو شَقٌّ، فكان ينكَشِفُ شيءٌ من عورَتِه، فقالتِ امرأةٌ: «غَطُّوا عَنَّا استَ قارِئِكُم»، فاشتَرَوا له قميصًا، فسُرَّ به وفَرِحَ»[٤].

---

(١) مجموع فتاوى الشيخ صالح بن فوزان (١/ ٢٥٧).

(٢) أي: يضعف الاستدلال بمتن هذا الحديث.

(٣) شرح زاد المستقنع (٣٣/ ١١)، بترقيم الشاملة.

(٤) شرح سنن أبي داود (٤/ ١٣٢).

وبكلّ حالٍ: فهذه واقعةُ عينٍ، يتطَرَّقُ إليها التأويلُ والاحتمالُ، والقومُ حديثو عهدٍ بإسلامٍ، وليس فيهم مَن يُفَقِّهُهُم ويُعَلِّمُهم، فهُم مَعذورون بعدَمِ العلمِ، والجهلِ بالحُكمِ، فلا يُحتَجُّ بما فعَلوا -والحالُ هذهِ- على خلافِ ما دَلَّ عليه الدليلُ من اشتراطِ سترِ العورَة لصحّةِ الصلاةِ.

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَم يُنصِف مَن قال: إنَّهُم فَعَلوا ذلك باجتِهادِهِم، ولَم يَطَّلِعِ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك؛ لِأَنَّها شَهادَةُ نَفيٍ، ولِأَنَّ زَمَنَ الوَحيِ لا يَقَعُ التقريرُ فيه على ما لا يَجوزُ.

وكذا مَنِ استَدَلَّ بهِ بأَنَّ سَترَ العَورَةِ في الصلاةِ ليس شَرطًا لِصِحَّتِها، بَل هو سُنَّةٌ، ويجزي بدونِ ذلك[1]؛ لِأَنَّها واقِعَةُ حالٍ، فَيُحتَمَلُ أَن يكونَ ذلك بعدَ عِلمِهِم بالحُكمِ[2]»[3].

عورةُ الصغيرِ غيرِ المَيِّزِ:

الأطفالُ الصغارُ الذينَ هُم دونَ سِنّ التمييزِ ليس لعَورَتِهم حُكمٌ، ولِذلك يجوزُ النظرُ إليها ومَسُّها، خاصَّةً مع وُجود الحاجَةِ إلى ذلك، وأمنِ الفتنَةِ.

قال الكاسانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو ماتَ الصبيُّ الذي لا يُشتَهى لا بَأسَ أَن تُغَسِّله النِّساءُ، وكذلك الصبيَّةُ التي لا تُشتَهى إذا ماتَت لا بَأسَ أَن يُغَسِّلها الرِّجالُ؛ لِأَنَّ حُكمَ العَورَةِ غيرُ ثابتٍ في حقِّ الصغيرِ والصغيرَةِ»[4].

وقال المرداويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يحرُمُ النّظرُ إلى عورةِ الطِّفلِ والطِّفلَةِ قبلَ السَّبعِ، ولا لَمسُها، نَصَّ عليه الإمامُ أحمَدُ»[5].

---

(١) أي: وكذا لم ينصف من استدل بهذا الحديث على أن ستر العورة في الصلاة ليس شرطًا لصحتها، وأنه سنة.

(٢) كذا، ولعل الصواب: «قبل علمهم بالحكم»، وكذا هو في شرح القسطلاني (٦/ ٣٩٨).

(٣) فتح الباري (٨/ ٢٣).

(٤) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (١/ ٣٠٦).

(٥) الإنصاف (٨/ ٢٣).

وقال **شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَورَةُ الصغيرِ[١] لا حُكمَ لها، ولِذلك يجوزُ مَسُّها»[٢].

وقال **الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما دونَ سبعِ سِنينَ عندَ الفُقَهاءِ ليس لعورَتِه حُكمٌ، بل عورَتُه مِثلُ يَدِهِ، ولهذا يجوزُ النظرُ إليها، ولا يَحرُمُ مَسُّها»[٣].

ومن أهلِ العِلمِ مَن استَثنى من جوازِ النظرِ والمَسّ: الفَرجَينِ: القُبُلَ والدُّبُرَ، فلا يَحِلّ النّظرُ إليهِما ولا لَمسُهُما، كما هو مذهبُ الشَّافِعيَّة.

إلا أنّ هذا الحُكمَ لا يشمَلُ الأُمّ، ومَن هو قائمٌ على رعايةِ الصبيِّ وتربيَتِه.

قال **ابنُ حَجَرٍ الهَيتَميُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأَصَحُّ: حِلُّ النظَرِ إلى صَغيرَةٍ لا تُشتَهى، كما عليه الناسُ في الأَعصارِ والأَمصارِ... إلا الفَرجَ فَيَحرُمُ... نَعَم، يَجوزُ نَظَرُهُ ومَسُّهُ لِنَحوِ الأم زَمَنَ الرَّضاعِ والتربيَةِ؛ للضَّرورَةِ»[٤].

عودَةٌ إلى تَتِمَّةِ الحديثِ وشَرحِه:

قَولُهُ: «فاشتَرَوا فَقَطَعوا لي قَميصًا، فَما فَرِحتُ بشيءٍ فَرَحي بذلك القَميصِ»:

ولِأبي داوُدَ: «فاشتَرَوا لي قَميصًا عُمانيًّا، فَما فَرِحتُ بشيءٍ بعدَ الإسلامِ فَرَحي بِهِ».

قال العَينيُّ: «عُمانيًّا»: مَنسوبٌ إلى عُمان، بلدةٍ كبيرةٍ من بلادِ اليَمَنِ، وقيلَ: صُقعٌ[٥] عندَ البَحرينِ، وقيلَ: كُورة[٦]»[٧].

وقال **الحافظُ:** «نِسبَةٌ إلى عُمانَ، وهي منَ البَحرَينِ»[٨].

---

(١) يقصد به: من دون سن التمييز.

(٢) شرح عمدة الفقه - من كتاب الطهارة والحج (١/ ٢٤٥).

(٣) الشرح الممتع (٥/ ٢٧٥).

(٤) تحفة المحتاج (٧/ ١٩٥).

(٥) الصقع: الناحية من الأرض. المحيط في اللغة (١/ ١١).

(٦) الكورة: المدينة. الصحاح (٢/ ٨١٠).

(٧) شرح أبي داود (٣/ ٨٥).

(٨) فتح الباري (٨/ ٢٣).

وللطَّبَرانيّ في الأوسَطِ، وأبي نُعَيم في المَعرِفة: «فاشتَرَوا لي ثَوبًا، فَقَطَعَتهُ لي امرَأَةٌ منَ الحَيِّ قَميصًا، فَأَلبَسونيهِ، فَفَرِحتُ بِهِ فَرَحًا ما فَرِحتُ بشيءٍ مِثلِهِ».

وللطَّبَرانيّ في الكَبيرِ: «فَما فَرِحتُ بشيءٍ قَطُّ بعدَ الإسلامِ فَرَحي بذلك القَميصِ».

*** وكان عمرٌو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يعرِفُ صفَةَ الصلاةِ، فعَلَّموه، وقدموه، فصَلَّى بهم.**

فعندَ النَّسائيّ، والبَيهَقيّ: «فَدَعَوني، فَعَلَّموني الرُّكوعَ والسُّجودَ، فَكُنتُ أُصَلِّي بِهِم».

*** وكان من شأنِه فيهم: أنّه لا يشهَدُ صلاةً معهُم إلا أَمَّهُم:**

فعِندَ أبي داوُدَ، وأحمدَ، والبَيهَقيّ: «فقدَّموني وأَنا غُلامٌ، فَكُنتُ أَؤُمُّهُم وعَلَيَّ شَملَةٌ لي، فَما شَهِدتُ مَجمَعًا من جَرمٍ[1] إلا كُنتُ إمامَهُم، وأُصَلِّي على جَنائِزِهِم، إلى يَومي هذا».

وللطَّبَرانيّ في الكَبيرِ: «فَلَم أَزَل إمامَ جَرمٍ إلى يَومي هذا».

قال مِسعَرُ بن حَبيبٍ الجرميُّ: «وكان يَؤُمُّهُم في مسجدِهِم، ويُصَلِّي على جَنائِزِهِم».

وللطَّيالِسيِّ، والطحاويّ: «قال مِسعَرُ بن حَبيبٍ: فَأَنا أَدرَكتُهُ يُصَلِّي بِهِم، ويُصَلِّي على جَنائِزِهِم، ولا يُنازِعُهُ في ذلك أَحَدٌ حتى مَضى».

ولابنِ سَعدٍ نَحوهُ، ولَفظُهُ: «كان يُصَلِّي على جَنائِزِهِم، ويَؤُمُّهُم في مسجدِهِم، حتى مَضى لِسَبيلِهِ».

ومنَ الفوائِدِ المستخلَصة من هذا الحديثِ:

* أنَّ العربَ كانت تَعرِف أنَّ النبيّ الصادِقَ لا بُدّ له من الظُّهور على قومِه؛ كما يدُلُّ عليه قَولُهُ: «وكانتِ العَرَبُ تَلَوَّمُ بإسلامِهِمُ الفَتحَ، فَيقولونَ: اترُكوهُ وقَومَهُ؛ فَإِنَّهُ إن ظَهَرَ عليهم فَهو نبيٌّ صادِقٌ».

* بيانُ مكانةِ الصلاةِ في الإسلامِ، وأنَّها من أوائِلِ الأعمالِ التي يُؤمَر بها العبادُ، ففي

---

(١) اسم قبيلته.

الحَديثِ: «فَلَمَّا كانت وقعَةُ أَهلِ الفَتحِ بادَرَ كُلُّ قَومٍ بإسلامِهِم، وبَدَرَ أَبي قَومي بإسلامِهِم، فَلَمَّا قدِمَ قال: جِئتُكُم -واللهِ- من عِندِ النَّبيِّ ﷺ حقًّا، فقال: **«صَلُّوا صَلاةَ كذا في حينِ كذا، وصَلُّوا صَلاةَ كذا في حينِ كذا، فإذا حَضَرَتِ الصلاةُ فَليُؤَذِّن أَحَدُكُم، وليَؤُمَّكُم أَكثَرُكُم قُرآنًا»**.

وعَنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ النبيَّ ﷺ بَعَثَ مُعاذًا رضي الله عنه إلى اليَمَنِ، فقال: **«ادعُهُم إلى شَهادَةِ أَن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأَنِّي رسولُ اللهِ، فَإن هُم أَطاعوا لِذلك، فَأَعلِمهُم أَنَّ اللهَ قدِ افتَرَضَ عليهم خَمسَ صَلَواتٍ في كُلِّ يَومٍ ولَيلَةٍ، فَإن هُم أَطاعوا لِذلك، فَأَعلِمهُم أَنَّ اللهَ افتَرَضَ عليهم صَدَقَةً في أَموالِهِم، تُؤخَذُ من أَغنيائِهِم، وتُرَدُّ على فُقَرائِهِم»**[1].

* **وفيه**: أنَّ الأقرَأَ هو الأَحقُّ بالإمامةِ، وفي الصحيحِ عن أَبي مَسعودٍ الأَنصاريِّ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«يَؤُمُّ القَومَ أَقرَؤُهُم لِكِتابِ اللهِ»**[2].

والأقرأُ يشمَلُ معنَيَينِ:

الأوَّل: الأكثَرُ قُرآنًا.

الثَّاني: الأحسَنُ قراءَةً، وهو الذي تكونُ قراءتُه تامَّةً، يُقيمُ الحُروفَ، ويُحكِمُ التلاوةَ.

وجاءَ في فتاوى اللّجنَةِ الدائِمةِ: «معنى **«أَقرَؤُكُم»**: أحسَنُكم تِلاوةً وتَرتيلًا للقُرآنِ، ويُرادُ بِهِ أَيضًا: أكثرُكُم قُرآنًا»[3].

فإن تساوَيا في قدرِ ما يَحفظانِ منَ القرآنِ، وكان أحدُهُما أحسنَ قراءةً من الآخرِ، فهو أولى؛ لأنَّه أقرأُ، فيدخُلُ في عُمومِ قَولِهِ ﷺ: **«يَؤُمُّ القَومَ أَقرَؤُهُم لِكِتابِ اللهِ»**.

فإنِ استَوَيا في جَودَةِ القِراءةِ قُدِّم أكثَرُهُما قُرآنًا.

وإذا اجتمَع شخصانِ يُحسِنان قراءةَ القُرآنِ، أحدُهُما أكثرُ قُرآنًا، والآخَرُ أجوَدُ قراءةً، فمَن يُقدَّمُ؟

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

(٢) رواه مسلم (٦٧٣).

(٣) فتاوى اللجنة الدائمة (٧/ ٣٥٠).

ظاهِرُ السُّنَّة: أنَ الأكثرَ حفظًا للقُرآنِ مُقدّمٌ، **قال الحافظُ ابنُ رَجَبٍ**: «وأكثرُ الأحاديثِ تدُلُّ على اعتبارِ كثرةِ القُرآنِ»[١].

ويدُلّ على ذلك حديثُ عمرِو بن سَلِمَة، وفيه: «**وليَؤُمَّكُم أَكثَرُكُم قُرآنًا**»، وفي رِوايةٍ: «**أَكثَرُكُم جَمعًا للقُرآنِ**».

وعَنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قال: «لَمَّا قدِمَ المهاجِرونَ الأوَّلونَ نزلوا العُصبَةَ -مَوضِعٌ بقُباءٍ- قَبلَ مَقدَمِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يَؤُمُّهُم سالِمٌ مَولى أَبي حُذَيفَةَ، وكان أَكثَرَهُم قُرآنًا، وفيهم عمرُ بن الخَطَّاب، وأَبو سَلَمَةَ بن عبدِ الأَسَدِ»[٢].

* وفيه: أنَّ المشرِكين يَعلَمون أن آلِهَتَهم ليست آلهةً حقًّا، كَما في قَولِهم: «اترُكوهُ وقَومَهُ؛ فَإِنَّهُ إن ظَهَرَ عليهم فَهو نبيٌّ صادِقٌ»، ولو كانوا يعتَقِدون أن آلِهَتَهم تُغني شيئًا لأحالوا عليها.

* وفيه: بيانُ ما كان عليه العربُ من الصدقِ في النقلِ وتمامِ الحفظِ، كما في قَولِه: «كان يَمُرُّ بنا الرُّكبانُ فَنَسأَلُهُم: ما للناسِ؟ ما للناسِ؟ ما هذا الرَّجُلُ؟ فَيقولونَ: يَزعُمُ أَنَّ اللهَ أَرسَله، أوحى إليه، أو: أوحى اللهُ بكذا، فَكُنتُ أَحفَظُ ذلك الكَلامَ، وكَأَنَّما يُقَرُّ في صَدري».

* وفيه: مسارعةُ الناسِ إلى الإيمانِ، وانشراحُ صُدورِهم به.

* وفيه: رفعُ صاحب القُرآنِ، وإن كان صغيرًا دون البُلوغ، وقد تقدَّمَ عن مِسعَر بن حَبيبٍ الجَرميِّ، قال: «فَأَنا أَدرَكتُهُ -يَعني: عَمرَو بن سَلِمَةَ- يُصَلِّي بِهم، ويُصَلِّي على جَنائِزِهِم، لا يُنازِعُهُ أَحَدٌ حتى مَضى».

وعن عامِرِ بن واثِلَةَ، أَنَّ نافِعَ بن عبدِ الحارِثِ، لَقيَ عمرَ بعُسفانَ، وكان عمرُ يَستَعمِلُهُ على مكةَ، فقال: مَنِ استَعمَلتَ على أَهلِ الوادي؟ فقال: ابنَ أَبزى، قال: ومَنِ ابنُ

---

(١) فتح الباري لابن رجب (٦/ ١١٦).

(٢) رواه البخاري (٦٩٢)، وأبو داود (٥٨٨)، واللفظ له.

أَبزى؟ قال: مَولًى من مَوالينا، قال: فاستَخلَفتَ عليهم مَولًى؟! قال: إنَّهُ قارِئٌ لِكِتاب اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإنَّهُ عالِمٌ بالفَرائِضِ، قال عمرُ: أَما إنَّ نبيَّكُم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد قال: «**إنَّ اللهَ يَرفَعُ بهذا الكِتاب أَقوامًا، ويَضَعُ بِهِ آخَرينَ**»(١).

* وفيه: مِصداقُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، حَيثُ رُفع هذا الصبيُّ في قومِه بما عندَه من القرآنِ، لا بالمالِ، ولا بالنسَب، والعلمُ بالقرآنِ أشرَفُ العُلوم، وقال القرطُبيُّ في تفسيرِ هذه الآيةِ: «أَي: في الثَّواب في الآخِرَةِ، وفي الكَرامَةِ في الدُّنيا»(٢).

وقد أكرمَ اللهُ عمرَو بن سَلِمَةَ بما أكرَمَه به.

* وفيه: صِحَّةُ إمامَةِ الصبيِّ الحافظِ المميِّزِ.

* وفيه: انعِقادُ الجماعةِ بالصبيّ.

* وفيه: جوازُ كلامِ المرأَةِ معَ الرِّجالِ للمَصلحةِ، وذلك بالضَّوابطِ الشّرعيةِ، من عدمِ الخضوعِ بالقولِ، وأن يكونَ الكلامُ على قدرِ الحاجَةِ، وأن لا تَكونَ خلوةٌ.

* وفيه: أنّ المرأَةَ تُنكِرِ المنكَر إذا رأَتهُ، ما لم يترتَّب على ذلك منكرٌ أكبرُ.

* وفيه: امتثالُ الصحابةِ لتقديمِ الأقرَأِ، وإن كان صغيرًا.

* وفيه: حرصُ السلَفِ على إسنادِ الأمرِ لِأهلِه.

* وفيه: قَبولُ خَبَرِ الواحدِ.

* وفيه: أنّ العِلمَ بالتّعَلّم، وليس بكِبَرِ السِّنّ، ولا بالوَجاهةِ والشَّرَفِ.

* وفيه: بَرَكَةُ التعَلُّم والحفظِ في الصغَرِ، كما قال عمرٌو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فَكُنتُ أَحفَظُ ذلك الكَلامَ، وكَأَنَّما يُقَرُّ في صَدري»، ولِذا قيلَ: «الحِفظُ في الصغَرِ، كالنقشِ في الحَجَرِ»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٩٩).

(٣) رواه ابن سعد في طبقاته (٧/ ١٧١)، وابن الجعد في مسنده (١٠٤٤)، عن قتادة قوله.

* وفيه: أخذُ العِلمِ عن أهلِه، وقال **الحافظُ ابنُ رجَبَ**: «كان عُلماءُ السَّلَفِ يأخُذون العِلمَ عن أهلِه»[١].

* وفيه: عدمُ مُسابقةِ الإمامِ أو مُساواتِه، وأنّ المأمومَ لا يسجُدُ حتى يَصِلَ الإمامُ إلى الأرضِ ساجدًا؛ فإنّ المرأةَ رأَتِ استَ الإمامِ وهو ساجِدٌ، وفي الصحيحينِ عنِ البَراءِ ابن عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كُنَّا نُصَلِّي خَلفَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا قال: «**سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَهُ**»، لَم يَحنِ أَحَدٌ مِنَّا ظَهرَهُ حتى يَضَعَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَبهَتَهُ على الأَرضِ»[٢].

* وفيه: حِرصُ الصحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على تَلَقِّي العلمِ، ومعرفَةِ الحقِّ.

* وفيه: تعظيمُ الصحابةِ لأمرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّهُم لَمَّا أمَرَهُم بأن يُقدِّموا أكثَرَهم قُرآنًا، نظَروا فوجَدوا عَمرًا أكثَرَهُم جمعًا للقرآنِ، فقدَّموه على كبيرِهم وصغيرِهم، ولم يزَل إمامًا لهُم حتى ماتَ، قال عمرٌو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فقدَّموني وأنا غُلامٌ، فَكُنتُ أَؤُمُّهُم وعَلَيَّ شَملَةٌ لي، فَما شَهِدتُ مَجمَعًا من جَرمٍ إلا كُنتُ إمامَهُم، وأُصَلِّي على جَنائِزِهِم، إلى يَومي هذا».

* وفيه: مُبادرةُ الإنسانِ إلى الخَيرِ، كما في قَولِهُ: «فَلَمَّا كانت وقعَةُ أَهلِ الفَتحِ، بادَرَ كُلُّ قَومٍ بإسلامِهِم، وبَدَرَ أَبي قَومي بإسلامِهِم».

* وفيه: تَبيينُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَواقيتَ الصلواتِ، واهتمامُه بها.

* وفيه: عدمُ كِتمانِ العِلمِ، والمبادرةُ إلى تبليغِه للناسِ، كما في قَولِهِ: «فَلَمَّا قدِمَ قال: جِئتُكُم -واللهِ- من عِندِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًّا، فقال: صَلُّوا صَلاةَ كذا...».

* وفيه: الرُّجوعُ إلى الدِّيارِ، وتبليغُ العلمِ للناسِ.

* وفيه: الإسراعُ بالعملِ بالنصيحةِ.

---

(١) اختيار الأولى (ص١٠٤).

(٢) رواه البخاري (٨١١)، ومسلم (٤٧٤).

* وفيه: أهمِّيَّةُ تَلَقِّي العلمِ، والحرصُ على تحصيلِه.

* وفيه: اكتشافُ الطاقاتِ، وتنميةُ المواهب، وتشجيعُها.

* وفيه: قُبحُ ظهورِ العورَةِ بالفطرَةِ، وأنّ الإنسانَ مجبولٌ على الحياءِ وحُبِّ التَّستُّرِ.

* وفيه: الحرصُ على تَلَقِّي العِلم مُشافَهةً، فهذا الغُلامُ كان يسمعُ العلمَ، ويتَلَقَّاه مِمَّن يعلَمُه، ويحفَظُه في صَدرِه.

* وفيه: فَضلُ أهلِ العَقدِ والمفاصَلةِ على الأتباعِ، قال عمرٌو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه: «كانتِ العَرَبُ تَلَوَّمُ بإسلامِهِمُ الفَتحَ، فَيقولونَ: اترُكوهُ وقَومَهُ؛ فَإنَّهُ إن ظَهَرَ عليهم فَهو نبيٌّ صادِقٌ، فَلَمَّا كانت وقعَةُ أَهلِ الفَتحِ، بادَرَ كُلُّ قَومٍ بإسلامِهِم».

فمَن كان مُنتَظِرًا حَسمَ القضيَّةِ، فإن ظهَر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تابَعَه، ليس كمَن تابَعَ النبيَّ، وصاحَبَه، وصَلَّى معَه، ونصَرَه، وعزَّرَه، ووَقَّره، وقاتَلَ دونَه، وجاهَدَ معَه بنفسِه ومالِه.

قال اللهُ تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]. فلا يَستَوي مَن جاهَدَ من المؤمنينَ بنَفسِه ومالِه، ومَن لم يخرُج للجهادِ ولم يُقاتِل أعداءَ اللهِ.

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

فكان مَن أسلَمَ قبلَ الفتحِ وأنفَقَ وقاتَلَ، أعظمَ درَجةً وأجرًا وثوابًا مِمَّن لم يُسلِم ويُقاتل ويُنفِق إلا بعدَ ذلك، كما هو مُقتضى الحِكمَةِ، ولِذلك كان السابقون وفُضَلاءُ الصحابةِ، غالِبُهم أسلَمَ قبلَ الفتحِ.

فمن الناسِ المتَرَدِّدُون، ومنهمُ المتَفَرِّجون، ومنهمُ الصدِّيقون المجاهِدون المؤمِنون، فأينَ أولئِكَ من هؤُلاءِ؟

أين مَنِ انتظرَ ثم تابَعَ المنتَصِرَ، منَ المجاهدِ المظَفَّرِ، الذي أنفَقَ وقاتَلَ حتى ظهَرَ؟

فلا بُدّ للواحدِ مِنَّا أن يُحسِن الاختيارَ لنفسِه، بأن يجتَهِدَ أن يكونَ منَ السَّابقين المسارِعينَ المبادِرينَ، لا أن يكونَ منَ المنتَظِرين المتَلَوِّمين المتَرَدِّدين.

لا بُدَّ أنَ تَصِحَّ النِّسبَةُ، ويَصدُقَ الإنتماءُ، وتَظهَرَ أماراتُ الوَلاءِ للدِّين وأهلِه.

لا بُدّ من حسمِ الأمورِ، وحُضور الموقفِ الفاصلِ حُضورَ المجاهدينَ، لا حُضورَ الجُمهورِ المتَفرِّجِ المنتظِرِ لِمَن تكونُ الغَلَبَةُ.

وتمرُّ مواقفُ كثيرةٌ، يَحدُث فيها العديدُ والمزيدُ منَ الصراعاتِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وأهلِ الخيرِ وأهلِ الشرِّ، ومُعَسكَرِ الإيمانِ ومُعَسكَرِ الكُفرانِ، وأهلِ الإيمانِ والطاعةِ للهِ ورسولِه والولاء، وأهلِ التذَبذُب والحَيرَة مِمَّن هُم لا إلى هَؤُلاءِ، ولا إلى هَؤُلاءِ.

أينَ نحنُ من هذه المَواقفِ؟ هل لنا مَوقِعٌ في المواجَهَةِ، سواءٌ في المقدّمَةِ أوِ السَّاقَةِ أو الحِراسةِ؟ أم نَحنُ في النظَّارَةِ[1]؟

ولما كان موقِفُ المواجَهةِ هو موقِفَ الحسمِ، كان ينبَغي ألَّا يُمَثِّلَ أهلَ الإسلامِ في المخاصَماتِ والمناظراتِ إلا مَن كان أهلًا لِذلك، من ذَوي العِلمِ الصحيحِ، والفِكرِ الصائِب، والعقلِ السَّليمِ؛ لأنَّ هُناكَ في النظَّارَةِ مَن جلَسَ ينتَظِرُ لَمن تكونُ الغَلَبَةُ، حتى يتابعَ الغالبَ، ويُفارِقَ المَغلوبَ.



(١) النظارة: القوم ينظرون إلى الشيء.

١١

وليمةُ
سمك

وليمةُ سمك

وليمَةُ[1] سَمَكٍ:

عن جابرِ بن عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بَعَثَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَمَّرَ علينا أَبا عُبَيدَةَ، نَتَلَقَّى عيرًا لِقريشٍ، وزَوَّدَنا جِرابًا من تَمرٍ، لَم يَجِد لَنا غيرَهُ، فَكان أَبو عُبَيدَةَ يُعطينا تَمرَةً تَمرَةً، فكنَّا نَمَصُّها كَما يَمَصُّ الصبيُّ، ثم نَشرَبُ عليها منَ الماءِ، فَتكفينا يَومَنا إلى اللَّيلِ، وكُنَّا نَضرِبُ بِعصيِّنا الخَبَطَ، ثم نَبُلُّهُ بالماءِ، فَنَأكُلُهُ.

قال: وانطَلَقنا على ساحِلِ البَحرِ، فَرُفِعَ لَنا على ساحِلِ البَحرِ كَهَيئَةِ الكَثيب الضَّخمِ، فَأَتَيناهُ فإذا هي دابَّةٌ تُدعى العنبَرَ، قال: قال أَبو عُبَيدَةَ: مَيتَةٌ، ثم قال: لا، بَل نَحنُ رُسُلُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي سَبيلِ اللهِ، وقد اضطُرِرتُم، فَكُلوا.

قال: فَأَقَمنا عليه شَهرًا ونَحنُ ثَلاثُ مئةٍ، حتى سَمِنَّا، قال: ولَقد رَأَيتُنا نَغتَرِفُ من وقب عَينِهِ بالقِلالِ الدُّهنَ، ونَقتَطِعُ منه الفِدَرَ كالثَّورِ، أو كَقدرِ الثَّورِ، فَلَقد أَخَذَ مِنَّا أَبوعُبَيدَةَ ثَلاثَةَ عَشَرَ رجلًا، فَأَقعَدَهُم في وقب عَينِهِ، وأَخَذَ ضِلَعًا من أَضلاعِهِ فَأَقامَها، ثم رَحَلَ أَعظَمَ بَعيرٍ معنا، فَمَرَّ من تَحتِها.

وتَزَوَّدنا من لَحمِهِ وشائِقَ، فلما قدِمنا المَدينَةَ أَتَينا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذكرنا ذلك له، فقال: «**هو رِزقٌ أَخرَجَهُ اللهُ لَكُم، فَهَل معكُم من لَحمِهِ شيءٌ فَتُطعِمونا؟**».

قال: فَأَرسَلنا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه فَأَكَله[2].

---

(١) الوليمة: كل طعام صنع لدعوة، وغيرها. ينظر: القاموس المحيط (ص١١٦٨)، المحكم (١٠/ ٤٤٠)، لسان العرب (١٢/ ٦٤٣).

(٢) رواه البخاري (٢٤٨٣)، (٤٣٦١)، (٤٣٦٢)، ومسلم (١٩٣٥)، (٣٠١٤)، والسياق له، وأبو داود =

تَرجَمَةُ جابرِ بن عبدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

هو جابرُ بن عبدِ اللهِ بن عَمرِو بن حَرامِ بن ثَعلَبَةَ، الخَزرَجيُّ، السّلَميُّ، أَبوُ عبدِ اللهِ، ويُقالُ: أَبو عبدِ الرحمَنِ، ويُقالُ: أَبو محمدٍ، المَدَنيُّ، الفَقيهُ.

وأُمُّهُ: نسيبَةُ بنتُ عُقبَةَ بن عَديّ بن سِنانٍ.

من أَهلِ بَيعَةِ الرِّضوانِ، وكان آخِرَ مَن شَهِدَ لَيلَةَ العَقَبَةِ الثَّانيَةِ مَوتًا.

رَوى عِلمًا كَثيرًا عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن أَبي بكرٍ، وعمرَ، وعَليٍّ، وأَبي عُبَيدَةَ، ومُعاذِ بن جَبَلٍ، والزُّبَيرِ، وغيرِهِم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

حَدَّثَ عَنهُ: سعيدُ بن المسَيِّب، وعَطاءُ بن أَبي رَباحٍ، وسالِمُ بن أَبي الجَعدِ، والحَسَنُ البَصريُّ، والحَسَنُ بن محمدِ ابن الحَنَفيَّةِ، وأَبو جَعفَرٍ الباقِرُ، ومحمدُ بنُ المنكَدِرِ، وسَعيدُ بن ميناءَ، وأَبو الزُّبَيرِ، وغيرُهم.

عن أبي الزُّبَيرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جابرَ بن عبدِ اللهِ يقولُ: «غَزَوتُ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسعَ عَشرَةَ غَزوَةً»، قال جابرٌ: «لَم أَشهَد بَدرًا، ولا أُحُدًا، مَنَعَني أَبي، فلما قُتِلَ عبدُ اللهِ يَومَ أُحُدٍ، لَم أَتَخَلَّف عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غَزوَةٍ قَطُّ»[1].

وعن هِشامِ بن عُروَةَ، قال: «كان لِجابرِ بن عبدِ اللهِ حَلقَةٌ في المسجدِ -يَعني النبَويّ- يُؤخَذُ عنه العِلمَ».

وقال ابنُ الأَثيرِ: «كان منَ المكثِرينَ في الحَديثِ، الحافظينَ للسُّنَنِ».

= (٣٨٤٠)، والنسائي (٤٣٥٤)، وفي الكبرى (٤٨٤٧)، وأحمد (١٤٣٣٦)، (١٤٣٣٧)، (١٤٣٣٨)، (١٥٠٤٧)، ومالك (٣٤٣٦)، والطيالسي (١٨٥٠)، وعلي بن الجعد في مسنده (٢٦٤٨)، والبيهقي في سننه (١٨٩٦٢)، وفي دلائل النبوة (٤/ ٤٠٨)، والطبراني في الأوسط (٩٢٠٢)، وأبو عوانة في مستخرجه (٧٦١٨)، (٧٦٢١)، والطبري في تاريخه (٣/ ٣٣)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٣١٤)، وابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٢٦)، وابن عساكر في تاريخه (٤٩/ ٤١٠).

(١) رواه مسلم (١٨١٣).

وقال ابنُ كَثيرٍ: «له رِواياتٌ كَثيرَةٌ، وشَهِدَ العَقَبَةَ، وأَرادَ أَن يَشهَدَ بَدرًا فَمَنَعَهُ أَبوهُ، وخَلَّفَهُ على أَخواتِهِ، وقيلَ: إنَّهُ ذَهَبَ بَصَرُهُ قَبلَ مَوتِهِ.

توُفِّيَ جابرٌ بالمَدينَةِ، وعُمرُهُ أَربَعٌ وتِسعونَ سنةً، وأَسنَدَ أَلفًا وخَمسَ مئةٍ وأَربَعينَ حَديثًا».

وقال الحافظُ في الإصابَةِ: «قال يَحيى بن بكيرٍ وغيرُه: «ماتَ جابرٌ سنةَ ثَمانٍ وسَبعينَ»، وقال عَليُّ بن المَدينيّ: «ماتَ جابرٌ بعدَ أَن عُمِّرَ، فأوصى أَلَّا يُصَلِّيَ عليه الحَجَّاجُ».

قُلتُ: وهذا موافِقٌ لقَولِ الهَيثَمِ بن عَديٍّ: «إنَّه ماتَ سنةَ أربعٍ وسَبعينَ»، وفي الطبري وتاريخِ البخاريّ ما يَشهَدُ له، وهو أنَّ الحجَّاجَ شَهِدَ جنازَتَه، ويُقالُ: ماتَ سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ»[1].

شرح الحديث:

قال جابرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**بَعَثَنا رسولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وأَمَّرَ علينا أَبا عُبَيدَةَ، نَتَلَقَّى عيرًا لِقريشٍ**»:

وفي الصحيحينِ: «بَعَثَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلاثَ مئةِ راكِبٍ، أَميرُنا أَبو عُبَيدَةَ بن الجَرَّاحِ، نَرصُدُ عيرَ قريشٍ».

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مُقتَضى ما في الصحيحِ: أَن تَكونَ هذه السَّريَّةُ في سنةِ سِتٍّ أو قَبلها، قَبلَ هُدنَةِ الحُدَيبيَةِ»[2].

و«**العير**»: **قال النوَويُّ**: «هي الإبلُ التي تَحمِلُ الطعامَ وغيرَهُ»[3].

---

(١) ينظر: التاريخ الكبير (٢/ ٢٠٧)، تهذيب التهذيب (٢/ ٤٢)، الإصابة (١/ ٥٤٦)، الاستيعاب (١/ ٢١٩)، أسد الغابة (١/ ٤٩٢)، البداية والنهاية (٥/ ٢١٩)، سير أعلام النبلاء (٣/ ١٨٩).

(٢) فتح الباري (٨/ ٧٨).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٨٤).

وقال ابنُ الأَثيرِ: «العيرُ: الإبلُ بأحمالِها، فِعلٌ من عارَ يَعيرُ، إذا سار»[١].

وقيلَ: هي قافِلةُ الحَميرِ، فكثُرَت حتى سُمِّيت بها كُلُّ قافِلةٍ.

قال أبو حيَّان الأندلُسيُّ: «العيرُ: الإبلُ التي عليها الأَحمالُ، سُمِّيَت بذلك لِأَنَّها تَعيرُ، أَي: تَذهَبُ وتَجيءُ.

وقيلَ: هي قافِلَةُ الحَميرِ، ثم كَثُرَ حتى قيلَ لِكُلِّ قافِلَةٍ عيرٌ، كَأَنَّها جَمعُ عَيرٍ[٢]»[٣].

ولِمسلمٍ: «بَعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ بَعثًا إلى أَرضِ جُهَينَةَ».

وقال ابنُ سعدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالوا: بَعَثَ رسول اللهِ ﷺ أَبا عُبَيدةَ بن الجَرَّاحِ في ثَلاثِ مئةِ رجلٍ منَ المهاجِرين والأنصارِ، إلى حَيٍّ من جُهَينة بالقَبَليّة، مِمَّا يَلي ساحِلَ البحرِ، وبينَها وبينَ المَدينةِ خمسُ ليالٍ، فأصابهُم في الطريقِ جوعٌ شَديدٌ، فأكَلوا الخَبَطَ، وابتاع قَيسُ بن سَعدٍ جُزُرًا ونَحَرَها لهُم، وألقى لهمُ البَحرُ حوتًا عَظيمًا، فأكَلوا منه وانصَرَفوا، ولَم يَلقَوا كيدًا»[٤].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر ابنُ سَعدٍ وغيرُه: أَنَّ النبيَّ ﷺ بَعَثَهُم إلى حَيٍّ من جُهَينَةَ بالقَبَليَّةِ، مِمَّا يَلي ساحِلَ البَحرِ، بينهم وبينَ المَدينةِ خَمسُ لَيالٍ، وأَنَّهُمُ انصَرَفوا، ولَم يَلقَوا كَيدًا.

وهذا لا يُغايِرُ ظاهِرُهُ ما في الصحيحِ؛ لِأَنَّهُ يُمكِنُ الجَمعُ بينَ كَونِهِم يَتَلَقَّونَ عيرًا لِقريشٍ، ويَقصِدونَ حَيًّا من جُهَينَةَ، ويُقَوِّي هذا الجَمعَ ما عِندَ مسلمٍ من طَريقِ عُبَيدِ اللهِ بن مِقسَمٍ، عن جابرٍ، قال: «بَعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ بَعثًا إلى أَرضِ جُهَينَةَ...»، فَذكرَ هذه القِصَّةَ»[٥].

فيكونون قد خرجوا للأمرَينِ جميعًا: لتَلَقِّي عيرِ قُريشٍ، ولهذا الحَيِّ من جُهَينَةَ.

---

(١) النهاية (٣/ ٣٢٩).

(٢) والعير: الحمار.

(٣) البحر المحيط (٦/ ٣٠٠).

(٤) الطبقات الكبرى (٢/ ١٠٠).

(٥) فتح الباري (٨/ ٧٨).

قولُهُ: «وزَوَّدَنا جِرابًا من تَمرٍ، لَم يَجِد لَنا غيرَهُ، فَكان أَبو عُبَيدَةَ يُعطينا تَمرَةً تَمرَةً»:

«**الجِرابُ**»: **قال النوَويُّ**: «بكَسرِ الجيمِ وفَتحِها، لُغَتانِ، والكَسرُ أَفصَحُ وأَشهَرُ: وِعاءٌ من جِلدٍ»[1].

ولِمسلمٍ **أَيضًا**: «كان أَبو عُبَيدَةَ يُعطي كُلَّ رجلٍ مِنَّا قَبضَةً قَبضَةً، ثم أَعطانا تَمرَةً تَمرَةً، فلما فَنيَ وجَدنا فَقدَهُ».

وقال النوَويُّ: «والظَّاهِرُ أَنَّ قَوله: «تَمرَةً تَمرَةً»، إِنَّما كان بعدَ أَن قَسَمَ عليهم قَبضَةً قَبضَةً، فلما قَلَّ تَمرُهُم قَسَمَهُ عليهم تَمرَةً تَمرَةً، ثم فَرِغَ وفقدوا التمرَة، ووَجَدوا أَلَمًا لِفَقدِها، وأَكَلوا الخَبَطَ، إِلى أَن فَتَحَ اللهُ عليهم بالعنبَرِ»[2].

ولِمسلمٍ **أَيضًا**: «بَعَثَنا النبيُّ ﷺ ونَحنُ ثَلاثُ مئةٍ، نَحمِلُ أَزوادَنا على رِقابنا».

ولهما، واللفظُ للبُخاريِّ: «فَخرجنا، حتى إِذا كُنَّا ببَعضِ الطريقِ فَنيَ الزَّادُ، فَأَمَرَ أَبو عُبَيدَةَ بأَزوادِ ذلك الجَيشِ، فَجُمِعَ ذلك كُلُّهُ، فَكان مِزوَدَي تَمرٍ، فَكان يُقَوِّتُنا كُلَّ يَومٍ قَليلًا قَليلًا حتى فَنيَ، فلم يَكُن يُصيبُنا إِلا تَمرَةٌ تَمرَةٌ، قال وهبُ بنُ كَيسانَ: وما تُغني تَمرَةٌ؟ فقال: لَقد وجَدنا فَقدَها حينَ فَنيَت».

وقال الحافظُ: «ظاهِرُ هذا السِّياقِ أَنَّهُم كان لهم زادٌ بطَريقِ العُمومِ، وأَزوادٌ بطَريقِ الخُصوصِ، فلما فَنيَ الذي بطَريقِ العُمومِ اقتَضى رَأيُ أَبي عُبَيدَةَ أَن يَجمع الذي بطَريقِ الخُصوصِ؛ لِقَصدِ المساواةِ بينهم في ذلك، فَفَعَلَ»[3].

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الجَمعُ بينَ هذه الرِّواياتِ**: أَن يكونَ النبيُّ ﷺ زَوَّدَهُم الجِرابَ زائِدًا على ما كان معهم من الزَّادِ، من أَموالِهم وغيرِها، مِمَّا واساهُم بهِ الصحابَةُ، ولِهذا قال: «نَحمِلُ أَزوادَنا على رِقابنا».

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٠٢).

(٢) المصدر السابق (١٣/ ٨٥).

(٣) فتح الباري (٨/ ٧٩).

ولَمَّا قَلَّت أَزوادُهُم جَمع المَجموعَ، فكان مِزوَدًا، أو مِزوَدَينِ»[١].

وقال أبو العباسِ القُرطُبيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وزَوَّدَنا جِرابًا من تمر، لَم يَجِد لَنا غيرَهُ**»: اختلفَت ألفاظُ الرُّواةِ في هذا المعنى، فمنها: ما ذكَرناه، وفي روايةٍ: «فَكُنَّا نَحمِلُ أَزوادَنا على رِقابنا»، وفي أُخرى: «فَفَنِيَ زادُهُم»، وفي المَوطّأ: «فكان مِزوَدَي تَمرٍ»، وفي أُخرى: «فكان يُعطينا قَبضَةً قَبضَةً، ثُمَّ أَعطانا تَمرَةً تَمرَةً».

ويَلتَئِمُ شَتاتُ هذه الرِّواياتِ بأن يُقال: إنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زادَهُم ذلك المِزوَدَ، أوِ المِزوَدَينِ، إلى ما كان عِندَهُم من زادِ أنفُسِهم الذي كانوا يَحمِلونه على رِقابهم، ثُمَّ إنَّهم لَمَّا اشتدّت بِهِمُ الحالُ جمع أبو عُبيدةَ ما كان عندَهم إلى المِزوَدِ الذي زادَهُم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يُفرِّقُه عليهم قَبضَةً قَبضَةً، إلى أن أشرَفَ على النفادِ، فكان يُعطيهِم إيَّاه تَمرَةً تَمرَةً، إلى أن فَنِيَ ذلك.

وجَمعُ أبي عُبيدَةَ الأَزوادَ، وقِسمَتُها بالسَّويَّة: إمَّا أن يكونَ حُكمًا حَكَمَ به؛ لِما شاهَد من ضَرورةِ الحالِ، ولِما خافَ من تلَف مَن لَم يكُن معه زادٌ، فظَهَر له أنَّه قد وجَب على مَن معه زادٌ أن يُحيِيَ مَن ليس له شيءٌ، أو يكونَ ذلك عن رِضا مَن كان لهُ زادٌ؛ رغبةً في الثَّواب، وفيما قاله النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأشعَريِّينَ، من أنَّهم إذا قَلَّ زادُهم جَمَعوه، فاقتَسَموه بينهم بالسَّويَّة، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَهُم مِنِّي، وأَنا منهم**»[٢]، وقد فعَلَ ذلك النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيرَ مَرَّةٍ؛ ولذلك قال بعضُ العُلماءِ: «إنَّه سُنَّةٌ»[٣].

وقَولُهُ: «**مِزوَدَي تَمرٍ**»: المِزوَدُ: ما يُجعَلُ فيه الزَّادُ.

وقَولُهُ: «**لَقد وجَدنا فَقدَها حينَ فَنِيَت**»، **قال الكرمانيُّ**: «أَي: وجَدنا فَقدَها مُؤَثِّرًا شاقًّا علينا، ولَقد حَزنَّا لفَقدِها»[٤].

---

(١) ينظر: إكمال المعلم (٦/ ٣٧١)، شرح النووي على مسلم (١٣/ ٨٥)، طرح التثريب (٦/ ١٠).

(٢) عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني، وأنا منهم**». رواه البخاري (٢٤٨٦)، ومسلم (٢٥٠٠).

(٣) المفهم (١٦/ ١٢٤-١٢٥).

(٤) الكواكب الدراري (١١/ ٥١).

وقَولُهُ: «نَحمِلُ أَزوادَنا على رِقابنا».

وللنسائيّ في الكُبرى، والبَيهَقيّ: «بَعَثَنا رسولُ اللهِ ﷺ ثَلاثَ مئةٍ راكِبٍ، أَميرُنا أَبو عُبَيدَةَ بن الجَرَّاحِ».

فظاهِرُ الرِّوايَةِ الأُولى: أَنَّهُم كانوا مُشاةً يَحمِلون أزوادَهم على رِقابهم؛ إذ لَو كانوا رُكَبانا لَم يَحمِلوها على رِقابِهم.

وظاهِرُ الرِّوايةِ الثَّانيةِ: أَنَّهم كانوا رُكبانًا.

فيُجمَعُ بينَ الرِّوايتَينِ: بأَنَّ بَعضَهم كانوا رُكبانًا، وبعضَهم كانوا مُشاةً.

وقال العِراقيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَعَلَّهُ سَمَّاهُم رُكبانًا باعتِبارِ تَهَيُّئِهِم للرُّكوب، وإن لَم يَتَّصِفوا بهِ، أو أَنَّ بَعضَهُم كان راكِبًا وبَعضهُم كان ماشيًا، يَحمِلُ زادَهُ على رَقَبَتِهِ، فَغَلَّبَ في كِلا الرِّوايَتَينِ، بإطلاقِ صِفَةِ البَعضِ على الكُلِّ»[1].

قَولُهُ: «فكنَّا نَمَصُّها كَما يَمَصُّ الصبيُّ، ثم نَشرَبُ عليها منَ الماءِ، فَتكفينا يَومَنا إلى اللَّيلِ»:

سأَلَ أبو الزُّبَيرِ جابرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيفَ كُنتُم تَصنَعونَ بها؟ قال: «نَمَصُّها كَما يَمَصُّ الصبيُّ...». وهذا لَفظُ مسلمٍ.

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَمَصُّها»، بفَتحِ الميمِ وضَمِّها، الفَتحُ أَفصَحُ وأَشهَرُ»[2].

وقال الزُّبَيديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَصِصتُهُ، بالكَسرِ، أَمَصُّه، بالفَتحِ، زادَ الأَزهَريّ: مَصَصتُه، بالفَتح، أَمُصُّهُ، بالضَّمِّ، كخَصَصتُه أَخُصُّه، مَصًّا، قال: «والفَصيحُ الجَيِّدُ: مَصِصتُه، بالكَسر، أَمَصُّ»: شَرِبتُهُ شُربًا رَفيقًا.

قال شيخُنا: «المَصُّ: هو أَخذُ المائِعِ القَليلِ بجَذب النفَسِ»[3].

---

(١) طرح التثريب (٦/ ٩).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٨٤).

(٣) تاج العروس (١٨/ ١٥٨)، وينظر: تهذيب اللغة (١٢/ ٩١).

قال النوَويُّ: «وفي هذا بَيانُ ما كان الصحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عليه منَ الزُّهدِ في الدُّنيا، والتقَلُّلِ منها، والصبرِ على الجوعِ وخُشونَةِ العَيشِ، وإقدامِهِم على الغَزوِ مع هذا الحالِ»[1].

قَولُهُ: «وكُنَّا نَضرِبُ بعِصيِّنا الخَبَطَ، ثم نَبُلُّهُ بالماءِ فَنَأكُلُهُ»:

وفي الصحيحَينِ: «فأَصابَنا جوعٌ شَديدٌ حتى أَكَلنا الخَبَطَ، فَسُمِّيَ ذلك الجَيشُ: «جَيشَ الخَبَطِ».

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخَبَطُ: ورَقُ العِضاه[2]، يُضرَبُ بالعِصيّ ليتَناثرَ، فتُعلَفهُ الإبلُ، والخبطُ: الضَّربُ بالمِخبَطِ، وهو العَصا»[3].

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخبط -بتسكين الباء-: ضَرب الشّجر بعَصا ليسقُطَ ورَقُه، واسمُ الوَرَقِ السَّاقِط «خَبَط» بفَتح الباء، والضَّارِب مُختبط»[4].

وقَولُهُ: «ثم نَبُلُّهُ بالماءِ فَنَأكُلُهُ»، يَدُلُّ على أَنَّه كان يابسًا، ولَعَلَّ الماءَ كان لإذهاب خُشونَتِه ولِإساغَتِهِ[5].

وللبُخاريِّ، وأحمدَ: «غَزَونا جَيشَ الخَبَطِ».

قال القاري: «سُمُّوا جَيشَ الخَبَطِ؛ لِأَنَّهُم أَكَلوهُ منَ الجوعِ حتى قَرِحَت أَشداقُهُم بسَبَب حَرارَةِ ذلك الوَرَقِ، فَصارَت شِفاهُهُم كَشِفاهِ الإبلِ، وقد ضُمِّنَ الغَزوُ معنى الصحبَةِ، أَي: صَحِبتُ جَيشَهُ، وغَزَوتُ معهم.

وقال الطِّيبيُّ: «جَيش الخَبَطِ» مَنصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ، أَي: غَزَوتُ مُصاحِبًا لِجَيشِ الخَبَطِ».

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٨٤).

(٢) العضاه: كل شجر له شوك. تهذيب اللغة (١/ ٩٥).

(٣) غريب الحديث (٢/ ٢٣٥).

(٤) كشف المشكل (١/ ٢٤٦).

(٥) دليل الفالحين (٤/ ٤٧٥).

قُلتُ: هذا هو أَحَدُ نَوعَيِ التضمينِ[١]، ولا يحتاجُ إلى إيرادِ الباءِ حينَئِذٍ إلا للتَّقويَةِ، وليست بضَروريَّةٍ في تَصحيحِ الكَلامِ»[٢].

قَولُهُ: «وانطَلَقنا على ساحِلِ البَحرِ، فَرُفِعَ لَنا على ساحِلِ البَحرِ كَهَيئَةِ الكَثيب الضَّخمِ»:

«الكَثيبُ»: هو التلُّ المستَطيلُ المحدَودِبُ من الرمل، وقيلَ: الكَثيبُ من الرمل: القِطعَةُ تَنقادُ مُحدَودبَةً، وقيلَ: هو ما اجتَمع واحدَودبَ، والجَمعُ: أَكثِبَةٌ، وكُثُبٌ وكُثبانٌ[٣].

وقال الجَوهَريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَثَبتُ الشيءَ أَكثُبُهُ كَثبًا، إذا جَمَعتُه، وانكَثَبَ الرملُ، أي: اجتَمع، وكُلُّ ما انصَبَّ في شيءٍ فقدِ انكَثَبَ فيه، ومنه سُمِّيَ الكَثيبُ منَ الرملِ؛ لِأَنَّه انصَبّ في مَكانٍ، فاجتمَع فيه»[٤].

قَولُهُ: «فَأَتَيناهُ، فإذا هي دابَّةٌ تُدعى: العنبَرَ»:

وللبُخاريِّ: «فَألقى البَحرُ حوتًا مَيِّتًا لَم نَرَ مِثله، يُقالُ له: العنبَرُ».

وللبُخاريِّ أَيضًا: «ثم انتَهَينا إلى البَحرِ، فإذا حوتٌ مِثلُ الظَّرِب».

وللطَّبَرانيّ في الأوسَطِ: «فَهَبَطنا ساحِلَ البَحرِ، فإذا نَحنُ بأَعظَمِ حوتٍ».

«الحوتُ»: اسمُ جِنسٍ لِجَميعِ السَّمَكِ، وقيلَ هو مَخصوصٌ بما عَظُمَ منهَ.

وقال ابنُ الملَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحوتُ يَقَعُ على الواحدِ والجَميعِ، جَمعُه: حيتانٌ، وهي العِظامُ منها، وقال ابنُ سيدَه: «الحوتُ: السَّمَكُ، اسمُ جِنسٍ، وقيلَ: هو ما عَظُمَ منه، والجَمعُ: أحواتٌ»، وقال الفَراءُ: «جَمعُه حِوَتةٌ وأحواتٌ في القليل، فإذا كثُرت فهي الحيتانُ»[٥].

---

(١) التضمين: أسلوب بلاغي من بديع الإيجاز، وهو أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر، ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول، فيحصل في الجملة معنيان. وينظر: الكليات للكفوي (ص٢٦٦)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ١٢٣)، فتح القدير للشوكاني (٣/ ٧).

(٢) مرقاة المفاتيح (٧/ ٢٦٦٦).

(٣) النهاية (٤/ ١٥٢)، تهذيب اللغة (١٠/ ١٠٦)، تاج العروس (٤/ ١٠٨).

(٤) الصحاح (١/ ٢٠٩).

(٥) التوضيح (١٦/ ٥٤)، وينظر: المحكم لابن سيده (٣/ ٤٩٣).

و«الظَّرِبُ»: الجَبَلُ الصغيرُ.

و«العنبَرُ»: قال أَهلُ اللُّغَةِ: «هي سَمَكَةٌ بَحريَّةٌ كَبيرَةٌ، يُتَّخَذُ من جِلدِها التُّرَسَةُ[1]».

ويُقالُ: إنّ العنبَرَ المَشمومَ رَجيعُ هذه الدَّابَّة.

وقيلَ: بَلِ المَشمومُ يَخرُجُ منَ البَحرِ، وإنَّما يُؤخَذُ من أَجوافِ السَّمَكِ الذي يَبتَلِعُهُ.

ونَقَلَ الماوَرديُّ عَنِ الشَّافِعيِّ، قال: «سَمِعتُ مَن يقولُ: «رَأَيتُ العنبَرَ نابتًا في البَحرِ، مُلتَويًا مِثلَ عُنُقِ الشَّاةِ، وفي البَحرِ دابَّةٌ تَأكُلُهُ، وهو سُمٌّ لها، فَيَقتُلُها، فَيَقذِفُها، فَيخرجُ العنبَرُ من بَطنِها».

وقال الأَزهَريُّ: «العنبَرُ: سَمَكَةٌ تَكونُ بالبَحرِ الأَعظَمِ، يَبلُغُ طولُها خَمسينَ ذِراعًا، يُقالُ لها: بالَةٌ، وليست بعَرَبيَّةٍ»[2].

قَولُهُ: «قال أَبو عُبَيدَةَ: «مَيتَةٌ»، ثم قال: «لا، بَل نَحنُ رُسُلُ رسولِ اللهِ ﷺ، وفي سَبيلِ اللهِ، وقد اضطُرِرتُم، فَكُلوا»:

ولابنِ سَعدٍ: «فقال أَبو عُبَيدَةَ: «مَيتَةٌ، لا تَأكُلوا»، ثم قال: «جَيشُ رسولِ اللهِ ﷺ، وفي سَبيلِ اللهِ، ونَحنُ مُضطَرُّونَ».

ولأحمَدَ، وأبي عوانَة: «فَأَلقى لَنا البَحرُ حوتًا مَيِّتًا، فقال أَبو عُبَيدَةَ: «غُزاةٌ وجياعٌ، فَكُلوا»، فَأَكَلنا».

قال ابنُ الجَوزيِّ: «وقَولُ أبي عُبَيدَة: «مَيتَةٌ»، دَليلٌ على أَنَّه كان لا يَرى جَوازَ أكلِ السّمكِ الطافي، وإنَّما استَجازَه على وجه الاِضطِرار، كَما يَستَجيزُ أكلَ المَيتَةِ»[3].

وقال الحافظُ: «وحاصِلُ قَولِ أَبي عُبَيدَةَ: أَنَّهُ بَناهُ -أَوَّلًا- على عُمومِ تَحريمِ المَيتَةِ، ثم

---

(١) الترسة: جمع ترسٍ، وهو ما يحمل لوقاية الوجه والرأس من الضربات، وينظر: تهذيب اللغة (١٢/ ٢٦٦)، المعجم الوسيط (١/ ٨٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٧٩-٨٠).

(٣) كشف المشكل (١/ ٢٦٤).

تَذَكَّرَ تَخصيصَ المضطَرِّ بإباحَةِ أَكلِها، إذا كان غيرَ باغٍ ولا عادٍ، وهُم بهذه الصفَةِ؛ لِأَنَّهُم في سَبيلِ اللهِ، وفي طاعَةِ رسولِهِ»[1].

فقال -أوَّلًا-: مَيتَةٌ مُحَرَّمَةٌ.

ثم عدلَ إلى القول بالإباحَةِ؛ للاضطِرارِ.

***

فصلٌ

حُكم أكل مَيتَة البَحر:

ذَهَبَ جُمهورُ الفُقَهاءِ إلى إباحَةِ مَيتَةِ البَحرِ، سَواءٌ كانت سَمَكًا أو غيرَهُ من حَيَواناتِ البَحرِ؛ لِقَول اللهِ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦][2].

قال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «صَيدُهُ: ما أُخِذَ منه حَيًّا، وطَعامُهُ: ما لَفَظَهُ مَيِّتًا»[3].

وهَكذا رويَ عن أَبي بكرٍ الصدِّيقِ، وزَيدِ بن ثابتٍ، وعبدِ اللهِ بن عَمرٍو، وأَبي أَيُّوبَ الأَنصاريِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) فتح الباري (٩/ ٦١٨).

(٢) الموسوعة الفقهية (٨/ ١٦).

(٣) الميْت والميِّت -بالتخفيف والتشديد- سواء في المعنى، **قال الزجاج**: «يقال: ميت، وميت، والمعنى واحد، وقال بعضهم: «الميت يقال لما لم يمت، والميت لما قد مات»، وهذا خطأ، إنما ميت يصلح لما قد مات، ولما سيموت». معاني القرآن (٢/ ١٤٤).

وقال أبو حيان الأندلسي: «لا فرق بين التشديد والتخفيف في الاستعمال، كما تقول: لين ولين، وهين وهين، ومن زعم أن المخفف لما قد مات، والمشدد لما لم يمت، فيحتاج إلى دليل». البحر المحيط في التفسير (٣/ ٩٠).

وقال القرطبي: «ميت وميت واحد، وكذا ميتة وميتة، هذا قول الحذاق من النحويين». تفسير القرطبي (١٤/ ٣٢٦).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]. فقال: ﴿مَّيِّتٍ﴾ بالتشديد، لما قد مات، ثم قال: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وقال في سورة يس: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣]، بالتخفيف، فهما سواء.

وعن عِكرِمَةَ، وأَبي سَلَمَةَ بن عبدِ الرحمَنِ، وإبراهيمَ النخَعي، والحَسَنِ البَصريِّ[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن البحرِ: «**هو الطهورُ ماؤُهُ، الحِلُّ مَيتَتُهُ**»[٢].

وعن عبدِ اللهِ بن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أُحِلَّت لَكُم مَيتَتانِ ودَمانِ، فَأَمَّا المَيتَتانِ: فالحوتُ والجَرادُ، وأَمَّا الدَّمانِ: فالكَبدُ والطِّحالُ**»[٣].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد تَبَيَّنَ من آخِرِ الحَديثِ أَنَّ جِهَةَ كَونِها حَلالًا ليست بسَبَب الاِضطِرارِ، بَل كَونها من صَيدِ البَحرِ، فَفي آخِرِهِ: «فلما قدِمنا المَدينَةَ ذكرنا ذلك لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**كُلوا، رِزقًا أَخرَجَهُ اللهُ، أَطعِمونا إن كان معكُم**»، فَأَتاهُ بَعضُهُم بعُضوٍ فَأَكَله.

فَتَبَيَّنَ لهم أَنَّهُ حَلالٌ مُطلَقًا، وبالَغَ في البَيانِ بأَكلِهِ منها؛ لِأَنَّهُ لَم يَكُن مُضطَرًّا، فَيُستَفادُ منه إباحَةُ مَيتَةِ البَحرِ، سَواء ماتَ بنَفسِهِ، أو ماتَ بالِاصطيادِ، وهو قَولُ الجُمهورِ»[٤].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذا الحَديثِ -وهو من أَثبَتِ الأَحاديثِ- دَليلٌ على أَنَّ ما قَذَفَ البَحرُ أو ماتَ فيه من دابَّةٍ وسَمَكَةٍ حَلالٌ كُلُّهُ، ولِهذا الحَديثِ طُرُقٌ كَثيرَةٌ»[٥].

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السَّمَكُ الطافي حَلالٌ، وهو الذي ماتَ حَتفَ أَنفِهِ، فَيَحِلُّ عِندَنا كُلُّ مَيتاتِ البَحرِ غير الضِّفدَعِ، سَواءٌ ما ماتَ بسَبَبٍ وغيرِهِ، وبِهِ قال مالِكٌ، وأَحمَدُ، وأَبو داوُد، وحَكاهُ الخَطَّابيُّ عن أَبي بكرٍ الصدِّيقِ، وأَبي أَيُّوب الأنصاريّ، وعَطاءِ ابن أَبي رَباح، ومَكحولٍ، والنخَعيِّ، وأبى ثَور، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»[٦].

وقال عُلَماءُ اللَّجنَةِ الدَّائمَةِ: «الأَصلُ في حَيَوانِ البَحرِ الذي لا يَعيشُ عادةً إلا فيه:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٧).

(٢) رواه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، وصححه، والنسائي (٥٩)، وابن ماجه (٣٨٦)، وصححه الألباني.

(٣) رواه ابن ماجه (٣٣١٤)، وأحمد (٥٧٢٣)، وصححه الألباني، وحسنه محققو المسند.

(٤) فتح الباري (٩/ ٦١٨).

(٥) التمهيد (١٦/ ٢٢٧).

(٦) المجموع (٩/ ٣٣).

الحِلُّ؛ لقَولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، وقولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البَحرِ: «**هو الطهورُ ماؤُهُ، الحِلُّ مَيتَتُهُ**»(١).

وقال الشَّيخُ ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ الوُضوءِ بماءِ البَحرِ: «**هو الطهورُ ماؤُهُ، الحِلُّ مَيتَتُهُ**» يَشمَلُ كُلَّ مَيتاتِ الماءِ، كُلُّ شيءٍ لا يَعيشُ إلا في الماءِ فمَيتَتُه طاهرةٌ، هذا الظَّاهِرُ، سَواء كان في بركةٍ، أو في نَهرٍ، أو في غَديرٍ، أو في غيرِ ذلك، كُلّ شيءٍ يَعيشُ في الماءِ فإنّ مَيتَتَهُ طاهِرةٌ»(٢).

وقال أَيضًا: «كُلُّ صَيدِ البَحرِ حَلالٌ، حَيّه ومَيِّته؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، قال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «صَيدُ البَحرِ: ما أُخِذَ حَيًّا، وطَعامُهُ: ما وُجِدَ مَيِّتًا»(٣).

وقال الشَّيخُ صالِح الفَوزانِ حَفِظَهُ اللهُ: «السَّمَكُ والجَرادُ وكُلُّ ما لا يعيشُ إلا في الماءِ يُحِلّ بدون ذَكَاةٍ؛ لِحِلِّ مَيتَتِه؛ لحديثِ ابنِ عمرَ يَرفَعُه: «**أُحِلَّ لَنا مَيتَتانِ ودَمانِ، فَأَمَّا المَيتَتانِ: فالحوتُ والجَرادُ، وأَمَّا الدَّمانِ: فالكَبدُ والطِّحالُ**»، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البَحرِ: «**هو الطهورُ ماؤُهُ، الحِلُّ مَيتَتُهُ**»(٤).

أَمَّا حَديثُ: «**ما أَلقى البَحرُ أو جَزَرَ عنه**(٥) **فَكُلوهُ، وما ماتَ فيه وطَفا فلا تَأكُلوهُ**»(٦).

فقال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَديثٌ ضَعيفٌ باتِّفاقِ الحُفَّاظِ، لا يَجوزُ الاحتِجاجُ به لَو لَم يُعارِضهُ شيءٌ، فَكَيفَ وهو مُعارَضٌ بما ذكرناهُ من دَلائِلِ الكِتاب والسُّنَّةِ، وأَقاويلِ الصحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟»(٧).

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة (٢٢/ ٣١٣).

(٢) لقاء الباب المفتوح (١٦٤/ ٢٥)، بترقيم الشاملة.

(٣) فتاوى نور على الدرب (٢٠/ ٢)، بترقيم الشاملة.

(٤) الملخص الفقهي (٢/ ٥٨٧).

(٥) أي: ما انكشف عنه الماء من حيوان البحر، يقال جزر الماء يجزر جزرًا: إذا ذهب ونقص، ومنه: الجزر والمد، وهو رجوع الماء إلى خلف. النهاية (١/ ٢٦٨).

(٦) رواه أبو داود (٣٨١٥)، وابن ماجه (٣٢٤٧).

(٧) المجموع شرح المهذب (٩/ ٣٤).

وقال أبو داوُدَ عَقِبَهُ: «رَوى هذا الحَديثَ سُفيانُ الثَّوريُّ، وأَيُّوبُ، وحَمَّادٌ، عن أَبي الزُّبَيرِ، أوقَفوهُ على جابرٍ.

وقد أُسنِدَ هذا الحَديثُ أَيضًا من وجهٍ ضَعيفٍ، عن ابنِ أَبي ذِئبٍ، عن أَبي الزُّبَيرِ، عن جابرٍ، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وكذا رَجَّح أبو زُرعَة والدَّارَقُطنيُّ وغيرُهُما وقفَه على جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

وقال البَيهَقيُّ: «وقَولُ الجَماعَةِ منَ الصحابَةِ على خِلافِ قَولِ جابرٍ، مع ما روِّينا عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال في البَحرِ: «**هو الطهورُ ماؤُهُ، الحِلُّ مَيتَتُهُ**»[2].

عَودَةٌ إلى شَرحِ الحَديثِ:

قَولُهُ: «فَأَقَمنا عليه شَهرًا ونَحنُ ثَلاثُ مئةٍ، حتى سَمِنَّا»:

وفي الصحِيحَينِ أيضًا: «فَأَكَلنا منه نِصفَ شَهرٍ، وادَّهَنَّا من ودَكِهِ، حتى ثابَت إلَينا أَجسامُنا».

والوَدَكُ: هو دَسَم اللَّحمِ ودُهنُه الذي يُستَخرَج منه[3].

وقال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الوَدَكُ: الدُّهنُ، إلا أَنَّه لا يُقالُ «ودَك» إلا منَ الإبلِ والبَقرِ والغنمِ، ويُقالُ من دُهنِ السِّمسِم والجَوزِ واللَّوزِ والزَّيتونِ: «دَسَم»، ويُقال منَ الطير والدّجاجِ والبَطّ: «زَهَم»[4].

وقال ابنُ سيدَه رَحِمَهُ اللَّهُ: «الزُّهم والزَّهَم: شَحمُ الوَحشِ من غيرِ أَن يكونَ فيه زُهومةٌ، ولكنّه اسمٌ له خاصّ، وقيلَ: الزُّهمُ: لِما لا يَجترُّ منَ الوَحشِ، والوَدكُ: لِما اجترَّ، والدَّسمُ: لِما أنبَتَتِ الأَرضُ، كالسّمسِمِ وغَيرِهِ»[5].

---

(١) ينظر: علل الحديث لابن أبي حاتم (٤/ ٥٤٢)، الدراية في تخريج أحاديث الهداية لابن حجر (٢/ ٢١٢)، المغني لابن قدامة (٩/ ٣٩٤).

(٢) السنن الكبرى (٩/ ٤٣٠).

(٣) النهاية (٥/ ١٦٩).

(٤) كشف المشكل (٢/ ٢٧٦).

(٥) المحكم (٤/ ٢٤٣).

وفيها أيضًا: «فَأَكَلَ منه ذلك الجَيشُ ثَمانيَ عَشرَةَ لَيلَةً».

قال الحافظُ: «ويُجمَعُ بينَ هذا الاختِلافِ: بأَنَّ الذي قال: «ثماني عَشرَةَ» ضَبَطَ ما لَم يَضبطهُ غيرُهُ، وأَنَّ مَن قال: «نِصفَ شَهرٍ» أَلغى الكَسرَ الزَّائِدَ، وهو ثَلاثَةُ أَيَّامٍ، ومَن قال: «شَهرًا» جَبَرَ الكَسرَ، أو ضَمَّ بَقيَّةَ المدَّةِ التي كانت قَبلَ وِجدانِهِمُ الحوتَ إلَيها.

ورَجَّحَ النوَويُّ روايةَ أَبي الزُّبَيرِ[1]؛ لما فيها من الزِّيادَة، وقال ابن التينِ: «إحدى الرِّوايَتَينِ وهمٌ».

ووَقَعَ في روايةِ الحاكِمِ: «اثنَي عَشَرَ يومًا»، وهي شاذَّةٌ، وأَشَدُّ منها شُذوذًا روايةُ الخَولانيِّ: «فَأَقَمنا قَبلها ثَلاثَة»، ولَعَلَّ الجَمعَ الذي ذكرتُهُ أولى، واللهُ أَعلَمُ»[2].

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أكلُهُم منه هذه المدَّةَ الطُّويلَةَ، ومثلُها يتغَيَّرُ فيها اللَّحمُ ويفسُدُ في الكُلِّيَّة: فإمَّا أن يكونَ؛ لكَثرَةِ شَحمِه ووَدَكِه -وكثرةُ الشَّحمِ والوَدَكِ مِمَّا يَصونُ اللَّحمَ عنِ التغيرِ- أو يكونَ لكِبَرِه وعِظَمِه، فما يَفسدُ منه يُطرَحُ، ويُطلَبُ ما تحتَه مِمَّا لَم يُصِبهُ الهَواءُ، فإذا صينَ عنه تماسَكَ.

وقد يكونُ ألقاهُ البَحرُ إلى ساحِلِه مَيِّتًا، لكِن شَخصهُ في الماءِ، بحيثُ يصونُه الماءُ ويَحفَظُه ببَرِدِه، ومِثلُ هذا مَوجودٌ في المَوتى الذينَ يُدفَنون في الأرضِ البارِدَةِ النديَّة لا يَتَغَيَّرون.

ويحتمَلُ أنَّهم أولًا أكَلوهُ طَرِيًّا، ثم اتَّخذوه وشائِقَ وقديدًا، فأكَلوا بَقيَّةَ الأَيَّامِ من ذلك»[3].

وقَولُهُ: «حتى ثابَت إلَينا أَجسامُنا».

وللبُخاريِّ: «حتى صَلَحَت أَجسامُنا».

---

(١) وهي رواية الشهر.

(٢) فتح الباري (٨/ ٨٠).

(٣) إكمال المعلم (٦/ ٣٧٦).

قال العراقيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: صَحَّت بالأَكلِ، وعادَت إلى حالَتِها الأولى من القوَّةِ.

وقَولُهُ: «حتى ثابَت أَجسامُنا»، أَي رجعَت إلى حالَتِها الأولى من حُسنِ اللَّونِ والسِّحنَةِ.

فَفائِدَةُ الأَكلِ: عَودُ القوَّةِ، وفائِدَةُ الادّهانِ: عَودُ حُسنِ اللَّونِ»[1].

ويَدُلُّ عليه رِوايةُ أحمَدَ، وأبي عوانَةَ: «فَأَكَلنا منه وادَّهَنَّا، حتى صَلَحَت أَجسامُنا، وحَسُنَت سَحناتُنا».

والسَّحنَةُ: لينُ البَشَرَةِ[2].

وقال ابنُ الأَثيرِ: «السَّحنَة»: بَشَرَة الوجه وهيأَتُه وحالُه، وهي مَفتوحَةُ السِّينِ، وقد تُكسر، ويُقالُ فيها السَّحناءُ أَيضًا بالمَدِّ»[3].

وقال الحافظُ: «**حتى ثابَت أَجسامُنا**»، أَي: رجعَت، وفيه إشارَةٌ إلى أَنَّهُم أَصابَهُم هُزالٌ منَ الجوعِ السَّابقِ.

وقَولُهُ: «وادَّهَنَّا من ودَكِهِ»، أَي: شَحمِهِ»[4].

قَولُهُ: «ولَقد رَأَيتُنا نَغتَرِفُ من وقب عَينِهِ بالقِلالِ الدُّهنَ، ونَقتَطِعُ منه الفِدَرَ كالثَّورِ، أو كَقدرِ الثَّورِ»:

الوَقبُ: النُّقرَةُ التي تَكونُ فيها الحَدَقَةُ[5].

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَعنِي: داخِل عَينِه، من قَولِه سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]، يَعنِي: دَخَلَ في الظُّلمَةِ»[6].

---

(١) طرح التثريب (٦/ ١٤).

(٢) المحيط في اللغة (١/ ٢٠٠).

(٣) النهاية (٢/ ٣٤٨).

(٤) فتح الباري (٨/ ٨٠).

(٥) وقال ابن فارس: «الواو والقاف والباء: كلمة تدل على غيبة شيء في مغابٍ، يقال وقب الشيء: دخل في وقبة، وهي كالنقرة في الشيء، ووقبت عيناه: غارتا». مقاييس اللغة (٦/ ١٣١).

(٦) إكمال المعلم (٦/ ٣٧٥).

والقلال: جَمعُ قُلَّةٍ، وهي الجَرَّةُ الكَبيرَةُ التي يُقِلُّها الرجُلُ بينَ يَدَيهِ، أَي: يَحمِلُها.

والفِدَرُ: جَمعُ فَدرَةٍ، بفَتحٍ ثم سُكونٍ، وهي القِطعَةُ منَ اللَّحمِ ومن غيرِهِ.

قال النوَويُّ: «قَولُهُ: «كَقدرِ الثَّورِ»، رويناهُ بوَجهَينِ مَشهورَينِ في نُسَخِ بلادِنا، أَحَدُهُما: بقافٍ مَفتوحَةٍ، ثم دالٍ ساكِنَةٍ، أَي: مِثل الثَّورِ، والثَّاني: «كَفِدَرِ»، بفاءٍ مَكسورَةٍ، ثم دالٍ مَفتوحَةٍ، جَمعُ فَدرَةٍ، والأَوَّلُ أَصَحُّ، وادَّعى القاضي أَنَّهُ تَصحيفٌ، وأَنَّ الثَّاني هو الصوابُ، وليس كَما قال»[1].

وللطَّبَرانيّ في الأوسَطِ: «فَهَبَطنا ساحِلَ البَحرِ، فإذا نَحنُ بأَعظَمِ حوتٍ، فَأَقَمنا عليه ثَلاثًا، وحَمَلنا منه ما شِئنا من ودَكٍ في الأَسقيَةِ والغَرائِرِ، وسِرنا».

قَولُهُ: «فَلَقد أَخَذَ مِنَّا أَبو عُبَيدَةَ ثَلاثَةَ عَشَرَ رجلًا، فَأَقعَدَهُم في وقب عَينِهِ»:

يَعني: أَقعَدَ ثَلاثَةَ عَشَرَ رجلًا في فَتحَةِ عَينِهِ التي تَكونُ فيها الحَدَقَةُ؛ وذلك من عِظَمِ خِلقَتِه.

قَولُهُ: «وأَخَذَ ضِلَعًا من أَضلاعِهِ فَأَقامَها، ثم رَحَلَ أَعظَمَ بَعيرٍ معنا، فَمَرَّ من تَحتِها»:

«الضِّلَع»: قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بكَسرِ الضادِ وفَتحِ اللَّامِ، ويَجوزُ تَسكينُها»[2].

وقال الجَوهَريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بكَسرِ الضَّادِ وفَتحِ اللامِ: واحدَةُ الضُّلوعِ والأَضلاعِ، وتَسكينُ اللَّامِ جائِزٌ»[3].

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بكَسر الضَّاد وتَخفيف اللَّام، وتُحَرَّكُ»[4].

وفي البخاريِّ: «ثم أَمَرَ أَبو عُبَيدَةَ بضِلَعَينِ من أَضلاعِهِ فَنُصِبا، ثم أَمَرَ براحِلَةٍ فَرُحِلَت، ثم مَرَّت تَحتَهُما فلم تُصِبهُما».

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٨٧)، وينظر: فتح الباري (٨/ ٨٠).

(٢) فتح الباري (٦/ ٣٦٨).

(٣) الصحاح (٣/ ١٢٥٠).

(٤) مشارق الأنوار (٢/ ٥٩).

قال الحافظُ: «كذا فيه، واستُشكِلَ؛ لِأَنَّ الضِّلعَ مُؤَنَّثَةٌ، ويُجابُ: بأَنَّ تَأنيثَهُ غيرُ حقيقيٍّ، فَيَجوزُ فيه التذكيرُ»[1].

وفي البخاريِّ أَيضًا: «فَأَخَذَ أَبو عُبَيدَةَ ضِلَعًا من أَضلاعِهِ فَنَصَبَهُ، وأَخَذَ رجلًا وبَعيرًا فَمَرَّ تَحتَهُ».

وعندَ مسلمٍ: «فَأَخَذَ أَبو عُبَيدَةَ ضِلَعًا من أَضلاعِهِ فَنَصَبَهُ، ثم نَظَرَ إلى أَطوَلِ رجلٍ في الجَيشِ وأَطوَلِ جَمَلٍ فَحَمَله عليه، فَمَرَّ تَحتَهُ».

وله أَيضًا من طَريقٍ أُخرى بسياقٍ آخَرَ مُطَوّلٍ: «فَأَخَذنا ضِلَعًا من أَضلاعِهِ فَقَوَّسناهُ، ثم دَعَونا بأَعظَمِ رجلٍ في الركب، وأَعظَمِ جَمَلٍ في الركب، وأَعظَمِ كِفلٍ في الركب، فَدَخَلَ تَحتَهُ ما يُطَأطِئُ رَأسَهُ».

«**وأَعظَمِ كِفلٍ في الركب**»، **قال أبو عبدِاللهِ المازِريُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكِفلُ -بإسكانِ الفاءِ وكَسرِ الكافِ-: الكِساءُ الذي يُحَوِّيهِ راكِبُ البَعيرِ على سَنامِه إذا ارتَدَفَه؛ لِئَلَّا يَسقُطَ، فيَحفَظ الكِفلُ الراكِبَ.

قال الهَرَويُّ: «قال أبو مَنصور: «ومنه اشتُقَّ: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الفلق: ٣]، أَي: نَصيبينِ يحفَظانِكُم من هَلَكَة المَعاصي، كَما يَحفَظُ الكِفلُ الراكِبَ»[2].

و**قال الزَّجَّاجُ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكِفل في اللُّغَةِ: النصيبُ، أُخِذَ من قَولِهِمُ: اكتَفَلت البَعيرَ، إذا أَدرتَ على سَنامِهِ أو على مَوضِعٍ من ظَهرِهِ كِساءً ورَكِبتَ عليه، وإنَّما قيلَ له «كِفل»، وقيلَ: اكتَفَلَ البعيرَ؛ لِأَنَّهُ لَم يَستَعمِلِ الظَّهرَ كُلَّهُ، إنَّما استَعمَلَ نَصيبًا منَ الظَّهرِ»[3].

وللنسائيّ، والطيالِسِيّ: «فَأَخَذَ أَبو عُبَيدَةَ ضِلَعًا من أَضلاعِهِ، فَرَحَلَ بِهِ أَجسَمَ بَعيرٍ من أَباعِرِ القَومِ، فَأَجازَ تَحتَهُ».

---

(١) فتح الباري (٨/ ٨٠).

(٢) المعلم بفوائد مسلم (٣/ ٣٩٤)، وينظر: الغريبين في القرآن والحديث للهروي (٥/ ١٦٤٥).

(٣) لسان العرب (١١/ ٥٨٩).

ولابنِ إسحاق: «وأَخَذَ أَميرُنا ضِلَعًا من أَضلاعِها، فَوَضَعَها على طَريقِهِ، ثم أَمَرَ بأَجسَمِ بَعيرٍ معنا، فَحَمَلَ عليه أَجسَمَ رجلٍ مِنَّا، قال: فَجَلَسَ عليه، قال: فَخرجَ من تَحتِها، وما مَسَّت رَأسَهُ»[1].

قال الحافظُ: «وهذا الرجُلُ لَم أَقِف على اسمِهِ، وأَظُنُّهُ قَيسَ بن سَعدِ بن عُبادَةَ؛ فَإِنَّ له ذِكرًا في هذه الغَزوَةِ، وكان مَشهورًا بالطُّولِ، وقِصَّتُهُ معَ مُعاويَةَ لَمَّا أَرسَلَ إليه مَلِكُ الرُّوم[2] بالسَّراويلِ مَعروفَةٌ، فَذكرَها المعافى الجَرِيرِيُّ وأَبو الفَرجِ الأَصبهانيُّ وغيرُهُما، ومُحَصِّلُها: أَنَّ أَطوَلَ رجلٍ منَ الرُّومِ نَزَعَ له قَيسُ بن سَعدٍ سَراويله، فَكانت طولَ قامَةِ الرُّوميِّ، بحَيثُ كان طَرَفُها على أَنفِهِ، وطَرَفُها بالأَرضِ، وعوتِبَ قَيسٌ في نَزعِ سَراويلِهِ في المَجلِسِ، فَأَنشَدَ:

أَرَدتُ لِكَيما يَعلَمَ الناسُ أَنَّها ... سَراويلُ قَيسٍ والوُفودُ شُهودُ
وأَن لا يقولوا غابَ قَيسٌ وهذه ... سَراويلُ عاديٍّ نَمَتهُ ثَمودُ[3]

وهذه القِصَّةُ رواها المعافى بن زكَرِيَّا في الجَليس الصالِحِ[4]، وابنُ عساكِرَ في تارِيخِه[5]، من طريق يَحيى بن واضِحٍ، قال، أَخبَرَني رجلٌ من ولَدِ الحارِثِ بن الصمَّةِ يُكَنَّى أَبا عُثمانَ، قال: «بَعَثَ قَيصَرُ إلى مُعاويَةَ بن أَبي سُفيانَ: أَنِ ابعَث إلَيَّ سَراويلَ أَطوَلِ رجلٍ منَ العَرَب، فقال لِقَيسِ بن سَعدٍ: ما أَظُنُّنا إلا قدِ احتَجنا إلى سَراويلِكَ، قال: فَتَنَحَّى فَجاءَ بها فَأَلقاها إلى مُعاويَةَ، فقال مُعاويَةُ: يَرحَمُكَ اللهُ، ما أَرَدتَ إلى هذا؟ أَلا ذَهَبتَ إلى مَنزِلِكَ ثم بَعَثتَ بها إلَينا؟ فقال قَيسٌ:

أَرَدتُ لِكَيما يَعلَمَ الناسُ أَنَّها ... سَراويلُ قيسٍ والوُفودُ شُهودُ
وأَلَّا يقولوا غابَ قيسٌ وهذه ... سَراويلُ عاديٍّ نَمَتهُ ثَمودُ

---

(١) رواه ابن إسحاق -كما في ابن هشام (٢/ ٦٣٢)-: حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن أبيه، عن جده عبادة بن الصامت...، فذكر الحديث بطوله بمعناه.

(٢) كذا، ولعل الصواب: «لما أرسل إلى ملك الروم».

(٣) فتح الباري (٨/ ٨٠).

(٤) الجليس الصالح (ص٧١٣).

(٥) تاريخ دمشق (٤٩/ ٤٣١).

وإنِّي منَ الحيِّ اليَمانينَ سَيِّدٌ وما الناسُ إلا سَيِّدٌ ومَسودُ
فَكِدهُم بمِثلي إنَّ مِثلي عليهمُ شَديدٌ وخَلقي في الرِّجالِ مَديدُ

قال: فَأَمَرَ مُعاويَةُ أَطوَلَ رجلٍ في الجَيشِ، فَوَضَعَها على أَنفِهِ، فَوَقَعَت بالأَرضِ».

وهذا إسنادٌ ضَعيفٌ؛ لجَهالَةِ راوِي القِصَّةِ أبي عُثمانَ.

ثم قال المعافى بن زكريَّا عَقِبَه: «وقد رُوِيَ لنا هذا الخَبَرُ من وُجوه، وهذا الذي حَضَرنا منها، وجاء من طريقٍ آخر، وفيه زيادَةٌ، وخلافٌ في سياقَتِهِ وبَعضِ مَعانيه وأَلفاظِه».

ثم ساقَ نحوه بغيرِ إسنادٍ، وفيه: «قال مُعاويَةُ لقَيسِ بن سَعدٍ والرُّوميّ الطوال: تَطاوَلا، فقال قَيسٌ: «أَنا أخلَعُ سَراويلي، ويَلبسُها هذا العلجُ، فَإنّ ما بيننا يَبينُ بذلك»، ثم خَلَع سراويلَه وأَلقاها إلى الرُّومي فلَبسَها، فبلَغَت ثَدييه، وانسَحَبَ بَعضُها في الأَرض[1]، فاستبشرَ الناسُ بذلك.

وجاءَتِ الأَنصارُ إلى قَيسٍ، فقالت له: تبذَّلتَ بينَ يَدَي مُعاويَةَ، ولو كُنتَ مَضيتَ إلى مَنزِلِكَ وبَعَثتَ بالسَّراويلِ إليه، فقال:...».

فذكر نحو ما تَقدَّمَ من الشِّعرِ.

وقد أنكَرَ ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه القصّةَ، فقال في ترجَمَةِ قيسِ بن سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «خَبَرُه في السَّراويلِ عِندَ مُعاويَة كَذِبٌ وزورٌ مُختَلَقٌ، ليس له إسنادٌ[2]، ولا يُشبهُ أخلاقَ قَيسٍ، ولا سيرتَه في نفسِه، ونَزاهَتَه، وهي حكايةٌ مُفتَعَلَةٌ، وشِعرٌ مُزَوَّرٌ، واللهُ أعلَمُ»[3].

وكان قَيسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجُلًا طوالًا جسيمًا، قال يعقوبُ بن سفيانَ الفسويُّ:

حَدَّثَنا سُفيانُ، عن عَمرٍو، قال: «كان قَيسُ بن سعد رَجلا ضَخمًا جَسيمًا صَغيرَ الرأسِ، وكان إذا رَكِبَ الحِمارَ خَطت رِجلاهُ في الأَرضِ»[4].

---

(١) إذا كانت سراويل قيس بن سعد بهذا الطول، فكيف يقال له وللرومي: «تطاولا»؟

(٢) يعني: ليس له إسناد قائم.

(٣) الاستيعاب (٣/ ١٢٩٣).

(٤) المعرفة والتاريخ (٢/ ٨١١).

عَودَةٌ لشرحِ الحَديثِ:

وفي الصحيحَينِ -واللفظُ للبُخاريِّ-: «وكان فينا رجلٌ، فلما اشتَدَّ الجوعُ نَحَرَ ثَلاثَ جَزائِرَ، ثم ثَلاثَ جَزائِرَ، ثم نَهاهُ أَبو عُبَيدَةَ».

وللبُخاريِّ أَيضًا من طَريقِ عمرِو بن دينارٍ، عن جابرٍ، قال: «وكان رجلٌ منَ القَومِ نَحَرَ ثَلاثَ جَزائِرَ، ثم نَحَرَ ثَلاثَ جَزائِرَ، ثم نَحَرَ ثَلاثَ جَزائِرَ، ثم إنَّ أَبا عُبَيدَةَ نَهاهُ».

وكان عَمرٌو يقولُ: أَخبَرَنا أَبو صالِحٍ: «أَنَّ قَيسَ بن سَعدٍ قال لِأَبيهِ: كُنتُ في الجَيشِ فَجاعوا، قال انحَر، قال: نَحَرتُ، قال: ثم جاعوا، قال: انحَر، قال: نَحَرتُ، قال: ثم جاعوا، قال انحَر قال: نَحَرتُ، ثم جاعوا، قال: انحَر، قال: نُهيتُ».

وللنسائيِّ: «ثم جاعوا فَنَحَرَ رجلٌ ثَلاثَ جَزائِرَ، ثم جاعوا فَنَحَرَ رجلٌ ثَلاثَ جَزائِرَ، ثم جاعوا فَنَحَرَ رجلٌ ثَلاثَ جَزائِرَ، ثم نَهاهُ أَبو عُبَيدَةَ».

«الجَزائِرُ» جَمعُ جَزورٍ، وهو البَعيرُ -ذَكرًا كان أو أُنثى- إلا أَنَّ اللَّفظَةَ مُؤَنّثَةٌ، تَقولُ: «هذه الجَزورُ»، وإن أردتَ ذكرًا[1].

قال النوَويُّ: «هذا الرجُلُ الذي نَحَرَ الجَزائِرَ هو قَيسُ بن سَعدِ بن عُبادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[2].

وقال الحافظُ: «هو قَيسُ بن سَعدِ بن عُبادَةَ كَما عِند المصَنّف، وهو الذي مَرَّ على بَعيرِهِ راكِبًا تَحتَ ضِلَعِ الحوتِ».

«وقد اختَلَفوا في سَبَب نَهيِ أَبي عُبَيدَةَ قَيسًا أَن يَستَمِرَّ على إطعامِ الجَيشِ، فَقيلَ: لِخَشيَةِ أَن تَفنى حَمولَتُهُم، وفيه نَظَرٌ؛ لِأَنَّ القِصَّةَ أَنَّهُ اشتَرى من غيرِ العَسكَرِ، وقيلَ: لِأَنَّهُ كان يَستَدينُ على ذِمَّتِهِ، وليس له مالٌ، فَأُريدَ الرِّفقُ بِهِ، وهذا أَظهَرُ، واللهُ أَعلَمُ».

«وكان قدِ اشتَرى الجُزُرَ من أَعرابيٍّ جُهَنيٍّ، كُلُّ جَزورٍ بوَسقٍ من تَمرٍ يوفيه إيَّاهُ

---

(١) النهاية (١/ ٢٦٦)، عمدة القاري (١٨/ ١٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٨٨).

بالمَدينَةِ، فلما رَأى عمرُ ذلك -وكان في ذلك الجَيشِ- سألَ أَبا عُبَيدَةَ أَن يَنهى قَيسًا عَنِ النحرِ، فَعَزَمَ عليه أَبو عُبَيدَةَ أَن يَنتَهي عن ذلك، فَأَطاعَهُ»[1].

قَولُهُ: «وتَزَوَّدنا من لَحمِهِ وشائِقَ»:

الوَشائِقُ: جمعُ وشيقَة.

قال أبو عُبَيدٍ القاسِمُ بن سَلَّامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الوَشيقَةُ: أَن تُقَطَّعَ الشاةُ أَعضاء، ثمَّ تُغلى إغلاءَةً، ولا يَبلُغ بها النُّضجَ كُلَّه، ثم تُرفَعَ في الأَكراشِ والأوعيةِ في الأَسفار وغَيرِها، وهو الذي يُقالُ له: الخَلَعُ»[2].

وقال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقيلَ: هي القديدُ، وقد وشَقتُ اللَّحمَ واتَّشَقتُهُ.

ومنه حَديثُ عائشةَ: «أُهديَت له وشيقَةُ قديدِ ظَبيٍ».

وتُجمَع على وشيقٍ، ووَشائِقَ»[3].

قَولُهُ: «فلما قدِمنا المَدينَةَ أَتَينا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَذكرنا ذلك له، فقال: «هو رِزقٌ أَخرَجَهُ اللهُ لَكُم، فَهَل معكُم من لَحمِهِ شيءٌ فَتُطعِمونا؟»، قال: فَأَرسَلنا إلى رسولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **منه فَأَكَله».**

وللبُخاريِّ: «فلما قدِمنا المَدينَةَ ذكرنا ذلك للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**كُلوا، رِزقًا أَخرَجَهُ اللهُ، أَطعِمونا إن كان معكُم**»، فَآتاهُ بَعضُهُم فَأَكَله».

قال الحافظُ: «فَآتاهُ بَعضُهُم» -بالمَدِّ-، أَي: فَأعطاهُ، فَأَكلَه، ووَقع في رواية ابن السَّكنِ: «فَأَتاهُ بَعضُهُم بعُضوٍ منه فَأَكَله»، قال عياضٌ: «وهو الوَجهُ»[4].

ولأحمَدَ، وعبدِالرَّزَّاق: «فَذكرناهُ لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**رِزقٌ أَخرَجَهُ اللهُ**

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٠٨)، (٨/ ٨١)، (٩/ ٦١٨).

(٢) غريب الحديث (٤/ ٤٠٣).

(٣) النهاية (٥/ ١٨٨-١٨٩).

(٤) فتح الباري (٨/ ٨١).

لَكُم، فَإن كان معكُم منه شيءٌ فَأَطعِموناهُ»، قال: فكان معنا منه شيءٌ، فَأَرسَلَ بِهِ إليه بَعضُ القَومِ، فَأَكَلَ منه».

ولابنِ عَساكِرَ: «لَو نَعلَمُ أَنَّا نُدرِكُهُ لَم يُرَوِّح[1] لَأَحبَبنا لَو كان عِندنا منه».

ويُحمَلُ هذا على أَنَّهُ قال ذلك ازديادًا منه، بعدَ أَن أَحضَروا له منه بعضَه، أو قال ذلك قَبلَ أَن يُحضِروا له منه، وكان الذي أَحضَروهُ معهم لَم يُرَوِّح، فَأَكَلَ منه[2].

وجاءَ في الصحيحِ من حَديثِ جابرٍ أَيضًا، قال: «سِرنا مع رسولِ اللهِ ﷺ، وكان قوتُ كُلِّ رجلٍ مِنَّا في كُلِّ يَومٍ تَمرَةً، فَكان يَمَصُّها ثم يَصُرُّها في ثَوبِهِ، وكُنَّا نَختَبِطُ بقِسيِّنا ونَأكُلُ، حتى قَرِحَت أَشداقُنا[3]، فَأُقسِمُ أُخطِئَها رجلٌ مِنَّا يَومًا، فانطَلَقنا بِهِ نَنعَشُهُ[4]، فَشَهِدنا أَنَّهُ لَم يُعطَها، فَأُعطيَها، فَقامَ فَأَخَذَها[5]».

إلى أَن قال: «شَكا الناسُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ الجوعَ، فقال: **«عَسى اللهُ أَن يُطعِمَكُم»**، فَأَتَينا سيفَ البَحرِ[6]، فَزَخَرَ البَحرُ زَخرَةً[7]، فَأَلقى دابَّةً، فَأورَينا على شِقِّها النارَ[8]، فاطَّبَخنا[9] واشتَوَينا، وأَكَلنا حتى شَبعنا.

قال جابرٌ: فَدَخَلتُ أَنا وفُلانٌ وفُلانٌ- حتى عَدَّ خَمسَةً- في حِجاجِ عَينِها[10] ما يَرانا

---

(١) أي: لم تتغير رائحته.

(٢) فتح الباري (٨/ ٨١)، عمدة القاري (١٨/ ١٧).

(٣) أي: تجرحت من خشونة الورق وحرارته.

(٤) أي: نرفعه ونقيمه؛ من شدة الضعف والجهد.

(٥) معناه: أنه كان للتمر قاسم يقسمه بينهم، فيعطي كل إنسان تمرةً كل يوم، فقسم في بعض الأيام ونسي إنسانًا فلم يعطه تمرته، وظن أنه أعطاه، فتنازعا في ذلك، وشهدنا له أنه لم يعطها، فأعطيها بعد الشهادة. شرح النووي على مسلم (١٨/ ١٤٢).

(٦) أي: ساحله.

(٧) أي: مد، وكثر ماؤه، وارتفعت أمواجه. النهاية (٢/ ٢٩٩).

(٨) أي: أوقدنا على جانبها النار. تفسير غريب ما في الصحيحين للحميدي (ص٤٧٤).

(٩) هو افتعلنا من الطبخ، فقلبت التاء طاءً؛ لأجل الطاء قبلها، والاطباخ مخصوص بمن يطبخ لنفسه، والطبخ عام لنفسه ولغيره. النهاية (٣/ ١١١).

(١٠) حجاج العين -بالكسر، والفتح لغة-: العظم المستدير حولها، وهو مذكر، وجمعه أحجة. المصباح المنير (١/ ١٢١).

أَحَدٌ، حتى خرجنا، فَأَخَذنا ضِلَعًا من أَضلاعِهِ فَقَوَّسناهُ، ثم دَعَونا بأَعظَمِ رجلٍ في الركب، وأَعظَمِ جَمَلٍ في الركب، وأَعظَمِ كِفلٍ في الركب[1]، فَدَخَلَ تَحتَهُ، ما يُطَأطِئُ رَأسَهُ»[2].

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ظاهِرُ سياقِ هذه القِصَّةِ يَقتَضي مُغايَرَةَ القِصَّةِ المَذكورَةِ في هذا الباب، وهي من روايةِ جابرٍ أَيضًا، حتى قال عبدُ الحقِّ في «الجَمع بينَ الصحيحَينِ»: «هذه واقِعَةٌ أُخرى غيرُ تِلكَ؛ فَإِنَّ هذه كانت بحَضرَةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وما ذكرَهُ ليس بنَصٍّ في ذلك؛ لِاحتِمالِ أَن تَكونَ الفاءُ في قَولِ جابرٍ: «فَأَتَينا سيفَ البَحرِ» هي الفَصيحَةُ، وهي مُعَقِّبَةٌ لِمَحذوفٍ تَقديرُهُ: «فَأَرسَلَنا النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أَبي عُبَيدَةَ، فَأَتَينا سيفَ البَحرِ»، فَتَتَّحِدُ القِصَّتانِ، وهذا هو الراجِحُ عِندي، والأَصلُ عَدَمُ التعَدُّدِ»[3].

وقال أَيضًا: «ظاهِرُ سياقِهِ أَنَّ ذلك وقَعَ لهم في غَزوَةٍ مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن يُمكِنُ حَملُ قَولِهِ: «فَأَتَينا سيفَ البَحرِ» على أَنَّهُ مَعطوفٌ على شيءٍ مَحذوفٍ، تَقديرُهُ: «فَبَعَثَنا النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَفَرٍ، فَأَتَينا سيفَ البَحرِ»، فَيَتَّحِدُ مع القِصَّةِ التي في حَديثِ الباب»[4].

وعن عبدِ اللهِ بن عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: غَزَونا، فَجُعنا، حتى إِنَّ الجَيشَ يَقتَسِمُ التمرَةَ والتمرَتَينِ، فَبينا نَحنُ على شَطِّ البَحرِ، إذ رَمى بحوتٍ مَيتٍ، فاقتَطَعَ الناسُ منه ما شاءوا من لَحمِهِ أو شَحمِهِ، وهو مِثلُ الظَّرِب، فَبلغَني أَنَّ الناسَ لَمَّا قدِموا على رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخبَروهُ، فقال لهم: «**أَمعكُم منه شيءٌ؟**»[5].

---

(١) الكفل: الكساء الذي يحويه راكب البعير على سنامه إذا ارتدفه؛ لئلا يسقط، وقد تقدم الكلام عليه.

(٢) صحيح مسلم (٣٠١١).

(٣) فتح الباري (٩/ ٦٢٠).

(٤) المصدر السابق (٨/ ٨١).

(٥) رواه البيهقي (١٨٩٧٢)، والدارقطني (٤٧٠٨)، وابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٢٦)، وصححه النووي في المجموع (٩/ ٣٤).

والظَّاهِرُ أنَّها نَفسُ الواقِعَةِ.

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ومِمَّا نُنَبِّهُ عليه هُنا أَيضًا**: أَنَّ الواقِدِيَّ زَعَمَ أَنَّ قِصَّةَ بَعثِ أَبي عُبَيدَةَ كانت في رَجَبٍ سنةَ ثَمانٍ، وهو عِندي خَطَأٌ؛ لِأَنَّ في نَفسِ الخَبَرِ الصحيحِ: أَنَّهُم خرجوا يَتَرَصَّدونَ عيرَ قريشٍ، وقريشٌ في سنةِ ثَمانٍ كانوا مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هُدنَةٍ، وقد نَبَّهتُ على ذلك في المَغازي، وجَوَّزتُ أَن يكونَ ذلك قَبلَ الهُدنَةِ في سنةِ سِتٍّ أو قَبلها، ثم ظَهَرَ لِيَ الآنَ تَقويَةُ ذلك بقَولِ جابرٍ في روايةِ مسلمٍ: أَنَّهُم خرجوا في غَزاةِ «بُوَاطٍ»، وغَزاةُ «بُوَاطٍ» كانت في السَّنَةِ الثَّانيَةِ منَ الهِجرَةِ قَبلَ وقعَةِ بَدرٍ، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ في مئتَينِ من أَصحابِهِ؛ يَعتَرِضُ عيرًا لِقريشٍ، فيها أُمَيَّةُ بن خَلَفٍ، فَبلغَ بواطًا -وهي جِبالٌ لِجُهَينَةَ مِمَّا يَلي الشَّامَ، بينَها وبينَ المَدينَةِ أَربَعَةُ بُرُدٍ- فلم يَلقَ أَحَدًا، فرجعَ، فَكَأَنَّهُ أَفرَدَ أَبا عُبَيدَةَ فيمَن معه يَرصُدونَ العيرَ المَذكورَةَ[1].

ويُؤَيِّدُ تَقدُّمَ أَمرِها: ما ذُكِرَ فيها منَ القِلَّةِ والجَهدِ، والواقِعُ أَنَّهُم في سنةِ ثَمانٍ كان حالُهُمُ اتَّسَعَ بفَتحِ خَيبَرَ وغيرِها، والجَهدُ المَذكورُ في القِصَّةِ يُناسِبُ ابتِداءَ الأَمرِ، فَيُرَجِّحُ ما ذكرتُهُ، واللهُ أعلمُ»[2].

بَعضُ الفَوائِدِ المستَفادَةِ من هذا الحَديثِ:

* **فيه**: مَشروعيَّةُ المواساةِ بينَ الجَيشِ عِندَ وُقوعِ المَجاعَةِ.

* وأَنَّ الإِجتِماعَ على الطعامِ يَستَدعي البَرَكَةَ فيه[3].

* **وفيه**: ما كان عليه الصحابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منَ الزُّهدِ في الدُّنيا، والتقَلُّل منها، والصبرِ على الجوعِ، وخُشونَةِ العَيشِ، وعَدَمِ تركِ الجِهادِ في حالِ الشِّدَّةِ.

---

(١) كيف يستقيم ذلك، ولفظ الحديث في الصحيحين: «بعثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث مئة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح»؟

كيف يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خرج في مئتين من أصحابه، ثم يفرد أبا عبيدة في ثلاث مئة؟

(٢) فتح الباري (٩/ ٦٢٠).

(٣) المصدر السابق (٨/ ٨١).

* **وفيه:** ثُبوتُ حُصولِ الكَرامةِ للصَّالِحِينَ من عبادِ اللهِ.

* **وفيه:** جوازُ أكلِ السَّمَكِ الطافي، ما لَم يكُن في أكلِه ضَررٌ على صِحَّةِ البَدَنِ، فيُمنَعُ للضَّرَرِ.

وقال **ابنُ الجَوزيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثَبَتَ جَوازُ أكلِ السّمَكِ إذا ماتَ في البَرِّ، فكذلك إذا ماتَ في البَحر، ويُمكِنُ أَن يقول مَن مَنَع منه: إنّ البَحرَ مَحَلُّ حَياة السّمكِ، فإذا ماتَ في مَحل حَياته دلّ على مرضٍ أوجَبَ ذلك، فنُزِّهَ عَن أكلِه»[1].

* **وفيه:** أن الجُيوشَ لا بُدَّ لها من أَميرٍ يَضبطُها، ويَنقادونَ لِأَمرِهِ ونَهيِهِ، وأَنَّهُ يَنبَغي أَن يكونَ الأَميرُ أَفضَلهم، أو من أَفضَلِهِم، قال العُلَماءُ: «ويُستَحَبُّ للرُّفقَةِ منَ الناسِ -وإن قَلُّوا- أَن يُؤَمِّروا بَعضَهُم عليهم، ويَنقادوا له».

* **وفيه:** جَوازُ صَدِّ أَهلِ الحَرب واغتيالِهِم، والخُروجِ لِأَخذِ مالِهِم واغتِنامِهِ[2].

* استَدَلَّ بعضُ العلماءِ بهذا الحَديثِ على أَنَّهُ لا يُقطَعُ سارِقٌ في مَجاعَةٍ؛ لِأَنّ المواساةَ واجِبَةٌ للمُحتاجينَ، وخَصَّه بَعضُهُم بسَرِقَة المَأكَلِ.

* **وفيه:** أَن للإمام أَن يواسيَ بينَ الناسِ في الأقواتِ في الحَضَر بثمنٍ وغَيرِه، كَما فُعِلَ ذلك في السّفَرِ.

* **وفيه:** قوَّةُ إيمانِ هَؤُلاءِ البَعثِ، إذ لَو ضَعُفَ -والعياذ بالله- لما خرجوا وهُم ثَلاثُ مئة، وليس معهم سِوى جِراب تَمرٍ، أو مِزوَدَي تَمرٍ.

* **وفيه:** فضلُ أبي عُبَيدَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولِهذا سَمّاهُ الشَّارع: «أَمين هذه الأُمَّةِ»[3].

* **وفيه:** النّظَرُ في حالِ القَومِ، والتدبيرُ فيه.

---

(١) كشف المشكل (١/ ٢٦٤).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٨٤).

(٣) رواه البخاري (٤٣٨٢)، ومسلم (٢٤١٩).

* وفضلُ الصحابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، على ما كان فيهم من البُؤس، وقد استَجابوا للهِ وللرَّسولِ من بعدِ ما أَصابَهُمُ القَرحُ.

* **وفيه**: رِضاهُم بالقضاءِ، وطاعَتُهُم للأميرِ.

* **وفيه**: جَوازُ الشّرِكَة في الطعامِ، وخَلط الأزوادِ في السّفَرِ، إذا كان ذلك أرفَقَ بهِم[1].

* **وفيه**: أنَّ الحالَ إذا اشتَدَّت على المسافِرِ، وكان عندهُ من الزَّادِ الشَّيءُ اليسيرُ، فإنَّه لا يَأكُلُه في دَفعَةٍ، ويَرتَقِبُ غيرَه، بل يوزِّعُه على الأيَّامِ، ولا يكونُ ذلك قادحًا في تَوَكُّلِه، بل مَنسوبًا إلى حُسنِ تَدبيرِه؛ إلا أنَّه يُراعي في ذلك قدرَ ما يمسِكُ الرَّمَقَ.

* **وفيه**: أن الماء يَغذو[2]، وأنَّ أولى ما استكثرَ به من الماءِ استِعمالُ التمر وشَبهِه من الحَلوى[3].



(١) عمدة القاري (١٣/ ٤٢).

(٢) من التغذية، يقال: غذوت الصبي باللبن فاغتذى. لسان العرب (١٥/ ١١٩).

(٣) الإفصاح، لابن هبيرة (١/ ٣٧١-٣٧٢).

١٢

وليمةُ
أهلِ الخندقِ

وليمةُ أهلِ الخندقِ

كانت غَزوَةُ الخَندَقِ في شَوَّالٍ سنةَ خَمسٍ منَ الهِجرَةِ، نَصَّ على ذلك ابنُ إسحاقَ، وعُروَةُ بن الزُّبَيرِ، وقَتادَةُ، والبَيهَقيُّ، وغيرُ واحدٍ منَ العُلَماءِ، سَلَفًا وخَلَفًا[1].

«وكان سَبَب غَزوَةِ الخَندَقِ: أَنَّ اليَهودَ لَمَّا رَأَوُا انتِصارَ المشرِكينَ على المسلمينَ يَومَ أُحُدٍ، وعَلِموا بميعادِ أبي سفيان لِغَزوِ المسلمينَ، فَخرجَ لِذلك، ثم رجعَ للعامِ المقبلِ، خرجَ أَشرافُهُم إلى قريشٍ بمكةَ يُحَرِّضونَهُم على غَزوِ رسولِ اللهِ ﷺ، ويُؤَلِّبونَهُم عليه، ووَعَدوهُم من أَنفُسِهِم بالنصرِ لهم، فَأَجابَتهُم قريشٌ، ثم خرجوا إلى غَطَفانَ، فَدَعَوهُم، فاستَجابوا لهم، ثم طافوا في قَبائِلِ العَرَب يَدعونَهُم إلى ذلك، فاستَجابَ لهم مَنِ استَجابَ، وكان مَن وافى الخَندَقَ منَ الكُفَّارِ عَشرَةَ آلافٍ.

فلما سَمِعَ رسولُ اللهِ ﷺ بمَسيرِهِم إليه استَشارَ الصحابَةَ، فَأَشارَ عليه سَلمانُ الفارِسيُّ بحَفرِ خَندَقٍ يَحولُ بينَ العَدوِّ وبينَ المَدينَةِ، فَأَمَرَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ، فَبادَرَ إليه المسلمونَ، وعَمِلَ بنَفسِهِ فيه، وبادَروا هُجومَ الكُفَّارِ عليهم، وكان في حَفرِهِ من آياتِ نُبوَّتِهِ وأَعلامِ رِسالَتِهِ ما قد تَواتَرَ الخَبَرُ بِهِ، وكان حَفرُ الخَندَقِ أَمامَ سَلعٍ، وسَلعٌ: جَبَلٌ خَلفَ ظُهورِ المسلمينَ، والخَندَقُ بينهم وبينَ الكُفَّارِ.

وخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ في ثَلاثَةِ آلافٍ منَ المسلمينَ، فَتَحَصَّنَ بالجَبَلِ من خَلفِهِ، وبالخَندَقِ أَمامَهُم.

وأَمَرَ النبيُّ ﷺ بالنِّساءِ والذَّراريّ، فَجُعِلوا في آطامٍ[2] المَدينَةِ، واستَخلَفَ عليها ابنَ أُمِّ مَكتومٍ.

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٩).

(٢) جمع أطم، بالضم، وهو البناء المرتفع. النهاية (١/ ٥٤).

وانطَلَقَ حُيَيُّ بن أَخطَبَ إلى بَني قُرَيظَةَ، فَدَنا من حِصنِهِم، فَأَبى كَعبُ بن أَسَدٍ أَن يَفتَحَ له، فلم يَزَل يُكَلِّمُهُ حتى فَتَحَ له، فلما دَخَلَ عليه قال: «لَقد جِئتُكَ بعِزِّ الدَّهرِ، جِئتُكَ بقريشٍ وغَطَفانَ وأَسَدٍ على قادَتِها لِحَربِ محمدٍ»، قال كعب: «جِئتَني -واللهِ- بذُلِّ الدَّهرِ، وبجَهامٍ[1] قد هَراقَ ماؤُهُ، فَهو يَرعُدُ ويَبرُقُ ليس فيه شيءٌ».

فلم يَزَل بِهِ حتى نَقَضَ العَهدَ الذي بينَهُ وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ، ودَخَلَ مع المشرِكينَ في مُحارَبَتِهِ، فَسُرَّ بذلك المشرِكونَ، وشَرَطَ كَعبٌ على حُيَيّ: أَنَّهُ إن لَم يَظفَروا بمحمدٍ أَن يَجيءَ حتى يَدخُلَ معه في حِصنِهِ، فَيُصيبَهُ ما أَصابَهُ، فَأَجابَهُ إلى ذلك، ووَفَّى له بِهِ.

وبلغَ رسولَ اللهِ ﷺ خَبَرُ بَني قُرَيظَةَ ونَقضُهُم للعَهدِ، فَعَظُمَ ذلك على المسلمينَ، واشتَدَّ البَلاءُ، ونَجَمَ النِّفاقُ، وأَقامَ المشرِكونَ مُحاصِرينَ رسولَ اللهِ ﷺ شَهرًا، ولَم يَكُن بينهم قِتالٌ لِأَجلِ ما حالَ اللهُ بِهِ منَ الخَندَقِ بينهم وبينَ المسلمينَ، إلا أَنَّ فَوارِسَ من قريشٍ منهم عَمرو بن عبدِ وُدٍّ وجَماعَةٌ معه أَقبَلوا نحو الخَندَقِ، ودَعَوا إلى البرازِ، فانتُدِبَ لعمرٍو عَليُّ بن أَبي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَبارَزَهُ، فَقَتَلَه اللهُ على يَدَيهِ، وكان من شُجعانِ المشرِكينَ وأَبطالِهِم، وانهَزَمَ الباقونَ إلى أَصحابِهِم.

وكان شِعارُ المسلمينَ يَومَئِذٍ: «حَم لا يُنصَرونَ».

ثُمّ إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خَذَلَ العَدوَّ، وهَزَمَ جُموعَهُم، وأَرسَلَ اللهُ على المشرِكينَ جُندًا منَ الرِّيحِ، فَجَعَلَت تُقَوِّضُ خيامَهُم، ولا تَدَعُ لهم قِدرًا إلا كَفَأَتها، ولا طُنُبًا[2] إلا قَلَعَتهُ، ولا يَقِرُّ لهم قَرارٌ، وجُندُ اللهِ منَ المَلائِكَةِ يُزَلزِلونَهُم، ويُلقونَ في قُلوبِهِمُ الرُّعبَ والخَوفَ، وأَرسَلَ رسولُ اللهِ ﷺ حُذَيفَةَ بن اليَمانِ يَأتيهِ بخَبَرِهِم، فَوَجَدَهُم على هذه الحالِ، وقد تَهَيَّؤوا للرَّحيلِ، فرجعَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فَأَخبَرَهُ برَحيلِ القَومِ، فَأَصبَحَ رسولُ اللهِ ﷺ وقد رَدَّ اللهُ عَدوَّهُ بغَيظِهِ لَم يَنالوا خَيرًا، وكَفاهُ اللهُ قِتالَهم، فَصَدَقَ وعدَهُ، وأَعَزَّ جُندَهُ، ونَصَرَ عبدَهُ، وهَزَمَ الأَحزابَ وحدَهُ»[3].

---

(١) الجهام: السحاب الذى لا ماء فيه. الصحاح (٥/ ١٨٩٢).

(٢) الطنب والطنب: حبل الخباء والسرادق ونحوهما. لسان العرب (١/ ٥٦٠).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٤١-٢٤٥)، باختصار.

وقال **محمدِ بن إسحاقَ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَدَّثَني يَزيدُ بن رومانَ مَولى آلِ الزُّبَيرِ، عن عُروَةَ بن الزُّبَيرِ، ومَن لا أَتَّهِمُ، عن عبدِ اللهِ بن كَعب بن مالِكٍ، ومحمدِ بن كَعبٍ القُرَظيِّ، والزُّهريِّ، وعاصِمِ بن عمرَ بن قَتادَةَ، وعبدِ اللهِ بن أَبي بكرٍ، وغيرِهِم من عُلَمائِنا، كُلُّهُم قد اجتَمع حَديثُهُ في الحَديثِ عن الخَندَقِ، وبَعضُهُم يُحَدِّثُ ما لا يُحَدِّثُ بِهِ بَعضٌ، قالوا: «إنَّهُ كان من حَديثِ الخَندَقِ: أَنَّ نَفَرًا من اليَهودِ، منهم: سَلَّامُ بن أَبي الحُقيقِ النضريُّ، وحُيَيُّ بن أَخطَبَ النضريُّ، وكِنانَةُ بن أَبي الحُقيقِ النضريُّ، وهَوذَةُ بن قَيسٍ الوائِليُّ، وأَبو عَمَّارٍ الوائِليُّ، في نَفَرٍ من بَني النضيرِ، ونَفَرٍ من بَني وائِلٍ، وهُمُ الذينَ حَزَّبوا الأَحزابَ على رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خرجوا حتى قدِموا على قريشٍ مكةَ، فَدَعَوهُم إلى حَربِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: إنَّا سَنكونُ معكُم عليه، حتى نَستَأصِله، فقالت لهم قريشٌ:

يا مَعشَرَ يَهودَ، إنَّكُم أَهلُ الكِتابِ الأَوَّلِ، والعِلمِ بما أَصبَحنا نَختَلِفُ فيه نَحنُ ومحمدٌ، أَفَدينُنا خَيرٌ أَم دينُهُ؟ قالوا: بَل دينُكُم خَيرٌ من دينِهِ، وأَنتُم أولى بالحقِّ منه.

فَهُمُ الذينَ أَنزَلَ اللهُ تعالى فيهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]، إلى قَولِهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥][1].

فلما قالوا ذلك لِقريشٍ، سَرَّهُم ونَشَطوا لِما دَعَوهُم إليه من حَربِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاجتَمَعوا لِذلك واتَّعَدوا له.

ثم خرجَ أولَئِكَ النفَرُ من يَهودَ، حتى جاءوا غَطَفانَ، من قَيسِ عَيلانَ، فَدَعَوهُم إلى حَربِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَخبَروهُم أَنَّهُم سَيكونونَ معهم عليه، وأَنَّ قريشًا قد تابَعوهُم على ذلك، فاجتَمَعوا معهم فيه».

---

(١) قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥١-٥٥].

قال ابنُ إسحاقَ: «فَخرجَت قريشٌ، وقائِدُها أَبو سُفيانَ بن حَربٍ، وخرجَت غَطَفانُ، وقائِدُها عُيَينَةُ بن حِصنِ بن حُذَيفَةَ بن بَدرٍ، في بَني فَزارَةَ، والحارِثُ بن عَوفِ بن أَبي حارِثَةَ المرِّيُّ، في بَني مُرَّةَ، ومِسعَرُ بن رُخَيلَةَ فيمَن تابَعَهُ من قَومِهِ من أَشجَعَ.

فلما سَمِعَ بِهِم رسولُ اللهِ ﷺ، وما أَجمَعوا له من الأَمرِ، ضَرَبَ الخَندَقَ على المَدينَةِ، فَعَمِلَ فيه رسولُ اللهِ ﷺ تَرغيبًا للمسلمينَ في الأَجرِ، وعَمِلَ معه المسلمونَ فيه، فَدَأَبَ فيه ودَأَبوا.

وأَبطَأَ عن رسولِ اللهِ ﷺ وعَنِ المسلمينَ في عَمَلِهِم ذلك رِجالٌ منَ المنافِقينَ، وجَعَلوا يوَرُّونَ[1] بالضَّعيفِ من العَمَلِ، ويَتَسَلَّلونَ إلى أَهليهِم بغيرِ عِلمٍ من رسولِ اللهِ ﷺ، ولا إذنٍ.

وجَعَلَ الرجُلُ من المسلمينَ إذا نابَتهُ النائِبَةُ من الحاجَةِ التي لا بُدَّ له منها، يَذكُرُ ذلك لِرسولِ اللهِ ﷺ، ويَستَأذِنُهُ في اللُّحوقِ بحاجَتِهِ، فَيَأذَنُ له، فإذا قَضى حاجَتَهُ رجعَ إلى ما كان فيه من عَمَلِهِ؛ رَغبَةً في الخَيرِ، واحتِسابًا له»[2].

المدَّةُ التي استَغرَقَها الصحابَةُ رضي الله عنهم في حَفرِ الخَندَقِ:

ذكروا في ذلك عِدَّةَ أقوالٍ:

* **فقال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ**: «وقَعَ عِندَ موسى بن عُقبَةَ: أنَّهم أقاموا في عَمَلِه قَريبًا من عِشرينَ لَيلَةً، وعِندَ الواقِدِيّ: أربعًا وعِشرينَ، وفي الرَّوضَةِ للنوَوِيِّ: خمسةَ عَشَرَ يومًا، وفي الهَدي لابنِ القَيِّمِ: أقاموا شَهرًا»[3].

* **وقال ابنُ سَعدٍ**: «فَرَغوا من حَفرِه في سِتَّةِ أيَّامٍ، ورَفَعَ المسلمون النِّساءَ والصبيانَ في الآطامِ»[4].

---

(١) يسترون.

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٤-٢١٦).

(٣) الفتح (٧/ ٣٩٤).

(٤) الطبقات الكبرى (٢/ ٥١).

* **وقال المقريزي:** «فُرِغَ من حفرِ الخندقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ»[١].

* **وقال عِمادُ الدِّين خَليل:** «كان لتقسيمِ العملِ وإسهامِ الرسولِ ﷺ فيه إلى جانِب أصحابه، والإيمانِ العميقِ الذي كان يَدفَعُ المسلمينَ إلى بَذل كُلّ طاقاتِهم لإنجازِ الخُطّة الدِّفاعيَّة، وشُعورِهم بعِظَمِ الخطَرِ المحدِقِ بهم إن هوجِمَتِ المَدينةُ قبلَ أن يُنجَزَ حَفرُ الخَندَقِ، فضلًا عن تأميلِ الرسولِ ﷺ جُندَه بالنصرِ القَريب والأجرِ العظيم: كان لهذه الأمورِ جميعًا الأثَرُ الحاسِمُ في تمكينِ المسلمينَ من حَفرِ الخَندَقِ، الذي يَمتَدُّ اثنَي عَشرَ ألف ذِراعٍ في سِتَّةِ أيَّامٍ، قَبلَ أن يَدهَمَهُم الأعداءُ»[٢].

وكان الصحابَة رضي الله عنهم أهلَ عمَلٍ، ولَم يَكُن لهم كُفاةٌ منَ العبيدِ يكفونَهُم مُؤنَةَ الحَفرِ، فجَدُّوا واجتَهَدوا في ذلك، وجَدَّ معَهُم رسولُ اللهِ ﷺ، وأعانَهم على عَمَلِهم، وكانت تَمُرُّ بهمُ الأيَّامُ لا يَطعَمون شَيئًا، وكان رسولُ اللهِ ﷺ يُعاني ما يُعانونَه، حتى إنَّهُ كان يَربطُ على بَطنِه الحَجَرَ منَ الجوعِ.

عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى الخَندَقِ، فإذا المهاجِرونَ والأَنصارُ يَحفِرونَ في غَداةٍ بارِدَةٍ، فلم يَكُن لهم عَبيدٌ يَعمَلونَ ذلك لهم، فلما رَأى ما بِهم منَ النصَب والجوعِ، قال: «**اللهُمَّ إنَّ العَيشَ عَيشُ الآخِرَه، فاغفِر للأَنصارِ والمهاجِرَه**».

فقالوا مُجيبينَ له:

نَحـنُ الذيـنَ بايَعـوا محمـدا ... على الجِهـادِ مـا بَقينـا أَبَـدا[٣]

وفي لفظٍ للبُخاريّ: جَعَلَ المهاجِرونَ والأَنصارُ يَحفِرونَ الخَندَقَ حَولَ المَدينَةِ، ويَنقُلونَ التُّرابَ على مُتونِهم، ويقولونَ:

نَحـنُ الذيـنَ بايَعـوا محمـدا ... على الإسلامِ مـا بَقينـا أَبَـدا

---

(١) إمتاع الأسماع (١/ ٢٣٠).

(٢) دراسة في السيرة (ص١٧٧)، بتصرف يسير.

(٣) رواه البخاري (٢٨٣٤)، ومسلم (١٨٠٥).

والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجيبُهُم ويقولُ: «**اللهُمَّ إنَّهُ لا خَيرَ إلا خَيرُ الآخِرَه، فَبارِك في الأَنصارِ والمهاجِرَه**»(١).

وعن سَهلِ بن سَعدٍ، قال: جاءَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونَحنُ نَحفِرُ الخَندَقَ، ونَنقُلُ التُّرابَ على أَكتافِنا، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ لا عَيشَ إلا عَيشُ الآخِرَةِ، فاغفِر للمُهاجِرينَ والأَنصارِ**»(٢).

وعَنِ البَراءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: رَأَيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ الأَحزاب يَنقُلُ التُّرابَ، وقد وارى التُّرابُ بَياضَ بَطنِهِ، وهو يقولُ:

واللهِ لَولا اللهُ ما اهتَدَينا	ولا تَصَدَّقنا ولا صَلَّينا
فأَنزِلَن سكينَةً علينا	وثَبِّتِ الأَقدامَ إن لاقَينا
إنَّ الأُلى قد بَغَوا علينا	إذا أَرادوا فِتنَةً أَبينا

ورَفَعَ بها صَوتَهُ: «**أَبينا، أَبينا**»(٣).

الحَديث:

عن جابرِ بن عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إنَّا يومَ الخَندَقِ نَحفِرُ، فَعَرَضَت كُديَةٌ شَديدَةٌ، فَجاءوا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: هذه كُديَةٌ عَرَضَت في الخَندَقِ، فقال: «**أَنا نازِلٌ**».

ثم قامَ وبَطنُهُ مَعصوبٌ بحَجَرٍ، ولَبثنا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَذوقُ ذَواقًا، فَأَخَذَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المِعوَلَ فَضَرَبَ، فَعادَ كَثيبًا أَهيَلَ، أو أَهيَمَ، فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ائذَن لي إلى البَيتِ، فَقُلتُ لِامرَأَتي: رَأَيتُ بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيئًا ما كان في ذلك صَبرٌ، فَعِندَكِ شيءٌ؟ قالت: عِندي شَعيرٌ وعَناقٌ، فَذَبَحتُ العَناقَ، وطَحَنَتِ الشَّعيرَ، حتى جَعَلنا اللَّحمَ في البُرمَةِ، ثم جِئتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعَجينُ قد انكَسَرَ، والبُرمَةُ بينَ الأَثافِيِّ قد كادَت أَن تَنضَجَ، فَقُلتُ:

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٣٥).

(٢) رواه البخاري (٣٧٩٧)، ومسلم (١٨٠٤).

(٣) رواه البخاري (٢٨٣٧)، (٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٣).

طُعَيِّمٌ لي، فَقُم أَنتَ يا رسولَ اللهِ ورجلٌ أو رجلانِ، قال: «**كَم هوَ؟**»، فَذكرتُ له، قال: «**كَثيرٌ طَيِّبٌ، قُل لها: لا تَنزِعِ البُرمَةَ ولا الخُبزَ منَ التنُّورِ حتى آتيَ**»، فقال: «**قوموا**».

فَقامَ المهاجِرونَ، والأَنصارُ، فلما دَخَلَ على امرَأَتِهِ قال: ويحَكِ! جاءَ النبيُّ ﷺ بالمهاجِرينَ والأَنصارِ ومَن معهم! قالت: هَل سألَكَ؟ قُلتُ: نَعَم، فقال: «**ادخُلوا، ولا تَضاغَطوا**»، فَجَعَلَ يَكسِرُ الخُبزَ، ويَجعَلُ عليه اللَّحمَ، ويُخَمِّرُ البُرمَةَ والتنُّورَ إذا أَخَذَ منه، ويُقَرِّبُ إلى أَصحابِهِ ثم يَنزِعُ، فلم يَزَل يَكسِرُ الخُبزَ ويَغرِفُ حتى شَبعوا، وبَقيَ بَقيَّةٌ، قال: «**كُلي هذا، وأَهدي؛ فَإِنَّ الناسَ أَصابَتهُم مَجاعَةٌ**»[1].

شَرحُ الحَديثِ:

قَولُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّا يَومَ الخَندَقِ نَحفِرُ، فَعَرَضَت كُديَةٌ شَديدَةٌ**»:

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكُديَة: هي القِطعَةُ الصلبَةُ الصمَّاءُ، ولِأَبي ذَرٍّ: «كَبدَةٌ»، قيلَ: هي القِطعَةُ الشَّديدَةُ الصلبَةُ منَ الأَرضِ، ووَقَعَ في روايةِ الأَصيليِّ عَنِ الجُرجانيِّ: «كِندَةٌ»، وعِندَ ابنِ السَّكَنِ: «كَتَدَةٌ»، قال عياضٌ: لا أَعرِفُ لها مَعنًى»[2].

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي رواية: «كذانَة»، بذالٍ مُعجمَةٍ ونونٍ، وهي القطعَة من الجَبَل، وعِندَ ابنِ إسحاقَ: «صَخرَة»، وفي رواية: «عَبلَة»، وهي الصخرَةُ الصمَّاءُ، وجَمعُها: عَبلاتٌ، ويُقال لها: العَبلاءُ، والأَعبَلُ، وكُلُّها الصخرَة»[3].

---

(١) رواه البخاري (٤١٠١)، (٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩)، وأحمد (١٤٢١١)، (١٥٠٢٨)، (٣١٧٠٩)، والحاكم (٤٣٢٤)، وابن أبي شيبة (٣١٧٠٩)، (٣٦٨١١)، والدارمي (٤٣)، وأبو عوانة (٦٩٤٢)، (٨٣٠٧)، والطبراني في الأوسط (٣٢٧٦)، وفي الأحاديث الطوال (٥١)، وابن إسحاق في السيرة، كما في ابن هشام (٢/ ٢١٨)، والبيهقي (١٤٥٩٧)، وفي دلائل النبوة (٣/ ٤١٥-٤٢٧)، والفريابي في دلائل النبوة (١٨)، وأبو نعيم في الدلائل أيضًا (٣٢٧)، وإسماعيل الأصبهاني في الدلائل أيضًا (ص٢٠٨)، والآجري في الشريعة (١٠٥٦)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٥)، وقوام السنة في الترغيب والترهيب (٨٨٣)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ٢٩٢)، والكلاباذي في معاني الأخبار (ص٦٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ١٢٣).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٩٦).

(٣) عمدة القاري (١٧/ ١٧٩).

وقال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فعَرضَت كِبدَةٌ شَديدَةٌ» هي القِطعة الصلبة منَ الأَرضِ، وأَرضٌ كَبداء، وقَوس كَبداء: أَي شَديدَةٌ، والمَحفوظُ في هذا الحَديثِ «كُديَة».

وقال أَيضًا: «الكُديَة: قِطعةٌ غَليظَةٌ صُلبةٌ، لا تَعمَل فيها الفَأس، وأَكدى الحافِرُ: إذا بلغها»[1].

وعِندَ أحمَدَ: «قالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ ها هُنا كُديَةً منَ الجَبَلِ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رُشُّوها بالماءِ**»، فَرَشُّوها».

قَولُهُ: «فقال: «أَنا نازِلٌ»:

يَعني: كَي يَتَعامَلَ معها، ويَكفيَهُم أمرَها.

قَولُهُ: «ثم قامَ وبَطنُهُ مَعصوبٌ بحَجَرٍ»:

ولأحمَدَ: «فَأَخَذَ المِعوَلَ -أوِ المِسحاةَ- ثم قال: «**بسمِ اللهِ**»، فَضَرَبَ ثَلاثًا، فَصارَت كَثيبًا يُهالُ، قال جابرٌ: فَحانَت مِنِّي التِفاتَةٌ، فإذا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد شَدَّ على بَطنِهِ حَجَرًا».

وله أَيضًا: «لَمَّا حَفَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَصحابُهُ الخَندَقَ، أَصابَهُم جَهدٌ شَديدٌ، حتى رَبَطَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بَطنِهِ حَجَرًا منَ الجوعِ».

وللأصبَهانيّ في الدَّلائِلِ: «فَأَتاها وبَطنُهُ مَعصوبٌ بحَجَرٍ منَ الجوعِ».

وللآجُرِّيّ في الشَّريعةِ: «لَمَّا حَفَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخَندَقَ أَصابَ المسلمينَ جَهدٌ وجوعٌ شَديدٌ، حتى رَبَطَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بَطنِهِ صَخرَةً منَ الجوعِ».

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفائِدَةُ رَبطِ الحَجرِ على البَطنِ: أَنَّها تضمرُ منَ الجوعِ، فَيُخشى على انحِناءِ الصلب بواسِطَةِ ذلك، فإذا وضَعَ فَوقَها الحَجَرَ وشَدَّ عليها العِصابَةَ استَقامَ الظَّهرُ»[2].

---

(١) النهاية (٤/ ١٣٩، ١٥٦).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٩٦).

وقال **الكَرمانيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَعَلَّهُ لِتَسكينِ حَرارَةِ الجوعِ ببَرْدِ الحَجَرِ، أو ليَعتَدِلَ قائِمًا، أو لِأَنَّها حِجارَةٌ رِقاقٌ لشَدِّ العُروقِ والأَمعاءِ، فلا يَتَحَلَّلُ شيءٌ مِمَّا في البَطنِ، فلا يَحصُلُ ضَعفٌ زائِدٌ بسَبَبِ التحَلُّلِ»[1].

فائِدَةٌ:

عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تواصِلوا**»، قالوا: إنَّكَ تواصِلُ، قال: «**لَستُ كَأَحَدٍ منكُم، إنِّي أُطعَمُ وأُسقى**»، أو: «**إنِّي أَبيتُ أُطعَمُ وأُسقى**»[2].

ورواهُ **ابنُ حِبَّان في صحيحِه**[3]، **ثُمَّ قال عَقِبَه**: «هذا الخَبَرُ دَليلٌ على أَنَّ الأَخبارَ التي فيها ذِكرُ وضعِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحَجَرَ على بَطنِهِ هي كُلّها أَباطيلُ، وإنَّما مَعناها: الحُجَزُ، لا الحَجَرُ، والحُجَزُ طَرَفُ الإزارِ؛ إذِ اللهُ جَلَّ وَعَلَا كان يُطعِمُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويَسقيهِ إذا واصَلَ، فَكَيفَ يَترُكُهُ جائِعًا مع عَدَمِ الوِصالِ حتى يَحتاجَ إلى شَدِّ حَجَرٍ على بَطنِهِ؟ وما يُغني الحَجَرُ عنِ الجوعِ؟».

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أَكثَرَ الناسُ منَ الردِّ عليه في جَميعِ ذلك، وأَبلَغُ ما يُرَدُّ عليه بهِ: أَنَّهُ أخرَجَ في صَحيحِهِ من حَديثِ ابنِ عباسٍ، قال: خرجَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهاجِرَةِ، فَرَأى أَبا بكرٍ وعمرَ، فقال: «**ما أَخرَجَكُما؟**»، قالا: ما أَخرَجَنا إلا الجوعُ، فقال: «**وأَنا -والذي نَفسي بيَدِهِ- ما أَخرَجَني إلا الجوعُ**»...، الحَديثَ[4].

---

(١) الكواكب الدراري (١٦/ ٣٠).

(٢) رواه البخاري (١٩٦١)، واللفظ له، ومسلم (١١٠٤).

(٣) صحيح ابن حبان (٣٥٧٩).

(٤) صحيح ابن حبان (٥٢١٦)، ورواه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولفظ ابن حبان: خرج أبو بكر بالهاجرة إلى المسجد، فسمع بذلك عمر، فقال: يا أبا بكر، ما أخرجك هذه الساعة؟ قال: ما أخرجني إلا ما أجد من حاق الجوع، قال: وأنا -والله- ما أخرجني غيره. فبينما هما كذلك، إذ خرج عليهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ما أخرجكما هذه الساعة؟**»، قالا: والله ما أخرجنا إلا ما نجد في بطوننا من حاق الجوع، قال: «**وأنا والذي نفسي بيده ما أخرجني غيره، فقوما**»...، الحديث.

قال ابن الأثير: «حاق الجوع»، أي: صادقه وشدته. ويروى بالتخفيف، يريد: من اشتمال الجوع عليه». النهاية (١/ ٤١٥).

فهذا الحَديثُ يَرُدُّ ما تَمَسَّكَ بِهِ، وأَمَّا قَولُهُ: «وما يُغني الحَجَرُ منَ الجوعِ؟»، فَجَوابُهُ: أَنَّهُ يُقيمُ الصلبَ؛ لِأَنَّ البَطنَ إذا خَلا رُبَّما ضَعُفَ صاحِبُهُ عَنِ القيامِ لِانثِناءِ بَطنِهِ عليه، فإذا رُبطَ عليه الحَجَرُ اشتَدَّ وقَويَ صاحِبُهُ على القيامِ، حتى قال بَعضُ مَن وقَعَ له ذلك: «كُنتُ أَظُنُّ الرِّجلَينِ يَحمِلانِ البَطنَ، فإذا البَطنُ يَحمِلُ الرِّجلَينِ»[1].

وأما قَولُهُ ﷺ: «**إِنِّي لَستُ كَأَحَدِكُم، إِنِّي أُطعَمُ وأُسقى**».

وفي حَديثِ أبي هريرة: «**إِنِّي أَبيتُ يُطعِمُني رَبِّي ويَسقيني**»[2]، **فقال ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «المرادُ بِهِ: ما يُغَذِّيهِ اللهُ بِهِ من مَعارِفِهِ، وما يَفيضُ على قَلبِهِ من لَذَّةِ مُناجاتِهِ، وقُرَّةِ عَينِهِ بقُربِهِ، وتَنَعُّمِهِ بحُبِّهِ، والشَّوقِ إليه، وتَوابِعِ ذلك منَ الأَحوالِ التي هي غِذاءُ القُلوب، ونَعيمُ الأَرواحِ، وقُرَّةُ العَينِ، وبَهجَةُ النُّفوسِ والرُّوحِ والقَلب، بما هو أَعظَمُ غِذاءً وأَجوَدُهُ وأَنفَعُهُ، وقد يَقوى هذا الغِذاءُ حتى يُغنيَ عن غِذاءِ الأَجسامِ مُدَّةً منَ الزَّمانِ»[3].

وفي الصحيحَينِ من حَديثِ أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال أَبو طَلحَةَ لِأُمِّ سُلَيمٍ: «لَقد سَمِعتُ صَوتَ رسولِ اللهِ ﷺ ضَعيفًا، أَعرِفُ فيه الجوعَ، فَهَل عِندَكِ من شيءٍ؟...»، الحديث[4].

قال القَسطَلانيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه رَدٌّ على دَعوى ابنِ حِبَّانَ: أَنَّهُ لَم يَكُن يَجوع؛ مُحتَجًّا بحَديثِ: «**أَبيتُ يُطعِمُني رَبِّي ويَسقيني**»، وهو مَحمولٌ على تَعَدُّدِ الحالِ، فَكان أَحيانًا يَجوعُ لِيَتَأَسَّى بِهِ أَصحابُهُ، ولا سيَّما مَن لا يَجِدُ مَددًا فيَصبرُ، فيُضاعَفُ أجرُه»[5].

قَولُهُ: «ولَبثنا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَذوقُ ذَواقًا»: «هي جُملَةٌ مُعتَرِضَةٌ، أوردَها لِبَيانِ السَّبَب في رَبطِهِ ﷺ الحَجَرَ على بَطنِهِ»[6].

---

(١) فتح الباري (٤/ ٢٠٨).

(٢) رواه البخاري (٧٢٩٩)، ومسلم (١١٠٣).

(٣) زاد المعاد (٢/ ٣١).

(٤) رواه البخاري (٣٥٧٨)، ومسلم (٢٠٤٠).

(٥) شرح القسطلاني (٦/ ٣٩).

(٦) فتح الباري (٧/ ٣٩٦).

و«الذَّواقُ: المَأكولُ والمشروبُ، فَعالٌ بمعنى مَفعولٍ، منَ الذَّوقِ، يَقَعُ على المَصدرِ والاِسمِ.

يُقالُ: ذُقتُ الشَّيءَ أَذوقُهُ ذَواقًا وذَوقًا، وما ذُقتُ ذَواقًا، أَي: شَيئًا»[١].

وللدَّارِميِّ، وابنِ أبي شَيبَةَ: «فَلَبثنا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَطعَمُ طَعامًا، ولا نَقدِرُ عليه».

وعِندَ الفريابيّ والبَيهَقيّ في الدّلائلِ، والكلاباذيِّ في مَعاني الأخبارِ: «فَلَبثنا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَطعَمُ شَيئًا، ولا نَقدِرُ عليه».

وفي البخاريّ من حَديثِ أَنَسٍ، قال: «كانوا يُؤتَونَ -يَعني: وهُم يحفِرُون الخَندَقَ- بمِلءِ كَفِّي منَ الشَّعيرِ، فَيُصنَعُ لهم بإهالَةٍ سَنِخَةٍ، توضَعُ بينَ يَدَيِ القَومِ، والقَومُ جياعٌ، وهي بَشِعَةٌ في الحَلقِ، ولها ريحٌ مُنتِنٌ»[٢].

قالَ الحافظُ: «فَيُصنَعُ لهمُ الشَّعيرُ»، أَي: يُطبَخُ، وقَولُهُ: «بإهالَةٍ»: الدُّهنُ الذي يُؤتَدَمُ بهِ، سَواءٌ كان زَيتًا، أو سَمنًا، أو شَحمًا، وقَولُهُ: «سَنِخَةٌ»، أَي: تَغَيَّرَ طَعمُها ولَونُها من قِدَمِها، ولِهذا وصَفَها بكَونِها بَشِعَةً.

وقَولُهُ: «بَشِعَةٌ» بموَحَّدَةٍ ومُعجَمَةٍ وعَينٍ مُهمَلَةٍ، وقيلَ: بنونٍ وغَينٍ مُعجَمَةٍ، والنشغُ: الغَثيُ[٣]، أَي أَنَّهُم كان يَحصُلُ لهم عِندَ ازدِرادِها شَبيهٌ بالغَثيِ، والأَوَّلُ أَصوَبُ.

وقَولُهُ: «ولها ريحٌ مُنتِنٌ» يَدُلُّ على أَنَّها عَتيقَةٌ جِدًّا، حتى عَفنَت وأَنتَنَت، وفي روايةِ الإسماعيليِّ: «ولها ريحٌ مُنكَرٌ»، قال ابنُ التينِ: «الصوابُ: «ريحٌ مُنتِنَةٌ»؛ لِأَنَّ الرِّيحَ مُؤَنَّثَةٌ»، قال: «إلا أَنَّهُ يَجوزُ في المؤَنَّثِ غيرِ الحقيقيِّ أَن يُعَبَّرَ عنه بالمذَكَّرِ».

ومُنتِنٌ بضَمِّ الميمِ، ويَجوزُ كَسرُها»[٤].

---

(١) النهاية (٢/ ١٧٢).

(٢) صحيح البخاري (٤١٠٠).

(٣) غثت نفسه غثيانًا وغثيًا: اضطربت وجاشت وتهيأت للقيء.

(٤) فتح الباري (٧/ ٣٩٥).

قَولُهُ: فَأَخَذَ النبيُّ ﷺ المِعوَلَ»:

وعِندَ أحمَدَ: «فَأَخَذَ المِعوَلَ، أوِ المِسحاةَ».

المِعوَل: الفأسُ، والميمُ زائدةٌ، وهي ميمُ الآلَةِ.

والمِسحاةُ: المِجرفة منَ الحَديدِ، والميمُ زائدةٌ؛ لِأَنَّهُ منَ السَّحوِ: الكَشف والإزالَة[1].

وقال ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان مِمَّا بلغَني: أَنَّ جابرَ بن عبدِ اللهِ كان يُحَدِّثُ: أَنَّهُ اشتَدَّت عليهم في بَعضِ الخَندَقِ كُديَةٌ، فَشَكَوها إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فَدَعا بإناءٍ من ماءٍ، فَتَفَلَ فيه، ثم دَعا بما شاءَ اللهُ أَن يَدعوَ بِهِ، ثم نَضَحَ ذلك الماءَ على تِلكَ الكُديَةِ، فَيقولُ مَن حَضرَها: «فوالذي بَعَثَهُ بالحقِّ نبيًّا، لانهالَت حتى عادَت كالكَثيب، لا تَرُدُّ فَأسًا ولا مِسحاةً»[2].

قَولُهُ: «فَضَرَبَ، فَعادَ كَثيبًا أَهيَلَ، أو أَهيَمَ»:

قال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَهيَلَ»، أَي: رَملًا سائِلا، وجاءَ في روايةٍ: «فعادَت كثيبًا أَهيَمَ»، والمَعروفُ: «أَهيَلَ»[3].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَولُهُ: «أهيل، أو أَهيَمَ» شَكٌّ منَ الراوي، وفي روايةِ الإسماعيليِّ: «أَهيَلَ» بغيرِ شَكٍّ، وكذا عِندَ يونُسَ، وفي روايةِ أَحمَدَ: «كَثيبًا يُهالُ»، والمعنى: أَنَّهُ صارَ رَملًا يَسيلُ ولا يَتَماسَكُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، أَي: رَملًا سائِلًا.

وأَمَّا: «أَهيَمُ»، فقال عياضٌ: «ضَبَطَها بَعضُهُم بالثاءِ المُثَلَّثَةِ، وبَعضُهُم بالتاءِ المُثَنَّاة من فَوق، وفَسَّرَها بأَنَّها تَكَسَّرَت، والمَعروفُ بالتحتانيَّةِ، وهي بمعنى أَهيَلَ»[4].

---

(١) النهاية (٢/ ٣٤٩)، (٤/ ٣٤٤)، وينظر: عمدة القاري (١٧/ ١٨٠).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٧)، وينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٤١٥)، البداية والنهاية (٦/ ١٩).

(٣) النهاية (٥/ ٢٨٩).

(٤) فتح الباري (٧/ ٣٩٧)، وينظر: عمدة القاري (١٧/ ١٨٠).

وقال أيضًا: «قَولُهُ: «كَثيبًا أَهيَلَ، أو أَهيَمَ»: أَمَّا بالميمِ: فلا معنى له هُنا، والمَعروف باللَّام، وقيلَ: معنى الذي بالميمِ: الذي لا يَتَماسَك، فَشَبَّهَه بالإبلِ الهيمِ، ومنه: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، وهو الرملُ السَّائِلُ»[١].

وقال ابنُ المُلَقِّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقَولُهُ: «فعادَ كَثيبًا أَهيَلَ، أو أَهيَمَ»، الكَثيبُ: الرملُ، من قَولِهِ تعالى: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، أَي: تَفَتَّتَ حتى صارَ كالرملِ، يَسيلُ ولا يتَماسَك، والأَهيَل: المنهال، الذي لا يتَماسَكُ سَيلًا وانصِبابًا، فهو مُنهالٌ ومَهيلٌ.

وقَولُهُ: «أو أَهيَمَ» هو مِثلُهُ، ومعناه مِثل المَهيلِ؛ ولِذلك قال بَعضُهم في قَولِهُ تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥]: الرِّمالُ التي لا يَنوبُها ماءُ السَّماءِ، وقيلَ: هي الإبلُ يُصيبُها داءٌ يُعطشُها، وقيلَ: الهيامُ من الرملِ: ما كان دِقاقًا يابسًا»[٢].

ولأَحمَدَ: «ثم قال: «بسمِ اللهِ»، فَضَرَبَ ثَلاثًا، فَصارَت كَثيبًا يُهالُ».

وللدَّارِميِّ، وابنِ أبي شَيبَة، والبَيهَقيّ في الدّلائِل: «فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، هذه كُديَةٌ قد عَرَضَت في الخَندَقِ، فَرَشَشنا عليها الماءَ، فَقامَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبَطنُهُ مَعصوبٌ بحَجَرٍ، فَأَخَذَ المِعوَلَ أوِ المِسحاةَ، ثم سَمَّى ثَلاثًا، ثم ضَرَبَ، فَعادَت كَثيبًا أَهيَلَ».

وعن أَبي عُثمانَ النهديّ، قال: ضَرَبَ رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخَندَقِ، ثم قال: «**بسمِ الله وبِهِ بَدينا، ولو عَبَدنا غيرَه شَقينا، حَبَّذا رَبًّا وحَبَّذا دينا**»[٣].

وقال الإمامُ أحمَدُ: حَدَّثَنا محمدُ بن جَعفَرٍ، حَدَّثَنا عَوفٌ، عن مَيمونٍ أَبي عبدِ اللهِ، عَنِ البَراءِ بن عازِبٍ، قال: أَمَرَنا رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحَفرِ الخَندَقِ، قال: وعَرَضَ لَنا صَخرَةٌ في مَكانٍ منَ الخَندَقِ، لا تَأخُذُ فيها المَعاوِلُ، قال: فَشَكَوها إلى رسولِ اللهِ

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٠٣).

(٢) التوضيح (٢١/ ٢٢٤).

(٣) رواه الحارث المحاسبي في مسنده (٦٩٠)، وأبو إسحاق الختلي في المحبة (١٢)، وسنده صحيح، لكنه مرسل، وقد وصل من غير وجه، ولا يصح وصله.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجاءَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -قال عَوفٌ: وأَحسِبُهُ قال: وضَعَ ثَوبَهُ-، ثم هَبَطَ إلى الصخرَةِ، فَأَخَذَ المِعوَلَ فقال: «**بسمِ اللهِ**»، فَضَرَبَ ضَربَةً، فَكَسَرَ ثُلُثَ الحَجَرِ، وقال: «**اللهُ أَكبَرُ، أُعطيتُ مَفاتيحَ الشَّامِ، واللهِ إنِّي لَأُبصِرُ قُصورَها الحُمرَ من مَكاني هذا**».

ثم قال: «**بسمِ اللهِ**»، وضَرَبَ أُخرى، فَكَسَرَ ثُلُثَ الحَجَرِ، فقال: «**اللهُ أَكبَرُ، أُعطيتُ مَفاتيحَ فارِسَ، واللهِ إنِّي لَأُبصِرُ المَدائِنَ، وأُبصِرُ قَصرَها الأَبيَضَ من مَكاني هذا**».

ثم قال: «**بسمِ اللهِ**»، وضَرَبَ ضَربَةً أُخرى، فَقَلَعَ بَقيَّةَ الحَجَرِ، فقال: «**اللهُ أَكبَرُ، أُعطيتُ مَفاتيحَ اليَمَنِ، واللهِ إنِّي لَأُبصِرُ أَبوابَ صَنعاءَ من مَكاني هذا**»[1].

وقال أبو القاسِمِ الطَّبرانيّ: حَدَّثَنا إسماعيلُ بن الحَسَنِ الحَفَّافُ، قال: ثنا أَحمَدُ بن صالِحٍ، قال: ثنا ابنُ وهبٍ، قال: حَدَّثَني حُيَيُّ بن عبدِ اللهِ المَعافِريُّ، عن أَبي عبدِ الرحمَنِ الحُبُلِيِّ، عن عبدِ اللهِ بن عَمرٍو، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ يَومَ الخَندَقِ وهُم يُخَندِقونَ حَولَ المَدينَةِ، فَتَناوَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفَأسَ، فَضَرَبَ بِهِ ضَربَةً، فقال: «**بهذه الضَّربَةِ يَفتَحُ اللهُ كُنوزَ الرُّومِ**»، ثم ضَرَبَ الثَّانيَةَ، وقال: «**بهذه يَفتَحُ اللهُ كُنوزَ فارِسَ**»، ثم ضَرَبَ الثَّالِثَةَ، فقال: «**بهذه الضَّربَةِ يَأتي اللهُ بأَهلِ اليَمَنِ، أَنصارًا وأَعوانًا**»[2].

وعن عبدِ الرحمَنِ بن زيادٍ، عن عبدِ اللهِ بن يَزيدَ، عن عبدِ اللهِ بن عَمرٍو، قال: لَمَّا أَمَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخَندَقِ، فَخَندَقَ على المَدينَةِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّا وجَدنا صَفاةً[3]، لا نَستَطيعُ حَفرَها، فَقامَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقُمنا معه، فلما أَتى أَخَذَ المِعوَلَ، فَضَرَبَ بِهِ ضَربَةً وكَبَّرَ، فَسَمِعتُ هَدَّةً لَم أَسمَع مِثلها قَطُّ، فقال: «**فُتِحَت فارِسُ**»، ثم ضَرَبَ أُخرى

---

(١) المسند (١٨٦٩٤)، وحسنه الحافظ في الفتح (٧/ ٣٩٧)، وفي سنده ضعف؛ لضعف ميمون أبي عبد الله، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٣١): «رواه أحمد، وفيه ميمون أبو عبد الله، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات»، وضعفه محققو المسند.

(٢) المعجم الكبير (١٣/ ٣٧)، وكذا رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (٤٢٩): حدثنا أبو عمرو بن حمدان، ثنا الحسن بن سفيان، ثنا أحمد بن عيسى، ثنا ابن وهب به، وهذا إسناد لا بأس به في الشواهد.

(٣) هي الصخرة، والحجر الأملس. النهاية (٣/ ٤١).

وكَبَّرَ، فَسَمِعتُ هَدَّةً، لَم أَسمَع مِثلها قَطُّ، فقال: «**فُتِحَتِ الرُّومُ**»، ثم ضَرَبَ أُخرى وكَبَّرَ، فَسَمِعتُ هَدَّةً لَم أَسمَع مِثلها قَطُّ، فقال: «**جاءَ اللهُ بِحِميَرَ**[1]، **أَعوانًا وأَنصارًا**»[2].

وعن نُعَيم بن سَعيدٍ العبديّ، أَنَّ عِكرِمَةَ حَدَّثَ عَنِ ابنِ عباسٍ، قال: احتَفَرَ رسولُ اللهِ ﷺ الخَندَقَ وأَصحابُهُ، قد شدُّوا الحِجارَةَ على بُطونِهِم منَ الجوعِ...»، الحديث، وفيه:

ثم تَمَشَّوا إلى الخَندَقِ، فقال: «**اذهَبوا بنا إلى سَلمانَ**»، فإذا صَخرَةٌ بينَ يَدَيهِ قد ضَعُفَ عنها، فقال نبيُّ اللهِ ﷺ لِأَصحابِهِ: «**دَعوني فَأَكونُ أَوَّلَ مَن ضَرَبَها**»، فقال: «**بسمِ اللهِ**»، فَضَرَبَها، فَوَقَعَت فِلقَةٌ ثُلُثُها، فقال: «**اللهُ أَكبَرُ، قُصورُ الرُّومِ ورَبِّ الكَعبَةِ**»، ثم ضَرَبَ بأُخرى، فَوَقَعَت فِلقَةٌ، فقال: «**اللهُ أَكبَرُ، قُصورُ فارِسَ ورَبِّ الكَعبَةِ**»، فقال عِندَها المنافِقونَ: نَحنُ نُخَندِقُ على أَنفُسِنا، وهو يَعِدُنا قُصورَ فارِسَ والرُّومِ!»[3].

وعن أَبي سُكَينَةَ -رجلٍ منَ المحَرَّرينَ- عن رجلٍ مَن أَصحاب النبيِّ ﷺ قال:

لَمَّا أَمَرَ النبيُّ ﷺ بحَفرِ الخَندَقِ، عَرَضَت لهم صَخرَةٌ، حالَت بينهم وبينَ الحَفرِ، فَقامَ رسولُ اللهِ ﷺ وأَخَذَ المِعوَلَ، ووَضَعَ رِداءَهُ ناحيَةَ الخَندَقِ، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، فَنَدَرَ ثُلُثُ الحَجَرِ، وسَلمانُ الفارِسيُّ قائِمٌ يَنظُرُ، فَبَرَقَ مع ضَربَةِ رسولِ اللهِ ﷺ بَرقَةٌ، ثم ضَرَبَ الثَّانيَةَ، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فَنَدَرَ الثُّلُثُ الآخَرُ، فَبَرَقَت بَرقَةٌ، فَرَآها سَلمانُ، ثم ضَرَبَ الثَّالِثَةَ، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ

---

(١) حمير: قبيلة من أكبر قبائل اليمن.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ٢٧)، والحارث بن أبي أسامة في مسنده (٦٩٢)، وقال ابن كثير: «غريب من هذا الوجه، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي فيه ضعف». البداية والنهاية (٦/ ٢٨).
وعبد الرحمن بن زياد ضعفه يحيى القطان، وأحمد، وابن معين، ويعقوب بن شيبة، وصالح جزرة، والترمذي، وغيرهم، ينظر: التهذيب (٦/ ١٧٤-١٧٦).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٧٦)، ورجاله ثقات عدا نعيم بن سعيد، فلم نجد له ترجمة، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٣٢): «رجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن أحمد بن حنبل، ونعيم العبدي، وهما ثقتان».

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فَنَدَرَ الثُّلُثُ الباقي، وخرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَ رِداءَهُ وجَلَسَ، قال سَلمانُ: يا رسولَ اللهِ، رَأَيتُكَ حينَ ضَرَبتَ، ما تَضرِبُ ضَربَةً إلا كانت معها بَرقَةٌ، فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا سَلمانُ، رَأَيتَ ذلك؟**»، فقال: إي والذي بَعَثَكَ بالحقِّ يا رسولَ اللهِ، قال: «**فَإِنِّي حينَ ضَرَبتُ الضَّربَةَ الأولى رُفِعَت لي مَدائِنُ كِسرى وما حَولها، ومَدائِنُ كَثيرَةٌ، حتى رَأَيتُها بعَينَيَّ، ثم ضَرَبتُ الضَّربَةَ الثَّانيَةَ، فَرُفِعَت لي مَدائِنُ قَيصَرَ وما حَولها، حتى رَأَيتُها بعَينَيَّ، ثم ضَرَبتُ الثَّالِثَةَ، فَرُفِعَت لي مَدائِنُ الحَبَشَةِ وما حَولها منَ القُرى، حتى رَأَيتُها بعَينَيَّ**»[1].

وقال ابنُ إسحاقَ: حُدِّثتُ عن سَلمانَ الفارِسيِّ، أَنَّهُ قال: ضَرَبتُ في ناحيَةٍ من الخَندَقِ، فَغَلُظَت عَلَيَّ صَخرَةٌ، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَريبٌ مِنِّي، فلما رَآني أَضرِبُ ورَأى شِدَّةَ المَكانِ عَلَيَّ، نزلَ فَأَخَذَ المِعوَلَ من يَدي، فَضَرَبَ بِهِ ضَربَةً لَمَعت تَحتَ المِعوَلِ برقَةٌ، قال: ثم ضَرَبَ بِهِ ضَربَةً أُخرى، فلمعت تَحتَهُ برقَةٌ أُخرى، قال: ثم ضَرَبَ بِهِ الثَّالِثَةَ، فلمعت تَحتَهُ برقَةٌ أُخرى، قال: قُلتُ:

بأَبي أَنتَ وأُمِّي يا رسولَ اللهِ، ما هذا الذي رَأَيتُ لَمَع تَحتَ المِعوَلِ وأَنتَ تَضرِبُ؟

قال: «**أوقد رَأَيتَ ذلك يا سَلمانُ؟**»، قال: قُلتُ: نَعَم، قال: «**أَمَّا الأولى: فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بها اليَمَنَ، وأَمَّا الثَّانيَةُ: فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بها الشَّامَ والمَغرِبَ، وأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بها المَشرِقَ**»[2].

وقال البَيهَقيّ: «هذا الذي ذكرَهُ محمدُ بن إسحاقَ بن يَسَارٍ من قِصَّةِ سَلمانَ، قد ذكرنا مَعناهُ مَنقولًا عن مُعاذِ بن أَبي الأَسوَدِ، عن عُروَةَ، عن موسى بن عُقبَةَ».

وقال ابنُ إسحاقَ أَيضًا: وحَدَّثَني مَن لا أَتَّهِمُ، عن أَبي هريرة، أَنَّهُ كان يقولُ -حينَ

---

(١) رواه النسائي (٣١٧٦)، وحسنه الألباني في صحيح النسائي، وقال في الصحيحة (٢/ ٤٠٣) عن هذا الإسناد: «هذا إسناد لا بأس به في الشواهد، رجاله كلهم ثقات غير أبي سكينة هذا، قال الحافظ في التقريب (ص٦٤٥): «قيل اسمه محلم، مختلف في صحبته»، قلت: إذا لم تثبت صحبته، فهو تابعي مستور، روى عنه ثلاثة».

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٩)، ورواه البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحاق (٣/ ٤١٨).

فُتِحَت هذه الأَمصارُ في زَمانِ عمرَ، وزَمانِ عُثمانَ، وما بعدَهُ-: «افتَتِحوا ما بَدا لَكُم، فَوالذي نَفسُ أَبي هريرة بيَدِهِ، ما افتَتَحتُم من مَدينَةٍ ولا تَفتَتِحونَها إلى يَومِ القيامَةِ، إلا وقد أَعطى اللهُ سبحانه محمدًا ﷺ مَفاتيحَها قَبلَ ذلك»[1].

قَولُهُ: «فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ائذَن لي إلى البَيتِ»:

وللدَّارِميِّ، وابنِ أبي شَيبَةَ، والبَيهَقيِّ في الدَّلائلِ: «قُلتُ: يا رسولَ اللهِ ائذَن لي، فَأَذِنَ لي».

وهذا شَأنُ أهلِ الإيمانِ: لا يَترُكونَ رسولَ اللهِ ﷺ إذا كانوا معَهُ في أَمرٍ جامِعٍ حتى يَستَأذِنوهُ، فيَأذَن لِمَن شاءَ منهم، كَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا أَدَبٌ أَرشَدَ اللهُ عبادَه المؤمِنينَ إليه، فَكَما أَمَرَهُم بالاِستِئذانِ عِندَ الدُّخولِ، كذلك أَمَرَهُم بالاِستِئذانِ عِندَ الاِنصِرافِ، لا سيَّما إذا كانوا في أَمرٍ جامِعٍ مع الرسولِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليه، من صَلاةِ جُمُعَةٍ أو عيدٍ أو جَماعَةٍ، أوِ اجتِماعٍ لِمَشورَةٍ، ونَحوِ ذلك، أَمَرَهُمُ اللهُ تعالى أَلَّا يَنصَرِفوا عنه -والحالَةُ هذه- إلا بعدَ استِئذانِهِ ومُشاوَرَتِهِ، وأنَّ مَن يَفعَل ذلك فَهو منَ المؤمِنينَ الكامِلينَ.

ثم أَمَرَ رسوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليه إذا استَأذَنَهُ أَحَدٌ منهم في ذلك أَن يَأذَنَ له، إن شاءَ»[2].

وقال السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا إرشادٌ منَ اللهِ لِعبادِهِ المؤمِنينَ، أنَّهم إذا كانوا مع الرسول

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٩)، وقال ابن كثير في تاريخه (٦/ ٣٢): «وهذا من هذا الوجه منقطع، وقد وصل من غير وجه». يعني: بمعناه، كحديث: «**بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، فبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض، فوضعت في يدي**»، رواه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٨٨).

ﷺ على أمرٍ جامِعٍ، أي: من ضَرورتِه أو من مصلَحَتِه، أن يكونوا فيه جَميعًا، كالجِهادِ، والمشاوَرةِ، ونحوِ ذلك من الأُمورِ التي يشتَرِكُ فيها المؤمِنونَ، فإنّ المصلحَةَ تقتضي اجتِماعَهم عليه وعَدَمَ تفَرُّقِهم، فالمؤمنُ باللهِ ورسولِه حقًّا، لا يذهَبُ لأمرٍ من الأمورِ، لا يرجِع لأهلِه، ولا يذهبُ لبَعضِ الحَوائجِ التي يشذّ بها عنهُم، إلا بإذنٍ من الرّسولِ أو نائبه من بعدِه، فجَعَل موجبَ الإيمانِ عدمَ الذّهاب إلا بإذنٍ، ومَدَحَهم على فِعلِهم هذا، وأَدَّبَهم مع رسولِه ووَلِيِّ الأمرِ منهم»[1].

أمَّا المنافِقونَ: فقال ابنُ إسحاقَ: «وأَبطَأَ عن رسولِ اللهِ ﷺ وعن المسلمينَ في عَمَلِهم ذلك رِجالٌ من المنافِقينَ، وجَعَلوا يوَرُّونَ[2] بالضَّعيفِ من العَمَلِ، ويَتَسَلَّلونَ إلى أَهليهِم بغيرِ عِلمٍ من رسولِ اللهِ ﷺ، ولا إذنٍ.

وجَعَلَ الرجُلُ من المسلمينَ إذا نابَتهُ النائِبَةُ من الحاجَةِ التي لا بُدَّ له منها، يَذكُرُ ذلك لِرسولِ اللهِ ﷺ، ويَستَأذِنُهُ في اللُّحوقِ بحاجَتِهِ، فَيَأذَنُ له، فإذا قَضى حاجَتَهُ رجعَ إلى ما كان فيه من عَمَلِهِ؛ رَغبَةً في الخَيرِ، واحتِسابًا له»[3].

وقال ابنُ إسحاقَ في وصفِ الحالِ يومَ الأحزاب: «وعَظُمَ عِندَ ذلك البَلاءُ، واشتَدَّ الخَوفُ، وأَتاهُم عَدوُّهُم من فَوقِهِم ومن أَسفَلَ منهم، حتى ظَنَّ المؤمِنونَ كُلَّ ظَنٍّ، ونَجَمَ النِّفاقُ من بَعضِ المنافِقينَ، حتى قال بعضُهم: «كان محمدٌ يَعِدُنا أَن نَأكُلَ كُنوزَ كِسرى وقَيصَرَ، وأَحَدُنا اليَومَ لا يَأمَنُ على نَفسِهِ أَن يَذهَبَ إلى الغائِطِ!»»[4].

فكان حالُ المؤمِنينَ: الإيمان والرِّضا والتسليم، مع عِظَمِ البلاءِ وشِدَّةِ الحالَ، ولا يذهَبُ الواحدُ منهم إلى شَأنٍ من شُؤونِه، ولا يترُك عمَلَه في حَفرِ الخَندَقِ، إلا بعدَ أن يَستأذِنَ رسولَ اللهِ ﷺ، فيَأذَن له.

---

(١) تفسير السعدي (ص٥٧٦).

(٢) يسترون.

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦).

(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٢)، وينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٤٣٥)، الدرة الثمينة لابن النجار (ص٧٩)، سير أعلام النبلاء (١/ ٤٩١)، البداية والنهاية (٥/ ١١).

أمَّا المنافِقونَ: فكانوا لا يَزالون في رَيبهم يتَرَدَّدون، وهُم وجِلون خائِفون، لا إيمانَ ولا إيقانَ ولا تسليمَ، ويتسَلَّل الواحدُ منهم تِلوَ الآخَرِ دونَ استِئذانٍ، ويَترُك النبيّ ﷺ وأصحابَه، ويذَهَبُ فِرارًا من شِدَّةِ الحالِ، وقد جَلَّله الخِزيُ.

قولُهُ: «**فَقُلتُ لِامرَأَتي: رَأَيتُ بالنبيِّ ﷺ شَيئًا ما كان في ذلك صَبرٌ، فَعِندَكِ شيءٌ؟**»:

وامرأةُ جابرٍ هيَ: سُهَيمَةُ[1] بنتُ مَسعودِ بن أوسِ بن مالكٍ، وأُمُّها: الشَّموسُ بنتُ عَمرِو بن حَرامِ بن ثَعلَبَةَ بن حَرامٍ من بَني سَلِمَةَ، تَزَوَّجها ابنُ خالِها جابرُ بنُ عبدِ اللهِ بن عَمرِو بن حَرامِ بن ثَعلَبَةَ بن حَرامٍ، فَوَلَدَت له عبدَ الرحمَنِ وأُمَّ حَبيبٍ، وأَسلَمَت سُهَيمَةُ، وبايَعَت رسولَ اللهِ ﷺ[2].

وهي تلك الثَّيِّبُ التي تَزَوَّجَها، كَما في حَديثِه: أن رسول اللهِ ﷺ قال له: «**تَزَوَّجتَ؟**»، قال: قُلتُ: نَعَم، قال: «**بكرًا أَم ثَيِّبًا؟**»، قُلتُ: بَل ثَيِّبًا، قال: «**أَفلا جاريَةً تُلاعِبُها وتُلاعِبُكَ؟**»، قُلتُ: إنَّ لي أَخَواتٍ، فَأَحبَبتُ أَن أَتَزَوَّجَ امرَأَةً تَجمَعُهُنَّ، وتَمشُطُهُنَّ، وتَقومُ عليهنَّ»[3].

وللدَّارِميّ: «فَجِئتُ امرَأَتي، فَقُلتُ: ثَكِلَتكِ أُمُّكِ! قد رَأَيتُ من رسولِ اللهِ ﷺ شَيئًا لا صَبرَ لي عليه، فَهَل عِندَكِ من شيءٍ؟».

قال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثَكِلَتكَ أُمُّك»، أَي: فقدَتك، والثُّكل: فقد الوَلَدِ، كَأَنَّهُ دَعا عليه بالموتِ، والمَوتُ يَعُمُّ كلَّ أَحَدٍ، فإذَن الدُّعاءُ عليه كَلا دُعاء.

ويَجوزُ أَن يكونَ منَ الأَلفاظِ التي تَجري على ألسِنة العَرَب، ولا يُرادُ بها الدُّعاء، كَقَولِهم: «تَرِبَت يداك»، و«قاتَلك اللهُ»[4].

---

(١) ووقع تسميتها في الفتح (١/ ٣٢١)، (٧/ ٣٩٧): «سهيلة»، باللام، ولعل الأول أصح.

(٢) الطبقات الكبرى (٨/ ٢٥٦)، وينظر: أسد الغابة (٧/ ١٥٦)، الإصابة (٨/ ١٩٤).

(٣) رواه البخاري (٢٠٩٧)، ومسلم (٧١٥).

(٤) النهاية (١/ ٢١٧).

وقال الحافظُ: «الثَّكَل»: بفتحَتَينِ، وبضَمٍّ ثمَّ سُكونٍ: الفَقدُ، وهي كَلِمَةٌ تُستَعمَلُ ولا يُرادُ بها حقيقَتُها»[1].

وللبَيهَقيّ في الدَّلائلِ: «رَأَيتُ رسولَ الله ﷺ أَخذَ حَجَرًا، فَجَعَله بينَ بَطنِهِ وإزارِهِ، يُقيمُ بَطنَهُ منَ الجوعِ، فلما رَأَيتُ ذلك قُلتُ: يا رسولَ الله، ائذَن لي؛ فَإِنَّ لي حاجَةً في أَهلي، فَأَتَيتُ المَرأَةَ، فَقُلتُ: قد رَأَيتُ من رسولِ الله ﷺ أَمرًا غاظَني، فَهَل عِندَكِ من شيءٍ؟».

قَولُهُ: «قالت: عِندي شَعيرٌ وعَناقٌ»:

«**العَناقُ**»: هي الأُنثى منَ المَعزِ إذا قَوِيَت، ما لَم تَستكمِل سنةً، وجَمعُها: أَعنُقٌ وعُنوقٌ[2].

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «العَناقُ: اسمٌ للأُنثى من المَعزِ، أوَّلَ سنةِ الوَضعِ، ويُقال للذَّكَر: جَدي»[3].

وقال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أهلُ اللُّغة: «ولَدُ الماعِزِ إذا أتى عليه أربعَةُ أشهُر وفُصِلَ عن أمِّه وقَوِيَ على الرعيِ فهو جَديٌ، والأنثى: عَناقٌ، والجَمعُ: عُنوقٌ وعُنُقٌ، فإذا أتى عليه الحَولُ فالذَّكَرُ تَيسٌ، والأنثى عنزٌ، ثُمّ يكونُ التيس جَذَعًا في السَّنَةِ الثانيَة، ثُم ثَنيًّا في الثَّالثَة»[4].

وفي روايةٍ في الصحيحَينِ: «لَمَّا حُفِرَ الخَندَقُ رَأَيتُ برسولِ الله ﷺ خَمَصًا شَديدًا، فانكَفَأتُ إلى امرَأَتي، فَقُلتُ لها: هَل عِندَكِ شيءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيتُ برسولِ الله ﷺ خَمَصًا شَديدًا، فَأَخرَجَت لي جِرابًا فيه صاعٌ من شَعيرٍ، ولَنا بُهَيمَةٌ داجِنٌ».

قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَأَيتُ النبيَّ ﷺ خَمَصًا»، أَي: رَأَيتُهُ ضامِرَ البَطنِ منَ الجوعِ.

«فانكَفَأتُ إلى امرَأَتي»، أَي: انقَلَبتُ ورجعتُ.

---

(١) فتح الباري (١/ ٩٥).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٣/ ١١٣).

(٣) كشف المشكل (١/ ٢٧).

(٤) شرح صحيح البخارى (٣/ ٤٧٣).

«فَأَخرَجَت لي جِرابًا»: وهو وِعاءٌ من جِلدٍ مَعروفٍ، بكَسرِ الجيمِ وفَتحِها، والكَسرُ أَشهَرُ.

«ولَنا بُهَيمَةٌ داجِنٌ»، «بُهَيمَةٌ»: تَصغيرُ بَهمَةٍ، وهي الصغيرَةُ من أولادِ الضَّأنِ، قال الجَوهَريُّ: «وتُطلَقُ على الذَّكَرِ والأُنثى، كالشَّاةِ والسَّخلَةِ الصغيرَةِ من أولادِ المَعزِ».

والدَّاجِنَ: ما أَلِفَ البُيوتَ[1]»[2].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدَّاجِنُ: التي تُترَكُ في البَيتِ، ولا تخرُجُ للمَرعى، ومن شَأنِها أَن تسمنَ»[3].

وعِندَ أحمَدَ: «عَمِلنا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخَندَقِ، قال: فَكانت عِندي شوَيهَةٌ عنزٍ جَذَعٌ سَمينَةٌ، قال: فَقُلتُ: واللهِ لَو صَنَعناها لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وللبَيهَقيّ في الدَّلائِلِ: «فقالت -يَعني امرأَتهُ-: هذه العَناقُ فاذبَحها، وهذا صاعٌ من شَعيرٍ فاطحَنهُ».

قَولُهُ: «فَذَبَحتُ العَناقَ، وطَحَنَتِ الشَّعيرَ، حتى جَعَلنا اللَّحمَ في البُرمَةِ»:

وعِندَ أحمَدَ: «فَأَمَرتُ امرَأَتي فَطَحَنَت لَنا شَيئًا من شَعيرٍ، وصَنَعَت لَنا منه خُبزًا، وذَبَحت تِلكَ الشَّاةَ فَشَوَيناها لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وللبَيهَقيّ في الدَّلائِلِ: «قالت: هذه العَناقُ فاذبَحها، وهذا صاعٌ من شَعيرٍ فاطحَنهُ، فَطَحَنتُهُ وذَبَحتُ العَناقَ».

وللأصبَهانيّ في الدَّلائِلِ: «فَطَحَنَتِ الشَّعيرَ وعَجَنَت، وذَبَحتُ العَناقَ وسَلَختُها، وخَلَّيتُ بينَ المَرأَةِ وبينَ ذلك».

---

(١) الداجن: كل ما ألف البيوت وأقام بها من حيوان وطير، للذكر والأنثى، والجمع: دواجن. ينظر: النهاية (٢/ ١٠٢)، المعجم الوسيط (١/ ٢٧٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٢١٥-٢١٦).

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٩٧).

وللآجُرِّي في الشَّريعةِ: «فانطَلَقتُ إلى أَهلي، فَذَبَحتُ عَناقًا كانت عِندي، وقُلتُ لِأَهلي: أَعِندَكُم دَقيقٌ؟ قالوا: عِندَنا أَمدادٌ من دَقيقِ شَعيرٍ، قال: فَأَمَرتُهُم فَخَبَزوهُ، وصَنَعوا طَعامَهُم».

وللطبرانيِّ في الأوسَطِ: «فَذَبَحتُ عَناقًا، وأَمَرتُ أَهلي فَخَبَزوا شَيئًا من شَعيرٍ كان عِندَهُم، وطَبَخوا العَناقَ».

وللبَيهَقيِّ في السُنَنِ: فَقُلتُ لِأَهلي: هَل عِندَكِ شيءٌ؛ حتى نَدعوَ النبيَّ ﷺ؟ قالت: ما عِندَنا إلا صاعٌ من شَعيرٍ، قال: فَقُلتُ لها: اطحَنيهِ، قال: وذَبَحتُ عَناقًا عِندَنا».

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «فَذَبَحتُ»، بسُكونِ المهمَلَةِ وضَمِّ التاءِ، وقَولُهُ: «طَحَنَت»، بفَتحِ المهمَلَةِ وفَتحِ النُّونِ، فالذي ذَبَحَ هو جابرٌ، وامرَأَتُهُ هي التي طَحَنَت»[1].

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوله: «**فَذَبَحتُ**»، الذَّابحُ هو جابرٌ، يُخبرُ عَن نَفسه بذلك.

قَوله: «**وطَحَنَت**»، أَي: امرَأَتُه»[2].

قَولُهُ: «**ثم جِئتُ النبيَّ ﷺ، والعَجينُ قد انكَسَرَ**»:

قال ابنُ الملَقِّن رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لانَ ورَطُبَ وتمَكَّن فيه الخَميرُ، وقيلَ: انكسارُه: لينُه؛ لِأَنَّه طُبِخَ، وأَخَذَتِ النارُ منه»[3].

وقال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: لانَ واختَمر، وكُلُّ شيءٍ فَتَرَ فقدِ انكَسَرَ، يُريدُ: أَنَّهُ صَلُح لِأَن يُخبَز»[4].

قَولُهُ: «**والبُرمَةُ بينَ الأَثافيِّ، قد كادَت أَن تَنضَجَ**».

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٩٧).

(٢) عمدة القاري (١٧/ ١٨٠).

(٣) التوضيح (٢١/ ٢٢٥).

(٤) النهاية (٤/ ١٧٣).

قال أبو العباسِ الفَيُّوميُّ: «البُرمَةُ: القِدرُ من الحَجَرِ، والجَمعُ بُرَمٌ»[١].

وقال الحافظُ: «الأَثافيّ، أَي: الحِجارَة التي توضَعُ عليها القِدرُ: وهي ثَلاثَةٌ»[٢].

وقال ابنُ الأَثيرِ: «البُرمَةُ: القِدرُ مُطلَقًا، وجَمعُها برامٌ، وهي في الأَصلِ المتّخَذة منَ الحَجَرِ المَعروفِ بالحِجازِ واليَمَنِ.

والأَثافيّ: هي جَمعُ أُثفيَّة، وقد تُخَفّفُ الياءُ في الجَمعِ، وهي الحِجارَةُ التي تُنصَبُ وتُجعَل القِدرُ عليها، يُقالُ أَثفَيت القِدرَ: إذا جعلتَ لها الأثافيّ، وثَفَّيتها: إذا وضَعتَها عليها، والهَمزَةُ فيها زائِدَةٌ»[٣].

قَولُهُ: «فَقُلتُ: طُعَيِّمٌ لي، فَقُم أَنتَ يا رسولَ اللهِ ورجلٌ، أو رجلانِ»:

وللدَّارِميّ، وابنِ أبي شَيبَةَ، وأبي نُعَيم في الدَّلائِلِ: «ثم رجعتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فَلَبثتُ ساعَةً، واستَأذَنتُهُ الثَّانيَةَ فَأَذِنَ لي، فَجِئتُ فإذا العَجينُ قد أَمكَنَ، فَأَمَرتُها بالخَبزِ، وجَعَلتُ القِدرَ على الأَثافيِّ، ثم جِئتُ رسولَ اللهِ ﷺ فَسارَرتُهُ، فَقُلتُ: إنَّ عِندَنا طُعَيِّمًا لَنا، فَإن رَأَيتَ أَن تَقومَ مَعي أَنتَ ورجلٌ أو رجلانِ معكَ فَعَلتَ».

وفي الصحيحَينِ: «ثم ولَّيتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالت -يَعني امرَأَتَهُ-: لا تَفضَحني برسولِ اللهِ ﷺ وبمَن معه، فَجِئتُهُ فَسارَرتُهُ، فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ذَبَحنا بُهَيمَةً لَنا، وطَحَنَّا صاعًا من شَعيرٍ كان عِندَنا، فَتَعالَ أَنتَ ونَفَرٌ معكَ».

ولابنِ إسحاقَ، وأحمَدَ: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، قد صَنَعتُ لَكَ شوَيهَةً كانت عِندَنا، وصَنَعنا معها شَيئًا من خُبزِ هذا الشَّعيرِ، فَأُحِبُّ أَن تَنصَرِفَ مَعي إلى مَنزِلي.

وإنَّما أُريدُ أَن يَنصَرِفَ مَعي رسولُ اللهِ ﷺ وحدَهُ».

وللبَيهَقيّ في الدَّلائِلِ: «فَقُم يا رسولَ الله، أَنتَ ورجلانِ من أَصحابكَ».

---

(١) المصباح المنير (١/ ٤٥).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٩٨).

(٣) النهاية (١/ ٢٣)، (١/ ١٢١).

«طُعَيِّمٌ»، بتشديدِ التحتانيَّةِ على طَريقَةِ المبالَغَةِ في تَحقيرِه، قالوا: «من تَمامِ المَعروفِ تَعجيلُهُ وتَحقيرُه»، قال ابنُ التينِ: «ضَبَطَهُ بَعضُهُم بتَخفيفِ الياءِ، وهو غَلَطٌ»[1].

وقال ابنُ المُلَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «طُعَيِّمٌ: تصغيرُ طَعامٍ، وهو مُشَدَّدٌ، ولا وجهَ لمَن جَعَلَه مُخَفَّفًا»[2].

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِأَن طُعَيم -بتَخفيف الياء- تَصغيرُ طُعمٍ، لا تَصغير الطعامِ»[3].

قَولُهُ: «قال: «كَم هوَ؟»، فَذكرتُ له، قال: «كَثيرٌ طَيِّبٌ»، قال: قُل لها: لا تَنزِعِ البُرمَةَ، ولا الخُبزَ منَ التنُّورِ، حتى آتيَ»:

ولابنِ أبي شَيبَةَ، والفريابيّ والبَيهَقيّ، كلاهُما في الدَّلائِلِ: «قال: «**وكَم هوَ؟**»، قُلتُ: صاعٌ من شَعيرٍ، وعَناقٌ، قال: «**ارجِع إلى أَهلِكَ وقُل لها: لا تَنزِعِ البُرمَةَ منَ الأَثافيِّ، ولا تُخرِجِ الخُبزَ منَ التنُّورِ، حتى آتيَ**».

تقدَّمَ أنّ البُرمَة: القِدرُ.

والتنُّور: الذي يُخبَزُ فيه، يُقالُ إنَّهُ في جَميعِ اللُّغاتِ كذلك[4].

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التنُّورُ: مَشهورٌ، وهو تارَة يُحفَرُ في الأَرضِ حَفيرةً، وتارَةً يُتَّخَذُ منَ الطِّينِ، ويُدفَنُ في الأَرضِ، وتوقد فيه النارُ إلى أَن يُحمى، فيُخبَز فيه، وتارَةً يُطبَخُ فيه، فَقيلَ: هو عَرَبيّ، وقيلَ: مُعَرَّبٌ، توافَقَت عليه العَرَبُ والعَجَمُ»[5].

قَولُهُ: «فقال: «قوموا»، فَقامَ المهاجِرونَ والأَنصارُ»:

وللبَيهَقيّ والأصبهانيّ، كِلاهُما في الدَّلائِلِ: «فقال للمسلمينَ جَميعًا: «**قوموا إلى جابرٍ**»، فَقاموا».

وفي الصحيحَينِ: «فَصاحَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**يا أَهلَ الخَندَقِ، إنَّ جابرًا قد صَنَعَ سورًا، فَحَيَّ هَلًا بكُم**».

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٩٨).

(٢) التوضيح (٢١/ ٢٢٥).

(٣) عمدة القاري (١٧/ ١٨٠).

(٤) النهاية (١/ ١٩٩).

(٥) عمدة القاري (٤/ ١٨٤).

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الطبري: «السُّورُ -بغيرِ هَمزٍ-: الصنيعُ منَ الطعامِ الذي يُدعى إليه»، وقيلَ: الطعامُ مُطلَقًا، وهو بالفارِسيَّةِ، وقيلَ بالحَبَشيَّةِ، وبالهَمزِ: بَقيَّةُ الشَّيءِ، والأوَّلُ هو المرادُ هُنا»[١].

وقال **النوويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «السُّورُ -غير مَهموزٍ-: الطعامُ الذي يُدعى إليه، وقيلَ الطعامُ مُطلَقًا، وهي لَفظَةٌ فارِسيَّةٌ، وقد تَظاهَرَت أَحاديثُ صَحيحَةٌ بأَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكَلَّمَ بأَلفاظ غيرِ العَرَبيَّةِ، فَيَدُلُّ على جَوازِهِ.

وأما: «حَيَّ هَلًا»، بتَنوينِ «هَلًا»، وقيلَ: بلا تَنوينٍ، على وزنِ «عَلا»، ويُقالُ: «حَي هَل»، فَمَعناهُ: عليكَ بكذا، أو ادعُ بكذا، قالهُ أبو عُبَيد وغيرُهُ، وقيلَ: مَعناهُ: أَعجِل بِهِ، وقال الهَرَويُّ: «مَعناهُ: هاتِ، وعَجِّل بِهِ»[٢].

وقال **ابنُ الأَثيرِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «هي كَلِمَتان جُعِلتا كَلِمَةً واحدَة، فَـ«حَيَّ» بمعنى: أقبل، و«هَلًا» بمعنى: أَسرِع»[٣].

وقال **ابنُ الجوزيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَحَيَّ هَلًا بكُم»: كَلِمَةُ حَثٍّ واستِعجالٍ»[٤].

وقال **ابنُ الملَقِّنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «هي كلمَةُ استِدعاءٍ، فيها حَثٌّ واستِعجالٌ، ومنه: «حَيَّ على الصلاةِ»، فَـ«حَيَّ»: هَلُمُّوا، و«هَلًا» بمعنى: حثًّا، فجُعِلا كلمَةً واحدةً، أي: هَلُمُّوا وعَجِّلوا»[٥].

وقال **أيضًا**: «فَحَيَّ هَلًا بكُم»: قال الفرَّاءُ: مَعنى «حَيَّ» عِندَ العَرب: هَلُمَّ، وأقبل، فالمَعنى: هَلُمُّوا إلى طَعامِ جابرٍ، وأقبلوا إليه، ومِنهُ قولُ المؤذِّنِ: «حَيَّ على الصلاة»، أي: أقبلوا إليها، وفُتِحَتِ الياءُ من «حَيَّ»؛ لِسكونِها، وسُكونِ الياءِ التي قَبلها، ومنه قولُ ابنِ

---

(١) فتح الباري (٦/ ١٨٤).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٢١٦).

(٣) النهاية (٥/ ٢٧٢).

(٤) كشف المشكل (٣/ ٤٤).

(٥) التوضيح (٢١/ ٢٢٨).

مَسعودٍ: «إذا ذُكِرَ الصالحونَ، فَحَيَّ هَلًا بعمرَ»[١]، ومعناهُ: أقبلوا على ذِكرِ عمرَ، وقال أبو عُبيدٍ: «أي: ادعُ عمرَ».

وفيها سِتُّ لُغاتٍ:

١. يُقالُ: «حَيَّ هَلًا»، بالتّنوينِ للتّنكيرِ.

٢. و«حَيَّ هَلَ»، مَنصوبَةً، مُخَفَّفةً، مُشبَّهةً بخَمسَةَ عَشَرَ.

٣. و«حَيهَلا»، بألفٍ مَديدةٍ.

٤. و«حَي هَل»، بالسّكونِ؛ لِكثرةِ الحركاتِ، ولِشبهِها ب«صَه»، و«مَه»، و«ويح».

٥. و«حَيَّ هلَ»، بسكونِ الهاءِ.

٦. و«حَيَّ أهلًا» آلَ عمرَ، و«حَيَّ هَلًا» على عمرَ»[٢].

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**حَيَّ هَلا**»: **فيه سِتُّ لُغاتٍ:**

الأوَّلُ: «حَيَّ هَلًا»، بالتنوينِ.

الثَّاني: فَتح اللَّام، بلا تنوينٍ.

الثالِثُ: تسكين الهاءِ، وفتح اللامِ، بلا تنوينٍ.

الرابعُ: فَتح الهاءِ، وسُكون اللامِ.

الخامِسُ: «حَيَّ هَلَن»، بفتحِ اللامِ، وسكون النُّونِ.

السَّادسُ: «حَيَّ هَلِن»، بكَسرِ اللَّام»[٣].

قَولُهُ: «فلما دَخَلَ على امرَأَتِهِ قال: ويحَكِ! جاءَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بالمهاجِرينَ والأَنصارِ ومَن معهم! قالت: هَل سألَكَ؟ قُلتُ: نَعَم»:**

---

(١) رواه معمر في جامعه (٢٠٤٠٦)، وأحمد في الفضائل (٣٤٠)، (٣٥٣)، وابن الجعد في مسنده (٥٨٧)، والحاكم في المستدرك (٤٥٢٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٦٢-١٦٥)، من طرق عنه، وهو أثر صحيح.

(٢) التوضيح (١٨/ ٣٢٦).

(٣) شرح أبي داود (٣/ ٢٧).

وللبَيهَقيّ والأصبَهانيّ في الدَّلائِلِ: «فَلَقيتُ منَ الحَياءِ ما لا يَعلَمُهُ إلا اللهُ، قُلتُ: جاءَنا الخَلقُ على صاعِ شَعيرٍ وعَناقٍ! فَدَخَلتُ على امرَأَتي فَقُلتُ: افتُضِحتِ! جاءَكِ رسولُ اللهِ ﷺ بالجُندِ أَجمَعينَ!

فقالت: هَل كان سألَكَ كَم طَعامُكَ؟ قُلتُ: نَعَم، فقالت: اللهُ ورسولُهُ أَعلَمُ، قد أَخبَرناهُ ما عِندَنا، فَكَشَفَت عَنِّي غَمًّا شَديدًا».

وفي **الصحيحَينِ**: «فَجِئتُ وجاءَ رسولُ اللهِ ﷺ يَقدُمُ الناسَ، حتى جِئتُ امرَأَتي، فقالت: بكَ وبكَ[1]، فَقُلتُ: قد فَعَلتُ الذي قُلتِ لي».

وتَقدَّمَ قَولُها له: «لا تَفضَحني برسولِ اللهِ ﷺ وبمَن معه».

قال الحافظُ: «ويُجمَعُ بينهما: بأَنَّها أوصَتهُ -أوَّلًا- بأَن يُعلِمَهُ بالصورَةِ، فلما قال لها: إنَّهُ جاءَ بالجَميعِ، ظَنَّت أَنَّهُ لَم يُعلِمهُ، فَخاصَمَتهُ، فلما أَعلَمَها أَنَّهُ أَعلَمَهُ سَكَنَ ما عِندَها؛ لِعِلمِها بإمكانِ خَرقِ العادَةِ، ودَلَّ ذلك على وُفورِ عَقلِها، وكَمالِ فَضلِها»[2].

وفي المسنَدِ وغيرِهِ عن جابرٍ، قال: أَتَيتُ النبيَّ ﷺ أَستَعينُهُ في دَينٍ كان على أَبي، قال: فقال: «**آتيكُم**»، قال: فرجعتُ، فَقُلتُ للمَرأَةِ: لا تُكَلِّمي رسولَ اللهِ ﷺ، ولا تَسأَليهِ، قال: فَأَتانا، فَذَبَحنا له داجِنًا كان لَنا، فقال: «**يا جابرُ، كَأَنَّكُم عَرَفتُم حُبَّنا اللَّحمَ**»، قال: فلما خرجَ قالت له المَرأَةُ: صَلِّ عَلَيَّ وعلى زَوجي -أو: صَلِّ علينا-، قال: فقال: «**اللهُمَّ صَلِّ عليهم**»، قال: فَقُلتُ لها: أَليس قد نَهَيتُكِ؟ قالت: تَرى رسولَ اللهِ ﷺ كان يَدخُلُ علينا، ولا يَدعو لَنا؟»[3].

---

(١) **قال العيني**: «الباء فيه تتعلق بمحذوف تقديره: فعل الله بك كذا وكذا؛ حيث أتيت بناس كثير، والطعام قليل، وذلك موجب للخجلة». عمدة القاري (١٧/ ١٨٢).

وقال النووي: «أي: ذمته، ودعت عليه، وقيل: معناه: بك تلحق الفضيحة، وبك يتعلق الذم، وقيل: معناه: جرى هذا برأيك، وسوء نظرك، وتسببك». شرح النووي على مسلم (١٣/ ٢١٧).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٩٨).

(٣) رواه الإمام أحمد (١٤٢٤٥)، وابن أبي شيبة (٨٧١٧)، ورواه- مختصرا- أبو داود (١٥٣٣)، والنسائي في الكبرى (١٠١٨٤)، وابن حبان (٩١٦)، والبيهقي (٢٨٧٥)، وصححه محققو المسند.

وهذا من فَضلِها، وحِرصِها على أن يُصيبَها هي وزوجَها الخيرُ بدُّعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ لهُما.

وللبَيهَقيّ في الدَّلائِلِ: «فَنادى رسولُ الله ﷺ في القَومِ: **«أَلا أَجيبوا جابرَ بنَ عبدِ الله»**، قال: فرجعتُ إلى المَرأَةِ فَقُلتُ: قدِ افتُضِحت! جاءَكِ رسولُ الله ﷺ ومَن معه، فقالت: بَلَّغتَهُ وبَيَّنتَ له؟ فَقُلتُ: نَعَم، قالت: فارجِع إليه فَبيِّن له، فَأَتَيتُهُ فَقُلتُ: يا رسولَ الله إنَّما هي عَناقٌ، وصاعٌ من شَعيرٍ، قال: «**فارجِع، ولا تُحَرِّكَنَّ شَيئًا منَ التنُّورِ ولا منَ القِدرِ حتى آتيَها، واستَعِر صِحافًا**».

قَولُهُ: «فقال: «ادخُلوا، ولا تَضاغَطوا»:

«**لا تَضاغَطوا**»، أَي: لا تَزدَحِموا.

قال ابنُ سيدَه رَحِمَهُ اللَّهُ: «الضِّغاطُ، والتضاغُط: التزاحُمُ»[1].

قَولُهُ: «فَجَعَلَ يَكسِرُ الخُبزَ، ويَجعَلُ عليه اللَّحمَ، ويُخَمِّرُ البُرمَةَ والتنُّورَ إذا أَخَذَ منه، ويُقَرِّبُ إلى أَصحابِهِ، ثم يَنزِعُ»:

فَجَعَلَ يَكسِرُ الخُبزَ، ويَجعَلُ عليه اللَّحمَ»؛ إدامًا له[2].

«**ويُخَمِّرُ البُرمَةَ**»، أَي: يُغَطِّيها؛ حتى لا يرى نُقصانَها، ولا زيادَتَها[3].

وقال ابنُ الملَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ويُخَمِّرُ البُرمَةَ والتنُّورَ**»، أي: يَستُرُهما، ويحتَملُ أن يفعلَ ذلك؛ لِئَلَّا يراهُما»[4].

«**ويُقَرِّبُ إلى أَصحابِهِ**»، أي: الطَّعامَ المأخوذَ[5].

---

(١) المحكم (٥/ ٤٠٠).

(٢) دليل الفالحين (٤/ ٤٨٤).

(٣) كشف المشكل (٣/ ٤٦).

(٤) التوضيح (٢١/ ٢٢٥).

(٥) دليل الفالحين (٤/ ٤٨٤).

«**ثم يَنزِعُ**»، أَي: يَأخُذُ اللَّحمَ منَ البُرمَةِ[١].

قَولُهُ: «فلم يَزَل يَكسِرُ الخُبزَ ويَغرِفُ حتى شَبعوا، وبَقيَ بَقيَّةٌ»:

وجاءَ في الصحيحَينِ: «فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تُنزِلُنَّ بُرمَتكُم، ولا تَخبزُنَّ عَجينكُم، حتى أَجيءَ**».

فَجِئتُ وجاءَ رسولُ اللهِ ﷺ يَقدُمُ الناسَ، فَأَخرَجتُ له عَجينًا، فَبَصَقَ فيه وبارَكَ، ثم عَمَدَ إلى بُرمَتِنا، فَبَصَقَ وبارَكَ، ثم قال: «**ادعُ خابزَةً فَلتَخبز معكِ**[٢]، **واقدَحي**[٣] **من بُرمَتِكُم، ولا تُنزِلوها**»، وهُم أَلفٌ.

فَأُقسِمُ باللهِ: لَقد أَكَلوا، حتى تَركوهُ وانحَرَفوا[٤]، وإنَّ بُرمَتَنا لَتَغِطُّ[٥] كَما هيَ، وإنَّ عَجينَنا لَيُخبَزُ كَما هوَ».

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «وهُم أَلفٌ»، أَي: الذينَ أَكَلوا، وفي روايةِ أَبي نُعَيمٍ في المستَخرَجِ: «فَأَخبَرَني أَنَّهُم كانوا تِسعَ مئةٍ أو ثَمانِ مئةٍ»، وفي روايةِ عبدِ الواحدِ بن أَيمَنَ عِندَ الإسماعيليِّ: «كانوا ثَمان مئةٍ أو ثَلاثَ مئةٍ»، وفي روايةِ أَبي الزُّبَيرِ: «كانوا ثَلاثَ مئةٍ»، والحُكمُ للزَّائِدِ؛ لِمَزيدِ عِلمِهِ؛ لِأَنَّ القِصَّةَ مُتَّحِدَةٌ»[٦].

قَولُهُ: «قال: «كُلي هذا وأَهدي؛ فَإِنَّ الناسَ أَصابَتهُم مَجاعَةٌ»:

قال ابنُ علَّانَ: «**كُلي هذا وأَهدي**»، بقَطعِ الهَمزَةِ: أمرٌ للمُخاطَبَةِ، ولَعَلّ تخصيصَها بالخِطاب دونَه؛ أَنَّه أَكَلَ مع القَومِ دونَها، فكانت مُشتَغِلَةً بالغَرفِ والخَبزِ، أو أنّها -وإن أكلَت حينَئِذٍ أَيضًا- إلا أنَّها لَمَّا باشَرت تَعَبَ ذلك أكثَرَ منه جعَلَ لها ذلك.

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٩٨).

(٢) أي: تساعدك.

(٣) أي: اغرفي، والمقدحة: المغرفة. إكمال المعلم (٦/ ٥١٥).

(٤) أي: شبعوا وانصرفوا، ورجعوا إلى أماكنهم.

(٥) أي: تغلي بما فيها، يقال: غطت القدر تغط، وغطيطها: صوت غليانها. كشف المشكل (٣/ ٤٥).

(٦) فتح الباري (٧/ ٣٩٩).

«**فَإِنَّ الناسَ أَصابَتهُم مَجاعَةٌ**»: هذه جُملَةٌ مُستأنَفَةٌ؛ لبَيانِ قَولِهُ: «وأَهدي»[1].

وقال الحافظُ: «**وأَهدي**»، بهَمزَةِ قَطعٍ: فِعلُ أَمرٍ للمَرأَةِ منَ الهَديَّةِ، ثم بَيَّنَ سَبَبَ ذلك بقَولِهِ: «**فَإِنَّ الناسَ أَصابَتهُم مَجاعَةٌ**»[2].

وللبَيهَقيّ في دَلائِلِ النُّبوَّةِ: «**كُلي وأَهدي**»، فلم نزل نَأكُلُ ونُهدي يَومَنا أَجمع».

ولَه في الدَّلائِلِ أَيضًا: «فَدَخَلَ رسولُ الله ﷺ، فَدَعا الله عَزَّوَجَلَّ على القِدرِ والتنُّورِ، ثم قال: «**اخرُجي واثرُدي**»، ثم أَقعَدَهُم عَشَرَةً عَشَرَةً، فَأَدخَلهم فَأَكَلوا، وأَكَلنا، وأَهدَينا لِجيرانِنا، فلما خرجَ رسولُ الله ﷺ ذَهَبَ ذلك».

ولأحمَدَ: «فَجَلَسَ، وأَخرَجناها إليه، فَبَرَّكَ[3]، وسَمَّى، ثم أَكَلَ، وتَوارَدَها الناسُ، كُلَّما فَرَغَ قَومٌ قاموا وجاءَ ناسٌ، حتى صَدَرَ أَهلُ الخَندَقِ عنها».

وللدَّارِميّ، وابنِ أَبي شَيبَةَ: «فَجَعَلنا نَأخُذُ منَ التنُّورِ الخُبزَ، ونَأخُذُ اللَّحمَ منَ البُرمَةِ، فَنُثَرِّدُ ونَغرِفُ لهم، وقال النبيُّ ﷺ: «**لِيَجلِس على الصحفَةِ سَبعَةٌ، أو ثَمانِيَةٌ**»، فلما أَكَلوا كَشَفنا عَنِ التنُّورِ، وكَشَفنا عَنِ البُرمَةِ، فإذا هُما أَملأُ ما كانا، فلم نزل نَفعَلُ ذلك، كُلَّما فَتَحنا التنُّورَ وكَشَفنا عَنِ البُرمَةِ، وجَدناهُما أَملأَ ما كانا، حتى شَبِعَ المسلمونَ كُلُّهُم، وبَقِيَ طائِفَةٌ منَ الطعامِ، فقال لَنا رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الناسَ قد أَصابَتهُم مَخمَصَةٌ، فَكُلوا وأَطعِموا**»، فلم نزل يَومَنا نَأكُلُ ونُطعِمُ».

ومِمَّا وَرَدَ أَيضًا من حديثِ الخَندَقِ، مِمَّا يُشبهُ حَديثَ جابرٍ:

قال ابنُ إسحاقَ: حَدَّثَني سَعيدُ بن ميناء، أَنَّهُ حُدِّثَ أَنَّ ابنَةً لِبَشيرِ بن سَعدٍ، أُختَ النُّعمانِ بن بَشيرٍ[4]، قالت: دَعَتني أُمِّي عَمرَةُ بنتُ رَواحَةَ، فَأَعطَتني حَفنَةً من تَمرٍ في

---

(١) دليل الفالحين (٤/ ٤٨٤).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٩٨).

(٣) أي: دعا بالبركة.

(٤) لعلها: أميمة، ويقال: أبية، قال ابن سعد: «أميمة- ويقال: أبية- بنت بشير بن سعد بن ثعلبة، وأمها عمرة بنت رواحة، وهي أخت النعمان بن بشير لأبيه وأمه، أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ». الطبقات الكبرى (٨/ ٢٧٠).

ثَوبي، ثم قالت: أَي بُنَيَّةُ، اذهَبي إلى أَبيكَ وخالِكَ عبدِ اللهِ بن رَواحَةَ بغَدائِهما، قالت: فَأَخَذتُها، فانطَلَقتُ بها، فَمَرَرتُ برسولِ اللهِ ﷺ، وأَنا أَلتَمِسُ أَبي وخالي، فقال: «**تَعالَي يا بُنَيَّةُ، ما هذا معكِ؟**».

قالت: فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، هذا تَمْرٌ، بَعَثَتني بهِ أُمِّي إلى أَبي بَشيرِ بن سَعدٍ، وخالي عبدِ اللهِ بن رَواحَةَ، يَتَغَدَّيانِهِ، قال: «**هاتيهِ**».

قالت: فَصَبَبتُهُ في كَفَّي رسولِ اللهِ ﷺ، فَما مَلَأَتهُما، ثم أَمَرَ بثَوبٍ فَبُسِطَ له، ثم دَحا بالتمرِ عليه[1]، فَتَبَدَّدَ فَوقَ الثَّوب، ثم قال لِإنسانٍ عِندَهُ: «**اُصرُخ في أَهلِ الخَندَقِ: أَن هَلُمَّ إلى الغَداءِ**».

فاجتَمع أَهلُ الخَندَقِ عليه، فَجَعَلوا يَأكُلونَ منه، وجَعَلَ يَزيدُ، حتى صَدَرَ أَهلُ الخَندَقِ عنه، وإِنَّهُ ليسقُطُ من أَطرافِ الثَّوب[2].

وهذا إسنادٌ ضعيفٌ؛ لجَهالَةِ الواسِطَةِ بينَ ابنَةِ بَشيرِ بن سعدٍ وسعيدِ بن ميناءَ.

وقال **الحافظُ ابنُ كَثيرٍ**: «هَكذا رواهُ ابنُ إسحاقَ، وفيه انقِطاعٌ»[3].

بَعضُ الفَوائِدِ المستَفادةِ من حديثِ وليمَةِ أهلِ الخندَقِ:

* **فيه**: مُعجِزَةٌ ظاهِرةٌ من مُعجِزاتِ النبيِّ ﷺ، ظهَرَت في تكثير الطَّعامِ الذي لا يَكادُ يكفي إلا النفَرَ اليسيرَ، فبارَكَ اللهُ فيه حتى كَفى الألفَ، وبَقيَ كَما هو.

* **وفيه**: بَرَكَةُ ريقِهِ ﷺ، والتبَرُّكُ بريقِه وآثارِه من خُصوصيَّاتِه ﷺ، ولا يُقاسُ عليه غيرُه.

قال الشَّيخُ عبدُ الرحمنِ بن حسَنٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَمَّا ما ادَّعاهُ بعضُ المتَأَخِّرين من أَنَّه يجوزُ التَّبرُّكُ بآثارِ الصالحينَ فمَمنوعٌ من وُجوهٍ: منها: أَنَّ السَّابقينَ الأَوَّلين من الصحابَة

---

(١) أي: بسطه عليه.

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٨).

(٣) البداية والنهاية (٦/ ٢٥).

ومَن بعدَهم لَم يكونوا يفعلون ذلك مع غيرِ النبيّ ﷺ، لا في حَياتَه، ولا بعدَ موته، ولو كان خيرًا لَسَبَقونا إلَيه، وأفضلُ الصحابَة أبو بكرٍ وعمَرُ وعثمانُ وعَليٌّ رضي الله عنهم، وقد شَهِدَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ فيمَن شَهِدَ لَه بالجَنَّةِ، وما فَعَله أحدٌ منَ الصحابَة والتابعينَ مع أحَدٍ من هؤُلاءِ السَّادةِ، ولا فَعَلَه التابعون مع سادَتِهم في العلمِ والدِّينِ، وهُمُ الأُسوَةُ، فلا يجوزُ أن يُقاسَ على رسولِ اللهِ ﷺ أحَدٌ من الأمَّة، وللنبيّ ﷺ في حالِ الحياةِ خصائِصُ كثيرةٌ لا يَصلُح أن يُشارِكَه فيها غيرُه.

ومنها: أنَّ في المَنعِ من ذلك سَدًّا لذريعَةِ الشِّركِ، كَما لا يَخفى»[1].

* وفيه: بَيانُ فضلِ الصحابَة رضي الله عنهم، وما كانوا عليه من الجِهادِ والصبرِ وقوَّةِ التحَمُّل، من أجلِ نُصرَةِ الدِّينِ، وإعزازِ أهلِ الإسلامِ.

* وبَيانُ ما كانوا فيه من حالِ الفقرِ، وضيقِ العَيشِ، وقِلَّةِ الشَّيءِ.

* وفيه: أنَّ المؤمِنَ لا يفقِدُ الأمَلَ، ويُحسِنُ الظَّنَّ باللهِ، ولو كان في حالٍ شديدةٍ من الخوفِ، والفقرِ، وتَرَبُّصِ العَدوّ، وتَحَزُّب الأحزاب.

عَن خَبَّابٍ رضي الله عنه، قال: أَتَيتُ النبيَّ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُردَةً، وهو في ظِلِّ الكَعبَةِ، وقد لَقينا منَ المشرِكينَ شِدَّةً، فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَلا تَدعو اللهَ؟ فَقَعَدَ وهو مُحمَرٌّ وجهُهُ، فقال: «**لَقد كان مَن قَبلَكُم لَيُمشَطُ بمِشاطِ الحَديدِ، ما دونَ عِظامِهِ من لَحمٍ أو عَصَبٍ، ما يَصرِفُهُ ذلك عن دينِهِ، ويوضَعُ المنشارُ على مَفرِقِ رَأسِهِ، فَيُشَقُّ باثنَينِ، ما يَصرِفُهُ ذلك عن دينِهِ، ولَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأَمرَ حتى يَسيرَ الراكِبُ من صَنعاءَ إلى حَضرَمَوتَ، ما يَخافُ إلا اللهَ، والذِّئبَ على غَنَمِهِ**»[2].

* **وفيه**: جَوازُ المسارَّةِ بالحاجَةِ في حَضرَةِ الجَماعَةِ، وإنَّما المَنهيُّ: أَن يَتَناجى اثنانِ دونَ الثَّالِثِ.

---

(١) فتح المجيد (ص١٤٢).

(٢) رواه البخاري (٣٨٥٢).

* وفيه: أنَّه يجوزُ للضَّيفِ أن يدعوَ إلى بيتِ مَن أضافَه مَن يعلَمُ رِضاهُ مُصاحَبَتَهُ إلى بَيتِه، **وبَوَّبَ النَّوَويُّ للحَديثِ**: «باب جَوازِ استِتباعِهِ غيرَهُ إلى دارِ مَن يَثِقُ برِضاهُ بذلك، ويَتَحقَّقُهُ تَحقُّقًا تامًّا».

فَإن تَبعَه مَن لَم يُدعَ لبَيتِ المضيفِ، ولا يعلَمُ رِضاهُ، فإنَّه لا يأذَنُ لَه، فإن أصَرَّ وبلغَ دارَ المضيفِ أعلَمَه، فيَأذَنُ لَه، أو يمنَعُه.

عن أَبي مَسعودٍ الأَنصاريِّ، قال: كان رجلٌ منَ الأَنصارِ يُقالُ له: أَبو شُعَيبٍ، وكان له غُلامٌ لَحَّامٌ، فَرَأى رسولَ اللهِ ﷺ، فَعَرَفَ في وجهِهِ الجوعَ، فقال لِغُلامِهِ: ويحَكَ! اصنَع لَنا طَعامًا لِخَمسَةِ نَفَرٍ؛ فَإِنِّي أُريدُ أَن أَدعوَ النبيَّ ﷺ خامِسَ خَمسَةٍ، قال: فَصَنَعَ، ثم أَتى النبيَّ ﷺ، فَدَعاهُ خامِسَ خَمسَةٍ، واتَّبَعَهُم رجلٌ، فلما بلغَ البابَ، قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ هذا اتَّبَعَنا، فَإن شِئتَ أَن تَأذَنَ له، وإن شِئتَ رجعَ**»، قال: لا، بَل آذَنُ له يا رسولَ اللهِ[1].

وبَوَّبَ له النوويُّ: «بابُ ما يَفعَلُ الضَّيفُ إذا تَبعَهُ غيرُ مَن دَعاهُ صاحِبُ الطعامِ، واستِحباب إذنِ صاحِبِ الطعامِ للتَّابِعِ»، **وقال النَّوَويُّ**: «فيه أَنَّ المَدعوَّ إذا تَبعَهُ رجُلٌ بغيرِ استِدعاءٍ ينبَغِي لَه أن لا يأذَنَ له وينهاهُ، وإذا بلغَ بابَ دارِ صاحِبِ الطعامِ أَعلَمَهُ بهِ؛ ليَأذَنَ له، أو يَمنَعَهُ، وأَنَّ صاحِبَ الطعامِ يُستَحَبُّ له أَن يَأذَنَ له إن لَم يَترَتَّب على حُضورِهِ مَفسَدَةٌ، بأَن يُؤذيَ الحاضِرينَ، أو يُشيعَ عنهم ما يَكرَهونَهُ، أو يكونَ جُلوسُهُ معهم مُزريًا بهِم؛ لِشُهرَتِهِ بالفِسقِ، ونَحوِ ذلك.

فَإن خيفَ من حُضورِهِ شيءٌ من هذا لَم يَأذَن له، ويَنبَغي أَن يَتَلَطَّفَ في رَدِّهِ، ولو أَعطاهُ شَيئًا منَ الطعامِ إن كان يَليقُ بهِ ليكونَ رَدًّا جَميلًا كان حَسَنًا»[2].

* وفي الحَديثِ: فَضلُ المَرأَةِ الصالِحَةِ العاقِلَةِ، وأَنَّها نِعمَ العَون لزَوجِها في أمر دينِه وأمرِ

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٢٠٨).

دُنياه، وعن عبدِ اللهِ بن عَمرٍو، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**الدُّنيا مَتاعٌ، وخَيرُ مَتاعِ الدُّنيا المَرأَةُ الصالِحَةُ**»(١).

* وفيه: الدُّعاءُ بالبَرَكَةِ، وأنَّه يكونُ سببًا في كِفايَةِ الطعامِ القَليلِ للعَدَدِ الكَثيرِ.

* وفيه: الرِّفقُ عندَ الدُّخولِ على صاحِبِ الوليمةِ، وعَدَمُ التضاغُطِ.

* وفيه: التحَلُّق جماعاتٍ عندَ تناوُلِ الطعامِ، وأنَّ المكان إذا كان لا يَسَعُ الناسَ، فإنَّ الجماعَةَ التي أكلَت تَنصَرِفُ، وتَأتي جماعةٌ أُخرى، وهَكذا.

وقد تَقدَّمَ في بعضِ رِواياتِ الحَديثِ: «فَدَخَلَ رسولُ الله ﷺ، فَدَعا الله عَزَّوَجَلَّ على القِدرِ والتنُّورِ، ثم قال: «**اخرُجي واثرُدي**»، ثم أَقعَدَهُم عَشَرَةً عَشَرَةً، فَأَدخَلهم فَأَكَلوا، وأَكَلنا، وأَهدَينا لِجيرانِنا، فلما خرجَ رسولُ الله ﷺ ذَهَبَ ذلك».

وفي **رواية**: «فَجَلَسَ، وأَخرَجناها إليه، فَبَرَّكَ، وسَمَّى، ثم أَكَلَ، وتَوارَدَها الناسُ، كُلَّما فَرَغَ قَومٌ قاموا وجاءَ ناسٌ، حتى صَدَرَ أَهلُ الخَندَقِ عنها».

* وفيه: أنَّ الإلتِزامَ بأمرِ النبيِّ ﷺ فيه الخَيرُ والبَرَكَةُ.

* وفيه: تَمامُ يَقينِه ﷺ، وحُسن ظَنِّه برَبِّه تعالى.

* وفيه: أن النصرَ والعِزَّةَ والرِّفعَةَ للإسلامِ ولأهلِه، وإن سَبَقَ ذلك الشِّدَّةُ والبلاءُ والضَّعفُ، فعلى أهلِ الإسلامِ أن يُحسِنوا الظَّنَّ برَبِّهم، ولا يُشرِكوا به شَيئًا، ويأخُذوا بأسباب النّصرِ والعِزَّةِ، وأوَّلُ ذلك: الإيمانُ والعَمَلُ الصالِحُ؛ فعن أُبَيِّ بن كَعبٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**بَشِّر هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ، والرِّفعَةِ، والدِّينِ، والنصرِ، والتمكينِ في الأَرضِ، فَمَن عَمِلَ منهم عَمَلَ الآخِرَةِ للدُّنيا، لَم يَكُن له في الآخِرَةِ نَصيبٌ**»(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٤٦٧).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢١٢٢٠)، وابن حبان (٤٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٢٥).

* وفيه: قيامُ الزَّوجَةِ على خِدمَةِ أضيافِ زَوجِها[1].

* وفيه: الحَثُّ على إكرامِ الضَّيفِ، وأنَّه من الإيمانِ، ويُعقِبُ البَركةَ والفَضلَ والرحمَةَ منَ اللهِ.

* وفيه: أنَّ اللهَ تعالى هو الرزَّاقُ، يرزُقُ مَن يَشاءُ بغيرِ حِسابٍ.

* وفيه: أنَّ اللهَ تعالى هو مُسَبِّبُ الأسباب، وأنَّ كُلَّ شيءٍ بقضائِه وقدرِه، وأنّ الأسبابَ خَلقُه ومِلكُه، وأنَّه يَملِكُ تَعطيلها عن مُقتَضَياتِها وآثارِها.



(١) مع مراعاة الأحكام الشرعية، من التحجب، وعدم الاختلاط، وغير ذلك.

١٣

المِقدادُ والأَعنُزُ

المِقدادُ والأَعنُزُ

عَنِ المِقدادِ بن عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَقبَلتُ أَنا وصاحِبانِ لي، وقد ذَهَبَت أَسماعُنا وأَبصارُنا منَ الجَهدِ، فَجَعَلنا نَعرِضُ أَنفُسَنا على أَصحاب رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَليس أَحَدٌ منهم يَقبَلُنا، فَأَتَينا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فانطَلَقَ بنا إلى أَهلِهِ، فإذا ثَلاثَةُ أَعنُزٍ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احتَلِبوا هذا اللَّبَنَ بينَنا**».

قال: فَكُنَّا نَحتَلِبُ، فَيَشرَبُ كُلُّ إنسانٍ مِنَّا نَصيبَهُ، ونَرفَعُ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصيبَهُ، قال: فَيَجيءُ منَ اللَّيلِ فَيُسَلِّمُ تَسليمًا لا يوقِظُ نائِمًا، ويُسمِعُ اليَقظانَ، قال: ثم يَأتي المسجدَ فَيُصَلِّي، ثم يَأتي شَرابَهُ فَيَشرَبُ.

فَأَتاني الشَّيطانُ ذاتَ لَيلَةٍ وقد شَرِبتُ نَصيبي، فقال: محمدٌ يَأتي الأَنصارَ فَيُتحِفونَهُ، ويُصيبُ عِندَهُم، ما بِهِ حاجَةٌ إلى هذه الجُرعَةِ، فَأَتَيتُها فَشَرِبتُها، فلما أَن وغَلَت في بَطني، وعَلِمتُ أَنَّهُ ليس إلَيها سَبيلٌ، قال: نَدَمَني الشَّيطانُ، فقال: ويحَكَ! ما صَنَعتَ؟ أَشَرِبتَ شَرابَ محمدٍ، فَيَجيءُ فلا يَجِدُهُ، فَيَدعو عليكَ، فَتَهلِكُ، فَتَذهَبُ دُنياكَ وآخِرَتُكَ؟ وعَلَيَّ شَملَةٌ إذا وضَعتُها على قَدَمَيَّ خرجَ رَأسي، وإذا وضَعتُها على رَأسي خرجَ قَدَمايَ، وجَعَلَ لا يَجيئُني النومُ، وأَمَّا صاحِبايَ: فَناما، ولَم يَصنَعا ما صَنَعتُ.

قال: فَجاءَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَلَّمَ كَما كان يُسَلِّمُ، ثم أَتى المسجدَ فَصَلَّى، ثم أَتى شَرابَهُ فَكَشَفَ عنه، فلم يَجِد فيه شَيئًا، فَرَفَعَ رَأسَهُ إلى السَّماءِ، فَقُلتُ: الآنَ يَدعو عَلَيَّ فَأَهلِكُ، فقال: «**اللهُمَّ أَطعِم مَن أَطعَمَني، وأَسقِ مَن سقاني**».

قال: فَعَمَدتُ إلى الشَّملَةِ فَشَدَدتُها عَلَيَّ، وأَخَذتُ الشَّفرَةَ، فانطَلَقتُ إلى الأَعنُزِ أَيُّها أَسمَنُ، فَأَذبَحُها لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا هي حافِلَةٌ، وإذا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ، فَعَمَدتُ

إلى إناءٍ لِآلِ محمدٍ ﷺ ما كانوا يَطمَعونَ أَن يَحتَلِبوا فيه، قال: فَحَلَبتُ فيه حتى عَلَتهُ رَغوَةٌ، فَجِئتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: «**أَشَربتُم شَرابَكُمُ اللَّيلَةَ؟**»، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، اشرَب، فَشَرِبَ، ثم ناوَلَني، فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، اشرَب، فَشَرِبَ، ثم ناوَلَني، فلما عَرَفتُ أَنَّ النبيَّ ﷺ قد رَوِيَ وأَصَبتُ دَعوَتَهُ، ضَحِكتُ حتى أُلقيتُ إلى الأَرضِ، قال: فقال النبيُّ ﷺ: «**إحدى سَوآتِكَ يا مِقدادُ**»، فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، كان من أَمري كذا وكذا، وفَعَلتُ كذا، فقال النبيُّ ﷺ: «**ما هذه إلا رَحمَةٌ منَ اللهِ، أَفلا كُنتَ آذَنتَني، فَنوقِظَ صاحِبينا، فَيُصيبانِ منها؟**»، قال: فَقُلتُ: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما أُبالي إذا أَصَبتَها وأَصَبتُها معكَ، مَن أَصابَها منَ الناسِ[1].

تَرجَمَةُ المِقدادِ بن عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو المِقدادُ بن عمرِو بن ثعلَبَةَ بن مالكِ بن ربيعةَ بن ثُمامةَ بن مَطرودٍ، البهرانيُّ، الكِنديُّ، أبو الأسودِ الزُّهريُّ، ويُقالُ: أبو عمرٍو، ويُقالُ: أبو مَعبَدٍ، المَعروفُ بالمِقدادِ بن الأسوَدِ، وقيلَ غيرُ ذلك في نَسَبه، كان أبوه حليفًا لبَني كِندَةَ، وكان هو حليفًا للأسودِ بن عبدِ يَغوثَ الزُّهريِّ، فتبَنَّاهُ الأسودُ، فنُسِبَ إليه، فصارَ يُقالُ: المِقداد بن الأسودِ، وغلَبَت عليه، واشتُهِرَ بذلك، فلَمَّا نزلَت: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، قيلَ له: المِقدادُ بن عمرٍو، واشتُهِرَت شُهرَتُه بابنِ الأسوَدِ.

أسلَم قديمًا، وتزَوَّجَ ضُباعَةَ بنتَ الزّبيرِ بن عبدِ المطَّلب، ابنَةَ عَمّ النَّبيِّ ﷺ، وهاجَرَ الهِجرتَينِ، وشَهِدَ بَدرًا والمَشاهِدَ بعدَها، وكان فارِسًا يَومَ بَدرٍ، حتى إنَّه لَم يَثبُت أَنَّهُ كان فيها على فَرَسٍ غيرُهُ.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٥٥)، وأحمد (٢٣٨٠٩)، (٢٣٨١٢)، (٢٣٨٢٢)، والترمذي (٢٧١٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٨٢)، والطيالسي (١٢٥٦)، وابن أبي شيبة في مسنده (٤٨٧)، والبزار (٢١١٠)، وأبو عوانة (٨٣٩٧)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٤٢)، وأبو يعلى في مسنده (١٥١٧)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٤٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٦٦٤١)، وهناد في الزهد (٢/ ٣٩٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٥٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٧٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ٣٧٧)، (٦٠/ ١٤٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٨٥)، وإسماعيل الأصبهاني في دلائل النبوة (ص١٣٣).

روى عنِ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعنه عَليُّ بن أبي طالِبٍ، وأَنَسُ بن مالِكٍ، وعُبيدُ اللهِ بنُ عَديِّ بن الخيارِ، وهَمَّامُ بن الحارِثِ، وسُليمانُ بن يَسار، وسليمُ بنُ عامِرٍ، وأبو مَعمرٍ عبدُ اللهِ بن سَخبَرَةَ الأزديُّ، وعبدُالرحمَنِ بن أبي ليلى، وجُبَيرُ بنُ نُفَيرٍ، وعمرُ بن إسحاقَ، وزَوجَتُه ضُباعَةُ بنتُ الزُّبَيرِ بن عبد المطَّلِب، وابنتُه كَريمةُ بنتُ المِقدادِ.

وعنِ المَدائنيِّ، قال: «كان المِقدادُ طَويلًا، آدَمَ، كَثيرَ الشّعرِ، أَعيَنَ[1]، مَقرونًا[2]، يُصَفِّر لِحيَتَه».

وعن عبدِ اللهِ بن مَسعودٍ، قال: «كان أَوَّلَ مَن أَظهَرَ إسلامَهُ سَبعَةٌ: رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَبو بكرٍ، وعَمَّارٌ، وأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وصُهَيبٌ، وبلالٌ، والمِقدادُ»[3].

وعَنِ القاسِمِ بن عبدِ الرحمَنِ، قال: «أَوَّلُ مَن عَدا بهِ فَرَسُهُ في سَبيلِ اللهِ المِقدادُ بن الأَسوَدِ»[4].

وكان منَ الرُّماةِ المَذكورينَ من أَصحاب رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعن ابنَ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** شَهِدتُ منَ المِقدادِ بن الأَسوَدِ مَشهَدًا، لَأَن أَكونَ صاحِبَهُ أَحَبُّ إلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بهِ، أَتى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يَدعو على المشرِكينَ، فقال: «لا نَقولُ كَما قال قَومُ موسى: «اذهَب أَنتَ ورَبُّكَ فَقاتِلا»، ولكنَّا نُقاتِلُ عن يَمينِكَ، وعن شِمالِكَ، وبينَ يَدَيكَ، وخَلفَكَ».

فَرَأَيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشرَقَ وجهُهُ وسَرَّهُ - يَعني قَوله[5].

وعن أَبي راشِدٍ الحُبرانيِّ، قال: وافَيتُ المِقدادَ بن الأَسوَدِ فارِسَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) يقال: رجل أعين: واسع العين، بين العين. الصحاح (٦/ ٢١٧٢).

(٢) القرن: أن يلتقي طرف الحاجبين، يقال: رجل أقرن ومقرون الحاجبين. تهذيب اللغة (٩/ ٨٧).

(٣) رواه ابن ماجه (١٥٠)، وأحمد (٣٨٣٢)، وابن حبان (٧٠٨٣)، وحسنه محققو المسند.

(٤) الطبقات الكبرى (٣/ ١٢٠).

(٥) رواه البخاري (٣٩٥٢).

جالِسًا على تابوتٍ[١] من تَوابيتِ الصيارِفَةِ بحِمصَ، قد فَضُلَ عنه من عِظَمِهِ، يُريدُ الغَزوَ، فَقُلتُ له: لَقد أَعذَرَ اللهُ إليك[٢]، فقال: «أَتَت علينا سورَةُ البحوثِ[٣]: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]»[٤].

اتَّفَقوا على أَنَّهُ ماتَ سنةَ ثَلاثٍ وثَلاثينَ في خِلافةِ عُثمانَ، قيلَ: وهو ابنُ سَبعينَ سنَةً، ماتَ بـ«الجُرُف»، على ثَلاثةِ أميالٍ من المَدينةِ، وحُمِلَ إلى المَدينةِ، ودُفِنَ بها، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥].

شرح الحديث:

قَولُهُ: «أَقبَلتُ أَنا وصاحِبانِ لي، وقد ذَهَبَت أَسماعُنا وأَبصارُنا منَ الجَهدِ»:

«ذَهَبَت أَسماعُنا وأَبصارُنا»، أي: ضَعُفَت، حتى قارَبَتِ الذَّهابَ[٦].

و**«الجَهد»** -بفَتحِ الجيمِ-: الجوعُ والمَشَقَّةُ[٧].

الفرق بين الجَهد والجُهد:

قال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَكَرَّرَ لَفظُ الجَهد والجُهد في الحَديثِ كَثيرًا، وهو بالضَّمِّ: الوُسع والطاقة، وبالفَتح: المَشَقَّة، وقيلَ: المبالَغة والغايَة.

وقيلَ: هُما لُغتان في الوُسع والطاقَة، فأمَّا في المَشَقَّة والغاية: فالفَتحُ لا غيرَ»[٨].

---

(١) صندوق.

(٢) **قال الخطابي**: «معناه: بلغ بك موضع العذر، يتأول قوله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥]، وجعل ثقل البدن بمنزلة المرض والزمانة اللذين يرخصان في ترك الجهاد». غريب الحديث (٢/ ٣٥٨).

(٣) هي سورة التوبة، سميت بذلك؛ لأنها بحثت عن سرائر المنافقين. زاد المسير (٢/ ٢٣٠).

(٤) تفسير الطبري (١١/ ٤٧٣).

(٥) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٨٥-٢٨٧)، الإصابة (٦/ ١٦٠-١٦١)، الطبقات الكبرى (٣/ ١١٩)، معرفة الصحابة (٥/ ٢٥٥٢-٢٥٥٥)، أسد الغابة (٥/ ٢٤٢)، سير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٥-٣٨٩).

(٦) المفهم (١٧/ ٤٤).

(٧) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٣).

(٨) النهاية (١/ ٣٢٠).

وقال **ابنُ مَنظورٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الجَهدُ والجُهدُ: الطاقَةُ، تَقولُ: اجهَد جَهدَك، وقيلَ: الجَهد المَشَقَّةُ، والجُهد الطاقَةُ، وقال اللَّيثُ: «الجَهدُ ما جَهَد الإنسانَ من مَرَضٍ أو أَمرٍ شاقٍّ، فَهو مَجهودٌ، والجُهدُ لُغَة بهذا المعنى»[(١)].

وقال **الجَوهَريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الفَراءُ: «الجُهدُ -بالضَّمِّ- الطاقَةُ، والجَهدُ -بالفَتحِ- من قَولِكَ: اجهَد جَهدَكَ في هذا الأَمرِ، أي ابلُغ غايَتَك، ولا يُقالُ اجهَد جُهدَكَ».

والجَهدُ: المشقَّةُ، يُقالُ: جَهَدَ دابَّتَه وأَجهَدَها، إذا حمَلَ عليها في السَّير فَوقَ طاقَتِها»[(٢)].

وقال **أبو حَيَّانَ الأندَلُسيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ في **قَولِهِ تعالى**: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩]: «قَرَأَ ابنُ هُرمُزَ وجَماعَةٌ: «جَهدَهُم»، بالفَتحِ، فَقيلَ: هُما لُغَتانِ بمَعنًى واحدٍ، وقال القُتَبيُّ: «بالضَّمِّ الطاقَةُ، وبالفَتحِ المَشَقَّةُ»[(٣)].

وقال **الفَيروزآبادي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الجَهدُ: الطاقَةُ، ويُضَمُّ، والمَشَقَّةُ.

واجهَد جَهدَكَ: ابلُغ غايَتَكَ.

وجَهَدَ، كمَنَعَ: جَدَّ، كاجتَهَدَ، وجَهَدَ دابَّتَه: بلغَ جَهدَها، كأَجهَدَها»[(٤)].

والخُلاصَةُ:

أنك إذا أردتَ الوُسعَ والطاقَةَ فيجوز الفَتحُ والضَّمُّ، فيُقالُ: بَذَلَ جُهدًا كبيرًا، وهذا غايَةُ الجُهد، أو بَذلَ جَهدًا كبيرًا، وهذا غايةُ الجَهدِ.

وإذا أردتَ المَشقَّةَ: فالفَتحُ لا غيرَ، فيُقالُ: ناله الجَهد والتعبُ.

وعِندَ **أَحمَدَ**: «قدِمتُ أَنا وصاحِبانِ لي على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَصابَنا جوعٌ شَديدٌ».

هذا مِمَّا يُبَيِّنُ ما كان عليه أصحابُ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَ الجَهدِ والمَشَقَّةِ.

---

(١) لسان العرب (٣/ ١٣٣).

(٢) الصحاح (٢/ ٤٦٠).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٤٦٩).

(٤) القاموس المحيط (ص٢٧٥).

قَولُهُ: «فَجَعَلنا نَعرِضُ أَنفُسَنا على أَصحاب رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَليس أَحَدٌ منهم يَقبَلُنا»:**

ولأحمَدَ: «فتَعَرَّضنا للناسِ، فلم يُضِفنا أَحَدٌ».

ولأبي يَعلى: «فَطَلَبنا هَل يُضيفُنا أَحَدٌ؟ فلم يُضِفنا أَحَدٌ».

قال أبو العباسِ القُرطُبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَولُهُ: «**فَجَعَلنا نَعرِضُ أَنفُسَنا**»، أي: نتعرَّضُ لهم ليُطعِمونا؛ وذلك لشِدَّةِ ما كانوا عليه منَ الجوعِ والضَّعفِ.

«**فَليس أَحَدٌ منهم يَقبَلُنا**»، أي: يُطعِمُنا، وظاهرُ حالِهم: أنَّ ذلك الإمتِناعَ مِمَّن تَعَرَّضوا لهم إنَّما كان لِأَنَّهم ما وجَدوا شيئًا يُطعِمونَهم إيَّاه، فإنَّ الوقتَ كان شديدًا عليهم»[1].

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا محمولٌ على أَنَّ الذينَ عَرَضوا أَنفُسَهُم عليهم كانوا مُقِلِّينَ، ليس عِندَهُم شيءٌ يواسونَ بهِ»[2].

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَعَلَّ الصحابَةَ في ذلك الوَقتِ كانوا منَ القِلَّة والجَهدِ حَيثُ كان ذلك موجِبَ قُعودِهِم عنِ القيامِ بهِم»[3].

وفي الصحيحَينِ عن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إنِّي مَجهودٌ، فَأَرسَلَ إلى بَعضِ نِسائِهِ، فقالت: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما عِندي إلا ماءٌ، ثم أَرسَلَ إلى أُخرى، فقالت مِثلَ ذلك، حتى قُلنَ كُلُّهُنَّ مِثلَ ذلك: لا، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما عِندي إلا ماءٌ»[4].

فكان حالُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَوَّلَ الإسلامِ في الغايةِ منَ الجَهدِ وقِلَّةِ الشَّيءِ.

---

(١) المفهم (١٧/ ٤٤).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٣).

(٣) إكمال المعلم (٦/ ٥٤٤).

(٤) رواه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤)، واللفظ له.

قَولُهُ: «فَأَتَينا النبيَّ ﷺ، فانطَلَقَ بنا إلى أَهلِهِ»:

وللطَّيالِسِيّ: «حتى انطَلَقَ بنا رسولُ اللهِ ﷺ إلى رَحلِهِ».

والرحلُ: المَنزِلُ والمَسكَنُ، يُقالُ: انتَهَينا إلى رِحالِنا، أَي: إلى مَنازلنا[1].

وعِندَ أَحمَدَ: «فَأَتَينا النبيَّ ﷺ فَذكرنا له، فَذَهَبَ بنا إلى مَنزِلِهِ».

ولأبي يَعلى، وابنِ عَساكِر: «فَأَتَينا رسولَ اللهِ ﷺ، فَقُلنا: يا رسولَ اللهِ، أَصابَنا جوعٌ وجَهدٌ، وإنَّا تَعَرَّضنا هَل يُضيفُنا أَحَدٌ؟ فلم يُضِفنا أَحَدٌ»

قَولُهُ: «فإذا ثَلاثَةُ أَعنُزٍ»:

قال المبارَكفوريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كذا في النُّسَخِ الموجودةِ، بالتاءِ، وكذلك في صَحيحِ مسلمٍ.

والظَّاهِرُ أَن يكونَ: «ثَلاثُ أَعنُزٍ»، بغيرِ التاءِ، قال في القاموسِ: «العنزُ: الأُنثى منَ المَعزِ، والجَمعُ: أَعنُزٌ وعُنوزٌ وعِنازٌ»[2].

وقد رواهُ هاشِمُ بن القاسِمِ عِندَ أَحمَدَ، وأَبو داوُدَ الطيالِسِيّ عِندَ أبي نُعَيم، عن سُلَيمانَ بن المغيرَةِ عن ثابتٍ البُنَانِيِّ، عن عبدِ الرحمَنِ بن أَبي لَيلى، عَنِ المِقدادِ، بلفظِ: «ثَلاثُ أَعنُزٍ».

ورواهُ الطيَالِسِيُّ في مُسنَدِه، ومسلمٌ في صحيحِه وابنِ أبي شَيبَةَ في المسنَدِ من طريقِ شَبابَةَ بن سَوَّارٍ، وابنُ سعدٍ في الطَّبقاتِ من طريقِ هاشِم بن القاسِمِ، والتِّرمذيُّ من طريقِ ابنِ المبارَك، والبزَّارُ من طريقِ عبدِ المَلِكِ بن عَمرٍو، خَمسَتُهُم عن سُلَيمانَ بن المغيرةِ به، بلفظِ: «ثَلاثَةُ أَعنُزٍ».

فالحديثُ بلفظِ: «ثَلاثَةُ أَعنُزٍ» أَصَحُّ من حَيثُ الرِّوايَةُ من «ثَلاثُ أَعنُزٍ».

ورواهُ أَحمَدُ من طريقِ حمَّادَ بن سَلَمَةَ، عن ثابتٍ بهِ، بلفظِ: «وعِندَهُ أَربَعُ أَعنُزٍ».

---

(١) عمدة القاري (١٣/ ٢٢٨).

(٢) تحفة الأحوذي (٧/ ٤١٨).

ورواهُ الطَّبَرانيّ في الكبيرِ، ومن طريقِه أبو نُعَيم في الطِّبِّ النبَويّ، من طريقِ حجَّاج بن المنهال، وهدبةَ بن خالِدٍ، وأبو يَعلى في مُسنَدِه، ومن طريقِه ابنُ عساكِر في تاريخِه، من طريقِ هدبَةَ، وهَنَّادٌ في الزُّهدِ عن قَبيصَةَ، ثَلاثَتُهم عن حمَّاد بن سَلَمَةَ، عن ثابتٍ به، بلفظِ: «أَربَعَة أَعنُزٍ».

ورواهُ الطحاويُّ في شَرحِ مُشكلِ الآثارِ عن بَكَّارِ بن قُتَيبَةَ، عن أبي داوُدَ الطيالِسيّ، حَدَّثَنا سُلَيمانُ بن المغيرَةِ قال: حَدَّثَنا ثابتٌ به، بلفظِ: «أَربَعَةُ أَعنُزٍ»، وبَكَّار لَم نَرَ مَن وثَّقَهُ سِوى ابنِ حِبَّانَ، والصحيحُ عنِ الطيالِسيِّ -كَما تَقدَّمَ-: «ثَلاثَةُ أَعنُزٍ».

وإذا اختلَفَ حمَّادُ بن سلَمَةَ وسُليمانُ بن المغيرةِ في ثابتٍ فالقَولُ قولُ حَمَّادَ؛ لِأَنَّه أوثَقُ الناسِ في ثابتٍ، كَما نَصَّ عليه غيرُ واحدٍ من أهلِ العِلمِ:

قال الدُّوريُّ عنِ ابنِ مَعين: «مَن خالَف حمَّادَ بن سلَمةَ في ثابتٍ، فالقولُ قولُ حمَّاد»[١].

وقيلَ ليَحيى: أَيُّما أَحَبُّ إليكَ في ثابتٍ: سُليمانُ بن المغيرةِ أو حَمَّاد بن سلَمةَ؟ قال: «كِلاهُما ثِقَةٌ ثَبتٌ، وحَمَّادُ بن سَلَمَة أعرَفُ بحديثِ ثابتٍ من سُلَيمانَ، وسُليمانُ ثِقَةٌ»[٢].

وقال عَليُّ بن المَدينيّ: «لَم يَكُن في أَصحاب ثابتٍ أَثبَتَ من حَمَّادِ بن سَلَمَةَ، ثم بعدَهُ سُلَيمانُ بن المغيرَةَ، ثم بعدَهُ حَمَّادُ بن زَيدٍ، وهي صِحاحٌ»[٣].

وقال الإمام أَحمَدُ: «ليس أَحَدٌ أثبَتُ ولا أعرَفُ بحَديثِ ثابتٍ من حَمَّاد»، ثم قال: «وسُليمانُ بن المغيرَة»[٤].

وقال أبو حاتِمٍ الرازيُّ والدارَقُطنيُّ: «حمَّادُ بن سَلَمَةَ أثبتُ الناسِ في ثابتٍ»[٥].

---

(١) تهذيب التهذيب (٣/ ١٢).

(٢) سؤالات ابن الجنيد (ص٣١٦).

(٣) العلل لا بن المديني (ص٧٢).

(٤) العلل ومعرفة الرجال (ص٣٥).

(٥) علل الحديث لابن أبي حاتم (٤/ ١٢)، علل الدارقطني (١٢/ ٢٧).

ويُجمَعُ بَينَ روايةِ الثّلاثةِ أَعنُزٍ والأربَعَةِ: بأنَّ روايةَ الأربَعَةِ مَحمولةٌ على إضافَةِ شاةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنَقَلَ ابنُ علّان عنِ الحافظِ ابنِ حَجَرٍ قَوله: «وروِّيناهُ من وجهٍ آخرَ، لكِنَّهُ مُرسَلٌ، عن مُجاهدٍ، قال: لَم يَبقَ أحدٌ من المهاجِرينَ مَقدَمَهُمُ المَدينَةَ إلا حَصَلَ له صِهرٌ أو سَبَبٌ يَنزِلُ عليه، إلا المِقداد وسَعد بن مالِكٍ وآخر، فنزَلوا مَنزِلًا واحدًا، وكانت لهم ثَلاثَةُ أَعنُزٍ، لِكُلِّ واحدٍ منهم عنزٌ،... فذكر الحَديثَ نحو ما تَقدَّمَ.

أخرَجَه أبو بكر بن أبي شَيبَةَ في المصَنَّفِ، ويَحيى بن سعيدٍ الأمَويّ في المَغازي، كِلاهُما من طريقِ عُمرَ بن ذَرٍّ، عن مُجاهِدٍ.

ولا تَنافيَ بَينَ قَولِهُ: «ثَلاثَة أَعنُزٍ»، و«أربَعَة»؛ لِأَنَّه مَحمولٌ على إضافَةِ شاةِ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي الأخرى لَم يَذكُرها؛ لِاختِصاصِه بها، واشتراكِ الثَّلاثَةِ في الثَّلاثَةِ، وقد وقَع في إحدى طُرُقِه: «فَوَقَعَت يَدُهُ على شاةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

واستَفَدنا من هذه الرِّوايَة تَسميَةَ أحَدِ صاحبَي المِقداد، وهو سَعد بن مالكٍ، ولَم نَقِف على تَسميَةِ الآخَر، وسَعدُ بن مالكٍ هو ابنُ أبي وقَّاصٍ، أحَدُ العَشرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»[1].

قَولُهُ: فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احتَلِبوا هذا اللَّبَنَ بينَنا**»:

احتَلَبَ الشَّاة ونَحوها: حَلَبَها[2].

فالمعنى: احلِبوا هذه الأَعنُز، واجعَلوا ما حَلَبتُموه منَ اللَّبَنِ قِسمةً بينَنا.

ولأَحمَدَ: «فقال لي: «**يا مِقدادُ، جَزِّئ أَلبانَها بينَنا أَرباعًا**»، فَكُنتُ أُجَزِّئُهُ بينَنا أَرباعًا».

وعِندَ أبي يَعلى، وابنِ عساكِر: «فَدَفَعَ إلَينا أَربَعَةَ أَعنُزٍ، فقال: «**يا مِقدادُ، خُذ هذه فاحتَلِبها، فَجَزِّئها أَربَعَةَ أَجزاءٍ: جُزءًا لي، وجُزءًا لَكَ، وجُزءين لِصاحِبَيكَ**».

---

(١) الفتوحات الربانية (٥/ ٢٥٢).

(٢) لسان العرب (١/ ٣٢٧)، المعجم الوسيط (١/ ١٩١).

قَولُهُ: «فَكُنَّا نَحتَلِبُ فَيَشرَبُ كُلُّ إنسانٍ مِنَّا نَصيبَهُ، ونَرفَعُ للنبيِّ ﷺ نَصيبَهُ»:

فيَقتَسِمون اللَّبَنَ بينهم، فيشرَبُ كُلٌّ منهم نَصيبَه، ويَرفَعونَ نَصيبَ النبيّ ﷺ إلى أَن يَأتيَ فَيَشربَه.

ولأبي يَعلى وابنِ عَساكِر: «فَكُنتُ أَفعَلُ ذلك، فلما كان ذاتَ لَيلَةٍ شَرِبتُ جُزئي، وشَرِبَ صاحِبايَ جُزئَيهِما، وجَعَلتُ جُزءَ النبيِّ ﷺ في القَعب، وأَطبَقتُ عليه».

و«**القَعب**»، **قال ابنُ منظورٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «القَعبُ: القدَحُ الضَّخمُ، وقيلَ: قدَحٌ من خَشَب مُقَعَّر؛ وقيلَ: هو قدَحٌ إلى الصغَر، يُشَبَّه بِهِ الحافرُ، وهو يُروي الرجلَ، والجَمعُ القَليلُ: أَقعُبٌ، والكَثيرُ: قِعابٌ وقِعَبةٌ»[1].

فائِدَةٌ:

قال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التِّبن: أَعظَمُ الأَقداحِ، يَكادُ يُروي العِشرينَ، ثم الصحنُ يُروي العَشَرَةَ، ثم العُسّ يُروي الثَّلاثَةَ، والأَربَعَةَ، ثم القدَح يُروي الرجُلَينِ، ثم القَعبُ يُروي الرجُلَ»[2].

و**قال ابنُ الأَعرابيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَوَّلُ الأقداحِ الغُمَرُ، وهو الذي لا يَبلُغُ الرِّيّ؛ ثم القَعبُ، وهو قدرُ ريِّ الرجُلِ، وقد يُروي الِاثنَينِ والثَّلاثَة، ثمَّ العُسُّ»[3].

و**قال أبو منصورٍ الثَّعالِبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَرتيبُ الأقداحِ عَنِ الأئِمَّةِ: أَوَّلُها الغُمَرُ وهو الذي لا يَبلُغُ الرِّيَّ، ثم القَعبُ يُروي الرجُلَ الواحدَ، ثم القدَحُ يُروي الاثنَينِ والثَّلاثَةَ، ثم العُسُّ يَعُبُّ فيه العِدَّةُ، ثم الرفدُ وهو أكبَر منَ العُسِّ، ثم الصحنُ وهو أَكبَرُ منَ الرفدِ، ثم التِّبنُ وهو أكبَرُ منَ الصحنِ.

وذَكَرَ حَمزَةُ الأصبهانيُّ في كِتاب الموازَنَةِ بعدَ الصحنِ: المِعلَقُ، ثم العُلبَةُ، ثم الجَنبَةُ، ثم الحَوأَبَةُ، وهي أكبَرُها»[4].

---

(١) لسان العرب (١/ ٦٨٣).

(٢) النهاية (١/ ١٨١).

(٣) تهذيب اللغة (١/ ١٨٦).

(٤) فقه اللغة (ص١٨٠).

قَولُهُ: «فَيَجيءُ منَ اللَّيلِ، فَيُسَلِّمُ تَسليمًا لا يوقِظُ نائِمًا، ويُسمِعُ اليَقظانَ»:

وهذا من تمامِ الأدَب، وحُسنِ المعاشَرَةِ، **قال النوَويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا فيه آدابُ السَّلامِ على الأَيقاظِ في مَوضِعٍ فيه نيامٌ، أو مَن في مَعناهُم، وأَنَّهُ يكونُ سَلامًا مُتَوَسِّطًا بَينَ الرفعِ والمخافتَةِ، بحَيثُ يُسمِعُ الأيقاظَ، ولا يُهَوِّشُ على غيرِهِم»[1].

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا من أحسنِ الأَدَب؛ لِأَنَّهُ يُسمِعُ المنتَبِهَ، ولا يُزعِجُ النائِمَ، وقد رَأينا خَلقًا من جَهَلَةِ المتَزَهِّدين يَرفَعون أَصواتَهم في اللَّيلِ بالقراءةِ والتذكيرِ، إلى أَن يَنزعِجَ النائِمُ، والنومُ هو كالقوتِ للبَدَنِ، فَقَطعُه عَنِ الإنسانِ يُؤذيهِ»[2].

وقال ابنُ علَّان رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: يُسَلِّمُ تَسليمًا بصَوتٍ مُتَوَسِّطٍ بَينَ أَقَلِّ الجَهرِ وما فوقَه، كَما يُؤخَذ من قولِه «**لا يوقِظُ نائِمًا**»؛ وذلك لنُزولِه عَن أعلى الجَهرِ الموقِظ للنائِمِ.

«**ويُسمِعُ اليَقظانَ**»؛ لوُجودِ أصلِ الجَهرِ، فيُؤخَذُ منه: استِحبابُ ذلك لِمَن دَخَلَ على قَومٍ فيهم نيامٌ»[3].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا دَخَلَ على مَكانٍ فيه أَيقاظٌ ونيامٌ فالسُّنَّةُ فيه ما ثَبَتَ في صَحيحِ مسلمٍ عن المِقدادِ قال: «كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجيءُ منَ اللَّيلِ فَيُسَلِّمُ تَسليمًا، لا يوقِظُ نائِمًا، ويُسمِعُ اليَقظانَ»[4].

وقال ابنُ الملَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَقَلُّ السَّلامِ -ابتِداءً ورَدًّا-: إسماعُ صاحِبه، ولا يُجزِئُه دونَ ذلك»[5].

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَقَلُّ السَّلامِ الذي يَصيرُ به مُؤَدِّيًا سُنَّةَ السَّلامِ: أن يَرفَعَ صوتَه بحَيثُ يُسمِعُ المسَلَّمَ عليه، فإن لَم يُسمِعه لَم يَكُن آتيًا بالسَّلامِ، فلا يَجِبُ الردُّ عليه.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤).

(٢) كشف المشكل (٤/ ٢٧).

(٣) دليل الفالحين (٥/ ٣٣٢).

(٤) فتح الباري (١١/ ١٨).

(٥) التوضيح (٢٩/ ١٦).

وأقَلُّ ما يَسقُطُ بهِ فَرضُ رَدِّ السَّلام: أن يَرفَعَ صَوتَهُ بحَيثُ يَسمَعُه المسَلِّمُ، فإن لَمَ يَسمَعه لَمَ يسقُط عنه فَرضُ الردِّ، ذكَرَهُما المتَولِّي وغيرُه.

والمستَحَبُّ أن يرفَعَ صوتَه رفعًا يَسمَعُه به المسَلَّم عليه -أو عليهم- سماعًا مُحَقَّقًا، وإذا تشَكَّكَ في أَنَّهُ يُسمِعُهم، زادَ في رَفعِه، واحتاطَ واستَظهَرَ، أمَّا إذا سَلَّمَ على أيقاظٍ عِندَهُم نيامٌ، فالسُّنّةُ أن يخفِضَ صَوتَه، بحَيثُ يَحصُلُ سَماعُ الأيقاظِ، ولا يَستَيقِظُ النِّيامُ»[1].

وقال **القُرطبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه دَليلٌ على مَشروعيَّةِ السَّلامِ عِندَ دُخولِ البَيتِ، وقد استَحَبَّه مالكٌ، وأن ذلك مِمَّا يَنبَغي أن يكونَ برِفقٍ واعتِدالٍ»[2].

وعن أَنَسِ بن مالِكٍ، قال: قال لي رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا بُنَيَّ، إذا دَخَلتَ على أَهلِكَ فَسَلِّم؛ يكونُ بَرَكَةً عليكَ وعلى أَهلِ بَيتِكَ**»[3].

مَسألةٌ: إذا لَم يَكن في البَيتِ أحدٌ، فهل يُسلِّم؟

ذَهبَ طَوائفُ من أهلِ العِلمِ إلى أنَّ المسلمَ إذا دَخلَ البَيتَ فَيُستحبُّ له أن يُسلِّمَ، سَواءٌ كان في البَيتِ أحدٌ أم لا.

ودَلَّ حَديثُ أَنَسٍ المتقدمُ آنفًا على استحباب تَسليمِ الرجلِ على أهلِ بَيتِهِ إذا دَخلَ البَيتَ.

وأمَّا استِحبابُ تَسليمِ الرجلِ على نَفسِهِ إذا دَخَلَ بَيتًا ليس فيه أحدٌ، فاستدلَّ العُلماءُ على ذلك بما يَلي:

١. **عمومُ قولِهِ تعالى:** ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُستحبُّ أن يقولَ: «باسمِ اللهِ»، وأن يُكثرَ من ذِكرِ اللهِ تعالى،

---

(١) الأذكار (ص٢٤٥).

(٢) المفهم (١٧/ ٤٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٩٨)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٠٨).

وأن يُسلِّمَ، سَواءٌ كان في البيتِ آدميٌّ أم لا؛ لِقولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾[1].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَدخُلُ في عُمومِ إفشاءِ السَّلامِ: السَّلامُ على النفسِ لِمَن دَخَلَ مَكانًا ليس فيه أَحَدٌ؛ لِقَولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾»[2].

٢. ثبوتُ ذلك عن بعضِ الصحابةِ والتابعينَ:

* **فعن نافِعٍ، أَنَّ عبدَ اللهِ بن عمرَ قال:** «إذا دَخَلَ البَيتَ غيرَ المَسكونِ فَليَقُلِ: «السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ اللهِ الصالِحينَ»»[3].

* **وعَنِ ابنِ عباسٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، في قَولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، قال: «هو المسجدُ، إذا دَخَلتَهُ فَقُل: «السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ اللهِ الصالِحينَ»»[4].

* **وعنِ الإمامِ مالِك، أَنَّهُ بلغَهُ:** «إذا دُخِلَ البَيتُ غيرُ المَسكونِ يُقالُ: «السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ اللهِ الصالِحينَ»»[5].

قال ابنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد رويَ عن جَماعَةٍ منَ السَّلَفِ العُلَماءِ بتَأويلِ القُرآنِ قالوا: «إذا دَخَلتَ بَيتًا ليس فيه أَحَدٌ فَقُلِ: «السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ الله الصالحينَ»».

روِّينا[6] ذلك عنِ ابنِ عباسٍ، وعَلقَمَةَ، وإبراهيمَ النخَعيِّ، وعِكرِمَةَ، ومُجاهِدٍ، وأَبي مالِكٍ، وعَطاءٍ.

---

(١) الأذكار (ص٢٣).

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٠).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥٥)، وحسنه الألباني.

(٤) رواه الحاكم (٣٥١٤)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٥) الموطأ (٣٥٣٥).

(٦) بضم الراء، وتشديد الواو المكسورة، أي: روى لنا مشايخنا.

والذي ذكرَهُ مالِكٌ مُجتَمَعٌ عليه في مَن دَخَلَ بَيتا ليس فيه أَحَدٌ»[١].

وقيلَ: إنّما يُسلِّمُ إذا كان في البَيتِ أحدٌ، فإن لَم يكن أحدٌ فلا يُسلِّم:

سُئلَ الشَّيخُ ابنُ بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا دَخلَ المسلمُ منزله من غيرِ وُجودِ أحدٍ داخلَ المَنزلِ، فهل التّحيةُ تَكونُ «السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ اللهِ الصالِحِينَ»، أم «السَّلامُ عليكُم»؟

فأجابَ: «إنّما يُسلِّمُ إذا كان فيه أحدٌ، إذا كان فيه أحدٌ سَلَّمَ عليهم»[٢].

وأمَّا الآيةُ: فقال سعيدُ بن جُبيرٍ، والحَسنُ البَصريُّ، وقَتادَةُ، والزُّهريُّ: «فَليسلِّم بَعضُكُم على بَعضٍ».

وقال ابنُ جُرَيج: حَدَّثَنا أَبو الزُّبَيرِ، سمعتُ جابرَ بن عبدِ اللهِ يقولُ: «إذا دخلتَ على أَهلِكَ فسَلِّم عليهم تَحيَّةً من عِندِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً»[٣].

وقال السّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في تَفسيرِ الآيةِ**: «أي: فليسلِّم بَعضُكُم على بعضٍ؛ لأنَّ المسلمينَ كأنَّهم شَخصٌ واحدٌ، من تَوادُدِهِم، وتَراحُمِهِم، وتَعاطُفِهِم، فالسَّلامُ مَشروعٌ لِدخولِ سائِرِ البُيوتِ، من غَيرِ فَرقٍ بينَ بيتٍ وبَيتٍ»[٤].

وهذا كَقولِهِ تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤]، أي: ليقتُل بعضُكُم بَعضًا، وكَقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٨٥]، ونَحوِ ذلك.

ولعلَّ هذا هو الأرجحُ، واللهُ تعالى أعلَمُ.

عودةٌ إلى شَرحِ الحَديثِ:

قَولُهُ: «ثم يَأتي المسجدَ فَيُصَلِّي، ثم يَأتي شَرابَهُ فَيَشرَبُ»:

---

(١) الاستذكار (٨/ ٤٧١).

(٢) نقلا عن موقع الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٨٦-٨٧).

(٤) تفسير السعدي (ص٥٧٥).

قال القُرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ثم يَأتي المسجدَ**»: يَعني به -واللهُ أعلمُ -: مسجدَ بَيتِه، أي: حَيثُ كان يُصَلِّي النوافِلَ»[(١)].

فالمعنى: ثُم يَأتي النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -بَعدَ أن يُسَلِّمَ علينا- مُصَلَّاهُ في البيتِ، فيُصَلِّي ما قُدِّرَ له، ثم يَأتي شَرابَه الذي خَبَّأنا له، فيَشرَبهُ[(٢)].

قَولُهُ: «**فَأَتاني الشَّيطانُ ذاتَ لَيلَةٍ وقد شَرِبتُ نَصيبي، فقال: محمدٌ يَأتي الأَنصارَ فَيُتحِفونَهُ، ويُصيبُ عِندَهُم، ما بِهِ حاجَةٌ إلى هذه الجُرعَةِ**»:

«**أَتاني الشَّيطانُ**»، أي: وسوَسَ إليَّ، قال الله تعالى عَنِ الشَّيطانِ: ﴿**ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ**﴾ [الأعراف: ١٧].

قال الشُّوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو تَمثيلٌ لِوَسوَسَتِهِ وتَسويلِهِ بمَن يَأتي حقيقَةً»[(٣)].

فوَسوَسَ إليه الشيطانُ بقَولِهِ: «**محمدٌ يَأتي الأَنصارَ**»، أَي: يَأتي كُرَماءَ الأنصارِ وأغنياءَهم، زائِرًا، أو مَدعوًّا، أو لمَصلَحَةٍ.

وذكَرَ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسمِه؛ لِأَنَّه يحكي وسوَسَة الشَّيطانِ وما يُلقيه في نفسِه.

«**فيُتحِفونَهُ**»، أي يُكرِمونَه، ويَخُصُّونَه بأفضلِ ما لدَيهم، قال ابنُ دُرَيدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَتحَفتُ الرجُلَ بالشَّيءِ أُتحِفُه إتحافًا، وهو أَن تُطرِفَه بالشَّيءِ، أو تَخُصَّه بِهِ»[(٤)].

و**قال النوَويُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَتحِفني بضيافَتِهِ»، أَي: خُصَّني بها، وأَكرِمني بذلك، قال أَهلُ اللُّغَةِ: التُّحفَةُ -بإسكانِ الحاءِ وفَتحِها-: هو ما يُكرَمُ بِهِ الإنسانُ، والفِعلُ منه: أَتحَفَهُ»[(٥)].

و**قال ابنُ الأَثيرِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التُّحفَةُ: طُرفةُ الفاكِهَةِ، وقد تُفتَحُ الحاءُ، والجَمعُ التُّحَفُ، ثم تُستَعمَلُ في غيرِ الفاكِهَةِ منَ الألطَافِ»[(٦)].

---

(١) المفهم (١٧/ ٤٤).

(٢) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لمحمد الأمين الهرري (٢١/ ٢٦٦).

(٣) فتح القدير (٢/ ٢١٩).

(٤) جمهرة اللغة (١/ ٣٨٦).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٣٢).

(٦) النهاية (١/ ١٨٢).

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التُّحفَةُ: الكَرامَة، والبرُّ، وما يُطلَبُ بهِ سُرورُ المتحَفُ»[1].

«فَيُصيبُ عِندَهُم»: المَفعول محذوفٌ، أي: فيُصيبُ طَعامًا وشَرابًا عِندَهُم.

«ما بهِ حاجَةٌ إلى هذه الجُرعَةِ»:

«الجُرعَةِ»، بضَمِّ الجيمِ وفَتحِها، حَكاهُما ابنُ السِّكِّيتِ وغيرُهُ، وهي الحَثْوَةُ منَ المَشروب، والفِعلُ منه: جَرِعتُ، بفَتحِ الجيمِ، وكَسرِ الراءِ[2].

وقال ابنُ الأثيرِ: «تُروى بالضَّمِّ والفَتحِ، فالضَّمُّ: الاِسمُ منَ الشُّرب اليسير، والفَتحُ: المرَّة الواحدَةُ منه، والضَّمُّ أشبَه بالحَديثِ»[3].

ولأَحمَدَ: «فَحَدَّثتُ نَفسي أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أَتى بَعضَ الأَنصارِ، فَأَكَلَ حتى شَبِعَ، وشَرِبَ حتى رَوِيَ، فَلَو شَرِبتُ نَصيبَهُ».

ولأبي يَعلى، وابنِ عَساكِر: «فقالت لي نَفسي: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد دَعاهُ أَهلُ بَيتٍ منَ المَدينَةِ، فَتَعَشَّى معهم، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَحتاجُ إلى هذا اللَّبَنِ».

فنَسَب الحَديثَ لنَفسِه، وهو محمولٌ على أنَّ الشيطانَ حَدَّثَ نَفسَه بهِ.

قَولُهُ: «فَأَتَيتُها، فَشَرِبتُها»:

ولأبي يَعلى، وابنِ عَساكِر: «فلم تَزَل نَفسي تُديرُني حتى قُمتُ إلى القَعب، فَشَرِبتُ ما فيه».

ولأَحمَدَ: «فلم أَزَل كذلك حتى قُمتُ إلى نَصيبهِ فَشَرِبتُهُ، ثم غَطَّيتُ القدَحَ».

قَولُهُ: «فلما أَن وغَلَت في بَطني، وعَلِمتُ أَنَّهُ ليس إلَيها سَبيلٌ»:

«وغَلَت في بَطني»، أي: دَخَلَت، وتَمَكَّنَت منه[4].

---

(١) كشف المشكل (٤/ ٢١٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤).

(٣) النهاية (١/ ٢٦١).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤).

وقال **ابنُ قُرقولٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَعني: شَربَةَ اللَّبَنِ، أَي: حصَلَت ودخَلَت، وغَلَ في الشَّيءِ: دَخَلَ فيه»[١].

وقال **القُرطبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وغَلَت، أَي: دَخَلَت، فكُل مَن دخَل في شيءٍ فهو واغِلٌ فيه»[٢].

قَولُهُ: «نَدَّمَني الشَّيطانُ»:

أَي: أَدخَلَ عَلَيَّ بوَسوَسَتِه الندامَةَ على شُرب تِلكَ الجُرعَةِ[٣].

والشَّيطانُ إنَّما يَفعَلُ ذلك، لا ليَحمِلَه على الإعتذارِ والتوبَةِ، وإنَّما ليَحزُنَه ويوقِعَه في الحَيرَةِ، ويورِدَ عليه الظُّنونَ، كَما فَعَل هُنا.

وعِندَ **أَحمَدَ**: «فلما فَرَغتُ أَخَذَني ما قدُمَ وما حَدُثَ».

ولأبي يَعلى، والطَّبَرانيّ في الكَبيرِ، وابنِ عَساكِر: «فلما تَقارَّ في بَطني أَخَذَني ما قدُمَ وما حَدُثَ».

«**تَقارَّ**»: استَقَرَّ[٤].

«**ما قدُمَ، وما حَدُثَ**»، **قال الخَطَّابيُّ**: «مَعناهُ: الحُزنُ والكَآبَةُ، يُريدُ أَنَّهُ قد عاوَدَه قديمُ الأحزانِ، واتَّصَلَ بحَديثِها»[٥].

وقال **العَينيُّ**: «حَدُثَ»، بضَم الدَّال، فلا يُستَعملُ في شيء من الكَلام إلا في قَولهم: «أَخَذَني ما قدُم وما حدُثَ»؛ لِلازدواجِ»[٦].

يَعني: لمُشاكَلَةِ «قدُمَ».

---

(١) مطالع الأنوار (٦/ ٢٢٩).

(٢) المفهم (١٧/ ٤٤).

(٣) الكوكب الوهاج (٢١/ ٢٦٧).

(٤) القاموس المحيط (ص٤٦١).

(٥) معالم السنن (١/ ٢١٨).

(٦) عمدة القاري (٤/ ١٣٨).

قَولُهُ: «فقال: ويحَكَ! ما صَنَعتَ؟ أَشَربتَ شَرابَ محمدٍ؟! فَيَجيءُ فلا يَجِدُهُ، فَيَدعو عليكَ، فَتَهلِكُ، فَتَذهَبُ دُنياكَ وآخِرَتُكَ!»:

وهذا هو الذي يُريدُه الشيطانُ: يوقِع الإنسانَ في الإثم، فيُنَدِّمُه، ثم يورِدُ عليه الوارِداتِ، ويَدَعُه وإيَّاها، فتارةً يُسيءُ الظَّنَّ بنفسِه، وتارَةً يُسيءُ الظّنَّ بغيرِه، وتارةً يُسيءُ الظنَّ برَبِّه، ولا يُنَدِّمُه ليسلُكَ به سَبيلَ التوبَةِ بطَبيعَة الحالِ كَما تَقدَّمَ.

وقد فَطِنَ المِقدادُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لحقيقةِ هذه الواردات والظُّنونِ الكَواذِب، وأنَّها من الشَّيطانِ، إلا أَنَّهُ بَقيَت في نفسِه الندامةُ على ما صَنَعَ.

قَولُهُ: «وعَلَيَّ شَملَةٌ»:

«الشَّملَةُ»: كِساءٌ صغيرٌ يُشتَمَلُ به، أَي: يُلتَحَفُ به، على كَيفيَّة مَخصوصَةٍ[1].

وقال الخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشَّملَةُ»: كِساءٌ يَشتَمِلُ به الرجُلُ، ويُجمَعُ على الشِّمالِ»[2].

وقال ابنُ فارسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشِّينُ والميمُ واللَّامُ أَصلانِ مُنقاسانِ مُطَّرِدانِ، كُلُّ واحدٍ منهما في مَعناهُ وبابِهِ.

فالأَوَّلُ يَدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأَخذِهِ إيَّاهُ من جَوانِبِه، من ذلك قَولُهُم: «شَمِلهمُ الأَمرُ»، إذا عَمَّهُم، و«هذا أَمرٌ شامِلٌ»، ومنه: «الشَّملَةُ»، وهي كِساءٌ يُؤتَزَرُ بِهِ ويُشتَمَلُ، و«جَمع اللهُ شَمله»، إذا دَعا له بتَأَلُّفِ أُمورِهِ، وإذا تَأَلَّفَتِ اشتَمَلَ كُلُّ واحدٍ منهما بالآخَرِ...»[3].

قَولُهُ: «إذا وضَعتُها على قدَمَيَّ خرجَ رَأسي، وإذا وضَعتُها على رَأسي خرجَ قدَمايَ»:

لفَرطِ صِغَرِها، وهذا من جُملةِ ما يُبَيِّنُ حالَ الصحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في تِلكَ الأَيَّامِ، وما كانوا يُعانونَه منَ الحاجَةِ والعوَز في المَأكلِ والمَشرب والمَلبَسِ والمَسكَنِ.

---

(١) المفهم (١٧/ ٤٤).

(٢) أعلام الحديث (٣/ ١٧٤٣).

(٣) مقاييس اللغة (٣/ ٢١٥).

عن خَبَّاب بن الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «هاجَرنا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَبيلِ اللهِ، نَبتَغي وجهَ اللهِ، فَوَقَعَ أَجرُنا على اللهِ، فَمِنَّا مَن مَضى لَم يَأكُل من أَجرِهِ شَيئًا، منهم مُصعَبُ ابن عُمَيرٍ، قُتِلَ يومَ أُحُدٍ، فلم يوجَد له شيءٌ يُكَفَّنُ فيه إلا نَمِرَةٌ[1]، فَكُنَّا إذا وضَعناها على رَأسِهِ خرجَت رِجلاهُ، وإذا وضَعناها على رِجلَيهِ خرجَ رَأسُهُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ضَعوها مِمَّا يَلي رَأسَهُ، واجعَلوا على رِجلَيهِ الإذخِرَ**[2]».

ومِنَّا مَن أَينَعَت له ثَمَرَتُهُ[3]، فَهوَ يَهدِبُها[4]»[5].

وعن سَعدِ بن إبراهيمَ، عن أَبيهِ إبراهيمَ، أَنَّ عبدَ الرحمَنِ بن عَوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ بطَعامٍ -وكان صائِمًا-، فقال: «قُتِلَ مُصعَبُ بن عُمَيرٍ وهو خَيرٌ مِنِّي، كُفِّنَ في بُردَةٍ، إن غُطِّيَ رَأسُهُ بَدَت رِجلاهُ، وإن غُطِّيَ رِجلاهُ بَدا رَأسُهُ.

وقُتِلَ حَمزَةُ وهو خَيرٌ مِنِّي، ثم بُسِطَ لَنا منَ الدُّنيا ما بُسِطَ، وقد خَشينا أَن تَكونَ حَسَناتُنا عُجِّلَت لَنا»، ثم جَعَلَ يَبكي حتى تَرَكَ الطعامَ[6].

قَولُهُ: «وجَعَلَ لا يَجيئُني النومُ»:

أَي: وكان الشَّأنُ لا يأتيني النومُ ولا يأخُذُني؛ لِشِدَّةِ نَدامَتي، أو لِبُرودةِ جِسمي لفَقدِ اللِّباسِ الذي يَعُمُّه ويَشمَلُه[7].

ولأَحمَدَ: «فَقُلتُ: يَجيءُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جائِعًا ولا يَجِدُ شَيئًا، فَتَسَجَّيتُ، وجَعَلتُ أُحَدِّثُ نَفسي».

---

(١) النمرة: شملة فيها خطوط بيض وسود، أو بردة من صوف، تلبسها الأعراب.

(٢) حشيش معروف طيب الرائحة.

(٣) أي: أدركت ونضجت، يقال: ينع الثمر وأينع ينعًا وينوعًا، فهو يانع.

(٤) أي: يجتنيها ويقطفها.

(٥) رواه البخاري (٣٨٩٧)، ومسلم (٩٤٠).

(٦) رواه البخاري (١٢٧٥).

(٧) الكوكب الوهاج (٢١/ ٢٦٧).

قَولُهُ: «وأَمَّا صاحِبايَ: فَناما، ولَم يَصنَعا ما صَنَعتُ»:

أَي: من شُرب نَصيب النبيِّ ﷺ من اللَّبَنِ، فلَم يُصِبهُما ما أصابَني منَ القَلَقِ والندَمِ.

وهذا مِمَّا يُبيِّنُ فَضلَ السّلامَةِ، وأنّ صاحبَها يَنامُ قَريرَ العَينِ، هانِئَ البالِ، بخلافِ مَن أَتى ما نُهي عنهُ، أو خالَطَ ما أُمِرَ باجتِنابِهِ، أو تَجاوَزَ حَدَّهُ، فإنَّه تَتَسلّمُه الوارِداتُ، وتُنغِّصُ عليه المشغِلاتُ، ويَأخذُهُ ما قدُمَ وما حَدثَ، ويندَمُ، ويَغبطُ السَّالِمَ، ويَسعى في الخَلاصِ مِمَّا اقتَرَفَهُ.

عَنِ القاسِمِ بن محمدٍ، عَنِ ابنِ عباسٍ، أَنَّهُ قال له رجلٌ: رجلٌ قَليلُ العَمَلِ قَليلُ الذُّنوب أَعجَبُ إليك، أو رجلٌ كَثيرُ العَمَلِ كَثيرُ الذُّنوب؟ قال: «لا أَعدِلُ بالسَّلامَةِ شَيئًا»[1].

قَولُهُ: «فَجاءَ النبيُّ ﷺ، فَسَلَّمَ كَما كان يُسَلِّمُ، ثم أَتى المسجدَ فَصَلَّى، ثم أَتى شَرابَهُ فَكَشَفَ عنه، فلم يَجِد فيه شَيئًا، فَرَفَعَ رَأسَهُ إلى السَّماءِ، فَقُلتُ: الآنَ يَدعو عَلَيَّ فَأَهلِك»:

«**أَتى شَرابَهُ**»، أَي: إناءَ شَرابِهِ.

فكَشفَ الغِطاء عنِ الإناءِ، فلَم يَجِد فيه شيئًا منَ اللَّبَنِ.

«**فَرَفَعَ رَأسَهُ إلى السَّماءِ، فَقُلتُ: الآنَ يَدعو عَلَيَّ فَأَهلِك**»:

فيه دليلٌ على أنَّ رَفعَ البَصَرِ إلى السَّماءِ حالَ الدُّعاءِ لا حرَجَ فيه.

أما رفعُ البصَرِ إلى السَّماءِ في الصلاةِ، في الدُّعاءِ وغيرِه: فمُحَرَّمٌ مَنهيٌّ عنه.

فعن أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «**ما بالُ أَقوامٍ يَرفَعونَ أَبصارَهُم إلى السَّماءِ في صَلاتِهِم**»، فاشتَدَّ قَولُهُ في ذلك، حتى قال: «**لَيَنتَهُنَّ عن ذلك أو لَتُخطَفَنَّ أَبصارُهُم**»[2].

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٦٦)، وصححه الحافظ في الفتح (١١/ ٢٧٥).

(٢) رواه البخاري (٧٥٠).

وعن جابرِ بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيَنتَهِيَنَّ أَقوامٌ يَرفَعونَ أَبصارَهُم إلى السَّماءِ في الصلاةِ، أو لا تَرجِعُ إليهم**»(١).

وقال **شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا كان رَفعُ البَصَرِ إلى السَّماءِ يُنافي الخُشوعَ حَرَّمَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتَوَعَّدَ عليه»(٢).

وقال **ابنُ عُثَيمينَ عِندَ قَولِ الحِجاويّ**: «**ويُكرَهُ في الصلاةِ التِفاتُهُ، ورَفعُ بَصَرِهِ إلى السَّماءِ**»: «قَولُهُ: «ورَفعُ بَصَرِهِ إلى السَّماءِ»، أَي: يُكرَهُ رَفعُ بصَرِه إلى السَّماءِ وهو يُصلِّي، سَواءٌ في حالِ القراءةِ، أو في حالِ الرُّكوعِ، أو في حالِ الرفعِ منَ الرُّكوعِ، أو في أَيِّ حالٍ منَ الأحوالِ؛ بدليلٍ وتَعليلٍ:

أَمَّا الدليلُ: فلِأَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَيَنتَهِيَنَّ أَقوامٌ عن رَفعِ أَبصارِهِم إلى السَّماءِ في الصلاةِ، أو لتُخطَفَنَّ أَبصارُهُم**»، أَي: إمَّا أَن يَنتَهوا، وإمَّا أن يُعاقَبوا بهذه العُقوبةِ، وهيَ: أن تُخطَفَ أبصارُهم، فلا تَرجِع إليهِم، واشتَدَّ قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك.

والحقيقةُ: أنَّ الدَّليلَ أقوى منَ المَدلولِ؛ لِأَنَّ الدليلَ يَقتَضي أن يكونَ رَفعُ البَصَرِ إلى السَّماءِ مُحَرَّمًا؛ فإنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَذَّر منه، واشتدَّ قَولُه فيه.

وأَمَّا التَّعليلُ: فلِأَنَّ فيه سوءَ أَدَبٍ مع الله تعالى؛ لِأَنَّ المصلِّي بينَ يَدَيِ اللهِ، فيَنبَغي أن يتَأَدَّبَ معه، وأن لا يَرفَعَ رأسَه، بَل يكَون خاضِعًا.

ولهذا كان القولُ الراجِحُ في رَفعِ البصَرِ إلى السَّماءِ في الصلاةِ: أَنَّهُ حَرامٌ، وليس بمَكروهٍ فَقَط»(٣).

وأمَّا رَفعُ البَصَرِ إلى السَّماءِ في الدُّعاءِ خارِجَ الصلاةِ: فلا حَرَجَ فيه؛ لِوُرودِه، ولِعَدَمِ وُرودِ ما يَدُلُّ على المَنعِ منه، بل ذهب بعض الفقهاء إلى أن الرفعَ هو الأولى:

---

(١) رواه مسلم (٤٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٥٩)

(٣) الشرح الممتع (٣/ ٢٢٦)، باختصار.

قال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «واختَلَفوا في كَراهَةِ رَفعِ البَصَرِ إلى السَّماءِ في الدُّعاءِ في غيرِ الصلاةِ: فَكَرِهَهُ شُرَيحٌ وآخرونَ، وجَوَّزَهُ الأكثرونَ، وقالوا: «لِأَنَّ السَّماءَ قِبلَةُ الدُّعاءِ، كَما أَنَّ الكَعبَةَ قِبلَةُ الصلاةِ، ولا يُنكَرُ رَفعُ الأَبصارِ إلَيها، كَما لا يُكرَهُ رَفعُ اليَدِ في الدُّعاءِ»[1].

وجاءَ في المَوسوعةِ الفِقهيَّةِ: «نَصَّ الشَّافِعيَّةُ على أَنَّ الأولى في الدُّعاءِ خارِجَ الصلاةِ رَفعُ البَصَرِ إلى السَّماءِ، وقال الغَزاليُّ منهم: «لا يَرفَعُ الدَّاعي بَصَرَهُ إلَيها»[2].

وقال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يُكرَهُ رَفعُ بَصَرِهِ إلى السَّماءِ في الدُّعاءِ؛ لِفِعلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قَولُ مالِكٍ والشَّافِعيِّ، ولا يُستَحَبُّ»[3].

وهذا هو المعتَمدُ.

قَولُهُ: «فَقُلتُ: الآنَ يَدعو عَلَيَّ فَأَهلِك»[4]:

فكان مُستَقِرًّا في نُفوسِهم أَنَّ دُعاءَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُستَجابٌ لا مَحالةَ، وأَنَّ مَن دعا عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلَكَ في دُنياهُ وأُخراهُ.

فلَمَّا رأى المِقدادُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رَفَعَ رأسَه إلى السّماءِ، بعدَ أن كَشَفَ غطاءَ الإناءِ فلَم يَجِد نَصيبَه من اللَّبَنِ، ظَنّ أَنَّهُ سيدعو على مَن شَرِبَ نَصيبَه؛ لِما في ذلك من سوءِ الأدَبِ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتعَدِّي على حقِّه، مع حاجَتِه إلَيه.

قَولُهُ: فقال: «اللهُمَّ أَطعِم مَن أَطعَمَني، وأَسقِ مَن سقاني»:

«وأَسقِ مَن سقاني»، بوَصلِ الهَمزَةِ، وقَطعِها.

---

(١) إكمال المعلم (٢/ ٣٤١)، شرح النووي على مسلم (٤/ ١٥٢)، شرح المشكاة للطيبي (٣/ ١٠٧١).

(٢) الموسوعة الفقهية (٨/ ٩٩).

(٣) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٣٨).

(٤) بكسر اللام.

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «اللهُمَّ اسقِ»: بهَمزَةِ الوَصلِ، أوِ القَطعِ»[١].

وقال **ابنُ علَّان** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «أَطعِم»، هو بهَمزةِ قَطعٍ، أي: ارزُق، «مَن أَطعَمَني»، أَي: تَسَبَّبَ لِإطعامي، «واسقِ»، بهَمزَةِ وصلٍ، ويَجوزُ قَطعُها، لكنِ الأوَّلُ أنسَبُ بقَولِهُ: «مَن سَقاني».

وفيه الدُّعاءُ لِمَن صَنَعَ مَعروفًا مع الإنسانِ»[٢].

وقال **النوَويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه الدُّعاءُ للمُحسِنِ، والخادِمِ، ولِمَن سَيفعَلُ خَيرًا»[٣].

وقال **القاضي عياضٌ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «خَوفُ المقدادِ من دُعاءِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِما فَعَله من شُرب شَرابه.

ولِقاءُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك بالتسليمِ، والدُّعاءِ بأن يُطعِمَ اللهُ مَن يُطعِمُه ويَسقيَ مَن سَقاهُ؛ بما كان جُبِلَ عليه من العَفوِ، والصبرِ، والإغضاءِ، وحُسنِ الكلامِ، والمعاشَرةِ، وكَرَمِ النفسِ، والنزاهةِ»[٤].

وقال **القُرطبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ أَطعِم مَن أَطعَمَني، وأَسقِ مَن سقاني**» يَدُلُّ على كَرَمِ أخلاقِهِ، ونَزاهَةِ نفسِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ لَم يَسأَل عن نَصيبه، ولَم يُعَرِّج على كُلِّ ذلك، لكنَّه دعا اللهَ تعالى.

و«سَقاني» بمعنى يَسقيني، و«مَن أَطعَمَني»، بمعنى: يُطعِمُني»[٥].

فالمَعنى: اللهمّ أطعِم مَن يُطعِمني، وأَسقِ مَن يَسقيني[٦].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٣/ ١١٠٩).

(٢) الفتوحات الربانية (٥/ ٢٥٤).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤).

(٤) إكمال المعلم (٦/ ٥٤٥).

(٥) المفهم (١٧/ ٤٤).

(٦) الكوكب الوهاج (٢١/ ٢٦٨).

ولأبي يَعلى: «اللهُمَّ أَطعِم مَن أَطعَمَنا، واسقِ مَن سَقانا».

والكافَّة بالإفرادِ: «أَطعَمَني»، «سَقاني»، وهو المَحفوظُ.

والعَرَبُ رُبَّما عبَّرت عنِ الماضي بصيغَةِ المضارِع، وعنِ المضارعِ بصيغَةِ الماضي.

قال ابنُ هِشامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «القاعِدَة السَّادِسَة: أَنَّهُم يُعبِّرونَ عَنِ الماضي والآتي كَما يُعبِّرون عَن الشَّيء الحاضِر؛ قَصدًا لإحضارِه في الذِّهن، حتى كَأَنَّهُ مشاهَدٌ حالَة الإخبار، نَحو: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ [فاطر: ٩]، قَصَدَ بقَولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتُثِيرُ﴾ إحضار تِلكَ الصورَةِ البَديعةِ الدَّالَّةِ على القُدرَة الباهِرَةِ من إثارةِ السَّحاب، تَبدو أَوَّلًا قِطَعًا، ثم تَتَضامُّ مُتَقَلِّبَةً بينَ أطوارٍ، حتى تَصيرَ رُكامًا.

ومنه: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، أَي: فكان.

وقَولُهُ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١]»[1].

وكذلك قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [الحج: ٦٣]، فتَقديرُ الكَلامِ: فأصبَحَتِ الأرضُ مُخضَرَّةً، فجاء بالمضارِع؛ استِحضارًا للصُّورةِ.

فهذا من التّعبيرِ عنِ الماضي بصيغةِ المضارعِ.

ومن التَعبير عَنِ المضارعِ بصيغَةِ الماضي: قَولُه في هذا الحَديثِ: «**اللهُمَّ أَطعِم مَن أَطعَمَني، وأَسقِ مَن سقاني**»، فالمَقصود: اللهُمَّ أَطعِم مَن يُطعِمُني، وأَسقِ مَن يَسقيني.

و«من أغراضِ التعبيرِ عنِ المضارعِ بلَفظِ الماضي:

* التَّنبيهُ على تَحقُّق وُقوعِه، نَحو: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، أَي: يَأتي.

* أو قُرب الوُقوعِ، نَحو: «قد قامَتِ الصلاةُ»، أَي: قَرُبَ القيامُ لها.

* والتفاؤُل، نَحو: «إن شَفاكَ اللهُ تَذهَب مَعي».

---

(١) مغني اللبيب (ص٩٠٥-٩٠٦).

* والتعريضُ، نَحو قَولِهِ تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فيه تَعريضٌ للمُشركينَ بأنَّهُم قد حَبطَت أعمالُهم»[١].

قَولُهُ: «فَعَمَدتُ إلى الشَّملَةِ فَشَدَدتُها عَلَيَّ، وأَخَذتُ الشَّفرَةَ فانطَلَقتُ إلى الأَعنُزِ أَيُّها أَسمَنُ، فَأَذبَحُها لِرسولِ اللهِ ﷺ»:

والمعنى: أنِّي قَصَدتُ إلى تَشميرِ الشَّملَةِ التي عَلَيَّ فرَبَطتُها على وسطي، وأَخَذتُ الشَّفرةَ، وهي السِّكِّينُ، فانطَلَقتُ إلى مَوضِعِ الأَعنُزِ؛ لِأَنظُرَ أيّها أَسمَن، فأذبَحها لرسولِ اللهِ ﷺ.

قَولُهُ: «فإذا هي حافِلَةٌ، وإذا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ»:

«حُفَّل»، جَمع حافِل: أَي مُمتَلِئَة الضُّروعِ باللَّبَنِ.

وحَفَلَ اللَّبنُ في الضَّرعِ يَحفِلُ حَفلًا وحُفولًا وتَحَفَّلَ واحتَفَلَ: اجتَمع.

وضَرعٌ حافِلٌ، أَي: مُمتَلِئٌ لَبَنًا.

وناقَةٌ حافِلَة وحَفول، وشاةٌ حافِل، وقد حَفَلَت حُفولًا وحَفلًا: إذا احتَفَلَ لَبَنُها في ضَرعها، وهُنَّ حُفَّل وحَوافِل[٢].

ولأَحمَدَ: «واغتَنَمتُ الدَّعوَةَ، فَقُمتُ إلى الشَّفرَةِ فَأَخَذتُها، ثم أَتَيتُ الأَعنُزَ فَجَعَلتُ أَجسُّها[٣] أَيُّها أَسمَنُ، فلا تَمُرُّ يَدَيَّ على ضَرعٍ واحدَةٍ إلا وجَدتُها حافِلًا».

---

(١) جواهر البلاغة لأحمد بن إبراهيم الهاشمي (ص٢١٤).

وقال **الشوكاني** رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسير هذه الآية**: «هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل؛ لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك، ووجه إيراده على هذا الوجه: التحذير والإنذار للعباد من الشرك؛ لأنه إذا كان موجبًا لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير، فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى». فتح القدير (٤/ ٥٤٤).

وينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٣١١)، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/ ١٦٥).

(٢) تهذيب اللغة (٥/ ٤٩)، النهاية (١/ ٤٠٩)، لسان العرب (١١/ ١٥٧).

(٣) أمسها وأتفحصها، يقال: «جسه بيده واجتسه، أي: مسه، وجسست الأخبار وتجسستها، أي: تفحصت عنها، ومنه: الجاسوس». الصحاح (٣/ ٩١٣).

وللطَّبَرانيّ في الكَبيرِ: «فاغتَنَمتُ دَعوَتَهُ، فَنَهَضتُ فَأَخَذتُ الشَّفرَةَ، فَدَنَوتُ منَ الغَنَمِ، فَنَظَرتُ أَيَّتُهُنَّ أَسمَنُ لِأَذبَحَها، فَدَنَوتُ من واحدَةٍ فَجَسَستُها، فَنَظَرتُ فإذا هي حافِلٌ، ونَظَرتُ إلى أُخرى، فإذا هي حافِلٌ، فَنَظَرتُ إلى الأُخرى، فإذا هي حافِلٌ، فَنَظَرتُ كُلَّهُنَّ فإذا هُنَّ حُفَّلٌ».

ولأبي يَعلى، وابن عَساكِرَ: «فاغتَنَمتُ دَعوَةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذتُ الشَّفرَةَ وأَنا أُريدُ أَن أَذبَحَ بَعضَ تِلكَ الأَعنزِ فَأُطعِمَهُ، فَضَرَبتُ بيَدي، فَوَقَعَت على ضَرعِها، فإذا هي حافِلٌ، ثم نَظَرتُ إليهنَّ جَميعًا، فإذا هُنَّ حُفَّلٌ».

ولإسماعيلَ الأصبَهاني في الدَّلائِلِ: «فاستَغنَمتُ دَعوَتَهُ، فَأَخَذتُ الشَّفرَةَ، ودَنَوتُ منَ الأَعنُزِ، أَجسُّهُنَّ أَيَّتُهُنَّ أَسمَنُ لِأَذبَحَها، فَوَضَعتُ يَدي على ضَرعِ إحدَاهُنَّ، فإذا هي حافِلٌ، ونَظَرتُ إلى الأُخرى، فإذا هي حافِلٌ، ونَظَرتَ إلى كُلِّهِنَّ، فإذا هُنَّ حُفَّلٌ».

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه من مُعجِزاتِ النُّبوَّةِ، وآثارِ بَرَكَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

وقال القاضي عياضٌ: «ذهابُ المِقدادِ بالشَّفرَةِ ليَذبَحَ من تِلكَ الشِّياه فوجَدَها حُفَّلًا كُلَّها آيةٌ من آياتِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبرَكةٌ من بَرَكاتِه؛ لحاجَتِه إلى شَرابه ذلك الوَقت، وقد كُنَّ حُلِبنَ قَبلَ هذا، واستُخرِجَ ما فيهنَّ من لَبَنٍ»[2].

وقال القُرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا فَهِمَ المِقدادُ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدُّعاءَ، وطَلَبَ أن يفعَلَ اللهُ ذلك معه في الحالِ، عرَف أنَّ اللهَ يُجيبُه ولا يَرُدُّ دَعوتَه، لا سيَّما عِندَ شدَّةِ الحاجَةِ، والفاقَةِ، فقامَ لينظُرَ له شيئًا تَكونُ به إجابَةُ دَعوَتِه، فوَجَدَ الأَعنُزَ حُفَّلًا؛ أَي: مُمتَلِئَةَ الضُّروعِ باللَّبَنِ»[3].

قَولُهُ: «فَعَمَدتُ إلى إناءٍ لِآلِ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كانوا يَطمَعونَ أَن يَحتَلِبوا فيه، فَحَلَبتُ فيه، حتى عَلَتهُ رَغوَةٌ»:

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٥).

(٢) إكمال المعلم (٦/ ٥٤٥).

(٣) المفهم (١٧/ ٤٥).

«**عَمَدَ**»، بفَتحِ الميمِ ويُكسَرُ، أَي: قَصَدَ[١].

«**ما كانوا يَطمَعونَ أَن يَحتَلِبوا فيه**»، أَي: ما كانوا يَحلِبون فيه؛ لِأَنَّه كَبيرُ الحَجمِ، واللَّبَنُ الذي يُحلَبُ منَ الأَعنُزِ قليلٌ بالنِّسبَةِ لهُ.

«**فَحَلَبتُ فيه حتى عَلَتهُ رَغوَةٌ**»، يقولُ: فأخذتُ ذلك الإناءَ فحلَبتُ اللّبنَ فيه، حتى عَلَت ذلك الإناءَ وارتَفَعَت فيه رغوةٌ.

والرّغوَة: «هي زَبَدُ اللَّبَنِ الذي يَعلوهُ، وهي بفَتحِ الراءِ وضَمِّها وكَسرِها، ثَلاثُ لُغاتٍ مَشهُورَات، ورِغاوَةٌ، بكَسرِ الراءِ وحُكيَ ضَمُّها، ورُغاية بالضَّمِّ وحُكيَ الكَسرُ، وارتَغَيتُ: شَرِبتُ الرغوَةَ»[٢].

وقال الجَوهَريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرّغوَةُ فيها ثَلاثُ لُغاتٍ: رُغوَةٌ ورَغوَةٌ ورِغوَةٌ، وحَكى الكَسرَ فيها اللّحيانيُّ وغيرُه، وهو زَبَدُ اللَبَنِ، والجَمعُ رُغًا، وكذلك رُغايةُ اللّبَنِ بالضَّمِّ والياءِ، ورِغاوَةُ اللَّبَنِ بالكَسرِ والواوِ، وسَمِع أبو المَهدِى الواوَ في الضَّمِّ، والياءَ في الكَسرِ»[٣].

قَولُهُ: «فَجِئتُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فقال: «أَشَرِبتُم شَرابَكُمُ اللَّيلَةَ؟»**:

ولأَحمَدَ، وابنِ سَعدٍ: «أَما شَرِبتُم شَرابَكُمُ اللَّيلَةَ يا مِقدادُ؟».

فلَم يَسأَل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن نَصيبه، وإِنَّما سأَلَ عن أضيافِهِ: هَل شَرِبوا شَرابَهُم، أم لا.

قَولُهُ: «قُلتُ: يا رسولَ اللهِ اشرَب، فَشَرِبَ، ثم ناوَلَني، فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ اشرَب، فَشَرِبَ، ثم ناوَلَني»:

وعِندَ أَحمَدَ، وابنِ سَعدٍ، وأبي عوانَةَ: «قُلتُ: اشرَب يا رسولَ اللهِ، فَشَرِبَ، ثم ناوَلَني، فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ اشرَب، فَشَرِبَ، ثم ناوَلَني، فَأَخَذتُ ما بَقيَ، فَشَرِبتُ».

---

(١) مرقاة المفاتيح (٧/ ٢٧٩٣).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٥).

(٣) الصحاح (٦/ ٢٣٦٠).

ولأَحمَدَ -أَيضًا-، وإسماعيلَ الأصبهانيّ في الدَّلائِلِ: «فَشَرِبَ، ثم قال: اشرَب، فَقُلتُ: اشرَب يا نبيَّ اللهِ، فَشَرِبَ حتى تَضَلَّعَ، ثم أَخَذتُهُ فَشَرِبتُهُ، ثم أَخبَرتُهُ الخَبَرَ».

«شَرِبَ حتى تَضَلَّعَ»، أَي: أَكثَرَ منَ الشُّرب حتى تمدَّدَ جَنبُه وأَضلاعُهُ[1].

يُقالُ: شَرِبَ فُلانٌ حتى تَضَلَّعَ، أَي: انتَفَخَت أَضلاعُه من كَثرَةِ الشُّرب[2].

قَولُهُ: «فلما عَرَفتُ أَنَّ النبيَّ ﷺ قد رَوِيَ، وأَصَبتُ دَعوَتَهُ، ضَحِكتُ حتى أُلقيتُ إلى الأَرضِ»:

قال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: سَقَطَ من كَثرَةِ الضَّحِكِ، يُريدُ: ذَهَبَ ما كان منَ الحُزنِ على فِعلِه مَن شُرب شَراب النبيِّ ﷺ، وسُرَّ بإجابةِ دعوةِ النبيِّ ﷺ بسَقيِ مَن سقاهُ، وإطعامِ مَن أطعَمَه، وبشُرب النبيِّ ﷺ وريِّه من اللبَنِ، وتَعَجُّبه من قُبحِ فِعلِه أوَّلًا، وحُسنِهِ آخِرًا، وكَونِ ذلك على يَدَيه، وذَريعَةً لإعلامِ النبيِّ ﷺ بالقَضيَّةِ»[3].

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعناهُ: أَنَّهُ كان عِندَهُ حُزنٌ شَديدٌ؛ خَوفًا من أَن يَدعوَ عليه النبيُّ ﷺ؛ لِكَونِهِ أَذهَبَ نَصيبَ النبيِّ ﷺ، وتَعَرَّضَ لِأَذاهُ، فلما عَلِمَ أَنَّ النبيَّ ﷺ قد رَوِيَ وأُجيبَت دَعوَتُهُ فَرِحَ، وضَحِكَ حتى سَقَطَ إلى الأَرضِ من كَثرَةِ ضَحِكِهِ؛ لِذَهاب ما كان بِهِ منَ الحُزنِ، وانقِلابِهِ سُرورًا بشُرب النبيِّ ﷺ، وإجابَةِ دَعوَتِهِ لِمَن أَطعَمَهُ وسَقاهُ، وجَريانِ ذلك على يَدِ المِقدادِ، وظُهورِ هذه المعجِزَةِ، ولِتَعَجُّبِهِ من قُبحِ فِعلِهِ أَوَّلًا، وحُسنِهِ آخِرًا»[4].

ومعنى قَولِهُ: «قد رَوِيَ»، أَي: شَرِبَ حتى شَبِعَ.

---

(١) النهاية (٣/ ٩٧).

(٢) لسان العرب (٨/ ٢٢٦).

(٣) إكمال المعلم (٦/ ٥٤٦).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٥).

«يُقالُ: رَوِى يَروى، فَهو رَيَّان، وامرأةٌ ريَّا»[١].

وقال **الحافظُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرِّيُّ: بكَسرِ الراءِ، وحَكى الجَوهَريُّ الفَتحَ، وقال غيرُهُ: بالكَسرِ الفِعلُ، وبالفَتحِ المَصدَرُ»[٢].

وقال **العَينيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرِّيّ»، بكَسر الراء وتشديدِ الياءِ: مصدرٌ، يُقال: رَويت من الماء، ريًّا بالكَسرِ، وحكى الجَوهَري الفَتحَ أَيضًا.

وقال غَيره: يُقال: رَويَ من الماء والشراب، بكَسر الواو ويروى بفَتحِها: رِيًّا، بالكَسرِ في الاِسمِ والمَصدرِ، قال القاضي: «وحكى الدَّاوديُّ الفَتحَ في المصدَرِ، وأمَّا في الرِّوايَة فعَكسُهُ، تَقول: رَوَيتُ الحَديثَ أرويهِ رواية، بالفَتح في الماضي، والكَسر في المستَقبل.

والرّواءُ من الماء: ما يَروي، إذا مَدَدتَ فتَحتَ الراءَ، وإذا كسَرتَ قَصَرتَ».

قلتُ: الرِّيُّ: أَصلُه الرِّويُ، اجتمعتِ الواوُ والياءُ، وسبقَت إحداهما بالسُّكونِ، فأبدِلَتِ الياء من الواو، وأدغِمتِ الياءُ في الياءِ»[٣].

وقال ابنُ سيدَه رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَويَ منَ الماءِ، بالكَسرِ، ومنَ اللَّبَن يَروى رَيًّا، ورِوًى أَيضًا مِثلُ رِضًا، وتَروًّى وارتَوى، كُلُّهُ بمَعنًى، والاِسمُ الرِّيُّ أَيضًا، وقد أَرواني»[٤].

ومعنى قَولِهِ: «**ضَحِكتُ حتى أُلقيتُ إلى الأَرضِ**»، أَي: أكثَرتُ من الضَّحِكِ، حتى ألقَانِي الضَّحكُ إلى الأرضِ.

قَولُهُ: «**فقال النبيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إحدى سَوآتِكَ يا مِقدادُ**»:

وعِندَ أَحمَدَ: «بَعضُ سَوآتِكَ يا مِقدادُ، ما الخَبَرُ؟».

---

(١) النهاية (٢/ ٢٩١).

(٢) فتح الباري (١/ ١٨٠).

(٣) عمدة القاري (٢/ ٨٦).

(٤) لسان العرب (١٤/ ٣٤٥).

ولأبي يَعلى، وابنِ عساكِر: «هيهِ[١]، بَعض سَوآتِكَ يا مِقدادُ».

قال القُرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: هذه الحالةُ حالَةٌ سَيِّئَةٌ، من جُملَةِ حالاتِك التي تَسوءُ، مُنكِرًا لِذلك؛ لِأَنَّ كثرَةَ الضَّحِكِ تُميتُ القَلبَ، كَما قالهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]»[٣].

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إحدى سَوآتِكَ**»، أَي: إنَّكَ فَعَلتَ سَوءَةً منَ الفَعلاتِ»[٤].

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: ما أضحَكَكَ إلا بَعضُ ما يَسوءُ ظُهورُه»[٥].

قَولُهُ: «فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، كان من أَمري كذا وكذا، وفَعَلتُ كذا، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما هذه إلا رَحمَةٌ منَ اللهِ، أَفلا كُنتَ آذَنتَني، فَنوقِظَ صاحِبينا، فَيُصيبانِ منها؟**»:

«**ما هذه إلا رَحمَةٌ منَ اللهِ**»، **قال النوَويُّ**: «أَي: إحداثُ هذا اللَّبَنِ في غيرِ وقتِهِ وخِلافَ عادَتِهِ، وإن كان الجَميعُ من فَضلِ اللهِ تعالى»[٦].

ولأَحمَدَ: «هذه بَرَكَةٌ نزلَت منَ السَّماءِ، فَهَلَّا أَعلَمتَني حتى نَسقيَ صاحِبينا؟».

وللطَّبَرانيِّ في الكَبيرِ: «هذه بَرَكَةٌ نزلَت منَ السَّماءِ، أَفلا أَخبَرتَني حتى أَسقيَ صاحِبَيكَ؟».

ولأبي يَعلى، وابنِ عساكِر: «يا مِقدادُ، هذه بَرَكَةٌ كان يَنبَغي لَكَ أَن تُعلِمَني حتى نوقِظَ صاحِبينا، فَنَسقيَهُما من هذه البَرَكَةِ».

---

(١) **قال ابن الأثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: «هيه» بمعنى إيه، فأبدل من الهمزة هاءً، وإيه: اسم سمي به الفعل، ومعناه الأمر، تقول للرجل: إيه، بغير تنوين، إذا استزدته من الحديث المعهود بينكما، فإن نونت: استزدته من حديث ما غير معهود، لأن التنوين للتنكير، فإذا سكنته وكففته قلت: إيهًا، بالنصب». النهاية (٥/ ٢٩٠).

(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تكثروا الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب**». رواه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤١٩٣)، واللفظ له، وأحمد (٨٠٩٥)، وصححه الألباني.

(٣) المفهم (١٧/ ٤٥).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٥).

(٥) كشف المشكل (٤/ ٢٨).

(٦) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٦).

وللطَّيالسيّ، وأبي نُعيم، والبَيهَقيّ في الدَّلائلَ: «ما كانت إلا رَحمَةً منَ اللهِ، لَو كُنتَ أَيقَظتَ صاحِبَيكَ، فَأَصابا منها».

ولِذلك إذا أصابَ الإنسانَ فضلٌ، فلا يَقُل: «هذا بعَرَقي، وذَكائي، وجُهدي»، وإنَّما يقولُ: «هذا من فضلِ اللهِ عليَّ»، وهذا من شُكرِ النِّعمَةِ، ونسبَتُهُ الفَضلَ إلى نفسِه من جُحودِها المؤذِنِ بزَوالِها.

والشُّكرُ حالُ أهلِ الصلاحِ والتّقوىَ، فإذا مَنَّ اللهُ عليهم بالنِّعمِ ازدادَ شُكرُهُم وإقرارُهُم واعترافُهُم بنِعمَةِ اللهِ عليهم، كَما قال سُلَيمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ -لما حضَرَ عندَه عرشُ مَلكةِ سَبأٍ مع البُعدِ العظيمِ- قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل:٤٠]، بخلافِ أهلِ التَجَبُّرِ والتَّكَبُّرِ والعُلوِّ في الأرضِ، فإنَّ النِّعَمَ تَزيدُهُم أَشَرًا وبَطَرًا، كَما قال قارونُ -لَمَّا آتاهُ اللهُ من الكُنوزِ ما إنَّ مَفاتِحَه لَتَنوءُ بالعُصبَة أولي القوَّةِ- قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨].

قَولُهُ: «**فَقُلتُ: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما أُبالي إذا أَصَبتَها وأَصَبتُها معكَ مَن أَصابَها منَ الناسِ**»:

ولأَحمَدَ: «فَقُلتُ: إذا أَصابَتني وإيَّاكَ البَرَكَةُ، فَما أُبالي مَن أَخطَأَت».

وله أيضًا: «إذا شَرِبتُ البَرَكَةَ أَنا وأَنتَ، فلا أُبالي مَن أَخطَأَت».

ولأبي يَعلى، وابنِ عساكِر: «قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إذا شَرِبتَ أَنتَ البَرَكَةَ وأَنا، فَما أُبالي مَن أَخطَأَت».

وللطَّبَرانيّ في الكَبيرِ: «إذا أَصَبتُ أَنا وأَنتَ، ما أُبالي مَن أَخطَأَت»

وللطَّيالِسيّ، وأبي نُعيم، والبَيهَقيّ في الدّلائلِ: «فَقُلتُ: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما أُبالي إذا أَصَبتَها أَنتَ وأَصَبتُ فَضلَكَ مَن أَخطَأَت منَ الناسِ».

فسَواءٌ عليّ: أصابَت بعدي -من بعدِك- مَن أصابَت، وأخطَأت مَن أخطَأَت.

***

فصلٌ

رَوى هذا الحَديثَ الإمامُ أَحمَدُ وغيرُه، مَن طَريقِ أبي بكرِ بن عَيَّاشٍ، عَنِ الأَعمَشِ، عن سُلَيمانَ بن مَيسَرَةَ، عن طارِقِ بن شِهابٍ، عَنِ المِقدادِ بن الأَسوَدِ، قال: لَمَّا نزلنا المَدينَةَ عَشَّرَنا رسولُ اللهِ ﷺ عَشَرَةً عَشَرَةً، يَعني: في كُلِّ بَيتٍ، قال: فَكُنتُ في العَشَرَةِ التي كان النبيُّ ﷺ فيهم، قال: ولَم يَكُن لَنا إلا شاةٌ نَتَجَزَّأُ لَبَنَها، قال: فَكُنَّا إذا أَبطَأَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ شَربنا، وبَقَّينا للنبيِّ ﷺ نَصيبَهُ، فلما كان ذاتَ لَيلَةٍ أَبطَأَ علينا، قال: ونِمنا، فقال المِقدادُ بن الأَسوَدِ: لَقد أَطالَ النبيُّ ﷺ، ما أُراهُ يَجيءُ اللَّيلَةَ، لَعَلَّ إنسانًا دَعاهُ، قال: فَشَرِبتُهُ، فلما ذَهَبَ منَ اللَّيلِ جاءَ فَدَخَلَ البَيتَ، قال: فلما شَرِبتُهُ لَم أَنَم أَنا، قال: فلما دَخَلَ سَلَّمَ، ولَم يَشُدَّ، ثم مالَ إلى القدَحِ، فلما لَم يَرَ شَيئًا سَكَتَ، ثم قال: «**اللهُمَّ أَطعِم مَن أَطعَمَنا اللَّيلَةَ**»، قال: فَوَثَبتُ وأَخَذتُ السِّكِّينَ، وقُمتُ إلى الشَّاةِ، قال: «**ما لَكَ؟**»، قُلتُ: أَذبَحُ قال: «**لا، ائتِني بالشَّاةِ**»، فَأَتَيتُهُ بها، فَمَسَحَ ضَرعَها، فَخرجَ شَيئًا، ثم شَرِبَ ونامَ[1].

وفي المعجَمِ الكبيرِ من طريقِ عمر بن حَفصِ بن غياثٍ، حَدَّثَني أَبي، حَدَّثَني الأَعمَشُ، عن قَيسِ بن مسلمٍ، عن طارِقِ بن شِهابٍ، عَنِ المِقدادِ بن الأَسوَدِ به[2].

وهذا كُلُّه غيرُ مَحفوظٍ، والمَحفوظُ حديثُ الباب.

قال أبو الحَسَنِ الدَّارَقُطنيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَرويهِ الأَعمَشُ، واختُلِفَ عنه: فَرواهُ أَبو بكرِ بنِ عيَّاشٍ، عنِ الأعمَشِ، عن سُليمانَ بن مَيسَرَةَ، عن طارِقِ بن شِهابٍ، عنِ المِقدادِ.

وخالَفَه الحارِثُ بن نَبهانَ، وعَمَّارُ بن سَيفٍ، فرَوَياه عنِ الأعمَشِ، عن قَيسِ بنِ مسلمٍ، عن طارِقِ بن شِهابٍ، عن المِقدادِ».

قال: «ليس فيه شيءٌ ثابتٌ.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٣٨١٨)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٤٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٧٤).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٢٤٠)، وتمام في الفوائد (١٠٨٠).

ورواهُ ثابتٌ البُنانيُّ، عن عبدِ الرحمنِ بن أبي ليلى، عنِ المِقداد، وهو صَحيحٌ عنه»[١].

ورواهُ ابنُ عَساكِر من طريقِ أبي بكر بن عيَّاشٍ، عنِ الأعمَشِ، عن سُلَيمانَ بنِ مَيسَرَةَ، عن طارِقِ بن شِهابٍ، عنِ المِقداد بهِ، ثم قال: «هذا حَديثٌ غَريبٌ من حديثِ المِقدادِ، والمَشهور عنه: ما أخبَرَنا أبو المظَفَّر بن القُشَيريِّ...».

ثم ساقَه من طريقِ حمَّادِ بن سلَمَة، عن ثابتٍ، عن عبدِ الرّحمنِ بن أبي ليلى، عنِ المِقدادِ بن عمرٍو به، بالسِّياقِ المَحفوظِ[٢].

ومنَ الفَوائِدِ المستَفادَةِ من هذا الحَديثِ:

* **فيه** مُعجِزَةٌ ظاهِرَةٌ للنبيِّ ﷺ؛ إذ كانتِ الأَعنُزُ لا لَبَنَ فيها، فصِرنَ حُفَّلًا كُلُّها.

* **وفيه:** بَيانُ تواضُعِه ﷺ لِرَبّه، وتَمامِ عُبوديَّتِه وعِلمِه بفَقرِه للهِ رَبِّ العالَمِينَ؛ إذ نَسَبَ الفَضلَ والرحمَةَ للهِ، فقال: «**ما هذه إلا رَحمَةٌ منَ اللهِ**»، ولم يَقُل: هذا ببَرَكَةِ دُعائي.

* **وفيه:** حِلمُ النبيِّ ﷺ، وحُسنُ خُلُقِه، وكَرمُ نَفسِه، وصَبرُه.

* **وفيه:** تَلَطُّفُ النبيِّ ﷺ مع أصحابه، وفِطنَتُه، وفراسَتُه؛ فإنَّه عِندَما نَظَرَ إلى المِقدادِ وهو يَضحَكُ عرَف أنّ في الأمرِ شَيئًا، وقال: «**إحدى سَوءاتِكَ يا مِقدادُ**».

* **وفيه:** إغضاؤُه ﷺ عن حُقوقِه، إذ لَم يَسأل عن نَصيبه منَ اللَّبَنِ، وإنَّما قال: «**أَشَرِبتُم شَرابَكُمُ اللَّيلَةَ؟**».

* **وفيه:** أن دُعاءَ النبيِّ ﷺ مُستَجابٌ.

* **وفيه:** الدُّعاءُ للمُحسِنِ، والخادِمِ، ولِمَن سَيَفعَلُ خَيرًا.

---

(١) علل الدارقطني (١٤/ ٦٠).

(٢) تاريخ دمشق (٤/ ٣٧٧).

* وفيه: ما كان عليه الصحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من تَعظيمِ أمرِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَعرِفَتِهم بمَنزِلَتِه عِندَ رَبِّه عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه مُجابُ الدَّعوَةِ، فيَحذَرونَ من سَخَطِه، ويَتَعَرَّضونَ لِرِضاه ومَوَدَّتِه.

* وفيه: ما كان عليه الصحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الجَهدِ والمَشَقَّةِ والجوعِ، ومع ذلك لَم يَنشَغِلوا بتِجارَةٍ ولا غيرِها عَنِ الجِهادِ، وطَلَبِ العِلمِ، وتَعليمِه الناسَ.

* وفيه: أنّ الشيطانَ يُسَوِّلُ للإنسانِ فِعلَ المَعصيَةِ ثم يُنَدِّمُه عليها، لا ليَتوبَ منها، ولكِن ليَحزُنَه، ويورِدَ عليه الوارِداتِ.

* وفيه: أدَبُ السَّلامِ على الأَيقاظِ في مَوضِعٍ فيه نيامٌ، أو مَن في مَعناهُم، وأنَّهُ يكونُ سَلامًا مُتَوَسِّطًا بَينَ الرفعِ والمخافَتَةِ، بحَيثُ يُسمِعُ الأَيقاظَ، ولا يُهَوِّشُ على غيرِهِم.

* وفيه: أنَّ الإنسانَ إذا أصابَ من الخيرِ فإنَّه يَحسُن به أن يَتَذَكَّرَ إخوانَه، فيُصيبَهم منه بمَعروفٍ؛ فإنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال للمِقدادِ، بعدَ أن شَرِبا اللَّبَنَ: «**أَفلا كُنتَ آذَنتَني فَنوقِظَ صاحِبينا، فَيُصيبانِ منها؟**».

وعن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إنَّ خَليلي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصاني: «**إذا طَبَختَ مَرَقًا فَأَكثِر ماءَهُ، ثم انظُر أَهلَ بَيتٍ من جيرانِكَ، فَأَصِبهُم منها بمَعروفٍ**»

وفي روايةٍ: «**يا أَبا ذَرٍّ، إذا طَبَختَ مَرَقَةً فَأَكثِر ماءَها، وتَعاهَد جيرانَكَ**»(١).

* وفيه: تَقاسُم ما حَضَر من الطّعامِ مع الفُقَراءِ؛ لقَولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمِقدادِ: «**يا مِقدادُ، خُذ هذه فاحتَلِبها فَجَزِّئها أَربَعَةَ أَجزاءٍ: جُزءًا لي، وجُزءًا لَكَ، وجُزءين لِصاحِبَيكَ**».

وهذا من المواساةِ، وحُبِّ الخَيرِ للإخوانِ، وعن أَبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الأَشعَرِيِّينَ إذا أَرمَلوا(٢) في الغَزوِ أو قَلَّ طَعامُ عيالِهِم بالمَدينَةِ جَمَعوا ما كان عِندَهُم في ثَوبٍ واحِدٍ، ثم اقتَسَموهُ بينهم في إناءٍ واحِدٍ بالسَّوِيَّةِ، فَهُم مِنِّي، وأَنا منهم**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٥).

(٢) أي: فني زادهم، وأصله من الرمل، كأنهم لصقوا بالرمل من القلة. فتح الباري (٥/ ١٣٠).

(٣) رواه البخاري (٢٤٨٦)، ومسلم (٢٥٠٠).

قال النوَويُّ: «في هذا الحَديثِ: فَضيلَةُ الإيثارِ، والمواساةِ، وفَضيلَةُ خَلطِ الأزوادِ في السَّفَرِ، وفَضيلةُ جَمعِها في شيءٍ عِندَ قِلَّتِها في الحَضَرِ، ثم يُقسَمُ.

وليس المرادُ بهذا: القِسمَةَ المَعروفَةَ في كُتُبِ الفِقهِ بشُروطِها، وإنَّما المرادُ -هُنا-: إباحَةُ بَعضِهِم بَعضًا، ومواساتُهُم بالمَوجودِ»[1].

* وفيه: إكرامُ الصحابةِ والأنصارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بما كانوا يُتحِفونَه به من الطّعامِ والشّراب والهَدايا، وهذا من الأسباب التي حصَل لهُم بها رِضوانُ اللهِ تعالى عليهم.

* وفيه: أنَّ الإنسانَ إذا جاعَ وبلَغَ الجوعُ بهِ غايَتَه، فلا بأسَ أن يَعرِضَ نَفسَه على من يُطعِمُه، وإنَّما المذمومُ المَنهيُّ عنهُ: أن يسأَلَ الإنسانُ وعِندَه ما يكفيه ويُغنيه.

فعن سَهلِ ابن الحَنظَليَّةِ[2] الأَنصاريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال: «**مَن سأَلَ وعِندَهُ ما يُغنيهِ، فَإِنَّما يَستكثِرُ من جَمرِ جَهَنَّمَ**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما يُغنيهِ؟ قال: «**ما يُغَدِّيهِ، أو يُعَشِّيهِ**»[3].

وعن عبدِ اللهِ بن مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سأَلَ الناسَ وله ما يُغنيهِ جاءَ يَومَ القيامَةِ ومَسأَلَتُهُ في وجهِهِ خُموشٌ**[4]**، أو خُدوشٌ، أو كُدوحٌ**[5]»، قيلَ: يا رسولَ اللهِ، وما يُغنيهِ؟ قال: «**خَمسونَ دِرهَمًا، أو قيمَتُها منَ الذَّهَب**»[6].



---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٦٢).

(٢) الحنظلية أمه، وقيل: الحنظلية جدته، وقيل: أم جده. واسم أبيه الربيع، وقيل: عبيد، وقيل: عقيب بن عمرو، وقيل: عمرو بن عدي، وهو الأشهر. الإصابة (٣/ ١٦٤).

(٣) رواه أبو داود (١٦٢٩)، وأحمد (١٧٦٢٥)، وصححه محققو المسند.

(٤) أي: خدوش.

(٥) الكدوح: الخدوش، وكل أثر من خدش أو عض فهو كدح. النهاية (٤/ ١٥٥).

(٦) رواه أبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، وحسنه، والنسائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود وغيره.

١٤

الواهبةُ نفسَها للنبيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الواهبةُ نفسَها للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عن سَهلِ بن سَعدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَتِ امرَأَةٌ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، جِئتُ أَهَبُ لَكَ نَفسي، فَنَظَرَ إلَيها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَعَّدَ النظرَ فيها وصَوَّبَهُ، ثم طَأطَأَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأسَهُ، فلما رَأَتِ المَرأَةُ أَنَّهُ لَم يَقضِ فيها شَيئًا جَلَسَت، فَقامَ رجلٌ من أَصحابِهِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إن لَم يَكُن لَكَ بها حاجَةٌ فَزَوِّجنيها، فقال: «**فَهَل عِندَكَ من شيءٍ؟**»، فقال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، فقال: «**اذهَب إلى أَهلِكَ فانظُر هَل تَجِدُ شَيئًا؟**»، فَذَهَبَ ثم رجعَ، فقال: لا واللهِ، ما وجَدتُ شَيئًا، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انظُر ولو خاتَمًا من حَديدٍ**»، فَذَهَبَ ثم رجعَ، فقال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ولا خاتِمًا من حَديدٍ، ولكن هذا إزاري -قال سَهلٌ: ما له رِداءٌ- فَلها نِصفُهُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما تَصنَعُ بإزارِكَ؟ إن لَبستَهُ لَم يَكُن عليها منه شيءٌ، وإن لَبَستَهُ لَم يَكُن عليكَ منه شيءٌ**».

فَجَلَسَ الرجُلُ، حتى إذا طالَ مَجلِسُهُ قامَ، فَرَآهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مولِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعيَ، فلما جاءَ قال: «**ماذا معكَ منَ القُرآنِ؟**»، قال: مَعي سورَةُ كذا وسورَةُ كذا -عَدَّدَها-، فقال: «**تَقرَؤُهُنَّ عن ظَهرِ قَلبكَ؟**»، قال: نَعَم، قال: «**اذهَب، فقد مُلِّكتَها بما معكَ منَ القُرآنِ**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٣٠)، (٥٠٨٧)، (٥١٢١)، (٥١٢٦)، (٥١٤٩)، (٥٨٧١)، ومسلم (١٤٢٥)، وأبو داود (٢١١١)، والترمذي (١١١٤)، والنسائي (٣٢٨٠)، وفي الكبرى (٥٤٧٩)، وابن ماجه (١٨٨٩)، ومالك (١٩٢٠)، والشافعي في مسنده (١١١٧)، وأحمد (٢٢٧٩٨)، (٢٢٨٥٠)، والدارمي (٢٢٤٧)، والدارقطني (٣٦١١)، والبيهقي (١٣٨١٨)، (١٣٨٢٣)، وابن حبان (٤٠٩٣)، (١٣٨٣٤)، وأبو عوانة في مستخرجه (٤١٦٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ١٣٣، ١٧٣، ١٩٠، ١٨٤)، وأبو يعلى (٧٥٢١)، =

تَرجَمَةُ سَهلِ بن سَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو سَهلُ بن سَعدِ بن مالكِ[1] بن خالِدِ بن ثعلَبَةَ بن حارثَةَ بن عمرِو بن الخَزرجِ بن ساعدَةَ بن كعب بن الخَزرجِ، الأنصارِيُّ، السَّاعِديّ، أبو العباسِ، ويُقالُ: أبو يَحيى، له ولأبيهِ صُحبَةٌ.

وأمُّه: أُمَيمَةُ بنتُ الحارِثِ بن عبدِ اللهِ بن كعب بن مالكِ بن خَثعَم.

روى عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن أُبَيِّ بن كعبٍ، وعاصِمِ بن عَديّ، وعمرِو بن عَبَسَةَ، ومَروانِ بن الحَكَم، وهو دونَه.

وعنه ابنُه عباس، والزُّهريُّ، وأبو حازِمِ بن دينارٍ، وعمرو بن جابرٍ الحَضرَميُّ، ويَحيى بن ميمونٍ الحَضرَميُّ، وعبدُ اللهِ بن عبدِ الرحمنِ بن أبي ذُباب، وغيرُهم.

وقال أبو نُعَيم الحافظُ: «أَحصَنَ سَبعينَ امرَأَةً، شَهِدَ قَضاءَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المتَلاعِنَينِ، وأَنَّهُ فَرَّقَ بينهما، وكان اسمُهُ حَزنًا، فَسَمَّاهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهلًا، وكان ذا وفرَةٍ، يُصَفِّرُ لِحيَتَهُ».

وقال ابنُ حِبَّان: «كان اسمُه حَزنًا، فسَمَّاه رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهلًا».

وقال ابنُ أبي خَيثَمَةَ: حَدَّثَنا إبراهيمُ بن المنذِر، قال: حدثنا أَنَسُ بن عياضٍ، قال: سَمِعتُ عبد اللهِ بن عمرَ يقولُ: إنَّ سَهل بن سَعد كان يقولُ: «لَو مُتُّ لَم تَسمَعوا أَحَدًا يقولُ: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وقال شُعَيبٌ: عنِ الزُّهريِّ، عن سَهلِ بن سعدٍ: «أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُوُفِّيَ وهو ابنُ خَمسَ عَشرَةَ سنةً»، وقال أبو نُعَيم وغيرُ واحدٍ: «ماتَ سنَةَ ٨٨»، زادَ بعضُهُم: «وهو ابنُ ٩٦ سنة»، وقال الواقدي وغيرُه: «ماتَ سنَةَ ٩١، وهو ابنُ مئةِ سنةٍ».

= وعبد الرزاق (١٢٢٧٤)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦/ ٢٧٣)، (٦/ ٢٧٦)، والبغوي في شرح السنة (٩/ ١١٧)، والبجيري في مستخرجه (٧٢٧).

(١) وقيل: سهل بن سعد بن سعد بن مالك، وقال الذهبي في السير (٣/ ٤٢٣): «بعض الناس أسقط من نسبه «سعدًا» الثاني».

قال الحافظُ: «روايَةُ شُعيبٍ صَحيحَةٌ، وهي المعتَمَدةُ في مَولِدِه، فيكونُ مَولِدُه قبلَ الهِجرَةِ بخَمسِ سِنينَ، فأَيَّ سنَةٍ ماتَ يُضافُ إليها الخَمسُ، فيَخرُجُ مَبلَغُ عُمره على الصحَّةِ، وما يُخالِفُ ذلك لا يُعَوَّلُ عليه».

وقال أبو حاتِمٍ الرازيُّ: «عاشَ مئةَ سنةٍ، أو أكثَرَ».

فعلى هذا يكونُ تَأَخَّرَ إلى سنةِ ٩٦، أو بعدَها.

وهو من آخِرِ مَن ماتَ بالمَدينَةِ منَ الصحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[1].

شرح الحديث:

قال سَهل بن سَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**جاءَتِ امرَأَةٌ إلى رسولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فقالت: يا رسولَ اللهِ، جِئتُ أَهَبُ لَكَ نَفسي**»:

وعندَ البُجَيريِّ: «جاءَتِ امرَأَةٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في المسجدِ».

فدَلَّت هذه الرِّوايةُ على مَكانِ وُقوعِ هذه القِصَّةِ.

وفي روايةٍ للبُخاريِّ: «فقالت: إنَّها قد وهَبَت نَفسَها للهِ، ولِرسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وله أَيضًا: «فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّها قد وهَبَت نَفسَها لَكَ، فَرَ فيها رَأيَكَ».

هكذا على طَريقِ الإلتِفاتِ.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي كُلِّ هذه الرِّواياتِ حَذفُ مُضافٍ، تَقديرُهُ: «أَمر نَفسي»، أو نَحوُهُ، وإلا: فالحقيقَةُ غيرُ مُرادَةٍ؛ لِأَنَّ رَقَبَةَ الحُرِّ لا تُملكُ، فكَأَنَّها قالت: أَتَزَوَّجُكَ من غيرِ عِوَضٍ».

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُها: «جِئتُ أَهَبُ لَكَ نَفسي»، مع سُكوتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيه

---

(١) ينظر: الإصابة (٣/ ١٦٧)، تهذيب التهذيب (٤/ ٢٥٢-٢٥٣)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٢٤-٤٢٤)، أسد الغابة (٢/ ٥٧٥)، الطبقات لخليفة بن خياط (ص١٦٧)، الثقات لابن حبان (٣/ ١٦٨)، معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣/ ١٣١٢)، تاريخ ابن أبي خيثمة (٢/ ٥٩).

دَليلٌ لِجَوازِ هِبَةِ المَرأَةِ نِكاحَها له، كَما قال اللهُ: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

قال أَصحابُنا: «فهذه الآيةُ وهذا الحَديثُ دَليلانِ لِذلك، فإذا وهَبَتِ امرَأَةٌ نَفسَها له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتَزَوَّجَها بلا مَهرٍ حَلَّ له ذلك، ولا يَجِبُ عليه بعدَ ذلك مَهرُها بالدُّخولِ ولا بالوَفاةِ ولا بغيرِ ذلك، بخِلافِ غيرِهِ، فَإِنَّهُ لا يَخلو نِكاحُهُ من وُجوب مَهرٍ، إمَّا مُسَمًّى، وإمَّا مَهر المِثلِ»[1].

وقَولُهُ: «**فَرَ فيها رَأيَكَ**»، **قال الحافظُ:** «كذا للأَكثَرِ، براءٍ واحدَةٍ مَفتوحَةٍ، بعدَ فاءِ التعقيب، وهي فِعلُ أَمرٍ منَ الرأيِ، ولِبَعضِهِم: بهَمزَةٍ ساكِنَةٍ، بعدَ الراءِ[2]، وكُلٌّ صَوابٌ، ووَقَعَ بإثباتِ الهمزَة في حَديثِ ابنِ مَسعودٍ أَيضًا»[3].

وقال أبو العباسِ القَسطَلانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فَرَ فيها رَأيَكَ**»: براءٍ مَفتوحةٍ بغيرِ هَمزٍ، أَمرٌ على وزنِ «فَ»؛ لِأَنَّ عَينَ الفِعل ولامَه حُذِفا؛ لِأَنَّ أصله «رَأى»، حُذِفَت لامُ الفِعلِ للجَزمِ؛ لِأَنَّ الأمرَ مجزومٌ، ثم نُقِلَت حرَكَةُ الهَمزةِ إلى الراءِ للتَّخفيفِ، فاستُغنيَ عن همزَةِ الوَصلِ فحُذِفَت، فبَقيَ على وزنِ «فَ».

ولبعضِهِم بالهَمزَةِ السَّاكنةِ بعدَ الراءِ، وكُلٌّ سائِغٌ»[4].

قَولُهُ: «**فَنَظَرَ إِلَيها رسولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَصَعَّدَ النظَرَ فيها وصَوَّبَهُ**»:

قال النوَويُّ: «أَمَّا «صَعَّدَ»: فَبتشديدِ العَينِ، أَي: رَفَعَ، وأَمَّا «صَوَّبَ»: فَبتشديدِ الواوِ، أَي: خَفَضَ.

وفيه دَليلٌ لِجَوازِ النظَرِ لِمَن أَرادَ أَن يَتَزَوَّجَ امرَأَةً، وتَأَمُّلِهِ إِيَّاها، وفيه استِحبابُ عَرضِ المَرأَةِ نَفسَها على الرجُلِ الصالِحِ ليَتَزَوَّجَها، وفيه أَنَّهُ يُستَحَبُّ لِمَن طُلِبَت منه حاجَةٌ لا

---

(١) شرح النووي على مسلم (٩/ ٢١١-٢١٢).

(٢) أي: رأ.

(٣) فتح الباري (٩/ ٢٠٦).

(٤) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٨/ ٦١).

يُمكِنُهُ قَضاؤُها أَن يَسكُتَ سُكوتًا يَفهَمُ السَّائِلُ منه ذلك، ولا يُخجِلُهُ بالمَنعِ، إلا إذا لَمْ يَحصُلِ الفَهمُ إلا بصَريحِ المَنعِ، فَيُصَرِّحُ»[١].

وقال **الحافظُ**: «المرادُ: أَنَّهُ نَظَرَ أَعلاها وأَسفَلها، والتشديدُ: إمَّا للمُبالَغَةِ في التأَمُّلِ، وإمَّا للتَّكريرِ، وبالثَّاني جَزَمَ القُرطُبيُّ في المفهِمِ، قال: «أَي: نَظَرَ أَعلاها وأَسفَلها مِرارًا[٢]»[٣].

وقال **ابنُ عُثَيمينَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وصَعَّدَ النظرَ إلَيها وصَوَّبَهُ»؛ لِأَنَّه الآنَ خاطِبٌ، والخاطِبُ يجوزُ أن يَنظُرَ إلى مَخطوبَتِه.

ومن جهَةٍ أُخرى: فإنَّ كثيرًا منَ العُلَماءِ ذكَروا أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له خَصائِصُ في باب النظَرِ، وفي باب الخَلوَةِ بالمَرأَةِ، ومن هذه الخصائصِ: أَنَّه يَجوزُ له أَن ينظُرَ إلى المرأَةِ، ويجوزُ أن يخلوَ بها؛ وذلك لِأَنَّ الفتنَةَ مأمونةٌ غايةَ الأمانِ بالنِّسبةِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصلُ النظَرِ إنَّما حُرِّمَ لخَوفِ الفِتنةِ، وإلا لكانتِ المرأَةُ مِثلَ الرجُلِ، لكِن لخَوفِ الفِتنَةِ مُنِعَ النظَرُ، ومُنِعَتِ الخَلوَةُ، لكنَّ الرَّسولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفِتنَةُ مَأمونَةٌ في حقِّه غايَةَ الأمانِ؛ ولِهذا جازَ له أن يَنظُرَ إلى المَرأَةِ الأجنبيّةِ، وأن يَخلوَ بها.

على أَنَّ لدَينا عِلَّةٌ أُخرى في هذا الحديثِ، وهي الخِطبَةُ»[٤].

قَولُهُ: «**ثم طَأطَأَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأسَهُ**»:

وللبُخاريِّ أَيضًا: «فَخَفَّضَ فيها النظَرَ ورَفَعَهُ، فلم يُردها».

وله أَيضًا: «فقالت: جِئتُ أَهَبُ نَفسي، فَقامَت طَويلًا، فَنَظَرَ وصَوَّبَ، فلما طالَ مُقامُها فقال رجلٌ: زَوِّجنيها».

---

(١) شرح النووي على مسلم (٩/ ٢١٢).

(٢) المفهم (١٣/ ١).

(٣) فتح الباري (٩/ ٢٠٦).

(٤) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٤/ ٤٥٧-٤٥٨).

وعند الطبَرانيّ في الكَبيرِ: «فَصَعَّدَ فيها النظَرَ وصَوَّبَهُ، ثم سَكَتَ».

ولِأبي يَعلى، وعبدِالرّزاقِ، والطبَرانيّ في الكَبيرِ: «أَنَّ امرَأَةً جاءَت إلى النبيِّ ﷺ، فَوَهَبَت نَفسَها له، فَصَمَتَ، ثم عَرَضَت نَفسَها عليه، فَصَمَتَ، قال: فَلَقد رَأَيتُها قائِمَةً مَليًّا -أو: هويًّا- تَعرِضُ نَفسَها عليه، وهو صامِتٌ».

وللطَّبَرانيّ في الكَبيرِ: «فَقامَت، حتى رَثَينا لها من طولِ القيامِ».

وللبُخاريِّ: «فقالت: إنَّها قد وهَبَت نَفسَها للهِ، ولِرسولِهِ ﷺ، فقال: **«ما لي في النِّساءِ من حاجَةٍ»**.

وللبَيهَقيّ: **«ما لي في النِّساءِ حاجَةٌ اليَومَ»**.

قال الحافظُ: «ويُجمَعُ بينَها وبينَ ما تَقدَّمَ: أَنَّهُ قال ذلك في آخِرِ الحالِ، فَكَأَنَّهُ صَمَتَ أوَّلًا؛ لِتَفهَمَ أَنَّهُ لَم يُرِدها، فلما أَعادَتِ الطلَبَ أَفصَحَ لها بالواقِعِ.

فَيُؤخَذُ منه: وُفورُ أَدَبِ المَرأَةِ مع شِدَّةِ رَغبَتِها؛ لِأَنَّها لَم تُبالِغ في الإلحاحِ في الطلَبِ، وفَهِمَت منَ السُّكوتِ عَدَمَ الرغبَةِ، لكنَّها لَمَّا لَم تَيأَس منَ الردِّ جَلَسَت تَنتَظِرُ الفَرَجَ، وسُكوتُهُ ﷺ: إمَّا حَياءً من مواجَهَتِها بالردِّ -وكان ﷺ شَديدَ الحَياءِ جِدًّا-، وإمَّا انتِظارًا للوَحيِ، وإمَّا تَفَكُّرًا في جَوابٍ يُناسِبُ المَقامَ»[1].

وقد روى النَّسائيُّ من طريقِ عِسلٍ[2] بن سُفيانَ، عن عَطاءِ بن أَبي رَباحٍ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاءَتِ امرَأَةٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فَعَرَضَت عليه نَفسَها، فقال لها: **«اجلِسي»**، فَجَلَسَت ساعَةً، فقال: **«اجلِسي -بارَكَ اللهُ فيكَ- أَمَّا نَحنُ: فلا حاجَةَ لَنا فيكِ، ولكن تُمَلِّكيني أَمرَكِ؟»**، قالت: نَعَم[3].

وهذا إسنادٌ ضَعيفٌ؛ عِسل بن سُفيانَ ضَعَّفَه أحمَدُ، وابنُ مَعينٍ، والنسائيّ، وغيرُهم،

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٠٦).

(٢) بكسر العين، وسكون السين، وقيل بفتحتين. تقريب التهذيب (ص٣٩٠).

(٣) السنن الكبرى (٥٤٨٠).

وقال البخاريُّ: «عِندَه مَناكيرُ»، وقال أبو حاتِمٍ: «مُنكَرُ الحَديثِ»[1].

قَولُهُ: «فلما رَأَتِ المَرأَةُ أَنَّهُ لَم يَقضِ فيها شَيئًا جَلَسَت»:

فلَم تَنصَرِف منَ المَجلِسِ؛ فرُبَّما رَأى فيها النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رأيًا، وهذا من حُسنِ عَقلِها، وجَودَةِ فِكرِها.

قال ابنُ عُثَيمينَ: «المَرأَةُ من فِقهِها جَلَسَت ولَم تنصَرِف»[2].

قَولُهُ: «فَقامَ رجلٌ من أَصحابِهِ»:

وعند الطبَرانيّ: «فَقامَ رجلٌ، أَحسَبُهُ منَ الأَنصارِ».

وله أَيضًا: «فقال رجلٌ منَ الأَنصارِ».

فجَزَمَ بأَنَّه منَ الأَنصارِ.

وعند الدَّارَقُطنيّ من حديثِ ابنِ مَسعودٍ: «فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن يَنكِحُ هذه؟**»، فَقامَ رجلٌ عليه بُردَةٌ، عاقِدُها في عُنُقِهِ، فقال: أَنا يا رسولَ اللهِ»[3].

قَولُهُ: «فقال: يا رسولَ اللهِ، إن لَم يَكُن لَكَ بها حاجَةٌ فَزَوِّجنيها»:

وللبُخاريِّ أَيضًا: «فَقامَ رجلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ أَنكِحنيها».

وعِندَ أَحمَدَ: «أَنا في القَومِ، إذ دَخَلَتِ امرَأَةٌ فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّها قد وهَبَت نَفسَها لَكَ، فَرَ فيها رَأيَكَ، فقال رجلٌ: زَوِّجنيها، فلم يُجِبهُ، حتى قامَتِ الثَّالِثَةَ».

قَولُهُ: «فقال: «فَهَل عِندَكَ من شيءٍ؟»:

---

(١) تهذيب التهذيب (٧/ ١٩٤).

(٢) فتح ذي الجلال والإكرام (٤/ ٤٥٨).

(٣) رواه الدارقطني في سننه (٣٦١٣)، وقال: « تفرد به عتبة بن السكن، وهو متروك الحديث»، وقال البيهقي في سننه (٧/ ٣٩٧): «عتبة بن السكن منسوب إلى الوضع».

وللبُخاريِّ: «هَل عِندَكَ من شيءٍ تُصدِقُها؟».

ولأبي داوُد وأحمدَ: «هَل عِندَكَ من شيءٍ تُصدِقُها إيَّاهُ؟».

وللدَّارَقُطنيّ من حديثِ ابنِ مَسعودٍ المتقدِّم: «أَلَكَ مالٌ؟».

قال ابنُ عُثَيمينَ: «هَل عِندَكَ من شيءٍ؟»: «شيءٌ» مُبتَدَأٌ مرفوعٌ بالابتِداءِ بضَمَّةٍ مُقدَّرَةٍ على آخِرِه، مَنَع من ظُهورِها اشتِغالُ المحلّ بحرَكةِ حرفِ الجَرِّ الزائِدِ؛ إذَن هي نَكِرَةٌ مَقرونَةٌ بحَرفِ الجَرِّ الزَّائِدِ، فتكونُ دالَّةً على العُمومِ، يعني: أيّ شيءٍ يكونُ، ولكن هذه النكِرَة مُقَيَّدَةٌ بأن تَكونَ صالِحَةً للمَهرِ، يعني: هل عِندَكَ من شيءٍ يَصِحُّ أن يكونَ مَهرًا؟ ولا يصدقُ هذا بحَبَّة الشَّعيرِ، كَما قاله الظَّاهِريَّةُ، لماذا؟ لِأَنَّه شيءٌ، وهو عامٌّ، لكن هذا عامٌّ مخصوصٌ بأن يكونَ هذا الشَّيءُ مُتَمَوَّلًا، بدَليلِ قَولِهِ تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ [النساء: ٢٤]، فلا بُدَّ منَ المالِ، أوِ المنفَعةِ»[1].

قَولُهُ: «فقال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ»:

وللطَّبَرانيّ: «أَعِندَكَ شيءٌ؟»، قال: لا، قال: **«فلا بُدَّ لها من شيءٍ».**

وللبُجَيريّ: «هَل عِندَكَ شيءٌ؟»، قال: لا، قال: **«إنَّه لا يَصلُحُ».**

قال ابنُ عُثَيمينَ: «أقسمَ الرجُلُ أنَّه ليس عندَهُ شيءٌ، ومعلومٌ أنَّ الرجُلَ عِندَهُ شيءٌ، لكِن ليس عِندَه شيءٌ يصدقُها إيَّاهُ، وإلا فهو عندَهُ إزارٌ لا شَكَّ، عِندَه أهلٌ، لكِن المراد شيءٌ يصدقُها إيَّاهُ»[2].

قَولُهُ: «فقال: «اذهَب إلى أَهلِكَ، فانظُر هَل تَجِدُ شَيئًا؟»، فَذَهَبَ ثم رجعَ، فقال: لا واللهِ، ما وجَدتُ شَيئًا»:

ولعبدِالرزَّاقِ، وأبي يَعلى، والطبَرانيّ في الكَبيرِ: «أَلَكَ شيءٌ؟»، قال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، قال: **«فاذهَب، فالتَمِس شَيئًا».**

---

(١) فتح ذي الجلال والإكرام (٤/ ٤٥٨).

(٢) المصدر السابق.

قال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التَمِس شَيئًا**»، وقولُ السَّائلِ: «لا أَجِدُ»، دَليلٌ على أنَّه لا بُدَّ أن يكونَ الصداقُ مِمَّا له بالٌ، ويُسمَّى مالًا، دونَ ما يُطلقُ عليه اسمُ شيءٍ؛ إذِ النواةُ والخَزَفَةُ المَكسورةُ وشَبَهُ ذلك يقَعُ عليه اسمُ شيءٍ، وهو مِمَّا لا يتَعَذَّرُ وُجودُه، وهُم مُجمِعون على أنَّ مثلَه لا يكوُن صَداقًا، ولا يَصِحُّ به النِّكاحُ»[1].

ووقع في حديث عِسلِ بن سُفيانَ المتَقدِّم: «فَقُم إلى النِّساءِ»، فَقامَ إليهنَّ، فلم يَجِد عِندَهُنَّ شَيئًا».

والمقصودُ بالنِّساءِ: أهلُ الرجُلِ؛ كَما دَلَّت عليه روايةُ الصحيحَينِ: «**اذهَب إلى أَهلِكَ فانظُر هَل تَجِدُ شَيئًا؟**».

قال ابنُ عُثَيمينَ: «لو قال قائِلٌ: كيفَ يأمُرُه أن يذهبَ إلى أهلِه ينظُر، وقد أقسَمَ أنَّه لا يَجِدُ شيئًا؟

فالجَوابُ: أنَّ الإنسانَ يَحلِفُ على غَلَبَةِ ظَنِّه، ورُبَّما يكونُ هذا الظَّنُّ، ولكن لو فَتَّشتَ لَوَجَدتَ، وكثيرًا ما ينسى الإنسانُ أشياءَ في بَيتِه، فيُقسِم أنَّها ما عندَه، ويذهَبُ يَبحَثُ، فيَجِدُها»[2].

قَولُهُ: «فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انظُر، ولو خاتمًا من حَديدٍ»:

وللبُخاريِّ: «اذهَب فالتَمِس، ولو خاتمًا من حَديدٍ».

وله أَيضًا: «اذهَب فاطلُب، ولو خاتمًا من حَديدٍ».

وله أَيضًا: «أَعطِها، ولو خاتمًا من حَديدٍ».

قَولُهُ: «فَذَهَبَ ثم رجعَ، فقال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ولا خاتمًا من حَديدٍ»:

---

(١) إكمال المعلم (٤/ ٥٧٩)، وينظر: رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام، لأبي حفص اللخمي المالكي (٤/ ٦٥٢).

(٢) فتح ذي الجلال والإكرام (٤/ ٤٥٨).

وللبُخاريِّ: «فَذَهَبَ ثم رجعَ، فقال: لا واللهِ ما وجَدتُ شَيئًا، ولا خاتمًا من حَديدٍ».

وللنسائيِّ: «ذَهَبَ فَطَلَبَ، ثم جاءَ، فقال: لَم أَجِد شَيئًا، ولا خاتمًا من حَديدٍ».

وللطَّبَرانيِّ في الكَبير: «فَذَهَبَ ثم رجعَ فقال: ولا خاتمًا من حَديدٍ لَم أَجِدهُ، ثم جَلَسَ».

قال الحافظُ: «ووَقَعَ في «خاتَم» النصبُ على المَفعوليَّةِ لِـ«التَمِس»، والرفعُ على تَقديرِ: ما حَصَلَ لي ولا خاتَمٌ.

و«لَو» في قَولِهِ: «ولَو خاتمًا» تَقليليَّةٌ، قال عياضٌ: «ووَهِمَ مَن زَعَمَ خِلافَ ذلك»[1].

فائِدةٌ:

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الخاتَمِ ثَمانِ لُغاتٍ:

فَتحُ التاءِ، وكَسرُها، وهُما واضِحَتانِ.

وبتَقديمِها على الأَلِفِ، مع كَسرِ الخاءِ: «خِتامٌ».

وبفَتحِها، وسُكونِ التحتانيَّةِ، وضَمِّ المُثَنَّاةِ، بعدَها واوٌ: «خَيتومٌ».

وبحَذفِ الياءِ والواوِ، مع سُكونِ المُثَنَّاةِ: «خَتمٌ».

وبأَلِفٍ بعدَ الخاءِ، وأُخرى بعدَ التاءِ: «خاتامٌ».

وبزيادَةِ تَحتانيَّةٍ، بعدَ المُثَنَّاةِ المَكسورَة: «خاتيامٌ».

وبحَذفِ الأَلِفِ الأولى، وتَقديمِ التحتانيَّةِ: «خَيتامٌ».

وقد جَمَعتُها في بَيت، وهوَ:

خاتـامُ خاتَـمُ خَتـمٌ خاتِـمٌ وخَتا

مٌ خاتيـامٌ وخَيتـومٌ وخَيتـامُ

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٠٧).

وقَبله:

خُذ نَظمَ عَدِّ لُغاتِ الخاتَمِ انتَظَمَت
ثَمانيًا ما حَواها قَبلُ نَظَّامُ

ثم زِدتُ ثالِثًا:

وهَمزُ مَفتوحِ تاءٍ تاسِعٌ وإذا
ساغَ القياسُ أَتَمَّ العَشرَ خاتامُ

أَمَّا الأَوَّلُ: فَذكرَ أَبو البَقاءِ في إعراب الشَّواذِّ في الكَلامِ على مَن قَرَأَ «العالَمِينَ» بالهَمزِ، قال: «ومِثلُهُ: الخَأَتَمُ بالهَمزِ»، وأَمَّا الثَّاني: فَهو على الاِحتِمالِ، واقتَصَرَ كَثيرونَ منهمُ النوَويُّ على أَربَعَةٍ، والحقُّ: أَنَّ الخَتمَ والخِتامَ مُختَصٌّ بما يُختَمُ بهِ، فَتكمُلُ الثَّمانِ فيه، وأَمَّا ما يُتَزَيَّنُ بهِ فَليس فيه إلا سِتَّةٌ، وأَنشَدوا في الخاتيامِ، وهو أَغرَبُها:

أَخَذتُ من سُعداكَ خاتياما لِوَعدٍ تَكتَسِبُ الآثاما[1]

وقال **الزَّبيديُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولَم يَذكُرِ الناظِمُ «خَتمًا» مُحَرَّكَةً، وقد ذكره المصنف وابنُ سيدَه وابنُ هِشام في شَرح الكَعبيَّة.

قال **ابنُ سيدَه**: «هو من الحَلي، كَأَنَّه أَوَّلَ وهلةٍ خُتِم بهِ، فدَخَل بذلك في باب الطابعِ، ثمَّ كَثُر استِعمالُه لِذلك، وإن أُعِدَّ الخاتِمُ لغير الطبعِ»[2].

وقال **ابنُ قُتَيبَةَ الدِّينوريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُقالُ: خاتِمٌ وخاتَمٌ وخاتامٌ وخَيتامٌ وخاتيام.

وأنشدوا في الخَيتام:

ولقد وعدتَ وأنتَ أكرمُ واعِدٍ
لا خَيرَ في وعدٍ بغيرِ تَمام

---

(١) المصدر السابق (١٠/ ٣١٥-٣١٦).

(٢) تاج العروس (٣٢/ ٤٤).

إنَّ الأُمـورَ حَميدَهـا وذَميمَهـا
في النـاسِ مِثـلُ عَواقـبِ الخَيتـامِ

وأنشَدوا في الخاتيام:

أخَـذتَ مـن سُـعداكَ خاتيامـا
لِموعِـــدٍ يُكسِـــبُكَ الآثامـــا[1]

وقال **أبو محمَّدٍ الحَريريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن أوهامِهم في هذا الباب: أَنَّهُم يُفَرِّقون بين الخاتَم -بفَتح التاء-، والخاتِم -بخَفضِها-؛ فيوهِمون بأَنّ الأوَّلَ هو ما نَختِم بهِ الرسالَة على الطينةِ، والثَّاني ما يُلبَسُ في الإصبعِ.

والصوابُ: أَنّ كِلَيهِما بمَعنى»[2].

والمقصودُ بقولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اذهَب فالتَمِس ولو خاتمًا من حَديدٍ**»، أي: التمِس أيَّ شيءٍ يَصلُحُ أن يكونَ مَهرًا، ولو أَقَلَّ القليلِ، وليس المقصودُ بالأمرِ بالتِماسِ الخاتمِ، أَنَّه يكونُ من نَحوِ ما اعتادَه الناسُ اليَومَ، بشِراءِ خاتَمِ الشَّبكَةِ للعَروسِ.

قال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخاتمُ معروفٌ، والحديدُ معروفٌ، وهذا يُضرَب مثلًا للقِلَّة، يعني: ولو أَقَلَّ القليلِ، يعني: لو كان خاتمًا من حديدٍ تُعطيها إيَّاه فافعَل، وليس هذا على أساس الدُبلَة كَما يظُنُّه الناسُ، لا، المقصودُ: ولو شيئًا زَهيدًا كالخاتمِ من حَديدٍ»[3].

مَسأَلَةٌ:

اختلفَ العُلماءُ في حُكم لُبسِ خاتمِ الحَديدِ، فقيلَ بجَوازِه، وقيلَ بكَراهَتِه، وذهَب بعضُهم إلى القَولِ بتَحريمِه.

واحتَجَّ القائِلون بالجَوازِ بحديثِ سَهلِ بن سَعدٍ هذا، وقَولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه: «**التَمِس ولو خاتمًا من حَديدٍ**».

---

(١) رسالة الخط والقلم (ص٤).

(٢) درة الغواص في أوهام الخواص (ص٢٧٣).

(٣) فتح ذي الجلال والإكرام (٤/ ٤٥٨-٤٥٩).

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَولُهُ: «**اذهَب فالتَمِس ولو خاتمًا من حَديدٍ**»، استُدِلَّ بهِ على جَوازِ لُبسِ خاتَمِ الحَديدِ، ولا حُجَّةَ فيه؛ لِأَنَّهُ لا يَلزَمُ من جَوازِ الِاتِّخاذِ جَوازُ اللُّبسِ، فَيُحتَمَلُ أَنَّهُ أَرادَ وُجودَهُ؛ لِتَنتَفِعَ المَرأَةُ بقيمَتِهِ»[1].

وذكَرهُ صاحِبُ عون المَعبودِ، وعَقَّب عليه بقَولِهِ: «**ولا يَخفى ما فيه منَ الضَّعفِ والوَهَنِ**»[2].

وذلك أنَّ خاتمَ الحَديدِ إمَّا أن يُستَعمَلَ، وإمَّا أن يُباعَ على مَن يَستَعمِلُه، فإذا نَهى الشَّرعُ عن خاتَمِ الحَديدِ، فقد نَهى عنِ استعمالِه، وعن بيعِه وشرائِه، فصار قِطعةً من الحديدِ، فيَصيرُ قَولُهُ: «**التَمِس ولو خاتمًا من حَديدٍ**»، كقَولِهِ: «التَمِس قِطعةً من الحَديدِ»، ولا يَستقيم مثلُ هذا.

فنَصُّه على خاتمِ الحَديدِ كالصريحِ في جَوازِ استعمالِه، أو بَيعِه على مَن يَستَعملُه، فصَحَّ الِاحتِجاجُ بالحديثِ على جوازِ لُبسِ خاتَمِ الحَديدِ.

واحتجَّ القائِلون بالمنعِ بحديثِ ابنِ عَجلانَ، عن عَمرِو بن شُعَيبٍ، عن أَبيهِ، عن جَدِّهِ: أَنَّ النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رَأى على بَعضِ أَصحابِهِ خاتمًا من ذَهَبٍ، فَأَعرَضَ عنه، فَأَلقاهُ واتَّخَذَ خاتمًا من حَديدٍ، فقال: «**هذا شَرٌّ**[3]، **هذا حِليَةُ أَهلِ النارِ**»، فَأَلقاهُ، فاتَّخَذَ خاتمًا من ورِقٍ، فَسَكَتَ عنه[4].

ورواه عبدُ اللهِ بن المؤَمَّلِ، عَنِ ابنِ أَبي مُلَيكَةَ، عن عبدِ اللهِ بن عَمرِو بن العاصِ: أَنَّهُ

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٣٢٣).

(٢) عون المعبود (١١/ ١٩١).

(٣) وفي رواية عند أحمد (٦٦٨٠): «**هذا أشر**».

(٤) رواه الإمام أحمد (٦٥١٨)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٢١)، وابن عجلان وصفه ابن حبان بالتدليس، كما في طبقات المدلسين لابن حجر (ص٤٤).

وقال أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٢٣): حدثنا محمد بن المظفر، ثنا محمد بن زبان، ثنا زكريا بن يحيى، ثنا المفضل ابن فضالة، عن المثنى بن الصباح، عن عمرو بن شعيب، به.

وهذا إسناد صحيح إلى المثنى بن الصباح، وهو متروك، فيخشى أن يكون ابن عجلان أخذه عنه، ودلسه.

لَبسَ خاتمًا من ذَهَبٍ، فَنَظَرَ إليه رسولُ اللهِ ﷺ، كَأَنَّهُ كَرِهَهُ، فَطَرَحَهُ، ثم لَبسَ خاتمًا من حَديدٍ، فقال: «**هذا أَخبَثُ وأَخبَثُ**»، فَطَرَحَهُ، ثم لَبسَ خاتمًا من ورِقٍ، فَسَكَتَ عنه[١].

وهذا الحَديثُ ضَعَّفَه البَيهَقيّ[٢] وابنُ عبدِ البَرِّ[٣] وغيرُهُما.

ومِمَّا يَدُلُّ على ضَعفِه قَولُهُ: «**هذا شَرٌّ**»، وفي الرِّوايةِ الأُخرى: «**هذا أَشَرُّ**»، وقَولُهُ في الحديثِ الآخَر: «**هذا أَخبَثُ وأَخبَثُ**»، فلَو صَحَّ ذلك لكان لُبسُ خاتمِ الحَديدِ أَشَدَّ حُرمَةً من لُبسِ خاتمِ الذَّهَب، وهذا لا نَعلَمُ أحدًا يقول به من أَهلِ العِلمِ.

وقد ذَهَبَ عُلماءُ اللَّجنَةِ الدَّائِمةِ، والشَّيخُ مُحَمَد بن إبراهيمَ، والشَّيخُ ابنُ بازٍ، إلى جَوازِ لُبسِ الخاتمِ منَ الحَديدِ[٤].

وقال **ابنُ عُثَيمينَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «التختُّمُ بالحَديدِ اختَلَف فيه أهلُ العلمِ: فذهَب بعضُهم إلى أنَّه لا يَجوزُ، إمَّا مكروهٌ كراهةَ تَنزيهٍ، وإمَّا مكروهٌ كراهةَ تحريمٍ، واستدَلُّوا لذلك بأنَّ النبيّ ﷺ سَمَّاه حِليَةَ أهلِ النارِ.

وذهَبَ آخرون إلى أنَّه مُباحٌ، واستَدَلُّوا لذلك بقَولِ النبيّ ﷺ للرَّجُلِ الذي طلَبَ منه أن يُزَوِّجَه المرأَةَ التي وهَبَت نفسَها للنبيّ ﷺ، فقال له النبيّ ﷺ: «**التَمِس ولو خاتمًا من حَديدٍ**»، وهذا دليلٌ على جَوازِ التختُّمِ بالخاتَمِ؛ إذ إنَّ الخاتَمَ لا يُنتَفَعُ به إلا بالتختُّم، فلولا أنَّه جائِزٌ ما قال له النبيُّ ﷺ: «**التَمِس ولو خاتمًا من حَديدٍ**»، والأصلُ الحِلُّ، إلا ما ثَبَتَ تحريمُه.

والذي أرى في هذه المَسأَلَة: أنَّه ينبَغي للإنسانِ أن يتَجَنَّبَه؛ لِأَنَّ الحَديثَ الذي استَدَلَّ

---

(١) رواه الإمام أحمد (٦٩٧٧)، وابن المؤمل ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، وقال أبو داود: «منكر الحديث». تهذيب التهذيب (٦/ ٤٦).

(٢) شعب الإيمان (٨/ ٣٥٧).

(٣) التمهيد (١٧/ ١١٤).

(٤) ينظر: فتاوى اللجنة الدائمة (٢٤/ ٦٥)، فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم (٤/ ٧٣)، فتاوى نور على الدرب لابن باز (٧/ ٢٩٠).

به مَن قالوا بالكَراهَة -تنزيهًا أو تحريمًا-وإن كان بعضُهم طعَنَ فيه- لكِن يوجِبُ للإنسانِ شُبهةً، واجتنابُ الشُّبُهاتِ مِمَّا جاءت به الشَّريعةُ»[1].

عَودَةٌ إلى شَرحِ الحديثِ:

قال الرجُلُ بعدَ أنِ التَمَسَ شيئًا فلَم يَجِد: «ولكن هذا إزاري -قال سَهلٌ: ما له رِداءٌ- فَلها نِصفُهُ»:

وللبُخاريِّ: «هَل عِندَكَ من شيءٍ تُصدِقُها؟»، قال: ما عِندي إلا إزاري».

وقال الحافظُ: «ثَبَتَ ذِكرُ الإزارِ في روايةِ مالِكٍ وجَماعَةٍ، منهم مَن قدَّمَ ذِكرَهُ على الأَمرِ بالتِماسِ الشَّيءِ أوِ الخاتَمِ، ومنهم مَن أَخَّرَهُ»[2].

ففي بَعضِ الرِّواياتِ:

قال: «**هَل عِندَكَ من شيءٍ؟**»، فقال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، قال: «**اذهَب إلى أَهلِكَ فانظُر هَل تَجِدُ شَيئًا؟**»، فَذَهَبَ ثم رجعَ فقال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ ما وجَدتُ شَيئًا، قال: «**انظُر ولو خاتَمًا من حَديدٍ**»، فَذَهَبَ ثم رجعَ، فقال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ ولا خاتَمًا من حَديدٍ، ولكن هذا إزاري، فَلها نِصفُهُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما تَصنَعُ بإزارِكَ؟ إن لَبستَهُ لَم يَكُن عليها منه شيءٌ، وإن لَبَستَهُ لَم يَكُن عليكَ شيءٌ**»[3].

فقدَّم التِماسَ الشَّيءِ -خاتَمٍ أو غيرِه- على ذِكر الإزارِ.

وفي بعضِها:

قال: «**هَل عِندَكَ من شيءٍ تُصدِقُها؟**»، قال: ما عِندي إلا إزاري، فقال: «**إن أَعطَيتَها إيَّاهُ جَلَستَ لا إزارَ لَكَ، فالتَمِس شَيئًا**»، فقال: ما أَجِدُ شَيئًا، فقال: «**التَمِس ولو خاتَمًا من حَديدٍ**»[4].

---

(١) فتاوى نور على الدرب (٢٢/ ٢)، بترقيم الشاملة.

(٢) فتح الباري (٩/ ٢٠٧).

(٣) رواه البخاري (٥٠٣٠).

(٤) رواه البخاري (٥١٣٥).

فقدَّم ذِكرَ الإزارِ على التِماسِ الخاتَمِ أو غيرِه.

قَولُهُ: «فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **«ما تَصنَعُ بإزارِكَ؟ إن لَبستَهُ لَم يَكُن عليها منه شيءٌ، وإن لَبَستهُ لَم يَكُن عليكَ منه شيءٌ»:**

وللبُخاريِّ أَيضًا: «إزارُكَ إن لَبَستهُ لَم يَكُن عليكَ منه شيءٌ، وإن لَبستَهُ لَم يَكُن عليها منه شيءٌ».

قال الحافظُ: «يَجوزُ في قَولِهِ: «**إزارُكَ**» الرفعُ على الابتِداءِ، والجُملَةُ الشَّرطيَّةُ الخَبَرُ، والمَفعولُ الثَّاني مَحذوفٌ تَقديرُهُ: إيَّاهُ، وثَبَتَ كذلك في روايةٍ.

ويَجوزُ النصبُ على أَنَّهُ مَفعولٌ ثانٍ لِـ«**أَعطَيتها**»، **والإزارُ يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ**، وقد جاءَ هُنا مُذَكَّرًا»[1].

ولأبي بكرٍ النيسابُوريِّ: «إزاري بيني وبينَها، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**كَيفَ؟ إن أَخَذَتهُ منكَ عَريتَ، وإن لَبستَهُ عَريَت**»[2].

وعندَ عبدِ الرزَّاق: «واللهِ ما وجَدتُ شَيئًا غيرَ ثَوبي هذا، اشقُقهُ بيني وبينَها، فقال النبيُّ ﷺ: «**ما في ثَوبكَ فَضلٌ عنكَ**».

وللبُخاريِّ: «ولكن أَشُقُّ بُردَتي هذه فَأُعطيها النِّصفَ، وآخُذُ النِّصفَ، قال: «**لا**».

وعند الطبَرانيِّ في الكَبيرِ: «قال: هذه الشَّملَة التي عَلَيَّ، ليس عِندي غيرُها -قد عَقدَها على صَدرِهِ-، فقال رسولُ اللهِ: «**أَرَأَيتَ إن عَرَّستَ، أَعِندَكَ غيرُها؟**» قال: لا واللهِ، قال: «**اذهَب فاطلُب، ولو خاتمًا من حَديدٍ**».

وله أَيضًا: «فَقامَ رجلٌ ما عليه إلا ثَوبٌ واحدٌ، عاقِدٌ طَرَفَيهِ على عُنُقِهِ، فقال: إن لَم يَكُن لَكَ بها حاجَةٌ فَزَوِّجنيها».

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٠٧).

(٢) الزيادات على كتاب المزني (ص٥٣٢).

وعِندَ **البخاريِّ**: «فقال رجلٌ: زَوِّجنيها، قال: «**أَعطِها ثَوبًا**»، قال: لا أَجِدُ، قال: «**أَعطِها ولو خاتمًا من حَديدٍ**»، فاعتَلَّ له».

ومعنى قَولِهِ: «فاعتَلَّ له»، أَي: اعتَذَرَ بعَدَمِ وِجدانِهِ.

وقال الحافظُ: «ومعنى قَولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن لَبَستَهُ لَم يَكُن عليكَ منه شيءٌ، وإن لَبستَهُ لَم يَكُن عليها منه شيءٌ**»، أَي: إن لَبَستَهُ كامِلًا، وإلا فَمنَ المَعلومِ من ضيقِ حالِهم وقِلَّةِ الثِّياب عِندَهُم أَنَّها لَو لَبَستَهُ بعدَ أَن تَشُقَّهُ لَم يَستُرها.

ويَحتَمِلُ أَن يكونَ المرادُ بالنفي نَفيَ الكَمالِ؛ لِأَنَّ العَرَبَ قد تَنفي جُملَةَ الشَّيءِ إذا انتَفى كَمالُهُ، والمعنى: لَو شَقَقتَهُ بينَكُما نِصفَينِ لَم يَحصُل كَمالُ سِترِكَ بالنِّصفِ إذا لَبستَهُ، ولا هيَ»[1].

قَولُهُ: «**فَجَلَسَ الرجُلُ، حتى إذا طالَ مَجلِسُهُ قامَ، فَرَآهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُوَلِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعيَ**»:

ولأبي بكرٍ النيسابوريِّ: «فَقامَ طَويلًا، ثم ولَّى، فقال: «**عَلَيَّ بالرجُلِ**».

وللبُخاريِّ: «فَرَآهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعاهُ -أو دُعيَ له-».

قَولُهُ: «**فلما جاءَ قال: «ماذا معكَ منَ القُرآنِ؟» قال: مَعي سورَةُ كذا وسورَةُ كذا -عَدَّدَها-، فقال: «تَقرَؤُهُنَّ عن ظَهرِ قَلبكَ؟»، قال: نَعَم**»:

وللبُخاريِّ: «فقال له: «**ماذا معكَ منَ القُرآنِ؟**»، فقال: مَعي سورَةُ كذا وسورَةُ كذا -لِسوَرٍ يُعَدِّدُها-».

وفي حديثِ عِسلِ بن سُفيانَ: «**ما تَحفَظُ منَ القُرآنِ؟**»، قال سورَةَ البَقَرَةِ، أَوِ التي تَليها»[2].

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٠٨)، ثم رجح الحافظ الاحتمال الأول.

(٢) رواه أبو داود (٢١١٢)، والنسائي في الكبرى (٥٤٨٠)، وقد تقدم أنه حديث ضعيف؛ لحال راويه عسل بن سفيان.

وعند الدَّارَقُطنيّ، والبَيهَقيّ: «قال: «**فَهَل تَقرَأُ منَ القُرآنِ شَيئًا؟**»، قال: نَعَم، سورَةَ البَقَرَةِ، وسورَةَ المفَصَّلِ».

وقد تَفَرَّدَ به عُتبَةُ بن السَّكَنِ، وهو مُتَّهَمٌ بالوَضعِ كَما تَقدَّمَ.

وقَولُهُ: «**تَقرَؤُهُنَّ عن ظَهرِ قَلبكَ؟**»، أي: حفظًا، تَقولُ: قرأت القُرآنَ عن ظَهرِ قَلبي، أَي: قرأته من حِفظي، وظَهرُ القَلب: حِفظُه عن غيرِ كِتابٍ، وقد قرأَه ظاهِرًا واستَظهره، أَي: حَفِظَهُ وقرأَه ظاهِرًا[1].

وقال الأزهريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُقالُ: حَمَل فلانٌ القرآنَ على ظَهرِ لسانِه، كَما يُقالُ: حَفِظه عَن ظَهرِ قَلبه، وقد استَظهر فلانٌ القُرآن: إذا حَفِظَه»[2].

قال: «اذهَب، فقد مُلِّكتَها بما معكَ منَ القُرآنِ»:

هذا لَفظُ مسلمٍ، **قال النوويُّ**: «هَكذا هو في مُعظَمِ النُّسَخِ، وكذا نَقَله القاضي عن روايةِ الأَكثَرينَ: «**مُلِّكتَها**»، بضَمِّ الميمِ، وكَسرِ اللَّامِ المشَدَّدَةِ، على ما لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ، وفي بَعضِ النُّسَخِ: «**مَلَّكتُكَها**»، بكافَينِ، وكذا رواهُ البخاريُّ»[3].

وللبُخاريِّ: «**اذهَب، فقد زَوَّجتُكَها بما معكَ منَ القُرآنِ**».

وله أَيضًا: «**قد زَوَّجناكَها بما معكَ منَ القُرآنِ**».

وللنسائيّ وابنِ ماجَه: «**قد زَوَّجتُكَها على ما معكَ منَ القُرآنِ**»[4].

وعندَ أحمدَ: «**فقد أَملَكتُكَها بما معكَ منَ القُرآنِ**»، قال: فَرَأَيتُهُ يَمضي، وهي تَتبَعُهُ».

ولمسلمٍ: «**انطَلِق، فقد زَوَّجتُكَها، فَعَلِّمها منَ القُرآنِ**».

---

(١) لسان العرب (٤/ ٥٢٦).

(٢) تهذيب اللغة (٦/ ١٣٩).

(٣) شرح النووي على مسلم (٩/ ٢١٤).

(٤) قال السندي: «فزوجه بما معه، أي بتعليمها إياه، كما يدل عليه بعض روايات الحديث». حاشية السندي على سنن النسائي (٦/ ٥٥).

وفي حَديثِ عِسلِ بن سُفيانَ: «قال: **فَقُم فَعَلِّمها عِشرينَ آيةً، وهي امرَأَتُكَ**».

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استُدِلَّ بِهِ على جَوازِ جَعلِ المَنفَعَةِ صَداقًا، ولو كان تَعليمَ القُرآنِ، قال المازِريُّ: «هذا يَنبَني على أَنَّ الباءَ للتَّعويضِ، كَقَولِكَ: بعتُكَ ثَوبي بدينارٍ، وهذا هو الظَّاهِرُ، وإلا لَو كانت بمعنى اللَّامِ على معنى تَكريمِهِ لِكَونِهِ حامِلًا للقُرآنِ، لَصارَتِ المَرأَةُ بمعنى المَوهوبَةِ، والمَوهوبَةُ خاصَّةٌ بالنبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ».

وانفَصَلَ الأَبهَريُّ وقَبله الطحاويُّ ومَن تَبعَهُما كَأَبي محمدِ بن أَبي زَيدٍ عن ذلك: بأَنَّ هذا خاصٌّ بذلك الرجُلِ؛ لِكَونِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يَجوزُ له نِكاحُ الواهِبَةِ، فَكذلك يَجوزُ له أَن يُنكِحَها لِمَن شاءَ بغيرِ صَداقٍ، ونَحوُهُ للدَّاوُديِّ، وقال: «إنكاحُها إيَّاهُ بغيرِ صَداقٍ؛ لِأَنَّهُ أولى بالمؤمِنينَ من أَنفُسِهِم»، وقَوَّاهُ بَعضُهُم بأَنَّهُ لَمَّا قال له: «**مَلَّكتُكَها**» لَم يُشاوِرها، ولا استَأذَنَها.

وهذا ضَعيفٌ؛ لِأَنَّها هي أَوَّلًا فَوَّضَت أَمرَها إلى النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كَما تَقدَّمَ في روايةِ الباب: «فَرَ فيّ رَأيَكَ»[1]، وغيرِ ذلك من أَلفاظِ الخَبَرِ التي ذكرناها، فَلِذلك لَم يَحتَج إلى مُراجَعَتِها في تَقديرِ المَهرِ، وصارَت كَمَن قالت لِوَليِّها: «زَوِّجني بما تَرى من قَليلِ الصداقِ وكَثيرِهِ».

واحتُجَّ لِهذا القَولِ بما أَخرَجَهُ سَعيدُ بن مَنصورٍ، من مُرسَلِ أَبي النُّعمانِ الأَزديِّ، قال: زَوَّجَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ امرَأَةً على سورَةٍ منَ القُرآنِ، وقال: «**لا تَكونُ لِأَحَدٍ بعدَكَ مَهرًا**»[2]، وهذا مع إرسالِهِ فيه مَن لا يُعرَفُ، وأَخرَجَ أَبو داوُدَ من طَريقِ مَكحولٍ، قال: «ليس هذا لِأَحَدٍ بعدَ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ»[3]، وأَخرَجَ أَبو عَوانَةَ من طَريقِ اللَّيثِ بن سَعدٍ، نحوهُ.

وقال عياضٌ: «يَحتَمِلُ قَولُهُ: «**بما معكَ منَ القُرآنِ**» وجهَينِ، أَظهَرُهُما: أَن يُعَلِّمَها ما

---

(١) لفظه: «فر فيها رأيك»، على طريق الالتفات، كما تقدم.

(٢) سنن سعيد بن منصور (٦٤٢).

(٣) سنن أبي داود (٢١١٣)، وضعفه الألباني.

معه منَ القُرآنِ، أو مِقدارًا مُعَيَّنًا منه، ويكون ذلك صَداقَها، وقد جاءَ هذا التفسيرُ عن مالِكٍ، ويُؤَيِّدُهُ قَولُهُ في بَعضِ طُرُقِهِ الصحيحَةِ: «**فَعَلِّمها منَ القُرآنِ**».

ويَحتَمِلُ أَن تَكونَ الباءُ بمعنى اللَّامِ، أَي: لِأَجَلِ ما معكَ منَ القُرآنِ، فَأَكرَمَهُ بأَن زَوَّجَهُ المَرأَةَ بلا مَهرٍ؛ لِأَجلِ كَونِهِ حافِظًا للقُرآنِ، أو لِبَعضِهِ».

ونَظيرُهُ: قِصَّةُ أَبي طَلحَةَ مع أُمِّ سُلَيمٍ، وذلك فيما أَخرَجَهُ النسائيُّ وصَحَّحَهُ من طَريقِ جَعفَرِ بن سُلَيمانَ، عن ثابتٍ، عن أَنَسٍ، قال: خَطَبَ أَبو طَلحَةَ أُمَّ سُلَيمٍ، فقالت: «واللهِ ما مِثلُكَ يُرَدُّ، ولكنَّكَ كافِرٌ، وأَنا مسلمَةٌ، ولا يَحِلُّ لي أَن أَتَزَوَّجَكَ، فَإن تُسلِم فَذاكَ مَهري، ولا أَسأَلُكَ غيرَهُ»، فَأَسلَمَ، فكان ذلك مَهرَها[1].

وأَخرَجَ النسائيُّ من طَريقِ عبدِ اللهِ بن عُبَيدِ اللهِ بن أَبي طَلحَةَ، عن أَنَسٍ، قال: «تَزَوَّجَ أَبو طَلحَةَ أُمَّ سُلَيمٍ، فكان صَداقُ ما بينهما الإسلامَ»، فَذكرَ القِصَّةَ، وقال في آخِرِهِ: «فكان ذلك صَداقَ ما بينهما»[2].

تَرجَمَ عليه النسائيُّ: «التزويجُ على الإسلامِ»، ثم تَرجَمَ على حَديثِ سَهلٍ: «التزويجُ على سورَةٍ منَ القُرآنِ»، فَكَأَنَّهُ مالَ إلى تَرجيحِ الِاحتِمالِ الثَّاني.

ويُؤَيِّدُ أَنَّ الباءَ للتَّعويضِ لا للسَّبَبيَّةِ: ما أخرجه التِّرمِذيُّ من حَديثِ أَنَسٍ: أَنَّ النبيَّ ﷺ سأَلَ رجلًا من أَصحابِهِ: «**يا فُلانُ، هَل تَزَوَّجتَ؟**»، قال: لا، وليس عِندي ما أَتَزَوَّجُ بِهِ، قال: «**أَليس معكَ قُل هو اللهُ أَحَدٌ؟**»، الحَديثَ[3].

وانفَصَلَ بَعضُهُم بأَنَّهُ زَوَّجَها إيَّاهُ؛ لِأَجلِ ما معه منَ القُرآنِ الذي حَفِظَهُ، وسَكَتَ عَنِ المَهرِ، فَيكونُ ثابتًا لها في ذِمَّتِهِ إذا أَيسَرَ، كَنِكاحِ التفويضِ، وإن ثَبت حَديثُ ابنِ عباسٍ المتَقدِّمُ، حَيثُ قال فيه: «**فإذا رَزَقَكَ اللهُ فَعَوِّضها**»، كان فيه تَقويَةٌ لِهذا القَولِ، لكنَّهُ غيرُ ثابتٍ.

---

(١) سنن النسائي (٣٣٤١)، وصححه الألباني.

(٢) سنن النسائي (٣٣٤٠)، وصححه الألباني.

(٣) رواه الترمذي (٢٨٩٥)، وأحمد (١٣٣٠٩)، وضعفه الألباني، وكذا ضعفه محققو المسند.

ويُؤَيِّدُ قولَ الجُمهورِ: قَولُهُ ﷺ -أوَّلًا-: «**هَل معكَ شيءٌ تُصدِقُها؟**»، ولو قَصَدَ استِكشافَ فَضلِهِ لَسأله عن نَسَبِهِ وطَريقَتِهِ ونَحوِ ذلك.

فَإن قيلَ: كَيفَ يَصِحُّ جَعلُ تَعليمها القُرآنَ مَهرًا، وقد لا تَتَعَلَّمُ؟

أُجيبُ: كَما يَصِحُّ جَعلُ تعليمِها للكتابَةِ مَهرًا، وقد لا تَتَعَلَّمُ.

وإنَّما وقَعَ الاِختِلافُ عِندَ مَن أَجازَ جَعلَ المَنفَعَةِ مَهرًا: هَل يشتَرطُ أَن يعلمَ حِذق المتَعلِّم، أو لا؟

وفيه جَوازُ كَونِ الإجارَةِ صَداقًا، ولو كانتِ المَصدوقَةُ المستَأجِرَةَ، فَتَقومُ المَنفَعَةُ منَ الإجارَةِ مَقامَ الصداقِ، وهو قَولُ الشَّافِعيِّ، وإسحاقَ، والحَسَنِ بن صالِحٍ، وعِندَ المالِكيَّةِ فيه خِلافٌ، ومَنَعَهُ الحَنَفيَّةُ في الحُرِّ، وأَجازوهُ في العبدِ، إلا في الإجارَةِ في تَعليمِ القُرآنِ فَمَنَعوهُ مُطلَقًا، بناءً على أَصلِهِم في أَنَّ أَخذَ الأُجرَةِ على تَعليمِ القُرآنِ لا يَجوزُ.

وقد نَقَلَ عياضٌ جَوازَ الاِستِئجارِ لِتَعليمِ القُرآنِ عَنِ العلماء كافَّة إلا الحَنَفيَّة.

وقال ابنُ العَرَبيِّ: «منَ العُلَماءِ مَن قال: «زَوَّجَهُ على أَن يُعَلِّمَها منَ القُرآنِ»، فَكَأَنَّها كانت إجارَةً، وهذا كَرِهَهُ مالِكٌ، ومَنَعَهُ أَبو حَنيفَةَ، وقال ابنُ القاسِمِ: «يُفسَخُ قَبلَ الدُّخولِ، ويَثبُتُ بعدَهُ»، قال: «والصحيحُ: جَوازُهُ بالتعليمِ».

وقد رَوى يَحيى بن مُضَرَ، عن مالِكٍ في هذه القِصَّةِ: أَنَّ ذلك أُجرَةٌ على تَعليمِها، وبَذلك جازَ أَخذُ الأُجرَةِ على تَعليمِ القُرآنِ، وبالوَجهَينِ قال الشَّافِعيُّ، وإسحاقُ، وإذا جازَ أَن يُؤخَذَ عنه العِوَضُ جازَ أَن يكونَ عِوَضًا، وقد أَجازَهُ مالِكٌ من إحدى الجِهَتَينِ، فَيَلزَمُ أَن يُجيزَهُ منَ الجِهَةِ الأُخرى.

وقال القُرطُبيُّ: «قَولُهُ: «**عَلِّمها**» نَصٌّ في الأَمرِ بالتعليمِ، والسِّياقُ يَشهَدُ بأَنَّ ذلك لِأَجلِ النِّكاحِ، فلا يُلتَفَتُ لِقَولِ مَن قال: إنَّ ذلك كان إكرامًا للرَّجُلِ؛ فَإنَّ الحَديثَ يُصَرِّحُ بخِلافِهِ، وقَولُهُم أَنَّ الباءَ بمعنى اللَّامِ ليس بصَحيحٍ لُغَةً، ولا مَساقًا»[1].

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢١٢-٢١٣).

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**بما معكَ منَ القُرآنِ**»، الباءُ هُنا اختَلفَ العُلماءُ رَحِمَهُمُ اللهُ فيها، فقال بَعضُهم: إنَّها سَبَبيَّةٌ، وقال بعضُهُم: إنَّها عِوَضيَّةٌ، والفَرقُ بينَ القولَين ظاهِرٌ، فإن قُلنا: إنَّها سَبَبيَّةٌ صارَ معنى الحديثِ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعَلَ حِفظَه لهذه السُّوَرِ مَهرًا، ومعلومٌ أنَّ هذا لا تنتَفِعُ به المرأَةُ.

وإن قُلنا: إنَّها عِوَضٌ صارَ المعنى: أنَّكَ تُعَلِّمُها مِمَّا معك منَ القُرآنِ، والأقرَبُ الثَّاني؛ لِأَنَّهُ هو الموافِقُ لقَولِهِ تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾ [النساء: ٢٤]، و«مَلَّكَ» تَنصُبُ مفعولَينِ: «الكاف»، والثَّاني «هاء»، وهي من باب كَسا، والفَرقُ بينَ كسا وظَنَّ وبابها: أنَّ ظَنَّ وبابَها تَنصُبُ مفعولَين أصلُهُما المبتَدأُ والخَبَرُ، بمعنى: أنَّكَ لو جَرَّدتَ الجُملَةَ عن العامِلِ لَصارَ الباقي مُبتَدَأً وخَبَرًا، تَقول: «ظَنَنتُ زَيدًا قائِمًا»، احذِفِ العامِلَ: «زَيدٌ قائِمٌ»، لكِن «كَسوتُ عَمرًا جُبَّةً»، احذِفِ الفِعلَ «عَمرو جُبَّة»، فلا يَصلُحُ.

«مَلَّكتُكَها» احذِف «مَلَّكتُ»، هَل يَصلُح «أنت إيَّاها؟»، لا يَصلُحُ، قال: «مَلَّكتُكَها»، ويجوزُ من حَيثُ اللُّغةُ العَربيَّةُ أن يُعَبَّرَ فيُقالُ: مَلَّكتُكَ إيَّاها بما معَكَ منَ القُرآنِ»[1].

وقال **عُلماءُ اللجنَةِ الدَّائِمَةِ**: «يَصِحُّ أن يُجعَلَ تَعليمُ المَرأةِ شَيئًا منَ القُرآنِ مَهرًا لها عِندَ العقدِ عليها إذا لم يَجِد مالًا؛ لِما ثَبَتَ في الصحيحَينِ عن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءَتهُ امرأةٌ فقالت: «إنِّي وَهَبتُ نَفسي لَكَ...»، الحديث.

كما يجوزُ أن يُقدَّمَ المصحَفُ الشَّريفُ مَهرًا لها؛ لِأَنَّ المصحَفَ يَجوزُ بَيعُهُ وشِراؤُه في أَصَحِّ قَولَيِ العُلَماءَ»[2].

وجاءَ **في المَوسوعَةِ الفِقهيَّةِ**: «الأصل عِندَ جُمهورِ الفُقَهاءِ -المالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابلَةِ-: أَنَّ كُلَّ ما جازَ أَن يكونَ ثَمَنًا، أو مُثَمَّنًا، أو أُجرَةً، جازَ جَعلُهُ صَداقًا»[3].

وجاء **فيها أَيضًا**: «ذَهَبَ المالِكيَّةُ -في المَشهورِ- والشَّافِعيَّةُ، والحَنابلَةُ، إلى أَنَّهُ يَجوزُ

---

(١) فتح ذي الجلال والإكرام (٤/ ٤٥٩).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة (١٩/ ٣٥).

(٣) الموسوعة الفقهية (٣٩/ ١٥٥).

أَن تَكونَ المَنفَعَةُ صَداقًا؛ جَريًا على أَصلِهِم من أَنَّ كُل ما يَجوزُ أَخذُ العِوَضِ عنه يَصِحُّ تَسميَتُهُ صَداقًا، والمَنافِعُ يَجوزُ أَخذُ العِوَضِ عنها، فَتَصِحُّ تَسميَتُها صَداقًا»[١].

أَمَّا حديثُ زواجِ أُمِّ سُلَيمٍ من أبي طَلحَةَ المتَقدِّم في كلامِ الحافظِ آنِفًا: فظاهِرُه: جوازُ جَعلِ إسلامِ الزَّوجِ مَهرًا، وهو -قطعًا- ليس مالًا.

وأُجيبَ عنه بجَوابينِ:

الأَوَّل: أنَّ ذلك كان على جِهَةِ التعظيمِ لشَأنِ الإسلامِ، لا على أنَّ إسلامَه مَهرٌ لها، فيكونُ قد أصدَقَها شَيئًا ولو يَسيرًا؛ لكِنَّه لَمَّا كان الزَّواجُ مُتَوَقِّفًا عليه، وكان هو الكاشِفَ عن صِدقِ أبي طَلحَةَ في رغبَتِه بالزَّواجِ من أُمِّ سُلَيمٍ: صارَ لا وزنَ للمَهرِ مُقارَنَةً بالإسلامِ، ولِذا لم يُذكَر في الحَديثِ، ولم يُسَمَّ.

قال الطحاويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلَم يَكُن ذلك الإسلامُ مَهرًا في الحقيقةِ، وإنَّما معنى تَزَوُّجِها على إسلامِه، أي: تَزَوُّجها لإسلامِه، وقد زادَ بعضُهم في حديثِ أنسٍ هذا، قال أَنَسٌ: «واللهِ ما كان لها مَهرٌ غيرُهُ»، فمعنى ذلك عندَنا -واللهُ أَعلَمُ- أي: ما أرادَت منه مَهرًا غيرَهُ»[٢].

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المَهرُ مَسكوتٌ عنه، لِأَنَّه مَعهودٌ معلومٌ أَنَّه لا بُدَّ منه...

يُريدُ: لَمَّا أسلَمَ استَحَلَّ نِكاحَها، وسَكَتَ عَنِ المَهرِ»[٣].

الثَّاني: أنَّ زواجَ أُمِّ سُلَيم كان قبلَ نُزولِ آياتِ إيجاب المَهرِ؛ لِأَنَّ أبا طلحةَ من أوائِلِ الأنصارِ إسلامًا، فهو بَدريٌّ نَقيبٌ، قال الذَّهبيُّ عنهُ: «أَحَدُ أَعيانِ البَدريِّينَ، وأَحَدُ النُّقَباءِ الاثنَي عَشَرَ لَيلَةَ العَقَبَةِ»[٤].

---

(١) المصدر السابق (٣٩/ ١٠٤).

(٢) شرح معاني الآثار (٣/ ١٧).

(٣) التمهيد (٢١/ ١١٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧).

وقال ابنُ حزم رَحِمَهُ اللَّهُ **عن زواجِ أمِّ سُلَيمٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان قبلَ هِجرَة رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمُدَّةٍ؛ لِأَنَّ أبا طلحَةَ قديمُ الإسلامِ، من أوَّل الأنصارِ إسلامًا، ولم يَكُن نزل إيجابُ إيتاءِ النساءِ صَدُقاتِهِنَّ بعدُ»(١).

فائِدَةٌ:

المَهرُ له أربعَةُ أحوالٍ:

١. أن يتزوَّجَ الرجُلُ المَرأةَ بمَهرٍ مُعَيَّنٍ، كأن يقولَ وليُّ المَرأةِ: «زوّجتُك ابنَتي بمَهرٍ قدرُه عشرُة آلافٍ»، فهذا جائزٌ، ولا حرَجَ فيه بالِاتِّفاقِ.

٢. أن يُزَوِّجَها بمَهرٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه غيرُ معلومٍ، مِثل أن يقولَ: «زَوَّجتُكَها بما في يدِك منَ الدَّراهِم»، وهو معَه صُرَّةٌ من الدَّراهِم، وهذا أَيضًا جائِزٌ، ولا يَضُرُّ فيه الجَهلُ؛ وذلك لِأَنَّ عَقدَ النِّكاحِ ليس من عُقودِ العِوَضِ التي تَقَع فيها المشاحَّة، ويكونُ كُلٌّ من العاقِدَين يُريدُ الرِّبحَ الماليَّ، عقدُ النِّكاحِ عَقدُ مُتعَةٍ، بقَطعِ النظَرِ عن عِوَضِه؛ إذَن هذا يَصِحُّ.

٣. أن يُزَوِّجَها ويَسكُتُ، فيقولُ: «زَوَّجتُك ابنَتي»، فيقولُ: قَبلتُ، ولا يذكُرون المَهرَ، فهُنا يَصِحُّ النِّكاحُ أَيضًا بالِاتِّفاقِ، ويكون لها مَهرُ المِثلِ.

٤. أن يتَزَوَّجها ويَشتَرِطُ الزَّوجُ أن لا مَهرَ عليه، فيقولُ: «أنا قَبلتُ النِّكاحَ، لكِن بشَرطِ أن لا مَهرَ عَلَيَّ»، فما الحُكمُ؟ في هذه المسألَةِ قولانِ:

القولُ الأوَّلُ: أنَّ النِّكاحَ غيرُ صحيحٍ؛ لِأَنَّ اللهَ اشتَرط للحِلِّ المالَ؛ قال: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ [النساء: ٢٤]، وهذا اختيارُ شيخِ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وعلى هذا: فلا نِكاحَ في هذه الحالِ، ويكونُ هذا الذي عُقِدَ له خاطبًا من الخُطَّاب، إن خَطَبَ من جديدٍ ورَضينا أن نُزَوِّجَه زَوَّجناهُ، وبالمَهرِ.

القَولُ الثَّاني: أنَّ النِّكاحَ صحيحٌ، ويجبُ لها مهرُ المِثلِ، قياسًا على ما إذا زَوَّجَه ولم يُسَمِّ

---

(١) المحلى (٩/ ٩٨).

مَهرًا، ولكِن هذا القياس قياسٌ مع الفارِق؛ وذلك لِأَنَّ المتزوِّجَةَ بدونِ تَسميَةِ مَهرٍ قد دَلَّ القُرآنُ والسُّنَّةُ على صِحَّةِ نِكاحِها، فقال اللهُ تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦].

ومنَ المعلوم أنَّ الطلاقَ لا يكون إلا بعدَ صِحَّة العَقدِ، وهذه الآيةُ صريحَةٌ في أنّ الإنسانَ يُطلّق زوجَتَه بدونِ أن يُسمِّيَ لها مَهرًا.

وأما السُّنَّةُ: فحديثُ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المَرأَة يتزَوَّجُها الرجُل ولَم يُسَمّ لها مَهرًا ثُمّ يموتُ، قال: «لها مَهرُ المِثلِ»، فقام رجُلٌ فقال: إنَّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضى بمِثلِ ذلك[1].

هذا لا يَصِحُّ أن يُقاسَ عليه ما إذا زَوَّجها وشَرَطَ أن لا مَهرَ؛ لأنَّه إذا شَرَطَ أن لا مَهرَ فهو مُخالِفٌ تمامًا لظاهِرِ القُرآنِ، وهو قَولُهُ تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾ [النساء: ٢٤].

فالقَولُ الصحيحُ: ما ذَهَبَ إليه شَيخُ الإسلامِ.

وأَيضًا: إذا تَزَوَّجها بشَرطِ أن لا مَهرَ عليه فهذه حقيقَةُ الهِبَة، وقد قال اللهُ تعالى في الهِبَةِ إنَّها خاصَّةٌ بالرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

فائدة:

قال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا نَرى أنَّ الإنسانَ يَسألُ من أجلِ أن يتزَوَّجَ، ونرى أنَّ الأفضلَ والأورَعَ أن يَستَعفِفَ حتى يُغنيَهُ اللهُ من فَضلِه.

ويَدُلُّ لِهذا: هذا الحديثُ.

فأنتَ ترى أنّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَسأل لَه، فلَم يقُل للناسِ: تَصَدَّقوا عليه، وهو بنَفسِه ما ذهَب يسأَلُ الناسَ، لكن في حاجَةِ الضَّرورةِ دعا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الصدَقةِ في القومِ الذين جاءوا من مُضَرَ، ثم نزَلوا في مسجِدِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتَمَعَّر وجهُ

---

(١) رواه أبو داود (٢١١٤)، والترمذي (١١٤٥)، وصححه، والنسائي (٣٣٥٤)، وابن ماجه (١٨٩١)، وصححه الألباني.

(٢) فتح ذي الجلال والإكرام (٤/ ٤٦٠-٤٦١).

رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما رأى حالَ هَؤُلاءِ القَومِ، وهُم من أكابر وأشرافِ العرَب، حَيثُ رآهُم مُجتابي النِّمارِ[١]، قد أثَّر بِهِمُ الفقرُ، فدعا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناسَ إلى أن يتَصَدَّقوا عليهم، فتصَدَّقوا عليهم[٢].

ولكنّه لم يأمُرِ الناس أن يتَصَدَّقوا على هذا الذي قال: ليس عِندي ما أدفَعُه مَهرًا، بَل قال: «**التَمِس ولو خاتمًا من حَديدٍ**».

فمَن ليس عندَه مَهرٌ يستطيعُ أن يدفَعَه فليستَعفِف ولا يسألِ الناسَ، هذا هو الأفضَلُ، لكن لو أُعطيَ بدونِ مسأَلَةٍ فلا بَأسَ أن يقبَلَ، وأن يدفَعَ ما أُعطيَه صَداقًا»[٣].

بعضُ الفوائدِ المستَفادَةِ من هذا الحَديثِ:

* **فيه**: أنَّ المغالاةَ في المهورِ ليست من الشَّريعةِ؛ لِأَنَّ ذلك يُعَسِّرُ الزواجَ، ويَشُقُّ على الناسِ، ولو كانتِ المغالاةُ في المهور تقوى للهِ أو مَكرُمةً عندَ اللهِ لكان أولى الناسِ بها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عن أَبي العَجفاءِ السُّلَميِّ، قال: قال عمرُ بن الخَطَّاب: «لا تُغالوا صَداقَ النِّساءِ؛ فَإِنَّها لَو كانت مَكرُمَةً في الدُّنيا، أو تَقوى عِندَ اللهِ، كان أولاكُم وأَحقَّكُم بها محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما أَصدَقَ امرَأَةً من نِسائِهِ، ولا أُصدِقَتِ امرَأَةٌ من بَناتِهِ أَكثَرَ مِنَ اثنَتَي عَشرَةَ أوقيَّةً، وإنَّ الرجُلَ لَيُثقِّلُ صَدَقَةَ امرَأَتِهِ، حتى يكونَ لها عَداوَةٌ في نَفسِهِ»[٤].

أمَّا ما جاءَ عَن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنّه قال: «لا تَزيدوا في مُهورِ النِّساءِ على أَربَعينَ أوقيَّةً،

---

(١) أي لابسيها، يقال: اجتبت القميص والظلام: أي دخلت فيهما، وكل شيء قطع وسطه فهو مجوب ومجوب، وبه سمي جيب القميص.
والنمار: كل شملة مخططة من مآزر الأعراب فهي نمرة، وجمعها: نمار، كأنها أخذت من لون النمر؛ لما فيها من السواد والبياض، وهي من الصفات الغالبة، أراد: أنه جاءه قوم لابسي أزر مخططة من صوف. النهاية (١/ ٣١٠)، (٥/ ١١٨).

(٢) رواه مسلم (١٠١٧).

(٣) اللقاء الشهري (٢٠/ ١٥) بترقيم الشاملة، باختصار.

(٤) رواه أبو داود (٢١٠٦)، والترمذي (١١١٤)، وصححه، والنسائي (٣٣٤٩)، وابن ماجه (١٨٨٧)، واللفظ له، وصححه الألباني.

فَمَن زادَ أَلقَيتُ زيادَتَهُ في بَيتِ المالِ»، فَقامَتِ امرَأَةٌ من صَفِّ النِّساءِ، فقالت: ما ذلك لَكَ، قال: «ولِمَ؟»، قالت: لِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠]، فقال عمرُ: «امرَأَةٌ أَصابَت، ورجلٌ أَخطَأَ».

فقد رواهُ ابنُ عبدِ البرِّ وغيرُه، ولهُ طُرُقٌ لا يَصحُّ مِنها شيءٌ[1].

* **وفيه**: القناعَةُ باليسيرِ، وعدمُ مَدِّ العينَينِ لِما عندَ الآخَرين من المالِ.

* **وفيه**: فضلُ حَمَلةِ القُرآنِ، فصاحِبُ القُرآن له شأنٌ في الدِّينِ، فالأكثرُ قرآنًا أحقُّ بإمامَةِ الصلاةِ، وكان أصحابُ القُرآنِ يُقدَّمون في السَّرايا والبُعوثِ، وأهلُ القرآنِ هُم أهلُ اللهِ وخاصَّتُه.

* بوّبَ البخاريُّ على الحديثِ: «بابُ تَزويجِ المعسِرِ الذي معه القُرآنُ والإسلامُ».

واليومَ رُبَّما تَجِدُ الرجُل يُزَوِّجُ موليَتَه الفاجِرَ لِغِناهُ، ويمنَعُها التقيَّ صاحبَ القُرآنِ لفَقرِه، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

قال عَليّ بن أبي طَلحَةَ، عَنِ ابنِ عباسٍ: «أَمَرَ اللهُ سبحانه بالنِّكاحِ، ورَغَّبَهُم فيه، وأَمَرَهُم أَن يُزَوِّجوا أَحرارَهُم وعَبيدَهُم، ووَعَدَهُم في ذلك الغِنى، فقال: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ﴾»[2].

* **وفيه**: صَرفُ السَّائلِ باللِّينِ، والأدَب في الردِّ.

* **وفيه**: أنّه يَنبَغي ذِكرُ الصداقِ في العَقدِ؛ لِأَنَّهُ أَقطَعُ للنِّزاعِ، وأَنفَعُ للمَرأَةِ، فَلَو عُقِدَ بغيرِ ذِكرِ صَداقٍ صَحَّ العَقدُ، ووَجَبَ لها مَهرُ المِثلِ بالدُّخولِ، كما تقدّم.

* **وفيه**: أَنَّهُ يُستَحَبُّ تَعجيلُ المَهرِ.

---

(١) ينظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٣٠)، مصنف عبد الرزاق (١٠٤٢٠)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٦١٥)، تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (١/ ٢٩٦).

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٢٧٤).

* **وفيه**: أَنَّهُ يَجوزُ الحَلِفُ على ما يَظُنُّهُ؛ لِأَنَّهُ ﷺ قال للرَّجلِ بعدَ يَمينِهِ: «**اذهَب إلى أَهلِك فانظُر هَل تَجِدُ شَيئًا؟**»، فَدَلَّ أَنَّ يَمينَهُ كانت على ظَنِّهِ، ولو كانت لا تَكونُ إلا على العِلمِ لَم يَكُن للأَمرِ بذَهابِهِ إلى أَهلِهِ فائِدَةٌ.

* **وفيه**: أَنَّهُ لا يَجوزُ للرَّجُلِ أَن يُخرِجَ من ملكِهِ ما لا بُدَّ له منه، كالذي يَستُرُ عَورَتَهُ، أو يَسُدُّ خَلَّتَهُ من الطعامِ والشَّراب؛ لِأَنَّهُ ﷺ عَلَّلَ مَنعَهُ عن قِسمَةِ ثَوبِهِ بقَولِهِ: «**إن لَبَستَهُ لَم يَكُن عليك منه شيءٌ**».

* **وفيه**: اختِبارُ مُدَّعي الإعسارِ؛ فَإِنَّهُ ﷺ لَم يُصَدِّقهُ في أَوَّلِ دَعواهُ الإعسارَ حتى ظَهَرَ له قَرائِنُ صِدقِهِ، وهو دَليلٌ على أَنَّهُ لا يُسمَعُ اليَمينُ من مُدَّعي الإعسارِ، حتى تَظهَرَ قَرائِنُ إعسارِهِ[1].

* **وفيه**: جَوازُ التَّحَدُّثِ عنِ المبهَمِ إذا لم يَتَعَلَّق بتَعيينِه فائدَةٌ؛ لقَولِهِ: «جاءَتِ امرَأَةٌ»، ولَم يُعَيِّنها.

* **وفيه**: جوازُ هِبَةِ المَرأَةِ نفسَها لرسولِ اللهِ ﷺ، هبَةً مُجَرَّدَةً بدونِ عِوَضٍ؛ لقَولِها: «يا رسولَ اللهِ، جِئتُ أَهَبُ لَكَ نَفسي»، وهل يُقاسُ عليه غيرُه؟ لا، لا يجوزُ لِامرأةٍ أن تهَبَ نفسَها لأحَدٍ هِبَةً مُجَرَّدَةً عنِ العِوَضِ، ودليلُ ذلك قَولُهُ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

* **وفيه**: جوازُ نَظَرِ الخاطِبِ إلى مَخطوبَتِه؛ لقَولِهِ: «فَصَعَّدَ فيها النَّظَرَ»، فإن قيلَ: إنَّ الرسولَ ﷺ لم يَخطُب، قُلنا: هذا أولى منَ الخاطِب، أن تَأتيَ المرأَةُ تَعرِضُ نفسَها على الرَّجُلِ، فإذا جازَ للخاطِب أن يَنظُرَ فالمَطلوبُ المَخطوبُ من باب أولى.

* **وفيه**: جوازُ تكرارِ النَّظَرِ منَ الخاطِبِ للمَخطوبةِ؛ لقَولِهِ: «فَصَعَّدَ النظَرَ إلَيها وصَوَّبَهُ»، فلا حرَجَ على الخاطِب أن يُكَرِّرَ النظَرَ لَمخطوبَتِه، فالنظرَةُ الأولى أوِ الواحدَةُ قد لا تُعطي الإنسانَ تَصَوُّرًا كامِلًا عنِ المَرأةِ.

---

(١) سبل السلام (٢/ ١٦٩).

* استَدَلّ بهذا الحديثِ بعضُ العُلَماءِ على أنَّه لا يَجِبُ على المَرأَةِ أن تَستُرَ وجهَها عنِ الرِّجالِ الأجانِب، والحقيقَةُ أنَّه لا دليلَ في الحديثِ على ذلك، أولًا: لِأَنَّ هُناكَ جوابًا مُجملًا عن كُلّ حديثٍ يدُل على أنّ المَرأَة يَجوزُ أن تكشِفَ وجَهَها عندَ الرِّجالِ الأجانِب، وهو أنَّ من المعلوم أنَّ لكَشفِ الوَجهِ حالَين: حالَ جوازٍ، وحالَ منعٍ، يعني: أنَّ كَشفَ الوَجهِ في أوَّلِ الإسلام كان جائِزًا، فإنّ الحِجاب لم يُفرَض إلا في السَّنَةِ الخامِسَةِ أو السَّادسَةِ، فكُلُّ حديثٍ يدُلُّ على أنَّ المرأةَ تكشِف وجهَها عندَ الرجالِ الأَجانب فإنَّه يُحتَمَل أن يكونَ قبلَ الحجاب، وإذا كان كذلك فلا دليلَ فيه، والقاعدةُ المعروفةُ عند العُلماءِ في الاستِدلالِ: «أنَّ ما كان مُحتملًا لا يَصِحُّ أن يكونَ دليلًا»؛ لِأَنَّ المحتَمل له مَعنَيان، فحَملُه على أحدِ المَعنَيَين دونَ دليلٍ يحتاجُ إلى دليلٍ، ولِهذا قالوا: «إذا وُجِدَ الِاحتِمالُ بَطلَ الِاستِدلالُ»، فحينئِذٍ نقول: هذا الحديثُ -حديثُ سَهلٍ- إن ثَبَتَ أنَّ المرأةَ كانت كاشفةً وجهَها، فإنَّه مَحمولٌ على ما قبلَ الحِجاب، على أنَّنا نَمنَعُ من كَونِ هذا الحديثِ دالًّا على كشفِ المَرأةِ وجهَها؛ لأنَّه لا يلزَمُ من تَصعيدِ النظَرِ وتَصويبه أن تكونَ كاشِفَةً، فالإنسانُ قد يستَدِلُ على المرأة بهَيكَلِها وبَهاءِ جِسمِها ومَقاطِعِه مَثَلًا؛ لأنَّه قد يستَدلّ بالجُملةِ على التفصيل، فليس فيه دليلٌ واضحٌ على أنها قد كشَفَتِ الوجهَ، وحينَئِذٍ تبقى النُّصوصُ الدَّالَّةُ على وُجوب سترِ المَرأَةِ وجهَها عَنِ الأجانِب مُحكَمَةً لا مُعارِضَ لها.

* **وفيه**: حُسنُ أدَب هذه المَرأَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لِأنَّها جلَسَت ولم تتكَلَّم، ولَم تغضَب، ولم تذهَب، فكان من أدَبها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وصَبرِها وتَحَمُّلِها أن جَلَسَت؛ لَعَلّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقبَلُ، لا تَدري لَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بعدَ ذلك أَمرًا.

* **وفيه**: حُسنُ أدَب الصحابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في مُخاطَبَةِ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لقَولِ الرجُلِ: «يا رسولَ اللهِ، إن لَم يَكُن لَكَ بها حاجَةٌ فزَوِّجنيها».

* **وفيه**: أن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له أن يَتزَوَّجَ بلا وليٍّ؛ لِأَنَّ المَرأَةَ لَمَّا قالت: «قد وهَبتُ لَكَ نَفسي»، لَم يَقُل: أَينَ وليُّكِ يُزَوِّجُني؟ وهو -كذلك- له أن يتزَوَّجَ بلا مَهرٍ.

* **وفيه**: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له أَن يُزَوِّج دونَ أَن يَرجِعَ إلى الوَلِيِّ؛ فإنَّه لَمَّا قال الرجُلُ:

«زَوِّجنيها» لم يَقُل: لستُ بوَليٍّ لها، ولا قال: أينَ وليُّها؟ لقَولِهِ تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو بهذه المَرأةِ أولى من وليِّها.

* **وفيه**: جَوازُ المَهرِ بالقَليلِ؛ لقَولِهِ: «شيء»، وشيء نَكِرةٌ في سياقِ الإستِفهامِ فتُفيدُ العُمومَ، وهَل يَشملُ كُلَّ شيءٍ، وإنِ كان غيرَ مُتَمَوَّل؟ عِندَ الظَّاهِريَّة: نَعَم، حتى لو قال: زَوَّجتُكَها على قِشرِ بَيضَة؛ لأنَّه شيءٌ، حتى لَو قال: زَوَّجتُكَها على حَبَّةِ شَعيرٍ، لأنَّه شيءٌ، ولكِن هذا القول ضعيفٌ جدًا، لِأَنَّ ما لا يُتَمَوَّلُ ليس بشيءٍ، والدليل على ضعفِ هذا القولِ: قولُ الله تعالى: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ [النساء: ٢٤]، فلا بُدَّ أن يكونَ المَهرُ مُتَمَوَّلًا، ثم هُناكَ دَليلٌ آخَر، وهو قَولُهُ تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وحَبَّةُ الشَّعيرِ ما تَتَنَصَّفُ.

* **وفيه**: جَوازُ القَسَمِ بدونِ طَلَبه؛ لقَولِهِ: «لا واللهِ يا رسولَ اللهِ»، مَع أنَّ النبيَّ ﷺ لم يَطلُب مِنه أن يُقسِمَ، لكِن المَقام يَستدعي التَّوكِيدَ، فلِذلك أقسَمَ الرجُلُ.

* ومن **فَوائِدِ الحَديثِ**: حِكمَةُ النبيِّ ﷺ حَيثُ قال له: «**اذهَب إلى أَهلِكَ فانظُر هَل تَجِدُ شَيئًا؟**»؛ لِأَنَّ النبيّ ﷺ إنَما قال ذلك؛ لِاحتِمالِ أن يكونَ هذا الرجلُ في بيتِه شيءٌ لم يَعلَم به، وهذا يقَعُ كثيرًا، يكونُ في بيتِكَ شيءٌ وتَنفيه وهو مَوجودٌ، إمَّا نِسيانًا، وإمَّا لِأَنَّك لا تَعلَم به، إذَن نَأخُذُ منه: حِكمَةَ الرسولِ ﷺ في مُعامَلَة الصحابَة.

* ومن **فَوائِدِ الحَديثِ**: جَوازُ لُبسِ خاتَمِ الحَديدِ؛ لقَولِهِ ﷺ: «**انظُر ولو خاتَمًا من حَديدٍ**»؛ لِأَنَّ المقصودَ من الخاتَمِ أن يُلبَسَ، وإلا فما الفائِدة منه؟

قد يقول قائِلٌ: يَبيعُه على مَن يَلبسُه، وهذه المَسأَلَةُ اختَلَفَ فيها العُلَماء، فمنهم مَن قال: إنّه لا يَجوزُ لُبسُ خاتَمِ الحَديدِ، واستَدَلُّوا بحديثٍ لكِنَّه ضَعيفٌ: أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «**إنَّهُ حِليَةُ أَهلِ النارِ**»، وهذا يَدُلّ على الذَّمِّ، ولَكَنَّ الصحيحَ أنّه جائِزٌ؛ لِهذا الحديثِ الثابتِ في الصحيحَينِ، وهو أقوى من قَولِهِ: «**إنَّهُ حِليَةُ أَهلِ النارِ**»، على أن حديث: «**إنَّهُ حِليَةُ أَهلِ النارِ**» يُحتمَل أنَّ المعنى: أنَّ المشرِكين في ذلك الوقتِ كانوا

يتَحلَّون به، فقال: إنَّه حِليَتُهم؛ تنفيرًا منَ التشبُّه بهم، لا من أجلِ كراهَةِ الحَديدِ ذاته، واللهُ أعلَمُ، لكِن ما دامَ عندَنا حديثٌ ثابتٌ في الصحيحَينِ، فالأَخذُ به أولى[1].

وهَل يُقاسُ على ذلك ما تُحفَظُ به السَّاعةُ وهو ما يُسَمَّى بالأُستيك؟ يَرى بعضُ العُلَماءِ أن يُقاس على الخاتمِ منَ الحَديدِ، وأنَّه لا يَجوزُ أو يُكرَهُ للرَّجُل -على القَولِ بالتحريم أو الكراهَةِ- أن يَلبَسَ هذا النَوعَ من سُيورِ السَّاعاتِ، ولكن قد يُنازَعُ في ذلك؛ لِأَنَّ الغالِبَ أنّ المقصودَ من هذه السُّيورِ حِفظُ السَّاعةِ دونَ النظرِ إلى كَونِه حِليَةً، وإن كان بعضُ الناس قد يقصِد هذا السَّيرَ، ولِهذا تَجِدُه يختارُ شَيئًا مُعيّنًا دونَ شيءٍ آخَر، لكنَّنا إذا قُلنا بأنَّ الأصلَ -وهو الخاتَمُ- ليس بحَرامٍ، فهذا الفَرعُ من باب أولى.

* ومن **فَوائِدِ الحَديثِ**: جَوازُ جَعلِ المَنفَعَة مَهرًا؛ لقَولِهِ: «**مَلَّكتُكَها بما معكَ منَ القُرآنِ**». فيَجوزُ أن يكونَ المَهرُ عَينًا، ويَجوزُ أن يكونَ منفَعَةً، ويُؤَيِّدُ هذا: ما جَرى لموسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّ مَهرَ إحدى البنتَينِ كان رِعايَةَ الغَنَمِ لُمدَّة ثَمانِ سِنينَ، أو عَشرِ سِنينَ.

* ومن **فَوائِدِ الحَديثِ**: أنَّه كان يوجدُ في الصحابَة الفَقرُ الشديدُ، بحَيثُ إنّ الرجُلَ لا يَجِدُ إلا ما يَلبَسُه، يُؤخَذُ من قَولِهِ: «**انظُر ولو خاتَمًا من حَديدٍ**»، فَذَهَبَ ثم رجعَ، فقال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ولا خاتِمًا من حَديدٍ، ولكن هذا إزاري».

* ومن **فَوائِدِ الحَديثِ**: أنَّهُ لا يَجِبُ على الرجُلِ سَترُ أعلى البَدَنِ، ووَجهُه: أنّ هذا الرجُلَ ليس له رِداءٌ، كَما قال سَهلٌ: «ما له رِداءٌ».

* ومن **فَوائِدِ الحَديثِ**: أنَّ الإنسانَ لا يجوزُ أن يَبذُلَ ضَروراتِه لغيرِه؛ لقول النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن لَبَستَهُ لَم يَكُن عليكَ منه شيءٌ**»، وظاهِرُ هذه الجُملَةِ فيه إشكالٌ؛ لقَولِهِ: «إن لَبَستَهُ»، وذلك أنَّ الإزارَ للرِّجالِ لا يُماثِل إزارَ النِّساءِ، وإذا كان لا يُماثِلُه فإنّ لُبسَ المَرأةِ للإزارِ يكون تَشَبُّهًا بالرِّجالِ، وتَشَبُّه النِّساءِ بالرِّجالِ من كبائِرِ الذُّنوب، فماذا نقول عن ظاهِرِ الحديثِ؟

يُمكِنُ أن يُجابَ عنه: بأنَّ المرادَ بلُبسِها إيَّاه استعمالُها له، سَواءٌ لَبسَته على هَيئَةِ ما يَلبَسُه

---

(١) تقدمت هذه المسألة، وزدناها ها هنا توضيحا.

الرجُلُ، أو على هيئةٍ أخرى، كأن تجعَلَه سراويلَ مثلًا؛ لِأَنَّ اللُّبسَ له وجوهٌ مَتعدِّدَةٌ شَتَّى، فإذا كان ظاهرُ هذا الحديثِ أنَّ المرأةَ تلبَس إزارَ الرجُلِ، فإنّه يجِبُ حَملُه على أنَّها تلبَسُه على وجهٍ لا يُماثِل لُبسَ الرجُل له؛ لِئَلَّا تَقَع في التشَبُّه المتَوَّعَّدِ عليه باللَّعنَةِ.

* ومن **فَوائِدِ الحَديثِ**: أنَّ الإنسانَ إذا صَبرَ ظَفِر؛ فإن هذا الرجُل سَكَتَ وأطالَ الجُلوسَ، فلما قامَ جَعَل اللهُ له فرجًا، ففي الحديث: «فَجَلَسَ الرجُلُ، حتى إذا طالَ مَجلِسُهُ قامَ، فَرَآهُ رسولُ اللهِ ﷺ مولِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعيَ».

* ومن **فَوائِدِ الحَديثِ**: جوازُ أخذِ الأُجرَة على تعليم القُرآنِ؛ لِأَنَّ عِوَضَ هذا التعليمِ كان البُضعَ، والبُضعُ لا يُستَباحُ إلا بالمالِ؛ لقَولِهِ تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ [النساء: ٢٤].

* ومن **فَوائِدِهِ**: جَوازُ جَعلِ تَعليمِ القُرآن أُجرةً، فهل هُناكَ فَرقٌ بينَ هذه الفائِدَةِ والتي قَبلها؟ نَعَم، يعني- مَثَلًا- شَخصٌ عِندَهُ بيتٌ، فقلتُ: أجِّرني إيَّاه على أن أُعَلِّمَك القُرآنَ، فهُنا جَعَلنا تَعليمَ القُرآنِ نَفسَه أُجرَةً، أمَّا المَسألةُ الأولى: فإنَّنا جَعَلنا مَن يُعَلِّم القُرآنَ يأخُذُ عليه أُجرةً.

* ومن **فَوائِدِ الحَديثِ**: أنّه قد يكون فيه إشارةٌ إلى اشتراطِ القُدرةِ على تسليمِ المَهرِ؛ لقَولِهِ: «**تَقرَأُهُنَّ عن ظَهرِ قَلبِكَ؟**»، لِأَنَّ الإنسانَ الذي لا يقرَأُ القُرآنَ عن ظهرِ قلبٍ رُبَّما لا يَحصُل على مُصحَفٍ، لا سيَّما في الزَّمنِ السَّابقِ في عَهدِ الرسول ﷺ، لكِن الذي يحفَظُ عن ظَهرِ قَلبٍ قادرٌ على أن يُعلِّم.

* ومن **فَوائِدِ الحَديثِ**: انعقادُ النِّكاحِ بما يدُلّ عليه، لقَولِهِ: «**فقد مَلَّكتُكَها بما معكَ منَ القُرآنِ**».

وقد اختَلَفَ العُلماءُ في هذه المَسألَة: هَل يَنعَقِدُ النِّكاحُ بكُل لفظ يدُلّ عليه، أم لا بُدَّ من لفظٍ مُعيّن؟ مَذهَبُ الحنابلةِ: أنّه لا بُدَّ من لَفظٍ مُعَيَّنٍ، وهو لَفظُ التزويج أوِ الإنكاحِ، أو الأَمَة يقول لها: أعتَقتُك وجَعَلتُ عِتقَكِ صَداقَك، كما جرى ذلك من النبيّ ﷺ في صَفيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ رضي الله عنها، فإن النبيَّ ﷺ أعتقَها وجعَل عِتقَها صَداقَها[1]،

(١) رواه البخاري (٤٢٠٠)، ومسلم (١٣٦٥).

ما هو الدليل؟ قالوا: لِأَنَّ هذا هو اللفظُ الذي جاءَ به القرآنُ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقال: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، فهذا هو اللفظُ الذي جاء به القُرآنُ، فيجِبُ أن نَتَقَيَّدَ به.

فيُقالُ: إنَّ المرادَ بهذا اللَفظِ ليس تعيينَ اللَّفظِ، ولكِن بيان المرادِ والمعنى، وإذا سلكتُم هذا المسلَكَ في الاستِدلالِ لَزِمَكُم أن تقولوا: إنَّ البَيعَ لا ينعقِد إلا بلفظ البيعِ؛ لِأَنَّ هذا هو اللفظُ الذي جاءَ بهِ القُرآنُ، فلَفظُ الإنكاحِ أوِ التزويجِ إنَّما جاءَ على الدِّلالَةِ على المعنى المرادِ، لا لتَعيينِ هذا اللفظِ، وكُلّ شيءٍ لا يُتَعَبَّدُ بلفظِه فإنّه يُرجَعُ فيه إلى العُرفِ، هذه قاعدةٌ مُفيدةٌ في العُقودِ؛ لِأَنَّ العُقودَ حقائِقُها تَعودُ إلى العُرف المصطَلَحِ عليه.

فالصحيحُ أنّ عقدَ النّكاحِ كغيرِه من العُقودِ، ينعقدُ بكُلّ لفظٍ دَلّ عليه، سَواءٌ بلفظِ التزويجِ، أوِ الإنكاحِ، أو بلفظِ: أعتَقتُكِ، أو ملَّكتُكَ بنتي، أو زَوَّجتُك بنتي، ما دامَ هذا اللفظُ يُحدِّدُ المعنى، فإنَّه ينعَقِدُ به النِّكاحُ[1].

* ومن **فَوائِدِ الحَديثِ**: أنَّه يجِبُ على الزَّوجِ أن يُسَلّمَ المَهرَ؛ لقَولِهِ: «**فَعَلِّمها**»[2].

* **وفيه**: أَنَّ الإمامَ يُزَوِّجُ مَن ليس لها وليٌّ خاصٌّ لِمَن يَراهُ كُفُؤًا لها، ولكن لا بُدَّ من رِضاها بذلك، وقال الدَّاوُديُّ: «ليس في الخَبَرِ أَنَّهُ استأذَنَها، ولا أَنَّها وكلتهُ، وإنَّما هو من قَولِهِ تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، يَعني فَيكونُ خاصًّا بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ يُزَوِّجُ مَن شاءَ منَ النِّساءِ بغير استِئذانِها لِمَن شاءَ»، وبنَحوه قال ابنُ أبي زَيدٍ.

---

(١) وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذهب جمهور العلماء إلى أن النكاح ينعقد بكل لفظ يدل عليه، وهو قول الحنفية، والمالكية، وإحدى الروايتين عن أحمد، واختلف الترجيح في مذهبه، فأكثر نصوصه تدل على موافقة الجمهور، ونصوص أحمد وأصوله تشهد بأن العقود تنعقد بما يدل على مقصودها من قول أو فعل». الفتح (٩/ ٢١٥)، باختصار، وينظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٣٤)، إعلام الموقعين (٢/ ٤)، حاشية الروض المربع لابن قاسم (٦/ ٢٤٧)، الشرح الممتع (١٢/ ٤١).

(٢) ينظر: فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، لابن عثيمين (٤/ ٤٦٠-٤٦٨).

وأجابَ **ابنُ بَطَّالٍ**: بأَنَّها لَمَّا قالت له: «وهَبتُ نَفسي لَكَ» كان كالإذنِ منها في تَزويجِها لِمَن أَرادَ؛ لِأَنَّها لا تُملَكُ حقيقَةً، فَيَصيرُ المعنى: جَعَلتُ لَكَ أَن تَتَصَرَّفَ في تَزويجي.

وفي حديث عِسلِ بن سُفيانَ: فَعَرَضَت عليه نَفسَها، فقال لها: «**اجلِسي -بارَكَ اللهُ فيكَ- أَمَّا نَحنُ: فلا حاجَةَ لَنا فيكِ، ولكن تُمَلِّكيني أَمرَكِ؟**»، قالت: نَعَم، فَنَظَرَ رسولُ اللهِ ﷺ في وُجوهِ القَومِ، فَدَعا رجلًا منهم، فقال: «**إِنِّي أُرِيدُ أَن أُزَوِّجَكَ هذه إن رَضيت**»، فقالت: ما رَضيتَ لي يا رسولَ اللهِ فقد رَضيتُ[1].

* **وفيه**: جَوازُ تَأَمُّلِ مَحاسِنِ المَرأَةِ لِإرادَةِ تَزويجِها، وإن لَم تَتَقدَّمِ الرغبَةُ في تَزويجِها، ولا وقَعَت خِطبَتُها؛ لِأَنَّهُ ﷺ صَعَّدَ فيها النظَرَ وصَوَّبَهُ، وفي الصيغَةِ ما يَدُلُّ على المبالَغَةِ في ذلك، ولَم يَتَقدَّم منه رَغبَةٌ فيها، ولا خِطبَةٌ، ثم قال: «**لا حاجَةَ لي في النِّساءِ**».

ويُمكِنُ الإنفِصالُ عن ذلك بدَعوى الخُصوصيَّةِ له لِمَحَلِّ العِصمَةِ، والذي تَحَرَّرَ عِندَ الشافعيّةِ: أَنَّهُ ﷺ كان لا يَحرُمُ عليه النظَرُ إلى المؤمِناتِ الأَجنبيَّاتِ، بخِلافِ غيرِهِ، وسَلَكَ ابن العَرَبيِّ في الجَواب مَسلَكًا آخَرَ، فقال: «يحتَملُ أَنَّ ذلك قَبلَ الحِجاب، أو بعدَهُ، لكنَّها كانت مُتَلَفِّفَةً».

* وفي قَولِهِ: «**أَعِندَكَ شيءٌ؟**»، فقال: «لا» دَليلَ على تَخصيصِ العُمومِ بالقَرينَةِ؛ لِأَنَّ لَفظَ «شيءٍ» يَشمَلُ الخَطيرَ والتافِهَ، وهو كان لا يَعدَمُ شَيئًا تافِهًا كالنواةِ ونَحوِها، لكنَّهُ فَهِمَ أَنَّ المرادَ ما له قيمَةٌ في الجُملَةِ، فَلِذلك نَفى أَن يكونَ عِندَهُ، ونَقَلَ عياضٌ الإجماعَ على أَنَّ مِثلَ الشَّيءِ الذي لا يُتَمَوَّلُ ولا له قيمَةٌ لا يكونُ صَداقًا، ولا يَحِلُّ بِهِ النِّكاحُ، فَإِن ثَبَتَ نَقلُهُ فقد خَرَقَ هذا الإجماعَ أَبو محمدِ بن حَزمٍ، فقال: «يَجوزُ بكُلِّ ما يُسَمَّى شَيئًا، ولو كان حَبَّةً من شَعيرٍ»، ويُؤَيِّدُ ما ذَهَبَ إليه الكافَّةُ قَولُهُ ﷺ: «**التَمِس ولو خاتَمًا من حَديدٍ**»؛ لِأَنَّهُ أَورَدَهُ مَورِدَ التقليلِ بالنِّسبَةِ لِما فَوقَهُ، ولا شَكَّ أَنَّ الخاتَمَ منَ الحَديدِ له قيمَةٌ، وهو أَعلى خَطَرًا منَ النواةِ وحَبَّةِ الشَّعيرِ[2]، ومَساقُ الخَبَرِ يَدُلُّ على أَنَّهُ لا شيءَ دونَهُ يُستَحَلُّ بِهِ البُضعُ، وقد وَرَدَت أَحاديثُ في أَقَلِّ الصداقِ، لا يَثبُتُ منها شيءٌ.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (٥٤٨٠)، وهو ضعيف كما تقدم.

(٢) تقدمت هذه المسألة، وزدناها بيانًا ها هنا.

* **وفيه**: أَنَّ مَن رَغِبَ في تَزويجِ مَن هو أَعلى قدرًا منه لا لَومَ عليه؛ لِأَنَّهُ بصَدَدِ أَن يُجابَ، إلا إن كان مِمَّا تَقطَعُ العادَةُ برَدِّهِ، كالسُّوقيِّ يَخطبُ منَ السُّلطانِ بنتَهُ أو أُختَهُ.

* وأَنَّ مَن رَغِبَت في تَزويجِ مَن هو أَعلى منها لا عارَ عليها أَصلًا، ولا سيَّما إن كان هُناكَ غَرَضٌ صَحيحٌ، أو قَصدٌ صالِحٌ، إمَّا لِفَضلٍ دينيٍّ في المَخطوب، أو لِهَوًى فيه يُخشى منَ السُّكوتِ عنه الوُقوعُ في مَحذورٍ.

* **وفيه**: أَنَّهُ لا يُشتَرَطُ في صِحَّةِ العَقدِ تَقدُّمُ الخُطبَةِ؛ إذ لَم يَقَع في شيءٍ من طُرُقِ هذا الحَديثِ وُقوعُ حَمدٍ ولا تَشَهُّدٍ ولا غيرِهِما من أَركانِ الخُطبَةِ، وخالَفَ في ذلك الظَّاهِريَّةُ فَجَعَلوها واجِبَةً، ووافَقَهُم منَ الشَّافِعيَّةِ أَبو عَوانَةَ، فَتَرجَمَ في صَحيحِهِ: «بابُ وُجوب الخُطبَةِ عِندَ العَقدِ»[1].

* **وفيه**: أَنَّ طالِبَ الحاجَةِ لا يَنبَغي له أَن يُلِحَّ في طَلَبِها، بَل يَطلُبُها برِفقٍ وتَأَنٍّ، ويَدخُلُ في ذلك: طالِبُ الدُّنيا والدِّينِ، من مُستَفتٍ، وسائِلٍ، وباحِثٍ عن عِلمٍ.

* **وفيه**: أَنَّ الفَقيرَ يَجوزُ له نِكاحُ مَن عَلِمَت بحالِهِ ورَضيَت بهِ، إذا كان واجِدًا للمَهرِ، وكان عاجِزًا عن غيرِهِ منَ الحُقوقِ؛ لِأَنَّ المراجَعَةَ وقَعَت في وِجدانِ المَهرِ وفَقدِهِ، لا في قدرٍ زائِدٍ، قالهُ البَاجِيُّ، وتُعُقِّبَ باحتِمالِ أَن يكونَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ اطَّلَعَ من حالِ الرجُلِ على أَنَّهُ يَقدِرُ على اكتِساب قوتِهِ وقوتِ امرَأَتِهِ، ولا سيَّما مع ما كان عليه أَهلُ ذلك العَصرِ من قِلَّةِ الشَّيءِ، والقَناعَةِ باليسيرِ.

* **وفيه**: نَظَرُ الإمامِ في مَصالِحِ رَعيَّتِهِ، وإرشادُهُ إلى ما يُصلِحُهُم.

* وفي الحَديثِ أَيضًا: المراوَضَةُ في الصداقِ[2]، وخِطبَةُ المَرءِ لِنَفسِهِ[3].



---

(١) مستخرج أبي عوانة (٣/ ٤٣): «باب بيان تثبيت وجوب الخطبة عند التزويج، وما يجب أن يخطب به الخطبة للنكاح».

(٢) أي: التفاوض في مقداره، كثرةً وقلةً.

(٣) ينظر: فتح الباري (٩/ ٢١٠-٢١٦).

١٥

المرأةُ البَحريةُ

المرأةُ البَحريةُ

عن أَبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بلغَنا مَخرَجُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونَحنُ باليَمَنِ، فَخرجنا مُهاجِرينَ إليه، أَنا وأَخَوانِ لي، أَنا أَصغَرُهُم، أَحَدُهُما أَبو بُردَةَ، والآخَرُ أَبو رُهمٍ، إمَّا قال: بضعٌ، وإمَّا قال: في ثَلاثَةٍ وخَمسينَ، أوِ اثنَينِ وخَمسينَ رجلًا من قَومي، فَرَكِبنا سَفينَةً، فَأَلقَتنا سَفينَتُنا إلى النجاشيِّ بالحَبَشَةِ، فَوافَقنا جَعفَرَ بن أَبي طالِبٍ، فَأَقَمنا معه حتى قدِمنا جَميعًا، فَوافَقنا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ افتَتَحَ خَيبَرَ، وكان أُناسٌ منَ الناسِ يقولونَ لَنا، يَعني لِأَهلِ السَّفينَةِ: «سَبَقناكُم بالهِجرَةِ».

ودَخَلَت أَسماءُ بنتُ عُمَيسٍ، وهي مِمَّن قدِمَ معنا، على حَفصَةَ زَوجِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زائِرَةً، وقد كانت هاجَرَت إلى النجاشيِّ فيمَن هاجَرَ، فَدَخَلَ عمرُ على حَفصَةَ، وأَسماءُ عِندَها، فقال عمرُ حينَ رَأى أَسماءَ: مَن هذه؟ قالت: أَسماءُ بنتُ عُمَيسٍ، قال عمرُ: الحَبَشيَّةُ هذه؟ البَحريَّةُ هذه؟ قالت أَسماءُ: نَعَم، قال: سَبَقناكُم بالهِجرَةِ، فَنَحنُ أَحقُّ برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منكُم، فَغَضِبَت وقالت: كَلَّا واللهِ، كُنتُم مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطعِمُ جائِعَكُم، ويَعِظُ جاهِلَكُم، وكُنَّا في دارٍ -أو في أَرضٍ- البُعَداءِ البُغَضاءِ بالحَبَشَةِ، وذلك في اللهِ، وفي رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وايمُ اللهِ لا أَطعَمُ طَعامًا ولا أَشرَبُ شَرابًا، حتى أَذكُرَ ما قُلتَ لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونَحنُ كُنَّا نُؤذى ونُخافُ، وسَأَذكُرُ ذلك للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَسأَلُهُ، واللهِ لا أَكذِبُ، ولا أَزيغُ، ولا أَزيدُ عليه.

فلما جاءَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: يا نبيَّ اللهِ، إنَّ عمرَ قال كذا وكذا؟ قال: «**فَما قُلتِ له؟**»، قالت: قُلتُ له كذا وكذا، قال: «**ليس بأَحقَّ بي منكُم، وله ولِأَصحابِهِ هِجرَةٌ واحدَةٌ، ولَكُم أَنتُم -أَهلَ السَّفينَةِ- هِجرَتانِ**».

قالت: فَلَقد رَأَيتُ أَبا موسى وأَصحابَ السَّفينَةِ يَأتوني أَرسالًا، يَسأَلوني عن هذا الحَديثِ، ما منَ الدُّنيا شيءٌ هُم بِهِ أَفرَحُ ولا أَعظَمُ في أَنفُسِهِم مِمَّا قال لهمُ النبيُّ ﷺ.

قالت أَسماءُ: فَلَقد رَأَيتُ أَبا موسى، وإِنَّهُ ليستَعيدُ هذا الحَديثَ مِنِّي[1].

شرح الحديث:

قَولُهُ: «بلغَنا مَخرَجُ النبيِّ ﷺ ونَحنُ باليَمَنِ، فَخرجنا مُهاجِرينَ إليه»:

ظاهِرُهُ: أَنَّهُم لَم يَبلُغهُم شَأنُ النبيِّ ﷺ إلا بعدَ الهِجرَةِ بمُدَّةٍ طَويلَةٍ، وهذا إن كان أَرادَ بالمَخرَجِ البَعثَةَ، وإن أَرادَ الهِجرَةَ: فَيُحتَمَلُ أَن تَكونَ بلغَتهُمُ الدَّعوَةُ فَأَسلَموا، وأَقاموا ببلادِهِم إلى أَن عَرَفوا بالهِجرَةِ فَعَزَموا عليها، وإِنَّما تَأَخَّروا هذه المدَّةَ: إمَّا لِعَدَمِ بُلوغِ الخَبَرِ إليهم بذلك، وإمَّا لِعِلمِهِم بما كان المسلمونَ فيه منَ المحارَبَةِ مع الكُفَّارِ، فلما بلغَتهُمُ المهادَنَةُ أَمِنوا، وطَلَبوا الوُصولَ إليه.

قَولُهُ: «أَنا وأَخَوانِ لي، أَنا أَصغَرُهُم، أَحَدُهُما أَبو بُردَةَ، والآخَرُ أَبو رُهمٍ»:

أَمَّا أَبو بُردَةَ: فاسمُهُ عامِرٌ، وأَمَّا أَبو رُهمٍ: فاسمُهُ مَجديٌّ، قالهُ ابنُ عبدِ البَرِّ، وجَزَمَ ابنُ حِبَّان في الصحابَةِ بأَنَّ اسمَهُ محمدٌ، وذكَر ابنُ قانِعٍ أَنَّ جَماعَةً منَ الأَشعَرِيِّينَ أَخبَروهُ وحقَّقوا له وكَتَبوا خُطوطَهُم أَنَّ اسمَ أَبي رُهمٍ مُجيلَةُ[2].

قَولُهُ: «إمَّا قال: بضعٌ، وإمَّا قال: في ثَلاثَةٍ وخَمسينَ، أَوِ اثنَينِ وخَمسينَ رجلًا من قَومي»:

وعِندَ ابنِ حِبَّان: «خرجنا إلى رسولِ اللهِ ﷺ في البَحرِ حتى جِئنا مكةَ، وإخوَتي مَعي، في خَمسينَ منَ الأَشعَرِيِّينَ، وسِتَّةٍ من عَكٍّ»[3].

---

(١) رواه البخاري (٣١٣٦)، (٤٢٣٠)، ومسلم (٢٥٠٢)، وأحمد (١٩٥٢٤)، وابن حبان (٧١٩٤)، والنسائي في الكبرى (٨٣٣٠)، وأبو يعلى (٧٢٣٢)، (٧٣١٦)، والحاكم (٤٩٤٢)، والبغوي في شرح السنة (٢٧٢١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٧٤).

(٢) فتح الباري (٧/ ٤٨٥).

(٣) قبيلة باليمن.

قَولُهُ: «فَرَكِبنا سَفينَةً»:

أَي: لِنَصِلَ فيها إلى مكةَ.

قَولُهُ: «فَأَلقَتنا سَفينَتُنا إلى النجاشيِّ بالحَبَشَةِ»:

أَرادَ أَنَّ الرِّيحَ هاجَت عليهم، فَما ملَكوا أَمرَهُم، حتى أوصَلَتهم إلى بلادِ الحَبَشَة[1].

«فَوافَقنا جَعفَرَ بن أَبي طالِبٍ، فَأَقَمنا معه، حتى قدِمنا جَميعًا»:

وفي روايةٍ في الصحيحَينِ: «فقال جَعفَرٌ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَعَثَنا ها هُنا، وأَمَرَنا بالإقامَةِ، فَأَقيموا معنا، فَأَقَمنا معه، حتى قدِمنا جَميعًا».

«فَوافَقنا النبيَّ ﷺ حينَ افتَتَحَ خَيبَرَ»:

وفي الصحيحَينِ أَيضًا: «فَوافَقنا النبيَّ ﷺ حينَ افتَتَحَ خَيبَرَ، فَأَسهَمَ لَنا -أو قال: فَأَعطانا منها-، وما قَسَمَ لِأَحَدٍ غابَ عن فَتحِ خَيبَرَ منها شَيئًا، إلا لِمَن شَهِدَ معه، إلا أَصحابَ سَفينَتِنا، مع جَعفَرٍ وأَصحابِهِ، قَسَمَ لهم معهم».

قال البَيهَقيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُحتَمَلُ أَنَّهُ ﷺ إنَّما أَعطاهُم من سَهمِ المَصالِحِ، أو أَشرَكَهُم في الغَنيمَةِ برِضا الغانِمينَ، وقد رويَ في قِصَّةِ جَعفَرٍ وغيرِهِ بإسنادٍ آخَرَ: أَنَّهُ سأَلَ أَصحابَهُ أَن يُشرِكوهُم في مَقاسِمِ خَيبَرَ ففَعَلوا، وله شاهِدٌ صَحيحٌ في قِصَّةِ قُدومِ أَبي هريرة»[2].

قَولُهُ: «وكان أُناسٌ منَ الناسِ يقولونَ لَنا، يَعني لِأَهلِ السَّفينَةِ: سَبَقناكُم بالهِجرَةِ»:

ومَقصودُهُم: التحَدُّثُ بنِعمَةِ اللهِ، والفرَحُ بفضلِ اللهِ ورَحمَتِه، والاِغتباطُ بالسّبقِ.

قَولُهُ: «ودَخَلَت أَسماءُ بنتُ عُمَيسٍ»:

هي أَسماءُ بنتُ عُمَيسِ بن مَعد بن الحارِثِ الخَثعَميَّة، أَسلَمَت قديمًا بمكةَ، وهاجَرَت

---

(١) عمدة القاري (١٧/ ١٥).

(٢) السنن الكبرى (٦/ ٥٤٢).

مع زَوجِها جَعفَرِ بن أَبي طالِبٍ إلى الحَبَشَةِ، وقدمَت معه إلى خَيبَرَ، ولها منه عبدُ اللهِ، ومحمدٌ، وعَونٌ.

ولَمَّا قُتِلَ جَعفَرٌ بمُؤتَةَ، تَزَوَّجَها بعدَهُ أَبو بكرٍ الصدِّيقُ، فَوَلَدَت له محمدَ بن أَبي بكرٍ، أَميرَ مِصرَ.

ثم لَمَّا ماتَ الصدِّيقُ تَزَوَّجَها بعدَهُ عَليُّ بن أَبي طالِبٍ، فَوَلَدَت له يَحيى، وعَونًا.

وهي أُختُ مَيمونَةَ بنتِ الحارِثِ أُمِّ المؤمِنينَ لِأُمِّها، وأُختُ أُمِّ الفَضلِ امرَأَةِ العباسِ لِأُمِّها، وأختُ جماعةٍ منَ الصحابيَّاتِ لأبٍ، أو أمٍّ، أو لأبٍ وأمٍّ، يُقالُ: إن عِدَّتَهُنّ تِسعٌ، وقيلَ عَشرٌ لأُمٍّ، وسِتٌّ لأُمٍّ وأبٍ[1].

قَولُهُ: «وهي مِمَّن قدِمَ معنا»:

يَعني: من أصحاب السّفينةِ، وهذا من كَلامِ أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

قَولُهُ: «على حَفصَةَ زَوجِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زائِرَةً، وقد كانت هاجَرَت إلى النجاشيِّ فيمَن هاجَرَ، فَدَخَلَ عمرُ على حَفصَةَ، وأَسماءُ عِندَها»:

فَدخلَت أَسماءُ على حَفصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، تزورُها.

ودخلَ عمرُ على حَفصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يزورُها.

فَفيه: ما كان عليه الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منَ التّزاوُرِ والتّحابُب والتَّوادُدِ، فالأبُ يَزورُ ابنَتَهُ، والأُختُ تَزورُ أُختَها في اللهِ.

قولُهُ: «فقال عمرُ حينَ رَأى أَسماءَ: مَن هذه؟ قالت: أَسماءُ بنتُ عُمَيسٍ، قال عمرُ: الحَبَشيَّةُ هذه؟ البَحريَّةُ هذه؟»:

---

(١) ينظر لترجمتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: البداية والنهاية (١٠/ ٦٧٢) الإصابة (٨/ ١٥) الطبقات الكبرى (٨/ ٢١٩)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٣).

(٢) فتح الباري (٧/ ٤٨٦)، شرح القسطلاني (٦/ ٣٧٢).

نَسَبَها إلى الحَبَشَةِ؛ لِسُكناها فيهم، وإلى البَحرِ؛ لِرُكوبها إيَّاهُ.

قال ابنُ عبدِ الدائِمِ العسقَلانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الحَبَشيَّةُ هذه؟ البَحريَّةُ هذه؟**»: باستفهامٍ مُقدَّرٍ فيهما، ونِسبَتُها إلى الحبَشة؛ لُملابَسَة هجرَتِها إليها، وإلى البَحرِ؛ لُملابسَةِ رُكوبها السَّفينةَ»[1].

«**قالت أَسماءُ: نَعَم، قال: سَبَقناكُم بالهِجرَةِ، فَنَحنُ أَحقُّ برسولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **منكُم، فَغَضِبَت وقالت: كَلَّا واللهِ، كُنتُم مع رسولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُطعِمُ جائِعَكُم، ويَعِظُ جاهِلَكُم، وكُنَّا في دارِ -أو في أَرضِ- البُعَداءِ البُغَضاءِ بالحَبَشَةِ**»:

وعِندَ ابنِ أبي شيبَةَ عن سَعيدِ بن أَبي بُردَةَ، قال: «قالت يَومَئِذٍ لِعمرَ: ما هو كذلك، كُنَّا مَطرودينَ بأَرضِ البُغَضاءِ والبُعَداءِ، وأَنتُم عِندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعِظُ جاهِلَكُم، ويُطعِمُ جائِعَكُم»[2].

وعِندَ ابنِ سَعدٍ من طَريقِ إسماعيلَ بن أَبي خالِدٍ، عن الشَّعبيِّ:

فقالت: «إي لَعَمري، لَقد صَدَقتَ، كُنتُم مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطعِمُ جائِعَكُم، ويُعَلِّمُ جاهِلَكُم، وكُنَّا البُعَداءَ الطُّرَداءَ»[3].

«إي»: هو بكَسرِ الهَمزَةِ، بمعنى نَعَم[4].

وقولُها: «لَعَمري» -إن صَحّ-، فهذه منَ الكَلماتِ التي تجري على اللِّسانِ العَربيّ، ولا يُرادُ بها حقيقةُ القَسمِ بغيرِ اللهِ تعالى، وهذا مَشهورٌ في لُغَةِ العَرَب، حيثُ تَشتملُ على كَثيرٍ منَ الكلماتِ التي لا يُرادُ بها حقيقتُها، مِثل: «تَربَت يَمينُك»، و«ثَكلتكَ أُمُّكَ»، ونَحو ذلك منَ العِباراتِ التي ظاهرُها الدُّعاءُ، ولا يُرادُ بها الدُّعاءُ، وقد أخرجَ الطبري بسَنَدٍ حَسَنٍ عن قَتادَةَ، في قولِه تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، قال: «هي كَلِمَةٌ من كَلامِ العَرَب»[5]، يعني: ﴿لَعَمْرُكَ﴾.

---

(١) اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (١١/ ٢٧٧).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٢١٩٨).

(٣) الطبقات الكبرى (٨/ ٢١٩).

(٤) فتح الباري (٣/ ٤٨٠).

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٩٢).

وقال الشَّيخُ بكر أبو زَيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «للشيخِ حمَّادٍ الأنصاريِّ المدنيِّ رسالةٌ باسمِ: «القولُ المبينُ في أنّ «لَعَمري» ليست نَصًّا في اليَمينِ».

والتُّوجيهُ أن يقال: إن أرادَ القَسَمَ مُنِعَ، وإلا فَلا، كَما يَجري على اللّسانِ منَ الكَلامِ، مِمَّا لا يُرادُ به حقيقةُ مَعناهُ»[١].

وقال الحافظُ: «وقَولُها: «البُعَداءِ البُغَضاءِ» جَمعُ بَغيضٍ وبَعيدٍ، وفي روايةٍ أَبي يَعلى بالشَّكِّ: «البُعَداءِ أوِ البُغضاءِ»، وللنسَفيّ: «البُعُدِ»، وللقابسيِّ: «البُعدِ البُعَداءِ البُغضاءِ»، جَمع بينهما؛ فَلَعَلَّهُ فسَّر الأولى بالثَّانيَةِ»[٢].

وقال النوَويُّ: «قال العُلَماءُ: «البُعَداءُ في النسَب، البُغَضاءُ في الدِّينِ؛ لِأَنَّهُم كُفَّارٌ إلا النجاشيِّ، وكان يَستَخفي بإسلامِهِ»[٣].

وقال القاضي عياضٌ: «إمَّا بُعدًا فى النسَب، وإمَّا بُغضًا فى الدِّينِ»[٤].

وقولُ أسماءَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «وكُنَّا في أَرضِ البُعَداءِ البُغَضاءِ»، لا ينفي أَنَّهُم كانوا في جِوارِ النجاشيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خيرِ جِوارٍ؛ لأنَّه أخوهُم، آمَن كما آمَنوا، فأمِنوا عندَه على دينِهم وأنفُسِهم، ولكنّ قومَه كانوا على النصرانيّة، فهُمُ المَعنيُّون بقولِها: «البُعَداءِ البُغَضاءِ».

وقَولُهُ: «**وذلك في اللهِ، وفي رسولِهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»: أي: كان ذلك في سبيلِ اللهِ، وطاعةِ رسولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَولُهُ: «وايمُ اللهِ»:

قال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيمُ اللهِ» من أَلفاظِ القَسَم، كَقَولِكَ: «لَعَمرُ اللهِ»، و«عَهد اللهِ»، وفيها لُغاتٌ كَثيرَةٌ، وتُفتَحُ هَمزَتُها وتُكسَرُ، وهَمزَتُها وصل، وقد تُقطع، وأَهلُ الكوفَةِ منَ النُّحاةِ يَزعُمونَ أَنَّها جَمعُ يَمينٍ، وغيرُهُم يقولُ: هي اسمٌ مَوضوعٌ للقَسَمِ»[٥].

---

(١) معجم المناهي اللفظية (ص٤٥٦).

(٢) فتح الباري (٧/ ٤٨٦).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٦٥).

(٤) إكمال المعلم (٧/ ٥٤٧).

(٥) النهاية (١/ ٨٦).

وقال الحافظُ: «وايمُ اللهِ»: هَمزَتُهُ هَمزَةُ وصلٍ عِندَ الجُمهورِ، وقيلَ: يَجوزُ القَطعُ، وهو مُبتَدَأٌ، وخَبَرُهُ مَحذوفٌ، أَي: «ايمُ اللهِ قَسَمي»، وأَصلُهُ: «أَيمَنُ اللهِ»، فالهَمزَةُ حينَئِذٍ هَمزَةُ قَطعٍ، لكنَّها لِكَثرَةِ الاِستِعمالِ خُفِّفَت فَوُصِلَت، وحُكيَ فيها لُغاتٌ: «أَيمُنُ اللهِ» مُثَلَّثَةُ النُّونِ، و«مُنُ اللهِ» مُختَصَرَةٌ منَ الأولى مُثَلَّثَةُ النُّونِ أَيضًا، و«ايمُ اللهِ»، كذلك و«إِمُ اللهِ» كذلك بكَسر الهمزَة أَيضا، و«أَمُ اللهِ»[1].

قَولُهُ: «لا أَطعَمُ طَعامًا ولا أَشرَبُ شَرابًا، حتى أَذكُرَ ما قُلتَ لِرسولِ اللهِ ﷺ، ونَحنُ كُنَّا نُؤذى ونُخافُ، وسَأَذكُرُ ذلك للنبيِّ ﷺ وأَسأَلُهُ، واللهِ لا أَكذِبُ ولا أَزيغُ، ولا أَزيدُ عليه»:

وقال ابنُ سعدٍ: أَخبَرَنا عبدُ اللهِ بن الزُّبَيرِ الحُمَيديُّ، حَدَّثَنا سُفيانُ، حَدَّثَنا إسماعيلُ، عَنِ الشَّعبيِّ، وأَبو حَمزَةَ أَسنَدَهُ، قالا: لَمَّا قدِمَت أَسماءُ بنتُ عُمَيسٍ من أَرضِ الحَبَشَةِ قال لها عمرُ: «يا حَبَشيَّةُ، سَبَقناكُم باهِجرَةَ»، فقالت: «إي لَعَمري، لَقد صَدَقتَ، كُنتُم مع رسولِ اللهِ يُطعِمُ جائِعَكُم، ويُعَلِّمُ جاهِلَكُم، وكُنَّا البُعَداءَ الطُّرَداءَ، أَما واللهِ لآتيَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ فَلأَذكُرَنَّ ذلك له»[2].

ووعَدَت أن تذكُر له ﷺ ما قال عمرُ رضي الله عنه، من أَنَّهم سبَقوهُم باهِجرَةِ، وأَنَّهُم أحقُّ برسولِ اللهِ ﷺ، بلا كَذِبٍ فيه، ولا زيادَةٍ عليه، ولا مَيلٍ عنِ الحقِّ والصدقِ، في الشَّكوى والقَولِ.

والزَّيغُ: المَيلُ، يُقالُ: زاغَ يَزيغُ زَيغًا، وهو زائِغٌ، من قَومٍ زاغَةٍ: مالَ.

وقومٌ زاغةٌ عَنِ الشَّيءِ، أَي: زائِغونَ[3].

قَولُهُ: «فلما جاءَ النبيُّ ﷺ قالت: يا نبيَّ اللهِ، إنَّ عمرَ قال كذا وكذا؟ قال: «فَما قُلتِ له؟»، قالت: قُلتُ له كذا وكذا، قال: «ليس بأَحقَّ بي منكُم، وله ولِأَصحابِهِ هِجرَةٌ واحدَةٌ، ولَكُم أَنتُم -أَهلَ السَّفينَةِ- هِجرَتانِ»:

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٩٨).

(٢) الطبقات الكبرى (٨/ ٢١٩).

(٣) لسان العرب (٨/ ٤٣٢).

«**ولَكُم أَنتُم أَهلَ السَّفينَةِ**»: بنَصب «أَهلَ» على الاِختِصاصِ، أو على النِّداءِ بحَذفِ أَداتِهِ، ويَجوزُ الجَرُّ على البَدَلِ منَ الضَّميرِ.

وعِندَ **أبي يَعلى، وأَبي نُعَيمٍ**: «لَكُمُ الهِجرَةُ مَرَّتَينِ: هاجَرتُم إلى النجاشيِّ، وهاجَرتُم إلَيَّ».

ولابن حِبَّان، وأبي يَعلى: «إنَّ للناسِ هِجرَةً واحدَةً، ولَكُم هِجرَتَينِ».

ومن مُرسَلِ عامِرٍ الشَّعبيّ: قالت أَسماءُ بنتُ عُمَيسٍ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ رِجالا يَفخَرونَ علينا، ويَزعُمونَ أَنَّا لَسنا منَ المهاجِرينَ الأَوَّلينَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَل لَكُم هِجرَتانِ، هاجَرتُم إلى أَرضِ الحَبَشَةِ، ونحنُ مُرهَنونَ بمكةَ، ثم هاجَرتُم بعدَ ذلك**».

قال عامِرٌ: قدِموا منَ الحَبَشَةِ لَيالِيَ خَيبَرَ[1].

وفي **روايةٍ عن الشَّعبيِّ**: عن أَسماءَ بنتِ عُمَيسٍ، قالت: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ قَومًا يَزعُمونَ أَنَّا لَسنا منَ المهاجِراتِ، فقال: «**كَذَبَ مَن قال ذاكَ، لَكُم هِجرَتانِ: هاجَرتُم إلى النجاشيِّ، وهاجَرتُم إلَيَّ**»[2].

وهذا مُرسَلٌ، وعلى فرضِ ثُبوتِه، فقَولُهُ: «كَذَبَ مَن يقولُ ذلك»، لا يُقصَدُ به حقيقةُ الكَذِب المَذموم، ولكنَّهم يُطلِقون أحيانًا الكَذِبَ على الخطأِ، فيقولون: «كَذَبَ فُلانٌ»، أي: أخطَأَ، فحَيثُ أخبَرَ بخلافِ الواقِعِ ولو خَطَأً أطلقوا على ما أخبَرَ به أنَّه من الكذِب، وأطلَقوا على المخبِرِ أنَّه كاذِبٌ فيما يقولُ.

و**قال ابنُ الأَنباريّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنّ الكَذِبَ ينقسمُ إلى خَمسَةِ أَقسامٍ:

إحداهُنَّ: تَغييرُ الحاكي ما يَسمَعُ، وقولُهُ ما لا يَعلَمُ نقلًا وروايةً، وهذا القسمُ هو الذي يُؤثِمُ، ويَهدِمُ المروءَةَ.

---

(١) الطبقات الكبرى (٨/ ٢١٩)، مسند ابن راهويه (٢٢٦٠).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ١٥٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٦٩٨١)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٢١٩).

الثَّاني: أَن يقولَ قولًا يُشبهُ الكَذِبَ، ولا يَقصِد بهِ إلا الحقَّ، ومنه حديثُ: «**كَذَبَ إبراهيمُ ثَلاثَ كَذباتٍ**»[١]، أَي: قال قولا يُشبهُ الكَذِبَ، وهو صادقٌ في الثّلاث.

الثَّالثُ: بمَعنى الخَطَإِ، وهو كثيرٌ في كَلامِهم.

والرابعُ: البُطولُ، كَذَبَ الرجُلُ: بمَعنى بَطَلَ عليه أَمَلُهُ، وما رَجاهُ.

الخامسُ: بمَعنى الإغراءِ.

وعلى الثَّالث خَرَّجوا حديثَ صَلاةِ الوِتر: «كَذَبَ أَبو محمدٍ»[٢]، أَي: أَخطَأَ، سمَّاهُ كاذِبًا؛ لأَنَّهُ شَبيهُهُ في كَونِه ضِدَّ الصواب، كَما أَنَّ الكَذِبَ ضِدُّ الصدق، وإن افتَرقا من حَيثُ النِّيَّةُ والقَصدُ؛ لأنَّ الكاذبَ يَعلَم أَنّ ما يقولُهُ كَذِبٌ، والمخطِىءَ لا يعلَمُ، وهذا الرجُلُ ليس بمُخبِرٍ، وإنّما قاله باجتِهادٍ أَدَّاهُ إلى أَنَّ الوِترَ واجبٌ، والاجتهادُ لا يدخُلُه الكَذِبُ، وإنّما يدخُلُه الخَطأُ، وأَبو محمّدٍ صَحابيٌّ: اسمهُ مسعودُ بن زَيدٍ».

وفي **التوشيح**: «أَهلُ الحِجاز، يقولونَ: كَذَبتَ بمَعنى أَخطأتَ، وقد تَبعَهم فيه بقيّةُ الناس»[٣].

ومن ذلك: ما في الصحيحَينِ عن سَعيدِ بن جُبَيرٍ، قال: قيلَ لِابنِ عباسٍ: إنَّ نَوفًا يَزعُمُ أَنَّ موسى الذي ذَهَبَ يَلتَمِسُ العِلمَ ليس بموسى بَني إسرائيلَ، قال: «أَسَمِعتَهُ يا سَعيدُ؟»، قُلتُ: نَعَم، قال: «كَذَبَ نَوفٌ»، وفي لفظٍ: «كَذَبَ عَدوُّ الله»[٤].

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَذَبَ نَوفٌ»: هو جارٍ على مَذهَب أَصحابنا: أَنَّ الكَذِبَ هو الإخبارُ عنِ الشَّيءِ بخِلافِ ما هوَ، عَمدًا -كان-، أو سَهوًا، أو غَلَطًا»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١)، ولفظه: «**لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات**».

(٢) روى أبو داود (٤٢٥)، عن عبد الله بن الصنابحي، قال: زعم أبو محمد أن الوتر واجب، فقال: عبادة بن الصامت: «كذب أبو محمد»، وصححه الألباني.

(٣) تاج العروس (٤/ ١٢٩)، وينظر: النهاية (٤/ ١٥٩)، عمدة القاري (٧/ ١٨).

(٤) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٥) شرح النووي على مسلم (١/ ٩٤)، (١٥/ ١٤٢).

وقال **ابنُ التينِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يُرِدِ ابنُ عباسٍ إخراجَ نَوفٍ عن وِلايَةِ اللهِ، ولكنَّ قُلوبَ العُلَماءِ تَنفِرُ إذا سَمِعَت غيرَ الحقِّ، فَيُطلِقونَ أَمثالَ هذا الكَلامِ؛ لِقَصدِ الزَّجرِ والتحذيرِ منه، وحقيقَتُهُ غيرُ مُرادَةٍ»[1].

وقَولُهُ في الحديث: «وله ولِأَصحابِهِ هِجرَةٌ واحدَةٌ، ولَكُم أَنتُم -أَهلَ السَّفينَةِ- هِجرَتانِ»:

قال الحافظُ: «ظاهِرُهُ: تَفضيلُهُم على غيرِهِم منَ المهاجِرينَ، لكن لا يَلزَمُ منه تَفضيلُهُم على الإطلاقِ، بَل منَ الحَيثِيَّةِ المَذكورَةِ»[2].

وقال **ابنُ عبدِ الدَّائِمِ العَسقَلانيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قيلَ: هذا يقتضي أن يكونوا أفضَلَ من عُمر، وهو خلافُ الإجماعِ، قيلَ: لا يلزَمُ من تَفضيلِهم من جهةٍ تَفضيلُهُم على الإطلاقِ، أو عُدِل به عن ظاهِرِه؛ لُمصادَمَتِه الإجماعَ»[3].

قَولُهُ: «قالت: فَلَقد رَأَيتُ أَبا موسى وأَصحابَ السَّفينَةِ يَأتوني أَرسالًا، يَسأَلوني عن هذا الحَديثِ».

«أَرسالًا»، أَي: أَفواجًا، أَي: يَجيئونَ إلَيها، ناسًا بعدَ ناسٍ.

وقال **ابنُ الأَثيرِ**: «أَرسالًا، أَي: أفواجًا وفِرَقا مُتَقَطِّعَةً، يَتبَعُ بَعضُهُم بَعضًا، واحدُهم: رَسَلٌ، بفَتحِ الراءِ والسِّينِ»[4].

قَولُهُ: «ما منَ الدُّنيا شيءٌ هُم بِهِ أَفرَحُ ولا أَعظَمُ في أَنفُسِهِم مِمَّا قال لهمُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»:**

أي: هذا الحديثُ كان أعظمَ شيءٍ في نُفوسِهم، لم يُعادِله شيءٌ يَسُرُّهم في الدُّنيا.

---

(١) فتح الباري (١/ ٢١٩).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٤٨٦).

(٣) اللامع الصبيح (١١/ ٢٧٨).

(٤) النهاية (٢/ ٢٢٢).

قالت أَسماءُ: «فَلَقد رَأَيتُ أَبا موسى وإنَّهُ ليستَعيدُ هذا الحَديثَ مِنِّي»:

استعادَه الحديثَ وغيرَه: إذا سألَه أن يُعيدَه[١].

ويُقالُ: استَعادَهُ الشَّيءَ فَأَعادَهُ: سأله أَن يَفعَله ثانيًا[٢].

ويحسُن أن نَسرُدَ خَبَرَ الهِجرةِ إلى الحَبَشةِ بتَمامِه:

قال الإمامُ مُحَمَّدُ بن إسحاقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَدَّثَني محمدُ بن مسلمٍ الزُّهريُّ، عن أَبي بكرِ بن عبدِ الرحمَنِ بن الحارِثِ بن هِشامٍ المَخزوميِّ، عن أُمِّ سَلَمَةَ بنتِ أَبي أُمَيَّةَ بن المغيرَةِ، زَوجِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت:

لَمَّا نزلنا أَرضَ الحَبَشَةِ، جاوَرنا بها خَيرَ جارٍ النجاشيَّ، أَمِنَّا على ديننا، وعَبَدنا اللهَ تعالى، لا نُؤذى، ولا نَسمَعُ شَيئًا نَكرَهُهُ، فلما بلغَ ذلك قريشًا، ائتَمَروا بينهم أَن يَبعَثوا إلى النجاشيِّ فينا رجلَينِ منهم جَلدَينِ[٣]، وأَن يُهدوا للنجاشيِّ هَدايا مِمَّا يُستَطرَفُ من مَتاعِ مكةَ، وكان من أَعجَب ما يَأتيهِ منها الأُدمُ[٤]، فَجَمَعوا له أُدمًا كَثيرًا، ولَم يَترُكوا من بَطارِقَتِهِ بطريقًا[٥] إلا أَهدَوا له هَديَّةً، ثم بَعَثوا بذلك عبدَ اللهِ بن أَبي رَبيعَةَ، وعَمرَو بن العاصِ، وأَمَروهُما بأَمرِهِم، وقالوا لهما: ادفَعا إلى كُلِّ بطريقٍ هَديَّتَهُ قَبلَ أَن تُكَلِّما النجاشيَّ فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشيِّ هَداياهُ، ثم سَلاهُ أَن يُسلِمَهُم إلَيكُما قَبلَ أَن يُكَلِّمَهُم.

قالت: فَخرجا حتى قدِما على النجاشيِّ، ونَحنُ عِندَهُ بخَيرِ دارٍ، عِندَ خَيرِ جارٍ، فلم يَبقَ من بطارِقَتِهِ بطريقٌ إلا دَفَعا إليه هَديَّتَهُ قَبلَ أَن يُكَلِّما النجاشيَّ، وقالا لِكُلِّ بطريقٍ منهم: إنَّهُ قد ضَوى[٦] إلى بَلَدِ المَلِكِ مِنَّا غِلمانٌ سُفَهاءُ، فارَقوا دينَ قَومِهِم، ولَم يَدخُلوا في

---

(١) شمس العلوم لابن سعيد الحميري (٧/ ٤٨٤٠).

(٢) مختار الصحاح لأبي عبد الله الرازي (ص٢٢١).

(٣) الجلد: القوة والصبر، وقال ابن دريد في جمهرة اللغة (١/ ٤٤٩): «الجلد: الشديد، رجل جلد: بين الجلادة والجلد».

(٤) الجلود.

(٥) البطريق: رئيس الأساقفة.

(٦) أي: أوى.

دينِكُم، وجاءوا بدينٍ مُبتَدَعٍ، لا نَعرِفُهُ نَحنُ ولا أَنتُم، وقد بَعَثَنا إلى المَلِكِ فيهم أَشرافُ قَومِهِم؛ ليَرُدَّهُم إليهِم، فإذا كَلَّمنا المَلِكَ فيهم، فَأَشيروا عليه بأَن يُسلِمَهُم إلَينا، ولا يُكَلِّمَهُم، فَإِنَّ قَومَهُم أَعلى بِهِم عَينًا[1]، وأَعلَمُ بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نَعَم.

ثم إنَّهُما قدَّما هَداياهُما إلى النجاشيِّ، فَقَبلها منهما، ثم كَلَّماهُ فقالا له:

أَيُّها المَلِكُ، إنَّهُ قد ضَوى إلى بَلَدِكَ مِنَّا غِلمانٌ سُفَهاءُ، فارَقوا دينَ قَومِهِم، ولَم يَدخُلوا في دينِكَ، وجاءوا بدينٍ ابتَدَعوهُ، لا نَعرِفُهُ نَحنُ ولا أَنتَ، وقد بَعَثَنا إليك فيهم أَشرافُ قَومِهِم من آبائِهِم وأَعمامِهِم وعَشائِرِهِم؛ لِتَرُدَّهُم إليهم، فَهُم أَعلى بِهِم عَينًا، وأَعلَمُ بما عابوا عليهم، وعاتَبوهُم فيه.

قالت: ولَم يَكُن شيءٌ أَبغَضَ إلى عبدِ اللهِ بن أَبي رَبيعَةَ وعَمرِو بن العاصِ من أَن يَسمع كَلامَهُم النجاشيُّ[2].

قالت: فقالت بَطارِقَتُهُ حَوله: صَدَقا أَيُّها المَلِكُ، قَومُهُم أَعلى بِهِم عَينًا، وأَعلَمُ بما عابوا عليهم، فَأَسلِمهُم إليهما؛ فَليَرُدَّاهُم إلى بلادِهِم وقَومِهِم.

قالت: فَغَضِبَ النجاشيُّ، ثم قال: لا ها اللهِ ذا[3]، لا أُسلِمُهُم إليهما، ولا يُكادُ قَومٌ جاوَروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَن سِوايَ، حتى أَدعوَهُم فَأَسأَلهم عَمَّا يقولُ هذانِ في أَمرِهِم، فَإن كانوا كَما يقولانِ أَسلَمتهم إليهما، ورَدَدتُهُم إلى قَومِهِم، وإن كانوا على غيرِ ذلك مَنَعتُهُم منهما، وأَحسَنتُ جِوارَهُم ما جاوَروني.

قالت: ثم أَرسَلَ إلى أَصحاب رسولِ اللهِ ﷺ فَدَعاهُم، فلما جاءَهُم رسولُهُ اجتَمَعوا، ثم قال بَعضُهُم لِبَعضٍ: ما تَقولونَ للرَّجُلِ إذا جِئتُموهُ؟

قالوا: نَقولُ -واللهِ- ما عَلِمنا، وما أَمَرَنا بِهِ نبيُّنا ﷺ، كائِنًا في ذلك ما هو كائِنٌ.

---

(١) أي: أبصر بهم، وأعلم بحالهم.

(٢) أي: من أن يسمع النجاشي كلام الصحابة.

(٣) معناه: لا والله لا يكون ذا، أو: لا والله الأمر ذا، فحذف تخفيفا، ولك في ألف «ها» مذهبان: أحدهما: تثبت ألفها؛ لأن الذي بعدها مدغم، مثل دابة، والثاني: أن تحذفها؛ لالتقاء الساكنين. النهاية (٥/ ٢٣٧).

فلما جاءوا، وقد دَعا النجاشيُّ أَساقِفَتَهُ، فَنَشَروا مَصاحِفَهُم حَوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدِّينُ الذي قد فارَقتُم فيه قَومَكُم، ولَم تَدخُلوا بِهِ في ديني، ولا في دينِ أَحَدٍ من هذه المِلَلِ؟

قالت: فكان الذي كَلَّمَهُ جَعفَرُ بن أَبي طالِبٍ رِضوانُ اللهِ عليه، فقال له: «أَيُّها المَلِكُ، كُنَّا قَومًا أَهلَ جاهِلِيَّةٍ، نَعبُدُ الأَصنامَ، ونَأكُلُ المَيتَةَ، ونَأتي الفَواحِشَ، ونَقطَعُ الأَرحامَ، ونُسيءُ الجِوارَ، ويَأكُلُ القَويُّ مِنَّا الضَّعيفَ، فَكُنَّا على ذلك، حتى بَعَثَ اللهُ إِلَينا رسولًا مِنَّا، نَعرِفُ نَسَبَهُ وصِدقَهُ وأَمانَتَهُ وعَفافَهُ، فَدَعانا إلى اللهِ لِنوَحِّدَهُ ونَعبُدَهُ، ونَخلَعَ ما كُنَّا نَعبُدُ نَحنُ وآباؤُنا من دونِهِ من الحِجارَةِ والأوثانِ، وأَمَرَنا بِصِدقِ الحَديثِ، وأَداءِ الأَمانَةِ، وصِلَةِ الرحِمِ، وحُسنِ الجِوارِ، والكَفِّ عن المَحارِمِ والدِّماءِ، ونَهانا عن الفَواحِشِ، وقَولِ الزُّورِ، وأَكلِ مالِ اليَتيمِ، وقَذفِ المحصَناتِ، وأَمَرَنا أَن نَعبُدَ اللهَ وحدَهُ، لا نُشرِكَ بِهِ شَيئًا، وأَمَرَنا بالصلاةِ والزَّكاةِ والصيامِ- قالت: فَعَدَّدَ عليه أُمورَ الإسلامِ- فَصَدَّقناهُ وآمَنَّا بِهِ، واتَّبَعناهُ على ما جاءَ بِهِ من اللهِ، فَعَبَدنا اللهَ وحدَهُ، فلم نُشرِك بِهِ شَيئًا، وحَرَّمنا ما حَرَّمَ علينا، وأَحلَلنا ما أَحَلَّ لَنا، فَعَدا علينا قَومُنا، فَعَذَّبونا، وفَتَنونا عن دينِنا، ليَرُدُّونا إلى عِبادَةِ الأوثانِ من عِبادَةِ اللهِ تعالى، وأَن نَستَحِلَّ ما كُنَّا نَستَحِلُّ منَ الخَبائِثِ، فلما قَهَرونا وظَلَمونا وضَيَّقوا علينا، وحالوا بينَنا وبينَ ديننا، خرجنا إلى بلادِكَ، واختَرناكَ على مَن سِواكَ، ورَغِبنا في جِوارِكَ، ورَجَونا أَن لا نُظلَمَ عِندَكَ، أَيُّها المَلِكُ».

قالت: فقال له النجاشيُّ: هَل معكَ مِمَّا جاءَ بِهِ عَنِ اللهِ من شيءٍ؟

فقال له جَعفَرٌ: «نَعَم»، فقال له النجاشيُّ: فاقرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عليه صَدرًا من: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[1].

قالت: فَبَكى -واللهِ- النجاشيُّ حتى أَخضَلَ لِحيَتَهُ[2]، وبَكَت أَساقِفَتُهُ حتى أَخضَلوا مَصاحِفَهُم، حينَ سَمِعوا ما تَلا عليهم، ثم قال لهم النجاشيُّ: إنَّ هذا والذي جاءَ بِهِ عيسى لَيَخرُجُ من مِشكاةٍ واحدَةٍ.

---

(١) أي: آيات من أول سورة مريم.

(٢) أي: بلها بالدموع.

انطَلِقا[1]، فلا واللهِ لا أُسلِمُهُم إلَيكُما، ولا يُكادونَ.

قالت: فلما خرجا من عِندِهِ، قال عَمرو بن العاصِ: واللهِ لَآتِيَنَّهُ غَدًا عنهم بما أَستَأصِلُ بهِ خَضراءَهُم، فقال له عبدُ اللهِ بن أَبي ربيعَة -وكان أَتقى الرجُلَينِ فينا-: لا تَفعَل؛ فَإِنَّ لهم أَرحامًا، وإن كانوا قد خالَفونا، قال: واللهِ لَأُخبِرَنَّهُ أَنَّهُم يَزعُمونَ أَنَّ عيسى ابن مَريَمَ عبدٌ.

قالت: ثم غَدًا عليه من الغَدِ فقال له: أَيُّها المَلِكُ، إنَّهُم يقولونَ في عيسى ابن مَريَمَ قَولًا عَظيمًا، فَأَرسِل إليهم، فَسَلهُم عَمَّا يقولونَ فيه.

قالت: فَأَرسَلَ إليهم ليسأَلهم عنه، قالت: ولَم يَنزِل بنا مِثلُها قَطُّ، فاجتَمع القَومُ، ثم قال بَعضُهُم لِبَعضٍ: ماذا تَقولونَ في عيسى ابن مَريَمَ إذا سألَكُم عنه؟ قالوا: نَقولُ -واللهِ- ما قال اللهُ، وما جاءَنا بهِ نبيُّنا، كائِنًا في ذلك ما هو كائِنٌ.

قالت: فلما دَخَلوا عليه، قال لهم: ماذا تَقولونَ في عيسى ابنِ مَريَمَ؟

قالت: فقال جَعفَرُ بن أَبي طالِبٍ: «نَقولُ فيه الذي جاءَنا بهِ نبيُّنا ﷺ، يقولُ: «هو عبدُ اللهِ ورسولُهُ، وروحُهُ، وكَلِمَتُهُ أَلقاها إلى مَريَمَ العَذراءِ البَتولِ»[2].

قالت: فَضَرَبَ النجاشيُّ بيَدِهِ إلى الأَرضِ، فَأَخَذَ منها عودًا، ثم قال: واللهِ ما عَدا عيسى ابنُ مَريَمَ ما قُلتَ هذا العودَ، قالت: فَتَناخَرَت[3] بَطارِقَتُهُ حَوله حينَ قال ما قال، فقال: وإن نَخَرتُم واللهِ، اذهَبوا فَأَنتُم سُيومٌ بأَرضي -والسُّيومُ: الآمِنونَ- مَن سَبَّكُم

---

(١) يعني أن النجاشي التفت بعد ذلك إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وقال لهما: «انطلقا...».

(٢) قال العلماء: «التبتل هو: الانقطاع عن النساء، وترك النكاح؛ انقطاعًا إلى عبادة الله، وأصل التبتل القطع، ومنه: مريم البتول، وفاطمة البتول؛ لانقطاعها عن نساء زمانها دينًا وفضلًا ورغبةً في الآخرة، ومنه: صدقة بتلة، أي: منقطعة عن تصرف مالكها.

قال الطبري: «التبتل هو: ترك لذات الدنيا وشهواتها، والانقطاع إلى الله تعالى، بالتفرغ لعبادته». شرح النووي على مسلم (٩/ ١٧٦).

(٣) أي: تكلمت، وكأنه كلام مع غضب ونفور. النهاية (٥/ ٣٢).

غَرِمَ، مَن سَبَّكُم غَرِمَ، ما أُحِبُّ أَنَّ لي دَبرًا من ذَهَبٍ[١]، وأَنِّي آذَيتُ رجلًا منكُم، رُدُّوا عليهما هَداياهُما، فلا حاجَةَ لي بها، فوالله ما أَخَذَ اللهُ مِنِّي الرِّشوَةَ حينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلكي، فَآخُذ الرِّشوَةَ فيه، وما أَطاعَ الناسَ فيَّ، فَأُطيعهُم فيه.

قالت: فَخرجا من عِندِهِ مَقبوحَينِ مَردودًا عليهما ما جاءا بِهِ، وأَقَمنا عِندَهُ بخَيرِ دارٍ، مع خَيرِ جارٍ.

قالت: فواللهِ إنَّا لَعلى ذلك، إذ نزلَ بِهِ رجلٌ من الحَبَشَةِ، يُنازِعُهُ في مُلكِهِ.

قالت: فواللهِ ما عَلِمتُنا حَزِنَّا حُزنًا قَطُّ كان أَشَدَّ علينا من حُزنٍ حَزِنَّاهُ عِندَ ذلك؛ تَخَوُّفًا أَن يَظهَرَ ذلك الرجُلُ على النجاشيِّ، فَيَأتي رجلٌ لا يَعرِفُ من حقِّنا ما كان النجاشيُّ يَعرِفُ منه.

قالت: وسارَ إليه النجاشيُّ، وبينهما عَرضُ النِّيلِ، قالت: فقال أَصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: مَن رجلٌ يَخرَجُ حتى يَحضُرَ وقيعَةَ القَومِ، ثم يَأتينا بالخَبَرِ؟ قالت: فقال الزُّبَيرُ بن العَوَّامِ: أَنا.

قالوا: فَأَنتَ، وكان من أَحدَثِ القَومِ سِنًّا، قالت: فَنَفَخوا له قِربَةً، فَجَعَلها في صَدرِهِ، ثم سَبَحَ عليها حتى خرجَ إلى ناحيَةِ النِّيلِ التي بها مُلتَقى القَومِ، ثم انطَلَقَ حتى حَضَرَهُم.

قالت: فَدَعَونا اللهَ تعالى للنجاشيِّ بالظُّهورِ على عَدوِّهِ، والتمكينِ له في بلاده.

قالت: فَواللهِ إنَّا لَعلى ذلك مُتَوَقِّعونَ لِما هو كائِنٌ، إذ طَلَعَ الزُّبَيرُ وهو يَسعى، فلمع بثَوبِهِ[٢] وهو يقولُ: أَلا أَبشِروا؛ فقد ظَفِرَ النجاشيُّ، وأَهلَكَ اللهُ عَدوَّهُ، ومَكَّنَ له في بلاده.

قالت: فَواللهِ ما عَلِمتُنا فَرِحنا فَرحَةً قَطُّ مِثلها.

قالت: ورجعَ النجاشيُّ، وقد أَهلَكَ اللهُ عَدوَّهُ، ومَكَّنَ له في بلادِهِ، واستَوسَقَ عليه أَمرُ الحَبَشَةِ[٣]، فَكُنَّا عِندَهُ في خَيرِ مَنزِلٍ، حتى قدِمنا على رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو بمكةَ.

---

(١) أي: جبلًا من ذهب.

(٢) لمع بثوبه وألمع به: إذا رفعه وحركه؛ ليراه غيره، فيجيء إليه.

(٣) أي: اجتمعوا على طاعته، واستقر الملك فيه.

قال ابنُ إسحاقَ: قال الزُّهريُّ: فَحَدَّثتُ عُروَةَ بن الزُّبَيرِ حَديثَ أَبي بكرِ بن عبدِ الرحمَنِ، عن أُمِّ سَلَمَةَ زَوجِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: هَل تَدري ما قَولُهُ: «ما أَخَذَ اللهُ مِنِّي الرِّشوَةَ حينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلكي، فَآخُذ الرِّشوَةَ فيه، وما أَطاعَ الناسَ فِيَّ، فَأُطيع الناسَ فيه؟».

قال: قُلتُ: لا، قال: فَإِنَّ عائشةَ أُمَّ المؤمِنينَ حَدَّثَتني: أَنَّ أَباهُ كان مَلِكَ قَومِهِ، ولَم يَكُن له ولَدٌ إلا النجاشيَّ، وكان للنجاشيِّ عَمٌّ، له من صُلبِهِ اثنا عَشَرَ رجلًا، وكانوا أَهلَ بَيتِ مَملَكَةِ الحَبَشَةِ، فقالتِ الحَبَشَةُ بينَها: لَو أَنَّا قَتَلنا أَبا النجاشيِّ، ومَلَّكنا أَخاهُ؛ فَإِنَّهُ لا ولَدَ له غيرَ هذا الغُلامِ، وإنَّ لِأَخيهِ من صُلبِهِ اثنَي عَشَرَ رجلًا، فَتَوارَثوا مُلكَهُ من بعدِهِ، بَقيَتِ الحَبَشَةُ بعدَهُ دَهرًا.

فَعَدَوا على أَبي النجاشيِّ، فَقَتَلوهُ، ومَلَّكوا أَخاهُ، فَمَكَثوا على ذلك حينًا.

ونَشَأَ النجاشيُّ مع عَمِّهِ، وكان لَبيبًا حازِمًا من الرِّجالِ، فَغَلَبَ على أَمرِ عَمِّهِ، ونزلَ منه بكُلِّ مَنزِلَةٍ، فلما رَأَتِ الحَبَشَةُ مَكانهُ منه قالت بينَها: واللهِ لَقد غَلَبَ هذا الفَتى على أَمرِ عَمِّهِ، وإنَّا لَنَتَخَوَّفُ أَن يُمَلِّكَهُ علينا، وإن مَلَّكَهُ علينا لَيَقتُلَنَّا أَجمَعينَ، لَقد عَرَفَ أَنَّا نَحنُ قَتَلنا أَباهُ.

فَمَشَوا إلى عَمِّهِ، فقالوا: إمَّا أَن تَقتُلَ هذا الفَتى، وإمَّا أَن تُخرِجَهُ من بينِ أَظهُرِنا، فَإِنَّا قد خِفناهُ على أَنفُسِنا.

قال: ويلَكُم! قَتَلتُم أَباهُ بالأَمسِ، وأَنا أَقتُلُهُ اليَومَ! بَل أُخرِجُهُ من بلادِكُم.

قالت: فَخرجوا بهِ إلى السُّوقِ، فَباعوهُ من رجلٍ من التُّجَّارِ بِستِّ مئةِ دِرهَمٍ، فَقَذَفَهُ في سَفينَةٍ، فانطَلَقَ بهِ.

حتى إذا كان العَشيُّ من ذلك اليَومِ، هاجَت سَحابَةٌ من سَحائِبِ الخَريفِ، فَخرجَ عَمُّهُ يَستَمطِرُ تَحتَها، فَأَصابَتهُ صاعِقَةٌ، فَقَتَلَتهُ.

قالت: فَفَزِعَتِ الحَبَشَةُ إلى ولَدِهِ، فإذا هو مُحمِقٌ[١]، ليس في ولَدِهِ خَيرٌ، فَمَرَجَ على الحَبَشَةِ أَمرُهُم. فلما ضاقَ عليهم ما هُم فيه من ذلك، قال بَعضُهُم لِبَعضٍ: تَعلَموا -واللهِ- أَنَّ مَلِكَكُمُ الذي لا يُقيمُ أَمرَكُم غيرُهُ لَلذي بعتُم غَدوَةً، فَإن كان لَكُم بأَمرِ الحَبَشَةِ حاجَةٌ فَأَدرِكوهُ الآنَ.

قالت: فَخرجوا في طَلَبِهِ، وطَلَب الرجُلِ الذي باعوهُ منه حتى أَدرَكوهُ، فَأَخَذوهُ منه، ثم جاءوا بهِ، فَعَقدوا عليه التاجَ، وأَقعَدوهُ على سَريرِ الملكِ، فَمَلَّكوهُ.

فَجاءَهُمُ التاجِرُ الذي كانوا باعوهُ منه، فقال: إمَّا أَن تُعطوني مالي، وإمَّا أَن أُكَلِّمَهُ في ذلك؟ قالوا: لا نُعطيكَ شَيئًا، قال: إذَن -واللهِ- أُكَلِّمُهُ، قالوا: فَدونَكَ وإيَّاهُ.

قالت: فَجاءَهُ فَجَلَسَ بينَ يَدَيهِ، فقال: أَيُّها المَلِكُ، ابتَعتُ غُلامًا من قَومٍ بالسُّوقِ بسِتِّ مئةِ دِرهَمٍ، فَأَسلَموا إلَيَّ غُلامي وأَخَذوا دَراهِمي، حتى إذا سِرتُ بغُلامي أَدرَكوني فَأَخَذوا غُلامي، ومَنَعوني دَراهِمي.

قالت: فقال لهمُ النجاشيُّ: لَتُعطُنَّهُ دَراهِمَهُ، أو لَيَضَعَنَّ غُلامُهُ يَدَهُ في يَدِهِ، فَلَيَذهَبَنَّ بهِ حَيثُ شاءَ.

قالوا: بَل نُعطيهِ دَراهِمَهُ.

قالت: فَلِذلك يقولُ: «ما أَخَذَ اللهُ مِنِّي رِشوَةً حينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلكي، فَآخُذ الرِّشوَةَ فيه، وما أَطاعَ الناسَ فيَّ، فَأُطيع الناسَ فيه».

قالت: وكان ذلك أَوَّلَ ما خُبِرَ من صَلابَتِهِ في دينِهِ، وعَدلِهِ في حُكمِهِ.

قال ابنُ إسحاقَ: وحَدَّثَني يَزيدُ بن رومانَ، عن عُروَةَ بن الزُّبَيرِ، عن عائشةَ، قالت: «لَمَّا ماتَ النجاشيُّ، كان يُتَحَدَّثُ أَنَّهُ لا يَزالُ يُرى على قَبرِهِ نورٌ»[٢].

---

(١) رجل محمق: إذا كان يلد الحمقى. جمهرة اللغة (١/ ٥٥٩).

(٢) رواه ابن إسحاق هكذا بتمامه، كما في سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٤-٣٤٠)، ومن طريقه رواه الإمام أحمد (١٧٤٠)، إلى قصة ظفر النجاشي بعدوه، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١١٥) ببعضه، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٠١-٣٠٦) بتمامه، وحسنه محققو المسند.

ترجمَةُ النجاشيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اسمه أَصحَمَةُ، ومَعناهُ بالعَرَبيَّةِ: عَطيَّةُ.

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو أَصحَمَةُ بن أَبجَرَ، وكان عبدًا صالِحًا، لَبيبًا، ذَكيًّا، عادِلًا، عالِمًا، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأَرضاهُ.

والنجاشيُّ: اسمُ المَلِكِ، كَقَولِكَ: كِسرى، وقَيصَرَ.

وقَيصَرُ: عَلَمٌ لِكُلِّ مَن مَلَكَ الشَّامَ مع الجَزيرَةِ من بلادِ الرُّومِ، وكِسرى: عَلَمٌ على مَن مَلَكَ الفُرسَ، وفِرعَونُ: عَلَمٌ لِمَن مَلَكَ مِصرَ كافَّةً، والمَقوقِسُ: لِمَن مَلَكَ الإسكَندَريَّةَ، وتُبَّعٌ: لِمَن مَلَكَ اليَمَنَ، والنجاشيُّ: لِمَن مَلَكَ الحَبَشَةَ، وبَطلَيموسُ: لِمَن مَلَكَ اليونانَ، وقيلَ: الهِندَ، وخاقانُ: لِمَن مَلَكَ التُّركَ»[1].

وقال السُّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابنُ دُريد: «النّجاشيّ لفظةٌ حَبشيةٌ»، وقال ابنُ دحيَة، وابنُ سيدَه: «هي بكسرِ النُّونِ، وتشديدِ الياء»، وقال غيرُهُما: «بفتحِ النُّونِ، وتخفيفِ الجيم»، وقال الصغانيّ: «تَخفيف الياءِ أفصحُ»، وقال صاحبُ المغرب: «تشديدُ الجيمِ خَطأٌ».

قالوا: «وهو لقبٌ لِمن مَلَكَ الحَبَشةَ، كَقيصر: لِمَن مَلَك الرُّوم، وكِسرى: لَمن مَلكَ الفُرسَ، وخاقان: لِمن مَلَكَ التُّركَ».

واختُلفَ في اسمِهِ على أقوالٍ: أصحَمة، وأصمَحة، وصَمحَة، وصَحمَة، وأصبَحَة، وأصخَمة، ومَكحولُ بن صَعصَعَة»[2].

وقال الذَّهَبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان النجاشيُّ مِمَّن حَسُنَ إسلامُهُ، ولَم يُهاجِر، ولا له رُؤيَةٌ.

وقد توُفِّيَ في حَياةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّى عليه بالناسِ صَلاةَ الغائِب.

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ١٩٢)، بتصرف يسير.

(٢) أزهار العروش في أخبار الحبوش (ص٤١).

ولَم يَثبُت أَنَّهُ صَلَّى ﷺ على غائِبٍ سِواهُ.

وسَبَبُ ذلك: أَنَّهُ ماتَ بينَ قَومٍ نَصارى، ولَم يَكُن عِندَهُ مَن يُصَلِّي عليه؛ لأَنَّ الصحابَةَ الذينَ كانوا مُهاجِرينَ عِندَهُ خرجوا من عِندِهِ مُهاجِرينَ إلى المَدينَةِ عامَ خَيبَرَ»[1].

فعن أَبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّهُ قال: نَعى لَنا رسولُ اللهِ ﷺ النجاشيَ صاحِبَ الحَبَشَةِ في اليَومِ الذي ماتَ فيه، فقال: «**استَغفِروا لِأَخيكُم**».

وحَدَّثَ أَبو هريرة: «أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ صَفَّ بِهِم بالمصَلَّى، فَصَلَّى، فَكَبَّرَ عليه أَربَعَ تَكبيراتٍ»[2].

وقال ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «قال بَعضُ العُلَماءِ: «إِنَّما صَلَّى عليه النبيُّ ﷺ لما ماتَ؛ لِأَنَّهُ كان يَكتُمُ إيمانَهُ من قَومِهِ، فلم يَكُن عِندَهُ يَومَ ماتَ مَن يُصَلِّي عليه، فَلِهذا صَلَّى عليه».

قالوا: «فالغائِبُ إن كان قد صُلِّيَ عليه ببَلَدِهِ، لا تُشرَعُ الصلاةُ عليه ببَلَدٍ أُخرى، ولِهذا لَم يُصَلِّ على النبيِّ ﷺ في غيرِ المَدينَةِ، لا أَهلُ مكةَ ولا غيرُهُم، وهَكذا أَبو بكرٍ وعمرُ وعُثمانُ وغيرُهُم منَ الصحابَةِ، لَم يُنقَل أَنَّهُ صُلِّيَ على أَحَدٍ منهم في غيرِ البَلدَةِ التي صُلِّيَ عليه فيها».

وشُهودُ أَبي هريرة رضي الله عنه الصلاةَ على النجاشيِّ، دَليلٌ على أَنَّهُ إِنَّما ماتَ بعدَ فَتحِ خَيبَرَ، في السَّنَةِ التي قدِمَ بَقيَّةُ المهاجِرينَ إلى الحَبَشَةِ مع جَعفَرِ بن أَبي طالِبٍ رضي الله عنه، يَومَ فَتحِ خَيبَرَ»[3].

هَلِ النجاشيُّ صَحابيٌّ؟

الصحيحُ: أَنَّه من التابعينَ، وليس صحابيًّا؛ لأَنَّ الصحابيَّ هوَ: «مَن لَقيَ النبيَّ

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٢٨).

(٢) رواه البخاري (١٣٢٧)، ومسلم (٩٥١).

(٣) البداية والنهاية (٤/ ١٩٣).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤمنًا به، وماتَ على الإسلامِ، فيدخُل فيمَن لَقيَه: مَن طالَت مُجالَستُه له، أو قَصُرَت، ومَن رَوى عنه، أو لم يَروِ، ومَن غَزا معَه، أو لم يَغزُ، ومَن رآه رُؤيةً، ولو لم يُجالِسه، ومَن لم يَرَه لعارِضٍ، كالعَمى»[١].

ومعلومٌ أنّ النجاشيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ لم يلقَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّما لَقيَ أصحابَه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهو معدودٌ في التابعين؛ إذِ التابعيُّ هو «مَن لَقيَ الصحابيَّ»[٢].

وقال ابنُ المَلَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «النجاشيّ تابعيٌّ؛ لأنّه آمَنَ ورَأى الصحابةَ، ولم يَرَ النّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن ذكرهُ ابنُ مَندَه في الصحابةِ تَوسُّعًا»[٣].

ومِما يُستفادُ من هذا الحديثِ:

* قد يخلِطُ بعضُ الناسِ بينَ الأشعَريِّينَ والأشاعِرة، ويظُنّ أنّ المقصودَ بهِما طائفةٌ واحدةٌ، فنقول:

المقصودُ بالأشعريِّين: رَهطُ أبي موسى الأشعريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قبيلةٌ من أهلِ اليمنِ، يُنسَبون إلى الأشعَرِ بن أُدَدَ بن زَيدِ بن يَشجُبَ بن عَريب بن زَيدِ بن كَهلانَ بن سَبَأ، واسمُ الأشعَر نَبتٌ[٤].

أما الأشاعرةُ: ففرقةٌ تنتسِبُ إلى أبي الحسَنِ الأشعَريّ رَحِمَهُ اللَّهُ. وقد مَرَّ أبو الحَسَن الأشعَريّ بمراحِلَ، كان في الأولى منها مُعتزليًّا، وبقيَ عليها نحوًا من أربَعين سنَةً، ثم رجَع عنِ الاعتزالِ إلى رأيِ عبدِ اللهِ بن سعيدِ بن كُلَّاب، وتأثَّر به، وهي المرحلةُ الثانيةُ، وقد كان الإمامُ أحمدُ بن حنبلَ من أشَدِّ الناسِ على ابنِ كُلَّاب، وعلى أصحابه.

واختلفَ العلماءُ: هل رجعَ الأشعَريُّ عن قولِ ابنِ كُلَّاب إلى مرحلةٍ ثالثةٍ فوافَقَ أهلَ السُّنَّة والجماعةِ موافَقَةً تامَّةً، أم بَقيَ على ذلك ولم يرجِع؟ على قولَينِ.

---

(١) الإصابة (١/ ١٥٨).

(٢) نخبة الفكر لابن حجر (ص٨٤).

(٣) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٤/ ٣٨٥).

(٤) ينظر: أسد الغابة (٣/ ٣٦٤)، الطبقات لخليفة بن خياط (ص٥٥٦)، الإكمال لابن ماكولا (١/ ٨٧).

وغالبُ المتأخِّرين من الأشاعرةِ لا يلتَزِمون مذهبَ أبي الحسنِ الأشعَريّ، بل خلَطوا مذهبَهم بكثيرٍ من أصولِ الجَهميَّة والمعتزِلَة، بل والفلاسفةِ أَيضًا؛ وخالَفوا الأشعريَّ في كثيرٍ من أقوالِه، فهُم ينفون صفةَ الاستِواء للهِ، والعُلوّ، والنُّزول، واليَد، والعَين، والقدَم، والكَلام، وهذه الصفاتُ كلُّها يخالِفون فيها الأشعريَّ نفسَه.

* يجبُ على المسلمِ ألَّا يَزالَ وفيًّا لدينِه، رغم كُل ما يلقاه في سبيلِه من أذًى ومَشاقّ.

* يَجِبُ الثباتُ على الدِّين في بلادِ الغُربَةِ، كما يجبُ الثباتُ على الدِّين في زمَنِ الغُربَةِ.

وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَدَأَ الإسلامُ غَريبًا، وسَيَعودُ كَما بَدَأَ غَريبًا، فَطوبى للغُرَباءِ**»[1].

ولا يَضجَرُ المسلمُ إذا سكَنَ ببلادٍ غيرِ بلادِه؛ فلعَلّ في تلكَ البلادِ ما هو خيرٌ له في دينِه ومَعاشِه.

ولَمَّا قدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدينَةَ، ووُعِكَ أصحابه، وأَخَذَتهُم الحُمَّى، قال: «**اللهُمَّ حَبِّب إلَينا المَدينَةَ كَحُبِّنا مكةَ أو أَشَدَّ، اللهُمَّ بارِك لَنا في صاعِنا، وفي مُدِّنا، وصَحِّحها لَنا، وانقُل حُمَّاها إلى الجُحفَةِ**»[2].

* العملُ لأجلِ الدِّينِ ينبغي أن يكونَ بالنَّظَرِ إلى مصلحَةِ دينِ المرءِ، لا مصلحةِ دُنياه، فإن كان الخروجُ من بلَدِه إلى بلدٍ آخرَ أنفَعَ له في دينِه فإنَّه يخرُجُ، ويترُكُ بلدَه وديارَه، مُستحضِرًا ما وعَد اللهُ به المهاجِرين من حُسنِ العُقبى في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

والمراغَمُ مُشتمِلٌ على مصالِحِ الدِّين، والسَّعَة على مصالِحِ الدُّنيا[3].

* **وفي الحديثِ**: ركوبُ الصعاب والمخاطَرَة لأجلِ الدِّينِ، فإنَّ رُكوبَ البَحرِ -وخاصةً في ذلك الزمانِ- شديدٌ، والأخطار مُحدِقةٌ ومُتَوَقَّعةٌ من كُلِّ جانِبٍ؛ ولذلك حَرُمَ

---

(١) رواه مسلم (١٤٥).

(٢) رواه البخاري (١٨٨٩)، ومسلم (١٣٧٦).

(٣) تفسير السعدي (ص١٩٦).

ركوبُ البحرِ عندَ هَيَجانِه واضطِرابه، كما في المسنَدِ مرفوعًا: «**مَن رَكِبَ البَحرَ عِندَ ارتِجاجِهِ فَماتَ فقد بَرِئَت منه الذِّمَّةُ**»(١).

وقال الحافظُ: «نقل ابنُ عبدِ البَرِّ أَنَّهُ يَحرُمُ رُكوبُهُ عِندَ ارتِجاجِهِ اتِّفاقًا»(٢).

ولذلك كان الغازي في البحرِ أعظمَ أجرًا منَ الغازي في البَرِّ؛ لأن الغزوَ في البَحرِ أشَدُّ خَطرًا.

وعن أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدخُلُ على أُمِّ حَرام بنتِ مِلحانَ(٣)، فَتُطعِمُهُ، فَدَخَلَ عليها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَطعَمَتهُ، ثم استَيقَظَ وهو يَضحَكُ، قالت: فَقُلتُ: وما يُضحِكُكَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**ناسٌ من أُمَّتي عُرِضوا عَلَيَّ غُزاةً في سَبيلِ اللهِ، يَركَبونَ ثَبَجَ هذا البَحرِ(٤) مُلوكًا على الأَسِرَّةِ**»، أو: «**مِثلَ الملوكِ على الأَسِرَّةِ**».

قالت: فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أَن يَجعَلَني منهم، فَدَعا لها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَرَكِبَتِ البَحرَ في زَمانِ مُعاوِيَةَ بن أَبي سُفيانَ، فَصُرِعَت عن دابَّتِها حينَ خرجَت منَ البَحرِ، فَهَلَكَت(٥).

وكثيرٌ من الفُتوحاتِ الإسلاميَّة لم تتِمَّ إلا برُكوب البحرِ، والمخاطرةِ الشّديدَةِ، وهذا لا شَكّ أعظَمُ أجرًا.

* **ومن فوائدِ الحديثِ**: التحَدُّثُ بنعمَةِ اللهِ، فعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لأسماءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «سَبَقناكُم بالهِجرَةِ؛ فَنَحنُ أَحقُّ برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منكُم»، فَغَضِبَت أسماءُ وقالت: «كَلَّا

---

(١) المسند (٢٠٧٤٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٢٨). «**برئت منه الذمة**»، أي: زالت عصمة نفسه، وصار كالهدر الذي لا ذمة له، ففيه: حث على حفظ الإنسان نفسه من الهلاك. التنوير شرح الجامع الصغير (١٠/ ١٥٥).

(٢) فتح الباري (١١/ ٧٧).

(٣) قال النووي: «اتفق العلماء على أنها كانت محرمًا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». شرح النووي على مسلم (١٣/ ٥٧).

(٤) أي: وسطه وظهره.

(٥) رواه البخاري (٢٧٨٨)، ومسلم (١٩١٢).

واللهِ، كُنتُم مع رسولِ اللهِ ﷺ يُطعِمُ جائِعَكُم، ويَعِظُ جاهِلَكُم، وكُنَّا في دارِ -أو في أَرضِ- البُعَداءِ البُغَضاءِ بالحَبَشَةِ».

فتحَدَّثَ كُلٌّ منهما بنعمَةِ اللهِ عليه، وارتَفَع بها.

* انتِخابُ المكانِ المناسِب والبيئَةِ المناسِبةِ عندَ الفرارِ بالدِّين، فعن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها زَوجِ النبيِّ ﷺ، أَنَّها قالت: لَمَّا ضاقَت علينا مكةُ، وأوذيَ أَصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ، وفُتِنوا، ورَأوا ما يُصيبُهُم منَ البَلاءِ والفِتنَةِ في دينِهم، وأَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَستَطيعُ دَفعَ ذلك عنهم، وكان رسولُ اللهِ ﷺ في مَنَعَةٍ من قَومِهِ وعَمِّهِ، لا يَصِلُ إليه شيءٌ مِمَّا يَكرَهُ، مِمَّا يَنالُ أَصحابَهُ، فقال لهم رسولُ اللهِ ﷺ: **«إنَّ بأَرضِ الحَبَشَةِ مَلِكًا لا يُظلَمُ أَحَدٌ عِندَهُ، فالحقوا ببلادِهِ، حتى يَجعَلَ اللهُ لَكُم فَرَجًا ومَخرَجًا مِمَّا أَنتُم فيه»**[1].

* المسلمُ قويٌّ في دينِه، يدعو إلى سبيلِ رَبِّه، ويصدَعُ بالحقّ، ولا يُداري ولا يُماري، وهو كالغيثِ: حَيثُ حَلَّ نفَعَ، فالصحابةُ رضي الله عنهم هُمُ الذين بَيَّنوا للنجاشيِّ وقساوِسَتِه أُصولَ دعوةِ الإسلامِ، وأَنَّ عيسى ابنَ مريمَ عليه السلام عبدُ اللهِ ورسولُه، وليس كما يزعُمُ النّصارى فيه أَنَّه ابنُ اللهِ.

فأقاموا عليهم الحُجَّةَ، ودَعَوهُم إلى الحقِّ، على مكانِهم من الضَّعفِ والخَوفِ وقِلَّةِ الحيلةِ.

* إذا ضُيِّقَ على المسلمِ في دينِه في بلدٍ، فعليه أن يتحَوَّلَ عنها إلى بلدٍ آخرَ، يستطيعُ أن يُقيمَ فيه شعائرَ دينِه.

وإظهارُ شعائرِ الدِّينِ من صلاةِ الجُمعةِ والجماعةِ والعيدين والأذانِ والأضحيَةِ والسَّلامِ وغيرِ ذلك، مِمَّا يُثَبِّتُ الأقَلِّياتِ المسلمَةَ في بلادِ الغُربَة، ومِمَّا يكونُ لهُ أكبرُ الأثرِ في الدعوَةِ إلى دينِ اللهِ، والتعريفِ به، وإظهارِ محاسِنِه.

والناسُ يولَعون بمعرِفةِ الدِّين إذا ظهرَت بعضُ شعائرِه، فيسألون عن حقيقتِه،

---

(١) رواه البيهقي (١٧٧٣٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣١٩٠).

ومقاصدِه، وإلامَ يدعو أتباعُه، ويقارِنون بين هذا الدِّينِ الحقِّ وبينَ ما هُم عليه من الباطِلِ.

ولذلك لَمَّا نزَل أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جِوارِ ابنِ الدَّغِنَةِ، ابتَنى مسجدًا بفِناءِ دارِه، وكان يُصَلِّي فيه، ويَقرَأُ القُرآنَ، فَيَنقَذِفُ عليه نساءُ المشرِكينَ وأَبناؤُهُم، وهُم يَعجَبونَ منه ويَنظُرونَ إليه، وكان أَبو بكرٍ رجلًا بَكَّاءً، لا يَملِكُ عَينَيهِ إذا قَرَأَ القُرآنَ، فَأَفزَعَ ذلك أَشرافَ قريشٍ منَ المشرِكينَ، فَأَرسَلوا إلى ابنِ الدَّغِنَةِ فقدِمَ عليهم، فقالوا: «إنَّا كُنَّا أَجَرنا أَبا بكرٍ بجِوارِكَ، على أَن يَعبُدَ رَبَّهُ في دارِه، فقد جاوَزَ ذلك، فابتَنى مسجدًا بفِناءِ دارِه، فَأَعلَنَ بالصلاةِ والقراءةِ فيه، وإنَّا قد خَشينا أَن يَفتِنَ نساءَنا وأَبناءَنا، فانهَهُ، فَإن أَحَبَّ أَن يَقتَصِرَ على أَن يَعبُدَ رَبَّهُ في دارِه فَعَلَ، وإن أَبى إلا أَن يُعلِنَ بذلك، فَسَلهُ أَن يَرُدَّ إليك ذِمَّتَكَ؛ فَإنَّا قد كَرِهنا أَن نُخفِرَكَ، ولَسنا مُقِرِّينَ لِأَبي بكرٍ الِاستِعلانَ»[1].

عَلِموا أنَّ إعلانَ الدِّين وإظهارَه له أَثَرُه القَويُّ النافِذُ فيمَن لا يُقاتِل على الكُفرِ ويحارِبُ دونَه، ولذلك يُؤَثِّر على الصبيانِ والنِّساءِ أَشَدَّ تأثيرٍ وأعظَمَه.

وإذا ظهَرَت معالِمُه وتبَيَّنَت حقائِقُه أَثَّرَ في عُموم الخَلقِ، فيهدي اللهُ إلى سبيلِه مَن يشاءُ من عبادِه، ويُضِلُّ مِنهم عن سبيلِه مَن يشاءُ.

* وإذا خرجَ المسلمُ من البلدِ الذي ضَيَّقَ عليه أهلُه فيه إلى بلَدٍ آخرَ يحيا بين أهلِه آمِنًا على نفسِه ودينِه، أرغمَ بذلك أنوفَ مَن ضيَّقوا عليه، حتى رُبَّما نَدِموا على إخراجِه، ألا ترى كيفَ أرسَلَت قُريشٌ إلى النجاشيِّ من رجالِها، ومعَهُم الهَدايا له ولأساقِفَتِه؛ كي يُعيدَ المهاجِرينَ منَ المسلمينَ إلى مكةَ، فيمنَعوهم من الدَّعوةِ إلى دينِهم، ومن إقامَةِ شَعائرِه وهُم آمِنون؟

إن ذلك يُخيفُ أهلَ الكُفرِ، ويعلَمون أنَّهم لو تَرَكوا هَؤُلاءِ القِلّةَ في بلادِ الغُربةِ آمِنينَ، فلن يتَوانَوا في نَشرِ دينِهم، وإظهارِ شعائرِه، ودعوَةِ الناسِ إليه.

ثمّ لم تَزَل دعوةُ الإسلامِ تَشِعُّ أنوارُ هِدايتِها بعد الهِجرة حتى دخلَت بُيوتَ مكةَ، وآمَنَ من صَناديدِ قُريشٍ مَن آمَنَ، وقُتِل منهم مَن قُتِل، ومَنَّ اللهُ بالهدايةِ على كثيرٍ من

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٥).

أبناءِ أئمّة الكفر ونسائِهم، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

والله عَزَّوَجَلَّ قد تكفَّلَ بالعَونِ لَمن هاجَرَ في سبيلِه، وأن يُغنيَه وينصُرَه، ويَحميَه ويحفظَه.

ولذلك فإنَّ بقاءَ المسلمِ في بلدٍ لا يستطيعُ فيه إظهارَ شعائرِ الإسلامِ، وإعلانَ دينِه، فضلًا عن الدعوةِ إليهِ، والجهادِ في سبيلِه، فيه أكبرُ الخطرِ عليه وعلى دينِه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

قال السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الوعيدُ الشَّديدُ لِمَن تَركَ الهجرَةَ معَ قُدرَتِه عليها حتى ماتَ، فإنَّ الملائكةَ الذينَ يقبضون روحَه يوَبِّخونَه بهذا التوبيخِ العظيمِ، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾، أي: على أيِّ حالٍ كُنتُم؟ وبأيِّ شيءٍ تميَّزتُم عنِ المشركينَ؟ بل كَثَّرتُم سَوادَهم، ورُبَّما ظاهَرتُموهم على المؤمنين، وفاتَكُم الخيرُ الكثيرُ، والجهادُ مع رسولِه، والكَونُ مع المسلمين، ومُعاوَنَتُهم على أعدائِهم.

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ضُعفاءَ مَقهورينَ مَظلومينَ، ليس لنا قُدرَةٌ على الهِجرَةِ، وهُم غيرُ صادِقين في ذلك؛ لأنَّ اللهَ وبَّخَهُم وتَوَعَّدَهم، ولا يُكَلِّفُ اللهُ نفسًا إلا وُسعَها، واستثنى المستَضعَفينَ حقيقةً.

ولهذا قالت لهُمُ الملائكةُ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾.

فحَيثُما كان العبدُ في محلٍّ لا يتَمَكَّن فيه من إظهارِ دينِه، فإنّ له مُتَّسَعًا وفُسحَةً من الأرضِ يتَمَكَّنُ فيها من عبادةِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الهِجرَةَ من أكبرِ الواجباتِ، وتَركَها من المحَرَّماتِ، بل من الكبائرِ»[1].

---

(١) تفسير السعدي (ص١٩٥).

* **ومِمَّا يُستفادُ من هذه القصَّةِ**: الرجوعُ إلى أهلِ العلمِ عندَ الاختلافِ؛ فقد بادَرَت أسماءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لما قال لها عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما قال، بادَرَت إلى الرجوعِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليَحكُم بينهم في هذا الأمرِ.

* الأمانةُ في نَقلِ الخلافِ، وتوضِيحُ السُّؤالِ عندَ الاِستِفتاء؛ حَيثُ قالت أسماءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وسَأَذكُرُ ذلك للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَسأَلُهُ، واللهِ لا أَكذِبُ، ولا أَزيغُ، ولا أَزيدُ عليه».

* ولذلك فإنَّه ينبَغي على المفتي أن يتَثَبّتَ من السائِلِ، وخاصَّةً عند حُصولِ الخِلافِ والخُصومةِ، ففي هذا الحديثِ من روايةِ البخاريِّ: فلما جاءَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: يا نبيَّ اللهِ، إنَّ عمرَ قال كذا وكذا؟ قال: «**فَما قُلتِ له؟**»، قالت: قُلتُ له كذا وكذا، قال: «**ليس بأَحقَّ بي منكُم، وله ولِأَصحابِهِ هِجرَةٌ واحدَةٌ، ولَكُم أَنتُم -أَهلَ السَّفينَةِ- هِجرَتانِ**».

* الفرحُ بنعمةِ اللهِ، والتحَدُّثُ بها، مع استمرارِ الاغتباطِ والسّعادَةِ بها.

ففي هذا الحديثِ: قالت أسماءُ: «فَلَقد رَأَيتُ أَبا موسى وأَصحابَ السَّفينَةِ يَأتوني أَرسالًا، يَسأَلوني عن هذا الحَديثِ، ما منَ الدُّنيا شيءٌ هُم بهِ أَفرَحُ ولا أَعظَمُ في أَنفُسِهِم مِمَّا قال لهمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قالت أَسماءُ: «فَلَقد رَأَيتُ أَبا موسى وإنَّهُ ليستَعيدُ هذا الحَديثَ مِنِّي».

* تَشارُكُ الإخوَةِ والأقارِب في الخَيرِ، فقد خرَجَ أبو موسى وأَخواه أَبو بُردَةَ وأَبو رُهمٍ؛ مُهاجِرين إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّ من نعمةِ اللهِ بأهلِ البيتِ أن يجعلَهم شُركاءَ في الخَيرِ، ولا شيءَ هو أعظمُ أجرًا منَ المشاركَةِ في الهجرةِ إلى اللهِ ورسولِه، والدعوةِ لدينِ اللهِ، وقد قال نبيُّ اللهِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

وهذا من التعاوُنِ على البرِّ والتقوى، ومن صِلَةِ الرحِمِ التي تَعقُبُها البرَكةُ، ومن التآزُرِ والقوَّةِ في الدِّين، والدَّعوةِ إليه.

* الجُرأةُ والقوّة في الصدعِ بالحقِّ، وألَّا يخشى المسلمُ في اللهِ لومَةَ لائمٍ؛ فلما أَرسَلَ النّجاشيُّ -أولًا- إلى أَصحاب رسولِ اللهِ ﷺ اجتَمَعوا، ثم قال بَعضُهُم لِبَعضٍ: ما تَقولونَ للرَّجُلِ إذا جِئتُموهُ؟

قالوا: «نَقولُ -واللهِ- ما عَلِمنا، وما أَمَرَنا بِهِ نبيُّنا ﷺ، كائِنًا في ذلك ما هو كائِنٌ».

ثم لما قال وفدُ قُريشٍ للنجاشيِّ: أَيُّها المَلِكُ، إنَّهُم يقولونَ في عيسى ابن مَريَمَ قَولًا عَظيمًا، فَأَرسِل إليهم فَسَلهُم عَمَّا يقولونَ فيه.

قالت أُمُّ سَلَمَةَ: ولَم يَنزِل بنا مِثلُها قَطُّ، فاجتَمع القَومُ، ثم قال بَعضُهُم لِبَعضٍ: ماذا تَقولونَ في عيسى ابنِ مَريَمَ إذا سألَكُم عنه؟ قالوا: «نَقولُ -واللهِ- ما قال اللهُ، وما جاءَنا بِهِ نبيُّنا، كائِنًا في ذلك ما هو كائِنٌ».

* إكرامُ أهلِ السبقِ في الإسلامِ؛ اعترافًا بفَضلِهم، وتقديرًا لجُهودِهم، فإنّ النبيَّ ﷺ أشرَكَ أهلَ السَّفينَةِ في غنائِمِ خَيبَرَ، ولم يشهَدوها، قال أبو موسى رضي الله عنه -وهو يتَحَدَّثُ عمَّا حصَل بعدَ رُجوعِهِم المدينةَ-: «فوافَقنا النبيَّ ﷺ حينَ افتَتَحَ خَيبَرَ، فَأَسهَمَ لَنا -أو قال: فَأَعطانا منها- وما قَسَمَ لِأَحَدٍ غابَ عن فَتحِ خَيبَرَ منها شَيئًا، إلا لِمَن شَهِدَ معه، إلا أَصحابَ سَفينَتِنا مع جَعفَرٍ وأَصحابِهِ، قَسَمَ لهم معهم»[1].



(١) رواه البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (٢٥٠٢)، وقد تقدم.

١٦

بركةُ المرأةِ التي أَسلمتْ

بركةُ المرأةِ التي أَسلمتْ

عن عِمرانَ بن حُصَينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا في سَفَرٍ مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّا أَسرَينا حتى كُنَّا في آخِرِ اللَّيلِ وقَعنا وقعَةً، ولا وقعَةَ أَحلى عِندَ المسافِرِ منها، فما أَيقَظَنا إلا حَرُّ الشَّمسِ، وكان أَوَّلَ مَنِ استَيقَظَ فُلانٌ، ثم فُلانٌ، ثم فُلانٌ -يُسَمِّيهِم أَبو رَجاءٍ، فنَسيَ عَوفٌ-[1] ثم عمرُ بن الخَطَّاب الرابعُ، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نامَ لَم يوقَظ حتى يكونَ هو يَستَيقِظُ؛ لِأَنَّا لا نَدري ما يَحدُثُ له في نَومِهِ، فلما استَيقَظَ عمرُ ورَأى ما أَصابَ الناسَ- وكان رجلًا جَليدًا- فكَبَّرَ ورَفَعَ صَوتَهُ بالتكبيرِ، فما زالَ يُكَبِّرُ ويَرفَعُ صَوتَهُ بالتكبيرِ حتى استَيقَظَ بصَوتِهِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما استَيقَظَ شَكَوا إليه الذي أَصابَهُم، قال: «**لا ضَيرَ -أو: لا يَضيرُ- ارتَحِلوا**».

فارتَحَلَ، فسارَ غيرَ بَعيدٍ، ثم نزلَ فدَعا بالوَضوءِ فتَوَضَّأَ، ونوديَ بالصلاةِ فصَلَّى بالناسِ، فلما انفَتَلَ من صَلاتِهِ إذا هو برجلٍ مُعتَزِلٍ لَم يُصَلِّ مع القَومِ، قال: «**ما مَنَعَكَ يا فُلانُ أَن تُصَلِّيَ مع القَومِ؟**»، قال: أَصابَتني جَنابَةٌ ولا ماءَ، قال: «**عليكَ بالصعيدِ، فإنَّهُ يَكفيكَ**».

ثم سارَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاشتَكى إليه الناسُ منَ العَطَشِ، فنزلَ فدَعا فُلانًا -كان يُسَمِّيهِ أَبو رَجاءٍ، نَسيَهُ عَوفٌ- ودَعا عَليًّا فقال: «**اذهَبا، فابتَغيا الماءَ**» فانطَلَقا، فتَلَقَّيا امرَأَةً بينَ مَزادَتَينِ -أو سَطيحَتَينِ- من ماءٍ على بَعيرٍ لها، فقالا لها: أَينَ الماءُ؟ قالت: عَهدي بالماءِ أَمسِ هذه الساعةَ، ونَفَرُنا خُلوفٌ، قالا لها: انطَلِقي إذًا، قالت: إلى أَينَ؟ قالا: إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت: الذي يُقالُ له «الصابئُ»، قالا: هو الذي تَعنينَ، فانطَلِقي.

---

(١) هو عوف بن أبي جميلة الأعرابي، راوي الحديث عن أبي رجاء العطاردي، عن عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَجاءا بها إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحَدَّثاهُ الحَديثَ، قال: فاستَنزَلوها عن بَعيرِها، ودَعا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإناءٍ، ففَرَّغَ فيه من أَفواهِ المَزادَتَينِ -أو السطيحَتَينِ-، وأوكَأَ أَفواهَهُما، وأَطلَقَ العَزالِيَ، ونوديَ في الناسِ: «اسقوا، واستَقوا»، فسَقى مَن شاءَ واستَقى مَن شاءَ، وكان آخِرُ ذاكَ أَن أَعطى الذي أَصابَتهُ الجَنابَةُ إناءً من ماءٍ، قال: «**اذهَب فأَفرِغهُ عليكَ**»، وهي قائِمَةٌ تَنظُرُ إلى ما يُفعَلُ بإِنائِها، وايمُ اللهِ لَقد أُقلِعَ عنها، وإِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إلَينا أَنَّها أَشَدُّ مِلأَةً منها حينَ ابتَدَأَ فيها.

فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجمَعوا لها**»، فجَمَعوا لها من بينِ عَجوَةٍ، ودَقيقَةٍ، وسَويقَةٍ، حتى جَمَعوا لها طَعامًا، فجَعَلوها في ثَوبٍ، وحَمَلوها على بَعيرِها، ووَضَعوا الثَّوبَ بينَ يَدَيها، قال لها: «**تَعلَّمينَ، ما رَزِئنا من مائِكِ شَيئًا، ولكنَّ اللهَ هو الذي أَسقانا**».

فَأَتَت أَهلها وقد احتبَسَت عنهم، قالوا: ما حَبَسَكِ يا فُلانَةُ؟ قالت: العَجَبُ! لَقيَني رجلانِ، فذَهَبا بي إلى هذا الذي يُقالُ له «الصابئُ»، ففَعَلَ كذا وكذا، فواللهِ إِنَّهُ لَأَسحَرُ الناسِ من بينِ هذه وهذه - وقالت: بإصبَعَيها الوُسطى والسبَّابَةِ، فرَفَعَتهُما إلى السماءِ -تَعني السماءَ والأَرضَ-، أو إِنَّهُ لَرسولُ اللهِ حقًّا.

فَكان المسلمونَ بعدَ ذلك يُغيرونَ على مَن حَولها منَ المشرِكينَ، ولا يُصيبونَ الصِّرمَ الذي هي منه، فقالت يَومًا لِقَومِها: ما أُرى أَنَّ هَؤُلاءِ القَومَ يَدَعونَكُم عَمدًا، فهَل لَكُم في الإسلامِ؟ فأَطاعوها، فدَخَلوا في الإسلامِ[1].

تَرجمةُ عِمران بن حُصَين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو عِمرانُ بن حُصَينِ بن عُبَيدِ بن خَلَفٍ، أَبو نُجَيدٍ الخُزاعيُّ.

أَسلَمَ هو وأَبو هريرة عامَ خَيبَرَ، وشَهِدَ عِدَّةَ غَزَواتٍ.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤)، (٣٥٧١)، ومسلم (٦٨٢)، وأحمد (١٩٨٩٨)، وابن خزيمة (١١٣)، وابن حبان (١٣٠١)، والبيهقي في السنن (١٢٦)، (١٠٤٦)، وفي الاعتقاد (٢٠٩٨)، والبزار (٣٥٨٤)، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ١٣٣)، والدارقطني (٧٧١)، (٧٧٢)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٠٩٨)، والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٢٩٣).

قال الطّبرانيُّ: «أسلَم قديمًا، هو وأَبوه وأُختُه».

روى عَنِ النبيِّ ﷺ، وعن مَعقِلِ بن يَسارٍ، وعنه: ابنُه نُجَيدٌ، وأبو الأسوَدِ الدِّيليُّ، وأبو رَجاءٍ العُطارِديُّ، ورِبعيُّ بن حِراش، ومُطَرِّف ويَزيدُ ابنا عبدِ اللهِ بن الشِّخِّير، والحَكَم بن الأعرَج، وزَهدَمٌ الجَرميُّ، وصَفوانُ بن مُحرِزٍ، وعبدُ اللهِ بن رَباحٍ الأنصاريُّ، وعبدُ اللهِ بن بُرَيدَةَ، ومُحمّدُ بن سيرينَ، والحسَنُ، وأبو قتادةَ العَدَويُّ، وأبوالسُّوارِ العَدَويُّ، وأبو المهَلَّب الجَرميُّ، وزُرارةُ بن أوفى، وأبو نَضرَة العبديُّ، وآخَرونَ.

كان من ساداتِ الصحابَةِ، استَقضاهُ عبدُ اللهِ بن عامِرٍ على البَصرَةِ، فحَكَمَ بها، ثم استَعفاهُ فأَعفاهُ، ولَم يَزَل بها حتى ماتَ.

قال الحَسَنُ وابنُ سيرينَ: «ما قدِمَ البَصرَةَ راكِبٌ خَيرٌ منه».

وعن أبي الأسوَد الدُّؤَليِّ، قال: «قدِمتُ البصرةَ، وبها عِمرانُ بن حُصَين، وكان عمرُ بعَثَه ليُفَقّه أهلها».

وقد كانتِ المَلائِكَةُ تُسَلِّمُ عليه، فلما اكتَوى انقَطَعَ عنه سَلامُهُم، ثم عادوا فسَلَّموا عليه قَبلَ مَوتِهِ بقَليلٍ.

عن مُطَرِّفِ بن عبد الله، قال: قال لي عِمرانُ بن حُصَينٍ: «أُحَدِّثُكَ حَديثًا؛ عَسى اللهُ أَن يَنفَعَكَ بِهِ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جَمع بينَ حَجَّةٍ وعُمرَةٍ، ثم لَم يَنهَ عنه حتى ماتَ، ولَم يَنزِل فيه قُرآنٌ يُحَرِّمُهُ، وقد كان يُسَلَّمُ عَلَيَّ، حتى اكتَوَيتُ فتُرِكتُ، ثم تَرَكتُ الكَيَّ فعادَ»[1].

وفي رواية: قال عِمرانُ بن حُصَينٍ: «أَشَعَرتَ[2] أَنَّهُ كان يُسَلَّمُ عَلَيَّ، فلما اكتَوَيتُ انقَطَعَ التسليمُ؟»، فقُلتُ له: من قِبَلِ رَأسِكَ كان يَأتيكَ التسليمُ، أَم من قِبَلِ رِجلَيكَ؟ فقال: «لا، بَل من قِبَلِ رَأسي»، قُلتُ: فإنِّي لا أَدري أَن تَموتَ حتى يَعودَ ذلك، فلما كان بعدُ قال: «أَشَعَرتَ أَنَّ التسليمَ عادَ لي؟»، ثم لَم يَلبَث إلا يَسيرًا حتى ماتَ[3].

---

(١) رواه مسلم (١٢٢٦).

(٢) أي أعلمت.

(٣) الزهد للإمام أحمد (٨٠٥).

قال النوَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**معنى الحَديثِ**: أَنَّ عِمرانَ بن الحُصَينِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كانت بِهِ بَواسيرُ، فكان يَصبرُ على المهِمَّاتِ، وكانتِ المَلائِكَةُ تُسَلِّمُ عليه، فاكتَوى، فانقَطَعَ سَلامُهُم عليه، ثم تَرَكَ الكَيَّ، فعادَ سَلامُهُم عليه»[١].

وعن قَتادَةَ: «أَنَّ المَلائِكَةَ كانت تُصافِحُ عِمرانَ بن حُصَينٍ، حتى اكتَوى»[٢].

ماتَ سنَةَ اثنتين وخمسين، وقيلَ سنةَ ثَلاثٍ. رَضيَ اللهُ تعالى عنه، وعن أبيهِ[٣].

شرح الحديث:

قَولُهُ: «كُنَّا في سَفَرٍ مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»:**

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اختُلِفَ في تَعيينِ هذا السفَرِ: ففي مسلمٍ من حَديثِ أَبي هريرة: أَنَّهُ وقَعَ عِندَ رُجوعِهِم من خَيبَرَ، قَريبٌ من هذه القِصَّةِ[٤]، وفي أبي داوُد من حَديث ابن مَسعودٍ: أَقبَلَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَ الحُدَيبيَةِ لَيلًا فنزلَ، فقال: «**مَن يَكلَؤُنا؟**»، فقال بلالٌ: أَنا...، الحَديثَ[٥]، وفي الموَطَّأِ عن زَيدِ بن أَسلَمَ مُرسَلًا: عَرَّسَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيلَةً بطَريقِ مكةَ، ووَكَّلَ بلالًا[٦]، وفي مُصَنَّفِ عبدِ الرزَّاقِ، عن عَطاءِ بن يَسارٍ مُرسَلًا: أَنَّ ذلك كان بطَريقِ تَبوكَ، وللبَيهَقيِّ في الدَّلائِلِ نَحوُهُ من حَديثِ عُقبَةَ بن عامِرٍ[٧]، ورَوى مسلمٌ من حَديثِ أَبي قَتادَةَ مُطَوَّلًا[٨]، والبخاريُّ مُختَصَرًا[٩]، في الصلاةِ قِصَّةَ نَومِهِم عن صَلاةِ الصبحِ أَيضًا في السفَرِ، لكن لَم يُعَيِّنهُ، ووَقَعَ في روايةٍ لِأَبي داوُدَ: أَنَّ ذلك كان في

---

(١) شرح النووي على مسلم (٨/ ٢٠٦).

(٢) المعجم الكبير (١٨/ ١٠٧).

(٣) الاستيعاب (٣/ ١٢٠٨)، تهذيب التهذيب (٨/ ١٢٥)، الإصابة (٤/ ٥٨٤-٥٨٦)، البداية والنهاية (١١/ ٢٥٧)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٠٨-٥١١).

(٤) صحيح مسلم (٦٨٠).

(٥) سنن أبي داود (٤٤٧)، وصححه الألباني.

(٦) موطأ الإمام مالك (٢٦).

(٧) دلائل النبوة (٥/ ٢٤١).

(٨) صحيح مسلم (٦٨١).

(٩) صحيح البخاري (٥٩٥).

غَزوَة جَيش الأُمَراء[١]، وتعقبه ابن عبدِ البَرِّ بأَنَّ غَزوَةَ جَيشِ الأُمَراءِ هي غَزوَةُ مُؤتَةَ، ولَم يَشهَدها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو كَما قال، لكن يَحتَمِلُ أَن يكونَ المرادُ بغَزوَةِ جَيشِ الأُمَراءِ غَزوَةً أُخرى غيرَ غَزوَةِ مُؤتَةَ.

وقد **اختَلَفَ العُلَماءُ**: هَل كان ذلك مَرَّةً، أو أَكثَرَ؟ أَعني نَومَهُم عن صَلاةِ الصبحِ»[٢].

قَولُهُ: «وإنَّا أَسرَينا»:

قال ابنُ فارِسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السُّرى: سَيرُ اللَّيلِ، يُقالُ: سَرَيتُ، وأَسرَيتُ»[٣].

وقال الجَوهَريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سَرَيتُ سُرىً ومَسرىً وأَسرَيتُ بمعنىً، إذا سرتَ ليلًا، وبالألِفِ لُغَة أهلِ الحِجازِ، وجاءَ القرآنُ بهما جميعًا»[٤].

قَولُهُ: «حتى كُنَّا في آخِرِ اللَّيلِ، وقَعنا وقعَةً، ولا وقعَةَ أَحلى عِندَ المسافِرِ منها»:

وعندَ البخاريِّ من حديثِ أبي قتادَةَ: سِرنا مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيلَةً، فقال بَعضُ القَومِ: لَو عَرَّستَ بنا يا رسولَ اللهِ، قال: «**أَخافُ أَن تَناموا عَنِ الصلاةِ**»، قال بلالٌ: أَنا أوقِظُكُم[٥].

وفي المسند عن ذي مِخمَرٍ -وكان رجلًا منَ الحَبَشَةِ، يَخدُمُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قال: كُنَّا معه في سَفَرٍ، فأَسرَعَ السيرَ حينَ انصَرَفَ، وكان يَفعَلُ ذلك لِقِلَّةِ الزَّادِ، فقال له قائِلٌ: يا رسولَ اللهِ، قدِ انقَطَعَ الناسُ وراءَكَ، فحَبَسَ وحَبَسَ الناسُ معه حتى تَكامَلوا إليه، فقال لهم: «**هَل لَكُم أَن نَهجَعَ هَجعَةً؟**» -أو قال له قائِلٌ-، فنزلَ ونزلوا، فقال: «**مَن يَكلَؤُنا اللَّيلَةَ؟**»[٦].

---

(١) سنن أبي داود (٤٣٨)، وضعفه الألباني.

(٢) فتح الباري (١/ ٤٤٨-٤٤٩)، ورجح الحافظ التعدد، وقال: «ومما يدل على تعدد القصة: اختلاف مواطنها».

(٣) مقاييس اللغة (٣/ ١٥٤).

(٤) الصحاح (٦/ ٢٣٧٦).

(٥) صحيح البخاري (٥٩٥).

(٦) المسند (١٦٨٢٤)، وحسنه محققو المسند.

وذو مِخبَر: قال الحافظُ: «ويقال: ذو مِخمَر الحَبَشيُّ، ابنُ أخي النّجاشيّ، وفَدَ على النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وخدَمَه، ثم نزَلَ الشَّامَ»[١].

قَولُهُ: «فَما أَيقَظَنا إلا حَرُّ الشَّمسِ، وكان أَوَّلَ مَنِ استَيقَظَ فُلانٌ، ثم فُلانٌ، ثم فُلانٌ، ثم عمرُ بن الخَطَّاب الرابعُ»:

وسَمَّى البخاريُّ في روايةٍ لهُ الأَوَّلَ، ففيها: «فكان أَوَّلَ مَنِ استَيقَظَ من مَنامِهِ أَبو بكرٍ».

قال الحافظُ: «ويُشبهُ -واللهُ أَعلَمُ- أَن يكونَ الثَّاني: عِمرانَ راويَ القِصَّةِ؛ لِأَنَّ ظاهِرَ سياقِهِ أَنَّهُ شاهَدَ ذلك، ولا يُمكِنُهُ مُشاهَدَتُهُ إلا بعدَ استيقاظِهِ.

ويُشبهُ أَن يكونَ الثَّالِثُ: مَن شارَكَ عِمرانَ في روايةِ هذه القِصَّةِ المعَيَّنَةِ، ففي الطبَرانيِّ من روايةِ عَمرِو بن أُمَيَّةَ، قال ذو مِخبَرٍ: «فَما أَيقَظَني إلا حَرُّ الشَّمسِ، فجِئتُ أَدنى القَومِ فأَيقَظتُهُ، وأَيقَظَ الناسُ بَعضُهُم بَعضًا، حتى استَيقَظَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]»[٣].

قَولُهُ: «وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نامَ لَم يوقَظ حتى يكونَ هو يَستَيقِظُ؛ لِأَنَّا لا نَدري ما يَحدُثُ له في نَومِهِ»:

وقال ابنُ المُلَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما ذلك؛ لِما خُشيَ أن يُقطَع ما يأتيه من الوحيِ»[٤].

وقال الحافظُ: «كانوا يَخافونَ من إيقاظِهِ قَطعَ الوَحيِ، فلا يوقِظونَهُ؛ لاحتِمال ذلك»[٥].

قَولُهُ: «فلما استَيقَظَ عمرُ، ورَأى ما أَصابَ الناسَ -وكان رجلًا جَليدًا-»:

---

(١) الإصابة (٢/ ٣٤٨).

(٢) المعجم الأوسط (٤٦٦٢)، وهو عند الإمام أحمد أيضا في المسند، كما تقدم آنفا.

(٣) فتح الباري (١/ ٤٤٩).

(٤) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٠/ ١٦٩).

(٥) فتح الباري (١/ ٤٤٩).

وعندَ مسلمٍ: «وكان أَجوَفَ جَليدًا».

قال النوَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَي رَفيعَ الصوتِ، يُخرِجُ صَوتَهُ من جَوفِهِ، والجَليدُ: القَويُّ»[١].

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَي: قَويًّا في نَفسِه وجسمِه»[٢].

قَولُهُ: «**فكَبَّرَ ورَفَعَ صَوتَهُ بالتكبيرِ، فما زالَ يُكَبِّرُ ويَرفَعُ صَوتَهُ بالتكبيرِ حتى استَيقَظَ بصَوتِهِ النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»:

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي استِعمالِهِ التكبيرَ سُلوكُ طَريقِ الأَدَب، والجَمعُ بينَ المَصلَحَتَينِ، وخَصَّ التكبيرَ؛ لِأَنَّهُ أَصلُ الدُّعاءِ إلى الصلاةِ»[٣].

قَولُهُ: «**فلما استَيقَظَ شَكَوا إليه الذي أَصابَهُم، قال: «لا ضَيرَ -أو: لا يَضيرُ- ارتَحِلوا»**:

«**الذي أَصابَهُم**»، أَي: من نَومِهِم عن صَلاةِ الصبحِ، حتى خرجَ وقتُها.

و«**لا ضَيرَ**»، أي: لا ضَرَرَ، **قال ابنُ مَنظور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَعناهُ: لا ضَرَّ، يُقالُ: لا ضَيرَ، ولا ضَورَ، ولا ضَرَّ، ولا ضَرَرَ، ولا ضارورَةَ: بمَعنًى واحدٍ»[٤].

وقَولُهُ: «**أو: لا يَضيرُ**»، أي: لا يَضُرّ، **قال الجوهَري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضارَهُ يَضورُهُ ويَضيرُهُ ضَورًا وضَيرًا، أي: ضرَّهُ»[٥].

وهذا الشكُّ من عَوف بن أَبي جَميلَةَ، راوي الحديثِ عن أَبي رَجاءٍ العُطارِديِّ، عن عِمرانَ بن حُصَينٍ.

وقال الحافظُ: «**ولِأَبي نُعَيمٍ في المستَخرَجِ: «لا يَسوءُ، ولا يضيرُ»**.

---

(١) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٩٢).
(٢) النهاية (١/ ٢٨٤).
(٣) فتح الباري (١/ ٤٤٩).
(٤) لسان العرب (٤/ ٤٩٥).
(٥) الصحاح (٢/ ٧٢٣).

وفيه تَأنيسٌ لِقُلوب الصحابَةِ؛ لِما عَرَضَ لهم منَ الأَسَفِ على فواتِ الصلاةِ في وقتِها، بأَنَّهُم لا حَرَجَ عليهم؛ إذ لَم يَتعَمَّدوا ذلك»[١].

قَولُهُ: «ارتَحِلوا»:

قال الحافظُ: «قَولُهُ: «**ارتَحِلوا**»، بصيغَةِ الأَمرِ، استُدِلَّ بِهِ على جَوازِ تَأخيرِ الفائِتَةِ عن وقتِ ذِكرِها، إذا لَم يَكُن عن تَغافُلٍ، أو استِهانَةٍ»[٢].

وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: عَرَّسنا[٣] مع نبيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم نَستَيقِظ حتى طَلَعَتِ الشَّمسُ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِيَأخُذ كُلُّ رجلٍ بِرَأسِ راحِلَتِهِ؛ فإنَّ هذا مَنزِلٌ حَضَرَنا فيه الشَّيطانُ**»[٤].

وفي روايةٍ: «تَحَوَّلوا عن مَكانِكُمُ الذي أَصابَتكُم فيه الغَفلَةُ»[٥].

فبَيَّنَت هذه الرِّوايةُ السبَبَ في الأَمرِ بالِارتِحالِ من ذلك المَوضِعِ الذي ناموا فيه.

قال الحافظُ: «فيه رَدٌّ على مَن زَعَمَ أَنَّ العِلَّةَ فيه كَونُ ذلك كان وقتَ الكَراهَةِ، بَل في حَديثِ الباب أَنَّهُم لَم يَستَيقِظوا حتى وجَدوا حَرَّ الشَّمس، ولِمسلم من حَديثِ أَبي هريرة: «حتى ضَرَبَتهُمُ الشَّمسُ»[٦]، وذلك لا يكونُ إلا بعدَ أَن يَذهَبَ وقتُ الكَراهَةِ.

وقد قيلَ: إنَّما أَخَّرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاةَ؛ لِاشتِغالِهم بأَحوالِها، وقيلَ: تَحَرُّزًا منَ العَدوِّ، وقيلَ: انتِظارًا لِما يَنزِلُ عليه منَ الوَحيِ، وقيلَ: لِأَنَّ المَحَلَّ مَحَلُّ غَفلَةٍ -كَما تَقدَّمَ عِندَ أَبي داوُدَ-، وقيلَ: ليستَيقِظَ مَن كان نائِمًا، ويَنشَطَ مَن كان كَسلانًا، وروي عَن ابن وهبٍ وغيرِهِ: أَنَّ تَأخيرَ قَضاءِ الفائِتَةِ مَنسوخٌ بقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وفيه نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ، والحَديثَ مَدَنِيٌّ، فكَيفَ يَنسَخُ المتَقدِّمُ المتَأَخِّرَ؟»[٧].

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٤٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) التعريس: نزول المسافرين آخر الليل للنوم. شرح النووي على مسلم (٥/ ١٨٢).

(٤) رواه مسلم (٦٨٠).

(٥) رواه أبو داود (٤٣٦)، وصححه الألباني.

(٦) صحيح مسلم (٦٨٠).

(٧) فتح الباري (١/ ٤٥٠).

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فَإن قيلَ**: كَيفَ نامَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صَلاةِ الصبحِ حتى طَلَعَتِ الشَّمسُ، مع قَولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ عَينَيَّ تَنامانِ، ولا يَنامُ قَلبي**»[1]؟

فَجَوابُهُ من وجهَينِ، أَصَحُّهُما وأَشهَرُهُما: أَنَّهُ لا مُنافاةَ بينهما؛ لِأَنَّ القَلبَ إنَّما يُدرِكُ الحِسِّيَّاتِ المتَعَلِّقَةَ بِهِ، كالحَدَثِ، والأَلَمِ، ونَحوِهما، ولا يُدرِكُ طُلوعَ الفَجرِ وغيرَهُ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بالعَينِ، وإنَّما يُدرِكُ ذلك بالعَينِ، والعَينُ نائِمَةٌ، وإن كان القَلبُ يَقظانَ.

والثَّاني: أَنَّهُ كان له حالانِ، أَحَدُهُما يَنامُ فيه القَلبُ، وصادَفَ هذا المَوضِعَ، والثَّاني لا يَنامُ، وهذا هو الغالِبُ من أَحوالِهِ، وهذا التأويلُ ضَعيفٌ، والصحيحُ المعتَمَدُ هو الأَوَّلُ»[2].

وقال الحافظُ: «وهو كَما قال، ولا يُقال: القلب وإن كان لا يدرك ما يَتَعَلَّقُ بالعَينِ من رُؤيَةِ الفَجرِ مَثَلًا، لكنَّهُ يُدرِكُ إذا كان يَقظانًا مُرورَ الوَقتِ الطويلِ، فإنَّ مِن ابتِداءِ طُلوعِ الفَجرِ إلى أَن حَمِيَتِ الشَّمسُ مُدَّةً طَويلَةً لا تَخفى على مَن لَم يَكُن مُستَغرِقًا؛ لِأَنَّا نَقولُ: يُحتَمَلُ أَن يُقال: كان قَلبُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -إذ ذاكَ- مُستَغرِقًا بالوَحيِ، ولا يَلزَمُ مع ذلك وصفُهُ بالنومِ، كَما كان يَستَغرِقُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حالَةَ إلقاءِ الوَحيِ في اليَقظَةِ، وتَكونُ الحِكمَةُ في ذلك: بَيانَ التشريعِ بالفِعلِ؛ لِأَنَّهُ أوقَعُ في النفسِ، كَما في قَضيَّةِ سَهوِهِ في الصلاةِ.

وقَريبٌ من هذا جَواب ابن المنيرِ: أَنَّ القَلبَ قد يَحصُلُ له السهوُ في اليَقظَةِ لِمَصلَحَةِ التشريعِ، ففي النومِ بطَريقِ الأولى، أو على السواءِ.

وقد أُجيبَ على أَصلِ الإشكالِ بأَجوِبَةٍ أُخرى ضَعيفَةٍ، منها: أَنَّ معنى قَولِهِ: «**لا يَنامُ قَلبي**»، أَي: لا يَخفى عليه حالَةُ انتِقاضِ وُضوئِهِ، ومنها: أَنَّ مَعناهُ: لا يَستَغرِقُ بالنومِ حتى يوجَدَ منه الحَدَثُ، وهذا قَريبٌ منَ الذي قَبله، قال ابن دَقيقِ العيدِ: «كَأَنَّ قائِلَ هذا أَرادَ تَخصيصَ يَقظَةِ القَلبِ بإدراكِ حالَةِ الِانتِقاضِ، وذلك بَعيدٌ؛ وذلك أَنَّ قَوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ عَينَيَّ تَنامانِ، ولا يَنامُ قَلبي**» خرجَ جَوابًا عن قَولِ عائشةَ: «أَتَنامُ قَبلَ

---

(١) رواه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

(٢) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٨٤).

أَن توتِرَ؟»، وهذا كَلامٌ لا تَعَلُّقَ له بانتِقاضِ الطهارَةِ الذي تَكَلَّموا فيه، وإنَّما هو جَوابٌ يَتَعَلَّقُ بأَمرِ الوِترِ، فتُحمَلُ يَقظَتُهُ على تَعَلُّقِ القَلب باليَقظَةِ للوِترِ، وفَرقٌ بينَ مَن شَرَعَ في النومِ مُطمَئِنَّ القَلب بهِ، وبينَ مَن شَرَعَ فيه مُتَعَلِّقًا باليَقظَةِ، فعلى هذا: فلا تَعارُضَ ولا إشكالَ في حَديثِ النومِ حتى طَلَعَتِ الشَّمسُ؛ لِأَنَّهُ يُحمَلُ على أَنَّهُ اطمَأَنَّ في نَومِهِ، لِما أوجَبَهُ تَعَبُ السيرِ؛ مُعتَمِدًا على مَن وكَّله بكلاءَةِ الفَجرِ، واللهُ أَعلَمُ».

ومُحَصَّلُهُ: تَخصيصُ اليَقظَةِ المَفهومَةِ من قَولِهِ: «**ولا يَنامُ قَلبي**» بإدراكِهِ وقتَ الوِترِ إدراكًا مَعنَويًّا؛ لِتَعَلُّقِهِ بهِ، وأَنَّ نَومَهُ في حَديثِ الباب كان نَومًا مُستَغرِقًا، ويُؤَيِّدُهُ قَولُ بلالٍ له: «أَخَذَ بنَفسي الذي أَخَذَ بنَفسِكَ»، كَما في حَديثِ أَبي هريرة عِندَ مسلم[1]، ولَم يُنكِر عليه، ومَعلومٌ أَنَّ نَومَ بلالٍ كان مُستَغرِقًا، وقد اعترَضَ عليه: بأَنَّ ما قالهُ يَقتَضي اعتِبارَ خُصوصِ السبَب، وأَجابَ: بأَنَّهُ يُعتَبَرُ إذا قامَت عليه قَرينَةٌ، وأَرشَدَ إليه السِّياقُ، وهو هُنا كذلك.

ومنَ **الأَجوِبَةِ الضَّعيفَةِ أَيضًا**: قَولُ مَن قال: كان قَلبُهُ يَقظانًا وعَلِمَ بخُروجِ الوَقتِ، لكن تَرَكَ إعلامَهُم بذلك عَمدًا؛ لِمَصلَحَةِ التشريعِ، وقَولُ مَن قال: المرادُ بنَفيِ النومِ عن قَلبِهِ: أَنَّهُ لا يَطرَأُ عليه أَضغاثُ أَحلامٍ، كَما يَطرَأُ على غيرِهِ، بَل كُلُّ ما يَراهُ في نَومِهِ حقٌّ ووَحيٌ.

فهذه عِدَّةُ أَجوِبَةٍ، أَقرَبُها إلى الصواب: الأَوَّلُ، على الوَجهِ الذي قَرَّرناهُ»[2].

قَولُهُ: «فارتَحَلَ، فسارَ غيرَ بَعيدٍ»:

قال الحافظُ: «قَولُهُ: «فَسارَ غيرَ بَعيدٍ»، يَدُلُّ على أَنَّ الِارتِحالَ المَذكورَ وقَعَ على خِلافِ سَيرِهِمُ المعتادِ»[3].

قَولُهُ: «ثم نزلَ فدَعا بالوَضوءِ، فتَوَضَّأَ، ونوديَ بالصلاةِ»:

---

(١) صحيح مسلم (٦٨٠).

(٢) فتح الباري (١/ ٤٥٠-٤٥١).

(٣) المصدر السابق (١/ ٤٥١).

استُدلَّ به على مَشروعيّة الأذانِ للفائِتَة، **وقال منصورٌ البُهوتيّ الحنبَليّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومَن جَمَع بينَ صَلاتين لِعُذرٍ أَذَّنَ للأولى، وأقامَ لكُلٍّ منهما، سواء كان جمعَ تقديمٍ أو تأخيرٍ، أو قضى فرائِضَ فوائِتَ أذَّنَ للأولى، ثم أقامَ لكُلِّ فريضَةٍ من الأولى وما بعدَها، وإن كانتِ الفائتةُ واحدةً أذَّنَ لها وأقامَ، ثُمَّ إن خافَ من رفعِ صوتِه به تَلبيسًا أَسَرّ، وإلا جَهَر، فلَو تَرَكَ الأذانَ لها فلا بأسَ»[1].

وفي حديثِ أبي قتادةَ- لما ناموا عن صلاةِ الفجرِ حتى طَلَعَتِ الشمسُ-، قال النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا بلالُ، قُم فأَذِّن بالناسِ بالصلاةِ**»[2].

قَولُهُ: «فَصَلَّى بالناسِ، فلما انفَتَلَ من صَلاتِهِ إذا هو برجلٍ مُعتَزِلٍ لَم يُصَلِّ مع القَومِ، قال: «ما مَنَعَكَ يا فُلانُ أَن تُصَلِّيَ مع القَومِ؟»:

فهذا رجلٌ من المسلمينَ انفَردَ عنِ القومِ في ناحيةٍ، ولم يُصَلّ معهُم، فلما رآهُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعتزلًا في ناحيةٍ، ولم يصفّ مع المسلمينَ في الصلاةِ سألَه عن سبب ذلك.

وفي هذا: أنَّه ينبَغي أن يَتَرَيَّثَ المسلم إذا رأى ما يريبُه حتى يتَبَيَّنَه، ويعرِفَ وجهَه، فرُبَّما شُرِع له قبلَ الإنكارِ تشريعٌ آخرُ، وهو النصيحةُ، وتعليمُ الجاهلِ.

«قال: أَصابَتني جَنابَةٌ، ولا ماءَ»:

فأبانَ عن عُذرِه في تركِ الصلاةِ مع المسلمينَ خَلفَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن لتَعَلُّق قلبه بصلاةِ الجماعةِ وبالنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِهِ كَرِهَ أَن يَجلِسَ في خَيمَتِهِ.

وقال الحافظُ: «فيها جَوازُ الاِجتِهادِ بحَضرَةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ سياقَ القِصَّةِ يَدُلُّ على أَنَّ التيمُّمَ كان مَعلومًا عِندَهُم، لكنَّهُ صَريحٌ في الآيةِ عَنِ الحَدَثِ الأَصغَرِ، بناءً على أَنَّ المرادَ بالملامَسَةِ ما دونَ الجِماعِ، وأَمَّا الحَدَثُ الأَكبَرُ: فليست صَريحَةً فيه، فكَأَنَّهُ كان يَعتَقِدُ أَنَّ الجُنُبَ لا يَتيَمَّمُ، فعَمِلَ بذلك مع قُدرَتِهِ على أَن يَسأَلَ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا الحُكمِ.

---

(١) الروض المربع (ص٦٧).

(٢) رواه البخاري (٥٩٥)، ومسلم (٦٨١)، واللفظ للبخاري، وترجم له: «باب الأذان بعد ذهاب الوقت».

ويُحتَمَلُ أَنَّهُ كان لا يَعلَمُ مَشروعيَّةَ التيمُّمِ أَصلًا، فكان حُكمُهُ حُكمَ فاقِدِ الطهورَينِ»[1].

«**قال: «عليكَ بالصعيدِ، فإنَّهُ يَكفيكَ»**:

أي: يَكفيكَ عَن الاغتِسالِ بالماءِ، ويُجزِئُك لطَهارتِك.

وفي **روايةٍ للبُخاريِّ**: «فَأَمَرَهُ أَن يَتيَمَّمَ بالصعيدِ».

قال الحافظُ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه دليلٌ على التيمُّمِ للجَنابةِ كالتيمُّمِ للحَدَثِ الأصغَرِ، ودليلٌ على أنَّ عادِمَ الماءِ يكفيه الصعيدُ من الماءِ.

ولهذه الكلمةِ خرّجَ البخاريُّ هذا الحديثَ في هذا الباب، وجعَلَه دليلًا لهُ على إقامَةِ التيمُّمِ مقامَ الطهارةِ بالماءِ عندَ عدَمِ الماءِ، فيُؤخَذ من هذا: أَنَّه يُصلِّي به كما يُصَلِّي بالماءِ، كما هو اختيارُ البخاريِّ، ومن قال بقولِه من العلماءِ.

وفيه دليلٌ على أنه لا يجِبُ طلبُ الماءِ إذا غلَبَ على الظنِّ عَدمُه، أو قَطَعَ بذلك؛ فإنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَرَه بالتيمُّم، ولم يأمُره بطَلَبٍ، ولا بسُؤالِ رفقَتِه»[2].

وعن **أَبي ذَرٍّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الصعيدَ الطيِّبَ طَهورُ المسلمِ، وإن لَم يَجِدِ الماءَ عَشرَ سِنينَ، فإذا وجَدَ الماءَ فليُمِسَّهُ بَشَرَتَهُ، فإنَّ ذلك خيرٌ**»[3].

وقال التِّرمذيُّ عَقِبَه: «وهو قَولُ عامَّةِ الفُقَهاءِ: أَنَّ الجُنُبَ والحائِضَ إذا لَم يَجِدا الماءَ تَيَمَّما وصَلَّيا».

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَجمع عُلَماءُ الأَمصارِ بالحِجازِ والعِراقِ والشَّام والمَشرِقِ والمَغرِب -فيما عَلِمتُ- أَنَّ التيمُّمَ بالصعيدِ عِندَ عَدَمِ الماءِ طَهورُ كُلِّ مَريضٍ أو مُسافِرٍ، وسَواءٌ كان جُنُبًا، أو على غيرِ وُضوءٍ، لا يَختَلِفونَ في ذلك»[4].

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٥١).

(٢) فتح الباري لابن رجب (٢/ ٢٧٤).

(٣) رواه أبو داود (٣٣٢)، والترمذي (١٢٤)، وصححه، والنسائي (٣٢٢)، وأحمد (٢١٣٧١)، وصححه محققو المسند.

(٤) التمهيد (١٩/ ٢٧٠).

وقد اختَلَفَ أهلُ العلمِ في المقصودِ بالصعيدِ، هل هو الترابُ خاصةً، أم هو وجهُ الأرضِ، وإن كان رملًا ونحوَه، مما ليس بترابٍ؟

فمِنهُم مَن قال: الترابُ فقط، ومِنهُم مَن قال: هو كل ما صَعدَ على وجهِ الأرضِ من ترابٍ وحجَرٍ ورملٍ وصخرٍ.

قال العراقيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد اختَلَفوا في المرادِ بالصعيدِ: فقال مالِكٌ وأَبو حَنيفَةَ والأوزاعيُّ والثَّوريُّ ومحمدُ بن جَريرٍ الطبري: الصعيدُ وجهُ الأَرضِ، وقالوا: الصعيدُ كُلُّ ما صَعِدَ على وجهِ الأَرضِ من تُرابٍ وحَجَرٍ ورَملٍ وَحَصًا ونَورَةٍ وزِرنيخٍ وجِصٍّ ورُخامٍ.

وذَهَبَ أَكثَرُ الفُقَهاءِ، ومنهم الشَّافِعيُّ وأَبو يوسُفَ وأَحمَدُ وإسحاقُ وابنُ المنذِرِ وداوُد الظَّاهِريُّ: إلى أَنَّ الصعيدَ هو التُّرابُ فقَط، دونَ سائِرِ أَجزاءِ الأَرضِ»[1].

والراجِحُ -واللهُ أعلمُ- هو الأولُ، قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويَجوزُ التيمُّمُ بغيرِ التُّراب من أَجزاءِ الأَرضِ إذا لَم يَجِد تُرابًا»[2].

وقال الشَّيخُ ابنُ عُثَيمينَ: «والصوابُ: أنَّ كلَّ ما على الأرضِ من تُرابٍ ورَملٍ وحَجَرٍ مُحتَرِق أو غيرِ محتَرِقٍ وطينٍ رطبٍ أو يابسٍ فإنه يُتَيَمَّمُ به»[3].

قَولُهُ: «ثم سارَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فاشتكى إليه الناسُ منَ العَطَشِ، فنزلَ فدَعا فُلانًا، ودَعا عَليًّا»:**

فلانٌ هذا هو عِمرانُ بن حُصَينٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ راوي الحديثِ، يدُلُّ عليه روايَةُ مسلمٍ: «ثم عَجَّلَني في رَكبٍ بينَ يَدَيهِ نَطلُبُ الماءَ، وقد عَطِشنا عَطَشًا شَديدًا».

قَولُهُ: «فقال: «اذهَبا، فابتَغيا الماءَ»:

---

(١) طرح التثريب (٢/ ٩٩).

(٢) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٠٩).

(٣) الشرح الممتع (١/ ٣٩٣).

وعندَ أحمَدَ، وابنِ خُزَيمةَ، وابنِ حِبَّان: «اذهَبا، فابغيا لَنا الماءَ»

قال الحافظُ: «والمرادُ الطلَبُ، يُقالُ: ابتَغِ الشَّيءَ، أَي: تَطَلَّبهُ، وابغِ الشَّيءَ، أَي: اطلُبهُ، وأَبغِني، أَي: اطلُب لي.

وفيه: الجَريُ على العادَةِ في طَلَب الماءِ وغيرِهِ دونَ الوُقوفِ عِندَ خَرقِها، وأَنَّ التسَبُّبَ في ذلك غيرُ قادِحٍ في التوَكُّلِ»[1].

قَولُهُ: «فانطَلَقا، فتَلَقَّيا امرَأَةً بينَ مَزادَتَينِ -أو سَطيحَتَينِ- من ماءٍ على بَعيرٍ لها»:

المَزادَةُ: قِربَةٌ كَبيرَةٌ، **قال النوَويُّ:** «سُمِّيَت المَزادَةَ؛ لِأَنَّهُ يُتَزَوَّدُ فيها الماءُ في السفَرِ وغيرِهِ، وقيلَ: لِأَنَّهُ يُزادُ فيها جِلدٌ لتَتَّسِعَ»[2].

و«**أو**» -هُنا- شَكٌّ من عَوفٍ[3]؛ فقد رواه سَلمُ بن زَريرٍ العُطارِديُّ، عن أبي رَجاءٍ بدونِ شَكّ، كما في الصحيحَينِ.

وتابَعَه عَبَّادُ بن راشِدٍ، عن أبي رَجاءٍ، عندَ الدارَقُطنيِّ.

ورواهُ معمَرٌ، عن عوفٍ بدونِ شكٍّ، عندَ البيهَقيِّ، والبَغَويِّ.

وفي روايةِ مسلمٍ: «إذا نَحنُ بامرَأَةٍ سادِلَةٍ -أَي: مُدَلِّيَةٍ- رِجلَيها بينَ مَزادَتَينِ».

أمّا السطِيحَةُ: فمَا كَانَ من جِلدين، قُوبلَ أحدُهما بالآخَر، فسُطِحَ عليه، وَتَكُونُ صَغِيرَةً وَكَبيرَةً، وَهِيَ من أَوَانِي المِيَاهِ[4].

قَولُهُ: «فقالا لها: أَينَ الماءُ؟ قالت: عَهدي بالماءِ أَمسِ هذه الساعةَ، ونَفَرُنا خُلوفٌ»:

«أَمسِ»: خَبَرٌ لمبتدأٍ، وهو مبنيٌّ على الكسرِ.

«هذه الساعةَ»، بالنّصب على الظَّرفيَّة.

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٥٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (١١/ ٤).

(٣) هو عوف بن أبي جميلة الأعرابي، وقد تقدم ذلك.

(٤) النهاية (٢/ ٣٦٥).

«ونَفَرُنا خُلوفٌ»:

النَّفَرُ: يقعُ على جماعةٍ من الرجالِ خاصّة، ما بينَ الثلاثةِ إلى العَشرةِ، ولا واحدَ له من لفظِه، سُمُّوا بذلك منَ النّفرِ؛ لأنّه إذا حَزَبَهُم أمرٌ اجتمَعوا، ثُمّ نَفروا إلى عدوِّهِم.

والخالِفُ: المستَقي، ويُقالُ أَيضًا لِمَن غابَ، ولَعَلَّهُ المرادُ هُنا، أَي أَنَّ رِجالها غابوا عَنِ الحَيِّ[1].

قال ابن الجوزيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخُلوفُ: الغُيَّبُ، وقيلَ: الخُلوف: الذين خَرجوا يستقون الماءَ، يُقال: أخلَفَ الرجُلُ واستخلفَ: إذا استقى الماءَ، وأرادَت أَنه لم يبقَ في الحَيِّ إلا النِّساءُ»[2].

وقال الخطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُقالُ: الحَيُّ خُلوفٌ: إذا خَلَّفوا أثقالهم وخرجوا في رَعيٍ، أو سَقيٍ، أو نحوِ ذلك»[3].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي روايةِ المستَملي والحَمَويِّ: «ونَفَرُنا خُلوفًا»، بالنصب على الحالِ السادّة مسدَّ الخَبَر»[4].

وعِندَ مسلمٍ: «فَقُلنا لها: أَينَ الماءُ؟ قالت: أَيهاه أَيهاه، لا ماءَ لَكُم، قُلنا: فكَم بينَ أَهلِكِ وبينَ الماءِ؟ قالت: مَسيرَةُ يَومٍ ولَيلَةٍ».

«**أَيهاه أَيهاه**»، **قال النوَويُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَكذا هو في الأُصولِ، وهو بمعنى: «هَيهاتَ هَيهاتَ»، ومَعناهُ: البُعدُ منَ المَطلوب، واليَأسُ منه، كَما قالت بعدَهُ: «لا ماءَ لَكُم»، أَي: ليس لَكُم ماءٌ حاضِرٌ، ولا قَريبٌ»[5].

وعندَ الطبَرانيِّ في المعجمِ الكَبيرِ: «هَيهاتَ هَيهاتَ، لا ماءَ».

---

(١) ينظر: أعلام الحديث (١/ ٣٤٢)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٥/ ٢٠٤)، فتح الباري (١/ ٤٥٢).

(٢) كشف المشكل (١/ ٤٧٢).

(٣) غريب الحديث (١/ ١٠٦).

(٤) فتح الباري (١/ ٤٥٢).

(٥) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٩١).

فائدةٌ:

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في «هَيهاتَ» ثَلاثَ عَشرَةَ لُغَةً، ذكرَهُنَّ الواحديُّ: «هَيهاتَ»، بفَتحِ التاءِ وكَسرِها وضَمِّها مع التنوينِ فيهنَّ، وبحَذفِهِ، فهذه سِتُّ لُغاتٍ، و«أَيهاتَ»، بالأَلِفِ بَدَلَ الهاءِ الأولى، وفيها اللُّغاتُ السِّتُّ أَيضًا، والثَّالِثَةَ عَشرَةَ: «أَيها»، بحَذفِ التاءِ من غيرِ تَنوينٍ، وزادَ غيرُ الواحديّ: «أَيآت»، بهَمزَتَينِ بَدَلَ الهاءَينِ.

والفَصيحُ المستَعمَلُ من هذه اللُّغاتِ استِعمالًا فاشيًا: «هَيهاتَ»، بفَتحِ التاءِ بلا تَنوينٍ، قال الأَزهَريُّ: «واتَّفَقَ أَهلُ اللُّغَةِ على أَنَّ تاءَ «هَيهاتَ» ليست أَصليَّةً»[1]، واختَلَفوا في الوَقفِ عليها: فقال أَبو عَمرٍو والكِسائيُّ: «يوقَفُ بالهاءِ»، وقال الفَرَّاءُ: «بالتاءِ»[2].

وقال السِّيوطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذه اللَّفظَة سَبعَة وثَلاثونَ لُغَة»[3].

قَولُهُ: «قالا لها: انطَلِقي إذًا، قالت: إلى أَينَ؟ قالا: إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، قالت: الذي يُقالُ له «الصابئُ؟»، قالا: هو الذي تَعنينَ، فانطَلِقي»:**

قال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُها: «الصابئ»، تَعني: الخارِج من دينِ قومِه إلى غَيرِه، قال أَبو سُلَيمان: «كلُّ مَن خرَجَ من دينٍ إلى دينٍ غَيرِه سُمِّيَ صابئًا، مَهموزًا، يُقال: صَبأَ الرجُلُ: إذا فعَلَ ذلك، فأَما الصابي -بلا همز-: فهو الذي يميل إلى الهوى، يُقال: صبا يصبو، فهو صابٍ»[4].

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصابئُ»: الذي هو المراد في هذا الحَديث في قَول المَرأَة المَذكورَة: «الذي يُقال له الصابىء؟» هو من صبا إلى الشَّيء يصبو، إذا مال، وهو غير مَهموز، وكانت العَرَب تسمِّي النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الصابىء»؛ لِأَنَّهُ خرَجَ من دينِ قريش

---

(١) ولفظه -كما في تهذيب اللغة (٦/ ٢٥٦)-: «اتفق أهل اللغة أن التاء من هيهات ليست بأصلية، أصلها هاء».

(٢) شرح النووي على مسلم (١/ ٨١).

(٣) شرح السيوطي على مسلم (٢/ ٣٢٠).

(٤) كشف المشكل (١/ ٤٧٢).

إلى دينِ الإسلامِ، ويسمُّون مَن يدخلُ في دين الإسلام مصبوًّا؛ لأَنهم كانوا لا يهمزون، ويسمون المسلمينَ «الصباة» بغير همزَة، جمع صابٍ غير مَهموز، كقاضٍ وقُضاة، وغازٍ وغُزاة، وقد يُقال: صبا الرجُلُ، إذا عشقَ وهوى، وقد يُقال: صابىء -بالهَمز- من صبا يصبو، بغير هَمزٍ»[1].

وقال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانتِ العرَبُ تُسمِّي النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الصابىء»؛ لِأَنَّهُ خرجَ من دين قريش إلى دينِ الإسلامِ، ويُسمُّون مَن يَدخُل في الإسلامِ مَصبوًّا، لِأَنَّهُم كانوا لا يَهمِزون، فأبدَلوا منَ الهَمزَةِ واوًا، ويُسمُّون المسلمينَ «الصباةَ» بغيرِ هَمزٍ، كَأَنَّهُ جَمعُ الصابي غيرَ مَهموزٍ، كقاضٍ وقُضاةٍ، وغازٍ وغُزاةٍ»[2].

وقال ابنُ الملقّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصابئُ: مَن خرَجَ من دينٍ إلى دينٍ، يقال: صَبَأَ فهو صابئٌ وهم الصابئون، وذلك لأنهم خرجوا من اليهوديّة إلى النصرانيَّة.

وقيلَ: إنما يُقالُ: صبَأَ يصبو بغيرِ همزٍ فهو صابئٌ بالهمزِ، وقَولُ عمرَ: «ما صَبَوتُ»، يَدُلُّ على تركِ الهمزِ، ويجوزُ أن يكونَ هذا على تخفيفِ الهمزِ»[3].

***

فصلٌ

أمَّا الصابئون الوارِدون في كتاب اللهِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

---

(١) عمدة القاري (٤/ ٣٢).

(٢) النهاية (٣/ ٣).

(٣) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٨/ ٦٢٣).

هؤلاءِ الصابئونَ اختلَفَ فيهم العُلماءُ:

فقيلَ: قَومٌ بينَ المَجوسِ واليَهودِ والنصارى، ليس لهم دينٌ.

وقيلَ: هم فِرقَةٌ من أَهلِ الكِتاب، يَقرَؤونَ الزَّبورَ.

وقيلَ: هُم قَومٌ يَعبُدونَ المَلائِكَةَ، ويَقرَؤونَ الزَّبورَ، ويُصَلُّونَ إلى القِبلَةِ.

وقيلَ: قوم يُؤمِنونَ بالنبيِّينَ كُلِّهِم، ويَصومونَ من كُلِّ سنةٍ ثَلاثينَ يَومًا، ويُصَلُّونَ إلى اليَمَنِ كُلَّ يَومٍ خَمسَ صَلَواتٍ.

وقيلَ: الصابئُ: الذي يَعرِفُ اللهَ وحدَهُ، وليست له شَريعَةٌ يَعمَلُ بها، ولَم يُحدِث كُفرًا.

وقيلَ: هم أَهلُ دينٍ منَ الأَديانِ، يقولونَ: «لا إلَهَ إلا اللهُ»، وليس لهم عَمَلٌ، ولا كِتابٌ، ولا نبيٌّ، إلا قَولُ: لا إلَهَ إلا اللهُ.

قال الحافظُ ابن كثير: «وأَظهَرُ الأَقوالِ -واللهُ أَعلَمُ-: قَولُ مُجاهِدٍ، ومُتابعيهِ، ووَهب بن مُنَبِّهٍ: أَنَّهُم قَومٌ ليسوا على دينِ اليَهودِ ولا النصارى ولا المَجوسِ ولا المشرِكينَ، وإنَّما هُم قَومٌ باقونَ على فِطرَتِهم، ولا دين مُقَرَّرٌ لهم يَتبَعونَهُ ويَقتَفونَهُ؛ ولِهذا كان المشرِكونَ يَنبزونَ مَن أَسلَمَ بالصابئِ، أَي: أَنَّهُ قد خرجَ عن سائِرِ أَديانِ أَهلِ الأَرضِ، إذ ذاكَ»[1].

وقال الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدَ أن روى الحديثَ: «صَبَأَ: خرجَ من دينٍ إلى غيرِهِ، وقال أَبو العاليَةِ: «الصابئينَ: فِرقَةٌ من أَهلِ الكِتاب يَقرَؤونَ الزَّبورَ».

قال الحافظُ: «وإنَّما أورَدَ البخاريُّ هذا هُنا؛ ليُبَيِّنَ الفَرقَ بينَ الصابئِ المرادِ في هذا الحَديثِ، والصابئِ المَنسوب للطَّائِفَةِ المَذكورَةِ»[2].

قَولُهُ: «هو الذي تَعنينَ»:

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٧).

(٢) فتح الباري (١/ ٤٥٤).

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه أَدَبٌ حَسَنٌ، ولو قالا لها: «لا» لَفاتَ المَقصودُ، أو: «نَعَم» لَم يَحسُن بِهما؛ إذ فيه تَقريرٌ ذلك، فتَخَلَّصا أَحسَنَ تَخَلُّصٍ.

وفيه: جَوازُ الخَلوَةِ بالأجنبيَّة في مثل هذه الحالة عِندَ أَمنِ الفِتنَةِ»[١].

قَولُهُ: «فَجاءا بها إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وحَدَّثاهُ الحَديثَ، قال: فاستَنزَلوها عن بَعيرِها»:**

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: طَلَبوا منها أن تنزِلَ عن البعيرِ، وقيلَ: الضميرُ راجعٌ إلى المزادةِ، يعني: أنزَلوها، واستنزَلَ وأنزَلَ بمَعنى»[٢].

وعندَ مسلم: «قُلنا: انطَلِقي إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت: وما رسولُ اللهِ؟ فلم نُمَلِّكها من أَمرِها شَيئًا حتى انطَلَقنا بها، فاستَقبَلنا بها رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسألها، فأَخبَرَتهُ مِثلَ الذي أَخبَرَتنا، وأَخبَرَتهُ أَنَّها موتِمَةٌ[٣]، لها صِبيانٌ أَيتامٌ».

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بَعضُ الشُّرَّاحِ المتَقدِّمينَ: إنَّما أَخَذوها واستَجازوا أَخذَ مائِها؛ لِأَنَّها كانت كافِرَةً حَربيَّةً، وعلى تَقديرِ أَن يكونَ لها عَهدٌ، فضَرورَةُ العَطَشِ تُبيحُ للمسلمِ الماءَ المَملوكَ لِغيرِهِ على عِوَضٍ، وإلا فنَفسُ الشَّارِعِ[٤] تُفدى بكُلِّ شيءٍ على سَبيلِ الوُجوب»[٥].

قَولُهُ: «ودَعا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بإناءٍ، ففَرَّغَ فيه من أَفواهِ المَزادَتَينِ، وأوكَأَ أَفواهَهُما، وأَطلَقَ العَزاليَ»:**

«العَزالي» -بفَتحِ المهمَلَةِ والزَّاي وكَسرِ اللَّام، ويَجوزُ فتحُها-: جَمعُ عَزلاءَ -بإسكانِ الزَّاي- قال الخَليلُ: «هي مَصَبُّ الماءِ منَ الراويَة»، ولكُل مزادَةٍ عَزلاوان من أَسفَلِها[٦].

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٥٢).

(٢) شرح المشكاة (١٢/ ٣٧٦٦).

(٣) قال ابن الأثير في النهاية (٥/ ٢٩٢): «يقال: أيتمت المرأة فهي موتم وموتمة، إذا كان أولادها أيتامًا».

(٤) أي: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٥) فتح الباري (١/ ٤٥٢).

(٦) المصدر السابق (١/ ٤٥٢).

وقال ابنُ الأثيرِ: «العَزالي: جمعُ العَزلاء، وهو فمُ المَزادَةِ الأسفَل»[١].

وقال الأزهَريُّ: «عَزلاءُ المَزادةِ: مَصَبّ الماءِ منها في أَسفَلها، حَيثُ يُستَفرَغ ما فيها من الماءِ، وجَمعُها العَزالي، سُمِّيَت عَزلاء؛ لِأَنَّها في أحَدِ خُصمَيِ المَزادَة، لا في وسطها، ولا هي كَفَمِها الذي منه يُسقى فيها»[٢].

وعندَ مسلِمٍ: «فَأَمَرَ براوِيَتِها[٣] فأُنيخَت، فمَجَّ في العَزلاوَينِ العُلياوَينِ»

قال النوَويُّ: «المَجُّ: زَرقُ الماءِ بالفَمِ، والعَزلاءُ: هو المشعبُ الأَسفَلُ للمَزادَةِ الذي يُفرَغُ منه الماءُ، ويُطلَق أَيضًا على فمِها الأَعلى، كَما قال في هذه الرِّوايَةِ: «العَزلاوَينِ العُلياوَينِ»[٤].

وللبيهَقيِّ، والطَّبرانيِّ: «ودَعا رسولُ اللهِ ﷺ بإناءٍ، فأَفرَغَ فيه من أَفواهِ المَزادَتَينِ -أو السطيحَتَينِ-، فمَضمَضَ في الماءِ، فأَعادَهُ في أَفواهِ المَزادَتَينِ -أوِ السطيحَتَينِ-، ثم أوكَأَ أَفواهَهُما، وأَطلَقَ العَزالي».

قال الحافظُ: «وبهذه الزِّيادَةِ تَتَّضِحُ الحِكمَةُ في رَبطِ الأَفواهِ بعدَ فتحِها، وعُرِفَ منها أَنَّ البَرَكَةَ إنَّما حَصَلَت بمُشارَكَةِ ريقِهِ الطاهِرِ المبارَكِ للماءِ.

وقَولُهُ: «وأوكَأَ»، أَي: رَبَطَ، وقَولُهُ: «وأَطلَقَ»، أَي: فتَحَ»[٥].

قَولُهُ: «ونوديَ في الناسِ: «اسقوا، واستَقوا»، فسَقى مَن شاءَ، واستَقى مَن شاءَ، وكان آخِرُ ذاكَ أَن أَعطى الذي أَصابَتهُ الجَنابَةُ إناءً من ماءٍ، قال: «اذهَب، فأَفرِغهُ عليكَ»، وهي قائِمَةٌ تَنظُرُ إلى ما يُفعَلُ بمائِها»:

ولمسلمٍ: «ثم بَعَثَ براوِيَتِها، فشَربنا ونَحنُ أَربَعونَ رجلًا عِطاشٌ حتى رَوينا، ومَلَأنا

---

(١) النهاية (٣/ ٢٣١).

(٢) تهذيب اللغة (٢/ ٨١).

(٣) الراوية عند العرب: هي الجمل الذي يحمل الماء، وأهل العرف قد يستعملونه في المزادة استعارةً، والأصل البعير. ينظر: شرح المشكل (١/ ٤٧١)، شرح النووي على مسلم (٥/ ١٩١).

(٤) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٩١).

(٥) فتح الباري (١/ ٤٥٢).

كُلَّ قِربَةٍ معنا وإداوَةٍ، وغَسَّلنا صاحِبَنا، غيرَ أَنَّا لَم نَسقِ بَعيرًا، وهي تَكادُ تَنضَرِجُ منَ الماءِ -يَعني المَزادَتَينِ-».

وللبيهَقيِّ: «ثم قال للناسِ: «**اشرَبوا، واستَقوا**»، فاستَقى مَن شاءَ، وشَرِبَ مَن شاءَ، قال: وكان آخِرُ ذلك أَن أَعطى الذي أَصابَتهُ الجَنابَةُ إناءً من ماءٍ، فقال: «**اذهَب، فأَفرِغهُ عليكَ**»، وهي قائِمَةٌ تُبصِرُ ما يُفعَلُ بإنائِها».

قال الحافظُ: «**قَولُهُ**: «**أَسقوا**»، بهَمزَةِ قَطعٍ مَفتوحَةٍ، من: أَسقى، أو بهَمزَةِ وصلٍ مَكسورَةٍ، من: سَقى، والمرادُ: أَنَّهُم سَقَوا غيرَهَم، كالدَّوابِّ ونَحوِها، واستَقَوا هُم.

ولا يُقالُ: قد وقَعَ في روايةِ سَلمِ بن زَريرٍ: «غَيرَ أَنَّا لَم نَسقِ بَعيرًا»؛ لِأَنَّا نَقولُ: هو مَحمولٌ على أَنَّ الإبلَ لم تكن مُحتاجَةً -إذ ذاكَ- إلى السقيِ، فيُحمَلُ قَولُهُ: «فَسَقى» على غيرِها.

واستُدِلَّ بهذه القِصَّةِ على تَقديمِ مَصلَحَةِ شُربِ الآدَميِّ والحَيَوانِ على غيرِهِ، كَمَصلَحَةِ الطهارَةِ بالماءِ؛ لِتَأخيرِ المحتاجِ إلَيها عَمَّن سَقى واستَقى»[1].

قَولُهُ: «**وايمُ اللهِ لَقد أُقلِعَ عنها**»:

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيمُ اللهِ» من أَلفاظِ القسَم، كَقَولِكَ: «لَعَمرُ اللهِ»، و«عَهد اللهِ»، وفيها لُغاتٌ كَثيرَةٌ، وتُفتَحُ هَمزَتُها وتُكسَرُ، وهَمزَتُها وصل، وقد تُقطعُ، وأَهلُ الكوفَةِ منَ النُّحاةِ يَزعُمونَ أَنَّها جَمعُ يَمين، وغيرُهُم يقولُ: هي اسمٌ مَوضوعٌ للقَسَمِ»[2].

وقال الحافظُ: «**وايمُ اللهِ**» بفَتحِ الهَمزَةِ وكَسرِها، والميمُ مَضمومَةٌ، أَصلُهُ: «أَيمُنُ اللهِ»، وهو اسمٌ وُضِعَ للقَسَمِ هَكذا، ثم حُذِفَت منه النُّونُ تَخفيفًا، وأَلِفُهُ أَلِفُ وصلٍ مَفتوحَةٌ، ولم يَجِئ كذلك غيرُها، وهو مَرفوعٌ بالِابتِداء، وخَبَرُهُ مَحذوفٌ، والتقديرُ: «أَيمُ اللهِ قَسَمي»، وفيها لُغاتٌ، جَمع منها النوَويُّ في تَهذيبِهِ سَبعَ عَشرَةَ، وبلغَ بها غيرُهُ عِشرينَ»[3].

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٥٢).

(٢) النهاية (١/ ٨٦).

(٣) فتح الباري (١/ ٤٥٣).

وقَولُهُ: «لَقد أُقلِعَ عنها»، قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «بصيغَةِ المَجهولِ، أَيِ: انكَفتِ الجَماعَةُ عن تِلكَ المَزادَةِ، ورجعوا عنها»[١].

قَولُهُ: «وإنَّهُ لَيُخَيَّلُ إلَينا أَنَّها أَشَدُّ مِلأَةً منها حينَ ابتَدَأَ فيها»:

وللبَيهَقيِّ: «وإنَّهُ يُخَيَّلُ إلَينا أَنَّها أَملأُ منها حينَ ابتَدَأَ فيها».

«والمرادُ: أَنَّهُم يَظُنُّونَ أَنَّ ما بَقيَ فيها منَ الماءِ أَكثَرُ مِمَّا كان أَوَّلًا»[٢].

وقال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أشدُّ مِلأَةً منها حينَ ابتُدِيءَ فيها»، أَي: أشدُّ امتِلاءً، يُقالُ: مَلَأتُ الإناءَ أَملَؤُهُ مَلأً، والمِلءُ: الاسمُ، والمِلأَةُ أَخصُّ منه»[٣].

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِلأَةً» بكَسرِ الميمِ ويُفتَحُ، وسُكونِ اللَّامِ، فِعلَةٌ منَ المَلءِ، مَصدَرُ: مَلَأتُ الإناءَ»[٤].

قَولُهُ: «فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: **«اجمَعوا لها»:**

قال الحافظُ: «فيه: جَوازُ الأَخذِ للمُحتاجِ برِضا المَطلوب منه، أو بغيرِ رِضاهُ، إن تَعَيَّنَ.

وفيه: جَوازُ المعاطاةِ في مِثلِ هذا منَ الهِباتِ والإباحاتِ، من غيرِ لَفظٍ منَ المعطي والآخِذِ»[٥].

قولُه: «فَجَمَعوا لها من بينِ عَجوَةٍ، ودَقيقَةٍ، وسَويقَةٍ»:

«العَجوَة» ضَربٌ[٦] من أَجوَدِ التمر بالمَدينَةِ[٧]، وما يُخلَط من التمر بعضُه ببَعض ويُركَم يُسمَّى عجوةً أيضًا[٨].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٧٨٨).
(٢) فتح الباري (١/ ٤٥٣).
(٣) النهاية (٤/ ٣٥٢)
(٤) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٧٨٨).
(٥) فتح الباري (١/ ٤٥٣).
(٦) أي: نوع.
(٧) الصحاح (٦/ ٢٤١٩).
(٨) المعجم الوسيط (٢/ ٥٨٧).

«ودَقيقَةٍ، وسَويقَةٍ»:

قال بدرُ الدِّين العَيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بفَتح أولهما، وفي رواية كَريمَة[١]: بضَم الدَّال مُصَغرًا، وقال الكرماني: «دقيقَة وسويقَة» رويا مُكبَّرين، ومُصغَّرين»[٢].

وقال الحافظُ: «في روايةِ كَريمَةَ: بضَمِّها، مُصَغَّرًا، مُثَقَّلًا»[٣].

والسَّويقُ: طَعامٌ يُتَّخَذُ من مدقوقِ الحِنطَة والشَّعيرِ، سُمِّيَ بذلك؛ لانسياقِه في الحَلقِ، والجمعُ: أسوِقة[٤].

قولُه:«حتى جَمَعوا لها طَعامًا»:

وعندَ أحمدَ وابنِ حِبَّان: «حتى جَمَعوا لها طَعامًا كَثيرًا».

وقال الحافظُ: «وفيه إطلاقُ لَفظِ الطعامِ على غيرِ الحِنطَةِ والذُّرَةِ، خِلافًا لِمَن أَبى ذلك، ويُحتَمَلُ أَن يكونَ قَولُهُ: «حتى جَمَعوا لها طَعامًا»، أَي: غيرَ ما ذُكِرَ منَ العَجوَةِ، وغيرِها»[٥].

والمقصود: أنَّهم جمَعوا لها من أصنافِ الطعامِ والأزوادِ الموجودةِ لديهِم.

وقَولُهُ: «فَجَعَلوها في ثَوبٍ، وحَمَلوها على بَعيرِها، ووَضَعوا الثَّوبَ بينَ يَدَيها»:

أي: جَعَلوا هذه الأصنافَ من الأطعمَة في ثوبٍ، ووضَعوا الثوبَ بينَ يدَيها، وهي على بعيرِها، وأرسَلوها، وهذا من اللُّطفِ، وحُسنِ التعامُلِ.

---

(١) هي كريمة بنت أحمد بن محمد بن أبي حاتم المروزية، كانت عالمةً صالحةً، سمعت صحيح البخاري على أبي الهيثم الكشميهني، وقرأ عليها الأئمة كالخطيب، وأبي المظفر السمعاني، وغيرهما، قال أبو بكر بن منصور السمعاني: «سمعت الوالد يذكر كريمة، ويقول: «وهل رأى إنسان مثل كريمة؟»، ماتت سنة ثلاث وستين وأربع مئة، وماتت بكرًا ولم تتزوج، رحمها الله.
ينظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣-٢٣٤)، البداية والنهاية (١٦/ ٣٤).

(٢) عمدة القاري (٤/ ٣٠).

(٣) فتح الباري (١/ ٤٥٣).

(٤) لسان العرب (١٠/ ١٧٠)، المعجم الوسيط (١/ ٤٦٥).

(٥) فتح الباري (١/ ٤٥٣).

وعِند أحمدَ، وابنِ حبَّان، والبزَّارِ: «وجَعَلوهُ في ثَوبٍ، وحَمَلوها على بَعيرِها، ووَضَعوا الثَّوبَ بينَ يَدَيها».

وقال الكرمانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَجعلوه»، أي: الطَّعامَ، وفي بعضِها: «فَجَعلوها»، أي: الأنواعَ الثلاثةَ منه.

«وحَملوها»، أي: المرأةَ، و«بينَ يَديها»، أي: قُدَّامها، فوقَ ظهرِ البَعيرِ»[1].

ثم أعلَمها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ ما أَخَذوهُ منَ الماءِ إنَّما هو مِمَّا زادَهُ اللهُ تعالى، وأوجَدَهُ بفضلِه، وأنّ ماءَها لم ينقُص منه شيءٌ، فقال:

«تَعلّمينَ، ما رَزِئنا من مائِكِ شَيئًا، ولكنَّ اللهَ هو الذي أَسقانا»:

قال الحافظُ: «**قَولُهُ**: «**قال لها: تَعَلَّمينَ**»، بفَتحِ أوَّلِهِ وثانيهِ، وتشديدِ اللَّامِ، أَي: اعلَمي.

وللأَصيليِّ[2]: «قالوا»، وللإسماعيليِّ: «قال لها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فتُحمَلُ روايةُ الأَصيليِّ على أَنَّهُم قالوا لها ذلك بأَمرِهِ، وقد اشتَمَلَ ذلك على عَلَمٍ عَظيمٍ من أَعلامِ النُّبوَّةِ»[3].

وقد جاءَ مُصرَّحًا في رِوايةِ أحمدَ، وابنِ حِبَّان، والبَيهقيِّ، والبَزارِ، وغيرِهِم: أنَّ القائلَ هو رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال العَيني: «**قَولُهُ**: «**ما رَزِئنا**» بفَتح الراء، وكَسر الزَّاي، أَي: ما نقصنا، قال الكرماني: «وفي بَعضها بفَتحِها»، يَعني: بفَتح الزَّاي.

---

(١) الكواكب الدراري (٣/ ٢٢٦).

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي، شيخ المالكية، وعالم الأندلس، قال القاضي عياض: «قال الدارقطني: «حدثني أبو محمد الأصيلي، ولم أر مثله»، قال عياض: «كان من حفاظ مذهب مالك، ومن العالمين بالحديث، وعلله، ورجاله»، توفي في ذي الحجة، سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة، رَحِمَهُ اللَّهُ. سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٦٠).

(٣) فتح الباري (١/ ٤٥٣).

قلت: الكَسر هو الأَشهر، يُقال: ما رزَأتُه مالَه، وما رزِئتُه- بالكَسرِ- مالَه، أَي: ما نقصتُه، وارتَزَأ الشيءَ: انتقَصَه»[١].

وقال الحافظُ: «وظاهِرُهُ: أَنَّ جَميعَ ما أَخَذوهُ منَ الماءِ مِمَّا زادَهُ اللهُ تعالى وأوجَدَهُ، وأَنَّهُ لَم يَختَلِط فيه شيءٌ من مائِها في الحقيقَةِ، وإن كان في الظَّاهِرِ مُختَلِطًا، وهذا أَبدَعُ وأَغرَبُ في المعجِزَةِ، وهو ظاهِرُ قَولِهُ: «**ولكنَّ اللهَ هو الذي أَسقانا**».

ويُحتَمَلُ أَن يكونَ المرادُ: ما نَقَصنا من مِقدارِ مائِكِ شَيئًا.

وفيه إشارَةٌ إلى أَنَّ الذي أَعطاها ليس على سَبيلِ العِوَضِ عن مائِها، بَل على سَبيلِ التكَرُّمِ والتفَضُّلِ»[٢].

وقال الكرمانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فإن قُلت**: لمَ أعطوها وراعوها وهي كافرةٌ مباحةُ الدمِ والمالِ؟

قلتُ: طَمعًا في إسلامِها.

فإن قُلت: فلمَ ردُّوها عَن مقصدِها، وجوَّزوا التّصرفَ في مالِها؟

قلت: نَظرًا إلى كُفرِها، ولِضرورةِ الاحتياجِ إليها، والضّروراتُ تُبيحُ المَحظوراتِ»[٣].

وقال ابنُ المنيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه: أنّ الخوارِقَ لا تُغيِّرُ الأحكامَ، ألا تَرى كَيفَ انخَرقَتِ العادةُ في تَكثيرِ ذلك الماءِ، فلَم يَخرُج ذلك المأخوذُ عن مُلكِها؟».

قال بَدرُ الدينِ الدّمامينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قلتُ**: لا نُسلِّم أنّ الماءَ المَأخوذَ على ملكِها، ولذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما رَزِئنا من مائِكِ شَيئًا**».

فإن قلتَ: فقد أعطوها عِوَضًا عَمَّا أُخِذَ، وذلك دَليلٌ لِملكِها؟

قلتُ: لا نُسلِّمُ أنّ العِوَضَ عَنِ الماءِ المأخوذِ، وإنّما هو ثَوابٌ لها، وقعَ تَطييبًا لِخاطِرِها

---

(١) عمدة القاري (٤/ ٣١).

(٢) فتح الباري (١/ ٤٥٣).

(٣) الكواكب الدراري (٣/ ٢٢٦-٢٢٧).

في مُقابَلَةِ حبسِها في ذلك الوَقتِ عَنِ المَسيرِ إلى قَومِها، وما نالها من مَخافتِها أخذَ مائِها ورُجوعَها بغيرِ شيءٍ، فزيدَ في الماءِ ببركتِهِ ﷺ ما حَصَلَ بِهِ النفعُ»[1].

قَولُهُ: «فَأَتَت أَهلها وقد احتبَسَت عنهم، قالوا: ما حَبَسَكِ يا فُلانَةُ؟ قالت: العَجَبُ»:

قال العَيني: «العَجَبُ»، مَرفوع بفعلٍ مُقدّر تَقديره: «حَبَسَني العجبُ»، وهو الأَمر الذي يُتعَجَّب منه لغرابَتِه، وكذلك العجيبُ والعُجاب، بالضَّمِّ والتخفيفِ، والعُجَّابُ بالتشديدِ أَكثرُ منه، وكذلك الأُعجوبة.

ولا يُجمَع عَجَب ولا عَجيبٌ، ويُقال: جمعُ عَجيبٍ عجائِبُ، مثل: تَبيع وتبائِع، وأعاجيب جمع أُعجوبة، كأحاديثَ جمع أُحدوثَة، وعَجِبت من كذا وتعجَّبت منه واستعجَبت: كلها بمَعنى، وأعجبني هذا الشَّيء لحُسنِه، وعَجَّبتُ غيري تعجيبًا، والعُجب، بضَمّ العَين وسُكونِ الجيم: اسمٌ من أُعجِب فلانٌ بنَفسِهِ، فهو مُعجَبٌ برَأيِهِ وبنفسِه»[2].

قالت: «لَقيَني رجلانِ، فذَهَبا بي إلى هذا الذي يُقالُ له «الصابئُ»، ففَعَلَ كذا وكذا، فواللهِ إنَّهُ لَأَسحَرُ الناسِ من بينِ هذه وهذه- وقالت بإصبَعَيها الوُسطى والسبَّابَةِ، فرَفَعَتهُما إلى السماءِ - تَعني السماءَ والأَرضَ-»:

«وقالت بإصبَعَيها»، أَي: أَشارَت، وهو من إطلاقِ القَولِ على الفِعلِ.

«أو إنَّهُ لَرسولُ اللهِ حقًّا»:

أي: إنّه لا يخلو من أمرَين: إمَّا أن يكون أسحَرَ شخصٍ موجودٍ بينَ السماءِ والأرضِ، أو يكونَ نبيًّا ورسولًا صادقًا في نبوَّتِه ورسالَتِه؛ لأنَّ هذه الخوارقَ إمَّا أن تكون سِحرًا، أو مُعجزةً.

***

(١) مصابيح الجامع (٢/ ٥٩-٦٠).

(٢) عمدة القاري (٤/ ٣١).

فصلٌ

وهذا من بوادرِ العقل المحكَمَة، التي يحتكِم إليها العاقِلُ المتردِّد بين أمرَين، ليَحكم بمُحكَمِ العقلِ في هذا التردُّد.

وهذا من صفاءِ الذِّهنِ، وخلوِّه من شوارِد الفِكر، وجميعِ ما يؤثِّر على القضيّة عند الحاجةِ إلى البيِّنة وقيامِ الحُجَّة.

فالساحرُ عندما يأتي بخوارقِ العاداتِ يقول: «أنا ساحرٌ، وهذا عملي».

والشاعرُ عندَما يَصوغُ قصيدةً مُحكَمَة ذاتَ معانٍ رائقَةٍ، يقولُ: «أنا شاعرٌ».

والكاهِنُ حينما يتكَهَّن ويخبر الناسَ بكهانَتِه ودَجَلِه، لا يدَّعي أكثرَ من الكهانَة والعرافَةِ.

فإذا أتى النبيُّ ﷺ بهذه الخوارِق، وهو لا يُعرَف عنه السحرُ، ولا الكهانةُ، ثم يأتي بهذا القرآنِ، ولا يُعرَف عنه الشعرُ، ويُخبرُ بخبَرِ الأوَّلين، ولا يُعرَف عنه دراسةُ التاريخِ، ولا مجالسةُ المؤرِّخين، بل ولا سؤالُ أحدٍ من الناسِ عمَّا كان من قبلُ: دَلَّ ذلك على أمرَين:

أولُهما: أنه ليس بساحرٍ، ولا كاهنٍ، ولا شاعرٍ، ولا قَصَّاصٍ، ونحوِ ذلك.

ثانيًا: أنه صادِقٌ فيما يقولُه؛ لأنَّا إذا صدَّقنا الساحرَ أنّه ساحرٌ، إذا قال: «أنا ساحرٌ»، وجاءَ بسحرٍ عظيمٍ، وصدَّقنا الكاهنَ أنهُ كاهنٌ، إذا قال: «أنا كاهِنٌ»، وأتى بكهانتِه وعرافَتِه، وصدَّقنا الشاعِرَ أنّه شاعرٌ، إذا قال: «أنا شاعرٌ»، وجاءَ بقصائِدِه، فكيف لا نصدِّق مَن كان معروفًا في قومِه بأنه الصادقُ الأمينُ، ولا يُعرَف عنه كذبٌ قَط، إذا قال: «أنا رسولُ ربِّ العالمينَ»، وجاءَ بما يُثبت صدقَ قولِه، وصحةَ دعوتِه، والبُرهان على رسالتِه؟ وخاصَّةً أن برهانَه لا يشبه بُرهانَ غيرِه ممَّن يأتي بدعاوى وبراهين، فنصدّق دعاواه وبراهينَه عليها.

ولو أنَّه تقوَّل على اللهِ تعالى -وحاشاه- لَأَخَذَه بذنبه، فكيف وهو ينصُرُه ويؤيِّدُه بالمؤمِنينَ؟

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٦].

فليس قولُه بقَولِ شاعِرٍ؛ لِأَنَّهُ مُباينٌ لِصُنوفِ الشِّعرِ كُلِّها، ولا بقَولِ كاهِنٍ؛ لِأَنَّهُ ورَدَ بسَبِّ الشَّياطينِ وشَتمِهِم، فلا يُنَزِّلونَ شيئًا على من يَسُبُّهم[1]، فبقيَ أن يكونَ كما يقولُ، ولو كان بخلافِ ما قال، فافترى على اللهِ -وحاشاهُ- لَعاجَلَه ربُّه بالعقوبةِ، كما تقدّم.

فإذا كان ليس بشاعِرٍ -تعرفون ذلك معاشِرَ الفصحاءِ والبُلَغاء-، ولا بكاهِنٍ، فليس يخفى عليكم ولا على غيرِكم أمرُ الكهانَةِ، ثم قال: «أنا رسولُ ربِّ العالمينَ»، فلم يُعاجِله اللهُ بالعقوبةِ، ولكن نصَرَه وأيَّدَه وثبَّتَه وكبَتَ عدوَّه، ألا يدُلّ ذلك على صدقِه، وصحّةِ نُبوّتِه؟

وعَنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ ضِمادًا قدِمَ مكةَ، وكان من أَزدِ شَنوءَةَ[2]، وكان يَرقي من هذه الرِّيحِ[3]، فسَمِعَ سُفَهاءَ من أَهلِ مكةَ يقولونَ: إنَّ محمدًا مَجنونٌ، فقال: لَو أَنِّي رَأَيتُ هذا الرجُلَ؛ لَعَلَّ اللهَ يَشفيه على يَدَيَّ، قال: فلَقيَهُ، فقال: يا محمدُ، إنِّي أَرقي من هذه الرِّيحِ، وإنَّ اللهَ يَشفي على يَدي مَن شاءَ، فهَل لك؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الحَمدَ للهِ، نَحمَدُهُ، ونَستَعينُهُ، مَن يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأَشهَدُ أَن لا إلَهَ إلا اللهُ، وحدَهُ لا شَريكَ له، وأَنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أَمَّا بعدُ**».

قال: فقال: أَعِد عَلَيَّ كَلِماتِكَ هَؤُلاءِ، فأَعادَهُنَّ عليه رسولُ اللهِ ﷺ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، قال: فقال: لَقد سَمِعتُ قَولَ الكَهَنَةِ، وقَولَ السحَرَةِ، وقَولَ الشُّعَراءِ، فما سَمِعتُ

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٥).

(٢) قبيلة مشهورة من قبائل اليمن.

(٣) المراد بالريح -هنا-: الجنون، ومس الجن، وفي غير رواية مسلم: «يرقي من الأرواح»، أي: الجن، سموا بذلك؛ لأنهم لا يبصرهم الناس، فهم كالروح والريح. شرح النووي على مسلم (٦/ ١٥٧).

مِثلَ كَلِماتِكَ هَؤُلاءِ، ولَقد بلغنَ ناعوسَ البَحرِ[١]، قال: فقال: هاتِ يَدَكَ أُبايِعكَ على الإسلامِ، قال: فبايَعَهُ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**وعلى قَومِكَ**»، قال: وعلى قَومي[٢].

فلما أبانَ عن فصاحةٍ وبلاغةٍ وبُرهانٍ بَيِّنٍ وحُجَّةٍ ناصعَةٍ لم يعهَدها ضِمادٌ رضي الله عنه في شيءٍ من قَولِ الكَهَنَةِ أو قَولِ السحَرَةِ أو قَولِ الشُّعَراءِ: أيقَنَ أنه صادقٌ فيما يقولُ، أمينٌ فيما يؤدِّي عن ربِّه، فأسلَم، وأسلَم قومُه.

وضرورةُ العقلِ الملجِئةُ برهانٌ حميدٌ؛ لأنَّه حُجَّةٌ سَواءٌ، وميزانٌ يتفِّقُ عليه الموافقُ والمخالفُ، ولا يعارضُ فيه إلا مَن سَفِه نفسَه، وخالفَ عقلَه، واتَّبعَ هواهُ.

ومثلُ هذا من وجهٍ: حديثُ جُبَيرِ بن مُطعِمٍ رضي الله عنه، قال: **سَمِعتُ النبيَّ ﷺ يَقرَأُ في المَغرِبِ بـ «الطُّورِ»، فلما بلغَ هذه الآيةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾، قال: «كادَ قَلبي أَن يَطيرَ»**[٣].

وفي روايةٍ: «سَمِعتُ النبيَّ ﷺ يَقرَأُ في المَغرِبِ بـ «الطُّورِ»، وذلك أوَّلَ ما وقَرَ الإيمانُ في قَلبي»[٤].

فقد تَقَرَّرَ في العَقلِ مع الشَّرعِ: أنَّ الأَمرَ لا يَخلو من أحدِ ثَلاثَةِ أُمورٍ:

١. إمَّا أنَّهُم خُلِقوا من غيرِ شيءٍ، أَي: لا خالِقَ خَلَقَهم، بَل وُجِدوا من غَيرِ إيجادٍ، ولا موجِدٍ.

وهذا عَينُ المحالِ، ومِمَّا لا يَجوزُ أن يكونَ؛ لِأَنَّ تَعَلُّقَ الخَلقِ بالخالقِ من ضَرورةِ الِاسمِ، فإن أنكَروا الخالقَ لَم يَجُز أن يوجَدوا بلا خالِقٍ.

---

(١) وفي رواية: «قاموس البحر»، يعني: قعره.

(٢) رواه مسلم (٨٦٨).

(٣) رواه البخاري (٤٨٥٤).

(٤) رواه البخاري (٤٠٢٣).

٢. أو هُمُ الخالِقونَ لِأنفُسِهِم، وهذا أَيضًا مُحالٌ، وفي البُطلانِ أشَدُّ؛ فإنَّه لا يُتَصَوَّرُ أن يوجِدوا أنفُسَهُم، وما لا وُجودَ له كيفَ يَخلُقُ؟!

وهُم يعلَمونَ أنَّهُم لَم يكونوا من غيرِ مُكَوِّنٍ، ويعلَمونَ أنَّهُم لَم يَخلُقوا أنفسَهُم، وعِلمُهُم بحُكمِ أنفُسِهِم مَعلومٌ بالفِطرةِ بنَفسِهِ، لا يَحتاجُ أن يُستَدَلَّ عليه: بأنَّ كلَّ كائِنٍ مُحدَثٍ لا يوجَدُ بنَفسِهِ، ولا يوجَدُ من غيرِ موجِدٍ.

٣. فإذا بَطَلَ هذانِ الأمرانِ، وبانَ استِحالتُهُما، قامَتِ الحُجَّةُ عليهم، وتَعَيَّنَ القِسمُ الثَّالثُ: أنَّ اللهَ هو الذي خَلَقَهُم.

فالمَعنى: أوُجِدوا من غَيرِ موجِدٍ؟ أم هُم أوجَدوا أنفُسَهُم؟ أَي: لا هذا، ولا هذا، بلِ اللهُ هو الذي خلَقَهُم وأنشَأَهُم بعدَ أن لَم يكونوا شَيئًا مَذكورًا.

وإذا تَعيَّنَ ذلك، عُلِمَ أنَّ اللهَ تعالى هو المعبودُ وحدَهُ، الذي لا تَنبَغي العِبادةُ ولا تَصلُحُ إلا له تعالى، فليؤمِنوا بهِ سبحانه[1].

فقولها: «**واللهِ إنَّهُ لَأَسحَرُ الناسِ، أو إنَّهُ لَرسولُ اللهِ حقًّا**»، مقدِّمةٌ لبُرهانٍ جَليٍّ، وهو أنَّه إذ لم يكُن ساحرًا، ولا عهدَ له بالسِّحرِ، ولا تَعَلَّمَه من أحَدٍ، ولا مارَسَه يومًا، ولا يعرفُه عنه أحدٌ من قومِه: لَزِمَ بالضرورةِ أن يكونَ الثاني، وهو أنَّه رسولُ اللهِ.

وتأمَّل قولها: «أو إنَّهُ لَرسولُ اللهِ حقًّا»، يعني: إذا ثَبَتَ أنَّه ليس بساحرٍ -وهو كذلك فعلًا- فهو رسولُ اللهِ حقًّا، لا شكَّ في ذلك ولا مِريَةَ فيه.

عودَةٌ إلى شرحِ الحديثِ:

قَولُهُ: «فكان المسلمونَ بعدَ ذلك يُغيرونَ على مَن حَولها منَ المشرِكينَ، ولا يُصيبونَ الصِّرمَ الذي هي منه»:

---

(١) انظر: تفسير السعدي (ص٨١٦).

قال العَيني رَحِمَهُ اللَّهُ: «**يُغيرونَ**» بضَمِّ الياءِ، من الإغارَة بالخَيلِ في الحَرب»[١].

و«**الصِّرم**»، **قال ابن سيدَه** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصِّرمُ: الأبياتُ المجتَمِعةُ المنقطِعةُ من الناسِ، والصِّرمُ -أيضًا-: الجماعةُ، والجمعُ: أصرامٌ وأَصاريمٌ وصُرمانٌ»[٢].

وقال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصِّرم: الجَماعَةُ يَنزِلون بإبلِهِم ناحيَةً على ماءٍ»[٣].

قَولُهُ: «فقالت يَومًا لِقَومِها: ما أُرى أَنَّ هَؤُلاءِ القَومَ يَدَعونَكُم عَمدًا»:

قال الكرمانيّ: «**قولُه**: «**ما أُرى**»، بضمِّ الهمزةِ: أظنُّ، وبفتحِها: أعلمُ، و«ما» مَوصولةٌ»[٤].

وقال ابنُ عبد الدائمِ العَسقلانيّ: «ما أرى»، بفتحِ الهمزةِ، أي: الذي أعلَمُ، وبضَمِّها؛ أي: أظُنُّ»[٥].

وقال الحافظُ: «**ما أَرى هَؤُلاءِ القَومَ يَدَعونَكُم عَمدًا**»، هذه روايةُ الأَكثَر، قال ابن مالِكٍ: «ما» مَوصولَةٌ».

و«أَرى» بفَتحِ الهَمزَةِ، بمعنى: أَعلَمُ، والمعنى: الذي أَعتَقِدُهُ: أَنَّ هَؤُلاءِ يَترُكونَكُم عَمدًا، لا غَفلَةً، ولا نِسيانًا، بَل مُراعاةً لِما سَبَقَ بيني وبينهم.

وهذه الغايَةُ في مُراعاةِ الصحبَةِ اليسيرَةِ، وكان هذا القَولُ سَبَبًا لِرَغبَتِهِم في الإسلامِ.

وفي روايةِ أَبي ذَرٍّ[٦]: «ما أرى إنَّ هَؤُلاءِ القَوم».

---

(١) عمدة القاري (٤/ ٣١).

(٢) المحكم (٨/ ٣٢٢).

(٣) النهاية (٣/ ٢٦).

(٤) الكواكب الدراري (٣/ ٢٢٧).

(٥) اللامع الصبيح (٣/ ٣٩).

(٦) هو أبو ذر الهروي عبد بن أحمد بن محمد الحافظ الفقيه المالكي، سمع الكثير، ورحل إلى الأقاليم، وكان يحج كل سنة، ويقيم بمكة أيام الموسم، ويسمع الناس عليه، كان ثقةً حافظًا ضابطًا، قال عبد الغافر بن إسماعيل: «كان أبو ذر زاهدًا ورعًا عالمًا سخيًا، وصار من كبار مشيخة الحرم»، توفي في ذي القعدة من سنة أربع وثلاثين وأربع مئة. البداية والنهاية (١٥/ ٦٨٨)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٥٤-٥٦٢).

وقال ابنُ مالِكٍ أَيضًا: «وقَعَ في بَعضِ النُّسَخِ: «ما أَدري»، و«ما» مَوصولَةٌ، و«أَنَّ» بفَتحِ الهَمزَةِ».

وقال غيرُهُ: «ما» نافيَةٌ، و«أَنَّ» بمعنى لَعَلَّ».

وقيلَ: «ما» نافيَةٌ، و«إنَّ» بالكَسرِ، ومَعناهُ: لا أَعلَمُ حالَكُم في تَخَلُّفِكُم عَنِ الإسلامِ، مع أَنَّهُم يَدعونَكُم عَمدًا.

ومُحَصّلُ القِصَّةِ: أَنَّ المسلمينَ صاروا يُراعونَ قَومَها على سَبيلِ الاِستِئلافِ لهم، حتى كان ذلك سَبَبًا لِإسلامِهِم، وبهذا يَحصُلُ الجَوابُ عَنِ الإشكالِ الذي ذكرَهُ بَعضُهُم، وهو أَنَّ الاِستيلاءَ على الكُفَّارِ بمُجَرَّدِهِ يوجِبُ رِقَّ النِّساءِ والصبيانِ، وإذا كان كذلك فقد دَخَلَتِ المَرأَةُ في الرِّقِّ باستيلائِهِم عليها، فكَيفَ وقَعَ إطلاقُها وتَزويدُها كَما تَقدَّمَ؟

لِأَنَّا نَقولُ: أُطلِقَت لِمَصلَحَةِ الاِستِئلافِ الذي جَرَّ دُخولَ قَومِها أَجمَعينَ في الإسلامِ.

ويُحتَمَلُ أَنَّها كان لها أَمانٌ قَبلَ ذلك، أو كانت من قَومٍ لهم عَهدٌ»[1].

قالت: «فَهَل لَكُم في الإسلامِ؟ فأَطاعوها، فدَخَلوا في الإسلامِ»:

وفي روايةٍ في الصحيحَين: «فَهَدى اللهُ ذاكَ الصِّرمَ بتِلكَ المَرأَةِ، فأَسلَمَت وأَسلَموا».

وهذا من بَرَكةِ هذه المرأةِ، وكمالِ عقلِها؛ إذ ألجأَتهم أولًا إلى ضرورَةِ العقلِ الحاكِمَة، واضطرتهُم إلى سُلوكِ طَريقِ العَدلِ في الحُكمِ، ثم نَوَّهت بفضلِ المسلمينَ وحُسنِ عَرضِهِمُ الإسلامَ على قَومِها، ثُمّ تَلطّفت في دَعوتِهم إلى الدّخولِ في دينِ اللهِ، فقالت: «فَهَل لَكُم في الإسلامِ؟».

بعضُ الفوائِدِ المستَفادةِ من هذه القصَّةِ:

* حرصُ النبيِّ ﷺ على صلاةِ الفجرِ، واهتمامُه بها، وقد تقدَّم في حديثِ أبي قتادةَ:

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٥٣).

فقال بَعضُ القَومِ: لَو عَرَّستَ بنا يا رسولَ اللهِ، قال: «**أخافُ أَن تَناموا عَنِ الصلاةِ**». ولم يَرضَ بالنُزولِ إلا بعدَ أن تكفَّلَ بلالٌ بأن يحرُسَهم؛ لأجلِ الإيقاظِ لصلاةِ الفجرِ.

* **وفيه**: أخذُ الاحتياطاتِ للاستيقاظِ لصلاةِ الفجرِ، وأنَّ القومَ إذا نزلوا منزلًا وخشَوا أن يناموا فإنَّهم يجعلون عليهم مَن يوقِظُهم.

* حُسنُ تَصَرُّف عُمرَ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذ كبَّر بصوتٍ عالٍ؛ ليوقظَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد اختارَ التكبيرَ؛ لأنّه شعارُ الأذانِ.

* بيانُ الحكمَة في حصولِ الأحداثِ والوَقائع التي تُحدِث لَغَطًا واختلافًا وتوقُّفًا؛ ليحدُث التشريعُ، ويتَبيَّن للأمة الحُكمُ الشرعيُّ في مِثلِ ذلك.

وهذا من بركةِ هذه الأيام، كما قال أُسَيدُ بن الحُضَيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -لما حَبَسَتِ الجيشَ للبحثِ عن عِقدِها الذي فقدَته ولا ماءَ، فنزلَت آيةُ التيمُّمِ، فقال أُسَيدُ-: «ما هي بأوَّلِ بَرَكَتِكُم يا آلَ أَبي بكرٍ»[1].

* **وفيه**: أن النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنامُ عينُه، ولا ينامُ قلبُه، وأنّ القلبَ إنَّما يُدرِكُ الحِسِّيَّاتِ المتَعَلِّقَةَ بِهِ، كالحَدَثِ والأَلَمِ ونَحوِهما، ولا يُدرِكُ طُلوعَ الفَجرِ وغيرَهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بالعَينِ، وإنَّما يُدرَكُ ذلك بالعَينِ، والعَينُ نائِمَةٌ، وإن كان القَلبُ يَقظانَ.

* ويمكِن أن يقال: إنّ القَلبَ قد يَحصُلُ له السهوُ في اليَقَظَةِ لِمَصلَحَةِ التشريعِ، ففي النومِ بطَريقِ الأولى، أو على السواءِ.

* **وفيه**: بيانُ خطورةِ أمرِ الصلاةِ، والشُّعور بالفاجعةِ لفواتِ وقتِها، وشِدَّة مُحافَظةِ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عليها؛ ففي الحديثِ: أنَّه لَمَّا استَيقَظَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَكَوا إليه الذي أَصابَهُم، ولا يشكون إليه إلا الأمرَ الشَّديدَ عليهم، فقال لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا ضَيرَ**»؛ تأنيسًا لقلوبهم، وليبيّنَ لهُم أنَّه لا حرَجَ عليهم؛ إذ لم يتعمَّدوا إخراجَ الصلاةِ عن وقتِها.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤)، ومسلم (٣٦٧).

وهذا من تأويلِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

أمَّا الذي يتعمَّدُ أن ينامَ عن الصلاةِ المكتوبةِ فإنه مُتَوَعَّدٌ بالعذاب الشديدِ.

ففي حديثِ سَمُرَةَ بن جُندُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأصحابه ذاتَ غَداةٍ: «**إنَّهُ أتاني اللَّيلَةَ آتيانِ، وإنَّهُما ابتعَثاني، وإنَّهُما قالا لي: انطَلِق، وإنِّي انطَلَقتُ معهما، وإنَّا أتَينا على رجلٍ مُضطَجِعٍ، وإذا آخَرُ قائِمٌ عليه بصَخرَةٍ، وإذا هو يَهوي بالصخرَةِ لِرَأسِهِ فيَثلَغُ[1] رَأسَهُ، فيَتَدَهدَهُ الحَجَرُ[2] ها هُنا، فيَتبَعُ الحَجَرَ فيَأخُذُهُ، فلا يَرجِعُ إليه حتى يَصِحَّ رَأسُهُ كَما كان، ثم يَعودُ عليه فيَفعَلُ بِهِ مِثلَ ما فَعَلَ المَرَّةَ الأولى، قُلتُ لهما: سُبحانَ اللهِ! ما هذانِ؟ قالا لي: انطَلِق، انطَلِق**».

إلى أن قال: «**قالا لي: أَما إنَّا سَنُخبِرُكَ: أَمَّا الرجُلُ الأوَّلُ الذي أَتَيتَ عليه يُثلَغُ رَأسُهُ بالحَجَرِ، فإنَّهُ الرجُلُ يَأخُذُ القُرآنَ فيَرفُضُهُ[3]، ويَنامُ عَنِ الصلاةِ المَكتوبَةِ**»[4].

* ذكَرَ العلماءُ أن تأخيرَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاةَ كان لأسبابٍ متعدِّدَةٍ، ذكرناها قبل ذلك، ومن الناسِ من ينامُ عن صلاةِ الفجرِ، فإذا انتبَهَ وقد طلَعَتِ الشمسُ أَتَمَّ نومَه، ولم يُصَلِّها إلا قُبَيل الظهرِ، ونحو ذلك، وهذا خطأٌ عظيمٌ، وجهلٌ بأحكامِ الشريعةِ، فلا بُدَّ -أولًا- من الاحترازِ للصلاةِ قبل النومِ؛ ليستيقِظ المسلمُ ويصلِّي في الوقتِ؛ فإن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان في السفرِ قال -كما في حديثِ أبي قتادةَ-: «**احفَظوا علينا صَلاتَنا**»[5]، وقال -كما في حديثِ جُبَيرِ بن مُطعِمٍ-: «**مَن يَكلَؤُنا اللَّيلَةَ؛ لا نَرقُد عن صَلاةِ الصبحِ؟**»[6].

فإذا نام الإنسانُ عن الصلاة، ثمَّ استيقظَ، وجَبَ عليه أن يُبادِرَ بها فورَ استيقاظِه،

---

(١) أي: يشق ويكسر.

(٢) أي: ينحط من علو إلى سفل، وفي رواية: «فيتدأدأ»، أي: يتدحرج.

(٣) يحتمل وجهين، أحدهما: يرفض تلاوته حتى ينساه، والثاني: يرفض العمل به. كشف المشكل (٢/ ٣٨).

(٤) رواه البخاري (٧٠٤٧)، وجعلت العقوبة في الرأس؛ لأن النوم موضعه الرأس.

(٥) رواه مسلم (٦٨١).

(٦) رواه النسائي (٦٢٤)، وأحمد (١٦٧٤٦)، وصححه محققو المسند على شرط مسلم.

ولا يؤخِّرَها عن ذلك؛ لقوله ﷺ: «**مَن نَسيَ صَلاةً، أو نامَ عنها، فكَفَّارَتُها أَن يُصَلِّيَها إذا ذكرَها**»(١).

ويجوزُ التأخيرُ شيئًا يسيرًا لمصلحةٍ؛ كأن يكونَ هناك جماعةٌ فاتَتهُم الصلاةُ، فيؤَذِّنُ أحدُهم، ويصَلُّون السُّنَّة، وينتَظِرون بقيةَ أصحابِهم.

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى الأخذِ بظاهِرِ الحديثِ، وأنَّ على كل مُنتَبِهٍ في سفرٍ من نومٍ عن صلاةٍ فاتَته بسبب نومِه أن يزولَ عن موضعِه، وإن كان واديًا خرجَ عنه»(٢).

قال الحافظُ: «وقيلَ: إنَّما يَلزَمُ في ذلك الوادي بعَينِهِ، وقيلَ: هو خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ لا يَعلَمُ من حالِ ذلك الوادي ولا غيرِهِ ذلك إلا هوَ.

وقال بعضُ العلماءِ: يُؤخَذُ منه: أَنَّ مَن حَصَلَت له غَفلَةٌ في مَكانٍ عن عِبادَةٍ استُحِبَّ له التحَوُّلُ منه، ومنه أَمرُ الناعِسِ في سَماعِ الخُطبَةِ يومَ الجُمعَةِ بالتحَوُّلِ من مَكانِهِ إلى مَكانٍ آخَرَ»(٣).

* في الحديثِ عن ابنِ عمرَ مرفوعًا: «**إذا نَعَسَ أَحَدُكُم يَومَ الجُمُعَةِ فليَتَحَوَّل من مَجلِسِهِ ذلك**»(٤).

قال الشَّوكانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحِكمَةُ في الأَمرِ بالتحَوُّلِ: أَنَّ الحَرَكَةَ تُذهِبُ النُّعاسَ، ويُحتَمَلُ أَنَّ الحِكمَةَ فيه: انتِقالُهُ من المَكانِ الذي أَصابَتهُ فيه الغَفلَةُ بنَومِهِ، وإن كان النائِمُ لا حَرَجَ عليه؛ فقد أَمَرَ النبيُّ ﷺ في قِصَّةِ نَومِهِم عن صَلاةِ الصبحِ في الوادي بالِانتِقالِ منه.

وأَيضًا: مَن جَلَسَ يَنتَظِرِ الصلاةَ فهو في صَلاةٍ، والنُّعاسُ في الصلاةِ من الشَّيطانِ،

---

(١) رواه مسلم (٦٨٤)، وفي لفظ له: «**إذا رقد أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها**»، وهو في البخاري أيضا (٥٩٧)، بنحوه.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢/ ٦٧١).

(٣) فتح الباري (١/ ٤٥١).

(٤) رواه أبو داود (١١١٩)، والترمذي (٥٢٦)، وصححه، وصححه الألباني، ولا يثبت رفعه، والصواب أنه موقوف من قول ابن عمر، كما ذكر البيهقي، والنووي، وغيرهما.

فرُبَّما كان الأَمرُ بالتحَوُّلِ؛ لِإذهاب ما هو مَنسوبٌ إلى الشَّيطانِ من حَيثُ غَفلَة الجالِسِ في المسجدِ عن الذِّكرِ، أو سَماعِ الخُطبَةِ، أو ما فيه مَنفعَةٌ»[١].

* **من فوائدِ الحديثِ أيضًا**: الأذانُ والإقامةُ للصَّلاةِ الفائتَةِ، وهو مذهبُ الجمهورِ: الحنفيَّة، والأظهرُ عند الشافعيَّةِ، والحنابلةِ، وقولٌ عند المالكيَّةِ، وهو قولُ أبي ثورٍ، وداودَ الظاهريِّ[٢].

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَمَّا تَركُ ذِكرِ الأَذانِ في حَديثِ أَبي هريرة وغيرِهِ، فجَوابُهُ من وجهَينِ: أَحَدُهُما: لا يَلزَمُ من تَركِ ذِكرِهِ أَنَّهُ لَم يُؤَذِّن، فلَعَلَّهُ أَذَّنَ وأَهمَله الراوي، أو لَم يَعلَم بهِ، والثَّاني: لَعَلَّهُ تَرَكَ الأَذانَ في هذه المَرَّةِ؛ لِبَيانِ جَوازِ تَركِهِ، وإشارَةً إلى أَنَّهُ ليس بواجِبٍ مُتَحَتِّمٍ، لا سيَّما في السفَرِ»[٣].

* **ومن ذلك يُعلَم**: أنّ الأذانَ ليس هو الإعلامَ بدخولِ الوقتِ فقط، بل فيه دعوةُ الناسِ للصلاةِ أيضًا، وفيه طردٌ للشيطانِ؛ لأن الشيطانَ إذا سمِعَ التأذينَ ولَّى وله ضراطٌ، حتى لا يسمَع صوتَ التأذينِ، فإذا انتهى الأذانُ رجَع، فإذا أُقيمَتِ الصلاةُ ولَّى؛ لأن الشيطانَ لا يُطيق سماعَ الأذانِ ولا الإقامَةَ، فإذا انتهَتِ الإقامةُ رجَع يوسوسُ للمرءِ، ويحولُ بينَه وبينَ صلاتِه.

* في قولِه في الحديثِ: «فَصَلَّى بالناسِ»، مَشروعيَّةُ الجَماعَةِ في الفَوائِتِ، قال ابنُ الملَقّن رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه: الأذانُ للفائتَةِ، وقضاءُ السننِ الفوائتِ، والجماعَةُ في الفوائتِ؛ لقولِه: «فَصَلَّى بالناسِ»[٤].

* تَفَطُّن الوالي والأميرِ في السفَرِ لأحوالِ الرعيَّةِ، وأحوالِ مَن معَه؛ فإن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا انفتَلَ من صَلاتِهِ إذا هو برجلٍ مُعتزِلٍ، لَم يُصَلِّ مع القَومِ، قال: «**ما مَنَعَكَ يا فُلانُ أَن تُصَلِّيَ مع القَومِ؟**».

---

(١) نيل الأوطار (٣/ ٢٩٨).

(٢) ينظر: الاستذكار (١/ ٨٦)، المجموع شرح المهذب (٣/ ٨٥)، نيل الأوطار (٢/ ٧١).

(٣) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٨٢-١٨٣).

(٤) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٥/ ٢٠٣).

* التيمّم للجنابةِ عند فقدِ الماءِ؛ فإنّ النبيّ ﷺ لما سألَ الرجُلَ عن سبب اعتزالِه الناسَ وعدَمِ صلاتِه معهُم قال: أَصابَتني جَنابَةٌ ولا ماءَ، قال: «**عليكَ بالصعيدِ، فإنَّهُ يَكفيكَ**».

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن أَصابَتهُ جَنابَةٌ من احتِلامٍ أو جِماعٍ حَلالٍ أو حَرامٍ: فعليه أَن يَغتَسِلَ ويُصَلِّيَ، فإن تَعَذَّرَ عليه الاِغتِسالُ لِعَدَمِ الماءِ أو لِتَضَرُّرِهِ باستِعمالِهِ، مِثل أَن يكونَ مَريضًا يَزيدُ الاِغتِسالُ في مَرَضِهِ، أو يكونَ الهَواءُ بارِدًا، وإن اغتَسَلَ خافَ أَن يَمرَضَ بصُداعٍ أو زُكامٍ أو نزلَةٍ: فإنَّهُ يَتيَمَّمُ ويُصَلِّي، سَواءٌ كان رجلًا أو امرَأَةً، وليس له أَن يُؤَخِّرَ الصلاةَ عن وقتِها.

وليس للمَرأَةِ أَن تَمنَعَ زَوجَها من الجِماعِ، بَل له أَن يُجامِعَها، فإن قدَرَت على الاِغتِسالِ، وإلا تَيَمَّمَت، وكذلك الرجُلُ إن قدَرَ على الاِغتِسالِ، وإلا تَيَمَّمَ»[1].

وقال الشَّيخُ ابنُ بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التيمُّم يقومُ مقامَ الماءِ، فاللهُ جعَلَ الأرضَ مسجِدًا وطهورًا للمسلمينَ، فإذا فقدَ الماءَ أو عجَزَ عنه لمرضٍ قامَ التيمُّم مقامَه، فلا يزال كافيًا حتى يجدَ الماءَ، فإذا وجدَ الماءَ وجَب عليه الغسلُ عن جنابتِه السابقةِ، وهكذا المريضُ إذا برِئَ وعافاهُ الله يغتسلُ عن جنابتِه السابقةِ، التي طهَّرها بالتيمُّم؛ لقول النبيّ ﷺ: «**إنَّ الصعيدَ الطيِّبَ طَهورُ المسلمِ، وإن لَم يَجِدِ الماءَ عَشرَ سِنينَ، فإذا وجَدَ الماءَ فليُمِسَّهُ بَشَرَتَهُ، فإنَّ ذلك خَيرٌ**»[2].

فإذا وجَدَ الماءَ الجُنُبُ أمَسَّه بشَرَتَه، أي: اغتَسَل بعدَ ذلك عَمَّا مضى، وأما صلواتُه الماضيةُ فهي صحيحةٌ بالتيمُّم عند فقدِه الماءَ، أو عجزِه عن استعمالِه؛ لمرضٍ يمنعُه من الماءِ، حتى ينتهي المرضُ، ويُشفى منه، وحتى يجدَ الماءَ إذا كان فاقدًا له، ولو طالَتِ المدّةُ»[3].

وإذا وجَدَ الجنُبُ ماءً لا يكفيه للغُسلِ استعمَلَه وتيَمَّمَ للباقي، على الراجِح من أقوالِ أهلِ العلمِ:

---

(١) مجموع الفتاوى (٢١/ ٤٥١).

(٢) رواه أبو داود (٣٣٢)، والترمذي (١٢٤)، وصححه، والنسائي (٣٢٢)، وأحمد (٢١٣٧١)، وصححه محققو المسند، وقد تقدم.

(٣) مجموع فتاوى ابن باز (١٠/ ٢٠١).

قال ابنُ قُدامَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن وجَدَ ماءً لا يكفيه لزِمَه استعمالُه، وتيَمَّمَ للباقي إن كان جنُبًا، لقولِ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ [النساء: ٤٣]، وهذا واجدٌ، وقال النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أَمَرتُكُم بأَمرٍ فأتوا منه ما استطَعتُم**»[١]...»[٢].

وجاءَ في الموسوعةِ الفقهيَّة: «اختَلَفَ الفُقَهاءُ فيمَن لَم يَجِد منَ الماءِ إلا ما يَكفي بَعضَ أَعضائِهِ: فذَهَبَ الأحنافُ والمالِكيَّةُ وأَكثَرُ العُلَماءِ إلى أَنَّهُ يَترُكُ الماءَ الذي لا يَكفي إلا لِبَعضِ أَعضائِهِ ويَتَيَمَّمُ، وهذا أَحَدُ الوَجهَينِ عِندَ الحَنابلَةِ.

وذَهَبَ الشَّافِعيَّةُ في الأظهَرِ إلى أَنَّهُ يَلزَمُهُ استِعمالُهُ، ثم يَتَيَمَّمُ، وهو الوَجهُ الثَّاني عِندَ الحَنابلَةِ»[٣].

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا وجَد ماءً لا يكفي إلا بعضَ أعضائِه، فالمذهبُ يستعمِلُه ويتيَمَّم؛ لقولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذا وجَدَ ما يغسِل به بعضَ الأعضاءِ فيستعمِله، ويتيَمَّم؛ لأن بقيةَ الأعضاءِ لا يستطيعُ غسلها، وهذا أقوى الأقوالِ، وأحوطُها»[٤].

* **وفي الحديثِ**: الحثُّ على صلاةِ الجماعةِ، وأنَّ تركَ الجماعةِ أمرٌ مَعيبٌ، ليس من أفعالِ أهلِ التقوى؛ لذلك سألَ النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجُلَ: «**ما مَنَعَكَ يا فُلانُ أَن تُصَلِّيَ مع القَومِ؟**».

قال الحافظُ: «فيه التحريضُ على الصلاةِ في الجَماعَةِ، وأَنَّ تَركَ الشَّخصِ الصلاةَ بحَضرَةِ المصَلِّينَ مَعيبٌ على فاعِلِهِ بغيرِ عُذرٍ»[٥].

وعن مِحجَنٍ الدِّيليِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كان في مَجلِسٍ مع رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأُذِّنَ بالصلاةِ، فقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم رجعَ، ومِحجَنٌ في مَجلِسِهِ، فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما مَنَعَكَ أَن تُصَلِّيَ؟ أَلَستَ برجلٍ مسلمٍ؟**».

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) الكافي (١/ ١٢٧).

(٣) الموسوعة الفقهية (٨/ ١٢٥).

(٤) الشرح الممتع (٦/ ١٧٧).

(٥) فتح الباري (١/ ٤٥١).

قال: بَلى، ولكنِّي كُنتُ قد صَلَّيتُ في أَهلي، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا جِئتَ فصَلِّ مع الناسِ، وإن كُنتَ قد صَلَّيتَ**»(١).

وعن يَزيدَ بن الأَسوَدِ رضي الله عنه، قال: شَهِدتُ مع النبيِّ ﷺ حَجَّتَهُ، فصَلَّيتُ معه صَلاةَ الصبحِ في مسجِدِ الخَيفِ، فلما قَضى صَلاتَهُ انحَرَفَ، فإذا هو برجلَينِ في أُخرى القَومِ لَم يُصَلِّيا معه، فقال: «**عَلَيَّ بِهِما**»، فجيءَ بِهِما تُرعَدُ فرائِصُهُما، فقال: «**ما مَنَعَكُما أَن تُصَلِّيا معنا؟**»، فقالا: يا رسولَ اللهِ، إنَّا كُنَّا قد صَلَّينا في رِحالِنا، قال: «**فلا تَفعَلا، إذا صَلَّيتُما في رِحالِكُما ثم أَتَيتُما مسجدَ جَماعَةٍ فصَلِّيا معهم، فإنَّها لَكُما نافِلَةٌ**»(٢).

وعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: «مَن سَرَّهُ أَن يَلقى اللهَ غَدًا مسلمًا، فليُحافِظ على هَؤُلاءِ الصلَواتِ حَيثُ يُنادى بِهِنَّ، فإنَّ اللهَ شَرَعَ لِنبيِّكُم ﷺ سُنَنَ الهُدى، وإنَّهُنَّ من سُنَنِ الهُدى، ولو أَنَّكُم صَلَّيتُم في بُيوتِكُم كَما يُصَلِّي هذا المتَخَلِّفُ في بَيتِهِ، لَتَرَكتُم سُنَّةَ نبيِّكُم، ولو تَرَكتُم سُنَّةَ نبيِّكُم لَضَلَلتُم.

ولَقد رَأَيتُنا وما يَتَخَلَّفُ عنها إلا مُنافِقٌ مَعلومُ النِّفاقِ، ولَقد كان الرجُلُ يُؤتى بِهِ، يُهادى بينَ الرجُلَينِ(٣)، حتى يُقامَ في الصفِّ»(٤).

* **ومن فوائدِ الحديثِ**: استعمالُ اللُّطفِ في السؤالِ، وعدمُ استعمالِ التوبيخِ أو التعزير أو القسوةِ لأوَّلِ وهلَة، ولكن يستَفسِر الإنسانُ عن الحالةِ وصاحبها، ولا يبادِرُ بالإنكارِ حتى يستَعلِمَ، فضلًا عن استخدامِ الشِّدَّةِ والعُنفِ، في النهي والإنكارِ.

فإنّ النبيّ ﷺ كان من سُنَّته أنّه يسألُ أولًا عن الأمرِ، ولا يُبادِر بالعقوبةِ أو الإنكارِ، ففي هذا الحديثِ: أنّه لما رأى الرجُلَ لم يُصَلّ مع القومِ سأَلَه: «**ما مَنَعَكَ يا فُلانُ أَن تُصَلِّيَ مع القَومِ؟**»؛ حتى ينظر فيما يقولُ، فيُعَلّمه إن كان جاهلًا، وينصَحه إن كان مُقَصِّرا، وذلك بالحكمةِ والموعظةِ الحَسنة.

---

(١) رواه النسائي (٨٥٧)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢١٩)، وصححه، والنسائي (٨٥٨)، وصححه الألباني.

(٣) أي: يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه، يعتمد عليهما. شرح النووي على مسلم (٥/ ١٥٦).

(٤) رواه مسلم (٦٥٤).

وقال الحافظُ: «ويُؤخَذُ من هذه القِصَّةِ: أَنَّ للعالِمِ إذا رَأى فِعلًا مُحتَمَلًا أَن يَسأَلَ فاعِله عَنِ الحالِ فيه؛ ليوَضِّحَ له وجهَ الصواب.

* **وفيه**: حُسنُ الملاطَفَةِ، والرِّفقُ في الإنكارِ»[1].

* مَشروعيَّة الأخذِ بالأسباب، وأنّ ذلك لا يُنافي التوَكُّل على اللهِ؛ لقولِه في الحديثِ: «فَنزلَ فدَعا فُلانًا -وهو عِمرانُ بن حُصَينٍ-، ودَعا عَليًّا، فقال: «**اذهَبا، فابتَغيا الماءَ**»، فانطَلَقا...»، وعند مسلم: «ثم عَجَّلَني في رَكبٍ بينَ يَدَيهِ نَطلُبُ الماءَ، وقد عَطِشنا عَطَشًا شَديدًا».

فالأخذُ بالأسباب لا يُنافي التوَكُّلَ على اللهِ، بل ذلك مما أمرَ الشرعُ به، مع الاعتقادِ أنَّ الضرَّ والنفعَ بيَدِ اللهِ سبحانه، وأنه هو الذي خلَقَ الأسبابَ والمسبّباتِ.

ولا بُدّ أن يوجَد ارتباطٌ حقيقيٌّ بين السبب والمسَبَّب، ويُعرَف ذلك بالتجربةِ، أو العادةِ، أو الخبَرِ الشرعي، ونحوِ ذلك.

ثم على العبدِ أن يتوسّط في أمرِه: فلا هو بالذي يُهمِلُ الأسبابَ مُطلَقًا، ولا هو بالذي يتعلَّق قلبُه بها، إنما يتوسّل بها، كما يتوسَّل الناسُ في عاداتِهم وأمورِ حياتِهم، ثم لا يتعَلَّق قلبُه بالسبَب، بل بالخالِقِ سبحانه، مالِكِ الملكِ، ومدبِّرِ الأمرِ كُلِّه.

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِمَّا يَنبَغي أَن يُعلَمَ: ما قالهُ طائِفَةٌ من العُلَماءِ، قالوا: «الالتِفاتُ إلى الأَسباب شِركٌ في التوحيدِ، ومَحوُ الأَسباب أَن تَكونَ أَسبابًا نَقصٌ في العَقلِ، والإعراضُ عن الأَسباب بالكُلِّيَّةِ قدحٌ في الشَّرعِ»، وإنَّما التوَكُّلُ والرجاءُ مَعنًى يَتَأَلَّفُ من موجب التوحيدِ، والعَقلِ، والشَّرعِ.

وبَيانُ ذلك: أَنَّ الالتِفاتَ إلى السبَب هو اعتِمادُ القَلب عليه، ورَجاؤُهُ، والاستِنادُ إليه، وليس في المَخلوقاتِ ما يَستَحِقُّ هذا؛ لِأَنَّهُ ليس مُستَقِلًّا، ولا بُدَّ له من شُرَكاءَ وأَضدادٍ، ومع هذا كُلِّهِ: فإن لَم يُسَخِّرهُ مُسَبِّبُ الأَسباب لَم يُسَخَّر»[2].

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٥١).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٩).

* **ومنَ الفوائدِ**: عدمُ إعادةِ صلاةِ المتَيمِّم، فمن تَيَمَّم وصلَّى، فإنه لا يجبُ عليه أن يُعيدَ الصلاةَ إذا وجَدَ الماءَ، ولذلك عندما وُجدَ الماءُ، لم يأمُرِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجُلَ بإعادةِ الصلاةِ التي صَلَّاها بالتيمُّم، وإنما أعطاه الماءَ ليغتَسلَ به لرفعِ الجنابَةِ؛ لأنّه وجَدَ الماءَ.

وسُئِلَ الشَّيخُ ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ما الحُكمُ إذا وجَد المتَيَمِّمُ الماءَ في أثناءِ الصلاة، أو بعدَها؟

فأجاب بقولِه: «إذا وجَدَ المتيمِّمُ الماءَ في الصلاةِ، فهذه المسألة محلّ خلافٍ بين أهلِ العلمِ:

فمِنهم مَن قال: إن التيمُّمَ لا يَبطُل بوجودِ الماءِ حينئذٍ؛ لأنه شرَع في الصلاةِ على وجهٍ مأذونٍ فيه شرعًا، فلا يخرُج منها إلا بدليلٍ شرعيٍّ.

ومِنهم مَن قال: إنَّه يَبطُل التيمُّمُ بوجودِ الماءِ في الصلاةِ، واستدلُّوا بعُمومِ قولِه تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ [النساء: ٤٣]، وهذا قد وجدَ الماءَ، فيَبطُل تيمُّمُه، وإذا بَطَل التيمُّم بطَلَتِ الصلاةُ، وعمومِ قولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإذا وجَدَ الماءَ فليُمِسَّهُ بَشَرَتَهُ**»، ولأن التيمُّمَ بدلٌ عن طهارةِ الماءِ عند فقدِه، فإذا وجَدَ الماءَ زالَتِ البدَليَّة فيزول حُكمُها، فحينَئِذٍ يخرُجُ من الصلاةِ ويتوَضّأ، ويستأنِفُ الصلاةَ من جديدٍ.

والذي يظهرُ لي -والعلمُ عندَ اللهِ تعالى-: أن القولَ الثاني أقربُ للصَّواب.

أمَّا إذا وجد الماءَ بعد الصلاةِ، فإنه لا يلزمُه أن يُعيدَ الصلاةَ؛ لِما رواه أبو داوُدَ وغيرُه عن أَبي سَعيدٍ الخُدريِّ، قال: خرجَ رجلانِ في سَفَرٍ، فحَضَرَتِ الصلاةُ وليس معهما ماءٌ، فتيَمَّما صَعيدًا طَيِّبًا فصَلَّيا، ثم وجَدا الماءَ في الوَقتِ، فأَعادَ أَحَدُهُما الصلاةَ والوُضوءَ، ولَمْ يُعِدِ الآخَرُ، ثم أَتَيا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكرا ذلك له، فقال للذي لَمْ يُعِد: «**أَصَبتَ السُّنَّةَ، وأَجزَأَتكَ صَلاتُكَ**»، وقال للذي تَوَضَّأَ وأَعادَ: «**لك الأَجرُ مَرَّتَينِ**»[1].

فإن قال قائلٌ: أنا أريدُ الأجرَ مرَّتَينِ.

---

(١) رواه أبو داود (٣٣٨)، وأعله بقوله: «وذكر أبى سعيد الخدري في هذا الحديث ليس بمحفوظ، وهو مرسل».

قلنا: إنّك إذا علِمتَ بالسُّنة فخالَفتَها، فليس لكَ الأجرُ مرّتَين، بل تكون مُبتَدعًا، والذي في الحديثِ لم يعلَمِ بالسُّنّة، فهو مجتهدٌ، فصار له أجرُ العمَلَين: العَمَلِ الأوَّل، والثاني.

فإن قيلَ: المجتهدُ إذا أخطأ فليس لَه إلا أجرٌ واحدٌ، كما جاء في الحديثِ: «**إذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجتَهَدَ ثم أَصابَ فله أَجرانِ، وإذا حَكَمَ فاجتَهَدَ ثم أَخطَأَ فله أَجرٌ**»[(١)]، فكيفَ كان لِهذا المخطِئِ في إعادةِ الصلاة الأجرُ مرَّتَين؟

فالجوابُ: أن هذا عمِلَ عمَلَين بخلافِ الحاكمِ المخطِئِ، فإنّه لم يعمَل إلا عملًا واحدًا، فلم يحكُم مرَّتَين.

بهذا يتبيَّن لنا أن موافَقةَ السُّنَّة أفضلُ من كثرةِ العملِ، فإذا قال قائلٌ مثلًا: أنا أريدُ أن أطيلَ ركعَتَي الفجرِ؛ لفَضلِ الوقتِ، وكثرةِ العملِ، قُلنا له: لم تُصِب؛ لأن النبيّ ﷺ كان يُخَفِّف ركعتَي الفجرِ.

ومثالُ ذلك أيضًا: لو قال: أريدُ أن أطيلَ ركعتَي الطَّوافِ، قُلنا: لم تُصِب السُّنّة؛ لأن النبيّ ﷺ كان يُخَفِّفُهما، وهذه فائدةٌ مُهِمّةٌ، على طالب العلمِ أن يَعيَها»[(٢)].

وقال الشَّيخُ عبدُ الرحمنِ بن حسنٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا شكَّ أن الذي لم يُعِد قد أصابَ الحُكمَ الشرعيَّ؛ بدليلِ قولِه ﷺ: «**أَصَبتَ السُّنَّةَ، وأَجزَأَتكَ صَلاتُكَ**»، وأمَّا الذي أعادَ فهو مجتهدٌ فيما فعَلَ، يُثابُ على الصلاةِ الأولى والثانيةِ، وهي كونُه صلَّى الثانيةَ مُجتهدًا، فأُثيبَ على اجتهادِه للصَّلاةِ الثانيَةِ، كما أُثيبَ الأوَّلُ»[(٣)].

وقال الشَّيخُ ابنُ بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي لَم يُعِد هو الذي أصابَ السُّنةَ؛ لأنّه أدَّى ما عليه، وذاكَ احتاطَ فأعادَ الصلاةَ، فقال لَه النبيُّ ﷺ: «**لك الأَجرُ مَرَّتَينِ**»؛ من أجلِ اجتِهادِهِ وحِرصِهِ، والذي أصابَ السّنّةَ هو المقدَّمُ.

فالحاصِلُ: أنّه إذا كان اجتَهدَ في طَلَب الماءِ، ولَكن ما وجَدَ حولَه شَيئًا، ثمّ لما انتَهى من صلاتِه وسارَ في طريقِهِ وجَدَ ماءً ليس ببَعيدٍ، فإنّه لا شيءَ عليه»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١١/ ٢٤١-٢٤٢).

(٣) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٤/ ١٧٦).

(٤) فتاوى نور على الدرب (٥/ ٣٤٩).

* **وفي الحديثِ**: معجزةٌ ظاهرةٌ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَلَمٌ من أعلامِ نُبوَّتِه، عندما حصلَتِ البركةُ بمُشاركةِ ريقِه الطاهرِ المباركِ للماءِ، فصارَ الماءُ كثيرًا، حتى شرِبوا جميعًا، وكانوا أربَعينَ رجُلًا، حتى روَوا، ومَلَؤوا كلَّ قِربَةٍ وإداوَةٍ كانت معهم، وسَقَوا دوابَّهم، ولم ينقُصِ الماءُ، ومِثل هذا لا يقَعُ إلا بمُعجِزَة ربانيَّة، يؤيِّد اللهُ بها نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُظهِر بها من كراماتِه وبركاتِه ما يكون دليلًا على صدقِه وصحَّة نُبوَّتِه؛ لتَقومَ الحُجَّة على الخلائقِ، فيَهدي اللهُ بها مَن يشاءُ من عبادِه، ويَهلِكَ مَن هَلك عن بَيِّنةٍ.

* مصلحَةُ شُرب الآدميِّ والحيوانِ مُقدَّمَةٌ على الطهارةِ بالماءِ، فلو كان معَه ماءٌ يكفيه لشُربه أو لطَهارَتِه، قدَّمَ الشُّربَ وتيَمَّمَ، وكذلك يُقدِّم شُربَ رفيقِه، أو بهائِمِه، ويتَيَمَّم.

قال ابنُ قدامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا خافَ العَطَشَ حَبَسَ الماءَ وتَيَمَّمَ، ولا إعادَةَ عليه، قال ابنُ المنذِرِ: «أَجمع كُلُّ مَن نَحفَظُ عنه من أَهلِ العِلمِ على أَنَّ المسافِرَ إذا كان معه ماءٌ، وخَشيَ العَطَشَ، أَنَّهُ يُبقي ماءَهُ للشُّرب، ويَتَيَمَّمُ».

منهم عَليٌّ، وابنُ عباسٍ، والحَسَنُ، وعَطاءٌ، ومُجاهِدٌ، وطاوُسٌ، وقَتادَةُ، والضَّحَّاكُ، والثَّوريُّ، ومالِكٌ، والشَّافِعيُّ، وإسحاقُ، وأَصحابُ الرأيِ، ولِأَنَّهُ خائِفٌ على نَفسِهِ من استِعمالِ الماءِ، فأُبيحَ له التيمُّمُ، كالمَريضِ.

وإن خافَ على رَفيقِهِ، أو رَقيقِهِ، أو بَهائِمِهِ، فهو كَما لَو خافَ على نَفسِهِ؛ لِأَنَّ حُرمَةَ رَفيقِهِ كَحُرمَةِ نَفسِهِ، والخائِفُ على بَهائِمِهِ خائِفٌ من ضَياعِ مالِهِ، فأَشبَهَ ما لَو وجَدَ ماءً بينَهُ وبينَهُ لِصٌّ أو سَبُعٌ يَخافُهُ على بَهيمَتِهِ، أو شيءٍ من مالِهِ.

وإن وجَدَ عَطشانَ يَخافُ تَلَفَهُ، لَزِمَهُ سَقيُهُ، ويَتَيَمَّمُ، قيلَ لِأَحمَدَ: الرجُلُ معه إداوَةٌ من ماءٍ للوُضوءِ، فيَرى قَومًا عِطاشًا، أَحَبُّ إلَيك أَن يَسقيَهُم، أو يَتَوَضَّأَ؟ قال: «يَسقيهِم»، ثم ذكرَ عِدَّةً من أَصحاب رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَيَمَّمونَ، ويَحبسونَ الماءَ لِشِفاهِهِم»[1].

وقال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا وجَدَ المضطَرُّ طَعامًا حَلالًا لِغيرِهِ، فله حالانِ:

أَحَدُهُما: أَن يكونَ مالِكُهُ حاضِرًا، فإن كان مُضطَرًّا إليه فهو أولى بِهِ، وليس للأَوَّلِ

---

(١) المغني (١/ ١٩٥).

أَخذُهُ منه إذا لَم يَفضُل عن حاجَتِهِ، فإن آثَرَ المالِكُ غيرَهُ على نَفسِهِ فقد أَحسَنَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وإنما يُؤثِرُ على نَفسِهِ مسلمًا، فأَمَّا الكافِرُ: فلا يُؤثِرُهُ، حَربيًّا كان أو ذِمِّيًّا، وكذا لا يُؤثِرُ بَهيمَةً على نَفسِهِ.

وإن لَم يَكُنِ المالِكُ مُضطَرًّا لَزِمَهُ إطعامُ المضطَرِّ، مسلمًا كان أو ذِمِّيًّا أو مُستَأمِنًا، وكذا لَو كان يَحتاجُ إليه في ثاني الحالِ على الأَصَحِّ.

وللمُضطَرِّ أَن يَأخُذَهُ قَهرًا، أو يُقاتِله عليه، وإن أَتى القِتالُ على نَفسِ المالِكِ فلا ضَمانَ فيه، وإن قَتَلَ المالِكُ المضطَرَّ في الدَّفعِ عن طَعامِهِ لَزِمَهُ القصاصُ، وإن مَنعَهُ الطعامَ فماتَ جوعًا فلا ضَمانَ، قال في «الحاوي»: «ولَو قيلَ: يَضمَنُ كان مَذهَبًا»[1].

ومِمَّا يَحسُنُ ذكرُه هنا: قولُ ابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وافَقَ أَحمَدَ على سُقوطِ القَطعِ في المَجاعَةِ الأوزاعيُّ، وهذا مَحضُ القياسِ، ومُقتَضى قَواعِدِ الشَّرعِ؛ فإنَّ السنَةَ إذا كانت سنةَ مَجاعَةٍ وشِدَّةٍ غَلَبَ على الناسِ الحاجَةُ والضَّرورَةُ، فلا يَكادُ يَسلَمُ السارِقُ من ضَرورَةٍ تَدعوهُ إلى ما يَسُدُّ بِهِ رَمَقَهُ، ويَجِبُ على صاحِبِ المالِ بَذلُ ذلك له، إمَّا بالثَّمَنِ أو مَجَّانًا، على الخِلافِ في ذلك، والصحيحُ وُجوبُ بَذلِهِ مَجَّانًا؛ لِوُجوبِ المواساةِ وإحياءِ النُّفوسِ مع القُدرَةِ على ذلك، والإيثارِ بالفَضلِ مع ضَرورَةِ المحتاجِ، وهذه شُبهَةٌ قَويَّةٌ تَدرَأُ القَطعَ عن المحتاجِ، وهي أَقوى من كَثيرٍ من الشُّبَهِ التي يَذكُرُها كَثيرٌ من الفُقَهاءِ، لا سيَّما وهو مَأذونٌ له في مُغالَبَةِ صاحِبِ المالِ على أَخذِ ما يَسُدُّ رَمَقَهُ.

وعامُ المَجاعَةِ يَكثُرُ فيه المَحاويجُ والمضطَرُّونَ، ولا يَتَمَيَّزُ المستَغني منهم والسارِقُ لِغيرِ حاجَةٍ من غيرِهِ، فاشتَبَهَ مَن يَجِبُ عليه الحَدُّ بمَن لا يَجِبُ عليه، فدُرِئَ.

نَعَم إذا بانَ أَنَّ السارِقَ لا حاجَةَ بِهِ وهو مُستَغنٍ عن السرِقَةِ قُطِعَ»[2].

* حُسنُ مُعامَلةِ الناسِ، وتطييبُ الخواطِرِ، وأنّ الإنسانَ لو أَخَذَ شيئًا من غيرِه للضرورةِ والحاجةِ فإنَّه يُعَوِّضُهُ.

---

(١) روضة الطالبين وعمدة المفتين (٣/ ٢٨٥).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٧-١٨).

* **وفيه**: أنَّ حُسنَ المعاملَةِ تأتي بالنتائجِ الباهِرَةِ، فالمرأةُ وإن لم ينقُص من مائِها شيءٌ، فقد جمعوا لها طعامًا كثيرًا متنوِّعًا، فجَعَلوه في ثَوبٍ، وحَمَلوها على بَعيرِها، ووَضَعوا الثَّوبَ بينَ يَدَيها، وقيلَ لها: «**تَعلَّمينَ، ما رَزِئنا من مائِكِ شَيئًا، ولكنَّ اللهَ هو الذي أَسقانا**».

وقد رأَتِ الآيةَ، وأبصرَت بعَينَيها البَرَكةَ.

* استُدِلّ بالحديثِ على جوازِ استعمالِ أواني المشركينَ ما لم يُتَيَقَّن فيها النجاسَةُ أو أثَرُها، من لونٍ أو طَعمٍ أو ريحٍ.

إذِ الأصلُ في الأواني الطّهارةُ، سواءٌ استعمَلها المسلمُ أو الكتابيُّ أو غيرُهما، حتى يُتَيَقَّن نجاستُها، ولهذا ذهبَ جمهورُ الفقهاءِ إلى جوازِ استعمالِ آنيةِ الكُفَّار.

قال الحجَّاويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتُباحُ آنيةُ الكفارِ، ولو لم تحلّ ذبائحُهُم وثيابُهم، إن جُهِلَ حالُها»[1].

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا آنيَتُهم فتحلُّ، فإن قال قائلٌ: ما هو الدَّليلُ؟

قلنا: عمومُ قولِه تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ [البقرة: ٢٩]، ثُمّ إنَّ أهلَ الكتاب إذا أباحَ الله لنا طعامَهم، فمن المعلومِ أنهُم يأتون به إلينا أحيانًا مطبوخًا بأوانيهِم.

ثم إنَّه ثبَت أنَّ النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاه غُلامٌ يهوديٌّ على خُبزِ شعيرٍ، وإهالةٍ سَنِخَةٍ[2] فأكَلَ منها[3]، وكذلك أكَلَ من الشَّاةِ المسمومَة التي أُهديَت له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خيبَر[4]، وثبَتَ أنَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توضَّأ وأصحابُه من مَزادَةِ امرأةٍ مُشرِكة[5]، كلُّ هذا يدلُّ على أنَّ ما باشرَ الكُفَّارُ، فهو طاهرٌ.

---

(١) زاد المستقنع (ص٢٧).

(٢) دهن متغير الريح.

(٣) رواه الإمام أحمد (١٣٢٠١)، وصححه محققو المسند على شرط مسلم، وفيه اختلاف، انظر: إرواء الغليل (١/ ٧١). والحديث في البخاري (٢٠٦٩)، ولفظه: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنه مشى إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخبز شعير، وإهالة سنخة، ولقد رهن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ درعًا له بالمدينة عند يهودي، وأخذ منه شعيرًا لأهله»

(٤) رواه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠).

(٥) يعني حديث عمران هذا الذي نتكلم عنه.

وأمَّا حديثُ أبي ثعلبةَ الخُشَنيّ: أنّ الرسولَ ﷺ قال: «**لا تَأكُلوا فيها، إلا أَلَّا تَجِدوا غيرَها، فاغسِلوها وكُلوا فيها**»[1].

فهذا يدلُّ على أنَّ الأولى التنزُّه، ولكن كثيرًا من أهل العلم حمَلوا هذا الحديثَ على أناسٍ عُرفوا بمباشرةِ النجاساتِ من أكلِ الخنزيرِ ونحوِه، فقالوا: إنّ النبيّ ﷺ منَعَ من الأكلِ في آنيَتِهم إلا إذا لم نجِد غيرَها، فإنّنا نغسِلُها، ونأكُلُ فيها.

وهذا الحَملُ جَيِّدٌ، وهو مقتضى قواعِدِ الشَّرعِ»[2].

* **وفي الحديثِ**: مراعاةُ مصلحةِ الدعوةِ؛ فإنَّ الصحابةَ كانوا لا يُغيرون على قومِ هذه المرأةِ؛ طمَعًا في إسلامِهِم، ورعايةً لحقّ الآيةِ التي وقعَت، والبركَةِ التي حصلَت.

* واستعمالُ الحكمَةِ في الدّعوةِ، ومُراعاةُ الأولَويَّات.

* ومُجازاةُ الإحسانِ بالإحسانِ.

* **وفيه**: أنّ المرأةَ على ضَعفِها وعجزِها بالنسبةِ للرجُل، فقد يكونُ لها الأثرُ البالغُ عليه، بل على قومِها كُلِّهم.

والمرأةُ عنصُرٌ فعَّالٌ من عناصرِ المجتمَعِ، فكم من امرأةٍ مسلمةٍ حكيمةٍ قامت بواجب الدعوةِ إلى اللهِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكَرِ، فاهتدى بها بشَرٌ كثيرٌ، ولو أنّ كُلّ امرأةٍ قامت على تربيَةِ أولادِها التربيةَ الحسنةَ، وسَعَت في تعليمِهم القرآنَ والعلمَ والسُّنَّة، لَكانت سببًا قويًّا من أسباب الهدايةِ العامَّة، وصلاحِ المجتمعاتِ كُلِّها.

* المرأةُ المسلمةُ تحمِلُ همّ الدعوةِ، فهي تدعو زوجَها إن رأَت فيه انحرافًا أو تقصيرًا، وكذلك تدعو أختَها، وتنصَح أباها وأخاها، فضلًا عن قيامِها بتربيةِ أولادِها، وتعليمِها الأطفالَ الصغارَ القرآنَ والصلاةَ والأخلاقَ الحسنةَ، إلى غيرِ ذلك من مَهامّ الدعوَةِ الكثيرَةِ والمتنوّعةِ، والتي يُمكِن للمرأةِ المسلمةِ أن يكونَ لها فيها حظٌّ كبيرٌ، وقسطٌ موفورٌ.

---

(١) رواه البخاري (٥٤٧٨)، ومسلم (١٩٣٠)، ولفظ البخاري: «**أما ما ذكرت من أهل الكتاب: فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا فاغسلوها وكلوا فيها**».

(٢) الشرح الممتع (١/ ٨٣-٨٤).

فلا يَحسُن مُطلَقًا أن نستَهين بدورِ المرأةِ في الدعوةِ والتعليمِ والتربيةِ، فضلًا عن احتقارِها وإهانتِها وسوءِ معاملتِها؛ فإن ذلك من العدوانِ البيّنِ، والإجحافِ والظلمِ، واللهُ لا يحبُّ الظالمينَ.

* **وفي الحديثِ**: الإرشادُ إلى المحافظةِ على العهدِ والذِّمام، وإن كان مع الكافرِ.

* وأنَّ الرفقَ وحُسنَ الخُلُق محمودٌ في المواطنِ كلِّها.

* تقديمُ المحتاجِ إلى الماءِ للشُّرب على الوضوءِ والغُسلِ.

* **وفيه**: جوازُ تأخيرِ قضاءِ الفائتةِ من الصلواتِ عن موضعِ الذِّكرِ لها، ما لم تكُن غفلةٌ عنها، أو استهانةٌ بها.

* تقديرُ النوم للتشريعِ؛ فإن الوقائعَ تُثبتُ ما لا تُثبتُ الأقوالُ.

* **وفيه**: أن النبيّ ﷺ ينامُ ويفوتُه الوقت، وكذا الأخيارُ.

* **وفيه**: الأخذُ بالأسباب للاستيقاظِ للصلاةِ، كالساعاتِ ونحوِها.

وفيه: طلَبُ الماءِ والبحثُ عنه عند فقدِه؛ للطهارةِ للصَّلاةِ.

وألَّا يتَّكِلَ الإنسانُ على نفسِه، ويثِقَ بها ثِقَةً تُنسيه حاجَتَه وفقرَه إلى ربِّه، ولكن يأخذُ بالأسباب ويتوكَّل على اللهِ، ويُحسن الظنَّ باللهِ تعالى، ولا يُحسِنُ الظنَّ بنفسِه.

عن أَنَس بن مالِكٍ رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ ﷺ لِفاطِمَةَ: «**ما يَمنَعُكِ أَن تَسمَعي ما أوصيكِ بِهِ: أَن تَقولي إذا أَصبَحتِ وإذا أَمسَيتِ: يا حَيُّ يا قَيُّومُ بِرَحمَتِكَ أَستَغيثُ، أَصلِح لي شَأني كُلَّهُ، ولا تَكِلني إلى نَفسي طَرفَةَ عَينٍ**»[1].

وفي حديثِ أبي قتادَةَ: سِرنا مع النبيِّ ﷺ لَيلَةً، فقال بَعضُ القَومِ: لَو عَرَّستَ بنا يا رسولَ اللهِ، قال: «**أَخافُ أَن تَناموا عَنِ الصلاةِ**»، قال بلالٌ: أَنا أوقِظُكُم،

(١) رواه النسائي في الكبرى (١٠٣٣٠)، والحاكم في المستدرك (٢٠٠٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٢٧).

فاضطَجَعوا، وأَسنَدَ بلالٌ ظَهرَهُ إلى راحِلَتِهِ، فغَلَبَتهُ عَيناهُ فنامَ، فاستَيقَظَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد طَلَعَ حاجِبُ الشَّمسِ، فقال: «**يا بلالُ، أَينَ ما قُلتَ؟**»[1].

وهذا لا يعني ألا يثِقَ الإنسانُ بنفسِه بما أعطاهُ اللهُ من العلمِ والقدرةِ، مُتَعَزِّفا على نِعمةِ اللهِ، عالمًا بأن ذلك من فضلِ اللهِ عليه.

سُئِلَ الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ما حُكم قَولِ: «فُلانٌ واثِقٌ من نَفسِه»، **أو**: «فُلانٌ عندَه ثِقَةٌ بنفسَه»؟ وهل هذا يُعارِضُ الدعاءَ الوارِدَ: «**ولا تَكِلني إلى نَفسي طَرفَةَ عَينٍ**»؟

فأجابَ: «لا حرَجَ في هذا؛ لأنَّ مرادَ القائلِ: «فلانٌ واثقٌ من نفسِه» التأكيدُ، يعني أنه متأكّدٌ من هذا الشيءِ وجازِمٌ به، ولا رَيبَ أن الإنسانَ يكون نسبةُ الأشياءِ إليه أحيانًا على سبيلِ اليقينِ، وأحيانًا على سبيلِ الظنِّ الغالب، وأحيانًا على وجهِ الشكِّ والتَرَدُّدِ، وأحيانًا على وجهِ المرجوحِ، إذا قال: «أنا واثقٌ من كذا»، أو: «أنا واثِقٌ من نفسي»، أو: «فُلانٌ واثقٌ من نفسِه»، أو: «واثِقٌ ممَّا يقول»، المراد به: أنه متيَقِّنٌ من هذا، وهذا لا حَرجَ فيه.

ولا يُعارض هذا الدعاءَ المشهورَ: «**ولا تَكِلني إلى نَفسي طَرفَةَ عَينٍ**»؛ لأنَّ الإنسانَ يثِقُ من نفسِه باللهِ، وبما أعطاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ من عِلمٍ، أو قُدرَةٍ، أو ما أشبَه ذلك»[2].



(١) رواه البخاري (٥٩٥)، واللفظ له، ومسلم (٦٨١)، مطولا.

(٢) فتاوى إسلامية (٤/ ٤٨٠).

١٧

زيدُ بنُ عمْرٍو
موحِّدٌ في
الجاهليةِ

زيدُ بنُ عمْرو
موحِّدٌ في الجاهليةِ

كان الناسُ زمَنَ الجاهِليَّة في ضلالٍ مُبينٍ، غارِقينَ في أوحالِ الشِّركِ، مُتَّبعينَ أهواءَهُم، قدِ استَهوَتهُم الشَّياطينُ فاجتالَتهُم عن دينِهم، وحَرَفَتهُم عن مِلَّةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولَم يَبقَ على التوحيدِ إلا بقايا من أهل الكِتاب، مِمَّنِ استَمسَكَ بالحقِّ، ولَم يُبَدِّل، ولَم يُغَيِّر.

وكانت هُناكَ قِلَّةٌ من العُقَلاءِ نَبَذوا عِبادَةَ الأصنامِ، وسَعَوا في طَلَب الحقِّ ونِشدانِه، حتى أقَرُّوا بالتوحيدِ، وكفَروا بالأندادِ، إلا أنَّهُم لَم يُدرِكوا الرِّسالَةَ، فماتوا قَبلَ البَعثَةِ وهُم مُقِرُّونَ بوَحدانيَةِ اللهِ، وكان منهم زَيد بن عَمرِو بن نُفَيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

تَرجَمَة زَيد بن عَمرو:

هو زَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلِ بن عبدِ العُزَّى بن رياحِ بن عبدِ اللهِ بن قُرطِ بن رَزاحِ بن عَديِّ بن كَعب بن لُؤَيٍّ، القُرَشيُّ، العَدَويُّ.

كان الخَطَّابُ -والِدُ عمرَ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَمَّهُ وأَخاهُ لِأُمِّهِ؛ وذلك لِأَنَّ عَمرَو بن نُفَيلٍ كان قد خَلَفَ على امرَأَةِ أَبيهِ بعدَ أَبيهِ، وكان لها من نُفَيلٍ أَخوهُ الخَطَّابُ، قالهُ الزُّبَيرُ بن بَكَّارٍ، ومحمدُ بن إسحاقَ[1].

وكان زَيدُ بن عَمرٍو قد تَرَكَ عِبادَةَ الأوثانِ، وفارَقَ دينَهُم، وكان لا يَأكُلُ إلا ما ذُبحَ على اسمِ اللهِ وحدَهُ.

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٣١٦).

قال ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اجتَمعت قريشٌ يَومًا في عيدٍ لهم، عِندَ صَنَمٍ من أَصنامِهِم، كانوا يُعَظِّمونَهُ ويَنحَرونَ له، ويَعكُفونَ عِندَهُ، ويدورونَ بِهِ، وكان ذلك عيدًا لهم في كُلِّ سنةٍ يَومًا، فَخَلَصَ منهم أَربَعَةُ نَفَرٍ نَجيًّا[1]، ثم قال بَعضُهُم لِبَعضٍ: «تَصادَقوا، وليَكتُم بَعضُكُم على بَعضٍ»، قالوا: أَجَل.

وهُم: ورَقَةُ بن نَوفَلِ بن أَسَدِ بن عبدِ العُزَّى بن قُصَيِّ بن كِلاب، وعُبَيدُ اللهِ بنُ جَحشِ بن رِئاب -وكانت أُمُّهُ أُمَيمَةَ بنتَ عبدِ المطَّلِب- وعُثمانُ بن الحوَيرِثِ بنِ أَسَدِ بن عبدِ العُزَّى بن قُصَيٍّ، وزَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ، فقال بَعضُهُم لِبَعضٍ: «تَعَلَّموا -واللهِ- ما قَومُكُم على شيءٍ، لَقد أَخطَؤوا دينَ أَبيهِم إبراهيمَ، ما حَجَرٌ نُطيفُ بِهِ، لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ، ولا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ؟! يا قَومِ، التَمِسوا لِأَنفُسِكُم دينًا؛ فَإِنَّكُم -واللهِ- ما أَنتُم على شيءٍ».

فَتَفَرَّقوا في البُلدانِ، يَلتَمِسونَ الحَنيفيَّةَ، دينَ إبراهيمَ.

فَأَمَّا ورَقَةُ بن نَوفَلٍ: فاستَحكَمَ في النصرانيَّةِ، واتَّبَعَ الكُتُبَ من أَهلِها، حتى عَلِمَ عِلمًا من أَهلِ الكِتاب.

وأَمَّا عُبَيدُ اللهِ بن جَحشٍ: فَأَقامَ على ما هو عليه من الِالتِباسِ حتى أَسلَمَ، ثم هاجَرَ مع المسلمينَ إلى الحَبَشَةِ، ومعه امرَأَتُهُ أُمُّ حَبيبَةَ بنتُ أَبي سُفيانَ مسلمَةً، فلما قَدِمَها تَنَصَّرَ، وفارَقَ الإسلامَ، حتى هَلَكَ هُنالِكَ نَصرانيًّا[2].

وأَمَّا عُثمانُ بن الحوَيرِثِ: فقدِمَ على قَيصَرَ مَلِكِ الرُّومِ، فَتَنَصَّرَ، وحَسُنَت مَنزِلَتُهُ عِندَهُ.

وأَمَّا زَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ: فَوَقَفَ، فلم يَدخُل في يَهوديَّةٍ ولا نَصرانيَّةٍ، وفارَقَ دينَ قَومِهِ، فاعتَزَلَ الأوثانَ والمَيتَةَ والدَّمَ والذَّبائِحَ التي تُذبَحُ على الأوثانِ، ونَهى عن قَتلِ المَوءودَةِ، وقال: «أَعبُدُ رَبَّ إبراهيمَ»، وبادى[3] قَومَهُ بعَيب ما هُم عليه.

---

(١) النجي: الجماعة يتحدثون سرا عن غيرهم، ويقع للاثنين والجماعة بلفظ واحد.

(٢) عبيد الله بن جحش من السابقين الأولين، ولم يثبت في خبر صحيح أنه ارتد.

(٣) بادى الشخص بالأمر: كاشفه به وجاهره.

وكان زَيدُ بن عَمرٍو قد أَجمع الخُروجَ من مكةَ؛ ليَضرِبَ في الأَرضِ يَطلُبُ الحَنيفيَّةَ دينَ إبراهيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانت صَفيَّةُ بنتُ الحَضرَميِّ كَلَّما رَأَتهُ قد تَهيَّأَ للخُروجِ وأَرادَهُ آذَنَت بهِ الخَطَّابَ بن نُفَيلٍ، وكان الخَطَّابُ بن نُفَيلٍ عَمَّهُ وأَخاهُ لِأُمِّهِ، وكان يُعاتِبُهُ على فِراقِ دينِ قَومِهِ، وكان الخَطَّابُ قد وكَّلَ صَفيَّةَ بهِ، وقال: «إذا رَأَيتِيهِ قد هَمَّ بأَمرٍ فَآذِنيني[1] بهِ».

وكان الخَطَّابُ قد آذى زَيدًا، حتى أَخرَجَهُ إلى أَعلى مكةَ، فَنزلَ حِراءَ مُقابلَ مكةَ، ووَكَّلَ بهِ الخَطَّابُ شَبابًا من شَباب قريشٍ، وسُفَهاءَ من سُفَهائِها، فقال لهم: «لا تَترُكوهُ يَدخُلُ مكةَ».

فَكان لا يَدخُلُها إلا سِرًّا منهم، فإذا عَلِموا بذلك آذَنوا بهِ الخَطَّابَ، فَأَخرَجوهُ وآذَوهُ؛ كَراهيَةَ أَن يُفسِدَ عليهم دينَهُم، وأَن يُتابعَهُ أَحَدٌ منهم على فِراقِهِ.

ثم خرجَ يَطلُبُ دينَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويَسأَلُ الرُّهبانَ والأَحبارَ، حتى بلغَ المَوصِلَ والجَزيرَةَ كُلَّها، ثم أَقبَلَ فَجالَ الشَّامَ كُلَّهُ، حتى انتَهى إلى راهِبٍ بمَيفَعَةٍ[2] من أَرضِ البَلقاءِ[3]، كان يَنتَهي إليه عِلمُ أَهلِ النصرانيَّةِ فيما يَزعُمونَ، فَسأله عن الحَنيفيَّةِ دينِ إبراهيمَ، فقال: «إنَّكَ لَتَطلُبُ دينًا ما أَنتَ بواجِدٍ مَن يَحمِلُكَ عليه اليَومَ، ولكن قد أَظَلَّ زَمانُ نبيٍّ يَخرُجُ من بلادِكَ التي خرجتَ منها، يُبعَثُ بدينِ إبراهيمَ الحَنيفيَّةِ، فالحق بها؛ فَإِنَّهُ مَبعوثٌ الآنَ، هذا زَمانُهُ».

وقد كان شامَّ[4] اليَهوديَّةَ والنصرانيَّةَ، فلم يَرضَ شَيئًا منهما، فَخرجَ سَريعًا حينَ قال له ذلك الراهِبُ ما قال، يُريدُ مكةَ، حتى إذا تَوَسَّطَ بلادَ لَخمٍ عَدَوا عليه، فَقَتَلوهُ»[5].

---

(١) أي: أعلميني وأخبريني.

(٢) الأرض المرتفعة.

(٣) البلقاء: كورة من أعمال دمشق، بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان، وفيها قرًى كثيرة ومزارع واسعة. والكورة: مقاطعة ريفية أو بقعة، تجتمع فيها قرى ومحال.

(٤) أي: استخبر، استعاره من الشم.

(٥) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٢-٢٣٢). وقال هشام بن عروة: «أقبل من الشام يريد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إذا كان بالجحفة أدركه قومه فقتلوه بها». دلائل النبوة، لإسماعيل الأصبهاني (ص٨١). وقيل: إنه مات قبل المبعث بخمس سنين، عند بناء قريش الكعبة. فتح الباري (٧/ ١٤٣).

الحَديث:

عن عبدِ اللهِ بن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ زَيدَ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ بأَسفَلِ بَلدَحٍ، قَبلَ أَن يَنزِلَ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوَحيُ، فَقُدِّمَت إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُفرَةٌ، فَأَبى أَن يَأكُلَ منها، ثم قال زَيدٌ: إنِّي لَستُ آكُلُ مِمَّا تَذبَحونَ على أَنصابِكُم، ولا آكُلُ إلا ما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه.

وأَنَّ زَيدَ بن عَمرٍو كان يَعيبُ على قريشٍ ذَبائِحَهُم، ويقولُ: الشَّاةُ خَلَقَها اللهُ، وأَنزَلَ لها منَ السَّماءِ الماءَ، وأَنبَتَ لها منَ الأَرضِ، ثم تَذبَحونَها على غيرِ اسمِ اللهِ! إنكارًا لِذلك، وإعظامًا له.

وأَنَّ زَيدَ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ خرجَ إلى الشَّأمِ يَسأَلُ عَنِ الدِّينِ ويَتَّبِعُهُ، فَلَقِيَ عالِمًا منَ اليَهودِ فَسأله عن دينِهِم، فقال: إنِّي لَعَلِّي أَن أَدينَ دينَكُم، فَأَخبِرني، فقال: لا تَكونُ على دينِنا حتى تَأخُذَ بنَصيبِكَ من غَضَبِ اللهِ، قال زَيدٌ: ما أَفِرُّ إلا من غَضَبِ اللهِ، ولا أَحمِلُ من غَضَبِ اللهِ شَيئًا أَبَدًا، وأَنَّى أَستَطيعُهُ؟ فَهَل تَدُلُّني على غيرِهِ؟ قال: ما أَعلَمُهُ إلا أَن يكونَ حَنيفًا، قال زَيدٌ: وما الحَنيفُ؟ قال: دينُ إبراهيمَ، لَم يَكُن يَهوديًّا، ولا نَصرانيًّا، ولا يَعبُدُ إلا اللهَ.

فَخرجَ زَيدٌ، فَلَقِيَ عالِمًا منَ النصارى، فَذكرَ مِثله، فقال: لَن تَكونَ على دينِنا حتى تَأخُذَ بنَصيبِكَ من لَعنَةِ اللهِ، قال: ما أَفِرُّ إلا من لَعنَةِ اللهِ، ولا أَحمِلُ من لَعنَةِ اللهِ ولا من غَضَبِهِ شَيئًا أَبَدًا، وأَنَّى أَستَطيعُ؟ فَهَل تَدُلُّني على غيرِهِ؟ قال: ما أَعلَمُهُ إلا أَن يكونَ حَنيفًا، قال: وما الحَنيفُ؟ قال: دينُ إبراهيمَ، لَم يَكُن يَهوديًّا ولا نَصرانيًّا، ولا يَعبُدُ إلا اللهَ.

فلما رَأى زَيدٌ قَولهم في إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خرجَ، فلما بَرَزَ رَفَعَ يَدَيهِ، فقال: «اللهُمَّ إنِّي أَشهَدُ أَنِّي على دينِ إبراهيمَ»[1].

زادَ أبو نُعَيمٍ، وابنُ عَساكِر: «عليه أَحيا، وعليه أَموتُ».

---

(١) رواه البخاري (٣٨٢٦)، بتمامه، وأحمد (٥٣٦٩) ببعضه، وكذا ابن حبان في صحيحه (٥٢٤٢)، والبيهقي في سننه (١٨٩٥١)، والنسائي في الكبرى (٨١٣٣)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٩١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٢١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٢٩٧)، والطبري في تفسيره (٥/ ٤٨٦)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣/ ١١٣٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩/ ٤٩٨).

تَرجَمَةُ عبدِ اللهِ بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

هو عبدُ اللهِ بن عمرَ بن الخَطَّاب بن نُفَيلٍ، أَبو عبدِ الرحمَنِ القُرَشيُّ، العَدَويُّ، المَكِّيُّ، ثم المَدَنيُّ.

أَسلَمَ وهو صَغيرٌ، ثم هاجَرَ مع أَبيهِ ولَمْ يَحتَلِم، واستُصغِرَ يَومَ أُحُدٍ، فَأَوَّلُ غَزَواتِهِ الخَندَقُ، وهو مِمَّن بايَعَ تَحتَ الشَّجَرَةِ، وأُمُّهُ وأُمُّ أُمِّ المؤمِنينَ حَفصَةَ: زَينَبُ بنتُ مَظعونٍ، أُختُ عُثمانَ بن مَظعونٍ الجُمَحيِّ.

رَوى عِلمًا كَثيرًا نافِعًا عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن أَبيهِ، وأَبي بكرٍ، وعُثمانَ، وعَليٍّ، وحَفصَةَ أُختِهِ، وعائشةَ، وغيرِهِم.

ورَوى عنه منَ الصحابَةِ: جابرٌ، وابنُ عباسٍ، وغيرُهُما، وبَنوهُ: سالِمٌ، وعبدُ اللهِ، وحَمزَةُ، وبلالٌ، وزَيدٌ، ومن كِبارِ التابعينَ: سَعيدُ بن المسَيِّب، وأَسلَمُ مَولى عمرَ، وعَلقَمَةُ ابن وقَّاصٍ، وأَبو عبدِ الرحمَنِ النهديّ، ومَسروقٌ، وعبدُ الرحمَنِ بن أَبي لَيلى، في آخَرينَ.

عن عبدِ اللهِ بن مَسعودٍ، قال: «لَقد رَأَيتُنا ونَحنُ مُتَوافِرونَ، وما فينا شابٌّ هو أَملَكُ لِنَفسِهِ مِنِ ابنِ عمرَ».

وعن جابرٍ: «ما مِنَّا أَحَدٌ أَدرَكَ الدُّنيا إلا وقد مالَت بِهِ، إلا ابنُ عمرَ».

وعن عائشةَ: «ما رَأَيتُ أَحَدًا أَلزَمَ للأَمرِ الأَوَّلِ مِنِ ابنِ عمرَ».

وقال قَتادَةُ: سَمِعتُ ابنَ المسَيِّب يقولُ: «كان ابنُ عمرَ يَومَ ماتَ خَيرُ مَن بَقيَ».

وعن طاوُسَ: «ما رَأَيتُ أورَعَ مِنِ ابنِ عمرَ»، وكذا يُروى عن مَيمونِ بن مِهرانَ.

وقال مالِكٌ: «كان إمامَ الناسِ عِندَنا بعدَ زَيدِ بن ثابتٍ: عبدُ اللهِ بن عمرَ، مَكَثَ سِتِّينَ سنةً يُفتي الناسَ».

وهو أَحَدُ السِّتَّةِ الذينَ هُم أَكثَرُ الصحابَةِ روايةً، وأَحَدُ العَبادِلَةِ الأَربَعَةِ، وثانيهِم: ابنُ عباسٍ، وثالِثُهُم: عبدُ اللهِ بن عَمرِو بن العاصِ، ورابعُهُم: عبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيرِ.

تُوُفِّيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنةَ ثَلاثٍ وسَبعينَ، وله سَبعٌ وثَمانونَ سنةً[1].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٣ -٢٣٩)، الإصابة (٤/ ١٥٥ -١٦١)، تهذيب التهذيب (٥/ ٣٢٨-٣٣٠).

شرح الحديث:

قَولُهُ: «أَنَّ النبيَّ ﷺ لَقِيَ زَيدَ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ بأَسفَلِ بَلدَحٍ»:

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو مَكانٌ في طَريقِ التنعيمِ، ويُقالُ: هو وادٍ»(١).

وقال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اسمُ مَوضِعٍ بالحِجازِ، قُربَ مكةَ»(٢).

وقال عاتِقُ بن غَيثٍ الحَربيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَلدَحُ: هو وادي مكةَ الثَّاني، يُسَمَّى أَعلاهُ عِندَ حِراءٍ «وادي العَشرِ»، وكان على عَهدِ الأَزرَقيِّ يُسَمَّى «مكةَ السِّدرِ»، فإذا تَوَسَّطَ بينَ مكةَ وعُمرَةِ التنعيمِ سُمِّيَ «فَخًّا»، ويُسَمَّى اليَومَ «الزَّاهِرَ»، فإذا تَجاوَزَ جَبَلَ مُلِحَّات سُمِّيَ «بَلدَحَ»، ويُسَمَّى اليَومَ «وادي أُمِّ الدُّودِ»، وغُيِّرَ اسمُ أُمِّ الدُّودِ إلى «أُمِّ الجودِ»، وإذا تَجاوَزَ أُمَّ الدُّودِ وأَقبَلَ على الحُدَيبيَةِ، سُمِّيَ «واديَ المَقتَلَةِ»، ثم يَصُبُّ في «مَرِّ الظَّهرانِ، على مَرأًى من الحُدَيبيَةِ شَمالًا»(٣).

قَولُهُ: «قَبلَ أَن يَنزِلَ على النبيِّ ﷺ الوَحيُ»:

فقد ماتَ زَيدُ بن عَمرٍو قَبلَ البَعثَةِ بخَمسِ سِنينَ، قال الطبري: «تُوُفِّيَ وقريشٌ تَبنِي الكَعبَةَ، وذلك قَبلَ أَن يوحى إلى رسولِ اللهِ ﷺ بخَمسِ سِنينَ»(٤).

قَولُهُ: «فَقُدِّمَت إلى النبيِّ ﷺ سُفرَةٌ، فَأَبى أَن يَأكُلَ منها، ثم قال زَيدٌ: إِنِّي لَستُ آكُلُ مِمَّا تَذبَحونَ على أَنصابِكُم، ولا آكُلُ إلا ما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه»:

هذه رِوايةُ فُضَيلِ بن سُلَيمانَ، وقد خالَفَهُ عبدُ العَزيزِ بن المختارِ عِندَ البخاريِّ أَيضًا(٥)،

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٤٣).

(٢) النهاية (١/ ١٥١).

(٣) معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية (ص٤٩).

(٤) تاريخ الطبري (١١/ ٥١٣).

(٥) صحيح البخاري (٥٤٩٩)

ووُهَيبُ بن خالِدٍ عِندَ أحمَدَ[١]، والنّسائيّ[٢]، وزُهَيرُ بن مُعاويَةَ عِندَ ابنِ سَعدٍ[٣]، فقالوا: «فقدَّمَ إليه رسولُ اللهِ ﷺ سُفرَةً فيها لَحمٌ، فَأَبى أَن يَأكُلَ منها، ثم قال: «إنِّي لا آكُلُ مِمَّا تَذبَحونَ على أَنصابكُم، ولا آكُلُ إلا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه».

فجَعَلوا النبيَّ ﷺ هو الذي قدَّمَ السُّفرَةَ لزَيدِ بن عمرٍو.

وجعَلوا زيدًا هو الذي أَبى أن يَأكُلَ منها.

ورِوايَتُهم أرجَحُ؛ لِأَنَّهُم جمعٌ منَ الثِّقاتِ الأثباتِ، ولِأَنَّ فُضَيلًا مُتَكَلَّمٌ فيه، وخاصَّةً فيما يرويه عن موسى بن عُقبَةَ، قال ابنُ مَعينٍ: «ليس بثِقَةٍ»، وقال أبو زُرعَةَ: «لَيِّنُ الحَديثِ»، وقال أبو حاتِمٍ: «يُكتَبُ حَديثُه، ليس بالقَويّ»، وقال النسائيُّ: «ليس بالقَويِّ»، وقال السَّاجيُّ: «كان صَدوقًا، وعندَه مَناكير»، وقال صالِحُ ابنُ مُحَمّد جزَرَة: «مُنكَرُ الحَديثِ، روى عن موسى بن عُقبَةَ مَناكير»[٤].

وهذا من رِوايَتِه عن موسى بن عُقبَةَ.

فإن قيلَ: ما وجه هذه الرِّوايَةِ المَحفوظَةِ، والنبيّ ﷺ أولى بهذا الِامتِناعِ؟

كَيفَ يَأكُلُ النبيُّ ﷺ مِمَّا ذُبحَ على النُّصُب، ويَمتَنِع منه زَيدٌ؟

فَيُقالُ: ليس هُناكَ ما يَدُلّ على أنَّ هذا اللَّحمَ ذُبحَ على النُّصُب، ولا على غيرِ اسمِ اللهِ، وإنَّما امتَنَعَ زيدٌ عن أكلِه؛ لِأَنَّه غيرُ مُتَأَكِّدٍ من كَونِه لَم يُذبَح على النُّصُب، وأنَّه ذُكِر اسمُ اللهِ عليه.

كَما أنَّهُ ليس هُناكَ ما يَدُلُّ على أنَّ النبيّ ﷺ أكَلَ من هذا اللّحمِ.

وقد عَصَمَه اللهُ تعالى من أوساخِ الجاهِليَّةِ وأوحالِ الشِّركِ، قَبلَ البَعثَةِ وبعدَها.

---

(١) المسند (٥٣٦٩)، (٦١١٠).

(٢) السنن الكبرى (٨١٣٣).

(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٩١).

(٤) تهذيب التهذيب (٨/ ٢٩٢).

قال السُّهيليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فيه سُؤالٌ، يُقالُ**: كَيفَ وفّقَ اللهُ زَيدًا إلى تَركِ أَكلِ ما ذُبحَ على النّصُب وما لَم يُذكَرِ اسمُ اللهِ عليه، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أولى بهذه الفَضيلَةِ في الجاهِليّةِ، لِما ثَبّتَ اللهُ؟

فالجَوابُ من وجهَينِ:

أَحَدُهُما: أَنّهُ ليس في الحَديثِ -حينَ لَقيَهُ ببَلدَحَ، فَقُدّمَت إليه السّفرَةُ- أَنّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَلَ منها، وإنّما في الحَديثِ: أَنّ زَيدًا قال حينَ قُدّمَت السّفرَةُ: لا آكُلُ مِمّا لَم يُذكَرِ اسمُ اللهِ عليه...»[1].

وقال الخَطّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «امتِناعُ زَيدِ بن عمرٍو من أكلِ ما في السُّفرَةِ؛ إنّما كان من أَجلِ خَوفِه أن يكونَ اللحمُ الذي فيها مِمّا ذُبحَ على الأنصاب، فَتَنَزَّهَ من أكلِه، وقد كان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَأكُلُ من ذَبائِحِهِمُ التي كانوا يذبَحونَها لأصنامِهِم، فأمّا ذبائِحُهُم لِمَأكَلَتِهِم: فإنّا لَم نَجِد في شيءٍ منَ الأخبارِ أنّه كان يتَنَزَّهُ منها، ولِأَنّهُ كان لا يَرى الذّكاةَ واقِعةً إلا بفِعلِهِم قَبلَ نُزولِ الوَحيِ عليه، وقَبلَ تَحريمِ ذبائِحِ أهلِ الشِّركِ، فقد كان بينَ ظَهرانيهِم مُقيمًا معَهُم، ولَم يُذكَر أنّه كان يَتَمَيَّزُ عنهُم إلا في أكلِ المَيتَةِ.

وكانت قُرَيشٌ وقبائِلُ من العَرب تَتَنَزَّهُ في الجاهِليَّة من أكلِ المَيتاتِ، ولَعَلَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَم يَكُن يَتَّسِع -إذ ذاكَ- لِأَن يذبَحَ لنفسِه الشَّاةَ ليَأكُلَ منها الشِّلوَ، أو البَضعَةَ[2]، ولا كان فيما استَفاض من أخبارِه أنّه كان يَهجُرُ اللَّحمَ ولا يأكُلُه، وإذا لَم يَكن بحَضرَتِه إلا ذكاةُ أهلِ الشِّركِ ولا يَجِدُ السَّبيلَ إلى غيرِه، ولَم يَنزِل عليه في تحريمِ ذبائِحِهم شيءٌ[3]، فليس إلا أكلُ ما يذبَحونه لمَأكَلَتِهم، بعدَ أن يتَنَزَّه منَ المَيتاتِ؛ تنزيهًا منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَه، واختيارًا من جِهَةِ الطبعِ لتَركِها؛ استِقذارًا لها وتَقَزُّزًا منها، وبعدَ أن يتَجَنَّبَ الذّبائِحَ لأصنامِهم؛ عِصمَةً منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ له؛ لِئَلّا يُشارِكَهُم في تعظيمِ الأصنامِ بها، وقد أنكَحَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) الروض الأنف (٢/ ٢٣٣).

(٢) الشلو: العضو، والبضعة: القطعة من اللحم.

(٣) قال الحافظ في قول الخطابي: «ولم ينزل عليه في تحريم ذبائحهم شيء»، قال: «فيه نظر؛ لأنه كان قبل المبعث، فهو من تحصيل الحاصل». فتح الباري (٧/ ١٤٣).

ابنتَه زينبَ أبا العاصِ بن الربيع وهو مُشرِكٌ، وقد هاجَرَ ﷺ إلى المَدينَةِ، وبَقيَت عِندَ أبي العاصِ بمكةَ مُدَّةً طَويلَةً، إلى أن لَحِقَت برسولِ اللهِ ﷺ بعدُ، وكان عِندَ عمر بن الخطَّاب امرأتانِ مُشرِكَتانِ، طَلَّقَهُما يومَ الحُدَيبيَةِ، حينَ نزلَ قَولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقَولُهُ: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

فكان أمرُ الطعامِ قَبلَ وُقوعِ تَحريمِ ذبائِحِ أهلِ الشِّركِ على وتيرَةِ أمرِ المَناكِحِ في الإباحَةِ، وقد كان ﷺ يَتَنَزَّهُ في أمرِ طعامِه وشَرابه عن كُلِّ خَبيثٍ منَ الأطعِمَةِ، وذي ضَيرٍ[1]، أو ذي رائِحَةٍ كريهَة، وعَمَّا ليس منها بطَيِّبٍ في نفسِه في مَخرَجِ كَسبه؛ وذلك أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]»[2].

فالنبيُّ ﷺ كان يَأكُل من ذبائِحِ قومِه، ويتعَفَّفُ مع ذلك عن كُلِّ خبيثٍ غيرِ طيِّبٍ، فما عَلِمَ أنَّه ذُبحَ على النُّصُب وذُكِرَ عليه غيرُ اسمِ اللهِ لَم يَطعَمهُ، وما لَم يَعلَم عنه ذلك وكان طَيِّبًا أكَلَ منه.

أمَّا زَيدٌ: فكان يشتَرِطُ شرطَين: أن يكونَ مُتَحقِّقًا أنَّهم لَم يَذبَحوا على نُصُبٍ من أنصابهم، وأنَّهم ذكروا اسمَ اللهِ عليه، فإذا لَم يتَحقَّق من ذلك داخَلَه الشَّكُّ، فلَم يأكُل من ذبائحِهم، لذلك قال: «إنِّي لَستُ آكُلُ مِمَّا تَذبَحونَ على أَنصابكُم، ولا آكُلُ إلا ما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه».

وقال **ابنُ بَطَّالٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السُّفرةُ إنَّما قدَّمَتها قُريشٌ للنبيِّ ﷺ، فأبى أن يأكُلَ منها، فقدَّمَها النبيُّ ﷺ إلى زَيدٍ، فأبى أن يأكلَ منها، ثم قال لقريشٍ الذينَ قدَّموها إلى النبيِّ: «أَنا لا آكُلُ مِمَّا تَذبَحونَ على أَنصابكُم».

ولَم يكُن زيدٌ فى الجاهِليَّة بأفضلَ منَ النبيِّ ﷺ، فحينَ امتَنَع زيدٌ فالنبيُّ ﷺ -الذى كان حَباهُ اللهُ لوَحيِه، واختارَه ليكونَ خاتَم النبيِّين وسَيِّدَ المرسَلينَ- أولى بالِامتِناعِ منها فِى الجاهِليَّةِ أيضًا»[3].

---

(١) أي: ضرر.

(٢) أعلام الحديث (٣/ ١٦٥٧-١٦٥٩).

(٣) شرح صحيح البخارى (٥/ ٤٠٨).

قال الحافظُ: «وما قالهُ مُحتَمَلٌ، لكن لا أَدري من أَينَ له الجَزمُ بذلك؟ فَإِنِّي لَم أَقِف عليه في رواية أحدٍ، وقد تَبعَهُ ابنُ المنيرِ في ذلك، وفيه ما فيه».

ثم ذكرَ الحافظُ بعضَ كلامِ الخطَّابيِّ المتَقدِّمِ، ثم قال: «وهذا الجَواب أولى مِمَّا ارتَكَبَهُ ابنُ بَطَّالٍ، وعلى تَقديرِ أن يكونَ زَيدُ بن حارِثَة ذبحَ على الحَجَرِ، فَإِنَّه يُحمَلُ على أَنَّهُ إِنَّما ذَبَحَ عليه لِغيرِ الأَصنامِ»[1].

وقال ابنُ هُبَيرَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ذكرَه زَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ فَهو على ظَنٍّ منه أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يأكُلُ مِمَّا ذُبحَ على الأصنامِ، ولَم يُنقَل عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كان يأكلُ من ذلك، عِصمَةً منَ اللهِ تعالى له»[2].

وقال الكرمانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قُلتَ: هَل أَكَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها؟ قُلتُ: جَعلُه في سُفرَةِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَدُلُّ على أَنَّه كان يأكُلُه، وكَم من شيءٍ يوضَعُ في سُفرَةِ المسافِرِ مِمَّا لا يأكُلُه هوَ، بل يأكُلُه مَن معه، وإِنَّما لَم يَنهَ الرسولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن مَعه من أكلِه؛ لِأَنَّه لَم يوحَ إليهِ بعدُ، ولَم يُؤمَر بتبليغِ شيءٍ تَحليلًا وتَحريمًا حينَئِذٍ»[3].

وقال بدرُ الدِّين الدّماميني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس في الحَديثِ أَنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَلَ منَ السُّفرَةِ»[4].

وأَمَّا ما روي عن زَيدِ بن حارِثَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُردِفي إلى نُصُبٍ منَ الأَنصاب، فَذَبَحنا له شاةً، ثم صَنَعناها له، حتى إذا نَضِجَت جَعَلناها في سُفرَتِنا، ثم أَقبَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسيرُ وهو مُردِفي في يَومٍ حارٍّ من أَيَّامِ مكةَ، حتى إذا كُنَّا بأَعلى الوادي لَقيَهُ زَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ، فَحَيَّا أَحَدُهُما الآخَرَ بتَحيَّةِ الجاهِلِيَّةِ، فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما لي أَرى قَومَكَ قد شَنِفوا لَكَ؟[5]»... إلى أن قال:

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٤٣).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٤/ ٢١١).

(٣) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١٥/ ٦٢).

(٤) مصابيح الجامع (٧/ ٣٢٨).

(٥) أي: أبغضوك.

وأَناخَ رسولُ اللهِ ﷺ البَعيرَ الذي تَحتَهُ، ثم قدَّمنا إليه السُّفرَةَ التي كان فيها الشِّواءُ، فقال: «ما هذا؟» قُلنا: هذه الشَّاةُ ذَبَحناها لِنَصب[1] كذا وكذا، فقال: إنِّي لا آكلُ شَيئًا ذُبحَ لِغيرِ اللهِ[2].

ولفظُ أبي يَعلى: «وقَرَّبَ إليه السُّفرَةَ، فقال: ما هذا يا محمدُ؟ فقال: «شاةٌ ذَبَحناها لِنُصُبٍ منَ الأَنصاب»، قال: فقال: «ما كُنتُ لِآكُلَ مِمَّا لَمْ يُذكَرِ اسمُ اللهِ عليه».

فهذا السِّياقُ مُنكَرٌ غيرُ محفوظٍ.

قال الذَّهَبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في إسنادِهِ: محمدٌ، لا يُحتَجُّ بِهِ، وفي بَعضِهِ نَكارَةٌ بَيِّنَةٌ»[3].

ومُحمّد هوَ: مُحَمَّد بن عمرِو بن علقَمةَ بن وقَّاصٍ الليثيّ، وهو صالِحُ الحديثِ في الجُملَةِ، وقد تُكُلِّم فيه، فقال ابنُ سعدٍ: «كان كثيرَ الحَديثِ، يُستَضعَفُ»، وقال يعقوب بن شَيبَةَ: «هو وسَطٌ، وإلى الضَّعفِ ما هو»، وقال ابنُ مَعِينٍ: «ما زالَ الناسُ يَتَّقونَ حَديثَه»، وقال الجَوزَجانيّ: «ليس بَقَويِّ الحَديثِ، ويُشتَهى حَديثُه»، وقال أبو حاتِمٍ: «صالِحُ الحَديثِ، يُكتَبُ حديثُه، وهو شَيخٌ»، وقال النَّسائيُّ: «ليس به بَأسٌ»، وقال مَرَّةً: «ثِقَةٌ»، وقال ابنُ عَديّ: «لهُ حَديثٌ صالِحٌ، وقد حدَّثَ عنه جماعةٌ من الثِّقاتِ، كُلٌّ واحدٍ يَتَفَرَّدُ عنه بنُسخَةٍ، ويُغرِبُ بعضُهم على بَعضٍ، ورَوى عنه مالكٌ في المَوطَّأ، وأرجو أنَّه لا بَأسَ به»، وذكَرَهُ ابنُ حِبَّان في الثِّقاتِ، وقال: «يُخطِئُ»[4].

وقَولُ الذَّهَبيِّ: «وفي بَعضِهِ نَكارَةٌ بَيِّنَةٌ»، يُشيرُ إلى قَولِهِ: «خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ وهو مُردِفي إلى نُصُبٍ منَ الأَنصاب، فَذَبَحنا له شاةً»، وقَولِهِ: «ما هذا يا محمدُ؟ فقال: «شاةٌ ذَبَحناها لِنُصُبٍ منَ الأَنصاب».

---

(١) يقال: نصب -بفتح النون وسكون الصاد-، ونصب -بضم النون وسكون الصاد، ونصب- بضم النون والصاد. زاد المسير (٤/ ٣٤٠)، تفسير القرطبي (٦/ ٥٧)، (١٨/ ٢٩٦).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (٨١٣٢)، والحاكم (٤٩٥٦)، والطبراني في الكبير (٥/ ٨٦)، والبزار (١٣٣١)، وأبو يعلى (٧٢١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٢٢).

(٤) الطبقات الكبرى (٥/ ٤٣٣)، الثقات لابن حبان (٧/ ٣٧٧)، تهذيب التهذيب (٩/ ٣٧٦).

ووجَّه الحافظُ ابنُ حَجَرٍ روايةَ زَيدٍ هذه -على فَرضِ صِحَّتِها-:

بأنّ المقصود بالنُّصُب: الحِجارَةُ التي ليست بأصنامٍ ولا مَعبودةٍ، وإنَّما هي من آلاتِ الجَزَّارِ التي يَذبَحُ عليها؛ لِأَنَّ النُّصُبَ في الأَصلِ حَجَرٌ كَبيرٌ، فَمنها ما يكون عِندَهُم من جُملَةِ الأَصنامِ، فَيَذبَحونَ له، وعلى اسمِهِ، ومنها ما لا يُعبَدُ، بَل يكونُ من آلاتِ الذَّبحِ، فَيَذبَحُ الذَّابحُ عليه لا للصَّنَمِ، أو كان امتِناعُ زَيدٍ منها؛ حَسمًا للمادَّةِ[1].

وقال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنا يَزيدُ، حَدَّثَنا المَسعوديُّ، عن نُفَيلِ بن هِشام بنِ سَعيدِ بن زَيدِ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ، عن أَبيهِ، عن جَدِّهِ، قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكةَ هو وزَيدُ بن حارِثَةَ، فَمَرَّ بِهِما زَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ، فَدَعَواهُ إلى سُفرَةٍ لهما، فقال: «يا ابنَ أَخي، إنِّي لا آكُلُ مِمَّا ذُبحَ على النُّصُب»، قال: فَما رُئيَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ ذلك أَكَلَ شَيئًا مِمَّا ذُبحَ على النُّصُب[2].

وهذا أَيضًا لا يَصِحُّ، المسعوديُّ -واسمُه: عبدُ الرحمَنِ بن عبدِ اللهِ- كان اختَلَطَ، وسماعُ يزَيدَ بن هارونَ منه بعدَ الاختلاط، قال ابنُ نُمَير: «كان ثقةً، واختَلَط بآخِرِهِ، سَمِعَ منه ابنُ مَهدي ويَزيدُ بن هارونَ أحاديثَ مُختَلَطَة»[3].

ونُفَيلُ بن هشامٍ مجهولٌ، قال ابنُ مَعينٍ: «لا أعرِفُه»[4]، وكذا أبوهُ، ولَم يوَثِّقهما غيرُ ابنِ حِبَّان.

وقد روى هذا الحديثَ إبراهيمُ الحَربيُّ في غَريب الحَديثِ، من طريقِ المَسعوديّ به، ولفظُه:

مَرَّ زَيدُ بن عَمرٍو برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبزَيدِ بن حارِثَةَ، وهُما يَأكُلانِ من سُفرَةٍ لهما، فَدَعَواهُ، فقال: «إنِّي لا آكُلُ مِمَّا ذُبحَ على النُّصُب»، ثم قال: «قَولُهُ: «ذَبَحنا شاةً لِنُصُبٍ

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٤٤).

(٢) المسند (١٦٤٨).

(٣) ينظر: التهذيب (٦/ ٢١٠).

(٤) تعجيل المنفعة (٢/ ٣١٤).

منَ الأَنصاب»، لِذلك وجهانِ: إمَّا أَن يكونَ زَيدٌ فَعَله من غيرِ أَمرِ رسولِ اللهِ ﷺ ولا رِضاهُ، إلا أَنَّهُ كان معه، فَنُسِبَ ذلك إليه، لِأَنَّ زَيدًا لَم يَكُن معه منَ العِصمَةِ والتوفيقِ ما كان اللهُ أَعطاهُ نبيَّهُ ﷺ، ومَنعهُ مِمَّا لا يَحِلُّ من أَمرِ الجاهِليَّةِ، وكَيفَ يَجوزُ ذلك، وهو قد مَنَعَ زَيدًا -في حَديثِهِ هذا بعَينِهِ- أَن يَمَسَّ صَنَمًا؟ وما مَسَّهُ النبيُّ ﷺ قَبلَ نُبوَّتِهِ ولا بعد، فَهو يَنهى زَيدًا عن مَسِّهِ، ويَرضى أَن يذبَحَ له! هذا مُحالٌ.

والوَجهُ الثَّاني: أَن يكونَ ذَبَحَ لِزادِهِ في خُروجِهِ، فاتَّفَقَ ذلك عِندَ صَنَمٍ كانوا يَذبَحونَ عِندَهُ، فَكان الذَّبحُ منهم للصَّنَمِ، والذَّبحُ منه للهِ تعالى، إلا أَنَّ المَوضِعَ جَمع بينَ الذَّبحَينِ، فَأَمَّا ظاهِرُ ما جاءَ بِهِ الحَديثُ: فَمَعاذَ اللهِ.

وأَمَّا حَديثُ ابنِ عمرَ، وسَعيدِ بن زَيدٍ: فَليس فيهما بَيانُ أَنَّهُ ذَبَحَ أو أَمَرَ بذلك، ولَعَلَّ زَيدًا ظَنَّ أَنَّ ذلك اللَّحمَ مِمَّا كانت قريشٌ تَذبَحُهُ لِأَنصابها، فامتَنَعَ لِذلك، ولَم يَكُنِ الأَمرُ كَما ظَنَّ، فَإن كان ذلك فُعِلَ فَبغيرِ أَمرِهِ ولا رِضاهُ»[1].

وساقَ الذَّهَبيُّ هذا الكَلامَ للحَربيِّ بنَحوِهِ مُختَصَرًا، ثم قال: «قُلتُ: هذا حَسَنٌ، فَإِنَّما الأَعمالُ بالنِّيَّةِ.

أَمَّا زَيدٌ: فَأَخَذَ بالظَّاهِرِ، وكان الباطِنُ للهِ، ورُبَّما سَكَتَ النبيُّ ﷺ عَنِ الإفصاحِ؛ خَوفَ الشَّرِّ، فَإِنَّا -مع عِلمِنا بكَراهيَتِهِ للأَوثانِ- نَعلَمُ أَيضًا أَنَّهُ ما كان قَبلَ النُّبوَّةِ مُجاهِرًا بذَمِّها بينَ قريشٍ، ولا مُعلِنًا بمَقتِها قَبلَ المَبعَثِ»[2].

والنُّصُبُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].

---

(١) غريب الحديث (٢/ ٧٩١).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٥).

قال قتادة: «النُّصبُ: حِجارَةٌ كان أَهلُ الجاهِلِيَّةِ يَعبُدونَها، ويَذبَحونَ لها، فَنَهى اللهُ عن ذلك»[١].

وقال ابنُ فارِسٍ: «النُّصُب: حَجَرٌ كان يُنصَبُ فَيُعبَدُ، وتُصَبُّ عليه دِماءُ الذَّبائِحِ»[٢].

وقال ابنُ كَثيرٍ: «قال مُجاهِدٌ وابنُ جُرَيج: «كانتِ النُّصُبُ حِجارَةً حَولَ الكَعبَةِ»، قال ابنُ جُرَيج: «وهي ثَلاثُ مئةٍ وسِتُّونَ نُصُبًا، كان العَرَبُ في جاهِلِيَّتِها يَذبَحونَ عِندَها، ويَنضَحونَ ما أَقبَلَ منها إلى البَيتِ بِدِماءِ تِلكَ الذَّبائِحِ، ويُشَرِّحونَ اللَّحمَ، ويَضَعونَهُ على النُّصُب».

وكذا ذكَرَهُ غيرُ واحِدٍ، فَنَهى اللهُ المؤمِنينَ عن هذا الصنيعِ، وحَرَّمَ عليهم أَكلَ هذه الذَّبائِحِ التي فُعِلَت عِندَ النُّصُب، حتى ولو كان يُذكَرُ عليها اسمُ اللهِ، فالذَّبح عِندَ النُّصُب منَ الشِّركِ الذي حَرَّمَهُ اللهُ ورسولُهُ»[٣].

وقال الحافظُ: «قَولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ المرادُ بِهِ: ما ذُبِحَ عليها للأَصنامِ»[٤].

والسُّفرَةُ:

قال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السُّفرَةُ: طَعامٌ يَتَّخِذُهُ المسافِرُ، وأَكثَر ما يُحمَلُ في جِلدٍ مُستدير، فنُقِلَ اسمُ الطعامِ إلى الجِلدِ، وسُمِّيَ بِهِ كَما سُمِّيت المَزادة راويَةً، وغيرُ ذلك منَ الأَسماءِ المَنقولة»[٥].

وقال أبو العباسِ الفَيُّوميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السُّفرَةُ: طَعامٌ يُصنَعُ للمُسافِرِ، والجَمعُ سُفَرٌ، مِثلُ: غُرفَةٍ وغُرَفٍ، وسُمِّيَت الجِلدَةُ التي يوعى فيها الطعامُ سُفرَةً مَجازًا»[٦].

قَولُهُ: «وأَنَّ زَيدَ بن عَمرٍو كان يَعيبُ على قريشٍ ذَبائِحَهُم، ويقولُ: الشَّاةُ خَلَقَها اللهُ،

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٧١).
(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٥٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣).
(٤) فتح الباري (٧/ ١٤٣).
(٥) النهاية (٢/ ٣٧٣).
(٦) المصباح المنير (١/ ٢٧٩).

وأَنزَلَ لها منَ السَّماءِ الماءَ، وأَنبتَ لها منَ الأَرضِ، ثم تَذبَحونَها على غيرِ اسمِ اللهِ؟! إنكارًا لِذلك، وإعظامًا له»:

وكان هذا من سلامَةِ فِطرَته وصِحَّةِ عَقلِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكان يُنكِرُ الشِّركَ بهذا النظَرِ الصحيحِ، وهذه الفِطرةِ المستقيمةِ، ويَعيبُ على قومِه ما يفعلونَه من ذبحِ الشَّاةِ وغيرِها من بهيمةِ الأنعامِ على غيرِ اسمِ اللهِ، ويقول: الشَّاةُ خلَقَها اللهُ، وأنزَل لها الماءَ منَ السّماءِ، وأنبَتَ لها النباتَ والعُشبَ من الأرضِ، وأنتُم تُقِرُّونَ بذلك ولا تُنكِرونَه، ثم تَذبَحونَها على غيرِ اسمِ اللهِ؟!

والذبحُ عبادةٌ، فيُنعِمُ اللهُ عليكُم بالشَّاةِ، ويُيَسِّرُ لها مَرعاها وسُقياها، ثم تَذبَحونَها على نُصُبكُم التي تنصبونَها وتَعبُدونَها من دونِ اللهِ، وهي حِجارةٌ لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ؟! وتَذكُرونَ عليها غيرَ اسمِ اللهِ، وأنتُم أهلُ حَرَمِ اللهِ؟! فلا شيءَ هو أبعَدُ عَنِ الحقِّ والعَدلِ مِمَّا أنتُم عليه.

قَولُهُ: «وأَنَّ زَيدَ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ خرجَ إلى الشَّأمِ يَسأَلُ عَنِ الدِّينِ، ويَتَّبعُهُ»:

وهذا أَيضًا من تَمامِ عقلِه؛ فخرَج يسألُ إذ لَم يَعلَم، ولَم يَسأَل أحَدًا من قَومِه؛ لِأَنَّه كان لا يَشُكّ في بطلانِ ما هُم عليه، فكيفَ يسألُهم؟ وقد عَلِمَ أنَّ اليَهودَ كانوا أهلَ كِتابٍ وعِلمٍ، فخرجَ إليهِم.

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**يَسأَلُ عَنِ الدِّينِ**»، أَي: دينِ التوحيدِ.

«**ويَتَّبعُهُ**»، بتشديدِ المُثَنَّاةِ، بعدَها موَحَّدَةٌ، وللكُشميهَنيِّ: بسُكونِ الموَحَّدَةِ، بعدَها مُثَنَّاةٌ مَفتوحَةٌ، ثم غين مُعجَمَةٌ: يَبتَغيهِ، أَي: يَطلُبُهُ»[1].

و«**الشَّأمُ**»:

بهَمزةٍ ساكِنَةٍ، مِثل «رأس»، ويجوز تخفيفُه بحَذفِها، وفيه لُغَةٌ أخرى: «شَآم» بالمَدِّ، والشِّين مَفتُوحَة بلا خِلافٍ[2].

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٤٤).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٣/ ١٧١)، المطلع على ألفاظ المقنع للبعلي (ص٢٠٠).

وقال **الفَيروزآبادي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشَّأمُ: بلادٌ عن مَشأمَةِ القِبلَةِ، وسُمِّيَت لذلك، أو لِأَنَّ قَومًا من بَني كَنعانَ تَشاءَموا إليها، أي: تَياسَروا، أو سُمِّيَ بسامِ بن نوحٍ، فإنَّهُ بالشينِ بالسُّريانيَّةِ، أو لأَنَّ أرضَها شاماتٌ بيضٌ وحُمرٌ وسودٌ، وعلى هذا لا تُهمَزُ، وقد تُذَكَّرُ، وهو شاميٌّ وشآميٌّ وشآمٍ»[1].

قَولُهُ: «فَلَقيَ عالِمًا منَ اليَهودِ، فَسأله عن دينِهِم، فقال: إنِّي لَعَلِّي أَن أَدينَ دينَكُم، فَأَخبرني»:

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَلِمَةُ: «لَعَلَّ» للتَّرَجِّي، تَنصُبُ الِاسمَ، وترفَع الخَبَر، واسمُها -هُنا-: ياءُ المتَكَلِّم، وخَبَرُها قَولُهُ: «أَن أَدينَ»».

قَولُهُ: «فَأَخبرني»، أَي: عَن حالِ دينِكُم، وكَيفيَّتِه»[2].

قَولُهُ: «فقال: لا تَكونُ على دينِنا حتى تَأْخُذَ بنَصيبكَ من غَضَب اللهِ، قال زَيدٌ: ما أَفِرُّ إلا من غَضَب اللهِ، ولا أَحمِلُ من غَضَب اللهِ شَيئًا أَبَدًا، وأَنَّى أَستَطيعُهُ؟»:

قال الكورانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قُلتَ: كيفَ صدَرَ هذا الكلامُ من اليهوديّ؟ قلتُ: كان عالمًا بقُرب البَعثَةِ، ونَسخِ شَرعِهِم، فأَرشَدَهُ إلى الصواب»[3].

واليَهودُ أهلُ لَعنَةِ اللهِ وغَضَبه وسَخَطِه، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الضَّميرُ عائِدٌ إلى اليَهودِ، والخِطابُ معَهُم، كَما دل عليه سياق الكلام»[4].

---

(١) القاموس المحيط (ص ١١٢٥).

(٢) عمدة القاري (١٦/ ٢٨٧).

(٣) الكوثر الجاري (٧/ ٣٨).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧٧).

وذلك بكُفرِهم بآياتِ اللهِ، وقتلِهمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ، وتحريفِهم الكَلِمَ من بعدِ مَواضِعِه، ونَقضِهِم عَهدَ اللهِ وميثاقَه، وقَولِهم على اللهِ بغيرِ عِلمٍ، وقَولِهم: «سَمِعنا وعَصَينا»، وافترائِهم على اللهِ، وقَولِهمُ الإثمَ، وأكلِهِمُ السُّحتَ، وغيرِ ذلك مِمَّا ارتكَبوه منَ الكُفرِ والعِصيانِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال اللهُ تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

عن عَديِّ بن حاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اليَهودُ مَغضوبٌ عليهم، والنصارى ضُلَّالٌ**»(١).

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٥٤)، وصححه الألباني.

وعن عبد اللهِ بن شَقيقٍ، أَنَّهُ أَخبَرَهُ مَن سَمِعَ النبيَّ ﷺ وهو بوادي القُرى، وهو على فَرَسِهِ، وسأله رجلٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ، مَن هَؤُلاءِ؟ قال: «**هَؤُلاءِ المَغضوبُ عليهم**»، وأَشارَ إلى اليَهودِ، قال: فَمَن هَؤُلاءِ؟ قال: «**هَؤُلاءِ الضَّالُّونَ**»، يَعني النصارى[1].

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِأَنَّ اليَهودَ يَعرِفونَ الحقَّ كَما يَعرِفونَ أَبناءَهُم ولا يَتبعونَهُ؛ لِما فيهم من الكِبرِ والحَسَدِ الذي يوجِبُ بُغضَ الحقِّ ومُعاداتَهُ، والنصارى لهم عِبادَةٌ، وفي قُلوبِهِم رَأفَةٌ ورَحمَةٌ ورَهبانيَّةٌ ابتَدَعوها، لكن بلا عِلمٍ، فَهُم ضُلَّالٌ.

هَؤُلاءِ لهم مَعرِفَةٌ بلا قَصدٍ صَحيحٍ، وهَؤُلاءِ لهم قَصدٌ في الخَيرِ بلا مَعرِفَةٍ له، ويَنضَمُّ إلى ذلك: الظَّنُّ، واتِّباعُ الهَوى، فلا يَبقى في الحقيقَةِ مَعرِفَةٌ نافِعَةٌ، ولا قَصدٌ نافِعٌ»[2].

وقد خُصَّ اليَهودُ بغَضَبِ اللهِ، في مُقابَلَةِ اختِصاصِ النصارى بالضَّلالِ، وإلا: فكُلُّ مَن أَشرَكَ باللهِ فهو مَغضوبٌ عليه ضالٌّ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقَولُهُ: «وأَنَّى أَستَطيعُهُ؟»:

قال أبو إسحاقَ الوَهرانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: كَيفَ أُطيقُ غَضَبَ اللهِ سبحانه؟!»[3].

وفي روايةٍ: «وأَنا أَستَطيعُ»

قال الحافظُ: «وأَنا أَستَطيعُ»، أَي: والحالُ أَنَّ لي قُدرَةً على عَدَمِ حَملِ ذلك، كذا للأَكثَرِ بتَخفيفِ النُّونِ، ضَميرِ القائِلِ، وفي روايةٍ: بتشديدِ النُّونِ، بمعنى الاِستِبعادِ»[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٠٣٥١)، وصححه محققو المسند.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٨).

(٣) مطالع الأنوار على صحاح الآثار (١/ ٣٠٢).

(٤) فتح الباري (٧/ ١٤٥).

قَولُهُ: «فَهَل تَدُلُّني على غيرِهِ؟ قال: ما أَعلَمُهُ إلا أَن يكونَ حَنيفًا، قال زَيدٌ: وما الحَنيفُ؟ قال: دينُ إبراهيمَ، لَم يَكُن يَهوديًّا، ولا نَصرانيًّا، ولا يَعبُدُ إلا اللهَ»:

وهذا يوافِقُ قَولَ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

قال النوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَصلُ الحَنَفِ المَيلُ، ويكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، ويَنصَرِفُ إلى ما تَقتَضيهِ القَرينَةُ.

وقال أَبو عُبَيدٍ: «الحَنيفُ عِندَ العَرَب: مَن كان على دينِ إبراهيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(١)].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحَنَفُ: هو إقبالُ القدَمِ ومَيلُها إلى أُختِها، فالحَنَفُ المَيلُ عن الشَّيءِ بالإقبالِ على آخَرَ، فالدِّينُ الحَنيفُ هو الإقبالُ على اللهِ وحدَهُ، والإعراضُ عَمَّا سِواهُ، وهو الإخلاصُ الذي تَرجَمَتهُ كَلِمَةُ الحقِّ والكَلِمَةُ الطيِّبَةُ: «لا إلَهَ إلا اللهُ»[(٢)].

وقال القُرطُبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُمِّيَ إبراهيمُ حنيفًا؛ لِأَنَّه حَنفَ إلى دينِ اللهِ وهو الإسلامُ، والحَنَفُ: المَيلُ، ومنه: رِجلٌ حَنفاءُ، ورجلٌ أَحنَفُ، وهو الذي تَميلُ قدَماهُ كُلُّ واحدَةٍ منهما إلى أُختِها بأَصابعِها.

وقال قَومٌ: الحَنَفُ: الاِستِقامَةُ، فَسُمِّيَ دينُ إبراهيمَ حَنيفًا؛ لِاستِقامَتِهِ، وسُمِّيَ المِعوَجُّ الرِّجلَينِ أَحنَفَ تَفاؤُلًا بالاِستِقامَةِ، كَما قيلَ للَّديغِ سَليمٌ، وللمَهلَكَةِ مَفازَةٌ، في قَولِ أَكثَرِهِم»[(٣)].

وقال ابنُ مَنظورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الأَصمَعيُّ: «الحَنَفُ: أَن تُقبلَ إبهامُ الرِّجلِ اليُمنى على أُختِها منَ اليسرى، وأَن تُقبلَ الأُخرى إلَيها إقبالًا شَديدًا».

---

(١) شرح النووي على مسلم (٦/ ٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٩/ ٣١٩).

(٣) تفسير القرطبي (٢/ ١٣٩-١٤٠).

وقال أَبو عَمرٍو: «الحَنيفُ: المائِلُ من خَيرٍ إلى شَرٍّ، أو من شَرٍّ إلى خَيرٍ».

وحَنَفَ عَنِ الشَّيءِ وتَحَنَّفَ: مالَ.

والحَنيفُ: المسلمُ الذي يَتَحَنَّفُ عَنِ الأَديانِ، أَي يَميلُ إلى الحقِّ.

وقيلَ: هو الذي يَستَقبلُ قِبلةَ البَيتِ الحَرامِ على مِلَّةِ إبراهيمَ، على نبيِّنَا وَعليه الصلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقيلَ: هو المخلِصُ.

وقيلَ: هو مَن أَسلَمَ في أَمرِ اللهِ، فلم يَلتَوِ في شيءٍ.

وقال أَبو زَيدٍ: «الحَنيفُ المستَقيمُ»، وأَنشَدَ:

تَعَلَّـم أَن سَـيَهديكُم إلينا طريقٌ لا يجورُ بكُم حَنيفُ

وقال أَبو عُبَيدَةَ: «مَن كان على دينِ إبراهيمَ فَهو حَنيفٌ عِندَ العَرَب، وكان عَبَدَةُ الأوثانِ في الجاهِليَّةِ يقولونَ: نَحنُ حُنَفاء على دينِ إبراهيمَ، فلما جاءَ الإسلامُ سَمَّوُا المسلمَ حَنيفًا».

وقال الأَخفَشُ: «الحَنيفُ المسلمُ، وكان في الجاهِليَّةِ يُقالُ لِمَن اختَتَنَ وحَجَّ البَيتَ: «حَنيفٌ»؛ لأَن العَرَبَ لَم تَتَمَسَّك في الجاهِليَّةِ بشيءٍ من دينِ إبراهيمَ غيرِ الخِتانِ وحَجِّ البَيتِ، فَكُلُّ مَنِ اختَتَنَ وحَجَّ قيلَ له: «حَنيف»، فلما جاءَ الإسلام عادَتِ الحَنيفيَّةُ، فالحَنيفُ المسلمُ».

وقال الزَّجَّاجُ: «معنى الحَنيفيَّةِ في اللُّغَةِ المَيلُ، والمعنى: أَنَّ إبراهيمَ حَنَفَ إلى دينِ اللهِ ودينِ الإسلامِ، وإنَّما أُخِذَ الحَنَفُ من قَولِهم: رجل أَحنَفُ، ورِجلٌ حَنفاءُ»[1].

قَولُهُ: «فَخرجَ زَيدٌ، فَلَقيَ عالِمًا منَ النصارى، فَذكرَ مِثله، فقال: لَن تَكونَ على ديننا حتى تَأخُذَ بنَصيبكَ من لَعنَةِ اللهِ، قال: ما أَفِرُّ إلا من لَعنَةِ اللهِ، ولا أَحمِلُ من لَعنَةِ اللهِ ولا من غَضَبِهِ شَيئًا أَبَدًا، وأَنَّى أَستَطيعُ؟»:

---

(١) لسان العرب (٩/ ٥٧)، وينظر: التفسير الوسيط، للواحدي (١/ ٢١٨)، تهذيب اللغة (٥/ ٧١).

قال القُرطُبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَصلُ اللَّعنِ في كَلامِ العَرَب: الطردُ والإبعادُ، ويُقالُ للذِّئب: لَعينٌ، وللرَّجُلِ الطريدِ: لَعينٌ»[١].

وقال أبو القاسِمِ الطالقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصلُ اللَّعنِ: الطردُ، ثم يوضَعُ في معنى السَّبِّ والتعذيب، ومنه قَولُهم للمُلوك: «أبَيت اللَّعنَ»، أَي: أبَيتَ ما تَستَحِقُّ له اللَّعنَ»[٢].

وقال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اللَّعنَةُ: الإبعادُ والطردُ منَ الرحمَةِ»[٣].

وقال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَولُهُ: «من لَعنَةِ اللهِ»، المراد من اللَّعنَةِ: إبعادُ اللهِ عبدَهُ من رَحمَتِهِ وطَردُه عَن بابه؛ لِأَنّ اللَّعنَة في اللُّغَةِ الطردُ»[٤].

وقال الكرمانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قُلتَ: هَل لِتَخصيصِ الغَضَب باليَهودِ واللَّعنَةِ بالنصارى فائِدَةٌ؟ قُلتُ: الغَضَبُ أردى منَ اللَّعنَةِ وأشقى، فكان اليَهودُ أحقَّ به؛ لِأَنَّهم أَشَدُّ عَداوةً لأَهلِ الحقِّ»[٥].

وقال ابنُ القيّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اليهودُ أغلظُ كفرًا من النّصارى؛ ولِهذا كان الغَضبُ أخصَّ بِهِم، واللَّعنةُ، والعُقوبةُ؛ فَإنَّ كُفرَهُم عن عِنادٍ وبَغيٍ»[٦].

قَولُهُ: «فَهَل تَدُلُّني على غيرِهِ؟ قال: ما أَعلَمُهُ إلا أَن يكونَ حَنيفًا، قال: وما الحَنيفُ؟ قال: دينُ إبراهيمَ، لَم يَكُن يَهوديًّا، ولا نَصرانيًّا، ولا يَعبُدُ إلا اللهَ»:

كَما قال عالِمُ اليَهودِ سَواءً بسَواءٍ، وهذا يَعني أنَّ عُلَماءَ أهلِ الكِتاب كانوا يَعلَمون أَنّ الحَنيفيَّةَ دينَ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي الدِّينُ الحقُّ، وأنَّهُم على الباطِلِ الذي يَستَحِقُّونَ بِهِ غضَبَ اللهِ ولَعنَتَهُ.

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٥).

(٢) المحيط في اللغة (١/ ٩٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ١٥١).

(٤) عمدة القاري (١٦/ ٢٨٧).

(٥) الكواكب الدراري (١٥/ ٦٣).

(٦) بدائع الفوائد (٢/ ٣٣).

وهذه تَوطِئَةٌ حَسنةٌ، ومُقدِّمةٌ صالِحَةٌ، بينَ يَدَي نُبوَّةِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ.

فما الناسُ قَبله إلا مُشرِكونَ، يعبُدون الأوثانَ، ويَدعونها من دونِ اللهِ، ويذبَحون لها وعلى اسمِها، أو يُهودٌ مغضوبٌ عليهم، أو نَصارى ضالُّون، فما يَستحِقُّون إلا المَقتَ منَ اللهِ والغَضَب، فمن رَحمَتِه سبحانه أن أرسَلَ إليهِم رسولًا، أمَّا المشرِكون: فيَعرِفونه بما خَبَروه من صِدقِه وأمانَتِه، وأمَّا أهلُ الكتاب: فيعرفونَه بما عندَهم من العِلمِ، وبما لهم فيه من الأماراتِ والعلاماتِ.

وفي الحديثِ عن عياضِ بن حِمارٍ المجاشِعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال ذاتَ يومٍ في خُطبَتِهِ: «**أَلا إنَّ رَبِّي أَمَرَني أَن أُعَلِّمَكُم ما جَهِلتُم، مِمَّا عَلَّمَني يَومي هذا:**

كُلُّ مالٍ نَحَلتُهُ عبدًا حَلالٌ، وإنِّي خَلَقتُ عِبادي حُنَفاءَ كُلَّهُم، وإنَّهُم أَتَتهُمُ الشَّياطينُ فاجتالَتهُم[1] عن دينِهِم، وحَرَّمَت عليهم ما أَحلَلتُ لهم، وأَمَرَتهُم أَن يُشرِكوا بي ما لَم أُنزِل بِهِ سُلطانًا.

وإنَّ اللهَ نَظَرَ إلى أَهلِ الأَرضِ، فَمَقَتَهُم[2]، عَرَبَهُم وعَجَمَهُم، إلا بَقايا من أَهلِ الكِتاب، وقال: «إنَّما بَعَثتُكَ لِأَبتَلِيَكَ وأَبتَلِيَ بكَ، وأَنزَلتُ عليكَ كِتابًا لا يَغسِلُهُ الماءُ، تَقرَؤُهُ نائِمًا ويَقظانَ[3]»[4].

قَولُهُ: «فلما رَأى زَيدٌ قَولهم في إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خرجَ، فلما بَرَزَ رَفَعَ يَدَيهِ، فقال: اللهُمَّ إنِّي أَشهَدُ أَنِّي على دينِ إبراهيمَ»:

«فلما بَرَزَ»، أَي: خارِجَ أَرضِهِم[5].

---

(١) أي: استخفتهم، فجالوا معهم في الضلال، يقال: جال واجتال: إذا ذهب وجاء. النهاية (١/ ٣١٧).

(٢) المقت: أشد البغض.

(٣) قال النووي: قوله تعالى: «لا يغسله الماء»، معناه: محفوظ فى الصدور، لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على مر الأزمان. وأما قوله تعالى: «تقرؤه نائمًا ويقظان»، فقال العلماء: «معناه: يكون محفوظًا لك فى حالتي النوم واليقظة»، وقيل: تقرؤه في يسر وسهولة». شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٩٨).

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٥) فتح الباري (٧/ ١٤٥).

لَمَّا تَحقَّقَ أنَّ قومَه من أهلِ الشِّركِ، وأهلَ الكتاب على غيرِ هُدى، وأنَّ دينَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الدِّينُ: أشهَدَ اللهَ أنَّه على دينِ إبراهيمَ.

زادَ أبو نُعَيمٍ، وابنُ عَساكِر: «عليه أَحيا، وعليه أَموتُ».

وهذا يَعني أنّه رَحِمَهُ اللَّهُ كان على بَيِّنَةٍ من أمرِهِ؛ لما تَحقَّقَ بُطلانَ وفَسادَ ما عليه قومُه، وما عليه اليَهودُ والنّصارى.

***

فصلٌ

في ذِكرِ جُملَةٍ منَ الأخبارِ الواردةِ عن زيد بن عَمرِو بن نُفَيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وما كان من أمرِه:

ومنها الصحيحُ، ومنها غيرُ الصحيحِ، وهي في الجُملةِ يَشهَدُ بعضُها لبَعضٍ، ولا تَخرُجُ في الجُملَة عَمَّا ورَدَ في الصحيحِ من خَبَرِه.

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَخَلتُ الجنةَ فَرَأَيتُ لِزَيدِ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ دَرَجَتَينِ**»(١).

وعن زَيدِ بن حارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَقبَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسيرُ، وهو مُرْدِفٍ في يَومٍ حارٍّ من أَيَّامِ مكةَ، حتى إذا كُنَّا بأَعلى الوادي لَقيَهُ زَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ، فَحَيَّا أَحَدُهُما الآخَرَ، فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما لِي أَرى قَومَكَ قد شَنَفوكَ؟**(٢)»، فقال: أَمَا واللهِ إنَّ ذلك لَبغيرِ نائِرَةٍ(٣) كانت مِنِّي إليهم، ولكنِّي أَراهُم على ضَلالَةٍ، فَخرجتُ أَبتَغي

---

(١) رواه ابن عساكر (١٩/ ٥١٢)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٣٢٧): «إسناد جيد»، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٤٠٦). ويروى: «دوحتين»، بدل «درجتين»، قال المناوي في فيض القدير (٣/ ٥١٨): «درجتين»، أي: منزلتين عظيمتين؛ لكونه آمن بعيسى، ثم آمن بمحمد، وفي رواية: «دوحتين»، أي: شجرتين عظيمتين».

(٢) أي: أبغضوك.

(٣) أي: فتنة وعداوة.

هذا الدِّينَ، حتى قدِمتُ على أَحبارِ يَثرِبَ، فَوَجَدتُهُم يَعبُدونَ اللهَ ويُشرِكونَ بِهِ، قُلتُ: ما هذا بالدِّينِ الذي أَبتَغي، فَخرجتُ حتى أَقدَمَ على أَحبارِ خَيبَرَ، فَوَجَدتُهُم يَعبُدونَ اللهَ ويُشرِكونَ بِهِ، فَقُلتُ: ما هذا بالدِّينِ الذي أَبتَغي، فَخرجتُ حتى قدِمتُ على أَحبارِ فَدَكٍ، فَوَجَدتُهُم يَعبُدونَ اللهَ ويُشرِكونَ بِهِ، فَقُلتُ: ما هذا بالدِّينِ الذي أَبتَغي، فخرجتُ حتى أَقدَم على أَحبارِ أَيلَةَ، فَوَجَدتُهُم يَعبُدونَ اللهَ ويُشرِكونَ بِهِ، فَقُلتُ: ما هذا بالدِّينِ الذي أَبتَغي.

فقال لي حَبرٌ من أَحبارِ الشَّامِ: «إنَّكَ تَسأَلُ عن دينٍ ما نَعلَمُ أَحَدًا يَعبَدُ اللهَ بِهِ، إلا شَيخًا بالجَزيرَةِ»، فَخرجتُ، فقدِمتُ عليه، فَأَخبَرتُهُ بالذي خرجتُ له، فقال: «إنَّ كُلَّ مَن رَأَيتَ في ضَلالٍ، إنَّكَ تَسأَلُ عن دينٍ هو دينُ اللهِ ودينُ مَلائِكَتِهِ، وقد خرجَ في أَرضِكَ نبيٌّ -أو هو خارِجٌ-، يَدعو إليه، ارجِع فَصَدِّقهُ، واتَّبعهُ، وآمن بما جاءَ بِهِ»، فلم أُحِسَّ نبيًّا بعدُ.

وأَناخَ رسولُ اللهِ ﷺ البَعيرَ الذي تَحتَهُ، ثم قدَّمنا إليه السُّفرَةَ التي كان فيها الشِّواءُ، فقال: إنِّي لا آكلُ شَيئًا ذُبحَ لِغيرِ اللهِ، ثم تَفَرَّقنا.

وكان صَنَمانِ من نُحاسٍ، يُقالُ لهما: إساف ونائِلَةُ[1]، فَطافَ رسولُ اللهِ ﷺ، وطُفتُ معه، فلما مَرَرتُ مَسَحتُ بِهِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تَمَسَّهُ**»، وطُفنا، فَقُلتُ في نَفسي: لَأَمَسَّنَّهُ أَنظُرُ ما يقولُ، فَمَسَحتُهُ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تَمَسَّهُ، أَلَم تُنهَ؟**»، قال: فَوالذي أَكرَمَهُ وأَنزَلَ عليه الكِتابَ، ما استَلَمَ صَنَمًا حتى أَكرَمَهُ بالذي أَكرَمَهُ وأَنزَلَ عليه الكِتابَ.

قال: وماتَ زَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ قَبلَ أَن يُبعَثَ النبيُّ ﷺ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يَأتي يَومَ القيامَةِ أُمَّةً وحدَهُ**»[2].

---

(١) كان إساف ونائلة -فيما يقال- رجلًا وامرأةً من جرهم، فزنيا داخل الكعبة، فمسخهما الله حجرين، فنصبا عند الكعبة؛ ليتعظ الناس بهما، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها. ينظر: كتاب الأصنام لابن الكلبي (ص٢٩)، شرح النووي على مسلم (٩/ ٢٢)، إغاثة اللهفان (٢/ ٢١٥).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (٨١٣٢)، والحاكم في المستدرك (٤٩٥٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٥/ ٨٦)،=

وعن عامِرِ بن رَبيعَةَ، قال: لَقيتُ زَيدَ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ، وهو خارِجٌ من مكةَ يُريدُ حِراءً، وأَنا داخِلٌ مكةَ، فإذا هو قد كان بينَهُ وبينَ قَومِهِ شيءٌ في صَدرِ النهارِ؛ لِما أَظهَرَ من خِلافِهِم، واعتَزَلَ آلِهَتَهُم، وما كان يَعبُدُ آباؤُهُم، فقال: «يا عامِر بن رَبيعَةَ، إنِّي قد فارَقتُ قَومي، واتَّبَعتُ مِلَّةَ إبراهيمَ، وما كان يَعبُدُ إسماعيلُ من بعدِهِ، كان يُصَلِّي إلى هذه البنيَةِ، وأَنا انتَظَرُ نبيًّا من ولَدِ إسماعيلَ ﷺ، وما أُراني أُدرِكُهُ، وأَنا أومِنُ بِهِ، وأُصَدِّقُ بِهِ، وأَشهَدُ أَنَّهُ نبيٌّ، فَإن طالَ بكَ يا عامِر مُدَّةٌ، فَآمن بِهِ»(١).

وعن سَعيدِ بن زَيدِ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ رضي الله عنه: «أَنَّ زَيدَ بن عَمرٍو ووَرَقَةَ بنَ نَوفَلٍ خرجا يَلتَمِسانِ الدِّينَ، حتى انتَهَيا إلى راهِبٍ بالمَوصِلِ، فقال لِزَيدِ بنِ عَمرٍو: من أَينَ أَقبَلتَ يا صاحِبَ البَعيرِ؟ قال: من بَيتِ إبراهيمَ، قال: وما تَلتَمِسُ؟ قال: أَلتَمِسُ الدِّينَ، قال: ارجِع؛ فَإِنَّهُ يوشِكُ أَن يَظهَرَ الذي تَطلُبُ في أَرضِكَ.

فَأَمَّا ورَقَةُ: فَتَنَصَّرَ، قال زَيدٌ: وأَمَّا أَنا: فَعُرِضَت عَلَيَّ النصرانيَّةُ فلم توافِقني، فرجعَ وهو يقولُ: «لَبَّيكَ حقًّا حقًّا .. تَعَبُّدًا وَرِقًّا

آمَنتُ بما آمَنَ بِهِ إبراهيمُ».

ثم يَخِرُّ، فَيَسجُدُ.

قال: وجاءَ ابنُهُ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أَبي كان كَما رَأَيتَ، وكَما بلغَكَ، فاستَغفِر له، قال: «**نَعَم؛ فَإِنَّهُ يَومَ القيامَةِ أُمَّةٌ وحدَهُ**»(٢).

= والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٢٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩/ ٣٤٥)، وصححه ابن تيمية في الجواب الصحيح (٥/ ١٦٧)، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٣/ ٢٠٧): «رجاله ثقات»، وقد تقدم الكلام عليه.

(١) رواه الفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٥٣) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٩٠)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (ص١٠٠).

(٢) رواه الطيالسي (٢٣١)، ومن طريقه أبو نعيم في المعرفة (٥٥٠)، وكذا البيهقي في الدلائل (٢/ ١٢٤)، وابن عساكر في التاريخ (١٩/ ٤٩٩)، وكذا رواه الطبراني في الكبير (١/ ١٥١)، ومن طريقه الضياء في المختارة (١١١١)، وفي إسناده ضعف.

وعن عبدِ الرحمَنِ بن زَيدِ بن الخَطَّاب، قال: قال زَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ: «شامَمتُ النصرانيَّةَ واليَهوديَّةَ[1] فكَرِهتُهُما، فكُنتُ بالشَّامِ وما والاهُ، حتى أَتَيتُ راهِبًا في صَومعةٍ، فَوَقَفتُ عليه، فَذكرتُ له اغتِرابي عن قَومي، وكَراهَتي عِبادَةَ الأوثانِ واليَهوديَّةَ والنصرانيَّةَ، فقال لي: «أَراكَ تُريدُ دينَ إبراهيمَ، يا أَخا أَهلِ مكةَ، إنَّكَ لَتَطلُبُ دينًا ما يُؤخَذُ اليَومَ بهِ، وهو دينُ أَبيكَ إبراهيمَ، كان حَنيفًا، لَم يَكُن يَهوديًّا، ولا نَصرانيًّا، كان يُصَلِّي ويَسجُدُ إلى هذا البَيتِ الذي ببلادِكَ، فالحق ببَلَدِكَ؛ فَإنَّ نبيًّا يُبعَثُ من قَومِكَ في بَلَدِكَ، يَأتي بدينِ إبراهيمَ، بالحَنيفيَّةِ، وهو أَكرَمُ الخَلقِ على اللهِ»[2].

وعن أَسماءَ بنتِ أَبي بكرٍ، قالت: رَأَيتُ زَيدَ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ وهو مُسنِدٌ ظَهرَهُ إلى الكَعبَةِ، وهو يقولُ: «ما منكُمُ اليَومَ أَحَدٌ على دينِ إبراهيمَ غيري»، وكان يقولُ: «إلَهي إله إبراهيمَ، وديني دينُ إبراهيمَ».

قالت: وَذكرَهُ النبيُّ ﷺ، فقال: «**يُبعَثُ يَومَ القيامَةِ أُمَّةً وحدَهُ، بيني وبينَ عيسى**»[3].

وفي لَفظٍ: «لَقد رَأَيتُ زَيدَ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ قائِمًا مُسنِدًا ظَهرَهُ إلى الكَعبَةِ، يقولُ: «يا مَعشَرَ قريشٍ، ما منكُمُ اليَومَ أَحَدٌ على دَينِ إبراهيمَ غيري».

وكان يُحيي المَوءودَةَ، يقولُ للرَّجُلِ إذا أَرادَ أَن يَقتُلَ ابنَتَهُ: «مَهلًا، لا تَقتُلها، أَنا أَكفيكَ مَؤونَتَها»، فَيَأخُذُها، فإذا تَرعرَعَت قال لِأَبيها: «إن شِئتَ دَفَعتُها إليك، وإن شِئتَ كَفَيتُكَ مَؤونَتَها»[4].

ورواه ابنُ أبي عاصِمٍ فأَتَمَّه، قال: حَدَّثَنا الحَسَنُ بن عَليٍّ، ثنا أَبو أُسامَةَ، ثنا هِشامُ بن

---

(١) أي: استخبرتهما.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٢٨)، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخه (١٩/ ٤٩٨).

(٣) رواه النسائي في الكبرى (٨١٣١)، وابن عساكر في تاريخه (١٩/ ٥٠٦)، ورواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٧٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٠٤)، من حديث جابر، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٣٢٦): «إسناده جيد حسن».

(٤) رواه البخاري معلقا (٣٨٢٨)، والحاكم (٥٨٥٩)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين».

عُروَةَ، عن أَبيهِ، عن أَسماءَ بنتِ أَبي بكرٍ، قالت: رَأَيتُ زَيدَ بن عَمرِو بنِ نُفَيلٍ وهو مُسندٌ ظَهرَهُ إلى الكَعبَةِ يقولُ: «يا مَعشَرَ قريشٍ، ما منكُمُ اليَومَ أَحَدٌ على دينِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ غيري»، وكان يُصَلِّي في الكَعبَةِ ويقولُ: «إلَهي إله إبراهيمَ، وديني دينُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

وكان يُحيي المَوءودَةَ، فَيقولُ للرَّجُلِ إذا أَرادَ أَن يَقتُلَ ابنَتَهُ: «لا تَقتُلها، إلَيَّ، فَأَنا أَكفيكَ مَؤونَتَها»، حتى إذا تَرَعرَعَت قال: «إن شِئتَ فَخُذها الآنَ، وإن شِئتَ فَدَعها، أَكفيكَ مَؤونَتَها».

وسُئِلَ عنه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**يُبعَثُ يَومَ القيامَةِ أُمَّةً وحدَهُ**»[1].

وقال ابنُ إسحاقَ: حَدَّثَني هِشامُ بن عُروَةَ، عن أَبيهِ، عن أُمِّهِ أَسماءَ بنتِ أَبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لَقد رَأَيتُ زَيدَ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ شَيخًا كَبيرًا، مُسنِدًا ظَهرَهُ إلى الكَعبَةِ، وهو يقولُ: «يا مَعشَرَ قريشٍ، والذي نَفسُ زَيدِ بن عَمرٍو بيَدِهِ، ما أَصبَحَ منكُم أَحَدٌ على دينِ إبراهيمَ غيري»، ثم يقولُ: «اللهمّ لَو أَنِّي أَعلَمُ أَيَّ الوُجوهِ أَحَبُّ إليك عَبَدتُكَ بِهِ، ولكنِّي لا أَعلَمُهُ»، ثم يَسجُدُ على راحَتِهِ[2].

***

فصلٌ

كان وأدُ البَناتِ من أفعالِ أهلِ الجاهِليَّة الشَّنيعَةِ، ومن تمامِ جَهلِهِم باللهِ، وكُفرِهم بنِعمَتِه، ومِمَّا يَدُلُّ على ما كانوا عليه من الجاهِليَّةِ والظُّلم والفَسادِ، فلا عَقلَ، ولا خُلُقَ، ولا دَينَ، ولا رحمةَ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

---

(١) الآحاد والمثاني (٧٧١).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٥)، وسنده جيد.

وعَنِ المغيرَةِ بن شُعبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حَرَّمَ عليكُم عُقوقَ الأُمَّهاتِ، ووَأدَ البَناتِ، ومَنعًا وهاتِ**»(١).

قال النوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأد البَناتِ» -بالهَمزِ- هو دَفنُهُنَّ في حَياتِهِنَّ، فَيَمُتنَ تَحتَ التُّراب، وهو منَ الكَبائِرِ الموبقاتِ؛ لِأَنَّهُ قَتلُ نَفسٍ بغيرِ حقٍّ، ويَتَضَمَّنُ -أَيضًا- قَطيعَةَ الرحِمِ، وإنَّما اقتَصَرَ على البَناتِ؛ لِأَنَّهُ المعتادُ الذي كانتِ الجاهِليَّةُ تَفعَلُهُ»(٢).

وقال الحافظُ: «وأدُ البَناتِ» بسُكونِ الهَمزَةِ، هو دَفنُ البَناتِ بالحَياةِ، وكان أَهلُ الجاهِليَّةِ يَفعَلونَ ذلك؛ كَراهَةً فيهنَّ.

ويُقالُ: إنَّ أَوَّلَ مَن فَعَلَ ذلك: قَيسُ بن عاصِمٍ التميميُّ، وكان بَعضُ أَعدائِهِ أَغارَ عليه، فَأَسَرَ بنتَهُ، فاتَّخَذَها لِنَفسِهِ، ثم حَصَلَ بينهم صُلحٌ، فَخَيَّرَ ابنَتَهُ، فاختارَت زَوجَها، فَآلى قَيسٌ على نَفسِهِ أَن لا تولَدَ له بنتٌ إلا دَفَنَها حَيَّةً، فَتبعَهُ العَرَبُ في ذلك.

وكان منَ العَرَب فَريقٌ ثانٍ يَقتُلونَ أولادَهُم مُطلَقًا؛ إمَّا نَفاسَةً منه على ما يَنقُصُهُ من مالِهِ، وإمَّا من عَدَمِ ما يُنفِقُهُ عليه، وقد ذكرَ اللهُ أَمرَهُم في القُرآنِ في عِدَّةِ آياتٍ.

وكان صَعصَعَةُ بن ناجيَةَ التميميّ -وهو جَدُّ الفَرَزدَقِ هَمَّامِ بن غالِبِ بن صَعصَعَةَ- أَوَّلَ مَن فَدى المَوءودَةَ، وذلك أَنه يَعمِدُ إلى مَن يُريدُ أَن يَفعَلَ ذلك، فَيَفديَ الوَلَدَ منه بمالٍ يَتَّفِقانِ عليه، وإلى ذلك أَشارَ الفَرَزدَقُ بقَولِهِ:

وجَـدِّي الذي مَنَعَ الوائِدا تِ وأَحيا الوَئيدَ فلم يوأَدِ

وهذا مَحمولٌ على الفَريقِ الثَّاني، وقد بَقيَ كُلٌّ من قَيسٍ وصَعصَعَةَ إلى أَن أَدرَكا الإسلامَ، ولهما صُحبَةٌ، وإنَّما خَصَّ البَناتِ بالذِّكرِ؛ لِأَنَّهُ كان الغالِبَ من فِعلِهِم؛ لِأَنَّ الذُّكورَ مَظِنَّةُ القُدرَةِ على الاِكتِساب.

وكانوا في صِفَةِ الوَأدِ على طَريقَينِ، أَحَدُهُما: أَن يَأمُرَ امرَأَتَهُ إذا قَرُبَ وضعُها أَن تطلقَ

(١) رواه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٢).

بجانِب حَفيرَةٍ، فإذا وضَعَت ذكرًا أَبقَتهُ، وإذا وضَعَت أُنثى طَرَحَتها في الحَفيرَةِ، وهذا أَليَقُ بالفَريقِ الأوَّلِ.

ومنهم مَن كان إذا صارَتِ البنتُ سُداسيَّةً[١] قال لأُمِّهَا: «طَيِّبيها وزَيِّنيها؛ لأَزُورَ بها أَقارِبَها»، ثم يَبعُدُ بها في الصحراءِ، حتى يَأتيَ البئرَ، فَيقول لها: «انظُري فيها»، ويَدفَعُها من خَلفِها ويطمُّها، وهذا اللَّائِقُ بالفَريقِ الثَّاني»[٢].

وقال **القُرطُبيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا يَدفِنونَ بَناتِهم أَحياءً؛ لِخَصلَتَينِ: إحداهُما: كانوا يقولونَ: «إنَّ المَلائِكَةَ بَناتُ اللهِ؛ فَأَلحِقوا البَناتِ بِهِ»[٣].

الثَّانيَةُ: إمَّا مَخافَةَ الحاجَةِ والإملاقِ، وإمَّا خوفًا منَ السَّبيِ والإسترقاقِ»[٤].

وقال **أبو الفُتوحِ الهَمذانيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان الواحدُ منهم إذا وُلِدَ له ابنٌ تَرَكَه، وإذا وُلدَت له ابنَةٌ دفَنَها حَيَّةً.

وقيلَ: كانتِ المرأةُ إذا أخذَها المَخاضُ حَفَرَت حَفيرَةً وجَلَسَت عليها، فإن ولَدَتِ ابنًا حَبسَتهُ، وإن ولَدت بنتًا ألقَتها في الحَفيرَةِ.

وإنَّما حمَلَهم على ذلك خشيَةُ الإملاقِ، ودَفعُ العارِ، والأَنَفَة على أنفُسِهم»[٥].

وقولُه عن زيدٍ: «وكان يُحيي المَوءودَةَ»:

قال الكرمانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإحياءُ: مَجازٌ عنِ الإبقاءِ ودَفعِ الهَلاكِ، كَما أنَّ المرادَ منَ المَوؤُدةِ مَن يُقصَدُ وأدُها»[٦].

---

(١) أي صار لها ست سنوات.

(٢) فتح الباري (١٠/ ٤٠٦-٤٠٧).

(٣) زاد ابن أبي زمنين في تفسيره (٥/ ٩٩): «فهو أحق بهن».

(٤) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٣٢).

(٥) كتاب الأربعين في إرشاد السائرين (ص٢١٩).

(٦) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١٥/ ٦٤).

وقال **الكورانيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجهُ إحيائِها: أنَّه كان يُخَلِّصُها منَ القَتلِ»[١].

وقال **الحافظُ**: «قَولُهُ: «**وكان يُحيي المَوءودَةَ**»: هو مَجازٌ، والمرادُ بإحيائِها إبقاؤُها، ووَقَعَ في روايةِ ابن أَبي الزِّنادِ: «وكان يَفتَدي المَوءودَةَ أَن تُقتَلَ».

و«المَوءودَة»: مَفعولَةٌ من وأَدَ الشَّيءَ، إذا أَثقَلَ، وأُطلقَ عليها اسمُ الوَأدِ؛ اعتِبارًا بما أُريدَ بها وإن لَم يَقَع، وكان أَهلُ الجاهِليَّةِ يَدفِنونَ البَناتِ وهُنَّ بالحَياةِ، ويُقالُ: كان أَصلُها منَ الغيرَةِ عليهنَّ...

وأَكثَرُ مَن كان يَفعَلُ ذلك منهم منَ الإملاقِ، كَما قال اللهُ تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ**﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقِصَّةُ زَيدٍ هذه تَدُلُّ على هذا المعنى الثَّاني، فَيَحتَمِلُ أَن يكونَ كُلُّ واحدٍ منَ الأَمرَينِ كان سَبَبًا»[٢].

فكان زَيدُ بن عَمرٍو رَحِمَهُ ٱللَّهُ موافِقًا للحَنيفيَّةِ في نَبذِ الشِّركِ، وتَوحيدِ اللهِ، وتَحريمِ الوَأدِ، وتخليصِ المَوؤودةِ، وقد جاءَت شريعَةُ الإسلامِ بتَحريمِ وأدِ البناتِ، كَما تَقدَّم.

كما جاءَت بالوَصيَّةِ بالبناتِ، والحَثِّ على حُسنِ تَربيَتِهنَّ، وإعالَتِهنَّ:

فعن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: دَخَلَتِ امرَأَةٌ معها ابنَتانِ لها تَسأَلُ، فلم تَجِد عِندي شَيئًا غيرَ تَمرَةٍ، فَأَعطَيتُها إيَّاها، فَقَسَمَتها بينَ ابنَتَيها، ولَم تَأكُل منها، ثم قامَت، فَخرجَت، فَدَخَلَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا، فَأَخبَرتُهُ، فقال: «**مَنِ ابتُلِيَ من هذه البَناتِ بشيءٍ كُنَّ له سِترًا منَ النارِ**»[٣].

وعن أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن عالَ جاريَتَينِ**[٤] **حتى تَبلُغا، جاءَ يَومَ القيامَةِ أَنا وهوَ**»، وضَمَّ أَصابعَهُ[٥].

---

(١) الكوثر الجاري (٧/ ٣٨).

(٢) فتح الباري (٧/ ١٤٥).

(٣) رواه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩).

(٤) قال الصنعاني: «أي: قام بكفايتهما، وتربيتهما، ومصالحهما، والمراد: بنتين له، أو أعم من ذلك». التنوير (١٠/ ٣٠٧).

(٥) رواه مسلم (٢٦٣١).

وعَنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من رجلٍ تُدرِكُ له ابنَتانِ، فَيُحسِنُ إليهما ما صَحِبَتاهُ - أو صَحِبَهُما -، إلا أَدخَلَتاهُ الجنةَ**»(١).

وعن عُقبَةَ بن عامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**مَن كان له ثَلاثُ بَناتٍ فَصَبَرَ عليهنَّ، وأَطعَمَهُنَّ وسَقاهُنَّ وكَساهُنَّ من جِدَتِهِ(٢)، كُنَّ له حِجابًا منَ النارِ يومَ القيامَةِ**»(٣).

ومن جُملَةِ ما كان عليه زَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ منَ الشَّمائِلِ الحَسَنةِ:

تَجَنُّبُه الدَّنايا والفَواحِشَ التي كان عليها أهلُ الجاهِليَّةِ، ومنها الزِّنا، فقد كان يَنهى الناسَ عن فِعلِ الفاحِشةِ، ومُقارَفَةِ هذا المنكَرِ.

فعن أَسماءَ بنتِ أَبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالتَ: رَأَيتُ زَيدَ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ شَيخًا كَبيرًا، مُسنِدًا ظَهرَهُ إلى الكَعبَةِ، يقولُ: «ويحَكُم مَعاشِرَ قريشٍ! إيَّاكُم والزِّنا؛ فَإِنَّهُ يورِثُ الفَقرَ»(٤).

فكان رَحِمَهُ اللَّهُ يَدينُ بالتوحيدِ، ويَدعو إليه، ويَنهى عنِ الشِّركِ، ويُخاطِبُ عُقولَ أهلِ الجاهِليَّةِ، ويَعيبُ عليهم دينَهُم، ويُسَفِّهُ آلِهَتَهُم، ويُنكِرُ عبادَتَهُم الأوثانَ، وذَبحَهُم الذبائحَ على اسمِها، وقُربانًا لها.

كَما كان يَأمُرُ بالبرِّ والتقوى، ويَنهى عَنِ الفَحشاءِ والمنكَرِ، ويَحُثُّ على صَنائِعِ المَعروفِ، ويُحَذِّر من عذاب الآخِرةِ، ويَسأَلُ اللهَ المَغفرةَ.

قال محمدُ بن إسحاقَ: حَدَّثَني هِشامُ بن عُروَةَ، قال: رَوى أَبي، أَنَّ زَيدَ بن عَمرٍو قال:

أَرَبًّا واحِدًا أَم أَلفَ رَبٍّ ... أَدِينُ إذا تقسّمَتِ الأُمورُ؟

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٧٠)، وأحمد (٢١٠٤)، وحسنه محققو المسند لغيره.

(٢) أي: من غناه.

(٣) رواه ابن ماجه (٣٦٦٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦)، وأحمد (١٧٤٠٣)، وصححه محققو المسند.

(٤) رواه أبو نعيم في المعرفة (٣/ ١١٣٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩/ ٥١٢)، وإسناده محتمل للتحسين في مثل هذا. أما حديث: «الزنا يورث الفقر» فباطل، ينظر: الضعيفة (١٤٠).

عَزَلـتُ اللَّاتَ والعُزَّى جَميعًا ... كذلـك يَفعَـلُ الجَلـدُ الصبورُ
فلا العُـزَّى أَديـنُ ولا ابنَتَيهـا ... ولا صَنَمَـي بَنـي عَمـرٍو أَزورُ
ولا هُـبَلًا أَديـنُ وكان رَبًّـا ... لَنـا في الدَّهـرِ إذ حِلمـي يَسيرُ
عَجِبـتُ وفي اللَّيالي مُعجباتٌ ... وَفي الأَيَّـامِ يَعرِفُهـا البَـصيرُ
بـأَنَّ اللهَ قـد أَفنـى رِجـالًا ... كَـثيرًا كان شَـأنَهُمُ الفُجـورُ
وأَبقـى آخَريـنَ ببرِّ قَـومٍ ... فَيَربـو منهـمُ الطِّفـلُ الصـغيرُ
وبينـا المَـرءُ يَعثُـرُ ثـابَ يَومًـا ... كَما يَتَرَوَّحُ الغُصـنُ النّـضيرُ
ولكـن أَعبُـدُ الرحمَـنَ رَبِّي ... ليَغفِـرَ ذَنبـيَ الـربُّ الغَفـورُ
فَتَقـوى اللهِ رَبِّكُـمُ احفَظوها ... مَتـى مـا تَحفَظوهـا لا تَبـوروا
تَـرى الأَبـرارَ دارهُـمُ جِنـانٌ ... وللكُفَّـارِ حاميَـةٌ سَـعيرُ
وخِزيٌ في الحَيـاةِ وإن يَموتوا ... يُلاقوا ما تَضيقُ بِهِ الصدورُ[1]

قال ابنُ كَثيرٍ: هذا تَمامُ ما ذكرَهُ محمدُ بن إسحاقَ من هذه القَصيدَةِ.

وقد رواهُ أَبو القاسِمِ البَغَويُّ، عن مُصعَب بن عبدِ اللهِ، عَنِ الضَّحَّاكِ بن عُثمانَ، عن عبدِ الرحمَنِ بن أَبي الزِّنادِ، قال: قال هِشامُ بن عُروَةَ، عن أَبيهِ، عن أَسماءَ بنتِ أَبي بكرٍ، قالت: قال زَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ:

عَزَلـتُ الجِـنَّ والجِنَّـانَ عَنِّـي ... كذلـك يَفعَـلُ الجَلـدُ الصبـورُ
فلا العُـزَّى أَديـنُ ولا ابنَتَيهـا ... ولا صَنَمَـي بَنـي طَسـمٍ أُديـرُ
ولا غُـنمًا أَديـنُ وكان رَبًّـا ... لَنـا في الدَّهـرِ إذ حِلمـي صَـغيرُ
أَرَبًّـا واحـدًا أَم أَلـفَ رَبٍّ ... أَديـنُ إذا تقسّـمَتِ الأُمـورُ؟
أَلَم تَعلَـم بـأَنَّ اللهَ أَفنـى ... رِجـالًا كان شَـأنَهُمُ الفُجـورُ
وأَبقـى آخَريـنَ ببرِّ قَـومٍ ... فَيَربـو منهـمُ الطِّفـلُ الصـغيرُ
وبينـا المَـرءُ يَعثُـرُ ثـابَ يَومًـا ... كَما يَتَرَوَّحُ الغُصـنُ النـضيرُ

---

(١) سيرة ابن إسحاق (ص١١٧)، البداية والنهاية (٣/ ٣٢٨-٣٢٩).

قالت: فقال ورَقَةُ بن نوفَلٍ:

رَشَدتَ وأَنعَمتَ ابنَ عَمرٍو وإنَّما ... تَجَنَّبتَ تَنُّورًا مـنَ النـارِ حاميًـا
بدينِـكَ رَبًّـا ليـس رَبٌّ كَمِثلِـهِ ... وتَـركِكَ أوثـانَ الطواغي كَما هيا
أَقـولُ إذا أُهبطـتُ أَرضًـا مَخوفَـةً ... حَنانَيـكَ لا تُظهِـر عَلَيَّ الأَعاديـا
حَنانَيكَ إنَّ الجِنَّ كانت رَجاءَهُم ... وأَنـتَ إلَهـي رَبَّنـا ورَجائيـا
وقـد تُـدرِكُ الإنسـانَ رَحمَـةُ رَبِّـهِ ... ولو كان تَحتَ الأَرضِ سَبعينَ واديًا
أَديـنُ لِـرَبٍّ يَسـتَجيبُ ولا أَرى ... أَديـنُ لِمَن لا يَسـمَعُ الدَّهـرَ داعيًا
أَقـولُ إذا صَلَّيـتُ في كُلِّ بَيعَـةٍ ... تَبارَكتَ قد أَكثَرتُ باسمِكَ داعيًا[1]

***

فصلٌ

هَل يُعَدُّ زَيدُ بن عَمرِو بن نُفَيلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحابَةِ؟

الصحابيُّ: هو مَن لَقيَ أو رأى النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤمِنًا بهِ، ومات على الإسلامِ[2].

وزَيدُ بن عَمرٍو لَقيَ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآمَنَ به، لكِن قَبلَ أَن يُبعَثَ، فهَل يُعَدُّ في الصحابةِ؟

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكَرَه البغَويُّ، وابنُ مَندَه، وغيرُهما في الصحابَةِ[3]، وفيه نَظَرٌ؛ لِأَنَّه ماتَ قَبلَ البَعثَةِ بخَمسِ سِنينَ، ولكِنَّه يَجيءُ على أَحَدِ الِاحتمالَين في تعريفِ الصحابيِّ، وهو أَنَّه مَن رأى النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مُؤمِنًا به: هَل يُشتَرَطُ في كَونِه مُؤمِنًا به أن تَقَع رُؤيَتُه لَه بعدَ البَعثَةِ، فيؤمن به حينَ يَراهُ أو بعدَ ذلك، أو يَكفي كَونُه مُؤمِنًا به أَنَّه سَيُبعَثُ، كَما في قِصّةِ هذا وغيرِه؟»[4].

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٣٢٩-٣٣٠)، وينظر: معجم الصحابة للبغوي (٢/ ٤٤٥)، تاريخ دمشق (١٩/ ٥١٤).
(٢) ينظر: نزهة النظر لابن حجر (ص١١١)، فتح المغيث للسخاوي (٤/ ٧٨)، تدريب الراوي للسيوطي (٢/ ٦٦٧).
(٣) وذكر بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٦/ ٢٨٥) أن الذهبي ذكره في «تجريد الصحابة».
(٤) الإصابة (٢/ ٥٠٧).

فمَن لَقيَ النبيَّ ﷺ مُؤمنًا به، هَل يُشترَطُ لثُبوتِ الصحبَةِ أن يكونَ لَقيَه مُؤمنًا به بعدَ البَعثَةِ، أو يكفي أن يراهُ قَبلَ البَعثَةِ، وهو يُؤمِنُ أنَّه سَيُبعَثُ؟

فعلى الأوَّلِ -وهو المشهورُ-: لا يَدخُل في تَعريفِ الصحابيِّ، وعلى الثَّاني: يَدخُلُ في تعريفِ الصحابيّ.

فزَيدُ بن عمرٍو لَقيَ النبيَّ ﷺ مُؤمنًا به؛ لِأنَّه كان غايَتَه التي يَبحَثُ عنها، والتي سافَرَ في البلادِ لأجلِها، فهو في الجُملَةِ لَقيَ النبيَّ ﷺ، وآمَنَ به، وماتَ على ذلك، فهو بهذا الاعتِبارِ مَعدودٌ في الصحابَةِ عِندَ بعضِ العُلَماءِ.

وقال ابنُ المُلَقِّنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو مذكورٌ في كُتُب الصحابةِ، وإيرادُ البخاريّ يَميلُ إليه»[1].

والمشهورُ والذي عليه الجُمهورُ: أنَّه لا يُعَدُّ في الصحابَةِ.

بَعضُ الفَوائِدِ المستَفادَةِ من قِصَّة زَيدِ بن عَمرٍو رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

* نبيُّنا ﷺ أولى الناسِ بالتنزُّهِ عَنِ الشِّركِ والقَبائِحِ، قَبلَ البَعثَةِ وبَعدَها.

* أهَمِّيَّةُ البَحثِ عنِ الحقِّ، فمَن طَلَبَ الحقَّ وسَعى للوُصولِ إليه بإخلاصٍ وصِدقٍ أدرَكَهُ.

فعلى الإنسانِ أن يطلُبَ الحقَّ ويسألَ عن أهلِه، ولا يكونَ إمَّعَةً، إنِ اهتَدى الناسُ اهتَدى، وإن ضَلُّوا ضَلَّ.

* الرِّحلَةُ في طَلَبِ العلمِ، ومَعرِفَةِ الحقِّ عِندَ اشتِباهِ الأُمورِ واختلافِ الأحوالِ وظُهورِ الفِتَنِ.

* الحَثُّ على سُؤالِ أهلِ العِلمِ، والرِّحلةِ إليهِم، وبَذلِ المالِ والجهدِ والوقتِ لأجلِ ذلك.

* مُخاطبَةُ العُقولِ في الدَّعوَةِ: فكان زيدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ لهم: «الشَّاةُ خَلَقَها اللهُ، وأَنزَلَ لها منَ السَّماءِ الماءَ، وأَنبَتَ لها منَ الأَرضِ، ثم تَذبَحونَها على غيرِ اسمِ اللهِ!»؛ إنكارًا لِذلك، وإعظامًا له، فيُبَرهِنُ لهم بالبُرهانِ العَقليِّ أنَّ ما هُم عليه باطِلٌ.

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٠/ ٤٤٢).

* رَفضُ المنكَرِ وعَدَمُ قبولِه: فلمَّا عرَفَ زيدُ بن عمرٍو أنَّ الذي عليه اليَهودُ والنصارى يَستَوجِبُ لعنَةَ اللهِ وغَضبَه عرَفَ أنَّه باطِلٌ، فأنكَرَهُ ورَدَّهُ ولَم يَقبَلهُ.

* أهلُ الكِتاب يعرِفون أنَّهُم على باطِلٍ: وإنَّما يتَّبعون أهواءَهم بغير هُدًى منَ اللهِ؛ فلمَّا بُعِثَ النبيُّ ﷺ، وعَلِموا أنَّه النبيُّ الذي بشَّرَت بِهِ التوراةُ والإنجيلُ، ما زادَهُم ذلك إلا كُفرًا وضَلالًا وحسَدًا من عِندِ أنفُسِهم.

* إذا أدرَكَ الإنسانُ الحقَّ وعَلِمَه فعليه أن يَستَمسِكَ به، ولا يُبالي بمَن خالَفَه.

* الأمرُ بالمَعروفِ، والنهيُ عنِ المنكَرِ، ونَبذُ الشِّركِ، والتحذيرُ منَ القبائِحِ، ومَذامِّ الأفعالِ والأخلاقِ.

* الأكثَريَّةُ ليست دليلًا على الحقِّ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال **الفُضيلُ بن عياضٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الزَم طُرُقَ الهُدى، ولا يَضُرُّكَ قِلَّةُ السَّالِكينَ، وإيَّاكَ وطُرُقَ الضَّلالَةِ، ولا تَغتَرَّ بكَثرَةِ الهالِكينَ»[1].

وقال **ابنُ القيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَهلُ الإسلامِ في الناسِ غُرَباءُ، والمؤمِنونَ في أَهلِ الإسلامِ غُرَباءُ، وأَهلُ العِلمِ في المؤمِنينَ غُرَباءُ، وأَهلُ السُّنَّةِ الذينَ يُمَيِّزونَها منَ الأَهواءِ والبِدَعِ فيهم غُرَباءُ، والدَّاعونَ إلَيها الصابرونَ على أَذى المخالِفينَ هُم أَشَدُّ هَؤُلاءِ غُربَةً، ولكنَّ هَؤُلاءِ هُم أَهلُ اللهِ حقًّا، فلا غُربَةَ عليهم، وإنَّما غُربَتُهُم بينَ الأَكثَرينَ، الذينَ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فأولَئِكَ هُمُ الغُرَباءُ منَ اللهِ ورسولِهِ ودينِهِ، وغُربَتُهُم هي الغُربَةُ الموحِشَةُ، وإن كانوا هُمُ المَعروفينَ المشارَ إليهم»[2].

---

(١) الأذكار للنووي (ص١٦٠).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٨٦).

١٨

مقتلُ
حمزةَ بنِ
عبدِالمطلبِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

مقتلُ
حمزةَ بنِ عبدِالمطلبِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

عن جَعفَرِ بن عَمرِو بن أُمَيَّةَ الضَّمريِّ، قال: خرجتُ مع عُبَيدِ اللهِ بن عَديِّ بن الخيارِ، فلما قدِمنا حِمصَ قال لي عُبَيدُ اللهِ بن عَديٍّ: هَل لَكَ في وحشيٍّ، نَسأَلُهُ عن قَتلِ حَمزَةَ؟ قُلتُ: نَعَم، وكان وحشيٌّ يَسكُنُ حِمصَ، فَسألنا عنه، فَقيلَ لَنا: هو ذاكَ في ظِلِّ قَصرِهِ، كَأَنَّهُ حَميتٌ، قال: فَجِئنا حتى وقَفنا عليه بيَسيرٍ، فَسَلَّمنا فَرَدَّ السَّلامَ، قال: وعُبَيدُ اللهِ مُعتَجِرٌ بعِمامَتِهِ، ما يَرى وحشيٌّ إلا عَينَيهِ ورِجلَيهِ، فقال عُبَيدُ اللهِ: يا وحشيُّ، أَتَعرِفُني؟ قال: فَنَظَرَ إليه ثم قال: لا واللهِ، إلا أَنِّي أَعلَمُ أَنَّ عَديَّ بن الخيارِ تَزَوَّجَ امرَأَةً يُقالُ لها أُمُّ قِتالٍ بنتُ أَبي العيصِ، فَوَلَدَت له غُلامًا بمكةَ، فَكُنتُ أَسترَضِعُ له، فَحَمَلتُ ذلك الغُلامَ مع أُمِّهِ، فَناوَلتُها إيَّاهُ، فَلَكَأَنِّي نَظَرتُ إلى قدَمَيكَ، قال: فَكَشَفَ عُبَيدُ اللهِ عن وجهِهِ، ثم قال: أَلا تُخبِرُنا بقَتلِ حَمزَةَ؟ قال: نَعَم.

إنَّ حَمزَةَ قَتَلَ طُعَيمَةَ بن عَديِّ بن الخيارِ ببَدرٍ، فقال لي مَولايَ جُبَيرُ بن مُطعِمٍ: إن قَتَلتَ حَمزَةَ بعَمِّي فَأَنتَ حُرٌّ، قال: فلما أَن خرجَ الناسُ عامَ عَينَينِ -وعَينَين جَبَلٌ بحيالِ أُحُدٍ، بينَهُ وبينَهُ وادٍ- خرجتُ مع الناسِ إلى القِتالِ، فلما أَنِ اصطَفُّوا للقِتالِ، خرجَ سِباعٌ فقال: هَل من مُبارِزٍ؟ قال: فَخرجَ إليه حَمزَةُ بن عبدِ المطَّلِب، فقال: يا سِباعُ، يا ابنَ أُمِّ أَنمارٍ مُقَطِّعَةِ البُظورِ، أَتُحادُّ اللهَ ورسوله ﷺ؟ قال: ثم شَدَّ عليه، فكان كَأَمسِ الذَّاهِب.

قال: وكَمَنتُ لِحَمزَةَ تَحتَ صَخرَةٍ، فلما دَنا مِنِّي رَمَيتُهُ بحَربَتي، فَأَضَعُها في ثُنَّتِهِ حتى خرجَت من بينِ وِركَيهِ، قال: فكان ذاكَ العَهدَ بهِ.

فلما رجعَ الناسُ رجعتُ معهم، فَأَقَمتُ بمكةَ حتى فَشا فيها الإسلامُ، ثم خرجتُ إلى الطائِفِ، فَأَرسَلوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ رسولًا، فَقيلَ لي: إنَّهُ لا يَهيجُ الرُّسُلَ، قال: فَخرجتُ معهم حتى قدِمتُ على رسولِ اللهِ ﷺ، فلما رَآني قال: «**آنتَ وحشيٌّ؟**»، قُلتُ: نَعَم، قال: «**أَنتَ قَتَلتَ حَمزَةَ؟**»، قُلتُ: قد كان منَ الأَمرِ ما بلغَكَ، قال: «**فَهَل تَستَطيعُ أَن تُغَيِّبَ وجهَكَ عَنِّي؟**».

قال: فَخرجتُ، فلما قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ فَخرجَ مُسَيلِمَةُ الكَذَّابُ، قُلتُ: لَأَخرُجَنَّ إلى مُسَيلِمَةَ، لَعَلِّي أَقتُلُهُ فَأُكافِئَ بِهِ حَمزَةَ، قال: فَخرجتُ مع الناسِ، فَكان من أَمرِهِ ما كان، قال: فإذا رجلٌ قائِمٌ في ثَلمَةِ جِدارٍ، كَأَنَّهُ جَمَلٌ أورَقُ، ثائِرُ الرأسِ، قال: فَرَمَيتُهُ بحَربَتي، فَأَضَعُها بينَ ثَدييهِ، حتى خرجَت من بينِ كَتِفَيهِ، قال: ووَثَبَ إليه رجلٌ منَ الأَنصارِ فَضَرَبَهُ بالسَّيفِ على هامَتِهِ.

قال عبدُ اللهِ بن الفَضلِ: فَأَخبَرَني سُلَيمانُ بن يَسارٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عبدَ اللهِ بن عمرَ يقولُ: «فقالت جاريَةٌ على ظَهرِ بَيتٍ: وا أَميرَ المؤمِنينَ! قَتَله العبدُ الأَسوَدُ»[1].

شرح الحديث:

قَولُهُ: «عن جَعفَرِ بن عَمرِو بن أُمَيَّةَ الضَّمريِّ»:

هو أخو عبدِ المَلِكِ بن مَروان منَ الرضاعةِ، رَوى عن أبيهِ، ووَحشيِّ بن حَربٍ، وأَنَسٍ.

وعنه أبو سَلَمَةَ، وأبو قِلابةَ، وسُليمانُ بن يَسارٍ، وأخوه الزّبرقانِ، وابنُ أخيهِ الزّبرقانُ ابن عبدِ اللهِ بن عمرِو، وابنُ أخيهِ يعقوبُ بن عمرِو بن عبدِ اللهِ بن عمرِو، والزُّهريُّ، ومحمّدُ بن عبدِ اللهِ بن عمرِو بن عثمانَ بن عفَّانَ، وغيرُهم.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٧٢)، وأحمد (١٦٠٧٧)، وابن حبان في صحيحه (٧٠١٧)، والطيالسي في مسنده (١٤١٠)، وابن إسحاق في السيرة- كما في ابن هشام (٢/ ٧٠)-، والبيهقي في سننه (١٨١٨٨)، وفي دلائل النبوة (٣/ ٢٤١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤٨٣)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٤٧-١٤٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٢٧٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ٤٠٦-٤٠١١)، وأبو الطاهر المخلص في المخلصيات (١٩٥٨)، وأبو نعيم في المعرفة (٢/ ٦٧٦)، والنيسابوري في أسباب النزول (ص٢٨٦).

قال العِجليّ: «مَدَنيٌّ تابعيٌّ ثِقَةٌ، من كِبارِ التابعينَ»، وقال الواقِديُّ: «ماتَ في خِلافَةِ الوَليدِ بن عبدِ المَلِكِ»، وقال خَليفَةُ: «ماتَ سنةَ خَمسٍ أو سِتٍّ وتِسعينَ».

روى لهُ الجَماعةُ، سِوى أبي داوُدَ[1].

قال: «خرجتُ مع عُبَيدِ اللهِ بن عَديِّ بن الخيارِ»:

عُبَيدُ اللهِ بن عَديِّ بن الخيارِ من كبارِ التابعينَ وفُقَهائِهم، روى عن عمرَ، وعُثمانَ، وعَليٍّ، وعبدِالرحمنِ بن الأسوَدِ بن عبدِ يَغوثَ، والمِقدادِ بن الأسودِ، ووَحشيِّ بن حربٍ، والمِسوَرِ بن مَخرمَةَ، وابنِ عباسٍ، وكعب الأحبارِ.

وروى عنهُ عُروةُ بن الزُّبيرِ، وعطاءُ بن يزيدَ الليثيُّ، وحُمَيدُ بن عبدِ الرّحمنِ بنِ عوفٍ، وجعفرُ بن عمرٍو، وعُبَيدُ اللهِ بن المغيرةِ بن مُعَيقيب.

ورَوى عُروَةُ بن الزُّبَيرِ، عن عُبَيدِ اللهِ بن عَديٍّ، أَنَّهُ دَخَلَ على عُثمانَ وهو مَحصورٌ، وعَليٌّ يُصَلِّي بالناسِ، فقال: يا أَميرَ المؤمِنينَ! إنِّي أَتَحَرَّجُ أَن أُصَلِّيَ مع هَؤُلاءِ وأَنتَ الإمامُ.

فقال: «إنَّ الصلاةَ أَحسَنُ ما عَمِلَ الناسُ، فإذا رَأَيتَ الناسَ مُحسِنينَ فَأَحسِن معهم».

وقال عَطاءُ بن يَزيدَ: «كان عُبَيدُ اللهِ بن عَديٍّ من فُقَهاءِ قريشٍ، وعُلَمائِهم».

وقال ابنُ سَعدٍ: «ماتَ في خِلافَةِ الوَليدِ بن عبدِ المَلِكِ، وكان ثِقَةً، قَليلَ الحَديثِ».

وقال خَليفَةُ: «ماتَ في آخِرِ خِلافَةِ الوَليدِ»، وقال العجليُّ: «تابعيٌّ ثِقَةٌ من كبارِ التابعينَ، وهو ابنُ أختِ عُثمانَ»، وذكَرَهُ ابنُ حِبَّان في الثِّقاتِ.

روى له البخاريُّ، ومسلمٌ، وأبو داوُدَ، والنسائيُّ[2].

قَولُهُ: «خرجتُ مع عُبَيدِ اللهِ بن عَديِّ بن الخيارِ، فلما قدِمنا حِمصَ»:

وعِندَ الطبَرانيّ: «خرجتُ أَنا وعُبَيدُ اللهِ بن عَديِّ بن الخيارِ، فَأَدرَبنا -يَعني دَربَ الرُّومِ-، ثم مَرَرنا بحِمصَ وبها وحشيٌّ».

---

(١) الطبقات الكبرى (٥/ ١٩١)، تهذيب التهذيب (٢/ ١٠٠)، مغاني الأخيار للعيني (١/ ١٥٢).

(٢) تهذيب التهذيب (٧/ ٣٦)، الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٥١٥).

وعِندَ ابنِ أبي عاصِمٍ: «خرجتُ أَنا وعُبَيدُ اللهِ بن عَديِّ بن الخيارِ زَمانَ مُعاويَةَ، فَأَدرَبنا، فلما قَفَلنا مَرَرنا بحِمصَ، وكان وحشيٌّ بها، قد سَكَنَها وأَقامَ بها».

وقَولُهُ: «وأَدرَبنا»، قال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: دخَلنا الدَّربَ، وكُلُّ مَدخلٍ إلى الرُّوم دَربٌ، وقيلَ هو بفَتحِ الراءِ للنافِذِ منه، وبالسُّكون لغَير النافِذِ»[1].

وقال ابنُ مَنظورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ مَدخلٍ إلى الرُّومِ دَربٌ من دُروبها، وأَصلُ الدَّرب: المَضيقُ في الجِبالِ، ومنه قَولُهُم: أَدرَبَ القَومُ: إذا دَخَلوا أَرضَ العَدوِّ من بلادِ الرُّومِ»[2].

ولأبي طاهرٍ المخلِّصِ، وابنِ عساكِر: «خرجتُ أَنا وعُبَيدُ اللهِ بن عَديِّ بن الخيارِ، غازيَينَ الصائِفَةَ في زَمَنِ مُعاويَةَ، فلمَّا قَفَلنا مرَرنا بحِمصَ، وبها وحشيُّ بنُ حَربٍ الحَبَشيُّ».

والصائِفَةُ: الغَزوةُ في الصيفِ.

وسُمِّيَت غَزوَةُ الرُّومِ: «الصائِفَةَ»؛ لِأَنَّ سُنَّتَهم أَن يُغزَوا صَيفًا، ويُقفَلَ عنهم قَبلَ الشِّتاءِ؛ لِمَكانِ البَردِ والثَّلجِ[3].

قَولُهُ: «هَل لَكَ في وحشيٍّ، نَسأَلُهُ عن قَتلِ حَمزَةَ؟»:

هو وحشيُّ بن حَربٍ الحَبَشيُّ أبو دَسَمَةَ، ويُقالُ أبو حَربٍ، مَولى جُبَيرِ بن مُطعِمِ بن عَديّ، وقيلَ: مَولى طُعمَةَ بن عَديّ، وعاشَ إلى خِلافَةِ عُثمانَ.

وقال أبو نُعَيمٍ الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحشيُّ بن حَربٍ الحَبَشيُّ أَبو دَسمَةَ، مَولى جُبَيرِ بن مُطعِمِ بن عَديِّ بن نَوفَلٍ، قاتِلُ حَمزَةَ، أَسلَمَ بعدَ الفَتحِ، فقدِمَ مع وفدِ ثَقيفٍ إلى المَدينَةِ، وشَهِدَ اليَمامَةَ، ورَمى مُسَيلِمَةَ الكَذَّابَ هو والأَنصاريُّ، وقُتِلَ مُسَيلِمَةُ من ضَربَتَيهِمَا، ثم تَحَوَّلَ إلى الشَّامِ، فَسَكَنَ حِمصًا، ومات بها»[4].

---

(١) النهاية (٢/ ١١١).

(٢) لسان العرب (١/ ٣٧٤).

(٣) الصحاح (٤/ ١٣٨٩)، لسان العرب (٩/ ٢٠١-٢٠٢).

(٤) معرفة الصحابة (٥/ ٢٧٣٣).

وقال ابنُ ماكولا رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَسلَمَ على يَدِ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاهَدَ أهلَ الرِّدَّةِ، وقيلَ: قَتَلَ مُسَيلِمَةَ الكَذَّابَ»[1].

قَولُهُ: «قُلتُ: نَعَم، وكان وحشيٌّ يَسكُنُ حِمصَ، فَسألنا عنه، فَقيلَ لَنا: هو ذاكَ في ظِلِّ قَصرِهِ، كَأَنَّهُ حَميتٌ»:

وعِندَ الطيالسيِّ، والبَيهَقيّ: «أَقبَلنا منَ الرُّومِ، فلما قَرُبنا من حِمصَ قُلنا: لَو مَرَرنا بوَحشيٍّ فَسألناهُ عن قَتلِ حَمزَةَ، فَلَقينا رجلًا فَذكرنا ذلك له، فقال: هو رجلٌ قد غَلَبَ عليه الخَمرُ، فَإن أَدرَكتُماهُ وهو صاحٍ لَم تَسأَلاهُ عن شيءٍ إلا أَخبَرَكُما، وإن أَدرَكتُماهُ شارِبًا فلا تَسأَلاهُ، فانطَلَقنا حتى انتَهَينا إليه، قد أُلقيَ له شيءٌ على بابِهِ، وهو جالِسٌ صاحٍ».

وعِندَ الطبَرانيّ: «فَأَقبَلنا نحوهُ، فَلَقيَنا رجلٌ ونَحنُ نَسأَلُ عنه، فقال: إنَّهُ رجلٌ قد غَلَبَت عليه الخَمرُ، فَإن تَجِداهُ صاحيًا تَجِداهُ رجلًا عَربيًّا، يُحَدِّثُكُما ما شِئتُما من حَديثٍ، وإن تَجِداهُ على غيرِ ذلك فانصَرِفا عنه، فَأَتَيناهُ، فَوَجَدناهُ بِفِنائِهِ».

وعِندَ ابن إسحاق: «فقال لَنا رجلٌ- ونَحنُ نَسأَلُ عنه-: إنَّكُما سَتَجِدانِهِ بِفِناءِ دارِهِ، وهو رجلٌ قد غَلَبَت عليه الخَمرُ، فَإن تَجِداهُ صاحيًا تَجِدا رجلًا عَربيًّا، وتَجِدا عِندَهُ بَعضَ ما تُريدانِ، وتُصيبا عِندَهُ ما شِئتُما من حَديثٍ تَسأَلانِهِ عنه، وإن تَجِداهُ وبه بَعضُ ما يكونُ بِهِ، فانصَرِفا عنه ودَعاهُ، قال: فَخرجنا نَمشي حتى جِئناهُ، فإذا هو بِفِناءِ دارِهِ على طِنفِسَةٍ[2] له، فإذا شَيخٌ كَبيرٌ مِثلُ البُغاثِ[3]، فإذا هو صاحٍ لا بَأسَ بِهِ»[4].

---

(١) الإكمال (٧/ ٣٠٠). وينظر لترجمته: الجرح والتعديل (٩/ ٤٥)، تهذيب الكمال (٣٠/ ٤٢٩)، تهذيب التهذيب (١١/ ١١٢)، الإصابة (٦/ ٤٧٠)

(٢) بساط.

(٣) قال ابن هشام: «البغاث: ضرب من الطير إلى السواد»، وقال الحافظ: «هو طائر ضعيف الجثة كالرخمة ونحوها، مما لا يصيد ولا يصاد». فتح الباري (٧/ ٣٦٩).

(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٧٠).

فائدَةٌ:

هل كان وحشيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشربُ الخمرَ؟

* لم نَجد ذلك ثابتًا في حَديثٍ، إلا قَولَ ذلك الرّجلِ: «هو رجلٌ قد غَلَبَ عليه الخَمرُ، فَإن أَدرَكتُماهُ وهو صاحٍ لَم تَسأَلاهُ عن شيءٍ إلا أَخبَرَكُما، وإن أَدرَكتُماهُ شارِبًا فلا تَسأَلاهُ».

وهذا رَجلٌ مَجهولٌ، لا يُعَوَّلُ على خَبرِه، فَكيفَ نَتّهمُ صَحابيًّا بمثلِ هذا بمجرَّدِ خَبَرِ رَجلٍ مَجهولٍ لا يُدرى مَن هوَ؟!

ويَكفي في إنكارِ ذلك: أنّ الحَديثَ في البخاريِّ وغيرِه مُفَصّلًا، من نَفسِ الطّريقِ، ليس فيه كَلامُ هذا الرجلِ.

* وكذلك قَولُ حُجَينِ بن المُثَنَّى -أحدِ رواةِ الحَديثِ-: «فلا أَعلَمُ إلا أَنّي قد سَمِعتُ عبدَ العَزيزِ -يعني ابنَ أَبي سَلَمَةَ- يقولُ: كان سَعيدٌ يقولُ: «فَكُنتُ أَعجَبُ لِقاتِلِ حَمزَةَ كَيفَ يَنجو؟ حتى بلغَني أَنَّهُ ماتَ غَريقًا في البَحرِ».

رواهُ البَيهقيُّ في الدّلائلِ في آخِرِ الحَديثِ، ثم قال: «رواهُ البخاريُّ في الصحيحِ عن أَبي جَعفَرٍ محمدِ بن عبدِ اللهِ، دونَ قَولِ حُجَينٍ في آخِرِهِ»[1].

ومثلُ هذا أيضًا لا يُعوَّلُ عليه، ولا نَعلمُ أحدًا مِمّن تَرجَمَ لوَحشيٍّ ذكرَ أَنَّه ماتَ غَريقًا، بَل قالوا: «سَكَنَ حِمصَ، وماتَ بها»[2].

وعلى فَرضِ صِحَّةِ ذلك: فالغَريقُ شهيدٌ.

عن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الشُّهَداءُ خَمسَةٌ: المَطعونُ، والمَبطونُ، والغَريقُ، وصاحِبُ الهَدمِ، والشَّهيدُ في سَبيلِ اللهِ**»[3].

---

(١) دلائل النبوة (٣/ ٢٤٢)

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٢٩٣)، الطبقات لخليفة بن خياط (ص٣٨)، معرفة الصحابة لأبي نعيم (٥/ ٢٧٣٣)، تاريخ دمشق (٦٢/ ٤٠٢)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٤٣)، الإصابة (٦/ ٤٧٠)، تقريب التهذيب (ص٥٨٠).

(٣) رواه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

* وكذلك قَولُ ابنِ هِشام: «بلغَني أَنَّ وحشيًّا لَم يَزَل يُجَدُّ في الخَمرِ، حتى خُلِعَ من الدِّيوانِ، فَكان عمرُ بن الخَطَّاب يقولُ: «قد عَلِمتُ أَنَّ اللهَ تعالى لَم يَكُن ليَدَعَ قاتِلَ حَمزَةَ»[١]. فهذا شيءٌ ذَكرهُ ابنُ هِشامٍ بغيرِ سَنَدٍ، ولا نَعلمُ له أصلًا.

* وكذلك ما ذَكرهُ ابنُ عبدِ البرِّ عن موسى بن عُقبةَ، عنِ ابنِ شِهابٍ، قال: «ماتَ وحشيُّ بن حربٍ في الخمرِ، فيما زَعَموا»[٢].

وبئسَ مَطيَّةُ الرجُلِ: «زَعَموا».

* **وقال الواقِديُّ**: «كان أَوَّلَ مَن ضُرِبَ في الخَمرِ بالشَّامِ»[٣]، وهذا باطلٌ، والواقديُّ مَتروكٌ مُتّهمٌ[٤].

* وقال ابنُ سعدٍ: أَخبَرَنا محمدُ بن مُصعَبٍ القُرقُسانيُّ، قال: حَدَّثَنا أَبو بكرِ بن أبي مَريمَ، عن راشدِ بن سَعدٍ، قال: «إنَّ أَوَّلَ مَن ضُرِبَ في الخَمرِ بحِمصَ وحشيٌّ»[٥].

وهذا لا يَثبتُ: ابنُ أبي مَريمَ ضعيفٌ، رَدئُ الحِفظِ[٦]، والقُرقُسانيُّ ضَعيفٌ أيضًا[٧].

* وقال يونسُ بن أَبي إسحاقَ، عَن أَبيهِ، أَنَّ عمرَ بن الخطاب، قال: «ما زالت لِوَحشيٍّ في نفسي، حتى أُخذَ قد شَربَ الخَمرَ بالشامِ، فجُلدَ الحدَّ، فَحَطَت عَطاءَه إلى ثَلاثِ مئةٍ»[٨].

وهذا أيضًا لا يصحّ، أبو إسحاقَ كان اختلطَ، وسماعُ يونسَ مِنهُ بعدَ الاختلاطِ، وهو عَن عُمرَ مُرسَل[٩].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٧٣).
(٢) الاستيعاب (٤/ ١٥٦٥).
(٣) الطبقات الكبرى (٦/ ١٤٥)، تاريخ دمشق (٦٢/ ٤٠٢).
(٤) ينظر: ميزان الاعتدال (٣/ ٦٦٢-٦٦٦)، تهذيب التهذيب (٩/ ٣٢٦).
(٥) الطبقات الكبرى (٧/ ٢٩٣).
(٦) ميزان الاعتدال (٤/ ٤٩٧-٤٩٨).
(٧) التهذيب (٩/ ٤٥٨-٤٦٠).
(٨) تاريخ دمشق (٦٢/ ٤١٩)، تهذيب الكمال (٣٠/ ٤٣٠).
(٩) تاريخ دمشق (٤٦/ ٢٣٢)، التهذيب (٨/ ٦٣-٦٧).

فالقولُ بأنَّ وحشيًّا كان يشربُ الخَمرَ في الإسلامِ قَولٌ بغيرِ دَليلٍ ثابتٍ، والأصلُ في المسلمِ البَراءةُ والسَّترُ، فَكيفَ بالصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟

وقَولُهُ: «كَأَنَّهُ حَميتٌ»:

«هو النِّحيُ والزِّقُّ الذي يكونُ فيه السَّمن والرُّبُّ ونَحوُهُما»[١].

قال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحَميتُ: الزِّقُّ المشعَرُ، الذي يُجعَلُ فيه السّمنُ والعَسَلُ والزَّيتُ، فَأَمَّا الذي يُجعَل فيه اللَّبَنُ فالوَطبُ، وما كان للماءِ فسِقاءٌ»[٢].

وقال الكَفَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الزِّقّ: اسمٌ عامٌّ في الظّرفِ، فَإن كان فيه لَبَنٌ فَهو وطبٌ، وإن كان فيه سَمنٌ فهو نِحيٌ، وإن كان فيه عَسَلٌ فَهو عُكَّةٌ، وإن كان فيه ماءٌ فَهو شَكوَةٌ، وإن كان فيه زَيتٌ فَهو حَميتٌ»[٣].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: زِقٌّ كَبيرٌ، وأَكثَرُ ما يُقالُ ذلك إذا كان مَملوءًا، وفي روايةٍ لِابنِ عائِذٍ: «فَوَجَدناهُ رجلًا سَمينًا مُحمَرَّةً عَيناهُ»[٤].

قال: «فَجِئنا حتى وقَفنا عليه بيَسيرٍ، فَسَلَّمنا فَرَدَّ السَّلامَ، قال: وعُبَيدُ اللهِ مُعتَجِرٌ بعِمامَتِهِ، ما يَرى وحشيٌّ إلا عَينَيهِ ورِجلَيهِ»:

قال ابنُ الأَثيرِ: «الاعتِجارُ بالعِمامَةِ: هو أَن يَلُفَّها على رَأسِه، ويَرُدّ طَرَفَها على وجهِه، ولا يَعمل منها شَيئًا تَحتَ ذَقنِه»[٥].

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الِاعتِجارُ: لَفُّ العِمامَة على الرأسِ دونَ أَن يَتَلَحَّى منها بشيءٍ، يُقالُ: إنَّه لَحَسَنُ العجرَةِ.

---

(١) النهاية (١/ ٤٣٦).

(٢) غريب الحديث (١/ ٢٤٦).

(٣) الكليات (ص٤٨٩).

(٤) فتح الباري (٧/ ٣٦٨).

(٥) النهاية (٣/ ١٨٥).

فَإن قيلَ: فقدَ قال في الحَديث: «ما يَرى وحشيٌّ إلا عَينَيهِ»، فالجَوابُ: أَنَّه كان قد غَطَّى وجهَه بعدَ العِمامَة، لا بها»[١].

قَولُهُ: «فقال عُبَيدُ اللهِ: يا وحشيُّ، أَتَعرِفُني؟ قال: فَنَظَرَ إليه ثم قال: لا واللهِ»:

وعِندَ ابن إسحاقَ، وابنِ حِبَّان: «فلما انتَهَينا إليه سَلَّمنا عليه، فَرَفَعَ رَأسَهُ إلى عُبَيدِ اللهِ بن عَديٍّ، قال: ابنٌ لِعَديِّ بن الخيارِ؟ قال: نَعَم».

فَيُحتَمَلُ أَن يكونَ قال له ذلك بعدَ أَن قال له: «أَتَعرِفُني؟».

قَولُهُ: «إلا أَنِّي أَعلَمُ أَنَّ عَديَّ بن الخيارِ تَزَوَّجَ امرَأَةً يُقالُ لها أُمُّ قِتالٍ بنتُ أَبي العيصِ، فَوَلَدَت له غُلامًا بمكةَ، فَكُنتُ أَسترَضِعُ له، فَحَمَلتُ ذلك الغُلامَ مع أُمِّهِ، فَناوَلتُها إيَّاهُ، فَلَكَأَنِّي نَظَرتُ إلى قدَمَيكَ»:

«أُمُّ قِتالٍ»: هي عَمَّةُ عَتَّاب بن أَسيد بن أبي العيصِ بن أُميَّة[٢].

وقال ابنُ سعدٍ: «أُمُّ قِتالٍ بنتُ أسيدِ بن أبي العَيص بن أُمَيَّة»[٣].

وعلى هذا: فهي أختُ عتَّاب بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليست عمتَّه.

وكذا قال ابنُ الأثيرِ: «أمّ قتالٍ بنتُ أسيد بن أَبي العيص، أختُ عتَّاب بن أسيد»[٤].

وكذا قال ابنُ الملقِّن[٥]، وابنُ ماكولا[٦]: أنّها أختُ عتَّاب.

وقَولُهُ: «أَسترَضِعُ له»، أَي: أَطلُبُ له مَن يُرضِعُهُ[٧].

وعِندَ ابنِ إسحاقَ: «أَما واللهِ ما رَأَيتُكَ مُنذُ ناوَلتُكَ أُمَّكَ السَّعديَّةَ التي أَرضَعَتكَ

---

(١) كشف المشكل (٤/ ١٧٦).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٦٩)، عمدة القاري (١٧/ ١٥٨).

(٣) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦).

(٤) أسد الغابة (٣/ ٥٢١).

(٥) التوضيح (٢١/ ١٨٠).

(٦) الإكمال (١/ ٥٨).

(٧) فتح الباري (٧/ ٣٦٩)، عمدة القاري (١٧/ ١٥٨).

بذي طوًى[١]، فَإِنِّي ناوَلتُكها وهي على بَعيرِها، فَأَخَذتكَ بعُرضَيكَ[٢]، فلمعت لي قدَماكَ حينَ رَفَعتُكَ إلَيها، فَواللهِ ما هو إلا أَن وقَفتَ عَلَيَّ فَعَرَفتُهُما».

قال الحافظُ: «وهذا يوَضِّحُ قَوله في روايةِ الباب: «فَكَأَنِّي نَظَرتُ إلى قدَمَيكَ»، يَعني: أَنَّهُ شَبَّهَ قدَمَيهِ بقدَمِ الغُلامِ الذي حَمَله، فَكان هو هوَ، وبينَ الرُّؤيَتَينِ قَريبٌ من خَمسينَ سنةً، فَدَلَّ ذلك على ذَكاءٍ مُفرِطٍ، ومَعرِفَةٍ تامَّةٍ بالقيافَةِ».

قَولُهُ: «فَكَشَفَ عُبَيدُ اللهِ عن وجهِهِ، ثم قال: أَلا تُخبِرُنا بقَتلِ حَمزَةَ؟ قال: نَعَم»:

وعِندَ ابنِ حِبَّان، والبَيهَقيّ، والطيالِسيّ: «فَجَلَسنا إليه فَقُلنا: جِئناكَ لِتُحَدِّثَنا عن قَتلِ حَمزَةَ، كَيفَ قَتَلتَهُ؟ قال: أَما إنِّي سَأُحَدِّثُكُما كَما حَدَّثتُ رسولَ اللهِ ﷺ حينَ سأَلَني عن ذلك».

قَولُهُ: «إنَّ حَمزَةَ قَتَلَ طُعَيمَةَ بن عَديِّ بن الخيارِ ببَدرٍ، فقال لي مَولايَ جُبَيرُ ابنُ مُطعِمٍ: إن قَتَلتَ حَمزَةَ بعَمِّي فَأَنتَ حُرٌّ، قال: فلما أَن خرجَ الناسُ عامَ عَينَينِ -وعَينَين جَبَلٌ بحيالِ أُحُدٍ، بينَهُ وبينَهُ وادٍ-»:

قال الحافظُ: «عامَ عَينَينِ»، أَي: سنةَ أُحُدٍ، وقَولُهُ: «عَينَين جَبَلٌ بحيالِ أُحُدٍ»، أَي: من ناحيَةِ أُحُدٍ، يُقالُ: فُلانٌ حيالَ كذا، أَي: مُقابله، وهو تَفسيرٌ من بَعضِ رواتِهِ.

والسَّبَبُ في نِسبَةِ وحشيٍّ العامَ إليه دونَ أُحُدٍ؛ أَنَّ قريشًا كانوا نزلوا عِندَهُ، قال ابنُ إسحاقَ: «نزلوا بعَينَينِ، جَبَلٍ ببَطنِ السَّبخَةِ من قَناةٍ على شَفيرِ الوادي مُقابل المَدينَةِ»[٣].

قَولُهُ: «خرجتُ مع الناسِ إلى القِتالِ»:

وللطَّيالسيّ، والبيهقيّ: «فانطَلَقتُ يَومَ أُحُدٍ مَعي حَربَتي، وأَنا رجلٌ منَ الحَبَشَةِ، أَلعَبُ بها لَعِبَهُم، فَخرجتُ يَومَئِذٍ ما أُريدُ أَن أَقتُلَ أَحَدًا ولا أُقاتِله إلا حَمزَةَ، فَخرجتُ فإذا أَنا بحَمزَةَ كَأَنَّهُ بَعيرٌ أورَقُ[٤]، ما يرفَعُ له أَحَدٌ إلا قَمعه بالسَّيفِ، فَهِبتُهُ».

---

(١) موضع بمكة.

(٢) أي: بجانبيك.

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٦٩).

(٤) الأورق من كل شيء: ما كان لونه لون الرماد. تهذيب اللغة (٩/ ٢٢٢).

ولابنِ إسحاقَ: «فَخرجتُ مع الناسِ، وكُنتُ رجلًا حَبَشيًّا أَقذِفُ بالحَربَةِ قَذفَ الحَبَشَةِ، قَلَّما أُخطِئُ بها شَيئًا، فلما التَقى الناسُ خرجتُ أنظُرُ حَمزَةَ وأَتَبَصَّرُه، حتى رَأَيتُهُ في عُرضِ الناسِ[1] مِثلَ الجَملِ الأورَقِ، يَهُدُّ الناسَ بسَيفِهِ هَدًّا، ما يَقومُ له شيءٌ».

ولابنِ أبي عاصِمٍ: «وكُنتُ صاحِبَ حَربَةٍ، أَقذِفُ بها فَأَقَلُّ ما أُخطِئُ، فَخرجتُ مع الناسِ، وجاءَ حَمزَةُ، حتى نزلنا مَنزِلًا بأُحِدٍ، فالتَقى الناسُ، فَأَخَذتُ حَربَتي وجَعَلتُ أنظُرُ حَمزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى رَأَيتُهُ في عُرضِ الناسِ مِثلَ الجَمَلِ الأورَقِ، يَهُدُّ الناسَ بسَيفِهِ هَذًّا[2]، ما يُبقي شَيئًا».

وعِندَ ابنِ عائِذٍ: «فَرَأَيتُ رجلًا إذا حَمَلَ لا يَرجِعُ حتى يَهزِمَنا، فَقُلتُ: مَن هذا؟ قالوا حَمزَةُ، قُلتُ: هذا حاجَتي»[3].

قَولُهُ: «فلما أَنِ اصطَفُّوا للقِتالِ، خرجَ سِباعٌ»:

ولابن أبي عاصِمٍ: «فَواللهِ إنِّي لَأَتَهَيَّأُ له قدِ استَتَرتُ بأَصلِ شَجَرَةٍ أو حَجَرٍ، إذ نَفَرَ منَ الناسِ سِباعُ بن عبدِ العُزَّى».

وهو سِباعُ بن عبدِ العُزَّى الخُزاعيُّ ثم الغُبشانيُّ، ذكر ابن إسحاقَ أَنَّ كُنيَتَهُ أَبو نيارٍ[4].

قَولُهُ: «فقال: هَل من مُبارِزٍ؟»:

قال ابنُ الجَوزيِّ: «المبارِزُ: الذي يخرُجُ إلى قِتالِ مَن يتَعاطى قِتالَه، وهو مَأخوذ من البَرازِ، وهو اسمٌ للفَضاءِ الواسِع»[5].

ويُقالُ: بارَزَ القِرنَ مُبارَزَةً وبرازًا: بَرَزَ إلَيه، وهُما يَتَبارزانِ[6].

---

(١) أي وسطهم، فيما بينهم.

(٢) هذه بالسيف هذًّا: قطعه كهذأه، وسيف هذهاذ وهذاهذ: قطاع. لسان العرب (٣/ ٥١٧).

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٦٩).

(٤) فتح الباري (٧/ ٣٦٩)، سيرة ابن هشام (٢/ ٦٩)، البداية والنهاية (٥/ ٣٦٠).

(٥) كشف المشكل (٤/ ١٧٦).

(٦) القاموس المحيط (ص٥٠٢).

وقال **الأزهَريُّ**: «البَرازُ: المكانُ الفَضاءُ من الأَرضِ البَعيدُ الواسِع، وإذا خرجَ الإنسانُ إلى ذلك المَوضِعِ قيلَ: قد برَز، وإذا تسابَقتِ الخيلُ قيلَ لسابقِها: قد برَّز عليها.

والمبارَزَةُ: الحَربُ، والبرازُ: أُخِذَ من هذا، تبارزَ القِرنانِ»[1].

قال: «**فَخرجَ إليه حَمزَةُ بن عبدِ المطَّلِب، فقال: يا سِباعُ، يا ابنَ أُمِّ أَنمارٍ مُقَطِّعَةِ البُظورِ**»:

«**أُمّ أَنمارٍ**»: هي أُمُّهُ، كانت مَولاةً لشَريق بن عَمرٍو الثَّقَفيِّ والِدِ الأَخنَسِ، وكانت خَتَّانَةً بمكةَ تَختِنُ النِّساءَ.

وقَولُهُ: «**مُقَطِّعَة البُظورِ**»: جَمعُ بَظرٍ، وهي اللَّحمَةُ التي تُقطَعُ من فَرجِ المَرأَة عِندَ الخِتان.

والعَرَبُ تُطلِقُ هذا اللَّفظَ في مَعرِضِ الذَّمِّ، وإلا قالوا: «خاتِنَةً»[2].

وقد قيلَ: **إنَّ أمَّ أَنمارٍ هذه هي أُمُّ خَبَّاب بن الأَرَتِّ الصحابيِّ المشهورِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقيلَ: بَل هي مَولاتُه، قال ابنُ سَعدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالوا: كان أصابَه -يعني خَبَّابًا- سِبًا، فبيعَ بمكةَ، فاشتَرَتهُ أُمُّ أَنمارٍ، وهي أُمُّ سِباعٍ الخُزاعيّةُ.

ويُقالُ: بَل أُمُّ خَبَّابٍ وأُمُّ سَباعِ بن عبدِ العُزَّى الخُزاعيِّ واحدةٌ، وكانت ختَّانَةً بمَكّةَ، وهي التي عَنى حَمزَةُ بن عبدِ المطّلب يومَ أُحُدٍ حينَ قال لسِباعِ بن عبدِ العُزَّى، وأمُّه أُمُّ أَنمارٍ: «هَلُمَّ إليَّ يا ابنَ مُقَطِّعَةِ البُظورِ»، فانضَمَّ خَبَّابُ بن الأَرَتِّ إلى آلِ سِباعٍ، وادَّعى حِلفَ بَني زُهرَةَ بهذا السَّبَب»[3].

وقال **الحافظُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُبيَ في الجاهِليَّةِ، فبيعَ بمكةَ، فكان مَولى أُمِّ أَنمارٍ الخُزاعيَّةِ، وقيلَ غيرُ ذلك، ثم حالَفَ بَني زُهرَةَ»[4].

وقال **ابنُ كَثيرٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان قد أَصابَهُ سِباءٌ في الجاهِليَّةِ، فاشتَرَتهُ أُمُّ أَنمارٍ الخُزاعيَّةُ،

---

(١) تهذيب اللغة (١٣/ ١٣٨).

(٢) الفتح (٧/ ٣٦٩)، سيرة ابن هشام (٢/ ٦٩).

(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ١٢٢).

(٤) الإصابة (٢/ ٢٢١).

التي كانت تَختِنُ النِّساءَ، وهي أُمُّ سِباعِ بن عبدِ العُزَّى الذي قَتَله حَمزَةُ يَومَ أُحُدٍ، حالَفَ خَبَّابٌ بَني زُهرَةَ»[١].

وقال **ابنُ الأَثيرِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختُلِفَ في نَسَبه، فقيلَ: خُزاعيٌّ، وقيلَ: تَميميٌّ، وهو الأكثَرُ.

وهو عَرَبيٌّ، لَحِقَهُ سِباءٌ في الجاهِليَّةِ، فبيعَ بمَكَّةَ، وقيلَ: هو حَليفُ بَني زُهرَةَ.

وقال **ابنُ مَندَه، وأَبو نُعَيم**: «قيلَ: هو مَولى عُتبَةَ بن غزوانَ، وقيلَ: مَولى أُمِّ أَنمارٍ بنتِ سِباعٍ الخُزاعيّةِ، وهي من حُلَفاءِ بَني زُهرَةَ، فَهو تَميميُّ النسَبَ، خُزاعيُّ الوَلاءِ؛ زُهريُّ الحِلفِ، لِأَنَّ مَولاتَهُ أُمَّ أَنمارٍ كانت من حُلفاءِ عَوفِ بن عبدِ عَوفِ بن عبدِ الحارِثِ بن زُهرَةَ، والِدِ عبدِ الرحمَنِ بن عوفٍ»[٢].

وقال **ابنُ أَبي خَيثَمَةَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «خَبَّابُ بن الأَرَتِّ: من بَني سَعدِ بن زَيدِ مَناة، أَصابَهُ سِباءٌ في الجاهِليَّةِ، أَعتَقَتهُ أُمُّ أَنمارٍ الخُزاعيّة، وهُم حُلفاءُ بَني زُهرَةَ»[٣].

وقال **ابنُ عبدِ البَرِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَصابَهُ سَبيٌ، فبيعَ بمكةَ، فاشترَته أُمُّ أَنمارٍ بنتُ سِباعٍ الخُزاعيَّةُ، وأبوها سِباعٌ حَليفُ بَني عَوفِ بن عبدِ عَوفٍ.

وقد قيلَ: هو مَولى ثابتِ بن أُمِّ أَنمارٍ، وقيلَ: بَل أُمُّ خَبَّابٍ هي أُمُّ سِباعٍ الخُزاعيَّة، ولَم يَلحقهُ سِباءٌ، ولكِنَّه انتَمى إلى حُلَفاءِ أُمِّه من بَنِي زُهرَةَ»[٤].

قَولُهُ: «**أَتُحادُّ اللهَ ورسوله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟»:

أَي: أَتُعانِدُ، وأَصلُ المحادَدَةِ: أَن يكونَ ذا في حَدٍّ، وذا في حَدٍّ، ثم استُعمِلَ في المحارَبَةِ والمعاداةِ.

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٦٤٧).

(٢) أسد الغابة (٢/ ١٤٧).

(٣) تاريخ ابن أبي خيثمة (٣/ ٧).

(٤) الاستيعاب (٢/ ٤٣٨).

وقال **القُرطُبيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المحادَّةُ: وُقوعُ هذا في حَدٍّ، وذاكَ في حَدٍّ، كالمشاقَّةِ، يُقالُ: حادَّ فُلانٌ فُلانًا، أَي: صارَ في حَدٍّ غيرِ حَدِّهِ»[١].

وقال **السَّعديُّ** في قَولِهِ تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٦٣]: «أي: يكونُ في حَدٍّ وشقٍّ مُبعَدٍ عَنِ اللهِ ورسولِه، بأَن تَهاوَنَ بأوامِرِ اللهِ، وتَجَرَّأَ على مَحارِمِهِ»[٢].

قَولُهُ: «ثم شَدَّ عليه، فَكان كَأَمسِ الذَّاهِب»:

وهي كِنايَةٌ عن قَتلِهِ، أَي: صَيَّرَهُ عَدَمًا.

قال **بَدرُ الدِّينِ العَينيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا كِنايَةٌ عن إعدامِهِ إيَّاه بالقَتلِ في الحال، وقَولُه: «الذَّاهِب»، صِفَةٌ لازِمَةٌ مُؤَكِّدَةٌ»[٣].

وعِندَ **ابنِ إسحاقَ**: «فَضَرَبَهُ ضَربَةً، كَأَنَّما أَخطَأَ رَأسَهُ».

أَي: أَسرَعَ الضَّربَ والقطعَ، وكَأَنَّ السَّيفَ لَم يُصادف ما يُريدُهُ.

قال **الحافظُ**: «وهذا يُقالُ عِندَ المبالَغَةِ في الإصابَةِ»[٤].

وللطَّبَرانيّ: «فَدَنا إليه فَضَرَبَهُ، فَكَأَنَّما أَخطَأَهُ».

ولابنِ عَساكِر: «ما رَأَيتُ شَيئًا أَسرَعَ من سُقوطِ رَأسِهِ».

قال: «وكَمَنتُ لِحمزَةَ تَحتَ صَخرَةٍ»:

«كَمَنتُ» -بفَتحِ الميمِ- أَي: اختَفَيتُ.

يُقالُ: كَمَنَ كُمونًا: اختَفى، وكَمَن له يَكمُن كُمونًا وكَمِن: استَخفى، وكَمَنَ فلانٌ إذا استَخفى في مَكمَنٍ لا يُفطَنُ له، وأَكمَنَ غيرَه: أَخفاهُ.

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ١٩٤).

(٢) تفسير السعدي (ص٣٤٢)

(٣) عمدة القاري (١٧/ ١٥٩).

(٤) فتح الباري (٧/ ٣٦٩).

ومنه الكَمينُ في الحَرب[١].

وعِندَ **الطيالسيّ، والبَيهَقيّ**: «وجَعَلتُ أَلوذُ منه، فَلُذتُ بشَجَرَةٍ، ومَعي حَربَتي».

ولابن أبي عاصِم: «فَأَخَذتُ حَربَتي وجَعَلتُ أنظُرُ حَمزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى رَأَيتُهُ في عُرضِ الناسِ مِثلَ الجَمَلِ الأَورَقِ، يَهُدُّ الناسَ بسَيفِهِ هَذًّا، ما يُبقي شَيئًا، فَواللهِ إنِّي لَأَتَهَيَّأُ له، قدِ استَتَرتُ بأَصلِ شَجَرَةٍ، أو حَجَرٍ».

ولابنِ عَساكِر: «ودَنا مِنِّي، إلا أَنَّهُ تَستَتِرَ مِنِّي بأَصلِ شَجَرَةٍ، أو صَخرَةٍ».

قَولُهُ: «فلما دَنا مِنِّي رَمَيتُهُ بحَربَتي، فَأَضَعُها في ثُنَّتِهِ، حتى خرجَت من بينِ وِركَيهِ، قال: فكان ذاكَ العَهدَ بهِ»:

«**في ثُنَّتِهِ**»: **قال الحافظُ**: «هي العانَةُ، وقيلَ: ما بينَ السُّرَّةِ والعانَةِ، وللطَّيالِسِيِّ: «فَجَعَلتُ أَلوذُ من حَمزَةَ بشَجَرَةٍ ومَعي حَربَتي، حتى إذا استَمكَنتُ منه هَزَزتُ الحَربَةَ، حتى رَضيتُ منها، ثم أَرسَلتُها، فَوَقَعَت بينَ ثَندوَتَيهِ، وذَهَبَ يَقومُ فلم يَستَطِع»[٢].

والثَّندوَةُ: هي منَ الرجُلِ مَوضِعُ الثَّديِ منَ المَرأَةِ، والذي في الصحيحِ -أَنَّ الحَربَةَ أَصابَت ثُنَّتَهُ- أَصَحُّ».

ولابنِ عَساكِر: «فَهَزَزتُ حَربَتي، حتى إذا رَضيتُ منها دَفَعتُها عليه، فوَقَعَت في ثُنَّتِهِ، حتى خرجَت من بينِ رِجلَيهِ».

ولابن أبي عاصِم، وأبي طاهِرٍ المخلّصِ: «فَهَزَزتُ حَربَتي، حتى إذا رَضيتُ منها رَفَعتُها عليه، فَوَقَعَت بينَ كَتِفَيهِ، حتى خرجَت من ثَدييهِ، فَوَقَعَ الرجُلُ، فَذَهَبَ لينوءَ بها فَقَلَبتهُ، فَتَرَكتُهُ وإيَّاها، واستَأخَرتُ عنه حتى ماتَ الرجُلُ، فَقُمتُ إليه فَأَخَذتُها».

وما في الصحيحِ أَصَحُّ.

---

(١) الصحاح (٦/ ٢١٨٨)، لسان العرب (١٣/ ٣٥٩).

(٢) مسند الطيالسي (١٤١٠)، ومن طريقه رواه البيهقي في السنن (١٨١٨٨)، وأبو نعيم في المعرفة (٢/ ٦٧٦)، بلفظ: «ثندوتيه».

وقال ابنُ أبي شَيبَةَ: حدّثنا أَبو أُسامَةَ، عَنِ ابنِ عَونٍ، عن عُمَيرِ بن إسحاقَ، قال: «كان حَمزَةُ يُقاتِلُ بينَ يَدَي رسولِ اللهِ ﷺ يومَ أُحُدٍ بسَيفَينِ، ويقولُ: «أَنا أَسَدُ اللهِ»، قال: فَجَعَلَ يُقبلُ ويُدبرُ، فَعَثَرَ فَوَقَعَ على قَفاهُ مُستَلقيًا وانكَشَطَ، وانكَشَفَتِ الدِّرعُ عن بَطنِهِ، فَأَبصَرَهُ العبدُ الحَبَشيُّ، فَزَرقَهُ[1] برُمحٍ أو حَربَةٍ، فَبَقَرَه بها»[2].

وهذا مُرسَلٌ.

وقَولُهُ: «فلما رجعَ الناسُ رجعتُ معهم»:

وقد كان خرج لا يَطلُبُ إلا حَمزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ليَفتَكَّ بقَتلِه منَ الرِّقِّ.

وعِندَ ابنِ حبَّان، وابن أبي عاصِم، وابنِ عَساكِر: «ثم رجعتُ إلى المعَسكَرِ فَقَعَدتُ، ولَم يَكُن لي حاجَةٌ بغيرِهِ، وإنَّما قَتَلتُهُ لِأُعتَقَ، فلما قدِمنا مكةَ عَتَقتُ».

وللطَّيالسيّ، والبَيهَقيّ: «ثم أَخَذتُ حَربَتي، ما قَتَلتُ أَحَدًا ولا قاتَلتُهُ، فلما جِئتُ عَتقتُ».

وللطَّبَرانيّ: «واعتَزَلتُ، ورجعتُ في الناسِ إلى مكةَ، وعَتقتُ».

قَولُهُ: «فَأَقَمتُ بمكةَ حتى فَشا فيها الإسلامُ، ثم خرجتُ إلى الطائِفِ، فَأَرسَلوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ رسولًا، فَقيلَ لي: إنَّهُ لا يَهيجُ الرُّسُلَ»:

ولأبي طاهِرٍ المخلّص: «فلما قدِمنا مكةَ عَتقتُ، وأَقَمتُ بها حتى فُتِحَت مكةُ، ثم هَرَبتُ إلى الطائِفِ، فلما خَرجَ وفدُ ثقيفٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ضاقَت عَلَيَّ الأرضُ بما رَحُبَت، فقُلتُ: أَلحقُ باليَمَنِ أو بالشَّامِ، فواللهِ إنِّي في غَمِّ ذلك إذ قال لي قائلٌ: ويحَكَ! الحق بمحمدٍ ﷺ؛ فواللهِ ما يَقتُلُ أَحَدًا دَخَلَ في دينِهِ، ويَشهَدُ بشَهادَتِهِ».

ولِابنِ إسحاقَ، وابنِ عساكِر: «فلما قدِمتُ مكةَ أُعتِقتُ، ثم أَقَمتُ حتى إذا افتَتَحَ رسولُ اللهِ ﷺ مكةَ هَرَبتُ إلى الطائِفِ، فَمَكَثتُ بها، فلما خرجَ وفدُ الطائِفِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ليسلِموا تَعَيَّت عَلَيَّ المَذاهِبُ، فَقُلتُ: أَلحقُ بالشَّأمِ، أوِ اليَمَنِ، أو

---

(١) أي: طعنه.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٣٦٦)، وينظر: الطبقات لابن سعد (٣/ ٨).

ببَعضِ البلاد، فَواللهِ إنِّي لَفي ذلك من هَمِّي، إذ قال لي رجلٌ: ويحَكَ! إنَّهُ واللهِ ما يَقتُلُ أَحَدًا من الناسِ دَخَلَ في دينِهِ، وتَشَهَّدَ شَهادَتَهُ».

وللطَّبَرانيّ: «فلما فَتَحَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكةَ خرجتُ إلى الطائِفِ، فَأَقَمتُ بها، فلما أَجمع أَهلُ الطائِفِ على مُصالَحَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَيَّت عَلَيَّ المَذاهِبُ، فَجَعَلتُ أَتَذَكَّرُ أَينَ أَذهَبُ؟ فَبينا أَنا في هَمِّي إذ عَرَضَ لي رجلٌ، فقال: ما لي أَراكَ هَكذا؟ قُلتُ: هذا الرجُلُ قد بلغتُ من عَمِّهِ، وقد أرى هَؤُلاءِ القَومَ قد أَجمَعوا على مُصالَحَتِهِ، فَما أَدري أَينَ أَذهَبُ؟ قال: فَواللهِ ما يَقتُلُ أَحَدًا أَتاهُ وشَهِدَ شَهادَتَهُ، فَخرجتُ كَما أَنا».

وللطَّيالسيّ: «فلما قدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَدتُ الهَرَبَ منه أُريدُ الشَّامَ، فَأَتاني رجلٌ فقال: ويحَكَ يا وحشيُّ! واللهِ ما يَأتي محمدًا أَحَدٌ فَيَشهَدُ بشَهادَتِهِ إلا خَلَّى عنه».

وقَولُهُ: «فَأَرسَلوا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولًا»:

وفي رواية للبخاريّ: «رُسُلًا».

قال الحافظُ: «كان أَوَّلَ مَن قدِمَ مِنَ ثَقيفٍ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدينَةَ: عُروَةُ بن مَسعودٍ، فَأَسلَمَ ورجعَ فَدَعاهُم إلى الإسلامِ فَقَتَلوهُ، ثم نَدِموا، فَأَرسَلوا وفدَهُم، وهُم عَمرو بن وهب بن مُغيثٍ، وشُرَحبيلُ بن غَيلانَ بن مَسلَمَةَ، وعبدُ ياليلَ بن عَمرِو بن عُمَيرٍ، هَؤُلاءِ الثَّلاثَةُ منَ الأَحلافِ، وعُثمانُ بن أَبي العاصِ، وأوسُ بن عَوفٍ، ونُمَيرُ بن حَرشَةَ، وهَؤُلاءِ الثَّلاثَةُ من بَني مالِكٍ، ذكرَ ذلك محمدُ بن إسحاق مُطَوَّلًا، وزادَ ابنُ إسحاقَ: أَنَّ الوَفدَ كانوا سَبعينَ رجلًا، وكان السِّتَّةُ رُؤَساءَهُم، وقيلَ: كان الجَميعُ سَبعَةَ عَشَرَ، قال: «وهو أَثبَتُ».

وقَولُهُ: «فَقيلَ لي: إنَّهُ لا يَهيجُ الرُّسُلَ»، أَي لا يَنالُهُم منه إزعاجٌ»[1].

وقال ابنُ المُلَقِّنِ: «أي: لا يَنالُهُم منه مَكروهٌ، وهاجَه يَهيجُه: صَرَفَه، وهاجَ الشَّيءُ: تَحَرَّكَ»[2].

---

(١) الفتح (٧/ ٣٧٠).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢١/ ١٨١).

قَولُهُ: «فَخرجتُ معهم، حتى قدِمتُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»:**

ولابنِ إسحاقَ: «فلم يَرُعهُ إلا بي قائِمًا على رَأسِهِ، أَتَشَهَّدُ بشَهادَةِ الحقِّ».

وللطَّيالسيِّ، وابنِ أبي عاصِمٍ: «فانطَلَقتُ، فَما شَعَرَ بي إلا وأَنا قائِمٌ على رَأسِهِ، أَشهَدُ بشَهادَةِ الحقِّ».

وللطَّبَرانيِّ: «فَواللهِ ما شَعَرتُ حتى قُمتُ على رَأسِهِ بالمَدينَةِ، فَرَفَعَ رَأسَهُ فَنَظَرَ إِلَيَّ، فقال: «**وحشيٌّ؟**»، قُلتُ: وحشيٌّ، وشَهِدتُ بشَهادَتِهِ».

قَولُهُ: «فلما رَآني قال: «آنتَ وحشيٌّ؟»، قُلتُ: نَعَم، قال: «أَنتَ قَتَلتَ حَمزَةَ؟» قُلتُ: قد كان منَ الأَمرِ ما بلغَكَ»:

وعِندَ الطيالسيّ، والبَيهَقيّ:

فقال: «**أَوَحشيٌّ؟**»، قُلتُ: نَعَم وحشيٌّ، قال: «**ويحَكَ! حَدِّثني عن قَتلِ حَمزَةَ**»، فَأَنشَأتُ أُحَدِّثُهُ كَما حَدَّثتُكُما».

ولِابنِ أبي عاصِمٍ: «قال: «**اجلِس فَحَدِّثني كَيفَ كان قَتلُكَ حَمزَةَ**»، فَجَلَستُ بينَ يَدَي رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَدَّثتُهُ كَما حَدَّثتُكُما».

ولابنِ إسحاقَ: «فلما رَآني قال: «**أَوَحشيٌّ؟**»، قُلتُ: نَعَم يا رسولَ اللهِ، قال: «**اقعُد فَحَدِّثني كَيفَ قَتَلتَ حَمزَةَ**»، قال: فَحَدَّثتُهُ كَما حَدَّثتُكُما».

وللطَّبَرانيِّ: «فقال: «**ويحَكَ! أَخبرني عن قَتلِكَ حَمزَةَ، كَيفَ قَتَلتَهُ؟**»، فَأَخبَرتُهُ -واللهِ- كَما أَخبَرتُكُما».

وقال الحافظُ: «وعِندَ يونُسَ بن بُكَيرٍ في المَغازي، وعِندَ ابن إسحاقَ: قال: فَقيلَ لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هذا وحشيٌّ، فقال: «**دَعوهُ؛ فَلَإِسلامُ رجلٍ واحدٍ أَحَبُّ إِلَيَّ من قَتلِ أَلفِ كافِرٍ**»[1].

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٧٠)، ولا يصح سنده كما هو ظاهر.

قَولُهُ: «قال: «فَهَل تَستَطيعُ أَن تُغَيِّبَ وجهَكَ عَنِّي؟»، قال: فَخرجتُ»:

وللطَّيالسيّ: فقال: «**ويحَكَ يا وحشيُّ! غَيِّب عَنِّي وجهَكَ فلا أَراكَ**»، فَكُنتُ أَتَّقي أَن يَراني رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وعِندَ أحمَدَ: قال: «**ما تَستَطيعُ أَن تُغَيِّبَ عَنِّي وجهَكَ؟**».

ولابنِ أبي عاصِمٍ: «قال: «**ويحَكَ! غَيِّب عَنِّي وجهَكَ بأَن لا أَراكَ**»، قال: فَكُنتُ أَتَنكَبُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ كان حَيًّا، حتى قَبَضَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وللطَّبَرانيِّ: «قال: «**ويحَكَ! غَيِّب عَنِّي وجهَكَ**»، فَكُنتُ أَتَجَنَّبُهُ حتى قَبَضَهُ اللهُ تعالى».

ولابنِ عَساكِر: «فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**غَيِّب عَنِّي وجهَكَ**»، قال: فكُنتُ إذا رأَيتُه تَوارَيتُ عنه».

ولابنِ إسحاقَ: «قال: «**ويحَكَ! غَيِّب عَنِّي وجهَكَ، فلا أَرَيَنَّكَ**»، قال: فَكُنتُ أَتَنكَّبُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيثُ كان؛ لِئَلَّا يَراني، حتى قَبَضَهُ اللهُ».

وعن وحشيِّ بن حَربٍ، عن أَبيهِ، عن جَدِّهِ، قال: أَتَيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لي: «**وحشيٌّ؟**»، فَقُلتُ: نَعَم، قال: «**أَقَتَلتَ حَمزَةَ؟**»، قُلتُ: نَعَم، والحَمدُ للهِ الذي أَكرَمَهُ بيَدي، ولَم يُهِنِّي بيَدَيه، فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، فاستَغفِر لي، فَتَفَلَ في الأَرضِ ثَلاثَةً، ودَفَعَ في صَدري ثَلاثَةً، وقال: «**يا وحشيُّ، اخرُج فَقاتِل في سَبيلِ اللهِ، كَما قاتَلتَ لِتَصُدَّ عن سَبيلِ اللهِ**». ولا يَصِحُّ سَنَدُهُ[1].

قَولُهُ: «فلما قُبِضَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخرجَ مُسَيلِمَةُ الكَذَّابُ، قُلتُ: لَأَخرُجَنَّ إلى مُسَيلِمَةَ؛ لَعَلِّي أَقتُلُهُ فَأُكافِئَ بِهِ حَمزَةَ»:

وللطَّيالسيِّ: «فلما كان من أَمرِ مُسَيلِمَةَ ما كان، وانبَعَثَ إليه البَعثُ، انبَعَثتُ معه، وأَخَذتُ حَربَتي».

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٣٩)، وإسناده ضعيف، وحشي بن حرب الحفيد: قال صالح جزرة: «لا يشتغل به، ولا بأبيه»، وقال العجلي: «لا بأس به»، وأبوه مجهول، ما روى عنه سوى ابنه وحشي. ينظر: ميزان الاعتدال (١/ ٤٧١)، (٤/ ٣٣١).

ولابنِ أبي عاصِمٍ: «فلما غَزا المسلمونَ مُسَيلِمَةَ، خرجتُ بحَربَتي التي قَتَلتُ بها حَمزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

ولِابنِ إسحاقَ نَحوهُ.

وقَولُهُ: «لَعَلِّي أَقتُلُهُ فَأُكافِئَ بِهِ حَمزَةَ»، أَي: أُساويه بِهِ.

وقال ابنُ المَلَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: أُقَابله وأُعارِضَه وأُوَازِنَهُ، وهذا إشفاقٌ منه؛ لِأَنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما كان قَبله»[١].

قَولُهُ: «قال: فَخرجتُ مع الناسِ، فَكان من أَمرِهِ ما كان»:

أَي: من مُحارَبَتِهِ، وقَتلِ جَمعٍ من الصحابَةِ في الوَقعَةِ التي كانت بينهم وبينَهُ، ثم كان الفَتحُ للمسلمينَ بقَتلِ مُسَيلِمَةَ.

قال: «فإذا رجلٌ قائِمٌ في ثَلمَةِ جِدارٍ، كَأَنَّهُ جَمَلٌ أورَقُ، ثائِرُ الرأسِ»:

«ثَلمَةِ جِدارٍ»، أَي: خَلَلِ جِدارٍ.

قال بَدرُ الدِّينِ الدَّماميني رَحِمَهُ اللَّهُ: **«في ثَلمَة جدارٍ»**: بفتحِ المثلّثة»[٢].

وقال القَسطَلانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بفتحِ المثلَّثةِ، وسُكونِ اللَّامِ، أي: خَلَل جِدارٍ»[٣].

وقال الفَيروزآباديّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الثُّلمَةُ، بالضم: فُرجَةُ المَكسورِ والمَهدومِ»[٤].

وقال ابنُ دُريدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الثُّلمَة والثَّلمَة: الفَتح في الشَّيء»[٥].

وقال ابنُ قُرقولٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو المَوضِعُ المتَهَدِّمُ منه، وثُلمَةُ الإناءِ: المتَكَسِّرُ من حاشيَتِهِ»[٦].

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢١/ ١٨١).

(٢) مصابيح الجامع (٨/ ١٨).

(٣) إرشاد الساري (٦/ ٣٠٦).

(٤) القاموس المحيط (ص١٠٨٤).

(٥) جمهرة اللغة (٢/ ١١٣٣).

(٦) مطالع الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ٥٤).

وقال ابنُ مَنظورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الثُّلمَةُ: الخَلَلُ في الحائِطِ وغيرِهِ، وثَلِمَ الشَّيءُ، بالكَسرِ، يَثلَم، فَهو أَثلَمُ بَيِّنُ الثَّلَمِ، وثَلَّمتُهُ أَيضًا، شُدِّد للكَثرَةِ»[1].

وقَولُهُ: «جَمَلٌ أورَقُ»، أَي: لَونُهُ مِثلُ الرمادِ، وكان ذلك من غُبارِ الحَرب.

وقال ابنُ الملَقِّنِ: «الأورَقُ منَ الإبلِ: الذي يَضرِبُ إلى الخُضرَةِ، وقيلَ: الوُرقَةُ: لَونُ الرمادِ، وبه جَزَمَ ابنُ التينِ، يُقالُ: أَسمَرُ لَونُهُ كَلَونِ الرمادِ»[2].

وقَولُهُ: «ثائِرُ الرأسِ»، أَي: شَعرُهُ مُنتَفِشٌ.

قال: «فَرَمَيتُهُ بحَربَتي، فَأَضَعُها بينَ ثَدَيَيهِ، حتى خرجَت من بينِ كَتِفَيهِ»:

ولابنِ إسحاقَ: «فَهَزَزتُ حَربَتي، حتى إذا رَضيتُ منها دَفَعتُها عليه، فَوَقَعَت فيه».

ولابنِ أبي عاصِمٍ: «حتى إذا أَمكَنَني رَفَعتُ عليه حَربَتي، فَوَقَعَت فيه».

ولأبي طاهِرٍ المخَلّصِ، وابنِ عَساكِر: «حتى إذا أَمكَنَتني منه الفُرصَةُ، دَفَعتُ إليهِ حَربَتي، فوَقَعَت فيه».

وللطَّبَرانيِّ: «فَحَمَلتُ عليه أَنا ورجلٌ منَ الأَنصارِ، ومَعي حَربَتي التي قَتَلتُ بها حَمزَةَ، فَقَذَفتُهُ بالحَربَةِ».

قولُه: «ووَثَبَ إليه رجلٌ منَ الأَنصارِ»:

قال الحافظُ: «هو عبدُ اللهِ بن زَيدِ بن عاصِمٍ المازِنيُّ، كَما جَزَمَ بِهِ الواقِديُّ، وإسحاق بن رَاهَوَيهِ، والحاكِمُ، وقيلَ: هو عَديُّ بن سَهلٍ، جَزَمَ بِهِ سَيفٌ في كِتاب الرِّدَّةِ، وقيلَ: أَبو دُجانَةَ، وقيلَ: زَيدُ بن الخَطَّاب، والأَوَّلُ أَشهَرُ، ولَعَلَّ عبدَ اللهِ بن زَيدٍ هو الذي أَصابَتهُ ضَربَتُهُ، وأَمَّا الآخَرانِ: فَحَمَلا عليه في الجُملَةِ.

---

(١) لسان العرب (١٢/ ٧٩).

(٢) التوضيح (٢١/ ١٨١).

وأَغرَبَ وثيمَةُ[١] في كِتاب الرِّدَّةِ، فَزَعَمَ أَنَّ الذي ضَرَبَ مُسَيلِمَةَ هو شَنّ -بفَتح المعجَمَة وتشديد النُّون- بن عبدِ اللهِ، وأَنشَدَ له:

أَلَم تَـرَ أَنِّي ووَحشـيَّهُم ... ضَرَبنـا مُسَـيلِمَةَ المفَتَّـن
يُسـائِلُني النـاسُ عن قَتلِهِ ... فَقُلتُ ضَرَبتُ وهذا طَعن
فَلَسـتُ بصاحِبـهِ دونَـهُ ... وليس بصاحِبهِ دونَ شَـن

وأغربُ من ذلك: ما حَكى ابنُ عبدِ البَرِّ: أَنَّ الذي قَتَلَ مُسَيلِمَةَ هو خِلاسُ بنُ بَشيرِ ابن الأَصَمِّ»[٢].

قَولُهُ: «فَضَرَبَهُ بالسَّيفِ على هامَتِهِ»:

وعِندَ ابن إسحاقَ: «وشَدَّ عليه الأَنصاريُّ، فَضَرَبَهُ بالسَّيفِ، فَرَبُّكَ أَعلَمُ أَيُّنا قَتَله، فَإن كُنتُ قَتَلتُهُ، فقد قَتَلتُ خَيرَ الناسِ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ، وقَتَلتُ شَرَّ الناسِ».

وللطَّيالِسيّ والطبرانيّ نَحوهُ.

ولابنِ أبي عاصِم، وابنِ عساكِر: «فإذا رجلٌ منَ الأَنصارِ يُريدُهُ من ناحيَةٍ أُخرى، وكِلانا يَتَهَيَّأُ له، حتى إذا أَمكَنَني رَفَعتُ عليه حَربَتي فَوَقَعَت فيه، وشَدَّ عليه الأَنصاريُّ فَضَرَبَهُ بالسَّيفِ، فَرَبُّكَ أَعلَمُ أَيُّنا قَتَله، فَإن كُنتُ أَنا قَتَلتُهُ فقد قَتَلتُ خَيرَ الناسِ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ، وقَتَلتُ شَرَّ الناسِ».

وللبَيهَقيِّ: «فَبادَرتُهُ أَنا ورجلٌ منَ الأَنصارِ، فَرَبُّكَ أَعلَمُ أَيُّنا قَتَله، فَإن كُنتُ أَنا قَتَلتُهُ فقد قَتَلتُ خَيرَ الناسِ، وشَرَّ الناسِ».

وقال الطبَرانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَمى وحشيٌّ مُسَيلِمَةَ الكَذَّابَ، ورَماهُ الأَنصاريُّ، فَماتَ مُسَيلِمَةُ من جراحَتَيهِما»[٣].

---

(١) هو وثيمة بن موسى بن الفرات، متهم بالوضع، ينظر: الجرح والتعديل (٩/ ٥١-٥٢)، لسان الميزان (٦/ ٢١٧).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٧٠-٣٧١).

(٣) المعجم الكبير (٢٢/ ١٣٦).

قال سُلَيمانُ بن يسار: سَمِعتُ عبدَ اللهِ بن عمرَ يقولُ: «فقالت جاريَةٌ على ظَهرِ بَيتٍ: وا أَميرَ المؤمِنينَ! قَتَله العبدُ الأَسوَدُ».

قال الحافظُ: «هذا فيه تَأييدٌ لِقَولِ وحشيٍّ أَنَّهُ قَتَله، لكن في قَولِ الجاريَةِ: «أَميرَ المؤمِنينَ» نَظَرٌ؛ لِأَنَّ مُسَيلِمَةَ كان يَدَّعي أَنَّهُ نبيٌّ مُرسَلٌ منَ اللهِ، وكانوا يقولونَ له: يا رسولَ اللهِ، ونبيَّ اللهِ، والتلقيبُ بأَميرِ المؤمِنينَ حَدَثَ بعدَ ذلك، وأَوَّلُ مَن لُقِّبَ بهِ عمرُ، وذلك بعدَ قَتلِ مُسَيلِمَةَ بمُدَّةٍ، فَليُتَأَمَّل هذا.

وأَمَّا قَول ابن التينِ: «كان مُسَيلِمَةُ تسَمَّى تارَةً بالنبيِّ، وتارَةً بأَميرِ المؤمِنينَ»، فَإن كان أَخَذَهُ من هذا الحَديثِ فَليس بجَيِّدٍ، وإلا فَيَحتاجُ إلى نَقلٍ بذلك، والذي في رواية الطيالِسيّ: قال ابنُ عمرَ: «كُنتُ في الجَيشِ يَومَئِذٍ، فَسَمِعتُ قائِلًا يقولُ في مُسَيلِمَةَ: قَتَله العبدُ الأَسوَدُ»، ولَم يَقُل: «أَميرَ المؤمِنينَ».

ويُحتَمَلُ أَن تَكونَ الجاريَةُ أَطلَقَت عليه الأَميرَ؛ باعتِبارِ أَنَّ أَمرَ أَصحابِهِ كان إليه، وأَطلَقَت على أَصحابِهِ المؤمِنينَ؛ باعتِبارِ إيمانهم بِهِ، ولم تقصد إلى تَلقيبِهِ بذلك، واللهُ أَعلَمُ.

ثم وجَدتُ في كَلامِ أَبي الخَطَّاب بن دِحيَةَ الإنكارَ على مَن أَطلَقَ أَنَّ عمرَ أَوَّلُ مَن لُقِّبَ أَميرَ المؤمِنينَ، وقال: «قد تَسَمَّى بِهِ مُسَيلِمَةُ قَبله، كَما أَخرَجَهُ البخاريُّ في قِصَّةِ وحشيٍّ».

يُشيرُ إلى هذه الرِّوايَةِ، وتَعَقَّبَهُ ابنُ الصلاحِ، ثم النوَويُّ، قال النوَويُّ: «وذكَرَ ابنُ الصلاحِ أَنَّ الذي ذكَرَهُ ابنُ دِحيَةَ ليس بصَحيحٍ؛ فَإِنَّهُ ليس في هذا الحَديثِ إلا أَنَّ الجاريَةَ صاحَت لَمَّا أُصيبَ مُسَيلمَة: «وا أَمير المؤمِنينَ»، ولا يَلزَمُ من ذلك تَسميَتُهُ بذلك».

واعتَرَضَ مُغَلطاي[1] أَيضًا: بأَنَّ أَوَّلَ مَن قيلَ له أَميرُ المؤمِنينَ: عبدُ اللهِ بن جَحشٍ، وهو مُتَعَقَّبٌ أَيضًا بأَنَّهُ لَم يُلَقَّب بِهِ، وإنَّما خوطِبَ بذلك؛ لِأَنَّهُ كان أَوَّلَ أَميرٍ في الإسلامِ على سَرِيَّةٍ»[2].

---

(١) هو الحافظ علاء الدين مغلطاي بن قليج بن عبد الله الحنفي. ينظر لترجمته: لسان الميزان (٦/ ٧٢)، البداية والنهاية (١٨/ ٦٣٣)، طبقات الحفاظ للسيوطي (ص٥٣٨).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٧١).

وعِندَ ابنِ أبي عاصِمٍ، وابنِ عَساكِر:

عن عبدِ اللهِ بن عمرَ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وشَهِدَ اليَمامَةَ-، قال: سَمِعتُ رجلًا يَصرُخُ: «قَتَله العبدُ الأَسوَدُ»، يَعني: مُسَيلِمَةَ».

ولابنِ إسحاقَ، وأبي طاهرٍ: «سَمِعتُ يَومئِذٍ صارِخًا يقولُ: «قَتَله العبدُالأَسوَدُ».

***

فصلٌ

في تَرجَمَةِ حَمزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو سَيِّدُ الشُّهَداءِ حَمزَةُ بن عبدِ المطَّلِب بن هاشِمِ بن عبدِ مَنافٍ، القُرَشيُّ، الهاشِميُّ، أبو عُمارَةَ، عَمُّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَخوهُ منَ الرّضاعَةِ، أرضَعَتهُما ثُوَيبَةُ مَولاةُ أبي لَهَبٍ، كما ثَبَتَ في الصحيحَينِ[1]، وقَريبُه من أُمِّه أَيضًا؛ لِأنّ أُمَّ حَمزَةَ هالة بنت أُهَيب بن عبدِ منافِ بن زُهرةَ بنتُ عَمِّ آمِنَةَ بنتِ وهب بن عبدِ منافٍ، أُمِّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وُلِدَ حَمزَةُ قَبلَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسَنَتَينِ، وقيلَ: بأَربَعٍ، وأسلَمَ في السَّنَةِ الثّانيَةِ منَ البَعثَةِ، ولازَمَ نَصرَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهاجَرَ معه.

وآخى بينَهُ وبينَ زَيدِ بن حارِثَةَ، وشَهِدَ بَدرًا، وأَبلى في ذلك، وقَتَل شَيبَةَ بنَ رَبيعةَ، وشارَك في قَتلِ عُتبَةَ بن رَبيعةَ، أو بالعَكسِ، وقَتَل طُعَيمَةَ بن عَديٍّ، وعَقدَ له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِواءً وأرسَله في سَريَّةٍ، فكان ذلك أَوَّلُ لِواءٍ عُقِدَ في الإسلامِ، في قَولِ المَدائِنيِّ.

وكان استشهادُه بأُحُدٍ في النِّصفِ من شَوَّال سنةَ ثَلاثٍ منَ الهِجرةِ، فعاشَ دونَ السّتِّينَ، ولُقِّبَ بـ«أَسَدِ اللهِ»، و«سَيِّدِ الشُّهداءِ»، ويُقالُ: إنَّه قَتَل بأُحُدٍ -قَبلَ أن يُقتَلَ- أكثَرَ من ثَلاثينَ نَفسًا[2].

---

(١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بنت حمزة: «**لا تحل لي، يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة**». رواه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧).

(٢) الإصابة (٢/ ١٠٥-١٠٦).

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُؤمِنًا راسِخَ الإيمانِ، عَظيمَ الوَلاءِ لِدينِه، شَديدَ الحُبِّ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان بطَلًا شُجاعًا مِقدامًا، إذا خاضَ الحربَ هابَه العَدوُّ كُلُّه، يَحطِمُ بسَيفِه كُلَّ مَن يلقاهُ منهم.

قِصَّةُ إسلامِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَني رجلٌ من أَسلَمَ -كان واعيةً-: «أَنَّ أَبا جَهلٍ مَرَّ برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِندَ الصفا، فَآذاهُ وشَتَمَهُ، ونالَ منه بَعضَ ما يَكرَهُ من العَيب لِدينِهِ، والتضعيفِ لِأَمرِهِ، فلم يُكَلِّمهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَولاةٌ لِعبدِ اللهِ بنِ جُدعانَ في مَسكَنٍ لها تَسمَعُ ذلك، ثم انصَرَفَ عنه، فَعَمَدَ إلى نادٍ[1] من قريشٍ عِندَ الكَعبَةِ، فَجَلَسَ معهم، فلم يَلبَث حَمزَةُ بن عبدِ المطَّلِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَن أَقبَلَ مُتَوَشِّحًا[2] قَوسَهُ، راجِعًا من قَنصٍ له[3]، وكان صاحِبَ قَنصٍ يَرميهِ ويَخرُجُ له، وكان إذا رجعَ من قَنصِهِ لَم يَصِل إلى أَهلِهِ حتى يَطوفَ بالكَعبَةِ، وكان إذا فَعَلَ ذلك لَم يَمُرَّ على نادٍ من قريشٍ إلا وقَفَ وسَلَّمَ وتَحَدَّثَ معهم، وكان أَعَزَّ فَتًى في قريشٍ، وأَشَدَّ شَكيمَةً.

فلما مَرَّ بالمَولاةِ، وقد رجعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بَيتِهِ، قالت له: يا أَبا عُمارَةَ، لَو رَأَيتَ ما لَقيَ ابنُ أَخيكَ محمدٌ آنِفًا من أَبي الحَكَم بن هِشام: وجَدَه ها هُنا جالِسًا فَآذاهُ وسَبَّهُ، وبلغَ منه ما يَكرَهُ، ثم انصَرَفَ عنه، ولَم يُكَلِّمهُ محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فاحتَمَلَ حَمزَةَ الغَضَبُ؛ لِما أَرادَ اللهُ بهِ من كَرامَتِهِ، فَخرجَ يَسعى ولَم يَقِف على أَحَدٍ، مُعِدًّا لِأَبي جَهلٍ إذا لَقيَهُ أَن يوقِعَ بهِ، فلما دَخَلَ المسجدَ نَظَرَ إليه جالِسًا في القَومِ، فَأَقبَلَ نحوهُ، حتى إذا قامَ على رَأسِهِ رَفَعَ القَوسَ فَضَرَبَهُ بها، فَشَجَّهُ شَجَّةً مُنكَرَةً، ثم قال: «أَتَشتمُهُ وأَنا على دينِهِ، أَقولُ ما يقولُ؟ فَرُدَّ ذلك عَلَيَّ إنِ استَطَعتَ».

فَقامَت رِجالٌ من بَني مَخزومٍ إلى حَمزَةَ لِيَنصُروا أَبا جَهلٍ، فقال أَبو جَهلٍ: دَعوا أَبا

---

(١) النادي: مجلس القوم، وقد يسمى القوم المجتمعون ناديًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق: ١٧].

(٢) أي: متقلدا.

(٣) قنص الصيد يقنصه قنصًا وقنصًا: صاده، والقنص -بالتحريك-: الصيد، والقانص: الصائد. الصحاح (٣/ ١٠٥٤)، لسان العرب (٧/ ٨٣).

عُمارَةَ، فَإنِّي -واللهِ- قد سَبَبتُ ابنَ أَخيهِ سَبًّا قَبيحًا، وتَمَّ حَمزَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على إسلامِهِ، وعلى ما تابَعَ عليه رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَولِهِ.

فلما أَسلَمَ حَمزَةُ عَرَفَت قريشٌ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عَزَّ وامتَنَعَ، وأَنَّ حَمزَةَ سَيَمنَعُهُ، فَكَفُّوا عن بَعضِ ما كانوا يَنالونَ منه.

ثمّ رجعَ حَمزَةُ إلى بَيتِهِ، فَأَتاهُ الشَّيطانُ، فقال: أَنتَ سَيِّدُ قريشٍ، اتَّبَعتَ هذا الصابئَ، وتَرَكتَ دينَ آبائِكَ؟! لَلمَوتُ خَيرٌ لَكَ مِمَّا صَنَعتَ، فَأَقبَلَ على حَمزَةَ بَثُّه[1]، وقال: «ما صَنَعتُ؟! اللهُمَّ إن كان رُشدًا فاجعَل تَصديقَهُ في قَلبي، وَإلا فاجعَل لي مِمَّا وقَعتُ فيه مَخرَجًا».

فَباتَ بلَيلَةٍ لَم يَبت بمِثلِها من وسوَسَةِ الشَّيطانِ حتى أَصبَحَ، فَغَدا على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا ابنَ أَخي، إنِّي قد وقَعتُ في أَمرٍ لا أَعرِفُ المَخرَجَ منه، وإقامَةُ مِثلي على ما لا أَدري ما هو، أَرُشدٌ هو أَم غَيٌّ شَديدٌ! فَحَدِّثني حَديثًا، فقدِ اشتَهَيتُ -يا ابنَ أَخي- أَن تُحَدِّثَني».

فَأَقبَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَذَكَّرَهُ، ووَعَظَهُ، وخَوَّفَهُ، وبَشَّرَهُ، فَأَلقى اللهُ في نَفسِهِ الإيمانَ بما قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: «أَشهَدُ أَنَّكَ الصادِقُ شَهادَةَ الصدقِ، فَأَظهِر يا ابنَ أَخي دينَكَ، فَواللهِ ما أُحِبُّ أَنَّ لي ما أَظَلَّتِ السَّماءُ وأَنِّي على ديني الأَوَّلِ».

فَكان حَمزَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِمَّن أَعَزَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِ الدِّينَ»[2].

وقد نَصَرَ اللهُ بِهِ الدِّينَ، وأَعَزَّ بإسلامِه المسلمينَ، فكانوا بِهِ في قوَّةٍ ومَنَعَةٍ ما شاءَ اللهُ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

«أي: أعانَكَ بمَعونَةٍ سَماويَّةٍ، وهو النصرُ منه الذي لا يُقاوِمُه شيءٌ، ومَعونَةٍ بالمؤمنينَ، بأَن قَيَّضَهُم لنَصرِك»[3].

---

(١) البث: الحزن، والغم.

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩١)، المستدرك (٤٨٧٨)، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢١٣)، البداية والنهاية (٤/ ٨٣).

(٣) تفسير السعدي (ص٣٢٥).

وقد مثّل بهِ المشركونَ بعدَ قَتلِه؛ لفَرطِ غيظِهم منه، مِمَّا نَكَّلَ بهم.

رَوى خالِدُ بن مَخلَدٍ، عن عبدِ الرحمَنِ بن عبدِ العَزيزِ الأَنصاريِّ، قال: حَدَّثَني الزُّهريُّ، عن عبدِ الرحمَنِ بن كَعب بن مالِكٍ، عن أَبيهِ، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن رَأى مَقتَلَ حَمزَةَ؟**»، قال رجلٌ: أَعَزَّكَ اللهُ، أَنا رَأَيتُ مَقتَلَه.

فانطَلَقَ فَوَقَفَ على حَمزَةَ، فَرَآهُ قد شُقَّ بَطنُهُ، وقد مُثِّلَ بهِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، مُثِّلَ بهِ، فَكَرِهَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن يَنظُرَ إليه، ووَقَفَ بينَ ظَهرانَيِ القَتلى، وقال: «**أَنا شَهيدٌ على هَؤُلاءِ، لِفُّوهُم في دِمائِهِم؛ فَإِنَّهُ ليس مَجروحٌ يُجرَحُ في سَبيلِ اللهِ إلا جاءَ جُرحُهُ يومَ القيامَةِ يَدمى، لَونُهُ لَونُ الدَّمِ، وريحُهُ ريحُ المِسكِ، قدِّموا أَكثَرَ القَومِ قُرآنًا، فاجعَلوهُ في اللَّحدِ**»[1].

قال أبو حاتِمٍ الرازيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُروى هذا الحَديثُ عَنِ الزُّهري، عَنِ ابنِ كَعب بن مالِكٍ، عن جابرٍ، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعبدُ الرحمَنِ هذا شيخٌ مَدَنيٌّ مُضطَرِبُ الحَديثِ»[2].

وقد اختُلِفَ في هذا الحَديثِ على الزُّهريِّ اختلافًا كَثيرًا، وقال الحافظُ: «ولا يَخفى على الحاذِقِ أَنَّ روايةَ اللَّيثِ أرجَحُ هذه الرِّوايات»[3].

وروايةُ اللَّيثِ هذه رواها البخاريّ في صَحيحِهِ: حَدَّثَنا عبدُ اللهِ بن يوسُفَ، حَدَّثَنا اللَّيثُ، قال: حَدَّثَني ابنُ شِهابٍ، عن عبدِ الرحمَنِ بن كَعب بن مالِكٍ، عن جابرِ بن عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجمَعُ بينَ الرجُلَينِ من قَتلى أُحُدٍ في ثَوبٍ واحدٍ، ثم يقولُ: «**أَيُّهُم أَكثَرُ أَخذًا للقُرآنِ؟**»، فإذا أُشيرَ له إلى أَحَدِهما قدَّمَهُ في اللَّحدِ، وقال: «**أَنا شَهيدٌ على هَؤُلاءِ يومَ القيامَةِ**»، وأَمَرَ بدَفنِهِم في دِمائِهِم، ولَم يُغَسَّلوا، ولَم يُصَلَّ عليهم[4].

وعبدُ الرحمَنِ بن عبدِ العَزيزِ: قال أبو حاتِمٍ: «شَيخٌ مُضطَرِبُ الحَديثِ»، وقال عُثمانُ

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٨٢)، والبيهقي (٦٧٩٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٣٧٢).

(٢) علل الحديث لابن أبي حاتم (٣/ ٥٠٦).

(٣) فتح الباري (١/ ٣٥٦).

(٤) صحيح البخاري (١٣٤٣)، وينظر: (١٣٤٧)، (١٣٥٣)، (٤٠٧٩).

الدَّارِميُّ، عنِ ابنِ مَعينَ: «شيخٌ مَجهولٌ»، وقال الأزديُّ: «ليس بالقَويِّ عندَهُم»، وذكرَهُ ابنُ حِبَّانَ في الثِّقاتِ، وقال ابنُ سَعدٍ: «كان كَثيرَ الحَديثِ، وكان عالِمًا بالسِّيرةِ وغيرِها»، روى لهُ مسلمٌ حديثًا واحدًا في النِّكاحِ[1].

وخالِدُ بن مَخلَد: قال أبو داوُدَ: «صَدوقٌ، لكِنَّهُ يتَشَيَّعُ»، وقال أحمَدُ: «له مناكيرُ»، وقال يَحيى وغيرُه: «لا بَأسَ بهِ»، وقال أبو حاتِمٍ: «يُكتَبُ حَديثُه، ولا يُحتَجُّ بهِ»، وقال ابنُ سعدٍ: «مُنكَرُ الحَديثِ، مُفرِطٌ في التشَيُّعِ».

وذَكرَه ابنُ عَديٍّ، ثم ساقَ له عَشرةَ أحاديثَ استَنكَرها، ثم قال: «هو منَ المكثِرينَ، لا بَأسَ بهِ إن شاءَ اللهُ»[2].

***

فصلٌ

أَمَّا ما يَذكُرُه كَثيرٌ من أهلِ المَغازي والسِّيَرِ من أنَّ هِندَ بنتَ عُتبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَناوَلَت كَبدَ حَمزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدَ مَقتَلِه فَلاكَتها، فلم تَستَسِغها: فلم يَثبُت في حَديثٍ صَحيحٍ، وإليك البَيان:

أوَّلًا:

قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنا عَفَّانُ، حَدَّثَنا حَمَّادٌ، حَدَّثَنا عَطاءُ بن السَّائِب، عَنِ الشَّعبيِّ، عَنِ ابنِ مَسعودٍ، فذكرَ الحَديثَ في غَزوَةِ أُحُدٍ، وفيه:

«... فَنَظَروا فإذا حَمزَةُ قد بُقِرَ بَطنُهُ، وأَخَذَت هِندٌ كَبدَهُ فَلاكَتها[3]، فلم تَستَطِع أَن تَأكُلها، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَأَكَلَت منه شَيئًا؟**»، قالوا: لا، قال: «**ما كان اللهُ لِيُدخِلَ شَيئًا من حَمزَةَ النارَ**»[4].

---

(١) تهذيب التهذيب (٦/ ٢٢٠).

(٢) ميزان الاعتدال (١/ ٦٤٠).

(٣) أي: مضغتها.

(٤) المسند (٤٤١٤).

وهذا إسنادٌ ضَعيفٌ، عَطاءُ بن السَّائب كان قدِ اختَلَطَ[١]، وسَماعُ حَمَّادٍ -وهو ابنُ سَلَمَةَ- منه كان قَبلَ الاِختلاطِ وبَعدَهُ، ولَم يتَمَيَّز حديثُه قَبلَ الاِختلاطِ عن حَديثِه بعدَه[٢].

والشَّعبيُّ لَم يَسمَع من ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَما قال أبو حاتِمٍ، والدَّارَقُطنيُّ[٣].

فهذا إسنادٌ ضعيفٌ مُنقَطِعٌ، وفي مَتنِه ما يُستَنكَرُ، وهو قَولُهُ: «**أَأَكَلَت منه شَيئًا؟**»، قالوا: لا، قال: «**ما كان اللهُ ليُدخِلَ شَيئًا من حَمزَةَ النارَ**»، وقد أَسلَمَت هِندٌ وحَسُنَ إسلامُها، وبايَعَت رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي الصحيحَينِ عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «جاءَت هِندُ بنتُ عُتبَةَ، قالت: يا رسولَ اللهِ، ما كان على ظَهرِ الأَرضِ من أَهلِ خِباءٍ أَحَبّ إلَيَّ أَن يَذِلُّوا من أَهلِ خِبائِكَ، ثُمَّ ما أَصبَحَ اليَومَ على ظَهرِ الأَرضِ أَهلُ خِباءٍ أَحَبّ إلَيَّ أَن يَعِزُّوا من أَهلِ خِبائِكَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأَيضًا، والذي نَفسي بيَدِهِ**»[٤].

قال ابن كثير: «فالمِدحَةُ في قَولِهِ: «**وأَيضًا، والذي نَفسي بيَدِهِ**»، وهو أَنَّهُ كان يَوَدُّ أَنَّ هِندَ وأَهلها وكُلَّ كافِرٍ يَذِلُّوا في حالِ كُفرِهِم، فلما أَسلَموا كان يُحِبُّ أَن يَعِزُّوا، فَأَعَزَّهُمُ اللهُ، يَعني أَهلَ خِبائِها»[٥].

ثانيًا:

قال ابن إسحاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ووَقَفَت هِندُ بنتُ عُتبَةَ -كَما حَدَّثَني صالِحُ بن كَيسانَ- والنِّسوَةُ اللَّاتي معها، يُمَثِّلنَ بالقَتلى من أَصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُجَدِّعنَ[٦] الآذانَ والأُنُفَ، حتى اتَّخَذَت هِندٌ من آذانِ الرِّجالِ وأُنُفِهِم خَدَمًا[٧] وقَلائِدَ، وأَعطَت

---

(١) التقريب (ص٣٩١).

(٢) انظر: التهذيب (٧/ ٢٠٧).

(٣) انظر: المراسيل لابن أبي حاتم (ص١٦٠)، التهذيب (٥/ ٦٨).

(٤) رواه البخاري (٣٨٢٥)، ومسلم (١٧١٤).

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤١١-٤١٢).

(٦) أي: يقطعن.

(٧) الخدم: جمع خدمة، وهي الخلخال: حلية من فضة كالسوار، تحلي المرأة بها رجليها، تلبس حول الكعب.

خَدَمَها وقَلائِدَها وقِرَطَتَها وحشيًّا، غُلامَ جُبَيرِ بن مُطعِمٍ، وبَقَرَت[١] عن كَبِدِ حَمزَةَ، فَلاكَتها، فلم تَستَطِع أَن تُسيغَها[٢]، فَلَفَظَتها[٣]»[٤].

وهذا إسنادٌ مُرسَلٌ لا يَصِحُّ، فصالِحُ بن كيسانَ من صِغارِ التابعينَ، وجُلُّ رِوايَتِه عَنِ التابعينَ[٥].

ثالِثًا:

روى الواقِديُّ عن وحشيِّ بن حَربٍ، أَنَّه قال بعدَ قَتلِه حَمزَةَ: «... فَشَقَقتُ بَطنَهُ، فَأَخرَجتُ كَبدَهُ، فَجِئتُ بها إلى هِند بنتِ عُتبَةَ، فَقُلت: ماذا لي إن قَتَلتُ قاتِلَ أَبيكِ؟ قالت: سَلَبي، فَقُلتُ: هذه كَبدُ حَمزَةَ، فَمَضَغَتها ثُمّ لَفَظَتها، فلا أَدري لَم تُسِغها أو قَذَرَتها، فَنَزَعَت ثيابَها وحُليّها فَأَعطَتنيهِ، ثُمّ قالت:

إذا جِئتَ مكةَ فَلَكَ عَشَرَةُ دَنانيرَ، ثم قالت: أَرِني مَصرَعَهُ، فَأَرَيتُها مَصرَعَهُ، فَقَطَعَت مَذاكيرَهُ، وجَدَعَت أَنفَهُ، وقَطَعَت أُذُنَيهِ، ثم جَعَلَت مَسَكَتَينِ ومِعضَدَينِ[٦] حتى قدِمَت بذلك مكةَ، وقدمَت بكَبِدِهِ معها»[٧].

وهذا باطِلٌ مُنكَرٌ، والواقِديُّ لا يُشتَغَلُ بِهِ، كَذَّبَهُ الشَّافِعيُّ، وأحمَدُ، والنسائيُّ، وغيرُهُم، وقال إسحاقُ بن راهَوَيه: «هو عِندي مِمَّن يَضَعُ الحديثَ»[٨].

رابعًا:

رَوى البَيهَقيُّ في الدَّلائلِ[٩] من طريقِ مُحَمَّدِ بن عَمرِو بن خالِدٍ، قال: حَدَّثَنا أَبي،

---

(١) بقرت: شقت.

(٢) أي: تبتلعها.

(٣) أي: طرحتها، ورمتها من فمها.

(٤) سيرة ابن اسحاق (ص ٣٣٣).

(٥) ينظر: التهذيب (٤/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٦) المسك: الأساور والخلاخيل من قرون أو عاج، الواحدة: مسكة، والمعضد: الدملج، وهو السوار الذي يلبس في العضد للزينة.

(٧) مغازي الواقدي (١/ ٢٨٦).

(٨) تهذيب التهذيب (٩/ ٣٢٦).

(٩) دلائل النبوة (٣/ ٢٨٢).

قال: حَدَّثَنا ابنُ لَهيعَةَ، عن أَبي الأَسوَدِ، عن عُروَةَ بن الزُّبَيرِ، فذكرَ الحَديثَ في غَزوةِ أُحُدٍ، وفيه: «... ووَجَدوا حَمزَةَ بن عبدِ المطَّلِب عَمَّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بُقِرَ بَطنُهُ، واحتُمِلَت كَبدُهُ، حَمَلها وحشيٌّ، وهو قَتَله وشَقَّ بَطنَهُ، فَذَهَبَ بكَبدِهِ إلى هِندِ بنتِ عُتبَةَ، في نَذرٍ نَذَرَتهُ حينَ قَتَلَ أَباها يَومَ بَدرٍ».

وهذا إسنادٌ ضعيفٌ مُرسَلٌ، ابنُ لَهيعَةَ كان قدِ اختَلِطَ[1]، ومُحَمَّدُ بن عَمرِو بن خالدٍ ذكرَهُ ابنُ يونُسَ في تاريخِهِ، ولم يَذكُر فيه جَرحًا ولا تَعديلًا[2].

خامِسًا:

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكرَ موسى بن عُقبَةَ أَنَّ الذي بَقَرَ كَبدَ حَمزَةَ وحشيٌّ، فَحَمَلها إلى هِندٍ، فَلاكَتها، فلم تَستَطِع أَن تُسيغَها»[3].

وهذا مُرسَلٌ أَيضًا، موسى بن عُقبَةَ تابعيٌّ صغيرٌ[4].

سادِسًا:

ما يُطلِقونَه على مُعاويةَ بن أبي سُفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ ابنُ آكِلَةِ الأَكبادِ، مِمَّا يُرَوِّجُ بِهِ أهلُ النِّفاقِ والبدعةِ والفِتنَةِ بينَ صُفوفِ المسلمينَ، فلا يُلتَفَتُ إليهِ.

سابعًا:

الثابتُ -كَما مَرَّ بنا في البخاريّ وغيرِهِ-: أَنَّ الذي حَضَّ وحشيًّا على قَتلِ حَمزَةَ هو مَولاهُ جُبَيرُ بن مُطعِمِ بن عَديِّ بن نَوفَلٍ، مُقابل حُرِّيَّتِه من الرِّقِّ، وليست هِندَ بنتَ عُتبَةَ، وما يُروى عَن وحشيٍّ أَنَّه كان يقولُ: «كُنتُ أَمُرُّ بهِندِ بنتِ عُتبَةَ فتَقولُ: إيهًا أَبا دَسمَةَ، اشفِ واشتَفِ»[5]، فمُنكَرٌ تَفَرَّدَ به الواقِديُّ، وقد تقدَّم أَنَّه مُتَّهَمٌ بالكَذِب.

---

(١) ينظر: ميزان الاعتدال (٢/ ٤٧٥-٤٨٣).

(٢) تاريخ ابن يونس (١/ ٤٥٩).

(٣) البداية والنهاية (٥/ ٤١٩).

(٤) ينظر: التهذيب (١٠/ ٣٦٠).

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات (٦/ ١٤٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ٤١١).

والخلاصة: أنَّ التَمثيلَ بحَمزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشَقَّ بَطنِهِ بعدَ استشهادِه ثابتٌ.

أمَّا ما ورَدَ من استخراجِ كَبِدِه وتَناوُلِ هِندِ بنتِ عُتبَةَ منها وعَدَمِ استِساغَتِها إيَّاها: فلا يَثبُتُ فيه شيءٌ. واللهُ أعلَمُ.

وعن عُروَةَ، قال: أَخبَرَني أَبي الزُّبَيرُ: أَنَّهُ لَمَّا كان يَومُ أُحُدٍ أَقبَلَتِ امرَأَةٌ تَسعى، حتى إذا كادَت أَن تُشرِفَ على القَتلى، قال: فَكَرِهَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن تَراهُم، فقال: «**المَرأَةَ! المَرأَةَ!**».

قال الزُّبَيرُ: «فَتَوَسَّمتُ أَنَّها أُمِّي صَفيَّةُ، قال: فَخرجتُ أَسعى إلَيها، فَأَدرَكتُها قَبلَ أَن تَنتَهي إلى القَتلى، قال: فَلَدَمَت في صَدري[1]، وكانتِ امرَأَةً جَلدَةً، قالت: إليك، لا أَرضَ لَكَ، قال: فَقُلتُ: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَزَمَ عليكِ، قال: فَوَقَفَت وأَخرَجَت ثَوبينِ معها، فقالت: هذانِ ثَوبانِ جِئتُ بهِما لِأَخي حَمزَةَ، فقد بلغَني مَقتَلُهُ، فَكَفِّنوهُ فيهما.

قال: فَجِئنا بالثَّوبينِ لِنُكَفِّنَ فيهما حَمزَةَ، فإذا إلى جَنبِهِ رجلٌ منَ الأَنصارِ قَتيلٌ، قد فُعِلَ بهِ كَما فُعِلَ بحَمزَةَ، قال: فَوَجَدنا غَضاضَةً وحَياءً أَن نُكَفِّنَ حَمزَةَ في ثَوبينِ، والأَنصاريُّ لا كَفَنَ له، فَقُلنا: لِحَمزَةَ ثَوبٌ، وَللأَنصارِيِّ ثَوبٌ.

فقدَرناهُما، فَكان أَحَدُهُما أَكبَرَ منَ الآخَرِ، فَأَقرَعنا بينهما، فَكَفَّنَّا كُلَّ واحدٍ منهما في الثَّوب الذي طارَ له»[2].

وعن عبدِ الرحمَنِ بن عَوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «قال لي أُمَيَّةُ بن خَلَفٍ -وأَنا بينَهُ وبينَ ابنِهِ عَليٍّ، آخِذٌ بأَيديهما-: مَنِ الرجُلُ منكُمُ المعَلَّمُ بريشَةِ نَعامَةٍ في صَدرِهِ؟ قال: قُلتُ: ذاكَ حَمزَةُ بن عبدِ المطَّلِب، قال: ذاكَ الذي فَعَلَ بنا الأَفاعيلَ»[3].

وهو سَيِّدُ الشُّهداءِ يومَ القيامةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فعن جابرِ بن عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**سَيِّدُ الشُّهَداءِ عِندَ اللهِ تعالى يَومَ القيامَةِ حَمزَةُ**»[4].

---

(١) أي: ضربت ودفعت في صدري.

(٢) رواه الإمام أحمد (١٤١٨)، وأبو يعلى (٦٨٦)، والبزار (٩٨٠)، وحسنه محققو المسند.

(٣) رواه الحاكم (٢٥٤٨)، والبيهقي (٦١١٤)، وإسناده جيد.

(٤) رواه الحاكم (٢٥٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٧٦).

وعن أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَتى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حَمزَةَ يَومَ أُحُدٍ، فَوَقَفَ عليه، فَرَآهُ قد مُثِّلَ بهِ، فقال: «**لَولا أَن تَجِدَ صَفيَّةُ في نَفسِها، لَتَرَكتُهُ حتى تَأكُله العافيَةُ**[1]، **حتى يُحشَرَ يَومَ القيامَةِ من بُطونِها**»[2].

«**حتى يُحشَرَ يَومَ القيامَةِ من بُطونِها**»: **قال المباركفوري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما أَرادَ ذلك؛ لِيَتِمَّ له بهِ الأَجرُ ويَكمُلَ، ويكونَ كُلُّ البَدَنِ مَصروفًا في سَبيلِهِ تعالى إلى البَعثِ.

أو لبَيانِ أَنَّهُ ليس عليه فيما فَعَلوا بهِ منَ المثلَةِ تَعذيبٌ، حتى إنَّ دَفنَهُ وتَركَهُ سَواءٌ، قالهُ أَبو الطيِّب»[3].

ومن كراماتِ شُهَداءِ أُحُدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

ما رواهُ عبدُ الرزَّاقِ في مُصَنَّفِه، قال: عَنِ ابنِ عُيَينَةَ، عن أَبي الزُّبَيرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جابرَ بن عبدِ اللهِ يقولُ: «لَمَّا أَرادَ مُعاويَةُ أَن يُجريَ الكِظامَةَ[4] قال: «مَن كان له قَتيلٌ فَليَأتِ قَتيله»، يَعني قَتلى أُحُدٍ.

فَأَخرَجَهُم رِطابًا يَتَثَنَّونَ، فَأَصابَتِ المِسحاةُ رِجلَ رجلٍ منهم، فانفَطَرَت دَمًا».

فقال أَبو سَعيدٍ: «لا يُنكِرُ بعدَ هذا مُنكِرٌ أَبَدًا»[5].

---

(١) السباع والطير.

(٢) رواه أبو داود (٣١٣٦)، والترمذي (١٠١٦)، وأحمد (١٢٣٠٠)، وحسنه الألباني، وحسنه محققو المسند لغيره.

(٣) تحفة الأحوذي (٤/ ٨٢-٨٣).

(٤) قال أبو عبيد في غريب الحديث (١/ ٢٦٩): «الكظامة: السقاية، سألت عنها الأصمعي وأهل العلم من أهل الحجاز، فقالوا: «هي آبار تحفر ويباعد ما بينها، ثم يخرق ما بين كل بئرين بقناة تؤدي الماء من الأولى إلى التي تليها، حتى يجتمع الماء إلي آخرتهن، وإنما ذلك من عوز الماء؛ ليبقى في كل بئر ما يحتاج إليه أهلها للشرب وسقي الأرض، ثم يخرج فضلها إلى التي تليها، فهذا معروف عند أهل الحجاز».
وقال الزمخشري في الفائق (٣/ ٢٦٣): «الكظامة: واحدة الكظائم، وهي آبار تحفر في بطن واد متباعدةً، ويخرق ما بين بئرين بقناة، يجري فيها الماء من بئر إلى بئر».

(٥) مصنف عبد الرزاق (٣/ ٥٤٧)، وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم، وأبو سعيد هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي روايةٍ: «فاستَخرَجناهُم بعدَ سِتٍّ وأَربعينَ سنةً، لَيِّنَةً أَجسادُهُم، تَثَنَّى أَطرافُهُم»[1].

قال ابنُ عبدِ البَرِّ: «وقد رويَ أَنَّ الذي انفَطَرَت أُصبُعُهُ دَمًا كان حَمزَةَ بن عبدِ المطَّلِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

ثم رَوى عن يَحيى بن سُلَيمانَ، قال: قال لَنا سُفيانُ: «بلغَني أَنَّهُ حَمزَةُ بن عبدِ المطَّلِب».

ورواهُ البَيهَقيُّ في الدّلائلِ من طريقِ خالِد بن خِداشٍ، قال: حَدَّثَنا حَمَّادُ بن زَيدٍ، عن أَيُّوبَ، عن أَبي الزُّبَيرِ، عن جابرٍ قال: «استُصرِخنا إلى قَتلانا يَومَ أُحُدٍ، وذلك حينَ أَجرى مُعاويَةُ العَينَ، فَأَتَيناهُم فَأَخرَجناهُم تَثَنَّى أَطرافُهُم».

قال: «وقال حَمَّادٌ: وزادَني صاحِبٌ لي في الحَديثِ: «فَأَصابَ قدَمَ حَمزَةَ، فانثَعَبَ دَمًا».

قال البَيهَقيُّ: وأَخبَرَنا أَبو عبدِ اللهِ الحافظُ، قال: أَخبَرَنا أَبو محمدٍ عبدُ اللهِ بن إبراهيمَ المُتُّونيُّ، قال: حَدَّثَنا خالِدُ بن خِداشٍ، فَذكَرَهُ بإسنادِهِ نحوهُ، إلا أَنَّهُ قال: «فَأَخرَجناهُم رِطابًا يَتَثَنَّونَ، على رَأسِ أَربَعينَ سنةً»[2].

وعن سَعيدِ بن عامِرٍ، عن هِشامِ بن أَبي عبدِ اللهِ، عن أَبي الزُّبَيرِ، عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «صُرِخَ بنا إلى قَتلانا يَومَ أُحُدٍ حينَ أَجرى مُعاويَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العَينَ، فَأَتَيناهُم فَأَخرَجناهُم رِطابًا تَثَنَّى أَجسادُهُم».

قال سَعيدٌ: «وبينَ الوَقتَينِ أَربَعونَ سنةً»[3].

وقال الحُمَيديُّ: عن سُفيانَ بن عُيَينَةَ، عن أَبي الزُّبَيرِ، عن جابرٍ، قال: «لَمَّا أَرادوا حَفرَ العَينِ نادَوا بالمَدينَةِ: «مَن كان له قَتيلٌ فَليَأتِ قَتيله»، فَأَتَيناهُم، فَأَخرَجناهُم رِطابًا يَتَثَنَّونَ، وأَصابَتِ المِسحاةُ رِجلَ رجلٍ منهم، فانقَطَرَ منها دَمٌ، وذلك بعدَ نَيِّفٍ وأَربَعينَ سنةً»[4].

وقال ابنُ سَعدٍ: أَخبَرَنا الوَليدُ بن مسلمٍ، قال: حَدَّثَني الأوزاعيُّ، عَنِ الزُّهريِّ، عن

---

(١) الاستذكار (٥/ ١٥٧).

(٢) دلائل النبوة (٣/ ٢٩١).

(٣) تاريخ المدينة لابن شبة (١/ ١٣٣).

(٤) المجالسة وجواهر العلم للدينوري (٤/ ٨٨).

جابرِ بن عبدِ اللهِ، قال: «رَأَيتُ أَبي في حُفرَتِهِ كَأَنَّهُ نائِمٌ، وما تَغَيَّرَ من حالِهِ قَليلٌ ولا كَثيرٌ، وبينَ ذلك سِتٌّ وأَربَعونَ سنةً»[1].

ومِمَّا يُستَفادُ من هذا الحَديثِ:

* تَتَبُّعُ أخبارِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرتِه، وأخبارِ أصحابه؛ لِما في ذلك من الدّروسِ التربويَّةِ، والفَوائدِ العِلميَّةِ، واكتساب الخِبرَةِ، والاِطِّلاعِ على حُسنِ بلاءِ المسلمينَ الأوائلِ، وجِهادِهم وتَضحيَّاتِهم، وبَذلِهم أنفُسَهُم وأموالَهم في سبيلِ اللهِ.

* فضلُ حمزَةَ بن عبدِ المطَّلِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحُسنُ بَلائِه، وشَجاعتُه وبسالَتُه وإقدامُه، وقوَّتُه في دينِ اللهِ، ومِقدارُ حُبِّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، وتَأَثُّرُه بما حَصَلَ له.

* فيه: أَنَّ المَرءَ يَكرَهُ أَن يَرى مَن أوصَلَ إلى قَريبِهِ أو صَديقِهِ أَذًى، ولا يَلزَمُ من ذلك وُقوعُ الهِجرَةِ المَنهيَّةِ بينهما.

* وفيه: أَنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما قَبله، فلَمَّا أسلَمَ وحشيٌّ لَم يَأخُذهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقَتلِ حَمزَةَ، إلا أَنَّهُ قال له: «**هَل تَستَطيعُ أَن تُغَيِّبَ وجهَكَ عَنِّي؟**».

* الحَذَرُ في الحَرب، وأَن لا يَحتَقِرَ المَرءُ منها أَحَدًا، فَإِنَّ حَمزَةَ لا بُدَّ أَن يكونَ رَأى وحشيًّا في ذلك اليَومِ، لكنَّهُ لَم يَحتَرِز منه؛ احتِقارًا له، إلى أَن أُتي من قِبَلِه.

* المؤمن يُتبِعُ السَّيِّئَةَ الحَسنةَ لتَمحوَها؛ فلَمَّا أسلَمَ وحشيٌّ ونَدِمَ على ما فَعَلَ، قال: «فلما قُبِضَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخرجَ مُسَيلِمَةُ الكَذَّابُ، قُلتُ: لَأَخرُجَنَّ إلى مُسَيلِمَةَ، لَعَلِّي أَقتُلُهُ فَأُكافِئ بِهِ حَمزَةَ».

فمَن سَعى في فِعلٍ مُحَرَّمٍ فليُبادِر بالسَّعيِ في طاعَةِ اللهِ؛ لتَمحوَ الحَسنةُ السَّيِّئَةَ، وهذا من فَضلِ اللهِ على عِبادِه المسلمينَ.

عن أَبي ذَرٍّ، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ أوصِني، قال: «**إذا عَمِلتَ سَيِّئَةً فَأَتبعها حَسنةً تَمحُها**»[2].

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٤٢٤).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢١٤٨٧)، وحسنه محققو المسند لغيره.

* **وفيه:** جَوازُ سَبِّ المشرِكينَ في الحَرب وانتِقاصِهِم، وأنَّ ذلك من باب إيقاعِ الهَزيمَةِ النفسيَّةِ في قُلوبهم.

* **وفيه:** مَعرِفَةُ وحشيِّ بن حَربٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالقيافَةِ المَعرِفَةَ التامَّةَ.

المَقصودُ بالقيافَةِ:

قال ابنُ الأَثيرِ: «القائِفُ: الذي يَتَتَبَّع الآثارَ ويَعرِفُها، ويَعرِف شَبَهَ الرجُلِ بأَخيهِ وأَبيهِ، والجَمعُ: القافَة، يُقالُ: فُلانٌ يَقوفُ الأَثَرَ ويَقتافُهُ قيافَةً، مِثلُ: قَفا الأَثَرَ واقتَفاهُ»[1].

وقال الحافظُ: «القائِفِ: هو الذي يَعرِفُ الشَّبَهَ ويُمَيِّزُ الأَثَرَ، سُمِّيَ بذلك لِأَنَّهُ يَقفو الأَشياءَ، أَي: يَتَّبعُها، فَكَأَنَّهُ مَقلوبٌ منَ القافي، قال الأَصمَعيُّ: «هو الذي يَقفو الأَثَرَ ويَقتافُهُ قَفوًا»[2].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيَّ مَسرورًا، تَبرُقُ أَساريرُ وجهِهِ، فقال: «**أَلَمْ تَرَي أَنَّ مُجَزِّزًا نَظَرَ آنِفًا إلى زَيدِ بن حارِثَةَ وأُسامَةَ بن زَيدٍ، فقال: إنَّ هذه الأَقدامَ بَعضُها من بَعضٍ؟**»[3].

قال المازِريُّ: «وكانتِ الجاهِليَّةُ تَقدَحُ في نَسَب أُسامَةَ؛ لِكَونِهِ أَسوَدَ شَديدَ السَّوادِ، وكان زَيدٌ أَبيَضَ، فلما قَضى هذا القائِفُ بإلحاقِ نَسَبِهِ مع اختِلافِ اللَّونِ، وكانتِ الجاهِليَّةُ تَعتَمِدُ قَولَ القائِفِ، فَرِحَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِكَونِهِ زاجِرًا لهم عَنِ الطعنِ في النسَب».

وقال النووي: «واختَلَفَ العُلَماءُ في العَمَلِ بقَولِ القائِفِ: فَنَفاهُ أَبو حَنيفَةَ وأَصحابُهُ، والثَّوريُّ وإسحاقُ، وأَثبَتَهُ الشَّافِعيُّ، وجَماهيرُ العُلَماءِ، والمَشهورُ عن مالِكٍ إثباتُهُ في الإماءِ، ونَفيُهُ في الحَرائِرِ، وفي روايةٍ عنه: إثباتُهُ فيهما، ودَليلُ الشَّافِعيِّ حَديثُ مُجَزِّزٍ؛ لِأَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرِحَ لِكَونِهِ وجَدَ في أُمَّتِهِ مَن يُمَيِّزُ أَنسابَها عِندَ اشتِباهِها، ولو كانتِ القيافَةُ باطِلَةً لَم يَحصُل بذلك سُرورٌ.

واتَّفَقَ القائِلونَ بالقائِفِ على أَنَّهُ يُشتَرَطُ فيه العَدالَةُ، واختَلَفوا في أَنَّهُ هَل يُكتَفى

---

(١) النهاية (٤/ ١٢١).

(٢) فتح الباري (١٢/ ٥٦).

(٣) رواه البخاري (٦٧٧٠)، ومسلم (١٤٥٩).

بواحدٍ؟ والأَصَحُّ عِندَ أَصحابنا الِاكتِفاءُ بواحدٍ، وبهِ قال ابنُ القاسِمِ المالِكيُّ، وهذا الحَديثُ يَدُلُّ لِلاكتِفاءِ بواحدٍ.

واتَّفَقوا على أَنَّهُ يُشتَرَطُ أَن يكونَ خَبيرًا، كما اتَّفَقوا على أَنَّهُ إنَّما يكونُ فيما أُشكِلَ من وطئَينِ مُحتَرَمَين»[1].

وقال **ابنُ عُثَيمينَ**: «قَولُ القافَةِ في الأنساب مُعتبَرٌ، فهل يُعتبَرُ قَولُ القافَةِ في الأموالِ؟ بمعنى أنَّ القائِفَ إذا رأى قدَمَ السَّارِقِ، وقال: «هذا فُلانُ بن فُلانٍ»، فهَل يُؤخَذُ بهِ، أو يُقالُ: إنَّهُ قَرينَةٌ، ويُؤتى بالرجُلِ، فإن أَقَرَّ، وإلا بَرِئَ؟

فيها خِلافٌ بينَ العُلَماءِ: منهم مَن قال: إذا عُرِفَ بالإصابَةِ بالتجرِبةِ فإنَّهُ يُؤخَذُ به، وكَما ذكرنا: هَؤُلاءِ القافَةُ رُبَّما يَشهَدونَ شَهادةً على أنَّ هذا قدَمُ فُلانِ بن فُلانٍ، وليس عِندَهُم فيه شَكٌّ، فيكون قرينَةً، وفي قَضيَّةِ داوُدَ وسُليمانَ عليهما الصلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، استدلَّ بالأَثَرِ على المؤثِّرِ»[2].



(١) شرح النووي على مسلم (١٠/ ٤١).

(٢) الشرح الممتع (١٠/ ٣٩٩-٤٠٠).

١٩

مقتلُ
خُبَيب
ابنِ عَديٍّ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

مقتلُ خُبَيب بنِ عَديٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كانت غَزوَةُ الرجيعِ[١] في صَفَرٍ سنةَ ثَلاثٍ منَ الهِجرَةِ[٢]، حَيثُ قدِمَ على رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَومٌ من عَضَل والقارَة[٣]، وذكروا أنَّ فيهم إسلامًا، وسألوه أن يَبعَثَ معهم مَن يُعلِّمُهم الدِّينَ، ويُقرِئُهم القُرآنَ، فبَعَثَ معهم سِتَّةَ نَفَرٍ -في قَولِ ابن إسحاقَ، وفي رواية البخاريّ أنَّهُم كانوا عَشَرَةً- وأَمَّرَ عليهم مَرثَدَ بن أَبي مَرثَدٍ الغَنَويَّ -في قَولِ ابن إسحاقَ، وعِندَ البخاريّ أنَّه عاصِمُ بن ثابتٍ، جَدُّ عاصِمِ بن عمرَ بن الخطَّاب- فذَهَبوا معهم، فلَمَّا كانوا بالرجيعِ -وهو ماءٌ لهُذَيل بناحيةِ الحِجازِ، بينَ رابغ وجدَّةَ- استَصرَخوا عليهم حَيًّا من هُذَيلٍ، يُقالُ لهم بَنو لِحيانَ[٤]، فتَبعوهم بقَريبٍ من مئةِ رامٍ، واقتَصُّوا آثارَهم حتى لَحِقوهُم، فأحاطوا بِهِم -وكانوا قد لَجَؤوا إلى فَدفَدٍ[٥]- وقالوا: «لَكُمُ العَهدُ والميثاقُ إن نزلتُم إلَينا أَن لا نَقتُلَ منكُم رجلًا».

فأمَّا عاصِمٌ: فأبى النُّزولَ، وقاتَلهم في أصحابه، فقُتِلَ منهم سَبعَةٌ بالنّبلِ، وبَقيَ

---

(١) الرجيع: هو في الأصل اسم للروث، سمي بذلك لاستحالته، والمراد هنا: اسم موضع من بلاد هذيل، كانت الوقعة بقرب منه، فسميت به. فتح الباري (٧/ ٣٧٩).

(٢) في قول ابن إسحاق والواقدي وابن سعد وغيرهم، وجزم ابن التين وغيره أنها كانت في آخر سنة ثلاث، والأكثرون على الأول، وهو المشهور، وينظر: الاستيعاب (٢/ ٤٢٦)، تاريخ دمشق (٣٢/ ١٩٨)، أسد الغابة (٢/ ١١٦)، الثقات لابن حبان (١/ ٢٣٩)، الطبقات الكبرى (٢/ ٤٢)، عمدة القاري (١٤/ ٢٩١)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٨٦).

(٣) **عضل**: بطن من بني الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، ينسبون إلى عضل بن الديش بن محكم. **والقارة**: بطن من بني الهون أيضًا، ينسبون إلى الديش المذكور، وقال ابن دريد: «القارة أكمة سوداء فيها حجارة»، كأنهم نزلوا عندها فسموا بها، ويضرب بهم المثل في إصابة الرمي. الفتح (٧/ ٣٧٩).

(٤) بكسر اللام وفتحها، لغتان. شرح النووي على مسلم (٢١/ ٧٧١).

(٥) هي الرابية المشرفة.

خُبَيبٌ وزَيدُ بن الدَّثِنَةِ ورجلٌ آخَرُ، فأعطَوهُم العَهدَ والميثاقَ مَرَّةً أُخرى، فنزلوا إليهم، ولكنَّهم غَدَروا بهم وربَطوهم بأوتارِ قِسيِّهم، فقال الرجُل الثَّالثُ: هذا أوَّلُ الغَدرِ، وأبى أن يَصحَبَهم، فجَرَّروهُ وعالَجوه على أن يَصحَبَهُم، فلم يَفعَل، فقَتَلوه، وانطَلَقوا بخُبَيبٍ وزَيدٍ فباعوهُما بمكةَ، وكانا قد قَتَلا من رُؤوسِهم يومَ بَدرٍ، فأمَّا خُبَيبٌ: فمَكَثَ عندَهم مَسجونًا، ثم أجمَعوا على قَتلِه، فخرجوا به منَ الحَرَمِ إلى التنعيمِ، فلمَّا أزمَعوا على قَتلِه قال لهم: «دَعوني أُصَلِّي رَكعَتَينِ»، فتَرَكوه فصَلَّاهُما، ثم قال:

اللهُمَّ أَحصِهِم عَدَدًا، واقتُلهُم بَدَدًا، ولا تُبقِ منهم أَحَدًا، ثم أَنشَأَ يقولُ:

فَلَستُ أُبالي حينَ أُقتَلُ مسلمًا
على أَيِّ جَنبٍ كان لله مَصرَعي

وذلك في ذاتِ الإلَهِ وإن يَشَأ
يُبارِك على أوصالِ شِلوٍ مُمَزَّعِ

ثم صَلَبوه ووَكَّلوا به مَن يَحرُس جُثَّتَه، فجاء عَمرو بن أُمَيَّة الضَّمريُّ، فاحتَمَلَه لَيلًا، فذَهَبَ به فدَفَنَه، وكان الذي تَوَلَّى قَتلَ خُبَيبٍ هو عُقبَة بن الحارِثِ، وكان خُبَيبٌ قد قَتَلَ أباهُ حارِثًا يومَ بَدرٍ.

وخُبَيب هو أوَّلَ مَن سَنَّ الركعَتَينِ عِندَ القَتلِ.

وأمَّا زَيد بن الدَّثِنَةِ: فابتاعَه صَفوانُ بن أُمَيَّةَ، فقَتَلَه بأبيهِ.

وبَعَثَت قريشٌ إلى عاصِمٍ ليُؤتَوا بشيءٍ من جَسَدِهِ يَعرِفونَهُ -وكان عاصِمٌ قَتَلَ عظيمًا من عُظَمائِهِم يومَ بَدرٍ، وهو عُقبَةُ بن أَبي مُعَيطٍ، قَتَله صَبرًا[1] بأَمرِ النبيِّ ﷺ-، فبَعَثَ اللهُ عليه مِثلَ الظُّلَّة منَ الدَّبرِ[2] فحَمَتهُ من رُسُلِهم، فلَم يَقدِروا منه على شيءٍ.

وكان عاصِمٌ أعطى اللهَ عهدًا أن لا يَمَسَّهُ مُشرِكٌ، ولا يَمَسَّ مُشركًا.

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا كان صَفَرٌ قدِمَ على رسول اللهِ ﷺ قَومٌ من عَضَلٍ

(١) كل من قتل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فإنه مقتول صبرًا. النهاية (٣/ ٨).
(٢) ذكور النحل، أو الزنابير.

والقارَةِ، وذكروا أَنَّ فيهم إسلامًا، وسألوهُ أَن يَبعَثَ معهم مَن يُعَلِّمُهُمُ الدِّينَ ويُقرِئُهُمُ القُرآنُ، فَبَعَثَ معهم سِتَّةَ نَفَرٍ في قَولِ ابنِ إسحاقَ، وقال البخاريُّ: كانوا عَشَرَةً، وأَمَّرَ عليهم مَرثَدَ بن أبي مَرثَدٍ الغَنَويَّ، وفيهم خُبَيبُ بن عَديٍّ، فَذَهَبوا معهم، فلما كانوا بالرجيعِ -وهو ماءٌ لِهُذَيلٍ بناحيَةِ الحِجازِ- غَدَروا بهم، واستَصرَخوا عليهم هُذَيلًا، فَجاءوا حتى أَحاطوا بهم، فَقَتَلوا عامَّتَهُم، واستَأسَروا خُبَيبَ بن عَديٍّ، وزَيدَ بن الدَّثِنَةِ، فَذَهَبوا بهما وباعوهُما بمكةَ، وكانا قَتَلا من رُءوسِهِم يَومَ بَدرٍ، فَأَمَّا خُبَيبٌ: فَمَكَثَ عِندَهُم مَسجونًا، ثم أَجمَعوا قَتله، فَخرجوا بهِ منَ الحَرَمِ إلى التنعيمِ، فلما أَجمَعوا على صَلبِهِ قال: «دَعوني حتى أَركَعَ رَكعَتَينِ»، فَتَرَكوهُ، فَصَلَّاهُما، فلما سَلَّمَ قال: «واللهِ لَولا أَن تَقولوا إنَّ ما بي جَزَعٌ لَزِدتُ»، ثم قال: «اللهُمَّ أَحصِهِم عَدَدًا، واقتُلهُم بَدَدًا، ولا تُبقِ منهم أَحَدًا».

فقال له أَبو سُفيانَ: أَيَسُرُّكَ أَنَّ محمدًا عِندَنا تُضرَبُ عُنُقُهُ، وإنَّكَ في أَهلِكَ؟

فقال: «لا واللهِ، ما يَسُرُّني أَنِّي في أَهلي، وأَنَّ محمدًا في مَكانِهِ الذي هو فيه تُصيبُهُ شَوكَةٌ تُؤذيهِ».

وفي **الصحيح**: أَنَّ خُبَيبًا أَوَّلُ مَن سَنَّ الركعَتَينِ عِندَ القَتلِ، وقد نَقَلَ ابنُ عبدِ البَرِّ عَنِ اللَّيثِ بن سَعدٍ، أَنَّهُ بلغَهُ عن زَيدِ بن حارِثَةَ أَنَّهُ صَلَّاهُما في قِصَّةٍ ذكرَها، وكذلك صَلَّاهُما حُجرُ بن عَديٍّ حينَ أَمَرَ معاويةُ بقَتلِهِ بأَرضِ عَذراءَ من أَعمالِ دِمَشقَ.

ثُمّ صَلَبوا خُبَيبًا، ووَكَّلوا بهِ مَن يَحرُسُ جُثَّتَهُ، فَجاءَ عَمرو بن أُمَيَّةَ الضَّمريُّ، فاحتَمَله لَيلًا، فَذَهَبَ بهِ، فَدَفَنَهُ.

ورُئيَ خُبَيبٌ وهو أَسيرٌ يَأكُلُ قِطفًا منَ العِنَبِ، وما بمكةَ ثَمَرَةٌ.

وأَمَّا زَيدُ بن الدَّثِنَةِ: فابتاعَهُ صَفوانُ بن أُمَيَّةَ، فَقَتَله بأَبيهِ.

وأَمَّا **موسى بن عُقبَةَ**: فَذكرَ سَبَبَ هذه الوَقعَةِ: أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ هَؤُلاءِ الرهطَ يَتَحَسَّسونَ له أَخبارَ قريشٍ، فاعتَرَضَهُم بَنو لِحيانَ.

وفي هذا الشَّهرِ بعَينِهِ، وهو صَفَرٌ منَ السَّنَةِ الرابعَةِ، كانت وقعَةُ بئرِ مَعونَةَ»[1].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢١٩-٢٢١).

ذِكرُ الخَبرِ الوارِدِ في هذه القِصَّةِ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «بَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشَرَةَ رَهطٍ سَريَّةً عَينًا، وأَمَّرَ عليهم عاصِمَ بن ثابتٍ الأَنصاريَّ، جَدَّ عاصِمِ بن عمرَ بن الخَطَّاب، فانطَلَقوا حتى إذا كانوا بالهَدأَةِ -وهو بينَ عُسفانَ ومكةَ- ذُكِروا لِحَيٍّ من هُذَيلٍ، يُقالُ لهم بَنو لحيانَ، فَنَفَّروا لهم قَريبًا من مئتَي رجلٍ، كُلُّهُم رامٍ، فاقتَصُّوا آثارَهُم، حتى وجَدوا مَأكَلهم تَمرًا تَزَوَّدوهُ منَ المَدينَةِ، فقالوا: هذا تَمرُ يَثرِبَ، فاقتَصُّوا آثارَهُم، فلما رَآهُم عاصِمٌ وأَصحابُهُ لَجَؤوا إلى فَدفَدٍ، وأَحاطَ بِهِمُ القَومُ، فقالوا لهم: انزِلوا وأَعطونا بأَيديكُم، ولَكُمُ العَهدُ والميثاقُ، ولا نَقتُلُ منكُم أَحَدًا.

قال عاصِمُ بن ثابتٍ أَميرُ السَّريَّةِ: أَمَّا أَنا، فَواللهِ لا أَنزِلُ اليَومَ في ذِمَّةِ كافِرٍ، اللهُمَّ أَخبِر عَنَّا نبيَّكَ، فَرَموهُم بالنبلِ، فَقَتَلوا عاصِمًا في سَبعَةٍ، فَنزلَ إليهم ثَلاثَةُ رَهطٍ بالعَهدِ والميثاقِ، منهم خُبَيبٌ الأَنصاريُّ، وابنُ دَثِنَةَ، ورجلٌ آخَرُ، فلما استَمكَنوا منهم أَطلَقوا أوتارَ قِسيِّهِم فَأوثَقوهُم، فقال الرجُلُ الثَّالِثُ: «هذا أَوَّلُ الغَدرِ، واللهِ لا أَصحَبُكُم، إنَّ لي في هَؤُلاءِ لَأُسوَةً»، يُريدُ القَتلى.

فَجَرَّروهُ وعالَجوهُ على أَن يَصحَبَهُم، فَأَبى، فَقَتَلوهُ، فانطَلَقوا بخُبَيبٍ وابنِ دَثِنَةَ، حتى باعوهُما بمكةَ بعدَ وقعَةِ بَدرٍ، فابتاعَ خُبَيبًا بَنو الحارِثِ بن عامِرِ بنِ نَوفَلِ بن عبدِ مَنافٍ، وكان خُبَيبٌ هو قَتَلَ الحارِثَ بن عامِرٍ يومَ بَدرٍ، فَلَبِثَ خُبَيبٌ عِندَهُم أَسيرًا.

قال الزُّهريُّ: فَأَخبَرَني عُبَيدُ اللهِ بن عياضٍ، أَنَّ بنتَ الحارِثِ أَخبَرَتهُ: أَنَّهُم حينَ اجتَمَعوا استَعارَ منها موسًى يَستَحِدُّ بها، فَأَعارَتهُ، فَأَخَذَ ابنًا لي وأَنا غافِلَةٌ حينَ أَتاهُ، قالت: فَوَجَدتُهُ مُجلِسَهُ على فَخِذِهِ والموسى بيَدِهِ، فَفَزِعتُ فَزعَةً عَرَفَها خُبَيبٌ في وجهي، فقال: تَخشَينَ أَن أَقتُلَه؟ ما كُنتُ لِأَفعَلَ ذلك.

واللهِ ما رَأَيتُ أَسيرًا قَطُّ خَيرًا من خُبَيبٍ، واللهِ لَقد وجَدتُهُ يَومًا يَأكُلُ من قِطفِ عِنَبٍ في يَدِهِ، وإنَّهُ لَموثَقٌ في الحَديدِ، وما بمكةَ من ثَمَرٍ، وكانت تَقولُ: إنَّهُ لَرِزقٌ منَ اللهِ رَزَقَهُ خُبَيبًا.

فلما خرجوا منَ الحَرَمِ ليَقتُلوهُ في الحِلِّ، قال لهم خُبَيبٌ: ذَروني أَركَع رَكعَتَينِ، فَتَرَكوهُ، فَرَكَعَ رَكعَتَينِ، ثم قال: واللهِ لَولا أَن تَحسِبوا أَنَّ ما بي جَزَعٌ لَزِدتُ، ثم قال: اللهُمَّ أَحصِهِم عَدَدًا، واقتُلهُم بَدَدًا، ولا تُبقِ منهم أَحَدًا، ثم أَنشَأَ يقولُ:

ما أُبالي حينَ أُقتَلُ مسلمًا
على أَيِّ شِقٍّ كان للهِ مَصرَعي

وذلك في ذاتِ الإلَهِ وإن يَشَأ
يُبارِك على أوصالِ شِلوٍ مُمَزَّعِ

فَقَتَله ابنُ الحارِثِ، فَكان خُبَيبٌ هو سَنَّ الركعَتَينِ لِكُلِّ امرِئٍ مسلمٍ قُتِلَ صَبرًا، فاستَجابَ اللهُ لِعاصِمِ بن ثابتٍ يَومَ أُصيبَ.

فَأَخبَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصحابَهُ خَبَرَهُم، وما أُصيبوا، وبَعَثَ ناسٌ من كُفَّارِ قريشٍ إلى عاصِمٍ حينَ حُدِّثوا أَنَّهُ قُتِلَ، ليُؤتَوا بشيءٍ منه يُعرَفُ، وكان قد قَتَلَ رجلًا من عُظَمائِهِم يَومَ بَدرٍ، فَبُعِثَ على عاصِمٍ مِثلُ الظُّلَّةِ منَ الدَّبرِ، فَحَمَتهُ من رسولِهِم، فلم يَقدِروا على أَن يَقطَعَ من لَحمِهِ شَيئًا»[1].

وقال الإمامُ محمدُ بن إسحاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قدِمَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ أُحُدٍ رَهطٌ من عَضَلٍ والقارَةِ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ فينا إسلامًا، فابعَث معنا نَفَرًا من أَصحابكَ يُفَقِّهونَنا في الدِّينِ، ويُقرِئونَنا القُرآنَ، ويُعَلِّمونَنا شَرائِعَ الإسلامِ، فَبَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفَرًا سِتَّةً من أَصحابِهِ، وهُم: مَرثَدُ بن أَبي مَرثَدٍ الغَنَويُّ، وخالِدُ بن البُكَيرِ اللَّيثيُّ، وعاصِمُ بن ثابتِ بن أَبي الأَقلَحِ، وخُبَيبُ بن عَديٍّ، وزَيدُ بن الدَّثِنةِ بن مُعاوِيَةَ، وعبدُ اللهِ بن طارِقٍ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٥)، (٣٩٨٩)، (٤٠٨٦)، وأبو داود (٢٦٦٠)، وأحمد (٧٩٢٨)، وابن حبان (٧٠٣٩)، والنسائي في الكبرى (٨٧٨٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١١٣)، وعبد الرزاق في المصنف (٩٧٣٠)، والطيالسي في مسنده (٢٧٢٠)، والبيهقي في السنن (١٨٤٣٢)، وفي دلائل النبوة (٣/ ٣٢٤)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٤٢).

وأَمَّرَ رسولُ اللهِ ﷺ على القَومِ مَرثَدَ بن أَبي مَرثَدٍ الغَنَويَّ، فَخرجَ مع القَومِ، حتى إذا كانوا على الرجيعِ -ماءٍ لِهُذَيلٍ بناحيَةِ الحِجازِ- غَدَروا بهم، فاستَصرَخوا عليهم هُذَيلًا، فلم يَرُعِ القَومَ وهُم في رِحالِهم إلا الرِّجالُ بأَيديهِمُ السُّيوفُ قد غَشوهُم، فَأَخَذوا أَسيافَهُم ليُقاتِلوهُم، فقالوا لهم: إنَّا واللهِ ما نُريدُ قَتلَكُم، ولكنَّا نُريدُ أَن نُصيبَ بكُم شَيئًا من أَهلِ مكةَ، ولَكُم عَهدُ اللهِ وميثاقُهُ أَن لا نَقتُلَكُم.

فَأَمَّا مَرثَدُ بن أَبي مَرثَدٍ، وخالِدُ بن البُكَيرِ، وعاصِمُ بن ثابتٍ، فقالوا: واللهِ لا نَقبَلُ من مُشرِكٍ عَهدًا ولا عَقدًا أَبَدًا.

فلما قُتِلَ عاصِمٌ أَرادَت هُذَيلٌ أَخذَ رَأسِهِ؛ ليَبيعوهُ من سُلافَةَ بنتِ سَعدِ بن شُهَيدٍ، وكانت قد نَذَرَت حينَ أَصابَ ابنَيها يَومَ أُحُدٍ: لَئِن قدَرَت على رَأسِ عاصِمٍ لَتَشرَبَنَّ في قِحفِهِ الخَمرَ، فَمَنَعَتهُ الدَّبرُ، فلما حالَت بينَهُ وبينهمُ الدَّبرُ قالوا: دَعوهُ يُمسي فَتَذهَبُ عنه، فَنَأخُذُهُ، فَبَعَثَ اللهُ الواديَ، فاحتَمَلَ عاصِمًا، فَذَهَبَ بِهِ.

وقد كان عاصِمٌ قد أَعطى اللهَ عَهدًا أَن لا يَمَسَّهُ مُشرِكٌ، ولا يَمَسَّ مُشرِكًا أَبَدًا؛ تَنَجُّسًا.

وأَمَّا زَيدُ بن الدَّثِنَةِ، وخُبَيبُ بن عَديٍّ، وعبدُ اللهِ بن طارِقٍ: فَلانوا ورَقُّوا ورَغِبوا في الحَياةِ، فَأَعطَوا بأَيديهِم، فَأَسَروهُم، ثم خرجوا إلى مكةَ، ليَبيعوهُم بها، حتى إذا كانوا بالظَّهرانِ انتَزَعَ عبدُ اللهِ بن طارِقٍ يَدَهُ من القِرانِ، ثم أَخَذَ سَيفَهُ، واستَأَخَرَ عنه القَومُ، فَرَمَوهُ بالحِجارَةِ حتى قَتَلوهُ، فَقَبرُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ بالظَّهرانِ.

وأَمَّا خُبَيبُ بن عَديٍّ، وزَيدُ بن الدَّثِنَةِ: فقدِموا بهما مكةَ، فابتاعَ خُبَيبًا حُجَيرُ بنُ أَبي إهابٍ التميميُّ، حَليفُ بَني نَوفَلٍ، لِعُقبَةَ بن الحارِثِ بن عامِرِ بن نَوفَلٍ، وكان أَبو إهابٍ أَخا الحارِثِ بن عامِرٍ لِأُمِّهِ؛ لِقَتلِهِ بأَبيهِ.

وأَمَّا زَيدُ بن الدَّثِنَةِ: فابتاعَهُ صَفوانُ بن أُمَيَّةَ؛ ليَقتُلَه بأَبيهِ أُمَيَّةَ بن خَلَفٍ، وبَعَثَ بهِ صَفوانُ بن أُمَيَّةَ مع مَولًى له يُقالُ له نِسطاس إلى التنعيمِ، وأَخرَجوهُ من الحَرَمِ ليَقتُلوهُ، واجتَمع رَهطٌ من قريشٍ، فيهم أَبو سُفيانَ بن حَربٍ، فقال له أَبو سُفيانَ حينَ قُدِّمَ ليُقتَلَ:

أَنشُدُكَ اللهَ يا زَيدُ، أَتُحِبُّ أَنَّ محمدًا عِندَنا الآنَ في مَكانِكَ نَضرِبُ عُنُقَهُ، وأَنَّكَ في أَهلِكَ؟

قال: «واللهِ ما أُحِبُّ أَنَّ محمدًا الآنَ في مَكانِهِ الذي هو فيه تُصيبُهُ شَوكَةٌ تُؤذيهِ، وأَنِّي جالِسٌ في أَهلي».

قال أَبو سُفيانَ: «ما رَأَيتُ من الناسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصحاب محمدٍ محمدًا».

ثم قَتَله نِسطاس، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأَمَّا خُبَيبُ بن عَديٍّ: فَحَدَّثَني عبدُ اللهِ بن أَبي نَجيحٍ، أَنَّهُ حُدِّثَ عن ماويّةَ[1]، مَولاةِ حُجَيرِ بن أَبي إهابٍ، وكانت قد أَسلَمَت، قالت: «كانَ خُبَيبٌ عِندي، حُبسَ في بَيتي، فَلَقدِ اطَّلَعتُ عليه يَومًا، وإنَّ في يَدِهِ لَقِطفًا من عِنَبٍ، مِثلَ رَأسِ الرجُلِ يَأكُلُ منه، وما أَعلَمُ في أَرضِ اللهِ عِنَبًا يُؤكَلُ».

قال ابنُ إسحاقَ: وحَدَّثَني عاصِمُ بن عمرَ بن قَتادَةَ، وعبدُ اللهِ بن أَبي نَجيحٍ جَميعًا، أَنَّها قالت: «قال لي حينَ حَضَرَهُ القَتلُ: «ابعَثي إلَيَّ بحَديدَةٍ أَتَطَهَّرُ بها للقَتلِ»، قالت: «فَأَعطَيتُ غُلامًا من الحَيِّ الموسى، فَقُلتُ: أُدخُل بها على هذا الرجُلِ البَيتَ.

فَواللهِ ما هو إلا أَن ولَّى الغُلامُ بها إليه، فَقُلتُ: ماذا صَنَعتُ؟! أَصابَ -واللهِ- الرجُلُ ثَأرَهُ بقَتلِ هذا الغُلامِ، فَيكونُ رجلًا برجلٍ.

فلما ناوَله الحَديدَةَ أَخَذَها من يَدِهِ، ثم قال: «لَعَمرُكَ، ما خافَت أُمُّكَ غَدري حينَ بَعَثَتكَ بهذه الحَديدَةِ إلَيَّ!»، ثم خَلَّى سَبيله».

قال عاصِمٌ: ثم خرجوا بخُبَيبٍ، حتى إذا جاءوا بهِ إلى التنعيمِ لِيَصلِبوهُ، قال لهم: «إن رَأَيتُم أَن تَدَعوني حتى أَركَعَ رَكعَتَينِ فافعَلوا»، قالوا: دونَكَ فاركَع.

فَرَكَعَ رَكعَتَينِ، أَتَمَّهُما وأَحسَنَهُما، ثم أَقبَلَ على القَومِ فقال: «أَما واللهِ لَولا أَن تَظُنُّوا أَنِّي إنَّما طَوَّلتُ جَزَعًا من القَتلِ لاستكثَرتُ من الصلاةِ».

---

(١) تروى بالراء والواو، قال ابن عبد البر: «مارية أو ماوية» الاستيعاب (٤/ ١٩١١)، وينظر: الروض الأنف (٦/ ١٢٧)، الإصابة (٨/ ٣١٢).

قال: فكان خُبَيبُ بن عَديٍّ أوَّلَ مَن سَنَّ هاتَينِ الركعَتَينِ عِندَ القَتلِ للمسلمينَ.

ثم رَفَعوهُ على خَشَبَةٍ، فلما أوثَقوهُ قال: «اللهمّ إنَّا قد بَلَّغنا رِسالَةَ رسولِكَ، فَبَلِّغهُ الغَداةَ ما يُصنَعُ بنا»، ثم قال: «اللهمّ أَحصِهِم عَدَدًا، واقتُلهُم بَدَدًا، ولا تُغادِر منهم أَحَدًا».

ثم قَتَلوهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

شرح الحديث:

قَولُهُ: «بَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشَرَةَ رَهطٍ سَريَّةً عَينًا»:

وفي روايةِ أَبي الأَسوَدِ، عن عُروَةَ: بَعَثَهُم عُيونًا إلى مكةَ ليَأتوهُ بخَبَرِ قريشٍ، وذكرَ الواقِديُّ أَنَّ سَبَبَ خُروجِ بَني لِحيانَ عليهم: قَتلُ سُفيانَ بن نُبيحٍ الهُذَليِّ، قال الحافظُ: «وكان قَتلُ سُفيانَ المَذكورِ على يَدِ عبدِ اللهِ بن أُنَيسٍ»[2].

وذكرَ ابنُ إسحاقَ أَنَّهُم كانوا سِتَّةً وسَمَّاهُم -كَما تَقدَّمَ- وهُم: عاصِمُ بن ثابتٍ، ومَرثَدُ بن أَبي مَرثَدٍ، وخُبَيبُ بن عَديٍّ، وزَيدُ بن الدَّثِنَةِ، وعبدُ اللهِ بن طارِقٍ، وخالِدُ بن البُكَيرِ.

قال الحافظُ: «وجَزَمَ ابن سَعدٍ بأَنَّهُم كانوا عَشَرَةً، وساقَ أَسماءَ السِّتَّةِ المَذكورينَ وزادَ: مُعَتِّبَ بن عُبَيدٍ، قال: «وهو أَخو عبدِ اللهِ بن طارِقٍ لِأُمِّهِ»، وكذا سَمَّى موسى بن عُقبَةَ السَّبعَةَ المَذكورينَ، لكن قال: «مُعَتِّب بن عَوفٍ»، قُلتُ: فَلَعَلَّ الثَّلاثَةَ الآخَرينَ كانوا أَتباعًا لهم، فلم يَحصُلِ الِاعتِناءُ بتَسميَتِهِم»[3].

وقال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَكذا قال ابنُ إسحاقَ أَنَّهُم كانوا سِتَّةً، وكذا ذكرَ موسى بن عُقبَةَ، وسَمَّاهُم كَما قال ابنُ إسحاقَ، وعِندَ البخاريِّ أَنَّهُم كانوا عَشَرَةً، وعِندَهُ أَنَّ كَبيرَهُم عاصِمُ بن ثابتِ بن أَبي الأَقلَحِ، فاللهُ أَعلَمُ»[4].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٦٩-١٧٣).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٨٠).

(٣) المصدر السابق.

(٤) البداية والنهاية (٥/ ٥٠٢).

قَولُهُ: «وأَمَّرَ عليهم عاصِمَ بن ثابتٍ الأَنصاريَّ، جَدَّ عاصِمِ بن عمرَ بن الخَطَّاب»:

وعِندَ ابن إسحاقَ وغيره: أَنَّ الأَميرَ عليهم كان مَرثَدَ بن أَبي مَرثَدٍ، قال الحافظُ: «وما في الصحيحِ أَصَحُّ».

وقَولُهُ: «جَدَّ عاصِمِ بن عمرَ بن الخَطَّاب»، قال الحافظُ: «وهو وهَمٌ من بَعضِ رواتِهِ؛ فَإِنَّ عاصِمَ بن ثابتٍ خالُ عاصِمِ بن عمرَ لا جَدّهُ؛ لِأَنَّ والِدَةَ عاصِمٍ هي جَميلَةُ بنتُ ثابتٍ أُختُ عاصِمٍ، وكان اسمُها عاصيَةً، فَغَيَّرَها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال عياضٌ: «إذا قُرِئَ «جِدّ» بالكَسرِ، على أَنَّهُ صِفَةٌ لِثابتٍ استَقامَ الكَلامُ، وارتَفَعَ الوَهَمُ»[1].

«وقد أَخَذَ بظاهِرِها بَعضُهُم فقال: تَزَوَّجَ عمرُ جَميلَةَ بنتَ عاصِمِ بن ثابتٍ، فَوَلَدَت له عاصِمًا»[2].

وقال الدّمياطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَم يَكن جَدَّه، وإنّما كانَ خاله؛ لأنّ عاصمَ بن عُمرَ بن الخَطاب أمُّه جَميلَةُ بنتُ ثابتِ بن أبي الأقلحِ، أختُ عاصِمِ بن ثابتٍ»[3].

وقال ابنُ قُرقولٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كذا وقعَ، وهو وهمٌ، وإنّما هو خالُ عاصمٍ لا جدّه، وإنّما جَدُّه ثابتٌ أبوهُ»[4].

وقال المنذِريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «غَلِطَ عبدُ الرزَّاقِ وابنُ عبدِ البَرِّ فقالا في عاصِمٍ هذا: هو جَدُّ عاصِمِ بن عمر، وإنَّما هو خالُه؛ لَأَنَّ أُمَّ عاصِمِ بن عُمر جميلةُ بنتُ ثابتٍ، وعاصِمٌ هو أخو زيدٍ، كذا ذكَره إماما النسَب: الزُّبيرُ بن بكَّار، وعمُّه مُصعَب»[5].

قَولُهُ: «فانطَلَقوا حتى إذا كانوا بالهَدأَةِ، وهو بينَ عُسفانَ ومكةَ»:

قال ياقوتُ الحَمَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الهَدأَةُ»: كَما ذكَرَه البخاريُّ في قَتلِ عاصِمٍ قال: «وهو مَوضِعٌ بينَ عُسفانَ ومكةَ»، وكذا ضبَطَه أبو عُبَيدٍ البكريُّ الأندلُسيُّ، وقال أبو حاتِمٍ:

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣١٠).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٣٨١).

(٣) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٨/ ٢٦٦).

(٤) مطالع الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ١٠٢).

(٥) ينظر: اللامع الصبيح لابن عبد الدائم (١١/ ١٤٧)، شرح القسطلاني (٦/ ٣١٢).

«يُقالُ لِمَوضِعٍ بينَ مكةَ والطائِفِ: «الهَدَة»، بغيرِ أَلِفٍ، وهو غيرُ الأوَّلِ، ذُكِرَ معه لِنَفيِ الوَهمِ»[١].

وقال **الحافظُ**: «الهَدأَة»: وهي للأَكثَرِ، بسُكونِ الدَّالِ بعدَها هَمزَةٌ مَفتوحَةٌ، وللكُشميهَنيِّ: بفَتحِ الدَّالِ، وتَسهيلِ الهمزَة، وعِندَ ابنِ إسحاقَ: «الهَدَّة»، بتشديدِ الدَّالِ بغيرِ أَلِفٍ، قال: «وهي على سَبعَةِ أَميالٍ من عُسفانَ»[٢].

قَولُهُ: «فَنَفَّروا لهم قَريبًا من مئتَي رجلٍ، كُلُّهُم رامٍ»:

وفي رواية للبُخاريّ أَيضًا: «فَتَبعوهُم بقَريبٍ من مئةِ رامٍ».

قال الحافظُ: «والجَمعُ بينهما واضِحٌ، بأَن تَكونَ المئةُ الأُخرى غيرَ رُماةٍ، ولَم أَقِف على اسمِ أَحَدٍ منهم»[٣]. انتَهى كَلامُه.

والجمعُ غيرُ واضحٍ؛ لأنّه قال في روايةِ المئتينِ: «**كُلُّهُم رامٍ**»، وهذا في البخاريِّ أيضًا، ويبدو أنَّ قولَه: «**كُلُّهُم رامٍ**» سَقطَ من رِوايةِ الحافظِ ابنِ حَجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ ولذلك جَمعَ هذا الجَمعَ.

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فَنَفَّروا لهم**»، بتشديدِ الفاءِ، أَي: استنجدوا لأجلِهم قَريبًا من مئتي رجُل، وفي رواية: «فنَفَرَ إليهم قريبٌ من مئةِ رجُل»، بتَخفيفِ الفاءِ، أَي: خرجَ إليهم، فَكَأَنَّهُ قال: نفَّروا مئتي رجلٍ، ولكن ما تَبعَهُم إلا مئة.

وفي رواية أُخرى: «فنَفَذوا»، بالذَّالِ المعجَمَة»[٤].

قَولُهُ: «فاقتَصُّوا آثارَهُم، حتى وجَدوا مَأكَلهم تَمرًا تَزَوَّدوهُ منَ المَدينَةِ، فقالوا: هذا تَمرُ يَثرِبَ، فاقتَصُّوا آثارَهُم»:

---

(١) معجم البلدان (٥/ ٣٩٥).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٨٠).

(٣) المصدر السابق (٧/ ٣٨١).

(٤) عمدة القاري (١٤/ ٢٩١).

في روايةِ أَبي مَعشَرٍ في مَغازيهِ:

«فَنزلوا بالرجيعِ سَحَرًا، فَأَكَلوا تَمرَ عَجوَةٍ، فَسَقَطَت نَواةٌ بالأَرضِ، وكانوا يَسيرونَ اللَّيلَ، ويَكمُنونَ النهارَ، فَجاءَتِ امرَأَةٌ من هُذَيلٍ تَرعى غَنَمًا، فَرَأَتِ النواةَ، فَأَنكَرَت صِغَرَها، وقالت: «هذا تَمرُ يَثرِبَ»، فَصاحَت في قَومِها: «أُتيتُم!»، فَجاؤوا في طَلَبِهِم، فَوَجَدوهُم قد كَمَنوا في الجَبَلِ»[1].

قَولُهُ: «فلما رَآهُم عاصِمٌ وأَصحابُهُ لَجؤوا إلى فَدفَدٍ، وأَحاطَ بِهِمُ القَومُ»:

الفَدفَدَ: الرابيَةُ المشرِفَةُ.

وقال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفَدفَد: المَوضِعُ الذي فيه غِلَظٌ وارتِفاعٌ»[2].

قال الحافظُ: «ويُقالُ: الأَرضُ المستَوِيَةُ، والأَوَّلُ أَصَحُّ»[3].

وعِندَ أَبي داوُدَ، والبَيهَقيّ: «لَجَؤوا إلى قَردَدٍ».

قال ابنُ فارِسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأَرضُ القَردَدُ: إذا ارتَفَعَت إلى جَنب وهدَةٍ»[4].

«فقالوا لهم: انزِلوا وأَعطونا بأَيديكُم، ولَكُمُ العَهدُ والميثاقُ لا نَقتُلُ منكُم أَحَدًا»:

ووَقَعَ عِندَ ابنِ سَعدٍ: «فلم يَرُعِ القَومَ إلا الرِّجالُ بأَيديهِمُ السُّيوفُ قد غَشَوهُم، فَأَخَذَ أَصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُيوفَهُم، فقالوا لهم: إنَّا واللهِ ما نريد قِتالَكُم، إنَّما نُريدُ أَن نُصيبَ بكُم ثَمَنًا من أَهلِ مكةَ، ولَكُمُ العَهدُ والميثاقُ أَلا نَقتُلَكُم».

وتَقدَّمَ في روايةِ ابنِ إسحاقَ: «فَأَخَذوا أَسيافَهُم ليُقاتِلوهُم، فقالوا لهم: إنَّا واللهِ ما نُريدُ قَتلَكُم، ولكنَّا نُريدُ أَن نُصيبَ بكُم شَيئًا من أَهلِ مكةَ، ولَكُم عَهدُ اللهِ وميثاقُهُ أَن لا نَقتُلَكُم».

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٨١).

(٢) النهاية (٣/ ٤٢٠).

(٣) الفتح (٧/ ٣٨١).

(٤) مقاييس اللغة (٥/ ٨٤).

قَولُهُ: «فقال عاصِمُ بن ثابتٍ أَميرُ السَّريَّةِ: أَمَّا أَنا: فَواللهِ لا أَنزِلُ اليَومَ في ذِمَّةِ كافِرٍ»:

وعِندَ ابنِ إسحاقَ: «فَأَمَّا مَرثَدُ بن أَبي مَرثَدٍ، وخالِدُ بن البُكَيرِ، وعاصِمُ بن ثابتٍ، فقالوا: واللهِ لا نَقبَلُ من مُشرِكٍ عَهدًا ولا عَقدًا أَبَدًا».

وقد قال الله تعالى -مُحَرِّضًا للمُؤمِنينَ على مُعاداةِ المشرِكينَ والتبَرِّي منهم، ومُبَيِّنًا أَنَّهُم لا يَستَحِقُّونَ أَن يكونَ لهم عَهدٌ؛ لِشِركِهِم باللهِ وكُفرِهِم برسولِ اللهِ، ولو أَنَّهُم إذ ظَهَروا على المسلمينَ وأُدِيلوا عليهم، لَم يُبقوا ولَم يَذَروا، ولا راقَبوا فيهم إلا ولا ذِمَّةً-:

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة: ١٠].

و«الإِلُّ»: القَرابَةُ، و«الذِّمَّةُ»: العَهدُ[١].

وقال موسى بن عُقبَةَ: «فَأَعطَوهُم عَهدًا وميثاقًا لا يُريبونَهُم، فاستَسلَمَ لهم خُبَيبُ بن عَديٍّ، وزيد بن الدَّثِنَةِ، وعبدُ اللهِ بن طارِقٍ، ولَم يَستَسلِم عاصِمُ بن ثابتٍ، ولا خالِدُ بن البُكَيرِ، ولا مَرثَدُ بن أَبي مَرثَدٍ، ولكن قاتَلوهُم حتى قُتِلوا»[٢].

قَولُهُ: «اللهُمَّ أَخبِر عَنَّا نبيَّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»:**

وعِندَ أَحمَدَ، وابنَ حِبَّان: «اللهُمَّ أَخبِر عَنَّا رسولَكَ».

وفي حَديثِ بُرَيدَةَ بن سُفيانَ: «اللهُمَّ إِنِّي لا أَجِدُ مَن يُبَلِّغُ رسولَكَ مِنِّي السَّلامَ، فَبَلِّغ رسولَكَ مِنِّي السَّلامَ»[٣].

وفي روايةٍ للبُخاريِّ: «فاستَجابَ اللهُ لِعاصِمِ بن ثابتٍ يَومَ أُصيبَ، فَأَخبَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصحابَهُ خَبَرَهُم، وما أُصيبوا».

قَولُهُ: «فَقَتَلوا عاصِمًا في سَبعَةٍ»: أَي: في جُملَةِ سَبعَةٍ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١١٥).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٢٧).

(٣) سنن سعيد بن منصور (٢٨٣٧)، وسنده ضعيف.

وعِندَ **البخاريّ أَيضًا**: «فَقاتَلوهُم حتى قَتَلوا عاصِمًا في سَبعَةِ نَفَرٍ بالنبلِ».

قَولُهُ: «ونزلَ إليهم ثَلاثَةُ رَهطٍ بالعَهدِ والميثاقِ، منهم خُبَيبٌ الأَنصاريُّ، وابنُ دَثِنَة، ورجلٌ آخَرُ»:

وسَمَّى ابنُ إسحاقَ الثالثَ، وهو عبدُ اللهِ بن طارقٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد ذكَرَه موسى بنُ عُقبَةَ وأبو الأسوَدِ عن عُروةَ في أهلِ بَدرٍ[١].

و«**الدَّثِنَة**»: **قال عياضٌ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «بفَتحِ الدَّالِ، وكسرِ الثَّاءِ المثَلَّثَة، وتَخفيفِ النُّونِ، وقد تُسكَّنُ الثَّاءُ أَيضًا»[٢].

و**قال الحافظُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «بفَتح الدَّال، وكَسرِ المثَلَّثَة، وفَتحِ النُّونِ»[٣].

و**قال العَينيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «بفَتحِ الدَّالِ المهملَة، وكَسرِ الثَّاءِ المثَلَّثَةِ، وسُكونِها، والنُّون»[٤].

وقال أبو العباسِ القسطلانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بفَتحِ الدَّالِ المهمَلَة، وكَسرِ المثَلَّثَةِ، والنُّونِ المفتوحةِ المشدَّدةِ»[٥].

قَولُهُ: «فلما استَمكَنوا منهم أَطلَقوا أوتارَ قِسيِّهِم فَأوثَقوهُم»:

وفي رواية للبُخاريّ: «فلما استَمكَنوا منهم أَطلَقوا أوتارَ قِسيِّهِم، فَرَبَطوهُم بها».

أوتار: جمعُ وتَر، وهو وتَرُ القَوسِ، والقِسيُّ: جمع قَوسٍ، وهي التي يُرمى عنها.

والقَوسُ: يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، والجَمعُ: أَقوُسٌ وأَقواسٌ وأَقياسٌ وقياسٌ وقِسيٌّ وقُسيٌّ[٦].

قَولُهُ: «فقال الرجُلُ الثَّالِثُ: هذا أَوَّلُ الغَدرِ»:

---

(١) الإصابة (٤/ ١١٧).

(٢) مشارق الأنوار (١/ ٢٦٦).

(٣) فتح الباري (١/ ٢١٩).

(٤) عمدة القاري (١٤/ ٢٩٢).

(٥) المواهب اللدنية (١/ ٢٦١).

(٦) لسان العرب (٦/ ١٨٥).

قال الحافظُ: «وهو يَقتَضي أَنَّ ذلك وقَعَ منه أوَّلَ ما أَسَروهُم، لكن في روايةِ ابنِ إسحاقَ: «فَخرجوا بالنفَرِ الثَّلاثَةِ، حتى إذا كانوا بمَرِّ الظَّهرانِ انتَزَعَ عبدُ اللهِ بنُ طارِق يَدَهُ وأَخَذَ سَيفَهُ»، فَذكرَ قِصَّةَ قَتلِهِ.

فَيُحتَمَلُ أَنَّهُم إنَّما رَبَطوهُم بعدَ أَن وصَلوا إلى مَرِّ الظَّهرانِ، وإلا فَما في الصحيحِ أَصَحُّ»[1].

وعِندَ البَيهَقيّ، والطيالِسيِّ: «هو -واللهِ- أَوَّلُ الغَدرِ».

قَولُهُ: «**واللهِ لا أَصحَبُكُم، إنَّ لي في هَؤُلاءِ لَأُسوَةً -يُريدُ القَتلى- فَجَرَّروهُ وعالَجوهُ على أَن يَصحَبَهُم فَأَبى، فَقَتَلوهُ**»:

فأظهَرَ عِزَّةَ المسلم، وأبى أن يَذِلَّ لهم ويخضَعَ، فأرادوه على أن يصحَبَهم، فأبى أن يصحَبَهم، فقَتَلوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَولُهُ: «**فانطَلَقوا بخُبَيبٍ وابنِ دَثِنَةَ حتى باعوهُما بمكةَ بعدَ وقعَةِ بَدرٍ، فابتاعَ خُبَيبًا بَنو الحارِثِ بن عامِرِ بن نَوفَلِ بن عبدِ مَنافٍ، وكان خُبَيبٌ هو قَتَلَ الحارِثَ بنَ عامِرٍ يَومَ بَدرٍ**»:

وعِندَ ابنِ إسحاقَ: «وأَمَّا خُبَيبُ بن عَديٍّ، وزَيدُ بن الدَّثِنَةِ: فقدِموا بهِما مكةَ، فابتاعَ خُبَيبًا حُجَيرُ بن أَبي إهابٍ التميميُّ، حَليفُ بَني نَوفَلٍ، لِعُقبَةَ بن الحارِثِ بنِ عامِرِ بن نَوفَلٍ، وكان أَبو إهابٍ أَخا الحارِثِ بن عامِرٍ لِأُمِّهِ؛ لِقَتلِهِ بأَبيهِ.

وأَمَّا زَيدُ بن الدَّثِنةِ: فابتاعَهُ صَفوانُ بن أُمَيَّةَ؛ ليَقتُلَه بأَبيهِ أُمَيَّةَ بن خَلَفٍ.

وبَعَثَ بهِ صَفوانُ بن أُمَيَّةَ مع مَولًى له، يُقالُ له نِسطاسُ، إلى التنعيمِ.

ثم قَتَله نِسطاس، رَحِمَهُ اللَّهُ».

وفي روايةِ بُرَيدَةَ بن سُفيانَ: «أَنَّهُمُ اشتَرَوا خُبَيبًا بأَمَةٍ سَوداءَ».

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٨١)، وينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٧١).

وقال ابنُ هِشامٍ: «باعوهُما بأَسيرَينِ من هُذَيلٍ، كانا بمكةَ».

قَولُهُ: «فَلَبِثَ خُبَيبٌ عِندَهُم أَسيرًا»:

وعِندَ ابنِ سَعدٍ: «فَأَمَّا زَيدٌ: فابتاعَهُ صَفوانُ بن أُمَيَّةَ فَقَتَله بأَبيهِ، وابتاعَ حُجَيرُ بن أَبي إهابٍ خُبَيبَ بن عَديٍّ لابنِ أُختِهِ عُقبَةَ بن الحارِثِ بن عامِرِ بن نَوفَلٍ ليَقتُله بأَبيهِ، فَحَبَسوهُما حتى خرجَتِ الأَشهُرُ الحُرُمُ، ثم أَخرَجوهُما إلى التنعيمِ فَقَتَلوهُما».

وعِندَ سَعيدِ بن مَنصورٍ من حَديثِ بُرَيدَةَ بن سُفيانَ، أنهم أساءوا إليه في إسارِهِ، فقال: «ما يَصنَعُ القَومُ الكِرامُ هذا بأَسيرِهِم»، فَأَخرَجوهُ وأَحسَنوا إليه، وجَعَلوهُ عِندَ امرَأَةٍ تَحرُسُهُ وهو في إسارِهِ»[1].

وقال ابنُ سَعدٍ: أَخبَرَنا عبدُ اللهِ بن إدريسَ، حَدَّثَني عَمرو بن عُثمانَ بن عبدِ اللهِ بن مَوهَبٍ مَولى الحارِثِ بن عامِرٍ، قال: قال مَوهَبٌ: قال لي خُبَيبٌ -وكانوا جَعَلوهُ عِندي-: «يا مَوهَبُ، أَطلُبُ إليك ثَلاثًا: أَن تَسقيَني العَذبَ، وأَن تُجَنِّبَني ما ذُبحَ على النُّصُب، وأَن تُؤذِنَّي إذا أَرادوا قَتلي»[2].

قَولُهُ: فَأَخبَرَني عُبَيدُ اللهِ بن عياضٍ، أَنَّ بنتَ الحارِثِ أَخبَرَتهُ: أَنَّهُم حينَ اجتَمَعوا استَعارَ منها موسًى يَستَحِدُّ بها، فَأَعارَتهُ»:

تقدّم أنّ القائِلَ: «فَأَخبَرَني عُبَيدُ اللهِ» هو ابنُ شهابٍ الزُّهريّ.

وفي روايةٍ للبُخاريّ: «حتى إذا أَجمَعوا قَتله، استَعارَ موسًى من بَعضِ بَناتِ الحارِثِ ليستَحِدَّ بها، فَأَعارَتهُ»:

واسمُها: زَينَبُ بنتُ الحارِثِ، وهي أُختُ عُقبَةَ بن الحارِثِ الذي قَتَلَ خُبَيبًا، وقيلَ امرَأَتُهُ[3].

---

(١) سنن سعيد بن منصور (٢٨٣٧)، وسنده ضعيف كما تقدم.

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٤٣).

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٨٢)، عمدة القاري (١٧/ ١٦٨).

وقَولُهُ: «يَستَحِدُّ بها»، يعني: يَحلِقُ بها عانَتَهُ.

وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«الفِطرَةُ خَمسٌ -أو خَمسٌ منَ الفِطرَةِ-: الخِتانُ، والاستِحدادُ، وتَقليمُ الأَظفارِ، ونَتفُ الإبطِ، وقَصُّ الشَّارِبِ»**[١].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستِحدادُ: حَلقُ العانَةِ، سُمِّيَ استِحدادًا؛ لِاستِعمالِ الحَديدَةِ، وهي الموسى، وهو سُنَّةٌ، والمرادُ بهِ: نَظافَةُ ذلك المَوضِعِ، والأَفضَلُ فيه الحَلقُ، ويَجوزُ بالقَصِّ، والنتفِ، والنُّورَةِ[٢]، والمرادُ بالعانَةِ: الشَّعرُ الذي فَوقَ ذكرِ الرجُلِ وحَوالَيهِ، وكذاكَ الشَّعرُ الذي حَوالَي فَرجِ المَرأَةِ»[٣].

قالت: «فَأَخَذَ ابنًا لي، وأَنا غافِلَةٌ حينَ أَتاهُ»:

وعِندَ البخاريّ أَيضًا: «فَدَرَجَ بُنَيٌّ لها وهي غافِلَةٌ حتى أَتاهُ».

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: فَأَخَذَ خُبَيبٌ ابنًا لي، والحالُ أَنا غافِلَةٌ حينَ أَتاهُ، ويُروى: «حتى أَتاهُ»، واسمُ الابنِ: أَبو الحُسَين بن الحارِثِ بن عامر بن نَوفَل، وهو جدُّ عبد الله بن عبد الرحمَن بن أبي حُسَين المَكِّيّ، شيخِ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ»[٤].

قالت: «فَوَجَدتُهُ مُجلِسَهُ على فَخِذِهِ والموسى بيَدِهِ، فَفَزِعتُ فَزعَةً عَرَفَها خُبَيبٌ في وجهي، فقال: تَخشَينَ أَن أَقتُلَه؟ ما كُنتُ لِأَفعَلَ ذلك»:

وفي حَديثِ أَبي الأَسوَدِ، عن عُروَةَ: «فقال: هَل أَمكَنَ اللهُ منكُم؟ فقالت: ما هذا ظَنِّي بكَ، ثم ناوَلها الموسى، فقال: إِنَّما كُنتُ مازِحًا»[٥].

قال الحافظُ: «هذا الِابنُ الذي خَشيَت عليه غيرُ الذي أَحضَرَ إليه الحَديدَةَ»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٥٨٨٩)، ومسلم (٢٥٧).

(٢) النورة: أخلاط من أملاح الكالسيوم والباريون، تستعمل لإزالة الشعر. المعجم الوسيط (٢/ ٩٦٢).

(٣) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٤٨).

(٤) عمدة القاري (١٤/ ٢٩٢).

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٥/ ٢٦٠)، وسنده ضعيف.

(٦) فتح الباري (٧/ ٣٨٣).

أمَّا ابنُ إسحاقَ: فذكرَ أنَّ خُبَيبًا حُبسَ في بيتِ امرأةٍ اسمُها ماويَّةَ، فقال في رِوايَتِه:

حَدَّثَني عبدُ اللهِ بن أَبي نَجيحٍ، أَنَّهُ حُدِّثَ عن ماويَّةَ، مَولاةِ حُجَيرِ بن أَبي إهابٍ، وكانت قد أَسلَمَت، قالت: «كان خُبَيبٌ عِندي، حُبسَ في بَيتي، فَلَقدِ اطَّلَعتُ عليه يَومًا، وإنَّ في يَدِهِ لَقِطفًا من عِنَبٍ، مِثلَ رَأسِ الرجُلِ يَأكُلُ منه، وما أَعلَمُ في أَرضِ اللهِ عِنَبًا يُؤكَلُ».

قال ابنُ إسحاقَ: وحَدَّثَني عاصِمُ بن عمرَ بن قَتادَةَ، وعبدُ اللهِ بن أَبي نَجيحٍ جَميعًا، أَنَّها قالت: قال لي حينَ حَضَرَهُ القَتلُ: «ابعَثي إلَيَّ بحَديدَةٍ أَتَطَهَّرُ بها للقَتلِ»، قالت: فَأَعطَيتُ غُلامًا من الحَيِّ الموسى[1]، فَقُلتُ: أُدخُل بها على هذا الرجُلِ البَيت، قالت: فَواللهِ ما هو إلا أَن ولَّى الغُلامُ بها إليه، فَقُلتُ: ماذا صَنَعتُ؟! أَصابَ -واللهِ- الرجُلُ ثَأرَهُ بقَتلِ هذا الغُلامِ، فَيكونُ رجلًا برجلٍ.

فلما ناوَله الحَديدَةَ أَخَذَها من يَدِهِ ثم قال: «لَعَمرُكَ، ما خافَت أُمُّكَ غَدري حينَ بَعَثَتكَ بهذه الحَديدَةِ إلَيَّ!»، ثم خَلَّى سَبيله.

وسمَّاها الواقِديُّ ماويَّةَ أَيضًا، وجاءَ عندَهُ: «فلما أَتاهُ ابني بالحَديدَةِ تَناوَلها منه، ثُمّ قال مُمازِحًا له: وأَبيك إنّك لَجَريءٌ! أَما خَشيَت أُمّك غَدِري حَينَ بَعَثت معك بحَديدَةٍ، وأَنتُم تُريدونَ قَتلي؟

قالت ماويّةُ: وأَنا أَسمَعُ ذلك، فَقُلت: يا خُبَيبُ، إنّما أَمّنتُك بأَمانِ اللهِ، وأَعطَيتُك بإلهَك، ولَم أُعطِك لِتَقتُلَ ابني، فقال خُبَيبٌ: ما كُنت لِأَقتُله، وما نَستَحِلّ في دينِنا الغَدرَ.

ثُمّ أَخبَرَتهُ أَنّهُم مُخرِجوهُ فَقاتَلوهُ بالغَداةِ»[2].

وما في الصحيحِ أَصَحُّ وأَثبَتُ.

وذكرَ ابنُ سَعدٍ عن ماويَّةَ، قالت: «كان خُبَيبٌ يَتَهَجَّدُ بالقُرآنِ، فَكان يَسمَعُهُ النِّساءُ، فَيَبكينَ ويُرَقِّقنَ عليه»[3].

---

(١) قال ابن هشام: «ويقال: إن الغلام ابنها»، وقيل غيره.

(٢) مغازي الواقدي (١/ ٣٥٨).

(٣) الطبقات الكبرى (٨/ ٢٣٣).

قَولُهُ: «واللهِ ما رَأَيتُ أَسيرًا قَطُّ خَيرًا من خُبَيبٍ، واللهِ لَقد وجَدتُهُ يَومًا يَأكُلُ من قِطفِ عِنَبٍ في يَدِهِ، وإنَّهُ لَموثَقٌ في الحَديدِ، وما بمكةَ من ثَمَرٍ»:

والقِطفُ: العُنقودُ.

وعِندَ ابنِ إسحاقَ -كَما تَقدَّمَ-: «وإنَّ في يَدِهِ لَقِطفًا من عِنَبٍ، مِثلَ رَأسِ الرجُلِ يَأكُلُ منه، وما أَعلَمُ في أَرضِ اللهِ عِنَبًا يُؤكَلُ».

وفي الحِليَةِ من حَديثِهِ: «وما أَعلَمُ أَنَّ في الأَرضِ حَبَّةَ عِنَبٍ تُؤكَلُ».

قَولُهُ: «وكانت تَقولُ: إنَّهُ لَرِزقٌ منَ اللهِ رَزَقَهُ خُبَيبًا»:

وعِندَ البخاريّ أَيضًا: «وما كان إلا رِزقٌ رَزَقَهُ اللهُ».

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا مُمكِنٌ أن يكونَ آيةً للهِ تعالى على الكفَّارِ، وبُرهانًا لنبيِّه، وتصحيحًا لِرسالتِه عندَ الكافِرَة، وأهلِ بلَدِها الكُفَّارِ؛ من أجلِ ما كانوا عليه من تكذيب الرسولِ»[1].

قَولُهُ: «فلما خرجوا منَ الحَرَمِ ليَقتُلوهُ في الحِلِّ»:

بَيَّنَ ابنُ إسحاقَ في رِوايتِه أَنَّهُم أَخرَجوهُ إلى التنعيمِ[2].

***

فصلٌ

وكان القَومُ -على شِركِهِم- يُعَظِّمونَ الحَرَمَ والبَيتَ الحَرامَ أَشَدَّ تَعظيمٍ:

فعَنِ ابنِ أَبي نَجيحٍ، قال: «كان الناسُ يَبنونَ بُيوتَهُم مُدَوَّرَةً؛ تَعظيمًا للكَعبَةِ»[3].

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان الرجُلُ منهم لَو لَقيَ بِهِ قَاتِلَ أَبيهِ أو أَخيهِ لَم يهِجهُ ولَم يَعرِض له، حتى يَخرُجَ منه»[4].

---

(١) شرح صحيح البخارى (٥/ ٢٠٨).

(٢) **قال الحافظ:** «التنعيم: مكان معروف خارج مكة، سمي بذلك؛ لأنه عن يمينه جبل يقال له «نعيم»، وآخر يقال له «ناعم»، والوادي اسمه «نعمان»». فتح الباري (١/ ٩٣).

(٣) أخبار مكة للأزرقي (١/ ٢٧٩).

(٤) تفسير الطبري (٢/ ٥٢١).

وقال **العصاميُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانوا يحترِمونَ أَن يسكُنوا مكة، ويُعَظِّمونَها أَن يَبنوا فيها بَيتا مع بَيتِ اللهِ تعالى، وكانوا يكونونَ بمكة نَهارًا، فإذا أَمسَوا خَرجوا منها إلى الحِلِّ، ولا يستَحِلُّونَ الجَنابَةَ بمكةَ»(١).

وقال **أبو مَنصورٍ الثّعالبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن سُنَنِهم: أَنَّ مَن عَلا الكَعبَةَ منَ العبيدِ فَهو حُرٌّ، لا يرَونَ الملكَ على مَن عَلاها، ولا يَجمعونَ بينَ عِزّ عُلوِّها وذُلِّ الرّقِّ، وبمكةَ رِجالٌ لَم يدخُلوها قطّ؛ إعظامًا لها»(٢).

وقال **ابنُ إسحاقَ**: «فلما أَجمَعوا أَمرَهُم في هَدمِها وبنائِها -يَعني الكَعبَةَ-، قامَ أَبو وهب بن عَمرِو بن عَائِذٍ فقال: «يا مَعشَرَ قريشٍ، لا تُدخِلوا في بنائِها من كَسبكُم إلا طَيِّبًا، لا يَدخُلُ فيها مَهرُ بَغِيٍّ، ولا بَيعُ رِبًا، ولا مَظلَمَةُ أَحَدٍ منَ الناسِ»

ثم إنَّ الناسَ هابوا هَدمَها وفَرِقوا منه، فقال الوَليدُ بن المغيرَةِ: «أَنا أَبدَؤُكُم في هَدمِها»، فَأَخَذَ المِعوَلَ، ثم قامَ عليها، فَتَرَبَّصَ الناسُ تِلكَ اللَّيلَةَ، وقالوا: نَنظُرُ، فَإن أُصيبَ لَم نَهدِم منها شَيئًا ورَدَدناها كَما كانت، وإن لَم يُصِبهُ شيءٌ، فقد رَضيَ اللهُ صُنعَنا، فَهَدَمنا.

فَأَصبَحَ الوَليدُ من لَيلَتِهِ غاديًا على عَمَلِهِ، فَهَدَمَ وهَدَمَ الناسُ معه»(٣).

وعن سَعيدِ بن عَمرٍو، عن أَبيهِ، قال: «كانوا لا يَدخُلونَ الكَعبَةَ بحِذاءٍ؛ يُعَظِّمونَ ذلك، يَضَعونَ نِعالهم تَحتَ الدَّرَجِ»(٤).

وكان ما استَقَرَّ في نُفوسِ العَرَب من تعظيمِ البَيتِ والحَرَمِ من آياتِ اللهِ التي تَحُثُّهم على الإيمانِ به وتوحيدِه، وجاءت حادِثةُ الفيلِ لتُؤكِّدَ على هذا الذي استَقَرَّ في نُفوسِهم من التعظيمِ والمَهابَة.

---

(١) سمط النجوم العوالي (١/ ٢٠٤).

(٢) ثمار القلوب (ص١٨).

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ١٩٤).

(٤) الطبقات الكبرى (١/ ١١٧).

فهُم بذلك أولى الناس بالمسارَعةِ إلى الإيمانِ، والمبادَرةِ إلى توحيدِ اللهِ؛ فإنَّ ذلك مِمَّا يَستَدعيه بالضَّرورةِ ما في نُفوسِهم من هذا التعظيمِ، ومِمَّا يَستَدعيه شُكر النِّعمَةِ التي خَصَّهُم اللهُ بها، ولذلك قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش: ١-٤].

قال السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قال كَثيرٌ من المفسرينَ**: إنَّ الجارَّ والمَجرور مُتَعَلِّقٌ بالسُّورةِ التي قَبلها؛ أي: فَعَلنا ما فَعَلنا بأصحاب الفيلِ؛ لأجلِ قُريشٍ وأمنِهم، واستقامةِ مَصالِحِهم، وانتِظامِ رِحلَتِهم في الشِّتاءِ لليَمَنِ، والصيفِ للشَّامِ؛ لأجلِ التِّجارةِ والمكاسِب.

فأهلَكَ اللهُ مَن أرادَهُم بسوءٍ، وعَظَّمَ أمرَ الحَرَمِ وأهلِه في قُلوب العرب، حتى احتَرَموهُم، ولم يَعتَرِضوا لهم في أَيِّ سَفَرٍ أرادوا، ولهذا أمَرَهُمُ اللهُ بالشُّكرِ، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾، أي: ليوَحِّدوه ويُخلِصوا له العِبادةَ، ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾، فرَغَدُ الرِّزقِ والأمنُ من المَخاوِفِ من أكبرِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ، الموجِبَةِ لشُكرِ اللهِ تعالى»[1].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى مُمتَنًّا على قريشٍ فيما أَحَلَّهُم من حَرَمِهِ، الذي جَعَله للناسِ سَواءً العاكِفُ فيه والبادي، ومَن دَخَله كان آمِنًا، فَهُم في أَمنٍ عَظيمٍ، والأَعرابُ حَوله يَنهَبُ بَعضُهُم بَعضًا، ويَقتُلُ بَعضُهُم بَعضًا، كَما قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش: ١-٤].

وقَولُهُ: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾، أي: أَفكان شُكرُهُم على هذه النِّعمَةِ العَظيمَةِ أَن أَشرَكوا بِهِ، وعَبَدوا معه غيرَهُ منَ الأَصنامِ والأَندادِ، وبَدَّلوا نِعمَةَ

(١) تفسير السعدي (ص٩٣٥).

اللهِ كُفرًا، وأَحَلُّوا قَومَهُم دارَ البَوارِ، وكَفَروا بنبيِّ اللهِ وعبدِهِ ورسولِهِ؟! فكان اللَّائِقُ بهم إخلاصَ العِبادَةِ للهِ، وأَلَّا يُشرِكوا بهِ، وتَصديقَ الرسولِ وتَعظيمَهُ وتَوقيرَهُ، فَكَذَّبوهُ وقاتَلوهُ وأَخرَجوهُ من بينِ ظَهرِهِم؛ ولِهذا سَلَبَهُمُ اللهُ ما كان أَنعَمَ بهِ عليهم، وقُتِلَ مَن قُتِلَ منهم ببَدرٍ، وصارَتِ الدَّولَةُ للهِ ولِرسولِهِ وللمُؤمِنينَ، فَفَتَحَ اللهُ على رسولِهِ مكةَ، وأَرغَمَ آنافَهُم، وأَذَلَّ رِقابَهُم»[1].

وقال **شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك ما خَصَّ اللهُ بهِ الكعبَةَ البيتَ الحرامَ من حينِ بناهُ إبراهيمُ وإلى هذا الوَقتِ، من تعظيمِه وتوقيرِ وانجِذاب القُلوب إليه، ومنَ المَعلومِ أنَّ الملوكَ وغيرَهُم يَبنون الحُصونَ والمَدائِنَ والقُصورَ بالآلاتِ العظيمةِ البناءَ المحكَمَ، ثم لا يلبَثُ أن ينهَدِمَ ويُهانَ، والكَعبةُ بَيتٌ مَبنيٌّ من حجارَةٍ سودٍ، بوادٍ غيرِ ذي زَرعٍ، ليس عِندَه ما تشتَهيهِ النُّفوسُ من البَساتينِ والمياهِ وغيرِها، ولا عندَه عَسكَرٌ يَحميهِ من الأعداءِ، ولا في طَريقِه من الشَّهواتِ ما تشتَهيهِ الأنفُس، بَل كثيرًا ما يكون في طريقِه منَ الخوفِ والتعب والعطَشِ والجوعِ ما لا يعلَمُه إلا اللهُ، ومع هذا فقد جعَلَ اللهُ من أفئِدةِ الناسِ التي تَهوى إليهِ ما لا يعلمُه إلا اللهُ، وقد جعَلَ للبيتِ من العِزِّ والشَّرَفِ والعظَمَةِ ما أذَلَّ به رقابَ أهلِ الأرضِ، حتى تقصِدَه عُظماءُ الملوكِ ورُؤساءُ الجَبابرة، فيكونونَ هُناكَ في الذُّلِّ والمَسكَنَةِ كآحادِ الناسِ، وهذا مِمَّا يُعلَمُ بالاضطِرارِ أنَّه خارجٌ عن قُدرَةِ البَشَرِ، وقوى نُفوسِهم وأبدانِهم، والذي بناهُ قد ماتَ من أُلوفِ السِّنين، ولهذا كان أمرُ البَيتِ مِمَّا حَيَّرَ هَؤُلاءِ الفلاسِفةَ والمنَجِّمين والطبائِعيّة؛ لكَونِه خارِجًا عن قياسِ عُقولِهم، وقَوانينِ عُلومِهم، حتى اختَلَقوا لذلك من الأكاذيب ما يَعلَمُه كُلُّ عاقِلٍ لبيبٍ»[2].

وتَعظيمُ شعائِرِ اللهِ من تَعظيمِ اللهِ سبحانه، وتَعظيمُه يستَوجِبُ توحيدَه؛ إذ كيفَ يُعَظِّمُه مَن يُشرِكُ بهِ، ويعبُدُ معَهُ الحجَرَ والشَّجَرَ، ويستَغيثُ بالوَثَنِ، ويَسأَلُه الحاجاتِ، ويلجَأُ إليهِ في الملِمَّاتِ؟!

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٥).

(٢) الصفدية (١/ ٢٢٠).

عَودَةٌ إلى شَرحِ الحَديثِ:

فلَمَّا خرَجَ القَومُ بخُبَيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الحَرَمِ؛ ليَقتُلوه في الحِلِّ، قال لهم خُبَيبٌ: «**ذَروني أَركَع رَكعَتَينِ**».

وعِندَ البخاريّ أَيضًا: «دَعوني أُصَلِّي رَكعَتَينِ».

قال ابنُ عِلَّان رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه روايةُ جَماهيرِ البخاريّ بإثباتِ الياءِ، وللكشميهَنيِّ بحَذفِها، ووَجهُها ظاهِرٌ»[1].

ولِموسى بن عُقبَةَ: أَنَّهُ صَلَّى رَكعَتَينِ في مَوضِعِ مسجدِ التنعيمِ[2].

قَولُهُ: «فتَرَكوهُ، فَرَكَعَ رَكعَتَينِ، ثم قال: واللهِ لَولا أَن تَحسِبوا أَنَّ ما بي جَزَعٌ لَزِدتُ»:

وللبُخاريّ أَيضًا: «لَولا أَن تَرَوا أَنَّ ما بي جَزَعٌ منَ المَوتِ لَزِدتُ».

وله أَيضًا: «لَولا أَن تَظُنُّوا أَنَّ ما بي جَزَعٌ لَطَوَّلتُها».

وعِندَ سَعيدِ بن منصورٍ من رواية بُرَيدةَ بن سُفيانَ: «لَو ما أَن تَقولوا جَزَعَ خُبَيبٌ منَ المَوتِ لَزِدتُ سَجدَتَينِ أُخرَيَينِ».

وتَقدَّمَ حديثُ ابنِ إسحاقَ، عن عاصِمِ بن عمرَ، قال: «ثم خرجوا بخُبَيبٍ، حتى إذا جاءوا بهِ إلى التنعيمِ ليَصلِبوهُ، قال لهم: إن رَأَيتُم أَن تَدَعوني حتى أَركَعَ رَكعَتَينِ فافعَلوا، قالوا: دونَكَ فاركَع.

فَرَكَعَ رَكعَتَينِ أَتَمَّهُما وأَحسَنَهُما، ثم أَقبَلَ على القَومِ، فقال: «أَما واللهِ لَولا أَن تَظُنُّوا أَنِّي إنَّما طَوَّلتُ جَزَعًا من القَتلِ لاستكثَرتُ من الصلاةِ».

قال: فكان خُبَيبُ بن عَديٍّ أَوَّلَ مَن سَنَّ هاتَينِ الركعَتَينِ عِندَ القَتلِ للمسلمينَ.

---

(١) دليل الفالحين (٧/ ٣٢٩).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٨٣).

قَولُهُ: «ثم قال: اللهُمَّ أَحصِهِم عَدَدًا، واقتُلهُم بَدَدًا، ولا تُبقِ منهم أَحَدًا»:

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**اللهُمَّ أَحصِهِم عَدَدًا**»: دُعاءٌ عليهم بالهَلاكِ استئصالًا، أَي: لا تُبقِ منهم أَحَدًا.

«**واقتُلهُم بَدَدًا**»: والبَدَدُ: التفَرُّقُ، قال السُّهيليُّ: «ومَن رواهُ بكَسر الباء فَهو جَمعُ بُدَّة، وهي: الفِرقَةُ والقِطعَةُ من الشَّيءِ المتَبَدِّدِ»[1].

وقال ابنُ الأَثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُروى بكَسرِ الباءِ، جَمعُ بُدَّة، وهي الحِصَّة والنصيبُ، أَي: اقتُلهم حِصَصًا مُقَسَّمةً، لِكُلِّ واحدٍ حِصَّتُه ونَصيبُه، ويُروى بالفَتحِ، أَي: مُتَفَرِّقينَ في القَتلِ، واحدًا بعدَ واحدٍ، منَ التبديد»[2].

وعِندَ ابن إسحاقَ: «ثم رَفَعوهُ على خَشَبَةٍ، فلما أوثَقوهُ، قال: «اللهمّ إنَّا قد بَلَّغنا رِسالَةَ رسولِكَ، فَبَلِّغهُ الغَداةَ ما يُصنَعُ بنا»، ثم قال: «اللهمّ أَحصِهِم عَدَدًا، واقتُلهُم بَدَدًا، ولا تُغادِر منهم أَحَدًا»، ثم قَتَلوهُ رَحِمَهُ اللَّهُ».

وعَنِ الحارِثِ ابنِ البَرصاءِ[3]، قال: «أُتِيَ بخُبَيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَبيعَ بمكةَ، فَأَرادوا أَن يَقتُلوهُ، فقال: «دَعوني أُصَلِّي رَكعَتَينِ، فَصَلَّى رَكعَتَينِ»، ثم قال: «اللهُمَّ أَحصِهِم عَدَدًا»، فَكُنتُ فيهم، فَما ظَنَنتُ أَنَّهُ يَبقى منهم أَحَدٌ»[4].

وفي حَديثِ عُروَةَ: «وقال خُبَيبٌ -وهُم يَرفَعونَهُ على الخَشَبَةِ-: «اللهُمَّ أَحصِهِم عَدَدًا، واقتُلهُم بَدَدًا، ولا تُبقِ منهم أَحَدًا».

وقَتَلَ خُبَيبَ بن عَديٍّ أَبناءُ المشرِكينَ الذينَ قُتِلوا يَومَ بَدرٍ، فلما وضَعوا فيه السِّلاحَ وهو مَصلوبٌ نادَوهُ وناشَدوهُ: أَتُحِبُّ محمدًا مَكانكَ؟ فقال: «لا واللهِ العَظيمِ، ما أَحِبُّ أَن يُفَدِّيَني بشَوكَةٍ يُشاكُها في قدَمِهِ»، فَضَحِكوا»[5].

---

(١) عمدة القاري (١٤/ ٢٩٣).

(٢) النهاية (١/ ١٠٥).

(٣) هو الحارث بن مالك بن قيس بن عوذ بن جابر الكناني، الليثي، المعروف بابن البرصاء، وهي أمه، وقيل: أم أبيه. الإصابة (١/ ٦٨٨)، تقريب التهذيب (ص١٤٧).

(٤) رواه الفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤)، وإسناده جيد.

(٥) رواه الطبراني في الكبير (٥/ ٢٥٩).

قَولُهُ: ثم أَنشَأَ يقولُ:

مـــا أُبـــالي حينَ أُقتَـــلُ مســـلمًا
على أَيِّ شِـــقٍّ كان للهِ مَصرَعـــي
وذلـــك في ذاتِ الإلَـــهِ وإن يَشَـــأ
يُبـــارِك على أوصـــالِ شِـــلوٍ مُمَـــزَّعِ

وللبُخاريّ أَيضًا:

فَلَســـتُ أُبـــالي حينَ أُقتَـــلُ مســـلمًا
على أَيِّ جَنـــبٍ كان للهِ مَصرَعـــي

وله أَيضًا:

ولَســـتُ أُبـــالي حينَ أُقتَـــلُ مســـلمًا
على أَيِّ شِـــقٍّ كان للهِ مَصرَعـــي

وقال الحافظُ: «قَولُهُ: «ما إن أُبالي»، هَكذا للأَكثَرِ، وللكُشميهَنيِّ: «فَلَستُ أُبالي»، وهو أوزَنُ، والأوَّلُ جائِزٌ، لكنَّهُ مَخرومٌ[1]، ويَكمُلُ بزيادَةِ الفاءِ، و«ما» نافيَةٌ، و«إن» بعدَها بكَسرِ الهَمزَةِ نافيَةٌ أَيضًا للتَّأكيدِ، وفي روايةِ شُعَيبٍ للكُشميهَنيِّ: «وما إن أُبالي» بزيادَةِ واوٍ، ولِغيرِهِ: «ولَستُ أُبالي»[2].

وقال ابنُ عِلَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مُرادُه: استِواءُ كَيفيَّاتِ المَوتِ عِندَهُ، حالَ مَوتِهِ مسلمًا شَهيدًا»[3].

وقَولُهُ:

وذلـــك في ذاتِ الإلَـــهِ وإن يَشَـــأ
يُبـــارِك على أوصـــالِ شِـــلوٍ مُمَـــزَّعِ

---

(١) يقال: خرم الشاعر البيت، أي: حذف الفاء من فعولن، أو الميم من مفاعلتن، أو مفاعيلن، فالبيت مخروم.
(٢) فتح الباري (٧/ ٣٨٤).
(٣) دليل الفالحين (٧/ ٣٢٩).

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُه: «**في ذاتِ الإلَهِ**»، أَي: في وجهِ اللهِ، وطَلَب ثَوابه، قَولُه: «**أوصالِ**»، جَمعُ وصلٍ، قَولُهُ: «**شِلو**»، بكَسر الشين المعجَمَة، وسُكونِ اللَّامِ: العُضوُ، قَولهُ: «**مُمَزَّعٍ**»، أَي: مُقَطَّع، والمزعَةُ: القطعَة»[1].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأوصالُ جَمعُ وصلٍ، وهو العُضوُ، والشِّلوُ: الجَسَدُ، وقد يُطلَقُ على العُضوِ، ولكنَّ المرادَ بهِ -هُنا- الجَسَدُ، والممَزَّعُ: المقَطَّعُ، ومعنى الكَلامِ: أَعضاءُ جَسَدٍ يُقَطَّعُ»[2].

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعنى: يُبارِك على أَعضاءِ جِسمٍ مُقَطَّعٍ»[3].

وقال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشِّلوُ: عُضوٌ من أعضاءِ الجسَدِ، والمزعةُ: القطعَةُ من اللحمِ، والمزعَة: الشَّحمُ، والأوصالُ: المفاصِلُ»[4].

وقال القاضي عياضٌ: «شِلوٍ مُمَزَّعٍ»: **قال أَبو عُبَيد**: «الشِّلوُ: العُضو من اللَّحم»، والممَزَّع: المقَطَّع.

وقال الخَليلُ: «الشِّلوُ: الجَسَدُ من كُلِّ شيءٍ».

وقيلَ: «الشِّلوُ: القِطعَةُ، ومنه قيلَ للعُضوِ: شِلو».

والذي هُنا يجِبُ أَن يكونَ الجَسَد؛ لقَولِه: «أوصالِ شِلوٍ»، يَعني: أَعضاء جَسَدٍ، ولا يُقالُ: أَعضاء عُضو»[5].

قال الحافظُ: «وعِندَ أَبي الأَسوَدِ عن عُروَةَ زيادَةٌ في هذا الشِّعرِ:

لَقد أَجمع الأَحزابُ حَولي وأَلَّبوا
قَبائِلهم واستَجمَعوا كُلَّ مَجمَعِ

---

(١) عمدة القاري (١٤/ ٢٩٣).
(٢) فتح الباري (٧/ ٣٨٤).
(٣) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٤٨٣).
(٤) شرح المشكاة (٨/ ٢٦٥١).
(٥) مشارق الأنوار (٢/ ٢٥٣).

وفيه:

إلى اللهِ أَشكو غُربَتي بعدَ كُربَتي
وَماأَرصَدَالأَحزابُ لِي عِندَمَصرَعي

وساقَها ابنُ إسحاقَ ثَلاثَةَ عَشَرَ بَيتا، قال ابن هِشامٍ: «ومنهم مَن يُنكِرُها لِخُبَيبٍ»[1].

***

فصلٌ

في الكَلام على الذات:

«الذَّاتُ»، قال الراغِبُ: «هي تَأنيثُ «ذو»، وهي كَلِمَةٌ يُتَوَصَّلُ بها إلى الوَصفِ بأَسماءِ الأَجناسِ والأَنواعِ، وتُضافُ إلى الظَّاهِرِ دونَ المضمَرِ، وتُثَنَّى وتُجمَعُ، ولا يُستَعمَلُ شيءٌ منها إلا مُضافًا.

وقد استَعاروا لَفظَ الذَّاتِ لِعَينِ الشَّيءِ، واستَعمَلوها مُفرَدَةً ومُضافَةً، وأَدخَلوا عليها الأَلِفَ واللَّامِ، وأَجرَوها مَجرى النفسِ والخاصَّةِ، وليس ذلك من كَلامِ العَرَب».

وقال عياضٌ: «ذاتُ الشَّيءِ نَفسُهُ وحقيقَتُهُ، وقد استَعمَلَ أَهلُ الكَلامِ الذَّاتَ بالأَلِفِ واللَّامِ، وغَلَّطَهُم أَكثَرُ النُّحاةِ، وجَوَّزَهُ بَعضُهُم؛ لِأَنَّها تَرِدُ بمَعنى النفس وحقيقَةِ الشَّيءِ، وجاءَ في الشِّعرِ لكنَّهُ شاذٌّ، واستِعمالُ البخاريِّ لها[2] دالٌّ على ما تَقدَّمَ من أَنَّ المرادَ بها نَفسُ الشَّيءِ، على طَريقَةِ المتَكَلِّمينَ في حقِّ اللهِ تعالى، فَفَرَّقَ بينَ النُّعوتِ والذَّاتِ».

وقال ابنُ بُرهَان: «إطلاقُ المتَكَلِّمينَ الذَّاتَ في حقِّ اللهِ تعالى من جَهلِهِم؛ لِأَنَّ «ذاتَ» تَأنيثُ «ذو» وهو -جَلَّت عَظَمَتُهُ- لا يَصِحُّ له إلحاقُ تاءِ التأنيثِ، ولِهذا امتَنَعَ أَن يُقال: «عَلَّامَةٌ»، وإن كان أَعلَمَ العالِمينَ.

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٨٤)، سيرة ابن هشام (٢/ ١٧٦).

(٢) حيث قال: «باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله». صحيح البخاري (٩/ ١٢٠).

وقَولُهُمُ: «الصفاتُ الذَّاتيَّةِ» جَهلٌ منهم أَيضًا؛ لِأَنَّ النسَبَ إلى «ذات» ذَوويّ».

وقال التاجُ الكِنديُّ في الردِّ على الخَطيب ابنِ نُبَاتَةَ في قَولِهِ: «كُنه ذَاتِهِ»، قال: «ذاتٌ» بمعنى صاحِبَة، تَأنيث «ذو»، وليس لها في اللُّغَةِ مَدلولٌ غيرُ ذلك، وإطلاقُ المتَكَلِّمينَ وغيرُهُمُ الذَّاتَ بمعنى النفسِ خَطأٌ عِندَ المحقِّقينَ».

وتُعُقِّبَ بأَنَّ الممتَنِعَ استِعمالُها بمعنى «صاحِبَةٍ»، أَمَّا إذا قُطِعَت عن هذا المعنى واستُعمِلَت بمعنى الإسميَّةِ فلا مَحذورَ؛ لِقَولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣]، أَي: بنَفسِ الصدورِ[(١)].

وقال النوَويُّ في تَهذيبِهِ: «وأَمَّا قَولُهُم -أَي الفُقَهاء- في باب الأَيمانِ: «فَإن حَلَفَ بصِفَةٍ من صِفاتِ الذَّاتِ»، وقَولُ المهَذَّب: «اللَّونُ كالسَّوادِ والبَياضِ أعراضٌ تحُلُّ الذَّات»، فمُرادُهم بالذَّاتِ الحقيقَةُ، وهو اصطِلاحُ المتَكَلِّمينَ، وقد أَنكَرَهُ بَعضُ الأُدَباءِ، وقال: «لا يُعرَفُ في لُغَةِ العَرَب «ذاتٌ» بمعنى حقيقَةٍ»، قال -أي: النوَويُّ-: «وهذا الإنكارُ مُنكَرٌ؛ فقد قال الواحديُّ في قَولِهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ [الأنفال: ١]: «قال ثَعلَبٌ: «أَي: الحَالَةَ التي بينكُم»، فالتأنيثُ عِنده للحالة، وقال الزَّجَّاجُ: «معنى «ذاتَ» حقيقَة، والمرادُ بالبينِ الوَصلُ، فالتقديرُ: فَأَصلِحوا حقيقَةَ وصلِكُم»، قال: «فَذاتُ -عِندَهُ- بمعنى النفسِ، وقال غيرُهُ: «ذاتُ -هُنا- كِنايَةٌ عَنِ المنازَعَةِ، فَأُمِروا بالموافَقَةِ[(٢)]»[(٣)].

وقال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذَّاتُ» كَلِمَةٌ موَلَّدَةٌ ليست قديمَةً، وقد وُجِدَت في كَلامِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابَةِ، لكن بمَعنى آخَرَ، مِثل قَولِ خُبَيبٍ الذي في صَحيحِ البخاريِّ:

---

(١) **وقال القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أي: ما فيها من خير وشر، وقيل: «ذات الصدور» هي الصدور؛ لأن ذات الشيء نفسه». تفسير القرطبي (٤/ ٢٤٣).

(٢) وعبارة التهذيب (٣/ ١١٣): «قال الواحدي: وقال صاحب النظم: «ذات: كناية عن الخصومة والمنازعة ههنا، وهي الواقعة بينهم»، وفي الحديث في صلاة العيد: «أمرنا بأن نخرج ذوات الخدور»، أي: صواحب الخدور».

(٣) فتح الباري (١٣/ ٣٨١-٣٨٢)، وينظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي (٣/ ١١٣)، غرائب التفسير، للكرماني (١/ ٤٣٣).

وذلـك في ذاتِ الإلَـهِ وإن يَشَـأ
يُبـارِك على أوصـالِ شِـلوٍ مُمَـزَّعِ

وفي الصحيحِ عن النبيِّ ﷺ قال: «**لَم يَكذِب إبراهيمُ إلا ثَلاثَ كِذباتٍ، كُلُّهُنَّ في ذاتِ اللهِ**»(١)، وعن أَبي ذَرٍّ: «كُلُّنا أَحمَقُ في ذاتِ اللهِ»، وفي قَولِ بَعضِهِم: «أُصِبنا في ذاتِ اللهِ».

والمعنى: في جِهَةِ اللهِ وناحيَتِهِ، أَي: لِأَجلِ اللهِ، ولِابتِغاءِ وجهِهِ، ليس المرادُ بذلك النفسَ.

ونَحوُهُ في القُرآنِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ [الأنفال: ١]، وقَولُهُ: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أَي: الخَصلَةَ والجِهَةَ التي هي صاحِبَةُ بينِكُم، وعَليمٌ بالخَواطِرِ ونَحوِها التي هي صاحِبَةُ الصدورِ.

فاسمُ «الذَّاتِ» في كَلامِ النبيِّ ﷺ والصحابَةِ والعَرَبيَّةِ المَحضَةِ بهذا المعنى، ثم أَطلَقَهُ المتكَلِّمونَ وغيرُهُم على النفسِ بالِاعتِبارِ الذي تَقدَّمَ؛ فَإِنَّها صاحِبَةُ الصفاتِ، فإذا قالوا: «الذَّات»، فقد قالوا: التي لها الصفاتُ.

وقد رويَ في حَديثٍ مَرفوعٍ وغيرِ مَرفوعٍ: «**تَفَكَّروا في آلاءِ اللهِ، ولا تَتَفَكَّروا في ذاتِ اللهِ**»(٢)، فَإن كان هذا اللَّفظُ أو نَظيرُهُ ثابتًا عن النبيِّ ﷺ وأَصحابِهِ، فقد وُجِدَ في كَلامِهِم إطلاقُ اسمِ «الذَّاتِ» على النفسِ، كَما يُطلِقُهُ المتَأَخِّرونَ»(٣).

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله** عز وجل». رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١)، ورواه أبو يعلى في مسنده (٦٠٣٩)، ولفظه: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، كلهن في الله**».

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، والبيهقي في الشعب (١/ ٢٦٢)، من حديث ابن عمر مرفوعًا، ولا يصح، وله طرق لا يصح منها شيء، وعامتها واهية، وجاء عن ابن عباس من قوله، رواه أبو جعفر بن أبي شيبة في العرش (ص٣٤٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٤٦)، وجود إسناده الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٨٣)، وحسنه الذهبي في العرش (٢/ ١٧١).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٤١-٣٤٢).

وقال **الشَّيخُ ابنُ عُثَيمينَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذَّاتُ» كلمَةٌ اختلَف فيها عُلماءُ اللُّغَةِ: هَل هي فَصيحةٌ من العَرَبيَّةِ، أو هي موَلَّدَةٌ وليست بعَرَبيَّةٍ؟ وأكثرُ المحقّقينَ على أنَّها موَلَّدَةٌ، وليست منَ العَرَبيَّةِ في شيءٍ، وإنَّما هي من مُصطَلَحِ أهلِ الكَلامِ، جعَلوها بَدَلًا عن كَلِمَةِ النفس، فيقول- مثلًا-: جاءَ زيدٌ نفسُه، أو جاء زيدٌ ذاتُه، يجعَلونَها بَدلًا عنها، ولكنَّها ليست من كلامِ العَرَب العَرباءِ، كَما قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهي في اللُّغَةِ العرَبيَّة تُستَعمَل استعمالاتٍ مُتعدِّدةً، منها:

١. أن تكون بمعنى «صاحِبة»، كَما لَو قُلتَ: «تزَوَّجتُ امرأةً ذاتَ عِلمٍ»، أي: صاحِبَةَ عِلمٍ، ويُقابلُها في المذَكَّر «ذو عِلمٍ» لَو قُلتَ: «اتَّصلَ بي رجُلٌ ذو عِلمٍ»، أي: صاحِبُ عِلمٍ.

٢. يجعَلون «الذَّاتَ» بمعنى «التي»، كَما يجعَلون «ذو» بمعنى «الذي» وعليه قَولُ الشَّاعِرِ:

فَــإنَّ الماءَ مــاءُ أَبي وجَــدِّي

وبئــري ذو حَفَــرتُ وذو طَوَيــتُ

أي: بئري الذي حَفَرتُ والذي طَوَيتُ، ويُقالُ: «جاءَت ذاتُ أَرضَعَت ولَدَها»، أي: التي أَرضَعت ولَدَها.

٣. تَأتي بمعنى جِهَة، ومن ذلك قَولُهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨]، أي: جِهَةَ اليَمينِ وجِهَةَ الشِّمالِ، ويُمكِنُ أن يُحمَلَ عليها قَولُ خُبَيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلك في ذاتِ الإلَهِ.

وَقَولُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إبراهيمَ: «**كَذَبَ ثَلاثَ كِذباتٍ في ذاتِ اللهِ**»، أي: في جِهَتِهِ، والمرادُ: في سَبيلِه وطاعَتِه، فتكونُ بمعنى الجِهَةِ.

٤. أن تَكونَ زائِدَةً للتَّوكيدِ، تَوكيدِ التنكيرِ، مِثل: «قدِمنا مَكةَ ذاتَ يومٍ، فوجَدنا المسجدَ خَفيفًا».

قَولُهُ: «ذاتَ يَومٍ» هذه زائِدَةٌ لتَوكيدِ التنكيرِ، فلَو قُلنا: «قدِمنا مَكةَ يومًا، فوجَدنا

المسجدَ خَفيفًا» استَقامَ الكَلامُ، وهذا يوجَد كَثيرًا في الحَديثِ: «خرجنا مع النبيِّ ﷺ ذاتَ يَومٍ»، «ذاتَ لَيلَةٍ»، وما أَشبَهَ ذلك.

هذه أربَعَةُ مَعانٍ لـ «ذات» في اللُّغَةِ العَرَبيَّة، أمَّا «ذات» بمعنى نَفسِ الشَّيءِ وحقيقتِه: فهذه اختَلَفَ فيها عُلماءُ اللغَةِ العربيَّةِ، فمنهم مَن أنكَر استِعمالها في هذا المعنى، ومنهم مَن أجازَها، وظاهِرُ صنيعِ البخاريّ رَحِمَهُ اللَّهُ جوازُ استِعمالِها بمعنى النفسِ.

فإذا قال قائِلٌ: ما العلاقةُ بينَ هذا الاستعمالِ، وبينَ المعنى الأصليِّ في اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ؟

قُلنا: المعنى الأصليُّ في اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ: أن تَأتيَ بمعنى صاحِبَة، فهُم يقولونَ: «ذات عِلمٍ»، أي: صاحِبَة عِلمٍ، و«اللهُ تعالى ذو عِلمٍ»، فأصلُها مُضارِعٌ، لكِن حُذِفَ المضافُ، ثم بقيَت نَكِرَةً، فعُرِّفَت بـ «ال»، ولهذا مَنَع بعضُ العُلماءِ أن تقول «ذات» بالنِّسبَةِ للهِ، لماذا؟ لِأَنَّ التاءَ للتأنيثِ، ولا يَجوزُ استِعمالُ الكَلِمَةِ المؤنَّثَةِ بالتاءِ ولو للمُبالَغَةِ، ولهذا لا يجوزُ أن تَقولَ: «إنَّ اللهَ عَلَّامَةٌ»، ويجوزُ أن تقولَ: «إنَّ هذا الرجُلَ عَلَّامَةٌ»، أمَّا اللهُ، فتقولُ: «عَلَّامُ الغُيوب».

فأنتَ إذا أَتيتَ بـ«ذات»، تُريدُ الربَّ عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ هذا يَعني تأنيثَ ما يُضافُ إلى اللهِ، وهذا لا يَجوزُ، لكِن هذا خِلافُ استِعمالِ جُمهورِ عُلماءِ المحقِّقينَ»[1].

وسُئِلَ الشَّيخُ ابنُ بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: صِفَةُ الذاتِ للهِ تعالى، هَل هي صِفَةٌ، أم هي الذَّاتُ نَفسُها؟

فأجابَ: «يوصَفُ بأنَّ له ذاتًا وله نَفسٌ جَميعها، كَما قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]»[2].

وقال الشَّيخُ صالِح الفَوزان حَفِظَهُ اللهُ: «لَفظُ «الذَّاتِ»: فهذا أمرٌ ضَروريٌّ فِطريٌّ؛ لِأَنَّ مَن لا ذاتَ له لا وُجودَ له، فالصفاتُ تَدُلُّ على الذَّاتِ، واللهُ جَلَّوَعَلَا يقولُ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فأثبَتَ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفسًا، وذاتًا، لِأَنَّ الصفاتِ لا تَقومُ إلا بذاتٍ، هذا شيءٌ مَعروفٌ، أنَّ الصفاتِ لا تَقومُ إلا بذاتٍ»[3].

---

(١) ينظر: المجلى في شرح القواعد المثلى (ص٧٥-٧٧).

(٢) مجموع فتاوى ابن باز (٢٨/ ٣٩٥).

(3) https://www.yacoline.com/video/177012./

وقال **الشَّيخُ عبدُ المحسِن العَبَّاد حَفِظَهُ اللهُ**: «إطلاقُ كَلِمَةِ «الذَّاتِ» على اللهِ سائِغٌ؛ لِأَنَّ الصفاتِ توصَفُ بها الذاتُ.

وقَولُ الصحابيِّ خُبَيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وذلك في ذاتِ الإلَهِ»، من جِنسِ «في ذاتِ اللهِ» الذي في الحَديثِ، أي: من أَجلِ اللهِ، وإطلاقُها سائِغٌ بهذا المعنى، والمقصودُ بها الذَّاتُ التي توصَفُ بالصفاتِ، دونَ الصفاتِ التي هي مُضافَةٌ إليها؛ لِأَنَّ وُجودَ ذاتٍ مُجَرَّدَةٍ من جَميعِ الصفاتِ غيرُ مُمكِنٍ إطلاقًا»[1].

وقال **عَليّ بن لالي الحَنَفيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «خَطَّأَ ابنُ بَرهان مَن يُطلِقُ لفظَ الذاتِ على اللهِ تعالى؛ لكَونِه تأنيثُ «ذو»، وعَدَمِ صِحَّةِ إطلاقِ ما فيه علامَةُ التأنيثِ عليه تعالى.

وكذلك خَطَّأَ مَن يقولُ: «الصفات الذَّاتيَّة»؛ لأنَّ النِّسبَةَ إلى ذات: ذَوَويّ.

أقولُ: جَوابُه: أنَّهُم جعَلوا لفظَ «الذَّاتِ» اسمًا للحقيقَةِ من كُلِّ شيءٍ، واصطَلَحوا عليه، فزالَ عنهُ التأنيثُ، ثم أَطلَقوه عليه تعالى، ولذلك الذي أشَرنا إليه لَم يُغَيِّروه في النِّسبَةِ»[2].

وقال **الصفديُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما أرادَ المتكَلِّمونَ بـ«الذَّاتِ»: الحقيقَةَ من كُلّ شيءٍ، فقَولُهُم: «ذاتُ زيدٍ»، أي حقيقتُه؛ ولهذا تسمَعُهم يقولونَ: «أَلحَدوا في الذَّاتِ والصفاتِ»، والعَطفُ يَدُلُّ على المغايَرَةِ، ولا يُريدونَ بذلك إلا أنَّهُم ألحَدُوا في الحقيقَةِ، وفي صِفاتِها.

ثم إنَّه إذا تَوارَدَ قَومٌ واصطَلَحوا على ألفاظٍ فيما بينهم، نَقَلوها عن أصلِ وضعِها إلى ما أرادوهُ، فما لِمُعتَرِضٍ أن يعتَرِضَ عليهم في ذلك؛ لِأَنَّه لا مُشاحّةَ في الاصطِلاحاتِ، فقدِ اصطَلَحَ النُّحاةُ على أشياءَ خالَفوا فيها مَوضوعَ اللُّغَةِ، فقالوا: الاِسمُ والفِعلُ والحَرفُ، وخالَفَهُم في ذلك بَعضُ أرباب المنطقِ، فقالوا: الاِسم والكَلِمة والأَداة، وقال النُّحاةُ: المبتَدأ والخَبَر، وقال المَنطِقيُّون: المَوضوع والمَحمول، وقال النحاة: الشَّرط والجَزاء، وقال المنطقيُّون: المقدَّم والتالي، والاصطِلاحُ والتَّواضُعُ لا يُعاب

(١) شرح سنن أبي داود (١٢/ ٢٧٢)، بترقيم الشاملة.

(٢) خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام (ص٣١).

فيهما أحَدٌ ولا يُغلِّط، اللهُمَّ إلا إن وقَعَ خَلَلٌ في القواعِدِ التي استَقَرَّت، وهذا أَمرٌ ظاهِرٌ»[١].

وقال السّجزيُّ في «الإبانَةِ»: «وأَئِمَّتُنا -كالثَّوريِّ، ومالِكٍ، وابنِ عُيَينَة، وحَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ، وحَمَّادِ بن زَيدٍ، وابنِ المبارَكِ، والفُضَيل، وأَحمَدَ، وإسحاقَ-: مُتَّفِقونَ على أَنَّ اللهَ سبحانه بذاتِهِ فَوقَ العَرشِ، وأَنَّ عِلمَهُ بكُلِّ مَكانٍ»[٢].

وعن شُعبَةَ، قال: كان سُفيانُ الثَّوريُّ يُبغِضُ أَهلَ الأَهواءِ، ويَنهى عن مُجالَستِهِم أَشَدَّ النهيِ، وكان يقولُ: «عليكُم بالأَثَرِ، وإيَّاكُم والكَلامَ في ذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»[٣].

وعن أَبي حَنيفَةَ، قال: «لا يَنبَغي لِأَحَدٍ أَن يَنطِقَ في ذاتِ اللهِ بشيءٍ، بَل يَصِفُهُ بما وصَفَ بهِ نَفسَهُ»[٤].

وقال ابن عبدِ البَرِّ: «رَوى حَرمَلَةُ بن يَحيى، قال: سَمِعتُ عبدَ اللهِ بن وهبٍ يقولُ: سَمِعتُ مالِكَ بن أَنَسٍ يقولُ: «مَن وصَفَ شَيئًا من ذاتِ اللهِ مِثلَ قَولِهِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]...»»[٥].

والخُلاصَةُ:

أَنَّه لا حَرَجَ في قَولِنا: «ذات اللهِ»، وأن نقصِدَ بذلك: نَفسَه المقدَّسَةَ سبحانه، ولا يزالُ عُلماءُ أهلِ السُّنَّةِ يقولونَ: «الذَّات، والصفات»، ويقولون: «صِفات الذَّاتِ، وصِفات الفِعلِ».

وقال الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صَحيحِهِ: «بابُ ما يُذكَرُ في الذَّاتِ والنُّعوتِ وأَسامي اللهِ، وقال خُبَيبٌ: «وذلك في ذاتِ الإلَهِ»، فَذكرَ الذَّاتَ باسمِهِ تعالى»[٦].

---

(١) تصحيح التصحيف (ص٢٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٢).

(٣) ذم الكلام للمقرئ (ص٨٩).

(٤) شرح الطحاوية (ص٢٩٣).

(٥) التمهيد (٧/ ١٤٥).

(٦) صحيح البخاري (٩/ ١٢٠).

وقال **شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ويُرادُ بنَفسِ الشَّيءِ ذاتُهُ وعَينُهُ، كما يُقالُ: «رَأَيت زَيدًا نَفسَهُ وعَينَهُ»، وقد قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وفي الحَديثِ الصحيحِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لِأُمِّ المؤمِنينَ: «**لَقد قُلتُ بعدَكِ أَربَعَ كَلِماتٍ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، لَو وُزِنَت بما قُلتِ مُنذُ اليَومِ لَوَزَنَتهُنَّ: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِهِ، عَدَدَ خَلقِهِ، ورِضا نَفسِهِ، وزِنَةَ عَرشِهِ، ومِدادَ كَلِماتِهِ**»[(١)].

وفي الحَديثِ الصحيحِ الإلَهيِّ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقولُ اللهُ تعالى: أَنا عِندَ ظَنِّ عبدي بي، وأَنا معه إذا ذكرَني، فَإن ذكرَني في نَفسِهِ ذكرتُهُ في نَفسي، وإن ذكرَني في مَلَإٍ ذكرتُهُ في مَلَإٍ خَيرٍ منهم**»[(٢)].

فهذه المَواضِعُ المرادُ فيها بلَفظِ النفسِ عِندَ جُمهورِ العُلَماءِ: اللهُ نَفسُهُ، التي هي ذاتُهُ المتَّصِفَةُ بصِفاتِهِ، ليس المرادُ بها ذاتًا مُنفَكَّةً عن الصفاتِ، ولا المرادُ بها صِفَةً للذَّاتِ، وطائِفَةٌ من الناسِ يَجعَلونَها من باب الصفاتِ، كما يَظُنُّ طائِفَةٌ أَنَّها الذَّاتُ المجَرَّدَةُ عن الصفاتِ، وكِلا القَولَينِ خَطأٌ»[(٣)].

وقال **ابنُ عُثَيمينَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلَم أَنَّ كَلِمَةَ «ذات» تُطلَقُ على عَينِ الشَّيءِ، لكنّ هذا الإطلاقَ هَل هو لُغَويٌّ أم مُحدَثٌ؟ قال بَعضُهم: إنَّهُ مُحدَثٌ، وإنَّها في اللُّغةِ لا تُطلَقُ على ذاتِ الشَّيءِ، وإنَّما تُطلَقُ على الجِهَةِ وعلى الحالِ، وأن تكونَ بمعنى «صاحِبَة»، فتَقول -مَثَلًا-: «هذه امرأَةٌ ذاتُ مالٍ»، أي: صاحِبَةُ مالٍ، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، أي: الحال التي بينكم أَصلِحوها، وقال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَم يَكذِب إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا ثَلاثَ كذباتٍ، ثِنتَينِ منهنَّ في ذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ**»[(٤)]، أي: في جانِبِهِ وجِهَتِهِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٦).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٤) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١)، وقد تقدم.

وقال خُبَيبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «وذلك في ذاتِ الإلَهِ» أي: في جانِبه وجِهَتِهِ.

لكنِ استُعمِلَتِ استعمالًا شائِعًا عندَ العُلماءِ، حتى صارَت حقيقةً عُرفيَّةً، فاستُعمِلَت في مُقابلِ الصفَةِ، فاستَعمَلوها بمعنى نَفسِ الشَّيءِ، وعَينِ الشَّيءِ، فكما تَقولُ العَرَبُ: «هذا زَيدٌ عَينُهُ»، و«هذا زَيدٌ نَفسُهُ»، يكونُ: «وهذا زَيدٌ ذاتُهُ»، وصارَ الآنَ استِعمالًا شائِعًا لا يُنكَرُ»[1].

عَودَةٌ إلى شَرحِ الحَديثِ:

قال ابنُ إسحاقَ: «وكان مِمَّا قيلَ في ذلك من الشِّعرِ: قَولُ خُبَيب بن عَديٍّ -حينَ بلغَهُ أَنَّ القَومَ قدِ اجتَمَعوا لِصَلبِهِ-:

لَقد جَمَّعَ الأَحزابُ حَولي وأَلَّبوا
قَبائِلهم واستَجمَعوا كُلَّ مَجمَعِ

ثم ساقَها عَشرَةَ أَبياتٍ.

قال ابنُ هِشامٍ: «وبَعضُ أَهلِ العِلمِ بالشِّعرِ يُنكِرُها له»[2].

وقد تَقدَّمَ ذلك.

ولا يَصِحُّ منها إلا هذانِ البَيتانِ.

قال السُّهَيليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فَإن قيلَ**: فَهَل أُجيبَت فيهم دَعوَةُ خُبَيبٍ، والدّعوَةُ على تِلكَ الحالِ من مِثلِ ذلك العبدِ مُستَجابَةٌ؟

قُلنا: أَصابَت منهم مَن سبقَ في عِلمِ اللهِ أَن يَموتَ كافِرًا، ومَن أَسلَمَ منهم فلم يَعنِهِ خُبَيبٌ، ولا قَصَدَهُ بدُعائِهِ، ومَن قُتِلَ منهم كافِرًا بعدَ هذه الدّعوَةِ، فَإنّما قُتِلوا بَدَدًا غيرَ مُعَسكِرينَ، ولا مُجتَمعينَ كاجتِماعِهِم في أُحُد، وقَبلَ ذلك في بَدرٍ، وإن كانتِ الخَندَقُ بعدَ

(١) شرح النونية (١/ ٢٢-٢٣).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٧٦).

قِصّةِ خُبَيبٍ فقد قُتِلَ منهم آحادٌ فيها مُتَبَدّدونَ، ثُمّ لَم يَكُن لهم بعدَ ذلك جَمعٌ ولا مُعَسكَرٌ غَزَوا فيه، فَنَفَذَتِ الدّعوةُ على صورَتِها، وفيمَن أَرادَ خُبَيبٌ رَحِمَهُ اللَّهُ، وحاشا له أَن يَكرَهَ إيمانَهُم وإسلامَهُم»[١].

قَولُهُ: «فَقَتَله ابنُ الحارِثِ»:

وعن جابرِ بن عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «الذي قَتَلَ خُبَيبًا هو أَبو سِروَعَةَ»[٢].

وهو عُقبَةُ بن الحارِثِ بن عامِرِ بن نَوفَلِ بن عبدِ مَنافِ بن قُصَيٍّ، أبو سِروَعَةَ، النوفَلِيُّ، المَكّيُّ، أَسلَمَ يَومَ الفَتحِ.

وحَكى ابنُ عبدِ البَرِّ عنِ الزُّبَيرِ بن بكّار، أَنَّه قال: «أبو سِروَعَةَ هو عُقبةُ بنُ الحارثِ فيما قال أهلُ الحَديثِ، وأمّا أهلُ النسَب فيقولونَ: إنَّ عُقبَةَ أخو أبي سِروَعَةَ، وأنّهُما أسلَما جميعًا يَومَ الفَتحِ».

وقيلَ: بل كان أخاهُ لأُمِّهِ.

قال الحافظُ: «وقال العَسكَريُّ: مَن قال إنَّ أبا سِروَعَةَ هو عُقبَةُ هذا فقد أخطَأَ».

كذا قال، وقد أَطبَقَ أهلُ الحَديثِ على أنَّه هوَ، وقَولُهُم أولى إن شاءَ اللهُ تعالى»[٣].

وقال النوَويُّ: «أبو سِروَعَة، بكَسر السِّينِ المهمَلة على المشهور، وقيلَ: بفَتحِها، عُقبَةُ بن الحارثِ بن عامرِ بن نَوفَلِ بن عبدِ مَنافِ بن قُصَيٍّ، القريشِيُّ، النَوفِلِيُّ، المَكّيُّ، الصحابيُّ، أسلَمَ يَومَ فَتحِ مكةَ.

وهذا الذي ذكَرناه أنَّه أبو سِروَعَةَ هو قَولُ أهلِ الحَديثِ، ومُصعَبٍ الزُّبَيريِّ، وقال جُمهورُ أهلِ النسَب: «أبو سِروَعَةَ أخو عُقبَةَ، أسلَما يَومَ الفَتحِ»[٤].

---

(١) الروض الأنف (٦/ ١٩٨).

(٢) رواه البخاري (٤٠٨٧).

(٣) ينظر: تهذيب الكمال (٢٠/ ١٩٢-١٩٤)، تهذيب التهذيب (٧/ ٢٣٩)، الإصابة (٢/ ٢٢٦)، (٤/ ٤٢٧).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٦).

وقال ابنُ إسحاقَ: حَدَّثَني يَحيى بن عَبَّادِ بن عبدِ اللهِ بن الزُّبَيرِ، عن أَبيهِ عَبَّادٍ، عن عُقبَةَ بن الحارِثِ، قال -سَمِعتُهُ يقولُ-: «ما أَنا -واللهِ- قَتَلتُ خُبَيبًا؛ لِأَنِّي كُنتُ أَصغَرَ من ذلك، ولكنَّ أَبا مَيسَرَةَ، أَخا بَني عبدِ الدَّارِ، أَخَذَ الحَربَةَ فَجَعَلها في يَدي، ثم أَخَذَ بيَدي وبالحَربَةِ، ثم طَعَنَهُ بها، حتى قَتَله»[١].

قال ابنُ إسحاقَ: وحَدَّثَني بَعضُ أَصحابنا، قال: كان عمرُ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استَعمَلَ سَعيدَ بن عامِرِ بن حِذيَمٍ الجُمَحيَّ على بَعضِ الشَّامِ، فكانت تُصيبُهُ غَشيَةٌ، وهو بينَ ظَهرَيِ القَومِ، فَذُكِرَ ذلك لِعمرَ بن الخَطَّاب، وقيلَ: إنَّ الرجُلَ مُصابٌ، فَسأله عمرُ في قدمَةٍ قدِمَها عليه، فقال: يا سَعيدُ، ما هذا الذي يُصيبُكَ؟ فقال: «واللهِ يا أَميرَ المؤمِنينَ ما بي من بَأسٍ، ولكنِّي كُنتُ فيمَن حَضَرَ خُبَيبُ بن عَديٍّ حينَ قُتِلَ، وسَمِعتُ دَعوَتَهُ، فَواللهِ ما خَطَرَت على قَلبي وأَنا في مَجلِسٍ قَطُّ إلا غُشيَ عَلَيَّ»، فَزادَتهُ عِندَ عمرَ خَيرًا.

قال ابنُ هِشام: «أَقامَ خُبَيبٌ في أَيديهِم حتى انقَضَتِ الأَشهُرُ الحُرُمُ، ثم قَتَلوهُ»[٢].

قَولُهُ: «فكان خُبَيبٌ هو سَنَّ الركعَتَينِ لِكُلِّ امرِئٍ مسلمٍ قُتِلَ صَبرًا»:

قال أبو الفَتحِ الخوارزميّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُقالُ للرَّجُلِ إذا شُدَّت يَداهُ ورِجلاهُ، أو أَمسَكَهُ رجلٌ آخَرُ حتى يُضرَبَ عُنُقُهُ: قُتِلَ صَبرًا»[٣].

وقال الفَيُّوميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلُّ ذي روحٍ يوثَقُ حتى يُقتَلَ، فقد قُتِلَ صَبرًا»[٤].

وقال الكورانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قُتِلَ صَبرًا**»، أي: أسيرًا، وسمِّيَ بذلك؛ لِأَنَّه يُقتل بعدَ الحَبسِ غالبًا، والصبرُ هو الحَبسُ»[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٧٣)، وصححه الحافظ في الفتح (٧/ ٣٨٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٧٣-١٧٤).

(٣) المغرب في ترتيب المعرب (ص٢٦٣)

(٤) المصباح المنير (١/ ٣٣١).

(٥) الكوثر الجاري (٦/ ٥٥).

وقال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه استِنانُ الركعَتَينِ لِكُلِّ مَن قُتِلَ صَبرًا»(١).

قَولُهُ: «فاستَجابَ اللهُ لِعاصِمِ بن ثابتٍ يَومَ أُصيبَ، فَأَخبَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصحابَهُ خَبَرَهُم، وما أُصيبوا»:

استَجابَ اللهُ لعاصِمِ بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قَولِهِ: «اللهُمَّ أَخبر عَنَّا نبيَّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وعِندَ البَيهَقيّ في الدَّلائِلِ: «واستَجابَ اللهُ لِعاصِمٍ يَومَ أُصيبَ، فَأُخبرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَومَ أُصيبوا خَبَرَهُم».

وقال ابنُ هُبَيرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إخبارُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَهُ بما جَرى للقَومِ قَبلَ وُصولِ الخَبَرِ، يَدُلُّ على نُبوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٢).

وهذا مِمَّا يُثَبِّتُ المؤمِنينَ، ويَزيدُ من إيمانِهِم ويَقينِهم، وآيةٌ للكافِرينَ تَدُلُّ على صِدقِ نُبوَّتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَولُهُ: «وبَعَثَ ناسٌ من كُفَّارِ قريشٍ إلى عاصِمٍ حينَ حُدِّثوا أَنَّهُ قُتِلَ؛ ليُؤتَوا بشيءٍ منه يُعرَفُ»:

ولأحمدَ: «وبَعَثَت قريشٌ إلى عاصِمٍ؛ ليُؤتَوا بشيءٍ من جَسَدِهِ يَعرِفونَهُ».

وللطَّيالِسِيِّ، والبَيهَقيّ: «وبَعَثَ المشرِكونَ إلى عاصِمِ بن ثابتٍ؛ ليُؤتَوا من لَحمِهِ بشيءٍ».

وعِندَ ابنِ قُتَيبَةَ: «وبَعَثَت قريشٌ إلى عاصِمٍ؛ ليَأتوا برَأسِهِ، وشيءٍ من جَسَدِهِ»(٣).

ووَقَعَ عِندَ ابنِ عبدِ البَرِّ من طريقِ عبدِ الرزَّاقِ: «وبَعَثَت قريشٌ إلى عاصِمٍ؛ ليُؤتَوا بشيءٍ من جَسَدِهِ ليَحرِقوهُ»(٤).

والصحيحُ عندَ عبدِ الرزَّاقِ وغيرِهِ: «وبَعَثَت قريشٌ إلى عاصِمٍ؛ ليُؤتَوا بشيءٍ من جَسَدِهِ يَعرِفونَهُ».

---

(١) شرح صحيح البخارى (٥/ ٢٠٧).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣٥٩).

(٣) غريب الحديث (١/ ٢٦٦).

(٤) الاستيعاب (٢/ ٧٨٠).

وما وقَعَ في الإستيعاب تَصحيفٌ.

وعِندَ ابنِ إسحاقَ: «فلما قُتِلَ عاصِمٌ أَرادَت هُذَيلٌ أَخذَ رَأسِهِ؛ ليَبيعوهُ من سُلافَةَ بنتِ سَعدِ بن شُهَيدٍ، وكانت قد نَذَرَت حينَ أَصابَ ابنَيها يَومَ أُحُدٍ: «لَئِن قدَرَت على رَأسِ عاصِمٍ لَتَشرَبَنَّ في قِحفِهِ[1] الخَمرَ»، فَمَنَعَتهُ الدَّبرُ.

فلما حالَت بينَهُ وبينهم الدَّبرُ قالوا: دَعوهُ يُمسي فَتَذهَبُ عنه، فَنَأخُذُهُ، فَبَعَثَ اللهُ الواديَ، فاحتَمَلَ عاصِمًا، فَذَهَبَ بِهِ.

وقد كان عاصِمٌ قد أَعطى اللهَ عَهدًا أَن لا يَمَسَّهُ مُشرِكٌ، ولا يَمَسَّ مُشرِكًا أَبَدًا؛ تَنَجُّسًا»[2].

قَولُهُ: «وكان قد قَتَلَ رجلًا من عُظَمائِهِم يَومَ بَدرٍ»:

قال الحافظُ: «لَعَلَّ العَظيمَ المَذكورَ عُقبَةُ بن أَبي مُعَيطٍ؛ فَإِنَّ عاصِمًا قَتَله صَبرًا بأَمرِ النبيِّ ﷺ، بعدَ أَنِ انصَرَفوا مِنَ بَدرٍ»[3].

وقال أَيضًا: «المَعروفُ أَنَّ الذي قَتَله: عاصِمُ بن ثابتِ بن أبي الأقلَحِ»[4].

وقال ابنُ إسحاقَ عن عُقبَةَ بن أبي مُعَيطٍ: «قَتَله عاصِمُ بن ثابتِ بن أَبي الأَقلَحِ الأَنصاريُّ، أَخو بَني عَمرِو بن عَوفٍ، كَما حَدَّثَني أَبو عُبَيدَةَ بن محمدِ بن عَمَّارِ بن ياسِرٍ»[5].

وقال ابنُ كَثيرٍ: «وكذا قال موسى بن عُقبَةَ في «مَغازيهِ»، وزَعَمَ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لَم يَقتُل منَ الأُسارى أَسيرًا غيرَهُ، قال: «ولَمَّا أَقبَلَ إليه عاصِمُ بن ثابتٍ، قال: يا مَعشَرَ قريشٍ، عَلامَ أُقتَلُ من بينِ مَن ها هُنا؟ قال: «**على عَداوَتِكَ اللهَ ورسوله**»[6].

---

(١) قحف الرأس: هو الذي فوق الدماغ، وقيل: هو ما انفلق من جمجمته وانفصل. النهاية (٤/ ١٧).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٧١).

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٨٤).

(٤) الإصابة (١/ ٥٣٣).

(٥) سيرة ابن هشام (١/ ٦٤٤).

(٦) البداية والنهاية (٥/ ١٨٨)، وينظر: دلائل النبوة، للبيهقي (٣/ ١١٧).

قَولُهُ: «فَبُعِثَ على عاصِمٍ مِثلُ الظُّلَّةِ منَ الدَّبرِ، فَحَمَتهُ من رسولِهم، فلم يَقدِروا على أَن يَقطَعَ من لَحمِهِ شَيئًا».

وعِندَ النسائيّ في الكُبرى: «فَبَعَثَ اللهُ على عاصِمٍ مِثلَ الظُّلَّةِ منَ الدَّبرِ، فَحَمَتهُ من رسولِهم، فلم يَقدِر على أَن يَقطَعَ من لَحمِهِ شَيئًا».

وذكرَ ابنُ عبدِ البَرِّ من طريقِ عبدِ الرزَّاقِ: «فلما أعجَزَهُم قالوا: إنَّ الدَّبرَ ستذهبُ إذا جاءَ الليلُ، حتى بَعَثَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مطرًا جاءَ بسَيلٍ فحمَلَه، فلَم يوجَد، وكان قَتَلَ كَبيرًا منهم، فأرادوا رأسَه، فحالَ اللهُ بينهم وبينَهُ»[1].

والدَّبرُ: الزَّنابيرُ، وقيلَ ذُكورُ النحلِ، ولا واحدَ له من لَفظِهِ[2].

***

فصلٌ

في الكَلام على الكرامة:

من أصولِ أهلِ السُّنَّة والجَماعةِ: التصديقُ والإيمانُ بكَراماتِ الأولياءِ.

والكَرَامَةُ هِيَ: أمرٌ خارِقٌ للعادَةِ، يُجريهِ اللهُ تعالى على يَدِ وليٍّ؛ تأييدًا له، أو إعانَةً، أو تَثبيتًا، أو نَصرًا للدِّينِ.

قال أبو جَعفَرٍ الطحاويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونُؤمِنُ بما جاءَ من كَراماتِهم، وصَحَّ عَنِ الثِّقاتِ من رِواياتِهم»[3].

وعَلَّقَ عليه الشَّيخُ الألبانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **قائِلًا:** «لقد أحسَنَ المؤَلِّفُ صُنعًا بتَقييدِ ذلك بما

---

(١) الاستيعاب (٢/ ٧٨٠).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٨٤).

(٣) متن الطحاوية، بتعليق الألباني (ص٨٤).

صَحَّ من الرِّواياتِ؛ ذلك لِأَنَّ الناسِ -وبخاصَّةٍ المتَأَخِّرينَ منهم- قد توَسَّعوا في رواية الكَراماتِ، إلى درَجَةٍ أَنَّهُم رَوَوا باسمِها الأَباطيلَ التي لا يَشُكُّ في بُطلانِها مَن له أدنى ذَرَّةٍ من عَقلٍ، بَل إنَّ فيها -أحيانًا- ما هو منَ الشِّركِ الأَكبَرِ».

وقال **شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَراماتُ الأولياءِ حقٌّ باتِّفاق أَئِمَّةِ أَهلِ الإسلام والسّنةِ والجَماعَةِ، وقد دلّ عليها القُرآنُ في غيرِ مَوضِعٍ، والأَحاديثُ الصحيحَةُ، والآثارُ المتواتِرَةُ عَنِ الصحابَةِ والتابعينَ وغَيرِهم، وإنَّما أَنكَرَها أهلُ البدَعِ منَ المعتَزلَةِ والجَهميَّةِ ومَن تابَعَهُم، لكنَّ كَثيرًا مِمَّن يَدَّعيها أو تُدَّعى له يكون كَذَّابًا، أو ملبوسًا عليه»[1].

أعظَمُ الكَرامَةِ لُزومُ الاستِقامَةِ:

قال شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «غايَةُ الكَرامَةِ لُزومُ الاستِقامَةِ، فلم يُكرِمِ اللهُ عبدًا بمِثلِ أَن يُعينَهُ على ما يُحِبُّهُ ويَرضاهُ، ويَزيدُهُ مِمَّا يُقَرِّبُهُ إليه، ويَرفَعُ بِهِ دَرَجَتَهُ، وذلك أَنَّ الخَوارِقَ منها ما هو من جِنسِ العِلمِ كالمكاشَفاتِ، ومنها ما هو من جِنسِ القُدرَةِ والملكِ، كالتصَرُّفاتِ الخارِقَةِ للعاداتِ، ومنها ما هو من جِنسِ الغِنى، من جِنسِ ما يُعطاهُ الناسُ في الظَّاهِرِ، من العِلمِ والسُّلطانِ والمالِ والغِنى، وجَميعُ ما يُؤتيه اللهُ لِعبدِهِ من هذه الأُمورِ: إنِ استَعانَ بِهِ على ما يُحِبُّهُ اللهُ ويَرضاهُ ويُقَرِّبُهُ إليه ويَرفَعُ دَرَجَتَهُ ويَأمُرُهُ اللهُ بِهِ ورسولُهُ، ازدادَ بذلك رِفعَةً وقُربًا إلى اللهِ ورسولِهِ، وعَلَت دَرَجَتُهُ.

وإنِ استَعانَ بِهِ على ما نَهى اللهُ عنه ورسولُهُ، كالشِّركِ والظُّلمِ والفَواحِشِ، استَحقَّ بذلك الذَّمَّ والعِقابَ، فَإن لَم يَتَدارَكهُ اللهُ تعالى بتَوبَةٍ أو حَسَناتٍ ماحيَةٍ، وإلا كان كَأَمثالِهِ منَ المذنِبينَ»[2].

وقال **ابن القَيِّمِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «المَطلوبُ منَ العبدِ الاستِقامَةُ، وهي السَّدادُ، فَإن لَم يَقدِر عليها: فالمقارَبَةُ، فَإن نزلَ عنها: فالتفريطُ والإضاعَةُ.

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية (ص٦٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٩٨-٢٩٩).

والإستِقامَةُ: كَلِمَةٌ جامِعَةٌ، آخِذَةٌ بمَجامِعِ الدِّينِ، وهي القيامُ بينَ يَدَيِ اللهِ على حقيقَةِ الصدقِ، والوَفاءِ بالعَهدِ.

والإستِقامَةُ تَتَعَلَّقُ بالأَقوالِ، والأَفعالِ، والأَحوالِ، والنِّيَّاتِ، فالإستِقامَةُ فيها: وُقوعُها للهِ، وباللهِ، وعلى أَمرِ اللهِ.

قال بَعضُ الصالِحِينَ: «كُن صاحِبَ الإستِقامَةِ، لا طالِبَ الكَرامَةِ؛ فَإِنَّ نَفسَكَ مُتَحَرِّكَةٌ في طَلَبِ الكَرامَةِ، ورَبَّكَ يُطالِبُكَ بالإستِقامَةِ».

وسَمِعتُ شَيخَ الإسلامِ ابنَ تَيميَّةَ قدَّسَ اللهُ تعالى روحَهُ يقولُ: «أَعظَمُ الكَرامَةِ لُزومُ الإستِقامَةِ»[1].

الفرق بينَ المعجِزَة والكَرامَة:

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اسمُ «المعجِزَةِ» يَعُمُّ كُلَّ خارِقٍ للعادَةِ في اللُّغَةِ، وعُرفِ الأَئِمَّةِ المتَقدِّمينَ، كالإمامِ أَحمَد بن حَنبَلٍ وغيرِهِ، ويُسَمُّونَها: الآياتِ، لكنَّ كَثيرًا من المتَأَخِّرينَ يُفَرِّقُ في اللَّفظِ بينَ المعجِزَةِ والكَرامَة، فَيَجعَلُ المعجِزَةَ للنبيِّ، والكَرامَةَ للوَلِيِّ، وجِماعُهُما: الأَمرُ الخارِقُ للعادَةِ»[2].

فالمعجِزَة هيَ: الآيةُ الخارقَةُ للعادَةِ، التي يُؤَيِّدُ اللهُ بها أنبياءَه ورُسُلَه، ويَتَحَدَّونَ بها الناسَ.

أَمَّا الكَرامَةُ: فهي شيءٌ خارِقٌ للعادَةِ، يُجريهِ اللهُ تعالى على يَدِ أَحَدِ أوليائِه.

وهناك فروق كثيرة بينَ المعجِزَة والكَرامَة، منها:

١. أَنَّ المعجِزَة مَبنيَّةٌ على الإظهارِ والإشتِهارِ، وأَنَّ صاحِبَها -وهو النبيُّ- مأمورٌ بإظهارِها، بينَما الكَرامَة مَبناها على الكَتمِ والسّترِ، وصاحِبُها -وهو الوَلِيُّ- مأمورٌ بكِتمانِها.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٠٥-١٠٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣١١).

٢. المعجِزَةُ قد تَكونُ مَقرونةً بالتحَدِّي وبدَعوى النُّبوة[١]، أمَّا الكَرامَةُ: فغيرُ مَقرونَةٍ بالتحَدِّي، ولا بدَعوى فَضيلَةٍ، ولا مَنزِلَةٍ عِندَ اللهِ.

٣. ثَمَرَةُ المعجِزَةِ تَعودُ بالنفعِ والفائِدَةِ على الغيرِ، والكَرامَةُ في الغالِب خاصَّةٌ بصاحِبها.

٤. المعجِزَةُ تَكونُ بجَميعِ خوارِقِ العاداتِ، والكَرامَةُ تَختَصُّ ببَعضِها.

٥. المعجِزاتُ خاصَّةٌ بالأنبياءِ، والكَراماتُ تَكونُ للأولياءِ.

٦. الأنبياءُ يَحتَجُّون بمُعجِزاتِهم على المشركينَ؛ لِأَنَّ قُلوبَهم قاسيةٌ، والأولياءُ يَحتَجُّون بالكَرامَة على نُفوسِهم، حتى تَطمَئِنَّ، وتوقِنَ، ولا تَضطَرِبَ.

الفَرقُ بينَ المعجِزَة والكَرامَة، وبينَ الأحوالِ الشَّيطانيَّةِ الخارِقَةِ للعادَةِ:

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي استَقَرَّ عِندَ العامَّةِ: أَنَّ خَرقَ العادَةِ يَدُلُّ على أَنَّ مَن وقَعَ له ذلك من أولياءِ اللهِ تعالى، وهو غَلَطٌ مِمَّن يقولُهُ؛ فَإِنَّ الخارِقَ قد يَظهَرُ على يَدِ المبطِلِ من ساحِرٍ، وكاهِنٍ، وراهِبٍ، فَيَحتاجُ مَن يَستَدِلُّ بذلك على وِلايَةِ أولياءِ اللهِ تعالى إلى فارِقٍ، وأولى ما ذكروهُ: أَن يُختَبَرَ حالُ مَن وقَعَ له ذلك، فَإن كان مُتَمَسِّكًا بالأوامِرِ الشَّرعيَّةِ والنواهي كان ذلك عَلامَةَ وِلايَتِهِ، ومَن لا فَلا»[٢].

وقال **شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ**: «الكَرامَةُ لا تَدُلُّ على عِصمَةِ صاحبها، ولا على وُجوب اتِّباعِه في كُلِّ ما يقولُه، بل قد تَصدُرُ بعضُ الخَوارِقِ منَ الكَشف وغَيرِه من الكفَّار والسَّحَرَةِ؛ بمُؤاخاتِهم للشَّياطينِ.

ولِهذا اتَّفَقَ أَئِمَّةُ الدِّينِ على أَنَّ الرجُلَ لَو طار في الهَواء، ومَشى على الماءِ، لَم يَثبُت له ولايَةٌ، بَل ولا إسلامٌ، حتى يُنظَرَ وُقوفُه عِندَ الأَمرِ والنهيِ الذي بَعَثَ اللهُ بِهِ رسولَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٣].

وقال **السَّعديُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفَرقُ بينَ المعجِزَةِ والكَرامَةِ والأحوالِ الشَّيطانيَّةِ الخارِقَةِ للعادَةِ على يَدِ السَّحَرَةِ والمشَعوذينَ:

---

(١) فقد تقع المعجزة غير مقرونة بالتحدي، ولا بدعوى النبوة، كحادثة شق صدر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكفوران الماء من بين أصابعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٨٣).

(٣) مختصر الفتاوى المصرية (ص٦٠٠).

أنَّ المعجِزَة هيَ: ما يُجري اللهُ على أيدي الرُّسُلِ والأنبياءِ من خوارِقِ العاداتِ التي يَتَحَدَّونَ بها العِبادَ، ويُخبرونَ بها عَنِ اللهِ لتَصديقِ ما بَعَثَهم به، ويُؤَيِّدُهم بها سبحانه؛ كانشِقاقِ القَمَرِ، ونُزولِ القرآنِ، وكَحَنينِ الجِذعِ، ونُبوعِ الماءِ من بينِ أصابعِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغيرِ ذلك من المعجزاتِ الكثيرَةِ.

وأمَّا الكَرامَةُ: فهي ما يُجري اللهُ على أيدي أوليائِه المؤمِنينَ من خَوارِق العاداتِ، كالعِلمِ، والقُدرَةِ، وغيرِ ذلك، كالظُّلَّةِ التي وقَعَت على أُسَيدِ بن الحُضَيرِ حينَ قِراءتِهِ القُرآنَ[1]، وكإضاءَةِ النُّور لعبَّادِ بن بشرٍ وأُسَيدِ بن حُضَيرٍ، حينَ انصَرَفا من عِندِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَمَّا افتَرَقا أضاءَ لكُلِّ واحدٍ مِنهُما طَرَفُ سَوطِه[2].

وشَرطُ كَونِها كرامةً: أن يكونَ مَن جَرَت على يَدِهِ هذه الكَرامَةُ مُستقيمًا على الإيمانِ ومُتابعَةِ الشَّريعةِ، فإن كان خِلافَ ذلك فالجاري على يَدِهِ من الخَوارِقِ يكونُ من الأحوالِ الشَّيطانيَّةِ.

ثم ليُعلَم أنَّ عدمَ حُصولِ الكَرامَةِ لبعضِ المسلمينَ لا يَدُلُّ على نَقصِ إيمانِهم؛ لِأَنَّ الكَرامَة إنَّما تقَعُ لأسبابٍ:

منها: تَقويَةُ إيمانِ العبدِ وتَثبيتُه؛ ولهذا لَم يَرَ كثيرٌ منَ الصحابةِ شَيئًا من الكراماتِ؛ لقوَّةِ إيمانِهم، وكَمالِ يَقينِهم.

ومنها: إقامَةُ الحُجَّةِ على العدوّ، كَما حصَلَ لخالدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أكَلَ السُّمَّ[3]، ومِثلُ ذلك ما جَرى لأبي إدريس الخَولانيِّ لَمَّا ألقَاهُ الأسوَدُ العنسيُّ في النارِ، فأنجاهُ اللهُ من ذلك[4].

وقد تكون الكَرامَةُ ابتِلاءً، فيَسعَدُ بها قَومٌ، ويَشقى بها آخَرون، وقد يَسعَدُ بها صاحِبُها إن شَكَر، وقد يَهلكُ إن أُعجِبَ ولَم يَستَقِم»[5].

---

(١) رواه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦).

(٢) رواه البخاري (٣٨٠٥).

(٣) رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١٤٨١)، وقال الذهبي في السير (١/ ٣٧٦): «هذه -والله- الكرامة، وهذه الشجاعة».

(٤) حلية الأولياء (٢/ ١٢٨)، تاريخ دمشق (٢٧/ ٢٠٠).

(٥) التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة (ص١١٠).

وسُئِلَ الشَّيخُ ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَيفَ نُفَرِّقُ بينَ المعجِزَةِ والكَرامَةِ والكِهانَةِ؟

فَأَجابَ: «المعجِزَةُ تكونُ للأنبياءِ، والكَرامَةُ للأولياءِ، أولياءِ الرحمنِ، والكِهانةُ لأولياءِ الشَّيطانِ، والآنَ المعجِزَةُ لا يُمكِنُ أن تَقَعَ؛ لِأَنَّ الرسولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِرُ الأَنبياءِ، فلا يُمكِنُ أَن تَقَعَ.

والكَرامَةُ موجودَةٌ من قَبلِ الرسولِ ومن بعدِ الرسولِ إلى يومِ القيامةِ، تَكونُ على يَدِ وليٍّ صالحٍ، إذا عرفنا أنَّ هذا الرجُلَ الذي جاءَت هذه الكَرامَةُ على يَدِهِ هو رجلٌ مُستقيمٌ قائِمٌ بحقِّ اللهِ وحقِّ العِبادِ، عَرَفنا أنَّها كرامَةٌ.

وإذا جاءَت من رجُلٍ غيرِ مُستقيمٍ، عَرَفنا أنَّها منَ الشَّياطينِ، والشَّياطينُ تُعينُ بَني آدَمَ على أغراضِها أحيانًا»[1].

بعضُ الفَوائِد المستَفادَة من هذه القِصَّةِ:

اشتملت هذه القصَّةُ العَظيمةُ على فوائِدَ نافِعَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، منها:

* تَضحيَةُ الصحابةِ في سَبيلِ اللهِ، وخُروجُهم لنُصرةِ اللهِ ورسولِه، بالرّغمِ منَ الأخطار التي تُهَدِّدُهم، وتُحيطُ بِهِم.

* الأثَرُ يَدُلُّ على المَسيرِ، وهَؤُلاءِ المشركون تَقَصَّوا أثَرَ الصحابةِ لَمَّا رأوا نَوى التمرِ، وعَرفوا أنَّه من تمرِ المَدينَةِ، ولذلك ينبَغي على المسلم إذا كان في حالَةِ حَربٍ أو مَكيدَةٍ ونَحوِ ذلك أن يحتاطَ لنَفسِه، ولا يَترُكَ خَلفَهُ أثَرًا يَدُلُّ العَدوَّ عليه.

* وهذا يَدُلُّ على أَهَمِّيَّة الخِبرَة في الحَرب وغيرِها، وأنَّ الإنسانَ يَسعى لِلاستِفادَةِ من كُلِّ شيءٍ يُمكِنُه الاستِفادةُ منه، صَغيرًا كان أم كَبيرًا، جَليلًا كان أم حقيرًا.

* الرميُ من أهَمِّ ما يَجِبُ إعدادُه في الحَرب، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وعَن عُقبَةَ بن عامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على المنبَرِ يقولُ:

---

(١) لقاء الباب المفتوح (٨٤/ ١٦)، بترقيم الشاملة، بتصرف يسير.

«﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، **أَلا إنَّ القوَّةَ الرميُ، أَلا إنَّ القوَّةَ الرميُ، أَلا إنَّ القوَّةَ الرميُ**»[(١)]. **قال النوَويُّ**: «فيه فَضيلَةُ الرميِ، والمناضَلَةِ والاِعتِناءِ بذلك، بنيَّةِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تعالى»[(٢)].

وعن عُقبَةَ بن عامِرٍ أَيضًا، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**إنَّ اللهَ لَيُدخِلُ بالسَّهمِ الواحدِ الثَّلاثَةَ الجنةَ: صانِعَهُ يَحتَسِبُ في صَنعَتِهِ الخَيرَ، والراميَ بِهِ، والمِدَّ بِهِ**».

وقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ارموا واركَبوا، وأَن تَرموا أَحَبُّ إليَّ من أَن تَركَبوا. وكُلُّ ما يَلهو بِهِ المَرءُ المسلمُ باطِلٌ، إلا رَميَهُ بقَوسِهِ، وتَأديبَهُ فَرَسَهُ، ومُلاعَبَتَهُ امرَأَتَهُ، فَإنَّهُنَّ منَ الحقِّ**»[(٣)].

* وفي الحَديثِ: أَهَمِّيَّةُ الخُلُقِ الحَسَنِ في نَشرِ الدِّينِ، وتَعريفِ الناسِ بِهِ، فالمسلمُ يَعكِسُ بحُسنِ خُلُقِه وحُسنِ تَعامُلِه مع الناس صورةً كَريمَةً عنِ الإسلامِ.

ولذلك لما دَبَّ ابنُ زَينَبَ بنتِ الحارِثِ إلى خُبَيبٍ في مَحبسِه، ففَزِعَت، قال لها: «تَخشَينَ أَن أَقتُلَه؟ ما كُنتُ لِأَفعَلَ ذلك»، فقالت: «واللهِ ما رَأَيتُ أَسيرًا قَطُّ خَيرًا من خُبَيبٍ».

وقد أسلَمَت زينبُ بعدَ ذلك، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[(٤)].

* وفيه: أَنَّ اللهَ يَرزُقُ مَن يشاءُ بغيرِ حِسابٍ.

* وفيه: تعظيمُ قريشٍ للحَرَمِ والأشهُرِ الحُرُمِ، وقد تَقَدَّمَ الكَلامُ على ذلك.

* وفيه: الدُّعاءُ على الكُفَّارِ -وخاصَّةً المحارِبينَ منهم- بهذا الدُّعاءِ: «اللهُمَّ أَحصِهِم عَدَدًا، واقتُلهُم بَدَدًا، ولا تُبقِ منهم أَحَدًا».

وهذا يَدُلُّ على تَمامِ المعاداةِ لهم، والموالاةِ لأهلِ الإسلامِ، وحُبِّ الإسلامِ وأهلِه، وبُغضِ الكُفرِ وأَهلِه، وهو نَوعٌ من مُدافَعَتِهم، ومنَ الرغبةِ في زَوالِ الشَّرِّ وأَهلِه.

---

(١) رواه مسلم (١٩١٧).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٦٤).

(٣) رواه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، وحسنه، والنسائي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (٢٨١١)، وأحمد (١٧٣٠٠)، وحسنه محققو المسند بشواهده.

(٤) ينظر: الإصابة (٨/ ١٥٥).

وقال **القُرطُبيُّ**: «أَمَّا لَعنُ الكُفَّارِ جُملَةً من غيرِ تَعيينٍ: فلا خِلافَ في ذلك؛ لِما رواهُ مالِكٌ، عن داوُدَ بن الحُصَينِ، أَنَّهُ سَمِعَ الأَعرَجَ يقولُ: «ما أَدرَكتُ الناسَ إلا وهُم يَلعَنونَ الكَفَرَةَ في رَمَضانَ»[(١)].

قال **عُلَماؤُنا**: «وسَواءٌ كانت لهم ذِمَّةٌ أَم لَم تَكُن، وليس ذلك بواجِبٍ، ولكنَّهُ مُباحٌ لِمَن فَعَله؛ لِجَحدِهِمُ الحقَّ، وعَداوَتِهم للدِّينِ وأَهلِهِ»[(٢)].

ولا يَمنَعُ ذلك منَ الدُّعاءِ لهم بالهِدايَةِ؛ فعن أَبي موسى، قال: كان اليَهودُ يَتَعاطَسونَ عِندَ النبيِّ ﷺ، يَرجونَ أَن يقولَ لهم: «يَرحَمُكُمُ اللهُ»، فَيقولُ: «**يَهديكُمُ اللهُ ويُصلِحُ بالَكُم**»[(٣)].

* وفيه: إثباتُ الذَّاتِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد تَقدَّمَ الكَلامُ على ذلك.

* وفيه شاهِدٌ للمَقولَةِ الشَّائِعَةِ: «إنَّ الشَّاةَ لا يَضيرُها سَلخُها بعدَ ذبحِها»؛ حَيثُ أنشد خُبَيبٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

فَلَستُ أُبالي حينَ أُقتَلُ مسلمًا
على أَيِّ جَنبٍ كان للهِ مَصرَعي

وذلك في ذاتِ الإلَهِ وإن يَشَأ
يُبارِك على أوصالِ شِلوٍ مُمَزَّعِ

وقد **قيلَ**: إنَّ عبدَ اللهِ بن الزُّبَيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال لِأُمِّه أسماءَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إنِّي لا آمَنُ إن قُتِلتُ أَن يُمَثَّل بي وأُصلَبَ، قالت: «يا بُنَيَّ، إنَّ الشَّاةَ إذا ذُبحَت لَم تَتَأَلَّم منَ السَّلخِ»[(٤)].

فليس الشَّأنُ أن يموتَ المَرءُ، فكلُّ الناسِ يَموتونَ، ولكِنَّ الشأنَ أن يموتَ مسلمًا في سبيلِ اللهِ، وحينَها فإنَّه لا يَضُرُّه على أيِّ جَنبٍ كان في اللهِ مَصرَعُه، كَما لا يَضُرُّه ما يصنَعُ أعداؤُه به بعدَ مَوتِه، وكَم مِمَّن قُتِلَ في سبيلِ اللهِ، فمَثَّل أعداؤُه بجُثَّتِه، أو

---

(١) الموطأ (٣٨١).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ١٨٨).

(٣) رواه أبو داود (٥٠٣٨)، والترمذي (٢٧٣٩)، وصححه، وأحمد (١٩٥٨٦)، وصححه محققو المسند.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري (٧/ ١٢٣)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ٧٥).

أكلَتها السِّباعُ، أوِ اختَطَفَ لحمَه النُّسورُ والعِقبانُ، صارَت روحُهُ إلى النعيمِ المقيمِ، لا يَضُرُّها ما حَلّ ببَدَنِها.

* وهذا المشهَدُ لا شَكَّ أنَّه خَلَّفَ أثَرَه في نُفوسِ القَومِ، وقد أسلَمَ كثيرٌ منهم بعدَ ذلك، وصاروا منَ الصحابَةِ الكِرامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمَعينَ.

* **وقال الخَطَّابيُّ**: «**فيه منَ العلمِ**: أنَّ المسلمَ يُجالِدُ العَدوَّ إذا أُرهِقَ ولا يَستَأسِرُ له[1]، ما قدَرَ على الامتِناعِ منه.

* وإنَّما استَحَدَّ خُبَيبٌ؛ خَوفًا أن تَظهَرَ عَورَتُه إذا صَلَبوهُ، ثمّ إنّه من السُّنَّة، فاستعملَه مُتجهّزا للموتِ»[2].

* **وقال المُهَلَّبُ**: «فيه: أنَّه جائِزٌ أن يَستَأسِرَ الرجُلُ إذا أرادَ أن يَأخُذَ برُخصَةِ اللهِ في إحياءِ نَفسِه، كَما فَعَلَ خُبَيبٌ وصاحِباهُ».

وقال الحَسَنُ البَصريُّ: «لا بَأسَ أن يَستَأسِرَ الرجُلُ إذا خافَ أن يُغلَبَ».

وقال الأوزاعِيُّ: «لا بَأسَ للأسيرِ المسلمِ أَن يَأبى أَن يُمَكِّنَ من نَفسِه، بل يَأخُذُ بالشِّدَّةِ والإباءِ منَ الأسرِ، والأَنَفَةِ من أَن يَجريَ عليه مُلكُ كافِرٍ، كَما فَعَلَ عاصِمٌ».

* وفيه: أداءُ الأمانَةِ إلى المشرِكِ وغيرِه.

* وفيه: التوَرُّعُ من قَتلِ أطفالِ المشرِكينَ؛ رَجاءَ أن يكونوا مُؤمِنينَ.

* وفيه: الامتِداحُ بالشِّعرِ في حين يَنزِلُ بالمَرءِ هَوانٌ في دينٍ أو ذِلَّةٌ؛ ليسلِّيَ بذلك نفسَه، ويُرغِمَ بذلك أَنفَ عَدوِّه، ويُجَدِّدَ في نَفسِه صَبرًا وأَنَفَةً.

وقَولُ جوَيريَةَ[3]: «رَأَيتُ في يدِهِ قِطفَ عِنَبٍ، وما بمكةَ من ثَمَرَةٍ»، فهذا مُمكِنٌ أن

---

(١) استأسر الرجل للعدو: إذا أعطى بيده وانقاد، أي: استسلم له. المغرب في ترتيب المعرب (ص٢٥)، المعجم الوسيط (١/ ١٧).

(٢) معالم السنن (٢/ ٢٧٧).

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٨٢): «وقع عند ابن بطال أن اسم المرأة جويرية، فيحتمل أن يكون لما رأى قول ابن إسحاق: إنها مولاة حجين بن أبي إهاب أطلق عليها جويرية؛ لكونها أمةً، أو يكون وقع له رواية فيها أن اسمها جويرية».

يكونَ آيةً للهِ تعالى على الكُفَّارِ، وبُرهانًا لنبيِّه، وتَصحيحًا لِرسالتِه عِندَ الكافِرَةِ وأَهلِ بلَدِها الكُفَّارِ؛ من أجلِ ما كانوا عليه منِ تَكذيب الرسولِ»[1].

* **وقال ابنُ هُبَيرَةَ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **في هذا الحَديثِ منَ الفِقهِ**: ما يُظهِرُ حِكمةَ اللهِ البالِغةَ، بأن يُلهِمَ رسولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبعَثَ مِثلَ هَؤُلاءِ الرَّهطِ، فيَكتُبَ لهُم الشّهادةَ، ويعودوا قُدوةً لَمن يأتي بعدَهم إلى يومِ القيامةِ.

* وفي امتناعِ مَنِ امتَنَعَ عنِ النُّزولِ على حُكمِ مُشركٍ، وصَبرِ مَن صَبَرَ لَمَّا غَدَر به الكُفَّار، فكُلُّ هَؤُلاءِ قُدوَةٌ بصورَةِ حالِهِ؛ ليكونَ الِامتناعُ عنِ النُّزول على حُكمِ مُشرِكٍ رِضًى بتَعَجُّلِ الشَّهادةِ إلى يَومِ القيامَةِ أيضًا سائغًا غيرَ مكروهٍ ولا محظورٍ؛ اقتِداءً بعاصمِ بنِ ثابتٍ، وليكونَ النُّزولُ على حُكمِ المشركينَ رِضًى بعَهدِهم وأمانِهم مُباحًا؛ اقتِداءً بخُبَيب بن عَديٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولِيَبتَلِيَ اللهُ عبادَهُ المؤمنينَ بمِثلِ هذه الحادِثَةِ؛ ليَميزَ اللهُ مَن ثَبَتَ إيمانُه عِندَها مِمَّن يَضطَرِبُ قَلبُه، ويَتَّبِعُ وساوِسَ الشَّيطانِ.

* ومنَ الحِكمَةِ في إرسالِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومًا تَكون هذه عاقِبَتُهم: أن يكشِفَ اللهُ بِهِمُ المنافِقين حَولَ نبيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع فَوزِ مَن فازَ بالشَّهادةِ، مَكتوبًا له أجرُ مَن اقتَدى به في عمَلِه.

* **وفيه أيضًا من الفِقهِ**: ألَّا يُجازى المشرِكُ في ولَدٍ لَه، صَغيرًا أو غيرَ ذلك، وإن كانوا هُم يُحارِبون المسلمين؛ لِأَنَّ خُبَيبًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لَم يُؤذِ الطِّفلَ، مع قُدرَتِه على أذاه.

* **وفيه أيضًا**: أنَّ الركعَتَينِ من خُبَيبٍ صارَت سُنَّةً لكُلّ مَن قُتِلَ صَبرًا منَ المسلمين.

* **وفيه أيضًا**: جَوازُ تَركِ الإكثارِ منَ الصلاةِ، إذا خافَ المصَلِّي أن يَظُنَّ المشرِكونَ أنَّ صلاتَه تِلكَ هَرَبٌ منَ المَوتِ، وتَبعيدٌ لوَقتِهِ.

* **وفيه أيضًا**: ما يدُلُّ على صِدقِ عزمِ خُبَيبٍ، وحُسنِ ثَباتِ عَقلِه، حينَ قال هذا

---

(١) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٥/ ٢٠٧-٢٠٨)، عمدة القاري (١٤/ ٢٩٤)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٨/ ٢٧١).

الشِّعرَ في مِثلِ تِلكَ الحالةِ الشَّديدةِ، التي يُقبلُ فيها على المَوتِ، ومُعايَنَة القَتلِ بأيدي الأعداءِ»[1].

* وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الحَديثِ: أَنَّ للأَسيرِ أَن يَمتَنِعَ من قَبولِ الأَمانِ، ولا يُمَكِّنَ من نَفسِهِ ولو قُتِلَ؛ أَنَفَةً من أَنَّهُ يَجري عليه حُكمُ كافِرٍ، وهذا إذا أَرادَ الأَخذَ بالشِّدَّةِ، فَإن أَرادَ الأَخذ بالرُّخصَةِ فَلهُ أَن يَستَأمِنَ، قال الحَسَنُ البَصريُّ: «لا بَأسَ بذلك»، وقال سُفيانُ الثَّوريُّ: «أَكرَهُ ذلك».

* وفيه: الوَفاءُ للمُشرِكينَ بالعَهدِ، والتورُّعُ عن قَتلِ أولادِهِم، والتلَطُّفُ بمَن أُريدَ قَتلُهُ.

* وفيه: إثباتُ كَرامَةِ الأولياءِ، والدُّعاءُ على المشرِكينَ بالتعميمِ، والصلاةُ عِندَ القَتلِ.

* وفيه: إنشاءُ الشِّعرِ، وإنشادُهُ عِندَ القَتلِ، ودَلالَةٌ على قوَّةِ يَقينِ خُبَيبٍ، وشِدَّتِهِ في دينِهِ.

* وفيه: أَنَّ اللهَ يَبتَلي عبدَهُ المسلمَ بما شاءَ كَما سَبَقَ في عِلمِهِ؛ ليُثيبَهُ.

* وفيه: استِجابَةُ دُعاءِ المسلمِ وإكرامُهُ حَيًّا ومَيِّتًا، وإنَّما استَجابَ اللهُ له في حِمايَةِ لَحمِهِ منَ المشرِكينَ، ولَم يَمنَعهُم من قَتلِهِ؛ لِما أَرادَ من إكرامِهِ بالشَّهادَةِ، ومن كَرامَتِهِ: حِمايَتُهُ من هَتكِ حُرمَتِهِ بقَطعِ لَحمِهِ[2].

* وفيه: أَنَّ الأنبياءَ لا يعلَمون منَ الغَيبِ إلا ما أعلَمَهُم اللهُ؛ فقد جاءَ هؤلاءِ المشرِكون إلى المدينَةِ، يَزعُمونَ أَنَّهم آمَنوا، وطَلَبوا من النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُرسِلَ معهم مَن يُعَلِّمُهم القُرآن، فأرسَل معهم هؤلاءِ القُرَّاءَ، فغَدَروا بهم في الطريقِ، ولو كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعلمُ أَنَّ هَؤُلاءِ الكَفَرَةَ يَكذِبون عليه، ما أَسلَمَ لهم أصحابَهُ.



(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣٥٨-٣٥٩)، ببعض تصرف.
(٢) فتح الباري (٧/ ٣٨٤-٣٨٥).

٢٠

مقتلُ
سَلَّامِ بنِ
أَبي الحُقَيقِ

مقتلُ سَلَّامِ بنِ أَبي الحُقَيقِ[١]

لمَّا نقَضَ بنو النضيرِ العَهدَ مع رسول اللهِ ﷺ سارَ حتى نزلَ بهِم، فحاصَرَهُم سِتَّ لَيالٍ، وتَحَصَّنوا منه في الحُصونِ.

وكان رَهطٌ من بَني عَوفِ بن الخَزرَجِ قد بَعَثوا إلى بَني النضيرِ: أَنِ اثبُتوا وتَمَنَّعوا، فإنَّا لَن نُسلِمَكُم، إن قوتِلتُم قاتَلنا معكُم، وإن أُخرِجتُم خرجنا معكُم.

فَتَرَبَّصوا ذلك من نَصرِهِم، فلم يَفعَلوا، وقَذَفَ اللهُ في قُلوبِهِمُ الرُّعبَ، فسألوا رسولَ اللهِ أَن يُجليَهُم ويَكُفَّ عن دِمائِهِم، على أَنَّ لهم ما حَمَلَتِ الإبلُ من أَموالِهِم إلا الحَلقَةَ[٢]، ففَعَلَ.

فاحتَمَلوا من أَموالِهِم ما استَقَلَّت بهِ الإبلُ، فكان الرجُلُ منهم يَهدِمُ بَيتَهُ عن نِجافِ بابِهِ[٣]، فيَضَعُهُ على ظَهرِ بَعيرِهِ، فيَنطَلِقُ بهِ.

فَخرجوا إلى خَيبَرَ، ومنهم مَن سارَ إلى الشَّامِ، فكان من أَشرافِ مَن ذَهَبَ منهم إلى خَيبَرَ: سَلَّامُ بن أَبي الحُقَيقِ، وكِنانَةُ بن الربيعِ بن أَبي الحُقَيقِ، وحُيَيُّ بن أَخطَبَ.

فلما نزلوها دانَ لهم أَهلُها.

قال ابنُ إسحاقَ: فحَدَّثَني عبدُ اللهِ بن أَبي بكرٍ: أَنَّهُ حُدِّثَ أَنَّهُمُ استُقبلوا بالنِّساءِ

---

(١) بمهملة وقافين مصغر. الفتح (٥/ ٣٢٨)، وقال النووي: «الحقيق»: بضم الحاء المهملة، وبقافين، بينهما ياء مثناة من تحت ساكنة. تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٢٤).

(٢) يعني: السلاح.

(٣) النجاف: العتبة التي بأعلى الباب، والأسكفة: العتبة التي بأسفله.

والأَبناءِ والأَموالِ، معهمُ الدُّفوفُ والمَزاميرُ، والقيانُ يَعزِفنَ خَلفَهُم، بزُهاءٍ وفَخرٍ ما رُئيَ مِثلُهُ لِحَيٍّ منَ الناسِ في زَمانِهِم.

فَأَنزَلَ اللهُ فيهم سورَةَ الحَشرِ بكَمالِها، يذكُرُ فيها ما أَصابَهُم بهِ من نِقمَتِهِ، وما سَلَّطَ عليهم بهِ رسوله ﷺ، وما عَمِلَ بهِ فيهم.

ثم كانت غَزوَةُ الخَندَقِ في شَوَّالٍ سنةَ خَمسٍ.

قال ابنُ إسحاقَ: فحَدَّثَني يَزيدُ بن رومانَ، عن عُروَةَ، ومَن لا أَتَّهِمُ، عن عبدِ اللهِ بن كَعب بن مالِكٍ، ومحمدِ بن كَعبٍ القُرَظيِّ، والزُّهريِّ، وعاصِمِ بن عمرَ بن قَتادَةَ، وعبدِ اللهِ بن أَبي بكرٍ، وغيرِهم من عُلَمائِنا، وبَعضُهُم يُحَدِّثُ ما لا يُحَدِّثُ بَعضٌ، قالوا: «إنَّهُ كان من حَديثِ الخَندَقِ: أَنَّ نَفَرًا منَ اليَهودِ -منهم: سَلَّامُ بن أَبي الحُقَيقِ النضَريُّ، وحُيَيُّ بن أَخطَبَ النضَريُّ، وكِنانَةُ بن الربيعِ بن أَبي الحُقَيقِ، وهَوذَةُ بن قَيسٍ الوائِليُّ، وأَبو عَمَّارٍ الوائِليُّ، في نَفَرٍ من بَني النضيرِ، ونَفَرٍ من بَني وائِلٍ، وهُمُ الذينَ حَزَّبوا الأَحزابَ على رسولِ اللهِ ﷺ- خرجوا حتى قدِموا على قريشٍ مكةَ، فدَعَوهُم إلى حَربِ رسولِ اللهِ ﷺ، وقالوا: إنَّا سَنكونُ معكُم عليه، حتى نَستَأصِله.

ثم خرجَ أولَئِكَ النفَرُ من يَهودَ حتى جاءوا غَطَفانَ من قَيسِ عَيلانَ، فدَعَوهُم إلى حَربِ النبيِّ ﷺ، وأَخبَروهُم أَنَّهُم يكونونَ معهم عليه، وأَنَّ قريشًا قد تابَعوهُم على ذلك، واجتَمَعوا معهم فيه، فخرجَت قريشٌ وقائِدُها أَبو سُفيانَ، وخرجَت غَطَفانُ وقائِدُها عُيَينَةُ بن حِصنِ بن حُذَيفَةَ بن بَدرٍ في بَني فزارَةَ، والحارِثُ بن عَوفِ بن أَبي حارِثَةَ المرِّيُّ في بَني مُرَّةَ، ومِسعَرُ بن رُخَيلَةَ بن نوَيرَةَ بن طَريفٍ فيمَن تابَعَهُ من قَومِهِ من أَشجَعَ.

فلما سَمِعَ بهِم رسولُ اللهِ ﷺ وما أَجمَعوا له منَ الأَمرِ، ضَرَبَ الخَندَقَ على المَدينَةِ»[1].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٠-١٩٢)، (٢/ ٢١٤-٢١٦)، البداية والنهاية (٥/ ٥٣٤-٥٣٦)، (٦/ ١٢).

و**قال ابنُ القَيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان سَبَبُ غَزوَةِ الخَندَقِ: أَنَّ اليَهودَ لَمَّا رَأَوُا انتِصارَ المشرِكينَ على المسلمينَ يومَ أُحُدٍ، وعَلِموا بميعادِ أبي سُفيانَ لِغَزوِ المسلمينَ، فخرجَ لِذلك، ثم رجعَ للعامِ المقبلِ، خرجَ أَشرافُهُم كَسَلَّامِ بن أبي الحُقَيقِ، وسَلَّامِ بن مِشكَمٍ، وكِنَانَةَ بن الربيعِ، وغيرِهِم، إلى قريشٍ بمكةَ؛ يُحَرِّضونَهُم على غَزوِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويُؤَلِّبونَهُم عليه، ووَعَدوهُم من أَنفُسِهِم بالنصرِ لهم، فأَجابَتهُم قريشٌ، ثم خرجوا إلى غَطَفانَ، فدَعَوهُم، فاستَجابوا لهم، ثم طافوا في قَبائِلِ العَرَب يَدعونَهُم إلى ذلك، فاستَجابَ لهم مَنِ استَجابَ»[1].

قال ابنُ إسحاقَ: «ولَمَّا انقَضى شَأنُ الخَندَقِ وأَمرُ بَني قُرَيظَةَ، وكان سَلَّامُ بن أَبي الحُقَيقِ -وهو أَبو رافِعٍ- فيمَن حَزَّبَ الأَحزابَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانتِ الأوسُ قَبلَ أُحُدٍ قد قَتَلَت كَعبَ بن الأَشرَفِ، فاستَأذَنَ الخَزرَجُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قَتلِ سَلَّامِ بن أَبي الحُقَيقِ وهو بخَيبَرَ، فأَذِنَ لهم»[2].

الحَديث:

عَنِ البَراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «بَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أَبي رافِعٍ اليَهوديِّ رِجالًا منَ الأَنصارِ، فأَمَّرَ عليهم عبدَ اللهِ بن عَتيكٍ، وكان أَبو رافِعٍ يُؤذي رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويُعينُ عليه، وكان في حِصنٍ له بأَرضِ الحِجازِ، فلما دَنَوا منه، وقد غَرَبَتِ الشَّمسُ، وراحَ الناسُ بسَرحِهِم، فقال عبدُ اللهِ لِأَصحابِهِ: اجلِسوا مَكانَكُم، فإِنِّي مُنطَلِقٌ ومُتَلَطِّفٌ للبَوَّابِ؛ لَعَلِّي أَن أَدخُلَ، فأَقبَلَ حتى دَنا منَ الباب، ثم تَقَنَّعَ بثَوبِهِ كَأَنَّهُ يَقضي حاجَةً، وقد دَخَلَ الناسُ، فهَتَفَ بهِ البَوَّابُ: يا عبدَ اللهِ، إن كُنتَ تُريدُ أَن تَدخُلَ فادخُل؛ فإِنِّي أُريدُ أَن أُغلِقَ البابَ، فدَخَلتُ فكَمَنتُ، فلما دَخَلَ الناسُ أَغلَقَ البابَ، ثم عَلَّقَ الأَغاليقَ على وتَدٍ، قال: فقُمتُ إلى الأَقاليدِ فأَخَذتُها، ففَتَحتُ البابَ.

وكان أَبو رافِعٍ يُسمَرُ عِندَهُ، وكان في عَلالِيَّ له، فلما ذَهَبَ عنه أَهلُ سَمَرِهِ صَعِدتُ

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٤١).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٧٣)، البداية والنهاية (٦/ ١٢٧)، إمتاع الأسماع، للمقريزي (١٣/ ٣٠٧).

إليه، فجَعَلتُ كُلَّما فَتَحتُ بابًا أَغلَقتُ عَلَيَّ من داخِلٍ، قُلتُ: إنِ القَومُ نَذِروا بي لَم يَخلُصوا إلَيَّ حتى أَقتُله.

فانتَهَيتُ إليه، فإذا هو في بَيتٍ مُظلِمٍ وسطَ عيالِهِ، لا أَدري أَينَ هو منَ البَيتِ، فقُلتُ: يا أَبا رافِعٍ، قال: مَن هذا؟ فأَهوَيتُ نحو الصوتِ فأَضرِبُهُ ضَربَةً بالسيفِ وأَنا دَهِشٌ، فما أَغنَيتُ شَيئًا، وصاحَ، فخرجتُ منَ البَيتِ، فأَمكُثُ غيرَ بَعيدٍ، ثم دَخَلتُ إليه، فقُلتُ: ما هذا الصوتُ يا أَبا رافِعٍ؟ فقال: لِأُمِّكَ الوَيلُ! إنَّ رجلًا في البَيتِ ضَرَبَني قَبلُ بالسيفِ، قال: فأَضرِبُهُ ضَربَةً أَثخَنَتهُ ولَم أَقتُلهُ، ثم وضَعتُ ظُبَةَ السيفِ في بَطنِهِ حتى أَخَذَ في ظَهرِهِ، فعَرَفتُ أَنِّي قَتَلتُهُ.

فَجَعَلتُ أَفتَحُ الأَبوابَ بابًا بابًا، حتى انتَهَيتُ إلى دَرَجَةٍ له، فوَضَعتُ رِجلي، وأَنا أُرى أَنِّي قدِ انتَهَيتُ إلى الأَرضِ، فوَقَعتُ في لَيلَةٍ مُقمِرَةٍ، فانكَسَرَت ساقي فعَصَبتُها بعِمامَةٍ، ثم انطَلَقتُ حتى جَلَستُ على الباب، فقُلتُ: لا أَخرُجُ اللَّيلَةَ حتى أَعلَمَ: أَقَتَلتُهُ؟

فلما صاحَ الدِّيكُ قامَ الناعي على السُّورِ، فقال: «أَنعى أَبا رافِعٍ تاجِرَ أَهلِ الحِجازِ»، فانطَلَقتُ إلى أَصحابي، فقُلتُ: النجاءَ؛ فقد قَتَلَ اللهُ أَبا رافِعٍ، فانتَهَيتُ إلى النبيِّ ﷺ فحَدَّثتُهُ، فقال: «**ابسُط رِجلك**»، فبَسَطتُ رِجلي فمَسَحَها، فكَأَنَّها لَم أَشتَكِها قَطُّ»[1].

وتَرجَمَ له البخاريُّ: «بابُ قَتلِ أَبي رافِعٍ عبدِ اللهِ بن أَبي الحُقَيقِ، ويُقالُ: سَلَّامُ بن أَبي الحُقَيقِ، كان بخَيبَرَ، ويُقالُ: في حِصنٍ له بأَرضِ الحِجازِ، وقال الزُّهريُّ: «هو بعدَ كَعب ابن الأَشرَفِ»[2].

ثم رواهُ البخاريّ عنِ البَرَاءِ، قال: «بَعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أَبي رافِعٍ عبدَ اللهِ ابن عَتيكٍ، وعبدَاللهِ بن عُتبَةَ، في ناسٍ معهم، فانطَلَقوا حتى دَنَوا منَ الحِصنِ، فقال لهم عبدُ اللهِ بن عَتيكٍ: امكُثوا أَنتُم حتى أَنطَلِقَ أَنا فأَنظُرَ، قال: فتَلَطَّفتُ أَن أَدخُلَ الحِصنَ،

---

(١) رواه البخاري (٣٠٢٢)، (٤٠٣٩)، والبيهقي في سننه (١٨١٠٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (٩٧٤٧)، والروياني في مسنده (٣٠٠)، والطبري في تاريخه (٢/ ٤٩٣)، وإسماعيل الأصبهاني في دلائل النبوة (ص١٢٥).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٩١).

ففقدوا حِمارًا لهم، قال: فخرجوا بقَبَسٍ يَطلُبونَهُ، قال: فخَشيتُ أَن أُعرَفَ، قال: فغَطَّيتُ رَأسي وجَلَستُ كَأَنِّي أَقضي حاجَةً، ثم نادى صاحِبُ الباب: «مَن أَرادَ أَن يَدخُلَ فليَدخُل قَبلَ أَن أُغلِقَهُ».

فَدَخَلتُ ثم اختبَأتُ في مَربطِ حِمارٍ عِندَ باب الحِصنِ، فتَعَشَّوا عِندَ أَبي رافِعٍ، وتَحَدَّثوا حتى ذَهَبَت ساعَةٌ منَ اللَّيلِ، ثم رجعوا إلى بُيوتِهم، فلما هَدَأَتِ الأَصواتُ ولا أَسمَعُ حَرَكَةً خرجتُ.

قال: ورَأَيتُ صاحِبَ الباب، حَيثُ وضَعَ مِفتاحَ الحِصنِ في كَوَّةٍ، فأَخَذتُهُ ففَتَحتُ بِهِ بابَ الحِصنِ، قال: قُلتُ: إن نَذِرَ بي القَومُ انطَلَقتُ على مَهَلٍ، ثم عَمَدتُ إلى أَبواب بُيوتِهم، فغَلَّقتُها عليهم من ظاهِرٍ، ثم صَعِدتُ إلى أَبي رافِعٍ في سُلَّمٍ، فإذا البَيتُ مُظلِمٌ، قد طَفِئَ سِراجُهُ، فلم أَدرِ أَينَ الرجُلُ، فقُلتُ: يا أَبا رافِعٍ، قال: مَن هذا؟ قال: فعَمَدتُ نحو الصوتِ فأَضرِبُهُ وصاحَ، فلم تُغنِ شَيئًا، قال: ثم جِئتُ كَأَنِّي أُغيثُهُ، فقُلتُ: ما لك يا أَبا رافِعٍ؟ وغَيَّرتُ صَوتي، فقال: أَلا أُعجِبُكَ، لِأُمِّكَ الوَيلُ! دَخَلَ عَلَيَّ رجلٌ فضَرَبَني بالسيفِ، قال: فعَمَدتُ له أَيضًا فأَضرِبُهُ أُخرى، فلم تُغنِ شَيئًا، فصاحَ وقامَ أَهلُهُ، قال: ثم جِئتُ وغَيَّرتُ صَوتي كَهَيئَةِ المغيثِ، فإذا هو مُستَلقٍ على ظَهرِهِ، فأَضَعُ السيفَ في بَطنِهِ، ثم أَنكَفِئُ عليه حتى سَمِعتُ صَوتَ العَظمِ، ثم خرجتُ دَهِشًا حتى أَتَيتُ السُّلَّمَ، أُرِيدُ أَن أَنزِلَ فأَسقُطُ منه، فانخَلَعَت رِجلي فعَصَبتُها، ثم أَتَيتُ أَصحابي أَحجُلُ، فقُلتُ: انطَلِقوا فبَشِّروا رسولَ اللهِ ﷺ، فإنِّي لا أَبرَحُ حتى أَسمع الناعيَةَ.

فلما كان في وجهِ الصبحِ صَعِدَ الناعيَةُ، فقال: «أَنعى أَبا رافِعٍ»، قال: فقُمتُ أَمشي ما بي قَلَبَةٌ، فأَدرَكتُ أَصحابي قَبلَ أَن يَأتوا النبيَّ ﷺ، فبَشَّرتُهُ[1].

وقال ابنُ إسحاقَ: وحَدَّثَني محمدُ بن مسلمِ بن شِهابٍ الزُّهريُّ، عن عبدِ اللهِ بنِ كَعب ابن مالِكٍ، قال: «وكان مِمَّا صَنَعَ اللهُ بهِ لِرسولِهِ ﷺ: أَنَّ هَذَينِ الحَيَّينِ من الأَنصارِ،

(١) صحيح البخاري (٤٠٤٠).

الأوس والخَزرَج، كانا يَتصاوَلانِ[١] مع رسولِ اللهِ ﷺ تَصاوُلَ الفَحلَينِ[٢]، لا تَصنَعُ الأوسُ شَيئًا عن رسولِ اللهِ ﷺ غَناءً[٣] إلا قالتِ الخَزرَجُ: واللهِ لا تَذهَبونَ بهذه فضلًا علينا عِندَ رسولِ اللهِ ﷺ وفي الإسلامِ.

قال: فلا يَنتَهونَ حتى يوقِعوا مِثلها، وإذا فعَلَتِ الخَزرَجُ شَيئًا قالتِ الأوسُ مِثلَ ذلك.

ولَمَّا أَصابَتِ الأوسُ كَعبَ بن الأَشرَفِ في عَداوَتِهِ لِرسولِ اللهِ ﷺ قالتِ الخَزرَجُ: واللهِ لا تَذهَبونَ بها فضلًا علينا أَبَدًا.

قال: فتَذاكَروا: مَن رجلٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ في العَداوَةِ كابنِ الأَشرَفِ؟ فذكروا ابنَ أَبي الحُقَيقِ، وهو بخَيبَرَ، فاستَأذَنوا رسولَ اللهِ ﷺ في قَتلِهِ، فأَذِنَ لهم.

فَخرجَ إليه من الخَزرَجِ من بَني سَلِمَةَ خَمسَةُ نَفَرٍ: عبدُ اللهِ بن عَتيكٍ، ومَسعودُ بنُ سِنانٍ، وعبدُ اللهِ بن أُنَيسٍ، وأَبو قَتادَةَ الحارِثُ بن رِبعيٍّ، وخُزاعيُّ بنُ أَسوَدَ، حَليفٌ لهم من أَسلَمَ.

فَخرجوا وأَمَّرَ عليهم رسولُ اللهِ ﷺ عبدَ اللهِ بن عَتيكٍ، ونَهاهُم عن أَن يَقتُلوا وليدًا أوِ امرَأَةً، فخرجوا حتى إذا قدِموا خَيبَرَ أَتَوا دارَ ابنِ أَبي الحُقَيقِ لَيلًا، فلم يَدَعوا بَيتًا في الدَّارِ إلا أَغلَقوهُ على أَهلِهِ.

وكان في عِلِّيَّةٍ له إلَيها عَجَلَةٌ[٤] قال: فأَسنَدوا فيها[٥]، حتى قاموا على بابِهِ، فاستَأذَنوا عليه، فخرجَت إليهمُ امرَأَتُهُ، فقالت: مَن أَنتُم؟ قالوا: ناسٌ من العَرَب نَلتَمِسُ الميرَةَ، قالت: ذاكُم صاحِبكُم، فادخُلوا عليه، قال: فلما دَخَلنا عليه، أَغلَقنا علينا وعليه الحُجرَةَ؛

(١) أي: لا يفعل أحدهما شيئًا إلا فعل الآخر شيئًا مثله.

(٢) الفحلان يتصاولان، أي: يتواثبان.

(٣) منفعة.

(٤) العجلة: جذع النخلة ينقر في موضع منه ويجعل كالسلم، فيصعد عليه إلى العلالي والغرف.

(٥) أي: علوا.

تَخَوُّفًا أَن تَكونَ دونَهُ مُجاوَلَةٌ[١] تَحولُ بينَنا وبينَهُ، فصاحَتِ امرَأَتُهُ، فنَوَّهَت بنا[٢] وابتَدَرناهُ وهو على فِراشِهِ بأَسيافِنا، فواللهِ ما يَدُلُّنا عليه في سَوادِ اللَّيلِ إلا بَياضُهُ كَأَنَّهُ قُبطيَّةٌ[٣] مُلقاةٌ.

قال: ولَمَّا صاحَت بنا امرَأَتُهُ، جَعَلَ الرجُلُ مِنَّا يَرفَعُ عليها سَيفَهُ، ثم يَذكُرُ نَهيَ رسولِ اللهِ ﷺ فيَكُفُّ يَدَهُ، ولَولا ذلك لَفَرَغنا منها بلَيلٍ.

قال: فلما ضَرَبناهُ بأَسيافِنا تَحامَلَ عليه عبدُ اللهِ بن أُنَيسٍ بسَيفِهِ في بَطنِهِ حتى أَنفَذَهُ، وهو يقولُ: «قَطني، قَطني»، أَي: حَسبي، حَسبي.

قال: وخرجنا، وكان عبدُ اللهِ بن عتيك رَجلًا سَيِّءَ البَصَرِ، فوَقَعَ من الدَّرَجَةِ، فوُثِئَت يَده[٤] وثأً شَديدًا -ويُقالُ: رِجلُهُ، فيما قال ابنُ هِشامٍ- وحَمَلناهُ حتى نَأتيَ بِهِ مَنهَرًا[٥] من عُيونِهِم، فنَدخُلَ فيه.

قال: فأوقدوا النِّيرانَ، واشتَدُّوا في كُلِّ وجهٍ يَطلُبونَنا، حتى إذا يَئِسوا رجعوا إلى صاحِبِهِم، فاكتَنَفوهُ وهو يَقضي بينهم.

قال: فقُلنا: كَيفَ لَنا بأَن نَعلَمَ بأَنَّ عَدوَّ اللهِ قد ماتَ؟ فقال رجلٌ مِنَّا: أَنا أَذهَبُ فأَنظُرُ لَكُم، فانطَلَقَ حتى دَخَلَ في الناسِ، قال: فوَجَدتُ امرَأَتَهُ ورِجالَ يَهود حَوله، وفي يَدِها المِصباحُ تَنظُرُ في وجهِهِ، وتُحَدِّثُهُم وتَقولُ: أَما واللهِ لَقد سَمِعتُ صَوتَ ابنِ عَتيكٍ، ثم أَكذَبتُ نَفسي وقُلتُ: أَنَّى ابنُ عَتيكٍ بهذه البلادِ؟ ثم أَقبَلَت عليه تَنظُرُ في وجهِهِ، ثم قالت: فاظَ[٦] وإلَهِ يَهودَ، فما سَمِعتُ من كَلِمَةٍ كانت أَلَذَّ إلى نَفسي منها.

قال: ثم جاءَنا الخَبَرُ، فاحتَمَلنا صاحِبَنا، فقدِمنا على رسولِ اللهِ ﷺ، فأَخبَرناهُ بقَتلِ عَدوِّ اللهِ، واختَلَفنا عِندَهُ في قَتلِهِ، كُلُّنا يَدَّعيهِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**هاتوا**

---

(١) مطاردة.

(٢) رفعت صوتها؛ تشهر بنا.

(٣) ضرب من الثياب البيض تصنع بمصر.

(٤) أي: أصابها وهن دون الخلع والكسر.

(٥) المنهر: خرق في الحصن نافذ يدخل فيه الماء، وهو مفعل، من النهر.

(٦) أي: مات.

أَسيافَكُم»، قال: فجِئناهُ بها، فنَظَرَ إلَيها، فقال لِسَيفِ عبدِ اللهِ بنِ أُنَيسٍ: «**هذا قَتَله، أَرى فيه أَثَرَ الطعامِ**»[1].

قال ابنُ إسحاقَ: فقال حَسَّانُ بن ثابتٍ، وهو يَذكُرُ قَتلَ كَعب بن الأَشرَفِ، وقَتلَ سَلَّامِ بن أَبي الحُقَيقِ:

لله دَرُّ عِصـــابَـــةٍ لاقَيتَهُم	يا ابنَ الحُقَيقِ وأَنتَ يا ابنَ الأَشرَفِ
يَسرونَ بالبيضِ الخِفافِ إلَيكُمُ	مَرَحًا كَأُسدٍ في عَرينٍ مُغرِفِ[2]
حتى أَتَوكُم في مَحِلِّ بلادِكُم	فَسَقَوكُمُ حَتفًا ببيضٍ ذُفَّفِ[3]
مُستَبصِرينَ لِنَصرِ دينِ نبيِّهِم	مُستَصغِرينَ لِكُلِّ أَمرٍ مُجحِفِ[4]

تَرجمة البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

هو البَراءُ بن عازِب بن الحارِثِ بن عَديِّ بن مجدعَةَ بن حارثَةَ الأوسيُّ، أبو عمارةَ، ويُقالُ أبو عمرٍو، ويُقالُ أبو الطُّفَيل، المَدَنيُّ، الصحابيُّ ابنُ الصحابيِّ.

رَوى عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن أبي بكرٍ، وعمرَ، وعَليٍّ، وأبي أَيُّوب، وبلالٍ، وغيرِهم.

وعنهُ عبدُ اللهِ بن زيدٍ الخطميّ، وأبو جُحيفةَ، ولهُما صُحبَةٌ، وعُبيدٌ والربيعُ ويَزيدُ ولوطٌ أولادُ البَراءِ، وابنُ أبي ليلى، وعَديّ بن ثابتٍ، وأبو إسحاقَ، ومعاويةُ بنُ سويد ابن مُقَرِّنٍ، وأبو بُردَةَ، وأبو بكرٍ ابنا أبي موسى، وخَلقٌ.

قال الحافظُ: «رُوِيَ عنه أَنَّهُ غَزا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربَعَ عشرَةَ غزوَةً، وفي روايةٍ: «خَمسَ عَشرةَ»، وإسنادُه صَحيحٌ.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٧٣-٢٧٦)، ومن طريق ابن إسحاق رواه البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٣).
ورواه عبد الرزاق في المصنف (٩٧٤٧)، عن معمر، عن الزهري، إلا أنه قال: «عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك»، بدل عبد الله، وكلاهما ثقة.

(٢) البيض: السيوف، ومرحًا: نشاطًا، والعرين: غابة الأسد، ومغرف: ملتف الأغصان.

(٣) أي: سريعة القتل.

(٤) مجحف: يذهب بالأموال والأنفس.

وشَهِدَ غزوَةَ تُستَرَ مع أبي موسى، وشَهِدَ مع عَلِيٍّ الجَمَلَ وصِفِّينَ، وقِتالَ الخَوارِجِ، ونزلَ الكوفةَ وابتَنى بها دارًا».

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «استَصغَرَني رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنا وابنَ عمرَ، فرُدِدنا يَومَ بَدرٍ»[١].

وقال ابنُ حِبَّان: «كان هو وابنُ عمرَ لِدَةً[٢]، ماتَ في ولايَةِ مُصعب بن الزُّبَيرِ على العراق، سنةَ اثنَتَينِ وسبعينَ»[٣].

شَرحُ الحَديثِ:

يقولُ البَراءُ بن عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أَبي رافِعٍ اليَهوديِّ»:

أبو رافِعٍ هذا هوَ: سَلَّامُ بن أَبي الحُقَيقِ اليَهوديُّ.

وكان من أَشَدِّ الناسِ عداوَةً للهِ ولرسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان مِمَّن يُؤَلِّبُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويدعو إلى حَربه، ويَسعى في ذلك بكُلِّ سَبيلٍ.

فكان منَ الذينَ سعَوا في جمعِ الأحزاب في غَزوَةِ الخَندَقِ، وكان يمدُّهم بالمالِ، ويَعِدُهم ويُمَنِّيهِم، ويَحُثُّهم على استئصالِ المسلمينَ.

قال ابنُ سَعدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالوا: كان أَبو رافِعِ بن أَبي الحُقَيقِ قد أجلَبَ في غَطفانَ ومَن حولَه من مُشركي العرب، وجعَلَ لهُم الحَفلَ[٤] العَظيمَ لحَرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٥].

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٨٦٣٣)، وصححه محققو المسند.

ورواه البخاري (٣٩٥٦)، ولفظه: «استصغرت أنا وابن عمر يوم بدرٍ».

(٢) قال السرقسطي: «لدة الرجل: الذي ولد معه، أو قريبًا من ميلاده، والاثنان لدتان، والجمع: لدون ولدات». الدلائل في غريب الحديث (٢/ ٧٨٥).

(٣) ينظر: تهذيب التهذيب (١/ ٤٢٥)، الثقات لابن حبان (٣/ ٢٦)، معرفة الصحابة لأبي نعيم (١/ ٣٨٤)، الإصابة (١/ ٤١١)، الاستيعاب (١/ ١٥٥).

(٤) حفل القوم يحفلون حفلًا واحتفلوا: اجتمعوا، والحفل الجمع. المحكم لابن سيده (٣/ ٣٤٧).

(٥) الطبقات الكبرى (٢/ ٧٠).

ولمَّا أَصابَتِ الأوسُ كَعبَ بن الأَشرَفِ في عَداوَتِهِ لِرسولِ اللهِ ﷺ، أرادَ إخوانُهُم منَ الخَزرَجِ أن يُكافِئوهُم، فاجتَمَعوا وقالوا: «مَن رجلٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ في العَداوَةِ كابنِ الأَشرَفِ؟»، فذكروا ابنَ أَبي الحُقَيقِ، وهو بخَيبَرَ، فاستَأذَنوا رسولَ اللهِ ﷺ في قَتلِهِ، فأَذِنَ لهم.

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان في قَصرٍ له في أَرضِ خَيبَرَ، وكان تاجِرًا مَشهورًا بأَرضِ الحِجازِ»[١].

وقد ذكرَ الواقِديُّ في مَغازيهِ أنَّ سَلَّامَ بن أَبي الحُقَيقِ كان يقولُ: «إنَّا نَحسُدُ مُحَمَّدًا على النّبوّةِ، حَيثُ خرجَت من بَني هارونَ، وهو نبيّ مُرسَلٌ، واليَهودُ لا تُطاوِعُني على هذا، ولَنا منه ذَبحانِ: واحدٌ بيَثرِبَ، وآخَرُ بخَيبَرَ».

فقيل له: يَملِكُ الأَرضَ جَميعًا؟ قال: «نَعَم، والتُّوراةِ التي أُنزِلَت على موسى، وما أُحِبُّ أَن تَعلَمَ اليَهودُ بقَولي فيه»[٢].

قال الحافظُ: «ولِأَبي رافِعٍ المَذكورِ أَخَوانِ مَشهورانِ من أَهلِ خَيبَرَ، أَحَدُهُما: كِنانَةُ، وكان زَوجَ صَفيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ قَبلَ النبيِّ ﷺ، وأَخوهُ الربيعُ بن أَبي الحُقَيقِ، وقَتلهما النبيُّ ﷺ جَميعًا بعدَ فتحِ خَيبَرَ»[٣].

وكان مَقتَلُهُ بعدَ غزوَةِ الخَندَقِ كَما تَقدَّمَ بيانُه؛ فقد كان له فيها دورٌ بارِزٌ في تَأليب الناسِ وتحزيب الأحزاب على رسولِ اللهِ ﷺ.

وقال ابنُ سَعدٍ: «سَريَّةُ عبدِ اللهِ بن عَتيكٍ إلى أَبي رافِعٍ سَلَّامِ بن أَبي الحُقَيقِ النضَريّ بخَيبَرَ في شَهرِ رمضانَ سنَةَ سِتٍّ»[٤].

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ١٢٧).

(٢) مغازي الواقدي (٢/ ٦٧٧)، والواقدي لا يحتج به، وقد نقل ذلك من طريقه غير واحد من أهل العلم، ينظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩٧)، البداية والنهاية (٦/ ٣٣٣)، إمتاع الأسماع للمقريزي (١٣/ ٣٣٦).

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٤٢).

(٤) الطبقات الكبرى (٢/ ٧٠).

وقال **الواقِديُّ**: «خرجوا لَيلَةَ الإثنَينِ في السّحَرِ، لِأَربَعٍ خَلَونَ من ذي الحِجّةِ، على رَأسِ سِتّةٍ وأَربَعينَ شَهرًا، وغابوا عَشرَةَ أَيّامٍ.

ويُقالُ: كانت السّريّةُ في شَهرِ رَمَضانَ سنةَ سِتّ»[1].

وقال الحافظُ: «قال ابنُ سَعدٍ: «كانت في رَمَضانَ سنةَ سِتٍّ»، وقيلَ: «في ذي الحِجَّةِ سنةَ خَمسٍ»، وقيلَ: «فيها سنةَ أَربَعٍ»، وقيلَ: «في رَجَبٍ سنةَ ثَلاثٍ»[2].

قَولُهُ: «بَعَثَ إلى أَبي رافِعٍ اليَهوديِّ رِجالًا منَ الأَنصارِ، فأَمَّرَ عليهم عبدَ اللهِ بنَ عَتيكٍ»:

وفي روايةٍ للبُخاريّ: «بَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أَبي رافِعٍ عبدَ اللهِ بن عَتيكٍ، وعبدَاللهِ بن عُتبَةَ، في ناسٍ معهم، فانطَلَقوا حتى دَنَوا منَ الحِصنِ».

قال الحافظُ: «سُمِّيَ منهم في هذا الباب: عبدُ اللهِ بن عَتيكٍ، وعبدُ اللهِ بن عُتبَةَ، وعِندَ ابنِ إسحاقَ: عبدُ اللهِ بن عَتيكٍ، ومَسعودُ بن سِنانٍ، وعبدُ اللهِ بن أُنَيسٍ، وأَبو قَتادَةَ، وخُزاعيُّ بن أَسوَدَ.

فَإن كان عبدُ اللهِ بن عُتبَةَ مَحفوظًا فقد كانوا سِتَّةً، فأَمَّا الأَوَّلُ: فهو ابنُ عَتيكِ بنِ قَيسِ بن الأَسوَدِ من بَني سَلِمَةَ، وأَمَّا عبدُ اللهِ بن عُتبَةَ فلَم يُذكَر إلا في هذا الطريق، وأما مَسعُودٌ فهو ابنُ سِنانٍ الأَسلَميُّ حَليفُ بَني سَلِمَةَ، شَهِدَ أُحُدًا، واستُشهِدَ باليَمامَةِ، وأَمَّا عبدُ اللهِ بن أُنَيسٍ فهو الجُهَنيُّ حَليفُ الأَنصارِ، وقد فرَّقَ المنذِريُّ بينَ عبدِ اللهِ بن أُنَيسٍ الجُهَنيِّ وعبدِ اللهِ بن أُنَيسٍ الأَنصاريِّ، وجَزَمَ بأَنَّ الأَنصاريَّ هو الذي كان في قَتلِ ابنِ أبي الحُقَيقِ، وتَبِعَ في ذلك ابنَ المَدينيِّ، وجَزَمَ غيرُ واحدٍ بأَنَّهُما واحدٌ، وهو جُهَنيٌّ حالَفَ الأَنصارَ.

وأَمَّا أَبو قَتادَةَ: فمَشهورٌ، وأَمَّا خُزاعيُّ بن أَسوَدَ: فقد قَلَبَهُ بَعضُهُم فقال: أَسوَدُ بنُ

---

(١) مغازي الواقدي (١/ ٣٩١-٣٩٥).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٤٢).

خُزاعيٍّ، وفي حَديثِ عبدِ اللهِ بن أُنَيسٍ في الإكليلِ: أَسوَدُ بن حَرامٍ، وكذا ذكرَهُ موسى بن عُقبَةَ في المَغازي، فإن كان غيرَ مَن ذُكِرَ، وإلا فهو تَصحيفٌ، ثم وجَدتُهُ في دَلائِلِ البَيهَقيِّ من طَريقِ موسى بن عُقبَةَ على الشَّكِّ، هَل هو أَسوَدُ بن خُزاعيٍّ، أو أَسوَدُ بن حَرامٍ؟[1]»[2].

وقال أبو نُعَيمٍ في المَعرِفَةِ: حَدَّثَنا سُلَيمانُ بن أَحمَدَ، ثنا إسحاقُ بن إبراهيمَ، أَنبَأَ عبدُ الرزَّاقِ، عن مَعمَرٍ، عَنِ الزُّهريِّ، عن عبدِ الرحمَنِ بن كَعب بن مالِكٍ: أَنَّ الرهطَ الذينَ استَأذَنوا النبيَّ ﷺ في قَتلِ سَلَّامِ بن أَبي الحُقَيقِ: عبدُ اللهِ بنُ عَتيكٍ -وكان أَميرَ القَومِ-، وعبدُ اللهِ بن أُنَيسٍ، ومَسعودُ بن سِنانٍ، وأَبو قَتادَةَ، وخُزاعيُّ بن أَسوَدَ، رجلٌ من أَسلَمَ حَليفٌ لهم، ورجلٌ آخَرُ يُقالُ له: فُلانُ بن سَلمَةَ، استَأذَنوا النبيَّ ﷺ في قَتلِ سَلَّامِ بن أَبي الحُقَيقِ أَبي رافِعٍ الأَعوَرِ بخَيبَرَ، فأَذِنَ لهم في قَتلِهِ، وقال لهم: «**لا تَقتُلوا وليدًا ولا امرَأَةً**»، فذَهَبوا فقَتَلوهُ، فجاءوا يَومَ الجُمُعَةِ، والنبيُّ ﷺ على المنبَرِ يَخطُبُ، فلما رَآهُم قال: «**أَفلَحَتِ الوُجوهُ**».

قال أبو نُعَيمٍ عَقِبَهُ: «هَكذا رواهُ أَكثَرُ أَصحاب الزُّهريِّ مُرسَلًا»[3].

قَولُهُ: «وكان أَبو رافِعٍ يُؤذي رسولَ اللهِ ﷺ، ويُعينُ عليه»:

تَقدَّمَ أَنَّهُ خرجَ في نَفَرٍ من اليَهودِ، فحَزَّبوا الأَحزابَ على رسولِ اللهِ ﷺ، فخرجوا حتى قدِموا على قريشٍ مكةَ، فدَعَوهُم إلى حَرب رسولِ اللهِ ﷺ وقالوا: إنَّا سَنكونُ معكُم عليه، حتى نَستَأصِله.

---

(١) ويقال: أسعد بن حرام، ينظر: الإصابة (١/ ٢٠٧)، (١/ ٢٢٣).

والذي في الدلائل (٤/ ٣٨) عن موسى بن عقبة، قال: « بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس، ومسعود بن سنان بن الأسود، وأبا قتادة بن ربعي بن بلدمة، من بني سلمة، وأسود ابن خزاعي حليفًا لهم، ويقال: نجدة في غير هذا الكتاب، وأسعد بن حرام، حليف لبني سواد، فأمر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك، فطرقوا أبا رافع بن أبي الحقيق اليهودي بخيبر، فقتلوه في بيته».

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٤٣).

(٣) معرفة الصحابة (٢/ ١٠٠٢).

ثم خرجوا حتى جاءوا غَطَفانَ من قَيسِ عَيلانَ، فدَعَوهُم إلى حَرب النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَخبَروهُم أَنَّهُم يكونونَ معهم عليه، وأَنَّ قريشًا قد تابَعوهُم على ذلك، واجتَمَعوا معهم فيه.

وقال الحافظُ: «ذكرَ ابنُ عائِذٍ من طَريقِ أَبي الأَسوَدِ، عن عُروَةَ: أَنَّهُ كان مِمَّن أَعانَ غَطَفانَ وغيرَهُم من مُشرِكي العَرَب بالمالِ الكَثيرِ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

قَولُهُ: «وكان في حِصنٍ له بأَرضِ الحِجازِ، فلما دَنَوا منه، وقد غَرَبَتِ الشَّمسُ، وراحَ الناسُ بسَرحِهِم»:

وكان اليَهودُ يَتحصّنونَ في الحُصونِ والآطامِ؛ مِمَّا كانوا فيه من الجُبنِ والرّعب الذي قَذفَه اللهُ في قُلوبهم؛ يَظُّنونَ أنّهم مانِعتُهُم حُصونُهُم من اللهِ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الحشر: ٢].

وقَولُهُ: «وراحَ الناسُ بسَرحِهِم»:

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي: رجعوا بمَواشيهِم التي تَرعى، والسرح: السائِمَة من إبلٍ وبَقَرٍ وغَنَمٍ»[2].

وقال ابنُ فارِسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السرحُ: المالُ السائِمُ، والسارِحُ: الراعي»[3].

قولُهُ: «فقال عبدُ اللهِ لِأَصحابِهِ: اجلِسوا مَكانكُم، فإِنِّي مُنطَلِقٌ، ومُتَلَطِّفٌ للبَوَّاب، لَعَلِّي أَن أَدخُلَ، فأَقبَلَ حتى دَنا منَ الباب، ثم تَقَنَّعَ بثَوبِهِ كَأَنَّهُ يَقضي حاجَةً، وقد دَخَلَ الناسُ»:

وعِندَ البخاريّ في الرِّوايَةِ الأُخرى: «فقال لهم عبدُ اللهِ بن عَتيكٍ: امكُثوا أَنتُم حتى

---

(١) الفتح (٧/ ٣٤٣).

(٢) عمدة القاري (١٧/ ١٣٦).

(٣) مقاييس اللغة (٣/ ١٥٧).

أَنطَلِقَ أَنا فأَنظُرَ، قال: فتَلَطَّفتُ أَن أَدخُلَ الحِصنَ، ففقدوا حِمارًا لهم، فخرجوا بقَبَسٍ يَطلُبونَهُ، فخَشيتُ أَن أُعرَفَ، فغَطَّيتُ رَأسي، وجَلَستُ كَأَنِّي أَقضي حاجَةً».

وقَولُهُ: ثم تَقَنَّعَ بثَوبِهِ»:

أي: غَطَّى رَأسَهُ، كَما في الرِّوايةِ الأُخرى؛ حتى لا يُعرَفَ.

قَولُهُ: «فَهَتَفَ بِهِ البَوَّابُ: يا عبدَ اللهِ، إن كُنتَ تُريدُ أَن تَدخُلَ فادخُل؛ فإنِّي أُريدُ أَن أُغلِقَ البابَ»:

قَولُهُ: «يا عبدَ اللهِ»، لَم يُرِدِ اسمَه العَلَمَ؛ لِأَنَّهُ لَو كان كذلك لَكان قد عَرَفَهُ، والواقِع أَنَّهُ كان مُستَخفيًا منه، فالذي يظهر: أَنه أَرادَ مَعناهُ الحقيقيَّ؛ لِأَنّ الجَميعَ عَبيدُ اللهِ[1].

قَولُهُ: «فَدَخَلتُ فكَمَنتُ، فلما دَخَلَ الناسُ أَغلَقَ البابَ، ثم عَلَّقَ الأَغاليقَ على وتَدٍ»:

«كَمَنتُ»، أَي: اختبَأتُ.

وفي **روايةٍ**: «ثم عَلَّقَ الأَغاليقَ على ودٍّ».

قال الحافظُ: «بفَتحِ الواوِ وتشديدِ الدَّالِ، هو الوَتَدُ.

والأَغاليقُ جَمعُ غَلقٍ: ما يُغلَقُ بِهِ البابُ، والمرادُ بها المَفاتيحُ، كَأَنَّهُ كان يُغلِقُ بها ويَفتَحُ بها، كذا في روايةِ أَبي ذَرٍّ، وفي روايةِ غيرِهِ: بالعَينِ المهمَلَةِ، وهو المِفتاحُ بلا إشكالٍ»[2].

وفي **روايةٍ للبُخاريّ**: «ورَأَيتُ صاحِبَ الباب، حَيثُ وضَعَ مِفتاحَ الحِصنِ في كَوَّةٍ، فأَخَذتُهُ ففَتَحتُ بِهِ بابَ الحِصنِ».

قال الحافظُ: «الكَوَّةُ»، بالفَتحِ، وقد تُضَمُّ، وقيلَ: بالفَتحِ غيرُ النافِذَةِ، وبالضَّمِّ النافِذَةُ»[3].

---

(١) الفتح (٧/ ٣٤٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وفي روايةٍ **للبُخاريّ أيضًا**: «ثم نادى صاحِبُ الباب: «مَن أَرادَ أَن يَدخُلَ فليَدخُل قَبلَ أَن أُغلِقَهُ»، فدَخَلتُ ثم اختبَأتُ في مَربطِ حِمارٍ عِندَ باب الحِصنِ».

وله أَيضًا: «فَدَخَلتُ في مَربطِ دَوابَّ لهم، قال: وأَغلَقوا بابَ الحِصنِ، ثم إنَّهُم فقدوا حِمارًا لهم، فخرجوا يَطلُبونَهُ، فخرجتُ فيمَن خرجَ أُريهِم أَنَّني أَطلُبُهُ معهم، فوَجَدوا الحِمارَ، فدَخَلوا ودَخَلتُ، وأَغلَقوا بابَ الحِصنِ لَيلًا، فوَضَعوا المَفاتيحَ في كَوَّةٍ حَيثُ أَراها».

قَولُهُ: «فَقُمتُ إلى الأَقاليدِ فأَخَذتُها، ففَتَحتُ البابَ»:

«الأَقاليد»: جَمعُ إقليدٍ، وهو المِفتاحُ.

وللبُخاريّ أَيضًا: «فلما ناموا أَخَذتُ المَفاتيحَ، ففَتَحتُ بابَ الحِصنِ».

قَولُهُ: «وكان أَبو رافِعٍ يُسمَرُ عِندَهُ، وكان في عَلاليَّ له»:

«**يُسمَرُ عِندَهُ**»، أَي: يَتَحَدَّثونَ عندَهُ لَيلًا.

والعَلاليُّ: جَمعُ عُلِّيَّة، بضَمِّ العَينِ وكَسرِها: الغُرفَة[1].

وقال الأزهريّ: «عِلِّيّة» أَكثرُ في كَلامِهِم من «عُلِّيَّة»[2].

وجاء في المعجَمِ الوسيطِ: «العليّة: الغُرفَة في الطبَقَة الثَّانيَة من الدَّار وما فَوقها، والجمع: عَلاليّ»[3].

قَولُهُ: «فلما ذَهَبَ عنه أَهلُ سَمَرِهِ صَعِدتُ إليه»:

وفي رِوايةٍ للبُخاريّ: «فتَعَشَّوا عِندَ أَبي رافِعٍ، وتَحَدَّثوا حتى ذَهَبَت ساعَةٌ منَ اللَّيلِ، ثم رجعوا إلى بُيوتِهِم، فلما هَدَأَتِ الأَصواتُ ولا أَسمَعُ حَرَكَةً خرجتُ».

---

(١) النهاية (٣/ ٢٩٥).

(٢) تهذيب اللغة (٣/ ١١٩).

(٣) المعجم الوسيط (٢/ ٦٢٥).

وتَقدَّمَ في روايةِ ابنِ إسحاقَ: «وكان في عِلِّيَّةٍ له إلَيها عَجَلَةٌ[١]».

قَولُهُ: «**فَجَعَلتُ كُلَّما فَتَحتُ بابًا أَغلَقتُ عَلَيَّ من داخِلٍ**»:

وللبُخاريِّ أيضًا: «ثم عَمَدتُ إلى أَبواب بُيوتِهم، فغَلَّقتُها عليهم من ظاهِرٍ، ثم صَعِدتُ إلى أَبي رافِعٍ في سُلَّمٍ».

قال: «**قُلتُ: إنِ القَومُ نَذِروا بي لَم يَخلُصوا إلَيَّ حتى أَقتُلَه**»:

«**نَذِروا بي**»، أي: عَلِموا.

قال ابنُ المُلَقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإنذارُ: الإعلامُ بالشَّيءِ الذي يُحذَرُ منه، فكُل مُنذِرٍ مُعلِمٌ، وليس كُلُّ مُعلِمٍ مُنذِرًا، ويُقالُ: أنذَرتُه فنَذِرَ، أي: أَعلَمتُه فعَلِمَ»[٢].

قَولُهُ: «**فانتَهَيتُ إليه، فإذا هو في بَيتٍ مُظلِمٍ وسطَ عيالِهِ، لا أَدري أَينَ هو منَ البَيتِ**»:

«**وسطَ عيالِهِ**»: بسُكونِ السِّينِ.

قال ابنُ سيدَه رَحِمَهُ اللَّهُ: «وسَطُ الشَّيءِ: ما بينَ طَرَفَيه، فإذا سكَّنتَ السِّينَ من «وسط» صارَ ظَرفًا»[٣].

وفي رِوايةٍ **للبُخاريِّ**: «فإذا البَيتُ مُظلِمٌ، قد طَفِئَ سِراجُهُ».

قَولُهُ: «**فَقُلتُ: يا أَبا رافِعٍ، قال: مَن هذا؟ فأَهوَيتُ نحو الصوتِ فأَضرِبُهُ ضَربَةً بالسيفِ وأَنا دَهِشٌ، فما أَغنَيتُ شَيئًا**»:

«**فَأَهوَيتُ نحو الصوتِ**»، أَي: قَصَدتُ نحو صاحِبِ الصوتِ[٤].

«**وأَنا دَهِشٌ**»: جُملَةٌ اسمِيَّةٌ وقَعَت حالًا، ودَهِشَ، أَي: تَحيَّرَ.

---

(١) تقدم أن العجلة: جذع النخلة ينقر في موضع منه ويجعل كالسلم، فيصعد عليه إلى العلالي والغرف.

(٢) التوضيح (٢١/ ١٣٧).

(٣) المحكم (٨/ ٥٩٤).

(٤) فتح الباري (٧/ ٣٤٤).

«**فَما أَغنَيتُ شَيئا**»، يُقال: ما يُغني عنك، أَي: ما يُجدي عنك وما يَنفَعُكَ، وحاصِل المعنى: لَم أَقتُلهُ[١].

قَولُهُ: «وصاحَ، فخرجتُ منَ البَيتِ، فأَمكُثُ غيرَ بَعيدٍ، ثم دَخَلتُ إليه، فقُلتُ: ما هذا الصوتُ يا أَبا رافِعٍ؟ فقال: لِأُمِّكَ الوَيلُ! إنَّ رجلًا في البَيتِ ضَرَبَني قَبلُ بالسيفِ»:

وفي روايةٍ للبُخاريّ: «فَقُلتُ: يا أَبا رافِعٍ، قال: مَن هذا؟ قال: فعَمَدتُ نحو الصوتِ فأَضرِبُهُ وصاحَ، فلم تُغنِ شَيئًا، قال: ثم جِئتُ كَأَنِّي أُغيثُهُ، فقُلتُ: ما لك يا أَبا رافِعٍ؟ وغَيَّرتُ صَوتي، فقال: أَلا أُعجِبُكَ، لِأُمِّكَ الوَيلُ! دَخَلَ عَلَيَّ رجلٌ فضَرَبَني بالسيفِ».

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لِأُمِّكَ الوَيلُ**»، أَي: الحُزنُ والهلاكُ والمشَقَّة من العذاب، وكلّ مَن وقَعَ في هلكةٍ دُعيَ عليه بالوَيلِ.

و«**الوَيلُ**»: مَرفوعٌ بالِابتِداءِ، وخَبَرُه: «**لِأُمِّكَ**» مُقدَّمًا، والمعنى: إنَّها إذا فقدَت ولَدَها يكونُ لها ويلٌ وعَذابٌ، وهذا دُعاءٌ بعدَ دُعاءٍ»[٢].

وفي حَديثِ عبدِ اللهِ بن أُنَيسٍ: «فقالتِ امرَأَةُ ابنِ أَبي الحُقَيقِ: إنَّ هذا لَصَوتُ عبدِ اللهِ ابن عَتيكٍ، قال ابنُ أَبي الحُقَيقِ: ثَكِلَتكِ أُمُّكِ! عبدُ اللهِ بن عَتيكٍ بيَثرِبَ، أينَ هو عندَكِ هذه الساعةَ؟! قومي فافتَحي؛ فإنَّ الكَريمَ لا يُرَدُّ عن بابِهِ هذه الساعةَ، فقامَت ففَتَحَت»[٣].

قال: «فَأَضرِبُهُ ضَربَةً أَثخَنَتهُ ولَم أَقتُلهُ، ثم وضَعتُ ظُبَةَ السيفِ في بَطنِهِ حتى أَخَذَ في ظَهرِهِ، فعَرَفتُ أَنِّي قَتَلتُهُ»:

«**أَثخَنَتهُ**»، **قال القَسطَلانيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «بفَتحِ الهَمزَةِ، وسُكونِ المثَلّثَة، وفَتحِ الخاءِ المعجَمَة والنُّون، بعدَها فوقيَّة، أَي: الضَّربَةُ، وفي نُسخَةٍ: بسُكونِ النُّون، وضَمِّ الفَوقيّة، أي: بالَغتُ في جراحَتِهِ»[٤].

---

(١) عمدة القاري (١٧/ ١٣٧).

(٢) شرح أبي داود (٢/ ١٤٢).

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده (٩٠٧)، والطبري في تاريخه (٢/ ٥٧)، وإسناده ضعيف.

(٤) إرشاد الساري (٦/ ٢٨٧).

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أَثخَنَتهُ**»، أَي: أَثقَلَتهُ بالجِراحِ»[١].

و«**ظُبَةُ السيفِ**»، **قال ابنُ الجَوزيّ**: «ظُبَةُ السيفِ: حَدُّهُ، قال ابنُ قُتَيبَةَ: «حَدَّاهُ من جانِبَيه ظُبَتاهُ، وغِرارُه: ما بين ظُبَتَيهِ»[٢].

وقال الجَوهَريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ظُبَةُ السيفِ وظُبَةُ السهمِ: طَرَفُهُ»[٣].

وقال في الفائِقِ: «ظُبَةُ السيفِ: حَدُّهُ مِمَّا يَلي الطّرفَ منه»[٤].

ولأبي ذَرّ: «ضَبيبُ السيفِ»، بالمعجَمَة غَيرِ المشالَة[٥]، بوَزنِ رَغيف.

وكذا وقَعَ في تاريخِ الطبري: «ثم وضَعتُ ضَبيبَ السيفِ في بَطنِهِ، حتى أَخرَجتُهُ من ظَهرِهِ».

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَكذا يُروى، وما أراهُ مَحفوظًا، وإنَّما هوَ: «ظُبَةُ السيف»، وهو حَرفُ حَدِّ السيفِ، ويُجمَعُ على ظُباتٍ، والضَّبيبُ لا معنى له هُنا؛ لِأَنَّهُ سَيَلانُ الدَّمِ منَ الفَمِ، يُقالُ: ضَبَّت لَثَتُهُ ضَبيبًا»[٦].

وعِندَ البخاريّ أَيضًا: «فَعَمَدتُ له أَيضًا فأَضرِبُهُ أُخرى، فلم تُغنِ شَيئًا، فصاحَ وقامَ أَهلُهُ، قال: ثم جِئتُ وغَيَّرتُ صَوتي كَهَيئَةِ المغيثِ، فإذا هو مُستَلقٍ على ظَهرِهِ، فأَضَعُ السيفَ في بَطنِهِ ثم أَنكَفِئُ عليه، حتى سَمِعتُ صَوتَ العَظمِ».

وتَقدَّمَ عِندَ ابنِ إسحاقَ: «فَصاحَتِ امرَأَتُهُ، فنَوَّهَت بنا[٧] وابتَدَرناهُ، وهو على فراشِهِ بأَسيافِنا، فواللهِ ما يَدُلُّنا عليه في سَوادِ اللَّيلِ إلا بَياضُهُ كَأَنَّهُ قُبطِيَّةٌ[٨] مُلقاةٌ.

---

(١) فتح الباري (١/ ٩٤).

(٢) كشف المشكل (٢/ ٢٥٣).

(٣) الصحاح (٦/ ٢٤١٧).

(٤) الفائق في غريب الحديث (٣/ ١٠١).

(٥) أي بالضاد وليس الظاء، يقال: الظاء المشالة؛ لتمييزها عن الضاد.

(٦) أعلام الحديث (٣/ ١٧١٥).

(٧) رفعت صوتها تشهر بنا.

(٨) ضرب من الثياب البيض، تصنع بمصر.

قال: ولَمَّا صاحَت بنا امرَأَتُهُ، جَعَلَ الرجُلُ مِنَّا يَرفَعُ عليها سَيفَهُ، ثم يَذكُرُ نَهيَ رسولِ اللهِ ﷺ فيَكُفُّ يَدَهُ، ولَولا ذلك لَفَرَغنا منها بلَيلٍ.

قال: فلما ضَرَبناهُ بأَسيافِنا تَحامَلَ عليه عبدُ اللهِ بن أُنَيسٍ بسَيفِهِ في بَطنِهِ حتى أَنفَذَهُ».

وعِندَ ابنِ سَعدٍ: «فلما هَدَأَتِ الرِّجلُ[1] جاءوا إلى مَنزِلِهِ، فصَعِدوا دَرَجَةً له، وقدموا عبدَ اللهِ بن عَتيكٍ؛ لِأَنَّهُ كان يَرطُنُ باليَهوديَّةِ، فاستَفتَحَ وقال: جِئتُ أَبا رافِعٍ بهَدِيَّةٍ، ففَتَحَت له امرَأَتُهُ، فلما رَأَتِ السِّلاحَ أَرادَت أَن تَصيحَ، فأَشاروا إلَيها بالسيفِ، فسَكَتَت، فدَخَلوا عليه، فما عَرَفوهُ إلا ببَياضِهِ كَأَنَّهُ قُبطيَّةٌ، فعَلَوهُ بأَسيافِهِم»[2].

قَولُهُ: «فَجَعَلتُ أَفتَحُ الأَبوابَ بابًا بابًا، حتى انتَهَيتُ إلى دَرَجَةٍ له، فوَضَعتُ رِجلي، وأَنا أُرى أَنِّي قدِ انتَهَيتُ إلى الأَرضِ»:

«**وأَنا أُرى**»، بضَمِّ الهَمزَةِ، أَي: أَظُنُّ.

وعِندَ ابنِ إسحاقَ: «وكان عبدُ اللهِ بن عَتيكٍ رجلًا سَيِّءَ البَصَرِ».

فلِضَعفِ بَصَرِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وضَعَ رِجلَه، يَظُنُّ أَنَّهُ وصَلَ إلى الأرضِ، ولَم يَكُن وصَلَ بعدُ.

وفي روايةٍ للبُخاريِّ: «ثم خرجتُ دَهِشًا، حتى أَتَيتُ السُّلَّمَ، أُريدُ أَن أَنزِلَ، فأَسقُطُ منه».

قَولُهُ: «فَوَقَعتُ في لَيلَةٍ مُقمِرَةٍ، فانكَسَرَت ساقي، فعَصَبتُها بعِمامَةٍ»:

وللبُخاريِّ أيضًا: «فانخَلَعَت رِجلي، فعَصَبتُها».

فقال في الرِّوايَةِ الأولى: «فانكَسَرَت ساقي»، وقال في الرِّوايَةِ الثَّانيَةِ: «فانخَلَعَت رِجلي».

---

(١) هدأت الرجل، إذا نام الناس. مقاييس اللغة (٦/ ٤٣).
وأتانا فلان وقد هدأت الرجل، أي بعد ما سكن الناس بالليل. الصحاح (١/ ٨٣).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٧٠).

قال الحافظُ: «ويُجمَعُ بينهما: بأَنَّها انخَلَعَت منَ المِفصَلِ، وانكَسَرَتِ الساقُ، وقال الدَّاوُديُّ: «هذا اختِلافٌ، وقد يُتَجَوَّزُ في التعبيرِ بأَحَدِهِما عَنِ الآخَرِ؛ لِأَنَّ الخَلعَ هو زَوالُ المِفصَلِ من غيرِ بينونَةٍ، أَي: بخِلافِ الكَسرِ».

قُلتُ: والجَمعُ بينهما بالحَملِ على وُقوعِهِما مَعًا أولى، ووَقَعَ في روايةِ ابن إسحاقَ: «فَوُثِئَت يَده»[1]، وهو وهَمٌ، والصوابُ: «رِجلُهُ»، وإن كان مَحفوظًا: فوَقَعَ جَميعُ ذلك»[2].

وزادَ ابنُ إسحاقَ: «فَأوقدوا النِّيرانَ، واشتَدُّوا في كُلِّ وجهٍ يَطلُبونَنا، قال: حتى إذا يَئِسوا رجعوا إلى صاحِبِهِم، فاكتَنَفوهُ، وهو يَقضي بينهم».

قَولُهُ: «ثم انطَلَقتُ حتى جَلَستُ على الباب، فقُلتُ: لا أَخرُجُ اللَّيلَةَ حتى أَعلَمَ: أَقَتَلتُهُ؟ فلما صاحَ الدِّيكُ قامَ الناعي على السُّورِ»:

«**الناعي**»: اسمُ الفاعِلِ منَ النعيِ.

وفي روايةٍ للبُخاريّ: «ثم أَتَيتُ أَصحابي أَحجُلُ، فقُلتُ: انطَلِقوا فبَشِّروا رسولَ اللهِ ﷺ، فإِنِّي لا أَبرَحُ حتى أَسمع الناعيَةَ، فلما كان في وجهِ الصبحِ صَعِدَ الناعيَةُ».

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الناعيَةُ»، على وزنِ فاعِلَةٍ: من النعيِ، وهو الإخبار بالمَوتِ، ويُروى: «الواعيَة»، أَي: الصارِخَة التي تَندُبُ القَتيل، والوّعيُ الصوتُ»[3].

وللبُخاريّ أَيضًا: «فَما بَرِحتُ حتى سَمِعتُ نَعايا أَبي رافِعٍ تاجِرِ أَهلِ الحِجازِ».

قال ابنُ الجوزيّ: «النعايا: جَمعُ ناعيَةٍ، وهي النوائِحُ، قال أَبو سُلَيمان: «هَكذا يُروى: «نَعايا»، وإِنَّما حقُّ الكَلامِ أَن يُقال: «نَعاءِ أبا رافِعٍ»، أَي: انعوا أَبا رافع، كَقَولِهِم: «دَراكِ»، أَي: أدرِكوا، ومن هذا قَول شَدَّاد بن أوس: «يا نَعاءِ العَرَبَ»[4]، يُريد: انعوا العَرَبَ»[5].

---

(١) أي: أصابها وهن دون الخلع والكسر.

(٢) الفتح (٧/ ٣٤٤).

(٣) عمدة القاري (١٤/ ٢٧٢).

(٤) رواه البيهقي في الشعب (٦٤٠٨)، والمروزي في زوائد الزهد (١١١٤)، بلفظ: «يا نعايا العرب»، وسنده صحيح.

(٥) أعلام الحديث للخطابي (٢/ ١٤٣٠)، وقال ابن الأثير في النهاية (٥/ ٨٦): «قوله «نعاء فلانًا» معناه: انع فلانًا، كما تقول: دراك فلانًا: أي أدركه».

وقال ابنُ السّكيتِ: «كانتِ العَرَب إذا ماتَ مَيِّتٌ له قدرٌ، ركب راكب وسار في الناس يقول: «نَعاءِ فُلانًا»، أَي: انعوه، أخرجَه مَخرَج نزالِ».

وقال الحوفيُّ: «هَكذا رِوايَتي: «نَعاءِ» بغير ياء، وكذا يعرفهُ البصريُّون، والكوفيُّون يقولونَ: «نَعائي»، يُضيفُه إلى نَفسِه، مثل ضَربي زَيدًا»[1].

وقال **ابنُ المَلَقِّنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «فما بَرِحتُ حتى سَمِعتُ نَعايا أَبي رافِعٍ»، كذا الرِّوايةُ، وصَوابُه: «نَعايِ» من غيرِ أَلِفٍ، كذا نَقَله النُّحاةُ أَي: انع أبا رافِعٍ، جَعَل دلالةَ الأمرِ فيه وعَلامَة الجَزمِ آخِرَه بغيرِ تنوينٍ.

قال الأَصمَعيُّ: «كانتِ العرَبُ إذا ماتَ فيها مَيِّتٌ له قدرٌ، رَكبَ راكِبٌ فرَسًا، وجَعَلَ يسيرُ في الناسِ ويقولُ: «نِعاءِ فُلانًا»، أَي: انعه، وأَظهِر خَبَرَ وفاتِهِ».

وقال أبو نَصرٍ: «وهي مَبنيَّةٌ على الكَسرِ».

وقال **الدَّاوُديُّ**: «نَعايا: جَمعُ ناعيَةٍ»، والأظهَرُ أَنَّهُ جَمعُ نَعيّ، مثل: صَفيٍّ وصَفايا».

وقال ابنُ فارسٍ: «النعيُ خبَرُ المَوتِ، وكذلك الناعي، يُقالُ له: نَعيٌّ».

وقال الأَصمَعيُّ: «وإنَّما هو: يا نَعاءِ العَرَبَ، تأويلُها: انعَ العرَبَ»[2].

وقال **ابنُ الأثيرِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «في حَديثِ شَدَّاد بن أوسٍ «يا نَعايا العَرَب»، وفي روايةٍ: «يا نُعيانَ العَرَب».

يُقالُ: نَعى الميّتَ يَنعاهُ نَعيًا ونَعيًّا، إذا أذاعَ مَوتَهُ، وأخبَر به، وإذا ندَبَه.

قال الزَّمَخشَريُّ: «في «نَعايا» ثَلاثَةُ أوجُهٍ:

أَحَدُها: أَن يكونَ جَمعَ نَعِيّ، وهو المَصدَرُ، كَصَفيٍّ وصَفايا.

والثَّاني: أَن يكونَ اسمَ جَمعٍ، كَما جاءَ في أخيَّة: أَخايا.

والثَّالِثُ: أَن يكونَ جَمعَ نَعاءِ، التي هي اسمُ الفِعلِ، والمعنى: «يا نَعايا العَرَب

---

(١) كشف المشكل (٢/ ٢٥٤).

(٢) التوضيح (١٨/ ٢١٥).

جِئنَ؛ فهذا وقتُكنّ وزمانُكُنّ»، يُريدُ: أَنَّ العَرَبَ قد هَلكت، والنُّعيان مَصدَرٌ بمعنى النعى»[١].

وقيلَ: إنَّهُ جَمعُ ناعٍ، كَراعٍ ورُعيان.

والمَشهورُ في العَرَبيَّةِ: أَنَّ العَرَبَ كانوا إذا ماتَ منهم شريفٌ أو قُتِل بَعَثوا راكِبًا إلى القَبائِلِ يَنعاهُ إليهم، يقولُ: «نَعاءِ فُلانًا»، أو: «يا نَعاء العَرَب»، أَي: هَلك فُلانٌ، أو: هلكَت العَرَبُ بموت فُلانٍ.

فَـ«نَعاءِ» مَن نَعَيتُ، مِثل نَظارِ ودَراكِ، فقَولُهُ «نَعاءِ فلانًا» مَعناهُ: انع فلانًا، كَما تَقولُ: دَراكِ فلانًا، أَي: أدرِكه.

فَأَمَّا قَولُهُ: «**يا نَعاءِ العَرَب**»، مع حَرفِ النِداء: فالمنادى مَحذوفٌ، تَقديرُهُ: يا هذا، انعَ العَرَبَ، أو: يا هَؤُلاءِ، انعوا العَرَبَ بمَوتِ فُلانٍ»[٢].

قَولُهُ: «**فقال: أَنعى أَبا رافِعٍ تاجِرَ أَهلِ الحِجازِ**»: يعني: قال الناعيَةُ: «أَنعى أَبا رافِعٍ تاجِرَ أَهلِ الحِجازِ»

قال ابنُ الجَوزيّ: «**أَنعى أَبا رافِعٍ**»: أُخبرُ بمَوتِهِ، والنعيُ: الإخبار بالمَوتِ»[٣].

وقال الحافظُ: «كذا ثَبَتَ في الرِّواياتِ بفَتح العَينِ، قال ابنُ التينِ: «هي لُغَةٌ، والمَعروفُ: «انعوا».

والنعيُ: خَبَرُ المَوتِ، والِاسمُ الناعي»[٤].

قَولُهُ: «**فانطَلَقتُ إلى أَصحابي، فقُلتُ: النجاءَ؛ فقد قَتَلَ اللهُ أَبا رافِعٍ**»:

«**النجاءَ**»: **قال ابنُ الأثيرِ**: «أَي: انجوا بأنفُسِكم، وهو مصدرٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُضمَرٍ، أَي: انجوا النجاءَ»[٥].

---

(١) ينظر: الفائق في غريب الحديث (٤/ ٤).

(٢) النهاية (٥/ ٨٥-٨٦).

(٣) كشف المشكل (٢/ ٢٥٤).

(٤) الفتح (٧/ ٣٤٤).

(٥) النهاية (٥/ ٢٥).

وقال **النوَويُّ**: «النجاءَ»، ممدودٌ، أَي: انجوا النجاءَ، أوِ: اطلُبوا النجاءَ.

قال القاضي: «المَعروفُ في النجاءِ إذا أُفرِدَ المَدُّ، وحَكى أَبو زَيدٍ فيه القَصرَ أَيضًا، فإذا ما كَرَّروهُ فقالوا: «النجاءَ، النجاءَ» ففيه المَدُّ والقَصرُ مَعًا»[1].

وللبُخاريّ أَيضًا: «ثم أَتَيتُ أَصحابي أَحجُلُ، فقُلتُ: انطَلِقوا فبَشِّروا رسولَ اللهِ ﷺ، فإنِّي لا أَبرَحُ حتى أَسمع الناعيَةَ، فلما كان في وجهِ الصبحِ صَعِدَ الناعيةُ».

قال الحافظُ: «الحَجلُ: هو أَن يَرفَعَ رِجلًا ويَقِفَ على أُخرى منَ العَرَجِ، وقد يكونُ بالرِّجلَينِ مَعًا، إلا أَنَّهُ حينَئِذٍ يُسَمَّى قَفزًا، لا مَشيًا، ويُقالُ: حَجَلَ في مَشيِهِ، إذا مَشى مِثلَ المقَيَّدِ، أَي: قارَبَ خَطوَهُ.

وفي **حَديثِ عبدِ اللهِ بن أُنيسٍ**، **قال**: «وتَوَجَّهنا من خَيبَرَ، فكُنَّا نَكمُنُ النهارَ ونَسيرُ اللَّيلَ، وإذا كَمَنَّا بالنهارِ أَقعَدنا مِنَّا واحدًا يَحرُسُنا، فإذا رَأى شَيئًا يَخافُهُ أَشارَ إلَينا، فلما قَرُبنا منَ المَدينَةِ كانت نَوبَتي، فأَشَرتُ إليهم، فخرجوا سِراعًا، ثم لَحِقتُهُم، فدَخَلنا المَدينَةَ، فقالوا: ماذا رَأَيتَ؟ قُلتُ: ما رَأَيتُ شَيئًا، ولكن خَشيتُ أَن تَكونوا أعيَيتُم، فأَحبَبتُ أَن يَحمِلَكُمُ الفَزَعُ»[2].

قَولُهُ: «**فانتَهَيتُ إلى النبيِّ ﷺ فحَدَّثتُهُ، فقال: «ابسُط رِجلك»، فبَسَطتُ رِجلي فمَسَحَها، فكَأَنَّها لَم أَشتَكِها قَطُّ**»:

«**ابسُط رِجلك**»، أي: مُدَّها.

وعِندَ **البخاريّ أَيضًا**: «فَقُمتُ أَمشي ما بي قَلَبَةٌ، فأَدرَكتُ أَصحابي قَبلَ أَن يَأتوا النبيَّ ﷺ فبَشَّرتُهُ».

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٤٨).

(٢) الفتح (٧/ ٣٤٥)، وينظر: مسند أبي يعلى (٩٠٧)، تاريخ الطبري (٢/ ٥٧)، وتقدم أن حديث ابن أنيس هذا ضعيف الإسناد.

وعِندَ ابنِ إسحاقَ: «وحَمَلناهُ حتى نَأتيَ بِهِ مَنهَرًا[١] من عُيونِهِم، فنَدخُلَ فيه».

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان عبدُ اللهِ بن عَتيكٍ سَيِّءَ البَصَر، فوَقَع، فوُثِئَت رِجلُهُ[٢] وثأً شَديدًا، فحَملَه أَصحابُه، حتى أَتَوا مَنهَرًا من مَناهِرِهِم فدَخَلوا فيه، واستَتَروا، وخرجَ أهلُ الآطام[٣] لصياحِ امرَأَتِهِ، وأوقدوا النيرانَ في كُلِّ جِهَة، فلما يَئِسوا رجعوا»[٤].

وقال ابنُ سَعدٍ: «قالوا:... وخرجَ الحارِثُ أَبو زَينَبَ في ثَلاثَةِ آلافٍ في آثارِهِم يَطلُبونَهُم بالنِّيرانِ فلم يَرَوهُم، فرجعوا ومَكَثَ القَومُ يَومَينِ حتى سَكَنَ الطلَبُ، ثم خرجوا مُقبلينَ إلى المَدينَةِ، كُلُّهُم يَدَّعي قَتله، فقدِموا على رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «أَفلَحَتِ الوُجوهُ»، فقالوا: أَفلَحَ وجهُكَ يا رسولَ اللهِ، وأَخبَروهُ خَبَرَهُم»[٥].

وقَولُهُ: «فَقُمتُ أَمشي ما بي قَلَبَةٌ»:

قال الحافظُ: «قَلَبَةٌ»، أَي: عِلَّةٌ أَنقَلِبُ بها، وقال الفَرَّاءُ: «أَصلُ القِلاب -بكَسرِ القافِ- داءٌ يُصيبُ البَعيرَ، فيَموتُ من يَومِهِ، فقيلَ لِكُلِّ مَن سَلِمَ من عِلَّةٍ: «ما بِهِ قَلَبَةٌ»، أَي: ليست بِهِ عِلَّةٌ تُهلِكُهُ».

وقَولُهُ: «فَأَدرَكتُ أَصحابي قَبلَ أَن يَأتوا النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبَشَّرتُهُ» يُحمَلُ على أَنَّهُ لَمَّا سَقَطَ منَ الدَّرَجَةِ وقَعَ له جَميعُ ما تَقدَّمَ، لكنَّهُ من شِدَّةِ ما كان فيه منَ الاهتِمام بالأَمرِ ما أَحَسَّ بالأَلَمِ، وأُعينَ على المَشيِ أَوَّلًا، وعليه يَدُلُّ قَولُهُ: «ما بي قَلَبَةٌ»، ثم لَمَّا تَمادى عليه المَشيُ أَحَسَّ بالأَلَمِ، فحَمَله أَصحابُهُ كَما وقع في رواية ابنِ إسحاقَ، ثم لَمَّا أَتى النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسَحَ عليه، فزالَ عنه جَميعُ الأَلَمِ ببَرَكَتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٦].

---

(١) المنهر: خرق في الحصن نافذ، يدخل فيه الماء.

(٢) أي: أصابها وهن دون الخلع والكسر.

(٣) الحصون.

(٤) الدرر في اختصار المغازي والسير (ص١٨٤)، وينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٧٥).

(٥) الطبقات الكبرى (٢/ ٧٠).

(٦) الفتح (٧/ ٣٤٥).

ومن جُملَةِ ما في هذا الحَديثِ منَ الفوائِدِ:

* قَتلُ مَن أَعانَ على رسولِ اللهِ ﷺ بيَدِهِ، أو مالِهِ، أو لِسانِهِ.

* جَوازُ التجَسُّسِ على أَهلِ الحَرب، وتَطَلُّب غِرَّتِهم، والأَخذُ بالشِّدَّةِ في مُحارَبَةِ المشرِكينَ.

* جَوازُ تَعَرُّضِ القَليلِ منَ المسلمينَ للكَثيرِ منَ المشرِكينَ.

* تنافُسُ أهلِ الإيمانِ في الطاعَةِ، ونُصرَةِ الدِّينِ، وكَبتِ الأعداءِ، والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ.

* حُسنُ انتِقاءِ الأشخاصِ لتَنفيذِ المهِمَّات.

* استِهدافُ رُؤوسِ الكُفرِ من أولويَّاتِ المسلمينَ في جِهادِهم ضِدَّ الكُفَّارِ؛ لأنّ قَتلَ الرأسِ يَنفَرِطُ به العقدُ، ويَضعُف به جانبُ العَدوّ، ويُنزِل بهمُ الرُّعبَ والخوفَ.

قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

قال القُرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَحتَمِلُ أَن يكونَ المرادُ بأَئِمَّة الكُفرِ: مَن أَقدَمَ على نَكثِ العَهدِ والطعنِ في الدِّينِ يكونُ أَصلًا ورَأسًا في الكُفرِ، فهو من أَئِمَّةِ الكُفرِ على هذا.

ويَحتَمِلُ أَن يُعنى بهِ المتَقدِّمونَ والرُّؤَساءُ منهم، وأَنَّ قِتالهم قِتالٌ لِأَتباعِهِم، وأَنَّهُم لا حُرمَةَ لهم»[(١)].

وقال السعدي: «﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، أي: القادَةَ فيه، الرُّؤساءَ الطاعِنين في دينِ الرحمَنِ، الناصِرينَ لدينِ الشَّيطانِ، وخَصَّهُم بالذِّكرِ؛ لعِظَمِ جِنايَتِهِم، ولِأَنّ غيرَهم تَبَعٌ لهُم، وليَدُلَّ على أنَّ مَن طَعَنَ في الدِّينِ وتصَدَّى للرَّدِّ عليه، فإنَّهُ من أَئِمَّةِ الكُفرِ»[(٢)].

ولا شَكَّ أنَّ قَتلَ أبي رافِعٍ أذَلّ اليَهودَ وأقمعهم، وجعَلهم مخذولينَ مَشغولينَ بمُصابِهِم، وألقى في قُلوبِهِم الرُّعبَ.

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٨٤).

(٢) تفسير السعدي (ص٣٣٠).

* جُبنُ اليَهودِ وخَوَرُهم، فهُم أهلُ ذِلَّةٍ وقِلَّةٍ ومَهانَةٍ وضَعفٍ واستِكانةٍ، وإنَّما يَتَوَصَّلون إلى ما يُريدون بالمكائِدِ والحيَلِ والكَذِب والدَّسائِسِ والفِتَنِ ونَحوِ ذلك من خِصالِ الشَّرِّ.

* **في الحديثِ:** مِصداقُ قَولِ اللهِ تعالى عنهم: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، **قال ابنُ كَثيرٍ:** «يَعني: أنَّهُم من جُبنِهم وهَلَعِهِم لا يَقدِرونَ على مواجَهَةِ جَيشِ الإسلامِ بالمبارَزَةِ والمقابَلَةِ، بَل إمَّا في حُصونٍ أو من وراءِ جُدُرٍ، مُحاصَرينَ، فيُقاتِلونَ للدَّفعِ عنهم ضَرورَةً.

ثم قال ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾، أي: عَداوَتُهُم فيما بينهم شَديدَةٌ؛ ولِهذا قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، أي: تَراهُم مُجتَمِعينَ فتَحسَبُهُم مُؤتَلِفينَ، وهُم مُختَلِفونَ غايَةَ الاِختِلافِ»[1].

فكانوا يَتَّخِذونَ الحُصونَ، ويَجعَلون على الأبواب الأقفالَ، وليس لهم وليٌّ من دونِهم، وولايَتُهم أنفُسَهم ولايةُ شِقاقٍ وخِلافٍ، فتَراهُم مُجتَمِعينَ، فتَظُنّ أن قد جَمع بينهم الوِدادُ، وهُم في الحقيقةِ في غايةِ الاِختلافِ والعِنادِ.

* **وفي الحديثِ:** حُسنُ التَخطيطِ وإتقانُ العَمَلِ، ويَظهَرُ ذلك في إجادَةِ الإدارَةِ لهذا المَطلَب، فقد كانت هذه المَجموعةُ المَوَفَّقةُ في غايَةِ الفِطنَةِ والذَّكاءِ وحُسنِ التدبيرِ، مع اختيارِ العَدَدِ المناسب لتنفيذِ المهمَّة، والأشخاصِ المناسِبينَ، والتوقيتِ المناسِبَ، والحِكمَةِ في الدُّخولِ والخُروجِ، ومُراعاةِ الحَيطَةِ والحَذَرِ، حتى تَمَّ لهُم ما أرادوا، ورجعوا مُظَفَّرينَ.

* التزامُ الصحابةِ بأمرِ رسول اللهِ ﷺ في عَدَمِ قَتلَ المَرأَةِ، التي أوشَكَت أن تَكشِفَ أمرَهُم للناسِ، **ففي سياقِ ابنِ إسحاقَ:** «ولَمَّا صاحَت بنا امرَأَتُهُ، جَعَلَ الرجُلُ مِنَّا يَرفَعُ عليها سَيفَهُ، ثم يَذكُرُ نَهيَ رسولِ اللهِ ﷺ فيَكُفُّ يَدَهُ، ولَولا ذلك لَفَرَغنا منها بلَيلٍ».

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٤).

* عَدَمُ اليأسِ والإحباطِ، فالإخفاقُ قد يكون مرحَلةً من مراحِلِ النّجاحِ، فإذا حاوَلَ الإنسانُ فأخفَقَ فإنَّه لا يَيأَسُ منَ النجاحِ، ولكن يجعلُ من إخفاقِه دافِعًا يُقَوِّي عزيمتَه مَرَّةً ثانيَةً، **قال ابنُ عَتيكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَعَمَدتُ نحو الصوتِ فأَضرِبُهُ وصاحَ، فلم تُغنِ شَيئًا، ثم جِئتُ كَأَنِّي أُغيثُهُ، فقُلتُ: ما لك يا أَبا رافِعٍ؟ وغَيَّرتُ صَوتي، فقال: أَلا أُعجِبُكَ، لِأُمِّكَ الوَيلُ! دَخَلَ عَلَيَّ رجلٌ فضَرَبَني بالسيفِ، فعَمَدتُ له أَيضًا فأَضرِبُهُ أُخرى، فلم تُغنِ شَيئًا، فصاحَ وقامَ أَهلُهُ، ثم جِئتُ وغَيَّرتُ صَوتي كَهَيئَةِ المغيثِ، فإذا هو مُستَلقٍ على ظَهرِهِ، فأَضَعُ السيفَ في بَطنِهِ، ثم أَنكَفِئُ عليه، حتى سَمِعتُ صَوتَ العَظمِ».

* ضَعفُ السمعِ أو البَصَرِ أو حُصولُ عاهَةٍ في البَدَنِ لا يعني أنّ الإنسانَ قد صارَ بذلك مُعَطَّلًا لا غَناءَ به، فهذا ابنُ عَتيكٍ كان ضَعيفَ البَصَرِ، ومع ذلك قادَ السريَّة ونَفَّذَ المهمَّة باللَّيلِ، ولا شَكّ أنَّ الليلَ يَزيدُ البَصَرَ الكَليلَ ضَعفًا، ولكِن مع العزيمةِ الصادقةِ وقوّةِ الإيمانِ وحُسنِ التوَكُّلِ على اللهِ يَحصُل التوفيقُ، وتُكَلَّلُ الجُهودُ بالنّجاحِ والظَّفَرِ.

* **وفيه**: فَرَحُ المؤمنينَ بنَصرِ اللهِ، والبِشارَة بذلك.

* **وفيه**: أنَّ الحَربَ خَدعَةٌ[1]، وخاصَّةً مع اليهود الذين لا عَهدَ لهم ولا ذِمَّةَ.

* **وفيه**: العَمَلُ بالقَرائِنِ، فقدِ استَدلَّ ابنُ عَتيكٍ على مَوقِعِ أبي رافِعٍ بقَرينَةِ صَوتِه، واستَدلَّ بصَوتِ الناعي على أنّ الأمرَ قد تمَّ، وأنَّ القَومَ تَيَقَّنوا مَوتَ ابنِ أبي الحُقَيقِ، فلا يَحتاجُ الأمرُ بعدَ ذلك إلى مَزيدِ تأَكُّدٍ، ولا يُقالُ: إنَّ الناعي يَهوديٌّ، واليَهود من أكذَبِ الخَلقِ؛ فإنَّهُم لا يَكذِبون في مِثلِ ذلك.

---

(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحرب خدعة**»، رواه البخاري (٣٠٢٨)، ومسلم (١٧٤٠)، وقال النووي: «فيها ثلاث لغات مشهورات،اتفقوا على أن أفصحهن: «خدعة»، بفتح الخاء وإسكان الدال، والثانية: بضم الخاء وإسكان الدال، والثالثة: بضم الخاء وفتح الدال، واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب، وكيف أمكن الخداع، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان، فلا يحل». شرح النووي على مسلم (١٢/ ٤٥).

* وفيه: اعتمادُ الصبرِ على ما يلقاه الإنسانُ من الأذى والضُّرِّ في سَبيلِ اللهِ، كَما صَبَرَ ابنُ عَتيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ما أصابَ رِجلَه من الضُّرّ حتى احتَمَله أصحابُه، ولم يَفُتّ ذلك في عَضُدِه، واستَمَرّ في أمرِه حتى تَيَقَّنَ مَقتَلَ الخَبيثِ، فكان في فرحِهِ بظَفَرِه ما أنساهُ ما أصابَه.

وعن جُندَب بن سُفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بينَما النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمشي إذ أَصابَهُ حَجَرٌ، فعَثَرَ، فدَميَت إصبَعُهُ، فقال:

«**هَل أَنتِ إلا إصبَعٌ دَميتِ... وفي سَبيلِ اللهِ ما لَقيتِ**»(١).

«أَي: ما أَنتِ يا أُصبُعُ مَوصوفَةً بشيءٍ منَ الأَشياءِ إلا بأَن دَميتِ، كَأَنَّها لَمَّا تَجَرَّحَت وتَوَجَّعَت خاطَبَها على سَبيلِ الاِستِعارَةِ أوِ الحقيقَةِ؛ مُسَلِّيًا لها، والمعنى: هَوِّني على نَفسِكِ؛ فإنَّكِ ما ابتُليتِ بشيءٍ منَ الهَلاكِ والقَطعِ، سِوى أَنَّكِ دَميتِ، ولَم يَكُن ذلك هَدَرًا، بَل كان في سَبيلِ اللهِ ورِضاهُ، ولم يكن في سَبيلِ غيرِهِ، فلا يكونُ ضائِعًا، فافرَحي بِهِ»(٢).

* وفي **الحَديثِ**: مُعجِزَةٌ ظاهِرَةٌ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ مَسَحَ على رِجلِ عبد اللهِ بن عَتيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبَرأَت.

* وفيه: أنَّ تَعَلُّمَ لُغَةِ الكُفَّارِ من الوظائفِ التي يَنبَغي السعيُ في تَحصيلِها؛ لِما يَترَتَّبُ عليها من المَصالِحِ في الدَّعوَةِ والجِهادِ، وغيرِ ذلك.

فَقد تقدّمَ عِندَ ابنِ سَعدٍ: «فلما هَدَأَتِ الرِّجلُ جاءوا إلى مَنزِلِهِ، فصَعِدوا دَرَجَةً له، وقدموا عبدَ اللهِ بن عَتيكٍ؛ لِأَنَّهُ كان يَرطُنُ باليَهوديَّةِ، فاستَفتَحَ وقال: جِئتُ أَبا رافِعٍ بهَديَّةٍ، ففَتَحَت له امرَأَتُهُ...».

وعَنِ الأَعمَشِ، عن ثابتِ بن عُبَيدٍ، عَنِ زَيدِ بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتُحسِنُ السُّريانيَّةَ؟**»، قُلتُ: لا، قال: «**فتَعَلَّمها؛ فإنَّهُ تَأتينا كُتُبٌ**».

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٦)، ومسلم (١٧٩٦).

(٢) مرقاة المفاتيح (٧/ ٣٠١٤).

قال: فتعَلَّمتُها في سَبعةَ عَشَرَ يومًا.

قال الأَعمَشُ: «كانت تَأتيهِ كُتُبٌ لا يَشتَهي أَن يَطَّلِعَ عليها إلا مَن يَثِقُ بهِ»(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَمَرَني رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن أَتعَلَّمَ له كِتاب يَهودَ، قال: «**إِنِّي -واللهِ- ما آمَنُ يَهودَ على كِتابٍ**».

قال: «فَما مَرَّ بي نِصفُ شَهرٍ حتى تَعَلَّمتُهُ له، فلما تَعَلَّمتُهُ كان إذا كَتَبَ إلى يَهودَ كَتَبتُ إليهم، وإذا كَتَبوا إليه قَرَأتُ له كِتابَهُم»(٢).

* وفي **الحَديثِ**: تَأويلُ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقَولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وأنَّ الإنسانَ يَتوَكَّلُ على اللهِ، ويَأخُذُ بالأسباب دونَ أن يَتعَلَّق قَلبُه بها؛ إذ لَولا نُصرةُ اللهِ وعَونُه وتَوفيقُه لَمَا تَمَّ النصرُ، ولَمَا حَصَلَ الظَّفَرُ.

* فِطنَةُ عَبد اللهِ بن عَتيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذَكاؤُه، وقوَّةُ بَديهَتِه، وحُضورُ عَقلِه، مع كَونِه في مَعاقِلِ اليَهودِ وحُصونِهم، فلَو أنَّهم فطِنوا له لَقَضَوا عليه.

* وفيه: أَنَّهُ لا يَرُدُّ عن أمرِ اللهِ شيءٌ، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، فقدِ استطاعَ الصحابَةُ -بتَوفيقِ اللهِ- أن يَخترِقوا الحُصونَ، ويَفتَحوا الأبوابَ، ويَدخُلوا البُيوتَ، ويُغافِلوا الحُرَّاسَ، ويَصِلوا إلى بَيتِ الرجُلِ، ويَدخُلوا غُرفَتَه، ثم يَقتُلوه، ويَرجِعوا إلى المَدينةِ مُظَفَّرين بحَمدِ اللهِ.

* وفي **الحَديثِ**: ما كان عليه المجتَمَعُ المَدَنيُّ كلُّه من القيامِ بنُصرةِ اللهِ ورسولِه.

* بقَتل ابنِ أبي الحُقَيقِ، ومن قَبلِه كَعب بن الأشرَفِ، وما آلَ إليهِ أمرُ اليَهودِ من الخِزي

---

(١) رواه أحمد (٢١٥٨٧)، وابن حبان في صحيحه (٧١٣٦)، والسياق له، وصححه الألباني في الصحيحة (١/ ٣٦٥).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤٥)، والترمذي (٢٧١٥)، وصححه، وصححه الألباني.

والهَوانِ بعدَ الخَندقِ، عَلِمَ اليَهودُ أَنَّهُ لا طاقةَ لهُم بمحمدٍ ﷺ وأصحابه، وأنَّه لَم يَعُد لَدَيهِم ما يُبيِّتونَه ويَمكُرونَ به، فكُبتوا كَما كُبتَ الذين من قَبلِهم، وانقَمَعوا واستكانوا أَذِلَّةً في بُيوتِهم.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **عن هذه الأمّةِ الخَبيثَةِ**: «**الأُمَّةُ الغَضَبيَّةُ هُم اليَهودُ**: أَهلُ الكَذِب والبَهتِ، والغَدرِ والمَكرِ والحيَلِ، قَتَلَةُ الأَنبياءِ، وأَكَلَةُ السُّحتِ والرِّبا والرِّشا، أَخبَثُ الأُمَمِ طَويَّةً، وأَرداهُم سَجيَّةً، وأَبعَدُهُم منَ الرحمَةِ، وأَقرَبُهُم منَ النِّقمَةِ، عادَتُهُمُ البَغضاءُ، ودينُهُمُ العَداوَةُ والشَّحناءُ، بَيتُ السِّحرِ والكَذِب والحيَلِ، لا يَرَونَ لِمَن خالَفَهُم في كُفرِهِم وتَكذيبِهِم -ولَو نبيًّا- حُرمَةً، ولا يَرقُبونَ في مُؤمِنٍ إلا ولا ذِمَّةً، ولا لِمَن وافَقَهُم عِندَهُم حقٌّ ولا شَفَقَةٌ، ولا لِمَن شارَكَهُم عِندَهُم عَدلٌ ولا نَصَفَةٌ، ولا لِمَن خالَطَهُم طُمَأنينَةٌ ولا أَمنَةٌ، ولا لِمَنِ استَعمَلهم عِندَهُم نَصيحَةٌ، بَل أَخبَثُهُم أَعقَلُهُم، وأَصدَقُهُم أَغَشُّهُم، وسَليمُ الناحيَةِ -وحاشا أَن يوجَدَ فيهم وبينهم- ليس بيَهوديٍّ على الحقيقَةِ، أَضيَقُ الخَلقِ صُدورًا، وأَظلَمُهُم بُيوتًا، وأَنتَنُهُم أَفنيَةً، وأوحَشُهُم سِحنَةً، تَحيَّتُهُم لَعنَةٌ، ولِقاؤُهُم طيرَةٌ، شِعارُهُمُ الغَضَبُ، ودِثارُهُمُ المَقتُ»[1].



(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (١/ ٢٢٧).